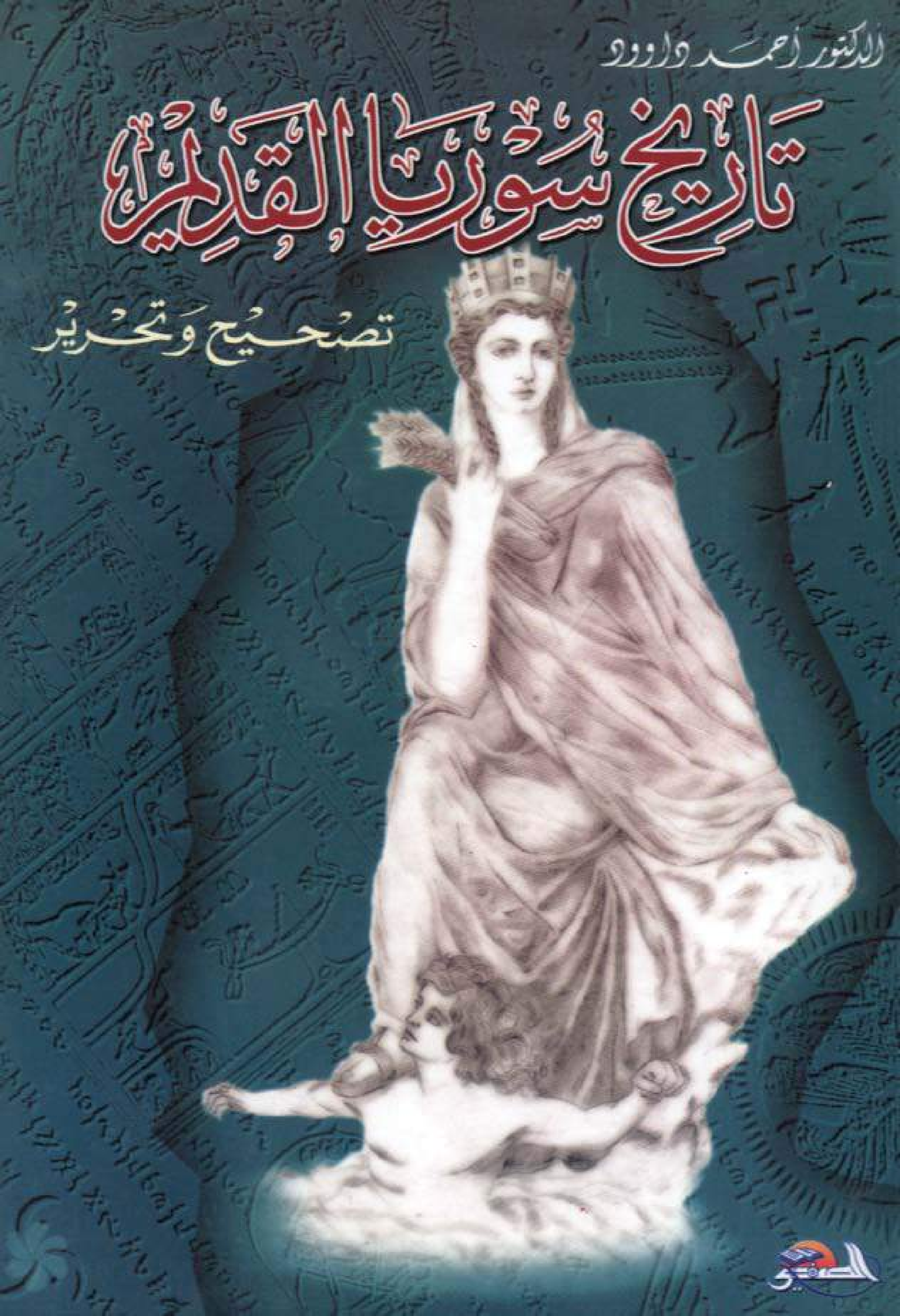


الدكتور أحمد داوود
تاريخ سوريا القديم
تصحيح وتحرير



تاريخ سوريا القديم

« تصحيح وتحرير »

صورة الغلاف

تمثال عشتار أنطاكية ونهر العاصي

لقد مثل الفنان السوري نهر العاصي بصورة شباب متمرد مفتول العضلات ، يرفض أن يتوجه إلى البحر ، فأرغمته عشتار على ذلك بعد أن داست على كتفه لتنقذ الأرض الزراعية من أن تتحول إلى مستنقعات .

الطبعة الثالثة
منشورات دار الصفدي
طباعة . نشر . توزيع
دمشق ـ شارع سعدالله الجابري ـ مقابل البريد
ص.ب ٣٤٧٧٦ هاتف ٢٢١٨٠١٦ فاكس ٢٢٣٥٤٤٤
Emial : Alsafady@scs-net.org

الدكتور أحمد داوود

تاريخ سوريا القديم

« تصحيح وتحرير »



AHMAD DAOUD

THE ANCIENT HISTORY OF SYRIA

«Correction & liberation»



إلى روح فيلون الجبيلي

إن صيحاتك في وجوه مزوري تاريخ وطنك

منذ ألفي سنة بلغت أسماعنا ،

ولن نتركها تذهب هدراً .

إننا نعيد الألق إلى وجه هذا الوطن

الخالد .

أحمد داوود

((إن على كل إنسان متمدن في العالم

أن يقول : إن لي وطنين

وطني الذي أعيش فيه .

وسوريا))

أندريه بارو

مدير متحف اللوفر سابقاً

مقدمة الطبعة الثالثة

حين دفعت هذا الكتاب إلى المطبعة لأول مرة عام 1985 كنت واعياً مسبقاً لحجم التحدي وخطورة المهمة . فالتاريخ العربي الحضاري القديم كومة من أنقاض هرم كبير ، سرقت خزائنه ، وهرّبت نفائسه ، وقطعت أوصاله تقطيعاً بلغت حد التفتيت ، ثم ألصقت كل قطعة منه بقبيلة همجية مجاورة ، أو بشعب لم يكن قد امتلك وجوداً حقيقياً بعد على مسرح التاريخ أو الحضارة . ونتيجة لذلك بقي الوجود العربي في الأرض العربية منحصراً ببعض القبائل والعشائر البدوية المتخلفة في صحراء شبه جزيرة العرب ، و ألغي اسم " سوريا " في التاريخ القديم كله لتحّل محلها عشائر التوراة البدوية الممعنة في تخلفها ، وجرى تغييب الهوية العربية عن كل الإنجازات الحضارية الرائعة في سوريا القديمة ووادي النيل .

إن هذه العملية الرهيبة من التزوير والتفتيت المعتمد في كتابة تاريخنا العربي القديم على أيدي خصومه هي التي ظلت سائدة في الغرب بدءاً مما دعي بـ " عصر النهضة " إلى اليوم ، وقد أسهم العرب أنفسهم في ترسيخها حينما ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا متلقين وناقلين ، فصاروا امتداداً للآخر ولتزوير هذا الآخر طيلة القرون الخمسة المنصرمة .

إن هذه الظاهرة هي التي أخذت تثير غضب كثير من الباحثين المنصفين في الغرب نفسه حيث العقل الآن فاعل ، و لم تثر ، للأسف ، حمية نقله التاريخ من " الأساتذة " العرب حيث العقل الآن معطل . إنها الظاهرة نفسها التي جعلت باحثاً مثل الفرنسي بيير روسي يكتب قائلاً :

" إن فن التفتيت قد ذهب بعيداً جداً بحيث أن الحضارات قد انتهت بالتقطيع تحت مجهرنا القاتل إلى فتات ، لأنه في الوقت نفسه الذي كان فيه سيرنا التحليلي يتقدم بسرعة كان ميلنا التركيبي يتراجع ، ذلك التركيب الذي لا يمكن بدونه أن يكون هناك تاريخ ممكن ، وإن من غير الممكن تصوره وإدراكه بالنسبة لنقادنا أن يحكموا على تاريخ الشرق والغرب انطلاقاً من هذا البلد المنعزل أو ذاك ، أو اعتماداً على هذا الحادث

المعترض أو ذاك ، ولكن انطلاقاً من وحـــدة ثقافية واجتماعية تظـــهر فيـــها الوثـــائق الالتحام الذي لا يناقش . إن الحدود التي رُسمت عسكرياً أو سياسياً حسب مقتضيـــات آراء الأساتذة أو علمـــاء الآثار لا يتجاوز في الحقيقة رغباهم ، وإننا عندمـــا نؤكد من خلال نظرة شـــاملة أن الشرق يتعين من خلال ثقافة عربية في محيط عربي فإننا لا نخترع شيئاً . إننا لا نفعل شيئاً جديداً سوى جمع وإحكام العناصر الموطدة والراسخة ، لكنـــها مطموسة حتى الآن بإرادة التحليل الزائد عن كل حد ، تلك الإرادة نفسها هي المسؤولة الأولى عن نفي عالمنا الحقيقي ...

والمذنب الثاني هو التعليم الجامعي المضلِّل منذ النهضة ، والذي كان وحـــده لصالح أثينا وروما ... فمنذ القرن الخامس عشر توقفت البلدان الأوروبية عن الاهتمام بالعرب لكي ينهاروا في الرمل ، ولكي ينسحبوا شيئاً فشيئاً إلى حيث يغدون من قبل الغرب في القرن العشرين مختصين بالجمل والقبيلة والثأر والبداوة ...[1]

إنه هوسنا المحب للخصام الذي أخذ يمزق الشـــعب إلى شـــعوب أقربـــاء كـــالمؤابين والعمونييـــن والعموريين والكنعانيين والآراميين والسوريين ...الخ ......ولماذا ؟ لأننـــا معنيون بأن نميز فيهم خصوصيـــات عرقيـــة أو طائفيـــة تجبرنا على أن نضـــع بينـــها العبرانيين ، وذلك لكي نقدم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم ... إننا نلمس هنـــا سجلاً يحمل أفدح أنواع التزوير والتخريب ، وليس هناك أصعب من تصحيح مقـــولات أضحت مسلمات في مسيرتنا العقلية حصينة منيعة ضد الحقائق " [2]

إنها الصعوبة نفسها التي عانيتها في هذا الكتاب الذي كان عليه منـــذ البدايـــة ، ليـــس التصدي لكل الركام الهائل من التزوير فحسب ، بل وكان عليه أيضاً أن يعيد مخطـــط الهرم المتهدم بعد أن ضاع بين الأنقاض ، ويعيد الخطوط الرئيسية في هيكليته على أساسه الراسخ من جديد .

- فقد دحض هذا الكتاب نهائياً البدعـــة التزويريـــة حول ما دعي بالساميـــة

---

(1) بيير روسي: مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة فريد جحا، إصدار وزارة التعليم العالي ، دمشق ، 1980، ص 30– 31 .
(2) المرجع نفسه ، ص 65 – 66 .

وبالهجرات السامية وأسقطها وأثبت بالبرهان العلمي القاطع أن حركة الشعب العربي لم تكن سوى جولان الشعب الواحد في أرضه الواحدة .

- وأسقط نهائياً البدعة التزويرية حول الدولة العشيرة ودولة المدينة ، وأثبت بالبرهان القاطع أن الدولة العربية السورية كانت أول دولة عرفها التاريخ البشري بالمفهوم السياسي والحقوقي والإداري والاقتصادي والثقافي والعسكري ، وكانت حدودها منذ الألف الرابع قبل الميلاد تمتد من البحر الأعلى (البحر الأسود) إلى البحر الأسفل (بحر العرب) ومن وادي السند شرقاً إلى جزر اليونان غرباً طيلة فترة العصور التي أطلق عليها المؤرخون اسم الأكادي والبابلي والأشوري نسبة إلى عاصمة تلك الدولة .

يقول ول ديورانت بهذا الخصوص :

" إن حكومة أشور بانيبال أقامت في غربي آسيا حكماً كفل لهذا الإقليم قسطاً من النظام والرخاء أكبر مما استمتع به هذا الجزء من الأرض فيما تم قبل ذلك العهد ذلك أن حكومة أشور بانيبال التي كانت تضم تحت جناحيها بلاد أشور ، وبابل ، وأرمينيا وميديا وفلسطين وسوريا وفينيقيا وسومر وعيلام ومصر كانت بلا جدال أوسع نظام إداري شهده عالم البحر المتوسط أو عالم الشرق الأدنى حتى ذلك العهد و لم يدان أشور بانيبال فيه إلا حمورابي " (1)

ويؤكد جيمس بريستد ذلك بالقول :

" وفي سنة 700 ق.م كانت آشور تضم إلى أملاكها جميع أراضي الهلال الخصيب ، و لم تكتف بذلك بل وسعت نطاق سلطانها حتى البلاد الجبلية الشمالية وما وراءها إلى مدى بعيد ، وبفتحها لمصر بسطت حمايتها على الجهة الغربية من وادي النيل الأسفل .. وصارت أعظم مملكة رآها العالم منذ وجد ، ولم تكن دولة في العالم تجرؤ على مناوأتها " (2)

---

(1) ول ديورانت قصة الحضارة ، المجلد الأول ، ص272

(2) جيمس بريستد ، العصور القديمة ، ترجمة داود قربان ، ص 166

• وأسقطنا في هذا الكتاب ما أمكن إسقاطه من الخرافات التي حيكت عبر القرون حول عشيرة بني إسـرائيل ودولتها المزعومة في التاريخ القديم ، علماً أن اليهودية اليوم دين ، وليست نسباً أو عرقاً أو جنساً أو أرضاً أو شعباً أو أمةً ، وبالتالي فليس ليهود العالم اليوم أية علاقة نسبية بسام بن نوح ، أو بإبراهيم ، أو بيعقوب (الـذي هـو إسرائيل) بله بالأرض التي عاش عليها أولئك الأباء العرب الأقدمون أيا كانت وأينما كانت . إن الكيان الصهيوني في الأرض العربيـة هو اسـتعمار اسـتيطاني ، بل هـو الاستعمار الاستيطاني الوحيد الذي مازال قائماً إلى اليوم، وقد نهض على ساقين : تزوير التاريخ ، والإرهاب المدعم بإرهاب القوى الاستعمارية من الخارج .

إن دوائر الاستعمار الغربية والصهيونية ،إدراكاً منها ما للتـاريخ مـن دور توحيـدي ونضالي في أية لحظـة ينحو فيها الجدل منحى الصراع ، فقـد عمـدت إلى تسـديد سهامها نحو صدر التاريخ العربي القومي باذلة كل ما تستطيع في سبيل محـو الذاكـرة وتشويه الهوية من خلال تشويه صورة الأمة الثقافية والحضارية في التاريخ . لهذا فقـد عمدت إلى تقطيع الجسد التاريخي للأمة بكل عروقه البشرية وأنساغه الثقافية والحضاريـة أفقياً وعمودياً . فعلى الصعيد الأفقي تم بتر العربي عن ماضيه الحضاري العريق وصار مـا يدعى بـ " جاهلية ما قبل الإسلام " هو بداية هذا التاريخ .

والنتيجة كانت ارتباط الوجود الحضاري العربي بالفترة الإسلاميـة فقط ، وبالتالي فقـد صار العرب جماعات من البدو ، تسلطوا على حضارات الشعوب الأخـرى كـالفرس واليونان والرومان ، فكانوا ناقلين للحضارة لا مبدعين لها . وصارت تسمية " الحضارة الإسلامية " هي السائد عند العرب أنفسهم وفي الخارج . وإن سقوط المثقفين العرب في هذا الفخ كانت له نتائج خطيرة ومدمرة على الواقع العربي الثقافي والسياسي نذكر منها:

إن بتر التاريخ العربي عن عصور ما قبل الإسلام ألغى الوجود العربي الثقافي والحضـاري بكل كثافته الكمية والنوعية والمشهودة آثارياً والمعروفـة كتابياً لعدة آلاف من السـنين في كل من سوريا الطبيعية ووادي النيل ، مما فتح الباب واسـعاً أمام كل مدّع بالأرض وبالثقافة معاً ، وترك الساحة خالية أمام التزوير الصهيوني الذي طمس الهويـة العربية في

المشرق العربي القديم ، وألغى اسم سوريا من التاريخ القديم كله ، لتحل محله عشائر التوراة البدوية المتخلفة والتي لا ذكر لها خارج مدونات التوراة .

إن الحديث عن حضارة إسلامية يخلق الذريعة للحديث عن حضارة مسيحية وأخرى يهودية ، علماً أن الدين لم يكن في يوم من الأيام غير واحد من مكونات الثقافة والحضارة وليس كلها.وإن هذا من شأنه أن يخلق بدوره غطاءً دينياً زائفاً لطبيعة الصراع الدائر اليوم بين المشروع العربي النهضوي التحرري من جهة وبين المشروع الإمبريالي الصهيوني من جهة أخرى .

وإن هذا أدى أيضاً إلى ظاهرة اصطناعية أخرى تجلّت في الانقسام العمودي ما بين العروبة والإسلام فكراً وثقافةً وحضارة وبالتالي انتماء وهوية ، والتي لعبت فيها وتلعب الشعوبية دوراً كبيراً .

إن التاريخ هو اشدّ العلوم التصاقاً بالسياسة . وإن التاريخ لا ينفصل عن الجغرافيا ، وإن الصراع الدائر اليوم مع العدو الصهيوني هو صراع في التاريخ وعلى التاريخ والجغرافيا ، ومن لا يعرف تاريخه لن يعرف كيف يدافع عن جغرافيته .

وإن استسلام النخبة المثقفة من معظم المثقفين العرب لهذا العدوان على التاريخ ، وتقاعسهم عن دراسة التاريخ الصحيح لأمتهم وحمايته والدفاع عنه جعلهم امتداداً للخارج في الداخل يرسخون التاريخ المزور في المؤسسات الثقافية والإعلامية والتعليمية ، ومن ثم في أذهان الناشئة جيلاً بعد جيل .

إن انقطاع المثقف عن معرفة الماضي لأمته أفقده المصداقية في الراهن ، لأن جهله بتاريخية الراهن أفقده الفعل الاستراتيجي فيه. إنه المثقف المأزوم الذي يندب هويته الضائعة دون أن يكدّ في البحث عنها واسترجاعها من أجل تفعيلها واستيلادها في الراهن والمقبل .

واليوم ، إذ يكثر الحديث عن حوار الحضارات أو صراعها ، لن يكون مهماً هذا الخوض اللانهائي في المفاهيم من قبل المثقف العربي ، حتى صارت تبدو هذه المفاهيم وكأنما هي ساحته الوحيدة. ومعروف أن المفاهيم هي أدوات ثقافية فقط وليست ثقافة في حد ذاتها ومن ينتج الثقافة ينتج المفاهيم معها . أما المثقف العربي ، فهو بجهله لتاريخه الصحيح ،

واعتماده الدائم على تعريف الآخر الخارج به ، فقد تحـــــول إلى جـــزء مــــن الواقـــع الاستهلاكي السائد ، إنه مستورد للثقافة وليس منتجاً لها . وليس أدل على ذلك مـــــن ظهور كوكبات لامعة من المثقفين والباحثين المنصفين في الغرب نفسه الذين أخذوا علـى عاتقهم مهمة التصدي لكل ذلك التزوير الحاصل في التاريخ العربي ،ولكل ذلك التشـويه لصورة العربي .

و لم يقفوا عند حدّ الشجب والاستنكار ، بل بادروا إلى تصحيح التاريخ المزور المتداول ، وأصدروا الكثير من الكتب في هذا المجال نذكر منهم : غوستاف لوبون ، سيديو ، بيير روسي ، جان غوملیه ، لوسيان لوكليز ، بريس دافين ، جاك روبســـلر ، مـــاكس فانتاجو ، جورج مارسيه من فرنسا ، وريتشارد إيتنكـــهاوزن ، وســـيغريد هونكـــه ، وســـودهوف ، وبروكلمان من ألمانيا ، وبوتلر وفارمر وبراون وجورج ساتورن مـــــن بريطانيا وغيرهم الكثير ......

بينما نـــرى في المقابل كيف أن المثقفين العرب ، في معظمهم ، وكأنما فقدوا كل الثقـــة بأنفسهم ، ظلـــوا ينتظرون الوقت الذي يتم فيه التصحيح كاملاً في الخارج ، ثم يجـــري استيراده من هذا الخـــارج ، فيصبح تاريخاً جديراً بالثقـــة ، عندهـــا فقـــط يمكـــن أن يجشموا أنفسهم عناء نسخه وتقليده .

إن نظرة واحدة إلى المؤسسات الثقافية ومديريات الآثار والمتاحف وغيرها كفيلة بـــــأن تعّرفنا على فداحـــة الواقـــع الثقافي وبؤس مؤسساته الذي يكاد يدمر ما تبقى من نبض التاريخ في عروق الأمة .

د. احمد داوود

دمشق ــ 22 أيلول 2002

مقدمة الطبعة الثانية

في الوقت الذي يقر فيــه كثير من المؤرخين والباحثين المنصفين في الغــرب بان تــاريخ العرب هو تاريخ التمدن البشري على هذا الكوكب نجد أن هذا التاريخ تعرض لضروب من التشويــه والتقزيم والتزوير على أيدي خصومه من استشراقيين استعماريين وصهاينة ومغرضين ما لم يتعرض لمثله تاريخ أي شعب من الشعوب .

ولقد أسهم العرب أنفسهم على مدى هذين القرنين في عملية ترسيخ ذلك التزوير بطرق مختلفة نذكر منها :

1. فهم لم يبحثوا في هذا التاريخ ، و لم ينشئوا المؤسسات الــتي تضطلــع بــدور الكشف عن الآثار ودراستها ، بل تخلوا عن هذا الدور بكاملــه إلى المؤسسات وبعثات الاستكشاف والدراسة الأجنبية التي تشكلت أساسا ، في معظمها ، لتحقيــق أغــراض سياسية استعمارية تهدف إلى إلغاء الهوية القومية للمكتشفات ، وطمس الطابع العــربي الأصيل لحضارة المنطقة منذ آلاف السنين .

2. لقد عمد بعض العرب إلى التنكر لتاريخ الوطن العربي قبل الإسلام بحجــة انــه تراث وثني ، وصار تاريخ العــرب يبدأ من عرب ما دعي بــ" الجاهليــة " مما رتــب آثارا جد فادحــة : فقد صارت كلمة " عربي " مرادفة لكلمــة " بدوي " وطمست الهوية الحضارية لإنجازات الشعب العربي على أرضه على مدى اثني عشر ألف عام قبــل الإسلام والمسيحية ، وألصقت بأقوام غربــاء عن المنطقة لم يكونــوا قد تجاوزوا طــور الهمجية وسكنى الكهوف وأكل لحوم البشر ، وأصبح ذلك التاريخ نهبا لكــل طامع أو مدع من الخارج كما أضحى حقلا مشاعــا لأيدي العابثين والمزورين ، وأصبح العرب غزاة في أرضهم يتساوى حقهم فيها مع حق أي غاز آخر ، وكانت محصلة ذلك كله أن تحول الوطن العربي إلى أشلاء مبعثرة بعد أن مزقت وحدته التي هي الطــابع الحقيقــي الأصيل لوجوده منذ الزمن الموغل في القدم .

3. إن جميع دول العالم تنظر إلى تاريخها القومي نظرتها إلى أمنها القومي ، والعرب هم اليوم الوحيدون في هذا العالم الذين يرسلون أبناءهم إلى خصومهم والطامعين فيهم ليتعلموا على أيديهم تاريخهم . لقد جعلوا ، جراء ذلك ، من أنفسهم وسطاء دون أجرة لنقل كل ما يصنع من تزوير إلى الداخل ، فيرسخونه عن طريق التعليم في أذهان أبناء شعبهم وأمتهم جيلا بعد جيل ، وتحولت مؤسسات التعليم والثقافة والسياحة في معظمها في الوطن العربي إلى امتدادات للخارج تمسك بعقول الناشئة لتجمدها عند الحدود المرسومة لها وتحبسها ضمن الأطر التي أعدت لها بإحكام وتمنعها من الحركة أو الفعل .

إننا في هذا الكتاب نعيد لململة أشلاء الهيكل العظمي المبعثرة لتاريخنا العربي القديم منطلقين من إيماننا الراسخ بوحدة الشعب العربي أرضا ولغة وسكانا وثقافة وتراثا وحضارة منذ الزمن الموغل في القدم . وقد اعتمدنا في ذلك كله منهجا علميا قائما على الأسس والمبادئ والمنطلقات التالية :

1) لما كان التاريخ في أبسط تعريف له ، سجلا لنشاط الإنسان المادي والروحي معا ، فإنه بالتالي يتناول الإنسان المجتمعي في تطوره ضمن شروط وجوده الطبيعية في تطورها. إنه الفكر والفن واللغة والاقتصاد والسياسة والدين والإنتاج وأدواته ، إنه الطبيعة والجغرافيا والمناخ في علاقتها التبادلية الشمولية والجزئية مع هذا الإنسان المجتمعي أو ذاك في هذه المرحلة التاريخية أو تلك من الزمن ، إنه العلم الموسوعي الشمولي الوحيد الذي تناول الإنسان سيرورة وصيرورة ، فعلا وانفعالا في الزمان والمكان .

2) بناء على هذا فقد اعتمدنا كل العلوم المساعدة لعلم التاريخ في التحقق من صحة وثيقة أو حدث أو قول أو فرضية. فمن المعلوم أن الوثيقة أو الأثر ليسا هما التاريخ ، بل على المؤرخ أو الباحث أن يضع كلا منهما على محك العلوم المساعدة ليستنبط منها المادة التاريخية في إطار حدوثها الموضوعي الصحيح . وهذه العلوم المساعدة المعتمدة هي بالدرجة الأولى :

علم الآثار ، علم اللغات أو الألسنيات ، علم المنطق بكل فروعه ، علم الجغرافيا

والمناخ ، بل ومنجزات العلوم التطبيقية الأخرى .

3) لقد عمدنا إلى استعراض بعض أو كل ما قيل حول هذا الحدث أو هذا الموضوع أو ذاك ، وأجرينا المحاكمة على محك العلوم المساعدة الأخرى لعلم التاريخ ، وكانت النتائج مذهلة حينما رأينا كيف تتهاوى كل تلك الأكوام المتراكمة من التزوير ليعود إلينا تاريخنا بحقيقته الناصعة ولوجهه العربي الأصيل .

وكان من بين أهم هذه النتائج :

- كشف الكثير من مواقع التزوير الاستشراقي الاستعماري أو الصهيوني وإسقاطها وإعادة الألق إلى الحقيقة التاريخية الحضارية لشعبنا العربي .
- الكشف عن وحدة السكان والأرض واللغة والحضارة والتراث منذ عدة آلاف من السنين قبل ميلاد المسيح .
- إسقاط الكثير من الفرضيات أو النظريات المتهورة والمغرضة والمناقضة للعلم والحقيقة مثل ما دعي بـ" النظرية السامية " و " الهجرات السامية " وأثبتنا أن الأمر في حقيقته لم يكن غير جولان أبناء الشعب الواحد في أرضه الواحدة .
- لقد أسقطنا من الحساب ومن التعامل كل تلك التسميات المغرضة التي لا تمت إلى روح العلم والموضوعية بأية صلة ، وكشفنا الأغراض التجزيئية التي كانت ترمي إليها .

ولابد لي من الإشارة هنا إلى أنني حينما دفعت بهذا الكتاب للطبعة الأولى في بداية عام 1985 كنت أحس بفداحة وبحجم ذلك التزوير الذي ألم بتاريخنا حتى كاد يغيبه عن الوجود ، كما كنت أدرك استحالة إمكانية إسقاط كل ذلك التزوير وتصحيحه في كتاب ، وأشرت إلى ذلك منبها القارئ إلى أنني سوف أتعامل مع الكثير من المقولات والتسميات والمعلومات المتداولة والشروحات كما هي من أجل التمكن من لملمة ما أمكن من الأجزاء المبعثرة وإعادة رسمها ضمن مواضعها الحقيقية بحيث تكون بمثابة المخطط الحقيقي والأصيل للعمارة الذي لا بد من إعادة بنائها من جديد .

واليوم وبعد أن أصدرت الكتابين الثاني والثالث من السلسلة وبرزت جلية للعيان ، من

خلالهما، صورة وملامح البناء ، أو ما سيكون عليه ، فقد كان لابد من العودة إلى هـذا الكتاب (الأول) ، وتصحيح ما كنا قد أبقينا عليه دون تصحيح أو إسقاطه ، بعـد أن تم تناوله في كتابينا التاليين .

د. أحمد داوود

دمشق ـــ 1 كانون الثاني 1997

مقدمة الطبعة الأولى

منذ أن بدأت عمليات التزوير في التاريخ العربي بدأت عملية إقحام هذا التـاريخ في المعركة السياسية والفكرية ، ولم يعد ثمة خيار أمام كل دارسـي هـذا التـاريخ والباحثين فيه من أبناء الأمة العربية غير أن يخوضوا هذه المعركة بكل أبعادها .

لقد دأبت السلطات الاستعمارية المتعاقبة على تشويه هذا التاريخ وضربـه في صميـم وحدته التي هي جوهر وجوده منذ آلاف السنين وحتى اليوم وبـدأت عمليـة تهريبـه وتسريبه لإلحاقه بأقوام وقبائل همجية نكرة في مضمار التمدن:

فقد قسموا حضارة سوريا إلى حضارات مواقع ، ثم ألحقوا كلا منها بجهة ما غريبة عـن المنطقة وعن الحضارة عموما . ففي المنطقة الشرقية أنكروا على السوحريين ـــ رغم كل الدلائل والمكتشفـات الاثارية ـــ أصلهم العربي ، والحقوهم بقبائل من أسلاف المغـول دون أن يعرفوا كيف يبررون إلصاق الحضارة بجسد الهمجية دونما أي حرج ، وربطـوا حضارة الشمال الغربي الممتد من كيليكيا إلى أدنة وشمال غـرب مرسين بقبائـل هندو أوربيـة مجهولـة الاسم والأصل والهوية ، أطلقوا عليها أسماء عربية من مدونات التوراة بعدما تم التبديل في الأسماء والمواقع على أيـدي المستشرقين والتوراتيين ، فصار العـرب الحاميون بعشائرهم من كنعانيين وحثيين وحوريين ، الذين كانـوا يعيشون في وسـط وجنوب شبه جزيرة العرب ، هم سكانا هندو أوروبيين يشغلون تلك المناطق ويقيمـون الحضارة ، رغم كل التناقضات والارباكات السكانيـة واللغوية والحضارية التي أحدثتها مثل هذه العمليات المجحفة والمسرفة في تزوير وتشويه حقائق التاريخ .

وفوق هذا ، ومنذ بداية الغزو الإمبريالي الصهيوني الحديث للمنطقة ، جرت عملية تزوير لم يسبق لها مثيل : إن أشتات العشائر العربية البدويـة من أبناء يعقوب العربي الآرامـي الذين لم يتجاوزوا مرة سكنى الخيام وحياة الرعـي البدوي والسطو ، ولم يبلغوا شـكل القبيلة في التجمع ، إذ بقي التناحر بين زعماء الأسر والعشائر هو السائد حتى في عـهد

داود وسليمان وابنه رحبعام ، و لم تعد مساحة الرقعة التي انتشروا بين أهليها بضعة كيلو مترات تضم بعض القرى والسفوح والوديان — دون المرتفعات — في بلاد غامد من جبال السراة في غرب شبه جزيرة العرب ، نراهم وقد تحولوا ، بفعل المقدرة الصهيونية والكهنوتية اليهودية على التزوير إلى دولة ومملكة كانت تسيطر على جنوب سوريا ووسطها وتطمح للسيطرة من الفرات إلى النيل ! وجاءت الحركة الصهيونية مدعمة بأعتى قوة إمبريالية في العالم اليوم تطالب بـ" إعادة الحياة " إلى تلك " الدولة " الخرافة الوهم ، فيكون بذلك تاريخ سوريا الذي هو تاريخ حضارة البشرية كلها — كما صار يؤكد كثير من الباحثين المنصفين — قد " هرب " بأجمعه من الشرق ، والشمال ، والوسط ، وقد ألصق ما تبقى منه في جانبه الغربي بحضارة اليونان .

ومن هنا بالذات كانت الكتابة في هذا التاريخ لا تنفصل عن عملية الصراع الدائر اليوم في المنطقة بشتى الوجوه وعلى مختلف الصعد ، بعد أن صار هذا التاريخ في صميم المعركة السياسية والعسكرية والجغرافية والحضارية والثقافية واللغوية ... وبكلمة ، إنه جزء لا يتجزأ من جسد الصراع الدائر اليوم بكل حدته وشراسته ومصيريته ، ولن يستغرب كل من يدرك هذه الحقيقة أن نبدأ دراستنا لتاريخ سوريا القديم بهذه المقدمة السياسية . إن تحرير الأرض مرتبط بتحرير التاريخ ، والعكس أيضا صحيح . وليس تحرير الأجزاء المحتلة من الأرض بأكثر أهمية وشأنا من تحرير تلك البوابات الفكرية المحتلة في كتب التاريخ وفي أذهان الكثيرين ممن يقفون حراسا لتلك البوابات ، وعن وعي منهم أم عن غير وعي فالنتيجة في الحالين سواء .

إن الصراع ، إذن ، في التاريخ والجغرافيا لم يعد مقتصرا اليوم على ما فعلته قوى الاستعمار والإمبريالية بالواقع العربي الراهن من تفتيت وقهر ، وقسر على المراوحة وبقاء التخلف ، بل يتعداه إلى مدى آلاف من السنين بعد أن جرت عملية زج ذلك التاريخ القديم الطويل كله في معركة الصراع الدائر اليوم ، وصار جزءا من الصراع الفكري والأيديولوجي والعقائدي والسياسي . هذا الصراع الذي نجد لزاما هنا أن نصحح بعض ملامح النظرة السائدة إليه .

إن الصراع الدائر اليوم في المنطقة العربية هو الصراع نفسه الذي كان يدور بالأمس . إنه الصراع بين الأمة العربية بجماهيرها التائقة إلى تحرير أرضها وبناء دولتها العربية الواحدة من جهة ، وبين قوى الغزو والاستعمار والإمبريالية وكل رموزها وأدواتها من جهة أخرى . وإن تضييق الصراع وجعله عربياً ـ إسرائيلياً ليس إلا نوعاً من الإسهام العفوي أو المقصود في عملية إخفاء وتبرئة أطرافه الرئيسية توطئة للدور المزدوج الذي على تلك الأطراف أن تلعبه في إحدى حلقات تطور هذا الصراع ، ولقد تجلى ذلك في أوضح صورة له إبان مؤامرة كمب ديفيد عندما انسلت الإمبريالية الأمريكية من تحت ملابس الميدان والحرب ضد العرب لتجلس في ثياب " الحكم " و " الوسيط " الذي يقف على " الحياد " ، وتتوسط من أجل فرض الاستسلام على العرب .

إن الصراع هو نفسه ولو اختلفت رموزه وأدواته . وإسرائيل ، في أقصى حالاتها ، لن تعدو كونها أداة استعمارية في هذا الصراع . فمنذ أن كانت بريطانيا تتزعم النظام الاستعماري كان الصراع قائماً بين الجماهير العربية التواقة إلى التحرر والوحدة ، وبين الاستعمار البريطاني بكل ما يمثله من قوى ورموز وأدوات وأساليب . لقد ضربت بريطانيا محاولة محمد علي في إقامة دولة عربية مركزية قوية ومتطورة ، وضربت الثورة العربية التي حاول إقامتها الشريف حسين وغدرت بها وسحقتها في المهد . وإن من ينظر ، قبل ذلك كله ، إلى التقرير الذي وضعته اللجنة التي شكلها كاميل بترمان رئيس وزراء بريطانيا عام 1907 من أجل الحصول على جواب للمسألة الأساسية التي تقض مضجع بريطانيا الاستعمارية : وهي كيف يمكن الحؤول دون سقوط الإمبراطوريات الاستعمارية ، لن يبقى بحاجة إلى أي شيء آخر من أجل الكشف عن حقيقة وجوهر هذا الصراع الذي لم يكن خلق الكيان الصهيوني وزرعه في قلب الوطن العربي إلا أحد أسلحته الفاعلة .

يقول التقرير :

" إن الخطر المهدد يكمن في البحر المتوسط ، صلة الوصل بين الشرق والغرب وفي حوضه مهد الديانات والحضارات ، وفي شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه أخصّ .

فعلى طول ساحله الجنوبي من الرباط إلى غزة ، وعلى الساحل الشرقي من غزة حتى مرسين وأضنة ، وعلى الجسر البحري الضيق الذي يصل آسيا بإفريقيا وتمر فيه قناة السويس شريان حياة أوروبا ، وعلى جانب البحر الأحمر ، وعلى طول ساحلي الهندي وبحر العرب وحتى خليج البصرة ، حيث الطريق إلى الهند والإمبراطوريات الاستعمارية في الشرق .

" في هذه البقعة الشاسعة الحساسة يعيش شعب واحد تتوفر له من وحدة تاريخه ودينه ووحدة لسانه واصالته كل مقومات المجتمع والترابط والاتحاد وتتوفر في نزعاته التحررية وفي ثرواته الطبيعية ، ومن كثرة تناسله ، كل أسباب القوة والتحرر والنهوض.
" كيف يمكن أن يكون وضع هذه المنطقة إذا توحدت فعلاً آمال شعبها وأهدافه ، وإذا اتجهت هذه القوة كلها في اتجاه واحد ؟ ماذا لو دخلت الوسائل الفنية الحديثة ، ومكتسبات الثورة الصناعية الأوروبية إلى هذه المنطقة ؟ ماذا يمكن لو انتشر التعليم وعممت الثقافة في أوساط هذا الشعب ، ماذا سيكون إذا تحركت هذه المنطقة واستغلت ثرواتها الطبيعية من قبل أهلها ... عند ذلك ستحل الضربة القاضية بالإمبراطورية الاستعمارية وعندها ستتبخر أحلام الاستعمار بالخلود ، تقطع أوصاله ، ثم يضمحل وينهار ، كما انهارت إمبراطوريات الرومان والإغريق .

إن الخطر على كيان الإمبراطوريات الاستعمارية كامن في الدرجة الأولى في هذه المنطقة في تجمعها واتحادها حول عقيدة واحدة ، وهدف واحد ، فعلى كل الدول ذات المصلحة المشتركة أن تعمل على استمرار وضع المنطقة المجزأ المتأخر ، وعلى إبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل وتأخر وتناحر وكوسيلة أساسية مستعجلة لدرء الخطر يجب العمل على فصل الجزء الأفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي ، وذلك بإقامة حاجز قوي غريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بإفريقيا ، ويربطهما معاً بالبحر المتوسط ، بحيث يشكل في هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة

السويس قوة صديقة للاستعمار ، وعدوة لسكان المنطقة "[1]

إن هذا التقرير يكشف حقيقة وجوهر وأطراف الصراع . وإن ما يسميه البعض اليـــوم بالصراع العربي ــ الإسرائيلي إنما هو في حقيقته كالصراع بين الجسد ورأس الحربة ، إذا ما صرف النظر عن جسم الحربة ككل وعن كل من يقف خلف الحربة ويمســك بهــا ويدفعها بقوته إلى داخل الجسد .

وإن تقزيم هذا الصراع وجعله عربيا ــ إسرائيليا فقط إنما هو تقــزيم للنضال العــربي ، وحرف له عن توجهه الصحيح ، وتغطية للأطراف الاستعمارية والإمبريالية الرئيســية ، وخلق ستار من الدخان على أدوارها وتحركاتها وتضليل للجماهير العربية عن أهــداف نضالها وعن أعدائها الرئيسيين والحقيقيين، وتهويل فيه كثير من المبالغة للعدو الصهيوني .

إن على كل منا أن يدرك أن جميع الحروب والمعارك التي خاضتها جماهير شعبنا العــربي ضد الكيان الصهيوني ، منذ بداية زرعه وحتى اليوم ، إنما كانت في حقيقتــها حربــا مباشرة مع الدول الاستعمارية ذاتها التي أوجدت هذا الكيان المصطنع ، وتكفلت بحمايته وتقويته والدفاع عنه . إن حديد الحربة الإسرائيلية إنما كان حديدا بريطانيــا ثم صــار أمريكيا ، وإن التفوق الإسرائيلي ليس إلا تفوقا بريطانيا ثم تفوقا أمريكيا ، أكان ذلــك بالعتاد أم بالسلاح أم بالرجال .

وإذا كانت الدول الاستعمارية قد نجحت في تعويم وجودها علــى منــاطق مصالحــها ونفوذها في المنطقة العربية كطرف خارج عن الصراع ويقف على الحياد ، حريصا على صداقته لكلا الجانبين ، فإن ذلك في حد ذاته ، كان أكبر انتصار استطاعت أن تحققــه على الساحة . لقد أسفر ذلك عن جعل الصراع صراعا عربيا إسرائيليا خالصا ، جندت له مع الصهيونية الفكر والإعلام والدعاية ، كما جندت له التاريخ ، غير عابئة بكل مــا مارست فيه من أعمال القسر والتشويه والتزوير ، كل ذلك من أجل أن تنهض صــورة

---

(1) انظر : Khaled Mohieddine,<Temps Modernes>p.22
و : الترجمة الكاملة لنص التقرير الصادر عن القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي ، في دمشق 1978
و : قاسم الشواف ، " مع الكلمة الصافية " ص 358ــ 386 .

الصراع على الساحة وفي كل الأذهان عربياً ـــ إسرائيلياً بحتاً ، لا علاقة للآخرين بـه إلا كعلاقة الصديق المخلص لطرفي الصــراع كليهما ، الحريص على إنهائه بالصـــورة الـتي تضمن "حقوق" كل طرف ، وهذا من شـــأنه أن يطمس حقيقة النهب الاســـتعماري والإمبريالي لثروات المنطقة إلى أطول مدى ممكن ويتركها في الظل بعيداً عن أضواء ذلـك الصراع الذي كلما حمي وطيســـه كانت تلك الأطراف تجد الذرائع لأن تثبت أقدامــها أكثر ، وتحكم من ربط هذا الجزء أو ذاك بعجلة نفوذها واستعمارها وماكنات معـــامل الســـلاح لديها أكثر ، كما يضمن لها متســـعاً من الوقت من أجل التصدي لعمليـــات النهوض الثورية ، التي قد تبزغ على الساحة العربية في هذا المكان أو ذاك. ولقد بذلـــت جهود كبيرة من أجل إظهار هذا الصراع في هيئة صراع دولي أمريكي ـــ سوفيتي علـــى مناطق النفوذ ، ودخلت إسرائيل ضمن عناصر الصراع كـــ"جزء من المنطقة " يسهم في " صد النفوذ السوفيتي " عنها في محاولة مفضوحة من الإمبريالية والصهيونية لأن تســـبغ بذلك على وجود إسرائيل المصطنع صفة الأصالة والثبات والديمومة .

وبعد عملية خلط للأوراق جديدة ، هذه اللعبة التي أتقنتها الجهات الإمبريالية جيـداً ، ثم إعادة فرزها ، سرعان ما ظهرت مفاهيم جديـــدة مثل " الدول المعتدلـــة " و " الـدول المتطرفة " وغير ذلك من التسميات التي كان عليها ان تضفي على التناقض شكلاً جديداً آخر تتبدل فيه المواقع كما يتبدل فيه طابع الصراع ذاته ، ويصبح زئبقياً رجراجاً ، ما إن تحاول ضبط أحد أجزائه في جانب حتى تراه يتزلق ، كما من بين أصابعك ، إلى الجانب الآخر، والكل يدرك أن هذه الصيغة الجديـــدة التي دعيت بـــ" الاعتـــدال " قمينـــة في السياسة بأن يفيد منها الطرف القوي وحده ، إذ يجعل منها مجالاً حقيقيـــاً ، وعمقـــاً إضافياً لتحركاته ومناوراته ، التي تتراوح عادة ما بين الفعل اللين والفعل العنيف ، كما أن أي " اعتدال " أو تظاهر بـــ" الحياد " في معركة الأمة العربية من أجل تحررها ليس ، في البدء وفي النهاية ، إلا جزءاً من هذه المعركة ، لكن في الخندق الآخر .

إن سوريا ، هذه التي تستحق بجدارة أن تسمى " ماسة الأمة العربية " والتي حيرت كـــل الرؤوس البعيدة والقريبة ، وأصحاب المخططات الكبيرة ، قد تواصلت ، وبدأب منقطع

النظير ، محاولات سحقها وإزالة اسمها عن خارطة الصراع الدائر بين الأمة العربية وأعدائها .

• فقد اجتزئ منها جناحها الشرقي المطل على الخليج العربي وأحدثت فيه دولة ، وفصل شمالها ــ كيليكيا واسكندرون ومن شمال مارسين حتى ديار بكر ــ وضم إلى تركيا ، واجتزئت فلسطين وزرع فيها الكيان الصهيوني المصطنع كأداة لحراسة المصالح الإمبريالية في قلب المنطقة العربية ، وعلى الجانب الشرقي لنهر الأردن أحدثت إمارة ثم دولة ، وفصل لبنان عن الجزء الملاصق للقلب وأحدثت فيه دولة ... أما البقية الباقية فقد بذلت دوائر الاحتلال التركي جهوداً محمومة من أجل تكريس التقسيم الطائفي فيها ، وإثارة نعراتها ، محدثة ما دُعي بمجالس الملل ، وأخذت تتعامل مع المنطقة من خلالها ، ثم جاء الاستعمار الفرنسي وحاول تثبيت ما بدأه الأتراك وتجسيده في كيانات على أرض الواقع ولم يفلح ، وتركزت بالأمس كل جهود الإمبريالية الأمريكية والصهيونية والرجعية عسكرياً واقتصادياً وإعلامياً في حملة مركزة موحدة من أجل إنجاز مهمة تفتيت سوريا إلى كيانات طائفية هزيلة ، إلى شظايا ، مستخدمين كل الوسائل ، والرموز والقوى والأدوار ، وبتكثيف هذه المرة لم يسبق له مثيل ، وبرز رد الفعل السوري عملاقاً بحجم التحدي ، وتجسدت الأمة العربية كلها في هذا البلد ، كما تجسد التاريخ العربي كله ، وآمال الجماهير العربية كلها ، في حزب البعث العربي الاشتراكي الذي قدم للأمة العربية في أحلك أوقاتها واحداً من أعظم قادتها التاريخيين ــ الرئيس حافظ الأسد .

لقد مكن هذا القائد العربي السوري من أن يلوي عنق الزمن الإمبريالي الصهيوني ويعلن بدء الزمن العربي ، معيداً إلى الأذهان حكمة ، وشجاعة ، ووفاء ، وحنكة أولئك القادة العظماء من أسلافنا أمثال : سرجون وحمورابي وهانيبال وعمر وعلي وخالد وطارق وموسى بن نصير وصلاح الدين وغيرهم .

• أما سوريا التاريخ الحضاري القديم فقد عمل على طمسها ومحو ذكرها كلياً من التاريخ العربي ، وذلك من خلال اختزالها واختزال حضارتها الكلية في حضارات مواقع

وأسماء جزئية كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : حضارة ما بين النهرين ، وحضارة وادي الرافدين ، وحضارة ماري ، ومملكة تدمر ، وحضارة إيبلا ، ومملكة أوغاريت ، و سومر ، و أكاد ، و بابل ، و آشور ، و نينوى ، و أور ، و فينيقيا و صور ، و عمور (أمورو) ، وآرام ، و بلاد الشام ، و بلاد كنعان ، وغيرها مرة ، أو من خلال إقحامها ضمن أطر وتسميات استعمارية غريبة عن المنطقة لطمس مضمونها الحضاري وهويتها العربية مرة أخرى ، كالشرق الأوسط ، والشرق الأدنى ، وشرق المتوسط وغيرها .

لقد جعل من كل بقعة من الأرض ، أو من كل مدينة مكتشفة ، اسماً لحضارة "مختلفة" ولشعب "مختلف" . فما هي حقيقة تلك " الشعوب المختلفة " وما هي ملامح الحضارة العربية السورية في التاريخ ؟ تلكم هي المسألة الأولى التي نطمح إلى الإجابة عنها في هذا الكتاب .

أما المسألة الثانية ، فهي تتعلق حصراً بالنضال ضد الصهيونية ، وبالعمل من أجل إسقاط الواجهة "العقائدية " القائمة في أساسها على الوهم ، ثم جرى نفخها وتضخيمها ، ثم حشيت بها عقول اليهود بحيث باتت تشكل في حد ذاتها ، أحد مقاتل الصهيوني إذا ما أحسن استثمارها .

إن الكيان العنصري الصهيوني ، في أقصى حالاته وكيفما نظر إليه ، ليس في النتيجة إلا اختراعاً استعمارياً لمجابهة حركة التحرر الوطني العربية . وقد مر تجسيد هذا المشروع الاستعماري على أرض الواقع في ثلاث مراحل رئيسية ، كان نظام استعماري ما يرعى قيامه ويتعهده بالرعاية والحماية في كل منها وهذه المراحل الثلاث هي :

1 ــ المرحلة التأسيسية : وتتمثل في تهجير اليهود من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين وإقامة المستوطنات في شتى أرجاء الأرض العربية الفلسطينية مما خلق القاعدة أو الأساس لقيام الكيان الصهيوني فيما بعد ، ومهد لكل الخطوات من إعلان وعد بلفور ، إلى قرار التقسيم ، إلى إعلان قيام ما دعي بـ" دولة إسرائيل " إلى اصطناع الحرب العربية الإسرائيلية عام 1948 .

ويمكن تحديد هذه المرحلة بالفترة الممتدة من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى، وقد أنجزت بكاملها تحت إشراف ومساهمة الاحتلال العثماني التركي وفي ظل حكم السلطان عبد الحميد الثاني تحديداً.*

2 ـ المرحلة الثانية : وهي التي تمتد ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وصولاً إلى إعلان قيام دولة الكيان الصهيوني في فلسطين عام 1948 وقد تم تنفيذ هذه المرحلة بحماية ورعاية الاستعمار البريطاني المباشر.

3 ـ المرحلة الثالثة : وتمتد من بداية الخمسينات من هذا القرن وحتى اليوم. فبعد الحرب العالمية الثانية برزت الولايات المتحدة كأعتى قوة إمبريالية في العالم، وأخذ نجم الاستعمار البريطاني في التراجع أمام تقدم الإمبريالية الأمريكية التي شرعت تملأ كل الأمكنة التي تخليها دوائر الاستعمار البريطاني ، فانتقل تحالف الاحتكارات الصهيونية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وسرعان ما أخذت عملية الصراع العربي ـ الصهيوني طابعاً جديداً بعد أن أخذت الإمبريالية الأمريكية تزج في ميدانه بآخر مبتكرات تكنيكها الحربي .

لقد اتبعت الإمبريالية الدولية المتحالفة مع الصهيونية العالمية سياسة الوجود الإسرائيلي ككيان مرن في قلب الوطن العربي ، قابل للتحرك والانتشار والاتساع في الوقت الذي تجد فيه تلك الأطراف ضرورة لذلك ، وبالتحديد ، عندما تبرز مقدرة الأمة العربية في هذا الجانب من ساحة الصراع ،أو ذاك . ومن أجل ضمان كبح أية خطوة على طريق النهوض العربي كان لابد من السير في عدة خطوط متوازية ومتواكبة في آن معاً:

فقد كان لابد من ضمان التفوق العسكري والتقني الإسرائيلي الدائم الذي يحول دون هزيمة هذا الكيان ، لأن في هزيمته مرة واحدة القضاء عليه ، وبالتالي على كل المخطط الاستعماري في المنطقة العربية الذي لن يقدر على الدفاع عن مواقعه دون تدمير مصالحه كلها في المنطقة .

• من أجل التعرف على تفاصيل ذلك راجع : دراسة للمؤلف حول الصهيونية عنوانها " إسرائيل والصراع العربي الإسرائيلي " إصدار منظمة طلائع البعث في القطر العربي السوري .
و : الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي في كتابه " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " ص 990ـ 993

وإن هذا التفوق من شـأنه أن يدفع إلى استثماره إعلاميا ونفسيا ، بحيث يزيد من هيبة العدو في نفوس العرب ، ويزرع روح اليأس في أوساط المقاومة العربية .

إن تكفل " الكيان الصهيوني " بالتصدي والمجابهة بصورة يبدو فيها مستقلا عن الإمبريالية الدولية وعلى رأسها الإمبريالية الأمريكية ، يخلق مجالا واسعا أمام أوساطها من أجـل التنكر والمخاتلة والمناورة على الأرض العربية ، مما يساعدها على أن تظـهر في مظـهر الدولة الصديقة لطرفي النزاع كليهما والساعية إلى إيجاد "الحلول العادلة" التي تضمن لكل منهما "حقوقه" . إن هذا يزيد من عمر الابتزاز الإمبريالي للثروات العربية ويزيد مـن إمكانية مراقبة وكبح وتجميد الطاقة العربية وضرب فاعليتها ، كما أن من شأن هـذا أن يطوق أي توجه نحو توثيق علاقة العرب مع أصدقائهم الحقيقيين لتبقى الأمـة العربيـة مكبلة بأغلال الإمبريالية ، يمارس عليها كل صنوف الاذلال ، ليس أولها أن ثلاثة ملايين من الصهاينة قادرون على إلحاق الهزيمة بعشرات الملايين من العرب كلما فكروا بـالحرب ضد إسرائيل .

لكن الأمور في الواقع ليست هي في هذا الجانب من الصورة الذي تؤلفـه التصـورات الإمبريالية الصهيونية فقط . إن معالم أخرى حقيقية لصورة الصراع يمكن أن نحددهـا ضمن إطار النقاط الرئيسية التالية :

1 ـــ إن الصهيونية هي حركة رأسـمالية استعمارية صرفة ، تحالفت مع الإمبرياليـة الدولية ضمن تبادل مصالح معينة ، وقد وقع اختيارها على فلسطين نتيجـة لمتطلبـات مصالح الاستعمار البريطاني الذي تحالفت معه وليـس لأن فلسـطين " أرض الميعـاد " التوارتية كما جرت " أدلجة " العمليـة فيما بعد تشهد على ذلك كل وثائق الصهيونية بما فيها كتاب هرتزل " الدولة اليهودية " الذي لم يحدد أية أرض . يقول يوي افنـيوي عضو الكنيست الإسرائيلي :

"إن تيودور هرتزل وضع مشروع كتابه في إناء مغلق ، فرسم " يوتوبيـا " الخطـوط العريضـة لبلد يجب أن يخلق بدون أي ارتباط بأرض معينة . وفكرتـه كـان يمكـن تحقيقها في الأرجنتين وفي كندا ، وفي أوغندا ، أو في أي مكان آخر ... وكتابه " الدولة

اليهودية " الذي نشر عام 1896 يؤكد بشكل مسهب على ساعات العمل ومساكن العمال ، وحتى على حكم الدولة ، وليست هناك أية إشارة إلى مجابهة الصدام مع أي شعب آخر ، والسبب في ذلك بسيط وهو أن هرتزل ، حين ألف كتابه لم يفكر بأي بلد معين " [1]

2 ــ لقد اعتمد " التفوق الإسرائيلي في الصراع على عوامل ثلاثة رئيسية : التفوق التكنيكي الإمبريالي الموضوع في خدمة أحد طرفي الصراع المتمثل في " إسرائيل " ، واعتماد واقع التجزئة في الوطن العربي وتكريسه وتعميقه ، وعزل الأمة العربية عن أصدقائها الأقوياء القادرين على إمدادها بالسلاح الفاعل القادر على مجابهة التكنيك الحربي الإمبريالي رفيع المستوى المقحم في ميدان الصراع .

3 ــ إن الجيل الصهيوني الحالي هو الجيل الذي حشي ذهنه وأفعمت روحه بالخرافات الصهيونية التوراتية الجذابية المريضة : من " تفوق " الشعب اليهودي ، وفكرة " شعب الله المختار "إلى فكرة" الجيش الصهيوني الذي لا يقهر "إلى فكرة " وعد الرب "بتسليم الشعب اليهودي أرضا لم يحرثوها وكروما لم يغرسوها ودورا لم يبنوها ...

إن كل هذه العناصر التي عايشت الإسرائيلي في مرحلة إنشاء ذلك الكيان الشائه ، فيها نفسها تكمن مقاتله أيضا .

إن أول من تنبه إلى حقيقة الصراع الدائر في المنطقة هي سوريا بقيادة الرئيس حافظ الأسد الذي تسنم إدارة الصراع في مرحلتين :

الأولى : بالاشتراك مع مصر في خوض حرب تشرين التحريرية التي كان مقدرا لها أن تقلب كل الموازين والحسابات والمعادلات والمفاهيم السائدة على أرض المنطقة . إن أقل ما يمكن أن يقال عن حرب تشرين أنها كشفت للإنسان الصهيوني العادي مدى هشاشة المفاهيم التي حشي بها ذهنه وروحه طيلة ربع قرن ، وأنه لولا التدخل الإمبريالي الأمريكي المباشر لما تمكن من الصمود أسبوعا واحدا أمام إصرار المقاتل العربي ، الذي لم تتح له فرص القتال قبل تشرين و لم يتمكن من الوصول إلى خصمه الذي كان مسيجا

---

(1) انظر : قاسم الشواف ، " مع الكلمة الصافية " ص 370 ــ 371

دائما بالتفوق التكنيكي الهائل والكبير . والثانيــة : هـــي إعـــلان شـــعار التـــوازن الاستراتيجي مع العدو ، والسير خطوات جدية كبيرة في درب تحقيقــه ، بعد أن سدت كل الأبواب التي يتسلل منها العدو للحؤول دون قيـــام عـــلاقات نضالية وطيدة بيـــت العرب وبين أصدقائهم .

وهنا بدأت المرحلة الجديدة والثالثـــة تبرز فعليا على ساحة الصراع ، مظهرة كل تلـــك الأبعاد والتصورات الكبيرة لما صار يمكن أن يحدث على أرض الواقع . ولأول مرة بـــدأ عامل الزمن يدخل كأحد عناصر الصـــراع الرئيسية ولصالح العرب ، ولأول مرة بكلمة أخرى ، صار في الإمكان القول ، إن السباق من أجل تحقيق الانتصار الحاســـم صـــار يجري ضمن الزمن وضمن كل برهة من هذا الزمن ، وبدأ فعلا الشعور بالخطر القـــاتل يتكثف على الجانب الآخر :

ـــ إن أية عملية تقوم بها المقاومـــة الوطنيـــة العربيـــة سوف تجد لنفسها غطاء رادعـــا يتمثل في القـــوة الســـورية ، وبالتالي سوف تضع الآلة الإســـرائيلية في موقف الثبـــات والعجز عن الفعل .

ـــ وإن أية مجابهـــة شاملـــة أو محدودة سوف يلغى فيها دور التفوق التكنيكي الـــذي كان يصدم جندينا العربـــي دون أن يترك له مجالا لرؤية خصمه ، بله للاشتباك معـــه ، وبالتالي ، فلن تتمكن قوة ما من الحؤول دون وصول هذا الجندي إلى خصمـــه في أيـــة اشتباكات مقبلة بعد أن ظل مكبوتا عن تحقيق هذه الرغبة طيلة ربع قرن .

إن أية مجابهة حقيقية سوف تسقط كل الأقنعـــة التي غطيت بهـــا حقيقـــة الجنـــدي الصهيوني المختبئ حتى الآن خلف آخر مبتكـــرات التكنيـــك الحـــربي الأمريكـــي في المواجهات ، وسوف يكون لذلك وقع الكارثة ، إذ إن عملية " نفخ " ذلك الجيـــش الكاذبة تبقى من أخطر الأسلحة فتكا به إذا ما تسنى له في أية مجابهة أن يكتشف حقيقته.

ـــ إن هذا بالتالي ســـوف ينعكس على المجتمع الإســـرائيلي برمته ، هـــذا المجتمع الذي يعج بالمتناقضات ، والذي لم تعرف كل وسائل و "وصفات " الصهيونية والإمبرياليـــة كيف تجعله مجتمعا متجانســـا حتى اليوم . إن مثل هذا المجتمع الذي وضع وجمع بكـــل

تناقضاته في جرة فولاذية مدرعة ، ما إن تضرب على جدار تلك الجرة ضربة حقيقيــــة حتى تذهلك الأصوات والصرخات المتناقضة التي قد تنبعث من داخلها ، والتي قد تـودي وتفتك به من الداخل أكثر من أي سلاح آخر ، إنك قد تكسر الجرة وتنظر وتدهـــش لأنك لن ترى شيئا حقيقيا.

— إن ملامح صراع المستقبل بدأت منذ حرب تشرين ، وترسخت ومضاتها في ذهـــن العدو في المواجهات مع الجنود العرب السوريين في حرب لبنان رغم كل ذلك الفـــارق الكبير في شروط وظروف وعناصر تلك المواجهات ثم مع رجال المقاومة الوطنية اللبنانيـة التي أفصحت عن الإنسان الجديد الذي على إسرائيل أن تتعامل معه من الآن فصاعدا .

<< الوحش >> الصهيوني يبلغ << قمة الجبل >>

في حكاية يتناقلها الجيل القديم من أبناء ريفنا العربي السوري في الساحل ، إن وحشا كاسرا حير رؤوس سكان إحدى القرى ، وكاد يفنيهم عن بكرة أبيهم واحدا بعد آخر دون أن يفكروا جديا بالقضاء عليه . و لم يكن ذلك الوحش يفترس غير الأطفال حتى كاد يأتي الوقت الذي يشيخ فيه الكبار ، ويموتون ثم لا يكون بعد صغار فينتقل إلى قرية أخرى ، وهكذا ، إلى أن جاء يوم تمكن أحد الشبان من أن يجمع سكان القرية من حوله ويقرروا جميعا مهاجمة الوحش في مساربه بين صخور الجبل المرتفع ، وما إن رآهم الوحش حتى تملكه الذعر وأخذ يتسلق الجبل والناس في إثره إلى أن بلغ قمة الصخرة المشرفة على حرف في واد سحيق . لم يبق ثمة مكان يصعد إليه و لم يعد أمامه غير أحد طريقين : إما أن يواجه الجموع الزاحفة إليه فيقاتل حتى يموت ، أو أن يلقي بنفسه من فوق الصخرة ليتحطم على صخور المنحدر العميق . و لم يكد يقرر المواجهة معتمدا على مخالبه وبراثنه حتى روعه منظر إحدى أمهات الأطفال الضحايا وقد مدت إلى وجهه يدين مثل كلابتين من الفولاذ وأمسكت به من حنجرته ...ثم لم بعد يعرف كيف سقط وارتطم على الصخور القاسية على المنحدر في طريقه إلى الوادي العميق . لقد ركضت إسرائيل في التسلح صعودا إلى القمة ، حتى وصلت إلى القنبلة الذرية ، وإن ما يرعبها اليوم أنها ترى إلى العرب السوريين وقد حفزهم إرادة واحدة في الصعود إلى" الوحش الصهيوني " حتى القمة ، حيث لن يجد أمامه أكثر من أحد خيارين : إما المواجهة وجها لوجه ، وإما أن يلقي بنفسه إلى الهاوية .

إن العدو الصهيوني يدرك ، كما ندرك ، أن الزمن لن يبقى في صالحه طالما بدأنا الصعود ، وليس من شيء يمكن أن يثنينا عن ذلك . وهناك ، حيث يتحقق التوازن الستراتيجي في التكنيك على القمة ، سوف يكون الخنجر العربي الصغير أكثر فعلا من أية قنبلة ذرية ، كما أن أصابع الأم المقهورة كانت أقوى من كل المخالب .

إن الدور الأساسي سوف يعود ، في سلم حلزون التطور الجدلـي ، إلى الإنسان مرة أخرى ليحتل مكانة العامل الحاسم في أية عملية صراع طويل. إنها المرحلة الأرقى من مرحلتين ماضيتين . إنها مرحلة الإنسان الواعي الذي يدافع عن قضية وقد وفر لنفسه عامل الردع الستراتيجي ضد أية محاولة للانتقام التكنيكي من جانب واحد .

وليست التحركات المحمومة الكثيرة والمكثفة التي يقوم بها العدو الصهيوني اليوم وحماته الإمبرياليون إلا شاهدا أكيدا على الشعور الأكيد بخطورة المرحلة القادمة .

لقد بدأت عملية العد التنازلي لتعلن نهاية الدور الذي أنيط بالكيان الصهيوني من أجل التصدي لعملية التطور والنهوض العربي .

لقد امتطت سوريا بالفعل صهوة الزمن العربي الذي نزل الميدان ،وإحساس متعاظم كثيف بالزمن تعيشه المنطقة لأول مرة .

إن الجهود المحمومة التي يبذلها اليوم صانعو الكيان الصهيوني هي من أجل مكافأته بعد انتهاء دوره ، وقبل أن يتحول إلى عبء حقيقي يثقل كاهل صانعيه ، إذ إن حمايته والدفاع عنه مستقبلا سوف تكلف الإمبريالية التضحية بكل مصالحها في آسيا وإفريقيا دفعة واحدة. وإذا ما صح أن يكافأ على حساب العرب أنفسهم ويبقى في المكان الذي اغتصبه من سكانه العرب ، وعمل طيلة خمسين عاما على تدمير كل منطلقاتهم نحو النهوض والتحرر يكون ذلك أكبر إنجاز تحققه الدول الإمبريالية على الأرض العربية .

الزمن يركض فعلا لأول مرة ، وقد أوشك الإنسان الصهيوني المنوم بالخرافات أن يفيق ويطل من وهمه على الواقع ، فيكون في استيقاظه هلاكه ، لأنه لن يقدر على التكيف مع الواقع الحقيقة ، الواقع الذي لم يخطر له ببال من ذي قبل .

إن من جملة هذه الخرافات التي جعلت الصهيونية الإنسان اليهودي العادي يؤمن بها فعلا معتمدة على الانتصارات التي حققتها حتى الآن ، خرافة " أرض الميعاد " التي تمتد من " الفرات إلى النيل " والتي وعد بها وباركها " الأجداد " .

فمن هم أولئك الأجداد ، وهل عرف أحدهم حقا أرض فلسطين ؟ وبصرف النظر عن عدم وجود أية علاقة يمكن أن تربط يهود اليوم بأولئك الأجداد العرب الآراميين فإن

هذه هي الخرافة التي سوف نسقطها ، والتي في تقديرنا لا تقل فعلا في توجيه الصفعة التي توقظ أولئك المنومين من أي سلاح آخر ، إذا ما أحسن استخدامها كأحد أسلحة الإعلام الفكرية المتقنة . إننا في إظهارنا لحقائق التاريخ والجغرافيا التي زورها كهنة التوراة ، ثم المؤرخون الذين أفرزتهم عصور الاستعمار ، سوف نسقط أكبر الأقنعة التي اعتمدتها الصهيونية في استعمار فلسطين ، وطمعت بها إلى استعمار المنطقة العربية كلها . إن المجابهة لا تتجزأ ، وكما أن الانتصار واحد ، فإن السقوط ينبغي أن يكون سقوطا مرة واحدة ، وإلى الأبد .

ذاكم هو موضوع هذا الكتاب الذي نحاول فيه مناقشة كل المفاهيم التي فرضت على تاريخنا إمعانا في تجزئته وتشويهه ، ساعين إلى الكشف عن تلك الحقائق المطمورة تحت ركام من الصدأ والإهمال ، وإلى فرز كل تلك النظرات الدخيلة والمغرضة ، لنسهم قدر المستطاع في عودة الألق إلى خطوط التواصل الحضاري لأمتنا الخالدة . إنه جهد بسيط نضيفه إلى باقي الجهود الساعية اليوم بدأب وإخلاص إلى إعادة النظر في ما كتبه الآخرون زمن الأحقاب الاستعمارية المديدة . إنه جهد يضاف إلى الجهود العاملة من أجل إعادة كتابة تاريخنا من جديد ، بل نقول ، وبكل جرأة ، من أجل كتابة تاريخنا . إنه لم يكتب بعد .

د. أحمد داوود

دمشق ـــ 1985

مدخل إلى دراسة التاريخ

بما أن السياسة لم تعد تنفصل اليوم عن الحياة اليومية للناس فإنها ، بالأحرى ، لا يمكن أن تنفصل عن سائر فروع المعرفة الأخرى سواء ما يتعلق منها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية أو التطبيقية. ولم يعد يكفي العاملين بالسياسة اليوم أن يتابعوا الأحداث المحلية والدولية ويحاولوا تفسيرها من خلال علاقاتها الظاهرة وما قد يظهر عبر وسائل الإعلام من أسباب مباشرة أو غير مباشرة ، ثم يجدون موقعا لهم بين تشابك تلك العلاقات في انسجامها أو تناقضها قد تنعكس معطياته وآثاره عليهم شخصيا أو على بلدانهم أو عليهما معا ، سلبا أو إيجابا ، بهذه الدرجة أو تلك من النجاح أو الفشل. فالسياسة اليوم لا تنفصل إطلاقا عن ضروب المعرفة الأخرى التي تشمل الاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والفلسفة ومنجزات العلوم الطبيعية التي لابد منها جميعا من أجل تكوين أرضية ثقافية خصبة وغنية وثابتة جديرة بأن تجعل السياسي يقف بقدمين راسختين في مجابهته لتحديات العصر الكبيرة والمعقدة .

والسياسة ، مثلها مثل كل العلوم الأخرى ، سلكت في تطورها الخط الحلزوني التطوري الصاعد من جهة ، كما بقيت وضمن مسيرة ذلك الخط بكل تعرجاته ومنحنياته ،لصيقة بالبنية الطبقية للمجتمع ، معبرة عن نزعات هذه الطبقة أو تلك في هذه المرحلة التاريخية أو تلك ،كما تعبر ، وبدرجات متفاوتة أيضا ،عن مطامح أمة بكاملها وعن حركتها في مواجهة تحديات العصر المفروضة عليها من الخارج ، في الوقت نفسه الذي تعبر فيه عن حركتها الداخلية أيضا في مواجهة عوامل ضعفها وتخلفها وعلى طريق حل المسائل الأساسية التي تحدد إمكانية انبعاثها ونهوضها وتطورها .

من المعلوم أن المعرفة مرت في إحدى حلقات الحلزون الديالكتيكي الصاعدة بمرحلة اندماج العلوم جميعها بالفلسفة حينما دعيت الفلسفة " أم العلوم " . فكان على الفيلسوف أن يحيط بالأدب ، واللغة ، والتاريخ ، واللاهوت ، وعلم النفس ، والمجتمع ، والسياسة ، كما يحيط بعلم الفلك ، والطب والرياضيات والنبات والحيوان

والكيمياء وغيرها ... وبكلمة فقد كان العالم موسوعة أو مجموعة من العلماء في شخص واحد . ولن يستطيع أحد ، بالطبع ، أن يتصور أن مجموعة تلك المعارف كان يمكن أن تسكن عقل وتفكير وإرادة ووعي هذا العالم أو ذاك في هيئة تراكمية جامدة ، إذ الحقيقة عكس ذلك تماماً . فهي لا يمكن أن توجد إلا في شكلها الحي المتفاعل في علاقة جدلية دائمة تنبثق منها ودونما توقف ، عناصر جديدة ، ومواقف جديدة وعلائق جديدة ضمن التأثير الموضوعي للقوانين الجدلية التبادلية ، فتتم عملية الاستقطاب بين قطبي عناصر التآلف الواحد ، وتصطرع المتناقضات في وسط من التراكمات الكمية التي لا تنقطع ، فيتغلب عنصر على آخر أو عامل أو جهة أو موقف أو ظاهرة على أخرى ، لتبرز في صيغة نوعية جديدة تحمل في ذاتها بعضاً من تقاسيم وملامح الماضي التي تتفاعل هي الأخرى بدورها مع عناصر المولود الجديد مؤكدة عملية التواصل والاستمرارية وتعود إلى عملية الفرز الجديدة ، والاستقطاب الجديد ، والصراع الجديد ، والتراكمات الجديدة ، والنفي الجديد ، والولادة الجديدة ، كل ذلك في عملية كلية لا تقف ولا تتجزأ ، وليس بين جوانبها أية حدود في الزمان إلابقدر ما تتقدم بكليتها من صيغة قديمة إلى أخرى جديدة وهكذا .

ولقد شكل ذلك في حد ذاته خطوة عملاقة خطتها عملية المعرفة على طريق مسيرتها التاريخية الطويلة ، كان لها شأن عظيم في ظهور عدد كبير من العلماء الموسوعيين الشموليين الذين أرسوا قواعد إنسانية عالمية للمعرفة جمعت بين الحكمة والعقل والقيم الخلقية والإنسانية إلى جانب المعارف العلمية الطبيعية البحتة ، وهذا مما أدى إلى خلق مناخ علمي ، تربوي ، ثقافي ، إنساني ، متكامل ، كان له أكبر الأثر في دمج عمليتي التعليم والتربية معاً في عملية واحدة ، مما أدى ، بالتالي ، أيضاً إلى خلق كوكبات لامعة من القادة السياسيين والعسكريين ، الذين برزوا على الصعيد العالمي كله واحتلوا صفحات مرموقة وخالدة في تاريخ البشرية بما عرف عنهم من براعة في فن السياسة والقيادة ، وفي المناقبية وسمو النفس والمطامح معاً . ولسنا نغالي في ذلك إذا ما قلنا بأن العرب كانوا أول من أرسى دعائم هذه المدرسة وأجزل من أعطى من أمثال هؤلاء

القادة المناقبيين العالميين على مر العصور بدءاً من سرجون العربـي الأكادي ، مـروراً بحمورابي ، وهانيبال ، وعمر ، وعلي ، وموسى بن نصير ، وصلاح الدين ، وغيرهم .

وإذا كانت الفلسفة تعتبر " أم العلوم " في هذه المرحلة فإن السياسة هي الأخرى كـانت تتويجاً لكل المعارف. ولقد كان على القائد السياسي أن يجد نفسه مضطراً في أية لحظـة لأن يكون حكماً بين علماء قومـه وأدبائه وشعرائه ولغوييه وفلاسفته ومفكريه ، كما كان يجد نفسه أن من الواجب عليه أن يمثل أعلى مستويات الثقة بالنفس وعلو الهمـة وعدم التنازل أمام الخصم متمثلاً في ذاته كل قيم شعبه وطموحاته ، كمـا يتمثلـه في كبريائـه وعزتـه ، وهذا ما كان ليتأتى له لولا وعيـه الكبير لواقع وتاريخ ومتطلبات تطوره ، مما يشد من ثقته بنفسه ويجعله يضعها دائماً في المرتبة والمكان الـذي يتطلبـه الدفاع عن مصالح جماهير أمتـه ، ويصير تاريخ شعبـه وأمتـه جزءاً من شـخصيته ، كما تصبح شخصيته جزءاً من تاريخ شعبـه وأمتـه ، يسقط بسقوطها ويعتز بعزتهـا. إن هذا هو ما أفضى ببعض مفكـري اليونان القديمـة إلى البحث عمـا سـموه بـ " جمهوريات فاضلة " في مجالات نشاط حكمائهم الوحيدين ــ في زعمهم ــ القـادرين على تمثل روح الأمة والدفاع عنها ، والسير بها قدماً في مضمار التقدم والرقي . ولسـنا هنا في صدد مناقشة هذه الفكرة أو غيرها من حيث صحتها أو صوابها ، إذ كـل مـا يهمنا هنا هو التذكير بذلك الجانب المتعلق بشخصية الفرد القائد ، وما يمكن أن يكـون له من آثار عظيمة في تاريخ أمة من الأمم ، الجانب الذي ما انفك يلفت أنظار النـاس المهتمين بمصائر شعوبهم وبلدانهم عبر القرون .

ثم إنه مع انتصـار الثورة البورجوازيـة في أوروبـا بدأت حركة التطـور السـريعة تنعكس على مؤسسات المجتمع الجديد مقوضة أسس الإنتاج الإقطاعي المتخلف ، وصـار كل شيء يوحي بمستقبل باهر للبشرية تغمره وفرة في الإنتاج ، وينعم بجو من الحريـة والمساواة والعدل . لكن الانتصار البورجوازي سرعان ما استنفد دوره التقدمي الـذي تمثل في قفزته الإنتاجية العملاقة متخطياً كل أسوار القرون الوسطى الإقطاعية ليسفر عن بدايات دوره الرجعي العتيد المتمثل بالاستغلال الجشع لشغيلة بلده ، ولثروات وخيرات

الشعوب والبلدان الأخرى . ولقد ترافق ذلك بالسعي الحثيث إلى التطور المادي السـريع والبحث همة لا تكل عن كل ما من شأنه أن يقرب المسافة ويختصر الطريق في الركـض اللاهث خلف الربح بصورة لم تعهدها البشرية مطلقا ، مما خلق شروطا جديدة ، وولـد الحاجة الماسة إلى الحصول على المواد الأولية بكميات وفيرة وأسعار زهيدة ، كمـا زاد من حاجته إلى أسواق أخرى لتصريف إنتاجه الكبير الفائض عن حاجة استهلاك سـوقه المحلية ، وبدأت عمليات السباق على الأسواق الخارجية ومن أجل السيطرة على الثروات والمواد الأولية في الخارج ، لقد بدأ عصر الاستعمار .

ومع بداية عصر الاستعمار بدأت " قصبات جبيرة " المعرفـة تنفك واحدة عن الأخرى لتصبح كل منها علما مستقلا بذاته ينخرط في غماره الطامحون بحثا واستشرافا ومتابعة . وبدلا من أن يسخر كل علم منجزاته من أجل الصالح العام ، والتطور العام ، والنـهوض بالمعرفة العامة ، رأينا كيف أن الفلسفة نفسها أفلتت " فراخها " من تحت جناحيـها ، وأخـذت تراكضها مرة خلف هذا العلم ومرة خلـف ذاك في اتجاهـات تخصصـها الضيقة. وكلما حقق هذا العلم أو ذاك انتصارا ما أو إنجازا ما ، كانت الفلسفة تهرع إلى " الوليمة " متوهـمة أنها قد تختصر كل المسافـات التأملية لتقبض على الحقيقة بكلتـا يديها دفعة واحدة ودونما عناء .

وهكذا فما أن كان يتحقق إنجاز ما على صعيد الفيزيـاء أو الميكانيـك ، مثلا ، حـتى تهرع الفلسفة إليه ، وتسقط على ركبتيها لتنهض بعد فتـرة وقد لازمها شـعور مريـر بالخيبـة . وحينما توزعت العلوم في عصر التخصص ، وأخذ كل علم يتناول الإنسان من أحد جوانبه في معزل عن جوانبه الأخرى ، صارت الصورة على الشكل التـالي : بقدر ما يتعمق هذا العلم في التعرف على هـذا الجانب أو ذاك من الشخصية الإنسـانية مثلا ، ويحقق إنجازاتـه الخاصـة ، بقدر ما يبتعد عن الصورة الحقيقية المحملة للإنسـان الذي هو ، في البدء وفي النهاية ، ليس إلا مجموعة هذه الجوانب كلها في علاقاتها الجدلية المتفاعلة والمتناغمة .

وليس هذا فحسب ، بل حينما أخذت العلـوم تتناول الإنسان ــ على سبيل المثال ــ

مرة كجسم وبيولوجيا ، ومرة أخرى كنفس ، أو كروح ، أو كعقل ، أو كجنس ، أو ككائن اجتماعي ، كنا نرى كيف أن كل فرع من هذه الفروع كان يجر وراءه مجموعة خليطا من المفكرين والأدباء والفنانين والسياسيين الذين ينتظرون النتائج خلف الباب بفارغ الصبر ، ثم ما أن يعلن العلماء المتخصصون بهذا الجانب أو ذاك عن شيء من منجزاتهم في ذلك المضمار حتى يهتف أولئك المنتظرون بأنهم قد عثروا أخيرا على الحقيقة الفلسفية التي تخدم مصالح الطبقة الجديدة والمعبرة عن القمة في تقدم المجتمع وتطوره ، والتي لا بد أن تتفرع عنها كل الحقائق الأخرى ، ثم تنبثق على الفور من أرضية المجتمع أو من سقفه — لا فرق هنا — المدارس الأدبية أو الفنية التي تضم جهدها إلى جهود الفلسفة وتعلن في تصميم وبجرأة وتسرع لم تعهدهما الفلسفة أبدا ، أن الإنسان جنس ، أو أن الإنسان عقل ، أو أنه جهاز بيولوجي ووظائف ، أو أنه روح ... إلى آخر هذه الجوانب التي كانت في أحسن أحوالها ، لا تعدو كونها إعلانات باهرة لمنجزات هذا العلم أو ذاك ، تبتعد بنا عن جوهر حقيقة الإنسان العامة كلما أوغلت في السعي خلف الحقائق المنعزلة ، ودأبت على تعميمها على بقية جوانب الإنسان كفرد ، ثم على المجتمع أو الطبيعة ككل في أحيان أخرى .

ولما كانت السياسة في جوهرها تتويجا لكل شيء ، وتعبيرا في صورتها العامة ، عن مرحلة تاريخية معينة، وفي صورتها الخاصة عن واقع وتطلعات الطبقات الاجتماعية ، بعد انقسام المجتمع إلى طبقات ، فقد كان لابد لذلك كله من أن يجد له انعكاسا حقيقيا في السياسة . فقد تهشمت تلك الأطر القديمة وسقطت معها كثير من القيم التي لم تعد تلبي متطلبات الطبقات البورجوازية الصاعدة إلى سدة القيادة على أكتاف الآلات الحديثة ومنجزات العلوم التطبيقية الجديدة ، مدمرة في طريقها كل ما يمكن أن يقف حائلا دون سيطرتها وتحقيق الأرباح الكبيرة وتحولها إلى الاستعمار ، إلى السيطرة على أسواق ومقدرات الشعوب الأخرى . وتقلصت أطر السياسة ضمن حدود مصالح الطبقات البورجوازية المتنافسة على التوسع وعلى المستعمرات من جهة وعلى حدود الصراع بين الطبقات في المجتمع الواحد من جهة أخرى . وعلى صعيد الصراع من أجل المستعمرات

والتوسع استخدمت كل الأساليب الوحشية والطرق اللاإنسانية ضد شعوب البلدان الأخرى ، فكسرت حدودها ، ومزقت وحدتها القومية ، وهشم تاريخها القومي ، وأذلت كبرياؤها ، وأسقطت قيمها وتقاليدها ، وشوهت شخصيتها ، وابتزت ثرواتها ، وأقيمت حدود ونظم ، وسنت قوانين ، وفرضت قيم غريبة ودخيلة كلها كان من شأنها فقط أن تكرس عجزها وتخلفها وتساعد على استمرار عمليات السلب والنهب بدرجة من السعار لم يشهدها تاريخ الشعوب من قبل .. حتى إنها لم تتورع عن محاولات إبادة شعوب بأكملها (الهنود الحمر) و إخراج شعب بكامله من أرضه (الشعب العربي الفلسطيني) وزرع أقوام آخرين مكانه يكونون خداما لمصالحها الاستعمارية وحراسا لها .

في ظل هذه الممارسات الهمجية التي مارستها البورجوازيات الأوربية الاستعمارية على مدى قرنين مستخدمة كل منجزات العلوم في سبيل تكريس وحشيتها في تعاملها مع الأمم الأخرى سقطت كل مناقبية الإنسان البورجوازي العتيد التي تجلت في قضائه على الاقطاع المتخلف العفن وأفرغت ما يسمى اليوم بـ "الحضارة الغربية" من أي مضمون إنساني ، وتركت ذلك الإنسان المنتصر الجديد النظيف الظاهر ، الأنيق الملبس ، الذي يفتح باب سيارته الفارهة للسيدة ، ويخلع قبعته أمامها ، ويتحاشى أن يقطف زهرة أو غصنا من حديقة ، أو يخدش شعور كلب أو هرة ، ويحرص على دقة مواعيده ، تركته مشوها من الداخل ، مزدوجا في شخصيته. فهو أنيق ، ناعم ، نظيف ، مهذب من الخارج وفي الأمور الصغيرة، وذو جلد سميك مليء بالشعر، وجبين أشوه ، متغضن ، وأنياب صفراء وزرقاء طويلة ومخالب لا يتورع عن انشابها في أي طفل ، في أية امرأة ، في أي شعب ، في أية أرض ، في أي تاريخ ، من أجل تحقيق مآربه الجشعة في تحقيق الربح والنمو على حساب غيره من الشعوب .

إن هذا الوحش الحضاري الذي أنتجته البورجوازية الأوربية ترك آثاره الدامية عميقة في أجساد الشعوب عامة ، وفي الأرض العربية والتاريخ العربي وعلى الشخصية العربية بشكل خاص ، وخلف في العقل العربي ركاما من المفاهيم التي فرضها حماية لأطماعه

ولمصالحه ما نزال نعاني منها ونصطدم بها في كل مجال من مجالات حياتنا الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، في الجامعة والمؤسسة ، في البيت والشارع ، مما يحمل قضية نضالنا اليوم أعباء أخرى وأبعادا أكثر ، ويشد ممارساتنا السياسية إلى الجهة الأكثر شمولية ووعيا ودراية بالواقع ، وبالتاريخ ، وبحقيقة شعبنا ، من أجل أن تتمكن بجدية من كشح كل تلك البقع المظلمة والمفاهيم المضادة لحركة نهوض أمتنا ، ومن أجل الكشف عن الجوهر ، جوهر هذه الأمة الذي لن يلبث أن يملأ العين بوميضه الحضاري الأصيل .

فإذا كانت البورجوازية الأوربية قد خطت في مضمار تقدم العلوم والتكنولوجيا وتوفير أسباب السيطرة إلى حد كبير على الطبيعة وقواها ، فشكلت بذلك نقلة تقدمية هائلة في مجال التطور ، وقفزت إلى الحلقة التالية الأعلى وعلى الطرف المقابل للحلقة الماضية في سلم التطور، فإنها، في الوقت نفسه ، أحبطت كثيرا من الآمال المعلقة على صناعة وخلق الإنسان الجديد. لقد عجزت عن صياغة قيم مناقبية جديدة في فترة لهاثها ، وسعيها خلف الأرباح السريعة ، ودفع فروع العلوم إلى اقتناص المنجزات واستثمارها بأسرع وقت ولو كان ذلك عن طريق استخدامها في إبادة شعب بأكمله . وفي زحمة هذا السعار لم تتمكن قطعا من خلق ذلك الانسان ، بل لم تتعد في مسيرتها هذه شكل ومضمون الإنسان الآخر المزدوج القادر على إخفاء أنيابه الزرقاء الراعفة بدماء الشعوب . لن نسهب طويلا في رسم ملامح هذه المرحلة التي برزت تقاطيع وجهها السياسي واضحة على أرضنا العربية ، فكل همنا هنا هو الوصول إلى الربط بين أهداف نضالنا السياسي في هذه المرحلة وبين الحقيقة التاريخية لأمتنا العربية ، هذه الحقيقة التي تضافرت عليها كل قوى الاستعمار وإمكاناته قرونا طويلة من أجل طمسها وتغييبها عن الوعي العربي .

لقد رحل الاستعمار عن رقعة كبيرة من الوطن العربي ، لكن آثاره ماثلة في كل مكان وعلى كل صعيد . وإن النضال من أجل بعث الأمة العربية لتنهض من جديد بحمل رسالتها الحضارية الإنسانية الكبيرة ، لاشك مرير وشاق ومحفوف بالآلام والتضحيات ،

ولن يضطلع به إلا خيرة أبنائها . إن نضالنا اليوم لا يقتصر على طرد غاصب محتل من الأرض العربية فحسب ، بل هو متعدد الجوانب والمجالات ، ويشمل كافة الصعد العسكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والحضارية وكل ما يمت إلى النشاطات الإنسانية بصلة ، وبكلمة : إنه نضال شمولي ومصيري ، وبقدر ما يدرك أبناء أمتنا ، أو الطليعة منها ، حقيقة هذا الصراع وأبعاده وأطرافه بقدر ما تندفع إلى زج إمكاناتها في الطريق والاتجاه الصحيحين ، بقدر ما تقترب من حدود النجاح والحسم .

إن الأمة العربية التي ظهرت على مسرح التاريخ الإنساني الحضاري الفاعل منذ ستة آلاف عام ، وشهدت فصولا طويلة من القوة والعظمة والعطاء العالمي ، كما شهدت فصولا أخرى من الظلام والانحطاط والضعف والتفكك والقهر ، كانت تطول أو تقصر ، تمكنت من المحافظة على وجودها العربي المستمر طيلة هذه الآلاف الطويلة ، رغم ما شهدته من شتى صنوف محاولات الغزو والإبادة من قبل أمم كبيرة وصغيرة ، وشعوب وأقوام همجية كانت تحوم من حولها مثل الجوارح الجائعة . لقد دحرت عن أرضها كل الغزاة من القبائل الهمجية القديمة ، إلى الفرنجة ، والمماليك ، والتتار ، والأتراك ، والإنكليز ، والفرنسيين ، وهي لن تقصر اليوم عن إثبات حقيقتها التاريخية الكبيرة فتقضي على الغزو الصهيوني المدعم بقوى الإمبريالية العالمية والرجعية كما تقضي على مخلفات الاستعمارين القديم والحديث سواء ما كان منها ماديا متجسدا على الأرض العربية ، أو ما كان في هيئة مفاهيم وأفكار لابد من اقتلاعها واجتثاثها حتى لا تبقى عائقا أمام أجيالنا الناهضة .

إن أمة عمرها أكثر من ستة آلاف عام من التاريخ المسجل تبوأت خلالها صدارة العالم أكثر من مرة بجدارتها ، وبحيوية أبنائها ، وعطاءاتهم الحضارية الرائعة التي عمت حتى شملت شعوب الأرض كافة ، وجابهت خلال مراحل حياتها ما لم تجابهه أية أمة أخرى ، فهزمت همجية الأمم الغازية ، وهشمت مخالب الشعوب الجوارح ، وامتصت كثيرا من الصدمات والتحديات الكفيلة بتصديع كل الحقائق ، وكانت في كل مرة تخرج من تحت

الأنقاض لتنفض عن كاهلها ركام الخراب ومخلفات الغزو ، وتنهض بعزيمة جديدة لتعبر عن وجودها الحضاري الشامخ من جديد ... إن أمة كهذه لن يستغرقها الخمول إلى الأبد ، وهي لن تشهد ما يسمى بالهزيمة الحاسمة . قد تخسر جولات قبل أن تنهض إلى ممارسة رد فعلها العملاق ، لكنها ما أن تستوعب حقيقة الخطر حتى تنهض بكل عظمتها إلى تصحيح مسيرة الزمن وتتولى صناعة تاريخها بنفسها من جديد . وهكذا فإن في إمكاننا أن نلاحظ :

1 ـــ أن التجزئة والانقسام ظاهرة لا زمت وتلازم الأمم في أزمان ضعفها ، وتخلفها إبان عمليات الغزو والاحتلال والاستعمار .

2 ـــ أن رد فعل الأمة الكبيرة الممزقة ـــ ولاسيما في ظروف دولية قاهرة ومعقدة كالتي تسود العالم اليوم ـــ لن ينتظر حدوثه في الأقطار أو الأجزاء جميعا في آن واحد ، إذ لابد من أن نأخذ باعتبارنا فاعلية كل الأسلحة التي استخدمها ويستخدمها الاستعمار والإمبريالية ، وما توفر ويتوفر له من إنجازات تقنية وصناعية هائلة ، تمكنه من كبح جماح جماهير الأمة في هذا القطر أو ذاك إلى حين ، محدثا بذلك خلخلة في نظام النبض الإيقاعي المنسجم مع حركة الجماهير العربية في شتى أقطارها ، ليسيج عليها ، بعد ذلك بمفاهيم من صنعه هو ، يكون من شأنها أن تسمر الحركة ، وتخلق الحدود بين المفاهيم ، ومن ثم التناقض .

إن رد الفعل ، إذن ، لن يكون على هيئة طفرة كبيرة تجتاح الأجزاء جميعا بل ، لابد من أن تبدأ نبضاته في الجانب الأكثر تعبيرا عن روح الأمة ، وأشد استعدادا لقبول التحدي والمقاومة ، والأكثر وعيا لطبيعة الصراع ولعناصره وثقة بالإمكانات الكامنة لدى الجماهير، وأرقى درجة في التطور الاجتماعي والاقتصادي ، وفي التنظيم الكفؤ ذي الفاعلية .

3 ـــ أن تواتر هذه النبضات واستمرارها سرعان ما ينبئان بعافية الأمة ، رغم ما قد يظهر على السطح من طفوح وأعراض قد تعكس روحا مرضية تحللية أكثر مما تعكس من ملامح الصحة والتجدد ، كما تنبئ عن مكان وجود القلب القادر فعليا على ضخ

روح الجلاد والمقاومة ، عبر قنوات كثيرة ، إلى بقية أجزاء الجسد ، ليبعث فيها الحركة بعد أن كاد إيقاعها يخمد تحت وطأة القهر والعسف والقتل وظلام القرون الطويلة . إن ليل الاحتلال التركي الطويل تمكن فعلا ولأول مرة في تاريخ أمتنا ، من أن يدمر معظم مكامن الضوء والإبداع لديها زهاء أربعمائة عام ، معملا فيها كل الأساليب من نهب للخيرات والمقدرات ، إلى تكريس التجزئة الطائفية وتسعير النعرات العشائرية والعائلية ، إلى أفظع أشكال القتل والتنكيل وأكثرها انحطاطا ، إلى إطلاق ستارات دخانية كثيفة من الفكر الديني الشائه المزور التعصبي لتقوم بدور التغطية على كل ما يقوم به على أرض الواقع الوجود الاستعماري الدخيل . إن ذلك كله أتاح الفرصة سانحة وواسعة للبلدان الأوروبية في أن تنهض وتتخطى الأمة العربية في التطور إلى مسافات بعيدة ، لتنقض فيما بعد على المنطقة المنهكة المتهالكة تحت وطأة الهمجية التركية الطويلة الأمد .

لقد تمكن الاستعمار بشكليه القديم والجديد ، من العثماني التركي ، إلى الإنكليزي ـ الفرنسي ، إلى الإمبريالية المعاصرة ، من أن يخلق مجموعة من المفاهيم الشائهة ، ويفرضها على الذهن العربي معتمدا على أدوات تسلطه ونفوذه من جهة ، وعلى تفشي الجهل والأمية العلمية من جهة أخرى.

ولقد تمكنت هذه المفاهيم من احتلال واجهات ضخمة من حياتنا الفكرية والثقافية حتى كادت تصبح تقليدا ، وجزءا من التراث لا ينفصل . وصار الخروج عليها يشكل ، في حد ذاته ، خروجا على مقدسات أوبوابات مقدسة . ولم يكن ليتيسر ذلك كله لولا أن تمكن المستعمر من أن يقيم على تلك البوابات حراسا حقيقيين في مختلف المواقع من السلطة وفي بعض أهم مواقع صناعة الأفكار والثقافة .

ولقد أثبتت تجارب جميع الأمم والشعوب ومن بينها تجارب الأمة العربية ، أن مسألة النهضة والانبعاث إنما هي مسألة شاملة كلية متكاملة لا تشمل حيزا دون آخر ، ولا مؤسسات دون أخرى . وإن الاعتماد على تحرير وتطوير قطاعات دون أخرى إنما كان دائما من أهم أسباب الانهيارات والانفلاشات التي قد تبدو في ظاهرها مفاجئة لكنها ،

في حقيقة الأمر ، تأتي نتيجة عمليات بطيئة لمعوقات مضادة تنخر في الأذهان ببطء كما تنخر في جسم المؤسسات ، وتقضم كل ما تستطيع من نقاط الضوء في عقل الأمة وتفكيرها وفي وجدانها ، كما تدمر قواعد السلوك ، وتثبت روح التقاعس والأنانية وتشيع روح الفرقة والخمول والفساد واللامبالاة ، حتى إذا ما استغرقت القمة زمن وجودها سقطت على فراغ مخيف ، ما تلبث أن تلوح في عتمته أشباح الديدان الكبيرة والصغيرة التي فعلت كل ذلك الفعل ببطء ومثابرة ، ملمعة طريقها بالنفاق الظاهري ، ومستندة في السر إلى تكاتف ضمني يضمن لها مصالحها الأنانية ، ويهبط بالبناء في اللحظة الحرجة إلى أدنى درك من الانحطاط ، مما يكلف الأمة جهودا مضنية إضافية من أجل النهوض إلى أي مستوى جديد آخر . ومع تكرر العملية تستغرق كثير من بلدان العالم الناهضة والنامية زمن نهوضها في سلسلة متعاقبة من البدايات ، وليس يخفى ما في ذلك من تمكين النظم الاستعمارية والإمبريالية من الحفاظ على مناطق تسلطها وابتزازها إلى أطول حقبة زمنية ممكنة .

إن الزمن المعاصر أخذ يسقط من حساباته كل الإنجازات المؤقتة التي ليس لها صفة الديمومة . فالانتصار الحق اليوم هو ذلك الذي يأتي تجسيدا للحظة التحول النوعي في عملية شاملة ومتكاملة لتطور الدولة والمجتمع من جهة ، ويخدم كقاعدة انطلاق جديدة نحو تطور أكبر دون أن يخشى عليه من الجمود والتآكل ، ثم التصدع والسقوط على فراغ . ومن هنا فقد صار ينظر إلى الإنجازات والانتصارات التي تحققها الدول ، لا بمعزل عما يحيط بها وما يوجد تحتها من بنى اقتصادية واجتماعية وثقافية وفكرية وعسكرية ، بل ضمن عملية البناء الشاملة للمجتمع ، ليتكشف ما إذا كان هذا الإنجاز أو النصر قد تحقق بتجميع عناصره الآنية دون الاستناد إلى قاعدة حقيقية تفضي حتما إليه ثم تتابع الاندفاع من بعده أم لا .

إن مثل هذه الإنجازات مهما بدت في حقيقتها عظيمة ومجيدة ، سواء أكانت تحرير أرض أو بحر أو نهر أو جزيرة أو قناة أو مضيق ، ليس من الضرورة أن تعبر عن بنية داخلية صحيحة ومعافاة ، كما أن انتزاع كأس البطولة بفريق كرة جيد ليس تأكيدا على

مستوى رياضي متطور ورفيع لدى هذا الشعب أو ذاك. فالعدو لا تغيب عنه مثل هــذه الحقائق أبدا . إنه يراقب البنية الداخلية الكلية وصحة الجسم العامة ، ويوليها اهتماماتــه أكثر بكثير من اهتمامه بهذا الإنجاز المنعزل أو ذاك . إن العدو ، أي عدو عصري اليــوم يعرف كيف يظهر استعداده الدائم لأن يتربص وينتظر ، ويستثمر الزمــن حــتى تــأتي مراحله الجوفاء ، فتكون فرصته الدائمة .

إن الانتصار الحقيقــي ، والإنجاز الحقيقــي ، لم يعد ذلك الذي تحقق على أرض الواقع فحسب ، بل وارتبط أيضا ارتباطا عضويــا بمؤسسات المجتمع الأســاسية كلها مـــن سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وعسكرية ، والقادرة ، بناء عليه ،على دفع المجتمع إلى مرحلة أرقى لتحقيق انتصارات جديدة دون أن يتهدده أي خطر بالانهيار أو الارتباك أو التوقف . إن الإنجاز الحقيقي هو الذي تحقق على أرض الواقع اليوم مستندا على كــل دعائــم هذا الواقــع الممتدة من الأمس ومنتشرا على المستقبل كجزء لا يتجــزأ مــن عملية التطور الشاملة والمتكاملة . إنه الإنجاز اليوم الذي يعيش غدا دون أن ينتكس .

ولقد نجحت ســوريا في بناء قاعدة مادية اقتصادية كبيرة على طريــق توجهها ، كمــا نجحت في إقامة مختلف أنواع المؤسسات الراسخة في المجتمع العربي الســوري والداعمــة لنجاحاته من سياسية ، وتنظيمية ، وثقافية ، ورياضية ، وفنية . إن مــن شــأن هــذه المؤسسات أن تعضد حياة المؤسسات الاقتصادية الأخرى في عملية الإنتاج الكــبرى . وتقضي على كل إمكانية للعودة إلى الوراء . ولقد قطعت شوطا بعيدا في عملية تنظيــم وتأطير الأجيال الصاعدة وإعدادها إعدادا سياسيا ، وعلميا ، وتربويا ، وعسكريا ،ضمن الخط القومي الاشتراكي الذي ينتهجه حزب البعث العربي الاشتراكي في بنــاء المجتمــع وصولا به إلى مجتمع عربي ، متحرر ، منتج ، متعلم ، منظم ، ملتزم ، مقاتل ، تســوده الحرية والعدالة الاجتماعية .وإن في ما أنجزته وتوصلت إليه منذ الحركة التصحيحية الــتي قادها الرئيس المناضل حافظ الأسد عام 1970 لأكبر ضمانة مستقبلية من أجل اســتمرار مسيرة البناء على الطريق الواحد جيلا بعد جيل دون توقف أو نكسات ، كمــا أنــه يشكل القاعدة الحقيقية لانطلاقة الجماهير العربية في شتى أرجاء الوطن الكبير .

ولقد أخذت ملامح النجاحات تتبلور على الطريق كبيرة وعملاقة ومتقدمة في خطى راسخة بدءا من حرب تشرين التحريرية ، ومرورا بالتصدي الكبير لحجم التآمر الهائل المتمثل في التحام الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية في مؤامرة كامب ديفيد وفي التمكن من محاصرتها ووقف ذلك الانهيار المريع في التراب العربي .

إن دورا في مثل هذا الحجم ، أخذت سوريا على عاتقها الاضطلاع به ، بعد أن تنصلت وابتعدت عنه معظم الحكومات العربية الأخرى ، لابد وأن يحمل في ثناياه ضراوة الصراع وشراسته ، إذ إن أحدا لم يعد يجهل أن مستقبل المنطقة ، بل والأمة العربية كلها ، يتوقف على نوعية النتائج التي سوف يتمخض عنها هذا الصراع .

وإذا كانت سوريا ،كما أسلفنا ،قد سارت بعيدا على طريق تحقيق التوازن الستراتيجي مع العدو ، وتمشي بثبات وبثقة من خطوة منتصرة إلى أخرى دون أن يغرها الانتصار فتتوقف لاغتنام لحظاته يقينا منها بأن الدرب ما زال في أوله ، ودون أن تغفل لحظة عن الأسس الحقيقية والواقعية التي يعول عليها بناء تلك الانتصارات حتى نهاية الطريق ، وأقصد بناءها المؤسسي الداخلي ، أعود فأقول : إن سوريا هذه ، التي حزمت أمرها على أن تخوض باسم الأمة العربية كلها معركة الأمة العربية ومستقبلها ، لابد وأن تحسم كل المعارك الجانبية الأخرى ، ودنما تردد ، ضد كل ما من شأنه أن يعرقل مسيرة المواجهة المتصاعدة أو يفت من عضدها ، أو يسيء إلى وحدة بنائها وتماسكها .

وإذا كانت سوريا قد تفوقت في بناء وتنظيم وإعداد الجيل الجديد إعدادا وطنيا وقوميا، كفاحيا ومقاتلا، تربويا وعلميا ، عصريا ومتقدما كضمانة عظيمة لاستمرار صمودها وكفاحها على الأمد الطويل ، فإنه قمين بها اليوم أن تبادر دون غيرها ، واليوم قبل غد ، إلى تحرير تلك المفاهيم التي مازالت محتلة وقابعة في زوايا كل طرقات تقدم العقل العربي والوحدة العربية حرصا منها على سلامة ووحدة التفكير لدى شبيبة الأمة في شتى أرجاء وطننا الكبير .

إن مثل هذا الدور يتطلب أن نتيح لهذه الشبيبة اليوم فكرا حرا متحررا ومعرفة حقيقية صحيحة بالتاريخ ، ونجلو كل طبقات الزيف والتزوير التي صنعها المستعمر ومازال في

صفوفنا وفي أعلى مستوى من مؤسساتنا التعليمية في كل البلدان العربية من يقف على حراستها والدفاع عنها ، كما لو أن المعارك الخارجية توجب الغفلة وصرف النظر عن امتداداتها المتشعبة إلى ميادين الفكر أو المؤسسات في الداخل .

إن عملية تحرير بوابات الفكر ، التي مازالت محتلة في معظمها ، وهدم كل مخافرها القائمة في الجامعات أو مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام ، إنما هي في حد ذاتها خطوة كبيرة على طريق إنجاز المهمة الكبيرة التي أخذتها سوريا على عاتقها ، ومن شأنها ليس فقط أن توفر مناخا فكريا ، متحررا موحدا ، منسجما ، فاعلا ، لأجيالنا التي سوف تنهض بالجزء الأكبر من المهمة ، بل ومن شأنها أيضا أن تغدو هي نفسها سلاحا من أشد الأسلحة فعالية في معركة المصير المرتقبة . إن العمل السياسي اليوم يجمع بين جوانحه ــ أو هكذا ينبغي على الأقل ــ كل منجزات العلوم الإنسانية والتطبيقية على السواء ، فيغنى بها كما تغنى بتوجيهه وبإداراته في عملية جدلية لا تنقطع . وإن سياسي اليوم يجد نفسه في أمس الحاجة إلى أن يكون ملما بكل منجزات العلوم ، وإلى فهم حركة المجتمع في التاريخ ، ومعرفة كل القوى الفاعلة فيه والمؤثرة على خط تطوره ، ومعرفة القوانين الناظمة لهذا التطور ، من أجل إدارة العملية السياسية بكل أبعادها وقطاعاتها وجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية وغيرها بصورة متكاملة لا متناقضة .

من هنا تبرز أهمية المفاهيم وتأثيرها على السياسة ، كما تبرز أهمية الوعي الصحيح لتاريخ الأمة انطلاقا من مفاهيم صحيحة ليتسنى للسياسة العربية أن تأخذ كامل أبعادها في الدفاع عن قضايا هذه الأمة تاريخا وحاضرا ومستقبلا .

ومن هنا أيضا تطل علينا ــ أو نطل على ــ الحلقة الأرقى من خط التطور الصاعد حيث تحل السياسة محل الفلسفة وتصبح " أما للعلوم " .

وليس يهمنا في هذا البحث أن نتطرق إلى العلاقة بين السياسة والمعرفة ككل بل إن همنا كله ينحصر في فرز بعض المفاهيم التي فرضت علينا فرضا كي يبقى وعي العربي لذاته ناقصا ومشوها ، وكما تبقى السياسة العربية هي الأخرى ، تائهة ممزقة ، ومن أجل

ألا نلمح أمامنا طريقا حقيقية فيها مسوغ للنضال من أجل استرجاع وحدتنا وبناء دولتنا العربية الحقيقية القادرة على النهوض بكل آمالنا في الحياة والبناء والإبداع .

السياسة والتاريخ

ليس هنالك علم أشد التصاقا بالسياسة من علم التاريخ ولاسيما في بلدان احتلت أراضيها ، وشرد قسم من شعبها وزور تاريخها ، وتخوض ، في الوقت نفسه ، صراعا مصيريا من أجل وجودها كله. وليس ثمة علم أجدر بتحريك المشاعر الوطنية والقومية لدى الشعوب المقهورة ، وتأجيج نار العداوة للغاصب والمستعمر عن طريق استعادة الصفحات المجيدة من نضال الأجداد وبطولاتهم ، وتزكية الثقة بالنفس ، والشعور بالذات ، وبالعزة الوطنية والقومية ، وبث روح التضامن والمودة بين أبناء الشعب الواحد والأمة الواحدة ، من التاريخ .

ولهذا السبب ، لم يعد غريبا أن نلاحظ أن جميع القوى الاستعمارية ما أن تضع أيديها عل مقدرات شعب من الشعوب حتى تعمد إلى عملية مصادرة تاريخه ، إدراكا منها لما له من دور توحيدي نضالي قد يؤدي في أية لحظة إلى صراع دام ومرير مع القوى الغاصبة المستعمرة .وإن الدول الاستعمارية جميعا كانت تسلك الطريق ذاته في محاولات إذلال الشعوب ومحو شخصياتها ، وطمس كل معالم الشعور بالذات . فما أن تنتهي سيطرتها العسكرية على بلد من البلدان حتى تبدأ عملية الاستيلاء على مقومات الوجود والوحدة ، وفي مقدمتها التاريخ ، فتبدأ في تسديد سهامها نحو صدر التاريخ القومي وتعمل فيه تمزيقا وتشويها وتحريفا ، وتبذل كل ما تستطيع في سبيل تعطيل ذاكرة الأمة وإبعادها عن تذكر تاريخها الخاص .

إن تفكك شخصية الأمم ، وانحطاطها ، وقعودها عن النضال ، تبدأ جميعا مع بداية نسيان تاريخها ، مع بداية فقدان ذاكرتها . ومن أجل تحقيق ذلك تلجأ كل الدول الاستعمارية إلى فرض المناهج التعليمية التي من شأنها أن تبتر الشعب عن ماضيه أولا ، ثم تغرس في أذهان الجيل المعلومات الجاهزة الصالحة لأن تجعل منه أطرافا متناحرة لا يجمع

فيما بينها غير الإدارة الاستعمارية . وباعتبار اللغة عاملا من أهم عوامل الشعور بالوحدة القومية وبالاحتفاظ بالذاكرة ، فكثيرا ما كانت تلجأ إلى محاولات قتل اللغات القومية وفرض لغة المستعمر نفسه بعد أن تقدمها إلى الوعي العام في ثوب لغة حضارية علمية متقدمة ، تفرض في المدارس ، كما يتسابق إليها أبناء الفئات المتفسخة قوميا جاعلين منها وسيلة للتقرب من الأوساط الاستعمارية الحاكمة والمتنفذة تأمينا لمصالحهم على حساب مصالح أبناء أمتهم الواحدة من جهة ، ويافطة للوجاهة " الحضارية " أمام أبناء وطنهم " المتخلفين " الذين لا يتقنون غير لغتهم " الوضيعة " . " المتخلفة " من جهة أخرى .

ومن هنا تبرز أهمية التاريخ في الصراع الوطني والقومي بالنسبة لغيره من العلوم . ومن هنا لم يكن تاريخ الشعوب في يوم من الأيام إلا سجلا لنضالها من أجل توفير الحياة الكريمة وضد نزعات التسلط والقهر والاحتلال .

إننا لا نغالي إذا ما قلنا إن حركات الانبعاث القومية والتحرر الوطنية لا تستيقظ ولا تبدأ إلا مع العودة إلى استذكار التاريخ واستلهام أحداثه ولاسيما تلك التي تذكي مشاعر أبنائه تجاه الاعتزاز بمنجزاته وتحفزهم إلى وحدته .

وإن نظرة واحدة إلى جميع الأمم المتقدمة اليوم ، في الشرق والغرب ، تكشف لنا ذلك الاهتمام الكبير الذي توليه تلك الدول لدراسة تاريخها والكشف عن كل إيجابياته وإبرازها في أذهان الأجيال الناشئة ، وتوظيفها سياسيا وقوميا وإنسانيا في سبيل إنشاء جيل متكاتف موحد ، يملأه الاعتزاز بتاريخه العميق الراسخ الجذور في الأرض ، والمتواصل عبر الزمن .

إنها لا تكتفي بالتذكير بالماضي واستنباط حقائقه ، بل تسبغ على ذلك الماضي ثوبا من المجد النضالي المتواصل على الأرض القومية ، وتسعى إلى إبراز كافة إيجابياته مهما كانت بسيطة ، وتنتهز جميع الفرص لإقامة الاحتفالات من أجل إحياء ذكرى ، أو إقامة نصب أو تمثال أو متحف أو معرض ، كما تستثمر كل الإمكانات التي تقدمها العلوم الأخرى ، ولاسيما الآداب والفنون بما فيها النحت والتصوير والسينما من أجل تكبير

صورة المجد المقصودة ، سواء على صعيد النضال السياسي القومي أو الإبداع الحضاري ، لتنغرس في ذاكرة الناس وتصبح جزءا من شعورهم الوطني والقومي ، جزءا من شعورهم بالعزة والكبرياء والثقة بالنفس ، جزءا من شخصيتهم .

إن الأمم المتخلفة والمتقدمة تتساوى جميعا في تكييف علم التاريخ لمتطلبات التربية الوطنية والسياسية ، ولا فرق بينهما إلا بدرجة النجاح أو الإخفاق في هذا المضمار وتوفر الوسائل .

لكن هذا التكييف لا يعني التغيير أو الاختلاق أو التزوير إطلاقا . إنه يعني أول ما يعني الأمور التالية :

1ـ الكشف عن ملامح خطوط التواصل لوجود الأمة عبر العصور ، وإبراز معالم هذه الخطوط بحيث تصبح دراسة تاريخ هذه الأمة أو تلك إنما تمر عبر خطوط تواصلها هي على أرضها ، وتبيان عملية وأسباب شحوب تلك الخطوط وهزالها وكمونها أحيانا في وجدان الشعب ونضاله السري ، الفكري أو المادي أو الاثنين معا ، في فترات القهر أو الاحتلال ، إذ إن ظهور شعب آخر أو أمة أخرى على مسرحها أو أرضها ومنصة صناعة أحداثها لا يعني إطلاقا انقطاع وجود الأمة ، إنها تظل ـ كما قال لينين ـ " الموجودة في نضال أبنائها المتوجهين إلى الهدف " .

ومن هنا ، فإن دراسة التاريخ من الناحية الوطنية في فترة كهذه يعني التركيز على دراسة الأمة الموجودة " في القبو" أو" تحت أرض الأحداث " أو خلف المسرح ، والكشف عن كل نضالات أبنائها في مثل هذه المرحلة واعتبار كل من قعد على "منصتها " غازيا ، طارئا ، غريبا ، سيندحر بعد فترة طالت أم قصرت ، لتتوهج خطوط التواصل من جديد ، بعد أن يكون المحتل أو المستعمر قد بذل كل جهوده من أجل طمسها .

2 ـ إبراز الإيجابيات الفردية والجماعية في تاريخ الشعب والأمة ، ومزجها بالعملية التربوية تغذية للمشاعر الوطنية ، وتنمية للثقة النفس ، وإذكاء لروح البذل والتضحية في كل وقت تتطلبه الأمة أو الوطن . ويجب أن نعلم علم اليقين أن تكييف

دروس التاريخ بمقتضيات القومية والوطنية ، من الخطط التي تعمل بها جميع الأمم من غير استثناء ، وأن البلدان المتخلفة هي أقل البلدان قاطبة استثمارا لتاريخها .

لقد لجأت البلدان الاشتراكية (سابقا) إلى إبراز ، ليس البطولات الواقعية التاريخية فحسب ، بل وتلك البطولات التي تحدثت عنها الحكايا والأساطير الشعبية في أعمال النحت ، والتصوير ، والسينما ، والباليه وغيرها ، وصارت تدرس جميعا ليس كجزء من التراث الوطني والقومي فقط ، بل وكجزء من مكونات شخصية الإنسان المعاصر بعد دمجها في العملية التربوية سياسيا وفنيا وأخلاقيا .

3 ـ انتخاب الوقائع التاريخية الأقدر على التأثير في عملية خلق الإنسان الجديد بالنسبة لكل مرحلة من مراحل تطور المجتمع ، والتركيز عليها ، والإفادة منها في بناء السياسات المرحلية أو البعيدة المدى على السواء .

إن هذا هو ما يمارس على نطاق العالم كله. ولقد أقرت المؤتمرات الدولية لتدريس التاريخ جميعها عملية استخدام التاريخ كوسيلة للتربية الوطنية والقومية ، وكل ما كانت ترجوه هو ألا يبلغ الأمر حد إثارة الضغائن وتأريثها بين الدول مما قد يؤدي إلى إشعال نار الحروب .

وإن نظرة واحدة على كتب التاريخ الدراسية في أوربا الشرقية والغربية وفي أمريكا تبين لنا كيف أنها مؤلفة وفق غايات قومية بوجه عام ، بل ومشبعة بالروح القومية إشباعا تاما ، وما أجري عليها في العقود الأخيرة من تنقيحات لا يعدو كونه عملية " تنقيح " من الروح العدائية الصرفة وذلك بعد أن استتبت أوضاع تلك الدول ، وابتعدت عن أحداث الحرب العالمية الثانية .

إن أهدافنا السياسية ، الوطنية والقومية ، التحررية النبيلة تتطلب منا :

- الكشف عن حقيقة تاريخنا في وجوده المتواصل .
- الكشف عن مواضع التزوير والتشويه التي ألحقت به من قبل أعدائنا .
- تحرير كل المواقع والبوابات الفكرية في هذا التاريخ ، ونقض كل المفاهيم الخاطئة والمفروضة عليه من الخارج .

- توحيد التصور التاريخي المتكامل لأمتنا في أذهان الجيل العربي الصاعد وإزالة كل الالتباسات والتناقضات التي وضعت من أجل شل فاعلية هذا التاريخ في عملية نهضة الأمة وانبعاثها .

ولابد لنا هنا من أن ننوه بالأمور التالية :

1ـ ليس في إمكان أي منا أن يكتب في التاريخ العربي إذا لم يستوعب حركة هذا التاريخ من خلال الوعي الحقيقي للقوانين العامة الناظمة لهذه الحركة في اتجاهها التقدمي أبدا ، إنه لابد من المنهج العلمي الواضح والهادف إلى الكشف عن خطوط مسيرة التاريخ التقدمية والتركيز على عوامل توهجها أو تلاشيها في هذه المرحلة أو تلك . وكما أن السياسة هي قائدة لكل القطاعات الأخرى : الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية ، تعكس واقعها وتفعل وتؤثر بها وتوجهها وتقود تطورها ، وكما أن تاريخ أي شعب إنما هو ، في النهاية ، سجل لسياساته التي تعكس خلاصة نشاطاته المادية والروحية معا ، فإن من يدعي إمكانية الوقوف في التاريخ على " الحياد " لا يكون " مؤرخا " بلا قضية فحسب ، بل ومفتقرا إلى أدنى درجات الفهم للتاريخ ، وإنه ، شاء أم أبى ، اعترف أم لم يعترف ، لابد من أن يجد نفسه ملتزما أحد طرفي الصراع في العملية السياسية لهذا الشعب أو ذاك ، سواء تجلت تلك السياسة عملا عسكريا أو اقتصاديا أو فكريا محضا .

إن المؤرخ الذي يتجاسر على وصف الصراع العربي ـ الإمبريالي الصهيوني بأنه صراع بين مجموعة أو مجموعات من الدول ، يأخذ تارة طابعا عسكريا وأخرى سياسيا وثالثة اقتصاديا ، لا ينتمي إلى هذا العالم مطلقا . إن أي تاريخ لهذا الصراع لا يضع الأمور في نصابها ويسمي الأمور بتسمياتها ، إنما يلتقي في واقع الأمر مع المخططات الإمبريالية الصهيونية العدوانية ذاتها .

2 ـ إن المؤرخ الحقيقي لا يؤخذ بظواهر الأمور ، بل يغوص خلف الحقائق حيث تكمن القضايا الحقيقية للشعوب ، وحيث يتجلى الصراع على حقيقته : ظاهرا حينا ومستترا أحيانا ، حادا عنيفا صاخبا حينا ، ولينا هادئا أحيانا ، دون أن يترك الهدف

يضيع منه — وهو القبض دائما على حقيقة الصراع ودوافعه وأطرافه .

إن هذه الحقيقة هي الحقيقية العلمية في التاريخ ، كما أن اكتشاف العلاقة بين مادتين في الكيمياء ، وصياغتها في معادلة هي حقيقة علمية كيميائية .

فعلى المؤرخ ، إذن ، ألا يكتفي بالعوم بين الفقاعات الطافية من الأحداث ، بل عليه الغوص خلف الحقيقة التاريخية — خلف القضية الحقيقية التي يكافح من أجلها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم بكل مظاهر هذا الصراع ومهما تنوعت أشكاله ودوافعه ومستلزماته. وإن في كل قضية وجهين : الحق والباطل ، العدل والظلم ، التقدم والجمود . ولما كان الصراع في جوهره سياسة فإن القضية ذاتها لا تنفصل عن السياسة ، كما أن التاريخ كدراسة لتلك القضية ولكل ما يحيط بها من مقدمات ومرافقات ونتائج هو أيضا سياسة إلى درجة كبيرة . ولما كانت القضية في وجودها الموضوعي لا تحتمل في أحشائها غير قطبيها الاثنين : الظلم والعدل ، الحق والباطل ، ولا يمكن أن تتسع لجانب محايد في عملية الصراع ، فإن تسجيل الحادثة أو الظاهرة ، أو كل الحوادث والظواهر التي تكتنف القضية وتؤلفها لا يمكن أن يتم إلا من خلال الولوج الواعي إلى وجودها الموضوعي ، وحيث منطقها وجانبها النير في تناقضه مع الجانب المظلم . إن أي زعم لتصوير الحقائق التاريخية خارج هذا الفهم بدعوى الوقوف على الحياد إنما هو كذب على الحقيقة التاريخية وتشويه لها ، سواء أكان الأمر متعمدا أم نتيجة لأمية ثقافية علمية وتاريخية . إن مثل هذا الحياد المزعوم ليس — في أفضل حالاته — إلا امتدادا للموقف الآخر ، للطرف الآخر في قطبي الصراع : الطرف الظالم ، الباطل .

إننا حينما نقرأ بعض من أرخوا للحركات الثورية في الوطن العربي ، بدءا من الثورة الإسلامية الكبرى التي قادها وفجرها الرسول العربي ، ومرورا بثورة القرامطة ، والثورة العربية ، والثورة السورية الكبرى وحتى اليوم ، لا يسعنا إلا أن نرثي لتاريخ أمتنا الذي سطا عليه مثل أولئك المؤرخين الذين قلبوا الحقيقة عقبا على رأس ، وشوهوا قضية النضال التاريخية ، وتبنوا مواقف الأعداء عن قصد منهم أم عن جهل ، فالأمر في النتيجة سواء .

ومن الأمثلة القريبة لموضوعنا هذا اشتراك القبائل العربية البدوية في مقارعة قوى الاحتلال التركي والفرنسي في سوريا مما أكد قومية الصراع إلى أعمق جذوره . لكن كثيرا من المؤرخين أخذوا يصورون هذه الظاهرة كما يصورها المؤرخون الاستعماريون أنفسهم : إنها صراع بين العلم والجهل ، بين التقدم والتخلف ، بين الحضارة والفوضى وانعدام القانون .

لقد كتب أحمد وصفي زكريا في كتابه " عشائر الشام " واصفا ظاهرة المقاومة التي أبدتها القبائل العربية البدوية للاستعمارين الفرنسي و التركي :

" فساق الفرنسيون عليهم قوة من الهجانة في آذار 1924م يعضدها مدفع جبلي وسيارات رشاشة ، وضربتهم على مقربة من جبل سيس ، كبدتهم عشرين قتيلا ، لكن هذه الضربة والضربتين اللتين أعقبتهما خلال ثورة سنة 1925م لم تؤثر ، وظل " الغياث" يقطعون الطريق على السيارات العاملة بين دمشق وبغداد ، ونهبوا مرة بريد بغداد وفازوا بثلاثين ألف دينار ، وانضم إليهم زرافات من النحاد والربيدات والبدو هم من فرق العمور ... ثم اشتركوا بالثورة السورية وصاروا يؤوون العصابات الدرزية والدمشقية وفلسول الثوار الزاحفة من الجنوب أي شرق الأردن والأزرق إلى غوطة دمشق ، واستطالوا في هذه البرهة كثيرا ، وبلغت شرورهم جبل قلمون ، ونهبوا نحو 5000رأس من ماشية النبك وجيرود وغيرها ، كما نهبوا بيادر بعض قرى الحرج شرقي دمشق وحاول الفرنسيون وقتئذ رد بائقتهم ، فقام الرئيس كاربنتيه قائد سرية الهجانة يحرس قافلة سيارات بغداد ، لكنه أصيب في 12 أيلول 1925 في تلعة المساعي حديد أحد المساعيد المنضمين إلى الغياث ، فشاد الفرنسيون له وسط شارع بغداد في دمشق قبة تحتها سبيل ماء وسجلوا عليها اسمه وتاريخ وفاته ، ومن ثم صارت الطائرات تراوح الغياث القصف وقوى الهجانة تحاصرهم إلى أن عجزوا واستأمنوا ...[1]

" وخلال الحرب العالمية الأولى أعدم الترك الشيخ محمد الملحم (رئيس قبائل الأحسنة) وقالوا : إن ذلك لشقاوته ونزواته العديدة ، وقد أدى إعدام محمد الملحم المذكور إلى أن

---

(1) أحمد وصفي زكريا " عشائر الشام" ص 338ـ 289 .

تنحاز الأحسنة وقتئذ إلى القضية العربيـــة "[1]

" بينما المعروف أن سبب الإعدام هو " عزم محمد الملحم على اللحاق بالأمير فيصل بـــن الحسين حينما نهض بالثورة العربية ، فعلمت الحكومة التركية بذلك ، فألقت القبـــــض عليه وصلبته "[2]

إن في مثل هذا التسجيل للتاريخ إجحافا بل وعدوانا على قضية الأمة العربية ونضالهـــا : لقد أبرزت المستعمر الفرنسي كقوة حضارية ساهرة على استتباب الأمن وتأمين حـــري الحياة في ظل الحماية الصارمة لأمن المواطنين ضد السطو والنهب وأعمال الفوضى .
كما أظهرت بعض أجنحة الثـــورة على الاســـتعمار ممثلين للتخلف والسطو والفوضـى والعبث بأمن المواطن والدولة .
إن المؤرخ ، على جهله المريع بقضايا الشعوب والسياســـة والصراع الدائر ، لم يعـــرف كيف يميز بين أمن السلطات الاستعمارية وأمن البلد المستعمر ، بين مصالح المســتعمر في البلدان ومصالح المواطنين العرب في إخراجه بشتى الوسائل ولو أدى ذلـــك إلى إحـــراق الأرض بكل خيراتها كي يحرم منها الغاضبون .
إنه ، وهو الجاهل بمثل هذه البديهيات الأولية ، لن يتمكن ، بالطبع ، من إدراك المعــــنى العظيم لانضمام أولئك البدو الرحل إلى قوافل الثوار ضد الاحتلال التركي والفرنســـي ، وتقديمهم كثيرا من شبابهم شهداء على مذابح الاستقلال الوطني ، إن أول معاني ذلـــك الانضمام هو بلوغ الصراع بين الشعب وأعدائه لبه القومي الصريح.
3 ـــ إن من يبحث عن الحقيقة التاريخيـــة الموضوعيـــة سوف يجدها في عملية الصـــراع نفسها . ومنطق الحياة في التاريـــخ هو أن الظلام ، والقهر ،والاستغلال ، والاستعمار ، والاحتـــلال قوى سوداء تقف ضد إنسانية الإنسان وقيمه وتقدمه وينبغي النضال ضدها مهما كلف ذلك من ثمن . وإن محاولات كبـــح اندفاع الشعوب نحو حريتها وتقدمـــها وتحقيق رخائها وإنسانيتها على أســـاس من الحرية والعدل إنما هو فعـــل رجعي ينبغـــي

---

(1) المصدر نفسه ، ص 437 ـــ 439 .
(2) المصدر نفسه .

التصدي له والإطاحة به . وإن منطق التاريخ هو أن الحياة حركة ، والحركة دائماً إلى الأمام ، أو هكذا ينبغي أن تكون ، وتاريخ شعب في النهاية ليس إلا مسيرة نضال هذا الشعب من أجل تحقيق حريته وسيادة العدالة والتقدم بين أبنائه ، كما أن تاريخ الإنسانية ليس إلا مسيرة نضالها الطويل عبر دروب الآلام الكبيرة إلى مستقبل الإنسان الحقيقي ، الزاخر بالقيم ، الضامن للعدل والأمن والرخاء .

ومن هنا فإن المؤرخ الواعي لا يسقط في متاهات الجهل والتحريفات ، بل يتلمس طريق القضية الكبرى التي يندلع بها ومن حولها الصراع . وإن القادة العظماء يبزغون عُظماء ، ويبقون عظماء بقدر ما يمثلون ، في ذواتهم ، وفي قيادتهم لذلك الصراع ، مصالح هذه الجماهير الطامحة دائماً إلى التقدم والحرية والعدل .

وهكذا فإن دراسة التاريخ تعلمنا :

- الإيمان العميق بمقدرة الشعوب التي لا حدود لها حينما تناضل من أجل قضاياها العادلة .
- أن الصراع بين طرفين لم يكن في يوم من الأيام يتقرر بجولة ، أو بمعركة وأن الأمم ذات الإمكانات الكبيرة كالأمة العربية استهكلت كثيراً من غزوات الأقوام وجائحات الشعوب دون أن يؤثر ذلك على عملية تواصل وجودها القومي الراسخ والطويل على الأرض العربية . إن حقيقة الأمم والشعوب تكمن دائماً في خبرة أبنائها الواعين لمصالحها وظروف تطورها ، والمناضلين من أجل قضيتها وانتصارها ، والمعبرين عن صمودها أيام النكبات والمحن .
- إن كل الفقاعات التي تعلو سطح التخلف الآسن لا يمكن أن تكون تعبيراً عن جوهر الأمة ، وإن كل السطوح الجامدة الراكدة التي تشد أقدام التطور إلى الأرض لن تصمد أمام تيارات الحياة الحقيقية المتدفقة من أعماق الجماهير .
- إن مواقع التعبير عن ضمير الأمة وحيويتها ليست في مواقع الكمّ المنفصل عن النوع ، بل في النوع الفاعل المتفاعل مع " الكم " بصورة لا تنفصل .

• إن صمود الأمم بجماهيرها هو الذي يفقد انتصارات الخصوم كل بريقها ثم يحولها إلى هزائم . وإن لنا من تاريخنا دروساً بليغة في هذا الشأن . إن إلمامة سريعة بحروب هانيبال أحد أبطال شعبنا العسكريين والسياسيين الخالدين ضد الإمبراطورية الرومانية وانتصاراته الأسطورية الخاطفة المتتالية زهاء ستة عشر عاماً دون أن يتمكن من فرض الصلح على روما رغم كل الجهود المضنية التي بذلها من أجل تحقيق ذلك مما أدى أخيراً إلى رجحان كفة روما ذات القدرة الأوسع على الصمود ومتابعة الصراع نظراً لإمكاناتها البشرية المتفوقة ، إن إلمامة كهذه تكفي لتبين لنا مدى أهمية وعي السياسي لعامل التفوق الستراتيجي والمؤقت ولمدى تحالف كل منهما مع الزمن مما لا بد أن تنعكس نتائجه سلباً أو إيجاباً في صناعة التاريخ لهذه الأمة أو تلك .

4 ـ ومن هنا نجد لزاماً علينا القول إن على المؤرخ أن يعرف كيف يدرس مثل هذه الظواهر التاريخية ويستخلص منها العبر والنتائج ، ويقدمها للسياسة ، لأن التعاون بين التاريخ والسياسة أمر بديهي ولابد منه .

5 ـ إن فهمنا للتاريخ لا ينفصل عن إيماننا العميق بأن العمل يفرض على الإنسان مسائل تؤدي إلى تغيير أدوات العمل ، وبتغيير أدوات العمل يتغير الإنسان نفسه أيضاً كقوة منتجة ، وبأن الجماهير هي صانعة التاريخ في كل أدواره . إلا أن ذلك لا يقلل من إيماننا بدور الفرد في صناعة التاريخ . إن قيادة الفرد المتميزة هي التي تتيح فرص استثمار الإمكانات وعامل الزمن إلى الحد الأقصى من أجل تحقيق النجاح في نضال الجماهير .

إن درجة فعالية الجماهير الشعبية تختلف في حل هذه المهمات الاجتماعية والسياسية أو تلك باختلاف مستوى وعيها وتنظيمها ، وإنه في حركة الجماهير ونضال الطبقات وكفاح الشعوب والأمم وتنازع الدول تنشأ دائماً الحاجة إلى الأفراد الذين يتميزون في وعيهم المتفوق للمرحلة ولمتطلبات الفوز في الصراع ، ويبرعون في إدارة عملية هذا الصراع ، فيضعون المهمات أمام جماهيرهم أو شعوبهم ، ويقودون نضالها ويرأسون هذه الحركات أو تلك ، ويزجون هذا الجيش أو ذاك في خضم المعركة . إن دور الشخصيات

البارزة عظيم وضروري عندما تعبر هذه الشخصيات تعبيراً واعياً عن الحاجات الاجتماعية للتطور ، وتقوم بدور المنظم والأيديولوجي والقائد للجماهير . إنها بمقدرتها على فهم الوضع ، والنفوذ إلى جوهر العمليات السياسية والاجتماعية واتخاذ القرارات المناسبة في اللحظة المناسبة ، وبمبادراتها الخلاقة ، يكون لها تأثير جد عظيم وخطير على عملية صناعة التاريخ ، بل يمكن القول إن دورها في هذه الحال لا ينفصل عن دور الجماهير إلا إذا جازت الحياة بانفصال الرأس عن الجسد .

إن على المؤرخ أن يتمتع بفهم صحيح وعميق لمثل هذه العلاقة دون أن يسيء أو ينتقص من أهمية دور كل من الشخصية والجماهير .

6 ــ إن معرفة التاريخ لا تعني مطلقاً معرفة أحداثه وتسلسلها في الزمان والمكان ، كما أنها لا تعني الإحاطة بما قد وضعه بعض المؤرخين من تحليلات وتفسيرات لتلك الأحداث. إنها أبعد من ذلك بكثير.إن مهمة المؤرخ قد تكون أصعب وأخطر من أية مهمة علمية أخرى .

إن التعمق في علم التاريخ لا ينفصل بأية حال عن التعمق في الثقافة بكل وجوهها وأبوابها . والثقافة شيء والتعلم شيء آخر . ثمة كثيرون ممن يلمون بالأحداث وتسلسلاتها وتاريخ وقوعها ، لكن الواحد من هؤلاء ليس إلا نوعاً من الإنسان " الأرشيف" إذا صحت التسمية . أما الثقافة فهي تتطلب الإلمام بشتى وجوه المعرفة والفكر البشري ، الإلمام بالقوانين العامة الشاملة الناظمة لعمليات الفكر والمعرفة في شتى فروعها ومجالاتها وبالتالي معرفة الخطوط الحقيقية لمسار العملية التاريخية لدى شعب من الشعوب أو أمة من الأمم في تفاعلاتها الجدلية الكثيرة والمعقدة الداخلية والخارجية ، الذاتية والموضوعية ، ومن هنا ، ومن خلال هذا الفهم الشامل الذي ينفذ إلى صميم الأحداث ، من خلال المعرفة الحقيقية للقوانين الناظمة لعمليات تطور المجتمع والطبيعة على حد سواء تتحدد المعرفة الحقيقية بمجريات الأحداث التاريخية ضمن أوساطها البيئية والمحيطية ، ويتكون الحكم الصحيح الواضح.

إن المعرفة الحقيقة إذن ، التي من خلالها ينبثق شعاع أو طيف واضح وقويم يخدم كمعيار

للحكم على الأحداث دونما عوج أو تناقض ، هو ما توفره الثقافة الحقيقية ، وإن كلمة " ثقافة " العربية هي خير ما يعبر عن العملية ، إذ إنها اشتقت من الفعل " ثقف " بمعنى " قوّم " وثقف الرمح قومه ، والمثقف هو الرمح ، والفعل " قوّمه " يحمل المعنين معاً : قدّره ، وجعله مستقيماً وكما تعني الإتقان أيضاً .

والثقافة هذه هي سلاح المؤرخ ، وبدونها لا يمكن أن يكون شيئاً في حقله ، وهي لا تأتي منحة أو هبة من مدرسة أو جامعة أو أية جهة ، إنها تكتسب بالجهد وهي أرقى مرحلة في عملية المعرفة . فمن المعروف أن الإنسان يتعلم الأسس والمبادئ العامة لهذا العلم أو لكل العلوم ، ثم ما يلبث أن تهتز أمام ناظريه كل تلك الحدود المصطنعة بين علم وآخر ، وتبدأ عملية التعرف على الواقعين الاجتماعي والطبيعي من خلال تداخل الظواهر ، وتفاعلها وتغلغلها كل واحدة داخل حدود الأخرى مما يتيح تلمس أهم العناصر المشتركة في الفعل ، وأهم القوانين الناظمة لعمليات الفعل تلك ، وهنا تبدأ المرحلة الثانية ، أما المرحلة الثالثة فهي تشمل العودة إلى الحدث ، إلى الواقع ، إلى الموضوع المتعرف عليه ، بعد التسلح بمعرفة تلك القوانين العامة ، من أجل تقويمه والحكم عليه أو توجيهه ، والتأثير على مساره ، بحيث يندمج مع الخطوط العامة لعملية التطور المطلوبة .

ومن هنا كانت عملية التاريخ أبعد الأمور عن عملية تسجيل الوقائع والأحداث حسب أعوام حدوثها، أو نقل الأحكام والتقويمات كما هي من الخارج ، مهما قد تظهر للوهلة الأولى في ثوب علمي محض ، لأن المرحلة الثالثة من عملية المعرفة ، كما أشرنا ، تتيح التوجه إلى الحدث بعد أن تمت عملية التعرف عليه لتقويمه وتفسيره وللتأثير فيه أيضاً. لكن لا ينبغي هنا أن نفهم من كلمة " التأثير " ما قد يخطر لأول وهلة كالتغيير مثلاً ، إذ من المعروف أن أحداً لا يقدر على تغيير حدث قد حدث ، لكن التأثير هنا قد يعني نقل ساحة فعل هذا الحدث من مكان إلى آخر ، ومن اتجاه إلى آخر وبالتالي قد تتم في ذلك عملية حرفه عن أداء دوره الحقيقي في خط التطور العام ليؤدي دوراً بناءً آخر أو تعويقياً تخريبياً . إن كل من يعرف واقع المنطقة العربية معرفة حقيقية ، وطبيعة الصراع الإمبريالي الصهيوني وسمات المرحلة التاريخية التي بلغها هذا الصراع ، بصرف النظر عن

كل ما قد يطفو على السطح وفي أجهزة الإعلام العربية والدولية ، سوف يكون من اليسير عليه مثلا فهم أسباب انسحاب القوات الإسرائيلية الغازية من لبنان وكل الآثار والنتائج التي تواكبها ، ما كان منها متعلقا بمجتمع الكيان الصهيوني نفسه ، وبالبنية النفسية للانسان الصهيوني ، أو ما كان منها يتعلق بمعادلات القوى العربية المتصاعدة ، التي تصدت لهذا الغزو وأفشلته ودحرته ، مدخلة الصراع في مرحلة جديدة ، لا نشك في أنها ستكون بمثابة نقلة نوعية ، لن تنتظر طويلا حتى تفرض نفسها واقعا جديدا في ساحة الصراع على الأرض .

إن مسيرة التطور مؤلفة من سلسلة لا نهاية لها من الحقائق الحلزونية المتصاعدة بأقواسها الثلاثة : القوس الأولى القاعدة ، ثم القوس الثانية الأعلى والمناقضة تماما في الاتجاه التي تنفي الأولى ، وتمثل المرحلة الانتقالية في التطور ، ثم القوس الثالثة الأعلى من الأثنتين ، وفوق الأولى مباشرة من حيث الاتجاه وتنفي بالتالي الثانية ، لإنها نفي النفي . ولابد من التذكير بأن القانون التبادلي " صراع الأضداد أو المتناقضات " يعمل في الأقواس الثلاثة دون انقطاع ، وإذا افترضنا أن من يقف في القوس الأولى إنما يمثل الماضي الساذج بنظراته ومثله وبساطة قيمه ومعتقداته ، فإن من يقف في القوس الثانية إنما يمثل التمرد على تلك القيم البدائية البسيطة ونفيها وبناء شبكة من القيم وقواعد السلوك الحياتية الانتهازية المعقدة المناقضة للأولى ، إنه يرفض الماضي رفضا كليا ويعتبره ساحة للتخلف ، كما يعتبر نفسه قمة التطور ، ثم إن من يقف في القوس الثالثة يجمع بين المرحلتين في خطوط تواصلهما الإيجابية ، إنه يتبنى القيم الماضية وكل إيجابيات الماضي بدراية منبثقة عن الوعي . إنه الصادق عن وعي ، المحب للماضي كجزء من تاريخ الأمة تمتد خطوط تواصلها منه إلى الحاضر إلى المستقبل . إنه يرى استمرار البذور الإيجابية في نسغ التطور الصاعد من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل ، هذا النسغ الذي يحمل نكهة ، ورائحة وسمات وخصائص وميزات كل أمة ، المتشكلة تاريخيا والتي تميزها عن غيرها من الأمم . إنها الأصالة الحقة التي لا تقتصر على الماضي ولا تتعارض مع الراهن والمستقبل لأنها جسد واحد هو العروق الحية في الجذع التاريخي المستمر . إنه في هذا الموقع ينفي كلا

من الحالتين السابقتين كلاً منهما على حدة ، ويتحد في موقعه مع جميع عناصر التطور الإيجابية المتواصلة في المرحلتين السابقتين.

ومن الصعب حقاً على من لم يتجاوز بوعيه مرحلة القوس الثانية (النفي) أن يميز بين التعلق البسيط الساذج بالتاريخ الماضي ، وبين الدراسة الواعية لأحداثه واستنباط عبره ودروسه ، والتزويد بكل إيجابياته مما يشكل المعنى الحقيقي للتراث وللأصالة .

إن كلا من الاثنين يتعامل معه بمحبة ، لكن الفرق بين التعاملين جد كبير. إن الفرق بين من يتغنى بالماضي ، يتعشقه ، ويندب أطلاله دون أية مقدرة على الحركة في الراهن إلى المستقبل ، وبين من يجلو الغبار عن حقائق ذلك الماضي ليتلمس خطوط تواصلها الناشبة في الحاضر والمستقبل معاً ، فيستشف ملامح المستقبل ، ويسهم في رسم توجهاته الحقيقية ، جدّ كبير.

إن من يقفون في القوس الثانية (مرحلة النفي ، المرحلة الانتقالية) هم دائماً أخطر الفئات شأناً على عملية التطور ، سواء أكان ذلك في مجال الفكر والثقافة أو سواهما. وبقدر ما يتشبثون بموقعهم فإن المرحلة الانتقالية في التطور من أدنى إلى أعلى تطول أو تقصر . فهم دائماً يتصورون أنفسهم في موقع القمة من التطور ، ويخلطون بين الفئة التي تجاوزتهم إلى المرحلة الأعلى وبين الفئة التي عرفوها أو ما تزال في المرحلة الأدنى . فالإنسان الصادق ، مثلاً ، الطيب بالفطرة ، هو طيب لكنه ساذج ويمكن خداعه بسهولة ، وهو يقف في الحلقة البداية ، القاعدة ، لكنه ، في نظرهم ، كالإنسان الذي اجتاز مرحلة التطور الثلاثية إلى القوس الأعلى واختار أن يكون طيباً عن دراية منه ووعي كاملين بعد تجاوز المرحلتين الأدنى كلتيهما : الطيبة الساذجة و " الشطارة " الانتهازية . إن هذه الفئة التي يمكن أن نسميها فئة القوس الثانية هي التي تعاني منها المجتمعات في مراحلها الانتقالية إلى مرحلة الوعي الشمولي الأرقى على مستوى الفئات والأفراد معاً ، إنها الفئة التي تصدت في التاريخ لكل المصلحين والأنبياء والقادة المتميزين والعباقرة . واجتماعياً كانت دائماً صاحبة المصلحة الحقيقية في الاستغلال لجهد الآخرين.

لكننا نريد التأكيد على أن المجتمع ، أي مجتمع ، ما ينفك تعمل فيه وتتوالد هذه الأقواس الثلاثة بصورة دائمة أيا كانت درجة تطوره ، كما أن هذه القوانين الثلاثة : صراع المتناقضات ، والنفي ، ونفي النفي لا تعمل الواحدة منها في معزل عن الآخر ، إنها موجودة دائماً في كل مرحلة في عملية جدلية تبادلية متكاملة لا تنفصم بالرغم مما قد تسفر عنه من نتائج مختلفة في كل مرحلة .

8 ــ إن هذا هو أيضاً ما ينبغي على المؤرخ أن يتبينه في موقع السياسة التي يريد أن يتحدث عنها أو يؤرخ لها ، فكما يمر الصدق في تطوره في الوعي الإنساني من السذاجة البدائية ، إلى الكذب الانتهازي ، إلى الصدق المبدئي الواعي الذي ينفي المرحلتين السابقتين، فإن السياسة تسلك هي الأخرى في الوعي خط الشعارية الصادقة الساذجة في البداية ، وهي المرحلة الطيبة والهشة في آن معاً ، إنها المثالية في التقييم الأخلاقي والسريعة العطب غير المسلحة بالعلم وبالتخطيط أيضاً ، ثم تمر بمرحلة التخطيط السياسي الصرف في معزل عن الشعار في معظم الأحيان وتأخذ طابعها الانتهازي الضيق ، ثم تتوج بحلقة التطور الأرقى : مرحلة الفهم الحقيقي والعلمي للسياسة والشعار معاً ، والتعامل معهما في وحدة جدلية تبادلية آخذة بالاعتبار سمات وطابع كل منهما ، إذ تتكامل قيمتهما الأخلاقية ، ولا تسمح الواحدة للأخرى بأن تتناقض معها تناقضاً حقيقياً ، بل تحافظ على سمات كل منهما وتبرزها* .

فإذا كان الجمود من أبرز سمات الشعار فإن الديناميكية والحركة من أبرز صفات السياسة . إذا كان الشعار هو الهدف فإن السياسة هي الطريق إلى تحقيقه . إذا كان الشعار بلوغ قمة الجبل ، فإن السياسة هي عملية التسلق ذاتها بكل ما قد تلاقيه من عقبات ومصاعب قد تعطل ، أو تعرقل ، أو تسرع ، وتجعل شكلها يبدو مستقيماً ، أو منحنياً ، أو متكسراً ، أو متراجعاً ــ متقدماً في آن معاً ، وفي مرحلة واحدة من مراحله.

---

* ينبغي ألا يفهم من هذا أن هذه المراحل توجد الواحدة في معزل عن الأخرى ، وتفصل فيما بينها حدود واضحة ، وإن على السياسة أن تمر فيها واحدة بعد الأخرى ، فكما سبق أن أشرنا إلى أن في كل مرحلة بقايا من التي سبقتها ومظاهر وليدة وجديدة تتغلب وتتفاعل معها من أجل صياغة ملامح المرحلة التي سوف تلي . وتتحدد الملامح العامة لكل مرحلة من خلال قوة فعل ووجود وتفاعل ونسبة عناصر هذه المراحل جميعاً في كل مرحلة على حدة .

ومن هنا كان على المؤرخ أن يفهم السياسة في موقعها ومن خلاله ، لا بصورها المجزأة ، بل بصورها الشاملة الكلية المتكاملة المتناغمة مع الشعار في وحدة جدلية تبادلية ، أو منفصلة كليا عنه .

إن على المؤرخ أن يعرف كيف يميز بين التراجع الجزئي القسري الذي قد يحدث في طريق السياسة إلى الهدف الشعار دون أن تضيعه وبين التراجع الحقيقي الكلي الذي ينقطع فيه الحبل الذي يربط بين السياسة والشعار ، بين المتسلق وقمة الجبل .

ولابد من التنويه هنا ، في صدد علاقة السياسة بالتاريخ ، بأن بعض كتبة التاريخ العرب وقعوا في أخطاء قاتلة حينما عزفوا عن فهم هذه الرابطة التي تربط بين السياسة والتاريخ ، فتلقفوا كل ما دونه مؤرخو الحقب الاستعمارية بسذاجة منقطعة النظير ، ومن هذه الأخطاء الرئيسية :

1ـ ربط العروبة والوجود الحضاري العربي كله بالإسلام ، بحيث تنتزع الهوية العربية عن حضارة سكان المنطقة قبل الإسلام من جهة ، وتجعل من العرب المسلمين غزاة لها ، مما يجعل حقهم في الوجود فيها يتساوى مع حقوق أي غزاة آخرين .

2 ـ الابتعاد كليا عن دراسة اللهجات العربية القديمة من سومرية و أكادية و بابلية وآرامية ومصرية وغيرها ، حتى لا يكتشف العرب اليوم وحدة اللغة والحضارة والوجود الذي يعود إلى زهاء ستة آلاف عام من السنين تم العثور على آثارها وشواهدها .

3 ـ عزوفهم عن محاولة فهم تاريخ المنطقة من خلال فهم سكانها العرب أنفسهم في مراحل تطورهم . فمن المعروف أن لكل شعب خصائص وسمات تميزه عن غيره من الشعوب . ومن السمات التاريخية البارزة لدى العرب مثلا اهتمامهم بأنسابهم وبمحافظتهم عليها اهتماما مناقبيا لا عرقيا وإجلالهم لأبطالهم التاريخيين وسرد بطولاتهم في قصص تجري المحافظة عليها ويتم تناقلها من جيل إلى جيل . وليست قصص التوراة إلا نقلا ممسوخا لبعض تلك القصص والأنساب . علما أن المؤرخين الغربيين رغم كل ادعائهم العلمية والموضوعية ، بنوا كل دراساتهم ومعارفهم عن المنطقة على مدونات التوراة ، ثم لم يعودوا قادرين على التخلص منها بعد ظهور المكتشفات الآثارية في

المنطقة العربية رغم المحاولات الكثيرة والمضنية التي يقوم بها البعض منهم . وبقي بعض " نقله " التاريخ من " الأساتذة " العرب مصرين على عدم الاهتمام بكل ما يجري من حولهم وعلى أن يترجموا لنا كل أخطاء التاريخ الاستعماري ويفرضوه على الأجيال العربية جيلا بعد جيل .

إن اعتماد النسب كمصدر في التاريخ لا يعتمد عليه سواء من حيث دقته أو موضوعيته ، لكن ليس في وسع المؤرخ أن يغفل دلالته . لقد اعتمده المؤرخون في الغرب حيث يكثر الحديث عن العلمية والموضوعية طالما أنه قادم من التوراة ، ورفضوه في الشرق ولو كانت التوراة نفسها ليست إلا نزرا جد يسير من بعض هذا الشرق .

وما يصح قوله عن جداول الأنساب يصح في القصص والأساطير أيضا . لقد اعتمدت قصص التوراة في الغرب كمصدر أساسي في التاريخ لمنطقة " شرق المتوسط " في فترات ما قبل المسيح ، ويرفض حتى اليوم بعض " المؤرخين " العرب التعامل مع قصص وأساطير المنطقة التي اكتشف مؤخرا أن قصص التوراة ليست إلا جزءا يسيرا منها منقولا عنها بشيء من التحريف .

إن الجهل بالواقع العربي ، وبالحياة العربية القبلية وتقاليدها ، وبتراث المنطقة التاريخي الضخم الذي لا يضاهيه تراث أمة أو شعب من الشعوب ، وباللغة العربية القديمة بكل لهجاتها من سريانية وعرباء ، وبالتالي بأسماء الناس والمدن والقرى التي تعود في معظمها إلى آلاف السنين ، وفوق هذا وذاك ، فإن الجهل بالمعرفة الحقيقية لعلم التاريخ الذي لا يصير علما إلا من خلال التعرف على كل القوانين العامة الناظمة والشاملة للعملية التاريخية ذاتها في تواصلها من الماضي إلى المستقبل ، كل ذلك يجعل الحاجة ملحة وماسة إلى إعادة النظر في كل ما بين أيدينا اليوم من الكتب التي تؤرخ لشعبنا العربي .

وإننا في كتابنا هذا سوف نسعى ، ومن خلال ذلك كله ، إلى أن نقترب أكثر من كل المواقع المهدمة في الذاكرة العربية ، من كل البوابات الفكرية التي ما زالت محتلة في تاريخنا العربي . إن عملية تحرير الأرض ينبغي أن تواكبها عملية تحرير أخرى لا تقل عنها أهمية ، إنها تحرير كل المفاهيم التي أورثنا إياها وفرضها علينا مؤرخو الحقب الاستعمارية.

والمهمة لا شك كبيرة ، لكنها تقع على عاتقنا نحن أبناء هذا الجيل ، علينا في ذلك نكون جديرين بالعيش في الزمن الذي بدأ .

* * *

الفصل الأول

الأرض العربية

الأرض العربية والشعب العربي

المؤرخون وفكرة الأرض العربية والشعب العربي

إن الحديث عن الأرض التي يشغلها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ليس حديثا عن منطقة أو رقعة أو عقار ، تنتقل ملكيتها من جماعة إلى أخرى ، ومن شاغل إلى آخر ، إنه الحديث عن الرحم والجنين ، بكل ما بينهما من وشائج التنفس والغذاء ، الهواء والدم ، والنمو والولادة ، والمحبة والحنين. إنه الحديث عن وعاء نشاط الشعب أو الأمة ، مسرح حركتهما وحيويتهما في شتى مجالات العيش والتطور والعطاء .

ومن هنا كان لا يمكن الحديث عن الأرض في معزل عن الشعب كما لا يمكن الحديث عن الشعب أو (الأمة) في معزل عن الأرض ، لما لكل منهما من أثر بالغ في تحديد ملامح الآخر وسماته التاريخية. فكما أن الشعب يطبع الأرض بطابعه ، يغير شكل وجهها زراعيا وصناعيا وعمرانيا ويترك عليها بصمات ثقافتة ، وفنه ، وفكره ، ومراحل تطوره ، بحيث تصبح مرآة لشخصيته ، بل جزءا منها ، فإن الأرض أيضا ، موقعا ، وتضاريس ، ومناخا ، وثروات ، ومياها .. تترك هي الأخرى آثارها واضحة في تقاسيم إنسانها وملامحه ، وتطلعاته ومزاجه ونشاطاته وتوجهاته .

ولو أحببنا التعرف على الرقعة من الأرض التي شغلها الشعب العربي منذ أكثر من ستة آلاف سنة وحتى اليوم لوجدنا أنها الممتدة من البحرين الهندي والعربي ، صعودا إلى شواطئ الخليج العربي وجبال زغروس من الشرق ، ثم تتقوس باتجاه الغرب إلى ما بين هضبة أرمينيا إلى المضائق، وينحدر الخط جنوبا على طول الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ، ثم يطوق مصر كلها ويجعل من البحر الأحمر بحرا عربيا بأكمله ويمتد على

طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط حتى الأطلسي .

وكما نلاحظ فإن هذا الخط الحدودي الذي يعود إلى أكثر من ستة آلاف عام يشمل كل المناطق التي اسمها شبه جزيرة العرب ، ودول منطقة الهلال الخصيب الممتدة من طرفه الشرقي على الخليج العربي ، إلى المتوسط ،إلى وادي النيل ، ثم تابع العرب السوريون (الفينيقيون منهم خاصة) توسيع تلك الرقعة لتتلاءم مع حيويتهم التجارية المتدفقة ، وجعلوها تمتد من أوغاريت وصيدا وصور إلى زرع ثمانين محطة ـ مدينة عربية فينيقية منتشرة من قبرص إلى شواطئ الأطلسي .

ومنذ ذلك الحين كان نشوء الوطن العربي .

إن نظرة واحدة على جغرافية هذه المنطقة تجعلنا نميز ما يلي :

1ـ من حيث تنوع المناخ والتضاريس :

منطقة عالية الخصوبة : حوض شمال سوريا ومنطقة النهرين دجلة و الفرات والساحل السوري ، ووادي النيل والشواطئ الجنوبية الغربية لشبه جزيرة العرب .

- منطقة سلاسل الجبال : على طول الساحل السوري في سلسلتين متوازيتين يحصران بينهما وادياً خصيباً ، وجبال الجليل والخليل في فلسطين وتمتد بموازاة البحر الأحمر حتى اليمن جنوباً ، ثم تمتد من اليمن بمحاذاة الساحل متجهة نحو الشرق حتى تنتهي في عمان حيث ترتفع هناك قمم الجبل الأخضر ، وتكون هذه السلاسل من المرتفعات حاجزاً يمنع السحب المحملة ببخار الماء من البحار من التوغل في الداخل وخاصة في شبه الجزيرة العربية ، وبذا تحول دون سقوط الأمطار بوفرة في أواسط بلاد العرب .

وفي وسط شبه الجزيرة تقع هضبة نجد وفيها جبل شمر وجبل طويق وبعض ينابيع المياه الجارية تحت طبقات الرمال .

- مناطق من السهول الملائمة لزراعة الحبوب ، منطقة الحوض الأدنى لدجلة والفرات ، وسهول الجزيرة السورية وحوران والجولان وتهامة ووادي النيل .
- مناطق من السهوب والمراعي وهي متاخمة لمناطق السهول الزراعية وتنتهي إلىالبادية

- مناطق البادية والصحارى القاحلة وهي تتفاوت في درجة الجدب من أدناه في البادية السورية إلى أقصاه في صحراء الربع الخالي في قلب شبه جزيرة العرب بعد التصحر.

أما توزع المناخ فكما هو واضح من التوزع الجغرافي والتضاريس ، هي موزعة بين عدة مناخات من المتوسطي المعتدل الماطر شتاء ، إلى الجبلي ، إلى الصحراوي . ونحن إذا استثنينا الأرض المتاخمة للشاطئ السوري وأودية الأنهار فإننا لا نجد بقاعا واسعة تتساقط فيها الأمطار وتتوفر فيها الحياة الكافية للأعمال الزراعية وللتخفيف من حدة حرارة الصيف . والصحراء السورية التي يحيط بها طرفا الهلال الخصيب هي في تكوينها الطبيعي امتداد للصحراء في شبه جزيرة العرب ، كما أن صحراء سيناء وصحراء مصر الشرقية امتداد لها أيضا ، أما المناطق الجبلية المرتفعة في شبه جزيرة العرب فتمتد على محاذاة البحر و يبلغ ارتفاعها قرابة أربعة عشر ألف قدم في الجبال التي تبعد ثلاثين ميلا إلى الغرب من صنعاء ، ويكاد استنزاف الرطوبة من الرياح الغربية وهي في طريقها إلى الجزيرة العربية يكون استنزافا تاما ، مما يجعل داخل البلاد جافا لا يسقط فيه مطر، بل إن المناطق الساحلية ذاتها لا يسقط فيها من المطر أكثر من عشر بوصات سنويا . والمنطقة الوحيدة التي يسقط فيها المطر في فترات معينة من السنة تكفي للزراعة هي القسم الجنوبي الغربي ، أي اليمن ، بينما قلب الداخل من نجد فهو مكان يصلح لرعي الماشية .

أما أودية النيل ودجلة والفرات فإن فصلي الربيع والخريف فيهما فترتان انتقاليتان قصيرتا الأمد ، وتقعان بين فصل الصيف الشديد الحرارة وفصل الشتاء القليل المطر ، مما يجعل الأراضي النائية عن إمكانات الري الاصطناعي مناطق جافة لا تصلح للسكن .

إن سطح الأرض في سوريا والعراق أقل تجانسا في تركيبه من سطح الأرض في مصر ، كما أنه أكثر تعرضا وانفتاحا بحكم موقعه ممرا بين ثلاث قارات مما هي عليه الحال في مصر . إن وادي نيل مصر يكاد يكون معزولا من جميع جوانبه ، أما سوريا بما فيها العراق فمفتوحة من جميع جوانبها ، و لم يكن ذلك ليمر دون أن يترك بصماته على واقع الحياة في الإقليمين وعلى مزاج السكان وتوجهاتهم .

2 ـ الموقع والطرق الدولية :

إن الموقع الذي شغلته الأرض العربية منذ القدم كان له تأثير كبير على تاريخها على مر العصور . فالموقع الستراتيجي العظيم كحلقة اتصال بين القارات التاريخية الثلاث كان أحد العوامل التي بوأتها أهمية خاصة في تاريخ الحضارة العالمية ، كما أنه جعل قسما منها هو سوريا ، معرضا للأخطار والغزوات من جميع الجهات .

فبسبب اتصال سوريا بصورة دائمة وسهلة بالعالم الخارجي بواسطة الطريق الدولي العظيم جعلها أكثر مناطق العالم قاطبة تعرضا للأخطار طيلة فترة تاريخها الطويل .

وهذا الطريق الدولي يمكن تتبعه من مبدأه في دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع إلى مناجم النحاس والفيروز في شبه الجزيرة ، كما يتفرع إلى أراضي البخور في جنوبي شبه جزيرة العرب ، ومن سيناء يتحول الطريق شمالا نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر ، هنا يتفرغ إلى طريقين يتجه الواحد إلى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانئ السورية ، ويسير الآخر إلى الداخل فيختار السهل ويعبر الأردن في واديه الشمالي، ثم يتجه رأسا إلى دمشق في الشمال الشرقي ، ويتفرع من هنا طريق يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ويربط مركز سوريا مع قلب العراق الذي تمثله بالتتالي بابل والمدائن وبغداد ، أما الطريق الرئيسي فإنه يتجه من دمشق نحو الغرب ، ويعبر لبنان الشرقي بواسطة ممر الزبداني ، ويصعد شمالا عبر سوريا المجوفة متبعا نهر العاصي إلى شمال سوريا ، ويتفرع في سيره باتجاه الغرب ليتصل بالبحر المتوسط بواسطة وادي النهر الكبير ، وتتبع السكة الحديد اليوم هذا الطريق نفسه ، وبعد أن يتفرع في شمال سوريا إلى البحر بطريق الأبواب السورية في جبل أمانوس ، ويتفرع أيضا إلى الشمال الغربي بطريق الجسر السوري نحو الفرات ، ومن هنا نحو الدجلة وجنوبا إلى الخليج العربي .

أما الميزة التي وفرها الموقع على أهم البحار التي تتوسط العالم القديم (الخليج العربي ، وبحر العرب ، والمحيط الهندي ، والبحر الأحمر ، والبحر المتوسط) فقد جعلهم يسيطرون على الطرق الدولية التجارية البرية والبحرية معا من الهند والشرق الأقصى من

جهة ، إلى عالم البحر المتوسط والغرب من جهة أخرى ، ومن أواسط غربي آسـيا إلى أفريقيا ، فكانت السفن تنقل البضائع من الهند والشرق الأقصى إلى الخليـج أو اليمـن لتسير بعدها في قوافل تسلك الطرق جنوب الجزيرة وغربها إلى الشام ، أو من الخليـج العربي إلى الشام على الفرات ثم عبر بادية الشام ، أو عبر وادي الرمة إلى تيماء أو دومـة الجندل إلى الشام .

ولقد أدت هذه الطرق التجارية الدولية إلى تنامي الشعور القومي عند تلك الجماعـات وتعرفها على مناطق انتشار أصولها وفـروعها على امتداد الأرض ، كما حافظ علـى وحدة اللغة ولو ضمن لهجاتها المتعددة ، مما رسخ الشعور بالانتماء إلى أصل واحد أيضا. وهكذا ، فإن تنوع البيئة والتضاريس والمناخ والمواقع لم يكن ليستطيع إلا أن يحقق تنوعا في أنماط العيش ، ونشاطات السكان ، وأشكال الدول التي أقاموها ، وفي بعض مظـاهر الحضارة أيضا ، وخاصة أن مسافات شاسعة كانت تفصل كل منطقة نشاط حضـاري عن الأخرى ، وتحتاج من أجل الحفاظ على جميع أطراف المناطق كلها والدفاع عنـها جميعا ضد كل الغزوات الكثيرة ، إلى جهود جبارة لم تكن لتتوفر إلا في فترات نهـوض معينة ومتباعدة .

لقد ملأت الجماعات العربية القديمة ذلك العالم المتنوع ، موطنها الأصلي، بشتى أنـواع نشاطاتها من حياة الرعي المتنقلة إلى الحياة الزراعية المستقرة والمتقدمة ، إلى التجارة البريـة والبحرية المزدهرة ، إلى صناعة التعدين .

وإن ذلك التنوع نفسه ، وذلك التأرجح الدائم ، بين دولة مركزية قوية وبين عـدة دول وكيانات ، كان من السمات المميزة لتاريخ الشعب العربي وللوطن العربي علـى مـر العصور . وإن ذلك لم يكن لينفي إطلاقا وحدة هذا الشعب الروحية في أية فترة مـن تاريخه ، بل إن سعيه الدائب والمتواصل إلى بناء دولته الموحدة المركزية القوية ، ونجاحـه في ذلك في كثير من الأحيان كان في حد ذاته برهانا قاطعا على أن تلك الوحدة تعيـش في مشاعره منذ أقدم العصور .

3 ـ المؤرخون وفكرة الأرض العربية والشعب العربي :

لقد بدأ المؤرخون في الغرب يهتمون بتاريخ المنطقة العربية في وقت متأخر نسبيا وكانوا قد درسوا اليونان بكل تفاصيلها واعتبروها مرضعة الحضارة للعالم بأسره . ولما بدأت بعثات التنقيب والاستكشاف الأثرية أعمالها في زمن السيطرة الاستعمارية الإنكليزية والفرنسية على المنطقة ، وحققت ما حققته من النتائج المذهلة التي فتحت عيون العالم على حقائق جديدة كان لابد أن تطوى بها صفحات كاملة من تاريخ البشرية وتكتب صفحات جديدة بديلة بدأت أنظار العلماء والمؤرخين جميعا تتجه وجهة واحدة صوب المنطقة العربية .

وبالرغم مما قدمته تلك البعثات من خدمات جلى لمن يريد أن يتصدى من مؤرخينا لدراسة هذا التاريخ بتوفير المواد والأدلة المادية على قدم وغنى وتنوع حضارتنا ، وسبقها لحضارات الشعوب الأخرى فإنها ـ أي تلك البعثات ـ قدمت تلك المكتشفات في صيغ تاريخية مغلوطة .

1ـ فهي أولا ، لم تتمكن من فهم الوحدة الحضارية للمنطقة ، فأخذت تطلق عليها أسماء ومصطلحات لا تتناسب مع شيء إلا مع الرقعة الضيقة التي تمت فيها عمليات التنقيب والكشف ، ومع واقع التسلط الاستعماري القائم آنذاك الذي لا يجهل بالطبع أن من مصلحته عدم إيقاظ المشاعر القومية وأحاسيس الوحدة القومية الحضارية لدى السكان ، فطلعت علينا بمسميات كـ " ما بين النهرين " والشعوب السامية ، واللغات السامية ، والهلال الخصيب ، والشرق الأدنى ، والشرق الأوسط وغيرها .

2 ـ درج هؤلاء الباحثون على فصل منطقة الجزيرة العربية ، واعتبروها وطنا للعرب الساميين ، عن منطقة " الهلال الخصيب " التي تشمل العراق وسوريا الطبيعية وحتى أواسط مصر ، واعتبروا هذه الأخيرة هدفا دائما للهجرات السامية الكبيرة المتعاقبة المنطلقة من بادية الجزيرة العربية لتتخذ شكل غزوات وفتوحات واغتصاب للأرض .

3 ـ وعلى هذا فإن ما أطلقوا عليه اسم دول أكادية ، وبابلية ، وآشورية ، وكلدانية وكنعانية ، وآرامية ، ومصرية إنما كانت ، في مثل تصورات أولئك الباحثين ، تظهر

وكأنها خلقت فجأة ، بشكل غزوات بدوية ، وسرعان ما تسيطر على مقدرات الأقوام الذين يشغلون الأرض وتتغلب عليهم لتأخذ منهم حضارتهم وتتمثلها وتستوعبها ، كما تفرض لغتها على المنطقة لتتابع الدورة الحضارية التي كانت قد بدأتها الأقوام المغلوبة ، كل ذلك هكذا وبمثل هذا البساطة ، بما فيه من منافاة للعلم ، وجهل بقوانين تطور المجتمع .

فما هي حقيقة تلك " الهجرات " أو " النزوحات السامية " إذن ؟

قبل الإجابة عن السؤال لابد من ملاحظة الأمور التالية :

أولا ، لقد بدأ الباحثون التعرف على حضارتنا القديمة في فترة متأخرة جدا ومنذ مطلع هذا القرن عن طريق المكتشفات الآثارية التي أسفرت عنها جهود البعثات الاستكشافية .

ثانيا ، بدأت دراساتهم للمنطقة تتطور مع تطور المكتشفات الآثارية وتتسع مع اتساعها دون أن يتمكنوا من وضع تصور تاريخي عام لذلك الشعب ، أو أنهم لم يريدوا وضع مثل ذلك التصور ، أو أن السلطات الاستعمارية القائمة على المنطقة آنذاك لم تسوغ لهم ذلك ، ثم يعملون على إثبات أو دحض ذلك التصور ـــ الفرضية من خلال متابعتهم لعمليات الاستكشاف كما هي الحال في بقية العلوم الأخرى .

ثالثا ، إن ذلك أخذ يوقعهم في سلسلة من التناقضات لا نهاية لها ، ذلك أنهم كانوا يضطرون في كل مرة إلى أن يغيروا النتائج والأحكام التي كانوا قد وضعوها من قبل .

رابعا، ونحن سوف نتتبع آثار أولئك الباحثين الذي انطلقوا في البداية من جعل كل منطقة حفريات أثرية منطقة حضارية مستقلة لشعب مختلف فأطلقوا أسماء المناطق التي تجري فيها أعمال الحفر على الحضارات ، ثم ألصقوا تلك الحضارات بأسماء المدن الحضارية المكتشفة ثم أطلقوا أسماء المدن على أسماء الشعوب ، مع الاحتفاظ بالتأكيد على وجود الاختلافات والفروق الجوهرية فيما بينها ، ثم جعلوا تلك الشعوب جميعا تنحدر من أصل لغوي واحد هو "السامي" ، وذلك بعد اكتشاف الرقم التي دونت عليها النصوص القديمة ، ثم ما لبث بعضهم أخيرا أن اعترف بأن هذه التسمية " الشعوب السامية "ما هي إلا تسمية حديثة فرضت على الماضي نتيجة لمدونات التوراة العشائرية ،

ثم أخذ بعضهم يقرّ بأن جميع تلك الشعوب التي أطلقوا عليها هذه التسمية إنما ترجع إلى أصل واحد ، وبالتالي فإن جميع تلك " الشعوب السامية " إنما هي شعوب شقيقة تنحدر من أرومة واحدة هي الأرومة العربية ، كان موطنها الأصلي شبه جزيرة العرب وما يحيط بها من الهلال الخصيب .

خامساً ، إن الطريق التي سلكوها في " نسخ الحقائق " مع تقدم مكتشفاتهم تثبت في النهاية شيئاً واحداً هو أن العرب وحدهم هم الذين شغلوا هذه الأرض التي نطلق عليها اليوم اسم الوطن العربي منذ أقدم الأزمنة المعروفة، وإن كل شعب آخر كان يشغلها إنما كان يشغلها بصورة الاستثناء الطارئ ، لا بصورة القاعدة الدائمة ، والدليل هو انتصار العنصر العربي في كل المرات،وانحسار كل وجود طارئ أو دخيل ، أو ذوبانه في الشعب الأصيل فلقد سلك العلماء طريقاً عجيباً في دراسة المنطقة العربية بالفعل دون أن يتمكنوا من استخلاص النتائج الكبيرة العامة التي تستوعب ظاهرات كل تلك المكتشفات الحضارية المتكاملة ، فهم ما أن يؤكدوا مرة أن الحضارة " السامية " تعود إلى ألفي عام قبل الميلاد نتيجة لاكتشافات معينة حتى يعودوا بعد فترة ونتيجة لاكتشافات أخرى ليرجعوا بتلك الحضارة إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد ، ثم إلى أربعة آلاف عام قبل الميلاد ، ثم إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد ، ثم ما يلبثون أن يؤكدوا أن المنطقة هي أول منطقة في العالم عرفت الاستقرار الزراعي وبناء البيوت ... ثم يجزمون بأن وجود الإنسان في منطقة الهلال الخصيب يعود إلى ما قبل 150 ألف عام .

يقول فيليب حتي : " إن أقدم قطع الفحم المكتشفة حتى الآن قد أتت من إحدى الطبقات الدنيا في كهف من كهوف الكرمل (مغارة الطابون) وترجع إلى نهاية الدور الأول للعصر البايوليتي أي نحو (150ألف عام) ، وهناك قطع أخرى ترجع إلى الدور الأخير من العصر الحجري القديم (الدور الاورغناسي) وقد اكتشفت في كهف مجاور (مغارة الوادي قرب الطرف الغربي للكرمل) وتشير في تركيبها إلى نماذج السنديان والطرفاء والزيتون والكرمة ، ويبدو أن الإنسان البدائي في تدرجه البطئ الشاق من

المستوى العقلي المنخفض قد عثر صدفة لا قصدا على اكتشافات أعطته بعض التفوق وأثرت على قدرته الكامنة على الاختراع وزادهّا قوة ، ومن أقدم هذه الاكتشافات اكتشافات النار " (1)

ونحن هنا نذكر بما يلي :

1ـ إن كل شعب ، مثله مثل أي ظاهرة أخرى في هذا العالم ، لايمكن أن يوجد فجأة ، إنما يعبر عن وجوده التاريخي في حقبات الازدهار عندما ينشط عسكريا وسياسيا وحضاريا ، وفي حقبات الانحطاط يدخل ظلمات التاريخ ، فيكون الميت الحي ، وهمله كتابات الشعوب المتحضرة . وبما أن الإنسان كان في الهلال الخصيب من 150 ألف عام دون أن يعطي هوية حيث لم تكن قد اخترعت الكتابة بعد ، أفليس بالأحرى أن يكون العرب (أو من أسموهم بالساميين) امتدادا طبيعيا ومنطقيا لتلك الشعوب القديمة اتضحت لنا هويتهم اللغوية فقط بعد بدء الكتابة ؟

2 ـ ثم ألا تدل عملية ذوبان تلك الأقوام الأخرى في هذا الشعب أو انحسار وجودها نهائيا عن المنطقة ، على أن الوجود الغالب والمتغلب إنما هو للعرب ، وأن وجودهم كان هو القاعدة ، ووجود غيرهم من قبائل وأقوام وشعوب غازية من الزمن القديم هو الطارئ هو الاستثناء ؟

3 ـ لقد أكد علم التاريخ الحديث وأكدت المادية التاريخية ، أن الشعوب لا توجد بشكل طفرات تخلق من عدم وتقوم فجأة على فراغ ، وإنما تأتي نتيجة لعملية تاريخية طويلة تستغرق فيها أزمانا ومراحل متعاقبة ، وتستنفد فيها أشكالا اجتماعية ، وتطوي نظما وأعرافا ومعارف مما قد لا يمكن رصده إلا في خطوط سيره العريضة وصولا إلى الشعب، ولذلك فإنه من الواجب القول إن الشعب (الأكادي مثلا) الذي اكتشف الباحثون أن حضارته تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد لم ينبثق فجأة من تحت الأرض ، و لم يهبط فجأة من السماء و لم يقم على فراغ ، وإنما كان في أفضل التصورات المنسجمة

(1) انظر فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء الأول ، ص31 .

مع التحليل العلمي والموضوعي للتاريخ ، حالة من حالات التوهج لواقع الشعب العـربي الموجود أصلا في تلك المنطقة منذ أقدم العصور .

4 ـــ إن القول بقدوم ذلك الشعب من شبه جزيرة العرب بشكل هجرة أو نزوح بدوي ليستوطن المنطقة وليقيم حضارته عليها في الوقت نفسه ، مناقض لروح العلم والمنطق مما ومليء بالثغرات . فمن هو الشعب إذن الذي كان يشغل تلك المنطقة من قبل ، وما هي هويته ؟ ثم أي علم ذاك الذي يتقبل مثل هذا التصور : جماعة كبيرة من البدو الرحـــل تغزو أرضا ، تستقر بها وتنتج أعظم الحضارات ، فمتى كان البدوي ينتج الحضـارة ، أو ينتجها فجأة ، أو ينتجها فور استقراره ؟ إن عملية الحضارة عملية معقدة هي الأخرى ، مثلها مثل كل الظواهر الاجتماعية الأخرى ، وهي أيضا نتيجة لعملية تاريخية طويلة بعد الاستقرار ، ولا يمكن أن تتم في مثل تلك الصورة البسيطة والمبسطة .

5 ـــ إذا كان ثمة من يقول بأن وجـود السومريين دليل على وجود ذلـك الشـعب الآخر من غير العرب في المنطقة قبل قـدوم العرب ، وإن العرب فعلا جاؤوا كقوم غزاة من البادية ، فتغلبوا على السـومريين ، وأخذوا منهم حضارتهم الرفيعـة المدهشـة ، وأقامـوا دولتهم الأولى التي سميت بالدولة الأكادية فيما بعد ، أعـود فأقول : إذا كان ثمة من ما يزال يقول بمثل ذلك فإن هذا لا يدل على شيء إلا على جهل القائلين به .

لقد قلنا إن من الأخطاء الفادحـة للباحثين في دراستهم للمنطقة الأسلوب العدائي الذي اتبعوه سلفا والذي كان يتحرك جنبا إلى جنب مع الآثار المكتشفة ، فصار نوعا متسارعا من " الناسخ والمنسوخ " في علم التاريـخ . فهم حينما اكتشـفوا ما دعوه الحضـارة السومرية واللغـة السومرية ظنوا أنهم وضعوا أيديهم على المفتاح السحري لحـل اللغـز القائم في المنطقة قبل " الشعوب السامية " وهتف كريمر هتافه الشهير " العالم يبدأ مـن سومر " وجعله عنوانا لمؤلفه الكبير .

فما أن بدأت المكتشفات الآثارية تظهر اللقى وبعض التماثيل السومرية حـتى صـاح العلماء وكأنما بفرحة : " إنها ذات تقاطيع لا تشبه الساميين وإن لهم لغتهم الخاصـة " لكن تلك التفاصيل المعدودة لم تكـن لتقدر على أن تشير وحدها إلى الحقيقة بمثل هـذه

القوة ، إذ من المعروف أن نقاوة العرق خرافة أكثر منها حقيقة في كل بقعة من بقـــاع هذا العالم المترامي وخاصة منطقة ســـوريا الممتدة من الخليج العربي إلى المتوســـط الـــتي كانت ، وما تزال ، قلب العالم ، ومركزه ، وممره ، حتى كاد تاريخها يتحول إلى سلسلة من المعارك الطاحنة بينها وبين الأقوام والشعوب والأمم الغازية التي لم تنقطع .

ثم إن السومريين كانوا مجموعة من المدن ــ الدول المستقلة الواحدة عـــن الأخـــرى ، وبالتالي فإن ما قد يكتشف في هذه المدينة من ملامح هذا الحاكم أو ذاك قد لا يصـــح تعميمه على باقي المدن انتروبولوجيا ، ولو صح في مظاهر العيش والحضارة الأخـــرى . فقد يختلف الحكام بين المحليين والغزاة بينما يبقى الشعب واحدا وإن التمـــاثيل النـــادرة بوجه عام لم تكن تصنع في أي وقت لجماهير السكان أو لعينات منها بل للحـــاكم أو الحكام ، سواء أكانوا من الشعب الأصيل أو من الغزاة المحتلين .

إن السومريين هم السكان العرب الأصليون كما يدل عليهم اسمهم[1] (سوف نتنـــاول بحث السومريين لاحقا وبالتفصيل) وإذا كان ثمة عنصر طارئ وغريب في تلك المرحلـة فليس بالسومري ، بل هو الذي لم يعثر له المؤرخون على هوية حقيقية لأصله بعـــد ، لكنه ، أيا كان ، فقد كان هو البدائي المتخلف الذي ينخرط بعضه إبان كل غـــزو في خضم الحياة العربية ، ثم ما يلبث أن يتلاشى خارجا أو يذوب داخلا في غمـــرة هـــذا الوجود المتعاظم في مرحلة تالية دون أن يترك وراءه أي أثر يدل عليه .

4 ــ "الهجرات السامية"

أشرنا إلى أن تنوع تضاريس ومناخ الأرض العربية وموقعها الستراتيجي الفريد المتوســـط على أهم طرق التجارة الدولية كان لابد من أن تنعكس على أنماط معيشة الســـكان في الرعي والزراعة والتجارة والصناعة ، وفي تمايز هذه الأنماط من البادية ، إلى الواحـــات ، إلى القرى والتجمعات الزراعيـــة الكبيرة إلى المدن ــ المحطات على الطـــرق التجاريـــة

(1) سومر تعني في اللغة العربية ظل القمر، ومنها اشتقت:أسمر، وسمرة، وسامر، والسمر : أي السهر في ضوء القمر ، أما الأصل العربي القديم للكلمة فهو " شـــومر " ويعنـــي فـــي القاموس السرياني: المخلص، المنقذ، الشجاع، ثم جرى الإبدال الشائع بين السين والشين .

الدولية ، إلى المراكز التجارية المزدهرة على شواطئ البحر المتوسط وبحر العرب والخليج العربي .

وذكرنا كيف أن أولئك السكان الذين أطلق عليهم المؤرخون أسماء مناطقهم أولا ، ثم " الشعوب السامية " ثم أطلق بعضهم اسم " العربية "عليها ، كانوا يشغلون تلك الرقعة الجغرافية الفريدة من نوعها طيلة الفترة التاريخية المعروفة للعالم حتى يومنا هذا .

وتطرقنا إلى أن هذه التسمية " الهجرات السامية " لا تمت إلى منطق القرن العشرين ولا إلى العلم بصلة ، فما هي حقيقية هذه التي أسموها بـ"الهجرات السامية " إذن ؟

لقد درج الباحثون والدارسون على الحديث عن " هجرات سامية " متتالية من شبه جزيرة العرب إلى منطقة ما دعي بـ " الهلال الخصيب " الممتد من الخليج العربي في أحد طرفيه إلى دلتا النيل في الطرف الآخر ، وقد عمدوا إلى تحديد تلك الهجرات الكبيرة وأزمان حدوثها معتمدين فيها جميعا شكل الطفرة السكانية المتكررة خلال فترات زمنية معينة ومتقاربة . فلقد أجمعوا تقريبا على أنه في حوالي 3500 ق.م اتجهت " هجرة سامية " من شبه جزيرة العرب نحو الشمال الشرقي، وزعت أفرادها الرحل بين السكان (السومريين) في بلاد الرافدين الذين كانوا مستقرين منذ أكثر من ألف عام ، وعلى جانب رفيع من الحضارة ، وبذلك شكلت الدولة الأكادية التي عرفت فيما بعد بالبابلية ، وسادت اللغة السامية التي جعلوها معهم وأصبحت الواسطة التي عبرت بها حضارة الفرات عن نفسها خلال أجيال عديدة .

" بعد الهجرة الأولى بنحو ألف سنة حصلت هجرة أخرى من البادية وأتت بالآموريين وزرعتهم في سهول سوريا الشمالية ، وشملت هذه " الهجرة " الشعب الذي احتل فيما بعد السهل الساحلي وسمى نفسه بالكنعانيين وأطلق عليهم اليونان الذين تاجروا معهم اسم الفينيقيين "

" وبين 1500 و 1200 ق.م خرجت جماعات أخرى من بلاد العرب فدخل الآراميون سوريا المجوفة ومنطقة دمشق "

" وحوالي 500ق.م أدت هجرة جديدة من بلاد العرب إلى استقرار الأنباط شمالي

شرقي شبه جزيرة سيناء ، حيث كانت عاصمتهم البتراء ، وبلغت درجة رفيعة مدهشة من الحضارة ، حتى في ظلال الاحتلال الروماني "

" وكان أخر اندفاع من شبه جزيرة العرب على مقياس واسع ذلك الذي حصل في القرن السابع الميلادي تحت راية الإسلام ، وانتشر هذا السيل ليس إلى سوريا فحسب ، بل شمل مناطق الهلال الخصيب ، ومصر ، شمالي أفريقيا ، وفارس ، واندفع حتى في أسبانيا وبعض أجزاء آسيا الوسطى. وهذه الهجرة الأخيرة اعتمدها الكثير من الباحثين في دراسة الهجرات التي سبقتها حتى بالشكل الذي تمت به اعتمادا على حقائق أخرى لا جدال فيها ، وهي أن شبه جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين ، وأن اللغة العربية هي اكثر اللهجات السامية تشابها باللغة السامية الأم ، وأن سكان شبه جزيرة العرب ،وخاصة سكان البادية قد احتفظوا بأنقى الصفات السامية "[1].

لقد اخترنا هذا النص بالذات لما فيه من عناصر جامعة لمجمل التصورات السائدة لدى قسم كبير من المؤرخين والدارسين ، وناقلي المعلومات عن هؤلاء وأولئك•

فكما نلاحظ ، فإن عملية سكانية ، حسب هذا التقرير التاريخي ، تحدث مرة كل ألف عام ، إذ تقوم جماعة كبيرة من البدو الرحل ، فتحزم أمتعتها وتسوق مواشيها ، وتنطلق من شبه جزيرة العرب باتجاه الشمال ، إلى منطقة الهلال الخصيب ، فتنزل كيفما اتفق (أو لم يتفق لا ندري !) في هذه البقعة أو تلك ، سرعان ما تسيطر عليها وعلى الشعب الذي يشغلها ، فتفرض لغتها ، وتقيم دولتها وتبدأ عطاءها الحضاري الفريد .

إن في مثل هذا التصور من السذاجة ما يذهل ، ونستغرب كيف أن أحدا من المؤرخين العرب لم يجشم نفسه عناء التوقف عنده ، فهو :

1ـ لم يتطرق إلى الحديث عن زمن ما قبل "الهجرة " المزعومة من شبه جزيرة العرب ، ولو أن المؤرخين ، وفي أماكن أخرى ، لا ينسون أن يدعموا ذلك القول بالسبب الذي كان يدفع السكان إلى الهجرة ، وهو الجفاف ، فكيف يمكن أن يحدث مثل ذلك التجمع القبلي البدوي الهائل مثل ذلك الدوي الحضاري فور وصوله إلى منطقة

---

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين الجزء 1 ص67 .

• انظر : الدكتور نبيه عاقل " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " ، ص15 .

الهلال الخصيب ، دون أن نسمع بذكره في مكان وجوده السابق ، وعلى طريق هجرته. كيف تحدث مثل تلك المفاجأة ـــ الزلزال التي لم تخضع لقانون غير "قانون" الجفاف ؟

2 ـــ ثم أي جفاف ذلك الذي كان يختفي طيلة ألف عام ، ثم يظهر فجأة ويدفع بموجة أخرى من قلب الجزيرة العربية إلى منطقة الهلال الخصيب لإقامة صرحها الحضاري من جديد ؟

3 ـــ لقد حافظ هذا التصور على خط الاتجاه الثابت الذي كانت تسلكه تلك " الهجرات " في طريق نزوحها من الجنوب إلى الشمال ، وليس في تاريخ حركات بدو المنطقة أو حضرها مثل ذلك الخط الثابت في الاتجاه طيلة تاريخها .

4 ـــ إن أصحاب ذلك التصور ظلوا يتغافلون عمدا عن إثارة مسألة هوية السكان الذين كانوا يشغلون منطقة "الهلال الخصيب " قبل بدء " الهجرة " الأولى أي قبل 3500سنة ق.م ، لكنهم حينما ظهرت مكتشفات العهد السومري عادوا بنا للحديث عن السومريين ، واعتبروا أن ليس ثمة علاقة تربطهم بالساميين ، وأنهم هم السكان الأصليون للمنطقة ، ثم لما تبينت الملامح " السامية " في العهد السومري أخذوا يتحدثون عن الشعب الخليط من الساميين والسومريين ، ثم ظهرت المكتشفات الجديدة في منطقة الدجلة تبين أن وجود " الساميين " كان سابقا للمرحلة السومرية بزمن طويل ، وهكذا نرى كيف تنسحب حلقات السلسلة .

5 ـــ إن هذه الأحكام الساذجة أو المتسرعة ، والمغرضة أحيانا ، (إذ تجعل دأبها ربط العرب بالبداوة وبشبه جزيرة العرب ، ومنطقة الهلال الخصيب ومصر بسكان آخرين حضاريين لا تكل عن البحث عنهم دون جدوى) تسقط في تناقضات كثيرة . فهي تقدم لنا أولئك البدو الرعاة الرحل الهاربين من شح الطبيعة يبدأون منذ سيطرتهم على البلاد دورة حضارية متكاملة متناسين أن البدوي لا ينتج حضارة قبل الاستقرار ، وأن الاستقرار عملية طويلة ومعقدة بكل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية ، ولا تتم بين ليلة وأخرى ، وإذا صح أن أولئك البدو كانوا يقفون على درجة معينة من الحضارة منذ بيئتهم الأولى فكيف كان يتسنى لمثل هؤلاء البدو أن

يجعلوا حضارهم وعسكريتهم هي المنتصرة دائماً في كل مرة وهي الباقية ، مع العلم أن القانون العلمي يؤكد على أن الأقوام الطارئة ، مهما كانت درجة قوهما وتطورها وحجمها البشري ، إنما هي التي تنحسر دائماً ويبقى الشعب الأصيل .

6 ــ إن علم الجغرافيا والمناخ يؤكدان أن الجفاف ــ كظاهرة طبيعية ــ لا يمكن أن يحدث فجأة ، وهو لما ضرب منطقة شبه الجزيرة العربية ، كما يحلو للكثيرين أن يؤكدوا ، لم يضربها بغتة ، بل كان ذلك يجري في عملية بطيئة طويلة استغرقت آلاف السنين .

7 ــ وإذا كانت عملية الجفاف قد استغرقت مثل هذا الزمن الطويل ، فإنه لمن الطبيعي جداً أن يكون تكيف الأرض وتغيرها بكل ما فيها من تربة ومياه وحيوان ونبات ، كان هو الآخر يتم تدريجياً ، ثم إن ذلك كله كان لابد وأن ينعكس وبالتوازي في الزمن أيضاً ، على الإنسان نفسه طيلة تلك الآلاف من السنين كذلك .

8 ــ ومن هنا ، فالجفاف إذن لم يحدث فجأة ودفعة واحدة ، بل وصل ، وعبر تراكم كمي على مدى آلاف السنين ، إلى لحظة تحول نوعية أسميناها جفافاً بالنسبة لما كان يسود المنطقة قبل ذلك بزمن طويل . فالحقل الذي غاضت مياهه ، وجفت تربته ، وابتعدت السحب عن الوصول إليه ، وتقدمت إليه رمال الصحراء ،ونشفت عروق أشجارها وأصابها اليباس ، كان يخلو من ساكنيه ، أو زراعيه ، في عملية بطيئة وخفية وتدريجية ولا تلحظ. إن تقلص السكان كان يتم بتقلص حجم الزرع والماء ، حتى غدا ذلك الزرع صفراً ، فغدا ذلك المكان قفراً ، فحدث بذلك التحول النوعي تتويجاً لتراكم كمي بطيء وطويل . ومما يؤكد صحة وجهة نظرنا هذه هو أن عملية التقلص البطيئة هذه ما تزال سارية في شبه الجزيرة العربية ، وتدل التحريات على تلك التحولات البطيئة التي أصابت المنطقة ، أن ثمة ودياناً لم يمض على غيابها وقت طويل ، كما أن ودياناً أخرى كانت قد ذكرت في التاريخ اليوناني والروماني ، وهنالك وديان الآن ، وينابيع ، وأنهار ، غائضة تحت الرمال ، فالعملية البطيئة ما تزال على استمراريتها حتى يومنا هذا .

لقد تمكن العلماء من تحديد أربع دورات جليدية تفصل بينها دورات دفيئة ، وقد أطلقوا عليها الأسماء الأربعة التاليـــة :

1 ـــ دورة جليد جنز ....(؟)

2 ـــ دورة جليد مندل 430000 ـــ 370000 ق.م

الدورة الدفيئة الأولـــى 370000 ـــ 130000 ق.م

3 ـــ دورة جليدرس 130000 ـــ 100000ق.م

الدورة الدفيئة الثانيـــة 100000 ـــ 4000 ق.م

4 ـــ دورة جليد فـــورم 4000 ـــ 14000ق.م

هذا مع العلم أن التحول من الدورات الجليدية إلى الدوائر الدفيئة وبالعكس كان يتـــم بصورة بطيئة وتدريجية بصورة لا تكاد تلحظ ، إذ كان الجليد يستغرق مثل هذا الزمـــن الطويل في تحركه نحو الجنوب أو تقلصه باتجاه الشمال .

ولقد جاء في النصوص القديمة ما يدل فعـــلا على أن جزيرة العرب كانت من منـــاطق الغابات المكتظة بالأشجار ، فكانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصالحة للبنـــاء والوقـــود ، كما أن المنطقة الواقعـــة بين العـــلا و " معون " أو " معان " من المنـــاطق الصحراوية في الوقت الحاضر في أراضي ثمود قديما قد كانت من مناطق الغابات المكتظـة بالأشجار، وكانت مملوءة بالحيوانات المفترسة ، وكذلك المنطقة بين مكة وعرفـــة حـــى القرن السادس عشر الميلادي مغطاة بالأشجار والعوسج والسلم ، حـــتى أن اللصـــوص كانوا يتخذونها مخابئ يهاجمون منها القوافل ، ذلك ما أورده كثير من المؤرخين ، كمـــا أورده الدكتور أحمد سوسة في كتابه "مفصل العرب واليهود في التاريخ" وذكر بالإضافة إلى ذلك اكتشاف بقايا بحيرة في الربع الخالي عند منخفض (ابو بحر) ، كما لا تـــزال بقايا بحيرات مليئـــة بالمياه في بعض المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية ، ففي منطقـــة الخرج عدة بحيرات في وسط الصحراء تستغل الحكومة السعودية مياهـــــها في الوقـــت الحاضر لزراعة الأراضي المجاورة ، وتقع منطقة الخرج جنوب شرقي الرياض ، وتوجـــد فيها خمس بحيرات منها أربع بحيرات إلى الجنوب من اليمامة ، أما الخامســـة فتقـــع في

الأراضي الصحراوية الواقعة إلى الجنوب من منطقة الخرج على بعد زهاء مائة كيلو متر منها وتسمى " خفس دغري " وأهم هذه البحيرات ثلاث تبلغ مساحة كل منها أكثر من أربعة آلاف متر مربع ، أما عمق الماء فيها فيناهز أربعمائة قدم ، وتتصل هذه البحيرات بعضها ببعض عن طريق مجاري المياه الجوفية .

أما الدكتور جواد علي الذي قام بدراسات مستفيضة في تاريخ العرب قبل الإسلام فيقول : " وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ما قبل الإسلام على أن العرب كان لهم علم واسع بتنظيم فن الارواء والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار ، وتدل كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود والمسالك والنحايت ، وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء ، وقد عثر رجال شركة النفط العربية السعودية الأمريكية حديثاً على صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض بأنفاق ، وعليها فتحات من مواضع متعددة لاستقاء الماء منها ، عثروا عليها في القطيف والاحساء وفي الفلج وأواسط نجد وأماكن أخرى تعد اليوم من المناطق الصحراوية ، كما وجدوا على مقربة منها آثار قرى كانت عامرة ومزارع واسعة ، ولم يكن يعرف العلماء سابقاً أن أواسط شبه جزيرة العرب والأقسام الشرقية منها كانت تستخدم هذا النوع من نظم الري ، بل كان المعروف أن الصهاريج المربوطة بأنفاق إنما كانت تستخدم في الشام وفلسطين وإيران والأقسام الشمالية من العراق .

وفي البحرين اكتشف العلماء عدداً من مواد الصخور قدر بعض الباحثين أن عمرها يتراوح بين عشرة آلاف واثنتي عشر ألف سنة ، وهي ترجع إلى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة ، كما أن ساحل الخليج كان مزدحماً بالسكان في العصور البرونزية أ أي حوالي 3000 ــ 2500ق.م .

أما المنطقة الجنوبية والجنوبية الغربية من عمان إلى اليمن وتهامة فأمر خصوبتها معروف حتى وقتنا الحاضر .

مما تقدم نريد أن نؤكد :

أن شبه جزيرة العرب كانت في فترة من تاريخها ذات مناخ معتدل وتتوزع فيها المناطق الزراعية والواحات والسهوب والصحاري كما تتوزع في باقي أقاليم المنطقة من العراق إلى سوريا إلى مصر ، وهذا التوزع في المناطق المناخية كان يفرض حركة معينة للسكان الذين بدأ يشدهم الاستقرار والعمل بالأرض ، وينتزعهم من حياة الرعي والتنقل ، بينما بقي الآخرون ينتقلون في كل الاتجاهات . فهم يدورون حول المناطق المزروعة ، ويملأون بحركتهم باقي الفراغ — المرج . أو السهب ، أو البادية . ولما كانت شبه الجزيرة العربية لا تخلو من الأنهار الكبرى ، كما ورد في الروايات اليونانية والرومانية القديمة ، فإن في وسعنا الافتراض بأن حركة أولئك السكان العرب كانت متشابهه في الجزيرة العربية والعراق وسوريا ومصر ، فهناك مراكز زراعية تمتص كل العناصر التي نضجت لديها إرادة الاستقرار ، وحركة دائمة محلية داخلية تدور مرة حول تلك المراكز ، ومرة أخرى تجوب المناطق كلها في دوائر أوسع من الجزيرة العربية ممتدة إلى العراق وسوريا ومصر .

ولقد كانت هذه الحركة تتصف بطابع الديمومة والاستمرارية في هذه الأقاليم جميعاً مما أكسبها طابعاً واحداً ، إذ إن الري والخصب والسهل والبادية كانت مراكز دفع وجذب لحركتها وفي كل الاتجاهات .

ثم لما بدأت تلحظ آثار تقدم الجفاف على المدى الطويل في شبه الجزيرة العربية جاراً معه لفحات الصحراء صوب الأراضي الزراعية والمراعي أخذ ينعكس ذلك على البؤر الزراعية المركزية الكثيرة ذات الدوائر الضيقة بالنسبة لحركات البدو فأخذت تقل تدريجياً لحساب الجولان الكبير في كل الاتجاهات .

إن جولان البدو الرحل يتحدد بالأمور التالية :

— قرب أو بعد المناطق الزراعية ، وبالتالي اتساع الفراغ الرعوي فيما بينها وهذا ما ندعوه بالجولان الصغير .

— قرب أو بعد المناطق الرعوية ، وبالتالي اتساع الفراغ الصحراوي فيما بينها وهذا ما ندعوه بالجولان الكبير .

ـــ نوعية المواشي المحددة سلفاً بطبيعة مناطق الرعي والتي تحدد نوع الجولان وأمديته ، فرعاة الأغنام يكون تحركهم بطيئاً ضيقاً وضمن مناطق المراعي القريبة نسبياً من بعضها من ناحية ومن المناطق الزراعية والمدن من ناحية أخرى ، بينما يكون جولان رعاة الإبل متميزاً بالأمدية البعيدة والواسعة مما جعلهم أقرب إلى التطور نحو ممارسة التجارة والنقل منهم إلى ممارسة الزراعة والاستقرار ، بينما كان رعاة الشياه والأغنام من البدو أقرب إلى الاستقرار الزراعي في تطورهم منه إلى أي اتجاه آخر .

إن هجرة لم تحدث بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة : فتخرج موجة بشرية من مكان لتحط رحالها في مكان آخر ، وإنما كانت العملية تأخذ منحى آخر يمكن أن نحدده خطوطه كما يلي :

- بؤر زراعية كثيرة ، جماعات مستقرة كثيرة حول الأنهار ومراكز المياه تتوزع بكثرة في شبه الجزيرة العربية كما تتوزع في العراق وسوريا ومصر ، مع الاختلاف في شكل التجمع الكبير أو الصغير وتوزع التجمعات فيما ينسجم مع توزع الأراضي الصالحة للزراعة وللري .
- قبائل وجماعات بشرية رعوية تجوب ذلك " الفراغ الرعوي " ـــ إذا صحت التسمية ـــ الذي يحيط بالمناطق الزراعية نسبياً والكثيرة عددياً ، في دوائر ضيقة ، ومن منطقة زراعية ـــ رعوية كبرى إلى أخرى مثلها (من الجزيرة إلى العراق أو سوريا أو مصر مثلاً) في جولات أو دوائر واسعة .
- إن هذا الجولان الدائم المستمر دون انقطاع جعل تلك الجماعات المتحركة بمثابة مستودع بشري متحرك وعلى تماس دائم ومباشر مع تخوم المناطق المستقرة ، مما أتاح الفرصة دائماً لعملية " الارتشاح " الاجتماعية من خلال جدران تلك التخوم المتخلخلة على الدوام ، بحيث تمتص منها كل العناصر التي نضجت فيها إرادة الاستقرار والتخلي عن حياة الرعي والتنقل ، في عملية يومية تكاد لا تلحظ ، سهلة حيناً ، وصعبة عسيرة أحياناً أخرى، نتيجة لما يخلقه اقتراب المواشي من الأراضي المزروعة من تناقض أبدي بين البدوي والفلاح . فكما أن تلك الجماعات المتحركة تقسوم بتغذية

المناطق المستقرة بعناصر جديدة ، فإن المناطق المستقرة تثابر على عملية امتصاص تلك العناصر وهضمها واستيعابها ببطء ودونما توقف .

- ليس هذا كل ما كان يحدث ضمن دوائر تحركات تلك الجماعات بالطبع . فلو تعمقنا في رصد هذه الظاهرة أكثر لوجدنا أشكالا أخرى من الحركة ضمن وحول البؤر الزراعية الصغيرة كان لها تأثيرها أيضا على مجمل الحركة .

فحينما أخذت الصحراء تزحف على المناطق الزراعية تدريجيا ، أخذت تحذف منها بعض البؤر الزراعية المستقرة لتلقي بها شيئا فشيئا بين أحضان البادية من جديد ، مما يتيح للمجتمعات الرعوية أن تسترد بعض ما فقدته من قبل لصالح الزراعة والاستقرار ، بينما يمكن أن نرى البعض الآخر ممن هجروا مزارعهم ، بعد أن يئسوا نهائيا من إمكانية إحيائها ، وقد توجهوا إلى مناطق زراعية جديدة دون أن يسلموا للعودة إلى البادية مرة أخرى ، مما يزيد من كثافة السكان في منطقة على حساب أخرى ، وأرث سعير التناقض القبلي وزاد في احتدامه وتفاقمه ، وهذا بدوره كان يخلق شعورا بضرورة التوجه إلى جمع شمل فروع القبيلة الواحدة ، ثم إلى تشكيل حلف بين القبائل المختلفة أو أحلاف ، فظهرت نتيجة لهذا كله أشكال جديدة من التجمعات البشرية في المنطقة الزراعية الدائمة الاستقرار بفضل ثبات العوامل كالأنهار أو ماء المطر دون أن تنقطع عملية " الارتشاح " البطيئة إلى جسم هذا التجمع أو ذاك .

- وهكذا ، فإن هذه الظاهرة التي دأب المؤرخون على تسميتها بـ" الهجرة " كانت تتم بعدة طرق ، بل وبكل الطرق ، إلا الطريقة التي صورت بها وغرست في الأذهان :

ـ كانت تتم ، وبصورة لا تنقطع ، عن طريق " الارتشاح " السكاني من المستودع البشري الرعوي المتحرك على التخوم ، وعبر هذه التخوم ـ المسام ، إلى داخل جسم الجماعات المستقرة .

ـ كانت تتم عن طريق انتقال الجماعات الزراعية الصغيرة من منطقة زراعية أجدبت تدريجيا إلى منطقة زراعية أخرى أكثر ثباتا في الماء والمناخ . وهذا الانتقال كان إما أن

يتم سلميا ، ويفضل أن تنضم فروع القبائل الواحدة إلى بعضها ، لتتماسك في وحـــدة كبيرة في مستقرها الجديد ، أو أنه كان يكلف نزاعات دامية بين قبائل مختلفة يـؤدي إلى تحالفات قبلية كبيرة، ثم إلى سيطرة تحالف من التحالفات على هذه المنطقة أو تلـــك ، فتكون عملية التغذيـــة و الامتصاص قد أخذت في هذه الحال شـــكلا آخر أكثر سرعة وحسما في عملية تشكيل الجماعة من العملية البطيئة الرتيبة ضمن الظروف الاعتبارية .

- الصورة الآن أضحت على الشكل التالي :

منطقة الهلال الخصيب الممتدة من الخليج العربي ، إلى دجـلة والفرات ، إلى الشـــاطئ السوري ، إلى دلتا النيل ، تعج بالأراضي الزراعيـــة والأقوام المستقرة التي تضم عينـــات كثيرة من كل القبائل العربية المتحركة ودون توقف على التخـــوم الداخليـــة للـــهلال الخصيب ومنطقة جنوب وغرب شبه الجزيـــرة العربيـــة ولاسيما اليمن ، أما ما تبقـــى من شبه الجزيرة العربية فقد أخذ يحدث فيه الجفاف تدريجيا تحويفا كبيرا يضم بعض البؤر الزراعية والواحات المتناثرة .

كل ذلك جعل حركة القبائل البدوية ترسم مجالات أوسع وأمدية أبعد ، كما صارت في حركتها الدائمة الملاصقة لجدار الهـــلال الخصيب وجنوب وغرب الجزيرة بمثابة وســـادة بشرية مرنة ضمن ذلك الإطار .

ولما لم يكن ـــ بطبيعة الحـــال ـــ ذلك الجدار خطا مرسوما محددا أو ســـدا لا يمكـــن تجاوزه ، فقد كانت حركـــة تلك القبائـــل الرعويـــة المتنقلة تملأ كل المناطـــق والثغور و " الخلجان " والمنافذ الممكن التغلغل من خلالها إلى داخل جسم الهلال نفسه ، كلمـــا لمست فراغا ،أو ضعفا لدى السكان المحليين المستقرين .

وإن هذه الحركة ذاتها أو جدت عوامل وظواهر وعلاقات جديدة كان لها أثرها الفـــاعل في قلب الأحداث الكبرى التي صارت تعم المنطقة :

أولا ـــ إن حركة هذه " الوسادة البشرية " الدائمة على تماسها المباشر والمتغلغـــل مـــع الأقوام المستقرة الكبيرة والدول القائمة في كل من العراق وسوريا ومصـــــر وجنـــوب الجزيرة العربية وفرت لها فرصة الإطلاع والتعرف والتعلم ، كما أتاحت لهـــا إمكانيـــة

تجميع خبرات ومعارف غنية وكبيرة كان لها شأنها اليومي في عملية التحول النوعية من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار ، وذلك عبر فترة زمنية طويلة تستغرق عددا كبيرا من الأجيال المتوالية .

ثانيا ــ إن ذلك الوضع كان يوفر لها درجة كبيرة من الدراية اليومية بدرجة تحمل وصلابة وقوة ضغط هذا " الجدار " أمام أية اندفاعة من أجل الاستيلاء على المدن والأراضي ، أو لمعرفة مدى تحمل وتقبل واستيعاب عمليات استقرار كبيرة نسبيا جنبا إلى جنب مع السكان المحليين .

ثالثا ــ إن هذه الحركة الدائمة والدائبة كانت تجعل كل قبيلة تعرف مناطق ومواقع استقرار فروعها ، أو بطونها ، أو أفخاذها ، أو أصولها ، أو أية مجموعة تمت إليها بوشائج القربى ، فتعمد إلى إعادة تمتين أواصرها بها وتشد الواحدة من أزر الأخرى ، وتبقى على الصلة بها رغم كثرة التنقل واتساع أمدائه ، ثم لا تلبث الفروع الضعيفة المستقرة أن تنضوي تحت جناح الجماعات الأكبر المتنفذة والمدعومة من القبائل الأخرى المتنقلة ،والتي لا تتوانى عن إثبات دعمها ومساندتها من فترة لأخرى ،وكلما دعت الضرورة .

رابعا ــ إن هذه الحركة كان من شأنها أن تخلق علاقات تبادل تجارية نشيطة بين البدو المتنقلين من جهة ، وبين الفلاحين الزراعيين وسكان المدن والقرى من ناحية أخرى ، مما خلق شعورا عاما بحاجة كل طرف إلى الآخر وبحاجتهما معا إلى جو من التآلف والمسالمة تأمينا للمصالح التجارية المتنامية يوما بعد يوم ، كما أن ذلك نفسه أوجد مناخا من التسامح وضد العصبية القبلية أو الدينية ، مما ساعد فيما بعد ، ولعب كعامل رئيسي في تنامي الشعور القومي الجماعي الذي يتطلب إسقاط كثير من العوائق التعصبية القبلية أو الدينية والسعي إلى توحيدها ، ومما يلفت النظر هو أن تاريخ القبائل العربية لم يشهد أي حرب نشبت بين تلك القبائل لأسباب دينية على الإطلاق .

خامسا ــ إن هذه الحركة ما لبثت أن أصبحت أداة حقيقية وفعالة في مجال نقل المعلومات الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية والدينية ، وواسطة إعلامية لنقل

أخبار الأقوام والمناطق والغزوات ، ونقاط الضعف والقوة ولتبادل التجارب والخبرات ، مما ساعد وبصورة أساسية ، على تكون أرضية للثقافة المشتركة الواحدة .

سادسا — إن هذه الحركة بكل علاقاتها وتفاعلاتها أخذت تقرب اللهجات المتباعدة من بعضها بحيث أصبح بإمكان بدوي من جنوب شبه جزيرة العرب أن يخرج إلى العراق وسوريا ومصر ويعود إلى مركز قبيلته دون أن يجد أية صعوبة في التفاهم ، مما رسخ وحدة اللغة العربية في جميع أصقاع الأرض العربية وحمى لهجاتها من العزلة ، كما حال دون تطور هذه اللهجات فيما بعد إلى لغات مستقلة .

إن حقيقة واقع الأرض العربية والشعب العربي منذ آلاف السنين ، تؤكد لنا :

1 — أن الأرض العربية واحدة مكشوفة ومفتوحة لكل أبناء الشعب العربي وأن الحركة فيها — في جوهرها — وكذلك الاستقرار ، لم تكن نتيجة حرب أو غزو أو اغتصاب بقدر ما كانت نتيجة ظروف تمليها شروط البيئة وأنماط الحياة ، وأن هذه الحركة لم تكن لتتعدى حدود تلك الأرض التي بقيت حتى يومنا هذا تسمى الوطن العربي .

2 — أن كل سكان هذه المناطق إنما هم من أصل واحد هو العنصر العربي وينتمون إلى قومية واحدة هي القومية العربية ، تربطهم وشائج اللغة والقربى والتراث ، لا يعترضهم ولا يزاحمهم في تلك الحركة أي عنصر غريب. وكان مجرد اقتحام أي عنصر غريب لهذه الأرض في جانب من جوانبها من شأنه أن يحدث صدمة تنتشر في جسد الشعب كله ، ببدوه وبحضره وبمدينيه ، بحيث تقود بعد فترة ، وبردة الفعل العفوية والطبيعية في كثير من الأحيان ، إلى توحيد مجموعة من الجهود الكفيلة بدحر الغازي الدخيل وإخراجه من المنطقة . وكانت تحركات القبائل وتوطناتها خاضعة لحكم قبلي عشائري يتولاه رؤساؤها وشيوخها ، إذ كانت ، كدويلات المدن ، لها احكامها الخاصة بها ، وهذه مستمدة من الأعراف والتقاليد المتوارثة من المجتمع البدوي ، فقد كان يقوم شيخ القبيلة ومجلس مشايخها في ممارسة السلطة .

3 — إن من شمائل العرب الأصيلة ، منذ أن عرفوا وحتى يومنا هذا احترامهم للبادية ،

واعتزازهم بتقاليدها ، وإجـــلالهم لزعمائها وشيوخها وذلك لما كان يشترط من توفـــر كل شيم الحكمة والرجولة والشهامة والكرم والنجدة والتضحية في أولئـــك الرؤســاء والشيوخ ، وإذا كان إبراهيم الخليل ينتمي في نسبه إلى عشيرة آرامية في حران في الجزيرة العربيـــة ، ثم ارتحل مع قسم من عشيرته إلى كوثا وأور ، ثم ارتحل إلى مركز العشيرة في حران من جديد ثم إلى ذومسك في بلاد زهـــران و مغارة حـــبرون ، ثم إلى منـــازل مصرايم (المصريين) ، وفلشتيم (الفلسطينيين) في المنطقة نفسها ، إنما كان ذلك أكـــبر دليل على وحدة المشاعر والأعراف والتقاليد حيث كـــان إبراهيـــم يقـــابل بـــالإعزاز والاحترام في كل مكان يحل فيه كواحد من شيوخ القبائل العربيـــة .

سابعا ــ لأن عملية التغذية من الجانب المتحرك ، والامتصاص والاستيعاب من الجـــانب المستقر المستمرة البطيئة حينا ، السريعة العنيفة حينا آخر كان من شأنها أن تحدث ، مـــع الزمن ، تراكما كميا ، سواء على صعيد الأفراد والقبيلة ومجموعة القبـــائل ، أو علـــى صعيد الخبرات والمعارف ، لا يلبث أن يؤدي إلى تحول نوعي تحقيقا للقانون التبـــادلي : " إن التراكم الكمي لابد وأن يؤدي إلى تحول نوعي " ، فتظهر الغلبـــة لهذه المجموعة أو تلك ، فتهب لاستلام زمام الأمور في أيديها ، فتقيم دولتها ، وتطبق كل ما تراكم لديها من معارف وخبرات ومطامح وأحلام حملتها معها أو اكتسبتها خـــلال زمن استقرارها الطويل ، فتظهر في أعين الباحثين وكأنما ولـــدت فجأة من فراغ لأنه في الأمس فقـــط كانت ثمة جماعات أخرى لها دولتها ومؤسساتها الإدارية والحضارية ، إن العملية أشـــبه ما تكون بالانقلاب الداخلي الذي تنتقل فيه السلطة من فئة إلى أخرى ، ضمن إطـــــار الشعب الواحد . وإن تغير المركز أو العاصمة لا يعني تغير الشعب أو الهوية القوميـــة ، والأمثلـــة كثيرة.

ثامنا ــ إن تلك الوســـادة السكانية المتحركة كانت دائما ــ إلى جانب ذلك كلـــه ــ تخدم كقوة احتياطية ، وكبريد لنقل الأخبار ، وكواسطة لنقـــل الدعـــم العســـكري والاقتصادي الخفي أو العلني إبان الوقوف في وجه غزوات القبائل الهمجية و جائحـــات الشعوب الهائمة التي غالبا ما كانت تنقض من الشمال والشرق لتدمر وتنهب وتســـلب

وتقوض أسس البنيان قبل أن تعود إلى معاقلها الجبلية من جديد . ولقد أثر ذلك تأثيرا كبيرا في تنمية مشاعر الارتباط القومي لدى جميع سكان المنطقة العربية بدوهم وبحضرهم معا .

وهذا بالضبط ما كان يتم حتى يومنا هذا ، إذ لم يعد أحد يجهل دور القبائل في محاربة الاستعمارين التركي والفرنسي في سوريا رغم محاولات شراء زعمائها المتكررة التي كانت تبذل من قبل هذا الفريق أو ذاك .

تلكم هي إذن عملية ما درج المؤرخون على تسميته بـ"الهجرات السامية " ، إنها لم تكن تحدث بشكل طفرات إطلاقا ، ومن اتجاه محدد إلى اتجاه آخر ، وإنما كانت تتم وبتكامل في عملية بطيئة يومية وعبر مئات السنين من مختلف المناطق وفي مختلف الاتجاهات أيضا ، تخضع لظروف المنطقة المتنوعة كلها ، فتنشط حينا وتفتر حينا آخر ، تتكثف حينا وتندر حينا ، لكن الزمن يستمر ، وتستمر معه عملية الارتشاح بقطبيها : التغذية البدوية والامتصاص الزراعي والمديني ، في تراكم مستمر وصولا إلى " اللحظة الحرجة " ــ لحظة التحول النوعي العظيم .

إن تلك الفترات الزمنية التي كانت تتم فيها تلك العملية وتبلغ ذروتها إنما هي لحظات التحول العظيم التي دأب المؤرخون على تسميتها بـ " زمن الهجرات السامية " مغفلين بذلك كل العوامل الأخرى المؤثرة والفاعلة في حياة الشعوب وما فيها من تراكم للعناصر الاقتصادية والثقافية والسياسية والنفسية ومن تفاعل جدلي فيما بينها ، تراكما يصل في لحظة ما إلى حد التحول ــ الانفجار ــ الولادة .

وإننا نجد ألا مندوحة لنا من السؤال هنا :

أية ظاهرة تلك التي كانت تسكن شبه جزيرة العرب لتدفع بموجه بشرية من أبنائها كل ألف عام ؟ و " الجفاف " يحدث مرة واحدة وبالتدريج ، ولا يحدث دفعة واحدة ومرة كل ألف عام ؟

والجواب : إن ذلك التراكم الكمي البطيء نتيجة لعملية الارتشاح اليومية الدائمة في ظروف بيئية رتيبة ومتشابهة هو وحده الذي كان يظهر بمثابة القانون الفاعل في تلك

الحركة والناظم لها ، ولقد ظل يفعل ما فعله بمثل تلك الرتابة لأن الظروف الموضوعية ، سواء ما كان منها يتعلق بالطبيعة أم بالمجتمع ، لم تكن لتخرج عن تلك الرتابة في استمراريتها . فمنذ أن بلغ الميلان من المناخ المعتدل إلى الجاف أوجه فبلغ الجفاف لحظته الحرجة ، وحدث ذلك التحول النوعي تجلى فيما بعد في هيئة انقلاب في مناخ شبه الجزيرة العربية ، لم يعد يحدث أي ما من شأنه أن يخل بصورة كبيرة أو جذرية برتابة الأرض والمناخ ، كما أن قوانين التطور المجتمعي ظلت محصورة في إطار العلاقات الرعوية والزراعية والتجارية بوجه الخصوص والتي كانت تتطور ببطء دون أن تحدث أية إنجازات هامة وخطرة في مجال الإنتاج يمكن أن تؤثر على سرعة تطوره أو تحدث طفرة في مسيرته ، مما كان يجعل الفاصل بين دورة حضارية عربية تتوهج فيها الدولة العربية وبين أخرى يبدو ثابتا تقريبا .

5 ـ الجولان وليس الهجرة :

إن الحركة السكانية التي ما فتئت تملأ الأرض العربية منذ أن عرفت التاريخ أو عرفها التاريخ هي حركة جولان القبائل العربية إذن في كل الاتجاهات وضمن رقعة الأرض العربية ، دون أن تتعداها إلى أراض أخرى، راسمة بذلك حدود الوطن العربي منذ آلاف السنين ، محافظة على عروبته ووحدته ، دون أن تتمكن أية غزوة ، مهما كانت عاتية ، من أن تنتقص من هويته العربية ، كما لم يتمكن ، مع كل الجهود التقسيمية التي زرعت كيانات ، وأقامت حدودا لدول ودويلات بكل وسائل القمع المعروفة ، ومع كل الحدود والسدود والحواجز الوهمية التي أقيمت لتفصل كيان دويلة عن أخرى ، من أن تقف حائلا دون هذه الحركة الداخلية التي بقيت على مدى العصور بمثابة الدم الجوال في كل عروق البدن الواحد .

وإن على كل من يريد دراسة تلك الحركة من الباحثين والمؤرخين ، التي دعوها ظلما وخطأ بـ"الهجرات"، أن يقترب من البيئة البدوية العربية اليوم ليتمكن من فهم الحياة في هذه البيئة بكل مظاهرها ، لا أن ينقل التصورات الغربية والمغرضة في معظمها ليفرضها

فرضا على الواقع بكل غرابتها وفظاظتها . وإذا ما علمنا أن الحياة البدوية في جوهرها بقيت هي نفسها كما كانت منذ آلاف السنين ، و لم يطرأ عليها أي تغير يذكر ، فإن ذلك سوف يساعدنا في إدراك سبب تركيزنا على دراسة هذا الواقع في بيئته ذاقما .

فمن المعروف لنا جميعا أن تطور الإنتاج إنما هو الأساس الذي ينهض عليه كل تطور اجتماعي ، ولما كانت الحياة البدوية قائمة في أساسها على الرعي والصيد ، أو على الإنتاج الرعوي وملكية الثروة الحيوانية دون غيرها ، فإن شكل العلاقات الاجتماعية بقي محدودا ضمن إطار هذا الشكل من الملكية. إن البدوي لا ينظر إلى الأرض إلا بقدر ما تحمل من كلأ لرعي مواشيه ، ولا يشعر بأية حدود على الأرض غير حدود الكلأ والمرعى . إن هذا الشكل البسيط للعلاقة بين البدوي ووسيلة الإنتاج فرض أشكالا محددة من العلاقات الاجتماعية بقيت ضمن حدود القبيلة دون أي تطور يذكر طالما أن شكل العلاقة الإنتاجية لم يتغير إلى الإنتاج الزراعي أو الصناعي أو غيرهما .

ولهذا ، فنحن حينما نتعرف على حياة القبائل البدوية الرحل اليوم فإن معالم الصورة لن تكون مختلفة بنقاط بارزة عن صورة البدو الرحل الآراميين والعماليق أو غيرهم قبل استقرارهم .

يقول أحمد وصفي زكريا في كتابه "عشائر الشام" :

" البدو ، ويقال لهم الأعراب بالفتح هم أهل البادية من العرب ، والواحد بدوي أو أعرابي بالفتح أيضا . ولفظة العربة يراد بها في اللغات السامية معنى البدو .. قال الأزهري : رجل عربي ، إذا كان نسبه في العرب ثابتا وإن لم يكن فصيحا ، وجمعه العرب ، ورجل أعرابي ، إذا كان بدويا صاحب نجعة وانتواء وارتياد الكلأ، وتتبع مساقط الغيث ، سواء كان من العرب أو من مواليهم . فمن نزل البادية ، أو جاور البادين فنطق بنطقهم وانتوى بانتوائهم فهم أعراب أهل وبر ، ومن نزل بلاد الريف ، واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب أهل مدر ، أو أهل حضر ، وإن لم يكونوا فصحاء .

ومن أوصاف البدو أنهم يترلون البادية ، ويسكنون بيوت الشعر ، ويرحلون من مكان

إلى آخر وهذا الترحال يدعى " انتواء " أو " تبديا " وفي كتب اللغة نوى القوم بمكـــان وانتووه بمعنى قصدوه ، وأما التبدى فهو بمعنى الإقامة في البادية ومنه تبدى الحضـــري وتبادى تشبه بأهل البادية ، ومنها بدا القوم إلى باديتهم ، أي خرجوا وفي الحديث " من بدا جفا " أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب .

والتبدي يؤتى على درجات متفاوتة ، فمن الأعراب من يتبدى بلا انقطاع مهما كـــان الموسم ، ومنهم من يستقر في مكانه أغلب أيام السنة ولا يتبدى إلا ضمن دائرة قصـــيرة المدى ، وبين هؤلاء وأولئك بدو تختلف بداوتهم حسب القسم الذي هم منه وفي التبدى تشريق وتغريب حســـب المواسم ، فالبدو يقطنون في الصيف (منطقة الاصطيـــاف والتقيظ) وفي اللغـــة : قاظ أو يقيظ القوم بمكان كذا تقيظا ، وتقيظوا المكان أقاموا به زمن القيظ والقيظ (أو القيض بلهجة البدو) شدة الحر ـــ أو هو صميم الصيف مـــن طلوع الثريا إلى طلوع سهيل ، والمقيظ والمقاظ : الموضع الذي يقام فيه وقت القيـــظ ، وفي موسم الشتاء يذهبون إلى منطقة أخرى بعيدة جدا عن الأولى تدعى منطقة التشتية ، أو المشاتي جمع مشتى والمشتاة ، والانتقال من منطقة إلى أخرى يدعى أيضا الظعـــن أو النجعة ، وظعن في اللغة بمعنى سار تقول : ظعنوا عن ديارهم والظعينة : الهـــودج فيـــه امرأة أم لا ، وجمعه ظعون وأظعان ، والظعينة أيضا المرأة في الهودج ، أما النجعة فـــهي طلب الكلأ وارتياد مساقط الغيث في مواضعها ، وهي قســـم من النجـــوع ، يقـــال خرجوا للنجعة ، أو ينجع القوم الكلأ ، وانتجعوا الكلأ : ذهبوا لطلبه في مواضعه .

والنجعة على نوعين إحداهما تتجه من الشرق الجنوبي إلى الغرب الشمالي في بادية الشام، وفيها انتقال من منطقـــة التشتية إلى منطقة التقيظ ، وتدعى"التغريب" أو"نجعـــة الربيع" وتقع في نيسان أو أيار ، والثانية تتجه على عكس الأولى وتنتقل من منطقـــة التقيظ إلى منطقة التشتية ، وتدعى " التشريق " أو " نجعة الخريف "وتقع في تشرين الأول والثاني .

ومسلك النجعة هو الطريـــق الذي تسلكه العشيرة في سيرها والمنتجع هو المكان الـــذي تقصده العشيرة للنجعة وتحط فيه . ومسلك النجعة والمنتجع لكل عشيرة مستقران ، إلا أنهما قد يتبدلان عند الضرورة وحصول المقدرة على تبديلهما .

ومزايا النجعة هي أنها قبل كل شيء محتمة ، إذ إن ضرورة الحياة والعيش من وراء الماشية حتمت على البدو أن يضربوا في البراري والبوادي ، ويطلبوا الكلأ الذي لا ينبت في كل مكان وزمان بالقدر المطلوب. ومن مزايا النجعة أيضا أنها ممتنعة التغير والتقلب أي أن مناطق النجعة لكل عشيرة هي ثابتة غير متغيرة ، وقد حصلت على هذا الثبات من وضع اليد على مكان النجعة بالسيف ، أو بتوالي استعماله على كر السنين ومرور الزمن ، أو بعد اتفاق وتراض مع غيرها . وإذا جاءت عشيرة جديدة وهمت أن تتبدى في منتجعات غيرها تعرض نفسها فورا للمهاجمة والمطاردة ، ومن هنا كان أكثر العداوات والحزازات بين البدو من جراء التنازع على المنتجعات ، وطمع القوي وتعديه على الضعيف فيها ، على أن الأمر قد يمكن تسويته بالتراضي ... [1]

" ويمكن أن تقسم البدو حسب عراقتهم بالبداوة وأطوارها وبعدهم عن الحضارة ومنازلها إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول ـــ العشائر الجمالة ، أو أهل الإبل ، ويسمون في الدراسات بالبدو الرحل ، أو البدو الأقحاح ، أو البدو ذوي النجعة البعيدة ، ويوصفون بأهل الوبر ، لأنهم يتخذون بيوت الشعر لسكناهم ، كما يتخذون الخيل لركوبهم والإبل لمعاشهم ، فالإبل سفنهم في البر يحملون عليها أحمالهم ، وينقلون أثقالهم ، ويأكلون ، ويقتاتون بألبانها ، وينسجون أروقة بيوقم من أوبارها ، ويقايضون عليها في المبايعات ، ويعطون منها في الغرامات والديات والمراهنات ومهر الزوجات ، فهي في الجملة مصدر غناهم ، دأبهم الظعن بين قفار البادية وبراري الحاضرة ارتيادا لمواقع القطر وانتجاعا لمنابت الكلأ والمراعي الصالحة للإبل ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب الكلأ ، وابتغاء المياه والدفء في أماكن أخرى .

القسم الثاني ـــ العشائر الغنامة أو رعاة الشياة أو أهل الغنم ، وهم بدو نصف رحل أو نصف بدو أو نصف حضر ، أو هم البدو ذوو النجعة المحدودة ويسمون في سوريا بعربان الديرة تمييزا لهم عن عربان القسم الأول ، ويسمون "الرعية " (الرعاة) بحكم

(1) أحمد وصفي زكريا " عشائر الشام " الجزء الأول ص 116 .

ارتزاقهم من رعي الماشية . وهذه التسمية إما لأنهم أنقاض العشائر القديمة وبقاياها التي تمزق صدعها وتشتت شملها ، وإما لأنهم من عشائر متباينة ومنابت مختلفة تجمعوا حول بعض العائلات القوية والشخصيات النافذة وتبعوها بحكم النزعات العشائرية أو الحاجات الاقتصادية واستعاضوا بهذه الروابط عن روابط الدم وصاروا رعايا لهم ، ويسمون في أنحاء دير الزور " شوايا " ومفردها شاوي هي النسبة من الشاء بمعنى الشياه[1] ، فالشاوي هو راعي الشاء أو الشياه وهؤلاء أيضا فريقان فريق لا يرتزق إلا بالضرع أي بإرعاء الماشية من الغنم والمعز فقط والمتاجرة بمنتوجاتها التي تدر عليهم وعلى شركائهم من أهل المدن في سني الخير ثروات كبيرة ، وهم يقطنون بيوت الشعر ويقتنون الخيل والإبل بمقدار أقل من أهل القسم الأول ، وبمقدار يكفي للظعن وراء الماشية فقط وفريق ثان يضم إلى الضرع امتلاك الضياع والأرضين واستثمارها بالحرث والزرع ، فهم يقبلون من جهة على الزرع خوفا من أن تقضي أعوام الصقيع على الماشية أو ينقض عليها مرض يهلكها أو غزو يذهب بها ، ويظلون متعلقين بأهداب الضرع إما لصغر مساحة الأرض التي يملكونها ، أو لكثرة ما ينتاب الزروع من الآفات كالجراد والمحل ومضايقة أهل القسم الأول وغير ذلك ، أو لأنهم لم يتجردوا بعد عن أطوار البداوة وهوى الحل والترحال ، ورؤية ربيع البادية واستنشاق شيحها وقيصومها ، وهم بعد أن ينتهوا من بذر الزروع الشتوية يرحلون في أواخر الخريف إلى البادية انتجاعا لمرعى غنمهم ويعودون في أواخر الربيع إلى منازلهم وضياعهم ليلحقوا أعمال الحصاد والرجاد والدراس للزروع الشتوية ، والبذر والري والتعهد للزروع الصيفية وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر أو قباب اللبن .

وليس للتقسيم المذكور حد محدود ، فالعشيرة الواحدة قد تكون من الفريق الأول أو الثاني وحدها أو من الفريقين كليهما. وسبب تسمية أهل هذا القسم بعربان الديرة لأنهم مرتبطون بديار خاصة في أطراف الحاضرة ومستقرون ولاسيما أهل الفريق الثاني

(1) أنهم " السيتو " في الزمن الأكادي والبابلي والآرامي وتعني رعاة الشياه أيضا ، وليس في اللفظتين سوى الإبدال بين السين والشين من لهجة إلى أخرى.

فيها ، وأنهم ينتجعون في الشتاء إلى مسافات محدودة في براري الشامية من البادية ، وهم لا يوغلون فيها أكثر من 300 ــ 400 كيلو متر مراعاة لمقدرة الغنم ، ولقرب المناهل والآبار الصالحة لورودها . فأعراب ديار حمص وحماة يشتون حول جبل البلعاس وجبل العمور ، كما أن أعراب وادي الفرات يشتون حول جبل البشري ، وأعراب أنحاء دمشق يشتون في ديرة التلول ، وأعراب الجزيرة الفراتية في شرقي نهر البليخ وجبل عبد العزيز وجبل سنجار وقرب وادي عجيج ، ويشذ بعض هؤلاء وخاصة من كان عنده ما يكفي من الأبل فيبلغ منطقة الخبرات في الحماد ، أو منطقة الوديان في الشامية. وبعض هؤلاء لا ينتجعون البادية أبدأ بل إنهم لضعف حولهم أو قلة عددهم أو ضعة أرومتهم ومكانتهم يبقون حول القرى والمدن ينتقلون حسب الفصول في الهضاب والأودية الخالية والبراري والحقول البائرة الممتدة قرب منازلهم أو ضمن حدودها حدود مواطن شركائهم ، ولا يخلو قضاء من أقضية بلاد الشام من هؤلاء الأعراب الرعاة .
القسم الثالث ــ العشائر المتحضرة المستقرة ، أهل المدن ، وهم الأعراب الفلاحون (أو الفلاليح كما يسميهم البدو) ، الذين أيقنوا أن العيش الثابت خير من المتقلقل ، وأن من يلجأ لحمى الدولة أهنأ بالا ممن يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته ، فتركوا الأباعر والظعون وعمروا الخرب الدائرة وهجروا بيوت الشعر إلا قليلا منهم ، وتحضروا وقطنوا بيوت الحجر والطين أو القباب أو الأكواخ ، وتعرفوا على الحرث والزرع أكثر من تربية الماشية وأهل هذا القسم أيضا، وإن كانوا يغشون دائما المدن والقرى ويشاركون أهلها ويعاشرونهم ويتصلون بمرافقها ومراتعها وقد صاروا فلاحين وقرويين، لكنهم ما برحوا محتفظين بقسم غير يسير من خصال البداوة [1] .

وإذا ما أدركنا أن أفراد القبيلة الواحدة يتوزعون بين هذه الأقسام الثلاثة ويخضعون في مجملهم للقانون الاجتماعي العام الناظم لحركة تطور البدو ، والذي يتمثل في دفع أفواج جديدة من البدو الأقحاح عن طريق التكاثر الطبيعي في القسم الأول ليخضع في حركته الدائمة إلى عملية الشد والجذب التي يمارسها واقع الريف والمدينة باتجاه الاستقرار سهل

(1) المصدر السابق نفسه .

علينا فهم هذه العملية التاريخية البطيئة والطويلة التي تحمل البدوي من طوره الأول ليمر بالطور الانتقالي من حياة الرعي والتنقل إلى حياة الزراعة والحرث والاستقرار في عملية ارتشاح اجتماعية بقطبيها : الدفع والامتصاص .

وإن هذا التقسيم البسيط قد يترك انطباعا في الذهن لأول وهلة بأن ثمة وجودا حد محدود لهذه القبيلة أو تلك على تخوم البادية أو الأراضي الزراعية لكن الأمر غير ذلك تماما . فوجود القبيلة بأقسامها النمطية قد يغطي جميع بقاع الوطن العربي دون أية مبالغة . وهذا الأمر هو ما كان يغيب ، في كثير من الأحيان ، عن أذهان المؤرخين والدارسين ، فيسقطون في مفاهيم الهجرات المفاجئة، ولإقامة الدول المباغتة من قبل القبيلة أو تلك .

وإن في استكشاف تواجد وتوزع القبائل العربية اليوم ما يلقي الضوء كله على هذه المسألة ، علما أن طريقة التوزع والتواجد والتحرك ونمط العيش ما تزال هي نفسها منذ العصور الأولى للتاريخ ، ولم يتغير شيء غير ما أخذ زعماء القبائل يستخدمونه من وسائل التكنيك المعاصرة في حياتهم الخاصة وتنقلاتهم. وكما أن دولة سرجون أو حمورابي أو نبوخذ نصر أو زنوبيا أو غيرهم لم تكن لتؤثر على حركة انتقال القبائل بين أرجاء الوطن العربي الكبير كله فإنه لم يؤثر على ذلك أيضا فترات الاحتلال الطويلة والقصيرة التي مر بها هذا الجزء من الوطن العربي أو ذاك . فإن كل الحدود الوهمية بما يستتبعها من أجهزة ومخافر على هذه الحدود لن تغير شيئا في أذهان أبناء القبائل العربية الذين يسقطون كل الحسابات في تحركاتهم الحرة على أرضهم ولا يقرون إلا بحقيقة واحدة : هي أن سوريا الطبيعية كلها وشبه جزيرة العرب وشمال أفريقيا إنما هي أرض هذه القبائل ومنتجعها ومقائظها ومسرح تحركاتها ومعاناتها بكل أفراحها وأتراحها منذ آلاف السنين، وهكذا هي ، وستبقى .

إن نظرة واحدة على تواجد وتوزع وانتشار وتحرك و جولان قبيلة مثل عنزة أو شمر ، أو عرب النعيم ، أو غيرها من القبائل العربية اليوم تعطينا الصورة واضحة عن تحرك وانتشار القبيلة العربية بوجه عام وفي كل حين .

مثال " عنزة " :

" يرتقي نسبها إلى عنـز بن وائل بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معـد بـن عدنان ، والمعروف بين البـدو أن جد عنـزة هو عنـز بن وائل أخـو بكر بن وائل وتغلب بن وائل ، وأن بني وائل هم بطن من ربيعـة من العدنانيـة ومن هنا كـانت تسميتهم ببني وائل ، ويخطئ من ينسبهم إلى قبيلة تغلب المعروفة في الجاهلية ..

إن مواطن عنزة في الأصل بين أواسط نجد وشمالي الحجاز ، وفروع عـنزة الآن كثـيرة انتشرت في سائر البلاد العربية واستقرت أقسام منها في الشام والعراق وشمالي الحجـاز ، ومنها فروع تحضرت واستقرت في بلاد معينة من نجد وساحل خليج البصرة ، وأكـثر عنـزة ما زال على بداوته الصرحاء مثل الروالة و الإمحلف والولد علـي والعمـارات والاسبعة و الفدعـان والأحسنة وبعضها قد انتقل إلى حياة الحضارة ، ففي نجد وساحل الخليج عائلات حاكمـة من أصل عنزي ، آل السـعود في نجـد، وآل الصبـاح في الكويت، وآل خليفة في البحرين [1].

ويقول فؤاد حمزة في كتابه " قلب جزيرة العرب " : " إن من عنـزة بعـض العشـائر المتحضرة في نجد ، وأهمها في العارض والحريق والحوطة والافلاج والسدير والداخلة وفي القصيم وبريدة ... "

ويضيف أحمد وصفي زكريا : " وكانت هجرة من وفد من عنـزة إلى بـلاد الشـام طبيعية وبالتتابع على مثال الهجرات البدوية العديدة التي ذكرناها أن سيلها لم ينقطـع ، وقد اختلفت الأقوال في تاريخ وفود عنزة إلى بلاد الشام فمن قائل انهم قدموا في القـرن الثاني عشر في حدود سنة 1112 على ما جاء في كتاب " تاريخ شرقي الأردن وقبائلـها " إلا أنه تبين لنا فيما بعد من مراجعة كتاب " تاريخ الأمير فخر الدين المعـني " طبـع بيروت سنة 1936 أن مجيء عنزة أقدم من ذلك بما لا يقل عن قرن ، فقد أورد مؤلـف هذا الكتاب الشيخ أحمد الخالدي ، اسم عنزة في سياق حوادث سنة 1030هـ ، ولـما

(1) أحمد وصفي زكريا " عشائر الشام " ص 357 .

جاء بركها ردت وجد عشائر عنزة ولاسيما الأحسنة منها منبسطة في بلاد الشام منذ زمن بعيد لم يستطع هو تحديده .

واختلفت الأقوال أيضا في من كان أول عنزة في القدوم إلى بلاد الشام والغالب إنها عشيرتا الأحسنة والولد علي ، ثم بعد مدة لحقتها عشائر الفدعان والأسبعة والعمارات وآخر من جاء الروالة . وفي تاريخ شرقي الأردن وقبائلها " إن عنزة حينما جاءت مرت شمالا في طريقها بالجوف ، فاصطدمت بالسرحان إحدى عشائر الشام القديمة ، وقد كانت السرحان نزحت من حوران على أثر حربها مع السردية وانكسارها ، وجاءت قبيل ذلك وتديرت الجوف ، فدحرت عنزة السرحان وبني صخر الذين هرعوا إلى نجدتها بحكم عداوتهم القديمة لعنزة ، ومازالت حتى أخرجت السرحان من الجوف وأكرهتها على الرجوع إلى حوران عدا نفر قليل منهم لا يزال لهم هناك أعقاب .

وبعد أن مكثت طلائع عنزة في الجوف زمنا يصعب تحديده ، رأت أن الجوف يضيق بها ولا يكفيها فاستأنفت زحفها نحو الشمال ، وبلغت براري البلقاء و حوران ، وهناك اصطدمت بعشيرة السردية إحدى عشائر الشام القديمة أيضا .. وزحفت " الولد علي " (من عنزة) نحو حوران والجولان واتخذت لنفسها منازل و مقايظ وزحفت " الأحسنة " شمالا وبلغت ديرة الشنبل حيث المجال أوسع والمرعى اخصب وكانت عشيرة الموالي ذات المجد والبأس رابضة هناك منذ قرون، إلا أنها كانت تعبة من مدافعة شمر القادمة من نجد ومن مدافعة طيء التي كانت تغير من الجزيرة السورية ، ومن مدافعة بني خالد القادمة من الاحساء .

ولما بلغت الأحسنة ديرة الشنبل في حدود سنة 1171هـ على ما يظن اخترقت حد الموالي ونازعتها على مناطقها وأكرهتها على الجلاء عن مواطنها القديمة في أنحاء سلمية وعلى التراجع نحو ناحية العلا حيث استقرت فيها ، كما نازعت بقية عشائر ديار حمص وحماه وأخضعتها ثم توالت أمواج عنزة المتدفقة ونعني بها عشيرتي الفدعان والأسبعة وقاتلت الأحسنة واحتلتا براري حماة ، وحلب ، وقد عجز ولاة الترك في تلك الحقبة

عن صد هذه التحركات ، فأصبحت عنزة سيدة بادية الشام دون منـــازع حـــتى وادي الفرات وأطراف العراق .

وكانت شمر قد رجعت وقتئذ من نجد ثانية في نفس الوقت الذي بلغت فيه عنزة بــراري الشام الشمالية وللسبب نفسه الذي خرجت به عنــزة ، وهو الضيق واستفحال الحركة السعودية ، ووصلت شمر إلى منطقة الوديان كوادي حوران ووادي عامج ، بدأ التزاحم بين القبيلتين العظيمتين على المراعي والمناهل ، فاضطرت شمر ازاء خصومها الكثر إلى أن تعبر الفرات وتنتقل إلى الجزيرة الفراتيـــة .

وفي حدود سنة 1236هـــ / 1822م كانت شمر قد أقلقت الحكومـــة في العــراق أي إقـــلاق ورأت عجزها عن دفعهم فاضطر والي بغداد علي باشا على أن يســـتدعي عنزة لتعينه على شمر وتردهم ، فهـــرعت عنزة (الروالة منها) بعدد عديد ، جعل الـــوالي يستوحش منها، ويخشى شرها ويندم على ما أقره . وبعد أن سوى هذا الوالـــي أمــــره مع شمر حاول أن يرد عنزة بحجة عدم لزومـــها ، فطلبت منه عنزة أجرا جزيلا لقاء " ما تكبدته " من المشاق في قدومها ، من مكان سحيق كبادية الشام ، وضربت خيامـــها في ضواحي بغداد بانتظار ذلك ، فأهـــاج الوالي شمرا على عنزة ، وجرت معركتان كبيرتان كان النصر في الأولى لشمر وفي الثانية لعنزة على شمر ومعها جيش الدولـــة النظـــامي ، وراحت عنزة على أثر هذا النصر تخرب وتحاصر بغداد إلى أن استنجد الـــوالي بعشـــائر العراق الريفية ، فنهدت هذه لمقارعة عنزة ونجحت في ردها على أعقابها ، وتحرك قســـم منها جنوبا باتجاه نجد فيكون بذلك قد أكمل الدائرة التقليدية الكبيرة في حركة القبـــائل العربية .

أقسام عنــزة ومنازلها :

عنـــزة العراق : العمارات (الجبل والدهامشة)

عنـــزة الفرات والجزيرة : الفدعان (الولد والخرصة)

عنـــزة حماه : الأسبعة (البطينات والأعبدة)

عنـــزة حمص : الأحسنة

عنـــزة دمشق وحوران : الرولة والولد علي والمحلف .

عنـــزة الحجاز : الأيدة والفقرا

الـروالـة :

عشيرة عنزية من ضنأ مسلم ومن بطن الجلاس ، وهي تعد أكبر عشائر عنزة عددا وأعظمـها قوة ، وهي آخر من هاجر ووصل إلينا من عشائر عنزة ، وإن منها بقية لاتزال في مواطنها في شمال الحجاز . و الروالة أهل إبل أقحاح لا يربون الغنم ما عدا فرقتي الفرجة و الشـعلان ، وتربية الإبل تجعل أماكن نجعتهم شاسعة ، بعيدة عن مفاوز الحماد التي لا تلائم تربيـة الغنـم ومقدرتها ، وهو ما أبقاهم حتى الآن على الفطرة البدوية القديمة حتى إن أكثر طعامهم من التمر وحليب النوق .

وهم ــ فيما عدا عناصرهم الأصلية ــ يجرون وراءهم ويضمون عددا من العشائر ذات المكانة المتوسـطة ، وهذه العشائر تسمى "المحلف " لأنها حالفت الروالة وأذعنت إليها في كل ظروف الحياة البدوية .

ولما كان الروالة أهل إبل في الأكثر فإن حاجة الإبل تضطرهم في فصل الصيف إلى عدم النفوذ إلى المعمورة ، بل إلى البقاء في أكنافها . ولما مال بعضهم إلى تربية الغنم صاروا يدخلون بهـا وبابلهم إلى غربي درعا وإلى قضاء الزوية في حوران ، ثم صاروا يقيظون في قرية عدرا شـرقي دمشق ، وتكاد هذه القرية تصبح عاصمة رؤساء الروالة بعد أن تملكوا حول خمس مساحتها ، ودفنوا فيها عميدهم الأمير نوري الشعلان . وأهل الغنم منهم ما زال يقيظ في غربي حـوران حول قرى الشيخ سعد والمزيريب ونوى وتل الجابية . وفرقة محجم الشعلان تتقدم إلى قضـاء الزوية ، وتنتشر في قرى الجوخدار وخسفين وعال وفيق ، وبعض الروالة يذهبون شمـالا إلى أنحاء حمص حول الفرقلس وحسية وبحيرة قطينة وأنحاء القمقوم وأمثاله من آبار سهل الـدو ، أما شتاؤهم ففي الحماد ، وهم يدخلون الحدود العراقية والحدود الأردنية . ويبلغون في شرقي وجنوبي جبل عنزة مداخل الحدود السعودية خبرات البساتين و الرويشيد وخفايا اللاهة والهجم والبر ودويل و الطريفاوي . وإذا ما طاب لهم المرعى وزخر الماء ربما انحدروا جنوبـا وبلغـوا حدود الجوف والنفوذ . تلتقي الفرق القادمة من حمص مع فرق حوران والجولان في القريتـين

حيث يكون مخيم العشيرة الكبير، فتأتي الأولى من ناحية الفركلس وسهل الدو ، والثانية من الجولان و الجيدور وضفاف نهر الأعوج وشرقي مرج الغوطة ، وتقف برهة في ضواحي قرية عدرا وفي سهل رمدان شرقي بحيرة العتيبة ، فإذا قحطت إبلهم مراعي هذه الأنحاء تقدمت نحو خان أبو الشامات وتل الذكوة وجبل سيس وتل هدلة والبساتين ، أو تقدمت نحو الضمير وجيرود والناصرية والقريتين والبصيري والحلبا والتنف والبساتين ومن ثم تزحف العشيرة كالجراد المنتشر انتشارا رائعا يستحق النظر والتصوير وتتجه نحو الجنوب إلى أن تلتقي في الحماد في الأودية والخبرات التي ذكرناها التقاء تختلف كثافته بين قلة وكثرة ، وفي الربيع تعود من المسلك نفسه وتتقدم نحو أماكن التقيظ ريثما ينتهي الحصاد والرجاد في المعمورة ، ويأمن أهل القرى على زروعهم من مداهمة إبل الروالة .

وتنقسم الروالة إلى أربعة بطون كبيرة هي : الجمعان ، و الكواكبة ، و التعاقلة و الفرجة ، وكل واحد من هذه البطون ينقسم إلى أفخاذ وكل فخذ إلى فصائل وكل فصيلة إلى بيوت أو فروع جديدة .

المحلف :

بتسكين الميم وفتح الحاء واللام ، هؤلاء هم الفرع الثاني من عشائر الجلاس ومن ضنأ مسلم ، وفي هذا الفرع ثلاث عشائر صغيرة ، وقيل أن سبب تسميتهم بـ " المحلف " إنهم تحالفوا أن يكونوا مع الروالة على خصام ضنأ مسلم .

الأشاجعة :

عشيرة صغيرة أهم فرقها الخليفات ، والبلاعيس والبدور ، والمهبوب . يقيظ الأشاجعة في حوران ، وخاصة في غربي قضاء درعا ، فإذا قضوا على مراعي هذه الأنحاء انتقلوا إلى المرج (قضاء دوما) حول قرى تل مسكن والغزلانية والهيجانة . أما في النجعة فيلتحقون بالروالة بنفس المراعي والمناهل في الحماد حول جبل عنزة ، والغنامة منهم يبلغون حرة الراجل ووادي السرحان .

الســوالمــة :

عشيرة صغيرة ، وهم أيضا مبعثرون ، والقسم الأكبر منهم مع آل الشعلان والقسم الأقل في شرقي الأردن . وفرقهم هي الفراهدة والمنهاج و الهيب و الجندل ، وهم كالاروليــة من أهل الإبل وهم يقيظون في أنحـــاء بير القمقوم وبير حجار وبير جـــزل في بـــراري حمص ، ثم ينتقلون إلى حوران والجولان ، وفي الخريف إلى مرج الغوطة حول قرية العتيبة أما في النجعة فهم كالأشاجعة أهل الأبل في الحماد مع الروالة وأهل الغنـــــم في حـــرة الراجل ووادي السرحان ، وإذا كانت المراعي مبذولة في البادية لا يدخـــل هــؤلاء ولا الروالة المعمورة ، بل يبقون حول آبار بادية حمص .

العبد اللــه :

وفــرقتها هي الناجي و الحرزة و المشاطرة و الشاهين والقشوش . ويقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه "مفصل العرب واليهود في التاريخ" : " من قبائل العرب الكبرى الـــتي تصور لنا مثلا حيا للهجرات القبائلية من الجزيرة العربية وارتباطها بوادي الرافدين قبيلــة " عنـــزة " وأصل وطن هذه القبيلة الحجاز في أنحـــاء المدينـــة المنورة ، ويرجع تاريخـها إلى العهد الجاهلي حيث أورد ذكرها كل من ابن خلدون وابن سعيد ، وبيت آل سعود ملوك نجد والحجاز اليوم منها ، وكذلك آل صباح وآل خليفة في الكويت والبحريـــن . إن مجيء جماعات من هذه القبيلة إلى العراق يصادف زمن مجيء " شمر الجربا " وتقســـم إلى فرعين رئيسيين (في العراق) الأول ومركزه الرطبة ويدعي بقبائل " العمـــــارات " والفرع الثاني ويسمى بـــ " الهامشة " (الظفير) ومركزه نقرة السلمان"[1] .

---

(1) الدكتور أحمد سوسة " مفصل العرب واليهود في التاريخ " ص 105 .

الـولـد عـلي :

عشيرة عنـــزية صغيرة ، وهي من ضنأ (أولاد) مسلم وبطن الوهب ، وهم يفـــدون ويروحون بين بلاد الشام ونجد ، وكثرتهم الغالبة اليوم في المملكة السعودية . ويبـــدو أن وهبا جدهم الأعلى أعقب ولدين منبه وعلي ، فمن الولد الأول منبه جاء آل نبـــهان أو المنابـــهة المنقسمون إلى المساليخ أعقاب حسن بن منبه الذين منهم الملوك الســعوديون ، و إلى الأحسنة أعقاب حسين بن منبه ، وإلى حمعل الذي منه الحماعلة والفقراء ، ومـــن الولد الثاني علي جاءت عشيرة " الولد علي " المنقسمة إلى الأمشطة والأيدة ، والأيـــدة قسمان : الشماليون في بلاد الشام مع الأمشطة ، ويسمون أيضا ضنأ مفرج ، والقبليون في الحجاز ونجد .

وقد كان العداء والتناحر قديما متواصلا بين الولد علي و الـــرولة رغم قرابتهما ، وسببه فيما قيل أن الولد علي هم من طلائع عنزة الذين جاؤوا قبل غيرهم مـــع الأحســـنة في القرن الحادي عشر الهجري ، ونازعوا عشائر أهل الشـــمال (الســـرحان والســـردية والصقور وبني صخر) ، واستطاعوا أن يشقوا لأنفسهم طريقا إلى الجولان ، كما شقت الأحسنة طريقا إلى ديرة الشنبل ، ولما جاءت الرولة بعدهم بـــ 60 ـــ70 سنة او أكـــثر لبثت مدة مديدة بين الجوف ووادي السرحان وأطراف البلقاء لا تستطيع التقدم نحـــــو حوران والجولان من صولة الولد علي . وفي النجعة تلتحق فرق الولد علـــي بالروالـــة حيثما ذهبت فتسير وراء ساقتها إلى جبل عنزة في الحماد أو إلى الجوف ، أما في الصيف فيمكث أكثرها حول عين دكر ، وأحيانا تفد في الربيع إلى أنحاء الصيقل شرقي خـــان أبي الشامات .



إن هذا الاستعراض البسيط لإحدى قبائل العرب الحديثة التي ـــ كما أسلفنا ـــ لا تكاد تتميز عن غيرها من القبائل العربية القديمة في شيء ، لا في شكل الانتماء ولا في شكل التواجد والحركة ، أو الجولان ، أو نمط المعيشة ، أو العلاقة الإنتاجية ، أو الاجتماعية، يكشف لنا النقاط الرئيسية التالية :

1 ـــ أن نسبة القبيلة العربية وفروعها (البطون والأفخاذ والفضائل أو الفرق) إنما هي نسبة لأحد الأجداد ، وإن تمسك القبيلة بهذه النسبة تقليد عربي جرت المحافظة عليه منذ آلاف السنين وحتى اليوم .

2 ـــ إن بعض القبائل او العشائر الصغيرة الضعيفة ، أو التي ضعفت فجأة نتيجة لظروف معينة أو أحداث طارئة تنضم إلى القبائل الكبيرة وتنتمي إليها ، كما تنضم مجموعات بشرية أخرى متساقطة من مختلف القبائل مكونة شكلاً من التجمع القبلي اسمه " الأحلاف " وهذا الشكل من التجمع يختلف عن غيره من الاتحادات القبلية التي تبرز على الساحة لأسباب سياسية ـــ على الأغلب ـــ كاتحاد كندة ، واتحاد القبائل العربية في معركة ذي قار .

3 ـــ إن تحرك القبائل العربية البدوية الصغيرة والكبيرة كان يتم بصورة طبيعية بشكل جولان قريب أو بعيد ، تتحكم في سعته وضيقه ، سرعته وبطئه ، كبره وصغره ، عوامل واحدة هي : مساقط الغيث ، ووجود الكلأ والمراعي ، استثمار الطرق التجارية الدولية ، وقوة الدفع في الموطن الأصلي الناجمة عن طغيان طبيعي (كشدة القحل مثلاً) أو طغيان بشري وسكاني (كالضغط الذي يمكن أن تمارسه هذه الدولة أو تلك ، أو طغيان قبائل أخرى على مناطق رعي الأولى) ونوع الماشية .

4 ـــ إن هذا الجولان لم تكن تقوم به القبيلة ككل ، بل كانت كل عشيرة أو فصيلة أو فخذ تطلق " روادها " في اتجاه آخر غير الذي سلكته غيرها ، لكن ذلك لا يمنع أنهم كانوا جميعاً يقعون تحت عامل الانجذاب نحو بقاع الهلال الخصيب الممتدة من الخليج العربي إلى وادي النيل في بعض فصول السنة ليعودوا إلى منتجعاتهم في بقية الفصول .

وكانت هذه الفروع القبلية تنتشر في عملية جولانها بحثاً عن المراعي والمقائظ والمنتجعات فتسرع تارة تحت ظروف التنافس في السبق إلى مراعٍ أكثر غنى واتساعاً ، أو هروباً من الصدام عند الوقوع في مناطق رعي قبائل أشد سطوة وأكبر نفوذاً ، وتبطئ تارة أخرى إذا ما توفرت لها ظروف الرعي الدائم دون منغصات .

5 ـــ كان جولان فروع القبيلة يستغرق منها أجيالاً كثيرة ومتعاقبة من أجل تأمين نقلة نوعية في التواجد المكاني ، وهكذا فقد كانت عملية الدفع والارتشاح والامتصاص السكاني في موقع الاستقرار الزراعي تستغرق مئات كثيرة من السنين دون أن تلحظ في مراحلها الأولى ، ثم ما أن تبلغ مرحلة متقدمة من التراكم الكمي حتى يبرز على ساحة الفعل زمن اللحظة الحرجة ـــ بداية التحول النوعي في شكل تواجد هذه القبيلة أو تلك.

6 ـــ إن هذا الجولان كان دائما وأبدا ينطلق في كل الاتجاهات على امتداد رقعة الوطن العربي كله دون أن يتعداه إلى غيره ، فحددت حدود الوطن العربي منذ آلاف السنين ، كما أنها أكدت وحدته أيضا على مر العصور دون أن تتمكن من أن تقف في طريقها أو تحد منها كل الحدود المصطنعة التي أقامها المحتلون والمستعمرون بين أقطاره .

7ـــ كانت عملية الجولان هذه تخضع لعمليتين متناقضتين في طرفيها : ففي الطرف الأول يتمثل المنبع البدوي حيث تتكاثر أصول القبائل البدوية وتقذف بالسكان البدو إلى حركة التنقل والجولان دافعة أمامها موجة سكانية أخرى في اهتزازات بطيئة هادئة أو عنيفة واسعة بصورة تتناسب وكل الظروف المحيطة بحركة السكان في النبع ، وفي الطرف الآخر تشد مواقع الاستقرار كل من نضجت لديه الظروف والإرادة وعملية التحول النفسية الطويلة إلى حياة الزراعة والاستقرار .

فقد ذكر أحمد وصفي زكريا في كتابه " عشائر الشام " كيف أن شدة ضغط آل سعود على القبائل العربية في نجد والحجاز من أجل موالاتهم أدت إلى تحرك بعض"عشائر عنزة" كالفدعان والأسبلة والعمارات من شمالي الحجاز ، وللسبب نفسه الذي خرجت به شمر. وقد نفذت هذه العشائر إلى براري حمص وحماه وحلب ودير الزور وصارت تصل في نجعتها إلى وادي عامج ووادي حوران، وتزاحم شمرا على المراعي والمناهل ، ورأت شمر

قلتها أمام خصومها الكثر فاضطرت إلى أن تعبر الفرات وتنساح في سهول الجزيرة الفراتية وتستولي عليها تدريجيا من نصيبين حتى قرب بغداد ، وقد زاحمت وقتئذ وأزاحت العشائر القديمة المستقرة في تلك الأنحاء كطيء والعبيد والبيات وجيس وغيرها ، وصار أكثر هؤلاء يدفع لها " الخوة " ويعزف عن البداءة ، ويمتد في الحويجة بين جبل حمريد والدجلة ، ويحرث ويزرع"[1] .

إن في ذلك مثالا واضحا على فعل الظروف المحيطة بالطرف الأول (المنبع) في تسريع عملية الحركة والجولان ، فتدفع الموجة موجة أخرى في طريقها إلى منتجعات أخرى قصية ، كما تسرع في عملية التخلي عن البداوة من قبل البعض واختيار حياة الاستقرار الزراعي والانضواء تحت ظل القانون المديني بعيدا عن عسف اجتياح الكثرة البدوية في مراعي البراري المفتوحة .

لكن هذه العملية في شكلها الطبيعي الاعتياري كانت تتم ببطء كبير ، وتمر في مراحل اجتماعية ونفسية وعقلية ومعرفية طويلة ، تذكرنا بأقسام المعمل الواحد التي تتسلم المواد الخام من طرف لتسلمها موادا جاهزة ومصنعة من الطرف الآخر ، فإن الأنسال البدوية تجتاز مراحل عديدة من منبعها إلى مصبها عبر جولانها الطويل من منطقة إلى أخرى ، وعلى تخوم الأرياف والمدن ، فتتلقى كل عناصر التأثير والتغيير في الذهن والنفس معا ، بحيث ما إن تحل لحظة التحول النوعي في عقل هذا البدوي حتى يجد نفسه مستسلما لاغراء الجذب الزراعي والاستقرار ، ثم تندفع من خلف الأفواج المستقرة أفواج أخرى لتستغل أدنى فرجة قد يحدثها ذهاب أولئك إلى الزراعة والحياة الريفية ، وتتجمع العناصر المستقرة عنصرا في إثر عنصر وجماعة في إثر أخرى من جيل إلى جيل ، ويفضل أولئك عادة النزول بين الأقارب بشكل يؤمن القوة والمنعة ، وقد تمضي قرون جد طويلة دون أن تتمكن العشيرة من بلوغ الاستقرار بكامل أفرادها .

---

(1) أحمد وصفي زكريا " عشائر الشام ، الجزء 2 ، ص 615 .

8 ــ إن كل منطقة تحل فيها العشيرة تصبح ، و لفترة ما ، مركزا للجولان الصغير ، حتى تأتي على مراعيها كلها ، أو تتغير الظروف والشروط التي جعلتها تتمركز فيها فتتخذ من المركز وما يحيط به مقائظ ومنتجعات تتحرك فيها بين الفصول لفترة زمنية قد تطول وقد تقصر .

9 ــ إن الصراع بين العشائر هو صراع على المرعى والكلأ بالدرجة الأولى ، فما أن يسبق رواد عشيرة ما إلى منتجع وافر الكلأ حتى يستنفر أفراد القبيلة تحسبا لاجتياح قبلي كثير العدد لمنطقة الرعي تلك مما يضطر الأولى إلى التروح لارتياد أماكن أخرى بكل ما في ذلك من العناء ، والجهد للناس وللماشية .

10 ــ قد يتوصل بعض من فروع القبيلة إلى القبض على زمام السلطة في هذه الدولة أو المنطقة أو تلك ، لكن هذا لا يعني أن السلطة أو الدولة إنما هي سلطة القبيلة أو دولتها ، أو أن وجود هذه القبيلة سوف يتركز حول الدولة التي يقبض فيها بعض أبنائها على زمام الأمور. فكما أن السعودية أو البحرين او الكويت التي يحكم فيها بيوت من فصائل عشائر عنزة، ليست دولا عنزية ، توجد فيها بطون القبيلة وتتمحور من حولها ، وتتخلى بقية فصائل القبيلة عن حياتها البدوية لتتجمع حول " دولتها " وتحيا حياة المدن المستقرة ، فإن الدولة السومرية أو الأكادية أو البابلية أو الآشورية أو غيرها لم تكن دولا لقبيلة في حدود الفهم الحرفي لذلك ، كما اعتاد المؤرخون على القول ، وكما أن وجود قبيلة عنزة اليوم الذي يكاد لا يخلو منه مكان ما من الأصقاع العربية المترامية ما بين ديار بكر وبحر العرب والخليج العربي والبحر المتوسط ، لا يكاد يلحظه المؤرخون بالمقارنة مع وهج السلطة في كل من الكويت والبحرين والسعودية ، وكما أن وجود تلك الأسر من عنزة في قمة السلطة في هذا البلد أو ذاك تحت هذا الاسم أو ذاك لا ينفي عن البلد والحكام هويتهم العربية كما لا يحجب الوجود المتناثر للقبيلة العربية التي ينتمون إليها في الأصل ، فإن حكم بعض الأسر أو الفروع القبلية العربية في أوروك أو بابل ، أو أغادة (أكاد) ، أو أشور ، أو دمشق ، أو ماري ، أو إيبلا ، أو حلبو (حلب) ، أو تدمر ، أو البتراء ، أو سبأ ...الخ لا ينفي عنهم صفة العروبة ، كما لا يحجب وجود بقية فروع

القبائل العربية متناثرا على رقعة الوطن العربي الكبير بكل امتداداته ، وكما كان الصراع بين الدويلات ــ المدن، والدولة القومية المركزية قائما على قدم وساق، فإن الصراع بين التبدي والتحضر كان الآخر قائما ، لكن بصورة أكثر مدى واتساعا واستمرارية ، وأقل صخبا وضوضاء .

11ــ أن تواجد قبيلة حديثة نسبيا مثل " عنزة " طبق مناطق الدائرة الكبرى الممتدة من الكويت ، إلى البحرين ، إلى نجد والحجاز ، والجوف ، والتنف ، والحماد ، ووادي السرحان ، والبلقاء ، وحوران ، والجولان ، وبادية الشام ، وبراري حمص ، ودمشق ، وحماه ، وحلب ، والجزيرة ، والفرات ، والرطبة ، وبغداد ، والبصرة ، التقاء بالكويت ، ولقد مضى على هذا التواجد عشرات المئات من السنين ، لكن المؤرخ لا يشعر به إلا بقدر ما يصطدم هذا الوجود بمراكز تقاطع الأحداث الكبرى في تاريخ المنطقة ، فإن تطبيق هذه الدائرة نفسها كان هو الأمر المألوف لدى القبائل العربية الكبيرة القديمة .

12ــ إن تواجد " عنزة " هذا ليس وحيداً في هذه المناطق ، ولا يوجد بشكل شريحة قبلية " عنزية " خالصة من هذا الامتداد ، بل إن شكل هذا التواجد إنما هو متقطع ومتداخل ومتشابك مع تواجد القبائل العربية البدوية الأخرى في جولاتها حول مراكز الرعي الصغيرة والكبيرة ، وبأقسامها الثلاثة البدو الرحل والبدو نصف الرحل والبدو الذين استقروا أو الآخذين في الاستقرار ، ولقد تحدثنا عنه كمثال فقط دون الإسهاب في تواجده بين بقية القبائل الأخرى .

ويكفي أن نذكر هنا أن من يتتبع وجود القبائل العربية الرحل الدائمة في بادية الشام وبراري القطر العربي السوري وحدها لاشك سوف تذهله الكثرة في أسماء تلك القبائل والعشائر التي تتقاسم المراعي مع عشائر عنزة ، وبعضها كبير يشغل الدوائر الكبرى من نجد إلى أطراف الهلال الخصيب مثل شمر ، وبعضها أقل شأناً . فهناك ، على سبيل المثال لا الحصر : الموالي ، وشمر ، وعرب النعيم ، و الحديديون ، وآل فضل ، و المساعيد ، والشرافات ، و الشنابلة ، و السردية ، و الجوابرة ، و اتواس ، والبريدات ، و الفواعرة ، و العقيدات ، و العمور ، والبدور ، و النجور ، و الصليب ،

و الجماجمة . و السفارنة ، و الغساسنة ، و الجحيش و القرعان ، و طيء ، وحرب ، و البقارة ، و قيس وغيرها كثير مما يصعب حصر أفخاذه وفصائله .

إن مثل هذه الوسادة البشرية العجيبة والفريدة من نوعها في تاريخ الشعوب ظلت محافظة على وجودهــا ذاته ، ونمط معيشتها وتحركها وجولاتها وتكاثرها وتنازعها واستقرارها آلاف السنين. وإذا كانت الحكومات في البلدان العربية هي التي تــبرز علــى مســرح الأحداث التاريخية ، فإن ثمة عملية نسج خفي للناس والمجتمع تتم بصمت ودونمــا أيــة ضجة ، وبدأب متواصل تصعب ملاحظته ورصده إلا لمن يتبع العملية قــاصدا . وإن في إمكان أي منا أن يتخيل هذه الصورة ذاتها قبل ألف ، وألفين ، وثلاثــة آلاف وأربعــة آلاف من السنين . فإن قيام حكومة هنا في ماري ، أو دمشق ، أو ايبلا ، وهنـــاك في بابل ، أو أكاد ، أو سومر ، لم يكن يعني مطلقا خلو بقية الأرض . بل كانت تبقى تعج بحركات تلك القبائل وجولاتها ضمن إطار الوطن العربي الكبير الذي رسمته في حركتــها وجولاتها وحافظت عليه وعلى عروبته .

6 ــ الشعب العربي السوري والتسميات :

تبين فيما سبق كيف أن الدارسين والباحثين ما فتئوا يستخدمون مصطلحات وتســميات أطلقت عشوائيا ودونما تبصر ، على الأرض العربية السوريــة و على الشعب العــربي السوري ، بفعل ظروف معينة يمكن أن نجمل بعضها بما يلي :

1 ــ الجهــل المطبــق بتاريــخ المنطقة قبل القرن التاسع عشر وبدء بعثات التنقيـــب الأثرية بالعثور على المكتشفات .

2 ــ ارتباط التسميات عموما بأسماء المناطق التي أجريت فيها الحفريات ،ثم العثور علــى أجزاء من الحضارات القديمة .

3 ــ الانطلاق في التعامل مع التاريــخ القديم من خلال واقع التجزئة الإقليمي المفروض على الوطن العربي السوري في ظل الاستعمارين التركي والإنكليزي ــ الفرنسي .

4ـ التمسك بتسميات بعيدة كل البعد عن كل ما من شأنه أن يذكر الشعب العربي السوري بوحدة أراضيه وشعبه من جهة ، وبانتمائه العربي العريق الضارب الجذور في أعماق الأرض والتاريخ ، من جهة أخرى .

5 ـ جهل الباحثين والدارسين من العرب باللغة العربية القديمة ولهجاتها المتعددة مما يجعلهم يقفون مشدوهين أمام سيل الأسماء المكتشفة للمناطق والدول والأشخاص ، ويقوي من شعورهم بالغربة عن واقع وأحداث ذلك التاريخ القديم .

ونحن حينما نقترب من هذه التسميات التي لا تستند إلى أي أساس علمي وموضوعي ، مثلها مثل ما دعي بـ " الهجرات السامية " لا يسعنا إلا أن ننبه، ونكرر تنبيهاتنا ، بأنه لا شأن لنا بهذه التسميات كلها ، وإننا نتعامل معها مؤقتا مع طرح البدائل لها مباشرة ، فاستعمالنا لها لا يؤكد جهلنا بحقيقة تاريخنا فحسب ، وإنما يكرس أيضا ذلك الأسلوب الذي يريدنا به أعداؤنا ان ننظر إلى هذا التاريخ ونتعامل معه من خلاله .

لا شك في أن الشعب العربي السوري ، مثله مثل كل الشعوب ، كان في كل مراحل تطوره مؤلفا في أساس تكوينه من أفراد وجماعات وقبائل واتحادات قبائل، لكن ذلك التقسيم الذي فرضه علينا الدارسون منذ أن شاؤوا هم ، وحتى تتحرك مشيئتنا نحن في تغييره ، يكرس أخطاء تاريخية وقومية ووطنية مجحفة بحق شعبنا وقوميتنا ووطننا كله .

إن هذا ليس هو التعصب كما قد يظنه بعضهم ، إنه التشبث بالكشف عن الحقائق المطمورة والمزورة من قبل الجهات المتعصبة له ، فالتمسك بالحقائق إنما هو خدمة للحقيقة وللعلم ، والتشبث بالأوضاع وبالمفاهيم الهشة المقلوبة والمغلوطة إنما هو ، في لب جوهره ، تعصب أعمى ، لأن الجهل هو أرسخ قاعدة للتعصب و للعمى أيضا .

فكما لا يمكن اليوم أن نتحدث عن الأمة الفرنسية مثلا ، أو الشعب الفرنسي ، بالعناصر التفصيلية التي يتألف منها الشعب الفرنسي ، فإنه لا يمكن لأي إنسان في العالم أن يتحدث بنقاوة العرق في شعب ، أو قبيلة ، أو عشيرة ، أو أسرة . وبعد أن تشكلت الأمم واستنفذت الحاجة إلى كل المفاهيم التي وضعت لتخدم عملية ذلك التشكل فإنه لم يعد من الممكن أيضا أن نسمح بإخضاع " تاريخنا لأية تجارب مخبرية " لتكشف عن

نقاوة الدم وترتيبة عظام الفك والجمجمة ، كلما دعا الداعي إلى وجوب تمزيقه وتجزئته ، ولن نتقبل ما يصدره لنا صناع المفاهيم والعلوم الاستعمارية من قوالب وأشكال تافهة وقميئة لنلبسها تاريخ شعبنا ونقزم بها حقيقته العظيمة : فتارة يربطون وجوده الدائم بمرحلة البداوة ويفصلونه عن كل الحضارات التي تشكلت في أطراف الوطن العربي الكبير سوريا ومصر ، وتارة أخرى يعتبرونه غازيا من البادية لتلك الحضارات القائمة التي " لا علاقة له بها " وطورا يستخدمون تسميات لا تمت إليه بصلة ، فمن تسميات مكانية ضيقة ، (ما بين النهرين ، وادي الرافدين ، حوض الفرات ، حوض الدجلة ، الشرق الأدنى ، شرق المتوسط ...الخ) إلى تسميات سكانية قبلية ، بعد حصر وجود تلك القبائل في بقع معينة، تظهر فيها فجأة نتيجة لـ" هجرة "، أو " غزوة " فتقيم دولة ثم تترك الساحة لتظهر غيرها ، والمهم هو أنها جميعا ليست شعبا واحدا في النهاية ، وإن الواحدة تقوم بغزو الأخرى وتحل محلها ، مثلها في ذلك مثل أي تجمع سكاني غريب آخر ، مما يبرر الفعل ذاته للغوتيين و الكاشيين ، ثم للتتار ، وللأتراك ، و للفرس ، وللروم ، وللأوروبيين المستعمرين بمن فيهم الصهاينة ... فطالما أنه في النتيجة ليس ثمة شعب ثابت يشغل تلك الأرض فإن حق الغزو والاحتلال مشروع للجميع !

إن ما يحز في النفس حقا هو أن بعض الدارسين العرب، يتلقفون تلك الصيغ كما تتلقف الأرض الواطئة كل أنواع المياه ، دون أن يجهدوا أنفسهم قليلا بشيء من التروي والبحث. إنهم يتلقونها كحقائق علمية لا تقبل الجدل ،يملي ذلك عليهم إحساسهم المروع بالنقص الثقافي ، وبالنقص عموما أمام كل ما هو غربي أو أجنبي ، فيصبح الجدل معهم أشد خطرا من غيرهم لأن الجدل في مثل هذه الأحوال لا يهشم قواقع المفاهيم ويكشف هشاشة مضامينها بقدر ما يهشم قواقع الناس أنفسهم ، فيكون الدفاع مستميتا لأن وراء القوقعة جهلا وفراغا مطبقين .

إن خوف أولئك من العلم اشد من الجهل بكثير. ولو علموا أن بينهم وبين تجاوز عقدة الخوف تلك ، عقدة النقص تلك قيد أصبع ، لما تردد كثير منهم في التخلي عن

جهله واللحاق بالمواكب المتقدمة . إن الأمر يتطلب إرادة فقط ، وبعض الإقدام على الرؤية بعين الفاحص المتبصر لا بعين مغمضة استسلمت سلفا لما قد يلقي على المائدة ، وسوف يرون كيف يكبر فجأة هذا الوطن العربي السوري ليتحول إلى قاعدة الوطن العربي كله ، ووطن لكل المتمدنين في العالم كما قال مرة أندريه بارو مدير متحف اللوفر في فرنسا ، بعد إطلاع العالم على المكتشفات الحضارية المذهلة التي تم العثور عليها في سوريا : " إن على كل إنسان متمدن في العالم أن يقول إن لي وطنين ، وطني الذي أعيش فيه وسوريا" .

ويمكن أن أورد هنا ، على سبيل المثال فقط ، ما كتبه المؤرخ الأمريكي ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة : " وقصارى القول إن " الآريين " لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ، وإن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه ، وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين وجاءت إلى موانئهم مع مغانم التجارب والحرب ، فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه ، فإنا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدي من زمن بعيد " [1]

هذا ما يضطر المؤرخ الأمريكي ول ديورانت إلى قوله بعد أن أذهلته بعض حقائق تاريخ العصور القديمة ، علما أن كتابه مليء بالمغالطات في كثير من الأحيان .

إننا نورد هذا المثال هنا لكي نلفت أنظار أمثال أولئك " الدارسين " العرب إلى أن الأمر في كثير من الأحيان لن يتطلب منهم جهدا كبيرا ، فتحت كلمة "بابل " هذه غطى ول ديورانت الدولة العربية السورية منذ عهد صارغون إلى حمورابي إلى نبوخذ نصر ، وخبأ المحار : الشعب العربي وكذلك الأمر بالنسبة لمصطلح " الشرق الأدنى " .

وما على الدارسين المنصفين سوى أن يرفعوا هذه " الطاقية السحرية " ـــ الكلمة ـــ ليجدوا أنفسهم يتعاملون مع الشعب العربي وجها لوجه .

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة ، الجزء 1 ص 10 .

ونحن ، حينما نريد دراسة " دولة حمورابي " كما تعودنا أن نسميها ، وكما علمنا إياها بعض " مؤلفي " كتب التاريخ ، إذ كل شيء يرتبط بفرد ، ينهض به ويزول بزواله ، فإنه لا يسعنا إلا أن نتعرف على الشعب العربي الذي انتج مثل هذا الـ " حمورابي " ودفع به إلى مسرح الأحداث التي صنعت أو ساهمت في صناعة تاريخ العالم القديم إلى درجة كبيرة . إننا نقر دور الفرد البارز في التاريخ ، كما لا ننفي تلك الوفرة الهائلة من الأفراد البارزين المتفوقين الذين قدمتهم الأمة العربية في عصور تاريخها فصنعوا ركائز العالم الحضارية كله دون مبالغة . وما على أي إنسان يحاول أن ينكر ذلك سوى أن يتخيل البشرية بتاريخها من دون أولئك الرجال العرب الأوائل أمثال سرجون ، وحمورابي ، وإبراهيم ، موسى، وعيسى ، ومحمد ، وعمر ، وعلي ، أو امثال زينون ، وماريتوس و الكندي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن الطفيل ، وابن النفيس ، والبتاني ، والخوارزمي ، والحسن بن الهيثم ، وغيرهم ... لكننا مع ذلك ، نربط تفوق تلك العبقريات الخالدة والبارزة على مر العصور بخصوبة الرحم ــ الأمة بكل تلك العناصر والأوليات التي تساهم في إنتاج العبقرية ، من جهة ، كما إن الشروط التاريخية التي تتفاعل معها هذه الأمة في علاقة جدلية مستمرة و متواصلة لابد وأن تملي حاجاتها الموضوعية في ظهور وابراز مثل هذه الشخصية أو تلك . إن أيا من أولئك الأفذاذ لم يكن نيزكا هبط من السماء على الأرض فتوهج ثم انطفأ ، إنه جزء لا يتجزأ من الطينة البشرية العربية المشكلة تاريخيا ثقافيا و سياسيا و اقتصاديا و عسكريا و بيئيا و ارثيا ... وبكلمة إنهم عناوين بارزة في صفحة الأمة الكبيرة التي مارست صنع الحضارة منذ آلاف السنين .

من هذا المنطلق فنحن لن نأخذ بتلك التسميات إلا بقدر ما تساعد القارئ على الائتلاف مع المعلومات التي كان قد تلقاها من قبل . فإذا ما ألقينا نظرة واحدة على واقع الشعب العربي قبيل ظهور حمورابي لتبينت لنا حقيقة أخرى أكبر وأشمل من تلك " الحقائق " المجزأة التي اعتبرت حمورابي هذا ينتمي إلى القبائل الأمورية ، ومن هي تلك القبائل الأمورية ؟ لا أحد يدري سوى أن السومريين كانوا يطلقونها على جيرانهم

وأشقائهم الذين يسكنون إلى جوارهم في المنطقة الممتدة غربا فاسموهم بـ" الأموريين " أو "الغربيين " أحيانا ، تماما كما يطلق أهالي المنطقة الوسطى من الساحل السوري اسم " القبالى " لمن يليهم قبلة أي جنوبا و" الشمالى " لمن يليهم شمالا من جيرانهم حتى الحدود مع تركيا ، فهل كانت تسمية " الغربيين " تعبر عن حقيقة مجموع تلك القبائل الغربية وانتشارها . ثم هل كانت تعبر عن أصولها وارتباطاتها الأصولية مع غيرها من القبائل الأخرى ، بل هل تدل هذه التسمية على أصل أو جنس أو انتماء كي نبرر وضع تلك الحواجز والسدود المصطنعة التي وضعها الدارسون فيما بينها ، فتصطرع مع الدول القائمة وتقضي عليها وتقيم دولها ، ثم تختفي فجأة ؟

إن متابعة بسيطة لما أسموه " أموريا " أو عموريا مثلا ، تكشف لنا كيف أن ذلك الأموري ليس إلا ذلك العربي الموجود منذ آلاف السنين قبل حمورابي في الأراضي السورية الممتدة من الخليج العربي إلى البحر المتوسط ، والسوري أو السرياني شعب واحد .

أصول التسميات القبلية عند العرب :

من المعروف إن العربي كان منذ نشأته أشد الناس اعتدادا بنفسه وبمناقبه الفردية. فقد وضع نفسه منذ البداية ومنذ ان بدأ يعي وجوده ، في مركز العالم. لقد عبر عن نفسه في أساطيره الأولى ، حينما جعل من أحد آبائه الأوائل آدم أبا لجميع البشر ومن إحدى الأمهات العربيات حواء أما لجميع البشر ، فهبطت حواء في جدة ، وازدلفت للقاء آدم في (المزدلفة) وتعارفت في (عرفات) ، هذا إلى جانب اسميهما العربيين اللذين فرضوهما على العالم بأسره : فآدم ، هو الأسمر المشرب بياضا ، أو الأبيض المشرب سمرة وفي العربية القديمة يعني الشبيه ، المثيل ، النظير ، وهذا يطابق فكرة أن الله خلق آدم على صورته ، كما ينطبق على أن أصله من تراب من أديم الأرض . وحواء ، وهي السمراء أيضا والخصيبة ، ثم إن لقاء آدم بحواء أنتج الأصول الأولى لكثير من البشر الذين نعرفهم .

إن ذلك الاعتداد بالنفس كان لا يترك فرصة إلا ويجد لنفسه تعبيرا لها على مر العصور ، مما لفت أنظار الدارسين جميعا ، وأخذ كثيرون منهم يتقـــرب إلى البيئـــة البدوية العربية ليدرس تلك الخصال التي تميز هذا الإنسان عن كثب ، وتجعل منه شخصية ساحرة . فقد أجمع جميع العلماء على اعتباره زاخرا بمجموعة من المزايا والقيم التي يجـــدر بالبشرية أن تحـــافظ عليها وتحميها، لأن في ذلك ضمانة حقيقية الإنسان المستقبل، الذي قد يبحثون عن ملامحـــه طويلا فلا يجدونها إلا مفككة بين أجزاء الآلات الجامدة المعاصرة ، ومـــن تلك القيم التي ميزت وتميز هذا العربي في صحرائه : الشـــجاعة النـــادرة ، الرشـــاقة ، والوســـامـــة ، والدهاء ، والذكاء الوقاد ، والكرم ، والنجدة ، وحب المرأة ، والقناعة ، وتقديس الحكمة ، واحترام الشيوخ والعلماء ، إلى جانب عشقه لغته العربية الأخاذة ، وللشعر، وللحرية ، ثم يضيف المؤرخ ول ديورانت إلى هذا كله إن هذا "البدوي " حذر وشجاع ومهما يكن فقيرا فإنه يواجه العالم بمهابة وأنفة ، يزهو بنقاء دمـــه ، ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه" [1] .

من هذه الخصال التي كان يعتد بها وبالمحافظة عليها ذلك العربي نبع اعتداده بنفسه ، ومن عشـــقه لهذه الخصال كان يصر على أن يربي عليها أولاده فصار الإبن يحرص عليـــها في نفسه حرصه على نسبه ، لأنها جزء من شخصية هذا النسب وحرصه علـــى بقائـــه في قبيلتـــه .

كانت التربيـــة البدويـــة العربية تتوجه دائما إلى الأمام ، إلى المستقبل ، مـــن خـــلال التركيز على الابن ، دون أن تفرط بشيء من شخصية الماضي المتمثل بالآباء والأجداد ، فإلى جانب الاعتزاز بهم ، لابد من دفع العملية المناقبية في التربية إلى الأبناء من خـــلال إبرازهم على الساحة فورا متمثلين لكل تلك القيم. ومن هنا كانت الأسرة العربية تركـز على استبدال أبي فلان وأم فلان بالأسماء الحقيقية للآباء ، ومن هنا بقيت الأسرة العربيـــة تحرص على تلبية رغبة المرأة بالاحتفاظ باسم عائلتها بعد الزواج. لكن ذلـــك لم يكـــن ينفي حرص الأبناء على الاعتداد بانتمائهم لأولئك الآباء ، هذا الحرص الذي بقي يؤكد

(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 1 ، ص 13 .

نفسه من خلال عمليـــة الأنساب والمحافظة عليها لدى العرب بصورة لم يعرفها غيرهم ، حتى صارت ، في حد ذاتها ، لديهم ، وبصورة من الصور، تاريخا أو علما قائما بذاتـه ، أو جزءا من التاريخ .

إن اعتداد الناس بالحفاظ على تسلسل النسب لم يكـــن في جوهره إلا اعتدادا بانتمائـهم إلى أصلهم العربي ، وقناعتهم بشرف الانتماء إليه. وليس يعني ذلـــك أن نحمـــل هـــذا الشعور معاني سلبية تميل به إلى نوع من التعصب العرقي ، واحتقار الأجناس الأخـرى ، بل قد يكون قائما في أساسه على الشعور بالسبق إلى التمسك بالقيم الإنسانية العامـــة وبمكارم الأخلاق . تلك القيـــم التي كان ما ينفك العربي يرددها في كل مجالات فخـره شعرا أو نثرا. فهو ما أن يكاد يذكر نسبته إلى أحد من الأجداد حتى يسارع إلى التغـــي بشمائل ومناقب ذلك الجد الذي لا تنطفئ ناره ، ويقصده الشريد والطريد والملـهوف ، واليتامى ، والضعفاء ، والغرثى ، والفقراء ، والمحتاجون ، والمظلومـــون ... وإذا كـــان الشعر " ديوان العرب " فـــإن التغني بتلك الشمائل جميعا يشكل لب مضمـــون ذلـــك الديوان على مر العصور . وكثيرا ما كانت تلك المناقب تطير كالطيور المجنحة من بقعـة إلى أخرى حتى تطبق شهرة صاحبها الأرض العربية والقبائل كلها. وكثيرا ما كنا نسـمع ونقرأ عند مبارزة فارسين من فرســـان العرب أن يطلب أحدهما من الآخر أن ينتسب ثم ما يلبث أن يهتف بجذل : كفؤ وكريم ، أو أخ كريم ، أو ابن أخ كريم .

كما إن الاعتداد بتلك المفاخر التي يعلق كالأوسمة على صدر الأجداد واحدا بعد آخر لم تكن تعني عند العربي سوى أن يجعل منهم قدوة ويرتفع بنفســـه إلى مســـتوى أولئـــك الأجداد أو يفوقهم حتى يكون جديـــرا بالانتماء إليهم. والشعر العربي ، وكتب علـــم النفس ، والاجتماع ، والتاريخ عندهم أيضا حافلة بالشواهد والأمثلة :

لســـنا وإن كرمـــت أوائلنـــــا   يومـــا على الأحســـاب نتكـــل
نبـــني كمـــا كانت أوائلنـــــا   تبـــني ونفعـــل كالذي فعلـــوا

وهذا ما يؤكده المثل العربي " الشرف يدعـــو إلى الشرف " وأكثر الممدوحين مدحـــوا بأعمالهم لا بأنسابهم و ها هو عامر بن الطفيل أحد سادة الأنساب يقول :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر	في السر منها والصريح المهذب
فما سودتني عامر عن وراثة	أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

لقد كان شعور العربي بالتفوق نابعا من إدراكه لمضمون هذا التفوق الإنساني في التعامل مع الآخر. لقد وعى ذلك منذ آلاف السنين ، أبدع خلالها مجموعات من النظم والتشاريع مارسها في الواقع ، في الوقت الذي كانت تحيط به قبائل وشعوب لم تتجاوز درك الهمجية مما جعله يدفع الثمن جد فادح ، ونهضت في نفسه إرادة أن يكون رائدا ومعلما ،وأن يهدم بالسيف الحدود أمام الكلمة المضيئة ، وأن يغزو بتلك القيم أذهان العالم القديم كله. ومن هنا نبع إيمانه القديم بأنه صاحب رسالة إلى العالم ، وأثبت ذلك عمليا اكثر من مرة وعلى مدى التاريخ .

إن اهتمامه بالنسب لم يكن إلا من قبيل تعلقه بمكارم ذلك النسب الإنسانية التي تتحدث بها العرب . فكما أن اهتمامه بنسب فرسه يثبت له أنه جواد (معطاء) ، وأنه كريم (معطاء) ، فإن اهتمامه بنسبه هو كان من قبيل هذا الجود وهذا الكرم ، حتى صارت صفة الكرم ملازمة له ولفرسه معا، فيقول : فرس كريم ، وفارس كريم النسب .

ولقد تطور هذا الاهتمام بالنسب حتى أصبح تقليدا وشبه عام ملازما للوجود العربي منذ أقدم العصور وحتى اليوم . ولم يضعفه ويحد من سعة انتشاره إلا نتائج العلوم الطبيعية التطبيقية منذ القرن التاسع عشر التي ضيقت المسافات بين الشعوب والناس من شتى الأجناس ، وجعلت عملية العيش على هذا الكوكب تتم ضمن شبكة معقدة ومتداخلة من كل النواحي : البشرية والاقتصادية والفكرية وغيرها .

ولقد كان الرسول العربي ممن يحافظ على هذا التقليد ، حتى أنه كان كثيرا ما يردد عبارة " أبونا إبراهيم " ، وروي أنه كان يقر صحة التسلسل في النسب حتى معد بن عدنان بن أود ثم يمسك موضحا أن ثمة ضياع بعض حلقات السلسلة ما بين أود وإبراهيم ثم بين إبراهيم وآدم . وقد ورد في "سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب " أن العلماء من الأئمة درجوا على المحافظة على ذلك التقليد بعد عهد الرسول تمثلا بأسلافهم : " وقد ذهب كثير من الأئمة المحدثين والفقهاء كالبخارى وابن اسحق والطبري إلى جواز الرفع

في الأنساب احتجاجا بعمل السلف ، فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه في علـــم النسب بالمقام الأرفع والجانب الأعلى ، وذلك أدل دليل وأعظم شاهد على شرف هـــذا العلم وجلالة قدره ، وقد حكى صاحب الريحان و الريعان عن أبي سليمان الخطابي رحمه الله تعالى أنه قال : كان أبو بكر رضى الله عنه نسابة فخرج مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فوقف على قوم من ربيعة فقال : ممن القوم؟ قالوا : ربيعة ، قال : وأي ربيعة أنتـــم ، أمن هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا : بل من هامتها العظمى ، قال أبو بكر : ومن أيـــها ؟ قالوا : من ذهل الأكبر ، قال أبو بكر : فمنكم عوف الذي يقال لا حر بوادي عوف ؟ قالوا : لا ، قال فمنكم البسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ، قال : فمنكم الهوفزان قاتل الملوك وسالبها أنعمها ؟ قالوا : لا ، قال فمنكم المزدلف صـــاحب العمامة المفردة ؟ قالوا : لا، قال: فمنكم أخوال الملوك من كندة ؟ قـــالوا : لا ، قـــال فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا، قال : فلستم بذهل الأكبر ، بل ذهل الأصغر. فقام إليه غلام من شيبان يقال له دغفل وقد بقل وجهه فقال : إن على سائلنا أن نسأله، والفتى لا يعرفه أو تحمله ، ياهذا ، انك قد سألتنا فأخبرناك و لم نكتمك شيئا من خبرنـــا فممن الرجل ، قال أبو بكر: أنا من قريش ، قال الغلام : بخ بخ ، أهـــــل الشـــرف والرياسة ، فمن أي القرشيين أنت ؟ قال : من ولد تيم بن مرة ، قال الفتى أمكنـــت والله من سواء الثغرة ، فمنكم قصي الذي جمع القبائل كلها، وكان يدعى مجمعا ؟ قـــال: لا ، قال : فمنكم هاشم الثريد لقومه ؟ قال :لا ، قال : فمن أهل الندوة أنت ؟ قـــــال :لا، قال : فمن أهل السقاية أنت ؟ قال : لا ، قال : فمن أهل الحجابة أنت ؟ قـــال :لا ، واجتذب أبو بكر رضي الله عنه زمام ناقته ، فقال الفتى :

صادف درء السيل دراء يدفعه   يهيضه حينـــا وحينـــا يصدعـــه

أما والله يا أخـــا قريش لو تثبت لأخبرتك أنك من رعيان قريش ولست من الذوائـــب . فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فتبسم ، فقال علي رضي الله عنه : يا أبا بكر لقد وقعت من الغلام على باقعة ، قال : أجل ، يا أبا الحسن ، ما من طامة إلا فوقها طامة .

و دغفل هذا هو دغفل بن حنظلة النسابة الذي يضرب به المثل في النسب" [1]
إن هذا يبين مدى استمرار العرب في المحافظة على هذا التقليد الذي أصبح لديهم علما أو شبيها بالعلم يتخصص ويبرع به أناس في كل العهود ، كما يوضح بجلاء كيف تقترن معرفة الأنساب بمعرفة الشمائل والمكارم الحميدة التي تصبح جزءا من النسب ، وبالتالي جزءا من الشخصية العربية .

وإن شبه جزيرة العرب ، الموطن الأساسي لهذا البدوي العربي ، ظلت أقدم مناطق الأرض سكنا ونقاء في العنصر، على حد تعبير العلماء والمؤرخين ، نتيجة لتضافر مجموعة من الظروف أهمها : كونها غارقة حتى العنق في مياه البحار مما لم يدع مجالا للغزو أن يصل إليها ، كما أن تجويفها الصحراوي الكبير الذي يعتبر ميدانا أوسع صحارى العالم وأشدها قحلا وجفافا (الربع الخالي) فإنه لم يشكل في يوم من الأيام مركزا يغري الآخرين بالغزو ، أما الجانب الشمالي المفتوح فهو مفتوح على مناطق عربية صحيحة تشكل الدرع الواقي في حمايته والدفاع عنه ، نعود فنقول : إنه بالرغم من توفر هذا الظرف الذي يجعل العنصر العربي في شبه جزيرة العرب قد حافظ على نقاوته أكثر من أي منطقة أخرى في العالم فإن ذلك لم يجعل منه متعصبا لجنسه إلا بقدر ما يمثل هذا الجنس من قيم إنسانية رفيعة ومكارم في الأخلاق وحسن التعامل . وقد ظل هذا الواقع ينعكس في تشريعاته التي سنها لنفسه وللبشرية كما انعكس في تعامله مع جيرانه ، ولاسيما سكان إفريقيا ، مما جعل الأفريقيين ينجذبون إلى العربي ويمنحونه ثقتهم في كل العصور . ومن الغريب والملفت للأنظار حقا أن نرى اليوم في عصرنا هذا أمة كالأمة الأسبانية تقيم تمثالا لحاكم أجنبي ظل شعبه يحكمها سبعة قرون من الزمن• .
إن كلا من فيليب ولورانس اللذين تطوعا للعيش في البادية بين هؤلاء العرب عقودا من السنين فيعيشان حياتهم بكل دقائقها وتفاصيلها من أجل التوصل إلى مفاتيح الشخصية العربية الغامضة بالنسبة للإنسان الغربي ، والأسرة في وقت معا ، لتتمكن بريطانيا

---

(1) سبائك الذهب في معرفة العرب ـ للبغدادي ، بيروت ص5 ـ 6 .
• أقامت الحكومة الإسبانية مؤخرا تمثالا لعبد الرحمن الداخل في مدينة " المنكب" الأسبانية التي كانت أول مدينة دخلها عبد الرحمن ، كما أطلقت اسم دمشق على أحد شوارعها الرئيسية .

الاستعمارية من ترويض هذا الإنسان و" تدجينه " ولتحسن أمر قيادته ، لم يتمكنـــا في النهاية من أن ينكرا شدة جاذبية تلك الشخصية التاريخية الفريدة وتميزها .

لقد كتب لورانس يقول : إن في الإمكان أن تربط العرب بفكرة كأنها قيد يقيدهـــم .. وهؤلاء العرب ما أن يشـــاهدوا في طريقهم رسول فكرة دون مأوى يخبئ فيه رأســـه ، ودون أي وسيلة للبقاء سوى الصيد والصداقة ، ما أن يشاهدوا ذلك الرســـول حـــتى يتبعوه تاركين كل ما في الأرض من ثروات وفي الدنيا من مباهج. إنهم أتقياء طيبو القلب في أيديولوجيتهم ، يتعامون عن كل لون وتلون ، ويتشبثون بالاعتقاد ... وإن روحـــهم غريبـــة وغامضة وغنية بالهبوط إلى الدرك الأسفل والارتقاء إلى السماء الأعلـــى دون قياس . إنها أكثر حيوية وخصبا في المعتقدات من أي شعب آخر في العالم . والعـــربي شعب الانطلاقات البديعة يسير بجنون وراء مفهوم من أكثر المفاهيم غموضا ، ويستخدم في معركته شجاعة وخلقا لا حد لهما دون النظر لما ستكون عليه النتائج . إنهم شـــعب أقل استقرارا من الماء ، لكنه كالماء بالضبط ، متأكد في النهاية من النصر . منـــذ فجـــر الحياة ، وموجاته المتتالية تتكسر على حواجز وكل منها تعود مع ذلك جارفة في طريقها بعض الغرانيت الذي يعيقها ...العرب شعب فخور وصعب المراس ، متعشق للحرية التي انتـــزعها منه على التوالي عدد من الغزاة ، من مغـــول وأتـــراك وإنجلـــيز و فرنســـيين وإيطاليين واسبان " [1] .

هذه الشخصية الفريدة التي لم يتمكن من إنكار سحرها حتى أعداؤها كانت اللغة العربية من أهم مقوماتها : إن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة في العالم التي واكبت مسيرة البشرية منذ طفولتها وحتى اليوم ، فحملت في ذاتها سحر كل تلك الرؤى والمطامح الإنســـانية ، الخياليـــة ، الأسطوريـــة ، والواقعيـــة . حملت واحتضنت البيئة الروحية للإنســـــانية آلافا من السنين ، دون أن تبدد حيويتها وتنضب ينابيع شخصيتها المتفجرة من أعمــــاق الشخصية العربية ذاتها، اللغة التي أكد السيد ماسينيون على" طاقات البناء الداخلي فيها ، والمستقبل العالمي لبنيتها اللغويـــة " ، هذه الطاقـــة التي فسرها جان وولف بـــ " قـــوة

---

(1) جان وولف " يقظة العالم العربي " ص 309ـ 310 .

التعبير عن عدة أحوال معينة ، وتحقيق اتفاق منسجم بين الفكرة ولحظة تأسيسها ، هـذه الطاقة الداخلية الخاصة بالعربية عبثا تبحث عن مثيلها في اللغات الأخرى المســتعملة في العالم " [1] إنها اللغة التي وصفها المفكر البريطاني راسل بـ " التأثير الساحر الـذي لا يقاوم حتى بالنسبة لأعدائها " ووصف تلك الأمسيات التي كان قضاهـا في فلسـطين المحتلـة ، فأدهشه كيف أن الإسرائيليين كانوا يهربون ليلا من بيوتهم ليسـهروا مـع جيرانهم العرب ، لا لشيء إلا " للتمتع بسماعهم وهم يتحدثون ويسمرون بتلك اللغـة الأخاذة " .

والمراد من حديثنا هذا كله هو أن العرب حينما اهتموا بتسلسل أنسابهم وحافظوا عليـها جيلا بعد جيل ، وتناقلوها شفوية ومكتوبة في الشعر وفي النثر ، وبرز من بينهم في كـل الأجيال من برعـوا في هذا المجال حتى صار اختصاصا قائما بذاته ، لم يكن ذلك نابعـا من تعصب عرقي ، بقدر ما كان تأكيدا على تسلسل المكارم والشيم التي يعتز بها العربي والحرص على تسلسلها ودوام بقائها . فإذا كان من بين أشهر النسابين العرب أبو بكـر الصديق خليفـة الرسول الأول ، مع الأخذ بالاعتبار جهاد أولئك المسـلمين الأوائـل مع الرسول من أجل تطبيق أحكام الشريعة السمحاء ، التي لم تفرق بين عربي وغير عربي ، بين أبيض وأسود ، بين قوي وضعيف ، بين غني وفقير إلا بالمضمون الإنساني الحقيقي لكل إنسان ، وبالتقوى ، والتقوى خشية الله والحذر من الوقوع فيما يغضبه من الخطأ ، فهذا في حد ذاته ، كان شاهدا حقيقيا على المضمون الإنساني الرفيع للاعتزاز بالنسـب عند العرب الذي تميزوا به وحدهم عن بقية الشعوب . إن الأفضلية بين إنسان وآخر هي بمكارم الأخلاق ، وإن مكارم الأخلاق كانت هي الراية التي يرفعها كل عربي فوق نسبة حين ينتسب . إنها هي التي جعلت جميع العرب يرحبون بإبراهيم الخليل في جولانـه ، و هي التي جعلت عليا بن أبي طالب يشير إلى بنت حاتم الطائي حينما وقعت بين السبايا لـدى المسلمين أن تعرف عن نفسها حين مرور الرسول بهن ، وإنها هي التي جعلـت الرسول العربي يفك أسرها ويرسلها معززة مكرمة إلى أهلها ويقول : "رحم الله أبـاك،

(1) المرجع نفسه ،ص 25 .

فقد كان يحض على مكارم الأخلاق " . إن مكارم الأخلاق هي التي جعلت الرسول العربي وعليا يشعران بأن حاتما الطائي كان " مسلما " في سلوكه ومناقبيته دون أن يسلم .

فالنسب إذن ، وحرص العربي على الاحتفاظ بصحة نسبه لم يكن من قبيل التمييز العنصري ، وإنما كان من قبيل التأكيد والاعتزاز بتلك المفاخر التي لا تنفصل عن شخصيته. ومن هنا كانت كل التسميات القبلية تحرص على الاحتفاظ بتلك الأنساب أصولا وبطونا وأفخاذا .

لقد كان وعي العربي لنسبه لا ينفصل عن وعيه لوجوده نفسه. إنه نوع من التربية على مناقب ، والمحافظة عليها ، لأن في ذلك محافظة على الذات العربية ، على مقومات الشخصية العربية ومميزاتها معا ، محافظة على الروح القومية البعيدة عن العنصرية ، والمرتبطة بالقيم الإنسانية العامة من توخ للعدل والحرية للجميع .

إن هذه الروح القومية ذاتها هي التي جعلت الرسول العربي المضطهد من بني قومه الذين عذبوه وهجروه ، يهتف يوم ذي قار بين بكر بن وائل والفرس " هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، ونصرت عليهم بي " إن ظلم بني قومه وتعدياتهم عليه لم تمس في وعيه حقيقة مشاعره القومية العربية العامة الطامحة إلى التحرر والوحدة ، ولم تكن قبيلة بكر بن وائل التي هزمت جيش كسرى قد دخلت الإسلام ، إذ أن معركة ذي قار حدثت في العام الأول لظهور الإسلام ، لكن الرسول العربي كان يشعر بوحدة الهدف : إنه التحرير من الداخل والخارج .

والأمثلة لا حصر لها تلك التي تدل على اعتزاز الرسول العربي بنسبه وبقوميته ، علما أن أحدا لا يستطيع أن ينكر تلك القيم الإنسانية الرفيعة التي واكبت عملية التربية القومية التي أسسها محمد ، " فقد روى هشام عن أبيه عن ابن عباس ، ورواه الهيثم عن الكلبي عن أبي صالح أن النبي ﷺ مر على فتية من الأنصار يتناضلون ، فقال : "ارموا يا بني

إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع" وهو رجل من خزاعة ، فرمى الفتية نبالهم ، وقالوا : " يارسول الله ، لقد كنت معه فقد نضل [1] " .

ولو ألقينا نظرة على تسلسلات الأنساب العربية في التواريخ العربية القديمة لوجدنا أصول تلك التسميات القبلية هناك وليس في أي مكان آخر . إن العربي لا يمكن أن يسمي نفسه أو قبيلته بالمكان الذي يحل فيه ، لكنه يسمي كل الأمكنة باسمه هو . وإن نظرة واحدة على تسلسل الأنساب الذي أورده كتاب التوارة نقلا عن العرب هناك ، كما نسخوا ونقلوا وشوهوا باقي مواضيع التوراة من قصص التكوين إلى الطوفان، إلى مجمع الأمثال ، إلى المزامير ، إلى نشيد الإنشاد ، إلى سفر الجامعة ، إلى قصة أيوب (وهذا ما سوف نتحدث عنه مفصلا فيما بعد) تبين لنا كيف أن أسماء القبائل العربية تعود في أصلها إلى أسماء الأجداد صعودا عبر آلاف السنين . فكما أن القبائل تميم ، ومضر ، و عدنان ، و أسد ، و ربيعة ، و نزار ، و هوازن ، و همذان ، و تيم ، و غطفان ، و قيس ، و عبس ، و ذبيان ، و غيرها من كل قبائل العرب المعروفة سميت بأسماء آبائها ، فإنه إلى سام ، وحام ، وكوش ، وكنعان ، وصيدون ، وحث (ولدي كنعان) ، و عيلام ، و أشور ، و لود ، و آرام ، و حضرموت ، و إسماعيل ، و قدمه ، و مديان ، و عماليق ، و كلدة ...... ينبغي أن تعود أصول تسميات القبائل السامية و الحامية و الكوشيين ، والكنعانيين و الصيدونيين و العيلاميين و الآشوريين واللوديين ، والآراميين والاسماعيليين ، والقدميين، والمديانيين، والعماليق ، والكلدانيين، وغيرهم كثير .

إن علينا نحن لا على الدارسين الغرباء تقع مهمة فهم الواقع العربي وكيف تتشكل القبيلة العربية بكل نظمها على أساس من تفرعات النسب . وقد ينضوي تحت جناح هذه القبيلة أو تلك أفراد أو جماعات ، لأسباب مختلفة، كان من أهمها دائما شعورهم بالضعف في محيط من الأقوياء ، ثم كانت تتطور الأمور في كثير من الأحيان إلى تحالفات قبلية ، أو اتحادات يغلب عليها عادة الطابع السياسي والحربي ، ومثال على ذلك دولة

---

(1) المسعودي "مروج الذهب " الجزء 2، ص70 .

كندة وسط جزيرة العرب ، التي كانت تؤلف في واقع الأمر نوعا من التحالف القبلي الكبير ، ضم أسدا وربيعة ، في كيان سياسي واحد استمر حوالي القرن . إن طبقات الأنساب عند العرب كانت كما يلي : الشعب ، القبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ، والعائلة ، والأسرة ، وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة وعشيرة الرجل هم رهطه الأدنون .

وقد فسر القلقشندي في كتابه (نهاية الأرب في معرفة انساب العرب) هذا الترتيب فقال : وكأنهم رتبوا ذلك على بنية الإنسان ، فجعلوا الشعب بمثابة أعلى الرأس ، والقبائل بمثابة قبائل الرأس ، وهي القطع المشعوب بعضها إلى بعضها ، والعمارة العنق والصدر ، وجعلوا الفخذ تلو البطن ، لأن الفخذ من الأنساب بعد البطن ، وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ ، لأنها النسب الأدنى الذي يفصل عنه الرجل ، بمثابة الساق والقدم ، إذ المراد بالفصيلة العشيرة الأدنون بدليل قوله تعالى " وفصيلته التي تؤويه " أي تضمه إليها ، ولا يضم الرجل إلا أقرب عشيرته ، وأعلن أن أكثر ما يدور على الألسنة من الطبقات الست المتقدمة القبيلة ثم البطن ، وقل أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة ، وربما عبر عن واحدة من الطبقات الست بالحي ، إما على العموم مثل أن يقال : حي من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال : حي من بني فلان .

أما اليوم فإن أكثر ما يدور على ألسنة البدو في بلادنا من المصطلحات في تقسيم الأنساب هو كما يلي : " إن العنصر الأول في المجتمع البدوي هو " البيت " ويعنون به العائلة أو الأسرة . فالبيوت أو الأسر القريبة بعضها من بعض تؤلف " الفخذ " أو " الآل " مثل آل مشهور من فندة الشعلان في الأرولة ، ومثل آل مهيد من فندة المنيع في الفدعان . وتجتمع الأفخاذ فتؤلف " الفرقة " أو " الفندة "وجمعها فرق أو أفناد مثل فندة الشعلان و فندة المنيع المذكورتين . والفندة في الأصل عدة أفخاذ من جد قريب ، لا يكاد يتجاوز الخامس في الغالب . وتجتمع الفرق أو الأفناد فتكون " العشيرة " مثل عشيرة الأرولة وعشيرة الفدعان في عنزة . وتجتمع العشائر فتكون "الضنأ " مثل ضنأ مسلم و ضنأ بشر في عنزة ، وتجتمع الضناءات فتؤلف القبيلة مثل قبيلة شمر وقبيلة عنزة.

وقد يتساهل في التعبير فتسمى العشيرة قبيلة أو الفخذ فصيلة أو الفندة فرقة ، ويزعم رواة البدو أن القبيلة إنما تنشأ من جد عام يورث اسمه إلى قبيلته كبني صخر وبني خالد وغيرهم. والعشيرة تعترف بشيخ واحد ......[1] .

وقال القلقشندي أيضا في بيان أمور تحتاج الناظر في الأنساب إليها :

1ــ إذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوبا ، والعمائر قبائل ،والبطون عمائر..الخ .

2 ــ القبائل هم بنو أب واحد ، والأب الواحد قد يكون أباً لعدة بطون ، ثم أبو القبيلة قد يكون له عدة أولاد ، فيحدث بعضهم قبيلة أو قبائل ، فينسب إليه من هو منهم ، ويبقى بعضهم بلا ولد أو يولد له و لم يشتهر بولده فينسب إلى القبيلة الأولى .

3 ــ إذا اشتمل النسب على طبقتين فأكثر كهاشم وقريش ومضر وعدنان جاز لمن في الدرجة الأخيرة من النسب أن ينتسب إلى الجميع ، فيجوز لبني هاشم أن ينسبوا إلى بني هاشم وإلى قريش وإلى مضر وإلى عدنان ، فيقال في أحدهم الهاشمي ويقال فيه القرشي أو المضري و العدناني ، بل قال الجوهري : إن النسبة إلى الأعلى تغني عن النسبة إلى الأسفل ، ويرى بعضهم تقديم العليا على السفلى ، وبعضهم يرى العكس مثل أن يقال في النسب إلى عثمان بن عفان : الأموي العثماني ، أو العثماني الأموي .

4 ــ وقد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينتسب إليهم ، فيقال فلان حليف بني فلان أو مولاهم .

5 ــ إذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى جاز أن ينتسب إلى القبيلة الأولى ، وأن ينتسب إلى القبيلة التي دخل فيها مثل أن يقال التميمي ثم الوائلي ، أو ما أشبه ذلك .

6 ــ القبائل تسمى في الغالب بإسم الأب الولد للقبيلة ، كربيعة ومضر و الأوس والخزرج و نحو ذلك ، وقد تسمى القبيلة بإسم أم القبيلة ، كخندف وبجيلة ونحوهما . وقد تسمى القبيلة بغير هذا وربما وقع اللقب على القبيلة بحدوث سبب كغسّان حيث نزولوا على ماء يسمى غسان ، وهم بنو مازن .

---

(1)أحمد وصفي زكريا " عشائر الشام "ص177 .

7 ــ أسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة أضرب ، أولها أن تطلق على القبيلـــة لفظة الأب كعاد وثمود ومدين وما شاكلهم وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى " إلى عاد " و" إلى ثمود " و" إلى مدين " يريد بني عاد وبني ثمود ونحو ذلك ، وأكثر ما يكـــون في الشعوب والقبائل العظام ، ولاسيما في الأزمنة المتقدمة بخلاف البطون والأفخاذ ونحوها. وثانيهما أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة فيقال بنو فلان ، وأكثر ما يكـــون ذلـــك في البطون والأفخاذ و القبائل الصغار لاسيما في الأزمنة المتأخرة . وثالثها أن تـــرد القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيين والجعافرة ونحوهما ، وأكثر ما يكون ذلـــك في المتأخرين دون غيرهم . ورابعها أن يعبر عنها بـــ " آل " كآل مدين وآل ربيعـــة وآل الفضل وآل علي وما أشبه ذلك ، وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنـــة المتأخرة لاسيما في عرب الشام في زماننا . وخامسها أن يعبر عنها بأولاد فلان ، ولا يوجد ذلـــك إلا في المتأخرين من أفخاذ العرب على قلة .

8 ــ غالب أسماء العرب منقولـــة عما يدور في خزانة خيالهم مما يخالطونه ويجاورونـــه ، إما من الحيوان كأسد ونمر وحية وحنش ، وإما من النبات كنبت و حنظلة ، وإما مـــن أجزاء الأرض كفهر وصخر ونحو ذلك .

9 ــ الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككلب و حنظلة وضرار وحرب وما أشبه ذلك ، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء كفلاح ونجاح ونحوهما ، والمعـــنى في ذلك ما يحكى أنه قيل لأبي الدقيس الكلابي : لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلـــب وذئب وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق و رباح ، فقال إنما نسمي أبناءنا لأعدائنـــا وعبيدنا لأنفسنا ، يريد أن الأبناء معدة للأعداء فاختاروا لها شر الأسماء ، والعبيد معـــدة لأنفسهم فاختاروا لها خير الأسماء .

ومما يزيد في تمسك العربي بنسبه إلى الجد الخامس على الأقل هو ارتباط ذلك ارتباطـــا عضويا بحياته اليومية وما تتطلبه من تكافل وتضامن على مستوى الفرد أو الجماعـــة ، ومن المعروف أن قوانين البدو تفرض الاشتراك في دفع دية الدم حتى الجد الخامس .

لقد أوردنا ذلك لنضع أمام القارئ تصورا صحيحا إلى درجة كبيرة عن كيفية تشكل القبيلة العربية ، هذا التشكل لم يتغير منذ آلاف السنين وحتى اليوم ، وبالتالي فإن على كل من يتصدى للبحث في أصول التسميات القبلية العربية أن يلجأ إلى الواقع القبلي العربي أولا ، لا إلى المعاجم الأجنبية ليبحث عن معاني هذه التسمية أو تلك .

آدم وحواء في النسب عند العرب :

إن معرفة العربي بنسبه تقف منذ أقدم العصور عند آدم ، لكن الوقوف عند آدم الذي نعرفه ترك ما وراءه فراغا مخيفا مبهما جعله يطلق لخياله العنان في رسم البداية ، وطالما أن تلك البداية سدت من حيث التسلسل في النسب فلا بد إذن من بداية مع آدم نفسه لها سماتها ومواصفاتها ، بحيث جعلت من هذا الجد العربي مزيجا من الواقع والرمز في آن معا ، كما لابد وأن يتحمل كل ما يمكن تصوره عن بداية الإنسان أو الإنسان البداية .

وقبل الحديث عن " آدم " لابد من التنبيه إلى الأمور الأساسية التالية :

1 ــ إن كلمة " آدم " التي يقصد بها ما نعرفه اليوم بالإنسان العاقل الأول هي اسم لجنس وليست اسما لشخص ، فالرب الخالق حينما خلق الإنسان العاقل الأول من ذكر وانثى لم يخلقه فردا بل " فرادى " وإلا لكان حتما على ذرية هذا الزوج الفرد والزوجة الفرد أن يتكاثروا منذ البداية عن طريق التزاوج بين الأخوة ، وهذا هو المحال بعينه من كل الجوانب الإنسانية والإلهية .

2 ــ إن التراث العربي ميز بين " آدم " الإنسان العاقل الأول وبين آدم الرسول ، فإذا كان عمر الإنسان العاقل الأول يعود ربما إلى مئات الآلاف من السنين ، فإن آدم الرسول لا يتعدى الألف السادس قبل الميلاد . إن "آدم " الرسول هذا هو الذي عناه القرآن الكريم في الآية ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ (آل عمران 33 ــ34) ، وهو الذي أشار إليه الحديث الشريف فقد جاء في تاريخ الطبري : " حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب قال : حدثني عمي قال : حدثني الماضي بن محمد عن أبي سليمان عن

القاسم بن محمد عن ابن إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال : قال رسول الله ﷺ يا أبا ذر أربعة (يعني من الرسل) سريانيون آدم وشيت ونوح و أخنوخ (الذي هو إدريس) وهو أول من خط القلم ، وأنزل الله تعالى على خنوخ ثلاثين صحيفة "[1] .

3 ـــ لكن الذاكرة الشعبية العربية ، رغم هذا التمييز ، خلطت بين " آدم " كاسم لجنس الإنسان العاقل الأول وبين آدم الرسول . إن هذا الخلط بين الاثنين ضيع كثيرا من جوانب الحقيقة التاريخية لكل منهما ، واستطرادا جعل من الكائن " المخلوط " الجديد أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة التاريخية .

4 ـــ إن جهل وتخلف الكهنة الذي كتبوا أسفار التوراة بعد موسى بألف عام أضافوا بتفسيراتهم ونظراتهم المتخلفة إلى الموضوع إشكالات أخرى جديدة أوقعه نهائيا موقع الخرافة حينما قرروا أن عملية الخلق تمت لآدم الفرد الذكر وحده أولا وقد جبله الخالق من الطين بيديه كما يجبل المثال تمثالا ، ثم نفخ فيه نسمة الحياة ومن " ضلعه " خلق له أنثاه حواء !

5 ـــ وأخيرا إن الخلط بين آدم الإنسان العاقل الأول وبين آدم الرسول سبب عمليات خلط أخرى نذكر منها :

- فالعربي الذي يحفظ سلسلة نسبه وبخاصة ذلك النسب الخاص بالأنبياء والرسل والذي ينتهي عند آدم الرسول لم يعد يميز بين " الآدميين " .
- ولما كان الناس في زمن آدم الرسول قد توزعوا بين أنماط العيش المتعددة ما بين الصيد والرعي والزراعة يدل على ذلك التنافس ما بين ابني آدم هابيل الراعي وقابيل الزراع ، فقد أسقط ذلك بسهولة على آدم الإنسان العاقل الأول ......

لما كانت البشرية قد تحركت في تطورها من حياة العطالة المعتمدة على ما تقدمه الطبيعة نفسها من كساء و غذاء ، عندما كانت بعض المناطق مزيجا من الغابات والبساتين والحقول ، فتتوفر فيها الأشجار المثمرة والنباتات وبعض البقول البرية ، إلى حياة الصيد ، ثم تدجين الحيوان وتربيته والانتقال بالتالي ، إلى حياة الرعي ، ثم إلى تدجين النباتات

---

(1) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص116 .

وزراعتها والانتقال إلى حياة الاستقرار الزراعي ، فقد كان على أبينا آدم أن يتحمل بنفسه وطأة كل هذه العملية ، وتقع على عاتقه وحده كل مراحل الانتقال تلك ، إذ إنه في زمن آدم وأبنائه ، كما يستدل من كل المصادر والآثار المكتشفة ، كان الناس يمارسون حياة الصيد والرعي والزراعة معا في مجتمعاتهم ، وهكذا فقد تحول آبونا آدم ، بفعل وقوعه آخر سلسلة النسب في الذاكرة العربية ، إلى رمز وواقع معا . لقد عاش مرحلة " الجنة " (والجنة في كل اللهجات العربية القديمة تعني الحديقة ، والأرض التي تحوي كل أنواع الشجر من الحراجي إلى المثمر إلى النباتات الأخرى) حينما كان الإنسان يعتمد على ما تقدمه له هذه الأرض ـ الجنة دونما عناء ، فأين كان موقع هذه الأرض ـ الجنة ؟

إذا ما رجعنا إلى المصادر العربية لنتعرف على مكان وجود آدم فإننا نعثر على رواية واحدة يكاد يجمع عليها كل المؤرخين والأخباريين العرب ... فقد جاء في تاريخ ابن الأثير أن آدم " أهبط على جبل يقال له نود من أرض سرنديب ، وحواء بجدة ..وأهبطت الحية بأصفهان و ابليس بميسان " [1] .

وجاء في تاريخ الطبري : " عن السلف الصالحين عن ابن عباس قال أهبط آدم بالهند وحواء بجدة فجاء في طلبها حتى اجتمعا فازدلفت إليه حواء فلذلك سميت جمعا ، قال وأهبط آدم على جبل بالهند يقال له بوذ .. وقال آخرون بل أهبط آدم بسرنديب على جبل بوذ وحواء بجدة من أرض مكة وإبليس بميسان والحية بأصبهان .. وقيل أهبط ابليس بساحل بحر الأبلة " [2] . (الأبلة : بضم الأول والثاني وتشديد اللام وفتحها بلدة على شاطئ الدجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة ، وهي أقدم من البصرة وكان فيها مسالح وقرى قبل أن تمصر البصرة)•

---

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء 1 ص 22 .

(2) تاريخ الطبري الجزء 1 ص 81 .

• إن كلمة " نود " أو "بوذ " كانت تكتب " ند " أي بدون تنقيط أو تصويت ، إذ من المعروف أن الأحرف الصوتية ، وكذلك نظام التنقيط أدخلا على الكتابة العربية في فترة متأخرة ، ومن هنا ظهرت عدة احتمالات لقراءة الكلمة ، أما أصل التسمية فهو " ناد " أو نعد وهو جبل " النعد " (أو كلب النعد حاليا جنوب الطائف) وهو من جبال السراة ، وكلمة " السراة " هي صيغة

ولو أننا عدنا إلى المصادر العربية السورية حيث تتوفر لنا أقدم المدونات العربية المكتوبة بعد اختراع الكتابة ، أي بعد بدء التاريخ ، وفتشنا عن الأرض ــ الجنة في مدونات أولئك العرب السومريين لعثرنا على الحقيقة التالية : لقد عثر على لوح نقشت عليه قصيدة سومرية فيها تشابه بين المدونات التوراتية والقصة الرمزية ، وكان موضع الفردوس بموجب القصة السومرية في أرض " دلمون " التي رأى بعض الباحثين أنها كانت في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس (الشاطئ الشرقي للخليج) بينما يرى البعض الآخر أنها كانت في الجهة الغربية من ساحل الخليج العربي ، وقد عيّن هؤلاء الباحثون المحققون مكانها في البحرين ، وتذهب القصة السومرية إلى أن بلاد " دلمون " كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة ، وكانت فيها آلهة تعبّد لها أهل العراق ، وقد وصفت بأنها " أرض الخلود " إلا أنه كان ينقصها الماء العذب اللازم لحياة الحيوان والنبات فأمر إله الماء السومري العظيم " أنكي " إله الشمس أن يملأها بالمياه العذبة النابعة من الأرض وهكذا تحولت دلمون إلى حديقة إلهية غناء مملوءة بالأثمار والمروج والرياض والكلمة في العربية السريانية هي "دعلمون" ، فالدال للتعريف و "علمون" تعني الخلود في

الجمع الحديثة من " سر " التي تعني الجبل ، المرتفع وكان يقابلها " سرن " وهذا ينسجم مع القول بأن جبل " ند " هو في منطقة " سرن ديب " التي تعني " سراة ديب " وكلمة "ديب" هي في المنطقة التي تحمل اسمها اليوم " الديبان " (ديبن) في منطقة الطائف غير بعيدة عن أم الباب ، وإذا ما قرأت كلمة ــ سرنديب على وجه آخر ، أي " سر ــ ند ــ يب " فلن يتغير من الأمر شيء ، فهو " جبل نعد الباب " أما كلمة " هند " فهي مؤلفة من " هــ ــ نــد " أي " الند " (النعد) ، لأن مقطع " هــ " كان أداة التعريف في العربية القديمة السورية (نسبة إلى " سرن " في جبال السراة) ولا علاقة لها ببلاد الهند المعروفة والتي سميت تيمناً بهذه المنطقة المقدسة .

وبذلك يكون آدم من منطقة الطائف ، ومن جبل النعد تحديداً (جبل كلب النعد حالياً) وتكون حواء ــ كما أجمعت كل الروايات ــ من جدة ، وكان لقاؤهما في عرفات ، أي في منتصف المسافة التي تفصل فيما بينهما وتعتبر هذه المنطقة الممتدة من شمال زهران إلى شمال مكة منذ العهود الأولى الموغلة في القدم موطن أولئك الآباء العرب المقدسين ومنطقة بيت الله الحرام ، وديانات التوحيد الأولى في العالم ، وأحد المراكز الرئيسية للهجة العربية العاربة (العرباء) منذ أقدم العصور ، كما أن جبال السراة مركز اللهجة العربية السريانية (سرن) التي تحدث بها آدم ، وأمتدت إلى منطقة الخليج العربي بفضل الشريان الرئيسي الرابط ما بين المنطقتين في تلك العهود ، وهو وادي الدواسر ، الذي كان ينبع من السراة وينحدر كالبحر إلى الشمال والشرق موزعاً الخصب من حول ضفافه حتى يصب في منطقة الخليج العربي الحالية .

العربيــة السريانيــة أي أرض الخلود ، ثم سقطت العين في اللفظ والنقل إلى اللغــات الأخرى .

ومما يثير الدهشة أن المكتشفات الأخيرة قد دلت على أن قصة آدم وحواء بما فيها قصــة جنة عدن قصة قديمة جدا تعود جذورها إلى ما قبل ظهور الكتابة بزمن طويل. إن قصــة آدم وحواء التي تشير إلى إغراء الحية لحواء التي أغرت بدورها آدم بتناول ثمــرة شــجرة معرفة الخير والشر بالرغم من كونها محظورة ، إن هذه القصة ذاتها نجدها مصورة علــى نقش سومري [1] يشاهد فيه رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الــرأس جالسين الواحــد أمــام الآخر وقد نبتت شجرة بينهما تشبه شجرة النخيــل تــدلي عذقان من التمر من طرفيها ، وهذه الشجرة " قطوفها دانية " ويشاهد الرجل مادا يــده اليمنى أمامه ليقطف الثمر ، كما تشاهد المرأة وهي مادة يدها لتقطف من الثمر الــذي أمامها ، وتشاهد الحية وهي تقف على ذنبها خلف المرأة وتهمس في أذنها تغريها بــالأكل من هذا الثمر المحرم عليها ، ومما يذكر أن هذا النقش التاريخي يعود إلى زهاء ألفي عــام قبل التوراة .



قصة آدم وحواء في نقش على خاتم سوري من العصر البابلي

(1) انظر : الدكتور أحمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التاريخ ص 427 .

أما التوراة فتذكر أنهار جنة عدن منقولة عن التراث العربي القديم على النحـــو التـــالي : "وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ومن ثم يتشعب فيصير أربعة رؤوس اسم أحدهـا فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة ، حيث الذهب ، وذهب تلك الأرض جيـــد ، هنالك المقل وحجر الجزع ، واسم الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوثا ، واســم النهر الثالث حداقل ، وهو الجاري شرقي آشور ، والنهر الرابع هو الفرات"(التكويــن ، 10:2 ــ 14) فالجنة التوراتية منقولة إذن عن الجنـــة السومريـــة التي سنتحدث عنــها مفصلا في كتابنا الثالث .

أما الجنة السومرية والمحيطة بموقع البحرين حاليا كما يفترض بعضهم هل هي تقتصر على البحريـــن الحاليـــة ، أم تتسع لتشمل حوض منطقة الخليج بضفتيه الشـــرقية والغربيـــة وكذلك الشمالية ؟ هل هي قابعة تحت مياه الخليج اليوم ؟

وجوابا عن هذا السؤال يقولون : لقد قيض لسفينة الأبحاث الألمانية ميتيـــور Miture أن تلقي المزيد من الضوء على هذا الموضوع الهام في سلسلة من الدراســـات الميدانيـــة أجرتها علم 1965 على قاع الخليج العربي ، وبفضل مسح لأغوار الخليج ، والحصـــول على عينات من قاعـــه درست مخبريا وبتضافر الدراسات الجيولوجية و الجيومورفولوجية والجغرافية ــ التاريخية أمكن التوصل إلى معلومات كبيرة الأهمية ، ولأول مرة أمكـــن ، من جهة ، تحديد طبيعة العلاقة التي قامت وما زالت مستمرة منذ 14000 سنة قبـــل الميلاد بين منطقة الخليج ونهري دجلة والفرات والبرالعراقي الجنوبي ، ومن جهة أخـرى : اتضحت الأبعاد الحقيقية للتأثيرات التي مارستها العوامـــل الجيومورفولوجية على تطـــور مجتمعات الجنوب الرافدي ، ويمكن تلخيص نتائج البحوث الي غيرت تغيـــيرا حاسمـــا الوضع الجغرافي ــ التاريخي بما يلي :

نتيجة لانخفاض مستوى مياه البحر خلال عصر الفورم Wuerm الجليدي إلى حـــوالي 110 أمتار عما هو عليه اليوم ، كان الخليج العربي أرضا يابسة تتكون من منخفض يبلغ طوله حوالي 1100 كيلومتر ، وسطي عرضه 180 كيلو مترا ولا يتجاوز عمق غـــوره 30 ــ 800مترا ، وتشق قاع الخليج قناة حفرتها مياه النهرين تبدأ قرب الفاو لتصب في

خليج عمان . ومن الجدير بالملاحظة أن تضاريس قاع منطقة الخليج تشبه إلى حد كبير طبيعة الأرض التي يجتازها نهر الفرات في سوريا إلى درجة دفعت الباحثين إلى الاعتقاد بأن حوض الخليج يكاد يكون استمرارا للأرض السورية فلا يفصل المنخفضين إلا السهول الرسوبية الرافدية المنبطحة المعالم . واعتبارا من أواخر العصر الجليدي الرابع (الفورم) أي منذ حوالي 14000سنة قبل الميلاد تأخذ مياه البحر بالارتفاع بفعل مناخ دافئ يسود الكرة الأرضية خلال عصر الهولوسين Holocene الجاف وباستثناء انقطاعين عارضين حدث الأول حوالي 10.000 سنة قبل الميلاد والثاني 8000 سنة ق.م بفعل التذبذبات المناخية تابع ماء البحر الارتفاع ، واستمر يغمر منطقة الخليج ، حتى استقر مستواه تقريبا اعتبارا من حوالي 4000 سنة ق.م على وضعه الراهن في القرن العشرين ، وبذلك انعزلت المرتفعات التي ستعرف فيما بعد باسم البحرين وفيلكا وبوبيان ... وغيرها من الجزر عن الأرض العربية التي تحولت بدورها إلى شبه جزيرة كبيرة ، وبلغ ارتفاع منسوب المياه 120 مترا

ولقد سجلت بحوث سفينة الميتيور أن أراضي قاع الخليج المجاورة للقناة ـــ أي للمجرى الأصلي لمياه الرافدين ـــ كانت أرضا صالحة للاستيطان .

وعلاوة على ذلك تشكلت خلال الفترة الواقعة بين حوالي 14000 و 4000 سنة قبل الميلاد مساحات جديدة من الأراضي الرسوبية، تمكن علماء الميتيور من تحديد مواضع بعضها قرب رأس الخليج ، وذلك على مرحلتين : فقد تكونت أراضي المرحلة الأولى في حوالي 10000 سنة قبل الميلاد ، وتقع على عمق 50مترا من سطح الماء ، بينما تكونت أراضي المرحلة الثانية في حوالي 8000سنة قبل الميلاد وتقع على عمق 30 مترا ويقابل هذه التوضعات رسوبيات مماثلة على بر الجنوب الرافدي . تشكلت في الفترة الوقعة بين 7000 و 4000 سنة قبل الميلاد ، وهي الفترة المعاصرة لمرحلة ازدهار ثقافات تل حسونة وتل حلفا في الشمال الرافدي ، وبموجب الدراسة الجيومورفولوجية يتضح أن ظاهرة التوضعات الرسوبية في المنطقتين متعاكسة : تيار وحجم مياه دجلة والفرات المندفعة ، والدلتا التي تشكلها ، من جهة ، وحركة مياه البحر المرتفعة من الخليج من

جهة أخرى وبمقدار ما كانت الأخيرة تحد من قوة اندفاع مياه النهرين بمقدار ما كـانت قدرة التيار على قذف ما يحمله من طمي تنعكس إلى الوراء ، وهكذا شـكل النـهران الكبيران مساحات واسعة من الأراضي الرسوبية الخصبة للاستيطان وللاستثمار الزراعـي ومن المحتمل جـدا العثور على هـذه الأراضي الزراعيـة الخصبـة وما احتوته مـن مستوطنات وعمران بشري (تلال أثرية) ، ولكن ينبغـي البحـث عنها على عمـق يتراوح بين 5 إلى 20 مترا تحت السوية الحاليـة لأراضي الجنوب الرافدي ، إذ غطتها توضعـات تالية من الطمي ، وهذا ما تؤكده الملاحظات التي سجلها المنقبون في قلعـة حاجي محمد و الوركاء ، و في مدينة أور(المقير) وغيرها . بفضل النتائج التي قدمتـها بحوث سفينة الميتيور يمكن القول إن الحوضة الثالثة والأخيرة لنهر الفرات كانت أرضـا يابسة تصل بين البلاد المجاورة وتشكل امتدادا طبيعيا للبر العراقي تماما مثلمـا يشـكل الأخير الامتـداد الأرضي الطبيعي للحوضـة الأولى السورية . ومن المرجح جـدا أن ضفاف مجـرى النهر الأصلي في قـاع الخليـج كانت موطنا لجماعـات من صيـادي الباليوليتي ، وإن تكون الأراضـي الرسوبية الخصبة المجاورة لـها قد سكنت من قبـل مزارعين صياديـن يشابهون في عيشهم وفـي تطورهـم نمط تطور جيرانهم النطوفيـين سكان قرى المريبط وأبي هريرة وبقراص في حوض الفرات الأعلى في الجزيرة السـورية .
وقد يكشف علم الآثار الغارقـة تحت المياه فصلا جديدا وهاما في تاريخ منطقة متممـة لما بين النهرين ، إذ من المحتمل أن تكـون مراكـز الاستيطان الباكـرة في الأراضـي المنخفضة التي لا نعرف حاليا إسمها والتي اقترح لتسميتها اصطلاح منطقة ما قبل الخليـج قد شكلت المرحلة التحضيرية التي ستمهد لنشوء حضارات مـدن الجنـوب الرافـدي المزدهرة اعتبارا من الألف الرابع قبل الميلاد . وهنالك احتمال آخر لا يقل رجحانـا في أن منطقة ما قبل الخليج كانت جزءا من ثقافـة كبيرة معاصرة انتشرت مراكزهـا في الجنوب الرافدي وجواره قبل أن تجبر مياه البحر الصاعدة أهلها على الرحيل تدريجيـا إلى مواطن جديدة ، هذا الاحتمال يؤكده عثور الآثاريين على فخارات العبيد في 32 موقعا

أثريا على شواطئ شبه الجزيرة العربية الشرقيـــة مقابل جزيرة البحرين ، كما وعلى بعد كيلو متر إلى الداخل [1] .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن صحراء الجزيرة العربيـــة كـــانت في تلـــك الأزمـــان عامـــرة بأنهارها الدائمة الجري وبمستوطناتها الزاخرة بالسكان ، ومن بين هذه الأنهـــار وادي السرحان الذي كان ينبع شرقي جبال حوران و يخترق سهول الجزيـــرة الشـــمالية ويصب في الخليج العربي ، ونهر الدواسر ، وهو أكبر أنهار الجزيرة العربيـــة ، ويقع منبعه شرقي بلاد اليمن ، ويتجه شمالا مخترقا سهل الربع الخالي ، ثم يتصل بوادي الرمة بالقرب من شواطـــئ خليج البصرة ، وفي هذا الدور الجيولوجي الذي كانت الجزيرة العربيـــة تتمتع فيه بأمطار غزيـــرة كان وادي الأردن بحيرة عظيمة تبدأ من جبل الشيخ وتمتـــد حتى وادي العربة ، ولربما اتصلت مياهه عند مدينة العقبة بالبحر الأحمر [2] .

كما وأكد آخرون أن جزيرة البحرين كانت مأهولة بالناس أيام العصور الجليدية المتأخرة في أوربا ، أي قبل خمسين ألف سنة ، وأن ساحل الخليج ولاسيما المنطقة الواقعة بـــين الدوامي وشمال القطيف كان مزدحما بالسكان في العصور البرونزية أي حوالي 3000 ــ 2500 ق.م وقد عثر في البحرين أيضا على عدد من مواد من الصخور الصوانيـــة قـــدر بعض الباحثين أن عمرها يتراوح بين عشرة آلاف واثنتي عشر ألف سنة ، وهي ترجـــع إلى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة [3] .

وهنا تبرز صحة المقولة التي سبق أن أكدناها والتي توجب النظر إلى أية مرحلة من التطور في منطقة ما كمرحلة خليط من ثلاث مراحـــل : إن فيها الماضي والحـــاضر وبـــذور المستقبل ، و لم يكن آدم قبيل انتقاله إلى منطقة السريان إلا ممثلا للمرحلة البدائية السابقة. أما بالنسبة إلى التطور التاريخي في الجنوب الرافدي فقد أصبح من المـــؤكد أن المنطقة لم تكن مهجورة في الفترة السابقة للألف الرابـــع قبـــل الميلاد ، بل إن الشروط الطبيعيـــة الملائمـــة التي وفـــرها النهران وشبكات من جـــداثل فـــروع الأنهار الوحشية نتيجـــة

---

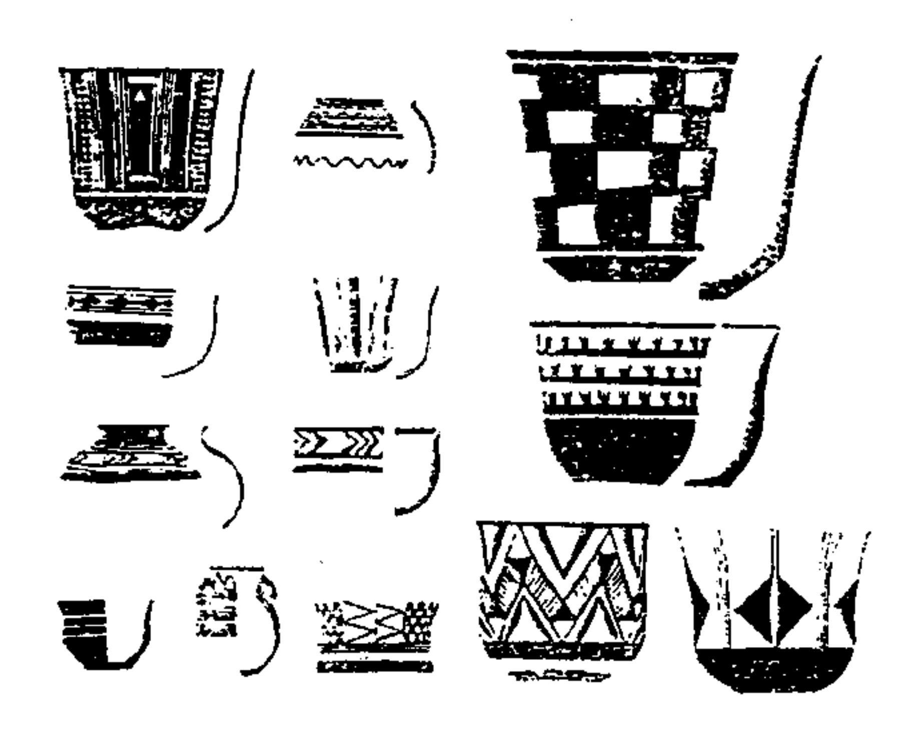
(1) الدكتور هشام الصفدي ، الوجيز في تاريخ حضارات آسية الغربية ص 81 .
(2) المصدر السابق .
(3) الدكتور جواد علي" تاريخ العرب قبل الإسلام " ج1 ، ص 97 ــ 102 .

لارتفاع منسوب المياه في الخليج تحتم استيطان الإنسان فيها مثلما تحتم اعتمـــاده علـــى الري الاصطناعي بمياه الأنهار الوفيرة بدلا من مياه الأمطار الشحيحة ، وبذلك يتعـــاصر نظامان رئيسيان لانتقال الإنسان في الشرق القديم من الصيد إلى الزراعة ، وهما : الزراعة البعلية في الشمال والري الاصطناعي في الجنوب الرافدي .

وليس من الصعب تصور ما قد تنتجه مثل هذه الأرض من شتى أنواع الأشجار والثمـــار والنباتات في الوقت الذي يجري من تحتها ، وفي قاع أرض الخليج ، نهرا دجلة والفـــرات ويؤمنان وجود الحياة الزراعية أيضا .

لقد بدأ الارتفاع في منسوب مياه البحر قبل 14000سنة قبـــل الميـــلاد ، واســـتقر في 4000 ق .م و لابد أن يكون مجتمع ذلك الزمن ما زال في جزء غير يسير منه يعتمد في عيشه على ما تنتجه له الطبيعة دونما كدح من شدة خصوبتها وكثرة وتنوع أشجارها .

وعند بدء المرحلة الدافئة وذوبان الجليد ، فقد اضطر السكان إلى الانتقال تدريجيـــا إلى المناطق الأخرى المجاورة حيث بدأ الاستقرار الزراعي يأخذ طابعا جديا ، وبدأت الزراعة تتطور منذ مراحلها المبكرة الأولى على استخدام نظم الري من الأنهار الكثيرة في الجنوب الرافدي ولقد استغرق ذلك التحول من منطقة إلى أخرى مع ارتفاع منسوب مياه البحر حوالي عشرة آلاف عام تقريبا.



فخاريات مزينة من حضارة العرب العبيد يين ، نـــهاية الألف الخامسة قبـــل الميلاد (حســب توبلير)

ومن هنـــا أيضا لابـــد أن يكون آدم وزوجته يتكلمان العربيـــة بلهجتـــها الأم قبـــل خروجهـــما إلى مناطق السريان (سرن) بعد غياب الأرض ـــ الجنة فحواء هي مـــن صميم جزيرة العرب ، فضلا عن انهما لم يعملا بالزراعة وهذا ما تؤكده المصادر العربيـة أيضا . ففي كتاب سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي نقرأ في الحديث عـن آدم :

" وكان لغته في الجنة العربية ، فلما عصى وأخرج من الجنة سلبه الله العربيـــة فتكلـــم بالسريانية " [1] .

---

(1) أبو الفوز البغدادي " سبائك الذهب في قبائل العرب ص 10 .

إن هذا يعني أن آدم حينما غـادر الأرض ــ الجنة إلى بلاد " سرن " (السـواة) ووادي " دواسر " أي الرب " سار " جد السـوريين ويعني السيد ، حيث العرب السـوريون الذين يعيشون معتمدين على الزراعـة والرعي وجد نفسه مضطرا إلى التكلم بالعربيـة بلهجتها السريانية (الجبلية) والسهلية، وتخلى عن النمط البدائي في العيش الذي كـان يعتمد على ما تقدمه الأرض في المأكل وعلى أغصان الشجر في الملبس وتحول إلى نمـط العيش السائد لدى سكان المنطقة . فقد جاء في تاريخ ابن الأثير : " إن الله أرسل إليهما (آدم وحواء) ملكا يعلمهما ما يلبسانه من جنود الضأن والأنعام ، وقيل كان ذلـك لباس أولاده ، أما هو وحواء فكان لباسهما ما كان خصفا من ورق الجنة ، فلمـا رأى الله عري آدم وحواء أمره أن يذبح كبشا من الضأن من الثمانية الأزواج التي أنزلهـا الله من الجنة ، فأخذ كبشا فذبحه وأخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم فعمل لنفسه جبـة ولحواء درعا وخمارا فلبسا ذلك " (1)

وجاء في تاريخ الطبري : " وقد حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب قال حدثني عمـي قال حدثني الماضي بن محمد عن أبي سليمان عن القاسم بن محمد عـن ابـن إدريسـي الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يا أبـا ذر أربعة (يعني من الرسل) سريانيون آدم وشيث ونوح و خنوخ وهو أول من خـط القلم وأنزل الله تعالى على خنوخ ثلاثين صحيفة " (2)

وإن هذا الحديث ترويه كل المصادر المعتمدة لرواية الحديث دونما استثناء ، كما أن أبـا ذر الغفاري واحد من أخلص صحابة الرسول العربي وأصدقهم وهو الذي قـال فيـه الرسول العربي :

" ما أظلت الخضراء وما أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر " (3)

وهذا دليل آخر على أن المنطقـة كانت مسكونة قبل آدم الرسول بالعرب السريانيين ،

---

(1) تاريخ ابن الأثير، الجزء 1 ، ص 23 .

(2) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 116 .

(3) الحاكم النيشابوري محمد بن عبد الله ، " المستدرك على الصحيحين الرياض مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الجزء 3 ، ص 312ــ 316 .

لكن الذاكرة العربية ــ كما سبق أن نوهنا ــ لم تتمكن من أن تتجاوز آدم الرسول هذا في الرجوع إلى الوراء ، ولهذا فقد كان على آدم وزوجته أن يتحملا كل أعباء التصورات عن الإنسان الأول كما صار على أولادهما أن يتحملا كل صراعات المجتمع الإنساني . فكما صار آدم رمزا للانتقال من الحياة السهلة اللينة في الأرض ــ الجنة* دونما كد ، والهبوط إلى حياة الكدح والشقاء في زراعة الأرض من أجل تامين العيش ، فقد صار على ولديه قابيل وهابيل أن يصبحا رمزا للصراع بين حياة الزراعة وحياة الرعي ، بين الفلاح والراعي البدوي ، بين الحضارة والبداوة . وليس مقتل هابيل الراعي على يد أخيه قابيل الزارع إلا رمزا للانتقال في المجتمع العربي من حياة البداوة إلى حياة أرقى في سلم التطور هي حياة الزراعة .

إن الجديد ينتصر على القديم وينفيه ، والقتل هنا لا يتجاوز معنى النفي. وكما أن مفارقة أية عادة أو تقليد أو نمط للعيش يحمل في ذاته عناصر درامية فكذلك فإن مغادرة آدم لأرضه ــ الجنة جعلت من تلك الأرض مثالا يستدر الحنين والمبالغة في عظمة الشيء المفقود . إن عظمة الجنة التي فقدها آدم وزوجته ومثاليتها تحاكي مثالية جنة دلمون السومرية أرض الخلود " التي لا يوجد فيها مرض أو موت أو حزن ولا ينعب فيها غراب، ولا ترفع الطيور أصواتها بعضها فوق بعض ، ولا تفترس أسودها ، ولا يأكل ذئب فيها حملا وكذلك هي حياة البداوة التي يغادرها أهلوها إلى حياة الزراعة والاستقرار ، تتحول فجأة إلى مثال ، ففقدانه يعني دراما فاجعة يبكيه ويندبه الناس كما

* اختلف علماء تفسير القرآن في الجنة التي كان فيها آدم وطرد منها أهي في الآخرة أم هي جنة من جنات الأرض ، وقال فريق من هؤلاء العلماء إن الجنة التي سكنها آدم وحواء كانت من جنات الدنيا ، لأنه كلف فيها ألا يأكل من الشجرة ، ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ووسوس إليه ، وأضل آدم وعصى ربه فيها ، وهذا ينافي أن تكون جنة الصفاء والمأوى الخالد وقد حكى هذا القول كثيرون عن عبد الله بن عباس ، ووهب بن منبه ، وسفيان بن عيينه ، كما اختاره وحكاه عن الإمام أبي حنيفة وأصحابه القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة في تفسيره وأفرد له مؤلفا على حدة ونقله أيضا ورواه أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره عن أبي البلخي وأبي مسلم الأصفهاني ، ونقله أيضا القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية ، وقد حكى عن الخلاف في هذه المسألة أيضا أبو محمد بن حزم في " الملل والنحل " ومن أراد تفصيلا أوفى فليرجع إلى ص 75وما بعدها من الجزء الأول من كتاب البداية والنهاية لابن كثير .

يندبون قتيلا عزيزا على قلوهم .
إن قصة هابيل وقابيل ولدي آدم ـ الراعي والفلاح ـ هي نفسها قصة عميش وعينتين العربية السومرية التي ينتصر فيها عينتين الفلاح أيضا ، وهي نفسها قصة لهار رب الماشية وانشان رب الحبوب ، وهي نفسها قصة تموز الراعي وأنكيمدو الفلاح ، وتنافسهما على حب أنانا التي تحتار في الاختيار أولا فيما بينهما ، ثم تفضل أنكيمدو وتقرر التضحية بتموز .إنها باختصار ترمز إلى التنافس بين مجتمعين : الرعوي والزراعي ، تنتهي دائما بانتصار الأكثر تقدما في مضمار التطور الاجتماعي وهو الفلاح .
ولن يعود سرا بعد ذلك أن جميع المجتمعات الزراعية السورية كانت تعتبر الفلاح في هذه القصص جميعها رمزا للتقدم ، وأن الإله يختاره هو ويفضله دائما على أخيه الراعي الذي ينبغي أن يضحي بنفسه من أجل بقاء الآخر بينما نجد في المجتمعات الرعوية البدوية تفضيل الراعي هو السائد ، واعتباره رمزا للخير ، واعتبار أخيه الفلاح رمزا لكل الشرور والعدوان . مما تقدم نستنتج أن المنطقة المسماة اليوم بالخليج العربي كانت منطقة مأهولة بالسكان العرب من قبل آدم الرسول ، وأن منطقة الجنوب الرافدي كانت هي الأخرى مأهولة بالسكان من العرب الزراعيين (السريان) أو السوريين "آ ـ سر " (أبناء " سر " السيد العلي) الذين أنتجوا فيما بعد ، وفي البقعة الممتدة من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى ، أرفع وأرقى حضارة عرفتها البشرية .
وإن هذا يعني أن ما دعي فيما بعد بـ " حضارة سومر " لم تكن إلا استمرارا للحضارة السورية الأولى التي أخذت تتوضح معالمها مع المكتشفات الآثارية يوما بعد يوم .
وإذا ما أردنا تحديد الفترة التي وجد فيها آدم الرسول لقلنا إنها فترة العصر الحجري ـ النحاسي (الكالكوليتي) ، عصر البدء باستعمال المعادن ، حوالي 5500 ـ 3500 ق.م وفي هذا العصر برزت حضارة المنطقة في حسونة ـ سامراء ، وتل حلف وتل العبيد ، وحبوبة الكبيرة ، ودور الوركاء الباكر والوسيط قبل بدء التاريخ .
ولو عدنا إلى حسابات المؤرخين والإخباريين العرب لعثرنا على ما يلتقي مع هذه الفترة أيضا على وجه التقريب . فقد أورد الطبري في تاريخه " وكان بين الطوفان ومولد

إبراهيم ألف سنة وتسع وسبعون سنة ... وذلك بعد خلق آدم بـ 3337سنة " وإذا ما افترضنا أن وجود إبراهيم كان في القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد (وليس في القرن التاسع عشر أو العشرين كما درج المؤرخون على القول ، وكما سوف نبين لاحقا) ، فإن حدوث الطوفان المقصود الذي أصاب تلك المنطقة كان في حوالي 2500 ــ 2600 ق.م ، وإن زمن آدم كان في حوالي 4800 ــ 5000ق.م . المهم في الأمر أن آدم الرسول عاش في فترة الألف الخامس أو السادس قبل الميلاد ، حيث سوريا العربية تعج بالمدن المزدهرة من أريحا ودمشق وأوجاريت غربا ، إلى أور ونيبور وأريدو شرقا، إلى حبوبة والمريبط وشتال هيوك شمالا ..

وجاء في تاريخ ابن الأثير ما يلي : " فنكح خنوخ أخته عذب فولدت ثلاثة بنين وامرأة .. ونكح أنوشيل بن خنوخ أخته موليث وولدت له رجلا اسمه لامك فكان أول من سكن القباب واقتنى المال ، وتوبلين فكان أول من ضرب بالونج والصنج ، وولدت رجلا اسمه توبلقاين وكان أول من علم النحاس والحديد ، وكان أولادهم فراعنة وجبابرة ، وكانوا قد أعطوا بسطة في الخلق " [1] .

فالمرحلة إذن هي مرحلة الانتقال إلى اكتشاف النحاس واستخدامه ، إنه العصر الحجري ــ النحاسي (الكالكوليتي) .

و لم تقتصر كلمة سريان (" سرن " ، سوريين) على السكان العرب في الجنوب الرافدي السومري لاحقا ، ومنطقة الخليج العربي وعلى جبال السراة ، بل تعدتها لتمتد من شواطئ الخليج ، مرورا بحوضي الدجلة والفرات الأدنى والأوسط ، وعمت كل العرب الزراعيين المنتشرين على طول امتداد مناطق الهلال الخصيب الشرقية والشمالية الشرقية من أبناء " سر " و " مر " وأبناء قابيل والعمالقة ، والجبابرة .

ففي المصادر العربية نرى أن ما دعي بحضارات الأكاديين والبابليين والآشوريين إنما كانت جميعها تنتمي إلى شعب واحد ولغة واحدة ، إنها حضارة العرب السريان الزراعيين (السوريين) . فقد جاء في " مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي " ما

---

(1) تاريخ ابن الأثير الجزء 1ص 32 .

يلي "ثم ملك أهل نينوى عليهم بعده امرأة يقال لها " سميرام " (سمير اميس) فأقامت عليهم أربعين سنة تحارب ملوك الموصل ، وملكها من شاطئ دجلة إلى بلاد أرمينيا ، ومن بلاد أذربيجان إلى حد الجزيرة و الجودي ، و جبل التيتل* إلى بلاد الزوزان ، و كان أهل نينوى ممن سمينا نبيطا وسريانيين ، والجنس واحد واللغة واحدة ، وإنما بأن النبيط عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم ، والمقالة واحدة " [1] .

ثم يعدد ملوك النبط ويقول عنهم انهم ملوك بابل المعروفون بالكلدانيين .

وفي حديثه عن ملوك الفرس يقول : " والفرس لا تعرف طوفان نوح ، والقوم الذين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام كان لسانهم سريانيا " [2] .

وفي تاريخ الطبري نجد أن نمرود بنى الصرح وأسنده إلى السماء ثم ارتقى فوقه ينظر بزعمه إلى إله إبراهيم ، فأخذهم الله من أساس الصرح ، فتنقض ثم سقط ، " فتبلبلت ألسن الناس من يومئذ من الفزع ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل ، وإنما كان لسان الناس قبل ذلك السريانية "[3] . وفي مكان آخر نجد " حدثنا محمد بن سعد قال حدثنا هشام بن محمد عن أبيه عن أبي صالح فلما عبر الفرات من حران غير الله لسانه فقيل عبراني أي حيث عبر الفرات " ، أي إنه غير لهجته من السريانية الشرقية إلى الجبلية الغربية والحد بينهما الفرات الذي في شبه جزيرة العرب وليس الفرات السوري .

وأما إسماعيل جد العرب العدنانيين جميعا فقد شب على لهجته السريانية الشرقية ، ثم تزوج امرأة من جرهم وهم من أصول العرب العاربة الخالصة من الشوائب ، (الشديدة العروبة) ، فصار يتحدث بالعربية الأم وليس باللهجة السريانية ، فقد جاء في تاريخ ابن الأثير : " وكانت جرهم بواد قريب من مكة ولزمت الطير الوادي حيث رأت الماء ، فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادي قالوا : ما لزمته إلا وفيه ماء فجاؤوا إلى هاجر فقالوا : لو شئت لكنا معك فآنسناك والماء ماؤك ؟ قالت : نعم فكانوا معها حتى شب

---

* على سفح هذا الجبل ، وعلى ارتفاع 1000م عن سطح البحر اكتشفت أطلال مدينة " شتال " السورية القديمة في سهل قونية شمال شرق مرسين ، وهي شتل حيوك ، مزرعة حيوك .

(1) المسعودي " مروج الذهب ومعادن الجوهر " الجزء 1، ص 214 .

(2) المسعودي " مروج الذهب ومعادن الجوهر " الجزء 1، ص 320 .

(3) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 218 .

إسماعيل وماتت هاجر ، فتزوج إسماعيل امرأة من جرهم فتعلم العربية منهم هـو وأولاده فهم العرب المتعربة " [1]

أما زوجة إسماعيل العربية الجرهمية أم أولاده الأثني عشر فهي السيدة بنت مضاض بـن عمرو الجرهمي .

وهكذا ينقسم العرب منذ ما قبل آدم في لهجاتهم إلى : 1ـ عرب سريان * (اسـرن ، سوريين ، ابناء "سر ") كانوا يشغلون في الأصل جبال السـراة ، ثم انتشروا منـها إلى مناطق الهلال الخصيب في الشرق والشمال الشرقي . لقد تطـورت لهجتهم الجبليـة في أصلها نتيجـة لمعايشتهم كثيرا من الأقـوام الأخرى على تخـوم الوطـن العـربي ، وتعرضهم للكثير من الغزو واحتكاكهم عن طريق ممرات التجارة الدوليـة الواقعـة في منطقتهم بكل الفئات النشيطة من الشعوب الأخرى عبر آلاف السـنين 2 ـ عـرب عموريين (أموريين) أبناء " مر " ولهجتهم العربية العمورية الغربية ثم انقسمت اللهجـة الغربية بدورها إلى شمالية غربية وجنوبية غربية . 3 ـ عرب برية شبه الجزيرة العربية ، سكان العربي (البادية)** الذين حافظـوا على نقاء اللغـة لقلة اختلاطهم بالشـعوب الأخرى ، ولعدم وصول غزوات هذه الشعوب إليها لوجود المنطقة العربيـة السـورية الأولى الفاصلة من كل الجهات التي يمكن أن يأتي منها مثل هذا الغزو من جهة ، ولعـدم وجود ما يغري الغزاة في مناطق البادية بوجه عام بعد أن ظهر فيها التصحر ، من جهـة أخرى .

أما الاسمان المرادفان الاخران للسكان الزراعيين فهما أبناء قابيل ، والجبابرة أيضا . ففـي الحديث عن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أنه " في زمنه نزل بعض ولـد آدم عليه السلام الجبل المقدس واشتغلوا باللهو ومخاطبة بنات قابيل ، ومن بعده تفرقـت

---

(1) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 59.

* سريان هنا من " سر " والأصح أن نقول " سوريين " والمضمون واحد ، إذ المقصود أبناء سر أحد الآباء العرب القدامى .

** إن " البادية " لم تكن تعني الصحراء ، وإنما الأرض الظاهرة المكشوفة . السهول الواسعة ، بعكس " السراة " المشتقى من "سر " والتي تعني الأرض المرتفعة ، ثم لما أصيبت سهول شبه الجزيرة العربية بالتصحر صارت كلمة " البادية " مرادفة لـ " صحراء "

الكلمة وتحزبت الناس أحزابا وقد قسم الدنيا على خمس فرق فجعل أربع فرق منهم في مهب الريح الأربع وتواحيها الشمال والجنوب والصبا والدبور ، وخص ولد شيت بأخصب الأرضين وأفضلها وأكثرها خيرا "[1]

أما لماذا كان قسم من أولاد آدم ينهى قومه عن الاندماج بأولاد آدم الآخرين فلأنه الصراع نفسه ، والتنافس نفسه ، بين مجتمع الرعي ومجتمع الزراعة ،بين البداوة والحضارة ، بين المثل البدوية من الصدق والنقاء والشرف والعفة والزهد في المتاع ، وبين القيم الأخرى التي تسود حياة المدن الحضرية ، والتي تبقى غريبة ومستنكرة بالنسبة للبدوي.

وفي تاريخ ابن الأثير نجد : " إن أول من اتخذ الملاهي من ولد قابيل رجل يقال له ثوبال بن قابيل ، اتخذها في زمن مهلائيل بن قينان ، اتخذ المزامير و الطنابر و الطبول و العيدان والمعازف ، فانهمك ولد قابيل في اللهو ، وتنامى خبرهم إلى من بالجبل من ولد شيت ، فهم منهم مائة رجل بالنزول إليهم وبمخالفة ما أوصاهم به آباؤهم ، وبلغ ذلك يارد ، فوعظهم ونهاهم ، فلم يقبلوا ، ونزلوا إلى ولد قابيل ، فاعجبوا بما رأوا منهم ، فلما أرادوا الرجوع حيل بينهم وبين ذلك لدعوة سبقت من آبائهم ، فلما أبطأوا ظن من بالجبل ممن كان في نفسه زيغ انهم أقاموا اغتباطا ، فتسللوا ينزلون من الجبل ورأوا اللهو فاعجبهم ووافقوا نساء من ولد قابيل متشرعات إليهم ، وصرن معهم وانهمكوا في الطغيان ، وفشت الفحشاء وشرب الخمر فيهم ...

وقال هشام بن الكلبي (في مهلائيل بن قينان) : إنه أول من بنى البناء واستخرج المعادن وبنى مدينتين كانت أول ما بني على ظهر الأرض من المدائن وهما مدينة بابل ــ وهي بالعراق ــ ومدينة السوس " بخوزستان " وقال غيره : هو أول من استنبط الحديد ، وعمل منه الأدوات للصناعات ، وقدر المياه في مواضع المنافع ، وحض الناس على الزراعة واعتماد الأعمال ، وأمر بقتل السباع الضارية واتخاذ الملابس من جلودها والمفارش ...[1]

---

(1) " سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب " للبغدادي ، ص 10 .

وفي عهد إخنوخ (ادريس) " دعا ادريس قومه، ووعظهم ...... وأن لا يلابسوا ولد قابيل فلم يقبلوا منه " .

" وفي عهد لمك كثرت الجبابرة من ولد قابيل "[2] ، وكان لمك يعظ قومه وينهاهم عن مخالطة ولد قابيل فلم يقبلوا حتى نزل إليهم جميع من كان معهم في الجبل " [3]

وهكذا انتصر سكان المدن والأرياف الزراعيون نهائيا بعد أن اجتذبت حياة المدينة إليهم قلوب أولئك البدائيين . لقد لخصت لنا قصة آدم وأولاده مسيرة الحياة إذن من الحياة في أحضان الطبيعة ـــ الجنة حيث كان كل شيء مشاعا للجميع ، وليس ثمة ملكية خاصة ـــ أو كدح من أجل إنتاج القوت ، إلى حياة الرعي والصيد ، إلى حياة الزراعة والمدينة. وقد رأينا ، ومن خلال هذه الخطوط البسيطة ، كيف أن كل شيء ، لم يكن ليتم دفعة واحدة وفي شكل طفرة ، بل تدريجيا . إنه ، كما تحدثنا حول ما دعي بـ " الهجرات السامية " عملية تحول بطيئة وطويلة تنتاب الأفراد أو الجماعات كلما نضجت لديهم شروط الانتقال من نمط حياتي إلى آخر أرقى منه .

لكن ، هل كان كل من خرجوا تدريجيا على مدى عشرة آلاف عام من تلك الأرض الجنة إلى الجنوب الرافدي او إلى مناطق الجبال جماعات بدائية مثل آدم ؟ بالطبع لا ، إذ إن في إمكان كل إنسان أن يفترض تواجد الأنماط الحياتية الثلاثة دائما في كل مرحلة من مراحل التطور : المرحلة السابقة تتعايش مع المرحلة الراهنة التي تحضن بذور مرحلة المستقبل . إن هذا هو من الخصائص الحقيقية والملازمة لكل عملية اجتماعية او طبيعية وإلا لما كانت القوانين الجدلية التبادلية تتمكن من أن تمارس فعلها في الطبيعة أو في المجتمع .

فإذا كان آدم يمثل نمطا حياتيا معينا قبيل انتقاله من غرب شبه جزيرة العرب بعيدا عن جنته الطبيعية ، فإن عينات اجتماعية أخرى، لاشك ، كانت تمثل الأقواس الأخرى على السلم الحلزوني في التطور ، إذ من المعلوم أن ليس ثمة مرحلة نقية وخالصة من كل ما

---

(1) تاريخ ابن الأثير ، الجزء 1 ص 32ـ 33 .
(2) سبائك الذهب ومعادن الجوهر للبغدادي ، ص12 .
(3) تاريخ ابن الأثير الجزء 1 ص36 .

سبقها ومما سيليها ، إن هذا ،وبكل بساطة ، يعني أن تلك الجماعات التي تخلت عن أراضيها في منطقة الخليج العربي الذي ترتفع فيه المياه لتحتل الأراضي الزراعية يوما بعد يوم ، إنما كان قسم منها ، ربما ليس بالقليل ، قد مارس نمط الحياة المتقدم ونقله معه .

إن ذلك هو ما يؤيده المؤرخ البابلي الشهير " برعوثا " الذي عاش حوالي 250ق.م حين حديثه عن السومريين . لقد كتب يقول : " إن جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى "عوان " خرج من الخليج العربي وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة " ثم يقول : " وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم ، و لم يخترع من ذلك الوقت شيء ما حتى الآن "[1] .

ومن المفيد أن نذكر بأن تسمية " الجبابرة " كانت مرادفة دائما للسكان الزراعيين المستقرين الذين بنوا المدن والأبراج وسوروا الأسوار، وانتجوا مختلف المنتوجات الغذائية بأيديهم . إن هذه التسمية شملت كل قطاعات المجتمع الزراعي العربي من الخليج إلى جنوبي سوريا الحالية . ولقد أطلقت التوراة هذا الاسم على الكنعانيين في أكثر من موضع . " ثم رجعوا من تجسس الأرض بعد أربعين يوما ، فساروا حتى أتوا إلى موسى وهرون وكل جماعة بني إسرائيل إلى برية فاران إلى قادش وردوا إليهما خبرا وإلى كل الجماعة وأروهم ثمر الأرض وأخبروه وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها ، وحقا إنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها ، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جدا ، وأيضا قد رأينا بني عناق هنالك ، العمالقة ساكنون في أرض الجنوب ، و الحثيون و اليبوسيون و الأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الـ " يردن " ... وأما الرجال الذين صعدوا معه فقالوا لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا ، فأشاعوا مذمة الأرض التي تجسسوها في بني إسرائيل قائلين الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها هي أرض تأكل سكانها وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة ، وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم " (عدد 13:16 ـــ 33) .

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء 2 ص 14 .

ولابد هنا من الإشارة إلى وجوب التمييز بين لفظة الجبابرة أو العماليق التي أطلقت منذ القدم على الزراعيين بناة المدن ومسوري الأسوار ورافعي القلاع والأبراج لتمييزهم عن البدو والرعاة منذ أن بدأ الاستقرار الزراعي وتميزت حياة الحضر في الأرياف والمدن وبين لفظة العماليق أولاد عمليق (أو عريب) بن لاوذ بن سام بن نوح ، الذين انقسموا أيضا بدورهم إلى زراعيين جبابرة ، سكان مدن ، وبدو رعاة سكان البادية ، وصار عمليق نفسه أبا لفرعين : عمليق أبي الزراعيين سكان المدن وعريب أبي البدو سكان عربي أو البادية .

وفي الوقت نفسه فإننا نجد لزاما علينا أيضا أن نذكر بوجوب التمييز بين لفظة السريان التي استخدمت منذ ما قبل آدم ، حسبما أكدت المصادر ، للدلالة على العرب السوريين ("سرن " أبناء " سر ") الذين استخدموا نظم الري في زراعاتهم وبين لفظة السريان التي جاءت فيما بعد لتدل على بني سوريان بن نبيط بن ماش بن آرم بن سام بن نوح [1] .

فقد قال الكلبي : إن منهم النبط (بفتح الباء) وهم أهل بابل (المحطة على طريق القوافل شرقي عسير) في الزمن القديم ، وقال ابن الكلبي : هم بنو نبيط بن ماش بن أرم بن سام ، وقال ابن سعيد : هم من بني نبيط بن آشور بن سام [2] .

ومن هنا تبرز حقيقة لابد من الإشارة إليها : وهي التأكيد من خلال آدم وحواء على أن أبناءهما من أولئك السكان الزراعيين الذين ينتشرون من شواطئ الخليج العربي الشرقي والغربي ، إلى شواطئ دجلة والفرات الدنيا والعليا ، إلى شواطئ المتوسط وجنوبي نهر الأردن ، إلى ضفاف النيل ، كما أن جميع سكان شبه جزيرة العرب الممتدة جنوبا إلى شواطئ البحرين الهندي والعربي إنما هم عرب أيضا ، إن أحد آبائهم آدم عربي سرياني أو سوري ، ممن صار يطلق عليهم اسم العرب المتعربة أو المستعربة ، وأمهم حواء العربية العاربة (النقية في عروبتها) من جدة في أرض مكة ، إن في آدم وحواء إذن رمزا لعروبة ووحدة الوطن العربي السوري الذي يضم الهلال الخصيب وشبه جزيرة العرب .

---

(1) انظر سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ـ البغدادي ص 13 .
(2) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ـ البغدادي ص 13

كما أن ثمة رمزا آخر ، وهو أن شبه جزيرة العرب هي الرحم الأم الذي ينجب العنصر العربي ويزود المنطقة به منذ أقدم العصور ، وقد توفرت له حماية ومناعة طبيعيتان لم تتوفر لأي مكان آخر ، كما أنه يتصل بوشائج مشيمية مع عالم التغذية الطبيعية الذي ينتشر من ثلاثة أنحائه كالمظلة هي قوس منطقة الهلال الخصيب. وكما أن شبه جزيرة العرب هي الرحم العربي والأم العربية ، فإن إنسان المنطقة العربية السورية هو الأب العربي الحامي والمدافع والذائد ضد كل غزوات الأمم والشعوب التي أتت في معظمها من الجهات الثلاث : الغرب والشمال والشرق ، كما أنه هو المطعم والمعيل .

وليس بعد هذا غريبا أن يشيع بين عرب العراق منذ أقدم العصور أيضا المثل القائل " نجد الأم والعراق الداية "[1].

إن المنطقة الشاملة لأطراف الهلال الخصيب ولشبه جزيرة العرب هي منطقة عربية إذن منذ ما قبل آدم الرسول ، وبإمكاننا أن نلمح وحدة الشعب الثقافية والروحية ثم اللغوية منذ ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد وحتى اليوم .

إن نظرة واحدة على أسماء أبناء آدم وحواء وأحفادهم المقرونة باسم الإله إيل (الذي هو الله) تؤكد لنا انتشار عبادته في ديانة توحيدية منذ ذلك الزمن امتدت من شواطئ الخليج العربي إلى ساحل البحر المتوسط في الغرب وشرقي دلتا نهر النيل في أقصى الجنوب .

الوطن العربي السوري والوطن العربي :

إن البقاع التي شغلها العرب السوريون الزراعيون منذ أن عرف أول استيطان زراعي في العالم هي تلك الأرض الممتدة من الخليج العربي بشاطئيه الشرقي والغربي ، إلى حوضي دجلة والفرات الأدنى والأعلى ، إلى الأرض الممتدة على طول الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ، إلى ضفاف الأردن ثم إلى دلتا نهر النيل .

---

(1) انظر الدكتور أحمد سوسة " مفصل العرب واليهود في التاريخ " ص 321 .

لقد أكدت جميع المكتشفات الآثارية أن عرب هذه المنطقة الذين أطلق عليهم اسم السوريين نسبة إلى الأب " سر " كما دعوا بالسريان ، انما كانوا أول من دجن النباتات ، وبنى الأكواخ ، وأقام المستوطنات الزراعية ، وعرف المعدن والتعدين ، وبنى السفن واخترع الكتابة . وقد عمت تسميتهم حتى شملت أشقاءهم الأموريين أبناء "مر" في الشمال والغرب ، وصار اسم " سري " (سوريا) أو "سرت"(سورية) شاملا للمنطقة كلها، لكنه ينبغي ألا يغيب عن ذهن أحد بأن الصورة الممتدة من الخليج العربي إلى البحر المتوسط ليست ولا يمكن أن تكون ، صورة واحدة رتيبة ومتناسقة .

إننا حينما نقول إن سكان المنطقة كانوا أول من هجر حياة الرعي وانتقل إلى الحياة الزراعية فإن هذا لا يمكن أن يعني ، إطلاقا ، أن المنطقة كلها زراعية ، وأن الناس جميعا زراعيون .

لقد سبق أن أوضحنا في مدخل هذا الكتاب كيف أنه ليس ثمة مرحلة نقية في التطور بل إن كل مرحلة من مراحل التطور توجد ، وبصورة دائمة ، في حالة من التعايش الطبيعي بين المرحلة التي سبقت وطلائع المرحلة التالية بصورة خاصة ، كما تتعايش ، ولو بصورة متناقضة ، مع بقايا كل المراحل السابقة الأخرى . إن انبثاق الثورة الزراعية ، وظهور نمط جديد للعيش في هذه المناطق لم يكن يعني ، بأية حال ، أن الناس جميعا تحولوا إلى زراعيين في الأرض وكأنما امروا ففعلوا ، لكن طلائع الجماعات السكانية التي نضجت لديها شروط التطور والانتقال من مرحلة إلى أخرى أرقى منها هي التي تمثل حتما هذا التحول ، وتصبح أحد قطبي الصراع الجديد في الحياة الجديدة الذي يجاذب نمط الحياة الآخر سكان المنطقة ، فيمتص كل من نضجت فيه ظروف وشروط الانتقال إلى نمط الحياة الجديد . إن وجود حياة زراعية في هذه المنطقة أو تلك كان يكتنفه نمط حياة الرعي والتنقل من كل أنحائه . لقد كان جولان السكان البداة والرعاة بمواشيهم خلال المساحات والفرج والممرات الرعوية يشكل الجزء الآخر المتمم لحياة المنطقة ، والمرتبط به ارتباطا عضويا لا تنفصم عراه . إن مما يميز حياة المجتمع العربي منذ بدايات تشكله وحتى اليوم هو ذلك الترابط العضوي بين البدو والحضر . لقد بقي العرب البداة يجولون

في شتى أنحاء هذا الجسد على مر العصور ، ويزودونه بالدم ، بالعنصر العـــربي ، كمـــا كانت هذه الظاهرة من أهم الظواهر التي حافظت على عروبة جميع أجـــزاء الــــوطن العربي على مر القرون . وفي الوقت الذي كانت فيه المجتمعات الزراعيـــة ودولها تصاب بالهزائم أحيانا ، أو تخضع لسلطان الغزو والاحتلال ، كان ذلك الجولان البدوي العربي يحافظ على دورته وحركتـــه الطبيعية ، كما يتحرك الدم في الجسد الواحـــد ، دون أن تمنعه أو تحـــول دون حركته حدود قائمة أو سلطان لأجنبي محتل ، والأمثلـــة كثـــيرة وقائمة حتى اليوم .

ومن هنا كان الترابط العضوي التاريخي العظيم بين نشوء وتشكل الوطن العربي السوري ونشوء وتشكل الوطن العربي الكبير .

الفصل الثاني

الوطن العربي السوري

وحدته الحضارية في مراحل تشكله

إن المناطق التي شدت طلائع الجماعات العربية إلى حياة الاستقرار والزراعة إنما هي أحواض المياه الدائمة التي تؤمن لها حاجتها من مياه الشرب ، كما تضمن حاجة مواشيها وأراضيها و زروعها أيضا ، وإن هذه المناطق عينها إنما هي وحدها المهيأة لاستقبال نشاطات هذه الجماعات المتفوقة واحتضان إبداعاتها وإخصاب نتاج عمل الإنسان فيها وضمان حياته ونموه وتطوره .

وهذه المناطق ، إذا ما أردنا الإشارة إليها ، هي تلك الممتدة من شواطئ الخليج العربي حيث الأراضي الرسوبية الخصيبة ومصبات الأنهار الكثيرة إلى حوضي دجلة والفرات الأدنى والأعلى ، إلى حوض العاصي ، وبردى والشريعة ، ودلتا نهر النيل .

لقد صعب على كثير من المؤرخين ــ ولاسيما بعد المكتشفات الأخيرة في سوريا ــ أن يقروا بأن العرب السوريين كانوا المؤسسين لأول حضارة زراعية في العالم فحاولوا ، ضد كل منطق ، أن يجعلوا من مناطق الجبال المحيطة بسوريا مهدا لتلك الحضارة دون أن يتمكنوا من تقديم دليل واحد يدعم مثل تلك الفرضيات الغريبة . لقد كتبوا التاريخ كما تريده الجهات الاستعمارية الحاقدة والطامعة بهذا الوطن وبمقدراته فعمدوا إلى خلق نظريات وفرضيات ، وابتدعوا شعوبا وطمسوا وجود أخرى ، وكان ديدنهم في ذلك كله تهريب التاريخ العربي والحضارة العربية ، وإلصاق كل ما أنتجه الإنسان العربي وأبدعه عبر آلاف السنين بشعوب أخرى سواء أكان وجودها وهما أم حقيقة .

إن الحضارة والاستقرار لم تبدآ في الشعاب بين الجبال ، كما يحاول البعض أن يقنع نفسه هربا من الاعتراف بفضل العرب في بناء الأسس الأولى لصرح الحضارة ، وإنما البداية

كانت حول أحواض المياه الدائمة ، وقد جاءت الاكتشافات الآثارية لتؤيد هذه النظـرة العلمية المنطقية بالشواهد والأدلة التي باتت تخرس كل الأقلام المغرضة في كتابة التاريخ . وإن الوجود العربي حول مصادر المياه وأحواضها من الفرات إلى الأردن إلى النيل كـان هو الوجود السابق لأي وجود سكاني آخر في المنطقة كلها . فقـد بـدأت عمليـات الاستقرار هناك مع عمليات بناء البيوت وتدجين النبات والحيـوان وزراعـة الأرض ، وصيد الأسماك ، وتأمين عملية الري والملاحة والنقل ، تلك أهم مظاهر الاسـتقرار في مدارج التمدين والرقي .

ومن هنا يمكننا أن نتصور كيف أن آلافا من السنين مرت على وجود الإنسان العـربي حول تلك المجاري المائية قبل أن نتمكن من الوصول إلى المستوى الحضاري الذي تعرفنـا على بعضه في المرحلة السومريـة والأكاديـة ، سواء أكان على مستوى بناء الدولـة ومؤسساها ، أم على مستوى البنيان الفوقي الفكري والإيديولوجـي ، أم على مستوى الإنتاج المادي .

إن المحاولات التي يبذلها بعض المؤرخين من أجل عزل بعض أجزاء سوريا عن بعضـها الآخر ، منذ بدايات تشكل الوطن العربـي السوري ، تبوء اليوم جميعها بالفشـل . إن ما دعي بالحضارة النطوفية (نسبة إلى وادي النطوف في فلسطين) ومحاولة عزل فلسطين عن باقي أجزاء الوطن العربـي السـوري بحضارة متميزة ، ما لبثت أن سقطت أمـام البراهيـن المادية القاطعة التي أظهرها الأرض العربية السورية من أقصـى شمالهـا إلى أقصى جنوبها .

الحضارة السورية في وادي نطوف :

لقد أطلق العلماء اسم الحضارة النطوفية على الحضارة التي ظهرت للوجود في حـوالي 10000 قبل الميلاد في الغرب السوري ودامت حتى حوالي 8300 ق.م وتتمتع هـذه الحضارة بأهمية كبيرة بالقياس لموضوع الخروج من الكهوف . وتتجلى الخاصة الرئيسـية لتلك الحضارة في وجود الأدوات الصوانيـة ذات الأشـكال الهندسـية أو في هيمنـة

الشظايا الصوانيــة ، يضاف إلى ذلك نسب مختلفة مــن الأدوات الصوانيـــة مثــل المثلثات مختلفة الأضلاع أو متساوية الساقين ، والنصال المحدبة ، والمنقـــاش الدقيــق ، وأدوات مثل نصل المنحل والمكشط والمنقاش والخرز والمثقاب المسنن .

إن هذه الصناعــة الحجريــة ليست إلا جزءا من جملة متكاملة من الخصائص الحضارية التي تشمل صناعة الأدوات المنــزلية الثقيلة للطحن والجرش والسحق وصناعــة الأدوات العظمية ، وأحيانا الأعمال الفنيــة المصنوعــة من الحجر أو من العظم ، وقطع مختلفــة لأدوات زينة ، أو حلي مصنوعة من الحجر أو العظم أو الصدف ، إلى جانب الوجــود المتكرر للبقايا المعمارية (أكواخ مستديرة وصوامع للخـــزن) ثم المدافــن الفرديــة أو الجماعية .

يرى الباحث الآثاري بار يوسف أن الحضارة النطوفية هي حضارة فلسطينية بحتــة ، لأن القسم الأعظم من خصائص تلك الحضارة يتجلى في الشواهد المكتشفة في فلســطين ، في حين أن الشواهد المماثلة التي اكتشفت في ســوريا ولبنان وصحراء النقب تمثل حضــارة مختلفة أطلق عليها اسم (الكيباريان الهندسي المرحلة ــ ب ــ) . لقد سقط الباحثون في تلك الأخطاء نفسها الناجمة عن إصرارهم على دراسة المنطقة كأجزاء جغرافية منفصلــة ومستقلــة ، وبالتالي عن دراسة حضارة المنطقــة الواحـــدة علـــى أنهـــا حضـــارات منفصلة ومستقلة . وكلما ألحوا في الابتعاد عن الاعتراف بوحــــدة المنطقـــة الجغرافيـــة والسكانية والحضارية كلما غرقوا في الأخطاء والتناقضات التي تظهر هزال آرائهم وعدم جديتها .

فبالنسبة للحضارة النطوفيـــة ما أن عثر الباحثون على الأدوات الحجرية الخاصــــة بهـــا بمرحلتيها الموسمية والانتقالية حتى قرروا أن الحضارة النطوفيـــة هي فلسطينية بحتــة ، وأن فلسطين ــ بالتالي ــ كانت دائما منفصلة ومتميزة ، بل ومختلفة عن جيرانهـــا ، لكـــن الدكتور جاك كوفان أستاذ آثار ما قبل التاريخ في جامعة ليـــون ما لبث أن دحض هذه النظرة معتمدا على مكتشفاتـــه ، فأكد " الوحدة الحضارية في بلاد الشام " قائلا حــول وجهة النظر تلك :

" لكن وجهة النظر هذه تضعضعت أمام سيل الاكتشافات الأخيرة في كل من لبنان وسوريا حيث تم العثور ـــ بجانب تلك الأدوات ـــ على أدوات أخرى للسحق والطحن في موقع الطيبة بحوران[1] وفي سعيدة في لبنان[2] وفي جعيتا بلبنان[3] وفي وادي الفرات ، يضاف إلى ذلك أننا واجهنا في موقعي أبو هريرة [4] والمريبط [5] على الفرات الأوسط وجود عمائر من صنع الإنسان ، وأدوات مصنوعة من العظام ، إلى جانب أدوات مشهورة من قبل وكانت مألوفة في الحقبة النطوفية ، مثل الأدوات مزدوجة الرأس وقفازات الأصابع المثقوبة ، وبذلك بدأ التاريخ يسجل بعض الأدلة على قيام تطور متشابه جداً للحضارة النطوفية في كل من فلسطين ومنطقة الفرات في أعقاب مرور مشترك بمرحلة الكيباريان ، كذلك تأكدت الآن النظرية التي طرحها كل من أور و كوبلاند و أورانش ، و القائلة بأن بوتقة حضارية واحدة امتدت خلال هذه الحقبة من النيل إلى الفرات ، بصرف النظر عن الخصائص الفردية التي جعلت للحضارة النطوفية سمات إقليمية متميزة[6] " .

إن مثل هذا القول المبني على الشواهد الآثارية المكتشفة من شأنه أن يبين لنا الأمور الأساسية التالية :

1 ـــ إن الحضارة العربية السورية الما قبل سومرية لم تأت دفعة واحدة ، بل جاءت نتيجة لعملية طويلة استغرقت آلاف السنين من بدء الإنسان العربي لحياة الاستقرار عند أحواض المياه .

2ـــ إن الوجود العربي هو الوجود الأصيل الوحيد الذي شغل الأرض العربية منذ الألف العاشر قبل الميلاد بدءاً من ضفاف الخليج العربي ومروراً بحوض دجلة والفرات إلى

---

(1) انظر Cauvin 1975(B)
(2) انظر Schroeder 1970
(3) انظر Hours 1966
(4) انظر Moore ,Hillamnet Legge
(5) انظر Cauvin ,M.C.aparaitre (a)
(6) لدكتور جاك كوفان ، " القرى الأولى في سوريا " ما بين الألف التاسع والألف السابع قبل الميلاد " ترجمة قاسم طوير تحت عنوان " الوحدة الحضارية في بلاد الشام " دمشق 1984، ص20ــ21

سوريا الغربية ووادي النيل على الأقل . وإن الاكتشافات لم تجد أي ما من شأنه أن يدل على أي وجود غريب عن وحدة هذه المنطقة بشريا وجغرافيا وحضاريا . وكلما عمد بعض الباحثين إلى تجزئة هذه المنطقة حضاريا وسكانيا جاءت الاكتشافات لتدحض هذا السعي ولتؤكد وحدة المنطقة الحضارية .

3 ــ إن هذا من شأنه أيضا أن يؤكد صحة وجهة نظرنا في مسألة ما دعي بــ"الهجرات السامية " ويؤكد أن الوجود العربي هو وجود شامل للمنطقة العربية كلها منذ الزمن السحيق ، وإن ما دعي بالهجرات من شبه جزيرة العرب لا يعدو كونه مجرد افتراض بائس ولا أساس له ، وإن حركة السكان العرب في الأرض العربية إنما هي حركة جولان دائمة ، يتجاذبها التنقل والاستقرار على الدوام•

وبناء على ذلك فقد أكد الأستاذ بينفورد على " أهمية الوقوع على ضفاف مجرى ماء ، دائم الانسياب في ترسيخ الاستقرار والتوطن البشري ، وذلك لأن صيد الأسماك يعتبر مصدرا غذائيا دائما لاسيما وأن التنقيبات الأثرية أبانت أن النطوفيين كانوا من صيادي الأسماك . ففي موقع عين الملاحة على بحيرة الحولة عثر المنقبون الأثريون على كميات كبيرة من بقايا عظام الأسماك والقواقع والحلزون ، وكذلك استفادت المواقع المكتشفة على ضفاف الفرات من الميزة نفسها .ففي موقع المريبط عثر المنقبون الأثريون على كميات كبيرة من الطبقة (I) والطبقة (B1) على كميات كبيرة من سمك السلور والبارنو وعلى مواقع المياه الحلوة ..."

وطريف هنا أن نشير إلى أن حرف "الصاد" في اللغة العربية الفصحى (لهجة قريش) وفي اللهجات العربية الأخرى : الفينيقية والسريانية إنما هو (صودي) ويعني " الصائد " ويرمز له بصنارة لصيد الأسماك ،مما لا يدع مجالا للشك في أن العرب ــ كما تؤكد نتائج أبحاث الحضارة النطوفية ــ كانوا ينجذبون في بداية عهدهم بالاستقرار والتجمع

• إن هذا لا ينفي حدوث هجرات جماعية أو شبه جماعية بين فترة وأخرى لظروف سياسية أو طبيعية طارئة ومفاجئة ، كالطوفان أو الزلازل أو البراكين ، أو الغزو ، أو غيرها ، لكن هذا يبقى موضوعا آخر لا علاقة له بالظاهرة التي اعتمدها الباحثون والمؤرخون ودعوها بالهجرات السامية وأرجعوها إلى عامل الجفاف

إلى عند مجاري المياه . وكان الصيد السائد بينهم جميعا حينما فكروا باختراع الكتابة الذي ترك انعكاسا له في لغتهم بشتى لهجاتها ، إنما هو صيد الأسماك . وهذا دليل آخر على وحدة السكان واللغة والتطور الحضاري يضاف إلى الأدلة الأخرى التي جعلت الباحثين يؤكدون النتيجة القائلة بأن " بوتقة حضارية واحدة امتدت خلال هذه الحقبة من النيل إلى الفرات " .

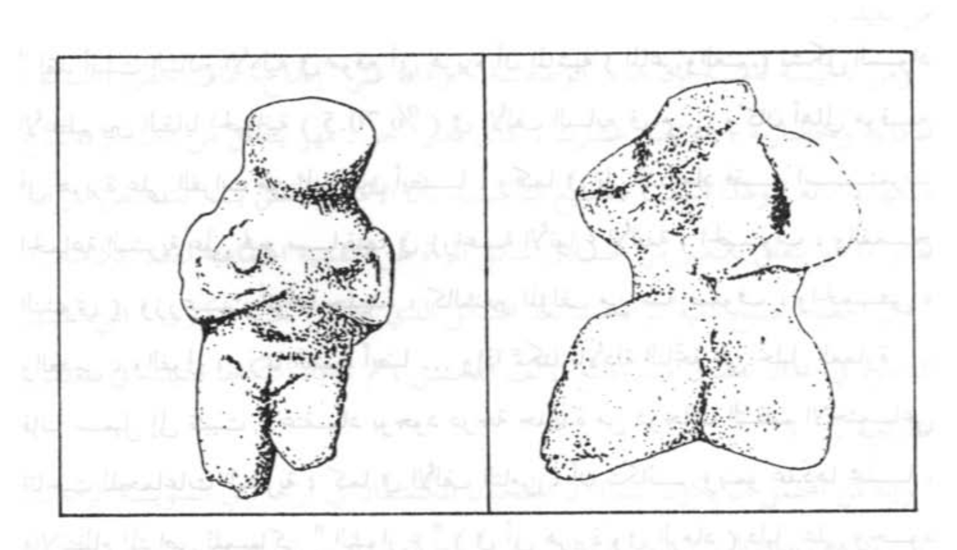
إن الاستقرار ، إذن ، كان يتم حيث تتوفر الشروط الملائمة لتأمين الحياة الدائمة دونما حاجة إلى التنقل والارتحال . وليس من مكان أكثر حظا في توفير مثل هذه الشروط من مواقع مجاري الأنهار ، حيث تتكفل المياه بتأمين الغذاء من الأسماك ، وري البشر وقطعان الماشية والأراضي المزروعة . كما أن تدجين النباتات يجد نجاحا فوريا ونتائج ملموسة لاتعتمد على الصدف ، علاوة على ما تؤمنه الأنهار من وسائط للنقل والملاحة.

وفي الفترة الممتدة بين الألفين الثامن و السادس قبل الميلاد ظهرت مجموعة كبيرة من القرى ـــ المدن في جميع مناطق سوريا من الشرق إلى الغرب ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، نذكر منها ما اكتشف في المواقع التالية :

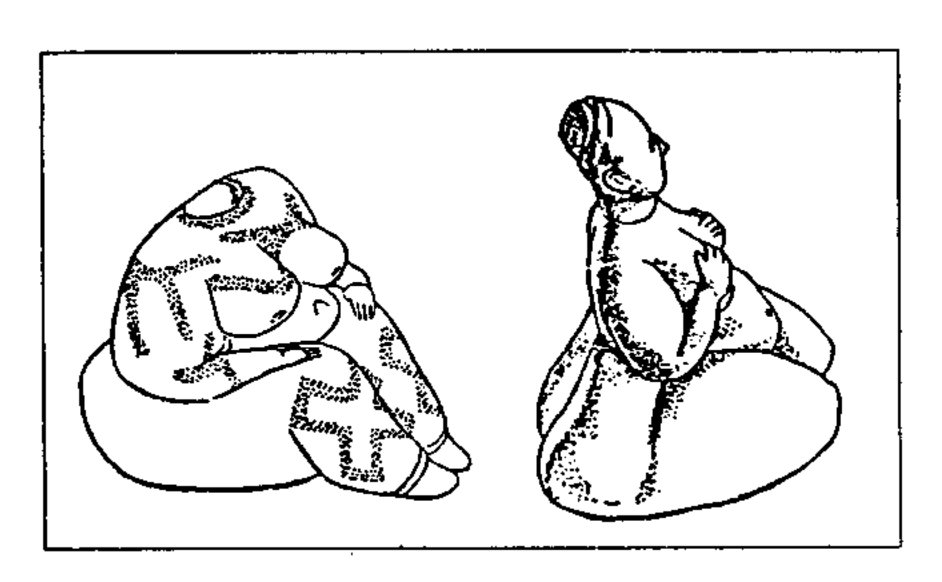
تل أسود على البليخ ، و المريبط ، وأبي هريرة ، وبقرص على الفرات ، و توتال (شوتال) في سهل قونيا ، والكوم في جنوب شرق أبي هريرة ، و رأس شمرا ، و وادي فلاح ، وفارة ، و أبو غوش على الساحل ، و لبوة ، و الغريقة ، و أسود ، و بيسمون ، و الشيخ علي ، و المنحطة ، و أريحا ، و البيضا في سوريا الجنوبية ، والرماد جنوب دمشق .



عشتار أوجاريت



الأم السورية الكبرى تل أسودقرب دمشق 8000 ق.م	الأم السورية الكبرى تل المريبط على الفرات 8000 ق.م



الأم السورية الكبرى شتال . حيوك (مشتل أو مزرعة حيوك)جنوب الأناضول 6000ق.م

" لقد أثبتت النتائج الأولية في موقع أبي هريرة أن الماشية (الماعز والغنم) تشكل السواد الأعظم بين البقايا الحيوانية (70.5 %) في الألف السابع ق.م ... وكان أهالي موقع أبي هريرة على الفرات من المزراعين أيضا ، وكما في تل الرماد فقد استمرت الجماعة البشرية على نهج سابقتها في زراعة الأنواع الأليفة (الحبوب ، والقمح النشوي) وزرعت أنواعا جديدة ، كالشعير المؤلف من ستة صفوف ، والحمص ، والعدس ، والفول ، وربما العنب أيضا ... وإذا تمكنا بالأدلة الناتجة عن تحليل العمارة ... فإننا سنميل إلى تثبيت الاعتقاد بوجود درجة جديدة من درجات التنظيم الاجتماعي اتاحت للجماعات البشرية ، كما في الألف الثامن ، أن تتكاثر وينمو عددها محليا . فالانتظام المتراص للمساكن " الشوارع " (في أبي هريرة وفي الرماد) دليل على وجود نمط جديد من ترابط النسيج القروي ، كذلك فإن الدليل (الضعيف حتى الآن) على وجود مجار وقنوات للمياه في بقرص يمكن أن يطرح أمامنا مسألة التوزيع البلدي للمياه ، وهو وجه من أوجه التنظيم البلدي الذي أراد الأستاذ تشايلد أن يرى فيه نقطة الانطلاق نحو التمدن . إن مجرد وجود أي نظام للري والاسقاء يكفي ــ دون

الابتعاد عن المجال الزراعي ــ للتكهن بوجود مؤسسة اجتماعية متكاملة تتخذ القرارات وتسهر على تنفيذها "[1]

ومن الأدلة الواضحة على وحدة التكون النفسي الجماعي والتصور الديني في المناطق السورية عموما في تلك الأزمنة الموغلة في القدم ظهور تماثيل الربة عشتار ، بمختلف أسمائها التي تنضوي جميعا تحت اسم " الأم الكبرى " في تلك المواقع جميعا . يقول الدكتور جاك كوفان بهذا الصدد : "إن تشكيل أو نحت تلك الأعمال الفنية لم يكن هدفا لذاته ، كما لم يكن ضربا من اللهو والعبث ، ولا ضربا من ضروب الفنون بالمعنى الحديث للكلمة . فالشكل البشري وبخاصة شكل المرأة ، لم يجر تشخيصه فنيا إلا لأنه يحمل مغزى ، ونابع عن " تصميم مسبق " ومما يؤكد على هذه القيمة الدلالية Semantique أن التماثيل المنفذة بأسلوب تبسيط أو مجرد تقريبا لا تحاكي الواقع إلا من بعيد .

" ومن ناحية ثانية فإن هذه "الوصفة " برهان على "إجماع" عام يتخطى الحدود المكانية والحضارية ، إنه تعبير مشترك ، كأي تعبير آخر . فهو ينطلق من ذلك الإجماع مستهدفا ذاته . ولهذا السبب نستطيع التأكيد بأن الأمر لا يتعلق بـ "تشخيص المرأة " بقدر ما هو يتعلق بالتعبير من خلال شكل المرأة عن النفسية الجماعية لعصر بكامله .

" وفي الحقيقة تصبح دمية المرأة فيما بعد الشكل الذي يجسد " الربة الكبرى " التي تظهر للوجود في بلدان المشرق منذ مطلع الألف الثامن ، ثم تأخذ أشكالها المتبدلة في العصور التاريخية .

" وإنه لمن المحتمل أن يكون التمثالان الملتحيان المكتشفان في أريحا وفي السوية الرابعة بالمريبط قد مهدتا الطريق لنظيرهما الملتحي في شتل هويوك حيث اقترن دوما مع الثور المشخص. وإنه لمن الأكيد ، في كل الأحوال ، أن تقديس الثور كان موجودا في المريبط جنبا إلى جنب مع تقديس الربة الكبرى ، إن لم نقل قبلها بعدة قرون . ويبدو أن الفرات الأوسط قد سبق العصر الحجري الحديث في الأناضول في التعبير عن هذا الزوج الإلهي

---

(1) الدكتور جاك كوفان " المصدر السابق " ص 107 ــ 108 .

تعبيرا صادقا من خلال التقديس الثنائي للثور وللمرأة في وقت واحد ...

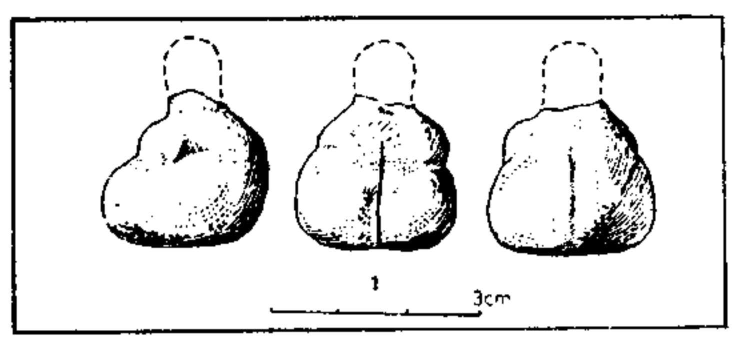
" وفي الفترة التي عمت فيها الزراعة بكل نتائجها التي أشار إليها الأستاذ فلانري ، والتي تجلت في امتلاك الأرض ، وفي خلق قيمة لمساحات الأراضي من خلال استغلالها زراعيا ، وفي انتقال الملكية من شخص لآخر بالوراثة ، نجد في الحضارة غير المادية لتلك الفترة آثارا ملموسة لإيديولوجية الأنساب "[1]

تلك هي بعض ملامح الحضارة العربية السورية الواحدة ، كما أظهرتها المكتشفات الآثارية الحديثة ، منذ عشرة آلاف سنة على الأقل .

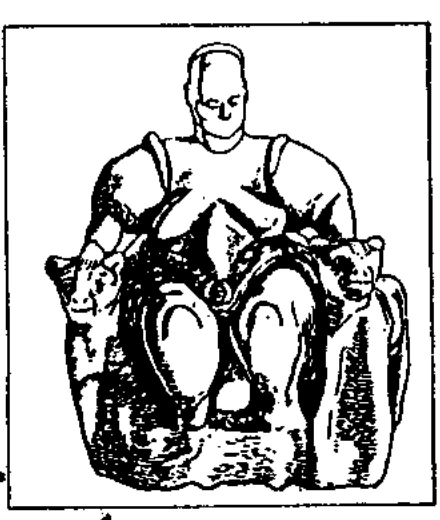
" وفي ظل هذه الأجواء الجديدة ظهر في العصر النطوفي الاستقرار كما ظهرت القريسة ، وكلاهما كان السبب في نشوء تحولات لا يمكن لغيرهما أن يحققها .

---

(1) المصدر السابق ص 196ـ 170



دمى طينية في موقع البيضا



الأم الكبرى تضع وليدها الإلهي بين أسدين . شتال حيوك (مزرعة حيوك ، جنوب الأناضول)

الأم السورية الكبرى مع وليدها الإلهي ، شتاك حيوك الألف السادس قبل الميلاد

وقد تجلت تلك التحولات في البلـوغ بالسـكن إلى الكمال ، وفي قيـام شكل جديد من أشكال الفعاليـة البشريـة ، وقد تمثل هذا الشكل في ممارسـة الإنسان للزراعـة لأول مرة " [1]

وفي هذا ما يسكت كل مزاعم كريمر وغيره حول أن آخرين هم الذين " حملوا الزراعـة إلى سكان الرافدين في الألف الرابع قبل الميلاد " !

ولقد توصل الآثاريـون الذين اجروا تنقيبات في بعض المدن التي تحمل أسمـاء عربيـة أصيلة مثل " أريحا " إلى إرجاع تاريخ هذه المدن بواسطة الكربون المشع إلى فترات زمنية موغلة في القدم . فقد " أرجعوا تاريخ بلدة أريحا إلى ما قبل سبعة آلاف سنة قبل الميلاد " وهذا ما حمل بعضهم عل اعتبارها أقدم مدينة في العالم ما تزال باقية حتى الآن .... [2]

وقد عثر في حفائر " تليلات غسول " الواقعة شمال شرقي البحر الميت في سنة 1929وما بعدها على آثار أقـدم مدينة في فلسطين ، أي أقدم من أريحا ، كان لها حضارة راقية ، وقد ضربت في أوائـل العهد الحجري المعدني أو البرونزي (5000 ـــ 3000 ق.م) نتيجة حريق حولها إلى رماد[3] .

فالمنطقة العربية السورية إذن عامـرة بالمدن الحضارية منذ الألف السابع قبل الميلاد علـى الأقل ، وتنتشر على طـول الساحـة العربية السورية الممتدة من ضفاف الخليـج إلى شاطئ المتوسط ، تمتد حضارة واحدة من عمر واحـد تقريبا ، لشعب واحد لم تعـرف هذه الأرض قبله أو بعده أي شعب منذ آلاف السنين وحتى اليـوم . وإن هذا هو مـا حـدا ببعض الباحثين أمثـال موسكاتي وكيلر وغيرهما إلى التأكيد بأن ما يعرف بمنطقة الشرق الأدنى كلها إنما عرفت وحدة قومية واحدة ترجع إلى أصل واحـد ، الأصـل السامي العربي . يقول موسكاتي مؤيدا الوحدة القومية للشعب العربي في تلك العصور :

" إن المناطق الثلاث ـــ الجزيـرة العربية وسوريا ومن ضمنها فلسطين وبلاد ما بين

---

(1) الدكتور جاك كوفان " الوحدة الحضارية في بلاد الشام " ص32 .

(2) Keller ,{The Bible as History }1957,P,180

(3) Riccioti ,{Histoire d Israel}Vol,l,pp,70-104

النهرين ــ كلها تكون وحدة جغرافيــة متماسكــة الأجزاء كانت في تلك الأزمـــان مسرحا رئيسيا للنشاط البشري ، وإن الأقوام الذين مثلوا هذه الأحداث المسرحية لعبـور الدور المعد لهم بحكم طبيعة أحوالهم ، وقد صهرتهم هذه الوحدة الجغرافيــة في مصـــير مشترك بحيث أن أية صدمة أو حركة تصيب القطاع الواحد يمتد انعكاسها إلى الأقطـــار الأخرى ... وإن الأقوام الذين استوطنوا هذه الأصقاع هم وحدهم الذين رسموا شـــكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال بيئتهم الطبيعية (1) .

فالحضارة، إذن ، لم تأت إلى المنطقة من الخارج ، بل العكس كان دائما هو الصحيـح . وإن كل الغزوات التي نكبت بها المنطقـــة من الشمال والشرق إنما كانت غزوات همجية تدميرية ، لا غزوات حضاريـــة تنقل أسباب المدنيـــة من أوطانـــها التي لم تعرف بعد ، باعتراف صموئيل كريمر و ول ديورانت نفسيهما . فكيف يحق لهما ، بعد ذلـــك ، أن يزعما بأن الحضارة بدأتها قبائل بدائية غير سامية أطلقوا عليها زورا اسم " السـومرية " ، في حين أن السومريين جزء من الشعب العربي السوري ، وحضارتهم في حوض الفرات والدجلة الأدنى تشكل مع حضارة أكاد الحقل الشرقي من المزرعـــة الحضاريـــة العربيـة السورية في تاريخ سوريا ! ثم كيف يمكن لمؤرخ مثل صموئيل كريمر أن يدعــــي بـــأن الإيرانيين هم الذين حملوا الزراعة إلى المنطقة في الوقت الذي تزخر فيه هـــــذه المنطقـــة بالمكتشفات الآثارية التي تؤكد حقيقة أن الاستقرار الزراعي الأول في العالم كله إنما كان في هذه المنطقة وقبل أن يظهر إيران نفسه وفارس إلى الوجود بعدة آلاف من السنين .

خامسا ، إن المكتشفات الآثارية أخذت تسد يوما بعد يوم كل الثغرات التي كان يعـول عليها كثير من مؤرخي الحقبـــة الاستعمارية فأظهرت أن المنطقة العربية السورية منطقـة واحدة يملأها إنتاج العقل الحضاري العربي ذي المستوى الواحد . إن هذا لممـــا يؤكـــد أصالة الفعل الحضاري ووحدة الشعب . يقول الدكتور مورتغات في هذا الصدد : " لقد أكدت المكتشفات وجوب إضافة حقبة حضارية سامية قائمة بذاتها تعود إلى عصور فجر

---

(1) Moscati "Ancient Semetic Civilizations ",London 1957,pp,13,21,108

التاريخ وتسبق عهد الإمبراطورية"[1] . وقد سمى هذه الحقبة الحضارية العربية السامية البحتة " عصر مسيلم " نسبة إلى مسيلم أحد الملوك العرب الساميين الأوائل في مدينة كيش العربية السامية ، وهذا الاسم كما هو واضح اسم عربي ، ويعتقد أن زمن مسيلم هذا يرجع إلى أواخر سلالة كيش الأولى الذي يتفق مع زمن أوائل سلالة أور الأولى (حوالي آخر النصف الأول من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد) . ويرى الدكتور مورتغات أن عصر مسيلم يمثل نقطة تحول مركز ثقل الحضارة إلى مدينة كيش العربية السامية عاصمة مسيلم التي تعتبر ــ على حد تعبيره ــ الأم القديمة لمدينة بابل الشهيرة عاصمة الحقبة الكلاسيكية . ويمضي مورتغات في حديثه عن عصر مسيلم فيقول :

" ويعود الفضل في كل ما نعرفه بشكل ملموس عن هذا العصر في النواحي المادية والفكرية كليا إلى المكتشفات الآثارية وهذا ما دعانا بحق إلى ضم هذه الحقبة والحقبتين السابقتين (الوركاء وجمد نصر) إلى عصور فجر التاريخ " ويضيف : " من المؤكد أن الساميين قد نزلوا البلاد قبل أن يكون هناك إمبراطورية أكادية أصلا ... وإننا نملك منحوتات من مدينة ماري تحمل كتابة سامية أقدم من سلالة أور الأولى ، ناهيك بعصر مسيلم الذي يشكل الفصل الأخير لعصر فجر التاريخ ، تلك الحضارة التي تجعلنا نفترض وجود مساهمة سامية قوية في بنائها [2] " ولن نتوقف هنا عند تسمية " السامية " التي قرروا استخدامها بدلا من " العربية " .

كما أن اكتشاف إيبلا في سوريا سد ثغرة كبرى في التاريخ الحضاري الكبير للمنطقة برمتها . " لقد حققت وثائق إيبلا ثورة في معارفنا التاريخية عن الشرق الأدنى في الألف الثالثة قبل الميلاد ، هذه الفترة التي شهدت بناء الأهرامات في مصر أو ما يسمى بعصر الملوك .

فإلى جانب اكبر مصدرين للمعلومات التاريخية وهما مصر وبلاد الرافدين أصبحت سوريا بفضل اكتشافاتنا هذه المصدر الرئيسي الثالث للتاريخ الحضاري والسياسي في

---

(1) الدكتور مورتغات " تاريخ الشرق الأدنى " ص 84

(2) المصدر السابق

الشرق الأدنى"[1] .

ويقول الأستاذ باولوماتيه : " كانت إيبلا مركزا لقوة سياسية كبرى هيمنت على بلدان آسيا الأمامية بوسائل مختلفة ولفترة طويلة من الزمن ، وذلك إما بالطرق المباشرة أي بتنصيب الولاة من الوجهاء المحليين كما كان الحال أكيدا بالنسبة لمدينة ماري (تل الحريري على الفرات) وربما بالنسبة لمدينة جبيل (على الساحل اللبناني أيضا) ، أو عن طريق عقد التحالفات السياسية كما كان الأمر بالتأكيد مع مدينة آشور عاصمة الأشوريين في شمال الرافدين ، هذه المدينة التي كانت في جميع الأحوال مرتبطة مع إيبلا في معاهدة دولية وكانت إيبلا في هذه المعاهدة تحتل المكانة الممتازة والمفضلة على آشور"[2]

وقد كانت إيبلا تستمد قوتها السياسية من حيوية اقتصادها ، فتجار إيبلا كانوا يجوبون البلاد من الأناضول إلى فلسطين ، ومن ساحل البحر المتوسط إلى الخليج العربي ، أي أنهم كانوا يحتضنون عالم الجهات الأربع (الوطن العربي السوري) ، هذا ، وتتضمن النصوص التجارية المكتشفة في إيبلا أسماء مئات المدن القديمة ، وهذا ما سيغني معارفنا عن جغرافية الشرق الأدنى في الألف الثالث قبل الميلاد بشكل لا مثيل له من قبل*

ومن بين المدن التي يأتي ذكرها نورد على سبيل المثال مدنا حية هي مدينة أرمان ومدينة ايميشا و مدينة إيمات ، ثم مدينة دبما شكي ، و من بين المدن القديمة الأخرى يأتي ذكر كل من إيمار ، و توتول ، و كركميش ، و حران ، و أوغاريت ، و قطنة ، و جبيل .

ويقول الأستاذ باولوماتيه : " تتجلى أهمية وثائق تل مرديخ (إيبلا) في إنها تضيف صفحة ناصعة للغاية إلى تاريخ سوريا وحضارتها الرفيعة في فترة سحيقة في القدم ، خاصة وإننا كنا نعتقد في السابق بأن سوريا لم تصل إلى هذا المستوى من الرقي الذي

---

(1) الدكتور عفيف بهنسي " وثائق إيبلا " ص28

(2) الدكتور عفيف بهنسي " وثائق إيبلا " ص 28 .

• إننا نرجح ـ بعكس ما يفترض الباحثون والمشرفون على مديرية الآثار في القطر العربي السوري إن يكون معظم هذه الأسماء على طريق القوافل الدولي في شبه جزيرة العرب ولاسيما في منطقة غامد وزهران

أصبحت تؤكده لنا وثائق تل مرديخ الآن ، فمثلا كانت إيبلا بين 2400 ــ 2250 ق.م مركزا لقوة كبرى هيمنت فترة طويلــة من الألف الثالث قبل الميلاد على آسيا الأماميــة ووصل الأمر إلى أن دولة آكاد العظمى قد اضطرت يوما إلى دفع الجزية إلى ملوك إيبلا ، كذلك كانت إيبلا عاصمة لحضارة رفيعــة ومدنيــة راقية ... إن لاكتشاف الأرشيف المركزي للقصر في إيبلا أهمية بالغة جدا للتاريخ ، وإن الوثائق الجديدة تــبرز إيبــلا في حوالي 2300 قبل الميلاد كمركز لأهم دولة في الشرق الأدنى ، فقد كانت تسيطر علــى مناطق واسعة جدا من حوض البحر المتوسط وحتى بلاد ما بين النهرين ...

إن صفحة جديدة كانت مجهولة قد فتحت أمامنا لأول مرة في القطر العربي الســوري ، بحيث تبين أن هذا القطر لعب في الألف الثالث قبل الميلاد الدور الأول في تاريخ الشــرق الأدنى ،وإن بدايات حضارته وثقافته والتي تشهد عليها فنونه وطرازه الهندسي وتطــوره الأدبي ، تبرز ، في الوقت نفسه ، أن إيبلا لعبت دورا رئيسيا إلى جانب مصر وما بــين النهرين " (1)

وجدير بنا أن نذكــر أن لغــة أهالي إيبلا تعتبر أقدم لغــة عربية غربية وصلت إلينــــا مكتوبة حتى الآن ، " وتتماثل هذه اللغــة تماثلا تاما مع اللغة التي جــرت العادة علــى تسميتها بالكنعانية وبالأخص مع الأوغاريتية التي نملك عنها شواهد ترقــى إلى 1400 ــ 1200 ق.م ومع اللغة الفينيقية التي ترقى شواهدها إلى ما بعد 1200ق.م فضلا عن هــذا تماثلها مع اللغــة العربية التي تعتبر أحدث لغة سامية أدبية كبيرة بين مجموعات اللغـــات الســامية الغربية . فمثلا نجد بين مفردات أهل إيبلا في الألف الثالث الكلمات ذاتها التي ما تزال حية كما هي في العربية الحديثة مثل (كتب) و (ملك) و (يد) ......الخ"(2)

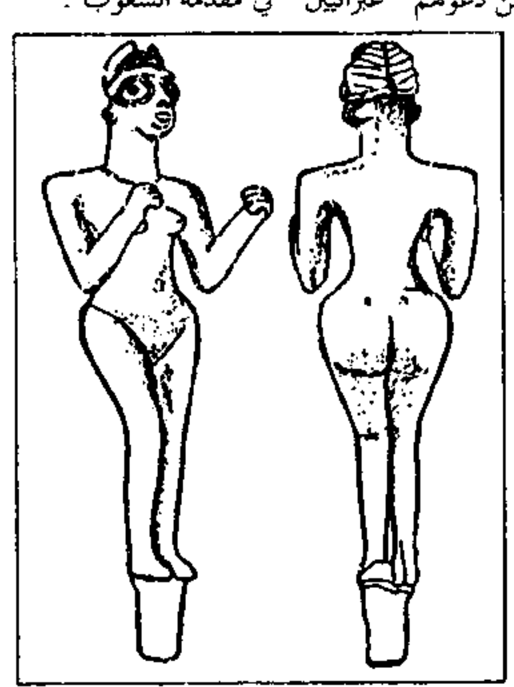
إن هذا من شــأنه أن ينسف كل أقوال مؤرخي الحقبة الاستعمارية ومن سار خلفــهم حول الهجرات السامية وأزمان حدوثها ، وتقسيم الشعب الواحد إلى شعوب متناحرة لا علاقة للواحد منها بالآخر ، والحضارة الواحدة إلى حضارات ، واللغة الواحدة إلى لغات

---

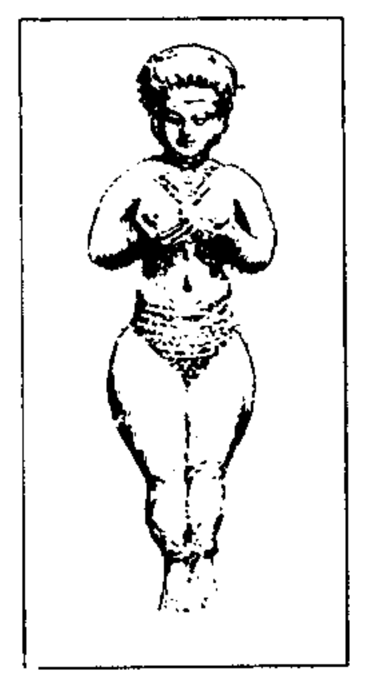
(1) المصدر السابق نفسه ص 30ــ 31 .
(2) المصدر السابق نفسه ص24

منفصلة ومستقلة ، كما ينسف في الوقت نفسه تلك المساعي الدؤوبة إلى التركيز على بؤرة حضارية معينة في مدينة ما أو بقعة ما وفصلها عما حولها ، إذ دلت المكتشفات على أن المنطقة برمتها إنما هي منطقة حضارية واحدة ، يسكنها الشعب العربي السوري الذي يتكلم لغة واحدة هي اللغة العربية بلهجاتها الشرقية والغربية والعرباء منذ آلاف السنين . وقد دحضت المكتشفات الحضارية كل ما يمكن أن يتصوره أو يبتدعه أولئك الحاقدون على تاريخ الأمة العربية ، ونهضت بنفسها على الساحة لتتكلم عن نفسها دونما حاجة إلى أية فرضيات أو نظريات أو تصورات وافدة من وراء حدود المنطقة لأغراض لم تعد تخفى على أحد .

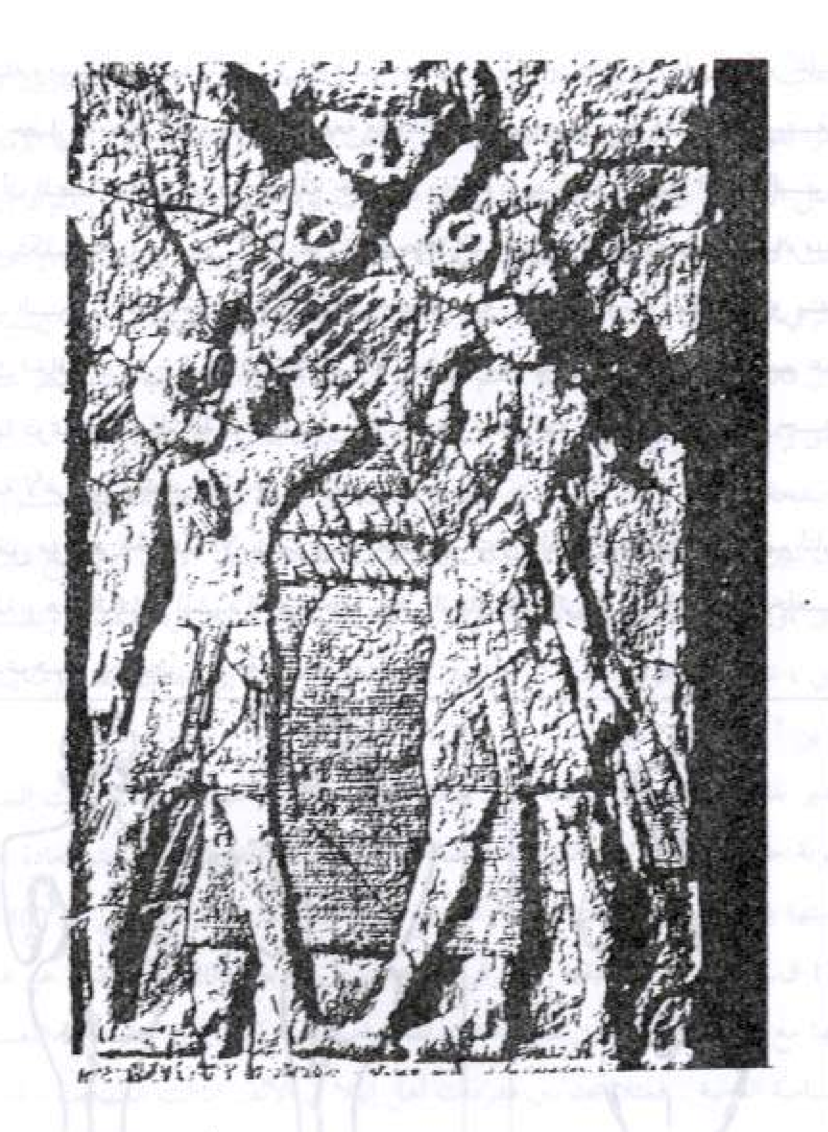
لقد ظل مؤرخو الحقبة الاستعمارية يعتمدون التوراة لفترة طويلة في دراستهم لتاريخ المنطقة ، هذا الكتاب المشوه الذي وضع بعض انسال العشائر العربية البدوية المتخلفين ممن دعوهم " عبرانيين " في مقدمة الشعوب .



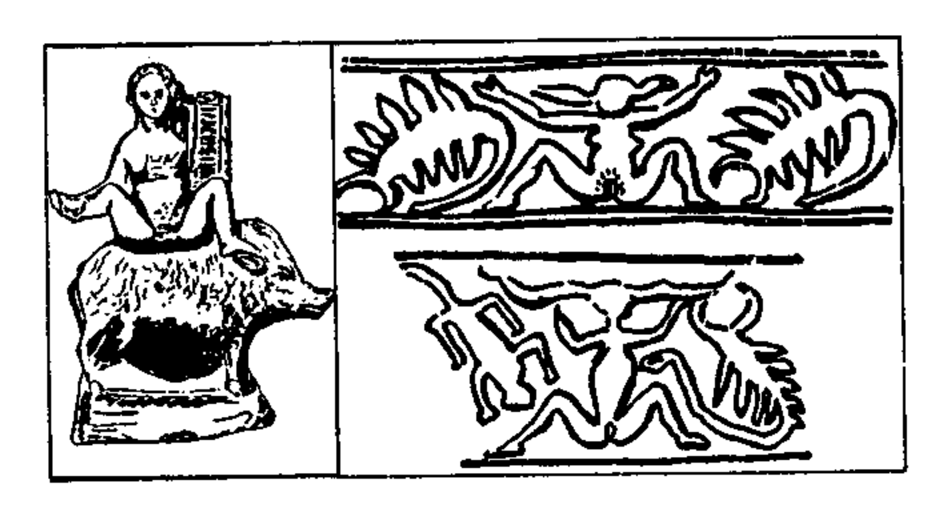
الأم الكبرى عشتار



الأم السورية الكبرى
عشتار البابلية



عشتار ترضع شهارو وشلامو ، أوجاريت



عشتارختم اسطواني من أور   **عشتار والخنزير البري عدوالخصب**

يقول الباحث الفرنسي بيير روسي بهذا الصدد :

" إنه هوسنا بالخصام الذي أخذ يمزق الشعب الواحد إلى شعوب أقرباء كالمؤابيين والأموريين والكنعانيين والأراميين والسوريين ...الخ ، ولماذا ؟ لأننا معنيون بأن نميز فيهم خصوصيات عرقية أو طائفية تجبرنا على أن نضع بينها "العبرانيين" ، وذلك لكي نقدم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم ...[1] وإن فن التفتيت هذا قد ذهب بعيدا جدا بحيث أن الحضارات ، تحت مجهرنا القاتل ، قد انتهت إلى فتات . وبينما أخذت رغبتنا في التحليل كل أبعادها كانت رغبتنا في التركيب تتراجع ، ذلك التركيب الذي لا يمكن بدونه أن يكون هناك تاريخ ممكن... إن الحدود المرسومة عسكريا أو سياسيا حسب مقتضيات آراء الأساتذة أو علماء الآثار حتما لا تتجاوز دواخلهم . وإننا عندما نؤكد من خلال نظرة شاملة أن الشرق يتعين من خلال ثقافة عربية في مساحة عربية فإننا لا نخترع شيئا ، إننا لا نفعل شيئا سوى جمع وإحكام العناصر الجغرافية والثقافية الموطدة

---

(1) بيير روسي ، مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب ، ترجمة فريد جحا، الطبعة الثانية ، دمشق 1996 ، ص69 .

الواحدة إلى الآخر ، تلك العناصر الراسخة لكنها المخرجة بإرادة تحليل زائد عن الحد ، تلك الإرادة التي هي المذنب الأول في نفي الحقيقة .والمذنب الثاني هو التعليم الجامعي المتفرق منذ النهضة والذي كان الوحيد لصالح أثينا وروما .. واللتين غدا الأوروبي من خلالهما ، منذ القرن الخامس عشر ، ظانا أنه اكتشف ذروة مثالياته ، واعتبارا من هذا القرن توقفت الثقافة الأوربية عن الاهتمام بالعرب لكي ينهار وافي الرمل ، ولكي ينسحبوا شيئا فشيئا إلى حيث يغدون من قبل الغرب في القرن العشرين مختصين بالجمل والقبيلة ، والثأر والبداوة "[1]

إنه ما أن بدأت التنقيبات الآثارية في المنطقة، ولاسيما في منطقة حوضي الفرات والدجلة ، حتى أخذت الاكتشافات تتوالى لتترك العالم يقف مذهولا أمام لغة الأرض نفسها التي أخذت تتحدث عن نفسها، وعن عظمة الشعب العربي السوري الذي عمرها وسكنها ودافع عنها ، وأنجز أروع حضارة عرفها تاريخ البشرية منذ آلاف السنين .

وقد تأكد للباحثين ونتيجة للمكتشفات الآثارية " أن أقدم آثار لوجود الإنسان في الجزء الشرقي من الوطن العربي السوري يعود إلى نحو 120 ألف عام وقد وجدت في بدرة ـــ بلكا في الشمال بين كركوك والسليمانية عام 1999(وفي الجزء الغربي تعود إلى 150ألف عام) ، أقدم هياكل بشرية هي أربعة وجدت في كهف شانيدار ، أقدمها يرقى إلى 60 ألف عام وثلاثة إلى 45 ألف عام (بينما في سوريا إلى 100ألف عام) ، كشفها الدكتور سوليكي عام 1951 وتعود لإنسان العصر الحجري القديم . ثم بدأ العصر الحجري الوسيط نحو 10 آلاف ق.م وأعقبه العصر الحجري الحديث نحو 7 آلاف ق.م . لقد بدأ العصر الحجري الحديث بزراعة الأرض وتدجين الحيوانات ، وليس بابتداع أدوات حجرية جديدة ، وقد انتهى بظهور المعادن ، وبدأ العصر الحجري النحاسي ثم تبعه البرونزي نحو 3500ق.م .

" فبالنسبة للعصر الحجري الوسيط كان إنسان المنطقة سباقا إلى الانتقال إليه من العصر الحجري القديم . فقد امتد تعاقب الطبقات الآثارية للعصر الحجري القديم في كهف

---

(1) المرجع نفسه ، ص 36 ــ 37 .

شانيدار الواقع في جبال زاغروس الشرقية حتى 8500سنة قبل الميــلاد ... وإن كافــة مواقعــه المكتشفة حتى الآن في العراق وإيران وحول بحر قزوين هي كهوف وملاجئ " بينما تتوافــق الفترة الواقعة بين 14000و 12000 سنة قبل الميلاد في سوريا الغربية من الناحية الزمنيــة مع صناعات أواخــر العصر الحجري القديم التي أعقبت أواخر حقبــة الأورانيسيان ، وتعرف تلك الفترة باسم الكيباريــان ، وهي تتميز بكــثرة الأدوات الصوانيــة الصغيرة الحجم ، أو بمهنة نصال السكاكين المطروقة وغير المطروقة ، فضــلا عن المثاقب الدقيقــة والقطع الحكيــة . ويعثر الأثريــون على هذه الأنواع في مختلف أرجاء سوريا الطبيعية مثل النقب ولبنان وضفاف الفرات" [1] وهذا يعــني أن إنســان سوريا القديم سبق غيره من سكان المنطقــة في الانتقال إلى العصر الحجري الوسيط بمــا يقرب من سبعة آلاف سنة .

وفي الوقت الذي كان إنسان المناطق الأخرى ما يزال يعيش في الكهوف ويقتات على ما تقدمــه له الطبيعــة من ثمار ونبات وصيد " ظهرت للوجود في حوالي 10000ق.م في غربي سوريا حضارة جديدة يطلــق عليها اسم الحضارة النطوفيــة ودامت حتى حــوالي 8300ق.م ، وتتمتع هذه الحضارة بأهمية كبيرة بالقيــاس لموضــوع الخــروج مــن الكهوف[2] إذ أنه ولأول مرة في تاريخ البشريــة ، ظهر في العصر النطوفي الاســتقرار ، كما ظهرت القرية ، وكلاهما كانا السبب في نشوء تحولات لا يمكن لغيرهما أن يحققها . وقد تجلت تلك التحولات في البلــوغ بالسكن إلى الكمال ، وفي قيام شكل جديد مــن أشكال الفعالية البشرية ، وقد تمثل هذا الشكل في ممارسة الإنسان للزراعة لأول مرة [3]
أما العصر الحجري الحديث فقد بدأه إنسان سوريا منذ 7000 سنة قبل الميلاد ، وهــذا أقدم من أي مكان آخر في العالم ، بل وإن إنسان منطقة الفرات بدأه منذ 9000 ســنة ق.م ، حيث اكتشفت أقدم قرى زراعية في العالم حتى الآن .

---

(1) الدكتور جاك كوفان ، ص18
(2) المصدر نفسه ،ص19
(3) المصدر نفسه ص 32 .

وما بين العصر الحجري الحديث وبدء التاريخ توجد مرحلة انتقالية اكتشفت بعض آثارها في حوض الفرات الأدنى ،منها منطقة "سومر " أو " شومرو " . وإذا لم يكن باستطاعة العلماء أن يبتوا في هوية إنسان المنطقة في هذه المرحلة التي دعيت بمرحلة فجر التاريخ لعدم توصلهم إلى الكتابة بعد ، وهوية الإنسان تحددها آثاره المكتوبة بالدرجة الأولى ، فإن مما لا شك فيه أن المرحلة التي تلت مرحلة فجر التاريخ ، وهي مرحلة بدء التاريخ ، كشفت عن وجود العرب السوريين بلهجتيهم الشرقية والغربية ، وهذا يعني أن التراكم الكمي السابق لإنسان المنطقة الذي أنتج ما عرف بالحضارة السومرية ثم الآكادية كان هو الحمل الذي حبلت به المنطقة لتنفرج عنه مع بدء التاريخ ـــ حضارة للإنسان العربي السوري السومري و الأكادي معا .

وحضارة فجر التاريخ إنما هي ـــ كما صوروها لنا ـــ مجموعة من العصور الحضارية التي أعطيت ـــ كالعادة ـــ أسماء المواقع المكتشفة ، وهي ما تزال تنتظر من يتصدى لدراستها بروح علمية وموضوعية جديدة يضعها في موقعها الصحيح بين شقيقاتها الأخريات التي ما زالت في طور الاكتشاف ، أو تنتظر دورها الطويل . ونحن حينما نقدم هذه " العصور " هنا كما اعتاد أن يقدمها الباحثون فليس لأننا نؤمن بصحة هذا الأمر ، بل لأن ذلك ـــ حتى في شكله الحالي ـــ لا يغير الهدف الذي نسعى إليه : وهو إبراز الأصالة الحضارية للمنطقة في كل أطرافها .

وهذه العصور هي :

عصر تل حسونة ـــ سامرا

عصر تل حلف .

عصر تل العبيد .

عصر أوروك .

عصر جمدة نصر .

بدء الكتابة .



عشتار الجبل يحرسها أسدان (كريت)



عشتار السيدة

عرشها الأسد رمز السيادة (فينيقيا)



السيدة العزى "إيزيس"

والطفل الإلهي



عشتار الأم السورية الكبرى في ميسينا



عشتار وتموز الطفل الإلهي

تــل حســونــة :

يقــع تل حسونة على بعد 36كم جنوب الموصل ، وقد نقب فيــــه عـــام 1943 ــ 1944 ، و وجد فيه أرضيات بيوت فـــلاحي العصر الحجري الحديث ، وبيوت سكنية شبيهة جدا ببيوت شمال العراق الحالية ، مصنوعة من الطوب ومفروشـــة أرضها بالطين والتبن ، وتحوي خوابي للحبوب مغروسة في أرض البيت ، وتنانير (جمع تنور) للخــبز ، وجرونا لدق الحبوب ، ومناجل صوانيـــة ، ومعـــاول حجرية ، وتماثيل بدائية الصنعة ، وجرارا كبيرة في البيوت تضم عظام أطفال ومعهم بعض الأوعية ، بينما عظام الكبار قد وضعت في الزوايا ، وأنـــواع الفخـــار المســـتوردة من شمال ســـوريا تمثــل مرحلــة حضارية واحدة تمتد من البحر الميت حتى نهر دجلة ، وأن دراســـة البقايـــا العظميـــة قد بينت نوعا واحدا من البشر في كل الهلال الخصيب .

وفي الطبقات العليا وجد نوع من الفخار وجد منه بكثرة في ســـامراء مدهون وعليـــه صور وهذا النوع محصور في شمال الجزيرة السورية .

فإذا كان كل من أور ، و كوبلاند ، وأورانش قد طرح النظريـــة القائلة " بأن بوتقـــة حضاريـــة وحيدة امتدت خـــلال الحقبة النطوفيـــة (10000 سنة ق.م) من النيـــل إلى الفرات بصرف النظر عن الخصائص الفردية التي جعلت للحضارة النطوفية سمـــات إقليمية متميزة " وقد اثبتها فيما بعد وأكدها الدكتور جاك كوفان[1] فإن حضارة فجـر التاريخ المكتشفة في تل حسونة تأتي هي الأخرى تعبيرا آخر في مرحلة أخرى عن وحـدة الحضارة التي تمتد من البحر الميت حتى نهر دجلة .

تــل حلــف :

قرب رأس العين في سوريا على الخابور . البيوت ما زالت من الطوب ، ولكن لأول مرة يظهر القرميد والمقابر وأدوات الزينة والأختام المسطحة وتماثيل من الفخار . وفخار تـــل

(1) الدكتور جاك كوفان ص21 .

حلف من نوعية جيدة جدا بلغت درجة من الكمال لم يزد عليها لا قبـــل ولا بعـــد . جدران الجرار رقيقة ، أشكالها متعددة ومزخرفـــة ، تلوينـــها ممتاز مع رسوم الزهـــور والطيور والحيوانات ورؤوس الثيران وهذا النوع من الفخار منتشر من كيليكيا في أقصى الغرب من سوريا حتى إيران .

تـــل العبيـــد :

يبدو أن حضارة تل حلف قد انتهت فجأة بعد قرون من وجودها ، وبرزت حضارة تل العبيد في الجنوب قرب أور كما في الشمال ، وكأن بلاد حوض الفرات قد توحـــدت حضاريا ، مع العلم أن النصف الجنوبي من العراق كان مسكونا في عصر تل حلـــف في مواقع أور و أريدو ، التي وجد فيها معابد و زقورة من عصر فجر التاريخ ، وفي ذلـــك دليل آخر على مسيرة الإنسان المتوازنة في كل أنحاء الوطن العربـــي السوري القديم مـــن " البحر الأعلى إلى البحر الأدنى " . فالمعابد متراكمة في 17 طبقة ، الثماني العليا منـــها تعاصـــر عصر تل العبيد و أوروك ، و هي دقيقـــة التصميم ، وأما معابـــد الطبقـــات السفلى فتتكون من غرف مربعة فيها مذابح مقابل المداخل مبنية من القرميد . و تعـــاصر تل حلف في الشمال . هذه الآثار تبين أن الحضارة العربية السورية التي عرفناها إنما هـــي حضارة عميقـــة الجذور عظيمة القدم في جنوب العراق ، وفخار تل العبيد من نوعيـــة جيدة ، دهانه غير لا مع وعليه بعض الطيور .

استعمل العبيديون القرميد في بعض البيوت ، ولكن وجد كوخ في أريدو من عصر تـــل العبيد مصنوع من الطين والقصب ، وأما معابد أريدو فكانت مبنية من الطوب ومؤلفـــة من غرفة مستطيلـــة تبنى في زواياها غرف صغيرة وفيها تمثال للإله ومذبـــح وطاولـــة تقدمات ، وكانت المعابد أهم الأبنية في قرى عصر تل العبيد . إن المدينـــة الســـومرية قد نمت حول المعبد وليس حول قصر أو قلعة . ومرحلة تل العبيد هي بـــدء الحضـــارة السومريـــة . إن ظاهرة كون المعبد هو المركز هي ظاهرة عامة لكل مدن سوريا القديمة.

بدء التـاريـخ :

يرجـــع أن عصري تل حسونة وتل حلف يشغلان الألف الخامس قبل الميلاد بينما عصر تل العبيد 4000 ـــ 3000 ق.م ، وعصـــر أوروك 3300 ـــ 3100ق.م و جمـــدة نصر 3100 ـــ 2800 ق.م .

في هذه الخمسمئة سنة الأخيرة تطورت الحضارة السومريـــة تطورا كبيرا جعل الشـــمال يتخلف عن الجنوب فتوسعت المدن حول المعابد ، وظهر التنظيم والسلطة الإدارية الـــتي تمكنت من حفر أقنيـــة الـــري وزيادة الإنتاج الزراعي ،وظهور الصناعـــات ، ودولاب الخزف ، والختم الاسطواني ، واختراع الكتابة قبل الألف الثالث قبل الميلاد ، كان هـذا التقدم نتيجة التطور الداخلي في الهلال الخصيب ، والسومريون جزء من شعبه الذي ظـل يشغله وليسوا نتاجا لهجمة غريبة . إن هذا التطور الذي دام آلافا من الســـنين ، كـــان يحدث نتيجـــة للعمليـــة التاريخيـــة ذلت القوانين الثابتة . وإذا كانت سوريا القديمـــة بأجمعها من " البحر الأدنى إلى البحر الأعلى " قد ثبت أنه كان يشغلها شعب واحد عبر التاريخ ، سباق إلى درجات التطور ، يتنافس كل جزء منه مع الآخر في أن يكـــون هو الشكل التعبيري الآتي لمرحلة من التطور جديدة ، فإن هذا الشعب ـــ كما ثبت للباحثين مؤخرا ـــ استطاع بمجموعه ، وفي كل مواقعه ، أن يكون تعبيرا حيا عن كل مرحلـــة متقدمة من مراحل التطور في التاريخ القديم .

أوروك :

تقـــع أطلال أوروك (الوركاء) ما بين بغداد والبصرة . كانت المدينة في القديم مكرســـة للإلهين " آنو" و" آنانا". وفي وسط المدينة حول زقورة من الطين يقع معبد " أي ـــ أنـــا " أي بيت الزوجة ، العروس ، وهو معبد أنانا أو عشتار السورية ، وفي جهة أخرى مـــن المدينة يقع معبد آنو . وقد كشفهما المنقبون الألمان عام 1928 ، وهندستهما مثل معبـد

تل العبيد في أريدو ، إلا أن مصاطبهما أعلى أو ربما هذا هو أساس الزقورة التي تميز معابد العصور التاريخية في الشرق السوري ، ونرى أن المصطبة في معبد أنو ترتفع 16 متراً فوق سطح السهل .وفي أعلاه " المعبد الأبيض " وعمره خمسة آلاف سنة .

في عصر أوروك حلت الأختام الاسطوانية تماماً مكان المسطحة ، وكانت تصنع من الأحجار الكريمة بطول 3 ـ 8سم ، مخروقة طولانياً ، و قد نقش عليها ما يمكن طبعه على ألواح الطين كالنباتات والحيوانات والصور الميثولوجية والمعارك والطقوس الدينية ، ويبدو الكهنة عراة فيها .

في عصر أوروك أيضا اخترع الدولاب والفيسفساء ، و فوق ذلك وجد في معبد " آي ـ آنا "في أوروك أول كتابة وكانت تصويرية ، هذه الكتابة التصويرية هي التي تطورت مع الزمن إلى الكتابة المسمارية ، إلى أن اختفت الصورة المقصودة فيها وأصبحت صوتية ، واكتملت في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد . وأقدم لغة كتبت هي اللغة العربية بلهجتها السريانية وبالرموز السومرية في الشرق والأمورية في الغرب في الألف الرابع قبل الميلاد .

جمدة نصر :

هذا آخر عصور فجر التاريخ وامتداد لحضارة أوروك بنفس المواضيع والصور والأختام ، إلا أن الكتابة أصبحت أكثر انتشاراً ، كما فقدت قيمتها التصويرية وأصبحت تعبر عن أصوات . وكان الدولاب والمحراث قد اخترعا سلفاً ، ولكن في هذه المرة ظهر فن النحت ، وبسرعة بلغ درجة عالية لإبراز عدة مظاهر من الحياة .

إن التقدم التكنيكي والفني والكتابي كله سوري كما يعتقد الكثيرون ، وإن الكتابة التصويرية السومرية قد سبقت مثيلتها المصرية [1] .

---

(1) انظر : هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى ص 136،104
و: ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 1ص182

كنا قد بينا أن الحضارة لا يمكن أن تنشأ دفعة واحدة ومن فراغ ، بل لا يمكن أن تحدث بصورة قفزة من الحياة البدوية الرعوية والتنقل ، إلى الدولاب والمحراث والكتابة دفعة واحدة . إن هذا لا بد وأن يجتاز زمنا طويلا من التدجين النفسي مع تدجين الحيوان ، والتطور العقلي مع زراعة الأرض وابتكار الأدوات اللازمة والرعي وجمع المحصول وتخزينه وإعداد القوت والغذاء الضروريين ونقلهما من مكان لآخر ، وحساب مواقيت الزراعة والجني ، وبالتالي الفصول .

وإذا كانت الزراعة ، في حد ذاتها عملا انقلابيا بالنسبة لتقدم الإنسان بعد تربية المواشي ، وبتطورها أخذ الإنسان يعيش في أكواخ مبنية من الطين أو في بيوت من اللبن ، ففي وسعنا القول بأن منطقة سوريا الطبيعية كلها من " البحر الأدنى إلى البحر الأعلى " كانت تسير في هذا المضمار على درجة واحدة من التطور تقريبا ، وقد سبقت جميع بقاع العالم الأخرى . وإذا كان الباحثون ـ كعادتهم ـ يركزون على كل بقعة يكتشفون فيها سوية حضارية جديدة على العلم ، فيجعلون منها مركزا لحضارة المنطقة كلها ، فقد ثبت لنا عدم جدوى مثل هذه النظرات المتسرعة إلى الأمور ، ولاسيما فإن عمليات التنقيب في المنطقة ما تزال في بدايتها ، وأن آلافا من التلال الاثارية ما تزال تملأ سهول سوريا كلها بانتظار من ينبري للكشف عن مخبوءاتها من أسرار الحضارة التي لا نشك في أنها لن تقل أهمية عن شقيقاتها في كل من ماري ، وأوغاريت ، وإيبلا، وبابل ، و أوروك ، و نيبور ، و غيرها ....

"لقد وجدت بقايا المساكن البدائية في أقدم الطبقات التي سكنها الإنسان في المدن السورية مثل أريحا ، وترجع إلى ما قبل 7000 ق.م وفي طبقات تل الجديدة * و رأس شمرا وجبيل التي أتت بعدها ، و لم توجد مساكن بشرية أقدم من هذه في أي مكان أخر. وقد يكون لأريحا أقدم تاريخ متواصل من أية مدينة أخرى في العالم ... وإن المناجل الصوانية وسائر الأدوات التي تركها النطوفيون بكميات كبيرة تظهر أنهم و معاصريهم في سوريا الشمالية كانوا أول من مارس شكلا من أشكال الزراعة في الشرق الأدنى ،

* في شمال سوريا ولا يزال اسمها القديم مجهولا

وكان الناس لا يزال أكثرهم من سكان الكهوف ويعيشون على الصيد البري وصيد الأسماك ، وبعضهم كانوا يعيشون على الرعي[1] ، وليس لدينا دليل على ممارسة أي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر البعيد ... ويبدو أن المهاجرين الساميين الأوائل إلى مصر إنما أتوا من سوريا وأدخلوا معهم القمح وزراعة الكرمة [2] ، والكلمة التي تعني القمح " قمحو gmhw وكذلك الكلمة التي تعني الكرمة " كرمو Krmu ــ في اللغة المصرية القديمة هي بلا ريب مشتقة من العربية وبالأخص من الكنعانية ، وتبدو صور المحاريث من بلاد بابل في سوريا ومن مصر متشابهة بشكل يلفت النظر" [3] .

ولقد كانت إحدى النتائج الهامة للحياة الجماعية المستقرة دونما شك ، أنها عملت بصورة قوية على تطور ملكات الانسان العقلية والابداعية نتيجة لما فرضته مجابهة التحديات اليومية في حياته الجديدة . وقد انعكس ذلك ــ وقبل كل شيء ــ على تطور اللغة كوسيلة للتفاهم بين الجماعات الكبيرة المستقرة ومناقشة التحديات والحلول المقترحة ، ومع زيادة وتائر العمل الذهني المجرد في السعي خلف إيجاد الحلول للمسائل اليومية التي تطرحها الحياة الجديدة جرى أيضا تطوير اللغة في هذا الاتجاه ، وأوجدت الكتابة التصويرية في البدء ، ثم كان لابد لها ، من أجل مواكبة سير الحياة ونقل التعبير عنها من مجموعة إلى أخرى ومن جيل إلى جيل ، من أن تتطور إلى مراحل أكثر تقدما: إلى الكتابة المقطعية ، ثم إلى الأبجدية الحرفية .

إن نظرة واحدة شاملة للوطن العربي السوري القديم من حدود الخليج وزاغروس مرورا بالفرات حتى مرسين ، وبلبنان وفلسطين إلى جنوب سينا ووادي النيل ، ترينا كيف أن هذه البقعة الحضارية المترامية كانت تسير بصورة متواكبة تقريبا . وإذا كان لا يمكن لأي اختراع قد يمثل قفزة حضارية لدى شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات أن يوجد في عقول الناس جميعا دفعة واحدة ، فإنه لابد من أن يجد مستوى التراكم الكمي الذي

---

(1) Strabo { Geography}BK.Xvii,ch s2.

(2) H.R.Hall, " The Ancient History of the Near East" ,8th ed , (NEW YORK),pp,89-90

(3) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 17

بلغه هذا الشعب متنفسا له بصورة تحول نوعي لدى فرد أو مجموعة أفراد ، إنه لابد من وجود العقل الاجتماعي الطليعي الذي يتمثل مستوى هذا التطور ويفسح له مسرب الخروج إلى الدرجة الأكثر تطورا .

وإذا كانت الكتابة التصويرية قد وجدت ربما لأول مرة على أيدي العرب السوريين في سومر فإن شكلا آخر موازيا لها ، إن لم يكن قد سبقها في الظهور ، من أشكال التعبير في الكتابة كان قد ظهر لدى أشقائهم التجار السوريين في الغرب والتي تعتبر أقدم الرموز التصويرية المعروفة لدينا . لقد اكتشفها فليندرز بتري على قطع الفخار وآنيته في سوريا ومصر وإسبانيا ولقد حدد عمرها بسبعة آلاف عام .

" وهذه الرموز الكتابية التي وجدت في حوض البحر المتوسط تبلغ ما يقرب من ثلاثمائة رمز ، معظمها متشابه في جميع الأرجاء ، مما يدل على علاقات تجارية قامت بين طرفي البحر الأبيض المتوسط في عهد يرجع في التاريخ إلى سنة 5000قبل الميلاد . و لم تكن الرموز صورا ، بل كان معظمها علامات تجارية ، علامات تدل على الملكية والكمية وغير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجاري .. و لم تكن العلامات حروفا ، لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة أو فكرة بأسرها ، ومع ذلك فمعظمها كان شديد الشبه بأحرف الهجاء الفينيقية " [1] .

ويستنتج فليندرز بتري من ذلك " أن مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئا فشيئا في العصور الأولى لأغراض شتى . فقد تبودلت مع التجارة وانتشرت من قطر إلى قطر .. حتى كتب النصر لتحو ستة رموز فأصبحت ملكا مشاعا لطائفة من هيئات التجارة ، بينما أخذت سائر الأشكال التي اقتصر استعمالها على قطر واحد دون بقية الأقطار ، تموت في عزلتها شيئا فشيئا " [2] وقد وضع الأستاذ بتري نظرية مبنية على أساس هذا الاكتشاف مفادها أن هذه العلامات الرمزية إنما هي أصل الأبجدية الفينيقية الأولى في العالم .

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء الأول ص 182 .

(2) المصدر نفسه

وليس الموضوع هنا أيهما أسبق ، كما قد يخطر لذهن القارئ لأول وهلة . إن كل ما نبغيه من هذا البحث هو العكس من ذلك تماما : إنه التركيز على المسيرة الحضارية المتوازية لشعب شغل هذه الأرض منذ آلاف السنين ، مما يدحض كل محاولات التشويه والتزوير المغرضة الرامية إلى جعل الشعب العربي شعبا بدويا متطفلا على حضارات غيره من الشعوب ، التي " تفضلت " بغزوه فانتزع منها حضارتها ، أرسلها إلى حيث جاءت وقد فقدت هذه الحضارة .

إن اختراع الكتابة في سومر العربية السورية هو شيء منطقي جدا ،كما أنه منطقي أيضا أن نكون قد عثرنا على أول كتابة في العالم في ماري أو إيبلا أو حلبو (حلب) أو أوغاريت أو صور ، أو صيدا ، أو جبيل ، أو سيناء ، أو دلتا النيل ...

ولما كنا لندهش من هذا قطعا ، لأن كلا منها لم تكن لتقل في ركضها الحضاري عن شقيقاتها . ويكفي أن نشير هنا إلى أنه إذا كانت أول كتابة تصويرية ومقطعية مكتشفة حتى الآن قد وجدت في سومر فإن أول تطوير لهذه الكتابة من المقطع إلى الحرف ، أي إلى اختراع أبجدية مبسطة للكتابة قدمت للعالم بأسره ، إنما جاءت على أيدي أشقاء السومريين في الغرب ـ على ايدي السوريين في أوغاريت وجبيل .

لقد أوجد العرب السوريون في أوغاريت أول أبجدية صوتية في العالم . وقد كتبوها بالخط المسماري . ثم إن أشقاءهم في جبيل توصلوا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى تطويرها وكتابتها بالعلامات التي هي الأبجدية الفينيقية الخالدة التي غطت العالم كله فيما بعد ، و أصبحت أم الأبجديات المستعملة في العالم أجمع .

إن منطق التاريخ والعلم الحديث يجعلنا ننظر من خلال ذلك إلى المنطقة نظرة حضارية شمولية متكاملة . فكما أن ابتكار الكتابة التصويرية لا يمكن أن يقوم به الشعب كله دفعة واحدة مثله مثل أي ابتكار آخر ، فإن تطوير هذه الكتابة إلى الأبجدية ، لا يمكن أن يقوم به الشعب أيضاً في كل مناطق إقامته دفعة واحدة كذلك . إن اختراع الكتابة التصويرية ثم المقطعية كان حدثاً هاماً نقل العالم إلى مرحلة جديدة في التاريخ لاشك ، لكن اختراع الأبجدية كان ، في حد ذاته ، ثورة ما يزال العالم كله يدين بها للعقل العربي

السوري . وإذا كانت منطقة سومر قد شهدت و ابدعت الخطوة الأولى فإن هذا لم يكن يعني ، في منطق العلم والتاريخ ، أن مناطق الوطن الأخرى كانت بعيدة عن إنجاز هـــذه الخطوة ، ثم لما تمكنت منطقة أخرى مثل فينيقيا أو ســـوريا الغربيـــة من إنجاز الخطـــوة التالية المتقدمة والأكثر إبهارا فإن في ذلك وحده دليلا كبيرا على أن مستوى هذه المناطق الأخرى كان مواكبا بل ومتقدما أحيانا لمسيرة سومر التي لم تخرج منها المرحلة الإبداعية التالية .

ونحن ، إذا كنا قد بينا السبق السوري الحضاري ككل لأية بقعة أخرى من العالم حينمـا تحدثنا عن الحضارة النطوفيـــة وحتى بدء التاريخ واختراع الكتابة ، فإننا لا نعني بذلـــك أن الأمر كان كذلك ليتوقف عند هذا الحد. وإذا كانت الزراعة تشكل انقلابا حقيقيـــا في حياة الشعوب ، وتنقلها إلى درجة من التطور هي ، في حد ذاتها ، ثورة كبرى تشمل قوى ووسائل الإنتاج والبنى الفوقية والتحتية معا ، وكذا كانت الكتابـة ، ثم اخـــتراع الأبجدية هما ، في الواقع ، ثورة أخرى لا تقل أهمية عن الانقلاب الزراعي . وإذا كـــان كل من هذا وذاك قد تم بصورة متوازية تقريبا على امتداد الوطن العربي السوري " مـــن البحر الأدنى إلى البحر الأعلى " كله ، فإن ذلك كان يدل بصورة لا تقبل الجدل ، على مسيرة الشعب الحضارية الواحدة ، وفي كل بقاع وطنه المترامية . ولو أن ذلك لم يحدث فعلا على أرض الواقع لوجدنا مبررا للآخرين الذين جعلوا دأبهم بذل الجـــهود المضنيـــة ودون جدوى من أجل الخروج بدليل واحد يؤكد أن هذه الحضارة إنما قد تكون وافـدة إلى هذه الأرض و لم تنبع منها ، بصرف النظر أكان ثمة بقعة أخرى في الجوار قادرة على أن تهبها مثل هذه الحضارة أم لا .

لذلك وقبل أن نترك هذا البحث إلى غيره ، لابد من أن نتابع بعـــض خطـــى الســـبق والإبداع الحضارية الشاملة للمنطقة بأسرها لنؤكد عملية التواصل التاريخية في حضارتنـا العربية السورية ، التي نبعت من أرضنا نحن وصنعها إنساننا نحن وحافظ عليها عبر آلاف السنين .

عصر المعدن :

بعد العصور الحجرية التي رأينا بعض ملامح السبق الحضاري العربي السوري فيها جاء عصر المعدن ، وبالأصح ما دعي بعصر النحاس . فلقد بدأت باكتشاف المعدن مرحلة جديدة هامة في تدرج الإنسان نحو الرقي حل فيها المعدن محل الحجارة كمادة رئيسية لصنع الأدوات . قد يكون هذا الاكتشاف قد حصل بعد اختراع الخزف بمدة وجيزة ، غير أن استعمال النحاس ، وهو أول المعادن ، على صورة واسعة قد تأخر غالبا . أما في سوريا ومنها فلسطين ، فقد أخذ الناس يستعملون المعدن بشكل متسع حوالي 4000 ق.م ولكنه لم يأخذ مكان الحجارة كمادة رئيسية لصنع الأدوات والأسلحة إلا بعد 3000ق.م ويمكن تسمية هذا الألف الرابع بالعصر النحاسي الحجري حيث كان النحاس يستعمل في الأوساط الراقية ، بينما كان الصوان لا يزال يشكل دون منازع المادة الرئيسية . وتكثر آثار الحضارة النحاسية الحجرية في أوغاريت وسائر المواقع في شمالي سوريا ، وفي تليلات الغسول (التي أتت منها أدوات تعد من أقدم الأدوات المعدنية التي اكتشفت حتى الآن) وسائر المراكز في فلسطين وفي حوالي 3000 ق.م يبدأ العصر النحاسي ويعم استخدام النحاس وكثيرا ما يدعى خطأ العصر البرونزي ...

" وتظل سوريا الشمالية في العصر النحاسي الحجري كما في العصر الحجري الحديث المركز الحضاري الرئيسي للشرق الأدنى بأسره .. وقد أصبح الإنسان ، بعد اكتشاف المعدن وإدراك خواصه ، على عتبة عصر جديد استمر حتى الأزمنة الحديثة . وأتى البرونز بعد النحاس ، ثم تبعه الحديد . وصادف بدء عصر البرونز اختراع الأبجدية ، وهكذا تنتهي حضارات سوريا السابقة لعصر الكتابة ، وتبدأ حضارة عصر التاريخ .

" وانتشرت معرفة النحاس من سوريا إلى جميع الجهات ، ومن المحتمل جدا أن تكون مصر قد تلقتها في عصر ما قبل السلالات من هذا المصدر عن طريق الغزوة السلمية[1] ، وكذلك يمكن أن تكون منطقة نينوى قد اكتسبت هذه المعرفة من جارتها في الغرب . وهكذا فإن الجسر السوري الذي يمتد فوق المنطقة الواقعة بين خليج اسكندرون ومنحنى

(1) أنظر Hall.p.90

الفرات يبرز في أهميته كمسرح لتدجين القمح واختراع الخزف واكتشاف المعدن"[1] .

" وفي نهاية الألف الرابع كان فن الطلاء الزجاجي قد وصل كريت في بدء العصر المينوسي ، ومصر في أول عصر السلالات من شمالي سوريا ، وتبدو الأواني المزخرفة بطلاء زجاجي حسب تقاليد سوريا الشمالية كمواد مستوردة في قبور الملوك الأولين في ابيدوس ، وقد أتت من تل الجديدة في شمالي سوريا مجموعة مختزنة من التماثيل النحاسية الصغيرة المصبوغة وبينها إله وإلاهة للخصب يعتقد أنها أول تمثيل معروف للشكل البشري بواسطة المعدن [2]

" وقد أدى نمو صنع المعادن والخزف الذي يتصف به أواخر العصر النحاسي الحجري وأوائل العصر النحاسي إلى ظهور حرف مختلفة وزيادة في العلاقات التجارية بين القرى والمدن . ونتج عن ذلك اختصاص أكثر في العمل ، وازدهرت مدن آهلة بالسكان في السهول والأودية وفي أماكن لم تكن مأهولة حتى ذلك الوقت ، وبدأت التجارة تتخذ شكلا دوليا ، وكان توسع الاتصالات التجارية والثقافية بين أجزاء سوريا من جهة ، وبين مصر من جهة أخرى ،عاملا أساسيا في حياة هذه البلاد في العصور التالية . وقد نشطت الحياة في جميع مظاهرها نشاطا عظيما "كما نشطت في العصور الحديثة بعد اكتشاف البخار والقدرة الكهربائية "[3].

ويقول ول ديورانت حول النحاس : " كان النحاس أول معدن يلين لاستخدام الإنسان فيما نعلم ، فنجده في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات من عهد ما قبل التاريخ ، ويرجع إلى سنة 4500 ق.م تقريبا ، ثم نجده في مقابر البداري في مصر ويرجع عهده إلى ما يقرب من سنة 4000 ق.م ، ونجده كذلك في آثار أور التي ترجع إلى سنة 3100ق.م ... فكان نقيا حينا ، مشوبا في معظم الأحيان ، ثم حدث بعد ذلك بزمن طويل ــ وربما كان ذلك حول سنة 3500ق.م ــ في المنطقة التي تحيط بالطرف الشرقي من البحر المتوسط أن وقع الناس على فن صهر المعادن واستخراجها من مناجمها ، ثم بدأوا

---

(1) الدكتور فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص24ــ 25

(2) المصدر السابق .

(3) المصدر السابق

في صبها نحو 1500ق.م ، فكانوا يصبون النحاس المصهور في إناء من الطين أو الرمل . ثم يتركونه يبرد على صورة يريدونها مثل رأس الرمح أو الفأس ، فلما أن كشف الإنسان عن هذه العملية في النحاس استخدمها في مجموعة منوعة من المعادن الأخرى ، وهذا وفر للإنسان من العناصر القوية ما استطاع به أن يبني أعظم ما يعرف من ضروب الصناعة ، وهيأ له فيما بعد الطريق إلى غزو الأرض والبحر والهواء . ومن الجائز أن تكون كثرة النحاس في شرقي البحر الأبيض المتوسط هي التي سببت قيام ثقافات جديدة قوية في الألف الرابع من السنين قبل الميلاد في عيلام وما بين النهرين ومصر ، ثم امتدت من هاتيك الأصقاع إلى سائر أجزاء المعمورة فبدلتها حالا بعد حال "[1] .

ومن الواضح أن ديورانت ـ كغيره ـ يدأب على استخدام التسميات العامة مثل " شرقي المتوسط " حينما يتعلق الأمر بحضارة سوريا ، وحينما يجد نفسه مضطرا إلى تحديد أكثر يهرب إلى استخدام البقع الضيقة كلا على حدة . لكن القارئ العربي يدرك أن المقصود بأرض الجزيرة هو شمال سوريا ومن المعروف لدى جميع المؤرخين أن السبق العربي السوري في صناعة المعادن كان لا يضاهيه شيء ، وقد تحدث عن ذلك كثير من المؤرخين ومن بينهم الدكتور فيليب حتي و شيفر و دانيل لوكينبيل . فقد كتب شيفر يقول : " وكان الكنعانيون* على الغالب ، لا يبارون في صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والأخير فقد كانوا يصنعون البرونز والنحاس بكثرة .

وقد اظهر التحليل الكيمياوي لنصل فأس من أوائل القرن الرابع عشر اكتشف في رأس شمرا ، ليس معرفة إذابة الحديد فحسب ، وإنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيج الفولاذ ، وكان هذا الأمر مجهولا حتى ذلك الوقت ، واهتم الكنعانيون بالبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسيا وعن القصدير لأجل مزجه مع النحاس لصنع البرونز ، وعن الذهب والفضة، ولذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم ، ووجدت صحون الفضة

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء الأول ص 178ـ 179

• يقصد بهم سكان سوريا الغربية بعد أن شاعت هذه التسمية اعتمادا على الجغرافيا التوراتية المزورة .

بين غنائم الفراعنة من سوريا ، واكتشف ميزان أحد الصاغة وأوزانه في رأس شمرا [1] . وتشيد أشعار هوميروس بصناعة المعدن و بالفنون الفينيقية ، وقد ذكرت أن صحنا من الفضة " عمله بدهاء الصيداويون الحاذقون في الصناعات اليدوية الدقيقة هو في جماله أحسن شيء من نوعه في العالم كله " [2] .

عصر الكتابة :

" والكنعانيون هم الذين اخترعوا السفينة ، واهتدوا إلى عمل الزجاج ، ووضعوا نظام الحساب ، وهم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط المسماري والهيروغليفي ، فلا غرو أن أصبح الخط الكنعاني أساسا لجميع خطوط العالم المتمدن في الشرق والغرب " [3]

" وأعظم عمل قام به الكنعانيون للحضارة هو اختراعهم الأبجدية الهجائية الذي يعتبر من أهم الاختراعات ، في تاريخ الحضارة البشرية ، ويتفق الباحثون عل أن أصل الحروف الهجائية في العالم بدأ في كتابات الأقوام السامية الغربية الذين تمتد مناطقهم من طور سيناء إلى أقصى حدود بلاد الشام شمالا وغربا ، إذ وجدت في هذه المناطق أنواع كثيرة من النقوش السامية بالحروف الأبجدية ، وقد حمل الآراميون فيما بعد الحروف الأبجدية من سواحل البحر المتوسط شرقا إلى آسيا حتى الهند ، كما نقلها الفينيقيون غربا إلى أوروبا ، وهكذا تغلبت الكتابة بالحروف الأبجدية على الكتابة بالمقاطع المسمارية التي كانت شائعة آنذاك " [4]

"وقد قلب اليونان اتجاه بعض الحروف لأنهم كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين ، ولكن حروفهم في جوهرها هي الحروف التي علمهم إياها الفينيقيون والتي علموها هم أوروبا،وهذه الرموز العجيبة هي بلا جدال أثمن ما ورثته الحضارة عن الأمم القديمة"[5].

---

(1) راجع : Schaeffer , Ugaritica,P,110.no2
(2) الياذة هوكيروس ، الكتاب 23، 740 ـ 745
(3) الدكتور ولنفسون ، " تاريخ اللغات السامية " ص 52
(4) الدكتور أحمد سوسة ،مفصل العرب واليهود في التاريخ ، ص 119ـ 120
(5) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء الثاني ص 316

وليس هذا فحسب ، فقد كانت صناعة الغـزل والنسيج من الصناعـات الاعتياديـة ومكانها المنـزل ،وقد وجدت آثار مغازل من الحجر والعظم وأثقال من الحجر والطـين لأجل الأنوال ، وترجع إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، ولاشك أن الصوف كـان أقدم المنسوجات ، وأدخل الكنعانيون القطن الذي أسماه اليونانيون " الصوف الفينيقـي " إلى بلاد اليونان ومعه اسـمه العربي السامي ، وكانوا ينتجون الكتان ، وكانت صناعـة استخراج نقط السائل القليلة من الحيوان الصدفي وتقطير الصباغ يتطلبان أعمالا واسـعة وصعبة وتراكما في المهارات مما جعل ثمنها مرتفعا جدا . وبما أن الأغنياء فقـط كـان بإمكانهم دفع ثمنها فقد أصبحت الثياب الأرجوانية اللون عنوان التفوق، وأدت فيما بعـد إلى التعبير المتعلق بالملوك " مولود في الأرجوان "[1] .

لم يكن السوريون أول أمة بحرية فحسب ، بل كانوا أول أمة في التاريخ تاجرت في الـبر والبحر ، وكانت محطاتهم التجارية في الداخل تضم أوديسا ونصيبين بحيث تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج (العربي)"[2] .

والفينيقيون حسب مروياتهم المتأخرة أتوا إلى ساحل سوريا بالأصل من منطقة الخليـج (العربي) حيث كانت لهم مدن تحمل الأسماء نفسها مثل أرواد وصور وصيدا [3] ".

إن الموقع الذي شغله عرب سـوريا منذ أقدم العصور وحتى اليوم ألقى على عاتقـهم مهمتين رئيسيتين : الأولى ــ تجسيد عبقرية الأمة العربيـة وإمكاناتها إنجازات وإبداعات حضارية على أرض الواقع ،حيث الشروط ملائمـة للاسـتقرار الزراعـي، والتفـوق التجاري، والإبداع الحضاري ، والثانية ــ إن وجود السوريين في هذه البقعة المترامية من شواطئ الخليج العربي وحدود وادي السند شرقـا ، إلى البحر الأعلى (الأسود) شمالا، إلى البحر المتوسـط غربا ، جعلهم في مهب جميع رياح وأعاصير الغزو الهمجي لـلأرض العربية التي كانت تأتيها في معظمها من الشرق والشمال والغرب ، فألقى على كاهلـهم مهمة الدفاع عن حياض هذه الأرض المترامية ، وأرغمهم على أن يعملوا بيد ويقـاتلوا

---

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 102
(2) المصدر السابق ص 107
(3) Strabo XVI,ch, &4

باليد الأخرى منذ بدء التاريخ جاعلين من أنفسهم المصد التاريخي ضد غـــزوات كـــل الشعوب والأقوام والأمم الجائحة والجائعة : فمن الأقوام والقبائل الهائمـــة المتوحشـــة كالغوتيين في الشرق والكاشيين في الشمال الشرقي ، والقبائل الهمجيـــة المسـقودية في الشمال ، إلى غزوات الفرنجة فيما بعد ، ثم المغول ، والتتار ، والأتـــراك ، والإنكليـــز والفرنسيين ، إلى الغزو الإمبريالي الصهيوني الحديث للأرض العربيـــة .

لقد شكل الوطن العربي السوري منذ بدايات تشكلـــه المصد الطبيعي عن باقي بقـــاع الوطن في شبه جزيرة العرب ومصر ، ولقد أكدت كل أحداث التاريخ أن وطنا عربيـــا ســوريا قويا منيعا في الشمال كان يعني استقرار ورخاء كل أطراف الوطن الأخرى من شــبه جزيرة العرب إلى مصر والشمال الأفـــريقي ، وأن ضعف الدولة العربية السورية وتفكك الوطن العربي السوري كان يتيح للغزو أن يخترق في العمق جنوبا حتى مصر التي لم يتمكن الغزاة ، الذين هم في معظمهم من شمالي الوطن العربي وشرقــه وغربه ، مـــن الوصول إليها إلا عبر الجسد العربي السوري .

ومن هنا فقد كان على هذا الشعب الذي شغل المنطقة الممتدة من الخليـــج العـــربي ، إلى البحر المتوسط ، أن يتفوق في مجالين العســـكري ، والبنـــاء الحضاري المادي والروحـــي معا . إن المسافات الشاسعة التي تتخللها البوادي ، والتي تفصل بعض بقاع هذا الوطـــن في الشرق عن بعضها الآخر في الغرب والجنوب ، في زمن كانت الجمال أو الحمير هـــي واسطة النقل الوحيدة عبر تلك البراري الشاسعة ، جعل مهمة إقامة دولة مركزية موحدة قوية والحفاظ عليها لفترة طويلة مهمة عسيرة وفي غاية الصعوبة . لذلك فقد كنا نـــرى ذلك التناوب الدائم بين قيام الدولة المركزيـــة الواحدة وبين تفككها إلى الدويـــلات ــ المدن يشكل ظاهرة عامة طبعت تاريخ المنطقـــة حتى كادت تصير ملازمـــة لـــه . إن وجود المنطقة على تخوم الأقوام الهمجية من الشمال والشرق حيث تؤمن لهـــم الجبـــال الوعرة والعميقة حماية طبيعية ، ينقضون فيدمرون ويقتلون راجعين إلى مكامنهم المنيعـــة خلف تلك الجبال يتربصون متحينين زمنا آخر ، وفرصة أخرى ، تضعف فيها أركـــان الدولة من أجل القيام بغزوة أخرى ، تدمر وتنهب كل شيء من جديد ، إن هذا الواقـــع

هو الذي ظل يواجهه عرب سوريا طيلة فترات تاريخهم الطويل ، ولما كان من المستحيل على أية دولة أن تبقي سكانها في حالة استنفار عسكري دائم من أجل صد مثل تلك الغزوات الكثيرة والمتكررة والتي تهب على المنطقة من جهات ثلاث فقد كان لابد للمنطقة من أن تشهد مراحل متناوبة من النهوض والسقوط ، من القوة والانحطاط . إلى هذه الظاهرة انتبه المؤرخ هنري فرنكفورت حيث كتب يقول :

" لقد كانت البلاد بلادا متحضرة ومزدهرة ، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية ، لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانية النهب الهين . وهكذا فقد تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد . حتى أنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الأشوري السنوي جبال أرمينيا ، ثم اتجاهه نحو الغرب ، محاولة سنوية منظمة مركزة لصد الجبليين عن حدود الدولة ، لأن إخضاعهم بصورة دائمة ، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى ودياهم البعيدة ، كان مستحيلا . ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة مركزية . لقد كان لابد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمواجهة العدوان هناك "[1] .

لكن ذلك لم يكن ليؤثر إطلاقا على بقاء الهوية الحضارية السائدة في كل أرجاء هذا الوطن من شرقه إلى غربه ، ومن شماله إلى جنوبه ، هي الهوية العربية التي لم يتمكن ذلك الغزو المتعاقب من أن يضعفها أو ينتقص منها أو يؤثر فيها .

لقد كانت مناطق هذا الوطن ، التي دعيت فيما بعد ، وبعد قيام الدولة المركزية ، بالمناطق الأربع تتنافس في عطاءاتها الحضارية العربية إبان تفكك الدولة ، كما تتنافس في إطار الدولة المركزية الواحدة دون أن يغير ذلك شيئا من هوية وطبيعة ذلك العطاء الذي أخذ يدحض ادعاءات بعض المؤرخين ويفشل مساعيهم في جعل كل منطقة من تلك المناطق الأربع تنتمي إلى عرق أو جنس أو شعب لا يمت الواحد منها إلى الآخر بصلة.

إن المناطق الأربع التي ألفت الوطن العربي السوري هي : الشمال أو الفرات الأعلى بدءا من منطقة بابل إلى شواطئ المضائق والبحر الأسود ، والجنوب التي تشمل من السواحل

---

(1) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة بين الشرق الأدنى ،ص94 .

الشرقية للبحر الأحمر وحدود اليمن حتى وادي النيل ، والشرق وهي إقليم سومر وعيلام (عربستان اليوم) والغرب وهي أرض الأموريين الذين دعي البحر المتوسط باسمهم "بحـر أمورو" طيلة العهد القديم سوريا المجوفة .

ما يقابله بالاكادية	الــرمز	الرمز الصوتي	ما يقابله بالاكادبة	الــرمز	الرمز الصوتي
A	𐎀	a		[illegible]	ẕ
BE	𐎁	b		𐎐	n
GA	𐎂	g		𐎑	ẓ
ḪA	𐎃	ḫ		𐎒	s
DI	𐎄	d		𐎓	c
Û	𐎅	h	(P)U	𐎔	p
WA	𐎆	w	ṢA	𐎕	ṣ
ZI	𐎇	z	QU	𐎖	q
KU	𐎈	ḥ	RA	𐎗	r
ṬI	𐎉	ṭ	ŠA	𐎘	ṯ
	𐎊	y	ḪA	[illegible]	ġ
	𐎋	k	TU	𐎚	t
	𐎌	š(ś)	I	𐎛	'i
	𐎍	l	Ú	𐎜	'u
	𐎎	m	ZU	𐎝	s̀

أبجدية أوغاريت

الفصل الثالث

الوطن العربي السوري

1ـ الجناح الشرقي

السومريون ـ عرب سوريون

بلاد ، سومر ، أو الأصح " شومر " هو الاسم القديم الذي أطلق على جنوب العــراق ، واسم " شومرو" كلمة عربيــة قديــمة ، وهي في القامــوس السرياني تعني المخلـص ، المنقــذ ، الشجاع ، وكتبت بالخط المسماري "جي أنجي" أي أرض المخلص ، المنجي . وسومر هي المنطقة الممتدة من بابل (جنوبي بغداد) إلى الخليج العربــي ، مساحتها تقدر بنحو 25ألف كم[2].تشكلت سهولها الخصبة من تراكم الطمي الذي حمله النهران دجلة والفرات عبر آلاف السنين . في القديم كان الخليج العربي يمتد شمالا حتى جنــوب أور ، وكان دجلة والفرات يصبان فيه من جانبيه كل على حدة ، وبالتالــي فلم يكن النهران يلتقيان ، ولم يكن المجرى المشترك الذي اسمه اليوم شط العرب . ومع مرور آلاف السنين تراكم الطمي والمواد اللحقية في منطقة مصب النهرين مما خلق سهلا جنوبيا تراجعــت أمامه مياه الخليج ، والتقى النهران قبل المصب .

سـومر عنـد صمـوئيـل كـريمـر :

في كتابــه " التاريخ يبدأ في سومر " يــؤكد المؤرخ صموئيل نوح كريمر العالم بالآثــار السومرية أن هناك عصرا حضاريا عربيا ــ إيرانيا سبق العصور السومرية ، وأن الوجــود العربــي كان متغلبا بلغتــه وقوتــه السياسيــة والعسكريــة فضــلا عـــن قابليتــه المتميزة للتفاعل والتعامل مع البيئــة الطبيعيــة والثقافيــة . وقد تولــد مـــن امــتزاج العنصرين ــ على حد زعم كريمر ــ إيرانيي الشرق وعرب الغـــرب ، ومـــن تلاقـــح

حضارتيهما ، حضارة مدينية شملت ، كالحضارة السومرية اللاحقة ، عددا من المدن التي كانت تتنازع السلطة باستمرار على البلاد بكاملها . ويبدو أن وحدة البلاد واستقرارها كان هدفا دائما لدى كثير من حكام المدن العربية آنذاك ، وقد تحقق مرات متعددة عبر القرون ، خلال مراحل قصيرة على الأقل . ولا ريب أن تلك الدولة التي كان يسيطر فيها العنصر العربي قد توصلت في تلك الأزمنة إلى ممارسة سيطرها الفعلية على كثير من المناطق المجاورة ، فأسست ما لا يستبعد أبداً عن أن يكون أول إمبراطورية في آسيا الغربية ، بل أول إمبراطورية في العالم . وطبيعي ألا يصلنا شيء عن مستوى تلك الدولة الثقافي إذ أن الكتابة لم تكن قد وجدت بعد .

يضيف كريمر : " أما الأراضي التي تمكنت هذه الإمبراطورية أحيانا من السيطرة عليها ثقافيا وسياسيا في آن واحد ، فكانت تشمل ضمن ما تشمل أطراف المرتفعات الإيرانية الغربية ، تلك المنطقة التي سميت عيلام فيما بعد . وفي أثناء هذا التوسع والحروب التي رافقته اصطدم سكان وادي الرافدين للمرة الأولى بالسومريين ، هذا الشعب البدائي ، أو المحتمل أن يكون بدويا ، قد يكون أتى من وراء القفقاس أو بحر قزوين ، كان يضغط على المناطق الإيرانية الغربية ، وكان سكان وادي الرافدين يراقبون هذا الضغط إذ كان عليهم أن يدافعوا عن تلك المناطق بكل ثمن ، لأنها كانت تكون دويلات فواصل بين إمبراطوريتهم وبلدان البرابرة .

في المعارك الأولى لم يكن على جيوش وادي الرافدين المتفوقة عسكريا أن تجهد نفسها كثيرا لتتغلب على القبائل السومرية ، لكن لم يكن هناك بد لهذه القبائل البدائية السريعة التحرك من أن تتوصل أخيرا إلى التفوق على خصومها الحضريين والأكثر تمدنا منها . وقد توصل المحاربون السومريون كمرتزقة في جيوشها ، إلى أن يقتبسوا عن غالبيهم مقومات الفن العسكري الذي يفتقرون إليه . وعندما ضعفت إمبراطورية وادي الرافدين وتزعزعت ، اجتاز السومريون الدويلات ــ الفواصل في إيران الغربية واجتاحوا وادي الرافدين الأسفل ، وصاروا أسياده .

خلاصة ذلك هي أن مرحلة العراق الما قبل سومرية بدأت بحضارة زراعية وقروية حملها الإيرانيون ، ثم مرت في مرحلة وسطية بعد نزوح العرب واجتياحهم ، وبلغت ذروتها في أثناء مرحلة من الحضارة المدينية ، تغلب فيها العرب ، على الأرجح ، وقد أدت هذه *المرحلة إلى إقامة إمبراطورية خربتها القبائل السومرية "*[1] .

إن هذا النص الذي نقتطفه من كتاب صموئيل كريمر " التاريخ يبدأ في سومر " هو ــ لاشك ــ نص مثالي ونموذجي لما يمكن أن يكتبه جهابذة التاريخ من خلف الحدود ، ويتلقفه كثير من " أساتذتنا " دون أن يجهدوا أنفسهم في التوقف لحظة عند تناقضاته ومغالطاته الصارخة .

ولقد اخترنا نصا لصموئيل كريمر بالذات لأنه يعتبر أبا في التاريخ عن "السومريات". فلنتوقف إذن مع كريمر عند هذا النص قليلا ، لنرى ماذا يمكن أن نستخلص من نتائج :

1ــ يعترف كريمر صراحة بقيام ما أسماه " إمبراطورية عربية " قبل المرحلة السومرية في بداية النص ، إذ يتحدث عن توسع هذه الإمبراطورية السياسي والثقافي ، وفي نهايته إذ يقول إن القبائل (السومرية) هي التي خربتها . وفي هذا الاعتراف تبرز ــ لا شك ــ عدة حقائق كبيرة وهامة لا يمكن المرور بها مرور الجانب :

فالحقيقة الأولى هي أن التواجد العربي كان تواجدا كبيرا ، وحقيقيا ، وحضاريا ، ووحيدا بفعاليته على الأرض العربية قبل المرحلة السومرية بزمن طويل ، أي قبل الألف الخامس قبل الميلاد ، وهذا الوجود كان يعبر عن نفسه بوجود دولة عربية أسماها كريمر " إمبراطورية ". إنه لمن المعروف أن الدولة الإمبراطورية تعتبر مرحلة من أكثر المراحل تقدما في الأشكال القديمة للدولة التي مرت بها الشعوب . إذ على هذه الشعوب التي تطمح إلى بناء الدول أو الإمبراطوريات أن تتجاوز حواجز كثيرة وصعبة في طريقها إلى تحقيق هذا الهدف . إن عليها أن تسلك طريقا طويلا وشاقا ، بدءا من مرحلة الانتقال من البداوة ، إلى الاستقرار والزراعة وبناء المدن والأرياف ، إلى تكوين الدويلة ــ المدينة الإقطاعية ، إلى ضرب نظام الدويلات المدن ومؤسساتها الإقطاعية الضيقة ، وإقامة

(1) صموئيل كريمر " التاريخ يبدأ في سومر " ص 268

الوحدة السياسية والثقافية ، التي تتطلب بدورها ، وجود مؤسسات أخرى قوية ومتطورة وقادرة على ضرب أجهزة الأمراء الإقطاعيين وحكام الدويلات ـ المدن الانفصالية ، وفرض مؤسسات الدولة الجديدة المركزية الموحدة بكل مؤسساتها الجديدة . وإذا ما سلمنا ـ جدلا ـ بتسمية كريمر " الإمبراطورية " فإن هذا يعني أن مرحلة أخرى من التوسع الإقليمي قد حدثت ، وهذا يتطلب ، بالطبع ، توفر إمكانات اخرى لدى الدولة المركزية . وإذا ما تذكرنا أن مثل هذه المسيرة التي تبدأ من مرحلة التخلي عن حياة البدو والتنقل ، إلى مرحلة الاستقرار والعمل في زراعة الأرض ، وبناء المدن والقرى ، وإقامة المدن ـ الدويلات ، ثم الدولة المركزية الواحدة ، ثم "الإمبراطورية " على حد تعبير كريمر ، إنما تتطلب قرونا طويلة جدا ، بل وآلافا من السنين بوتيرة تطور ذلك الزمان ، فإن هذا يعني أن الوجود العربي على شواطئ دجلة والفرات العليا والدنيا إنما هو وجود موغل في أعماق الزمن السحيق دون أن تبدو لبداياته بداية .

2 ـ إن هذه الحقيقة هي التي كان من المفروض أن تثير لدى المؤرخين الخيال العلمي من أجل وضع الفرضيات المعقولة من التاريخ المدون والآثار التي تكتشف يوما بعد يوم ، والعمل على محاولة إثباتها من خلال عمليات الاستكشاف الآثارية في مناخ من التجرد النزيه الخالص من أية نزعة تعصبية ضد العرب . بينما الذي نراه أمامنا هو انسياق كثير من المؤرخين خلف فرضيات عجيبة مفادها أن العرب قوم من البدو ، موطنهم صحراء الجزيرة العربية ، وأنهم اغتصبوا هذه المناطق الحضارية الهائلة في موجات متعاقبة ، ثم تبنوها لأنفسهم ، وإن على المؤرخين أن يكشفوا النقاب عن حقيقة تلك " الأمم " الحضارية التي أعطت البشرية وعلمتها وأرضعتها لبن الحضارة الأولى . ولو خلصت النيات منذ البداية في دراسة هذا التاريخ لما وقعنا اليوم على مثل هذا الركام المتناقض الذي ما انفك يؤثر سلبا بدرجة مخيفة على التكون الفكري والعقائدي لأجيالنا العربية الصاعدة .

3 ـ إن مما يدهشنا حقا هو أن نرى إلى عالم ومؤرخ كبير مثل صموئيل كريمر يضع نفسه في مشادة حقيقة مع المكتشفات الآثارية ما تلبث أن تنعكس تناقضات تنزل

بصاحبها إلى أدنى الدرجات في سلم البحث العلمي . إن كريمر الذي اعتبر أكبر المتخصصين بالمرحلة السومرية يبدو وكأنه يقف في خندق آخر سلفاً لكل ما قد تأتي به المكتشفات ، ثم ما أن تخرج هذه المكتشفات لتمثل أمام ناظريه وتجعل الأساس الذي كان يقف عليه ينهار حتى يتشبث بأمر آخر ، بفرضية أخرى أوهى خيطاً من الأولى .

فهو ما أن أظهرت الاكتشافات اللغوية بعض الآثار التي " لا تشبه السامية " في حوض الفرات الأسفل حتى هتف هاتف في أعماقه ، كاد يطغى على هتاف أرخميدس في حمّامه، واستبشر خيراً عميقاً ، إذ أن مثل هذه المكتشفات لابد وأن تحسم الأمر ، وتقرر نهائياً للباحثين جميعاً بأن العرب أمة من البدو لم ينتجوا حضارة ، بل اقتاتوا على حضارات غيرهم من الشعوب ،وأن مهد الحضارة لا شك سومر ،طالما أنه اكتشف آثار لغة هناك ليس لها أية علاقة بالسامية ، وأن السومريين ، لاشك ، من الشعوب " الآرية " وأن " التاريخ يبدأ من سومر " .

وقد غفل عالم السومريات ، أو تغافل عن كون " سومر " لفظة عربية ظلت تحافظ على مجموعة كبيرة من الاشتقاقات حتى يومنا هذا . وإذا كان الإبدال بين السين والشين من الأمور الاعتيادية والمألوفة جداً في اللسان العربي بين لهجة وأخرى فإن السومرية والشومرية كتسمية أيضاً لا تزال تحافظ على وجودها حتى اليوم .

إن من يعدّ من واحد إلى العشرة بالآرامية (السريانية) أو الكنعانية مثلاً يجد أن كل سين في العربية الفصحى تقابلها " شين " هناك وكل شين أبدلت سيناً وكلمة " سلام " مثلاً هي " شلام " أو " شلومو " والأمثلة لا تحصى .

وإننا نجد اليوم الأغلبية الساحقة من قرانا ومدننا ومناطقنا وجبالنا قد حافظت على أسمائها العربية القديمة و لم يشذ في ذلك جبل عمور وجبل الشومرية المحافظين حتى اليوم على اسميهما في القطر العربي السوري[1] .

وأن ما حسبه كريمر وغيره لغة أخرى غريبة عن المنطقة لم تكن سوى الكتابة " الشيفرة" التي ابتدعها رجال المعبد السومريون المشرفون على عمليات الإنتاج من أجل

---

(1) انظر كتاب " عشائر الشام " لأحمد وصفي زكريا ص 446،378، 520،408،452

تسجيل حساباتهم اليومية وتلاوة صلواتهم بصورة جعلتهم مميزين عن بقية أفراد الشعب ، (ونحن سوف نفرد لذلك بحثا خاصا عند حديثنا عن اللغة والكتابة) .

إن العثور على بعض التماثيل القليلة أو النادرة ذات التقاطيع غير الواقعية لم يكن مبررا لجعل أول حضارة من نوعها في العالم هجينة .وبرزت الحضارة السومرية على حقيقتها عربية الوجه والمضمون . فالآلهة ، والطقوس والعبادات والتقاليد والقوانين والشرائع وأسماء الكهنة والملوك والأشخاص والمدن والأنهار والكتاب والأساطير والقصائد ...إنما كانت جميعا استمرارا لحضارة عربية وحلقة في سلسلة التواصل الحضاري العربي لما جاء بعدها دونما أي انقطاع .

4 ـ يصر كريمر على إلصاق التسمية " السومرية " بتلك القبائل البدائية الغازية بعد أن ينتزعها (أي التسمية) من أصحابها الأصليين الذين يسميهم " سكان الرافدين " فيعكس بذلك الصورة ليترك القارئ في حيرة أمام اسم هؤلاء السكان تاركا المجال لكل الاحتمالات ، كما يترك الباب مفتوحا لأي باحث آخر في أن يسمي سكان الرافدين بالاسم الذي يريد غير اسمهم الحقيقي . وأما تلك القبائل البدوية التي لا يعرف كريمر أو غيره لها إسما أو موطنا والتي يقول عنها بالحرف : " هذا الشعب البدائي ، أو المحتمل أن يكون بدائيا ، قد يكون اتى من وراء القفقاس أو بحر قزوين " فقد خلع عليها الاسم العربي لبعض سكان الرافدين إمعانا في التشويه ورغم أنف كل الحقائق العلمية والتاريخية الموضوعية . فطالما أن المكتشفات الآثارية قد كشفت حضارة عربية سورية عريقة في سومر أرفع شانا من أية حضارة أخرى في كل المجالات ، وقد تخللتها " لغة عربية " في بعض المواقع وبعض اللقى والتماثيل* ذات السحن المختلفة فقد كان لابد من تهريب هذه الحضارة من خزائن التاريخ العربي وإلقائها لأي شعب كان ، بصرف النظر عن التناقض الحاصل من جراء هذا التزوير والتشويه المقصودين . فلا بأس من تهريب هذه الحضارة إلى أي شعب آخر خارج المنطقة العربية ... لكن استمرار المكتشفات وتتالي

* عثر على رأس من الاسفلت في مدينة " سوسة " عاصمة عيلام ، قيل إنه لا يشبه الساميين ، فاتخذه كثير من المؤرخين والدارسين ذريعة لربط حضارة المنطقة بشعوب غريبة عنها (انظر ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء 2 ص 15

أعمال التنقيب ما لبث أن أظهر الحضارة العربية السومرية كجزء لا ينفصل من التاريخ العربي السوري ، كما أظهر حقيقة تلك القبائل الهمجية البدوية الغازية التي استطاعت أن تدمر وتخرب وتسيطر على بعض المدن السومرية ردحا من الزمن ، ما لبثت فيما بعد أن طردت على أيدي أبناء البلاد الأصليين دون أن تترك أي ما من شأنه أن يدل على معالم حضارية غريبة عن المنطقة شكلا ومضمونا . وعادت سومر وأكاد أرضا عربية يحميها الحاكم العربي ويشملها بتشريعاته المتقدمة ويحملها في قلبه : " أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكاد ، وبحكمتي قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة ..... " (حمورابي)

5 ـ إن كريمر لم يسعه أن يهرب من الاعتراف بهمجية تلك القبائل الغازية القادمة من الشمال وبدائيتها وسلوكها التخريبي المدمر للحضارة القائمة في المنطقة ، ثم لا يتورع ولا يتردد ، في الوقت ذاته ، في أن يخلع عليها التسمية السومرية .

فهو يقول :

" في أثناء التوسع والحروب التي رافقته (التوسع العربي) اصطدم سكان وادي الرافدين للمرة الأولى بالسومريين : هذا الشعب البدائي ، أو المحتمل أن يكون بدويا قد يكون أتى من وراء القفقاس أو بحر قزوين ..." ، وفي مكان آخر من النص نفسه نقرأ :

" وفي المعارك الأولى لم يكن على جيوش وادي الرافدين المتفوقة عسكريا أن تجهد نفسها كثيرا لتتغلب على القبائل السومرية ، ولكن لم يكن هناك بد لهذه القبائل البدائية السريعة التحرك من أن تتوصل أخيرا إلى التفوق على خصومها الحضريين والأكثر تمدنا منها . فقد توصل المحاربون السومريون الذين كانوا يقيمون في مدن وادي الرافدين كرهائن ، أو الذين كانوا يخدمون كمرتزقة في جيوشها ، إلى أن يقتبسوا عن غالبيهم مقومات الفن العسكري الذي كانوا يفتقرون إليه .وعندما ضعفت إمبراطورية وادي الرافدين وتزعزعت ، اجتاز السومريون الدويلات ـ الفواصل في إيران الغربية واجتاحوا وادي الرافدين الأسفل وصاروا أسياده " . إن صموئيل كريمر لم يفته التعرف على حقيقة تلك القبائل الهمجية ، كما لم يفته التعرف على الواقع الحضاري لسكان المنطقة الأصليين ،

وقد ذكر ذلك كله بكل صراحة ، وكما دلت عليه كل المكتشفات الاثارية ،وإن صموئيل كريمر يعرف ، كما يعرف غيره بالطبع ، أن الحضارة هي للسكان الأصليين في كل مجالاتها ، وأن البداوة والهمجية هي للأقوام الغازية الوافدة ،وأن المرحلة الحضارية العربية إنما هي مرحلة سومر نسبة إلى الشعب العربي الذي خرج من قاع الخليج بفعل تقدم مياه البحر وسكن منطقة سومر ، كما أن المرحلة الأكادية بعدها هي منسوبة إلى الشعب العربي السوري وللمدينة العاصمة أغادة " أكاد " ، كما أن المرحلة البابلية إنما هي الحضارة العربية السورية البابلية حينما صارت بابل العاصمة ، فالحضارة إذن هي عربية سورية ، والشعب الحضاري هو الشعب العربي الأصلي المقيم في المنطقة منذ آلاف السنين ، والبدائية هي صفة تلك القبائل التي غزت حضارة المنطقة منذ آلاف السنين وليسوا سومريين ، فكيف يوفق كريمر ، إذن ، بين الحضارة السومرية الرائعة ، وبين تلك القبائل الهمجية التي دعاها بالسومرية والتي غزت المنطقة ودمرت حضارتها وإمبراطوريتها ثم دحرت دون أن تبقي ما يدل عليها سوى بعض الأسماء الغريبة !

كيف تكون الحضارة سومرية والهمجية سومرية في آن معا ؟ ثم كيف يتخلى سكان المنطقة لأول مرة عن اسمهم ، فيبحث كريمر وأمثاله لهم عن اسم ولا يجد ؟ كيف ركبت مثل هذه المعادلة : المنطقة الحضارية منطقة الرافدين والسكان الحضاريون سكان الرافدين ، القبائل الغازية قبائل بدوية همجية متخلفة مخربة ، الحضارة القائمة هي سومرية ، والقبائل البدائية الغازية المدمرة للحضارة سومرية ! كيف جمعت الحضارة والهمجية على جسد واحد هو جسد القبيلة البدائية ، بينما يبقى الشعب الحضاري المعترف له بالحضارة ، وبأنه المتقدم والمتحضر ، بلا حضارة وبلا اسم ؟ الجواب بكل بساطة : لقد خلعوا عن الشعب العربي السوري ثوبه وألبسوه للقبائل الهمجية فنتج مثل هذا الاختلاط الذي لا يدين أحدا غير كريمر وأمثاله من الباحثين . فها هو ول ديورانت في كتابه "قصة الحضارة" حول السومريين ، يقول :

" وليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء من بحوث أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينتمي هؤلاء السومريون أو أي طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر

(لاحظ المفارقة : إنهم سومريون ودخلوا بلا سومر!) ومن يدري ، لعلهم جاؤوا من آسيا الوسطى ، أو من بلاد القفقاس أو من أرمينيا ، واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متبعين في سيرهم مجريي دجلة والفرات ... أو لعلهم جاؤوا من السوس حيث يوجد بين آثاره رأس من الإسفلت فيه خواص الجنس السومري ، بل إن في وسعنا أن نذهب إلى أبعد من هذا كله فنقول إنهم قد يكونون من أصل مغولي قديم موغل في القدم ، ذلك بأن في لغتهم كثيرا من التراكيب الشبيهة بلسان المغول .

وتدل آثارهم على أنهم كانوا قصار القامة ممتلئي الجسم ، لهم أنوف شم مصفحة ليست كأنوف الأجناس السامية ، وجباه منحدرة قليلا إلى الوراء وعيون مائلة إلى أسفل ، وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الغنم ومن الصوف الرفيع "(1) .

وكان حسب ول ديورانت أن يحذف كلمة " السومريين" من قوله ليصبح صحيحا لا ثغرة فيه ولا تناقض .

إن كل من يقرأ هذا الوصف لن يتردد في الحكم فورا على وصف لقبائل رعوية بدائية هائمة ، هي أقرب ما تكون إلى قبائل المغول ، وأبعد ما تكون عن الحضارة ، سلكت إلى المنطقة العربية السومرية طريقا غير معروف قد يكون ذلك نتيجة لتحوالها الرعوي وتسللها البطئ ، وتربصها لفترة ضعف معينة ألمت بجسم الدولة العربية الحضارية آنذاك. وهذا ما أكده صموئيل كريمر نفسه ، تماما كما فعل أحفادهم فيما بعد إبان انحلال الدول العربية في أواخر حكم بني العباس وتسلل العناصر التركية إلى داخل الدولة . وكما أن قبائل المغول التي انقضت على الدولة العربية العباسية في فترة ضعفها وقوضت بنيانها دون أن تترك في طريقها ما يدل على أية علائم غير آثار الدمار ، فإنه في إمكاننا أن نتصور غياب كل الآثار في الطرقات التي سلكتها تلك القبائل إلى منطقة الرافدين ، وغياب أية علائم حضارية تركتها في المنطقة يمكن أن تدل على ملامح حضارية معينة قدمت من خلف جبال الشمال غير الدمار الذي ألحقوه بالمدن ولاسيما أور و لغش ، لغش هذه التي شهدت أول ثورة شعبية ديمقراطية في العالم على يد ملكها الثائر العظيم

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة الجزء 2 ص15

أور كاجينا . لقد أصدر هذا الملك الثائر المراسيم التي تحرم استغلال الأغنياء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس ، ويقول ول ديورانت عنه " وكان مما يباهي به الملك أنه وهب شعبه الحرية وما من شك في أن الألواح التي سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة في التاريخ وأقلها ألفاظا وأكثرها عدلا " [1] .

أما أور فقد كانت في هذه الأثناء تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهارا امتد من عام 3500ق.م إلى عام 700ق.م وأخضع أعظم ملوكها أور ــ أنجور جميع بلاد آسيا الغربية ونشر فيها لواء السلام ، وأعلن في جميع الدولة السورية السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون في تاريخ العالم وفي ذلك يقول : "لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمش الصالحة العادلة " . ولما زادت ثروة أور بفضل التجارة التي انصبت إليها صبأ عن طريق نهر الفرات فعل فيها ما فعل بركليز بأثينا من بعده فشرع يجملها بإنشاء الهياكل ، وأقام فيها وفي غيرها من المدائن الخاضعة له أمثال لارسا و أورك ونيبور كثيرا من الأبنية . وواصل ابنه دنجي طوال حكمه أعمال أبيه ، وحكم البلاد حكما عادلا حكيما عادلا جعل رعاياه يتخذونه من بعد موته ربا ويصفونه بأنه الرب الذي أعاد إليهم جنتهم القديمة .

لكن سرعان ما أخذ هذا المجد يزول ، فقد انقض على أور التي كانت تنعم وقتئذ بالرخاء والدعة والسلم أهل عيلام* ذوو الروح الحربية من الشرق ... وأسروا ملكها ونهبوها ودمروها شر تدمير[2] وأنشأ شعراء أور القصائد التي يندبون فيها انتهاك تمثال أمهم عشتار الربة المحبوبة التي انتزعها من ضريحها الغزاة الآثمون ... يقول الشاعر السومري :

لقد انتهك العدو حرمتي بيديه النجستين

انتهكت يداه حرمتي وقضي علي من شدة الفزع

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة الجزء 8 ص17

• كان الأجدر به أن يقول : الغزاة القادمون من الشرق بعد أن دمروا عيلام ، إنهم هم الذين اجتاحوا أور وليس أهل عيلام .

(2) المصدر نفسه ص 21 .

آه ، ما أتعس حظي ! إن هذا العدو لم يظهر لي شيئا من الاحترام

بل جردني من ثيابي وألبسها زوجته هو

وانتزع مني حليي وزين بها أخته

وأنا (الآن) أسيرة في قصوره ـــ فقد أخذ يبحث عني

في ضريحي ـــ واحسرتاه ، لقد كنت أرتجف من هول اليوم الذي أخرج فيه

فقد أخذ يطاردني في هيكلي ، وقذف الرعب في قلبي

هناك بين جدران بيتي ، وكنت كالحمامة ترفرف ثم تحط

على رافدة ، أو كالبومة الصغيرة اختبأت في كهف

وأخذ يطاردني في مدينتي كما يطارد الطير

طاردني من مدينتي كما يطارد الطير وأنا أتحسر وأنادي

" إن هيكلي من خلفي ، ما أبعد المسافة بينه وبيني " [1]

إن ول ديورانت يتفق ،إذن ـــ كما تبين لنا من وصفه للسومريين ـــ مع صموئيل كريمر بأنهم قوم همج جفاة مخربــون للحضارة ، ويـــرجح انتماءهم إلى أصول قبلية مغوليـــة ، لكنه يقع معه في الخطأ ذاته إذ يلصق اسم " السومريين " بتلك القبائل الهمجيـــة بينمـــا السومريون عرب سوريون من منطقة قاع الخليج ، وتسميتهم تسمية عربية ، والحضـارة حضارة عربية أيضا ، والأرض هي أرض سومر وأكاد العربية ، وإن المؤرخين كليـــهما يتفقان على همجيـــة تلك القبائــل الوافـــدة ، فكيف يصح بعد ذلك إلصاق ما دعـــي بـــ " الحضارة السومرية " الرفيعة بهم ؟

ولابد أخيرا من أن نذكر بأن تسميات المنطقـــة بمدنها وقراها إنما هي تسميات عربيـــة لا يجادل فيها أحد . إن أور تعني المغارة المقدسة والمدينة ، كما تعني النور باللهجات العربية القديمة التي أمتدت إلى شطآن المتوسط غربا . وإن أوروك أو " أورروخ " أو الوركـــاء ، تعني الشرف والسمو ، وأن أريحا تعني الاستراحـــة وإن " نيبور " تعني الوفرة والخصـــب وهي في الأصل " نيفر " .

---

(1) Wooley ,140 ; Maspero, " Dawn of Civilizatiom " ,P.637

أما أريدو " وجدة نصر " فلا حاجة للإشارة إلى اشتقاقها الواضح وقد استمرت صيغة " نصر " في أسماء الملوك العرب السوريين حتى ما قبل الميلاد بقرون قليلة ، وجميع هذه المدن عربية سورية موجودة قبل صعود سكان قاع الخليج إلى المنطقة نتيجة لتقدم مياه البحر وغمرها لأراضيهم هناك .

سومر في المصادر العربية القديمة

لنأخذ مدونات السومريين أنفسهم في قصصهم واساطيرهم

1ـ لقد عثر بين الألواح السومرية على لوحة تصف الفردوس وكمال البدء لما كانت السعادة كاملة غير منقوصة ، يوم كان البشر يعيشون بلا كد ولا كفاح أو جهد ، وقبل سقوط الإنسان . إن تلك اللوحة تصف تلك الفترة من الرخاء الأول والسعادة المطلقة في واحد وعشرين خطا قبل أن تغضب الآلهة على البشر ، وتنزل بهم عقابها العظيم المدمر الذي تمثل بالطوفان . لنقرأ مضمون اللوحة :

في غابر الزمان لم يكن ثمة حية ولا عقرب
لم يكن ثمة ضبع ولا أسد
لم يكن ثمة كلب متوحش ولا كان ذئب
لم يكن هناك خوف ولا إرهاب
و لم يكن للإنسان منافس
في غابر الزمان كانت بلاد " شوفور " و" همازي "
وبلاد سومر المتعددة الألسن
البلاد العظيمة ذات النواميس الإلهية الخاصة بالإمارة .
وبلاد أوري التي حوت على كل ما هو لائق
وبلاد مارتو[1] كانت آمنة مطمئنة

(1) مارتو هو الاسم الآخر لسوريا الغربية ، وتعني بلاد السيدة ، وهي مرادفة لـ " سوريا " التي تعني أيضا السيدة .فكما أن "مرت" و"مارتا" هما مؤنث "مار" بمعنى السيد ، فإن "سارة"

وجميع الكون والبشر في وحدة وإلفة

يمجدون الرب " انليل " بلسان واحد

ولما تشكلت البلدان لم يقم حرب ولا تناحر بل سلام وإلفة وكان الإنسان يسكن في جنة أرضية اسمها دلمون ، إنه بلد طاهر ومشع ، إنه أرض الأحياء الخالدين حيث لا مرض ولا موت لا ألم ولا شيخوخة :

في " دلمون " لا ينعق الغراب الأسود

وطير " العتيدو " لايصيح ولا يصرخ

الأسد لا يفترس

والذئب لا يخطف الحمل

لم يعرف الكلب المتوحش الذي يلتهم الجدي

ولم يعرفوا (الكوارث) التي تدمر الغلة

لم توجد الأرملة

والطير من الأعالي لا يسقط

والحمامة لا تحني رأسها

ما من أرمد يقول " عيني مربقة "

ولا مصدوع يقول " في رأسي صداع "

عجوز " دلمون " لا تقول " أنا عجوز "

وشيخها لا يقول " أنا طاعن في السن "

العذراء ليست بحاجة إلى أن تغتسل

و لا يهدر الماء الرائق في المدينة

من يعبر نهر (الموت) لا يتفوه بالموت

والكهنة النائحون لا يدورون حوله

و"سرت" و"سوريا" و"سورية" هي مؤنث "سار" بمعنى السيد . وقد أطلق اسم "مارتا" على سوريا زمن الأموريين وأطلق عليها اسم سوريا زمن السريان أو السوريين .

المنشد لا يعول بالرثاء

وفي طرق المدينة لا ينوح ولا يندب

إن هذا النص يثبت ثلاث حقائق هامة هي :

1ــ خصوبة المنطقة وغناها مما يوفــر للإنسان سعادته دون كبير جهد . إن صورة هذا " الرخاء " هي التي تحولت في ذاكرة الناس فيما بعد إلى فردوس حقيقي . وليس مـــن الصعب أن نفهم هذا العنصر النفسي الذي يكون دائما وراء المبالغة في تمجيد ما نفقد .

2 ــ وحدة شعب المناطق الأربع : ســـــومر و أوري ومـــارتو (ســـوريا الغربيـــة والشماليـــة الغربيـــة) وشوفور (بلاد الشمس المشرقـــة) وهمازي أي أرض الجبـــابرة (منطقة الخليج قبل الغمر) هذه الوحـــدة التي تجلت في سيادة الإلفة والمحبة والأمن فيما بينها ، كما تجلت في وحدة الدين واللغة " وجميع الكون والبشر في وحدة وإلفة يمجدون الرب " انليل " بلغة واحدة .

3 ــ إن بلاد سومر " المتعددة الألسن " حيث ملتقى جميع اللهجات العربية القديمة كما يستدل من الأسماء ،وحيث ينجذب كثير من أبناء الشعوب الأخرى لم تشذ عن تمجيـــد الإلـــه باللغة الواحدة نفسها ، وهذا يعكس حتما الصورة التي سبق أن أشرنا إليها وهي أن تعدد الأقوام واللغات في منطقة كالخليج العربي لا يغير من هويتها وطابعها اللغـــوي والحضاري والثقافي العام وينبغي أن نشير إلى أنه كان يقصد بكلمة "ألسن" اللـــهجات وليس اللغات .

إن جلجامش ملك أوروك ، على سبيل المثال ، لقب ويعني كاشف سر الحوض ، ففـــي القاموس السرياني نجد أن " جلج " تعني كشف السر أو الستر أو الحجاب و" أميـــش " تعني الغدير ، الحوض ، وهذا اللقب لحق بملك أوروك بفترة رحلته الشهيرة إلى الحـــوض حيث عين الخلد ، ومقر الأبرار لاكتشاف سر الخلود وبقي مفهوم " الحوض " مستمرا في التراث حتى فجر الإسلام إذا أورده النبي العربي محمد ﷺ في كثير من الأحاديث .

وهذا الرب هو أحد الآباء السوريين الذي انتشرت مراسيم تقديسه من أوروك إلى إيبلا إلى بلاد موآب على سفوح جبال السراة في غرب شبه جزيرة العرب " وبناء على ذلك يتألف مجمع الآلهة في إيبلا من الرب " دجن " والرب " حدد " والرب " أميش " والرب " كورا " والرب " ايداجول " والرب " رشف " ......

وفيما يتعلق بالرب " أميش " فهو من الأرباب السورية الغربية القديمة .

4 ـــ ثمة مصدر تاريخي آخر ، إنه برعوشا المؤرخ البابلي الشهير ، الذي عاش حوالي 250ق.م . لقد ورد في كتابة عن السومريين " إن جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى عوان أو (عوانس) خرج من الخليج وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة " ثم يقول : " وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم . ولم يخترع منذ ذلك الوقت شيء ما حتى الآن " [1]

إن الزراعيين العرب ، إذن ، خرجوا من منطقة الخليج العربي (" هـــ مازي" أو بلاد الجبابرة) إلى سومر ، وجلبوا معهم فنون الزراعة والكتابة وطرق المعادن ، ولقد كنا قد أوضحنا كيف تم ذلك الخروج التدريجي من منطقة الخليج منذ أن بدأ العصر الدفيء وأخذ منسوب مياه البحر يرتفع تدريجيا ويغمر الأراضي الزراعية أيضا خلال فترة زمنية استمرت عشرة آلاف عام ، أي حتى الألف الرابع قبل الميلاد .

سومر في بعض المصادر الأخرى

يؤكد الباحث التاريخي رشتون كولبورن في كتابه " أصل المجتمعات المتحضرة " أن سكان المنطقة الجنوبية من حوض الدجلة والفرات بمدنها التي سبقت حضارتها بدء التاريخ إنما هم سكان المنطقة الأصليون الذين لا يعرف زمن لبداية سكناهم فيقول :

" إن المجتمع المتحضر قام في جنوب العراق ، وقد كشفت أعمال التنقيب هناك عن بعض منشآته الأولى ، وأقدم هذه المنشآت المعروفة كانت عند أريدو المعروفة الآن باسم (أبو شهرين) ، إلا أن أولئك الذين كانوا في الموضع الذي يعرف الآن باسم

---

(1) انظر Wooley ,C,L "The Sumerians ",p.189

(تل العبيد) وعند أور الكلدانيين فهم من المستوطنين الأصليين ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المستوطنين الذين جاؤوا من بعدهم ، " تل العبيد " و" أور" و " أريدو " كانت كلها مستوطنات بجوار الفرات الذي كان يتجه وقتذاك إلى غرب مجراه الحالي" [1] .

إن في هذا التأكيد دلالة واضحة على أن العرب السوريين سكان المنطقة الأصليين هم مؤسسو الحضارة في فجر التاريخ . الحضارة التي اكتشفت ودعيت باسم عصر تل العبيد ، وعصر أور ، وغيرها ، وذلك قبل بدء التاريخ . وحينما يقول المؤلف إن " أولئك الذين كانوا في الموضع الذي يعرف الآن بـ " تل العبيد " وعند أور الكلدانيين فهم من المستوطنين الأصليين ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المستوطنين الذين جاؤوا من بعدهم " فهو لا يدع مجالا للشك في الأصل العربي لسكان المنطقة الأصليين ، إذ من المعروف أن من جاء بعدهم من المنطقة إنما هم العرب الساميون ، وزيادة في الإيضاح ، ولانعدام الخلط بين هؤلاء وأولئك الذين سيفدون من المناطق الأخرى يتابع المؤلف قائلا :

" وإن أولى الهياكل القديمة التي اكتشفت مؤخرا ، والمنتشرة من أعالي الفرات في الجزيرة السورية إلى نيبور في جنوبي حوض الرافدين هي هياكل لشعب واحد ، ذي تصور واحد ، ونظرة واحدة إلى الكون والآلهة وحياة البشر ، كما دلت النقوش والزخرفة التي ضمتها على وحدة في درجات التطور الفني والعمراني . ففي العهود الشبيهة بالكتابية كانت الحضارة السومرية قد انتقلت نحو الشمال على محاذاة النهرين كما فعلت ثقافة العبيد (وربما السومرية أيضا) في أزمنة ما قبل التاريخ ، وكما أن النفوذ الروماني في أوروبا البربرية يمكن تعقبه بواسطة انتشار النفوذ فإن نفوذ الفترة الشبيهة بالكتابية في ما بين النهرين ، وفي جميع أنحاء الشرق ، يمكن تعقبه عن طريق الأختام الأسطوانية المميزة

---

(1) رشتون كولبورن " أصل المجتمعات المتحضرة " ص71

للفترة ، فإننا نجد نماذج من هذه الأختام شمالا حتى طروادة وجنوبا حتى مصر العليا ، وشرقا حتى أواسط فارس (حدود عيلام الشرقية) أو حتى إلى الشمال الشرقي منها " [1]
وإن هنري فرانكفورت ، بتعقبه انتشار الأختام الأسطوانية للمرة الأولى من حوض الرافدين إلى كل البقاع السورية الأخرى قد وضع يده على حدود الوطن العربي السوري دون أن يشعر . وكيلا يخطر بالذهن أن مثل ذاك الانتشار كان يخرج من أرض سومر أو العموريين في الغرب إلى أرض أجنبية وغربية فقد كان قد سبق وأشار إلى أنه ليس من مكان هنا لمثل هذا الاعتقاد حينما تحدث عن نظرته إلى سرجون القادم من سوريا الغربية ليوحد المنطقة نظرته إلى قائد من الشعب ذاته لا إلى فاتح " أجنبي " فقد جاء في كتابه " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " عن سرجون ما يلي :
" وبالرغم من أن وصول سرجون إلى السلطة لم يكن يختلف كليا عن النموذج القديم أي إخضاع المدن الأخرى واحدة بعد واحدة ، فإنه شق طريقا جديدة في توطيد مركزه ، فإن الدولة التي أسسها استمرت هذه المرة بضعة أجيال بعد موت مؤسسها. وقد تعود جدة وسيلته إلى أنه يمثل عنصرا شماليا من سكان ما بين النهرين الذي أصبح الآن صاحب السيطرة للمرة الأولى وهذا بين من النقوش . فقد بدأت النقوش الملكية والوثائق التجارية الكثيرة تكتب باللغة السامية التي تدعى أكادية ، و هذا التغيير بالذات كان السبب في شيوع الرأي الذي يأخذ به بعض العلماء والقائل بأن سرجون يمثل فتحا أجنبيا ، وظاهر أن اللغة تشير إلى الفرات الأوسط والمناطق المجاورة ، إنها البلاد الأصلية التي ظهرت فيها هذه اللغة ، وهذه المنطقة كانت قد دخلتها ثقافة ما بين النهرين منذ قرون دون أن يكون ذلك فتحا كذلك ، ولا يمكن أن ندعو الناس من هذه المناطق أجانب بالمعنى العادي للكلمة "[2] .

إن هنري فرانكفورت يعتبر المنطقة في سوريا والعراق منطقة واحدة لغويا وسكانيا وثقافيا وحضاريا وإداريا وسياسيا . وحينما يخرج سرجون من سوريا الغربية إلى سوريا

---

(1) هنري فرانكفورت ، " الأختام الاسطوانية " ص 227 ومابعدها .
(2) هنري فرانكفورت " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص90

الشرقية فإنه لا يخرج عن كونه قائدا يوحد أجزاء بلده الواحد وشعبه الواحد في دولة مركزية واحدة ، جريا على ما كان يجري في السابق قبل سرجون . فوصوله إلى السلطة لم يكن يختلف كليا عن النموذج القديم ، أي إخضاع المدن الأخرى واحدة بعد الثانية من أجل توحيدها .

ولقد كان ثوركيد جاكوبسن قد سبق فرانكفورت في تأييد هذه النظرة في مقاله " الصراع المزعوم بين السومريين والساميين في تاريخ ما بين النهرين " الذي نشره في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية [1] ، حينما رفض بصورة قاطعة فكرة هذا الصراع واعتبر المنطقة كلها تعيش ضمن بوتقة من الثقافة العربية السامية المشتركة القائمة على وحدة الأصل لدى السكان الأصليين منذ القدم .

ولتأكيد وحدة الثقافة والشعب والنظرات لدى سكان المنطقة يستشهد مالوان بالهياكل الدينية الأولى المكتشفة في المنطقة فيقول :" وفي براك على الخابور في شمال سوريا، وعلى مسافة 500 ميل من أوروك ، اكتشف هيكل مبني على خطة الهياكل الجنوبية يحتوي على أشياء مشابهة لها وزخرفة بالفسيفساء المخروطية [2] وبعد ذلك ، في أزمنة الأسر القديمة كانت هياكل عشتار على الفرات في ماري ، وفي آشور على دجلة ، مجهزة بتماثيل من النموذج السومري تمثل رجالاً بألبسة سومرية [3] وهكذا يتضح أنه قام على النهرين العظيمين استمرار ثقافي منذ ما بدء التاريخ ، كان الناس ينتقلون داخله بدون أن يسببوا اضطراباً في أساس المدينة "[4] .

ولا بأس أن نختتم هذه الفقرات ــ الشواهد بنتيجة حاسمة يثبتها هنري فرانكفورت بعد تأثره بالمكتشفات الأخيرة في المنطقة إذ يقول :

" فعندما كانت معرفتنا بالشرق الأدنى القديم جزئية كان مألوفاً أن نفسر التغييرات بصيغ الفتح والهجرة من منطقة مجهولة ، لكن الاكتشافات الواسعة التي تمت بين الحربين

---

(1) توركيلد جاكوبسن ، " الصراع المزعوم بين السومريين والساميين في تاريخ ما بين النهرين القديم "مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية عدد 59 سنة 1939 صفحات 458-495 .
(2) م.ا.ل مالوان " حفريات في براك " " وشاغار بازار " العراق عدد9 (لندن 1947) .
(3) ولتر أوندي " آثار هيكل عشتار القديم في أشور " ليبزغ ،1922 .
(4) هنري فرانكفورت " فجر الحضارة في الشرق الأدنى ص 91

العالميتين قضت على هذا النوع من التعليل. فقد ثبت أن مواطن تلك الشعوب " النازحة " من وجهة ثقافية هي المناطق القائمة على تخوم المركزين العظيمين في مصر وفي بلاد ما بين النهرين . وقد ثبت من جهة ثانية ، أن هذين المركزين كانا إلى درجة غير عادية يقاومان النفوذ الخارجي ،وكان باستطاعتهما أن يفرضا على القادمين حضارتيهما "[1].

أليس المقصـــود في السطرين الأولين إدانته لتلك النظرة التي تعتبر السومريين شعبا مجهول الهوية والأصل والمنشأ ؟

وبعد . هل مازال بعض أساتذتنا من " نقلة " التاريخ يصرون على العيش في زمن ما قبل الحـــرب العالميـــة الأولى ؟ وإلى متى سوف يبقى بعض " المثقفين"* العرب يجترون تلـك المقولات القديمة الشوهـــاء على صفحات الكتب جاعلين من أنفسهم أدوات صمـــاء لا واعية في أيدي مزوري تاريخ هذا الشعب العظيم ؟

---

(1) المصدر السابق 127ــ128

• يصر " شوقي عبد الحكيم " في كتابه " الفولكلور والأساطير العربية " على أن يقرن كلمة " السومريين " بكلمة " اللاساميين " أينما وردت .

الفصل الرابع

الوطن العربي السوري

2 ـ الجناح الغربي

كنا قـد أشرنا إلى أن منطقة حوض الفرات الأعلى : الجزيرة السـورية و الجنـوب الرافدي (منطقة سومر) وشواطئ الخليج إنما كانت المستقر الأول للعرب الزراعيـين في الشرق الذين أطلق عليهم اسم السريان . وقد كانوا يدعون أيضا باسـم الجبـابرة أو العماليق (همازي) . وكانت هذه التسمية قد شاعت منذ بداية عهد الإنسان العـربي بالاستقرار الزراعي و بناء القرى و المدن و الحصون و القلاع . و كان السـكان مـن البدو الـرحل ينظرون إليهم كبشر متفوقين ، كما كان أولئك " السكان المتفوقـون " أنفسهم يغذون هذه الفكرة عند البدو عن طريق إطلاق الحكايا الإخبارية حول أصولهـم المتفوقة كأبناء للآلهة ، والناتجة عن اتحاد الآلهة السماويين بنساء من البشر الأرضيين .

ولما كانت التوراة المعروفـة والمتداولـة قد كتبت على مدى أكثر من ألف عام بعـد موسى ، أي في حـوالي القـرن الثالث قبل الميـلاد وهـي ما دعـي بـ "الترجمـة السبعونيـة ": فقد أحدثت تحريفات وتشويهات كثيرة في أسـماء المنـاطق والمـدن والأعلام ولاسيما في التفسير الاستشراقي والصهيوني لها ، مما رتب نتائج جد خطـرة بالنسبة لجغرافيا المنطقة التي أخذ يرسمها الدارسون بناء على ما قدمت تلك " الترجمـة " والتفسيرات من معلومات . فلقد أقحمت وبصورة قسرية على خارطة جنوب سـوريا مجموعـة من المناطـق والبلدان والقـرى والجبال والأنهار لم تعرفها في تاريخها ، وصار "الباحثـون" يضعون الفرضيات حـول أسماء تغيرت ، ثم يبحثون عن مناطق أخرى أو مـدن أخرى في الاتجاهـات التي حددتها " التفسيرات" دون أن يعثروا على ما يشـبه الأسماء التوراتية فيعمدون إلى وضـع الأسماء على خارطة المنطقة عشوائيا ويضعـون إلى

جانبها علامات استفهام ، وكأنما يشيرون بذلك إلى أن مثل تلك البلدان أو المناطق كان ينبغي أن توجد في تلك النقاط المحددة . لكن شـــيئا ما لا يشير إلى أي شيء من هـــذا القبيل ، ولابـــد من الإشارة إلى أن اسم " فلسطين " ذاته أقحم على المنطقة في ســوريا الجنوبية مع غيره من الأسماء نتيجة للتزوير الجغرافي الذي قام به كهنة التوراة بعد الميلاد . وبالرغم من كل هذا الواقع الواهي والضعيف لما يمكن أن نطلق عليه اســـم " جغرافيـا التوراة " فقد أقيم على أساســه كل ذلك البناء التاريخي لشعب المنطقة العربي الســوري الأموري أوالسرياني ، فاختلطت حقيقة هذا الشعب العريق بفرضيات أقحمت في تاريخه وواقعه وجغرافيته قسرا دون أن تستند إلى أيــة حقيقة أو إثبات ودون أن تتعرض لأدنى درجة من درجات الفحص أو النقد أو تحري الدقة أو إعادة النظر ، علما أن أي متتبـــع لمجريات المعلومات التاريخية التي بنيت على أساسها ، لا يسعه إلا أن يدهش للتناقضـــات والمستحيلات الجغرافية والتاريخية معا . والأدهى من ذلك هو أن جميع أولئك " العلماء " المؤرخين الذين صنعوا لنا تاريخنا خلف الحـــدود لم تســتوقف أحدا منهم أي من تلـك الوقائع .

لـــذا وقبل أن نبدأ حديثنا عن الكنعانيين والفينيقيين فإننا سوف نلفت نظر القـــارئ إلى أننا سوف نـــدع جانبا كل معطيات التوراة الجغرافية وكل المعلومات التاريخيـــة القائمة على أساس التفسير الصهيوني المزور لهذه الجغرافيا التوراتية بصورة مؤقتـــة لنعود إليـــها لاحقا ، ونفند مواقع الزيف والخطأ التي اعتمدتها الدراسات الأجنبية والعربية حتى اليوم.

العرب الكنعانيون في المصادر العربية

لقد عانت المصادر الوفيرة والغزيرة التي خلفها لنا المؤرخون والأخباريون العـــرب مـــن الإهمال العفوي أو المقصود زمنا طويلا دون أن يجرب أحد الدارسين الأجانب التعـــامل معها ، مما جعلها في نظر البعض من " نقلـــه " التاريخ من الأساتذة العرب ضربا مـــن الحكايات المسلية أو الخرافات التي لا تفيد شيئا في معرفة تاريخ المنطقة .

إن مما يثير العجب فعلا هو اعتماد كل أولئك الدارسين شجرة النسب العربية التي أوردها التوراة ، في الوقت الذي أهملوا فيه كل الشجرات الأخرى ، والتي لا تشكل أنساب التوراة إلا فرعا منها ، وقد نقلها مدونو التوارة عن المؤرخين والاخباريين والنسابين العرب سواء في شبه جزيرة العرب أو في بابل المحطة بعد أن عرضوها لضروب من الحذف أو التشويه .

إن حرص العربي على معرفة تسلسل نسبه ، كما سبق أن بينا ، يشكل إحدى السمات البارزة التي ميزته ودخلت في بنية شخصية الاجتماعية والتاريخية والنفسية . وهو حينما كان يتخطى في نسبه المعروف بعض الأسماء أو الحلقات فلأن تلك الأسماء ـــ كما تؤكد كل الشواهد ـــ كانت تخرج أحيانا عما يتيح له من مجالات الفخر والاعتزاز ، وتفتقر إلى الصفات والمناقب التي يجلها الإنسان العربي ويجهد في أن يجعلها تستمر من بعده . كما أن الاعتماد على الروايات والسرد الشفهي كان لابد من أن يصيب السلسلة بضياع حلقات وبإضافة أخرى ، وبتقديم وتأخير ، علاوة على أن قدرة الذاكرة الإنسانية المحدودة على الحفظ لابد من أن تصاب بالعجز في نقطة ما وتقطع تتابع حلقات السلسلة . ولهذا فإن الاعتماد على الأنساب كما حفظت لنا ليس يعنينا كمصدر لا يتطرق إليه الشك بقدر ما يعنينا في اعتباره عنصرا مساعدا في تصور النسيج العام لهذا الهيكل السكاني العربي الذي شغل الوطن العربي منذ آلاف السنين وحافظ عليه حتى اليوم .

فلسنا هنا لنؤكد ضرورة الأخذ بواقع الأنساب العربية أو لنؤكد دقة ما تقدمه لنا من معطيات ، إذ من المعروف أن ثمة ثغرات كبيرة وصغيرة لابد وأن تتخللها ، كما لابد أيضا من خضوعها لعوامل وظروف وشروط ذاتية وموضوعية تحد ، بهذا القدر وذاك ، من دقتها . لكن ذلك أيضا يجب ألا يحول دون النظر إليها بعين العالم المتفحص المقارن ، فيستنبط من بقايا خيوطها الصحيحة والمتماسكة بعض ملامح لحقيقة ما قد يتعذر العثور عليها من مكان آخر أو بطريقة أخرى .

إن الحقيقة التي ينبغي التأكيد عليها هي :

1ــ إن العرب أول من عنى بعلم التاريخ وتحرى الدقـــة في تسجيل أحداثه ومجرياتـــه . وكلمة " تاريخ " ذاقما أكبر شاهد على ذلك . فهي مشتقة من كلمة "يرحـــو " بمعـــنى الهلال أو الشهر فالتاريخ عند العرب هو تسجيل الأحداث في زمن حدوثها ، وقد سـبق أن أوردنا شواهد لما تركه السومريون والبابليون من أكداس في التاريخ أتت عاديـــات الزمن على قسم كبير منها ومازال القسم الأعظم ينتظر تحت آلاف التلال الأثريـــة على امتداد رقعة الوطن العربي السوري من الخليج العربي إلى البحر المتوســـط . لقـــد بـــدأ المؤرخون السومريون من عام 2000ق.م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضرهم ليخلفوه لمن يجيء بعدهم " [1]

أما أشقاؤهم في سوريا الغربيـــة فقد اشتهر عنهم واقعيتهم ودقتهم في تسجيل وتـــاريخ الأحداث والشخصيات مما أثار نقمة وغضب جميع الأوساط الدينية فيما بعـــد الـــتي لم تتورع عن تدمير تلك الكنوز الهائلـــة من المؤلفات كما حدث لسخونياتن ولمؤلفاتـــه . *لقد بين هذا المؤرخ البيروتي منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد حقيقة الآلهة الســـوريين ،* وكشف عن أنهم ليسوا إلا بشرا حقيقيين واقعيين قدموا خدمـــات جلـــى للإنســـانية ساعدتها على تطوير عيشها ، ودفعت بها من مرحلة إلى أخرى تاليـــة أرقى في مـــدارج التطور ، كما فضح كل تلك الخرافـــات التي أضافها الكهنـــة حول تلك الشـــخصيات بصورة أساءت إليها كثيرا . فكان بذلك أول مؤرخ علمي واقعي نقدي في العالم . لقـد عمدت الأوساط الدينية المتعصبة إلى إخفاء تلك المؤلفات وتدميرهـــا والتشهير بها وذلك بعد ميلاد المسيح بأربعة قرون من الزمن . ولولا أن أوزيب اليهودي المتعصب والمتنصـــر ظاهريا رأى أن يشهر بما كتبه سانخونياتن مستشهدا ببعض النصوص التي ترجمها فيلـــون الجبيلي إلى اليونانية لا ندثر كل أثر عن هذا المؤرخ والأديب العظيم .

2 ــ إن مما يثير الاعتزاز بهذه المصادر هو أن تتابع المكتشفات الآثاريـــة يؤكد يوما بعد يوم صحة خطوطها الأساسية وتوجهاتها في تصوير الأحداث وأزمانها .

3ــ إن المؤرخ العربي بعد الإسلام لم يكن مؤرخا لأحداث وأخبار ملوك وحكام فقط ،

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة ، الجزء 2ص 36 .

بل كان يسعى دائما إلى أن يسجل كل ما يتجمع بين يديه من أمور وأحداث سواء أكانت سياسية أو اجتماعية ، أو دينية ، أو فكرية ، أو أدبية ، أو أخبار وروايات أسطورية أو طرائف لها صلة بعيدة أو قريبة ، مباشرة أو غير مباشرة بالشخصية التاريخية التي يرصدها أو بالحدث التاريخي . وليس صعبا على أي باحث أن يفرز الغث من السمين من بين ذلك الركام الأخباري الذي لابد أن يتوخى فيه مدونه تدوين كثير من المعتقدات والأعراف ، ويراعي مشاعر عامة الناس في زمانه ولاسيما الدينية منها .

4 ـــ لقد أكد المؤرخ العربي الكلاسيكي القديم أنه اكثر الناس دراية بالواقع العربي وبالبيئة العربية ، كما أنه أكثرهم خبرة في معرفة الأصول القبلية والسكانية مهما بدت موزعة على الرقعة المترامية للوطن العربي . ولقد ساعد في ذلك تجوال مثل أولئك العلماء والمؤرخين في سبيل الدرس والتحقيق ، ما بين العراق وسوريا ومصر والمغرب ، دون أن يحد من نشاطهم صعوبة النقل والمواصلات ، أو المسافات الشاسعة . فما هي ، بعد ذلك كله ، حقيقية العرب الكنعانيين والفينيقيين في تلك المصادر من حيث تسميتهم وأماكن توزعهم وانتشارهم ؟

آ ـــ في " الكامل في التاريخ " لابن الأثير نجد :

"فكانت امرأة سام بن نوح صلب ابنة بتوايل بن محويل بن خنوخ ، بن قين بن آدم ، فولدت له نفرا : ارفخشاد ، وآشور ، وآرام ، قال : ولا أدري آرام لأم ارفخشاد وأخوته أم لا ، فمن ولد لاوذ بن سام : فارس وجرجان وطسم وعمليق وهوابو العماليق ومنهم كانت الجبابرة بالشام* الذين يقال لهم الكنعانيون والفراعنة بمصر ، وأهل البحرين وعمان منهم ويسمون جاشم ، وكان منهم بنو أميم بن لاوذ أهل وبار بأرض الرمل وهي بين اليمامة والشحر ... وكان طسم ساكني اليمامة إلى البحرين ، فكانت طسم والعماليق واميم وجاشم قوما عربا لسانهم عربي ، ولحقت عبيل بيثرب قبل أن تبنى ، ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء ، وانحدر بعضهم إلى يثرب

• كانت كلمة " شام " التي تعني اليسار أو الشمال تطلق على كل ما هو على يسار المركز في شبه جزيرة العرب ، كما كانت كلمة " يمن " أي اليمين ، الجنوب تطلق على كل ما هو على يمينه .

فأخرجوا منها عبيلا ، فنزلوا موضع الجحفة ..... "[1]

فالكنعانيون هنا هم الجبابرة ، وهم غير العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، انتشروا في البحرين وعمان وصنعاء (قبل أن تسمى صنعاء) ومنطقة يثرب (قبل أن تبنى يثرب) ومنهم فراعنة عشيرة مصر ، وهم العماليق أو الجبابرة في كل هذه المناطق ، أما في الشام فاسمهم الجبابرة ويقال لهم الكنعانيون وقد كانوا قوماً عرباً لسانهم عربي .

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه كان المقصود بالشام كل ما هو على شمال المركز الواقع في بلاد غامد من جبال السراة في شبه جزيرة العرب تحديداً ، كما هي معروفة لدى كل المؤرخين و الإخباريين و الجغرافيين العرب ، وفي مكان آخر نقرأ : وأما حام فولد له كوش ومصرايم وقوط وكنعان ... وصارت بقية ولد حام بالسواحل من النوبة والحبشة والزنج ، ويقال إن مصرايم ولد القبط والبربر ، وأما قوط فقيل إنه سار إلى الهند والسند وأهلها من ولده وأما الكنعانيون فلحق بعضهم بالشام[2] .

وهكذا يظهر أمامنا كنعانيون حاميون لا ساميون صاروا بالسواحل من النوبة و الحبشة والزنج (أي على الشاطئ الجنوبي الغربي للبحر الأحمر) لأن المنطقة محددة في بقعة واحدة . أما " مصر " المقصودة فهم عشيرة مصر بن حام وليس بلاد وادي " النيل " .

ب ـ أما الطبري فنقرأ في تاريخه :

" فنكح لاوذ بن سام بن نوح شبكة ابنة يافث بن نوح فولدت له فارس وجرجان واجناس فارس ، وولد للاوذ مع الفرس طسم وعمليق ولا أدري أهو لأم الفرس أم لا ، فعمليق أبو العماليق كلهم أمم تفرقت في البلاد ، وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز و أهل الشام و أهل مصر منهم ، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون ، ومنهم كانت الفراعنة بمصر ، وكان أهل البحرين وأهل نجد منهم ...
و أهل تيماء وكان ملك الحجاز منهم بتيماء ... فكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم قوماً عرباً لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي "[3]

---

(1) الكامل في التاريخ "لابن الأثير " الجزء 1 ص 44 .
(2)المصدر السابق .
(3) تاريخ الطبري الجزء 1 ص14 .

فالرواية عند ابن الأثير والطبري واحـــدة ، ومنقولة عن ابن اسحاق ، الذي لم يعـط أي تحديد جغرافي لكلمة " الشام " .

ونجد أيضا : " وكانت امرأة حام بن نوح نحلب بنت مأرب بن الدرمسيل ابن محويل بن خنوع بن قين بن آدم ، فولدت له ثلاث نفر : كوش بن حام وقـــوط بـــن حـــام ، وكنعان بن حام ... ونكح قوط بن حام بخت ابنـــة بتاويل بن ترس ابن يافث بن نـوح فولدت له القبط قبط مصر فيما يزعمون ، ونكـــح كنعـــان بن حام أرسل ابنة بتـلويل بن ترس بن يافث بن نوح فولدت له الأساود : نوبة وفزان والزنج والزغاوة وأجنـــــاس السودان " [1] .

وفي مكان آخر : " وأما حام بن نوح فولد له كـــوش ومصرايم وقوط وكنعان فمن ولد كـــوش ، ولد المتجبر الذي كان ببابل وهو نمرود بن كوش بن حام وصارت بقية ولـــد حام بالسواحل من المشرق والمغرب والنوبة والحبشة وفزان ، قال ويقال إن مصرايم ولـــد القبط والبربر ، وأن قوطا صار إلى أرض السند والهند فترلها وأن أهلها من ولده "[2] .

وفي مكان آخر " وعمليق وهو عريب ، وهو أبو العمالقة ومنهم البربر وهم بنو ثميلا بن مارب بن فـــاران بن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ماخلا صنهاجة وكتامة فإنهما بنو أفريقيش بن قيس بن صيفي بن سبأ ، ويقال إن عمليق أول من تكلم بالعربيـة حين ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم العرب "العاربة " [3] ... وولد لـــلاوذ أيضا عمليق بن لاوذ وكان مترله الحرم وأكناف مكة ولحق بعض ولده بالشام فمنـــــهم كانت العماليق ومن العماليق الفراعنة بمصر " . وجدير أن نذكر أن اسم أفريقيش بـــن قيس هو الذي أطلق على القارة" أفريقيا " فيما بعد . أما الكنعانيون الحاميون أولاد كنعان بن حام فقد تركز وجودهم على السواحل الجنوبية للبحر الأحمر .

وهناك كنعان آخر ، إنه ابن نوح وأخو سام ، وتتحدث عنه الأخبار بأنه لقي حتفه غرقا

---

(1) المصدر نفسه ص 140 .
(2) المصدر السابق ص 142 .
(3) المصدر السابق .

أثناء الطوفان ، ويقول الطبري : " ولد لنوح سام وفي ولده بياض وأدم ، وحـــام وفي ولده سواد وبياض قليل ، ويافث وفيهم الشقرة والحمرة ، وكنعان وهو الذي غـــرق والعرب تسميه يام وذلك قول العرب" إنما هام عمنا يام " ... وكان بعضهم (الفرس) يقر بالطوفان ويزعم أنه كان في إقليم بابل " [1] .

في هذا القول نلاحظ :

1ـ إن الأسماء سام وحام ويافث وكنعان تدل على قبائـــل لا على أفراد ويبدو ذلـــك واضحا في قوله " ويافث وفيهم الشقرة والحمرة " .

2 ـ إن قبيلة كنعان بن نوح كان موضعها في منطقة بابـــل حيث حدث الطوفـــان ، وهي المحطة على الفرات في قلب شبه جزيرة العرب ، وليس على الفرات الســـوري .

3 ـ إن الطوفان أصاب القبيلة ، الجماعة السكانية التي كانت تشغل منطقة بابل المحطـة أثناء حدوث الطوفان و لم يصب فردا واحدا هو كنعان ، وبالتالي فلا بد أن يكون قـــد ذهب ضحية ذلك الطوفان قسم كبير من السكان ونجا القسم الآخر .

4 ـ ورد في بعض الروايـــات أن العماليق (الجبابرة) حينما ظعنوا من بابل كانوا أول من تكلم بالعربيـــة ، أي باللهجة العربيـــة وتخلوا عن لهجتهم العربيـــة الزراعية المشوبة (السريانية) .

5 ـ أنهم لولا حدوث أمر جلل (كالطوفـــان مثـــلا) لما تخلوا عن أراضيهم الخصبـــة ونزحوا إلى أطراف شبه الجزيرة العربية وغربيها على سواحل البحر الأحمر . إن ذلـــك التروح من أرض بابل الخصيبة ملتقى الأنهار في جوف شبه جزيرة العرب ، وهي بـــابل الأخرى هناك وليست بابل العاصمة التي لم تكن قد وجدت بعد ، يدل علـــى دمـــار أراضيهم وممتلكاتهم تحت الغمر الذي سوف يبقي المنطقة المنكوبة زمنا طويلا قبـــل أن تعود صالحة للسكن والزراعة من جديد .

ولابد من أن نلحظ كيف أنه في الوقت الذي كان فيه أولئك العرب السوريون يبدعـون ويتفوقون على شواطئ الخليج العربي شرقا والبحر المتوسط غربا فقد كانوا يمتزجون مـــع

---

(1) المصدر السابق .

أشقائهم من أبناء المرحلة الانتقالية (الرعوية ـــ الزراعية) الممتدة من سهل قونية شمالا إلى شواطئ البحر الأحمر وبحر العرب جنوبا ويقيمون دولهم العربية في هذه المنطقة التي اتفق على تسميتها بـ " سوريا المجوفة " . لقد حدث أن أقيمت دول عربية قوية وعديدة كان من شأنها أن تملأ هذا الفراغ الداخلي وتستثمر ميزات المواقع والخطوط والعقد والطرق التجارية الدولية التي تربط مابين المنتجات الزراعية في سومر وأكاد وماري وحوض الفرات الأعلى، بمنتجات منطقة اليمن وشرقي البحر الأحمر في الجنوب، وبشاطئ المتوسط في الغرب ، كما تسيطر على حركة النقل التجاري الدولي ما بين منتوجات بلاد الهند وإفريقيا ومصر والأناضول وبلدان البحر المتوسط .

إن أول مملكة توصل الآثاريون إلى اكتشافها في هذه المنطقة هي المملكة العربية التي اتخذت من إيبلا* عاصمة لها ولم تكن الدولة العربية النبطية وعاصمتها (البتراء) أو العربية التدمرية وعاصمتها (تدمر) فيما بعد سوى تجسيد لتلك الظاهرة في سوريا المجوفة .

إن كل الدلائل تشير إلى أن حركة السكان في الغالب لم تتخذ أي صورة من صور العنف . فكما كان ينتقل أولئك السريان الزراعيون من منطقة بابل وسومر والخليج إلى شواطئ المتوسط الشرقية ، وإلى أواسط وغربي شبه الجزيرة العربية ، دون أن يسجل أي صدام دموي عنيف بين من كانوا يشغلون تلك البقاع وبين أشقائهم الوافدين ، في الوقت الذي لم تغفل المصادر الأثرية عن ذكر أي صدام كان يحدث بين القبائل الغازية للمنطقة وبين سكانها الأصليين سواء من جهة الشمال أو الشرق ، فقد كانوا أيضا ينتقلون وبالسهولة نفسها ، من شمال حوض الفرات (الثراث) إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر ويؤسسون المدن أو الأرياف ، ويكثرون دونما أي دوي دموي في

• يعتقد الباحثون في وثائق ايبلا إن اسمها مشتق من الكلمة العربية عبلاء وتعني الصخرة البيضاء (انظر كتاب ايبلا ـ عبلا ترجمة قاسم طوير) لكننا نرى أن العرب اعتادوا على أن يسموا المناطق بأسمائهم وليس بالعكس ، وعلى هذا الأساس فإننا ـ مع تأكيدنا على الاشتقاق العربي الخالص للكلمة ـ نعتقد بأن الاسم ربما يعود إلى قبائل عبل التي بنت بعض فروعها مدينة يثرب وهناك " عبلاء " أخرى شرق بلاد غامد في شبه جزيرة العرب ما تزال آثارها ماثلة إلى اليوم .

التاريخ . أو من الشواطئ الشرقيـــة للمتوسط إلى شواطئه الجنوبية كما حدث فيما بعد مع السيدة العربية الفينيقية إليسار وحزبها بعد أن اختلفت مع حزب شقيقها الحـــاكم في مدينة صور ، وانتقلت إلى قرية عربية في الشمال الأفريقي لتخلق منها مدينة جديدة هـي قرطاجـــة [1] تكثفت فيها عبقرية ونشاطات شعبها حتى ظلت زهاء ستة قرون أقـــوى منافس للمدن السورية الأخرى في البحر المتوسط كله .

ولما كانت تلك التحـــركات ، التي تأخذ في معظـــم الأحيان طـــابع جولان الشـــعب الواحـــد في أنحاء أرضـــه الواحدة ، تتم بمثل تلك الصـــورة السلمية فإن ذلك وحـــده كان دليلا لا يضاهيه أي دليل آخر على أن جميع الســـكان الذين كانوا يشغلون تلـــك المناطق إنما ينتمون معهم لأرومة واحدة ، ولشعب واحد هو الشعب العربي ، ذاك أولا .

ثانيا : لما كانت جميع المصادر قد أكدت على أن آدم وحواء اللذين وقفـــا علـــى رأس سلسلة النسب العربي المحفوظة لنا حتى اليـــوم إنما وجدا وعاشا في فترة حوالي الألـــــف الخامس قبل الميلاد ، هما آدم الرسول وزوجته ، ولما كانت جميع المصادر تؤكد علـى أن حواء كانت عربية عرباء (أي تتكلم العربية النقية ومن سكان قلب شبه جزيرة العرب) وأن آدم الرسول عربي سرياني (أي يتكلم العربية بلهجتها الجبلية أو الشمالية الشرقية في منطقة الخليج العربي) فإن في ذلك دليلا على وجود العرب العاربة والعرب الســـريان في شبه الجزيرة وفي منطقة الخليج ، التي هي جزء من منطقة الهلال السوري الخصيب ، قبل آدم وحواء بأزمان موغلة في القدم . وهذا يعني ، بالتالي ، أن هؤلاء الجبابرة الذين أتـــوا بعد الطوفان ، كما تزعم الروايـــات ، (أي بعد الألف الثالث قبل الميلاد) ، إنما كانوا يدركـــون أنهم يترلون أرضا يشغلها قـــوم من أبناء جنسهم ويتكلمون بلسانهم العـــربي الواحد ، وأن هذا يعني أنـــهم لم يكونوا أول " العماليق " الذين " كوروا الكور وبنوا المدن وسوروا الأسوار " على حد تعبير المؤرخين العرب .

ثالثا : لقد دلت الأبحاث المخبرية على المكتشفات الأثرية لمدينة أريحا على أن بناءها يعود

---

(1) قرطاجة هي " قرت حدشت " أو " المدينة الحديثة " .

إلى الألف الثامن قبل الميلاد ، وقد أجمع الباحثون على أن من أكمل وأجمل ما تركه لنا ذلك الإنسان العربي القديم هو مدينة أريحا النيوليتية (الألف الثامن قبل الميلاد) بطابعها العمراني المتقدم .

يقول الباحث والمؤرخ أولبرايت : " لقد أثبتت الحفريات الأثرية أن أريحا كانت منذ معظم الألف السابع قبل الميلاد ، مدينة جيدة البناء ، ومحاطة بأسوار حجرية ... وقد ظهرت فيها مرحلتان من مراحل ما قبل الفخار في العصر النيوليتي ، وتميزت المرحلة الأولى باستعمال لبنات طينية ذات شكل محدب خاص ، كما قدمت الثانية مجموعة من التأسيسات المتتابعة التي لم يكن عددها يقل عن أربع عشرة في نفس الموقع ، وحدد ، بواسطة الكربون المشع ، تاريخ هذه التأسيسات المتتالية على مر الزمن ، واتضح أن الثانية منها قد هجرت في أواسط الألف السادس قبل الميلاد ... وأريحا هي مركز نيوليتي قبل فخاري ذو طابع عمراني ، تم اكتشافه في العالم القديم مع الإشارة إلى أن هناك مراكز مماثلة تم كشفها بشكل واسع في الشرقين الأدنى والأوسط تعود إلى ما بين 7000 و 5000 قبل الميلاد ، في كل من العراق (قلعة جرمو) وفي مركز جيرو كيتا في قبرص الذي هو أحدث بألف عام ...

وفي أريحا تم العثور على أقدم ما عرف من بيوت ثابتة ، ومعابد بنيت جدرانها بواسطة التربة المدقوقة ، أو بلبنات طينية مستديرة ، ولم يعثر داخل هذه المنشآت أو حولها على مقتنيات منزلية عادية ، ولكن عوضا عنها ، كانت تماثيل عديدة لحيوانات (غنم ، بقر ، ماعز ، خنازير)[1]

ويشير أولبرايت إلى أن الاكتشافات الأهم والأكثر إثارة في عصر ما قبل الفخار النيوليتي في أريحا هو مجموعات التماثيل البشرية التي كانت تمثل ، كل مجموعة منها على ما يظهر ، رجلا وامرأة وطفلا ، وهذه التماثيل كانت مصنوعة من الحوارة المثبتة على هيكل من القصب يقوم مقام هيكلها العظمي . وحتى اليوم فإن هذه التماثيل لم يظهر

(1) **Albright , p62-63 .**

مثيلها لا في العصور السابقة ولا في العصور اللاحقة [1] ، أما غوردون تشايلد فإنه يقدم لنا وصفا مختصرا لأريحا ذلك العصر نورده كما يلي :

" وبـــذلك (أي بواسطة الكربـــون المشع) تم التوصل إلى أرجاع تاريخ قرية أريحـا في وادي الأردن إلى 7000 سنة قبل الميلاد ، وهو أول تمركـــز مزارعين حدد بواســـطة الكربون 14 . ولوحظ أن هذه القرية كانت منتشرة نسبيا (أكثر من ثلاثة هكتارات) وكانت محمية ، في الوقت نفسه ، بواســطة خندق محفور في الصخر ، عرضه 8 أمتــار وعمقه 1.5 متر وبواسطة سور من الحجر ، وكان سكان أريحا القدماء يعيشون بشـكل رئيسي على الصيد وعلى جمع الغـــذاء . ولكن ينبوعا لا ينضب مكنهم أيضا من زراعة الأرض ، وتربية الغنم والماعز "[2] .

إن ذلك يعني أن العرب الجبابرة " الذين كوروا الكور وبنوا المدن وسوروا الأسوار " إنما كانوا يشغلون المنطقة قبل قدوم أحفاد آدم وحواء الآخرين بعد الطوفان ، بـــل وقبـــل وجود جدهم الأعلى آدم الرسول وجدتهم حواء في حوالي الألف الخامس قبل الميـــلاد ، وهذا ما يؤكد مرة أخرى أن آدم وحواء لم يكونا سوى حلقة من حلقات الآباء العـــرب الأولين انقطعت عندها سلسلة النسب في الذاكرة .

وإن أولئك " الجبابرة " الأقدمين هم الذين انتشروا على الشاطئين الغربي والجنوبي للبحــر المتوسط بدءا من مرسين إلى دلتا النيل وانتهاء بموريتانيا على شاطئ الأطلسي .

إن مثل هذا الافتراض هو وحده الذي يفسر انتشار أحفادهم السوريين والفينيقيين فيمـــا بعد على امتداد هذا الشاطئ دون أن يعترضهم أي حــــدث تاريخي كبير كان يمكـــن أن يؤثر على هوية المنطقـــة العربيـــة منذ ذلك الزمن السحيق وحتى اليوم . ولقد تحدثنـــــا قبلا كيف أن الاحتلال مهما طال زمنـــه يبقى هو الطارئ ، وأن الشعب الأصيل لابـــد وأن يعود ليفرض على التاريخ استمراره هو في أرضه تراثا وثقافـــة ولغـــة ، لا استمرار غيره . إن هذا هو ما جعل عروبة هذا الشاطئ كله هي الثابتة رغم انتصار مرتزقة جيش

---

(1) Ibid .

(2) Cordan Shild " de la Prehistoire a,L Histosire " PP.75-67 .

روما قرونا طويلـة وتدمير قرطاجـة وإزالتها من الوجود . إن الوجود العربي لم يكـن يتمركز في قرطاجـة إذن ، وإلا لزال بزوالها . وإن تقدم الجيوش العربية بقيادة موسـى بن نصير فيما بعد لم يكن إلا عملية تحرير لتلك المناطـق العربيـة من البيزنطيين ، يدل على ذلك انضمام السكان إلى جيوش التحريـر ضد البيزنطيين المحتلين رغـم وحـدة الدين معهم واختلافه مع أشقائهم المحررين القادمين بدين جديد .

كنعانيون أم أموريون في سوريا الغربية

إن الباحث ما أن يقترب قليلا من التاريخ القديم لسوريا الغربية ، التي تشمل اليوم سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن ، حتى يتملكه العجب أمام هـذا الاختـلاط ، وذاك الركام الهائل من المتناقضات . وأعترف بأنني كنت ما أن أعـزم على انتهاج خط للسير في البحث أحسبه واضحا ويضيء كل المجنبات حتى أتعثر دائما بفجوة هنـا أو رجمـة هناك . ومن كثرة تعثري فقد صرت أشعر بأن طابعا معينا يلف تلك العقبات جميعـا ، وكأن لها وحدة في اللون والرائحة . كنت ما أن أشعر بصدمة تاريخيـة أو جغرافية حتى أفرزهـا جانبا علني أجد قاسما مشتركا يجمع كل هذه العقبات أو الفجوات . ولم تمض فترة طويلـة حتى تبين لي أنها فعلا ، تعود جميعها إلى أرضية واحدة ، بل إلى مصدر واحـد : إنه مدونات التوراة وتفسيراتها الكهنوتيـة والاستشراقية والصهيونية المـزورة والمعممـة .

وانكببت مـرة أخرى ، قد تكون الخامسة ، على هذا الكتاب التوراة ، ووضعت علـى ورقـة بيضاء الخطوط الجغرافيـة العامـة للمنطقة ، ثم بدأت أتابع تحركات جماعـة موسى من مصر وأحرك القلم معها أنى تتجه ، وأضع الأسماء على الخارطة التي أمامي — وكانت المفاجأة : إن أحدا من موسى أو جماعته لم يقترب من مصر وادي النيل أومـن فلسطين ، بل تبين أن جميع الأحداث المدونة في التوراة إنما كان مسرحها منطقة جـد ضيقة ومحدودة من بلاد غامد وزهران في شبه جزيرة العرب وصولا إلى عمان الحاليـة على الخليج العربي .

فكيف إذن تمت عملية تغيير الجغرافيا والتاريخ ؟ ذلك هو الموضوع الذي سوف نتناوله بالبحث مفصلا بعد أن نفرغ من التعرف على السكان الأصليين للمنطقة الغربية من سوريا والتي تمتد من حوض المضائق شمالا وحوض الفرات الأعلى ، إلى جنوبي سيناء وأعالي شواطئ البحر الأحمر جنوبا .

ومن أجل ذلك ، وبعد أن تبين خطل معظم تفاسير المدونات التوراتية التي كتبت على مدى ألف عام ، فقد صار من اللازم والواجب معا أن توضع جانبا كل الدراسات التي اعتمدت على التوراة وتفسيراتها المزورة ، تاريخا وجغرافيا ، لإجلاء الحقيقة ، وإزاحة ما تراكم فوقها من ركام طيلة هذه الأحقاب الطويلة . وبقدر ما يبدو الأمر في غاية من الصعوبة فإنه يبدو أيضا في غاية من السهولة في آن معا ، لأن أساس جميع تلك الركامات المتراكمة من الأخطاء إنما هو أساس واحد يكمن في التفسير المزور لمدونات التوراة من جهة ، ولأن المكتشفات الآثارية في سوريا اليوم تتوالى لتدحض يوما بعد يوم كل تلك الأباطيل التاريخية التي اخترعها واعتمدها مؤرخو الحقب الاستعمارية ، ونقلها الكثير من أساتذتنا ، دون أن يجهدوا أنفسهم مرة واحدة في بحوث جدية لهذا التاريخ الذي يئن تحت جبال من أنقاض القرون وأكاذيب الخصوم . علما بأن كلمة سوريا الآثارية لم تنضب بعد ، حيث أن آلاف التلال ، التي يخفي كل منها مدينة أثرية ، ما تزال تنتظر استكشافها وإظهارها إلى عين الحقيقة .

إن استعراضا بسيطا لما قاله المؤرخون الأجانب عن " أرض الكنعانيين " يكشف لنا كيف أن أحدا منهم لم يعتمد على أي مصدر آخر غير مدونات التوراة من أجل إقحامهم في سوريا الغربية كلها . وأكثر من هذا ، فقد خلطوا بينهم وبين الأموريين والفينيقيين مرة ، ومرة أخرى صاروا ينكرون وجودهم في سوريا الغربية ليجعلوا من هذه المنطقة مسرحا لنشاطات شعوب غريبة أخرى لا تمت إلى العروبة بصلة ، ولا تخفى المقاصد الاستعمارية الكامنة خلف مثل هذه المساعي على أحد اليوم .

إنه لمن المفيد هنا أن نستعرض نماذج من أقوال أولئك المؤرخين عن الكنعانيين كسكان لسوريا لنتبين كيف أن أحدا منهم لم يعتمد أي مصدر في كلامه عنهم ، بل اعتبر أن

مدونات التوراة وتفسيرها الاستشراقي والصهيوني من المسلمات التي لا تحتاج إلى نقاش ويمكن أن يبني عليها كل بنائه حول ما يتعلق بتاريخ المنطقة .

إنه لم يعثر على أي مكتشف في المنطقة يؤيد تسمية السكان بالكنعانيين ، بل إن كل المكتشفات أخذت تبين أن السكان إنما هم العرب السوريون من أموريين وسريان وفينيقيين ، ولم يعثر على أي ما من شأنه أن يشير إلى وجود العرب الكنعانيين في سوريا بما فيها لبنان وفلسطين .وبدلا من أن يعيد أولئك المورخون النظر بمدونات التوراة ، وبتفسيراتها وترجماتها ، وبالجغرافيا التي وضعت بناء عليها ، فقد عمدوا إلى تصحيح الخطأ عن طريق تغطيته بأخطاء أكبر ، فأخذوا يبحثون عن أصل التسمية خارج المنطقة كلها ، وفي لغات الشعوب الأخرى ، بل ذهب بعضهم إلى حد إنكار وجود أي شعب في سوريا ذلك الزمن حينما تبين له أن وجود الكنعانيين كان يقف على أرضية واهية ومسألة تحتاج إلى دليل .

الكنعانيون في المصادر الأجنبية

1ـ يقول سميث في كتابه " الجغرافيا التاريخية " ويشاركه في ذلك كلود كوندر ، وواتران ، ولويس باتون ، وكثيرون غيرهم : " إن اسم بلاد كنعان هو تسمية سامية ويعني الأرض المنخفضة ، وهو مشتق من فعل كنع أي انخفض أو سكن السهل المنخفض"[1] .

إن هذا القول يفترض سلفا صحة المعلومات التوراتية وتفسيراتها من قبل الحاخامين دون أن يكون ثمة حاجة إلى التأكد من حقيقة تلك المعلومات . وحينما لم يعثر على ما يدل على وجود الكنعانيين في سوريا فقد كان لابد من تبرير لهذه التسمية التي لحقت بسكان سوريا الأصليين من خلال ما تدل عليه اللغة العربية ذاتها . وقد كنا قد أشرنا إلى أن

(1) انظر :

Smith " Historical Geography" PP.4-5 ;
Cloude R .Conder " Cyrian Stone .L ore" London " PP,2-3
C. Aytran" Pheniceans " Paris" P.4;
Lewis B. Paton , The Early History of Syria and palestine " Newyork.

العرب لم يكن من عادتهم أبدا أن يسموا أنفسهم بأسماء الأمكنة التي يحلون فيها ، بل العكس كان دائما هو الصحيح ، وأن على كل باحث أن يتوجه في البحث عن أصول التسميات القديمة للمناطق الجغرافية و" القرى " والمدن ، والجبال ، وغيرها ، ناحية أسماء المجموعات السكانية التي كانت تشغل تلك الأمكنة وليس العكس .

2 ـ يقول الدكتور فيليب حتي نقلا عن أولبرايت " إن اسم بلاد كنعان أصبح الآن مشكوكا في أصله السامي ، ويظن أنه من أصل غير سامي والاشتقاق الجديد يجعله حوري الأصل Knaggi بمعنى الصباغ الأرجواني وهذا أعطى الصيغة الأكادية في نوزي كيناخني Kinakhni ، وفي مسمارية رسائل تل العمارنة كيناحي Kinakhi وبالفينيقية كيناع 'Kena والعبرية كنعان أي بلاد الأرجوان"[1] . فالاسم العربي " كنعان " المعروف منذ ما بعد الطوفان وحتى اليوم ، والذي لم تغفل عن ترديده مدونات التوراة عشرات المرات ، كما لم تغفل عن أن تكيل له الشتائم ، يصبح عند بعض المؤرخين بدعة لم يسمع بها من قبل ، ولابد من البحث عن صيغة قريبة في لغة شعب ما ولو كان ذلك لدى قبائل هندو أوروبية مزعومة ومختلقة أو قفقازية ! فبدلا من أن يتوجه أولئك المؤرخون إلى الوطن الحقيقي للكنعانيين لجأوا إلى استحداث البدع في اللغة والتاريخ والجغرافيا معا ، لأن في العودة إلى البحث عن موطن الكنعانيين الحقيقي فضيحة لنصوص التوراة ، ولمفسريها ، ولواضعي الجغرافيا للمنطقة بناء على كل هذا ، ولكل من كتب التاريخ ، وما يزال يكتب ، بناء على تلك الجغرافيا أيضا .

إنه لم يحدث في التاريخ العربي أن بقيت القبائل بلا أسم تنتظر من يتفضل عليها بلقب ما من الخارج لتعرف به ، وهي ـ كما اشتهر عنها ـ من أشد الجماعات السكانية تشبثا بالنسب .

3 ـ يقول بونفانت : " لقد اشتق اسم فينيقي من اليونانية Phoinix أي أحمر أرجواني ، ليشير إلى صناعة الأرجوان التي اشتهر بها الفينيقيون ، وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا به معهم فإن كلمة فينيقي أصبحت بعد حوالي

---

(1) انظر فيليب حتي : " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 85 .

1200ق.م مرادفة لكلمة كنعاني " [1] .

إن هذا القول كسابقه ، خلو من أية نظرة علمية ، ولا يستحق الوقوف عنده .

4 ـــ ويقول روجرز : " ولقد ورد ذكر كنعان في رسائل العمارنة التي تعود إلى القـــرن الخامس عشر قبـــل الميلاد باسم Knakhni وكانت هذه التسمية تطلق حينذاك علـــى القسم الجنوبي من بلاد الشرق المشتملة على أرض فلسطين والتي كان قـــد اســـتولى عليها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشـــر قبل الميلاد ، أما القسم الشمالي فكـــان يسمى " أمورو " أو عمورو " وكان يشمل منطقتي لبنان وشرقي الأردن " [2]

في هذا القول تستوقفنا عدة أمور على غاية من الأهمية :

1ـــ إننا لأول مرة نعثر على قول لأحد المؤرخين يستشهد بالمكتشفات الآثارية عنـــد تحقيقه في أصل التسمية الكنعانية . لقد وردت هذه التسمية إذن في رسائل تل العمارنـــة التي هي بقايا مدينة " أحنو أتون " ، المدينة التي أسسها الملك المصري امنحوتب الرابـــع الذي عرف باسم أخناتون (1375ـــ 1368 ق.م) والتي وجدت في خرائبـــها ســـنة 1887م حوالي 1300جرة أو قرميد تشتمل على السجلات الملكيـــة الشهيرة ومن بينها الرســـائل المرســـلة إلى أخناتون وإلى أبيه امنحوتب الثالث من حكام بعض المحطـــات التجاريـــة الخاضعة لنفوذ ملك مصر على طريـــق القوافـــل التجاري الدولي في جنوب جزيرة العرب .

2 ـــ في قـــول العالم والمؤرخ روجرز إشـــارة واضحة لا تقبل الجدل أو التـــأويل إلى المنطقة التي هي أرض كنعان أو بلاد كنعان : " إنها القسم الجنوبي من بلاد الشرق والتي كان قد استولى عليها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميـــلاد " . إن بـــلاد الشرق بالنسبة لمصر ليست في سوريا ولبنان وفلسطين ، إنها شـــرقي البحر الأحمـــر دون ريب ، فالشـــمال يوضحه روجـــرز نفســـه في قوله " أما القسم الشمالي فكان يسمى

---

(1) G. Bonfante " the name of the Phoinicians" Classieal Philology vol.XXXVI ,PP,1 .

(2) Rogers , Cuneiform Parallels to the old Testament " 1942 , p. 68

" أمورو " أو "عمورو" وكان يشمل منطقتي لبنان وشرقي الأردن " فالشمال هو لبنان وشرق الأردن ، أما فلسطين ففي الشرق !... أي تناقض هذا إذن ؟ وأي فلسطين تلك التي في الشرق ، وفي الشرق بالنسبة لمن ؟ لو لم تكن فلسطين على شاطئ البحر لقلنا إنها في الشرق من الأردن مثلا ، لكنها ليست في شرق أحد .

إن حل هذا التناقض هو في أن أرض كنعان المقصودة إنما هي بقعة ما من جنوب شبه جزيرة العرب ، وأن في تلك المنطقة بالذات توجد بلدة الفلشة وسكانها هم الفلشتيم باللهجة الكنعانية القديمة ، والياء والميم تعادل الياء والنون في اللغة العربية الحديثة ، وإن الإبدال ظاهرة عامة بين الكنعانية القديمة والعربية الأم بين الشين والسين ، وإن أولئك " الفلشتيم " إنما هم العرب الفلسطينيون الكنعانيون الحاميون أبناء كنعان بن حام بن نوح وقد حافظوا على تسميتهم القديمة بعد أن دخل قسم منهم في الدين اليهودي وطردوا من بلدهم على يد نبوخذ نصر إلى الحبشة وعرفوا بيهود الفلاشة .

3 ـــ إن رسائل تل العمارنة تؤكد إذن أن الشمال يسكنه الأموريون ، وهذا الشمال هو الذي يشمل لبنان وفلسطين التي بدلها المؤرخ روجز بشرقي الأردن ، على أنه لم يكن ثمة شيء اسمه شرقي الأردن ، فلماذا سمح المؤرخ لنفسه بأن يقع في مثل هذا التناقض إذن ؟ لماذا تؤكد رسائل تل العمارنة أن فلسطين هي في الشرق من مصر ، ويصر هو على أن يتحدى حتى الاتجاهات الجغرافية ، ويخلط فيما بينها ، ويجعل فلسطين ، التي هي في الشمال بالنسبة لمصر هي المقصودة بهذا الشرق ؟ إن الأمر واضح : إن جميع مؤرخي الحقب الاستعمارية يتعامون عن مثل هذه التناقضات الفاضحة ، ويتحملون مسؤولية مثل هذه الأخطاء العلمية القاتلة من أجل تمرير الأهداف الاستعمارية للمنطقة وإنجاحها وإطالة زمن وجودها إلى أقصى أمد ممكن .
4 ـــ ويقول لودز في كتابه " إسرائيل " ، و أ. بيرثوليت في كتابه " تاريخ حضارة إسرائيل " : " إنه مما لاشك فيه أن الكنعانيين هم أقدم الأقوام الذين استقروا في أرض فلسطين ، وإليهم يعود تأسيس حضارة فلسطين القديمة ، والأرجح أن لغتهم كانت في

الأصل اللغة التي اعتبرت أقرب لغة إلى أم اللغات السامية ، وترجع الحضارة الكنعانية إلى عصور موغلة في القدم ، فمنذ العصر الحجري الحديث أو العصر النيوليـق ، (7000 ــ 5000ق.م) بدأت هذه الحضارة تنمو وتتقدم في مجال التمدن ، فكان الكنعـانيون أول من اكتشف النحاس الطري ، ثم اهتـدوا إلى الجمع بين النحاس والقصدير في إنتـاج البرونز، وبذلك كانوا السـباقين في استخدام صناعة التعدين ، مما أعطى تلك الشـعوب البدائية أدوات وأسلحة فتاكة ، وقد أصبح استعمال البرونز شائعا في المدن الكنعانية منذ أواسط الألف الثانية قبل الميلاد . ومن الجائز أن يكونوا قد أخذوا بصناعة الحديد مـن العـرب الذين كانت لهم مناجم هذا المعدن في لبنان وفي الأردن ... ويتجلى لنا مـدى تقدم صناعة المعادن في بلاد كنعان أوضح ما يكون في وصف الغنائم التي أخذها تحوتمس الثالث (1504 ــ 1450ق.م) من المدن الكنعانية ، إذ نجد أن بين المصنوعات المعدنيـة عربات مطعمة بالذهب ، وأوتادا لتثبيت الخيام مطعمة بالفضة ، وتماثيل من الذهب ومن خشب الأبنوس ، وفي القائمة ، علاوة على ما تقدم 207.000 كيس من القمح جلبـها تحوتمس من كنعان [1] .

يلاحظ في قول لودز ما يلي :

آ ـــ أن لودز يعترف بوجود شعب حضاري في فلسطين قبل مجيء " اليهود " بـآلاف السنين (مع تحفظنا لعبارة " مجيء اليهود ") ومنذ العصر الحجري الحديث (7000 ـــ 5000ق.م) وذلك لأن المكتشفات والبحوث العلمية وقفت شاهدا شامخا على ذلـك دون أن تتـرك مجالا لأحد في أن يدحض أو ينكر . وكنا قد شرحنا كيف أنه تم فحص آثار أريحا بالكربون 14 وتبين أن عمرها يعود إلى الألف السابع قبل الميلاد على الأقـل علما أن كنعان بن حام بن نوح يعود زمنه إلى الألف الثالث قبل الميـلاد ، وفي هـذا تناقض صارخ .

ب ـــ إن لودز يطلق على العرب من سكان سوريا الأصليين اسم " الكنعانيين " حتى لا

---

(1) انظر : Lods," Israel" P.59

و : A. Bertholt, " Histoie de la Civiliztion d'Israel" fr.tr.,P.70

يخرج عن مرامي التفسير الصهيوني لمدونات التوراة . فخلط بذلك بين سوريا الأمورية ، بما فيها سوريـــا الحالية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن ، وبين بلاد كنعان الواقعة على السواحل الجنوبية الشرقية للبحر الأحمر .

ج ـــ لقد أكد الباحثون أن منطقة السواحل الشرقية للبحر الأحمر بقيت من أخصـــب المناطق ، كما شهدت حضارة زراعية وتجارية وصناعية على غاية من التقدم مما جعلـــها تبقى مواكبة للمسيرة الحضارية العربية الممتدة من سومر شرقا إلى فينيقيا غربا ، وســوف نفرد لذلك بحثا خاصا . لكنه تجدر بنا الإشارة هنا إلى أن المكتشفات أخذت تؤكد يوما بعد يوم أن بدايات الحضارة المصريـــة سواء أكان ذلك في الحكم ، أو الإدارة ، أو بنـاء المدن أو القصور ، أو في فنون الزراعة والنحت والتصوير والتعدين ، إنما جاءها من تلك المنطقة تحديـــدا . كما جاءت العربات والرياضيات المتطورة منها أيضا ، كما أنها هـــي الموطن الأصلي إيزيس وأوزيريس .

د ـــ إن غنائم تحوتمس الثالث تؤكد الوحدة الحضارية للوطن العربي السوري من أقصـــى شرقه إلى أقصى شماله إلى أقصى جنوبـــه . وتشير مدونات تحوتمس الثالث إلى خصوبـــة أرض كنعان مؤكدة " أن النبيد عند الكنعانيين كان موجودا بكثرة تفوق وجود المـــاء " وكانت زراعة الكروم والتين من أهم المزروعات القديمة في كنعان ، توجد شواهد علـــى أن هذه الزراعة كانت مزدهرة في عهد بيي الأول (حـــوالي 2500ق.م) إذ وجـــدت هناك معاصر للزيت والعنب من تلك العصور مصنوعة بمنتهى الدقة والإتقان [1].

5 ـــ ويقول الدكتور ولنفسون في كتابه " تاريخ اللغات السامية " : " والكنعانيون هـــم الذين اخترعوا السفينة ، واهتدوا إلى عمل الزجاج ، ووضعوا نظام الحســـاب ، وهـــم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط المسماري والهيروغليفي ، فلا غـــرو إن أصبح الخط الكنعاني أساسا لجميع خطوط العالم المتمدن في الشرق والغرب " [2].

---

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 94 ، 142
(2) الدكتور ولنفسون " تاريخ اللغات السامية " ص52

واضح أن الدكتور ولنفسون يتحدث هنا عن سكان سوريا الطبيعية وقد درجت العادة على تسميتهم بالكنعانيين بناء على كل ما سبق وذكرناه ، ويكفي أن نستبدل العرب السوريين بالكنعانيين ليزول كل أشكال في هذا القول.

6 ـــ ويقول الدكتور مورتغات بخصوص الكنعانيين :" إننا نعلم من خلال الحفريات التي أجريت في جبيل " بيبلوس القديمة " في وسط ساحل بلاد سوريا ، وبالاستناد إلى المراسلات الملكية في مدينة ماري ، ومن موجودات الطبقات السفلى في تل العطشانة (تل ألخ) بالقرب من إنطاكية ، أن أناسا ساميين غربيين قد قطنوا سوريا على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، وأن هؤلاء كانوا على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة حمورابي ... أما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على هؤلاء الساميين في سوريا اسم الكنعانيين ، ولغتهم يجب أن تكون نفس اللغة التي اقتبسها أولئك الذين نزحوا إلى الأرض المقدسة من السكان الأصليين قبلهم هناك ، أي من الكنعانيين ، وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل ، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر ، إلى هذه المجموعة السامية الغربية [1] .

يلاحظ أن الدكتور مورتغات يؤكد هنا على وحدة الشعب واللغة والحضارة والأرض لسوريا منذ الألف الثالث قبل الميلاد استنادا على الوثائق الآثارية المكتشفة في مدينة ماري وألخ ، ومن خلال النصوص والمراسلات التي عثر عليها في محفوظات المدينتين ، لكنه يكشف أيضا ، في الوقت نفسه ، أن تلك الوثائق الآثارية لم تأت على أي ذكر للكنعانيين وأنه وغيره من الباحثين هم الذي يطلقون هذه التسمية على الشعب العربي السوري الذي يشغل الأموريون جناحه الغربي من أعالي الفرات إلى أعالي البحر الأحمر .

7ـــ ويقول سمث أيضا : " وقد اشتهرت بلاد كنعان بنشاطاتها التجارية التي كانت تمارسها بكفاءة منقطعة النظير مستفيدة من موقعها الجغرافي الفريد الذي يقع على الطرق الرئيسية التي تربط بلدان آسيا عبر الصحارى العربية مع بلدان أوروبا وشمال إفريقيا

---

(1) انطون مورتغات " تاريخ الشرق الأدنى القديم " ص250 .

عبر البحر المتوسط في تنمية الحركة والعلاقات التجارية ، فاحتكروا أشهر الطرق البحرية ، وأقاموا لهم مستعمرات تجارية في قبرص ، وصقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا ومالطا ، وفي شمالي إفريقيا ، وفي اسبانيا ، وأنشاوا المستودعات والمصارف في مرسيليا وروما وكولونيا ، وبريطانيا ، ومصر ، وأورشليم ، وتدمر . وكانت قرطاجة الواقعة في جوار تونس الحالية أهم المستعمرات التجارية الفينيقية [1] فقد اتسع نفوذها في البحر المتوسط حتى قيل " لا يقوى الرومان على غسل أيديهم بماء المتوسط إلا بإذن من قرطاجة "وكان القرطاجيون مثل الفينيقيين يسمون بالكنعانيين[2] .

وقد اشتهرت صور بثرائها حتى قال المؤرخون : إن الفضة كانت مكدسة في أسواقها مثل التراب ، والذهب كوحل الطرقات ، وإن بيوتها أعلى من بيوت روما ، على حد قول سترابو ، وقد حافظت ببسالة أهلها على استقلالها حتى قضى عليها الاسكندر الكبير بعد حصار دام زهاء عشر سنوات .

ليس صعبا أن ندرك كيف أن الحديث كله يدور حول السوريين الفينيقين ، وهم سكان بعض مدن الساحل السوري الممتد من صور إلى جنوبي إنطاكية ، وبرعوا في الملاحة وتجارة البحار وانتشروا على كل شواطئ البحر المتوسط وفي جزره حتى جعلوا منه بحق بحيرة عربية أخذ منهم الاسم ثلاث مرات: بحر أمورو، البحر السوري، والبحر الفينيقي.

من كل ما استعرضناه من نماذج لأقوال المؤرخين يمكننا أن نستخلص النتائج التالية :

أولا : إن أحدا من المؤرخين لم يعثر على أي دليل في المكتشفات الآثارية يمكن أن يشير إلى العرب السوريين الغربيين ككنعانيين ، بينما المكتشفات أشارت إلى أن أولئك السكان هم السوريون ، الذين يشكل الفينيقيون جزءا منهم وشغلوا بعض الساحل السوري الممتد من إنطاكية حتى جنوبي غزة .

ثانيا : إن بعض هؤلاء المؤرخين وجد نفسه يطلق هذا الاسم " بلاد كنعان " على سوريا

---

(1) R.B .Smith, " Carthage and the Carthaginians"

(2) Universal Jewish ene .Vol.H,P.103

و: فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء1 ، ص 116 .

بصورة آلية ، وتمشيا مع التيار التزويري التوراتي ، دون أن يجهد نفسه في السؤال :لماذا ؟

ثالثا : إن جميع المصادر اليهودية والصهيونية بوجه عام ، تصر على ربط جميع السكان السوريين بالتسميات العشائرية التوراتية في سعيها المحموم من أجل توظيفها في النـــزعة الاستعماريـــة للصهيونيـــة الدولية المتحالفة مع الإمبريالية العالمية والسيطرة على الوطـن العربي ، علما أن اليهودية دين وليس لها علاقة بأولئك العرب الأقدمين سواء بالنسب أو الجغرافيا . وإن هيرودوت الذي يعتبرونه في الغرب أبا التاريخ لم يذكر في تاريخه أيا مـن تلك العشائر التوراتية عند الحديث عن سكان المنطقة ، ولم يأت على ذكر أحـــد غـير السوريين ، والعرب ، والفينيقيين الذين ذكر أنهم يسكنون سوريا . وأنه كثيرا ما كـان يستخدم اسم "سوريا " كبديل لكلمة " آسيا" معتبرا أن عرب آسيا جميعا هم السوريون الذين يشغلون المنطقة الممتدة من والمضائق شمالا إلى البحر الأحمر جنوبا [1]

رابعا : إن من الواضـــح أن أولئك المؤرخين لم تكن لتغيب عنهم مثل تلك التناقضـــات السافرة الصارخة كأن تكون فلسطين في الشرق وشرقي الأردن في الشمال (لودز) أو أن يكون السومريـــون هم القبائـــل الهمجية المتوحشة وهم صانعو أول وأرقى حضـارة في العالم (كريمر) معا ، لكنهم لم يتمكنـــوا من أن يتجاوزوا كونهم مؤرخين للحقبـــة الاستعمارية وأدوات فيها .

إنه ليس في وسعنا أن نتجاوز ظاهرة أخرى ألمت بتاريـــخ العرب السوريين وهي نكران وجودهـــم كليـــة بعد أن بدأت تتكشف الحقائق عن مـــدى الزيف والتزوير في تفسير مدونات التوراة .

يقول الدكتور فيليب حتي في كتابه" تاريخ سوريا" فبصدد حديثه عن الحوريين ما يلي : " وقد بلغ من سعة انتشار الحوريين في سوريا في القرنين الخامس عشر والرابع عشـر أن المصريين أخذوا يطلقون اسم " خورو " على بلاد كنعان ... والعـــدد الكبـير مـن الألواح المكتشف في نوزي في القرن الخامس عشر قد كتبه باللغة الأكادية كتبة حوريون

---

(1) تاريخ هيرودوت ، ترجمة عن الفرنسية حبيب أفندي بسترس بيروت ، مطبعة القديس جورجيوس ، 1886 ــ 1887 ، المجلد الأول ص 160 ، 154 ، 113 .

استعملوا بعض كلمات حورية هنا وهناك ، وقد عرفت معاني هذه الكلمات في النـــص الأكادي الذي وجدت فيه ، وتلقي محفوظات نوزي ضوءا جديدا على طرق المعيشة في عهد أســـلاف الشعب العبرانـــي ، وإن كان هذا الأمر يبدو مستغربا ، من ذلـــك أن عقود الزواج في نوزي كانت تتطلب من الزوجـــة العاقر أن تزود زوجها بجارية تلد لـه أولادا .... والحوريون Horites المذكـــورون في العهد القديم الذين كـــــانوا يعتبرون حتى فترة حديثـة من القبائل الضئيلة الأهميـــة لم يكونوا سوى هؤلاء الحوريين (Hurrians) وقد اتضح أن ترجمة هذا الاسم بـــ " ســـاكني الكهوف " هو ترجمـــة خاطئـــة ، وكان الحويون Hivities غالبا هم أنفسهم الحوريون "[1]

خلطة مدهشة ! ...... إننا ، إذ نكبر الدكتور حتي عن الوقـــوع في مثل هذه الكتابـة التافهة المتنافرة ، وهو صاحب الفضل الكبير في تفتيح كثير من العيون المغمضة عن تاريخ سوريا ، فإننا نلمح أصابع أخرى خلف مثل هذه الكتابات ، تذكرنا بالتي ألمح إليـها ول دورانت في مقدمة مؤلفه الضخم " قصة الحضارة " [2] إنها ظـــاهرة تدخـــل الأيـــدي الصهيونية في كل مؤلف يصدر في الخارج حول تاريخ المنطقة من أجل أن يمنح المؤلــف جواز مرور إلى أن يصدر وينتشر .

إن المدهش في الأمـــر هو أنه حتى أولئك الذين اعتمدوا التوراة كأساس لكل علـــم في تاريخ المنطقـــة ، ومع كل ما يحمل هذا الأساس من الكذب والزيف في أساســـه ، وفي ترجماته وفي شـــروحاته ، وفي الجغرافيا التي وضعها المزورون أنفسهم بناء على تزويراتهم ذاتها ، فإنهم ما ينفكون يجدون أنفسهم في مآزق كبيرة رغم كـــل شـــيء . إن كـــل الأباطيل التي نسجوها وروجوها وبنوا على أساسها علوما في الجغرافيـــا والتـــاريخ لم تتمكن من أن تسد عليهم كل الثغرات التي يمكن أن تهب منها الرياح في كل لحظـــة ، فتمزق خيوط نسيجهم ، وتقلب صروح ما بنوه على أسسها.

---

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 164، 165 .
(2) لقد ألمح ول ديورانت إلى تدخل الصهاينة في ما كتب عن تاريخ المنطقـــة بصـــورة غـــير مباشرة حينما قال : " ولقد صحح الأستاذ هاري ولفسن في جامعة هارفرد بعـــض أخطـــاء الجزء الخاص بالدولة اليهودية " انظر : ول دورانت " قصة الحضارة " الجزء 1 ص/ى .

وهكذا نرى كيف أنهم يعتمدون مدونـــات التوراة في الوقت الـــذي يرونـــه مناســـبا ويتغافلون عما فيها في الوقت الذي يرونـــه مناسبا أيضا لإخفاء الحقيقة .

إن من يقرأ التوراة ويتمسك بمدوناتها لن يكون غافلا بالتأكيد عما ذكرته التوراة عـــن الأمراء العرب الحوريين أبناء عيسو (أدوم) الذين نزلوا في المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية ، " هؤلاء بنو عيسو هو أدوم وهؤلاء أمراؤهم بنو سعير الحوري ســكان الأرض ، لوطان وشوبال وصبعون وعنى وديشون وايصر وديشـــان ، هـــؤلاء أمـــراء الحوريين بنو سعير في أرض أدوم وكان ابنا لوطان حوري وهيمام ، وكانت تمناع أخت لوطان ، وهؤلاء بنو شوبال علوان ومناحة وعيبال وشفوا وأونام ، وهذان ابنا صبعـــون أيي وعنى ، هذا هو عنى الذي وجد الحمائم في البرية إذ كان يرعى حمير صبعون أبيـــه ، وهذا ابن عنى ديشون ، وأهوليبامة هي بنت عنى ، وهؤلاء بنو ديشان حمدان واشـــبان ويثران وكران ، هؤلاء بنو ايصر بلهان وزعوان وعقان هذان أبناء ديشان عوض وأران ، هؤلاء أمراء الحوريين ، أمير لوطان وأمير شوبال وأمير صبعون وأمير عنى ، وأمير ديشون ايصر وأمير ديشان هؤلاء أمراء الحوريين بأمرائهم في أرض سعير " [1]

فهل بعد هذا ثمة مجال لنقل عشائر الحوريين أمـــراء بني سعير الحوري العربي من الجـــزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية إلى شمال سوريا ؟

لكننا لن نتجاوز هذا النص إلى غيره قبل أن نؤكد النقاط التالية :

أولا : إن الحوريين الموجودين في أرض كنعان إنما هم أبناء سعير الحوري قوم عـــرب ، سكنوا بعض جبال غامد من شبه جزيرة العرب وتحركوا في جنوبها .

ثانيا : وحينما يقول المؤرخون " وقد بلغ من سعة انتشار الحوريين في سوريا في القرنـــين الخامس عشر والرابع عشر أن المصريين أخذوا يطلقون اسم " خورو " على بلاد كنعان " فإن في ذلك تأكيدا على أمرين : الأول أن الحوريين المقصودين إنما هـــم أولئك العـــرب الحوريون أنفسهم ، والثاني أن أرض كنعان هي في جنوب شبه جزيرة العـــرب و (هذا سيكون موضوع كتابنـــا الثانـــي) .

---

(1) تك ، 10 :15 ـ 22 .

أما كلمة " سوريا " الواردة هنا فهي نتيجة للخلط بينها وبين بلاد كنعان ، إذ ليس من المعقول أن يسيطر الحوريـون على سوريا بعد أن سبق وتعرفنا على حقيقتهم العشائرية التاريخية في مدونات التوراة في وقت كانت الدولة البابلية والآشورية أعظم امبراطورية شهدها تاريخ العالم القديم .

ثالثاً : وحينما يقـرر المؤلف بأن الحوريين هم أسلاف الشعب العبراني في الوقت الذي يعتبرهم هندو أوروبين قادمين من وراء القفقاس فإن في ذلك ما يلفت النظـر بصورة جديـة إلى فداحة وشدة المأزق الذي أقحمت فيه الصهيونية نفسها حينما تحاول الربط بين شتى الأكاذيب التي افتعلتها من أجل تشويه حقيقة تاريخ الشعب العربي السـوري . فـ " الحوريـون " إذن صاروا أسلافاً للعبرانيين ! ... لماذا ؟ .. لأن الزوجة العاقر كانت تزود زوجها بجاريـة تلد له أولاداً ! أليس هذا ما فعلته سارة مع إبراهيـم ؟ إن المؤلف هنا لا يغفل عن الإشـارة إلى المصدر التوراتي (تك ، 16: 2 ـ3) ، إن ذلك إن دلّ على شيء فإنما يدل على شدة إفلاس الصهيونية ويأسها من التاريخ .

لقد اشـتهر العرب منذ بدايات وجودهم بتقديسهم للخصب ، وكان فهمهم للحياة سواء في الطبيعة أو المجتمع على أنها صراع دائم بين الحياة والموت تنتصر فيها الحياة دائماً عن طريق تجددها بفعل قوة الخصب الكامنة في الطبيعة ، ومن هنا كانت نظرتهم للنسل والذرية كجزء من نظرتهم العامة إلى الحياة بمضمونها المقدس ، ومن هنا فقد انتشـرت عادة كسر طوق العقم بأية صورة إما عن طريق تدخل البشر (كأن تمنح الزوجة زوجها جارية تنجب له نسلاً ، أو تمنح نفسها لأول عابر سبيل أو راغب بها في معبد عشـتار يوم عيد عشتار قطعاً لدابر أي عقم قد يأتي من جانب الزوج) ، أو عن طريق تدخـل "الآلهة " مباشرة ، أو بواسطة " ملائكة الرب " التي تحفل بها قصص العـرب البـابليين والعموريين والآراميين في الزمن القديم . فليس ، بعد هذا ، يبقى انتشار مثل هذه العادة بين العرب الحوريين في غرب شبه جزيرة العرب من الأمور المستغربـة ... وإذا كـان بعض ما يشير إلى ذلك قد حفظ في وثائـق نوزي ، فقد كان من السهل على المؤلـف تفسير سبب ذلك بعد أن كان قد ذكر هو نفسه ، وفي بدايـة الصفحة ذاتها ، أن مـن

" أقدم وثائقها (اللغة الحورية الميتانية) هي ست ألواح دينيـــة من ماري ، وألواح قليلة أخرى من الألخ (تل العطشانة) في سهل إنطاكية، وقد بنيت المؤسسة الحوريـة في الألخ على مؤسسة أموريـــة سبقتها ، وترجع هذه الألواح إلى نحو أربعمائـــة سنة قبل المـــواد الحوريـــة التي وجدت في بوغازكوي "[1] فإذا كانت ماري والألخ قـــــد احتفظتـــا بوثائـــق تحكي بعض العادات والتقاليد العربية الأمورية ، فإن ذلك ســـــوف يعـــبر ـــ لاشك ـــ عن تقاليد شعب واحد يشغل المنطقة الممتدة من شمال الفرات إلى جبال البحر الأحمر وبحر العرب جنوبا ، ومن زغروس شرقا إلى البحر المتوسط غربا وليس إقحـــــام تسمية الحوريين على الشمال السوري سوى تزوير .

رابعا : أما قوله والحوريـــون Horites المذكورون في العهد القديم الذي كانوا يعتبرون حتى فتـــرة حديثـــة من القبائل الضئيلة الأهمية لم يكونـــوا سوى هـــؤلاء الحوريـــين Hurrians، وقد اتضح أن ترجمة هذا الاسم بـــ " ساكني الكهوف " هي ترجمـــــة خاطئة ، فإن ذلك هو الخطأ عينه . إن من المعروف أن الحوريين العرب كانوا يتوزعـــون بين جبال سعير شرقي البحر الأحمر ، ولقد كانت هذه الجبال منذ الزمن السحيق وحـــتى اليوم تعج باللصوص والقتلـــة والفارين من وجه العدالة ، لما تحوي من كهوف ومغـــاور من جهة ، ولمنعتها من جهـــة ثانيـــة ، وسوف نتعرض إلى تفصيل ذلك عند الحديـــث عن خروج جماعة موسى من مصر إلى أرض كنعان التي هي في بلاد غامد وزهـــــران ، حيث خصص لكل عشيرة " مدينة ملجأ " يهرب إليها القاتل أو المجرم أو الفار من وجة العدالة [2] ، و" المدن الملاجئ " لم تكن غير تلك الكهوف الصخرية في جبال السراة .

أما من الناحيـــة اللغويـــة فإن الكلمـــة هي من "حورا " التي تعني في القاموس السرياني " المغارة ، وحوريـــون بالسريانيـــة ساكن المغـــــارة ، ومنـــها كلمـــة " حـــواري " و"حواريون" بالفصحى أي الرهبان سكان المغاور .

---

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا " ومن ضمنها لبنان وفلسطين الجزء 1 ص 164 .

(2) " وكلم الرب موسى قائلا : كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتعينون لأنفسكم مدنا تكون مدن ملجأ لكم ليهرب إليها القاتل الذي قتل نفسا سهوا ، فتكون لكم المدن ملجأ من الولي لكيلا يموت القاتل " (عدد 35 : 9-12) .

خامسا : أما أن يكون الحويون هم أنفسهم الحوريون ، فهذا أمر تجيب عنه مدونات التوراة ذاتها .وما انطبق في حديثنا عن الحوريين ينطبق على الحويين ثم على الحثيين أيضا، فقد جاء في التوراة : " وكنعان ولد صيدون بكره ، وحثا ، واليبوسي ، والأموري ، والجرجاشي ، والحوي ، والعرقي ، والسيني ، والأروادي ، والصماري ، والحمتي ، وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني ، وكانت تخوم الكنعاني في صيدون حينما تجئ نحو جرار إلى غزة ، وحينما تجئ نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبويم إلى الأشع ، هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم وأممهم " [1]

فالحويون والحثيون هم بنو حو وبنو حث الكنعانيين على الساحل الشرقي الجنوبي للبحر الأحمر ، أي هم أسرتان أو عشيرتان من أبناء كنعان بن حام بن نوح . أما تفاصيل أسماء القبائل والمواضع المتبقية فسوف نعالجها في حينها .

ولنتابع الآن أقوال أولئك المؤرخين الاستعماريين الذين ينقل عنهم فيليب حتي أمثال كارلتون كون ، ووليم شانكلين ، وكارل سيلتزر وغيرهم ، لنقرأ معا :

" ويعتقد أن الحوريين هم الذين أعطوا الآشوريين تلك الملامح التي تميزهم عن أبناء عمهم الساميين في الجنوب ، أي البابليين ، والملامح السامية المزعومة التي يتصف بها اليهود هي بالحقيقة حثية حورية ، وبعد الفتح الحثي لميتاني أصبحوا مشمولين باسم " حثي " المبهم . وفي شرقي سوريا امتص الآراميون بقايا الحوريين . وتوجد قرب زحلة في لبنان قرية تسمى الفرزل ، وتحتفظ بالكلمة التي معناها الحديد Brzl وترد في نص من رأس الشمرة . ولا يزال النوع السائد حتى اليوم بين اللبنانيين من موارنة ودروز هو النوع ذو الرأس القصير العريض حسب نتائج الأبحاث الانتربولوجية ، وينطبق الأمر نفسه على النصيرية في شمال غربي سوريا ويختلف ذلك اختلافا عن النموذج الطويل الرأس الذي يسود بين البدو في بادية الشام وبين سكان الجزيرة العربية [2] ......"

---

(1) Carl C.Seletzer ,((the Racial Characterisities of Syrians and armenians)) PP.10seq .

(2) Carleton s. Coon , ((the Races of Europe)) PP.632 –642 .

و : فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 165 .

في هذا النص يمكن أن نحدد النقاط التالية :

أولا : إن ادعاء اليهود الصهاينة بالانتماء إلى السامية ليس إلا ذريعة استعمارية يمتطونها للوصول إلى المنطقة .

ثانيا : إن هذا الادعاء سرعان ما يتخلون عنه هم أنفسهم من أجل تمرير خيط آخر فتصبح " الملامح السامية التي يتصف بها اليهود " ملامح " مزعومة " وليست في الحقيقة إلا ملامح " حثية حورية " . لقد أصبح الحوريون ، إذن ، أسلافا للعبرانيين وأورثوهم ملامحهم " ، ولكن كيف ؟ لابد أن يكون ذلك من خلال إبراهيم نفسه الذي يدعون الانتماء بالنسب إليه ، قبل رحيله من حران ، التي زعموا أنها الواقعة في شمال سوريا ، إلى أرض كنعان حسب ما تسرده التوراة . لكننا ، إذا ما سلمنا ، وحسب أقوالهم هم ، بأن الميتانيين (الحوريين) غزوا شمال سوريا وأسسوا " مملكتهم " في القرن الخامس عشر ، وقضي عليها في القرن الرابع عشر ، بينما تشير مصادرهم ذاتها إلى تاريخ هجرة إبراهيم من حران في القرن العشرين أو التاسع عشر ، فكيف حدث ذلك التأثير الحوري المزعوم إذن قبل وجود الحوريين بعدة قرون ؟ ولو أننا افترضنا جدلا أن " ميتانيي " القرن الخامس عشر حكموا مصر لا وادي الفرات الأعلى ، واجتمعوا بجماعة موسى هناك طيلة فترة حكم مملكتهم المزعومة (أي حوالي قرن من الزمن) فإن ذلك لن يكون كافيا لمنح قوم موسى ذلك الشرف الميتاني ـــ الحثي " ، ويورثهم ملامح آباء حثيين أو ميتانيين من الجنس الهند أوروبي المختلق .

وعلى أية حال فإن انتماءهم إلى الميتانيين أو الحثيين ليس أبعد من انتمائهم إلى قوم إبراهيم العرب ، ولن يزيدهم انتماؤهم إلى الدين اليهودي قربا من النسب العربي إلى إبراهيم إلا كما يقرب الإسلام أبناء الصين وأندونيسيا والفيليبين من الانتساب بالمحتد إلى محمد بن عبد الله .

ثالثا : لكن الأمر لا يقف بنا عند هذا الحد وحسب ، بل فجأة أخذت تطل علينا النزعات العنصرية والاستعمارية الكامنة خلف كل هذه المساعي والدراسات . لقد وضعت على الرف ، وعلى حين غرة ، كل النظريات الحديثة في علم التاريخ التي تبنتها

البشرية بعد أن أسقطت من حسابها كل النظريات العرقية في دراسة هذا التاريخ لتطلـــع علينا بأبحاث انتروبولوجية مزعومـــة عن سكان المنطقة المعاصرين ، والتي لا يلجأ إليـــها اليوم إلا العرقيون العنصريون ، أصحاب النـــزعات الاستعمارية .

لنتأمل جيداً هذا الدرك الذي انحـــط إليه مزورو التاريـــخ من أجل تـــمرير المشـــاريع الاستعماريـــة ـــ الصهيونيـــة في المنطقة ، وكأن المذاهب الدينية تغير السحنة ، وشكل الرأس والجمجمة ، وربما ، قريباً ، ســـوف تترك الأحزاب السياسية آثارها هي الأخرى على أشكال الجماجـــم وسحن كل الأفراد بصورة تجعلك تميز الانتماءات مـــن قصـــر الجماجم أو من طولها لدى جميع الناس ! كل هذا من أجل جعل اليهودية قومية لا ديناً .

رابعاً : لقد أخذ بعض الدارسين العرب ، نتيجة لعملية الخلط بين الحوريين العرب مـــن أقصى الجنوب وقبائل القفقاسيين في أقصى الشمال ، يعممون مرادفات الشماليين علـــى الجنوبيين أيضاً. فالأمراء الحوريون العرب في سراة شبه جزيرة العرب، الذين اشتركوا في الزحف على أرض المصريين في جنوب زهران فترة طويلة من العاصمة أفـــاريس (أوار) ، وأطلق عليهم اسم الهكسوس ، يتحولون إلى قفقازيين . فكما شاع الخطأ الكبير والفادح في الخلـــط بين أرض كنعان في الجنوب من جزيـــرة العرب وفينيقيا (الساحل السوري على المتوسط) ، صار هذا الخلط بين العرب الحوريين في المرتفعات الشمالية لبلاد غامد غرب شبه جزيرة العرب والقبائل القفقاسية في أقصى الشمال الشـــرقي مـــن ســـوريا والعراق . ولم ينـــج الأســـتاذ أســـد الأشقر من هذا الخطأ الفـــادح ، إذ نجد في كتابه " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " : " وقد وضع الفرعون أحمـــس الأول ، مؤسس السلالة الثامنة عشرة حداً نهائياً لسيطرة الهيكسوس ، ولما قـــــهرهم في معارك " أفاريس " الفاصلة ، ردهم إلى الساحل السوري ، وتابع زحفه فأخضع فينيقيا ، ثم تابع تحوتمس الثالث (1503 ـــ 1449 ق.م) مخطط أسلافه ، وبعد انتصـــاره علـــى الكنعانيين في مجدو ، أذعن له القسم الأكبر من المدن الفينيقية ، ولم تقاومه إلا ســـيميرا وأرواد ، فأخذتا عنوة ، وأمست فينيقيا دويلات تابعة لمصر .

" لم يبق من أثر الهيكسوس في ســـوريا ، بعد هزيمتهم في مصر ، إلا مملكة ميتاني الـــتي أقاموهـــا في أقصى الشـــمال ، والميتانيـــون الحوريون هم من الأقوام التي انضمـــت إلى الهيكسوس في حملتهم على الساحل السوري ، وعلى مصر"[1]

فكيف غاب عن المؤلف مثل هذا التناقض: أحمس يقهر الهيكسوس في عاصمتهم أفاريس على الدلتا ، ويردهم إلى الساحل السوري ، ويتابع زحفه وراءهم ، ويخضع فينيقيـــا . وفينيقيا ، كما هو معلوم ، تمتد من جنوب صـــور إلى إنطاكية ، لقد وقـــع في خطـــأ المترادفات الشائعة القائمة على أســـاس " جغرافيا التوراة " المزورة ، فاستبدل الســـاحل الســـوري تلقائيا بأرض كنعان علما أن أرض كنعان هي في جزيـــرة العرب كما عـــاد واستخدم كلمة " فينيقيا " كمرادف ثالث لها ، فكيف يكون الفرعون أحمس قد أخضع فينيقيا (أي الساحل الســـوري اللبناني كله اليوم) قبل أن يمر بـــ " مجدو " التي مـــن المفروض أنها في فلسطين ؟ ثم يأتي خلفه تحوتمس الثالث ويخـــوض معركة مجـــدو مـــع الكنعانيين فيخضع له " القسم الأكبر من المدن الفينيقية " !

فمن هم سكان المنطقة الغربية من الوطن العربي السوري ؟

---

(1) أسد الأشقر ــ " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربـــي " القســـم الأول ، الجزء 1 ، ص158 .

الفصل الخامس

الوطن العربي السوري

الأموريون

كنا قد أسلفنا عند الحديث عن ما دعي بـ " الهجرات السامية " إلى أن هذا المصطلح الحديث الدخيل ينافي العلم والمنطق ، ويناقض وجه الواقع والحقيقة ، ويوقع الباحث في مجموعة من الأخطاء الفادحة في فهم تاريخ الشعب العربي والمنطقة العربية .

ولقد بينا كيف أنه ما من سبب على الإطلاق يمكن أن يدفع بموجه بشرية عارمة كل ألف عام من شبه جزيرة العرب إلى مناطق الهلال الخصيب ، فتحتل مواقع ، وتسقط دولا ، وتقيم على أنقاضها حضارة جديدة . وشرحنا كيف أن حركة المجموعات السكانية العربية إنما كانت تتم على شكل " جولان " وليس في شكل " موجات مهاجرة " . والجولان هو تحرك الشعب الواحد في أرضه مما ثبت وحدة الأرض والشعب واللغة والتاريخ . ولما لم يكن هذا الجولان يحمل في معناه اتجاها محددا أو تجمعا سكانيا بالذات فقد كان ذلك من الأسباب الأساسية التي جعلت العرب يتجاوزون بشكل مبكر مرحلة القبيلة إلى الشعب في تطورهم التاريخي . وإن الأسماء التي أطلقت على الدول التي أقيمت منذ بدء التاريخ وحتى القرن الأول قبل الميلاد كانت أكبر دليل على ذلك . فلا السومريون كانوا قبيلة ، كما لم تكن دول الأكاديين ، والبابليين ، والابلائيين ، والآشوريين ، والفينيقيين والقرطاجيين والأنباط ، والتدمريين دولا لقبائل أيضا .

وحينما تحدثنا عن وجود وانتشار قبيلة عربية تعتبر حديثة هي قبيلة عنزة ، على الأرض العربية اليوم ، وفي شيئ من التفصيل ، فإن ذلك لم يكن إلا لإظهار حقيقة وجود القبائل العربية المتداخل قبليا من جهة ، والمتشابك تطوريا ، من جهة أخرى ، إذ إن في القبيلة جميع الأنماط المعيشية للسكان من رعاة الإبل أصحاب الجولان البعيد والأمدية البعيدة

، إلى رعاة الأغنام إلى البدو أنصاف المستقرين ، إلى المستقرين الزراعيين ، إلى العـــاملين بالتجارة ، إلى الحكام وأصحاب الشأن وبناة المدن والأرياف وملوك الدول .

وعلى هذا الأساس من الفهم وحده يمكننا أن نتحدث عن القبائل أو السكان في الوطـــن العربي ، وشكل حركتهم وتواجدهم .

فإذا كان الباحثون قد اعتبروا أن الأموريين هم سكان المنطقة الغربية من سوريا ، أكــان ذلك استنتاجا من دلالة التسمية ، أو نسبة إلى جدهم القديم إله الحرب والصيد [1] ، فإن ذلك لم يكن ليعني بأية حال أن تواجد الأموريين كان مقتصرا على المنطقة الغربية مــــن سوريا ، وإنما شمل الوطن العربي السوري بجميع مناطقه وأقاليمه من حدود عيلام شـــرقا ومرورا بسومر ، وحوض الفرات الأوســـط (بابل وأكاد) وحوض الفـــرات الأعلـــى (ماري) ، إلى حوض قونيا شمال مرسين ، إلى سوريا المجوفة (عبلا ـــ إيبلا) وحلبـــو (حلب) إلى أوغاريت ، وعمريت ، وجبيل ، وصيدا ، وصور ، ودمشق ، وأريحـــا ، إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر وغرب شبه الجزيرة العربيـــة إلى دلتا النيل ومنه غربـا على امتداد الشمال الإفريقي كله ، وبكلمة : إنهم يكادون يكونـــون السكان الأصليين للوطن العربي السوري القديم الذي يشمل اطراف شبه جزيـــرة العرب والهلال السوري الخصيب وشمال إفريقيا . فدعي البحر الأبيض المتوسط " بحر أمورو" ، ويمكن القول إنهم والسوريين أو السريان Syrians شيئ واحد .

الأموريون في سومر ـ اللغة والكتابة

لقد وجدت حضارة زراعية في جنوب الرافدين منذ 5500 ق.م وتطورت خلال آلاف السنين ، وتردد الباحثون كثيرا في إعطاء هويـــة لأصحابها قبل عهد الكتابة ، لأن الهوية لغوية ثقافية وليست عنصرية أو عرقية.

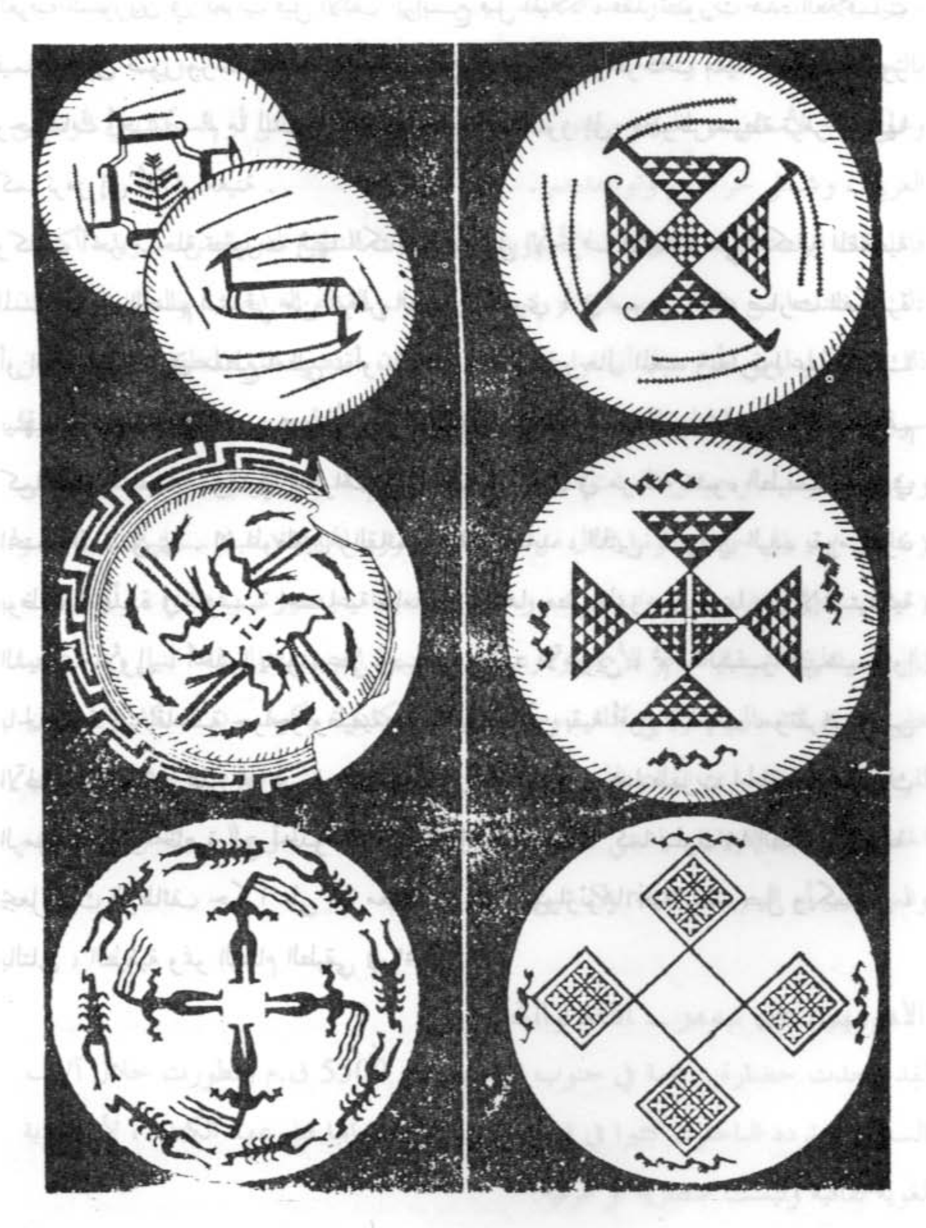
ولما كانت بداية العلاقات الكتابية هي علامات حسابية خاصة بقيود الكنهة ، من صادر ووارد إلى المعابد ، في الجناح العربي الســـوري الشرقي (ســـومر) وبحسابات التجـــار

---

(1) انظر : فليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 70

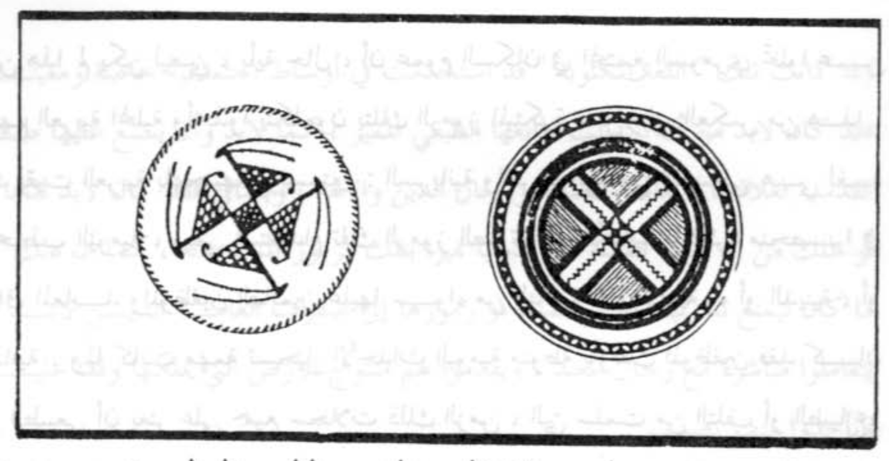
العرب السوريين في الغرب قبل الألف الرابع قبل الميلاد ، فقد تطورت هذه العلاقات فيما بعد إلى صور ورسوم معقدة لأشخاص في أوضاع وحركات معينة ، ولطيور وحيوانات أخرى ، ثم ما لبثت أن اختصرت هذه الصور إلى خطوط بسيطة ترمز إليها كما ترمز إلى أفكار معينة .

وكانت آخر مرحلة تطورت إليها الكتابة ما قبل الأحرف الأبجدية هي الكتابة المقطعية المسمارية في القسم الشرقي من الوطن العربي السوري ، في سومر . لقد صارت الفكرة أو الكلمة توجز في مقطع لفظي ، أو مقاطع ، وضعها رجال المعبد وتعارفوا عليها فيما بينهم ، كما تعارفوا على رسمها (أي كتابتها) ، وأخذوا يستخدمونها في حساباتهم كما صاروا يستخدمونها في صلواتهم وعباداتهم ، وذلك في مرحلة نشوء الطبقات في المجتمع السوري . إن الموظفين والقائمين على المعابد ، الذين كانوا في البدء يقومون بوظائف محددة في مؤسسة اجتماعية عامة ، اعتبرها بعض المؤرخين نوعا من الاشتراكية الدينية الأولى ، أخذوا يثرون على حساب جهود الآخرين ، ثم ما لبثوا أن شعروا بالحاجة إلى إقامة حواجز وظيفية دينية تميزهم عن بقية أفراد الشعب ، وتقربهم من الآلهة ، مما يضفي على تميزهم في الثروة طابع المشروعية . وهنا ظهرت الحاجة إلى تلك الرموز السرية الخاصة التي أخذوا يسجلون بها الحسابات ، كما يتلون بها الصلوات ، مما يجعل تلك الوظائف حكرا على فئة معينة من الناس يتوارثونها جيلا بعد جيل ويكرس ، بالتالي ، الطبقية ونمو النظام الطبقي في المجتمع .

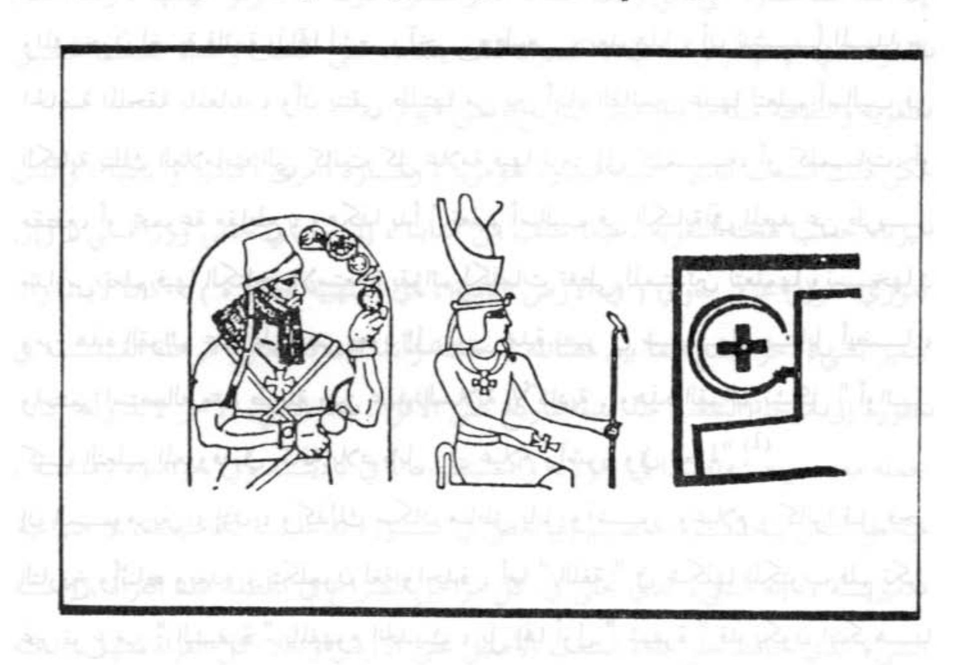


الصليب رمز الخصب والزوبعة رمز القدرة الاخصابية الكونيـة الأولى

فخاريات سامراء الألف الخامس قبل الميلاد



تصوير طبيعي ، الانتقال من التصوير الطبيعي إلى التجريد



الصليب رمز الخصب يحل محل الطفل ، من اليسار إلى اليمين :

بابل ، مصر ، عيلام

لكن هذا لم يكن ليعني ، بأية حال ، أن عموم السكان في المجتمع السومري تخلوا عن لغتهم العربية المحلية وأخذوا يتكلمون بتلك الرموز المبتكرة ، بل على العكس من هذا ، فقد بقيت العربية بلهجتيها الرئيسيتين : السريانية والعرباء التي هي الفصحى هي لغة التخاطب اليومية ، وبقي استخدام تلك الرموز الصوتية ــ الكتابية المبتكرة منحصرا في نطاق المعابد والموظفين القائمين عليها سواء من الناحية الاقتصادية ، أو الدينية ، أو الثقافية . ولما كانت مهمة تسجيل الأحداث اليومية منوطة بأولئك الموظفين فقد كان من الطبيعي أن يعثر على جميع سجلات ذلك الزمن ، التي سلمت من التلف أو الضياع، في أروقة المعابد ومستودعاتها مسجلة بتلك الرموز التي سرعان ما اعتبرها الدارسون والمؤرخون لغة قائمة بذاتها لشعب آخر . وطبيعي ، بعد هذا ، أن تنشأ المدارس الخاصة الملحقة بالمعابد ، وأن ينتقي طلبتها من بين أبناء القائمين عليها لتعليم أساليب فن الكتابة بتلك العلامات التي كانت كل علامة فيها ترمز إلى كلمة، أو كلمات، أو مقطع، أو مجموعة مقاطع ، وهكذا بدأ " تعليم أساليب فن الكتابة في المعبد عن طريق مدارس تعلم فيها الكتابة بالاستعانة بقوائم لكلمات تعطى للمبتدئين لتعلمها ونسخها . ومن هذه القوائم عثر على نص يعود إلى دور جمدة نصر في شمال بابل أيضا ، واستمر استعماله مدة طويلة حتى عهد السلالة الأكادية . وهذه القوائم تشكل " أوائل كتب التعليم المعروفة في كافة بلاد بابل وفي عيلام وآشور وفي العالم" [1]

إن السومريين ، إذن ، وكذلك سكان مناطق بابل وآشور وعيلام ، كانوا قبل فجر التاريخ وأثناءه وبعده ، يتكلمون لغة واحدة . أما " اللغة " في شكلها المكتوب فلم تكن غير نوع من " الشيفرة " بالمفهوم الحديث ، بل إنها أول " شيفرة " قد يكون ابتكرها الإنسان في التاريخ . إنه لمن المعلوم أن جميع الدول اليوم تستخدم لغة كتابية وبرقية مرموزة في مراسلاتها الدبلوماسية والسرية ، لا يعرفها أو يطلع عليها غير أصحاب الشأن فيها ، لكن ذلك ليس يعني أبدأ أن شعبا ما جديدا يكون قد أحدث مع اللغة " الشيفرة " .

---

(1) الدكتور هشام الصفدي " تاريخ الشرق القديم " الجزء 1 ، ص 126

ولما كانت تلك " اللغة المكتوبة " قد استخدمت في أوساط اجتماعية خاصة ومعينـــة ، فقد كان لابد من أن تكتسب طابعها الطبقي المميز ، كما لابد وأن يسبغ عليها طـــابع القدسية لعلاقتها بالمعابد والصلاة ورجال الدين والآلهة ، وبالتالي فقد كان لابد للحاكم أو الملك من أن يتخذ لنفسه لقبا قدسيا مميزا بتلك الرموز المستحدثة ، كما أن ذلك كله ما كان ليمنع تسرب بعض كلماتها او رموزها إلى صفوف العامـــة الذيـــن لابـــد وأن يتعاملوا مباشرة مع رجال المعبد ، ويقدموا لهم منتوج الأرض التي يملكها وقفا عليـــه ، ويأخذوا منهم نصيبهم .

إن هذه الظاهـــرة هي التي وقف عندها الدارســـون دون أن يحاولوا فهمها ، ربما لعـــدم الـــرغبة في فهمها وتوضيحها ، كـــون ذلك يساعد على كشف وحدة الشعب العـــربي اللغوية والثقافية منذ ما قبل فجر التاريخ وحتى اليوم .

لكن ذلك الشعب الذي أسميناه تـــارة سومريا ، وتـــارة أخرى أكاديا أو بابليا ، والذي ميزناه حسب لهجته اللغوية ، فيما سلف من كتابنا ، إلى سرياني جبلي وزراعـــي ، وإلى أموري ، وإلى عربي بدوي (في الأرض البادية ، أي السهبية الظاهرة) ، كان لابـــد وأن يتميز بشيء آخر يجمع فيما بين فصائله ، خاصة وأنه كان قد تجاوز مرحلة القبيلـــة في تطوره إلى مرحلة الشعب منذ بدء التاريخ على الأقل . هذا الشيء الآخر لابد وأنه كان يحمله معه ، ويعيشه ضمنا في جولانه واســـتقراره ، في باديتـــه وفي حواضره ومدنـــه ، فيجعل الناس ينجذبـــون بعضهم إلى بعض في صـــورة تفاعليـــة تكامليـــة، لا صراعية تدميريـــة ، إنه الشيء الذي تجلى في كل مراحل الصراع في المنطقة ضد الغزاة ، وإنـــه الشيء الذي حافظ على بقاء الشعب الأصيل على الأرض وجلا كل الغزاة عنها ، إنـــه الشيء ـــ الرابطة التي كانت تربـــط أولئك الناس بعضهم إلى بعض ، وتربطـــهم جميعا بالأرض التي تمكنوا دائما من حمايتها والاحتفاظ بها .

فهل يعني هذا أن أولئك السومريين والأكاديين والبابليين والعيلاميـــين والآشـــوريين ، والأموريين والسريان والآراميين ، والفينيقيين ، والكنعانيين ، لم يكونوا إلا أسماء متعددة لشعب واحد ؟

كنا قد أشرنا إلى أن اللغة المكتوبة هي الدليل المادي الأهم الذي يعتمد في تحديد هوية الشعب . ولما كانت كل مدونات السومريين هي باللغة الكتابية الرمزية التي ابتدعها رجال المعابد ، فإن ما وصلنا عن السومريين بقي رهن تلك الأشكال الرمزية التي تختلف اختلافا جذريا عن الكتابة بالأحرف الأبجدية التي ابتدعها أشقاؤهم في الغرب على ساحل المتوسط . ولما كانت الكتابة السومرية الرمزية المقطعية الملصقة لا تعبر عن أصوات الكلمات في اللغة ، بل تعبر عن مجموعة أصوات بصوت واحد وعلامة واحدة ، فقد كان يستحيل إيجاد التشابه اللفظي بينها وبين اللغة المحكية ما عدا بعض الكلمات القليلة أو الكثيرة ، التي تتسرب من واحدة إلى أخرى بفعل المعايشة اليومية بين جميع فئات السكان وطبقاتهم .

وبالرغم من أن الكتابة بقيت شأنا من شؤون المعبد وحده هيئتها الرمزية السرية لفترة طويلة . قبل ظهور الكتابة الأبجدية ، فقد بقي المؤرخون يصرون على اعتبار هذه الكتابة " الشيفرة " هوية لشعب غريب ، لجنس لا يمت إلى العرب بصلة .

يقول الدكتور هشام الصفدي في كتابه " تاريخ الشرق القديم " : " أما نشوء الكتابة السومرية فإنه يدين إلى المعبد ، الذي تطلبت العمليات الاقتصادية التي كان يمارسها تثبيت المعاملات الواسعة والعقود ، رغبة في تنظيم العمل . وفي الحقية تم العثور على أقدم الرقم الفخارية في نطاق أبنية المعبد كلية مما يدل على أن هذه الرقم كانت مجرد وثائق اقتصادية الطابع . وهذا ما يؤيده محتوى الرقم نفسها ، وبالتالي يمكننا أن نستنتج أن الكتابة وجدت في بدايتها لخدمة مصالح المعبد السومري الاقتصادية . ويتضح أيضا أن الكتابة كانت على ما يبدو ، غير ضرورية لغير هذه الحاجات ، أي أنها لم تكن لازمة خارج اقتصاد المعبد " [1]

لكنه ، ورغم تأكيده هذه الحقيقة التي تجعل تلك " اللغة الكتابية " محصورة في إطار المعبد الضيق وحده ، لم ينتبه إلى أن ذلك كان كافيا لتفسير وجود لغة " أخرى " غير السامية في سومر ، لأن "اللغة السامية الأكادية " المحكية لم تظهر إلا من خلال

---

(1) الدكتور هشام الصفدي ، تاريخ الشرق القديم " الجزء 1 ، ص130 .

مدوناتها بعد ابتكار الأبجدية ، ولايمكن لغير الأبجدية أن يعكس أصوات اللغة المحكية كما هي ، بل نراه يقع ، كما وقع غيره ، في خطأ افتراض وجود شعب آخر في سومر ، ينتمي إلى عرق آخر لا علاقة له بالعرب ، حيث يقول : " إن هذه الحقيقة لا تعني بأن هذا الشعب (السومري) كان يعيش آنذاك بمفرده في المنطقة ، أولا توجد إلى جواره مجموعات عرقية أخرى ، بل يجب علينا أن نتوقع وجود مستوطنين آخرين يتكلمون لغة سامية ، نتعرف عليهم عن طريق بعض الكلمات القديمة التي استعارتها اللغة السومرية ، وإذا التفتنا بأبصارنا إلى بلاد بابل لوجدنا أن التقاء السومريين والساميين على أرض هذه المنطقة قد أدى ـــ كما هي الحال دوما في لقاء شعبين ولغتين مختلفتين ـــ إلى تبادل استعارة الكلمات، وفي هذا المقام بقيت اللغة السومرية بلاريب الطرف الأكثر عطاء "[1]

لقد عرضنا هذا القول كنموذج لأقوال كل المؤرخين العرب الذين أخذوا ما كتبه المؤرخون الأجانب عن السومريين بدون أن يمنحوهم حقهم من الدراسة والتمحيص . وكنا في حديثنا عن السومريين قد فندنا الادعاءات القائلة بأن السومريين ليسوا عربا ، أما ما يهمنا هنا فهو تسليط الضوء على ذلك الشعب الذي شارك السومريين أرضهم ، كما ذكر أولئك المؤرخون ، وأطلقوا عليه اسم " الشعب السامي "

إذا كانت اللغة في فجر التاريخ لم تسجل لنا شواهد على وحدة ثقافة الشعب الذي سكن مناطق سومر ، عيلام ، وبابل ، وأكاد ، وآشور ، قبل اختراع الكتابة ، فإن شواهد أخرى تركها إنسان ذلك الزمن لا تقل في أهميتها عن الكتابة بكثير ، وقد مررنا على بعض منها :

1ـــ ذلك التشابه في بناء المعابد بين منطقة سومر وحوض الفرات الأعلى منذ عصر ثقافة العبيد (قبل فجر التاريخ) مما جعل المؤرخين في حيرة من أمرهم إزاء تحديد من الذي نقل فن بناء تلك المعابد إلى الآخر : الجنوب أم الشمال ، وهذا ما يؤكد المسيرة الثقافية الواحدة لذلك الشعب منذ تلك العصور السحيقة الموغلة في القدم .

---

(1) المصدر السابق ـــ ص 126 .

يقول الدكتور هشام الصفدي : " أما الإنجاز الضخم الذي أرسيت نواته في دور العبيد الباكر في الشمال ، فإنه يتمثل في المباني العامة الضخمة المخصصة للعبادة ، وتتميز المعابد بمخطط هندسي فريد ، يتألف البناء بموجبه من ثلاثة عناصر : قاعة مركزية ، يحيط بها من الجانبين عدد من الغرف الفرعية (المعبد الشمالي) ، وسنرى أن هذا المخطط يشابه مخطط المعابد المبنية في الجنوب ، وخاصة معابد السويات الثمانية في مدينة أريدو . وبرغم اختلاف الآثاريين حول أصل هذا المخطط الهندسي في عمارة الشرق القديم ، ومدى تأثير المنطقة الشمالية على الجنوبية في تنفيذه ، وفي ذلك تضارب مع الرأي القائل بأن إشعاع ثقافة العبيد اتجه من الجنوب إلى الشمال ، يميل الأستاذ هينريش في دراسته الشاملة لتطور العمارة الشرقية إلى اعتبار معابد تبه جورا ، بمخططها وبتصميم جدرانها المستمد من فن بناء البيوت الخشبية ، إنجازا معماريا فريدا أثر على فن العمارة الرافدية في الجنوب ، وشكل النماذج الأولية التي قادها معابد الوركاء السومرية في مرحلة فجر التاريخ " [1]

2 ـــ ولم تقتصر سهول الجنوب الرافدي على تقديم أراض خصبة أمنت إنتاجا وفيرا في المحاصيل الزراعية ، ساهم بدوره في تزايد عدد سكان المنطقة ، وفي اتساع مستوطناتهم منذ النصف الثاني من الألف الخامس قبل الميلاد ، بل تتابع مدن الجنوب تمثل وتطوير عناصر حضارية اكتشفت مخلفاتها سابقا في مناطق الشمال الرافدي . وكما تقدم ، لم تقتصر المؤثرات على ميدان العمارة عامة ، والعمارة الدينية خاصة ، التي لم تعبر فقط عن أفكار محددة حول مبادئ بناء بيوت العبادة ، وعن العلاقة المستمرة الوثيقة بين الآلهة والبشر ، بل شملت مجالات أخرى كالفنون والصناعات . فهنالك الأختام المسطحة ومواضيع الصور المنقوشة عليها ، والهراوات الحجرية ، والقلادات والتمائم ، وتقنيات وزخارف الأواني الفخارية ، يضاف إلى ذلك أفكار دينية رئيسية كموضوع الخصب والتكاثر التي عبر عنها في دمى طينية مثل الإلهة الأم وفق أوضاع ستصبح تقليدية لقرون عديدة ، كوضع اليدين تحت الثديين ، وإظهار الخصائص الأنثوية ... الخ ، وتكاد هذه

---

(1)المصدر السابق ص 88 .

العناصر تشكل تراثا مشتركا شمل المنطقة منذ أواخر النيوليتي ، وانتقلت عناصره وتطورت عبر ثقافات الكالكوليتي ، (حسونة ـــ سامراء ـــ تل حلف ـــ العبيد) وهذه الحقيقة تؤيد ، من جهة ، ما توصلت إليه الدراسات الجغرافية ـــ التاريخية حول احتمال وجود مستوطنات في الجنوب الرافدي معاصرة لنظائرها الكالكوليتية في الشمال ، وتنفي ، من جهة أخرى ، الرأي القائل بأن مبادئ التحضر وفنون العمارة والتصوير والتشخيص أرسيت أسسها في مدن الجنوب الرافدي في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد ، وانتشرت إشعاعاتها من هناك لتؤثر في مناطق واسعة من عالم الشرق العربي القديم .

3 ـــ تتميز الرقم الطينية المجففة بأنها تحمل علامات تمثل أرقاما حسابية تشابه نظائرها المكتشفة في تل حبوبة مثلما تشبه الرقم المكتشفة في الوركاء والمزودة أيضا بطبعات ختم إسطواني . وعلى الرغم من أنه لم تحدد ماهية البضائع التي تشير إليها العلامات الحسابية المدونة على الرقيم فإن هذه العلامات كانت بمثابة المرحلة الأولى من اختراع الكتابة .

وهذا يعني أن المنطقة السورية ، من الفرات الأعلى ، إلى الأوسط ، إلى الجنوب ، كانت تشكل وحدة ثقافية كتابية في المرحلة الأولى من نشوء الكتابة .

4 ـــ وتشير طبعات الأختام المسطحة التي عثر عليها في السوية 12 من حرم معبد " ايانا " إلى استخدام الأختام المسطحة في الجنوب أيضا ، وإلى الشبه القائم مع سوزا (السوس) ـــ ب ـــ عاصمة عيلام ، مما يؤكد تعاصر وتشابه هاتين المدينتين . وهذه الملاحظة تجد ما يؤكدها في التشابه الكبير بين أختام الوركاء الأسطوانية السوية الرابعة ـــ ب ـــ وأختام سوزا السوية ـــ CA ـــ وفي هذه السوية تظهر طبعات أختام على الرقم الفخارية عثر عليها في مدينة سوزا ، وفي كلتا الحالتين يلاحظ تطور طبيعي في مواضيع الختم المسطح إلى مواضيع الختم الأسطواني ، وهذه الأخيرة تضمنت قصصا ومواضيع إخبارية لا ريب في أنها تشكل المرحلة التحضيرية لنشوء الكتابة التصويرية [1].

---

(1) المصر نفسه ، ص 100 .

5 ــ وحينما أوجدت الكتابة المسمارية تم العثور عليها في أبكر مراحلها في مدينة كيش التي يعتبرها المؤرخون عاصمة الساميين الأولى ، والواقعة شمال مدينة بابل ، وأن قوائم الكلمات التي كان الناس يتعلمون الكتابة المسمارية بواسطتها كانت موحدة في بلاد بابل ، وهذا كله يدل على تماسك أجزاء البلاد المختلفة .

6 ــ وعلى العموم تنتسب هياكل السكان العظمية في أدوار أريدو ــ الوركاء ، شأن هياكل أهل ثقافة تل حلف في الشمال ، إلى العرق المتوسطي **Mediterranian** ذلك العرق الذي ينسب إليه فضل إنجاز أوائل الحضارات في بلاد بابل [1] .

وهنالك أمور أخرى على جانب كبير من الأهمية أيضا :

1 ــ أن أسماء الملوك مؤسسي السلالات في سومر كانوا من أصل عربي أيضا كما دلت المكتشفات . فمن بين أسماء 23 ملكا من ملوك السلالة الأولى في كيش تم التعرف على 12 اسما " ساميا "، وستة أسماء باللغة الرمزية الدينية وتبقى بعض الأسماء غير مقروءة ، وهذا أمر مهم كونه يبين سيطرة العنصر العربي في سومر منذ 2800ق.م ، وبرز في ذلك التاريخ الملك ايتانا الراعي الذي نجح في توحيد المدن السومرية حوله بزعامة كيش إلى حد معقول .

ومن ملوك هذه السلالة عرف ملك باسم موسيليم (وقد تكون الموصل سميت باسمه) ، ونحو عام 2750 ق.م أسس الملك " مس كي أجاشر " سلالة أوروك الثانية ، ويبدو واضحا أصله العربي السامي من اسمه . وهناك أسماء كثيرة لملوك آخرين في بقية مدن سومر مثل أمارجان ، شوسين ، شولجي ، اوتوهيجال ، جلجاميش ، أمارسين ، أبي سين ، نبلانوم ... الخ ، لاداعي لذكرها جميعا هنا ، وتؤكد جميعها الوجود العربي الكثيف والغالب دائما في سومر كما في غيرها منذ أقدم العصور .

2 ــ إن النظرة إلى العالم هي نفسها في كل أرجاء الوطن العربي السوري والمتمثلة في ديانات الخصب . وأن شمش ، وحدد ، وعشتار ، وتموز ، وبعل ، ودجن ، وايل ، وجاشر ، وأميش ، وأدون هي الآلهة الأكثر شعبية في جميع المناطق مع مختلف أسمائها

---

(1) المصدر السابق ، ص 96 .

وألقابها ، وطريف هنا أن نشير إلى أن الوثائق المكتشفة في " عبلا " (إيبلا) أظهرت كيف أن الإيبلائيين كانوا يقدمون الذبائح لدجن كنعان (في غرب شبه الجزيرة العربية) في شهر عشتار (الشهر الحادي عشر) ، كما يقدمون الذبائح للرب " أنكي " وهو رب الحكمة لدى السومريين في الشهر السابع ، وللرب " أنو " السومري وإيل الإله العربي الشامل في الشهرين السادس والحادي عشر ، كما تقدم الذبائح لالهة "إيبلا " نفسها ولجميع بقية أنحاء الوطن العربي [1] .

3 ـ ثم ما أن حلت الكتابة بالأحرف الأبجدية التي ترسم أصوات اللغة محل الكتابة المقطعية حتى تبين أن أولئك السكان إنما ينتمون لشعب واحد ، ويتكلمون لغة واحدة هي اللغة العربية بلهجاتها المختلفة .

4 ـ لقد حافظ الحكام والملوك في سومر، وأكاد ، وبابل ، وماري، وإيبلا، وأوغاريت، وصور ، وأرض كنعان على الشاطئ الجنوبي الشرقي للبحر الأحمر ، على تقليد الشهرة باللقب لا بالاسم الحقيقي ، وهذا اللقب كان غالبا يتخذ طابعا دينيا فيقترن باسم أحد الآلهة ، واجتماعيا ، أو عسكريا ، ليدل على مناقب إنسانية فذة كالعدل أو القوة أو الشجاعة أو غيرها .

إن " أوتوهيجل " تعني (السيد الجليل ، مقام الإله الجليل) ، و" أمارسين تعني (مقام السيد سين " رب القمر ") ، و " جلجامش " تعني " كاشف السر ، وسرجون باللهجة الشمالية هو "شاروكين" باللهجة البابلية وتعني الملك العادل ، و" نارام سين " تعني نور الإله سين رب القمر . اما أول ملك بارز في مصر فاسمه "زوسر" وتعني رب السراة أو المرتفعات ، وهو من أصل عربي أموري (2650ق.م)، وهو مؤسس السلالة الملوكية الثالثة ، وباني الهرم المدرج في "سقارة " الحالية التي كانت فيما مضى مقبرة ممفيس عاصمة مصر . أما الملك الذي أسس السلالة الرابعة (حكم حوالي 2600ق.م) فهو "سنفرو" وتعني (ثمرة الرب القمر أو القمر أخصب وأثمر) ومن ذلك جاء الاسم العربي الصميم الشنفرى . ثم إن الملك"سنوستر" الثالث (حكم في حدود 1878 ــ 1849ق.م)

(1) انظر : " ايبلا ــ عبلاء " تأليف باولو ماتييه ومجموعة من الباحثين . ص ،100 ــ 101

والذي يرجع إليه الفضل في تأسيس طرق الملاحة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر وتنشيطها وذلك عبر قناة تربط بين النيل والبحر الأحمر ، كان لقبه يعني (ابن عشتار) أو ربة القمر عشتار ....الخ .

وهذا التقليد العربي القديم نراه يمتد عبر العصور التاريخية مرورا بفترة الممالك التدمرية والنبطية والسبئية والمعينية والحميرية ، ثم يستمر بعد الإسلام ليغطي الخلافتين الأموية والعباسية حتى العصور الحديثة . وإن كثيرا منا اليوم بدءا من طلبة المدارس وانتهاء بالأساتذة المتخصصين في التاريخ لا يعرفون من أسماء كثير من الخلفاء غير ألقابهم مثل : أبي العباس السفاح ، والمنصور ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم ، والمتوكل ، والواثق ، والمستنصر ، والمعتضد ، وناصر الدولة ، وسيف الدولة ، والمعز لدين الله ... وغيرهم .

السوريون (الأموريون) ـ أصل التسمية مناطقهم

يقول الدكتور فيليب حتي :

" إن أول شعب سامي هام بحث عن موطن له في البلاد السورية وأقام فيها هو الشعب الذي أسماه جيرانه السومريون في الشرق بالأموريين ، ولاندري الاسم الذي كان يطلقه على نفسه ، فكلمة " أموريين " إذن غيرسامية ، وتعني " الغربيين " ، والعاصمة الأمورية ماري الواقعة جنوبي مصب الخابور (وهذه أيضا كلمة سومرية) هي من جهة الاشتقاق شبيهة باسم البلاد امورو ومارتو أي بلاد الغرب ، وكان هذا أيضا اسم إلههم القديم ، وهو إله الحرب والصيد "[1] .

الغريب أن الدكتور حتي ، الذي لا يبحث بل ينقل عن غيره دائما ، لم يلحظ في هذه التسميات واشتقاقها الأصل العربي أو "السامي "بل يقرر فورا أن التسمية غير سامية ، لأن الذي أطلقها ـــ في رأيه ـــ هم السومريون . وإنطلاقا من الخطأ الشائع بين جميع المؤرخين بأن السومريين ليسوا من الجنس السامي فطبيعي أن يكون من المحتمل لديهم أن

(1) فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين "، الجزء 1 ، ص 70 .

التسمية غير سامية أيضاً .
إن الأصل العربي للكلمة هو " مر " بعد تجريدها من الحروف الصوتية التي أدخلت عليها لاحقاً ، وهذا الأصل يعني بجميع اللهجات العربيـــة " السيد " كما أن مؤنثه " مـــوت " و " مري " وتعني " السيدة " . ولما كان الخيار امـــام القارئ يبقى في القـــراءة مفتوحاً بإضافـــة الأحـــرف الصوتية التي يريد فقد تقـــرأ " مار " أو " مور ". ولفظ " السيد " و" السيدة " في التقليد العربي القديم كان يطلق على الأب ، أو الآباء المتميزين ، الذيـــن برعوا في مجال ما كان فيه خدمة جلّى للبشرية ، ثم صار يطلق على الحاكم ، ثم علــــى الإله ، وإن مسيرة تطور هذا المعنى تحكي قصة تقديس جميع الآباء عند العرب الأولـين ، ثم الحكام ، ثم تحويلهم إلى أربـــاب ، وإن كلمة " رب " ما تزال تحافظ على هذا الخط من التطور في معناها ، من رب البيت إلى الإله الخالق ، فهي مرادفة لكلمة " مَرْ " ومن المرادفات الأخرى "دم" و "تو" و " عل " أو " ءل " ، إذ الإبدال بين الهمزة والعين مـن أكثر الإبدالات استخداماً وانتشاراً في العربية منذ أول نشأها، و"رم " و "دن" و "سر" . وهكذا فإن " مر " مثلها مثل باقي مرادفاها في اللهجات العربية الأخرى ، تعني السيد ، والأب ، وأب القبيلة ، والحاكم أو الملك الذي على شاكلة " أو في صـــــورة " الـــرب الحاكم الديان .

وليس صدفة أن جميع الآباء الذين عرفوا في المنطقة ، وتحولـــوا إلى آباء مقدســـين ثم إلى أرباب ، كان يطلق عليهم اسم " السيد " أو " السيدة " ومن " مر " جاءت في العربيـــة الحديثة المؤسسة على الثلاثي كلمة " مرء " ومؤنثه " مرأة " .

ومن " مر كانت العاصمة " مري "أي السيدة ، أما المقطع " آ " أو آي (أو " عَـــ " أو "عِـــ") فإنه يعني مقام ، أو بيت ، أو صورة ، أو نسخة ، أو مثل ، بجميع الكتابـــــات العربية الرمزية القديمة ، (وما تزال اللغة العربية اليوم تحافظ على هذا المعنى في الفعـــل " أيّا " أي توقف في المكان وأقام) . وهو بداية كلمة " أرسو " و " أرشو " أو " عرسو " أو " عرشو " ، أو " عرصو " ومعناها المقام ، والعرش ، والأرض ، والترل ، ومنها جاء الفعل " عرّس " أي نزل للاستراحة . وقد ورد في القرآن الكريم " وهو الذي خلق لكـــم

من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها " وبهذا المعنى كان " عـرس الرجل " تعني زوجته ، و" عرس المرأة " أي زوجها ، ومنها أيضاً " عرّش بالمكان أي أقام " ، و" عرّش " البيت أي سقفه ، والعرش سرير الملك ، والعزّ ، والخيمة ، والبيت ، وركن الشيء ، والعروش بيوت مكة ، والعريش البيت الذي يستظل به ، ومكة ، ومنها أيضاً بمعنى عرّس والمعرّص هو المعرّس ، ومنها جاءت العرصة أي ساحة الدار ، والعراص ، أي السـحب وهـو العرش لإله المطر ، والعرص والعرس عمود في وسط الخيمة .

وهكذا فإن " آمار " أو " أمور " (وبالإبدال تصبح عمار أو عمور) تعني مقام السيد ، مقام الرب ، بيت السيد ، بيت الرب ، عرش السيد ، عرش الرب ، أبناء السيد ، أبنـاء الرب ، ومن هنا أيضاً كان ارتباط كلمة "بيت" بمعنى "مقام" كما صارت أيضاً تعـني " أولاد " ، لأن الأولاد ، حسب التصور القديم ، خلقهم الأب السيد علـى شـاكلته ، وصارت عبارة " بيت فلان " تعني جميع أولاده ، وهكذا ارتبطت كلمة " بيت " دينيـاً بـ "مقام" ودنيوياً بـ" أولاد " ، كما صار حرف الباء الذي يعني " بيـت " ينـوب مناب الكلمة ، لكن " بيت " أو الباء " لا تعني ، في أصل معناها ، المترل ، بل البيـت الديني أو المقام ، الذي قد يكون نصباً أو مجموعة حجارة ترمز إلى معنى ديني معـين ، وتسمى " بيت الله " أو " مقام الرب " الذي هو ، في جوهره ، يرمز إلى عرش الـرب عن طريق خلق ما يرمز إليه أو يجسده بصورة من الصور .

وهكـذا صارت "أمرو" ، أو "عمرو" باللهجـة السريانيـة التي تضيف الصوت " و " (O) إلى نهاية الاسم وأحياناً " وم " (om) ، تعني مقام السيد مقام الرب ، بيـت الرب ، ومنها اشتقت " ماري " عاصمة الأموريين وتعني " السيدة " ، كما اشتقت اسم مدينـة " أمريت " أو "عمريت" جنوبي طرطـوس في القطر العربي السـوري ، وتعني " مقام السيدة " أو " مقام الربة " وكذلك بيت مري في لبنان ،ومنها أيضاً اسم "مـريم" وتعني السيدة أو الربة باللهجة السريانية أوالعمورية ، ومنها أيضاً كلمة " العُمرة " وتعني زيارة مقام السيدة أو بيت الرب ، كما اشـتقت كلمة " لعمري " أي " وحقّ مقـام السيدة ، الربة "كقسم ... الخ .



عشتار ربة الشعلة المقدسة

(الحب) فينيقيا .

الأرض العربية ـ الأرض المقدسة

لقد توارث العرب هذا المفهوم عن وطنهم الذي يشغلونه منذ أقدم العصور . وقد أكد القرآن الكريم هذا المفهوم ، إذ جاء في الآية الكريمة :

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾

(آل عمران :95)

فالقرآن الكريم يؤكد هنا على مفهوم البيت المقدس كما سبق أن أوضحنا على انه ليس منزلاً للسكن أو الراحة ، إنه مقام ، والدليل هو أن بيوتاً كثيرة بمعنى " منازل " كانت موجودة منذ آلاف السنين قبل وجود آدم الرسول . ثم إن البيوت (المنازل) ترفع رفعاً ولا توضح وضعاً . أما البيت الذي ببكة فقد وضع وضعاً ، وبالتالي فقد كان مقاماً ، رمزاً ، يعبد الله حوله وليس فيه . والدليل هو أن العبادة بدأت طوافاً حول البيت الذي كان مجموعة حجارة مكومة وموضوعة ، ثم استمر الطواف كأحد مناسك العبادة . فالبيت هو تجسيد في صيغة الرمز لعرش الله ، والطواف حوله محاولة للارتفاع بالبشر إلى مستوى الملائكة عن طريق استنساخ صورة الملائكة الذين يحفون بعرش الله من حواليه.. إنه تمثيل الأصل بصورة عنه مهما بدت الثانية ممسوخة ومقزمة وبعيدة عن الأولى . ألم يخلق الله آدم على صورته ؟

وقد جاء في تاريخ الطبري عن الحارث عن ابن سعيد عن هشام بن محمد عن أبيه عن أبي صالح عن عبد الله بن عباس قال : " لما حطّ (الله عز وجل) من طول آدم عليه السلام إلى ستين ذراعاً أنشأ يقول : رب كنت جارك في دارك ليس لي رب غيرك ولا رقيب دونك ، آكل فيها رغداً واسكن حيث أحببت ، فأهبطتني إلى هذا الجبل المقدس فكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفوّن بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ، ثم أهبطتني إلى الآرض وحططتني إلى ستين ذراعاً فقد انقطع عني الصوت والنظر وذهب عني ريح الجنة .. فأوحى الله تعالى إلى آدم إن لي حرماً بحيال عرشي ، فانطلق فابن لي فيه بيتاً ، ثم حفّ به كما رأيت ملائكتي يحفون بعرشي ، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي ، فقال آدم : أي رب كيف لي بذلك لست أقوى عليه ولا أهتدي له فقيض الله له ملكاً ، فانطلق به نحو مكة ، فكان آدم إذا مرّ بروضة ومكان يعجبه قال للملك : انزل بنا ههنا ، فيقول له الملك : مكانك ، حتى قدم مكة فكان كل مكان نزل به صار عمراناً ، وكل مكان تعداه صار مفاوز وقفاراً ، فبنى البيت من خمسة أجبل (جبال) : من طور سيناء وطور زيتون ، ولبنان والجودي وبنى قواعده من حراء . فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التي تفعلها الناس اليوم ، ثم قدم به مكة فطاف بالبيت أسبوعاً ثم رجع إلى أرض الهند فمات "[1] .

فالبيت الذي " وضع ببكة " إذن ، هو مقام عرش الرب .

ولكن لو أخذنا اسم آدم نفسه ، فإننا نجد الصورة نفسها . لقد قلنا إن " دم " بجميع اللهجات العربية القديمة تعني الأب ، السيد، الرب ، الصورة ، الشخص ، المثيل ، الشبيه وتصبح كلمة "آدم " تعني بيت السيد ، ابن الرب ، مقام السيد ، هيكل الرب ، صورته ـــ ، الشخص ...... الخ ، ومنها أتت كلمة "دمية " العربية التي هي استنساخ للشيء في صورة مصغرة عنه . ولما كان الله الخالق قد خلق الإنسان على صورته ، كما تقول كل المعتقدات القديمة ، فإن آدم تعني المثيل ، الشبيه ، مثال الصورة ، مقام الصورة ، هيكل صورة السيد ، هيكل الرب ، ومن هنا جاء التقديس للجسد (هيكل الروح) ،

---

(1) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 83 .

ومن هنا أيضا صارت " آدم " تعني بيت السيد ، أو بيت الرب ، والآدميون هم أبناء الرب ، لأن بيت تعني هنا أبناء .

وما ينطبق على الجذر " مر" و"دن" و"دم" ينطبق أيضا على "تو"و"نو" الأبوين العتيقين في كتابة سومر الدينية واللذين يعنيان السيد أو الرب ، كما ينطبق على "ءل"و"من"و"رب"في شبه جزيرة العرب .

فإن "تو" التي هي السيد أو الرب [1] تصبح " أتو " وتعني بيت السيد أو الرب أو أرضه أو مقامه أو عرشه ، وكذلك الأمر في " أنو " أو "عانو" أو " عينو" (عين الشمس) ومؤنثه " نوت " وهي ربة السماء في مصر ، نقلا عن السوريين في سومر وبلاد زهران ، ومقامها هو أنات أو عناة وهي الاسم الآخر لعشتار في الساحل السوري ، والشيء نفسه يمكن قوله فيما يتعلق بالجذر "ءل" أو "عل" وتعني : السيد، الرب العلي .. ولما كان من الصعب إضافة همزة ثانية في أولها فقد استعيض عنها بمعناها ــ بمرادفاتها ، بكلمة بيت ، فصارت " بيت أيل " وتعني مقام السيد ، أو بيت الرب ، أو أبناء الرب ، ثم استعيض أحيانا بحرف الباء عن كلمة " بيت " وصارت " بئل " و" بل " التي هي بعل " بعد إبدال الهمزة عينا ، والبعل هو السيد ، والزوج ، والمخصب ، والرب ، وابن الرب ، مقامه ، وعرشه .

ويتضح معنى " بيت ايل " في رواية التوراة كيف أن يعقوب " بنى بيت المرتفعات ... وأوقف في بيت ايل كهنة المرتفعات التي عملها " [2] وكانت بيت ايل قبلا تسمى لوز ، ولما كانت عبادة "ءل" كإله قد انتشرت في جميع أنحاء الوطن العربي وزاحمت بفعالية كبيرة عبادة الآلهة الأخرى منذ عهد آدم ومرورا بإدريس ، ونوح ، وزكريا وهود ، وصالح ، ويحيى ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل الذين جاهدوا في سبيل توطيد عبادة الإله الواحد ، فقد ارتبطت الأرض العربية به ، وصارت أرض التوحيد الأولى في العالم ، فدعيت بأرض الله ، أو الأرض المقدسة ، كما صار أبناؤها

---

(1) انظر : ايبلا ــ عبلاء ، ترجمة قاسم طوير ، ص 101 ، حيث نجد أن " تو" هو أحد الأرباب المقدسين في ايبلا .
(2) الملوك الأول 12 : 28 ــ 33 .

هم أبناء أرض الله ، أو الأرض المقدسة .
وكذلك الأمر مع الجذر "رم" المرادفة لـ"ءل" أو "عل" وتعني الأب البعيد ، العالي ، وبالتالي : السيد العلي ، ومؤنثها "رمت" أو رمث " ،رمتا ، رمثا ، وتعني السيدة ، العالية ، وما تزال بعض المدن والقرى في سوريا الطبيعية تحتفظ بهذا الاسم . ثم لما أضيف إليها مقطع " أ " أو "عـ " صارت " أرم " أو "عرم" ومعناها مقام ، أو بيت ، السيد الأب البعيد ، أب القبيلة ، أو السيد العلي ، وبالتالي : بيت أو مقام أو عرش الرب ، ومنها أيضاً جاءت الكلمة العربية " أرومة " وتعني الأصل البعيد ، أو الأب الأول ، وما تزال بعض القرى في الساحل السوري تحتفظ بهذا الاسم (عرمتا، عرمتي ...) .
ولما أضيفت في اللفظ (لا في الكتابة) الأحرف الصوتية إلى هذه الكلمات صارت تختلف بين العربية الأمورية التي تضيف " آ (a) " ، والسريانية التي تضيف الصوت "و(O) " إلى نهايات الأسماء ، وأحياناً "م (Om) " مثال : " تاج" وهو "تاجا" في الغربية تصبح " توجو" باللهجة الشرقية وتعني " تاج" وجذرها " تج"، وهكذا صار في الإمكان أن نتعرف على لفظ أمورو (عمورو) ، أدومو ، أدونو ، أرومو ، باللهجة الشرقية ، وعلى أمار ، أدام (آدم) ، أدان (أدن أو عدن) ...الخ ، في لهجة ظاهرة (بادية) شبه الجزيرة العربية التي لا تضيف شيئاً إلى نهايات الأسماء بل تلفظ التنوين ولا تكتبه ، وهي التي أطلقنا عليها اسم " اللهجة العرباء " .
أما كلمة "رب" نفسها فليست بحاجة إلى إيضاح لما تعنيه مباشرة فهي تعني : الصاحب ، السيد ، المالك ، المعلّم ، الإله . وإذا ما أضيف إليها المقطع " عَـ " (أو " أ ") تصبح "عرب " أو "أرب" بمعنى بيت الرب أو أبناء الرب ، كما صارت الـ"عربة " أرض أبناء الرب ، أو أرض مقام الرب ، وهي برية شبه جزيرة العرب ، إنها باختصار ، الأرض المقدسة .
بقي أن ننظر إلى " سر " وهي تعني السيد ، العالي ، وآ ـ سر تعني مقام السيد ، أو بيته أو أبناءه ، ومؤنث الكلمة " سرت " أو "سري "، ومؤنث " آ ـ سر " أ ـ سرت" وتعني مقام السيدة أو بيتها أو أبناءها ، ويرجح أن هذا الأب هو الأب البعيد للسوريين

الذين سموا باسمه ، كما سميت بلادهم " سري " (سوريا قبل دخـول الصوتيات إلى الكتابة) نسبة إلى السيدة زوجته الأم الكبرى سري (مثل مر ومري) ومن "سـرت" اشتقت الصيغة الثانية " سورية " لاسم البلاد ، كما اشتق مقام وبيت الأم السورية الكبرى أسرت ، عسرت ، عثرت ، أثرت ، أتـرت ، عاشـرة ، عشـيرة ، عشروت ، هشتر ، أشتر ، وهي نفسها سرا ، وسرت ، وشعرى ، وهي سارة ، وشارة (بمعنى الملكة السيدة) ، وباسمها صار ذو الشرى ، وجبال السراة ، وسوريد (سـيد الوادي ، الذي هو اسم خوفو ملك مصر) ، وباسمها دعي خليج سرت في ليبيا ، ومـن " سرت" (السيدة) جاء اسم مسراتة في ليبيا أيضا والذي يعني السيدة المبجلـة ، ومن "سر" أيضا جاء اسم " أسر حدون " (بيت السيد حدد ، أو أدون) .

والنقطة الثانية التي نود أن نلفت الأنظار إليها هنا والتي تؤكد وحـدة الشعب العـربي السوري منذ أقدم العصور هو أن جميع هؤلاء الآبـاء الأوائل اقترنت عملية تقديسـهم بتقديس الخصب . فالأب الأكبر والأم الكبرى تجسيد لعملية الإخصاب الكونية العظمى المقدسـة . ولإيضاح ذلك يكفي أن نضيف إلى أسماء أولئك الآباء أول حرف بالأبجدية السوريـة العربية وهو الهمزة ، التي كثيرا ما تتبادل مع العين العمل والموقع والوظيفـة ، لنلتقي فورا بالصـورة الكونية الأولى المقدسة لدى السوريين القدماء : صورة الخصـب الكوني . والطريف في الأمر أن لغتنا العربيـة ماتزال تحفظ لنا في صـدرها هذا الكنـز العقائدي الأصولي الصميم منذ آلاف السنين وحتى اليوم ، كما أن حرف الألف الهمزة. كان يرمز له برأس ثور كرمز لهذه القوة الاخصابيـة .

إن كلمة " سر أ " تعني أخصب ، وسرأت السمكة باضت ، والمرأة كثر أولادهـا ، وأسرأت أيضا أخصبت وحان أن تبيض .

وكلمـة "مر أ " أخصب وألقح وجامـع ، والمـروءة في أصـلها كمال الفحولة الاخصابيـة ، وكمال الرجوليـة ، والمرء هو الذكر ، والمرأة الأنثى ، أما "مـر ع" فتعني أخصب أيضا ، ومرع الوادي أكلأ وأخصب بكثرة الكـلأ ، وأمرع القوم كانت مواشيهم في خصب ،والمريع الخصيب ، والأمروعـة الخصبـة ، والممراع الخصيـب ،

ورمعت المرأة أيضا ولدت .(وذلك بالإبدال بالقلب) وكلمة " ربا " تعني كثر ، زاد ، خصب .

وكلمة " ربـــــ ع " تعني أيضا أخصب وأربع فلان أكثر من الجمـــاع ، وربيع رابع أي مخصب ، وكذلك ربغ ورابغ نتيجة للإبدال بين العين والغين وكلمـــة " دنــــ أ " أيضا تعني الإخصاب والإكثار في الجمــــاع ، والدانئ الكثير الجماع ، الخبيث الفرج ، الماجن .

إن العرب السوريين ، إذن ، هم " آ ـــ سر " أي أبناء السيد "سر" وأمهم هي "سرت " أو "سري" وتعني السيدة ، الملكة ، وليست آ ـــ سرت (أو عاشرة أو عشتار) إلا مقام هذه الأم السيدة التي قدسها أبناؤها وملأوا بها ساحة ما دعي فيما بعد بالـــوطن العربي منذ أقدم العصور ، ثم نقلوا عبادتها إلى اليونان والرومان تحت اسم " استر "و " ستار " .

إن هذه الكلمات ذات المدلول الواحد والجذور المختلفة تدل دلالة قاطعـــة على وحـــدة الشعب العربي من جهة ، وعلى وحدة مفهوم الربوبية عند العرب من تقديس الآبــــاء ، إلى عبادة الأرباب ، إلى عبادة الإله الواحد ، كما أنها ، بالتالي ، تؤكد على الوجـــــود القوي للآباء الأوائل المتفوقين في حياة الجماعات السكانية العربيـــة . ويفهم من هذا أن أمار أو أمارو ، أو أو عمارو ، أو عموروا ، أو عمرو ، وأدن أو (عـــــدن) ، وأدوم أو (آدم) ، وأرام أو (أرم) ، وأمون أو (عمون) ، وايل (أو أل ، أوعل) و " آنـــــو" (عونو ، عون) ... الخ ، إنما كانوا آباء حقيقيين في سلسلة نسب القبيلة العربية ، وقـد برزوا بتميزهم عن غيرهم من الآباء في مجالات معينة ، مما جعل القبائل تسمى بأسمائـــهم لا بأسماء غيرهم . وذلك التميز هو الذي استدعى ، مع الزمن ، الإجلال ، ثم المبالغـة في الإجلال والتعظيم ، ثم ما لبث أن أضفي عليه طابع القداسة ، كما صارت تقدم لهـــــم الذبائح في مناسبات سنويـــة معينـــة ، وهذا التقليد ما زال شائعا في المنطقة العربية حتى اليوم ، إذ تقدم الذبائح " عن روح" الأب ، البعيد أو القريب في مناســـبات معينة مـــن كل عام .

وهكذا يتضح من ذلك كله أن المنطقة الممتدة من شواطئ الخليج العربي الشرقية شرقا إلى البحر المتوسط غربا ، ومن شمال طوروس شمالا حتى بحر العرب جنوبا إنما كانت أرضا واحدة يشغلها شعب واحد أطلق على نفسه اسم " أبناء السيد" أو " أبناء السيدة " بكل اللهجات ، كما أطلق على أرضه اسم " أرض بيت السيد" أو " الأرض المقدسة " ومن الصعب أن يدرس السكان على أساس التجمع القبلي خلال الفترة التاريخية التي أضحت شبه ظاهرة أو مكتشفة . إن ملامح الوجود العربي منذ ستة آلاف سنة ، على الأقل ، هي ملامح وجود الشعب لا القبيلة . وعلى هذا الأساس وحده يمكن أن نفهم حركة هذا الشعب ضمن إطار أرضه التي اتخذت مفهوم الوطن منذ بدايات تشكل الدول في سوريا الطبيعية ، وعلى هذا الأساس وحده أيضا يمكن أن نتلافى الوقوع في أخطاء التناقضات الفادحة نتيجة افتراض صراع غير موجود أصلا في المنطقة ، من حروب عرقية مرة ، إلى صدامات حضارية مرة أخرى ، بينما الواقع غير ذلك تماما . إن التناقض لا يعدو كونه أحد التناقضات التالية : صراع الشعب العربي ضد الغزاة الخارجيين ، من جهة ، وصراع ضمن تشكيلة الشعب العربي ذاته الاجتماعية والاقتصادية ، بين البداوة والتحضر ، بين الجمود والتطور ، بين القديم والجديد ، بين الجماهير الشعبية المنتجة والطبقات الاستغلالية النامية ، سواء من بين أروقة المعابد ، أو من مواقع الحكم في القصر ومراكز المقاطعات وبين نظام الدويلة ـ المدينة التي يحكمها أمراء إقطاعيون أو ليغارشيون ونظام الدولة المركزية صاحبة النزعة التطورية الرأسمالية من جهة أخرى .

وإن نظرة جدية متمعنة واحدة كفيلة بأن ترينا ملامح هذا الشعب الذي أخذ يغطي كل أصقاع الوطن العربي ، بعد أن حطم أشكال الوجود القبلي في تعامله مع التاريخ ، وظهر بمظهر الشعب المتقدم ، الطامح إلى شكل الأمة في وقت جد مبكر ، وإن الأموريين (أو العموريين) أكبر شاهد على ذلك .

الأموريون في سوريا ومرحلة تأسيس الدولة

لقد اتضح لنا كيف أن السوريين هم العرب الذين ينتمون إلى الأب السيد "ســـر" وإلى الأم السيدة "سري" أو "سرت" ، لقد أقاموا لهما المقامات ، فتقدس "سر" بمقامه وبيتــه وأبنائــه " آسر " (آشر ، آثر ، آشور ، آثور .... الخ) وتقدست الأم الكبرى السيدة "سرت" بمقامها وبيتها وأبنائها " آسرت " (عاسرت ، عاشرة ، عشيرة ، عثيرة ، أثيرة ، عشتار ، أسرت ، أستارت ، عشتارت ... الخ) . وسرعان ما طغى تقديس مقــام الأم السورية الكبرى عشتار على ما عداها منذ ما قبل بدء الكتابة بأمد طويل يقدر بعـــــدة آلاف من السنين ، تشهد على ذلك تماثيل عشتار المنتشرة في تلك الفترة ما بين " شـتال هيوك " في سهل قونيا شمال شرق مرسين وحتى نهر الليث أو (الكلب) غرب زهـــران في شبه جزيرة العرب ، ومن الخليج العربي في جبيل حتى امتداد الشمال الافريقي غربـــا إلى غرب طنجة .

ثم إن ظهور الكتابة ما لبث أن كشف لنا حقيقة أن السكان العرب السوريين (ســكان سوريا التي هي " ســـرت" أو "سري" وتعني السيدة) كانوا قد تجاوزوا شكل القبيلة في تجمعهم منذ آماد طويلــة إلى شكل الشعب ، وظـــهرت عندهـــم صيـــغ اجتماعيــة واقتصادية وسياسية وإداريــة وحقوقية متقدمة جدا ، سواء على صعيـــد الزراعــة أو الصناعة أو التجارة ، أو على صعيد تنظيم مؤسسات المجتمع وإدارتها .

وقبل أن نبحث في شكل تواجـــد هذا الشعب نجد من المفيد إعطاء صورة سريعة عـــن الجغرافيا التي هي مسرح نشاطه ، وعلى الأخص في شبه جزيرة العرب ، حيث تركـزت جميع العوامل الفاعلة في إعطاء هذا الشعب ملامح حركته ووجوده وشكل انتشاره .

لمحـــة سريعـــة :

1ـــ تحدثنا عن نهاية عصر الجليد الأخير وبداية العصر الدفيء الحديث في حوالي الألـــف الرابع عشر قبل الميلاد . ففي حدود هذه المرحلة يمكننا أن نتصور كيف أن زحف الجليد المتقدم من الشمال إلى أواســـط أوروبا جمد من فعالية المياه المتحركة على الأرض وقلـل

من شأنها فبدت مياه البحار متراجعة إلى حدها الأقصى . وفي هذه المرحلة بالذات كانت منطقة الخليج العربي امتدادا أرضيا للحوضة السورية الأولى الممتدة من أعالي الفرات . وبفضل النتائج التي قدمتها بحوث سفينة الأبحاث الميتيور الألمانية فإن " أرضا يابسة في قاع الخليج تشكل امتدادا طبيعيا للبر العراقي تماما مثلما يشكل الأخير الامتداد الأرضي للحوضة الأولى السورية . ومن المرجح جدا أن ضفاف مجرى النهر الأصلي في قاع الخليج كانت موطنا لجماعات من صيادي الباليوليتي ، وأن تكون الأراضي الرسوبية الخصبة المجاورة لها قد سكنت من قبل مزارعين ـــ صيادين يشابهون ، في عيشهم وفي تطورهم ، نمط تطور جيرانهم النطوفيين سكان قرى المريبط وأبي هريرة وبقراص في حوض الفرات الأعلى . وقد يكشف علم الآثار الغارقة تحت المياه فصلا جديدا وهاما من تاريخ منطقة متممة لما بين النهرين ، إذ من المحتمل أن تكون مراكز الاستيطان الباكرة في الأراضي المنخفضة التي لا نعرف حاليا اسمها ، والتي اقترح لتسميتها اصطلاح منطقة ما قبل الخليج Per-Gulf Region قد شكلت المرحلة التحضيرية التي ستمهد لنشوء حضارات مدن الجنوب الرافدي المزدهرة اعتبارا من الألف الرابع ق.م . وهنالك احتمال آخر لا يقل رجحانا في أن منطقة ما قبل الخليج كانت جزءا من ثقافة كبيرة معاصرة انتشرت مراكزها في الجنوب الرافدي وجواره ، قبل أن تجبر مياه البحر الصاعدة أهلها على الرحيل تدريجيا إلى مواطن جديدة ، هذا الاحتمال يؤكده عثور الآثاريين على فخاريات العبيد في 32 موقعا أثريا على شواطئ شبه الجزيرة العربية الشرقية مقابل جزيرة البحرين ، كما وعلى مبعدة 65كم إلى الداخل [1] .

إن نتائج أبحاث البعثة الألمانية على سفينة الميتيور في أعماق مياه الخليج العربي تؤكد :

أ ـــ إن الضفاف الشرقية لمنطقة الخليج إنما كانت جزءا من المنطقة العربية السورية القديمة حيث جنة السومريين المفقودة .

ب ـــ في مرحلة بدء العصر الدفيء الحديث أي منذ حوالي 14000ق.م كان سكان تلك المنطقة من صيادي الباليوليتي، وأن الأراضي الرسوبية الخصبة المجاورة قد سكنت من

(1) الدكتور هشام الصفدي " تاريخ الشرق القديم " الجزء 1، ص80 ـــ 81 .

قبل مزارعين صيادين يشابهون في عيشهم وتطورهم نمط تطور جيرانهم النطوفيين سكان قرى المريبط وأبي هريرة وبقراس في حوض الفرات الأعلى .

ولما كان "مرو" أو "مارو" الجد الأكبر لأولئك السكان فلاشك في أنه رب القبيلة (سيدها) في مرحلة الصيد ، وهذا هو ما يؤكده المؤرخون ، فقد ربط الدكتور فيليب حتي نقلا عن آخرين اسم بلاد أمورو بإسم إلههم القديم ، وهو إله الحرب والصيد [1] ، وهذا يعني أن فترة وجود العرب الأموريين تعود إلى 14000عام قبل الميلاد ، وكلمة " إله " هنا ترجمة خاطئة لكلمة " رب " بمعنى سيد .

2 ـــ في الوقت الذي كانت فيه منطقة الخليج العربي تحت المياه تتألف من مناطق خصيبة ، ويجري في قرارها دجلة ، والفرات ، ووادي الرمة ، بعد أن يتحد بوادي الدواسر ، ومجموعة غيرها من الأنهار والجداول الأخرى ، كانت منطقة شبه جزيرة العرب منطقة أمطار موزعة على جميع فصول السنة ، وبالتالي فقد كانت تلك الوديان أنهارا غزيرة دائمة الجريان .

ومن المعروف أن منطقة كنعان ، وجميع المنطقة الممتدة من عدن في أقصى جنوب اليمن إلى حدود بلاد الشام على سواحل البحر الأحمر الشمالية إنما كانت من أخصب بقاع الأرض ، كما أنها كانت تسمى " أرض اللبن والعسل " وهي آخر موقع اقترب منه الجفاف في شبه جزيرة العرب ، وكانت غنية بالأنهار ومساقط المياه . وقد دلت آخر الأبحاث على أنه " في الوقت الذي كان فيه شمال أوروبا مغطى بطبقات الجليد إلى مسافات بعيدة ، وكانت جبال الألب والبيرنه مغطاة بكتل الجليد ، كان ضغط القطب الشمالي الشديد يسوق أعاصير الأمطار التي تهب على أوروبا الوسطى ، ويجعلها تجتازها وتعبر إلى حوض البحر المتوسط ، وتستمر في سيرها دون أن تستترفها الجبال السورية ، فتصل إلى العراق وجزيرة العرب ، وحتى إلى بلاد فارس والهند ، فكانت الصحارى التي يلفحها العطش ، الآن ، تتمتع بأمطار منتظمة . و لم تكن الأمطار الذاهبة إلى جهة الشرق أكثر مما هي عليه الآن فحسب ، بل إنها كانت موزعة على جميع فصول السنة

---

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 71 .

بدلا من أن تكون مقصورة على فصل الشتاء .. وكان يعيش في شمال افريقيا (وربما في جزيرة العرب أيضا) حيوانات من نوع ما يوجد الآن في زمبابوي وروديسيا "[1] .

" ولقد جاء في النصوص القديمة ما يدل على أن جزيرة العرب كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار ، فكانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود ، كما أن المنطقة الواقعة بين العلا و"معون" أو "معان" هي من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر ومن أراضي ثمود قديما ، وقد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار ، وكانت مملوءة بالحيوانات المفترسة ، وكذلك المنطقة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشر الميلادي (أي قبل 500سنة فقط) مغطاة بالأشجار والعوسج والسلم ، حتى أن اللصوص كانوا يتخذونها مخابئ يهاجمون منها القوافل "[2] .

وقد جاء في نصوص القرآن الكريم ما يؤكد صراحة على وجود الأجواء الممطرة والأنهار لدى سكان شبه جزيرة العرب القدماء ، كما قد ذهب إليه الباحثون المحدثون . وقد جاءت كلها في معرض التذكير والدعوة إلى الاتعاظ بمن تقدم من الأقوام الذين تمتعوا بوفرة العيش ورغده ، وذلك بتوافر المياه والمزارع والجنان ، والعمران .

فبالنسبة إلى قوم شعيب ، وهم المديانيون ، الذين كانوا يسكنون شرقي بلاد زهران شمال العقيق ، فقد كانت منطقتهم ما تزال تحف بها المياه والكروم ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ﴾ (الشعراء 56)

وأما قوم عاد الذين كانوا في جنوب المنطقة ذاتها تقريبا فقد ﴿ كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على الله رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ،فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمركم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ﴾ (الشعراء 123 ــ 136).

وعن منطقة ثمود إلى الجنوب قليلا :

---

(1) تشايلد ، " الشرق القديم " طبعة 1964، ص15 ــ 16

(2) انظر : الدكتور جواد علي ، " تاريخ العرب قبل الإسلام " ج1 ،ص97 ــ 102.

﴿ أتتركون في ما ههنا آمنين في جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ (الشعراء 146 ــ 147) .

أما قوم سبأ فلقد ﴿ كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾ (سبأ 15ــ 17)

وقد جاء أيضا ، حول طبيعة المنطقة في ذلك الزمان ، أن بحرا أو بحيرة ذات مياه حلوة كانت موجودة في المنطقة ، ولا تبعد كثيرا عن البحر ذي المياه المالحة :﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حليا تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (فاطر 12 ــ 13) .

ولقد أكد برترام توماس صاحب كتاب " العرب " بقايا بحيرة في الربع الخالي عند منخفض "ابو بحر" كما لاحظ أن وادي الرمة لا يزال مليئا بالصخور الرسوبية والحصى مما يدل على أنه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه ، ولا تزال بقايا بحيرات مليئة بالمياه في بعض المناطق الصحراوية من الجزيرة العربية . ففي منطقة الخرج عدة بحيرات في وسط الصحراء تستغل الحكومة السعودية مياهها في الوقت الحاضر لزراعة الأراضي الزراعية المجاورة . وتقع منطقة الخرج جنوب شرقي الرياض ، وتوجد فيها خمس بحيرات ، منها أربع بحيرات إلى الجنوب من اليمامة ، أما الخامسة فتقع في الأراضي الصحراوية الواقعة إلى الجنوب من منطقة الخرج على بعد زهاء مائة كيلو متر وتسمى " خفس دغري" وأهم هذه البحيرات ثلاث تبلغ مساحة كل منها أكثر من أربعة آلاف متر مربع ، أما عمق الماء فيها فيناهز أربعمائة قدم ، وتتصل هذه البحيرات بعضها ببعض عن طريق مجاري المياه الجوفية [1] .

وإذا علمنا ان نهر "الدواسر" وهو أكبر أنهارشبه جزيرة العرب ، تبدأ منابعه في جبال "عسير" (السراة) فقد كان يتجه إلى الشمال والشرق مخترقا سهل الربع الخالي ، ثم يتصل

---

(1) الدكتور أحمد سوسة ، "ري سامراء " ج2 ، ص 539 .

بــوادي الرمة قرب شواطئ الخليج العربي جنوب موقع البصرة الحالي وشمالي البحريــن ، أدركنا تلك الرابطة العضوية المتينة بين شرق الوطن العربي وغربه ، وأهمية ذلك الــوادي في ربط جناحي الوطن من الجانبين ، كما تتكشف لنا أسرار تلك التحركات من الشرق إلى الغرب وبالعكس ، أي من الجنات الشرقية في منطقة الخليج العربي وبمحاذاة الوديــان العامرة بالخصوبة والكلأ والمراعي ، إلى جنات عدن الغربية في باد كنعان وعلى السفوح الشرقية لبلاد غامد .

3 ـــ ومع تقدم مرحلة العصر الدفيء ، وذوبان كتل الجليد الأسطورية الضخمة التي تجثم على المنطقة الممتدة من أواسط أوروبا إلى القطب المتجمد الشمالي أخذت مياه البحــر في التقدم والارتفاع تدريجياً ، كما بدأت كميات الأمطار التي تتســـاقط علـــى المنطقــة بالتراجع ، وأخذ الجفاف يتقدم تدريجياً ليقلل من تجمعات المياه الحلوة ومن غزارة الأنهار ذات الينابيع المحليـــة ، كما زادت ، في الوقت نفسه ، غزارة كل من دجلة والفــــرات اللذين تنحدر مياههما من هضبة أرمينيا في أقصى الشمال .

4 ـــ مع اقتراب عصر الجليد من نهايته ، (وقد استمرت هذه المرحلة في تقدير العلمـــاء قرابـــة عشرة آلاف سنة ، أي حتى حوالي الألف الرابع قبل الميلاد)، كان وادي الرمــة يشكل شـــريان الاتصـــال المباشر مابين منطقة الخليج ، التي أخذت عملية انغمارهـــــا بمياه البحر تكتمل لتصير إلى ما هي عليه اليوم ، وبين المنطقة الزراعية الخصيبة في غـــربي شبه الجزيـــرة العربيـــة على سواحل البحر الأحمر الشرقية .

5 ـــ إن فترات ســـقوط الأمطار المتواصلة الغزيرة التي تكررت أكثر من مـــــرة علـــى المنطقة ، نتيجة لتغير المناخ في المنطقة الشمالية من الكرة الأرضية ، وقبيل استقراره ، من جهة ، واستمرار ذوبان الجليد وانحساره ، من جهة أخرى ، كانا يؤديان إلى حـــــدوث فيضانات كبيرة في الشرق في نهري الدجلة والفرات تتسبب في تغيير مجريهما أحيانـــاً ، وكانا يلتقيان عند نقاط اقترابهما شمالي بابل ليغمرا المنطقـــة الممتدة مـــن بـــابل إلى أور على شاطئ الخليج ، كما أن ذلك يؤدي إلى ارتفاع منسوب المياه في وادي الرمة نفسه، وفي البحيرات الداخلية التي تمتد على طول الأراضي المنخفضة بدءاً من جنوب منطقـــــة

البصرة الحالية (مصب نهر الرمة قديما) وجنوبا ، وبمحاذاة السواحل الشرقية ، إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من الربع الخالي حيث ما تزال بقايا هذه البحيرات العظيمة ، أمـا وادي الرمة نفسه قبيل مصبه فإنه يتحول إلى جزء من ذلك التجمع المائي والمتصل شمالا ببابل ، والممتد جنوبا حتى شرقي ظفار على شاطىء بحر العرب .

إن شـريان وادي الرمة الممتد من الخليج إلى شرقي يثرب كان يمثل خط سير الاتصـال البري بين السكان في الخليج وعلى ساحل البحر الأحمر حيث ، بالتالي ، تنمو خطـوط متوازيـة في أنماط العيش والتطور . ولسنا نشك في مثل هذه الحال أن نوحا كان يعرف جيدا وجهة مسيره بعد حدوث الطوفان في مناطق قومه في الشرق .

مما تقدم نخلص إلى القول بأن " أمرو " أو (أمورو) تعني مقام السيد بيت السيد ، بيـت الرب ، عرش الرب ، أرض الرب ، الأرض المقدسة ، وأن الأمريين أو (الأموريين) هـم أبناء السيد " مر" الذي عاش في مرحلة الباليوليثي .

فقد بدأت كلمة "بيت" في العربية ، إذن ،بمضمون ديني ،مقدس ، مما جعل فهم الإنسان العربي لوطنه منذ البداية يقترن بتمسكه بآبائه المتميزين الذين تتحلى أفعالهم المجيدة علـى هذه الأرض . فكانت الأرض العربيـة هي " الأرض المقدسة " لأولئك الآباء المقدسـين الذين ما انفك العربي يعتز بالانتساب إليهم ، ويحفظ هذا النسب .

إن هذا كله هو ما يفسر قـول صموئيل كريمر بأن هناك إمبراطورية "عربية ـــ إيرانية " سبقت الإمبراطورية الأكاديـة ـــ السومرية ، وأن الوجود العربي كان متغلبا في تلـك الإمبراطورية بلغته وقوتـه العسكريـة والسياسية ، وقد كانت ثقافة الماقبل سـومرية ثقافة زراعية ـــ قروية ، دخلت جنوب وادي الرافدين مع النازحين القادمين من جنـوبي غربي إيران " [1] .

وقد أوضحنا من قبل معنى حضارة "عربية ـــ إيرانية " قلنا إنها الحضارة العربية في سومر وعيلام التي جاء بها العرب من منطقة الخليج العربي حيث كانت "جنة السومريين" قبـل

---

(1) أنظر : أسد الأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 ، القسم 1 ، ص83 ـــ 84 .

أن يبلغ منسوب ارتفاع مياه البحر حده الأقصى ويغمرها تدريجيا مجبرا سكانها على التحرك شمالا إلى حوض الرافدين الأدنى الذي كان قد تشكل من الطمي اللحقي المترسب على مدى عشرة آلاف عام من بدء ذوبان الجليد وبدء العصر الدفيء الحديث ، كما جعل قسما من السكان يسلكون ضفاف نهر الدواسر (غربا حتى السواحل الشرقية للبحر الأحمر) .

وقد حدث هذا قبل أن يولد إيران نفسه ، إذ إنه في خارطة النسب هو إيران بن آشور بن سام بن نوح .

وكان قد أكد لنا ذلك المؤرخ البابلي "برعوشا " حين كتب يصف لنا جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمه (عوان) (أو " عون" أو " آن " أو " آنو" وقد يكون هو نفسه الذي قدسه السومريون فيما بعد) خرج من منطقة الخليج العربي وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة ، ثم يقول : " وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم ، ولم يخترع من ذلك الوقت شيء ما حتى الآن " [1] .

إن عون هذا أو (آنو)* ليس إلا أحد الأجداد العرب الذين كانوا يخرجون بجماعتهم بين فترة وأخرى من منطقة الخليج إبان تقدم مياه البحر ، وقدم تلك الخدمات الجلى لشعب الجنوب الرافدي الذي ما لبث أن بجله وقدسه كعادة جميع العرب الآخرين في باقي مناطقهم ، إنه الأب ، والسيد والرب (بمعنى الصاحب المالك السيد لا بمعنى الإله) .

---

(1) Wooley,C.D."The Sumeians" .P.189 >

• و"عن" تعني العين ، الوجيه ، السيد ، الرقيب ، الراعي ، الحارس. ومن هذه المعاني فقد اطلقت على الشمس التي ترقب النجوم وترعى حركة الكون كالعين الساهرة ، ومن هنا فقد بقي تعبير " عين الشمس" حيا إلى يومنا هذا ، وبهذا الاسم دعيت المدينة القديمة في مصر ، وقرئت باليونانية "أون" وبالسريانية "عين" وهي مدينة عين شمس الباقية حتى اليوم . ومن كلمة "عن" أيضا جاءت "أيانا" السومرية ، أو " أعيانا" وهي " الأعيان" حيث شكل أول مجلس للأعيان في العالم ، ويعني مجلس السادة الوجهاء ، وكان إلى جانبه مجلس آخر هو مجلس العموم ، أو مجلس الشباب .

مسألة عبادة الأجداد عند العرب السوريين :

ولكن هل كان العرب الأموريـــون وغيرهم يعبدون أولئك الأجداد بحق ، ويجعلونهم في مرتبـــة الآلـــهة ؟

إن كل الدلائل تشير أن لا ... إن تعظيم وتقديس الآباء الذين يتفوقون في مجال ما قـــد يكون فيـــه خير للبشر ، أو يمتازون بشمائل إنسانية وأخلاقية معينة ، تصلح لأن تتخـذ قـــدوة للناس جميعا ، كانوا يحتلون مراتب خاصة ، وتبنى لهم قبور خاصة متمـــيزة ، أو مقامات ، تقدم عندها الذبائح وتوزع على الفقراء تعبـــيرا عـــن الاقتـــداء بإحســـانهم وبإنسانيتهم . ثم تطورت تلك العادات بعد استغلالها من قبل أناس معينين وجدوا فيـــها مكاسب خاصة معينة ، فكرسوا أنفسهم لخدمة مقام هذا الجد أو ذاك ، يذبحون الذبائح بالطرق التقليدية الصحيحة ، ويقيمون مراسم الصلاة ، ويأخذون النذور من أمـــوال أو حلي أو زيت أو خمر أو أضحيات ، ويشرفون على التوزيع ، ويضفـــون علـــى تلـــك المقامات مواصفات معينة متميزة ، تحقيقا لأهداف خاصة يسعون إليها : كأن يجعلوهـــا تتفـــوق على غيرها ، فتجذب الناس إليها أكثر من غيرها ، ثم يضفون عليها نوعا مـــن الأعمال الخارقـــة والمعجزات ويجعلونها تتخصص بأعمال معينة ، كأن تشفي مرضـــى العيون أو المشلولين ،أو تجعل العواقر من النساء ينجبن الأولاد ، إلى آخر ما هنالك مـــن الأعمال الأخرى .

إن هذا كلـــه هو ما كان ، وهو بالضبط ما نجده اليوم منتشرا في شتى بقـــاع الـــوطن العربي بعد المسيحية والإسلام . إن تقديس قبور الآباء القديسين ، أو قبور الأولياء ليـــس إلا اســـتمرارا لتلك العادات القديمة السورية الأمورية ذاتها التي تعود إلى ستة آلاف عـام قبل الميلاد على الأقل . وإن استمرار تسمية " الأب فلان" و"مار فلان" في المسيحية ليس إلا استمرارا حرفيا لتلك العادات التي كانت سائدة قبل المسيح بآلاف السنين . إن "مار الياس" و"مار جرجس "و"مار يعقوب" وغيرهم ، ليست إلا تعبيرا أموريا قديما " السـيد إلياس" و"السيد جرجس" و" السيد يعقوب" ... وإن هذا يشجعنا أكثر على القول بأنـه ليس صحيحا ما يقال عن العرب الأقدمين من أنهم كانوا يعبدون آباءهم ، إلا إذا صـــح

ذلك على العرب اليوم مسيحيين ومسلمين ، لأن الظاهرة هي نفسها . ولسنا نظـن في أن عدد الذبائح التي كانت تقدم عنـد مقامـات أولئـك الآبـاء الأقدمـين أمثـال "أمرو"و"بعلو" و"أدمو" و"أدنو" وغيرهم كانت تفوق كثيرا ما يقدم من ذبائح ونـذور عند مقامات الأنبياء ، والآباء القديسين والأولياء اليوم . كما أننا نؤكد أن اختصاصات أولئك الآباء قديما بالمناطق أو بالمدن أو القرى ، أو بنوع الفعل والخدمة المرجوة للبشر ، لم تكن أكثر ، بأية حال ، منها اليوم . ولذلك فلسنا نعتقـد في صحة ما نسـب إلى العرب الأقدمين من تألية للآباء ، لأن الأمر لم يتعد وضعهم في مرتبـة متفوقـة أعلـى من مرتبة سائر البشر وفي مكان وسط بينهم وبين الله ، أو كبير الآلهة *، وإن في إمكاننـا أن نفترض أن الناس ، بعد ألف سنة ، حينما يعثرون على هذه المقامات الكثيرة المنتشـرة في كل بقاع الوطن العربي لعدد لا يحصى من الأنبياء والقديسين والآبـاء والأوليـاء ، بمذابحها ومباخرها ، سوف يكون لديهم العذر لأن يقولوا عنا تماما ما نقوله نحن اليـوم عن آبائنا . إن الأمر كله أمس واليوم وغدا ، لايعدو كونه تعظيمـا لأولئـك الآبـاء المتفوقين وإحياء لذكرهم ليبقى خالدا مدى الدهر . إن ذلك عينه هو ما توصـل إليـه الفكر العربي السوري منذ أن رحل الملك جلجاميش رحلته المعروفة بحثا عن الخلـود ، ثم لم يجد ما يخلد الإنسان أخيرا غير ما يقوم به من أعمال مجيدة ، فدعا شعبه في اوروك إلى العمل من أجل مجد أوروك لأن عمل الإنسان هو وحده الذي يخلده .

---

* يجد القارئ تفصيلا وافيا حول هذا الموضوع في كتابنا الثالث " تاريخ سوريا الحضاري القديم " 1 ـ المركز .

العرب الأموريون في نسيج الشعب العربي السوري العام وليسوا قبيلة :

لقد سبق ان أشرنا إلى تأكيد الباحثين على وحـــدة الثقافة والتطور الحضاري في تلـــك المناطق ، كما أكدت الأبحاث الانتروبولوجيـــة أيضا على أن " الهياكل العظمية للسكان المحليين التي عثر عليها في مقبرة من أواخر فتـــرة العبيد في مدينة " أريدو" إنما تنتســـب عموما في ادوار اريدو ـــ الوركاء ، شأنها شأن هياكل أهل ثقافة تل حلف (مـــاري) في الشمال ، إلى العرق المتوسطي Mediterranian العرق الذي ينسب إليه فضل إنجاز أوائل الحضارات في بلاد بابل ، وتحويل المجتمعات القروية الأولى في الشرق الأدنى القديم إلى مدن مزدهرة [1] .

ولما كان من المألوف عند العرب ، منذ أقدم العصور وحتى اليوم ، أن يسمى الأبناء على أسماء الأجداد ، وعلى الأخص بأسماء المتفوقين من الأجداد ، فإنه بإمكاننا أن نفترض أن أولئك الماريين ، أو الأمريين أو العمريين ، إنما ينتسبون إلى أحد الأجداد الكبار الـــذي اسمه " أمرو" أو "عمرو" وأن بنية الاسم اللغويـــة ـــ كما سبق وفصلناها ـــ وانعـــدام وجود الأحرف الصوتية في الكتابات العربيـــة الأولى بدءا من التصويرية ، إلى الرمزيـــة المقطعية ، إلى الأبجدية المسمارية ، إلى أبجديـــة الحروف كان يجعل هذا الاسم يكتـــب بإحدى الصيغتين "أمرا" أو "عمرا" باللهجـــة الغربيـــة ، و"أمرو" أو "عمرو" باللهجـــة الشرقية ، ويعني الاسم "بيت مارو". ولما كانت أول الدراسات لمكتشـــفات المنطقـــة الآثارية قام بها باحثون أجانب ليس لهم إلمام بطبيعة بنيـــة اللغـــة العربيـــة التي ما زالت مستمرة حتى اليوم ، ولعدم مقدرتهم على تصور استمرار مسيرة هذا الشعب الحضـــاري طيلة هذه الآلاف الطويلة من السنين ، ولدوافـــع أخرى كثيرة ، جعلتهم يبتعدون عـــن دراسة اللغة العربية أو الإشـــارة إلى أوجه القرابة بينها وبين اللغات أو اللهجات الـــتي كانت سائدة في ذلك الزمن السحيق ، فقد صـــاروا يفترضون افتراضات صوتية لفظيـــة تضاف إلى تلك الأحرف الصـــامتة التي يعثرون عليها ، فيعمدون إلى إضـــافة الأحرف الصوتية بالطريقة التي يرونها هم مناسبة ، لا بالطريقة التي قد تكشف عن المعنى الحقيقـــي

(1) الدكتور هشام الصفدي ،"تاريخ الشرق القديم" الجزء 1،ص96

لجذر الكلمة ، وهكذا صار في الإمكان أن يلفظوا كلمة "عمرو" Amr بأوجه كثـــيرة حسب الأحـــرف الصوتية المضافة مثل : عامارا ، عامورا ، عــــامورو ، عـــاموري ، عيمارو ...الـــخ ، وإن نظرة واحدة إلى تسلسل الأنساب في ولد نوح ترينا كيف يعود هذا الاسم ليتكرر من فترة إلى أخرى ، ونذكر على سبيل المثال الفرع العربي الســـامي ، فقد ولد السام لاوذ وآخرون وولد للاوذ عمليق وآخرون ، وولد لعمليق عمرو وكنعان وآخرون ، وولد لعمرو حاران وآخرون ... وهكذا .

إن اسم "عمرو" إذن ليس جديدا ، كما أنه ليس بالضـــرورة أن يكون جديدا في عـــهد عمليق ،خاصة وأن سلسلة النسب التي احتفظ بها النسابون هي خـــط واحد ينتـــهي إلى شيث بن آدم دون باقي إخوته جميعا ، كما أن هـــذا الخط كان يحافظ على تسلســـل أحادي حتى نوح ، أي أنه لم يكن يذكر سوى ولد واحد من أجل المحافظة على تسلسل نسب إبراهيم ، ثم عيسى ومحمد .

أما الفتـــرة التي هي قبل آدم الرسول ، والتي تمتد من خـــلال الاثار والمدن المكتشفة إلى آلاف السنين قبـــله ، فإن أحدا لم يتمكن من سبر محيطها في مجال دراسات تفرعــــات السكان والقبائل ، وذلك لأن الكتابـــة لم تكن قد اخترعت بعد من جهة ، ولأن كثيرا من المصادر ، بعد الكتابة ، عفا عليها الزمن سواء بالكوارث الطبيعية ، أو بالحروب ، أو لعدم مقاومتها لعوامل الزمن ، خاصة ما كان مسجلا منها على أوراق البردي ، كما أن قسما منها كبيرا، لاشك مازال مطمورا تحت آلاف التلال الأثرية المبعثرة في كل أرجـاء الوطن العربي السوري بوجه خاص .

لذا فإن في إمكاننا بعد هذا ، ولكل الأسباب التي ذكرناها ، أن نقول إن أولئك الذيـــن سموا " أموريين" ليسوا إلا العرب المنسوبين إلى جدهم الأكبر "عمرو" الذي حافظ على شكله القديم حتى يومنا هذا للتمييز بينه وبين "عمر" وبقي يكتب باللغة العربيـــة اليـــوم بصيغته نفسها "عمرو" .

ذلك أولا .

ثانيا : بفضل حملة التنقيبات الآثارية الدولية التي رافقت إنشاء سد الفرات أمكن العثور

على مستوطنات هامة من دور الوركاء في موقعي "تل حبوبة" ، الكبيرة وتل قناص وفي "جبل عرودة" . وتبين أنها تشكل مجموعة عمرانية من المرجح أنها كانت جزءا من وحدة كبيرة قد تمتد إلى غرب نهر الفرات .ومما لاريب فيه أن وجود هذه المستوطنات أو المدن في زمن الوركاء السومري يكشف عن المستوى الحضاري العربي الكبير في الفترة السومرية الشرقية ، كما يبين الصلات الحضارية الوثيقة التي تربط ما بين مشرق الوطن العربي وشماله وغربه ، ويعكس بشكل وثيق الفعاليات التجارية والملاحية على نهر الفرات أيضا . لقد أكدت الدراسات اليوم أن تلك المستوطنات العمرانية التي ازدهرت في سوريا الشمالية خلال دور الوركاء " لم تكن مجرد محطات تجارية ، بل كانت مراكز استيطان بشري" [1] ، وليست مدينة ماري في تلك المنطقة لتغيب عن الأذهان . وقد لعبت دورا في تاريخ سوريا استمر زهاء ألف وخمسمائة عام .

فإذا كان العرب موجودين في شتى أطراف الوطن العربي السوري من سومر وعيلام شرقا ، إلى ماري وأعالي الفرات شمالا ، إلى أوغاريت وجبيل ودمشق وأريحا غربا ، قبل بدء التاريخ بزمن طويل ، تدل على ذلك آثارهم المكتشفة ذات الطابع الحضاري والسكاني والثقافي الواحد ، كما تدل على ذلك أسماء مدنهم القديمة الأولى ، فقد كان من المؤكد أن القاعدة السكانية العامة في كل من هذه المناطق كانت تتمتع بمواصفات عامة مشتركة في انتمائها إلى أصل واحد، ولغة واحدة ، وأنماط معيشية واحدة تتراوح بين البداوة العربية ، أو المدينية العربية ، بكل تراث وتقاليد الأولى ، وإبداعات وتفوق الثانية .

وقد لاحظ جميع المؤرخين المتتبعين للمكتشفات الآثارية في المنطقة أن عصرا عربيا (سموه ساميا) كان سابقا بالفعل للمرحلة السومرية ، وليس هذا فحسب ، بل إن " أمبراطورية " عربية كانت سابقة لتلك المرحلة ، وأن العرب (أو الساميين كما يدعوهم) كانوا يتمتعون بتواجد مميز وملحوظ على المستوى الشعبي وفي السلطة أيضا في المرحلة السومرية (لاحظ أنهم يفرقون دائما بين العربي والسومري) وكانت كثير من

(1) الدكتور هشام الصفدي ،" تاريخ الشرق القديم" الجزء1 ، ص110 .

سلالات الحكام في مدن سومر ، مثل أوروكيش والوركاء ، من أصل عربي (سـامي) كما تدل عليهم أسماؤهم.

إن العـرب الذين أطلق عليهم المؤرخون اسم "الأكاديين" نسبة إلى المدينة التي أنشاؤها وجعلوهـا عاصمة لهم ليسوا إلا حالة من توهج الوجود العربي الذي يعم الوطن العـربي السوري من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى.

وحينما ظهر "الأكاديـون" على مسرح الأحداث في المنطقة بفضل أعمـال سـرجون الباهرة على نطاق الدولـة ، والحكم ، والجيش ، والاقتصاد ، وغيره ، كان الشـعب الذي انبثق منه سـرجون هو الشعب نفسه الذي كان يشغل المناطق جميعا ، و لم يولـد مع سـرجون الذي اعتبره جميع المؤرخين عموريا . إن كثيرا من المؤرخين يتحدثون عن "الأموريين" وكأنما انبثقوا فجأة من لا مكان مع إطلالة قائدهم العظيم.رغم ما في ذلـك كله من بدائية في التعامل مع التاريخ .

يقـول فيليب حتي في كتابـه " تاريـخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " نقلا عن مؤرخين غيره ، منهم " أرموبوبيل" : " وتظهر أول إشارة إلى أرض الأموريين منذ عصر سرجون (حوالي 2250ق.م) ، وهو أول شخصية كبرى في تاريخ السـاميين .. وفي ذلك العهد أصبحت سوريا سامية لأول مرة ـــ باستثناء بعض جيوب سكنها الحوريـون وآخرون من غير الساميين ـــ واحتفظت بصبغتها السامية خلال العصور حتى الوقـت الحاضر " [1] .

هكذا يكتب تاريخنا في الخارج ! .. لقد جـاء سرجون إلى المنطقة يجر من خلفه شـعبا بحبل ، من أين ؟ لا ندري ، كل ما ندريه هو أن هذا الشـعب وجد فجأة مع سرجون فأصبحت بذلك سوريا سامية "لأول مرة" ثم احتفظت بهذه الصبغة إلى الأبد ..!

ويتابع المؤلف :

---

(1) انظر فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1، ص 70 .
و: Armo Poebel," Hestorical Texts",P.177

" وقبل أن يجتاح سرجون بلاد آمور كانت عاصمتها ماري قاعدة إحدى السلالات السومرية .. وفي خلال القرن العشرين أصبحت مدينة ماري والبلاد المحيطة بها أمورية في سكانها وحضارتها وحكومتها " [1] .

قبل قليل لاحظنا كيف أن المؤرخ يعتبر ظهور الأموريين مقترنا بظهور سرجون ، وفي عهده تصبح سوريا سامية لأول مرة لأن الأموريين طبعوها ـــ لاشك ـــ بطابعهم السامي ، ثم لم يتبدل أبدأ ، لكننا نجد فجأة ـــ وبعد سطرين فقط ـــ أن سرجون يجتاح بلاد آمور التي كانت عاصمتها ماري ..! فالأموريون موجودن إذن قبل سرجون ، وبلادهم كذلك موجودة ، وعاصمتهم ماري الشهيرة موجودة ، ونحن لا نشك في ذلك ، وقد بينا كيف أن اسم ماري يعني السيدة ، لكننا ما نكاد نبدأ اندهاشنا من هذه المفاجأة حتى تصدمنا مفاجأة أخرى ، وبعد سطرين فقط أيضا : إذ إن مدينة ماري والبلاد المحيطة بها تصبح في القرن العشرين أمورية في سكانها وحضارتها وحكومتها ، وذلك ـــ في رأي المؤلف ـــ يعود ،لاشك، إلى أن الحاكم كان سومريا !

شيء محير فعلا ! مرة نجد أن السومريين ليسوا عربا أو (ساميين) ، ومرة نراهم يطبقون المنطقة بالطابع العربي (السامي) ، هذا علاوة على ما تتضمنه فكرة أن جنسية السكان تتغير بتغير حكامهم من سذاجة .

لقد كانت ماري ، إذن ، أمورية قبل سرجون ، وكان يحكمها سومريون ، وإذا كان السومريون الذين أتوا من جنوب النهرين من أوركيش ولغش ونيبور وغيرها ليحكموا ماري هم أنفسهم أموريين فهل يبقى ثمة مجال للشك في عروبة المنطقة كلها ، وفي الوجود العربي الأموري الذي يشمل هذه المنطقة ؟

يقول ول ديورانت : " في هذه الأثناء كانت أور مدينة الكلدان تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهارا امتد من عام 3500ق.م (وهو على ما يبدو عهد أقدم مقابرها) إلى عام 600ق.م وأخضع أعظم ملوكها أور انجور جميع بلاد آسيا الغربية ونشر فيها لواء السلام ، وأعلن في جميع الدولة السومرية . أول كتاب شامل من

---

(1) المصدر السابق .

كتب القانون في تاريخ العالم ، وفي ذلك يقول : " لقد أقمت إلى أبد الدهـــر صـــرح العدالـــة المستندة إلى قوانين شمش الصالحة العادلة " ، ولمـــا زادت ثـــروة أور بفضـــل التجارة التي انصبت إليها صبا عن طريق نهر الفرات فعل فيها ما فعل بركليز بأثينا مـــن بعده ، فشرع يجملها بإنشـــاء الهياكل ، وأقام فيها هي وغيرها من المدائن الخاضعة لـــه أمثال لارســـا وأوروك ونيبور كثيرا من الأبنية ، وواصل ابنه "دنجي" : (أي المخلص ، فالدال أداة تعريف ، و"أنجي" تعني المنجي ، المخلص ، المنقذ) طول حكمه الـــذي دام ثمانيـــة وخمسين عاما أعمال أبيـــه ، وحكم البلاد حكما عادلا حكيما ، جعل رعايـــاه يتخذونـــه من بعد موته إلها يصفونه بأنه الإله الذي أعاد إليهم جنتهم القديمة .

لكن سرعان ما أخذ هذا المجد يزول ، فقد انقض على أور التي كـــانت تنعـــم وقتئـــذ بالرخاء ، والفراغ والسلم ، أهل عيلام ذوو الروح الحربيـــة في الشرق ، والعموريـــون الذين علا شأنهم وقتئذ من الغرب وأسروا ملكها ، ونهبوها ، ودمروها شر تدمير "[1] .

من هذا القول يتضح أن أور " السومرية هي " أور الكلدان " والكلدانيـــون ـــ كما هو معروف ـــ من صميم شجرة النسب العربي ، وقد كانت مزدهرة قبل عام 3500ق.م ، أي قبل قدوم سرجون بما يقرب من ألف عام ، ثم إن ملوكها السومريين هم ســـومريون عرب تدل عليهم أسماؤهم ، لكن العموريين " الذين علا شأنهم وقتئـــذ في الغـــرب " انقضوا عليها ، والمقصود هنا جيش سرجون .

إن المؤرخ مع إصراره على فصل العيلاميين أولا عن العروبة ، ثم السومريين ، يخلط بـــين العرب العيلاميين الحضاريين ، وبين القبائل الكاشية التي اجتاحت عيـــلام ودمرتهـــا ثم تقدمت إلى مدينة أور العربية الموجودة قبل السومريين واجتاحتها أيضا ، و لم ينقذها مـــن براثن الغزاة غير سرجون ، الذي لم يأت غازيا بل محررا وموحدا لأجزاء وطنه الواحـــد ، كما دلت كل الأحداث التي جرت على صعيد المنطقة كلها فيما بعد.

إن ول ديورانت ، مثله مثل كثيرين غيره من المـــؤرخين ، الذين يســـوقون الروايـــات والأحداث بحيث تجعل صورة العرب الساميين تنطبـــع في ذهن القارئ كأقوام من البداة

---

(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 2 ص 21 ـــ 22 .

الجفاة الغـــزاة المدمـــرين للحضارة مثلهم مثل باقي القبائل المتوحشة التي عرفتها الأمـــم المتحضرة .

ففي الوقت الذي كان هذا المؤرخ نفسه قد ذكر العيلاميين بأنهم شعب "لا يعرف أصله ولا الجنس الذي ينتمي إليه أنشأ إحدى المدنيات الأولى المعروفة في العالم [1] بالرغم مـــن كونه " في صقع ضيق " تحف به الجبال من جهات ثـــلاث ، فقد وجدناه يضعه والهمج المتوحشين في خانة واحدة ، ثم يدمج الاثنين معا مع العموريين (الساميين) القادمين من الغرب ليشتركوا معا في تدمير حضارة سومر .

" وهكذا ظلت بلاد سومر خاضعة لحكم العيلاميين والعموريين مائتي عام " [2] ، لكـــن الوثائق التاريخية تثبت عكس كل ما قاله وتوخاه أولئك المؤرخون . لقد احترم ســـرجون اللغة السومرية الكتابية الرمزية ، واحترم المؤسسات الدينية والمعتقـــــدات الســـومرية ، وجعل ابنته كاهنة نانا ربة القمر في مدينة أور ، ولقب نفسه " كاهن أنـــــو المســـيح " (الممسوح بالزيت) ، و" إنزي إنليل العظيم " أي وكيل الرب إنليل ، ثم انقض علـــى معاقل القبائل الهمجية الغازية التي اجتاحت أور في الجبال الشمالية والشرقية وأمن طـــرق المواصلات التجارية لبلاده ، وتوحدت جمع أطراف الوطن العربي السوري في الشـــمال من عيلام ، إلى سومر ، وأكاد ، وآشور ، إلى ماري ، وتوتول ، وعبلا (إيبلا) . ثم إن كلمة "عيلام" نفسها تعني بالسريانية الأرض العالية .

والجدير بالذكر أن سرجون العموري هذا ولدته إحدى الأمهات الفقيرات من مومسات المعبد في كيش (في سومر) ، ثم ارتقى حتى أصبح ساقيا للملك ، ثم أحد الأمراء أتبـــاع الملك ، ثم يستولي على السلطة وينقل العاصمة من كيش إلى أجادة (أكاد) وهذا دليـــل على أن العرب الأموريين جزء من السكان العرب في كل مكان .

وقبل ســـرجون أيضا فإننا لا نعثر في عهد سلالة اور الثالثة على أثر التمييز في التصنيف الاجتماعي بين السومرين والأكادين ، إذ لم يقتصر الأمـــر علـــى تســـمية الملكـــات

---

(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 2 ص 12 .
(2) المصدر السابق ص 22 .

السومريات بالأسماء الأكادية ، بل كان الملوك السومريون ، وخاصة آخر ملوك هـــذه السلالة شوسين وأبي سين ، يتخذون أيضا أسماء أكادية . كذلك كانت وظائف الإدارة تضم نسبة عالية من الموظفين أسماؤهم أكاديـــة .. وكان الأموريون يستأجرون حقـــول الملك ، ولم يحجب عنهم بحال الارتقاء في وظـــائف الإدارة من حيث الأساس ، وتذكر المصادر أن أمـــوريا كان رســـولا للملك ، وفي كثير من الحالات نسمع عن الأموريين بأنهم يتلقون جعالات من الأغذية أو أنهم يقدمون الأضحيات .

ثالثا : لقد صار في إمكاننا تحديد مواقع أولئك السكان الرئيسية من خلال لهجاتهم المحلية التي تنعكس في أسمائهم . إن الملم باللهجات العربيـــة القديمة يستطيع أن يميز فيها ثـلاث لهجات رئيسية وهي : السريانية في الشرق وفي جبال السراة ، والغربية ، ولهجة شـــبه الجزيرة العربيـــة . فالعربية السريانية بلهجتها الشرقية تضيف الصـــوت "و" إلى نهايـــة الأسماء عموما ، بينما السريانية الغربية (العمورية) تضيف الصـــوت " أ " و"وم" (Om) إلى نهايات الأسماء ، أما العربيـــة العرباء النقية في شبه جزيـــرة العرب فتبتر هذا الصوت عادة لتحوله إلى حركة وتنوين فيما بعد ، مثال ذلك جبرو Gabro (بمعنى رجـل) في السريانية ، في الغربية تصبح "جبرا Gabra" ، و" جبرGabr" بالعربية العرباء في شـــبه الجزيرة . ومثلها "عمرو Amro أو عمورو Amoro في الغربية تصبح عمـــرا Amra أو عمارا Amara وعمرو Amr في عرباء شبه جزيرة العرب .

ومن الاســـم أيضا ولهجة انتشاره يتبين أن أولئـــك الأموريين أو العموريين ينتمـــون في الأصل إلى المنطقة الغربية من سوريا ، وهذا ما يفسر بالتأكيد جعل كلمة " الغربيـــين" مرادفة للعموريين عند أشقائهم في المنطقة الشرقيـــة ، وليس لأن كلمة " أمـــورو " أو "عمورو " و"مارتو" تعني الغرب كما يزعم بعض المؤرخين ولذلك دعي البحر المتوسـط باسمهم "بحر أمورو".

يقول انطون مورتغات في كتابة " تاريخ الشرق الأدنى ": " من المؤكد أن الساميين قـــد نزلوا البلاد قبل أن يكون هناك امبراطورية أكادية أصلا ومن المؤكد أيضا أنهم تصـــاهروا مع السومريين واختلطوا بهم وتعاونوا معهم في جميع المجالات الفكريةبعد أن دخلوا البلاد

مسالمين على هجرات متتالية وبأعداد متزايدة حتى أصبح تفوقهم على السومريين حقيقة واقعة منذ قرون عديدة كما حدث في ماري وكيش خاصة ، وإننا نملك منحوتات من مدينة ماري تحمل كتابة سامية أقدم من سلالة أور الأولى ، ناهيك بعصر مسيلم الذي يشكل الفصل الأخير لعصر فجر التاريخ " [1]

يقول هنري فرنكفورت الباحث في آثار ما قبل التاريخ بصدد الشعب الذي أطلق عليه المؤرخون الغربيون هذه التسمية "السومري" لأنه وجد في منطقة سومر من جنوب العراق ما يلي :

" ويجب أن نعلم أن كلمة "السومرية" لا يمكن إطلاقها إذا تكلمنا بدقة إلا على الكتابة فقط . ولاوجود لشكل إنساني يمكن تسميته بهذا الاسم . ومن زمن العبيد (أبيدو) حتى الوقت الحاضر ظل سكان بلاد ما بين النهرين يتألفون بالدرجة الأولى من بشر ينتمون إلى جنس البحر الأبيض المتوسط ... إن القضية التي كثر النقاش حولها ، قضية نشأة السومريين ، قد تكون أقرب إلى الجري وراء الخيال مما هي إلى قضية تاريخية"[2]

فإذا ما أدركنا أن السومريين ليسوا إلا مزيجا من الأموريين القادمين من الغرب وبعض السريان الصاعدين من منطقة الخليج تتضح لنا وحدة ذلك الشعب في عروبته وحضارته وثقافته وأرضه ، ومن ثم في دولته الموحدة التي نهض بها سرجون وجمع شمل الوطن الواحد حول عاصمته .

رابعا : لقد أدى قيام الدولة العربية السورية العمورية إلى وضوح في الهوية الجغرافية والسكانية للمنطقة برمتها ، مما ساعد على قيام سلالات ملكية حاكمة من الأسرة العربية العمورية قرابة خمسمائة عام من آشور في الشمال حتى لارسا في الجنوب ، وحتى القرن السابع عشر قبل الميلاد . ولقد برزت سلالة بابل بينهما جميعا ، وانتسب إليها حمورابي أول مشرع عظيم في تاريخ البشر . وقد ساعد على هذا الوضوح الكبير في

---

(1) انطون مورتغت ، " تاريخ الشرق الأدنى " ص44 — 54 .

(2) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى ، ترجمة ميخائيل خوري ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، نيويورك ، 1959 ، ص61 .

الهويـــة السكانيـــة والحضاريـــة لشعب المنطقة انتشار الكتابة الأبجدية المسمارية الـــتي عكست الهوية اللغوية للشعب العربي من عيلام شرقاً إلى أواسط البحر المتوسط غربـــاً ومن المضائق شمالاً إلى بحر العرب جنوباً ، لأن الكتابة الأبجدية ـــ كمـــا لا يخفـــى ـــ تعكس الكلمات بأصواتها ، بينما كانت الكتابة المقطعية في سومر من قبل رموزاً لأفكار ولمجموعة أصوات في صوت مقطعي واحد ، مما جعل كثيراً من المؤرخين يصرون علـــى عدم فهم الحقيقة كما هي ، وعلى أن السومريين لا يمتون إلى العرب أو الساميين بصلة .
خامساً : إن الاكتشافات التي عثر عليها نتيجة أعمال التنقيب في تل الحريري أظـــهرت أن ذلك التل ليس إلا مدينة " ماري" العمورية القديمة ، تضمنت أكثر من عشرين ألـــف لوح مسماري ، وهو عدد لم يخرجه أي موقع آخر باستثناء نينوى قبل وبعـــد ذلـــك . ولقد تبين من خلال لغة تلك الألواح أن المفردات والمميزات الصرفية والنحوية لا تـــترك مجالاً للشك بأن " الذين كتبوا تلك الألواح تكلموا الأموريـــة أو اللغة السامية الغربية ، المتميزة عن الأكادية أو الساميـــة الشرقيـــة "[1] ، وإن اللغة كانت مزيجاً من عنـــاصر اللهجتين السريانية الشرقية والعمورية الغربية مما يؤكد وحدة الشعب ما بـــين جنـــاحي الوطن الشرقي والغربي . وقد ظهرت في هذه الألواح أسماء المدن أمثال حلبـــا Halba ، وجبلة (جبيل) Gubla وقطنه Qtna وحرانو• Harano (حران) كإمارات عموريـــة ومحطات على طريق القوافل في شبه جزيرة العرب ، كما تظهر الوثائق أن جميع هـــذه الإمارات كانت مراكز لسلالات عمورية أو تحت حكم أمراء عموريين . وليس ذلـــك فقط ، بل إن كل المنطقة الواقعـــة بين البحر المتوســـط غربـــاً ، ومرتفعـــات عيـــلام شرقاً ، كان يسيطر عليها أمراء عموريون في القرن التاسع عشر ، ويشير اسم أحد أمراء جبيل وهو ينتن عمّو(السيد عمّو يعطي أو يرزق ولداً) إلى أصله العموري ، إذ إن كلمـة "عمّو" معناها القبيلة وسيدها وربها ، وهو بالتالي ، أحد الآباء الذين انتسب إليهم.

(1) Bulletin "American Schools of Oriental Research" No99,PP.9-10

• نرجح أن المقصود بها تلك الواقعة على خط التجارة والقوافل الدولي شرقي غامد وزهران في شبه جزيرة العرب .

سادسا : لقد جاءت وثائق مكتشفات إيبلا (عبلا) في سوريا الغربية الأمورية لتؤكد أن أصول التمدن في إيبلا ترقى إلى فترة أوروك (3100 ـــ 2900ق.م) على الأقل ، وأن دولة "إيبلا" كانت تحكم الفرات الأوسط والأعلى حكما مباشرا . وهناك شواهد على امتداد هيمنتها الأكيدة حتى كركميش ** وأن العرب الأموريين انطلقوا من بادية الشام ، من المنطقة المحاذية لجبل البشري ، كما تؤكد على وحدة الخصائص المعمارية وتفردها في المنطقة السورية الممتدة من الفرات إلى صحراء جزيرة العرب بصورة لم تعرفها في تاريخها ، كما تؤكد على حسن العلاقات مع جميع ممالك وإمارات الوطن العربي السوري ، تشهد على ذلك مراسم العبادة في إيبلا لجميع آلهة تلك الأمارات بدءا من عيلام شرقا ، ومرورا بسومر حتى الساحل السوري وقبرص غربا وإلى شواطئ البحر الأحمر العليا جنوبا . ويكفي أن نورد بعضا من أسماء هذه " الأرباب" لتتضح لنا الصورة بكامل أبعادها : آداما (آدم) ، والربة أدمتا (آدما) ، والرب حدد ، وآن ، وأيل ، وبردو ، وشمش ، ودجن ، وعشتار ، وانكي ، وعيلام ، وكوشر ، ورشف ، وتموز ، وأوتو ، وأنو (عانو) وعناة وجاميش وغيرهم ..

سابعا : إن السهل السوري الشهير الممتد من ضواحي نينوى ليضم كلا من تل حلف ، وحران ، وماري ، وحلب ، وليصل خط المواصلات الذي يصعد من الخليج العربي على الدجلة حتى نينوى ، بالممر السوري في سفح جبال طوروس بالساحل السوري الذي يربط غربي آسيا بعالم البحر المتوسط ، بالطريق النازل إلى سواحل البحر الأحمر الشرقية ليربط إفريقيا ومصر والجزيرة العربية وخطوط التجارة الدولية مع الهند وشرق إفريقيا ، إن هذا السهل التاريخي الرائع هو الذي يسميه الدارسون بالسهل السوري العظيم بعد أن صاروا يطلقون على البلاد كلها الممتدة " من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى " ومن الشمال عند المضائق إلى شأواطئ البحر الأحمر اسم " سوريا " ولاسيما بعد أن أقام أحفاد "مار" الدولة البابلية العظيمة التي غطت تلك الرقعة كلها . لكن تسمية

**** هي كركاميش (حصن جاميش) على نهر الفرات شرقي زهران في شبه جزيرة العرب ، وليس جرابلس على الفرات في شمال سوريا كما يفترض .**

أخـــرى أخذت تحل محل هذا الاسم تدريجيا لدى سكان المنطقة العربيـــة مـــن شـــبه جزيـــرة العـــرب ، ولاسيما المنطقة الممتدة شمال الحجاز فقد صاروا يطلقـــون علـــى سوريا اسم "بـــلاد الشام" وتعني بلاد الشمال ، وهي تمتد من منطقة تخومهم في الحجاز شمالا إلى أعلى الفـــرات .فالشام باللغة العربية تعني "الشمال" ، وشاءم به مشاءمة أخـــذ بـــه إلى الشمال ، وتشأم الرجل أخذ نحو شماله، وانتسب إلى الشمال أو الشام ، والشام أيضا اليسار وعكس اليمين ، ومن هنا كان الشمال في اللغة مرادفا لليسار ، وذلـك لأن من يقف في المركز في قلب شبه جزيرة العرب وظهره إلى الغرب تكون سوريا إلى شمالـه ويســـاره ، وتكون اليمن إلى يمينه وجنوبه ، ومن هنا أيضا كانت اليمن تعني الجنـــوب وتعني اليمين أيضا ،ومن هنا جاءت التسميات لكل من اليمن والشام .

ولقد روى عن النبي العربي محمد (ص) " أن ســـائلا سأله عن سبأ ، أرجلا كـــــان أو أمراة ، أو واديا ، أو جبلا ، فقال له " كان رجـــلا ، ولد له عشرة فتشــــاءم أربعـــة وتيامن ستة ، فالذين تشاءموا ، لخم ، وجذام ، وعاملـــة ، وغسان ، والذين تيـــامنوا ، حمير والأزد ، ومذحج ، وكنانة ، والأشعريون وأنمار (الذين م بجيلة) وخثعم[1]

وفي هذا السهل بالذات يبدأ التاريخ العربي السوري حكاية الدولة التي كانت وما زالـت حجر الزاوية في تاريخ الوطن العربي كله . وإن أول ممثلي هذا التاريخ هم الأموريـــون . ولقد لفت تاريخ هذا السهل أنظار جميع الباحثين من شتى بقـــاع العـــالم . وأخـــذوا يتسابقون إلى استكشاف التـــلال المبعثرة في أرجائه بوفرة لم تعرفها أية أرض أخـــرى في العالم . وإن ما اكتشف من تاريخ الشعب العربي السوري في هذا السهل اليوم جعـــــل كثير من المؤرخين يعيدون النظر في كل ما كتب عن تاريخ المنطقة العربيـــة ، وها هـــو أولبرت كيلي يصرح بأن " حضارة البـــابليين الســـاميين إذا لم يكن أصـــلها في بـــلاد الأموريين فإن نشـــوءها خلال مدة طويلـــة على الأقل كان في تلك البلاد ، وأنه كـــان للأموريين إمبراطوريـــة واسعة منذ الألف الرابع والخامس قبل الميلاد" وأن النظرية التي

(1) المسعودي ،" مروج الذهب "الجزء 1 ، ص73 .

تقول بأصل الساميين من جزيرة العرب لا أساس لها " [1] .

وسواء أكان أولبريت كيلي على حق أم لا ، فإن ذلك ليس يعنينا هنا ، لأنه ليس مهما لدينا أن يكون الوطن الأصلي للعرب الساميين شبه جزيرة العرب أو سوريا ، بل كل ما يهمنا هو أن نعرف القارئ بمدى الحيرة التي تنتاب المؤرخين عقب كل اكتشاف آثاري جديد في المنطقة العربية السورية التي جهد كثير منهم وزمنا طويلا على طمس معالمها الحضارية والتاريخية . وإن هذه الحيرة في حد ذاتها تؤكد صحة وجهة نظرنا في أن العرب لم يأتوا إلى سوريا في شكل غزوات بدوية متخلفة ، بل كانوا على الدوام يجولون في أرضهم العربية ، يتجاذبهم في ذلك طرفا الصراع الرئيسيان : البداوة والمدينية ، وكلما حاول المؤرخون وضع بداية زمنية للوجود العربي المديني المستقر في هذا الجزء من الوطن العربي السوري أو ذاك ، ما تلبث أن تطلع عليهم أعمال التنقيب بمفاجآت كبرى جديدة ، حتى صار الأمر المنطقي المعقول الوحيد هو الانطلاق من اساس عروبة المنطقة ككل منذ أن عرفت أرضها الانسان في شكل الجماعة البشرية الأولى .

إن سوريا لم تقل كلمتها الآثارية بعد ،وإن ماإكتشف حتى الآن في أوغاريت ، وأفاميا ، وتدمر ، وماري ، وغيرها لا يشكل إلا جزءا جد يسير مما لا يزال مخبوءا تحت الأرض في تلك المدن ، وإن مخطوطات" إيبلا " لا تزال قيد الدرس ، وإن آلافا من التلال والمواقع الأثرية الأخرى ، التي يخبئ كل منها مدينة قديمة ، ما تزال تنتظر .

ثامنا : إن أولئك العرب الأموريين هم الذين شغلوا جبال وسهول سوريا الساحلية أيضا ، تشهد على ذلك ، آثارهم ، ومدنهم ، وقراهم ، التي ما تزال تحمل أسماءهم والتي تملأ ثنيات الجبال والسهل الساحلي الممتد من مرسين شمالا إلى أقصى الجنوب في سيناء جنوبا . وليست عمريت(جنوب طرطوس) ، وبيت مري (في لبنان) ، والعمورية ، وعمورين ، وبعمرا ، وغيرها من القرى الكثيرة الأخرى سوى بعض الشواهد على ذلك الباقية حتى اليوم .وليس الفينيقيون القدماء غير أو بعض العموريين الذين شغلوا الساحل

---

(1) انظر : **Albret T.Clay , "Amuru: The land of the Northern Semites""TheEmpire of the Amorites"**

السوري في المنطقة الممتدة من غرب انطاكية وحتى جنوبي صور قبل قدوم الفينيقيين الكنعانيين الجدد من صور على الخليج العربي (في عمان الحالية) بزمن طويل .

لقد أدى ذلك الارتباط العضوي بين مشرق الوطن العربي في منطقة الخليج العربي مع سومر واعالي الفرات من جهة ، ومع أطراف البحر الأحمر من جهة ثانية عن طريق وادي الرمة والدواسر ، إلى قيام تجانس حضاري ، بين أطراف الوطن الأربعة ، رفيع المستوى منذ ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد ثم استمر مع الزمن دون أن ينقطع رغم كل العوامل التي طرأت فيما بعد على المنطقة سواء أكانت جغرافية ، أو مناخية ، أو سياسية ، أو استعمارية في الزمن الحديث .

وإن هذا الاندفاع الحضاري العربي هو الذي عبر البحر الأحمر غربا إلى وادي النيل ليقيم هناك مركزا آخر ، وشاهدا آخر على تفوق الحضارة العربية منذ طفولة البشرية .

لقد بقي المؤرخون زمنا طويلا يعتمون على عروبة البناء الحضاري في مصر جاعلين منها جزيرة حضارية منفردة لا تمت إلى الحضارة العربية بصلة ، شأنهم في ذلك شأن ما صنعوا بالنسبة إلى سومر . فكما كانت " سومر" مطوقة من جوانبها الأخرى بالقبائل الهمجية المتخلفة وليس لها أي اتصال مع الحضارة إلا من خلال أجزائها الملامسة ، والمتصلة ، والمرتبطة عضويا بالجسد الأم ، بالوطن العربي ، فكذلك هو شأن مصر . لكن المكتشفات الحديثة ما لبثت أن أرغمت كثيرا من مؤرخي الحقبة الاستعمارية على الاعتراف ، ولو جزئيا ، بالهوية الحضارية العربية في مصر منذ خطوات الحضارة الأولى على أرض مصر . وان إصرار بعض المثقفين المصريين اليوم ممن أتخمت عقولهم بالتركيز الاستعماري المقصود على تفرد مصر الحضاري لم يغير من الأمر شيئا ، ولن يفعل أكثر من إبرازهم كبقايا أصوات من الحقبة الاستعمارية تدوي في وادي الأمس المظلم الذي مد عالم اليوم من فوقه جسور الضوء لتعبر الحقيقة ، ولتملأ كل بقاع الوطن .

يقول ول ديورانت : " وما من أحد يعرف من أين جاء هؤلاء المصريون الأولون " . إن ذلك هو ما قاله بالنسبة للسومريين أيضا ,لكنه ما يلبث أن يذعن لما تقوله المكتشفات ، والدراسات العلمية لمخلفات الماضي ، فيقول مع وولي ، وماسبرون ودون : " ويرجح

أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسيا قد جاؤوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البـــلاد ، وإن تـــزاوجهم مع هؤلاء الأهلين الأقوياء قد أنجب سلالة هجينة كانت مطلع حضـــارة جديدة كما هو الشأن في جميع الحضارات ، وأخذت هذه الســـلالات تمتزج امتزاجـــا بطيئا حتى تألف من امتزاجها فيما بين عام 4000 و 3000 ق.م شعب واحد هو الشعب الذي أوجد مصر التاريخية " [1] . وليس عسيرا أن نكتشف كيف أنـه كغيره يستخدم " طاقية الأخفاء " ليتجنب ذكر اسم " ســـوريا " مستخدما مصطلحـــا جغرافيا هو " غرب آسيا " نزولا عند الرغبة الصهيونية لتبقى عشائر التوراة في الصـــدارة من الأحداث التاريخية في المنطقة .

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء 2 ص 65 .

العرب الأموريون مؤسسو الدولة العربية السورية نواة الدولة العربية الكبرى

ذكرنا كيف أن هذه المنطقة التي أطلق عليها اسم "سوريا " كانت تمتد من البحر الأدنى " بحر العرب" إلى البحر الأعلى " البحر الأسود" إلى شواطئ البحر الأحمر الشمالية الشرقية ، ومرورا بحوض وادي الرمة والدواسر إلى الخليج العربي . ولقد تميزت هذه المنطقة بـ :

1 ـ وجود قبائل وشعوب بدائية عند حديها الشمالي والشرقي تهدد أمنها واستقرارها بين فترة وأخرى ، وتنقض على مدنها ومراكزها الحضارية فتدمر وتقتل وتنهب ، ثم تعود إلى معتصماتها ومعاقلها خلف الجبال المنيعة .

2 ـ تتميز هذه البقعة بالمسافات الشاسعة المتنوعة في تضاريسها وطبيعتها الجغرافية ومناخاتها ، مما يجعل المراكز الحضارية المكثفة في أحواض الفرات الأعلى والأوسط والأدنى وسواحل المتوسط والبحر الأحمر وفي السهل السوري الداخلي بقاعا متطرفة ومنعزلة أمنيا وجغرافيا إحداها عن الأخرى ، إما بموانع جبلية ، (كما في الساحل السوري الممتد إلى جنوب سيناء) ، أو ببراري شاسعة ومغاوز يصعب اجتيازها إلا من خلال معابر وطرق معروفة تسلكها القوافل ، وتستغرق زمنا طويلا يحد من فعالية سيطرة الدولة على شتى أجزاء مقاطعاتها مهما بلغت فعاليتها في ذلك الزمن حيث الجمال ثم الخيول كانت ما تزال واسطة النقل والاتصال الوحيدة .

3 ـ إن موقع سوريا موقع فريد في قلب العالم ، وعلى ملتقى القارات التاريخية الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وفي الموقع المسيطر على أهم شطآن بحار العالم التجارية : المتوسط ، والخليج العربي ، والبحر الأحمر ، وفي أغنى بقاع العالم ، وأكثرها خصوبة ، وتنوعا في المناخ والنباتات والمزروعات ، وتتضمن أراضيها أهم الطرق الدولية البرية التجارية بين أصقاع العالم القديم قاطبة . فهنالك الطريق الدولي الذي يمكن تتبعه من دلتا

النيل إلى شبه جزيرة سيناء ، حيث مناجم الفيروز والنحاس ، حيث يتفرع عند العقبة إلى فرعين : يذهب أحدهما بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر إلى بلاد البخور والعاج والأبنوس ، ثم يذهب شرقا إلى عمان حيث النحاس أيضا ويصعد إلى الخليج ، ومنه يتفرع إلى فرعين ، أحدهما يذهب عبر السواحل إلى الهند ، والآخر يصعد مع الدجلة إلى نينوى ومنها إلى ماري وأعالي الفرات ثم يتقدم غربا إلى الممر السوري حيث يلتقي بالطريق الدولي الآخر الذي يصعد من خليج العقبة نحو الساحل السوري الجنوبي حتى الكرمل على مسافة من البحر ، ثم يتفرع إلى طريقين يتجه الواحد بمحاذاة الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانئ السورية ، ويسير الآخر إلى الداخل ليعبر نهر الأردن في واديه الشمالي ، ثم يتجه رأسا إلى دمشق في الشمال الشرقي ، ومن هنا يتفرع عنه طريق آخر يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ، ويربط القلب السوري بأطراف الوطن الشرقية ومراكزه الحضارية من سومر إلى بابل إلى بغداد . أما الطريق الرئيسي فإنه يتابع سيره من دمشق نحو الغرب فيعبر ممر الزبداني إلى سهل البقاع ، ثم عبر سوريا المجوفة مع نهر العاصي إلى شمال سوريا ، ويتفرع عنه فرع يتجه نحو الغرب مع وادي النهر الكبير إلى الساحل ، ثم يتابع سيره ليلتقي بالخط الآخر في الأبواب السورية في الأمانوس وكيليكيا القادم من الخليج العربي ووادي الدجلة ونينوى من الشرق .

4 ـ إن ذلك الموقع الفريد ، وتلك الطرق الدولية الفائقة في أهميتها بالنسبة إلى كل الدول والشعوب الطامحة إلى التوسع جعلت من تلك المنطقة مركز جذب لكل القادة والفاتحين ، كما كانت تغري كل القبائل والشعوب البدائية الأخرى بالغزو لكثرة ما تحمله من سلع ومنتجات الزمن القديم كالعاج والذهب من أفريقيا ، والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبي بلاد العرب ، والكهرمان وشرانق الحرير من آسيا الوسطى والصين ، والقمح والأخشاب والخمر والزيوت والمنسوجات والأرجوان والأسلحة والقصدير والنحاس والبرونز والفخار من سهول سوريا وجبالها .

5 ـ إن ذلك كله لم يكن ليمر دون أن يترك آثارا لا تمحى على تكوين شخصية الإنسان العربي السوري . لقد خلق منه إنسانا متنوع المواهب والامكانات ، سريع

التأقلم والتكيف لكثرة تنوع بيئته وغناها ، مجداً ومجتهداً من جانب ، ومحباً لحياة البذخ من جانب آخر ، مادياً ، بارعاً في استغلال إمكاناته وموقع بلاده في سبيل جني المكاسب والأرباح الطائلة وجمع الثروات ، وكريما مسرفاً في جانبه الآخر ، يقدس المناقب الروحية الرفيعة ، وينظم لها طقوس التعظيم ويتمسك بذلك ، مسالماً وديعاً ، وجسوراً مغامراً ، مفرطاً في حبه لارتياد المجاهيل ، محباً لذاته ، فردياً إلى درجة الأنانية من جانب ، وشهماً غيوراً وطنياً لا يعرف حداً تقف عنده وطنيته . وفوق هذا كله وذاك ، فقد خلقت هذه الشروط لديه حساً استراتيجياً متفوقاً كان له أكبر الأثر في عملية نشوء الوطن العربي الكبير والحفاظ عليه كل هذه الالآف من السنين .

العرب السوريون والعقل الستراتيجي

إن شعور العرب السوريين بغنى بلادهم ، وبأهمية موقعها ، وبتفوقهم في مجال الإبداع الحضاري ، وبالأخطار المحدقة بهم ، ولد لديهم رد فعل طبيعياً ، تجلى بنمو ذهنية استراتيجية متطورة ، كانت هي الأساس في نشوء الوطن العربي ، وفي انبثاق الشعور القومي وتطوره على مدى الزمن التالي حتى عصرنا الراهن . ولقد تجلى العقل الستراتيجي لدى العرب السوريين في النواحي التالية :

أولاً : لقد أكد الأموريون (أو العرب السوريون)منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، على الأقل ، أن نظام المدن ـــ الدويلات الذي انتشر في سومر ، وفي حوض الفرات الأعلى ، وعلى الساحل السوري الغربي ، كان أعجز من أن يتصدى لتلك الأخطار المحدقة ، والتي تتربص به من خلف الجبال في الشمال والشرق بين كل فترة وأخرى ، مهما بلغت تلك الدويلات من الرقي والتقدم الحضاريين. بل وأكثر من ذلك، فقد كانت تلك المدن تتحول إلى مراكز إغراء بالغزو كلما تقدمت في المجالات العمرانية والاقتصادية ، وكلما تمكنت من أن تحقق مستويات متقدمة من العيش لأبنائها كلما زادت احتمالات غزوها ونهبها وتدميرها من الخارج . ولقد أدى ذلك إلى نمو شعور متعاظم بوجوب قيام دولة قومية مركزية قوية تكون قادرة على خلق كل مجالات النمو والإبداع والتطور لشعبها ،

وتأمين الأمن لكل الطرق التجارية الدولية التي تسلكها القوافل لتنقل منتوجات العالم القديم كله ، من خلال أراضيها الشاسعة المتوسطة والمترامية ، وتوجيه الضربات الماحقة ـــ إذا أمكن ـــ لكل قوى الغزو المتربصة في معاقلها الجبلية ، وردع القوى الطامعة بثروات الوطن .

ثانياً : لقد أدرك الأموريون أو السريان (أو العرب السوريون) الأهمية الستراتيجية الفائقة لمنطقة البحر الأحمر التي تربطهم بإفريقيا عن طريق ممر القوافل الدولي الذي يدور حول أطراف البحر الأحمر الشمالية عبر سيناء ، وعن طريق البحر الأحمر نفسه ومضيق باب المندب ، في الوقت الذي كانت فيه السفن ما تزال شراعية وأعجز من أن تذهب بعيداً إلى أعماق البحار الكبرى كما يجعلها تتحكم بطريق القوافل المحملة بمنتوجات جنوب شبه الجزيرة العربية والهند أيضاً .

لقد كان البحر الأحمر والمنطقة المطلة عليه من شبه الجزيرة العربية ، بفضل هذه الميزات ، يشكل موقعاً استراتيجياً لا يضاهيه أي موقع آخر ، بالإضافة إلى أن عالم الشمال الإفريقي الذي ينفتح من خلفه يشكل مسرحاً سهلاً عميقاً وبعيد المدى لممارسة النشاطات العربية السورية المتفوقة .

وإن نظرة واحدة إلى باقي مناطق التخوم الأخرى ترينا حدوداً شبه مغلقة تقريباً من الشمال والشرق بموانع جبلية صعبة ، باستثناء بعض المسالك التي كان يمكن أن تتسلط عليها عصابات القبائل الجبلية وتهدد طرق التجارة والمواصلات فيها في الزمن الذي تريد ، كما أنه لم يكن خلف تلك الجبال ما يغري بمغامرات اقتحامها ، في ذلك الزمن ، إلا من أجل تأمين خطوط التجارة عبر تلك الممرات ، وذلك لصعوبة الاحتفاظ بها والدفاع عنها ، من جهة ، ولانقطاعها عن العالم المتمدن من جهة أخرى .

أما الحد الغربي المتمثل بالبحر المتوسط فقد ظل نداء سحرياً يغري العرب السوريين ، المفعمة نفوسهم بحب المغامرة ، بارتياده . لكن السفن الشراعية العاجزة عن تلبية متطلبات الأسفار الطويلة بقيت عقبة حقيقية زمناً طويلاً إلى أن عززت بالمجاذيف ذات الصفوف من الجانبين .

لكن ذلك لم يكن ليوقف أولئك السوريين الساحليين عند حدود الاستسلام للظرف ، بل سرعان ما انطلقوا بمحاذاة سواحلهم الجنوبية إلى مصر ، ثم اندفعوا غرباً على طول الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط حتى المحيط الأطلسي مستخدمين في ذلك أسلوباً فريداً من نوعه لم يسبقهم إليه شعب من الشعوب . فلما كانت سرعة سفنهم في بادئ الأمر لا تتجاوز بضعة أميال ، ولم تكن هذه السفن بقادرة بعد على تحمل السفرات الطويلة في عرض البحار ، فقد لجأوا إلى أسلوب الإبحار على مسافة قريبة من الشاطئ ، وبناء "العساقل "* على طول الشواطئ البعيدة التي تمتد غرباً إلى المحيط الأطلسي . لقد ابتدعوا هذه الطريقة نتيجة لظروف السفن وإمكاناتها المتحكمة بهم من جهة ، ولشدة توقهم إلى تلبية نداء المتوسط الذي يحثهم كقوة إغراء سحرية إلى ركوبه واستجلاء مجاهيله في جانبه الغربي من الطرف الآخر . ولقد كان غرضهم من إقامة مثل تلك "العساقل" على الشواطئ أن تجد سفنهم مساء كل يوم من السير شاطئاً صلباً متماسكاً ملائماً لأن تأوي إليه تلك السفن ليستريح بحارتها من أعباء التجذيف اليومي ، وليتزودوا بالمؤن اللازمة لمواصلة الرحلة .

لكن هذه "العساقل" ما لبثت أن تحولت إلى مستوطنات ، يتواجد فيها أولئك الأموريون السوريون بصورة دائمة ، لتأمين متطلبات مواطنيهم المثابرين على تطوير تجارتهم وملاحتهم البحرية بكفاءة منقطعة النظير . ثم ما لبثت أن ظهرت المدن وانتشرت على طول الشواطئ الجنوبية ، ثم الغربية والشمالية للمتوسط ، ثم ما لبثت أن تحولت جميع جزر هذا البحر إلى محطات ومستوطنات عربية سورية أمورية ، وصار يدعى " بحر أمورو" .

لقد صار واضحاً الآن أن قيام أية دولة عربية سورية إنما كان يعني تحقيق المهمات التاليـة :

• ما تزال هذه الكلمة الأمورية تحافظ على معناها حتى اليوم فالعسقل في اللغة تعني الموقع من الأرض أو الشاطئ المتميز بصلابته وتماسكه ، ومنها كانت تسمية عسقلان على الساحل في سوريا الجنوبية .

1 ـــ تحرير الداخل من حكم الأمراء الاقطاعيين والدينيين المستغلين في الدويلات ـــ المدن ، والقضاء على نفوذهم ، وتحرير المواطنين من سيطرة رجال المعبد والأمراء سياسياً واقتصادياً ، وتوحيد تلك الإمارات في دولة مركزية واحدة تعين حكاماً للمقاطعات من موظفين مركزيين .

2 ـــ بناء جيش قوي قادر على فرض هيبة الحكم المركزي في الداخل من جهة ، وردع كل قوى الغزو الخارجية من جهة أخرى .

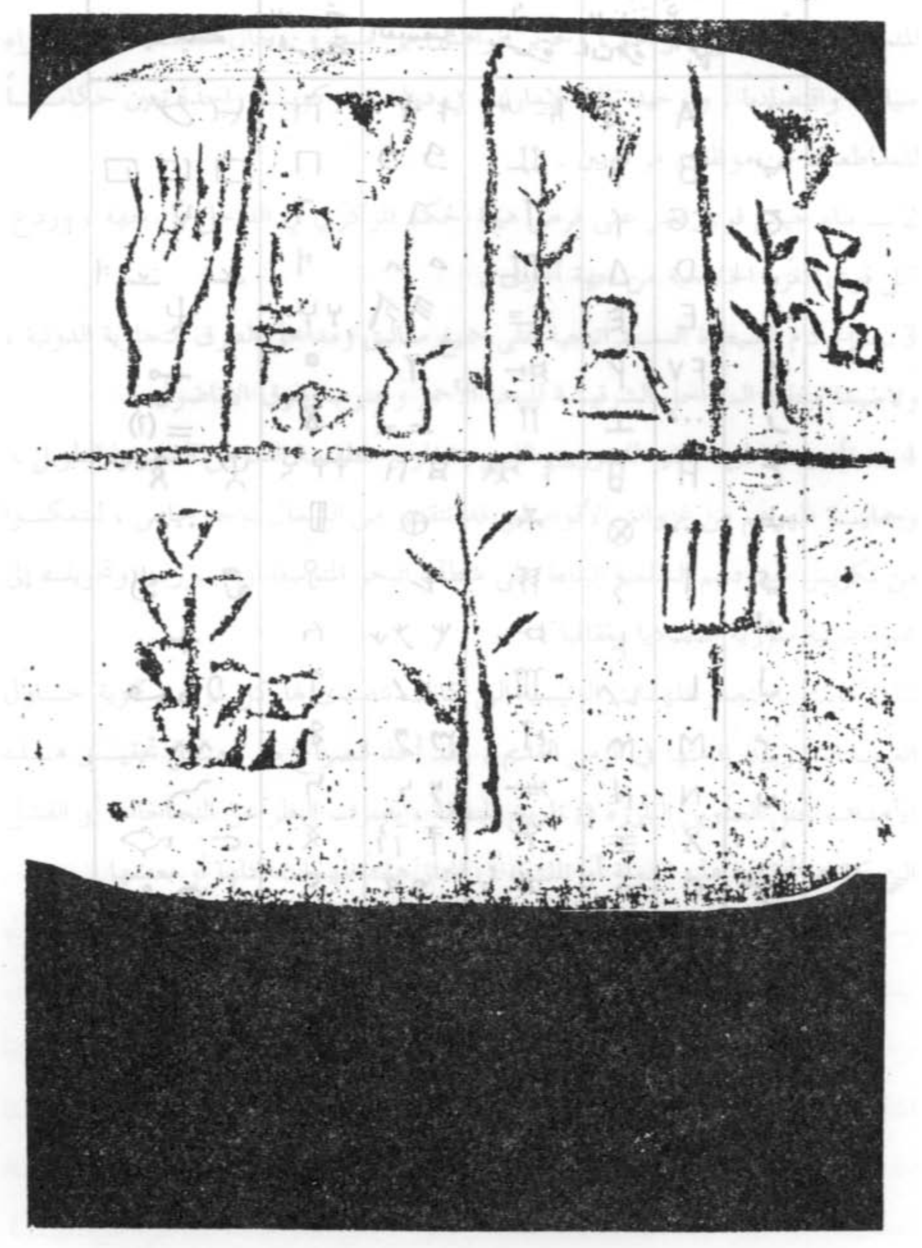
3 ـــ إحكام السيطرة الستراتيجية على جميع مغاليق ومداخل الطرق التجارية الدولية ، ولاسيما منطقة السواحل الشرقية للبحر الأحمر وجنوب شرق الأناضول .

4 ـــ تأمين المناطق الخلفية للسوريين الذين يشغلون منطقة الساحل السوري الطويل ، وحماية ظهرهم من غزوات الأقوام التي قد تنقض من الشمال بوجه خاص ، ليتمكنوا من تكريس جهودهم السلمية البناءة على شطآن البحر المتوسط وجزره ، وتحويله إلى بحيرة عربية سورية اقتصاديا وثقافيا .

تلك كانت باختصار المهمات الرئيسية التي كانت تتصدى لها كل دولة مركزية حاول العرب السوريون إقامتها في الزمن القديم . وقد أخذ الصراع من أجل تحقيق هذه الأهداف يحتل العناوين البارزة في تاريخ المنطقة ، بصرف النظر عن النجاحات أو الفشل التي كانت تحققها هذه الدولة أو تلك ، في إنجاز هذه المهمات كلها أو بعضها .

العربية	اللاتينية	اليونانية الباكرة	رأس شمرة	الفينيقية	العربية الجنوبية	السينائية
ا	A	A				
ب	B	Β				
ج	CG	Γ				
د	D	Δ				
هـ	E	Ε				
و	FV	Υ				
ز	...	Ζ				
ح	H	Θ				
ط	...	⊗				
ي	I	Ι				
ك	...	K				
ل	L	L Λ				
م	M	M				
ن	N	N				
...	X	Ξ				
ع	O	o				
ف	P	Γ				
ص	...	...				
ق	Q	ϙ				
ر	R	P				
س ش	S	Σ				
ت	T	T				

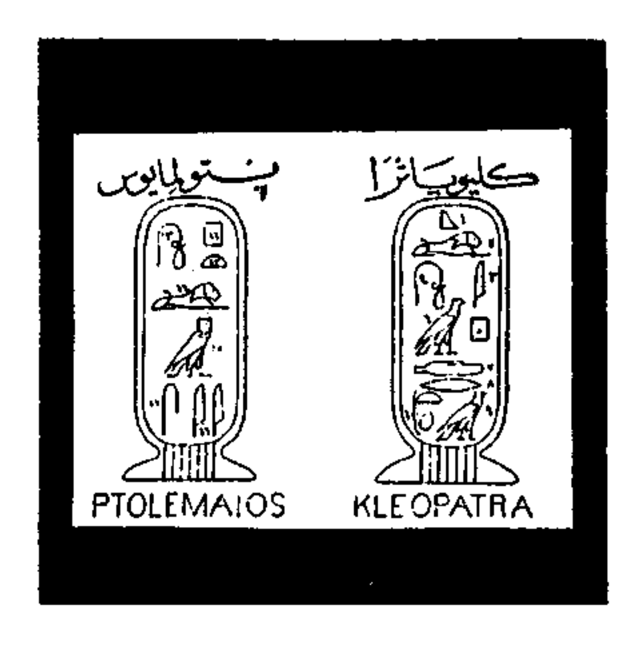
جدول بعض الأبجديات للدلالة على تسلسلها



بدايات الكتابة التصويرية في سوريا ، مدينة الوركاء السوية الرابعة ــ آ ــ

ك = ١		ب = ١١،٥	
ي = ٢		ت = ١٢	
ا = ٦،٦		و = ١٣،٣	
ث = ٧		ل = ١٤،٤	
ر = ٨		م = ١٠	
١٠ يكتب ولا يلفظ		أي = ٨	
		س = ١٧	

حجر رشيد والهيروغليفية المصرية



المعنى	اللفظ	الصورة	الكتابة الصورية الوركاء IV حوالي ٣٢٠٠ ق م		الكتابة السومرية العتيقة على الحجر	على الطين	العلامات المسمارية في حوالي ٢٣٥٠ - ٢٠٠٠		البابلية القديمة	الآشورية المبسطة
					٢٥٠٠ - ٢٤٥٠				١٨٠٠	٧٠٠
سماء اله	an dingir	نجم								
أرض	ki	أرض								
رجل انسان	lu	جسم انسان								
فرج امرأة	sal munus	فرج								
جبل	kur	جبل								
عبدة امرأة جبلية	munus+ kur=geme	جبل + فرج								
رأس	sag	رأس								
يتكلم	ka=dug	رأس = فم								
طعام	ninda	وعاء								
يأكل	ka + ninda	فم + وعاء								
ماء في	a	مجرى ماء								
يشرب	ka +a= nag	فم + ماء								
يذهب يقوم	du gub	قدم								
طائر	muschen	طائر								
سمكة لعل	ha	سمكة								
ثور	gud	ثور								
بقرة	ab	بقرة								
شعير حبوب	sche	سنبلة								

"نماذج " من مراحل نشوء ، وتطور الكتابة المسمارية

الحرف	ملاحظة	الحرف	ملاحظة
= ا	راجع الشرح بشأن استعماله حرف علة	= خ	
= ى	استعمل حرف علة على عهد اليونان	= خ	
= ع		= س	
= و	راجع الشرح بشأن استعماله حرف علة	= س	كان التلفظ به يختلف اولاً بعض الاختلاف عن الحرف السابق
= ب		= ش	
= پ		= ق	كذلك ك على عهد اليونان
= ف		= ك	
= م	كذلك العلامة بعدئذ	= ج	كما يلفظه المصريون في القاهرة
= ن		= ت	
= ر		= ث	
= ل	في الازمنة المتأخرة ولكنها استعملت قبلاً للدلالة على ر	= د	
= لا		= ج	كما يلفظه العامة في شمالي سوريه
= ح			

اللغة العربية القديمة بالخط الهيروغليفي المصري

كل واحد من هذه الحروف كان يدل على حرف صحيح ، ولامـــراء في أن المصريـــين كبقية أشـــقائهم العرب كانـــوا يلفظون كلماتهم محركة لكنهم ـــ كما في العربي غير

المشـــكل ــ لم يكتبوا الحركات ، وفي الأعصر المتأخرة استعملوا ثلاثة من الحروف الصحيحة كحركات ، الأول والثاني والرابع على القائمة .

معنى أصلي أو مشتق	آشوري	بابلي قديم	وسياري متاخر	الاصل
طير				
سمكة				
حمار				
ثور				
شمس يوم				
حبوب				
شجر				
يفلح يحرث				
يرمي				
يقف يذهب				

جدول يبين كيف مرت الحروف الفينيقية في أشكال يونانية وررمانية حتى بلغت أشكالها الانكليزية الحاضرة

[illegible]	[illegible]	[illegible]	A	A
[illegible]	[illegible]	[illegible]	B	B
[illegible]	[illegible]	[illegible]	CG	C.G
[illegible]	[illegible]	[illegible]	D	D
[illegible]	[illegible]	[illegible]	E	E
[illegible]	[illegible]	[illegible]	FV	F.V.U
[illegible]	[illegible]	[illegible]	...	Z
[illegible]	[illegible]	[illegible]	H	E.H
[illegible]	[illegible]	[illegible]	...	TH.PH
[illegible]	[illegible]	[illegible]	I	I
[illegible]	[illegible]	[illegible]	...	K.KH
[illegible]	[illegible]	[illegible]	L	L
[illegible]	[illegible]	[illegible]	M	M
[illegible]	[illegible]	[illegible]	N	N
[illegible]	[illegible]	[illegible]	X	X
[illegible]	[illegible]	[illegible]	O	O
[illegible]	[illegible]	[illegible]	P	P
[illegible]	[illegible]	[illegible]	...	S
[illegible]	[illegible]	[illegible]	Q	Q
[illegible]	[illegible]	[illegible]	R	R
[illegible]	[illegible]	[illegible]	S	S
[illegible]	[illegible]	[illegible]	T	T

لقد صـــار في إمكاننا الآن أن نقول ، وعلى درجة كبيرة من اليقين ، بـــأن الســـكان العرب الذين خالطـــوا " السوريين " (ابناء "سر") في سومر في مدنهم ومعابدهم ، وفي السلطة وإدارة شؤون المواطنين ، إنما كانوا من العرب الأموريين الذين ما لبثوا أن عـبروا عن وجودهم بقوة طاغية ومباشرة وأنهم والسومريين شـعب واحد . كما أن الكتابـــة السومرية لم تكن تعني لغة محكية ، بل كتابة مقطعية رمزية فيها إيجاز كبير لأصوات اللغة المحكية اقتصرت على موظفي المعابد وعلى حساباتهم التجارية وصلواتهـــم وأســـرارهم الدينية ، وأن الكتابة الأبجدية حينما ظهرت أظهرت معها حقيقة اللغة المحكيـــة اليوميـــة

وكشفت عن هوية السكان العامة ، وأن سرجون مؤسس أول دولة عربية سورية ، بل وأول دولة في العالم ، كان سوريا ،ربي ونشأ وترعرع في سومر ، وجعل ديدنه تحرير البلاد العربية السورية كلها من الغزاة الخارجيين وأمراء الإقطاع الداخليين ، من عيلام إلى المتوسط ، مما أكد مرة أخرى وحدة هذا الشعب في كل مناطقه ، بصرف النظر عن كل التسميات التي أطلقت عليه . ولقد تأكد أيضا أن تلك التسميات المختلفة التي واكبت مرحلة نشوء الدويلات ــ المدن ، ثم الدول المركزية التي كانت تغير العاصمة من فترة لأخرى ، لم تكن لتغير شيئا من حقيقة هوية الشعب العامة . إن نظرة واحدة على الواقع العربي الراهن ترينا من كثرة أسماء الدول والحكومات ، والعواصم ، والأسر ، أكثر بكثير مما كانت عليه الحال في زمن العرب الأموريين . لكن هذا ليس يعني للمؤرخ إطلاقا أن السعوديين عرق ، والعراقيين ، أو الجزائريين ، أو التونسيين ، أو غيرهم أعراق أخرى ، أو أمم أخرى ، وأنه ليس ثمة قضايا عربية كبيرة على مستوى جماهير الشعب العربي كله وفي جميع أقطاره ، تبقى هي الأساس والمحرك ، والموجه ، لحركة التطور الاجتماعية ، والسياسية ، صوب الأزمان المقبلة .

وإذا كان الزمن السومري إنما هو جزء من زمن عربي سوري ــ أموري فإن مما لاشك فيه أن ما دعي بـ "الإمبراطورية العربية " السابقة للمرحلة السومرية لم تكن إلا حضورا بارزا آخر لأولئك العرب الأموريين الذين ملأوا أنحاء الوطن العربي آنذاك من منطقة الخليج إلى شبه جزيرة العرب وسواحل البحر الأحمر ، إلى دلتا وادي النيل ، إلى سوريا الطبيعية الممتدة من شواطئ البحر الأحمر إلى أعلى الفرات .

لقد شكل أولئك العرب الأموريون أبناء "مر" مع أشقائهم أبناء "سر" قاعدة السكان الأصليين في الوطن العربي ، ولما جاء من بعدهم نسل آدم الرسول الذي احتفظ ببعض فروعه النسابون العرب منذ القديم ، وتوارثوا حفظه جيلا بعد جيل ، لم يكن في الأمر أكثر من عملية استمرار للعرب الأولين السابقين لآدم ، فانضافت الفروع إلى الأصل ، وتكاثرت فروع الأصل وفروع الفروع وتعاقبت الأجيال ، فامتزج أبناء آدم بأبناء شعبهم من الأجداد الآخرين الذين تميز من بينهم " سر" و"مر" في سوريا الممتدة

من الخليج إلى حوض الفرات الأعلى ومن المضائق إلى ساحل البحر المتوسط ، و"رب" في شبه جزيرة العرب ، وسمي بيت الأول (قبيلته وأبناؤه) "أسرا" كما سمي بيت الثاني (قبيلته وأبناؤه) أمر ، عمرو ،عمورو ، كما سمي بيت الثالث (قبيلته وأبناؤه) عرب .

ومن هذا فإن العرب والأموريين والسوريين أشقاء في بيت واحد .

لقد أنشأ الأموريون مدنهم منذ الألف السابع قبل الميلاد في مناطق الخليج الشرقية وفي الساحل الغربي المطل على البحر المتوسط وإذا كانت مدن الشرق الأولى قد اختفت تحت مياه بحر الخليج فإن بعض المدن الأخرى ظلت قائمة دهرا طويلا ، كما ظل بعض منها قائما حتى يومنا هذا . ومن المدن الأمورية التي تعود إلى ما قبل الألف الرابع قبل الميلاد : أريدو ، ونيبور ، وكيش ، ولغش، وأور ، وأوروك ، ولارسا ، وسوسا ، وماري ، وإيبلا ، وحلب ، وحماه ، وحمص ، ودمشق ، وأوغاريت ، وأريحا ، وجبيل، وعمريت ، وأفاميا (في سوريا المتوسطية) وغيرها ......

الفصل السادس

الدولة العربية الأمورية الأولى في سوريا

سرجون العظيم رجل التحرير والتوحيد

لقد شق على مؤرخي الحقبة الاستعمارية أن يروا في العرب منذ آلاف السنين رحالاً جسّدوا مضامين التحرير والوحدة والعدالة ، فعمدوا إلى تشويه الوجه الناصع لأمثال هؤلاء بعد أن هربوا التاريخ الحضاري العربي ليلصقوه بغيرهم من القبائل الهمجية . فانتزعوا السومريين من الشرق والفينيقين من الغرب ، والمصريين من الجنوب من هويتهم العربية ليجعلوا منهم جزرا بشرية لا علاقة لها بمن حولها ، بل ولا بأية بقعة أخرى على هذا الكوكب .

لقد أصر أولئك المؤرخون على اعتبار السومريين شعباً لا علاقة له بالمنطقة العربية ، أنزل مع "حضارته" وكأنما من السماء ، ثم لما برز العرب الأموريون فجأة على مسرح أحداث المنطقة كلها، ومن بينها " سومر" ، لم يترددوا في اعتبارهم غزاة مغتصبين للحضارة . لقد اعتدنا أن نرى العرب غزاة من البدو في تاريخ أولئك المؤرخين .

فهم مرة يجتاحون مناطق الهلال الخصيب بأسرها ويأخذون منها حضارة شعوبها ويفرضون عليها لغتهم كما يردد "نقله"التاريخ من العرب عن كتب بعض المؤرخين والمستشرقين المغرضين "[1] ، ومرة يجتاحون عيلام عسكرياً ويفرضون عليها حضارتهم وثقافتهم (صموئيل كريمر) ، ومرة ثالثة يجتاحون بلاد سومر ، ويأخذون منهم حضارتهم بكليتها (توينبي وغيره) .

يقول الدكتور نبيه عاقل في كتابه " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " (دون أن يشير إلى المصدر الذي استقى منه هذه الأقوال مما يجعلنا نفترض أنه يؤيدها ويتبناها

---

(1)انظر : نبيه عاقل " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " ص16 .

لنفسه) في حديثه عن الهجرات السامية : " ولما حل الساميون في وادي الرافدين الذي كان يسكنه السومريون المتحضرون ، كانوا في حالة بداوة وجهل ، ولكنهم ما لبثوا أن تعلموا من السومريين في بناء المنازل ووسائل الري والكتابة وغير ذلك ، ومن اختلاط السومريين غير الساميين بالموجة السامية الجديدة نتج البابليون الذي قدموا للحضارة الانسانية الكثير من ميراثها الثقافي .

وحوالي منتصف الألف الثالثة ق.م (2500ق.م) حدثت هجرة سامية أخرى حملت الأموريين إلى الهلال الخصيب والفينيقيين غربي الشام وفلسطين .

وبين سنتي 1500 ــ 1200ق.م هاجر العبرانيون إلى جنوب بلاد الشام أي فلسطين ، والاراميون (السريان) إلى الشمال وحلوا في منطقة سهل البقاع بين جبلي لبنان الشرقي والغربي .

ولقد أدت هذه الهجرات إلى نتيجتين : أولاً : تخلي هؤلاء المهاجرين البداة عن بداوتهم واستقرارهم ثانياً : اصطدام مؤسساتهم الحضارية ونظمهم الاجتماعية بنظم الأمم الجديدة التي عاشوا إلى جوارها . وقد نتج عن هذا التصادم ظهور مدنيات جديدة مزدهرة متقدمة على حضارة الصحراء التي اندفع منها الساميون . ولابد لنا هنا من أن نذكر أن الدراسة العميقة لهذه الهجرات تبين لنا بوضوح قوة اللغة السامية وقدرتها على البقاء إذ إنه في كل مرة تصطدم فيها هذه اللغة بلغة أخرى كانت تثبت أنها أقدر على البقاء منها وأنها أكثر ملاءمة لحاجات الحياة " [1] .

هكذا يكتب تاريخنا في الخارج ، وينقل ويدرس إلى أجيالنا في الجامعات : العرب الساميون أمة من البدو المتخلفين ، والحضاريون في المنطقة غير ساميين ، وحسب البدوي أن يرى الحضارة حتى يستقر ويتعلم وينتصر . والبدو دائماً هم المنتصرون في عملية " تصادم مؤسساتهم الحضارية ونظمهم الاجتماعية بنظم الأمم الجديدة التي عاشوا إلى جوارها " و " الدراسة العميقة " لهذه الهجرات " تبين لنا بوضوح قوة اللغة السامية وقدرتها على البقاء ، إذ إنه في كل مرة تصطدم فيها هذه اللغة بلغة أخرى كانت

---

(1) الدكتور نبيه عاقل " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " ص15 ــ 16 .

تثبت أنها أقدر على البقاء منها وأنها أكثر ملاءمة لحاجات الحياة " .

لقد نسي المؤلف أن سبعمائة عام من الحكم والوجود العربي الحضاري المكثف في إسبانيا لم يجعل اللغة العربية تنتصر . ولولا رسوخ الوجود العربي منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، على الأقـل ، في الوطن العربي الممتد من المحيط إلى الخليج لما تمكنت اللغـة العربية مـن الصمود على امتداد هذه الرقعة خلال هذه الآلاف الطويلة من السنين رغم كل ظـروف الاحتلال والتتريك والفرنجة التي مرت بها .

أما أن يجعل من دعوا بـ " العبرانيين " ، الذين لا يشكلون إلا إحدى العشائر الضعيفة بين الآراميين ، أصحاب "موجـة " تشغل "جنوب بلاد الشام أي فلسطين" ، وجعـل الآراميين ينحصرون في منطقة ضيقة هي سهل البقاع ، فهذا أمر آخر سـوف نبحثـه مفصلاً مع الحديث عن الآراميين .

يقول أرنولد توينبي في كتابـه " تاريـخ البشريـة " : " وعلى كل فإن حملة نـارام سين السرجوني إلى جبال زاغروس لا ريبة في أمـرها .. وإذا كان عمله دفاعياً فـهو لم يكن يدافع عن أكاد فحسب ، بل كان يدافع عن سـومر وعن المدينة السومرية ، فقـد أسرت هذه المدينة الأكاديين الذين قهروها ، وقبسوها بكليتها تقريباً ، بمـا في ذلـك كتابتها ، وحتى ديانتها ، فأكثر الآلهة الأكادية كانت آلهة سومرية تخفيها غلالة رقيقة من الأسماء الساميـة ، واللغة الأكادية دونت في حروف سومرية ، مع أن هذه كانت آلـة غير ملائمـة للتعبير عن لغة من الأسرة السامية ، من حيث أن جذر الكلمة السـامية ليس سلكاً ينتظم مقاطع ، بل مجموعة من ثلاثة حروف صامتة " [1] .

إن في قول توينبي هذا نموذجا حقيقيا لما يكتبه جهابذة تاريخ العصر الاستعماري، ففيه :

إصرار على أن السومريين ليسوا عربا .

وأن السومريين شعب حضاري مستقل عن المنطقة ووافد إليها .

وأن العرب (الأكاديين) غزاة من الساميين المتخلفين .

وهذا ما كان قد أكده حرفيا في الصفحة ذاتها بقوله " وقد كان الأكاديون متطفلين شبه

---

(1) آرنولد توينبي ، تاريخ البشرية " الجزء1 ، ص97

برابـرة " وكان سـرجون وأحفاده ، مثل لوجال زغيزي* سلف سـرجون رجـال حرب " وأن هؤلاء الساميين (ويعني العرب) البرابرة "قـهروا المدينـة السـومرية وقبسوها بكليتها تقريبا بما في ذلك كتابنها وحتى ديانتها " .

وأن أولئك "الغزاة البرابرة" لم يدمروا "سومر" بل دافعوا عنها كما دافعوا عن " أكـاد" بلادهم ...!

هـل كان مؤرخ مثل توينبي غافـلا عن الحقائـق حينما كتبها في مثل هذه الشـعوذة الصبيانيـة ؟

إن توينبي المحاصر يشغفه بأن يرى الغرب وحده متفوقا منذ أن وجد لم يلق بالا لكل ما أحدثتـه المكتشفات الآثارية في المنطقة من زلزلة في البناء الغربي للتاريخ الذي ساد فيـه منذ عصر النهضـة إلى اليوم . وعن هذه النقطة بالـذات يتحدث فرانكفورت فيقول : " إن توينبي ملم بالعهد القديم الكلاسيكي وبوريثه الغربي فقط . وإنسانه القـديم هـو اليوناني أو الهندو ـ آري " ويقـول في مكان آخـر : " إن تلك الدراسات السـابقة لعبت فيها الأفكار المقرة سلفا دورا هاما ... فعندما كانت وهنالك ظروف أخرى أيضا كانت تحول دون وزن البراهين وتقيمها بتجرد ونزاهـة . وعندمـا كـانت معرفتنـا بالشرق الأدنى القديم جزئيـة كان مألوفا أن نفسر التغييرات بصيغ الفتح والهجرة مـن منطقة مجهولة . لكن الاكتشافـات الواسطة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية قضت على هذا النوع من التقليل . فقد ثبت أن مواطن تلك الشعوب النازحة ، مـن وجهـة ثقافية هي المناطق القائمة على تخوم المركزي العظيمين في مصر وسوريا . وقد ثبت ، من جهة ثانية ، أن هذين المركزين كانا إلى درجـة غير عادية يقاومان النفوذ الخـارجي ، وكان باستطاعتهما أن يفرضا على القادمين حضارتهما"[1]

* لوجال تعني الرجل الجليل ، وزاغيزي* هي زا ـ جيزي وتعني رب جانب للوادي ، ومازالت كلمة "الجيزة" في العربية الحديثة تعني جانب للوادي ، وقد دعيت "الجيزة" بهذا الاسم انسجاما مع هذا المعنى القديم الحديث ذاته ، إذ تقع على جانب وادي النيل .

(1) هنري فرانكفورت ، المرجع السابق ، ص 21 ، 127 ، 128 .

فقد كنا قد بينا كيف أن الكتابة السومرية الرمزية لا تعني لغة شعبية محكية وإنما هي "شيفرة" خاصة بأوساط معينة دينية وسلطوية تسربت منها كلمات أو رموز كثيرة ، ولاسيما ما كان منها متعلقا بأسماء الآلهة ، والمناطق ، والمعابد، ومراتب القائمين عليها ، وغلال المحاصيل التابعة لها ، وألقاب الملوك والحكام المقترنة بأسماء الأرباب ومقاماتها .

وحينما يقول توينبي إن أكثر الآلهة الأكادية كانت سومرية تخفيها غلالة رقيقة من الأسماء السامية ، فإنه كان أحرى به لو يقول العكس تماما: إذ إن الآلهة السومرية هي جميعها آلهة عربية سورية أمورية مغلفة بغلالة رقيقة من الرموز الدينية ، وبالنتيجة ، فإن الآلهة في منطقة سومر هي نفسها آلهة الأكاديين ، وكذلك الأمر نفسه فيما يتعلق باللغة وليس هناك شعب اسمه السومريون بل منطقة في جنوب العراق اسمها سومر .

أما أن يكون الأكاديون " متطفلين شبه برابرة " ، وأن يكون سرجون وأحفاده "رجال حرب فقط" فهذا أمر آخر سوف ننظر إليه .

الأحوال الاجتماعية والسياسية السائدة قبل سرجون :

المرحلة الأولى : مجتمع المدينة ـــ الدولة شبه الاشتراكي:

إن الفكرة الأساسية التي أوجدها واعتنقها العرب منذ مراحل تطورهم الأولى هي أن الإنسان وجد ليعمل ، فالرب إنليل ، أكثر الأرباب شعبية ، هو الذي شق قشرة الأرض بفأس وخلق منها كل شيء [1] ، وهو الذي سلم تلك الفأس للـ"إنسي" وجعله يقدسها ويستخدمها في عبادته . وإذا علمنا أن كلمة " إنسي" تعني وكيل السيد أو الحاكم أو المالك وهي بالسريانية من الفعل إنس = ألزم ، حكم ، أجبر ، قهر . وأن الفعل "عبد" بجميع اللهجات العربية القديمة تعني : عمل ، اشتغل ، أبدع ، خدم ، أطاع و"عابد " أو عوبد " تعني عامل "فإننا ندرك أن الـ"إنسي" التي صارت تطلق على الناس

(1) تقول أسطورة سومرية ان انليل شق قشرة الأرض بفأس حتى ينبثق الناس منها كالنبات . ثم تحيط الألهة الأخرى بإنليل (الفلاح) ويرجونه أن يخصص لهم عاملين من السومريين الذين يطلعون من الأرض (مجلة دراسات الشرق الأدنى،جزء 5، 1946،ص137) .

العاملين عموما ، ومنها جاءت "الإنس " بمعنى الناس ، هم وكلاء السيد في أرضه الذين يشتغلون فيها ، وأن كلمة "معبد" لم تكن تعني مكان الصلاة وتقديم الذبائح وحسب ، بل إنها كانت تعني كلمة " مشغل" الحديثة تماما ، ومن هنا كان على المؤرخين أن يفهموا معنى نشوء العبادة وتطورها لدى أولئك السوريين الأقدمين .

إن هذا الاعتقاد لدى أجدادنا السوريين الأقدمين كان له نتائج خطيرة في تركيب وتنظيم المجتمع من جهة ، وفي فهم أسباب التطور السريع لذلك المجتمع . إن الاعتقاد بأن الإنسان وجد ليحقق الغرض من وجوده بالعمل (بالعبادة) كان أول ثورة على صعيد الفكر في تاريخ البشر . فقد قامت وانبثقت على أساس هذا التفكير مؤسسات بدت في غاية التطور منذ مراحل التشكل الأولى لمجتمع المدينة ، فبما أن "على الناس جميعا أن يعملوا فقد اتخذت (العبادة) شكل جهد تعاوني منظم إلى أبعد دقائق التنظيم ، وكانت النتيجة مجتمعا منظما" [1]

لقد صار في إمكاننا الآن أن نبدأ بالتفريق بين مؤسستين اجتماعيتين متشابكتين ، لكنهما متمايزتان كانت الوحدة السياسية هي المدينة ، وكانت الوحدة الاقتصادية الدينية هي المجتمع الهيكلي . كان كل هيكل يملك أراضي هي أملاك الدولة ، وكان كل مواطن ينتمي إلى أحد الهياكل . وكان جميع أهل الهيكل : الموظفون والكهنة ، الرعاة وصيادو السمك ، الجنائنيون والمهنيون ،قطاعو الحجارة والتجار ، حتى العبيد المسترقون من أقوام أخرى ، يشار إليهم بأنهم "عباد السيد الفلاني" أي شغيلته . وفي وسعنا ، من حيث المبدأ ، أن نتصور أن كل مجتمع معبدي كان النواة الأصلية لكل مدينة ، لكننا لا نعلم ما إذا كانت هذه الوضعية قد سادت أبدا ، إذ إن الألواح التي وصلتنا في عهد الأسر الأولى تطلعنا على مدن تحتوي على عدة هياكل بممتلكاتها . لقد كان رب المدينة ، لغايات سياسية ، ولأهمية المعبد أحيانا ، هو أكبر الأرباب فيها ، وقد كان الرب في المدن الرئيسية يملك أرض معبده فقط . وكانت علاقته بالأرباب الآخرين ، في الغالب ، أشبه

(1) هنري فرانكفورت "فجر الحضارة في الشرق الأدنى "، ص72 .

بعلاقة رئيس القرية بالملاكين الآخرين وبممتلكاتهم فيها [1] .

" كانت المجموعة البشرية التي تنتمي إلى معبد ما تشتغل جزءا من أراضي الهيكل لصالح المجموع ، وهذا الجزء ، الذي ـــ كما تأكد ـــ لا يتجاوز الربع ، يدعى البستان أو الأرض المشاع أو المشتركة " ني جنة Ni-ganna " لأن هذه الأرض كانت تحرث من قبل المجموعة كلها ، وكان المشتغل فيها يسمى* Murabi (المرابع) ، وهنالك قسم آخر هو الأرض المقطعة إلى قرى أو مزارع والموزعة على أعضاء المجموعة لسد حاجاتهم وتدعى كور Kur وقد حافظت على وجودها في اللغة حتى اليوم ، وهنالك قسم ثالث يدعى أرض** الغلال " (أرعو جلال) Ar'gilal التي تؤجر للمستأجرين بأجر يتراوح ما بين ثلث المحصول وسدسه ، ويخزن هذا المعبد في مستودعات الغلال حتى تحين الحاجة ، ويمكن دفع القسم الأكبر من الأجرة حبا، لكنه ينبغي دفع قسم صغير منها بالفضة .

" كان الهيكل ، أو المعبد ، يقدم الحب .البذار والحيوانات والأدوات لحراثة الأرض المشتركة (كما أخذت تفعل الدول الاشتراكية إلى وقت قريب) وكان القوم الأعلون منهم والأدنون يعملون كل سنة في الحقول التي تخص" السيد الرب ". وكان الكاهن "سن جي " القائم على رأس جماعة المعبد يحدد نصيب كل واحد من الواجبات المشتركة فكأنه وكيل السيد ، ويساعده معاون أو نائب هو "ناب عند " Nab-and يراقب العمل والمخازن والإدارة ، ولم تكن مخازن الحب المكدس تستعمل للبذار وحسب ، ولم تكن تحت تصرف الكاهن بمفرده لاستخدامها في القرابين أو لغذاء أهل المعبد . كان ، لرجال المعبد ، كما ولأي شخص آخر ، نصيبهم لتأمين قوتهم ، بينما ترد بعض ثمار العمل المشترك إلى المواطنين على شكل حصص من الشعير والصوف ، توزع عليهم بانتظام ، وعلى شكل حصص إضافية ، أيام الأعياد .

---

(1) ثوركيلد جاكوبسن ،" الأصول البشرية" دراسة تمهيدية عامة في الانتروبولوجيا ، سلسلة القراءات المختارة ، رقم 2 ، شيكاغو 1946، ص 255 .

* هي اللفظة العربية "المرابع" نفسها ، الذي يشتغل بالربع أو المرابعة .

** كانت تلفظ "أرعا غلالا" أو " أرعو غلولو" لأن حرف الضاد لم يكن ضمن الأبجدية السريانية إلى اليوم وكانت (العين) تحل محله .

"ومع أن الحصص لم تكن متساوية ، ولا كانت الواجبات المفروضة على كل الناس شاقة بنفس المقدار ، فإننا نلاحظ هنا حقيقة لا مثيل لها من العالم القديم ،وهي أن جميع أعضاء المجموعة كانوا ، من حيث المبدأ متساوين[1] كان كل واحد منهم يتناول حصة وقطعة أرض لتأمين حاجاته وكان الجميع يعملون في الأرض المشتركة وفي الاقنية والسدود . ولم يكن هنالك وجود لطبقة عاطلة ، وكذلك لم يكن هنالك وجود لأقنان محليين . كان بعض الأغراب أو بعض أسرى الحرب يقتنون كعبيد (كعمال) لكن الأفراد قلما كانوا يملكونهم . كان العبيد يعملون في المعبد إلى جانب الأحرار كحمالين وجنائنيين ، أما البنات السبايا فكن يوجدن بأعداد كبيرة كحائكات ، دون أن يمتلكهن أحد ، وكن يساعدن في المطابخ ، وفي مصانع الجعة ، وفي الزرائب حيث كن يسمن الخنازير[2] .

كانت الأرض قطعا تختلف من حيث الحجم ، حتى وإن كان توزيعها يجري على رجال ينتمون إلى المهنة نفسها . إننا لا نستطيع تعليل الفروقات ، وليس لدينا إثبات على وجود أراض واسعة في أيدي أفراد من جماعة المعبد، لكنه بوسعنا أن نفترض أن وجود عدة جماعات هيكلية في المدينة الواحدة أتاح للبعض أن يتصرفوا بقطع من الأرض في أكثر من مجموعة واحدة . ونحن نعلم عن معاون كان يملك حوالي 120 فدانا ، وعن مراقب لمخازن الخشب كان يملك نحو 80 فدانا [3] ،لكن هذه الحالات تمثل خروجا على النظام الأساسي ، وأهم من هذه الحقيقة بأن القطعة الصغرى المسجلة في كشوف المعبد وهي حان Gan أو سبعة أثمان الفدان كانت تكفي لسد حاجات المرء ، وأن الزواج بامرأة واحدة ، وندرة وجود الجواري كانت من الأمور التي تحدد المساحة التي يمكن لعائلة واحدة أن تحرثها .

(1) هنري فرنكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص76.
(2) المصدر السابق
(3) A.Smith," Staats Wissens Cchaftliche Beitrage,Die Sumeriche Templestadt ",No 4,1920

وقد ورد ذكر النساء أيضا كمالكات لقطع الأرض ، وهذا يدل على أنهن كن يخدمن المجموعة بشكل ما ، إذ إن القاعدة الأساسية في المجموعة الهيكلية كانت أن الشخص يملك الأرض لكسب عيشه ، لأنه كان يضع مهارته في التخصيص لخدمة المجموعة . فالراعي ، والسماك ، والنجار ، والحداد ، جميعهم يقدمون لمخازن المعبد كميات إنتاجهم ، أو يكرسون أوقاتهم كلها للعمل في ممتلكات المعبد ، (أو ليس هذا هو ما طبقه أحفادهم بعد أربعة آلاف عام إبان الحركة الاسماعيلية الاشتراكية التي دعيت بـ"القرمطية"؟) .

" كان العمل في الحقول موسميا في الغالب . ففي وقت البذار كان قوي الجسم بغير ريب ، يعمل في الحقل ، كما كانت الحالة في انكلترا في القرون الوسطى . لكن الفلاحين لم يكونوا طبقة منفصلة أو منبوذة . فكل مواطن سواء أكان الكاهن أم التاجر أم المهني ، كان ، في الواقع ، فلاحا يعمل في قطعته لتأمين قوته وقوت المتوجب عليه إعالتهم . وبعد البذر ، وجمع الحصاد ، يبقى متسع كبير من الوقت لتطوير المهارات الخاصة وتعليمها واستغلالها . وهنالك شبه طريف بين هذه الحالة وبين القرى في زمننا هذا ، حيث الفلاح أو العامل في أحيان كثيرة يتخصص في مهنة معينة . إن هذه الحالة آخذة بالزوال في أوربا بسرعة ، وهي لم تنتظم أبدا"[1]

ولقد أشار م.دافيد في مجلة " تاريخ الحقوق " (الجزء 14ص3 ــ 6) في مقال إلى أن "اشتراكية الدولة " في عصور سومر الأولى لم تستبدل تماما باقتصاد حر إلا تحت ظل السلالة البابلية الأولى حوالي 1800ق.م . وفي ظل السلالة الثالثة في أور أمكن للملكية الخاصة ان تتألف من منازل وحدائق تابعة لها* ، لا من الحقول الصالحة للزراعة التي كانت تخص المعبد أو الملك .

لقد كان ــ على هذا النحو ــ اقتصاد الهيكل ملكا للناس كمجموعة ، وفي سنوات تدني الانتاج عندما يقل المتسلم من بعض البضائع المستحقة للمعبد كل شهر تنشأ

---

(1) ب . ب .هويل Howell مجلة " الانسان " عدد 144، 1947

* وهذا ما يذكرنا بنظام الملكية الخاصة في البلدان الاشتراكية .

الديـون وتسجل على أن تدفع فيما بعد . ولكن تنظيم الاقتصاد الهيكلي ، كان على وجه الإجمال ، يستهدف البساطة أكثر مما يستهدف الدقـة ، وفي المدينـة العموريـة السومريـة كان الناس ، إلى جانب كونهم مجتمعا منظما ، يجدون مجالا كبيرا للأشـغال الفرديـة . إن الفرق بين القيم المحددة المستعملة في المعاملات مع المعبد من جهة ، والغلة الفعليـة للحقول والقطعان والمعامل ، من جهة ثانية ، كان لابد من أن يفسح المجـال لشيء من تكديس الثروة الخاصة ، وبالتالي للمقايضة ، كان بوسع المهنيين أن يستخدموا مهاراتهم الخاصة لقاء عمولة شخصية طالما أنهم كانوا يستخدمون مواد لا تعود إلى مخازن الهيكل .

" وبوسع الراعي أن يتصرف بأية زيادة من القطيع عن الرقم المحدد لـه في القـانون ، وباستطاعـة الصياد أن يتصرف ببقية الصيد بعد أن سلم الهيكل نصيبـه الشـهري ، وكان التجار يسافرون إلى الخارج للحصول على الحجارة الكريمة والذهـب والفضـة والنحاس والرصاص والخشب والروائح العطرية للهيكل ، ويقدمون مقابل ذلك الحبـوب والبلح والبصل وما أشبه ذلك . لكن فرحتهم الحقيقية كانت ناتجة عن إنتـاج مـهارة الناس لا من التربة الغنية للبلاد . وكانت البضائع المرسلة إلى الخارج تحتوي ، قبل كـل شيء ، على المنسوجات ـ الأقمشة الصوفية والستائر والسجاد ـ وعلـى الأسـلحة والمجوهرات والأشياء المعدنية المصنوعة في السهل السومري من المواد المستوردة .

" كان التاجر يحصل على قطعة أرض كمكافأة له على جهوده التي يبذلها لصالح المجموع في عملية الاستيراد والتصدير .

" وإذا قيل ـ بعد ذلك ـ إن جماعة "الرب" الفلاني (المجموعة الهيكلية) كانت تعيش في ظل نظام من الاشتراكية الدينية ، فينبغي لنا أن نضيف إن هذا الاقتصاد المنظـم كـان يشكل نواة قاسية محافظة بمجال واسع من تجارة خاصة نصف حرة " [1]

كان العرب الأموريون قد نجحوا ، ولأول مرة في تاريخ البشرية ، في إقامة أول مجتمـع اشتراكي من نوعه يتحلى نظامه بمرونة منقطعة النظير .

---

(1) م.دافيد ، مجلة تاريخ الحقوق ، جزء 14، ص3 ـ 6 .

كما أنهم وضعوا الأسس الحقيقية ، ولأول مرة أيضا في تاريخ البشرية ، لتضافر جهد الفرد وجهد المجموع ، كما وضعوا في صلب مفهوم العبادة الدينية وعيا اجتماعيا حياتيا متقدما جعل المعبد والمؤسسة الاجتماعية يندمجان في كل واحد لا تكاد تميز فيه حدود الواحد عن الآخر ، كما أن الوظيفة الدينية اندمجت بالوظيفة الاجتماعية ـ الاقتصادية و لم يعد ثمة حاجز بين الوظيفتين ، وقد يبدو مثل هذا الأمر ، وبعد ستة آلاف عام غريبا علينا نحن الذين كنا نتصور بدائية تلك الشعوب .

يقول هنري فرانكفورت عن المجتمع السوري الأموري في سومر : " إنه مؤسسة من صنع الانسان يعلو على الانقسام الطبيعي الأولي لمجتمع تألف من العائلات والقبائل ، وهو يؤكد أن المكان لا القرابة هو الذي يحدد علاقات المرء ، والمدينة فوق ذلك ، لا تعترف بالسلطة الخارجية ، قد تخضع لجار ، أو لحاكم ، لكن ولاءها لا يمكن أن يكسب بالقوة ، لأن السيادة فيها تكمن في مجلسها الذي يتألف من مواطنيها ، وهكذا كانت المدن القديمة في ما بين النهرين تشبه مدن اليونان ومدن الرابطة التجارية في ألمانيا ، ومدن إيطاليا في عصر النهضة في نواح كثيرة . ففي كل هذه الحالات نصادف استقلالا محليا ، ونلحظ أن كل مواطن مسؤول عن المصلحة العامة ، هذا إلى جانب جماعة صغيرة من الرجال المتنفذين الذين يعنون بالمسائل العامة "[1] ، فكيف ـ بعد هذا ـ يصح أن نتعامل مع تلك الشعوب على أساس عشائري وقبلي ، ونقبل بتعميم مدونات التوراة التي لم تتجاوز حدود مجموعة قرى ومضارب خيام موزعة بين عدة بلدات في ثنايا وديان بلاد غامد وزهران ، وجنوب شبه جزيرة العرب على هذا التاريخ العربي السوري الحضاري العظيم بمجمله !

أما عن المؤسسات الديمقراطية ، فقد كان ثمة مجلسان : مجلس الأعيان (الشيوخ) ومجلس للشباب ، ويقول هنري فرانكفوت : " لقد كان للمجلس سيئة كبيرة ، وهي أن الحرية

---

(1) هنري فرانكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص85 .

كانت تبلغ درجـــة غير مألوفة* . وكان الخضـــوع لإدارة الأكثرية ، كما يعبر عنها في الاقتراع ، غير معروف . وقد كان المجلس يستمر في المناقشـــة تحت إرشاد الكبار حـــتى يتوصـــل إلى الإجماع العملي ، وقد يكون هذا نتيجة للاتفـــاق الحقيقي ، أو العاطفـــة الجماهيرية ، أو بسبب توافق حذر بين المتخاصمين على خطة للعمل تدعو إليها جماعـــة قويـــة ، وعلى كل حال لم يكن يتـــوصل إلى هذه بسهولة . وفي حالة الطوارئ عندما تدعو الحاجة إلى قرار سريع أو عمل له غاياته الخطيرة ، كانت المدينة في ما بين النـــهرين (والجمهورية الرومانية فيما بعد) تضع نفسها في يدي دكتاتور ، وفي سومر كان هـــذا الحاكم المطلق يسمى "لوجال" أي الرجل الجليل (العظيم) ويقصد بها عادة " الملك " [1]

ومن الأمثلة الحيـــة التي وصلتنا والتي تشـــهد على الدور الذي يلعبه كل من المجلســـين " مجلس الأعيان (الشيوخ) " و " مجلس المواطنين الأحرار (الشباب) " ما حدث أيـــام الملك جلجامش بين مدينتي أوروك وكيش . فقد كانت مدينة أوروك في الجنوب تسـعى إلى توسيع رقعة حقولها الزراعية ومصادر مياه الري على حساب أملاك مدينة كيـــش ، فأكد ملكها (واسمه عقا) جدية الخطر وهدد سكان أوروك بإعلان الحرب إن لم يعلنـــوا ولاءهم له ، في ذلك الوقت العصيب بالنسبة لمدينة أوروك استـــدعى جلجامش مجلسي أوروك إلى الاجتماع ومناقشة الموضوع واتخاذ القرار المناسب .

وتصف لنا القصيدة الملحمية كيف أن الملك جلجامش توسل إلى مجلس الشيوخ بشـــدة وحـــرارة من أجل رفض الخضوع لملك كيش ، والموافقة على حمل السلاح والقتـــال حتى انتـــزاع النصر ، لكن الشيوخ رفضوا توسلاته ، وآثروا السلام على الحرب .

اســـتاء جلجامش من قرار مجلس الشيوخ ، ولجأ إلى مجلس أحرار المدينـــة المؤلـــف في معظمه من الشباب الأحرار الأقوياء . فقرر هؤلاء عدم الخضوع وأجمعوا على القتال .

---

* إن هذا يدحض الزعم الرائج في الغرب الاستعماري عن " استبداد الشرق وغيبيلته " هذه الفكرة التي نجمت عن هيمنة الحكم التركي العثماني الإقطاعي المتخلف على المنطقة زهاء أربعة قرون .

(1) المصدر السابق ص86 .

لقد كان ذلك في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، حينما لم تكن بقية شعوب العالم قد توصلت إلى أية صيغة اجتماعية مقبولة للعيش سواء على صعيد الفكر ، أو على صعيد المؤسسات الاجتماعية . إن نظام ديمقراطية المجالس في المدينة ــ الدولة الذي ابتدعه العرب السوريون الأموريون في سومر شرقا وفي الساحل الأموري غربا منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد هو الذي نقلوه إلى اليونان فيما بعد ، ثم أخذ العالم الغربي يتغنى بالديموقراطية اليونانية ، معتبرا ذلك إبداعا يونانيا ، إلى أن أظهرت المكتشفات الآثارية كنوز سوريا الحضارية المخبوءة تحت الأرض الممتدة من أوغاريت على ساحل البحر المتوسط إلى أريدو على شاطئ الخليج العربي .

وقد كانت هذه السلطة الملكية التي تمنح للحاكم في ظروف طارئة سلطة مؤقتة تسمى "بعالة" أي سيادة وقد كتبها المؤرخون الأجانب **Baala** ثم ترجمت إلى العربية "بعلة" خطأ ، فعند انتهاء الطوارئ كانت السلطة تعود إلى المجلس ، لكن الواقع الذي تعيشه المدن السومرية كان يتطلب مثل تلك السلطة بين فترة وأخرى ، نتيجة لوجود القبائل الهمجية المتربصة بصورة شبه دائمة في مناطق الجبال القريبة في الشرق والشمال ، كما أن الحقول القريبة من المدن ، ومسائل الري ، والحصاد ، وتجفيف المحاصيل ، ونقلها ، وتأمين سلامة النقل ، كل ذلك كان يتطلب وجود سلطة مباشرة ، تبادر إلى اتخاذ التدابير والقرارات الصارمة في الوقت المناسب .

إن ضرورة تأمين الدفاع المتواصل من جهة ، وتأمين سلامة سير الأعمال والمؤسسات في المدينة ــ الدولة ، من جهة أخرى ، أدت إلى ظهور سلطة دائمة للحاكم المطلق " لوجل ، أو لوغل " في هذه المدينة أو تلك . أما في بعض المدن الأخرى ، فقد كانت تمنح مثل هذه السلطة المركزية التي تقتضيها طبيعة الأخطار إلى زعماء آخرين أدنى مرتبة من " لوجل" لكنهم يشغلون وظائف هامة دائمة في الأعمال الإدارية داخل المعبد أو خارجه ، ثم يصبح الواحد منهم يسمى "إناسي " ، وتعني وكيل السيد ، وكيل الرب على الأرض ، إن كلمة " لوجل" مؤلفة من " لو "بمعنى الرجل ، (وقد احتفظ بها في الوطن العربي السوري كله في اللغة اليومية الدارجة حتى اليوم في صيغة "ولو " و"ولو"

أي يا رجل) ،و"جل" أو "غل" وتعني الجليل ، العظيم ، الكبير ، الضخم ، المارد ، ومنها كلمات جل ، جليل ، جلل ... ومنها جاءت كلمة "غول" في الحكايا العربية القديمة أيضا ، وهذه اللفظة تتكرر عند العرب الأموريين كثيرا سواء في سومر ، أو في منطقة الساحل الغربي .

وهكذا يصبح معنى " إنسي" أو " إنسو" أو " إنزي" أو " إنزو" ، بحسب اللهجة الشرقية أو الغربية ، نائب السيد أو وكيله ، ثم أطلقت على الناس جميعا "الإنس" جميعا ، كوكلاء للسيد الرب في ملكه .

وكانت مهمة " الإنسي " في الأساس أن ينسق المجموعات الهيكلية داخل المدينة ، فيعيد لكل منها نصيبها من الواجبات المشتركة في الأبنية والأقنية والسدود ، وكانت هذه الأعمال توزع بين النقابات والأفراد والأعضاء بواسطة الكاهن أو المعاون . ثم إن الإنسي كان يتولى ، فوق ذلك ، شؤون الدفاع وتنظيم التجارة ، وشؤون العلاقات مع المدن الأخرى ، ولقد كان الجنود النظاميون تحت قيادته الشخصية المباشرة ، ويشكلون بذلك مصدرا هاما لقوته داخل المدينة . وكان ككل مواطن آخر ، يتلقى قطعة أرض لمعيشته ، لكن حقوله كانت جزءا من الأرض المشتركة ، وكان يرثها بعض الناس كجزء من واجب المجموعة ، وهنا ، تبرز الفرصة مهيأة من أجل إساءة استعمال السلطة . وبالإضافة إلى ذلك فقد صار من المألوف أن يعترف بعظمة مركزه وقوة نفوذه ، والحاجة إلى عطفه وعنايته ، عن طريق تقديم الهدايا له ولأقاربه في المناسبات العامة والخاصة ، كما صار يتقاضى أجرا من أجل اتخاذ خطوات أو قرارات أو تدابير معينة من أجل الأفراد من الناس ، كتقرير طلاق ، أو إلغاء عقوبة ، أو فرض ضريبة ، أو غير ذلك من الأمور الأخرى . وفي أثناء إدارته للهيكل الرئيسي للمدينة صار يبحث عن أقاربه والمقربين منه لتعيينهم في رئاسة المجموعات الهيكلية الأخرى .

وهكذا بدأت النظم الاجتماعية الأولى تنحو منحى آخر ، متجاوزة كل الأطر التي نظمتها في البداية ، والغايات التي أحدثت من أجلها لتسير بالمجتمع في طريق التمايز الطبقي .

لقد بـدأ الحكام ،"الإنسي" ، يستغلون الظروف التي أتاحت لهم مثل تلك السلطات من أجل إحكام قبضاهم على مرافق المدينة وثرواها . فصاروا يعمدون إلى افتعال الصراعات بين مدينة وأخرى ، كما يعمدون إلى مصادرة الحقول الجماعية ليبنوا عليها قصورا أو قلاعا إقطاعية ، ويزيدون من الضرائب المفروضة على أفراد الشعب . ثم أخذوا يطورون الواقع الاجتماعي الروحي للمعبد الذي كان قد تأسس منذ البداية على الواقعية، وحب العمل، وعلى الروح الجماعية ، و التعاون ، والمحبة ، ومساعدة الآخرين. فصار القائمون عليه يبتكرون وسائل غيبية تربطهم مباشرة بالآلهة ، جاعلين من أنفسهم وكلاءها على الأرض ، كما أخذوا يروجون بأن سلطتهم مستمدة من السماء مباشرة ، وليس لأحد أن يعارض أو يعترض . إن ذلك كله أدى إلى إلغاء تلك المؤسسة ودورها الديمقراطي، الاجتماعي، التعاوني ، الانساني كلية ، كما صارت ملكية الهيكل مقدسة ، وإرادة القائمين عليه مقدسة أيضا وبالتالي ، فإن في إمكاهم ابتزاز كل ما يرغبون به من ثروات المعبد الجماعية . وهنا ظهرت الحاجة الماسة إلى طرق وأساليب لإخفاء حسابات المعبد عن عامة أفراد الناس العاملين في حقوله و في تجارته من جهة ولإضفاء تلك الصيغة الخاصة المقدسة التي تميز جماعة الهيكل عن غيرهم من بقية أفراد الشعب من جهة أخرى . وتكرس ذلك التمييز عن طريق خلع رموز وألقاب دينية ، وتنظيم أدعية وصلوات خاصة لا يفهمها ولا يقدر على أن يشارك فيها غير أوساط معينة تقررها جماعة الهيكل نفسها . فبدأت أول خطوات الكتابة الرمزية " الشيفرة" التي تطورت إلى رموز مكتوبة ومنطوقة يتبادلها أفراد تلك " الطبقة " الناشئة ، والتي جعل منها المؤرخون فيما بعد لغة حقيقية لشعب آخر لا يمت إلى العروبة بصلة وأسموها اللغة السومرية . كما بدأت فترة "الربوبية" في سومر تنفصل عن معناها الواقعي الحقيقي الذي بدأت به في السيادة والحكم والملك على الأرض في الواقع ، وتنتقل إلى مضموها الغيبي ، وكأنما خلع ذلك الواقع قشرته أو جلده الذي كان يلبسه ، وتركه يرتفع في الفضاء ويغيب .

التناقضات الطبقية وتحديد وجهة سير التطور :

ان نشوء فئة هيكلية متسلطة حديدة في المجتمع العربي السوري ، سواء أكان ذلـــك في منطقة سومر ، أو في السهل السوري ، أو على السواحل العربية ، وإصرارها على توجيه دفة تطور المجتمع في خط التطور الطبقي الاستغلالي ، خالقة في سبيل ذلـــك وســائل ، ومبدعـــة أساليب سلطوية مادية ، وفكرية عقائدية دينية معينة ، لم يكن ليمـــر دون أن يترك آثاره على بقية فئات المجتمع الأخرى ، محدثا ردود فعل تتراوح بين رد الفعل اللـين أو الفعل العنيف .

وإذا كان نظام المدينة ـــ الدولة الذي ابتدعه العرب الســـوريون قد تمكن من الصمـــود طويـــلا في منطقة سومر والسواحل الغربية ، فإن احتدام التناقضات في الشرق بين المدن ـــ الدويلات وبين الغزاة من القبائل الهمجية ، قد عجل في تفاقم الشعور بالخطر نتيجـــة للصراعات الداخلية بين المدن التي أخذ يفتعلها الحكام ورؤساء الهياكل من أجل استمرار سلطاهم الطارئة المطلقة ، ومن أجل توسيع رقعة موارد ثرواهم المكدسة . ولقد بـــرزت مصالح اجتماعية متناقضة تمثلت في جماعة الهيكل الذين أصروا علـــى جمـــع الســـلطتين الدنيوية والدينية في أيديهم وعلى تغليفهما بغلاف من " الإرادة الإلهية " من جهـــة ، وفي فئات الصناع من جميع الحرف ، والفلاحين والرعاة ، والبحارة ، والتجار ، ويقف على رأس هؤلاء جميعا ملك المدينة ، من جهة أخرى .

لقد شعر بعض ملوك المدن بأن عهدا من الاضطراب الدموي قد ينشأ نتيجة لإســـراف جماعة الهيكل في استخدام سلطاهم من أجل تنمية ثرواهم ونفوذهم على حساب مصالح باقي فئـــات الشعب ، كما أن وحدة هذا الشعب داخل كل مدينة على حدة ، وضمن المدن كمجموع في وجه الغزاة الخارجيين ، صارت مسألة يشك فيها ، مما قد يجر نتائج وخيمة على المنطقة بأسرها . ضمن تلك التفاعلات برزت اتجاهات ثلاثة للخروج مـــن المأزق الذي أخذ خطره يستفحل يوما بعد يوم .

الاتجاه الأول : وهو أن يبادر أحد الملوك إلى إيقاف الهيكل عند حده وإعادة الأمـــور إلى نصاها عن طريـــق القيام بإصلاحـــات اجتماعيـــة واقتصادية هامة تلغي كل مكاســـب

الهيكل ، وتعيد لجماهير الشعب ثقتها بنفسها وبحكامها وبمؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية ، أي إن هذا الاتجاه أعطى الأولوية لعملية الإصلاح داخل المدينة ــ الدولة ،صارفا النظر عن الأخطار الخارجية المحدقة ، أو أنه دفع بها إلى المرتبة الثانية ، وكان ممثل هذا الاتجاه " الإنسي" الملقب بــ"أوروكاجينا" في لغش .

الاتجاه الثاني : وهو الذي رأى ضرورة وحدة جميع المدن والاستعداد لمجابهة الأخطار الخارجية المحدقة، بصرف النظر عن كل ما يجري في الداخل من تناقضات وأخطاء قاتلة فغفل بذلك عن أن تلك التناقضات المحتدمة في الداخل لا يمكن أن تجتمع في وحدة متراصة أمام أي غزو محتمل من الخارج . وقد يؤدي إغفال الحلول الداخلية إلى تفاقم حدة الصراع ، مما يؤدي إلى انهيار المجتمع الموحد الجديد برمته فور سقوط الحاكم الدكتاتور الذي وحده بالقوة في قبضته . وقد مثل هذا الاتجاه الحاكم المطلق في مدينة أما الملقب بــ " لوجال زاغيوزي" (السيد الجليل رب الغزو والسلب) .

والاتجاه الثالث : وهو الذي كان يرقب الأمور بيقظة وترصد ، عاملا على تجميع قواه من أجل الانقضاض في اللحظة المناسبة على نظام الدويلات ــ المدن ــ حاملا معه نظاما إصلاحيا في الوقت نفسه ، دون أن يترك مجالا للتناقضات كي تستفحل وتتفاقم إبان سقوط نظام الدويلة المدينة .إنه برنامج التوحيد التحريري ، الذي بدأه العرب الأموريون منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، وصار من بعدهم برنامج عمل لكل تنظيم وطني أو قومي ثوري مازال يخبو ويصعد حتى وقتنا الحاضر . وقد مثل ذلك الاتجاه سرجون (شروكين) الملقب بالأكادي .

حركة أوركا جينا الإصلاحية

ولقد شاء منطق تطور الأحداث أن يبدأ ملك لغش الملقب بــ " أوركاجينا" التحرك . فقد أعلن أنه تعاقد مع "ننجرسو " (رب مدينة لغش) على " ألا يتخلى عن اليتيم والأرملة للرجل القوي " ، ووضع حدا للكثير من المساوئ " . لقد استرجع المراكب من سيد البحار ، واسترد الغنم والحمير من رئيس الرعاة ، واستعاد الضريبة التي كان

يدفعها الكاهن إلى القصر " بعد أن كان قد أبطلها رجال الهيكل ، وهذه " التغييرات " والكثير مما يشبهها ، مما هو مسجل فيما يدعى بالنصوص الإصلاحية ، تعني أن الصلاحيات التي اغتصبها الرؤساء والموظفون أبطلت ، وأن هذه الحقوق أعيدت مرة أخرى إلى الهيكل وحده كعضو حيوي في المجموعة .

وقضى أوركا جينا على المساوئ التي ارتكبها أسلافه أيضا . فتدخل في تنظيم حتى الجزئيات اليومية التافهة ، ومنع (ولنستعمل كلماته نفسها) "ثيران الرب من حراثة حقل البصل الخاص بالحاكم (لوجال)" ، كما أنه خفض أجور الدفن وخدمات الصلوات ، وأعاد لرجل الطبقة الدنيا حقه باملاكه عندما يولد حمار جيد لجندي ويقول له رئيسه " أنا أشتريه منك " فإذا سمح له بأن يشتريه يقول له :"زن لي من الفضة مقدار ما تسمح به نفسك ، وإذا لم يسمح له بالشراء ليس للرئيس أن يتعرض له" .

يقول المؤرخ ول ديورانت حول هذا الموضوع :" وكان واحد من هؤلاء الملوك وهو أوركاجينا ملك لغش ملكا مصلحا ، مستبدا مستنيرا ، أصدر المراسيم التي تحرم استغلال الأغنياء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس ، وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب "ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب ، أو يستولي على ضريبة من الفاكهة "، وضغطت رسوم دفن الموتى إلى خمس ما كانت عليه ، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قربانا للآلهة من أموال أو ماشية ، وكان مما يباهي به الملك أنه "وهب شعبه الحرية" وما من شك في أن الألواح التي سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة في التاريخ ، وأقلها ألفاظا ، وأكثرها عدلا "[1]

ويضيف في مكان آخر قائلا :" فلما أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس نهض أوركاجينا ، كما نهض لوثر فيما بعد ، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم وبتهمهم بالرشوة في توزيع العدالة ، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزراع والصيادين ثمرة كدهم ، وأفلح وقتا ما في تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين ، وسن

---

(1) ول ديورانت ،" قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص17

قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التي تؤدى للمعابد، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز، ووضع الشرائع التي تحول دون اغتصاب الأموال والأملاك "[1] .

لقد فصل أوركاجينا بين الدين الذي تكون حديثا لغايات ومصالح طبقية بحتة ، وبين الدولة ومؤسساتها ، وربط جميع الفئات وأفراد الشعب بسلطة الملك ، ولكنه لم يتمكن من القضاء على ما أنتجه الكهنة من فكر ديني جديد ، بل ظل ذلك الفكر الغيبي يفعل في بعض الأوساط فعل السحر وجنبا إلى جنب مع المؤسسات الاجتماعية الأخرى ، مما خلق بداية جديدة للتطور الروحي الاجتماعي في خطين :اجتماعي واقعي علمي مادي ، وروحي غيبي ديني يقوم عليه وعلى تطويره ودفعه رجال الهيكل .

" ثم رافق أوركاجينا إصلاحاته الجذرية بشريعة أعلنها على شعبه ، وكانت الشريعة الأولى ، وهي التي عرفت به شريعة لبت عشتار " وأوحت لحمورابي ، بدون شك ، كتاب الشرائع الذي كان هدية سوريا الأولى للعالم القديم وللحضارة العالمية "[2]

إن أهمية الانقلاب الإصلاحي الذي قام به أوركاجينا تتجلى بصورة خاصة في الصراع الأبدي القائم بين الفكرة المثلى الكامنة في جوهر الأديان جميعا ، والمعبرة عن خير وسعادة وصالح جميع البشر ، بعيدا عن الظلم والزيف والاستغلال والكذب ، وبين استغلال رجال الدين للدين من داخله ليوجهوه أداة ووسائل وسلاحا إلى الخارج ، تحقيقا لغايات شخصية ، ومصالح أنانية ضيقة وشريرة ، فيبتدعون أمورا وأفكارا وطقوسا ما تلبث أن تطغى على مجموعة الفضائل البدئية الأولى لتي بها ومن أجل إحيائها في نفوس البشر وجد الدين ، وكما قيل " إن شر ما ابتليت به الأديان هو رجال دين بلا دين" فإن هذا بالضبط هو ما ابتلي به المجتمع العربي السوري الأول حينما اضطر الملك الكاهن أوروكاجينا إلى القيام بالثورة على رجال الدين من بين صفوفهم ذاتها ، فكانت حركته أول تعبير عن هذه الظاهرة التي ما انفكت تلازم جميع الأديان فيما بعد .

---

(1) المصدر السابق ص30

(2) أسدالأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 القسم 1 ص105 .

ولقد دون لنا حقيقة هذا الانقلاب مؤرخ سومري منذ حوالي 4500 عام على ثلاث مخروطيات من الطين ولوح بيضاوي . ولقد وجد المنقبون الفرنسيون هذه الوثيقة في خرائب لغش عام 1878 ، وترجمها لأول مرة فرنسوا توروودانجان ، ثم أرموبوبل ، وهي أول وثيقة في التاريخ تذكر كلمة "الحرية" .

يقول المؤرخ الذي يروي لنا وقائع الأحداث بلغته البسيطة الخاصة :" وضع ناظر الملاحين يده على المراكب ، وقبض ناظر الماشية على الماشية ، كبيرها وصغيرها ، واستحوذ ناظر صيد السمك على مصايد السمك ، وإذا المواطن من لغش أحضر غنمه إلى القصر لجز الصوف عليه أن يدفع خمسة شيقلات إذا كان الصوف أبيض وإذا طلق رجل امراته يأخذ الإيشاكو خمسة شيقلات ووزيره شيقلا واحدا ، إذا صنع عطار نوعا من الزيت حصل الإيشاكو على خمسة شيقلات والوزير على شيقل واحد ،وناظر القصر على شيقل واحد وأما عن المعبد وأملاكه فقد استحوذ عليه الإيشاكو وكأنه ملكه الخاص .

استعملت ثيران الأرباب لحرث أراضي الإيشاكو لزرع البصل ، كما خصصت أفضل حقول الرب لزراعة البصل والخيار العائد إلى الإيشاكو ، وفوق ذلك فإن موظفي المعبد البارزين ، وخصوصا السينجي اغتصبت حميرهم وثيرانهم والكثير من حبوبهم .

حتى الموت لم يخلص الناس من الجبايات والضرائب . فعندما يؤتى بالميت إلى المقبرة ليدفن يحضر عدد من الموظفين والطفيليين ، ديدنهم الاستحواذ من أهل الميت على مقادير من الشعير والخبز والجعة والمؤن المختلفة . من أقصى الدولة إلى أقصاها انتشر جباة الضرائب ، فلا عجب إذا تضخمت ثروة القصر ورخاؤه حتى أصبحت أراضيه وأملاكه تشكل عقارا واسعا متصلا .

" بيوت الإيشاكو وحقول الإيشاكو ، بيوت حريم القصر ، وحقول حريم القصر ، بيوت أطفال وحقول أطفال القصر ، ازدحمت الواحد إلى جانب الآخر .

في هذه الفترة من انحطاط الشؤون السياسية والاجتماعية في لغش برز حاكم جديد يخاف الله ، هو أوركاجينا الذي أعاد العدل والحرية إلى المواطنين المظلومين ، رفع يد

ناظر الملاحين عن المراكب ، ويد ناظر الماشية عن الماشية كبيرها وصغيرها ، أزاح نـاظر صيد السمك عن مصائد السمك ، وازاح جابي الفضـة التي فرض دفعها من أجل جـز الغنم الأبيض . وإذا ما طلق رجل امراته لن يحصل الإيشاكو ولا وزيره على أي شـيء ، وإذا ما جئ بميت إلى المقبرة للدفن تقاضى الموظفون أقـل بكثير من ممتلكات الميت ممـا كانوا يتقاضونه في السابق ، وفي بعض الحالات أقل من النصف بكثير. وأصبحت أملاك المعبد موضـع احترام كبير ومن أقصى البلاد إلى أقصاها لم يعد هناك جاب للضرائب ، فإن أورو كاجينا قد " حقق الحرية " للمواطنين في لغش " .

" فإذا كان بيت الوضيع بجوار بيت الثري الكبير ، وقال له الرجل الكبير أريد أن أبتاعـه منك ، فإذا عزم الرجل الكبير أن يشتريه منه وقال الرجل الوضيع : أدفع لي الثمن الـذي أراه مناسـبا و لم يوافق الرجل الكبير فلا يحق لذلك الرجل الكبير أن يتملك بيت الرجل الوضيع " .

" وطهر أوروكاجينا المدينة من المرابين واللصوص والقتلة ، فإذا هيأ الرجل الفقير بركـة لصيد السمك فلا يجرؤ أحد الآن أن يسرق سمكها . ولا يجرؤ الموظف الثري أن يعتـدي على بستان أم الفقير بأن يقطع الأشجار أو يغتصب الثمار كما كان يجري سابقا . لقد قطـع أوروكاجينا عهدا مع ننجرسو رب لغش بأنه لن يسمح بأن يقع الأرامل واليتامى فريسة لظلم الأقوياء ". ولقب " أركاجينا " مؤلف من كلمتين سريانيتين هما " أركـا" وتعني السيد الـزعيم ، وهي " أركو " و" أركو " و" أرخون " ، و" أجينـا وتعـني المخلص ، المنجي ، المنقذ .

لكن أوروكاجينا لم يحكم سوى ثماني سنوات ، إذ قام ممثل الاتجاه الثاني لوجال زاجيسي انزي (ملك) أوما نحو 2375 ق.م، واحتل لغش ، وأوروك ، وأور ، وكيش ، فأطـاح بأوروكاجينا المصلح ، ونهب المدينة ، وذبح أهلها في الطرقات مستخدما العنف المطلـق وحده في توحيد بلاد عمـورو كلها شرقا وغربا حتى البحر المتوسط ، وحكم مدة 25 عاما ، وكان تحت إمرته خمسون حاكما لذا يسمي بعض المؤرخين عصره " عصر بـدء الامبراطوريات" .

لقد استخدم لوجال زاجيسي في جيشه مقاتلين مرتزقة ممن أسروا من الجماعات والقبائل الهمجية الغازية ، واعتمد أسلوب التقتيل والارهاب في سبيل بسط سيطرته ونفوذه على الشعب في المدن دون أن يحمل معه أي برنامج أو خطة مستقبلية لبناء دولته التي جمع أطرافها بالعنف بين يديه ، فسرعان ما أحس الشعب بخيبة أمل مريرة ، إذ كان فقده لمثالين ماضيين يتمثلان في الديمقراطية الاجتماعية التعاونية الأولى وفي إصلاحية أوروكاجينا ، دافعا عظيما إلى تزايد الشعور بالنقمة ضد الوضع الجديد من جهة ، كما فتح الأبواب واسعة أمام رجال الهيكل لأن يستعيدوا نشاطهم مستغلين نقمة عامة الناس من جراء أعمال القتل والعنف دونما مبرر التي مارسها لوجال زاجيسي فيما بينهم من جهة أخرى . إن ذلك كان من شأنه أن يجعل قطاعات هامة من السكان تفضل الإذعان لمشيئة الأرباب والكهنة في المعابد على الانقياد الأخرس للموت على أيدي جنود لوجال زاجيسي السفاحين لمجرد فرض السيطرة .

في خضم هذه الأحداث المتأرجحة ما بين دعاة الإصلاح ودعاة العنف المطلق في الداخل ، وأمام الأخطار المحدقة بالوطن ككل من الخارج ، يتمخض الشعب العربي السوري عن ولادة أحد أكبر عظمائه : إنه سرجون السوري الأموري الملقب بالأكادي .

سرجون وعصر الوحدة والتحرير

ميلاد سرجون ونشأته (2350 ــ 2300 ق.م) .

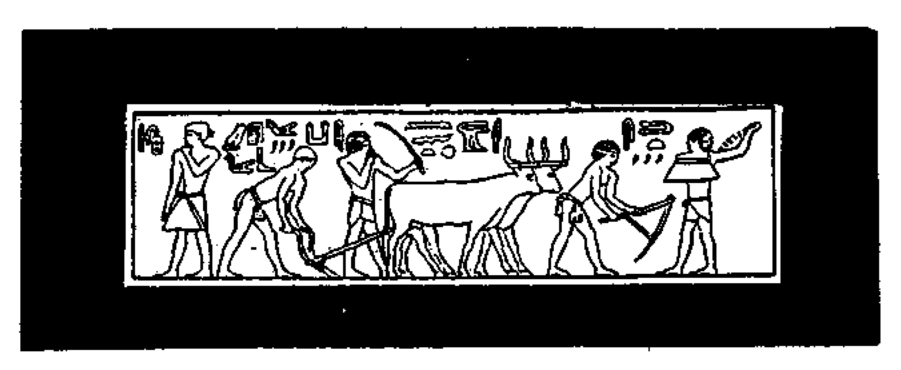
أجمعت كل الروايات على أن " سرجون " ولدته إحدى خادمات المعبد وعاش دون أن يعرف أباه . وككل الملوك والحكام العرب الأوائل لم يصلنا اسمه ."سرجون"* هو لقبه باللهجة الأمورية ــ السريانية ، والكلمة مؤلفة من "سار" وتعني الملك والسيد ، و"غن" هي تحوير "كن" التي تلفظ " كينو " وتعني العادل أيضا ، ومن "سار" كان الاسم "سارة" وتعني الملكة والسيدة .

ولد "سرجون " إذن في زمن احتدام الصراعات وتفاقم الأزمات السياسية ، والعسكرية، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والدينية . وليس من شك في أن المعبد كان أحد مراكز تكثف ذلك الصراع ، ففيه تناقش يوميا مختلف وجهات النظر ، ويجري فيه تقويم حقيقي لمختلف وجهات النظر ولما يحدث على الساحة الخارجية والداخلية معا . كما أنه ليس من شك أيضا في أن "سرجون " تلقى علومه في المعبد أيضا ، وتعرف على حقيقة حياة رجاله ، وعلى كل التناقضات ، ونقاط الضعف والقوة التي تكتنف تلك المؤسسة . لقد أتاح له ذلك فرصة عظيمة لا يمكن أن تتاح لغيره في التعرف عن كثب على كل ما يجري في بلاده من أحداث على شتى الصعد . وحينما رقي إلى وظيفة ساق للملك كان مناسبة أخرى جعلته يقبع في مركز الدوامة ، فيتعرف على واقع جماهير الشعب من فلاحين ، ورعاة ، وصناع ، وبحارة ، وتجار . كما تعرف على جميع الأساليب التي يبتز فيها أفراد شعبه من قبل حكامهم والقائمين على أمورهم في المعابد . وفوق هذا وذاك فقد ألهبت فيه حماسته الوطنية والقومية تلك التذمرات المتكررة من الأوضاع السائدة ، وذلك الشعور بالقلق والضيق من احتمال عجز الحكام عن الدفاع أمام أية غزوة قد تقوم بها القبائل المتربصة على مقربة خلف الجبال . إن ذلك كله ــ ، بالإضافة إلى

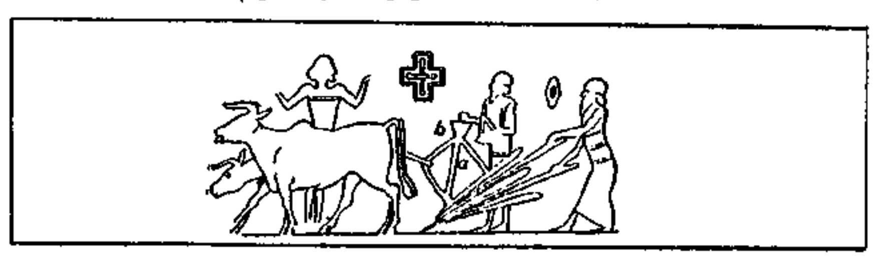
---

* إن اختيار الملوك لألقابهم كان يكشف انتماءهم لأحد الآباء ، إن دخول الأب "سر" في اللقب يعني أن الملك ينتمي إلى هذا الأب فهو سوري من أبناء "سر" (آ ــ سر) ومن هنا تبرز قرابته مع أبناء عمومته السريان الذين سكنوا في الجبال ، بينما سوف نرى كيف أن حمورابي (أمورابي) ينتمي إلى الأب (مر) وهو بالتالي من "أمورو" ومن الساحل السوري تحديدا .

مواهب "سرجون" الشاب القيادية والسياسية والعسكرية ، جعلته يتحين الفرصة الملائمة للظهور على مسرح أحداث بلاده ، وهو مازال يعمل ساقيا للملك "أورزبابا"[1] ملك كيش في قصره. لقد تمكن "سرجون " الشاب بحنكته من أن يحوز على ثقة الملك القصوى مما جعل هذا يقربه إليه ويزيد في نفوذه وسلطانه ، ويعينه أميرا لإحدى المدن التابعة له . ثم وفي الوقت الذي رآه مناسبا خرج على سيده ، وخلعه عن العرش وجلس هو على عرش كيش .



الزراعة في مصر وادي النيل في عصر الأهرام



محراث بابلي والصليب رمز الخصب . يلاحظ تطور الآلة في سوريا ودرجة الاتقان التي بلغتها ، إذ يقوم المحراث بعمليتين في آن معا : رش البذار وحراثة الأرض .

(1) " أورزبابا" لقب لملك كيش ، يعني "ثور الخصب " لأن "زبابا" باللهجة الأمورية هي "زيوبو" بالسريانية وتعني الخصب .

أما قصة نشأته هذه منذ ولادته وحتى لحظة وصوله إلى الحكم فقد احتفظ له بها شعبه في شكل قصة جذابة ، كعادته في تمجيد قادته وأبطاله الذين يمحضهم حبه على مدى التاريخ العربي الطويل . فقد خلد هذه القصة شاعر آشوري من القرن السابع قبل الميلاد ، إذ أخذ يسرد أحداثها شعرا على لسان "سرجون" نفسه فقال :

"أمي كانت تتقلب بين الرجال ووالدي لم أعرفه

أعمامي أحبوا التلال وسكنوها

ازوبيراتو مسقط رأسي تقع على الفرات

حبلت بي أمي المتقلبة ، وبالسر ولدتني

في سلة القصب وضعتني ، وبالقير طينتني

في النهر ألقت بي ، ومياهه لم تبتلعني

بل حملني ،وإلى "عاكي" البستاني أخذني

عني "عاكي" بتربيتي ، وكابن له اتخذني

ثم جعلني "عاكي" البستاني لديه بستانيا

وأنا بستاني منحتني عشتار المحبة والنعمة

فمارست الملك تلك السنين " *

ويبدو من القصة أن أم سرجون حاولت التخلص منه بعد ولادته فقذفت به في النهر ، ثم أنقذه أحد المزارعين ، ورباه في بيته وحقله مما أتاح لسرجون الصبي فرصة التعرف على حياة الفلاحين والزراعيين بكل دقائقها ، ونما لديه حبه الفطري لأولئك الناس المنتجين الطيبين المستغلين .

فمن موقع الفقر والعدمية لدى أمه ، إلى بيت الفلاح وحقله ، إلى المعبد ، إلى قصر الملك ، كانت مسيرة "سرجون" الشاب قبل أن يتسلم زمام الأمور في وطنه ، وكأن مصائر الشعوب تتدخل أحيانا في صناعة أبنائها القادة لتخرج بهم إلى مواجهة التحديات

• إن قصة "سرجون" هي قصة موسى نفسها التي روتها التوراة ، وإن يكن "سرجون" قبل موسى بألف عام ونيف .

المصيرية حين تتطلب مثل هذا الأمر الضرورة أو الحتمية التاريخية التي تؤكـــد حتميـــة انتصار قضايا الشعوب في نهاية المطاف .

إن "سرجون" يبدو ، من خلال قصة نشأته ، وكأنه يعرف من هو أبوه الذي قد يكـون تخلى عن أمه في اللحظة الحرجة ، وابتعد عنها ليصعد إلى منطقة الجبال الشمالية دون أن تتاح للابن فرصة رؤيته ، لأنه ، على ما تؤكـد أبيات القصيدة ، يعرف من هم أعمامه الذين " أحبوا التلال وسـكنوها " فمن هم يا ترى أولئك الأعمام ؟ أيمكن أن يكونـوا أبناء باسل أو (باشل)[1] بن آشور بن سام بن نوح الذين سكنوا المرتفعات ما بين آشور ونينوى التي هي في منطقة الموصل ؟ أم أنهم السريان (أو السوريون) من أبنـاء "سـر" الذين صعدوا شمالا وملأوا منطقة الفرات الأعلى ؟ إننا نرجح هذا الاحتمال الأخير .



وجه سرجون (شاروكينو) مؤسس الدولة العربية السورية

(1) انظر :سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب البغدادي ،ص 13 .

ما إن قبض سرجون على زمام الأمور في كيش حتى بدأ يعد العدة لمواجهة التحديات الكبيرة التي يواجهها شعبه :

1 ـ فعلى النطاق الداخلي ، كان على سرجون أن يجمع بين عنصرين صار كل منهما في جانب يناقض الآخر . فمن جهة أولى كان عليه أن ينقذ تلك المنجزات التحررية والديمقراطية التي حققها شعبه من قبل ، وأن يحرر فلاحيه وحرفييه وفقراءه من سطوة أصحاب السلطة المتحكمين بهم وبأرزاقهم ، كما أن عليه ، في الوقت نفسه ، أن يضرب الإطار السياسي الذي نمت وتحققت فيه مثل تلك المنجزات ، ألا وهو إطار المدينة ـ الدولة ، ويعمل على توحيد البلاد جميعها حول عاصمة مركزية واحدة . كان شعار تحرير الفقراء والمظلومين وإعادة حقوقهم إليهم يكمن في أذهان الناس ضمن إطار النظام القديم ، نظام المدينة ـ الدولة . وكان شعار الدولة المركزية الموحدة الكبرى يرتبط أيضا في أذهان الناس بسلطة الملك السفاح لوجال زاجيسي . كان على سرجون أن يستخلص ما يريد من كلا الجانبين ويقنع شعبه بأنه إنما يريد به الخلاص . كانت المهمة عسيرة في زمن ليس فيه أية واسطة للاتصال المباشر مع الجماهير غير الفعل والسيطرة على الأحداث . كان سرجون يدرك جيدا أنه لابد من الصدام مع رجال الهيكل الذين أخذوا ينشطون لصالحهم ، طامحين إلى استرجاع نفوذهم وتسلطهم ، مستغلين نقمة الشعب على لوجال زاجيسي السفاح ، كما كان لا يخامره أي شك في أنه من أجل أن ينجح في مسعاه ويحقق هدفه ، لابد له من أن يسحق سلطة لوجال زاجيسي أو أن يسقط في قبضته .

أما على الصعيد الآخر فقد كان سرجون يتمتع بحس استراتيجي قل أن يتمتع به قادة آخرون في ذلك الزمن. كان يقف وكأنما من فوق مسرح الأحداث ، ويرى من خلال عين طموحه إلى وطنه الموحد من شواطئ الخليج العربي إلى البحر المتوسط ، ومن البحر الأسود إلى شواطئ بحر العرب ، فيرى كما لا يرى غيره أهمية البحر الأحمر الستراتيجية بالنسبة لخطوط مواصلاته التجارية مع مصر وإفريقيا والهند ومن أجل إيصال منتوجات شبه الجزيرة العربية إلى عاصمته . فأيقن بما لا يقبل الشك أو الجدل بأن عليه

أن يبذل كل ما في وسعه من أجل الحفاظ على منطقة البحر الأحمر ، ولاسيما الشرقية منها ، في يده . ومن ناحية أخرى فقد كان يدرك بحسه الستراتيجي المتقدم كل الميزات الستراتيجية التي يتمتع ويمتاز بها وطنه في قلب العالم القديم وحيث تتقاطع كل خطوط تجارته وبضائعه وأفكاره . فكان لابد من استثمار هذه الميزة الفريدة في وطنه إلى أقصى مدى . ومن اجل ذلك، فقد كان لابد له من توجيه ضربة قاصمة للقبائل الهائمة خلف جبال زغروس شرقا وطوروس شمالا ، بما يضمن انصراف شعبه وبلاده إلى البناء الحضاري السلمي ، فتزدهر تجارته ، وتمتلئ مخازنه ، ويعم الرخاء أرضه ، وتتوفر الفرص والشروط اللازمة لتحقيق مطامح شعبه في السواحل الغربية من أجل الاندفاع عبر شطآن المتوسط لتحويله إلى "بحر أمورو" قولا وفعلا .

و لم يغفل سرجون لحظة عن أن تحقيق ذلك كله ليس بالأمر اليسير على شاب ليس في يديه من مقدرات وطنه الكبرى غير مدينة كيش ، وكل ما في جعبته في بداية طريقه ثقة بالنفس لا حدود لها ، وإيمان بصحة وسلامة الهدف لا يتزعزع ، وثقة بإمكانات شعبه العظيمة إذا ما أتيح لها أن تتوحد .

أحس سرجون بأنه في سباق مع الزمن . فهو إن لم يغتنم كل لحظة في الإعداد للتصدي لمهماته القادمة سوف يجد نفسه وشعبه وبلاده وكل طموحاته نهبا لسنابك خيل خصومه في الداخل والخارج . وبدأ سرجون العمل .

أوحى لغريمه لوجال زاجيسي بأنه لا يطمع بشيء ، وليست لديه أية مطامح تتعدى حدود كيش . وأقنعه بصداقته وبحسن نواياه . وفي الوقت نفسه انصرف إلى إعداد جيش جديد بأن يحمل معه تلك المهمات الجسام ويحقق لها النصر . وهنا تجلت عبقرية سرجون القيادية والعسكرية . لقد استطاع أن يميز في شعبه العربي عناصر الشجاعة ، وسرعة البديهة ، والخفة ، والمرونة ، والانقضاض الصاعق ، والإبداع الفردي ، والإحساس بالتفوق . فعمل على تربية هذه العناصر جميعا وتنميتها وإبرازها في نفس كل جندي من جنوده . لقد عمد إلى تدريب جنوده تدريبا خاصا يجعل كل هذه

الذي يفسح المجال لخصال جنوده أن تظهر وتتفوق . وهكذا عشقه جنوده ، وصار لدى سرجون جيش فتي مدرب ، يمتاز باللياقة والمرونة وسرعة الحركة . كما أبدع في استثمار براعة العربي في الحرب الصاعقة إلى أقصى مدى . وتخلص من كل الأساليب التقليدية في القتال التي كرسها أمراء الاقطاع من قبل . وأدخل القوس والرمح بدل الفأس والحربة ، واستخدم طريقة القتال الفردي " رجل يقابل رجلا " بدلا من نظام الكراديس ، فأتاح للجندي العربي فرصة استخدام كافة عناصر تفوقه التي زودته بها الطبيعة إلى جانب تدريبه العنيف والمتقن الذي بذل سرجون جهودا جبارة من أجل أن يبلغ بها المستوى الذي يطمح إليه .

بعد أن وثق من إمكانات جيشه الذي بين يديه ، وطد أمور الاستقرار لصالحه في كيش ثم انتقل شمالا على الفرات ، واختار موقعا لقرية اسمها "أجدة" Agada فجعلها مقرا له واختارها عاصمة لملكه . ولعله في ذلك يدرك أنه لابد من مواجهة حاسمة وضارية مع لوجال زاجيسي الذي يهيمن على جميع مدن سومر في الجنوب ، وليس يفصل بينهما ذلك المدى الذي يحقق له سرية المناورة والتحرك والاستعداد قبل أن يكشف خصمه حقيقة نواياه . كما أنه أراد أن تكون عاصمته قريبة من مراكز انتشار الأموريين الكثيف في الغرب، ومن أماكن تواجد أعمامه السريان في الشمال الذين سكنوا التلال والجبال ، فيحقق لنفسه عمقا سكانيا استراتيجيا كبيرا ، يشاركه العداء لخصمه في الداخل وللقبائل الموجودة خلف الجبال الشرقية في الخارج . ثم إنه لم يضيع كبير وقت حتى انتقل ، ودونما إبطاء ، إلى مجال الحركة والفعل مظهرا براعة فائقة في استخدام عنصر الزمن لصالحه إلى أقصى حدود الاستخدام . لقد تحرك سرجون ، بادئ ذي بدء ، شمالا على طول وادي الدجلة ، فحير بذلك خصومه . لقد توجه إلى آشور بجيشه لكن أحدا لم يذكر أنه خاض معارك هناك ، ويرجح أنه صعد إلى السوريين الآشوريين في مناطقهم لينسق الأمور مع زعمائهم ، وليحاول إقناعهم بمشروعه الوحدوي التحريري ، وإن كل الدلائل تشير إلى نجاحه في ذلك وإلى أن أعمامه من السريان ضموا جهودهم إلى جهوده وبقيادته . ثم ، وباستخدام غاية في البراعة للحرب الصاعقة التي درب عليه جيشه ،

انقض شرقا على مواقع القبائل من غوتيين ولولوبي في جبال زاغروس ، فشتت شمل تجمعاتهم ، وفرض على زعمائهم الجزية ، وحرر طرق التجارة من تحت سيطرتهم ، ثم توجه إلى عيلام وحررها وضمها إليه . وقبل أن يفسح لخصمه لوجال زاجيسي في سومر مجال التفكير فيما يدور حوله ، ارتد عليه كالصاعقة ، فسحق جيشه وساقه أمامه مقيدا بالأغلال إلى نيبور ، ثم مال على مدن سومر ، وانتزعها بصورة مدهشة ، وبسرعة أدهشت كثيرا من المؤرخين الذين أرجعوا ذلك إلى عبقريته الفذة في إدارة المعارك ، إلى جانب تمكنه من خلق جيش قوي ، مدرب ، مرن ، صاعق ، يستجيب لمتطلبات قائده في اللحظة المناسبة ، وبالمستوى الأكمل من الأداء والتنفيذ ، حتى غدا كثير من المؤرخين يدعونه "سرجون الأعظم " لشدة انبهارهم بعبقريته الديبلوماسية والعسكرية ، إذ إنه ، منذ بداية انطلاقته وحتى موته ، لم يعرف الفشل أو الهزيمة في أية خطوة أقدم عليها سياسية كانت أم عسكرية .

عاد سرجون إلى عاصمته " أجادو" على الفرات بعد أن وحد آشور ، وعيلام ، وسومر في دولته وغسل يديه من مياه " البحر الأدنى " ، وقضى على الخطر المحدق في الشرق ، وحرر طرق التجارة من سطوة القبائل هناك ، وأخذ يحتفل في الظاهر ، ببناء القصور والمعابد في العاصمة ، بينما هو ، في الواقع ، يعد كامل العدة للخطوة التحريرية التالية .

لقد أطلق اسم "أجادو" على مدينة ، ومنطقة ، وشعب ، وعلى الجزء الشمالي من حوض الفرات والدجلة ، وسمى نفسه "شاروكين" أي " الملك أو السيد العادل " وعين حكاما من المخلصين إليه على المدن الرئيسية ، وأصبحت اللهجة السورية (الغربية) هي اللهجة المسموعة في القصر بعد أن كانت اللهجة السورية (السريانية) الشرقية هي السائدة ، كما بقيت لغة سومر الكتابية الرمزية رسمية أيضا . لقد احترم سرجون المؤسسات الدينية السومرية ، فجعل ابنته كاهنة لـ"نانا" ربة القمر في أور ، كما أنه لقب نفسه بـ "كاهن آنو المسيح " (أي الممسوح بالزيت) و"انسي إنليل العظيم " فملك قلوب السوريين جميعا ،شرقيين وغربيين ، في آن واحد . ثم ما لبث ، وفي غمرة احتفالات شعبه بالانتصارات ، أن تحرك شمالا حيث خلائط من الشعوب والقبائل تهدد

الطرق التجارية للتجار السوريين إلى مناجم النحاس فأخضعها جميعا. لكنه ما لبث أن تمردت عليه من جديد ، فدمرها تدميرا شاملا "حتى أن العصافير لم تعد تجد لنفسها مأوى فيها " وبالسيطرة على طرق التجارة في الشمال فقد أمن لمواطنيه إمكانية إيصال إنتاج البلاد الأجنبية الذي تحتاجه بلاده وخاصة الحجارة والمعادن والأخشاب .

ثم توجه بجيشه عبر الفرات إلى "بلاد مهبط الشمس حتى نهايتها "فوحد في قبضته جميع مدن أمور (سوريا الغربية) حتى بحر أمورو (المتوسط) ، ثم صعد إلى غابات الأرز في جبال اللكام (الأمانوس) ، وجبال الفضة في الشمال (طوروس) وعبر إلى قونية وحرر توتال ، ثم عبر البحر إلى قبرص ، وقد عثر في قبرص على أختام أسطوانية تعود لعهده ، وأكيد أنه سيطر على جزيرتي قبرص وكريت وضمهما إلى دولته ، كما جعل دلمون (البحرين) مركزا لتجارته مع الهند .

وقبل أن يعود إلى عاصمته بلغه أن فرعون مصر تقدم إلى منطقة خط القوافل ليستأثر في السيطرة على ذلك المركز الستراتيجي الذي لم يكن يعادله أي مركز آخر ، فاتجه سرجون بجيشه جنوبا ، من أجل السيطرة على منطقة الطرق التجارية الدولية في غرب شبه جزيرة العرب شرقي البحر الأحمر ، ما لبث على اثره أن تراجع الفرعون بيبي إلى وراء حدوده ، فضمن سرجون بذلك السيطرة على جميع مفاتيح وطرق التجارة الدولية ، ووجه ضربات صاعقة إلى القبائل الهمجية في مكامنها خلف الجبال ، وحرر ووحد جميع أجزاء وطنه وحول عاصمته الجديدة ، ثم عاد إلى " أجادا " وانصرف إلى تحرير الانسان من الداخل .

لكن هل تحقق له إتمام ذلك ؟ وهل استكانت القوى الإقطاعية الانفصالية في المدن وسلمت بالأمر الواقع الوحدوي الجديد في إطار حكومة مركزية واحدة ، أم أنها أخذت تغتنم فرص انشغال سرجون بحروبه التحريرية على كل الجبهات لتقوم بحركات العصيان هنا وهناك ولتفسح المجال لقوى الغزو الخارجي بان تهيئ نفسها للانتقام لهزائمها الماحقة على يد سرجون ؟

كل الوقائع بعد ذلك تؤكد أن سـرجون اضطر إلى أن يتابع برنامجه في البناء والإصلاح الداخلي بيد ، ويدافع عن الحدود الصعبة المترامية باليد الأخرى .

يقول هنري فرنكفورت : " إن البلاد كانت في كل الأوقات معرضة لأخطار جسيمة ، لقد كانت بلادا متحضرة ومزدهرة ، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية ، لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانيات النهب الهين . كانت المدن تستطيع أن ترد غائلة الغزوات ، أما الهجمات الكبيرة التي كانت تتكرر كل بضعة قرون ، فقد كانت تحتاج إلى حكومة مركزية قوية تردها ، كذلك كان تأمين سلامة الطرق التجارية أيضا فوق إمكانية المدن المنفردة . وقد يتوقع المرء أن يرى هذه المدن تتعاون معا في جهد وطني مشترك ، إننا بالفعل نجد ملحمة عن "ملك المعارك" تصف كيف أن سـرجون الأكادي ،حينما توسل إليه تجار ما بين النهرين الذين كانوا يتاجرون مع الأناضول ، ذهب إلى هناك على رأس جيش للدفاع عن قضيتهم . وقد تعكس القصة حدثا فعليا لأن حفيد سـرجون "نارام" بنى قلعة قوية في "براك" على الخابور ، و لم يكن الخشب المستعمل في بنائها من الحور والدلب فقط لكنه كان أيضا من البلوط والسنديان والصنوبر مما لابد أنه كان مستوردا . وهكذا تعهد ملوك آكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد ، حتى إنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا ، ثم اتجاهه نحو الغرب محاولة منظمة مركزية سنويا لصد الجبليين ، لأن إخضاعهم بصورة دائمة ، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة ، كان مستحيلا . ومنذ عهد سـرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة مركزية . لقد كان لابد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك ..

" وقد يتوقع المرء أن يجد الناس أيضا مؤيدين للنظام الجديد الذي فرضه ملوك آكاد ، لاسيما وقد كان الشعور بالانسجام القومي موجودا .كانت للسومريين عبارة " الشعب

ذو الرأس الأسود " * للتدليل على أهم وحدة جنسية ، وكان الإلهان إنليل وأنو وغيرهما يعبدان في جميع أنحاء البلاد ، لكن هذا الشعور لم يجد أبدا تعبيرا عن ذاته في شكل سياسي معين ، لقد ظل بدون تأثير ، فيما يبدو ، على تاريخ البلاد . إن فردية المدن لم تمح على الاطلاق . وعند تولي كل ملك في أكاد كانت المدن تقوم بثورة . وبدلا من الاتحاد ضد العدوان حاول الناس أن يعودوا إلى الاستقلال الذاتي المحلي الذي كان الأساس قبل ظهور سرجون " [1] .

إن هذا الواقع الذي لم يتمكن سرجون خلال مرحلة حكمه التي امتدت خمسة وخمسين عاما من كسر قواقعه المحلية ، وتأطيره ضمن نظام واحد في النظام المركزي المتطور المتحرر الذي كان يطمح إليه ، هو الذي أخذ يتألب عليه في أواخر أيام حكمه ، ويظهر على امتداد الساحة مدى احتدام الصراع بين قوى الثورة البورجوازية التحررية الصاعدة الجديدة من جهة ، وقوى الرجعية الاقطاعية الدينية (الأوليغارشية) من جهة أخرى .

إن في إمكاننا أن نميز ثلاث حالات للأوضاع في البلاد السورية التي وحدها سرجون :

الحالة الأولى : وتمثلها منطقة سومر وعيلام ، حيث كانت قد تكونت طبقة من الاقطاع الديني المتقوقع على مصالحه الأنانية الضيقة في نظام المدينة ــ الدولة ، وقد رتبت هذه الطبقة أمورا عقائدية كهنوتية غطت بها عمليات استغلالها لأرزاق المواطنين وجهودهم ، كما أضفت على ذلك مسحة من مشيئة الآلهة . ولقد تمكنت خلال الفترة السابقة لسرجون من أن تكون نوعا من القوات المرتزقة تستخدمها حين اللزوم في تصفية مناوئيها ، دون أن تأخذ في اعتبارها خطورة مثل هذه الأعمال عليها نفسها ، وعلى مستقبل المنطقة وعروبتها ككل . لقد حافظت هذه الطبقة بكل امتداداتها ومؤسساتها على بقائها إبان حكم الدكتاتور لوجال زاجيسي الذي لم يضع في حسبانه سوى التسلط وابتزاز الأتاوات والأرباح . ولم تكن مثل تلك الفئة لتبخل عليه ، كما

• إنها ترجمة خاطئة لعبارة "شعب السواد " وهي منطقة جنوب العراق السواد ، وقد احتفظت بتسميتها منذ العصر السومري وحتى اليوم (المؤلف).

(1) هنري فرنكفورت "فجر الحضارة في الشرق الأدنى "، ص96 – 97 .

أنها لم تكن لتبخل على أتباعها من المقاتلين المرتزقة سواء أكانوا من أبناء البلاد أم من أبناء القبائل الذين تسللوا إلى المنطقة سلما ، أو بقوا فيها من أسرى الحروب .

وحينما قهر سرجون غريمه لوجال زاجيسي ووحد سومر وعيلام ضمن الدولة العربية السورية التي شملت جميع أطراف سوريا رأى الاقطاعيون والكهنة كيف أن امتيازاتهم باتت مهددة ، ونظامهم يكاد أن يدمر دون أن يتمكنوا من القيام بأي عمل كبير يحول دون ذلك مباشرة ، فلجأوا إلى إحناء الرأس في وجه العاصفة ، وتركوا موجة سرجون تمر في طريقها لتكتسح جهات أخرى وملوكسا آخرين . لكنهم أبقوا على مؤسساتهم الدينية والعسكرية كما هي ، وركنوا إلى الانتظار يتحينون فرصة غياب سرجون عن الساحة أو موته ليبدأوا التحرك ، إذ إن الفراغ الذي سوف يتركه قائد عظيم مثله سوف يجعل كل الكيانات الهزيلة تتحرك ، لتملأ ذلك الفراغ إن لم يقض عليها من قبل ، ويستعاض عنها بكيان منظم يرتكز على قاعدة شعبية واسعة ممن لهم مصلحة حقيقية في التغيير .

إن الثغرة التي بقيت في مشروع دولة سرجون كانت تتمثل ، هنا ، في إغفاله تصفية المؤسسات الأوليغارشيه القديمة . لقد ظن أن الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية ، والرخاء والازدهار الذي بدأ يتسع في عهده ليعم أوسع الأوساط الشعبية انتشارا كانت كافية لتجعل تلك المؤسسات الرجعية الضيقة تتخلى عن مشاريعها الاستغلالية ، وتندمج مع عملية التغيير البورجوازية الوحدوية الكبرى . لكن الواقع أثبت عكس مثل هذه التوقعات . فقد تبين أن تلك الدوائر الرجعية الضيقة لم تمتنع عن الاندماج في دورة الحياة الجديدة فحسب ، وإنما أعدت في الخفاء كامل العدة للانقضاض على مؤسسات الدولة السرجونية الجديدة في اللحظة المناسبة ، كما أن بعضها لم يتورع عن التعامل مع القبائل الهمجية ، أشد الجهات وحشية وعداء لكل ما فيه بصيص من الحضارة ، من أجل تدمير الدولة القومية الجديدة بكل مؤسساتها ، وإرجاع حركة التاريخ إلى الوراء من جديد .

الحالة الثانية : هي منطقة أمورو الغربية (سوريا الغربية) حيث كانت مملكة "إيبلا" تبسط نفوذها على المنطقة ، وتسيطر على حركة التجارة البرية ، كما كانت

أوغاريت وصيدا وصور ، تسيطر على حركة التجارة البحرية . ولم تكن أي منـــها ، على ما يظهر ، لتشذ عن الانضواء في دولة سرجون الموحدة . إن أحدا من المؤرخين لم يذكر أن سرجون تكلف القيام بأيـة معركة في سوريا الغربية التي تضم اليوم ما يسمى بلبنان وفلسطين والأردن . أما في الشمال فهو نفسه يقول إنه سجد أمام "داجان" (إلـه القمح) في توتول فأعطاه داجان (دجن) الأقاليم العليا ، ماري ، ويرموتي ، وإيبلا حتى غابة الأرز ، والجبل الفضي (الأمانـوس وطوروس) لقد ذكر المؤرخون أنه ضم الاشـا (قبرص) إلى دولته ووصل إلى كريت، لكن أحدا لم يذكر شيئا عن أي صدام مع ملوك أوغاريت ،أو جبيل .

نستنتج من ذلك أن جميع الأوساط الأمورية الأخرى التي تمتد من آشور إلى البحر المتوسط كانت متفهمة لهذا المشروع السرجوني الهادف إلى إقامة دولة عربية متقدمـة في سوريا ، تجمع شمل الجميع ، وتؤمن خطوط التجارة ، كما تضمن حركة العمل والتنقل والزراعة ، وتتمكن من الدفاع ضد كل الجهات الطامعة بثروات المنطقة .

لقد كانت هذه المنطقة متمتعة بحالة من الازدهار الزراعي والعمراني والتجاري والصناعي وكانت قادرة على أن تمد جيش سرجون بالمال والسلاح المتطور . وكانت معظم مـدن السـاحل قادرة على الدفاع عن نفسها فترة طويلة ضد أعتى الغزاة ، ولم يتمكن أحـد طيلة تلك الفترة من أن يوقعها في قبضته ، بل على العكس ، فقد كانت تتقدم علـى طول شواطئ المتوسط وفي جزره لتنشر ثقافتها ، وتجسد تفوقها التجاري والاقتصادي .

لقد أدرك سـرجون ذلك ووضع في اعتباره أن يضمن لها حماية كل خطوطها التجاريـة البحرية والبريـة الممتدة من الأناضول شمالا إلى أواسط البحر الأحمر جنوبا .

الحالة الثالثة ، منطقة البحر الأحمر : تعتبر منطقة البحر الأحمر ، ولاسيما منطقة شرقي البحر الأحمر ، أهـم المناطق قاطبة بالنسبة للإنسان العربي في الزمن القديم .لقد كـان البحر الأحمر ، في حد ذاتـه ، بحرا مثاليا للصيد والملاحة والتجارة بالنسـبة للسفن البدائية الشراعية وذات المجاذيـف ، التي لا تحتمل الإبحار مسافات بعيدة في عمق البحار الكبرى . ولقد كانت منطقـة ما بين مكة وجدة ملتقى لأهم عقدة مواصلات تجاريـة

للقوافل في ذلك الزمن . ففيها يمر خط القوافل القادمة من الأناضول وتوتـال مـرورا بإنطاكية وحلب ، ودمشق ، وبصرى ، والبتراء ، وتيماء ، ومدائن صالح ، ويثرب ، إلى جدة ، ثم يتابع سيره جنوبا بمحاذاة الساحل إلى عدن مرورا بازول (صنعاء فيما بعد) ، وفي مكة يلتقي بالطريق القادم من الشرق ، والذي يتوحد فيه طريقان أحدهما قادم من منطقة الخليج العربي محاذيا لوادي الرمة ، والآخر من طريق الحرير القادم من الصين إلى اكيتان إلى شمال " أجادة" على الدجلة ، ومنها إلى سوزا في عيلام ، ثم تتجه إلى الجنوب ـ غرب إلى الأبلة عند نيبور ، ومنها إلى وادي الرمة جنوب غربي نجد حيث يلتقي بالطريق القادم من منطقة الخليج العربي وينتهيان معا إلى جدة . وهنالك خط رابع يأتي من شواطئ البحر الأسود إلى حران في الجزيرة السورية ، ومنها إلى تدمر حيث عقدة الطرق القادمة من بابل وحلب ودمشق ، ومنها يكمل سيره جنوبا مرورا بدمشق ، وبصرى ، والبتراء ،وصولا إلى جدة . وفي جدة تلتقي الطرق القادمة من الشرق أيضا ، من صحار* على شاطئ الخليج ، ثم إلى بيرين شمال الربع الخالي ، ومنها يتفرع إلى فرعين : أحدهما يلتقي بالخط القادم من جرها على الخليج على وادي الرمة ، أما الثاني فيدور في شبه قوس وسط شبه جزيرة العرب مارا بليلى ، وسليل والفاو** إلى بيشة حيث يلتقي بالخط الصاعد من مأرب ، ثم يتابع إلى الطائف ثم إلى جدة .

أما الطريق البحري القادم من الطرف الشمالي للبحر الأحمر فإنه يلتقي في جدة بالطريق القادم من عدن ، حيث تلتقي الطرق الثلاثة الرئيسية القادمة من شواطئ إفريقيا الشرقية ومن الهند ومن شواطئ الخليج العربي وبحر العرب .

وهكذا تكون جدة أهم ملتقى عقدة مواصلات تجارية في الزمن القديم .

أما من حيث المناخ والبيئة الجغرافية والزراعية ، فإن منطقة شرقي البحر الأحمر بقيت من أخصب المناطق الزراعية ، وأكثرها مياها وتنوعا في زراعاتها ، كما أن سلاسل جبال السراة المحاذية لشاطئ البحر ظلت تعتبر من أمنع المواقع التي يمكن أن يلجأ إليها

* ورد ذكر مدينة "صحار" في وثائق إيبلا .
** هي غير مدينة "الفاو" العراقية على الخليج العربي .

الجماعات أو الأفراد المنبوذون من مجتمعاتهم دون أن تتهدد حياتهم الأخطار أو المـــوت جوعا ، وهي ما تزال حتى اليوم تعج بالكهوف والمغاور التي تصلح للسكن .

أما السكان فإنهم ينقســـمون بشكل رئيسي إلى عرب أموريين يشغلون النصف الشمالي من المنطقـــة الممتدة من شمالي صنعاء جنوبا إلى عدن ، وهم في المنطقتين كليـــهما وفي منطقـــة محاذاة وادي الرمة وصولا إلى الخليج العربي يعتبرون أنفسهم امتـــدادا طبيعيـــا للأمـــوريين الســـوريين الذين يشغلون سوريا الطبيعية كلها من شواطئ الخليج العـــربي إلى البحر المتوسط ، ومن شمال طوروس إلى وادي الرمة في شبه جزيرة العرب وصـــولا إلى عـــدن . أما المنطقـــة الوسطى الممتدة من جدة إلى جيزان جنوبا فيسكنها العـــرب الكنعانيـــون الحاميـــون أبناء عم المصريين الحاميين في الغرب .

إن لمحة سريعة كهذه على المنطقة تجعلنا ندرك بسهولة أهميتها الستراتيجية.

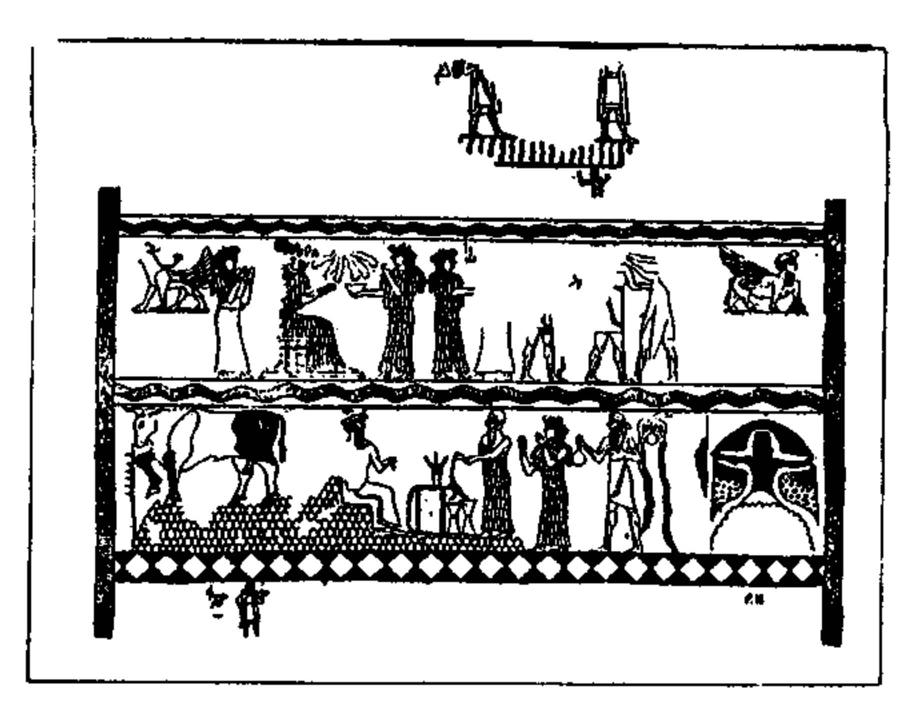
إن سرجون الذي حرر أجزاء الوطن وثغوره من تحت تسلط القبائل الغازية . كما حـرر جميع المدن في الداخل من قيود العسف الاقطاعي ــ الديني ، ووحدها في دولة واحدة ، إنما جاءت تتويجا لعمليـــة تاريخيـــة بعيدة الجذور في الزمن الماضي ، ولتراكمات كمية كبيرة لم يكن لها متنفس حقيقي يعبر عن طبيعة توجهها بغير الدولة البورجوازية الواحدة وهو بذلك ، يكون قد أرسى دعائم أول دولة عربية بمفهومها المتقدم ، كما أنهـــا أول دولة في العالم بهذا المفهوم عينه ، وهي الدولة العربية السورية ، التي ستكون فيما بعـــد ورغم كثافة الصراعات الداخلية بين القديم والجديد الذي لم تحسم معركته بعد ، النـــواة الحقيقية للوطن العربي الكبير .

سرجون ومسيرة الإصلاح الاجتماعي ـ الاقتصادي :

لم يشأ سرجون أن يؤلب عليه ــ كما اتضح ــ قوى الخـــارج والداخل معـــا ، بـــل تمكن ، بدهاء السياسي البارع ، من أن يفرز أهدافه ، ويحدد خصومه ، ويعين شـــكل وزمن التعامل مع أولئك الخصوم . ولما كانت نيبور هي مدينة إنليل المقدسة ، وبالتالي ، هي بؤرة التمركز الرجعي المناوئ لحركة التجديد والإصلاح التي يقودها سرجون ، فقد

كان عليه أن يسلك أحد طريقين : إما أن يضرب الرجعية في الصميم ويقضي على عقدة اتصالاتها وتنظيماتها المالية والعسكرية ، السرية والعلنية ، أو أن يلجأ إلى مهادنتها ،وكسب ودها ، طمعا في أن تنخرط في خضم التيار العام الجديد ، وتضيع فيه ، لأن شكل الحياة الجديد ، وما سوف يتفتح من آفاق للثراء وللرخاء أمام كل الطامحين إلى الثروة ، قد ينسي أساطين العهد البائد التفكير في التكتل ، والتمرد ، والانتقام . وقد اختار سرجون أن يسلك السبيل الثاني ، وهنا كانت بداية مأساة نظامه الجديد .

لقد قصر تقدير سرجون عن فهم طبيعة وإمكانات الطبقة الإقطاعية ــ الهيكلية ، رغم ما كان يتمتع به من ذكاء وقاد وعبقرية سياسية وعسكرية فذة . إن طغيان مشاعره الوطنية القومية جعله يبتعد قليلا أو كثيرا عن فهم طبيعة وحقيقة الخصوم في الداخل ، الذين اختطوا لأنفسهم ــ منذ البداية ــ طريقا ليس فيه أي جامع يجمعهم ببني شعبهم ، بل يكرس كل شيء من أجل استغلال جهود مواطنيهم ، وسرقة القوت من أفواه أطفال فلاحيهم ورعاتهم وحرفييهم ، واستعانوا على ذلك بأدوات غريبة من المرتزقة أبناء القبائل الغريبة عن المنطقة ، والتي لا يهمها إلا تدمير مدن سومر وأكاد على من فيها إذا ما قيض لها أن تثأر لهزائمها من جيش سرجون . إن نبل المشاعر الوطنية والإنسانية التي كان يكنها سرجون لبنى قومه عموما جعله يتزلق في عدم تقدير الأمور على أرض الواقع كما هي . فقد بقيت نيبور المقدسة مركزا لأعتى عتاة الفئة الرجعية ،وبقيت تستحوذ على كافة أسلحتها الدينية والسياسية ، كما كان لها من الأرصدة المالية ما يجعلها قادرة على الاستمرار في تمويل أزلامها من المقاتلين المرتزقة ، وتبقى الأمور على ما هي عليه في هيئة كمون مؤقت ، منتظرة عاصفة سرجون كي تمر لتنطلق بكل قواها إلى الميدان وتدمر تلك المكاسب التي منحها سرجون لجماهير شعبه . لقد تصرف سرجون ، وهو في أوج قوته ، بفروسية ونبل مع تلك الفئات ، وأبقى على مركز نيبور الديني ، كما أبقى على كل المراكز الأخرى .



قاعة الجلسات في قصر زمري ليم . ماري . الألف الثالث قبل الميلاد

وزيادة في الإيحاء بالود وكسب الثقة فقد بنى معابد لإنليل وعشتار في عاصمته ، ولقب نفسه "كاهن آنو المسيح" وجعل ابنته كاهنة "نانا" ربة القمر في أور ، لكن ذلك لم يغير من واقع الأمر شيئا . فقد كان قد مضى زمن ليس بالقليل منذ أن قضى رجال الدين على مؤسسة المعبد التعاونية الاجتماعية . كان المعبد مشغلا اجتماعيا اشتراكيا بصورة ما بالفعل ، ولم يكن ثمة من يشعر بفارق بين فلاح في حقل المعبد وبين موظف أو كاهن في المعبد . كان كلاهما يعمل ، وكلاهما يحرث الأرض ، وكلاهما يقدم إنتاجه بنسبة معينة للمجموع ، وكلاهما يأخذ نصيبه من عمله ، كما يأخذ المعونة عند المحن أو الضرورة . هكذا نشأ الدين في بدايته ثورة اجتماعية حقيقية ، اقتصادية وتربوية ، ولم يكن ثمة من يشعر بالحاجة إلى وجود أشخاص ينصبون أنفسهم واسطة بين العباد والرب ومنذ أن وجد على الساحة رجال دين حولوا كل شيء عن حقيقته ، ونسجوا من

خيالهم أفكارا وهمية لا تصلح لشيء إلا لتكريس سيطرتهم وهيمنتهم على الناس وابتزاز جهودهم وثرواتهم ، وصار كل شيء يتم باسم الآلهة ، ووقفوا أنفسهم حلقة تتوسط المكان بين الآلهة والناس . ثم ما لبثوا أن جمعوا في أيديهم السلطتين الدينية والدنيوية ــ كما يقال ، وتحول المعبد إلى مؤسسة إقطاعية جبرية قاسية لا حيلة لأحد في التصدي لها إلا إذا قامر بأن يتلقى على جسده وروحه غضب جميع الآلهة. ،ولما كانت تلك الفئة غير مستعدة للتنازل عن مكاسبها التي امتدت لتشمل الأراضي الجماعية ، وأرباح التجارة ، وإنتاج المشاغل ، كما أنها لم تكن على استعداد لأن تقامر بمصير تلك المكاسب ، فقد عمدت إلى خلق جماعات من المرتزقة لتعمل على تصفية مناوئيها سرا ، وتزعم أن ذلك كان نتيجة لغضب من الآلهة فتزيد من هيبتها وهيبة الفكر الذي تكرسه في آن معا ، حتى أضحت على أرض الواقع قوة لا يستهان بها .

إن تلك القوة هي التي لم يكن سرجون يقدرها حق قدرها في غمرة إنجازاته القومية وخطواته المستقبلية ، إزاء شعبه وبلاده .

وإذا ما أردنا أن نضع تلك الإنجازات ضمن خطوط رئيسية رأينا أن سرجون :

أولا : ألغى جميع محاكم الهيكل الدينية ، وأنشأ محاكم مدنية ، يؤمن العدالة فيها قضاة ملكيون مركزيون ، واتخذ لنفسه لقب " الملك أو السيد العادل" وجعل جميع القضاة تحت مراقبة الحكومة المركزية .

يقول هنري فرنكفورت : "ويبدو أن سرجون قام أيضا بمحاولة لاكتساب ولاء عامة الناس ، وهذا يظهر من التعديل في نص اليمين أي القسم . فلقد أصبح الآن بإمكان ذكر اسم الملك إلى جانب اسم الآلهة . ولهذا مغزاه العملي الواضح . فإنه إذا خولفت اتفاقية أقسم الطرفان على احترامها ، وإذا جرى حنث باليمين كان للملك شأن في ذلك ، إذ أصبح يتوجب عليه أن يؤيد حق الطرف المتضرر . كانت لهذا أهمية قصوى ، إذ أن القاضي كان في الزمن الأول مجرد حكم ، واجبه الأول أن يوافق بين الطرفين أو يرضيهما ، لم يكن له سلطة لينفذ قراراته ، وإذا لم تكن للانسان الذي لا يتمتع بمركز مرموق من يسنده ويحميه فإن إمكانيات الحصول على حقوقه المهضومة أمام المحاكم

كانت ضئيلة . فالنص الجديد للقسم جعل الملك في وضع أصبح فيه شفيعا لجميع الذين أقسموا باسمه ، إنه في الواقع مرجع استئناف لجميع البلاد بغض النظر عن المدن وهذه خطوة ذات أهمية عظمى في تطور القانون والمجتمع في ما بين النهرين "[1] .

إن في وسع أي منا أن يلاحظ أن سرجون بذل جهودا كبيرة ومكثفة من أجل أن يجعل " العدالة " عنوانا كبيرا لحكمه ، فهو قد اتخذ لقب " شاروكين " أو "سرجون " أي " السيد أو الملك العادل " ، وصار جميع مؤيديه يسمون بهذا الاسم . ثم إنه جعل من هيبته وقوة حكمه أداة حقيقية تشارك عمليا في رفع الحيف عن المظلومين ، وفي أخذ الحق من الظالمين ، بعد أن ألغى هيبة وسطوة القضاة الدينيين ، وقد وحد نظام القضاة وأقام نظاما قضائيا واحدا في جميع المناطق .

ثانيا : رفع أيدي الكهنة عن الملكية العامة للهياكل من حقول ومشاغل ومصارف ، بعد أن كانوا قد وضعوا الأيدي عليها وصاروا يتوارثون ملكيتها خالقين بذلك أول تناقض طبقي حقيقي في المجتمع العربي السوري القديم ، " وحرر الفلاحين من التزاماتهم ، وكذلك العمال والصناع العاملين في مشاغل الهياكل الصناعية ، وأنشأ إدارات خاصة للأراضي والمشاغل الأكليريكية تشرف عليها الدولة مباشرة ، كما أنشأ دائرة تعين للكهنة مرتبات تدفعها لهم الدولة " [2] فيكون بذلك أول من طبق شعار علمانية الدولة في التاريخ .

ثالثا : حرر الفلاحين من استعباد الأمراء الإقطاعيين في المدن ، فألغى النظام الإقطاعي الأميري لملكية الأرض ، ووزعها على الفلاحين في ملكيات صغيرة خاصة ، وأنشأ لذلك دائرة خاصة لتسجيل الأملاك تسجيلا قانونيا ، ولم يبق على الفلاح أي التزامات إلا للمراجع الملكية المركزية مباشرة [3] ، فيكون بذلك قد طبق أول برنامج للإصلاح الزراعي في التاريخ وذلك منذ 4500 عام .

---

(1) هنري فرانكفورت ، "فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص92 – 93 .
(2) أسد الأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 القسم 1 ص112 .
(3) المصدر السابق .

رابعا : من الناحية الإدارية ميز سرجون بين مدن الأقاليم الشرقية في سومر وعيـــلام ، ومدن الأقاليم الغربية والشمالية الغربية على المتوسط . ففي الوقت الذي ضم إلى حكمه المركزي جميع مدن ما يدعى اليوم بســوريا ولبنان وفلسطين والأردن وجعلها تتـــابع مســيرتها الحضاريــة المتنامية ، في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وارتياد شـــواطئ المتوســط وجزره ، بعد أن أمن لها حمايتها، وضمن الأمن على خطوط تجارتها ، نـــراه وقد أبدى نوعا من التراخي أو التســاهل مع مدن الجنوب السومري حيث قوة النفــوذ الهيكلي الديني ، فترك للمدن هناك بعض الاستقلال الداخلي ، وبقيت كل مدينة تديـــر شؤونها بنفسها تقريبا ، كما كانت عليه الحال من قبل ، فكرس بذلك نزعتها الانعزاليــة الاستقلالية عن جسم الدولة ككل ، كما أمن بذلك استمرار نفوذها على الأوساط التي كانت تهيمن عليها من قبل ، واكتفى بتعيين مراقبين من قبله يشرفون على سير الأمـــور فيها . فكان أن سقط أولئك المراقبون بسهولة في دائرة الهيمنة الدينية للهيكل في نيبـــور بعد أن صاروا يعتقدون بأن الملك نفسه لم يجرؤ على أن يمس به . ومع ذلك فقد تمكـــن ســـرجون ، ولأول مرة ، من أن يكسر قواقع الكيانات المدينية الاقطاعية الهزيلة ، ويتيح للشعب كله فرصة الانخراط في دورة حياتية اجتماعية ـــ اقتصادية وسياسية جديـــدة ، كان لها شأنها في تطور نظم الحكم فيما بعد في العالم أجمع . لقد حقق ســـرجون انتقالا حاسما من نظام المدينة والإمارة الاقطاعيـــة الدينيـــة إلى نظام الدولة المركزية بمفهومـــها المعاصر . ولولا قسوة الظروف المحيطة بجسم هذه الدولة من الشـــمال والشـــرق الـــتي فرضت عليها استنفارا وقتالا دائمين ، لما جرؤت حتى دوائر المدن القديمة في الداخـــل ، التي أسبغ عليها سماحته ومنحها ثقته ، على أن تفكر بالعصيان ضده والتمرد عليه . وقد أثبتت الوقائع أنها كانت تعقد التحالفات الســـرية مع تلك الشعوب القبلية الرابضـــة في معاقلها خلف الجبال من أجل الانقضاض على نظام الدولة الجديد . ويعتقد الباحثون في سياســـة سرجون أنه ارتكب خطأ قاتلا حينما أبقى على بؤر الخصوم قوية في الداخـــل في الوقت الذي أيقن أنه غير قادر على تصفية خصومه القبليين الرابضين في الجبال علـــى الحدود في الخارج ، وعلى مرمى حجر من مدن سومر وعيلام . لقد أتاح بذلك المجـــال

مفتوحا للطرفين كليهما في أن يستمد الواحد شجاعته من وجود الآخر ، ويقرر العمل ضد النظام السرجوني الجديد . لقد كان على سرجون ، بعد أن أيقن بعجزه عن القضاء على الغوتيين والكاشيين المتربصين به في جبال زاغروس ، أن يطهر بلاده من الداخل نهائيا من كافة الجيوب التي تكن له العداء ، وتفكر بالانقضاض عليه ساعة تحين فرصتها المناسبة .

أما في منطقة البحر الأحمر ، أي الطرف الغربي لشبه جزيرة العرب ، فقد كان لها دائما وضعها الخاص الذي سوف يستمر طويلا بعد عهد سرجون . فمنذ أن أرغم سرجون فرعون مصريم على الانكفاء إلى ما خلف حدود محطته ، اكتفى سرجون بتعيين الفرعون هناك من الحكام المحليين الذين يشرفون على سير الأمور ، ويرقبون تحركات كافة الأطراف ويسهرون على حماية أمن الطرق التجارية الدولية وسير القوافل ، ويبعثون بالتقارير الدورية إلى الملك .

خامسا : لقد ألغى سرجون الوكلاء الإقطاعيين الذين كانوا في السابق ينشئون الجيوش في المدن ويقدمونها للملك حسب أهوائهم ، وارتكز في تنظيم جيشه على الأوساط الشعبية مباشرة ، ولأول مرة في التاريخ أيضا . لقد شل بذلك أيدي الأمراء الإقطاعيين والدينيين ، الذين كانوا كثيرا ما يستبدون ويرتشون وينظمون لأنفسهم العصابات المقاتلة الخاصة إلى جانب من يجمعون من المقاتلين من أجل جيش الملك ، فقطع بذلك دابر نفوذهم على أبناء مناطقهم في المدن ، وأخذ يبعث المفوضين من قبله للتعامل مع أوساط الشعب مباشرة من أجل تنظيم وتعبئة المقاتلين في صفوف جيش الملك دونما واسطة من أحد ، وكان لذلك أثره الكبير في تخلي كثير من الجهات عن "سادتها السابقين " كما أخذ أفراد الشعب يلقون عن كواهلهم كابوس الخوف من أولئك الأمراء المستبدين المستغلين .

سادسا : لقد حقق سرجون خلال سني حكمه تجسيدا حقيقيا لوحدة الشعب العربي السوري بكافة مناطقه ، وجمع "جهاته الأربع" في عمل قومي تحريري وحدوي رائد ، وجعل اللغة العربية بلهجتيها السريانية الشرقية والعمورية الغربية لغة الدولة الرسمية

في كل أنحاء الوطن ، الذي انتقل إلى مرحلة اجتماعية وسياسية واقتصادية قل ان يحلم بها بلد من البلدان في ذلك العصر ، بل وفي العصور التالية .

سابعا : " والخطوة الأخرى لتوحيد البلاد كانت إدخال تقويم موحد ، إذ إنه حتى هذه الفترة كان لكل مدينة تقويم خاص بها وفيه أسماء شهور وأعياد خاصة . وأخيرا صار وجود حاكم فرد يدعو نفسه " ملك أنحاء العالم الأربعة " يذكر الناس دوما بوحدة الدولة "(1) .

هذا ما يؤكده الباحث والعالم والمؤرخ هنري فرانكفورت في كتابه " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " عند حديثه عن سرجون العظيم الذي أدهش المؤرخين جميعا بمنجزاته الرائعة الفريدة التي تستحق أن تنتسب ، وبتفوق أكبر من الجدارة ، إلى قرننا العشرين بعد المسيح .

ويضيف هنري فرانكفورت : " ... ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية " .

" لقد حققت بلاد ما بين النهرين انتصاراتها في جو من القلق العميق ، والسروح التي تتخلل أهم كتاباتها هي الشك في قدرة الإنسان على تحقيق السعادة الدائمة . ولم تكن فكرة الخلاص عندهم فكرة لاهوتية ، بل كانوا يشعرون بها أو لنقل إنهم كانوا يحيونها عاطفيا أثناء ممارستهم أعيادهم الدينية السنوية " (2) .

ثامنا : إن ثورة سرجون البورجوازية المتقدمة على ثورات أوروبا البورجوازية بما ينوف عن أربعة آلاف وخمسمائة عام لم تكن لتمر دون مصاعب قاسية ، كونها تنهض في تلك المنطقة مثل فردوس حضاري منعزل يحيط به الأقوام الهمجيون على طول الحدود في الشمال والشرق . لكنها ، مع هذا ورغم هذا ، بقيت الأساس الحقيقي ، والأرضية التي صار كل حاكم يطمح أن يقيم من عليها دولته . ولقد تمكنت ، رغم كل المحن والانتكاسات التي المت بها ، من أن ترسخ تقاليد ومفاهيم جديدة بقيت حية لدى

---

(1) هنري فرانكفوت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ص93 .
(2) هنري فرانكفورت ، المرجع نفسه

الشعب العربي السوري قرونا طويلة فيما بعد ، واقتبستها عنه البشرية .

إن في الغاء سرجون للمحاكم الدينية الهيكلية المستبدة ، وتعميم المحاكم الملكية المدنية التي تعتمد ، بالدرجة الأولى ، على قضاة أكفاء متخصصين وعلى مجالس أحرار الشعب الديمقراطية ، منعت تعسف الحكام الدينيين وعبثهم بمصائر الفقراء من مواطنيهم ، مما جعل الشعب يتمسك بهذه المحاكم حتى بعد سقوط " أجادة" (أكاد) واجتياحها* على أيدي قبائل الغوتيين فيما بعد .

إن في ذلك وحده أعظم رد على مؤرخ استعماري متحيز مثل أرنولد توينبي الذي يقول في كتابه "تاريخ البشرية" حول العرب الأكاديين : " وقد كان الأكاديون متطفلين شبه برابرة ، وكان سرجون وأحفاده ، مثل سلفه لوجال زاجيسي ، رجل حرب "[(1)] .

إننا نفهم جيدا لماذا يصر مؤرخ مثل أرنولد توينبي ، بعد كل ما ذكرنا عن سرجون ، والذي لم تكن معرفته لتغيب عن توينبي قطعا ، على جعل الأكاديين " متطفلين شبه برابرة" ، إنها النغمة ذاتها التي يرددها كورس التاريخ في دول الاستعمار العظمى ضد العرب ، ليلصقوا بهم الهمجية وبغيرهم التمدن ، بعد أن أصروا ، وبصورة تدعو إلى العجب والرثاء معا ، على أن السومريين ليسوا عربا ، وليسوا ساميين ، وأنهم مبدعو الحضارة ! .

ونحن سوف نورد هنا نموذجا لمحاكمة حدثت بعد سرجون بما يزيد عن ألف عام كدليل على تمسك شعب سرجون العربي في " سومر وأكاد معا " بمنجزاته المتقدمة كثيرا ، ليس على محاكمات الكهنة في سومر من قبل سرجون فقط ، بل وعلى المحاكمات في لندن نفسها في بداية هذا القرن .

ففي عام 1950 اكتشفت بعثة مشتركة من المؤسسة الشرقية في جامعة شيكاغو ومتحف الجامعة التابعة لجامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة لوحتين لدعوى بجريمة قتل حصلت نحو 1850 ق.م في سومر :

---

* يرجح أن "أجادة" دمرتها الزلازل مع كثير غيرها من المدن قبل اجتياح القبائل .

(1) ارنولد توينبي " تاريخ البشرية " الجزء 1 ، ص 97 .

ثلاثة رجال : حلاق وبستاني وآخر لم يذكر صنعته ، قتلوا أحد موظفي المعبد واسمه أو بالأحرى لقبه " لوعنانا " أي " رجل عنانا " . ولسبب ما قام القتلة بإبلاغ زوجة القتيل واسمها " نين ـ دادا " (السيدة دادا) بمقتل زوجها ، لكن الزوجة نين داد كتمت سرهم ، ولم تبلغ السلطات .

لكن السلطات علمت بطريق آخر ، وأبلغت الملك " أورنينورتا" في العاصمة ايسين ، فرفع الملك الدعوى أمام " مجلس المواطنين الأحرار " في نيبور الذي صار منذ أيام سرجون بمثابة محكمة عدل . وفي هذا المجلس قام تسعة رجال بدور الاتهام ، وقالوا إن الرجال الثلاثة القاتلين ليسوا هم المجرمين فقط بل إن الزوجة كاتمة السر يجب أن تعدم معهم أيضا ، لأن تسترها على الجريمة وصمتها عنها كان متمما لها . لكن رجلين آخرين في المحكمة قاما بالدفاع عن الزوجة على أساس أنها لم تشترك في جرم قتل زوجها. وقبل المجلس دفاعهما عندما علم أعضاؤه أن الزوج القتيل كان محجما عن إعالة زوجته . وانتهوا إلى الحكم بأن " معاقبة الذين ارتكبوا فعلا جريمة القتل تكفي " وهكذا حكم مجلس نيبور على الرجال الثلاثة بالإعدام ، وبرئت الزوجة .

وهاكم موجزا من النص كما ورد في اللوحتين اللتين ترويان المحاكمة : " نانا ـ سيخ بن لوسين " ، وجو ـ إنليل بن جو ـ نانا الحلاق ، إنليل ـ أنام عبد أدا جلا البستاني ، قتلوا لو أنانا بن لوجال عين ـ آدو المستخدم في المعبد .

وبعد أن قتل لو ـ أنانا بن لوجال عين ـ أدو أخبروا نينا دادا ابنة لو نينورتا زوجة لو أنانا أن زوجها لو أنانا قد قتل ...

لكن نينا دادا ابنة لونينورتا لم تفتح فاها وبقيت شفتاها مغلقتين . عندئذ رفعت قضيتهم إلى مدينة ايسين أمام الملك ، والملك اورنينورتا أمر بأن ترفع دعواهم إلى مجلس نيبور .

هناك نهض كل من أور جل (نور الجليل) بن لوجال .. ودودو صياد الطيور ، وعلي عيلاني الخادم ، وبوزو بن لسوسين ، وايلوتي بن ايا ، وشيش جلا الحاجب ، ولوجال جان البستاني ، ولوجال أزيدا بن سين عند إيل وشيش جلا بن شاره .. وواجهوا المجلس وقالوا :

إن من قتلوا إنسانا لا يستحقون الحياة أولئك الرجال الثلاثة وتلك المرأة يجب قتلهم أمام كرسي لوعنانا بن لوجـال عين أدو موظف النشاكو (نلاحظ وجود أموريين غربيين وعموريين شرقيين في المحكمة من وجود الأسماء التي تجمع اللهجتين حيث الألف أو الواو في نهاية الأسماء)

ثم واجه شو .. ليلوم الموظف التابع لنينورتا وعبر سين البستاني المحكمة ، وقالا :

مع الاعتراف بأن زوج نينا دادا ابنة لونينورتا قد قتل ، ولكن مـاذا فعلت المرأة حتى تستحق القتل ؟

ثم التفت إليهم أعضاء محكمة نيبور وقالوا :

إن زوجة لم يقم زوجها بإعالتها ولو كانت تعرف أعداء زوجها ، وإن كان بعد مقتل زوجها قد سمعت أن زوجها قد قتل فعلام لا تظل ساكتة عنه ؟

هل هي التي قتلت زوجها ؟ إن معاقبة الذين فعلوا قتله يجب أن تكون كافية .

وبموجب قرار مجلس نيبور سلم كل من نانان سيخ بن لوسين ، وحو إنليل بن جونانا الحلاق ، وإنليل أنام البستاني عبد أدا جلا إلى الجـلاد ليقتلوا . هذه قضية نظرت فيها محكمة نيبور " .

وبعد ، أليس في هذه الدعـوى ما يفضح دعاوى مؤرخـي النظـم والإمبراطوريات الاستعمارية ضد العرب السوريين وابنهم العظيم سـرجون ؟ اما في عهد خلفه العـربي السوري الأموري الآخر " حمورابي" فقد كان " في مدينة بابل محاكم استئناف يحكـم فيها قضاة الملك . وكان في وسع المتقاضين أن يرفعوا قضاياهم إلى الملك نفسـه .. وإذا لم تتمكن السلطات من القبض على الجاني أو السارق كان على المجني عليه أو المسـروق منه أن يدلي في حضرة الرب ببيان مفصل عن خسائر . وعلى المدينة التي ارتكبت السرقة في داخل حدودها والحاكم الذي ارتكبت في دائرة اختصاصه أن يعوضاه عن كل مـا فقده . وإذا أدى السطو إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكـم الديـة إلى ورثة القتيل . فهل ثمة في هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها درجة تجرؤ فيـها أن تعرض على من تقع عليه جريمة بسبب إهمالها مثل هذا التعويض ؟ وهل ارتقت الشرائع

حقا عما كانت عليه زمن حمورابي ؟ " [1] .

لقد قوض سرجون دعائم نظام المدينة ـــ الدولة الاقطاعي الديني الذي طبقتــه اليونـــان فيما بعد بصورة مقزمة ، وظلت رهن اساره طيلة العصور اللاحقة . وأقام على أنقاضــه نظام الدولة البورجوازيـــة الناهض المتحرر من كل ســـلبيات الاقطاع الديني وتحجـــره واستبداده وانعزاليته . يقول بهذا الصدد المؤرخ موسكاتي : " وسع سرجون امبراطوريتــه فشملت بابل وآشور وسوربا (يعني سوريا الغربية) ، ودخل آسيا الصغرى ، وامتـــدت تجارته إلى قبرص . وكان لدولة أكاد في عهده إدارة منظمة ومركزية أصبحت فيما بعـــد مثالا للأنظمـــة اللاحقـــة . ومنذ ذلك العصر ظهرت بوضوح نزعة إلى الملكية الشـاملة طبعت كل تاريخ آسيا الأمامية بطابعها حتى عصر الإسلام " [2]

لقد حكم سرجون حكما قرابة خمسة وخمسين عاما ، كما أن ابنه ريموش وحفيده نارام سين حكما من بعده قرابة نصف قرن ، دافعا خلالها عن ميراث أبيهما الثوري الجديـــد بكفاءة نادرة . إن قرنا من الزمن كان كافيا لأن تتغلغل الأفكار التي رسخها سرجون في ذهن جيل جديد من العرب السوريين الذين ســـوف يتصدون فيما بعد بضراوة لكـــل محاولات إسقاط الدولة المركزية السورية الواحدة رغم تكاتف كل القوى المضادة مـــن الخارج والداخل .

لقد أقام سرجون ، وبمضمون متقدم جديد ، أول دولة عربية سورية شـــملت الهـــلال الخصيب كلـــه ، من الخليج العربي إلى المتوسط وقبرص ، ومن شمال طوروس إلى وادي الرمة وســـواحل البحر الأحمر الشـــرقية وجنوبي سيناء . ولقد كان حكم وإدارة رقعــة شـــاسعة كهذه من اصعب المهمات التي يمكن أن يواجهها حاكـــم أو ملك بســـبب مواصلات تلك الأيام ،وكثرة الأعداء ، وطول خطوط الحدود ، وصعوبة الدفاع عنها . ففي أواخر أيامه ثارت ضده كثير من الأقاليم في سومر وعيلام ، لكن " الأسد الشـــيخ" كما أسمته الملاحم ، سار إلى المعارك وقهر خصومه جميعا . ولقد خلد الشاعر الســـوري

(1) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء 1 ، ص 210 .
(2) موسكاتي ، " تاريخ وحضارة الشعوب السامية " ص 49 .

الآشــوري في القرن الســابع قبل الميلاد حكم ســرجون ، وحملته على سكان السواد (السومريين) وعلى أهــالي عيلام ، وإخضاعهم ثلاث مرات متتالية . إن الشاعر الـذي نقل لنا بشعره قصة ولادة ونشأة وحكم سرجون يضيف عن لسانه قائلا :

" أنا شروكين ملك أجادا القوي
حكمت أهل السواد وملكت عليهم
ببلطات البرونز قهرت الجبال العظيمة
تسلقت السلاسل العليا
وعبرت السلاسل الواطئة
جبت بلدان البحر (سومر وعيلام والبحرين) ثلاث مرات
قبضت على دلمون بيدي
وإلى "دير" العظيمة صعدت ...
وأي ملك يأتي من بعدي
فليحكم أهل السواد ويملك عليهم
ليقهر الجبال العظيمة بالبلطات
ليتسلق سلاسل الجبال العالية
وليعبر سلاسل الجبال الواطئة
وليدر في بلدان البحر ثلاث مرات
وليضع دلمون في قبضة يده
وليصعد إلى مدينة دير العظيمة
من "أجادا " مدينتي " .

فهل كان حقا هؤلاء السوريون الأموريون القادمــون من الغرب "برابرة متطفلين علـى الحضارة في سومر " كما يريدهم " توينبي " وســادته رغم أنف كل الحقائق ! وبمــاذا يمكن أن نرد ومكتشفات "ماري" السورية الأموريــة أدهشت جميع الباحثين بما كــانت عليه حضارة سوريا في الغرب أيضا قبل عهد ســرجون بما يقرب من ألف عام ؟

فقد ذهل المنقبون والدارسون أمام المستوى الحضاري الراقي الذي بلغه السوريون في المنطقة الغربية أيضا بما يكاد لا يصدق . فقد أوجدوا نظام المدارس المجهزة بالتجهيزات المخبرية ، والمزودة بنظم الامتحانات ، والتدريس ، والمكتبات ، والوظائف والموظفين . كما عثر على المساكن الراقية لاستقبال الضيوف المزودة بكل ما تحتاجه المساكن الحديثة تقريبا من ملاحق ومنتفعات . يقول أندريه بارو في كتابه "ماري" : لقد عثر في قصر زمري ليم في ماري " بين الجناح الملكي والجناح الرسمي على مدرستين . تتميز هاتان القاعتان بتجهيزات لم نر مثيلا لها قط حتى الآن .. ونحن لم نزل في حيرة تامة فيما يتعلق باستعمال ووظيفة هذه التجهيزات ويجب أن نعيد إلى الأذهان أننا هنا على مقربة مباشرة من المعامل والأفران التي يمكن التعرف عليها بكل وضوح ،ولها مظهر " افران " (بوتقات كبيرة) لمعالجة فلزات المعادن الثمينة ، وكان لا يزال فيها بقايا من الرماد والفحم الخشبي .وكانت القاعة الأولى تضم 45 مقعدا مختلفة في أطوالها ، وتضم الثانية 23 مقعدا ، والقاعتان مبلطتان بالآجر الجميل . ويشغل جناح الموظفين جزءا هاما من المنطقة الغربية في القصر ، وقد لقي عناية خاصة في التجهيز لأن كل غرفة مبلطة وبعضها مرفق بغرف حمام ، وتقدم إحداها مثالا ممتازا عن منشآت صحية كاملة : مغطسين من الخزف على قاعدة من الآجر المطلي بالبيتوم وفي الزاوية مرحاض (على الطريقة الشرقية السائدة اليوم) صنع من كومتين من الآجر المكحل بالبيتوم ، وفي الجدران خزن (صناديق) صغيرة وجد في واحد منها طاسة من الخزف لغرف الماء من أحد المغطسين ، وفي الزاوية الجنوبية الغربية مدخنة مصنوعة من أنابيب من الطين المشوي ومتصلة ببعضها وتزداد اتساعا باتجاه الأسفل وتطل على قاعدة تدل على موضع الموقد ، فقد يكون الشتاء في ماري قاسيا ، كانت هذه المجموعة المعمارية إنجازا مذهلا " [1] .

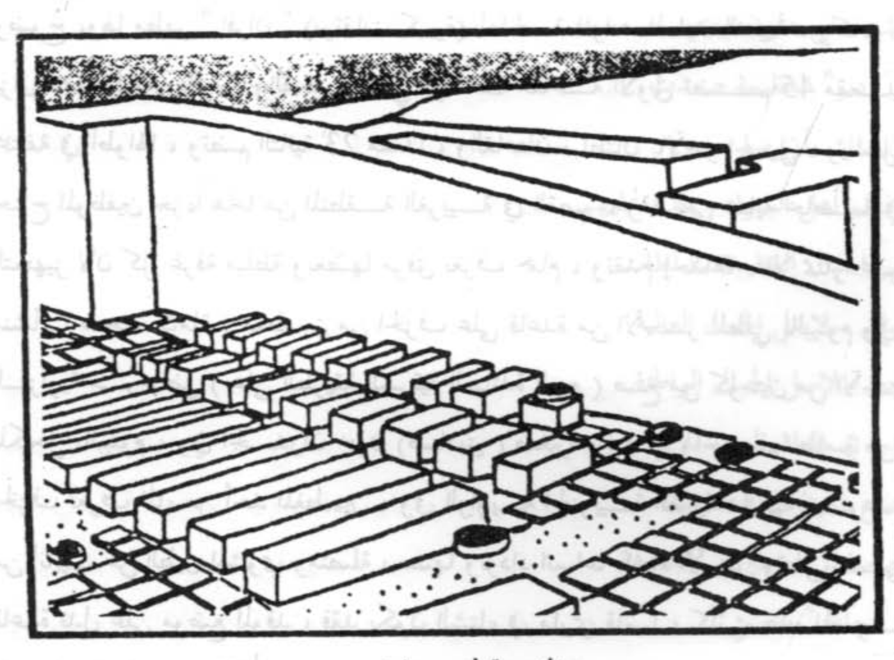
" أما بالنسبة للنزلاء ، والضيوف والمسافرين الغرباء ، والسعاة المتغيرين على الدوام فقد كانوا "يؤلفون عددا كبيرا إذا استندنا في تقديره إلى آلاف الرسائل التي تلقاها الملك

---

(1) أندريه بارو ، "ماري" ص137 ــ 139 .

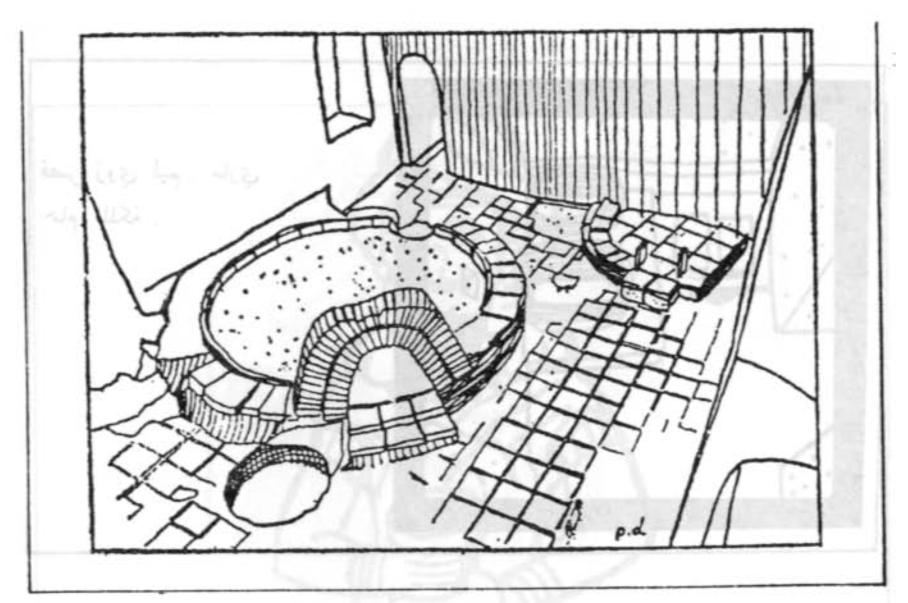
زيمري ليم وحده . وبكلمة أخرى ، كان يجب إيواء مجموعة مستخدمين متغيرة دوما ، أي يجب أن يقدم لهم المسكن والمأكل مع دورات مياه . فكان يوضع تحت تصرف الضيوف غرف ، ودوشات ، ومطابخ (وهي لا تزال مزودة بالفحم الخشبي وجاهزة للاستخدام) .

بتمتع هذا الجناح بالاستقلال . وكانت تجهيزاته ، وإن لم تبلغ درجة الترف والبذخ التي رأيناها في الأجنحة الأخرى ، لائقة وملائمة لنوعية الضيوف ووجدنا في مكان آخر مجموعة من أكثر من خمسين قالبا خزفيا لصنع المعجنات " [1] .

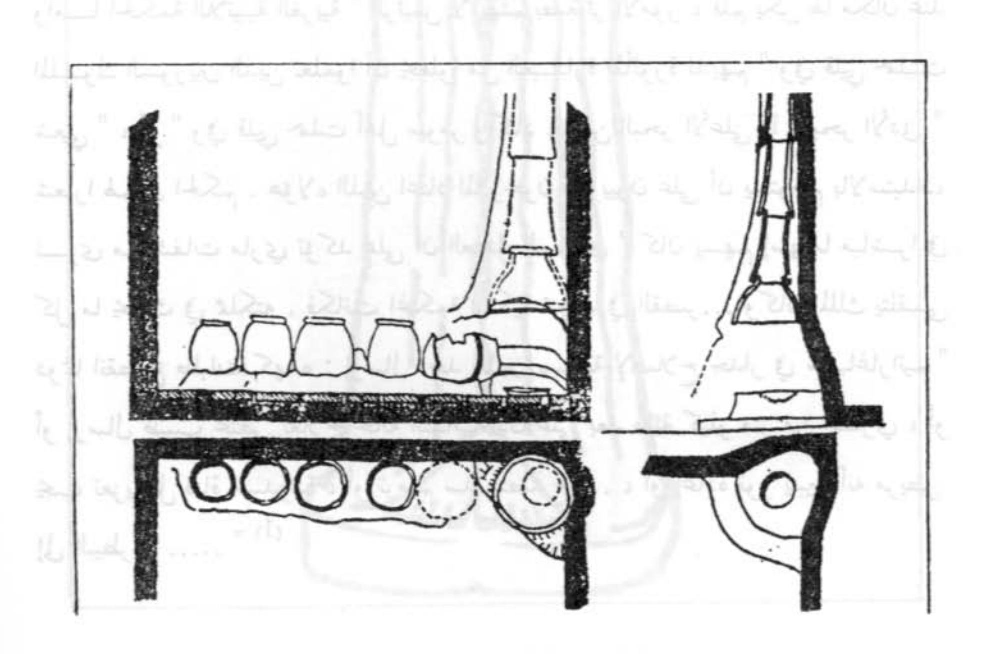


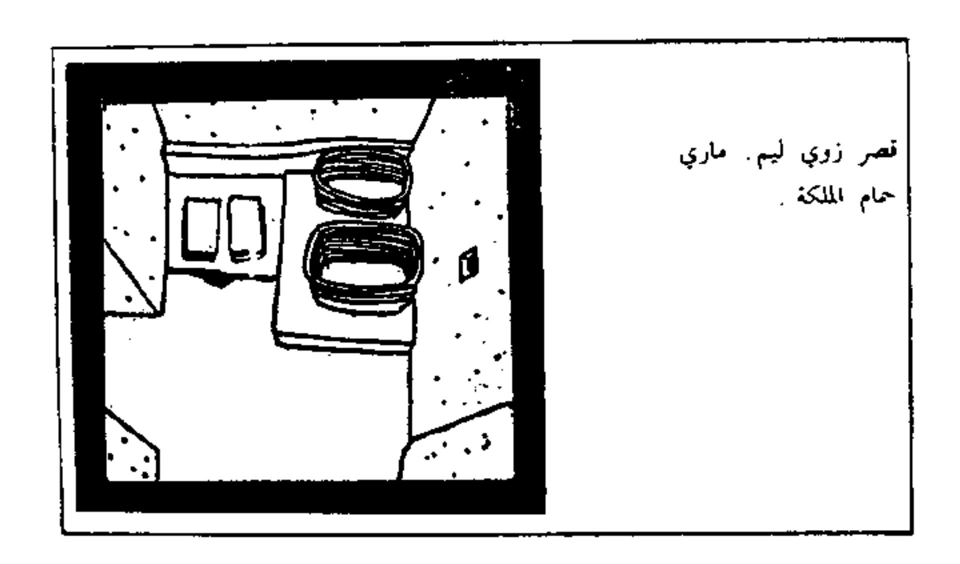
المدرسة في ماري

(1) اندرية بارو ، "ماري" ص141 ـ 142 .



المطابخ والمخابز التابعة لمدرسة ماري





قصر زوي ليم . ماري
حمام الملكة .

وأمـــا الحكمة اللاتينية الغربية " الرئيس لا يهتم بصغائر الأمور ، فلم يكن لها مكان عند الملـــوك السوريين الذين تعلموا أن يجعلوا من العبـــارة المأثورة لديهم " وفي قلبي حملـــت شعبي " ، أو " وفي قلبي حملت أهل سومر وأكاد ، ومن البحر الأعلى إلى البحر الأدنى " شعارا لهم في الحكم . هؤلاء الذين اعتاد المؤرخون الغربيون على أن ينعتوهم بالاستبداد، نـــرى مكتشفات ماري تؤكد على أن العاهل السوري " كان يسهم إسهاما مباشـرا في كل ما يحدث في مملكته . فكانت المحكمة الملكية تنعقد في القصر... وكان الملك يتلقـــى دونما انقطاع طلبات كهذه : إرسال أحد بنائين بسرعة لإصلاح جدار في ســـاغاراتيم " أو إرسال طبيب مختص لعلاج حالة التهاب أذن على بعد مائة كيلو متر من مـــاري ، أو يجب تعزيـــل قناة مسدودة ، أو ترميم سد متصدع ... ، أو إعادة ثور يتبين أنه مريض إلى البيطري ..... " [1]

(1) المصدر السابق ص178 ــ179 .



عشتار ربة الينبوع . ماري

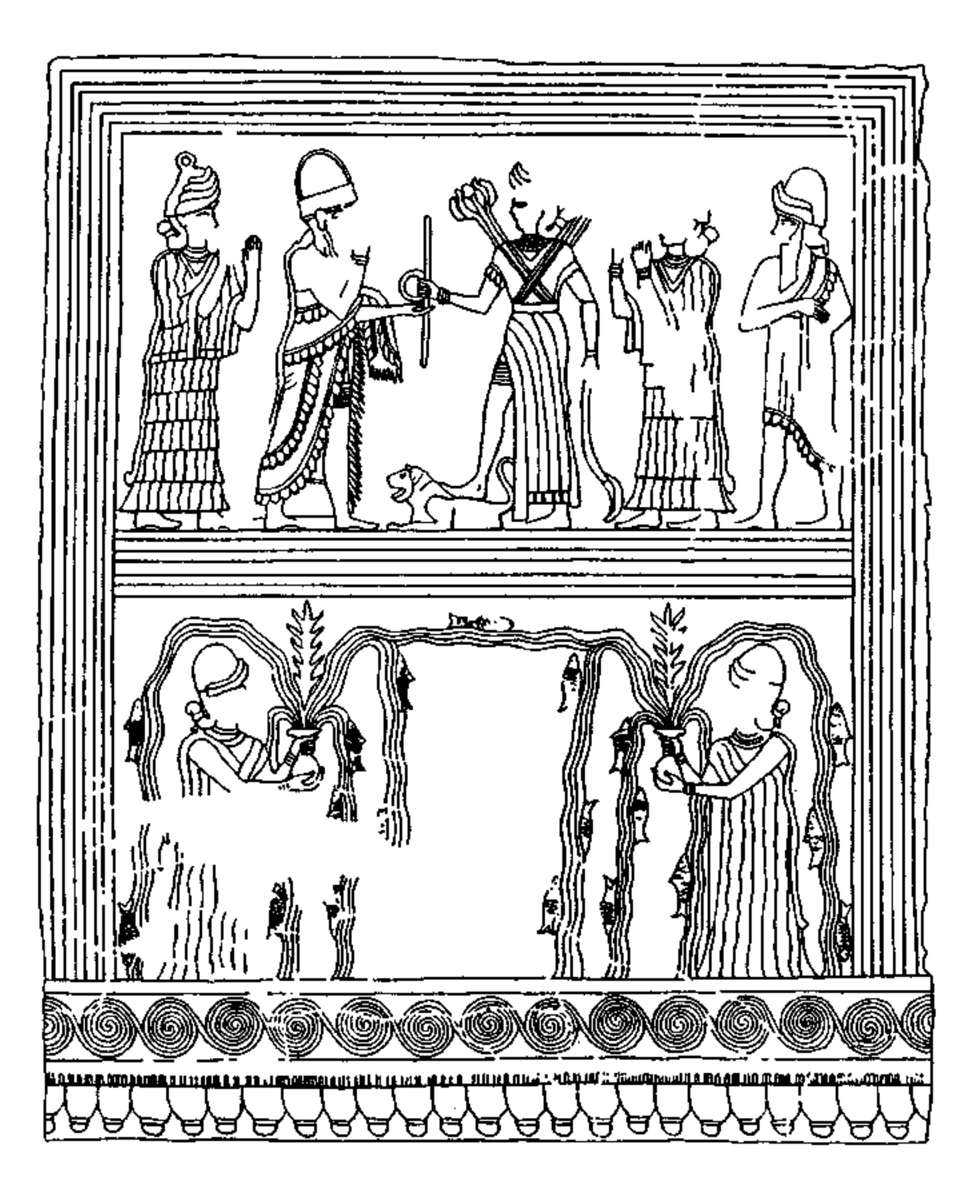


سيدة تشم وردة . قصر زمري ليم . ماري



ماري، مشهد تضحية
نحر كبش ، معبد شمش
الألف الثالث قبل الميلاد

ماري ، حامل جدي للتضحية
معبد نين كورساج .
الألف الثالث قبل الميلاد



صورة جدارية تمثل عين الخلد التي تسقي جنة عدن . ماري

إن سرجون ، وحمورابي ، وغيرهما من الملوك السوريين الذين بقيت أسماؤهم باهرة على صفحات تاريخ البشرية على مدى آلاف السنين كانوا أبناء تلك البيئة الحضارية ، و لم يبزغوا من فراغ . ومما أوردناه يتضح أن سرجون لم يكن "محاربا" فقط كما زعم أرنولد توينبي ، لقد تحرك ضمن وطنه الذي تملأه المنجزات الحضارية المتقدمة من كل جوانبه بالنسبة لذلك الزمن وأقام دولة وطنية قومية على أسس نهضوية جديدة وحد فيها شعبه السوري كله الذي نعته توينبي بـ"البربرية وبالتطفل على الحضارة "* .

---

* إن مفهوم " الحضارة " و"البربرية" لدى توينبي مازال بحاجة إلى شرح واف . ولسنا نجد في سبيل ذلك أجدى من أن نعرض لوحة أخرى في المقابل عن حضارة أوروبا عموما ، وبريطانيا بوجه خاص بعد حوالي 4500 سنة من أولئك السوريين الأموريين الذين عرضنا بعض ما تحدثت به مكتشفاتهم الآثارية الحضارية .

لنقرأ معا بعض ما يورده أحد المؤرخين الأمريكيين المعاصرين ، وهو ول ديورانت ، مقابل اهتمامات قدامى السوريين بالنظافة وبالطعام وبالعناية بالمرضى من الإنسان والحيوان على حد سواء ، وبالتعليم ، والأخلاق ، والعدالة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، بينما نرى إلى أوروبا القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين وهي لم تتجاوز بعد مرحلة أكلة لحوم البشر : " ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوما ما شائعا بين الناس جميعا ، فقد وجدناه في كل القبائل البدائية تقريبا ، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخيا مثل سكان ايرلندا وإيبريا (اسبانيا) وجماعة الجتلت ، بل بين أهل الدانمارك في القرن الحادي عشر . وأما في جزيرة بريطانية الجديدة فقد كان اللحم البشري يباع في دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيواني اليوم " (1)

وبينما لم يشهد تاريخ سوريا العربي على امتداد آلاف السنين أي نزاع ديني ، وفي الوقت الذي يسود التسامح والحرية في المعتقد منذ ما قبل عهد سرجون ، ومرورا بعيسى المسيح وبمحمد ، وفي الوقت الذي كانت رسالة البعل لشعبه تتضمن من جملة ما تتضمنه :"حطم سيفك ، تناول فأسك ، واتبعني ، وأزرع السلام والمحبة في كبد الأرض "، ويقول عيسى المسيح في مسألة المرآة الخاطئة " من منكم لم يخطئ فليرجمها بحجر" وبينما ينص القرآن الكريم على "لا إكراه في الدين " ويؤكد محمد على أن " الدين المعاملة" نرى إلى أوروبا القرون الوسطى من خلال بعض اللوحات التي يوردها ديورانت وغيره :

" لقد قدر يورانت عدد ضحايا محاكم التفتيش الدينية خلال ثماني سنوات فقط بأنهم " بلغوا بين عامي 1480و1488 ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا ، وستة وتسعين ألفا وأربعمائة وتسعين عوقبوا ، وحتى عام 1508 بواحد وثلاثين ألفا وتسعمائة واثني عشر أحرقوا ، ومائتين وواحد وتسعين ألفا وأربعمائة وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة (2) .

---

(1) انظر : Sumner , " Falkway , 329; Westes march E, " Origin and Development of the Moral Ideas " I,P.62

و: ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 1، ص 19-20 .

(2) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " ، الجزء 24 ، ص 89 ــ 90 .

وفي القرن الثامن عشر كان وضع المرأة في بريطانيا كما يلي : " كان للزوج كل السيطرة علــى زوجتــه ، كمــا يتحكم حتى في الصداق الذي أتت به إليه ، وفي كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانونا ..وقد اســتعمل الــزوج حقوقه المشروعة في ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سمكها سمك إبهامه "[1]

" ولم تأخذ القانون بهن رحمة ، فإذا أمسكت إحداهن وهي تتحرش برجل زج بها في الســجن وضربــت بالســوط ووضعت في المشهرة (آلة التعذيب) وقد وصفت مجلة "جرب ستريت " في عدد 6 أيار 1731 مصير إحدى هؤلاء " المدامات " فقالت " وقفت أمس الأم نيدهام في المشهرة بپارك بليس قرب شارع سانت جيمس ، ونكل بها الجمهور تنكيلا شديدا ، وقد اشتد بها الإعياء حتى استلقت لطول المشهرة ، ورغم ذلك ظلوا يرجمونها بقسوة ، ويظن أنهــا ستموت بعد يوم أو يومين " [2]

ومن مظاهر " الإنسانية و" الحضارية " المتفوقة لدى الإنكليز في القرن التاسع عشر أن الرجال المحكومين بــالإعدام كانوا يجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء ، وتخرج أمعاؤهم ، وتحرق أمام أعينــهم ، ثم تفصــل رؤوســهم ، ويقطعون أرباعا ، وقد علقت المشانق في كل أحياء لندن . وكانت الأجساد تترك على كثير منها لتتغــذى عليــها الطيور ، وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل أن يموت ، وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظر الشـنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبي الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم ، وتبيع الأكشاك والباعة المتجولــون الجن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد ، وينشد المغنون الجوالون الأغاني الشعبية " [3].

أما عن قذارة سكان لندن في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد بلغ حدا أن أحدا لم يكن يعــرف الاســتحمام خلال عام كامل " وبلغ نتن العفونة والمرض مبلغا كان يحمل القضاة (في المحاكم) والمحلفين والشهود والمتفرجــين على أن ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الأعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثــة ، وفي مــايو 1750 جيء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا في "الأولد بيلي " وهي محكمة جنايات لندن الكبرى ، وبلغ مــن خبث الحمى التي أفشوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المحلفين وصغار الموظفــين أربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بان يغســل جميع القادمين للمحاكمة بالخل ، وأن توضع أعشــاب زكيــة الرائحة في قفص المتهمين " [4] .

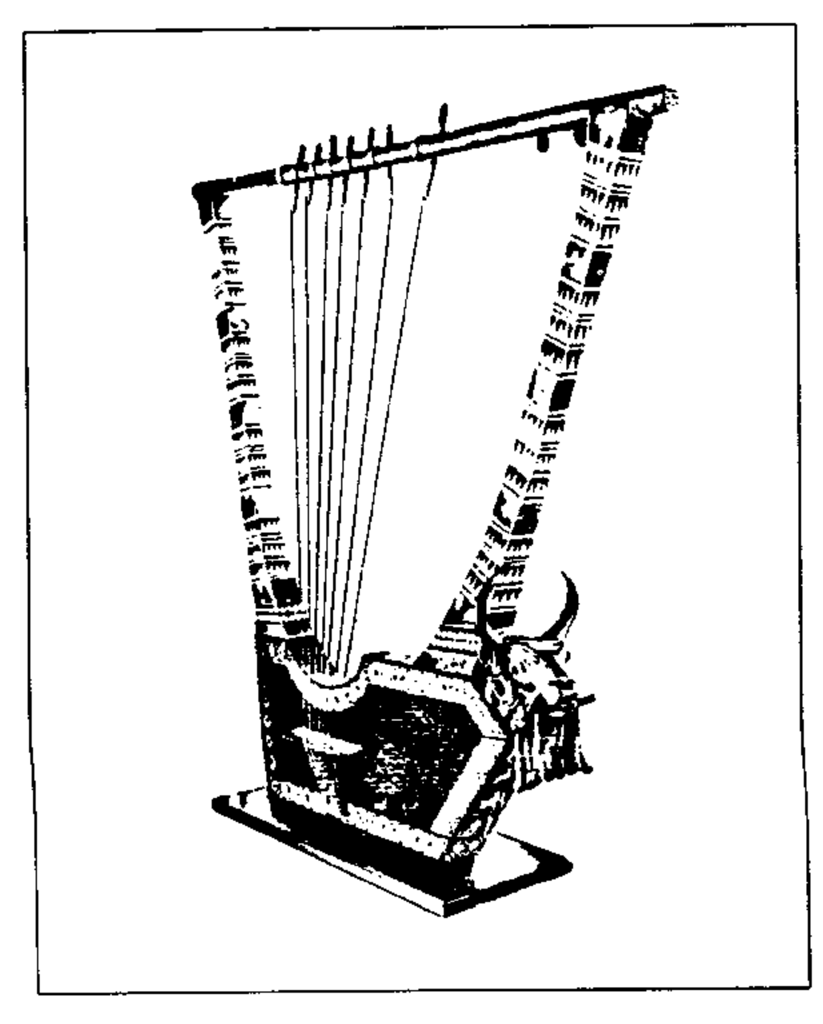
" أما الارستقراطيون فكانوا يفضلون مدينة باث فهناك ، وسط أرقى البريطانيين يشرب الرواد ويستحمون في ميــاه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من اتخموا بالغذاء الطيب " [5]

لكنه ما أن استفاقت أوربا على الثورة التكنيكية والصناعية التي كان العرب قد وضعوا أسسها العلمية حتى أشــهر هذا الإنسان الصاعد من قاع ذلك المستنقع الوحشي سلاحه الجديد وبدأ سلسلة من عمليات القتل والابادة

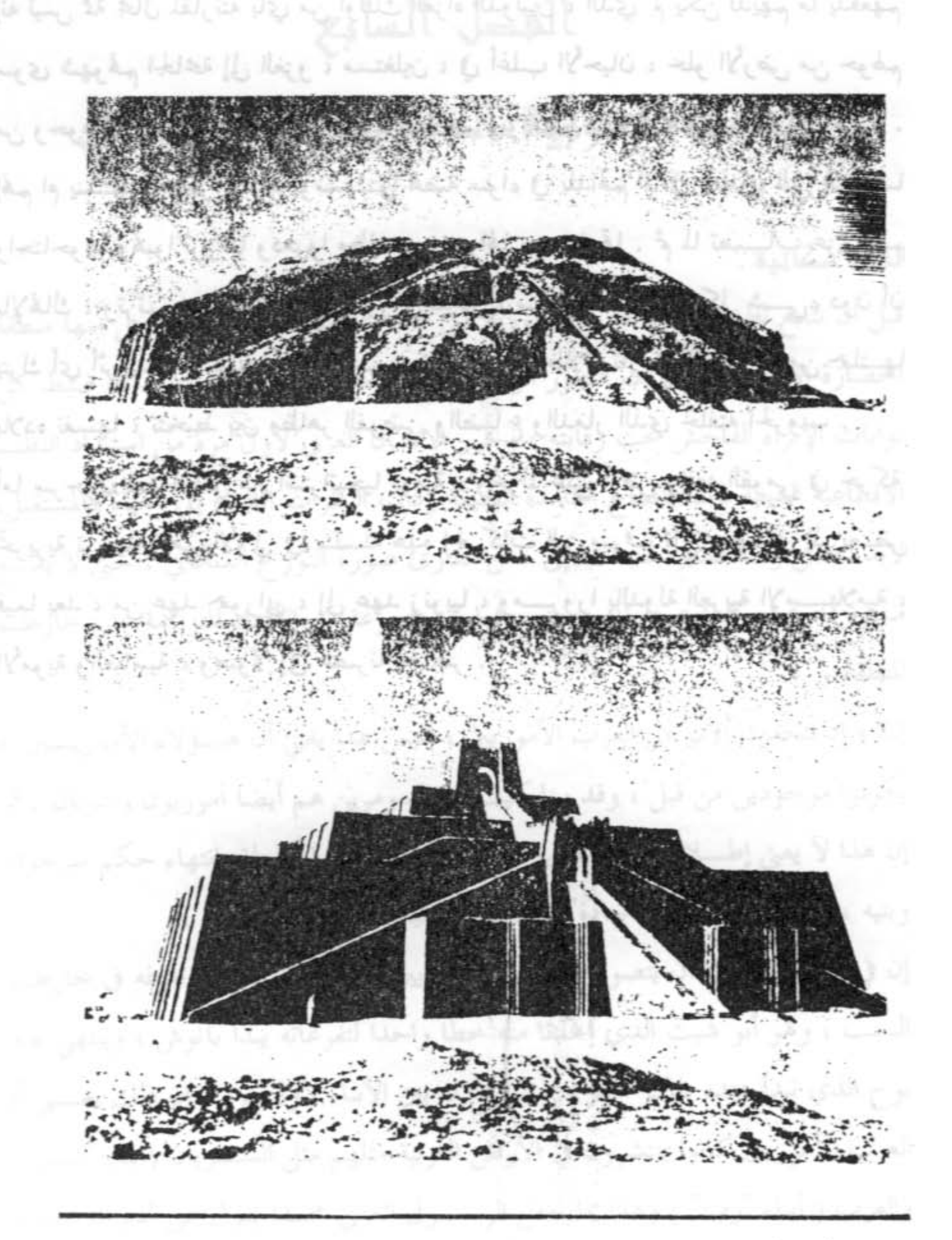
(1) المصدر السابق ، الجزء 32 ، ص 148 .
(2) المصدر السابق ، الجزء 35 ، ص92 .
(3) المصدر السابق ، ص101 .
(4) المصدر السابق ، ص106 .
(5) المصدر السابق ، ص117.

والاستعباد والاسترقاق والنهب بصورة لم يعرفها تاريخ البشر ، ويكفي ان نشير إلى أن " حضارة " بريطانيا لوحدها جعلت دأبها تدمير الشعوب وإبادتها نفسيا وجسديا . فأشاعت الحشيش في مصر ، والقات في اليمن ، وأرغمت الهند على تكريس خيرة أراضيها لزراعة الأفيون ، كما أرغمت مئات الملايين من شعب الصين العريق بحضارته الانسانية على شراء هذا الأفيون وتدخينه مستخدمة في ذلك ثلاثة حروب مدمرة وهي حتى اليوم لا تتورع عن استخدام آخر مبتكرات التكنيك من اجل فرض حروب دينية بالقوة ، أو فرض عبودية أو تخلف ، أو من أجل إبادة شعب يسعى إلى الحرية .

إنه لم يدخل" متسللا " أو غازيا لأراضي الآخرين مثل كورش ، أو جنكيزيان ، أو نابليون ، أو غيرهم ، فهو لم يتعد حدود وطنه القومية إلا في ضربات وقائية صاعقة للقبائل الرابضة في معاقلها خلف الجبال المنيعة شمال سهل قونيا وتوتال ومرسين في الشمال ، وشرق جبال زغروس في الشرق ، والتي كانت تقطع ، أو تهدد سلامة الطرق التجارية الدولية المزدهرة للدولة السورية .



قيثارة من أور



معبد أور القرن 22 ق.م

إنه ليس ثمة مجال لمقارنته بأي من أولئك الغزاة الدوليين ، الذي لم يكن لديهم ما يدفعهم سوى شهوتهم الجامحة إلى الغزو ، مستغلين ، في أغلب الأحيان ، خلو الأرض من حولهم من وجود أي جيش قوي يمكن أن يتصدى لهم ويوقفهم عند حدهم في فترة بروزهـــم . إنهم ام ينشـــروا فكرا ، و لم يؤسســـوا نهضة سواء في بلدانهم أو في البلدان التي غزوهـــا واجتاحوها ونهبوا ثرواتها ودمروا مظاهـــر عمرانها وحضارتها . ثم لما تصـــاب عزيمتـــهم بالإنهاك ، وترتـــوي شهوتهم إلى الغزو والتدمير ، سرعان ما ينطفئ كل شـــيء دون أن يترك أي أثر يذكر ، فينحسر المحارب ، وتنحسر معه ظلاله تاركا المنطقة ، ومن جملتـــها بلاده نفسها ، تتخبط بين مظاهر الفوضى والضياع والدمار الذي خلفته الحروب .

أما سرجون فقد انطلق من استراتيجيا قومية ، وتحرك على أرض واقعه القومي في حركة تحريرية توحيدية هي الأولى في سلسلة هذه الحركات التي سوف تأتي بعضا في إثر بعـــض فيما بعد ، من عهد حمورابي ، إلى عهد زنوبيا ، ومـــرورا بالدولة العربية الإســـلامية ، الأموية والعباسية ، وصولا إلى عصرنا الحاضر .

الفصل السابع
الدولة العربية السورية بعد سرجون

لمحة سكانية

قبل أن نتابع تطور الدولة العربية السورية التي أقام دعائمها سرجون ، وجعل منها منطقة الحضارة الأولى وفتح أبواب التطور الرأسمالي على مصراعيه في البلاد ، بعد أن ضبط كل بوابات الإثراء الفاحش تحت رقابته ، وحرر الانسان العربي لأول مرة من استبداد النظم الاقطاعية الدينية ذات المصالح الجامدة الضيقة وذات النظرات البليدة إلى الحياة والمستقبل، لابد لنا من وقفة قصيرة نعيد بها إلى ذهن القارئ صورة التوزع السكاني ، حتى لا يقع مرة أخرى ، كما عوده المؤرخون ، نهبا بين مجموعة من الأسماء المتزاحمة على خارطة المنطقة .

إننا ، إذ نتحدث الآن عن العرب الأموريين ، فليس هذا يعني أن هؤلاء الأموريين لم يكونوا موجودين من قبل ، وقد بينا كيف أن السومرين هم أيضا أموريون وسريان ، ثم إن هذا لا يعني إطلاقا أن الأموريين سوف يزولون عن الخارطة بانتهاء حكم سرجون وبنيه ، وبتدمير عاصمته " أجادة" (أكادة) واجتياح قبائل الغوتيين لها .

إن في إمكان القارئ أن يتصور وجود الأموريين قبل آدم هذا الذي نعرفه في خارطة النسب ، وهو أبو شيث الذي أخذنا منه خطا واحدا لتفرعاته يبدأ بآنوش ، وينتهي عند نوح الذي نبدأ عنده بذكر أكثر من فرع له بين الأبناء لأول مرة ، إن ذلك يعني أن العرب الأموريين كانوا ينتشرون في الأرض العربية مثلهم مثل السريان (أبناء "سر") والعرب (أبناء "رب") وهذا مما جعل الرسول العربي محمدا يقول عن آدم إنه أحد الرسل الأربعة السريان (آدم وملك ونوح وخنوخ) ، لأن لغته كانت عربية سريانية ، وهو من أبناء "سر" ثم إن بإمكان القارئ أن يتصور جميع ولد آدم الآخرين بجميع فروعهم وقد استمروا يتناسلون ويتكاثرون منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، إلى زمن

سرجون ، أي خـــلال ما يقرب من 2500عام ، إلى جانب تفرعات الخطوط الأخـــرى التي احتفظنا منها بخـــط واحد : أي إلى جانب تفرعات شيث وأولاده إخوة أنـــوش ، وأولاد أنـــوش الآخرين إخـــوة قينان ، وأولاد قينان الآخرين إخوة مـــهلائيل ، وأولاد مهلائيل الآخرين إخـــوة اليارد ، وأولاد اليارد الآخرين إخوة اخنوخ ، وأولاد أخنـــوخ الآخـــرين إخوة متوشالح ، وأولاد متوشالح إخوة سام وحام ويافث ، ثم أولاد ســـــام الآخـــرين إخوة ارفحشاد وآرام وآشور وعيلام ولاوذ ...وهكذا!

فلو أخـــذنا أولاد جاشم مثلا ، ممن عرفوا وثبتتهم قوائم خطوط الأنساب (علمـــــا أن جاشم هذا هو ابن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) ، لوجدنا بني الأزرق ، وغفـــار ، ولفا ، وبديل ، ، وراحل ، وهزان ، وجرهم ، ، ومطر ، والأرقم جميعهم من بني جاشم هذا . إن عملية دفق الخطوط السكانية من خلال تكاثر فروعها وأجيالها عملية مســـتمرة ولا يمكن أن يحيـــط بها أحد ، ولذلك فمن العبث ، بل والسذاجة أيضا ، الحديث عـــن قبائل وأصول قبليـــة ، حتى في زمن سام بن نوح* ، في وجود وقيام هذه الدولة العربيـــة أو تلك . إن الســـومريين ليسوا قبائل ســـومرية ، وإن الأكـــاديين ، أو البـــابليين ، أو الفينيقيين ، ليســـوا قبائل أو دولا لقبائل . إن العنصر العربي يملأ الأرض العربية بجميـــع فروعـــه . ومن البديهي أن تتصدى هذه المجموعة السكانية أو تلك لمهمة الحكم ، بنـــاء على مجموعة من الشروط والعوامل والظروف التي جعلتها هي ، دون غيرها ، مهيأة لأن تقوم بهذا الدور ، وبهذه الدرجـــة أو تلك من النجاح أو الفشل ، لكن ليست ، بأيـــة حال ، مجموعات عشائرية .

إن العرب الأموريين يملأون الساحة العربية من الخليج العربي شـــرقا إلى البحر المتوســـط غربا وإلى جبال عسير والحجاز وشواطئ بحر العرب جنوبا . وإن في إمكاننا أن نلاحـــظ في فترة ســـرجون هذه ، كيف أن العرب الســـاميين بجميع فروعهم يختلطون بـــأولئك الأموريين والسريان منذ عهد سام نفسه ، ويكونون معهم في عمليـــة تاريخية متواصلـــة

---

* إن مدونات التوراة هي التي عممت هذه المعرفة العشائرية لبعض فروع سكان المنطقة نتيجة للمستوى البدوي العشائري الذي لم تكن قد تجاوزته العشيرة زمن موســـى ويشـــوع ثـــم داود وسليمان فيما بعد .

ظاهرة الشعب والأمة من خلال الأرض الواحدة واللغة الواحدة ، بل والأصل الواحد ، والثقافة والتراث والتاريخ الواحد . فإذا كنا قد صرنا نتحدث فيما بعد عن العرب الساميين المتواجدين في كل مكان من الأرض العربية فإن هذا لا يعني مطلقا أن هؤلاء بدأوا من سام ، كما أننا إذا ما أردنا التحدث اليوم عن العرب الحاكمين في أقطار عربية متفرقة ، نجد أن عروبة المنطقة لا تحددها فعلا عروبة أسرهم التي ينحدرون منها . إن العروبة أو السورية هي الأصل ، وهي الموجودة منذ أن عرف الإنسان على هذه الأرض من العالم . إن هذا ، على الأقل ، هوما تؤكده كل المكتشفات يوما بعد يوم . والعروبة هذه تجلت وتتجلى ، قبل كل شيء ، في اللغة بلهجاتها الثلاث الرئيسية : السريانية في الشرق (منطقة الخليج وسومر) ، والأمورية في الغرب (ما يدعى اليوم بالعراق وسوريا وفلسطين والأردن والحجاز وعسير) ، والعربية الأم النقية في وسط شبه الجزيرة العربية. وإذا ما أردنا أن نتجاوز ذلك إلى تحديد سكاني أكثر أيام سرجون ، لقلنا إن العرب الكنعانيين أبناء حام أشقاء الساميين ، نزلوا السواحل الممتدة من البحرين شرقا إلى عمان ، وحضرموت ، والحبشة ،وأرتيريا ، وشواطئ البحر الأحمر الوسطى والجنوبية ، وجنوبي مصر ، أما ماتبقى فقد شغله العرب الأموريون والساميون* ، وإن في ذلك دلالة كبيرة على نضج ثمرة العملية التاريخية في شكل التجمع السكاني الذي هو الشعب ، سيرا إلى تكون الأمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد في الوطن العربي .

وإن في إمكاننا أن نتصور الآن كيف أن أولئك العرب أو السوريين يتدفقون من عدة نوافير أو ينابيع قوية لاحصر لها في شتى أرجاء الأرض العربية . فهنالك ، إلى جانب الينابيع الثلاثة القديمة القوية العملاقة بكل فروعها السكانية المتدفقة على الدوام (أسر ، عمرو، عرب) ، ثمة ينابيع متفرعة جديدة بدأت تلفت الأنظار إليها ، وتتمثل في العرب الآشوريين الجدد أبناء سام في الشمال على نهر الدجلة ، والاراميين الذين يكادون يغطون كل مناطق الوجود السرياني في جوف شبه جزيرة العرب ، والكنعانيين على سواحل البحار الجنوبية التي أشرنا إليها .

• يبقى هذا القول مجازيا إلى حد ما ، وبنسبة عامة فقط

وكما تأكد لنا فإن الآشوريين المنتسبين إلى الجد الأكبر أشور هم سوريون ويتكلمون السريانية ، وهم والأموريين شعب واحد . وإن ما كان يؤرق سرجون الأموري كان يؤرق الطلائع الواعية من بين السوريين الذين لم تؤمن حمايتهم نظم الدويلات ــ المدن الإقطاعية المهترئة الضعيفة أمام أي غزو من الخارج . لقد اعتصم بعض السوريين صعدا على وادي الدجلة في تلال الشمال ، وكأنما أحسوا مسبقا بمقدمات الصراع . وحينما صعد إليهم سرجون كانوا أول من بارك له مخططه وانضم إليه تحت لوائه ، دون أن يكلفوه في ذلك إراقة نقطة دم واحدة . إن الآشوريين ساميون ، وآشور هو أخو آرام وارفخشاد وعيلام ولاوذ ، وهم جميعا أبناء سام بن نوح ، وإن الساميين والحاميين هم جميعا عرب : فإما هم عرب شرقيون (سريان) أو عرب غربيون (أموريون) ، أو عرب من وسط شبه الجزيرة العربية . فالساميون جميعا، إذن من آشوريين وأراميين وغيرهم ، عرب وسوريون ، وليس من شأن تسمياتهم أن تنفي عنهم صفة العروبة أو السورية بل أن تعضدها وتؤكدها ، كما أن المضرية والعدنانية والتغلبية والقرشية ، والقحطانية ، ثم الشمرية ، حديثا، والعنزية ، والحديدية وغيرها لا تنفي صفة العروبة عن تلك القبائل بل تؤكدها .

الصراع بين الاتجاهين : الوحدوي الرأسمالي المركزي الجديد ، ونظام المدن ــ الدويلات الإقطاعي البائد

إن سرجون العربي السوري لم يضرب النظم الاقطاعية التي تجلت في نظم الدويلات ــ المدن ، بدءا من سومر شرقا إلى الشاطئ الفينيقي غربا ، لأن سكان تلك المدن لم يكونوا أموريين ، أو لأن حكامها لم يكونوا أموريين كما يحب كثير من المؤرخين أن يلاحظوا. لقد ثبت . كما بينا ، كيف أن جميع سكان مدن سومر وحكامها كانوا أموريين وسريانا من أور جنوبا ، إلى كيش ولارسا وأورك ، إلى ماري في أعلى الفرات ، كما أن سكان وحكام إيبلا (عبلا) ، وأوغاريت ، وجبيل ، وحلب ، وحمص ، وحماه ، ودمشق ، وبيروت ، وأمريت ، وغزة ، وأريحا كانوا أيضا جميعهم كذلك . إن الصراع الذي خاضه سرجون العظيم لم يكن ليتقزم إلى هذا المستوى القبلي المنحط الذي يشاء كثير من المؤرخين المغرضين تثبيته بمسامير على صفحات التاريخ . إن سرجون كان يمثل في ذاته خطوط التطور الكبرى الأكثر تقدما في واقع مجتمعه وبلاده . لقد مثل صراعا بين النظام البورجوازي الصاعد وبين نظام الإمارات الإقطاعية البليدة المهترئة الجامدة.

إنه صراع يخوضه الجديد بكل ما يمثل من نزوع إلى الوحدة، وفصل الدين عن الدولة ، وسيادة الأمن والقانون لجميع المواطنين ، وتحرير جميع فئات الشعب العاملة والكادحة من ابتزاز واستبداد الإقطاع ورجال الدين ، من أجل سيادة حرية التملك والعمل لحساب الانسان وأسرته لا لحساب الآخرين ، وازدهار فكرة المواطن والدولة، بعيدا عن شعوذات رجال الدين وقيودهم الروحية الكاذبة الموجهة حصرا للحفاظ على مصالحهم ومصالح حلفائهم من أمراء الطبقة الإقطاعية المتنفذة في المدن والمقاطعات ، وبعيدا عن الاستبداد وظلم أولئك الأمراء والحكام .

ذلك كله جوهر الصراع الذي خاضه سرجون ضمن حدود وطنه . لقد كان يهدف إلى تقويض أسس وأطر النظام البالي القديم الذي لم يعد يستجيب لمتطلبات تطور الإنسان العربي وإمكاناته الإبداعية المتوثبة ، وإقامة نظام جديد على أنقاضه ، ونظام الدولة المركزية ، الموحدة ، القوية ، القادرة على حماية جميع المواطنين وحماية ممتلكاتهم ،

وتوفير كل شروط الإبداع لهم ، وردع كل القوى الطامعة في الاعتداء عليهم من الخارج . فهل انتهت هذه الدولة الجديدة مع نهاية سرجون ، كما يحب كثير من المؤرخين أن يقولوا أو يؤكدوا ، أم أنها ظلت حية في مواطني سرجون من بعده ؟ هذا ما سوف نستعرضه الآن ولو في لمحات موجزة .

***

كنا قد أسلفنا القول إن ثمة الكثير من الرجال في التاريخ الذين أحدثوا دويا كبيرا نتيجة لسيطرة نزعتهم القوية إلى الحرب والغزو والفتوح ، دون أن يكون في ذلك أي مضمون آخر فكري أو روحي يقدمونه للبشرية في هذه المرحلة من التاريخ أو تلك ، أو يقنعوا العالم بأنهم إنما خاضوا تلك الحروب والصراعات الدامية الرهيبة من أجل اجتثاث قوى تخلف معوقة لتقدم البشر ككل ، وفرض نظم إنسانية واجتماعية أكثر تقدما . وأوردنا أمثلة على هذا النموذج من الرجال أصحاب الدوي : الاسكندر ، وقورش ، وجنكيزخان ، ونابليون ... وغيرهم .

أما سرجون العربي الأموري فقد وضع في حسبانه أشياء أخرى مغايرة تماما لما يمكن أن يضعه رجل الحرب للحرب ، علما أنه لم يعرف طعم الهزيمة في يوم من الأيام ، ولم يكن من حوله ثمة قوة قادرة على الوقوف في وجهه إذا ما أراد التوسع خلف حدود وطنه . لقد كانت سيوف سرجون أدوات لرسم عالم حضاري جديد ، العالم النموذج ، الرائد في الحضارة والبناء ، بناء الأرض وبناء الانسان المستقبلي الجديد .

إن المفاهيم الجديدة التي حملها سرجون ، ونضجت لديه عبر مسيرة طويلة من التراث الحضاري العربي العريق والأصيل ، مرورا بشرائع العدل والحرية لدى كل من لبت عشتار وأوركاجينا ، ونزعة التوحيد لدى لوجال زاجيسي هي الرسالة التي تمثلها جيدا سرجون واقتبسها من شعبه وبسطاء مواطنيه ليجسدها على درب التطور مرحلة جديدة أرقى في دولة موحدة قوية مشبعة بروح الحرية والعدالة وسيادة القانون لجميع المواطنين

في زمن كان ما يزال الانتقال من الحصول على القوت إلى جمعه وتكديسه مسألة تحتاج إلى حل لدى كثير من شعوب العالم الأخرى .

إنه لضروري أن يتخلص القارئ من متاهات المؤرخين المغرضين الذين جعلوا من قضية التسميات مسألة بالغة التعقيد طمسوا بها حقيقة وجوهر تاريخ الشعب العربي على مر عصوره، وجعلونا لا نعرف حدود مفهوم " السومرية " وأين تبدأ أو تنتهي حدود "الأمورية" في المدينة الواحدة ، فنراهم يؤكدون أن السومريين كانوا هم الحكام حتى عهد سرجون ، وأن الشعب كان شعبهم ، ثم نجد في مكان آخرأن أسماء جميع أولئك الحكام هي أسماء (هي في الحقيقة ألقاب) عربية سامية أصيلة ، ثم نجدهم يتحدثون عن استقلال هذه المدينة "السومرية" من جديد ، وكل ذلك في عملية معقدة خاطئة لا تمت إلى العلم أو المنطق بأية صلة . لقد بينا طبيعة الصراع الذي خاصه سرجون ، وشرحنا مضمون الدولة الجديدة التي بناها سرجون ، وأن هذا لاشك ، لم يكن ليحذف "القديم" كله بكل تراثه ومؤسساته وتشابكاته ، ومنعرجاته النفسية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية والدينية ، وتشابك أسلحته وأدواته ، بل على العكس ، كان لابد من أن يثير فيه ردة فعل ما في هذا الوقت أو ذاك . إن القديم لم يكن ليستسلم ويلقي كافة أسلحته فور انتصار الجديد ، والتاريخ حافل بالأمثلة التي تؤكد جميعها هذه الحقيقة . وليس ثمة أي حادث من شأنه أن يؤكد العكس . إن تمرد بعض المدن على نظام دولة سرجون الجديد لم يكن تمردا عرقيا ، أو حتى قبليا ، كما يردد أولئك المؤرخون . إنه لم يعد كونه حلقات في ذلك الصراع الكبير بين نظامين اجتماعيين سياسيين اقتصاديين متناقضين : نظام الدولة البورجوازية الموحدة الناهضة من جهة ، ونظام الدويلات ــ المدن الاقطاعية الدينية المتخلفة ، من جهة أخرى .

ومنذ أن نضع في اعتبارنا هذا الأساس لفهم أحداث تلك المرحلة من التاريخ تزول كافة الاشكالات ، وتتجلى كل تلك البقاع المظلمة التي تعمد المؤرخون أن يبقوا عليها بعيدا عن النور .

لقد رأينا أن عمدة النظام القديم وأنصاره ، ممن ضربت مصالحهم في عهد الدولة الجديدة بكل ما تمثله من بوابات عملاقة للتحرر والتقدم الرائدين في ذلك الزمان ، لم ينتظروا موت سرجون ليتحركوا ضده بعد أن طال زمن انتظارهم (حكم سرجون 55 عاما) . ففي آخر أيامه ثارت كل تلك الكيانات الهزيلة داعية إلى الانفصال عن الدولة المركزية الواحدة . لكن ، وكما يذكر المؤرخون ، " انطلق الأسد الشيخ إلى المعارك جميعا ، وقهر كل خصومه موطدا دعائم دولته من جديد " .

إن العظماء في التاريخ يرون أحداث الزمن في المستقبل أيضا . وعلى أساس ذلك يبذلون كل جهودهم من أجل حل معضلات المستقبل القريب على الأقل إبان حياتهم هم . ونحن ، إذ لا نشك في عبقرية سرجون وذكائه الوقاد الذي كان يسبق الزمن بكل ما يقوم به إبان حياته ، إلا أن ظروفا كثيرة كان لا يمكن التغلب عليها بمثل هذه البساطة .

لقد صارت " أكاد" عاصمة الدولة العربية السورية التي قامت ، لأول مرة ، وشملت الهلال الخصيب كله من شواطئ البحر الأسود إلى شواطئ البحر الأحمر وبحر العرب ، ومن زغروس إلى البحر المتوسط ، ومعه قبرص أيضا . ولقد كانت إدارة مثل هذه الرقعة الشاسعة والسيطرة عليها في زمن ليس فيه من واسطة للنقل أو الاتصال غير أقدام المشاة أو الجمال أو الحمير أو الخيول من الأمور الشاقة إن لم نقل المستحيلة . ثم إن سرجون ، أو غيره من قادة ذلك الزمان ، مهما بدا في عين التاريخ عظيما ، فإن عظمته هذه كانت سلاحا ذا حدين ، وكثيرا ما تدفع الشعوب ثمنا فادحا لها. إن قائدا عظيما مثل سرجون كان لابد من أن يحدث فراغا عظيما بعد موته لدى شعبه وفي المنطقة التي كان يملأها بسياسته وممارساته وأفكاره الجديدة . وإذا ما تذكرنا أنه لم يكن ثمة أحزاب أو تنظيمات شعبية تبادر فورا إلى ملء الفراغ والدفاع عن المكتسبات التي حققها المجتمع فإن الحقائق كانت تفرض واقعا آخر مغايرا : وهو أن يبقى أمر استمرار التطور مرهنا بمن سيخلفون هذا القائد العظيم أو ذاك ، إلى درجة كبيرة . وكثيرا ما كنا نرى المجتمعات والدول تتخبط لفترات قد تطول أو تقصر . أحيانا تنزلق العجلات بها إلى الخلف وكأنما

انقطع فجأة الخيط الوحيد الذي كانت معلقة به ويشدها إلى أمام . وهذه المراحل ، مع تصور وجود العدو المتربص ، تبقى في حياة الشعوب أخطر المراحل على الاطلاق .

لما مات سرجون ، وخلفه ابنه "ريموش" (2300 ــ 2291 ق.م)، وكان عليه أن يوجه الضربات الساحقة لبؤر التمرد المتمثلة في تحالف رجال الهيكل والأمراء الاقطاعيين ، ويثبت فصل سلطة الدين عن الدولة التي بدأها أبوه . لكن ريموش أبدى من الضعف ما شجع تلك الأطراف المتمركزة ، خاصة في مدن سومر وعيلام ، على التمرد . وحينما بدأ بإخماد تلك الفتن كانت قد استشرت لتحط من هيبته وهيبة جيش أبيه الذي لم يعرف طعما للهزيمة ولا للتردد في سحق أعداء الدولة دونما إبطاء . إن هذا هو ما أفضى ببعض جنوده إلى اغتياله وهو في إحدى حملاته على مدن عيلام . وخلفه أخوه مانيشتوزو بن سرجون الذي أدرك ــ على ما يبدو ــ كيف أن الأعداء الخارجيين أخذوا يتحفزون للانقضاض على الدولة مغتنمين فرصة انشغال الجيش بإخماد الفتن والثورات الداخلية . لقد كانت قبائل اللولوبي والكاشيين والغوتيين تترصد اللحظة المناسبة لتنقض من خلف مكامنها في جبال زغروس على أكاد الفتية . فلم يكن لدى مانيشتوزو ثمة وقت يضيعه . فسرعان ما أنزل جيشه في الخليج وعبر إلى سواحله الشرقية إلى أرض عيلام ، وضرب الجيوش التي كانت قد أعدها المدن المتمردة لملاقاته .

ويذكر المؤرخون أنه دمر جيشا لـ 32 حاكما ، ثم توغل إلى جبال الفضة في شرق شمال زغروس متحديا تلك القبائل الهمجية في معاقلها . ولقد حكم مانيشتوزو 15 عاما ، ثم خلفه من بعده ابنه "نارام سين" (نور سين رب القمر) الذي حكم في الفترة ما بين 2275 ــ 2240 ق.م .

لقد وجد نارام سين نفسه أمام طريق لا خيار فيه : إنه الحرب . كان جده سرجون قد أسس مدرسة عسكرية متفوقة ما تزال قائمة بجيشها وبالروح القتالية المتوفر لديه ، فقرر أن يغتنم الفرصة ويقود ذلك الجيش المتفوق ليقضي على كل الأخطار التي تهدد الدولة التي نهض بها جده من قبل وترك لهم مهمة إكمال المسيرة . فتوجه إلى جزيرة العرب لتأمين أمن القوافل وضرب عشائر الآراميين في عبلا شرقي بلاد غامد ثم ضرب عشائر

الحوريين هناك . وثارت ماجان في عيلام ، وانقض عليها كما سحق في طريقه قبائل اللولوبي في جبال زغروس ، وأقام تخليدا لذلك نصبا أقامه في در بندي جور في شرق عيلام مازال موجودا حتى اليوم في متحف اللوفر ، يظهر عليه نارام سين بعمامة ذات قرنين رمزا للقوة التي يحتفظ بها القادة السوريون ، يتسلق جبلا وهو يمشي فوق جثث الأعداء المتناثرة وقد لقب بـ"شار كبرات أربعيم"أي ملك المناطق الأربع . وأشار كشاطي أي (رب الرماة بالسهام)، وهذا لقب الرب "داجان " وصار يسبق اسمه في الكتابات بصورة النجمة علامة الربوبية التي تقرأ بالسومرية "دنجر" ومعناها الخالد الدائم . لكن المؤرخين الأجانب لم يفهموا معنى الكلمة ، وفسروها بلغاتهم هم ونقلها عنهم بعض النقلة العرب كما توهموها ، يقول الدكتور وديع بشور "وقد أطلقوا اسم جنس على الآلهة هو "دنجر" أي إله "[1]



نارام سين حفيد سرجون يجهز على القبائل الهمجية في مكامنها خلف الجبال

---

(1) وديع بشور ، " سومر وأكاد" ص181 .

لقد تمكن نارام سين من تثبيت أركان الدولة طيلة فترة حكمـــه ، لكن استمرار تواطـؤ الخصوم في الداخل والخارج جعل حـــروب الدفاع عن الدولة لا تنقطع قرابة قرن مـــن الـــزمان ، مما أرهق الجماهير الشعبية التي كانت بمثابة العمود الفقري للجيش الســـوري الأموري منذ عهد سرجون الذي تخلى عن أسلوب الاعتماد على الأمراء الاقطـاعيين في تشكيل الجيوش ، واعتمد على لجان من الشعب تعود في تنظيمها إلى القصر مباشـــرة . وصـــار الوضع مرتبطا أكثر بمدى قدرة حكام النظام الجديد على المثابرة والصمـــود في الخـــط الذي كان قد رسمه واعتمده واختطه سرجون . وقد تبين أن تلـــك الجماهـــير المرهقة بسبب ما تكلفته على امتداد مئة عام من البذل والقتال ، هي نفسها التي ظلـــت مثابرة حتى النهاية على التمسك بمبادئ الحياة الجديدة متكاتفة في ذلك مع الجيش الـــذي خلقه ســـرجون جديدا بنظامه ، وتربيته ، وتدريبه ، وتسليحه ، واندفاعه ، وارتباطـــه بجماهير الشعب ، وحقده على نظام الاقطاعية البائد .

وهكذا نرى أنه ما إن مات "نارام سين الذي سار على منوال جده ، حتى خلفـــه ذاك الذي لقب بـــ "شار كل شاري" (أي ملك كل الملوك) على العرش وكان ضعيفـــا ، انحطت الدولـــة في عهده ، وطمع بها كل خصومها من جديد في الداخل والخارج على السواء ، وبدأت حركـــات العصيان تنذر بقرونها في مدن سومر وعيلام ، كما بـــدأت قبائل اللولوبي والغوتيين تتحفز للانقضاض على "أكاد" .

إن احتدام تحركات الأعداء من جهة ، وضعف الملك من جهة أخرى ، أوقع الجماهـــير وقوات الجيش في جـــو من البلبلة . ومرة أخرى يلجأ الجيش إلى قتل الملك ، لكـــن في قصره هذه المرة ، ودون أن يوفق في قائد حقيقي قادر على أن يســـد الفراغ الذي كان يملأه سرجون أو حفيده نارام سين . إن هذا جعله يعمد إلى قتل الملك وتغييره خلال أقل من عام تقريبا . وسادت فترة من الفوضى حكم خلالها أربعة من الملوك مدة ثلاث سنين فقط ، في جو من نقمـــة جماهير الجنود والشعب معا . فكان الجنـــود يعبرون عن تلك النقمة بقتل الملوك وكانت جماهير الشـــعب ، وحتى موظفو القصر يعبرون عن ذلـــك بطرقهم الخاصة أيضا .

لقد جاء في ثبت الملوك الأموريين عن هذه الفترة تحديدا :

" من كان ملكا ؟ "

" من لم يكن ملكا ؟ "

" هل كان اجيسي ملكا ؟ "

" هل كان نانوم ملكا ؟ "

" هل كان ايمي ملكا ؟ "

" هل كان ايلولو ملكا ؟ "

" الأربعة كانوا ملوكا وحكموا ثلاث سنين ! "

وعلى أية حال ، فقد لعب في ذلك الصراع على أرض سوريا عاملان وكان لهما تأثير بالغ على مجريات الأحداث في ذلك الزمن ، وحالا ، بصورة من الصور ، دون تمكن القادة من حسم الأمور كلية ، لصالح النظام الجديد . أول هذين العاملين ، وقد أشرنا إليه ، هو اتساع رقعة الدولة ، والمساحات الشاسعة التي تفصل منطقة عن أخرى في وقت تنعدم فيه أية واسطة للنقل والاتصال . والعامل الثاني هو أن العدو الخارجي لم يكن في شكل دولة ما ، أو جيش منظم يمكن قهره وتحسم الأمور . لقد كانت البلاد ــ كما قال هنري فرنكفورت ــ "بلادا متحضرة ومزدهرة ، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية ، لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانيات النهب الهين .. وهكذا تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد ، حتى إنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا ، ثم اتجاهه نحو الغرب محاولة سنوية منظمة مركزة لصد الجبليين عن حدود الدولة ، لأن إخضاعهم بصورة دائمة ، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة ، كان مستحيلا . ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة مركزية . لقد كان لابد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك " [1]

---

(1) هنري فرانكفورت ، "فجر الحضارة في الشرق الأدنى" ص94 .

إن في هذا القول ، الذي سبق أن توقفنا عنده من قبل ، تأكيدا لعدة حقائق يهمنا أن نثبتها هنا ، وهي :أولا : قوة العامل المتمثل بنوعية الخصم الخارجي ، الذي هو بمثابة قبائل هائمة لا أرض لها ولا مقرات أو عواصم ، وبالتالي فإنه حينما ينسحب من منطقة إلى أخرى لا يفقد شيئا ، ويستنفد بذلك جهد الجيش النظامي وطاقته في تعقبه أو انتظاره . ثانيا : لقد كان الناس وجماهير الشعب ، بالدرجة الأولى ، وليس الملوك وحدهم ، أشد وعيا لضرورة الاحتفاظ بالدولة المركزية القوية القادرة على درء كل الأخطار عن حدود الوطن ومدنه الداخلية ، ثالثا : إن في هذا القول لأحد المؤرخين تأكيدا على ما سبق أن أوضحنا وهو أن الآشوريين ، مثلهم مثل الأموريين ، جعلوا دأبهم الاستمرار في النهج الذي اختطه سرجون في إقامة الدولة المركزية وتوجيه ضربات منتظمة للأعداء المتربصين بها من خلف الحدود . إن ذلك يؤكد على استمرار نهج سرجون من بعده لدى كل الحكام الآخرين بغض النظر عن مدى النجاح أو الفشل في تطبيق نهجه وسياسته .

إن مرحلة الفوضى التي دخلت فيها البلاد والدولة عموما منذ نهاية حكم نارام سين كانت تعكس حدة الصراع ، وصعوبة التحديات . وإن المقاومة التي أبدتها تلك الدولة الناهضة الجديدة ، رغم كل تلك التحديات الجدية والصعبة ، والتي استمرت زهاء قرن من الزمن دون أن تستسلم للضعف أو للانهيار ، لدليل كبير على مدى رسوخ تقاليد وأفكار الحياة الجديدة التي غرسها سرجون في نفوس مواطنيه. إن عنف، وقساوة، وجدية الخصوم الداخليين في عدائهم للنظام الجديد لم يكن ، مع تألب كل قوى الغزو على الحدود أيضا ، لينهزم على مدى قرن كامل لولا جدية القوة المدافعة عن النظام الجديد أيضا . إن طول زمن واحتدام ذلك الصراع كان شاهدا حقيقيا على قوة النظام الجديد وليس العكس .

صحيح لقد انفصلت أوروك في أواخر حكم نارام سين ، ثم حذت حذوها عدة مدن سومرية وعيلامية أخرى ، لكن ذلك الانفصال لم يمكن الحكام الجدد لتلك المدن من أن يعيدوا الزمن إلى الوراء ، ويحكموا بالأسلوب نفسه الذي كانوا يحكمون به من قبل .

لقد ثبت أخيرا أن النظام والأفكار التي أقامها سرجون في أرجاء دولته الجديدة وجـــدت طـــريقها إلى قلوب شعبه مباشرة فتلقفها ، ورعاها ، ودافع عنها ، ولم يسمح للأمـــراء الإقطاعيين ـــ الدينيين أن يعـــودوا إلى ابتزازه بالأســـاليب القديمـــة ، بل ظل متمسكا بالمكتسبات التي منحه إياها العهد الجديد . ولقد شعر أولئك الحكام الانفصاليون الصغار بأن ناقوس الخطر قد دق فعلا ليعلن نهاية نظام المدينـــة ـــ الدولـــة ، وأن عهد الـــدول المركزية الكبرى قد بدأ فعلا لا قولا ، وأن دولة سرجون لن تنتهي هكذا بالسهولة الـــتي يتصورون ، إذ إن لها جذورا أخذت تعيش وتنتشـــر في نفوس الشعب ، وكان الطريـــق الوحيد أمام تلك القوى الرجعية الاستغلالية المتعفنة هو أن تستنجد بقوى الغزو الهمجيـــة في الخارج .

كان نارام سين قد وضع يده على الجرح،وقضى فورا على كل النزعات الانفصاليـــة في إيبلا وماري ، ثم ارتد ليضرب قيادة ذلك التجمع الإقطاعي الديني في مركزه الرئيســـي ، في نيبور المقدسة ، حيث لم يكن يخطر في ذهن تلك القوى أن نارام سين أو غيره يمكـــن أن يجرؤ على القيام بمثل هذه الخطوات . لقد دمر نارام سين المجمع الديـــني في " نيبـــور المقدسة "وفيها الـــ"ايقور = الوقور ، الجليل ، المهيب " معبد انليل . لذلك اتجه رجـــال الدين إلى الغوتيين الهمجيين في الجبال ، وتواطؤوا معهم من أجل توجيه الضربة الانتقامية الماحقة إلى " أكاد" تنفيذا ـــ في زعمهم ـــ لرغبة انليل في الانتقام . لقد ثبت أن تلـــك الفئة الرجعية ، التي أعمتها مصالحها الأنانية الضيقة عن رؤية أي ما من شأنه أن يجمعـــها بالوطنية والوطن والمواطنين ، كانت لا تتـــورع عن فعل أي شيء والتعامل مع أشـــد خصوم الوطن همجية وحقدا من أجل الانتقام من أولئك الذين كشفوا حقيقة اســـتغلالها وابتزازها للمواطنين تحت ستار الدين وقطعوا كل دابر لأسباب بقاء تسلطها واستغلالها.

لقد تجلى حقد تلك الفئة على أبناء الوطن الناهضين في القصيدة التي نظمها باسمهم شاعر الهيكل وسجل أحداث الفترة بعد أن قرر زعماء المعابد في مدن سومر وعيلام أن يربطوا مصيرهم بانتصار قبائل الغوتيين المتوحشة في غزوها لوطنهم ، وتدميرها لمدنه ، ولمستقبل تطوره .لقد استعانوا علانية بالغوتيين مستنـــزلين كل صنوف الشر والدمار بأبناء الوطن

وعلى " أكاد" خاصة عاصمته ، ورمز نهوضه وانطلاقه في الزمن المشرق الجديد . لقـــد نظمت تلك القصيدة بعد اجتياح " أجادة "(أكاد) على أيدي الهمجيين الغوتيـــين إلى جانب تلك الفئة المتخلفة التي حولت الدين من مؤسســـة تعاونية اجتماعية اقتصاديـــة ، كانت أول مؤسسة اشتراكية من نوعها في العالم ، إلى بؤرة للبدع الفكرية والروحيـــة ، لاستغلال وابتزاز جهود المواطنين ، ضاربة عرض الحائط بكل القيم الدينية الأولى التي بها انتظم المجتمع ، وانتشرت فيه من خلالها مشاعر التعاون والمحبة والفرح ، من أجل ضمان مصالح أفراد قلائل صاروا عالة متطفلين على المجتمع وتطوره . لقد أسقطوا تلك المؤسسة الدينية الاجتماعيـــة والوطنية ، وصاروا ألد أعداء الوطن أكثر قربا إليهم حينما يضمـــن لهم استمرار عملية الاستغلال والكذب والتسلط من أولئك المواطنين . لقد كانت تجربـــة دولة سرجون القومية بكل تطلعاتها وصراعاتها التجربة الأولى اللازمة، واللازم استيعابها ، على طريق تطور البشرية كلها من نظام الإقطاع إلى الثورة الرأسمالية العقلانية .

لقد جاء في تلك القصيدة :

" ايتها المدينة ، يا من تجرأت على مهاجمة إيقور ، وتحديت إنليل ، عسى أن تتكـــــدس غاباتك في أكوام التراب

عسى أن يعود آجرك إلى "الهاوية"

وليكن آجرا ملعونا من "أنكي"

عسى أن تعود أشجارك إلى غاباتها،

ولتكن أشجارا ملعونة من "نينالدو"

ثيران الذبح ـــ عساك تذبحين زوجاتك بدلا منها ،

أغنام الذبح ـــ عساك تذبحين أبناءك بدلا منها ،

فقراؤك ـــ عسى الجوع يجبرهم على إغراق أطفالهم الأعزاء

يا أجادة ،قصرك المشيد بالفرح عساه يتحول خرابا محزنا

وحيث كنت تقيمين شعائرك

الثعلب الذي يسكن الخرائب عساه يهز ذيله

عسى قنوات مراكبك لا ينبت فيها سوى الأعشاب الضارة،
وعسى طرق مركباتك لا ينمو فيها سوى "القصب المسيل للدمع"
وفوق ذلك ، في مكان جر القوارب والرسو
عساه لا يقدر إنسان أن يسير بسبب الماعز الوحشي والديدان والأفاعي وعقارب الجبل
وسهولك حيث تنمو النباتات المسرة للقلب
عساه لا ينمو سوى "قصب الدموع"
يا أجادة ، بدل مياهك العذبة الجارية عساها تجري المياه المرة ،
ومن يقول "أريد أن أسكن تلك المدينة" لا يجد مكانا صالحا للسكن
ومن يقول "سأضطجع في أجادة " لن يجد مكانا صالحا للنوم "

ثم يختم المؤرخ الشاعر قصيدته بأن يؤكد لنا أن كل ذلك قد حدث لـ" أجادة " فعلا، وأن لعنة الألهة قد حلت بها ، معلنا تشفي ذلك الحلف الاقطاعي الديني وشماتتهم بدمار أول عاصمة للعدالة ، والحكم "الشرعي العادل" ولأول دولة عربية مركزية ناهضة موحدة :

"لم ينبت في مكان جر القوارب سوى الأعشاب الضارة
وطرق العربات لم تنبت سوى النبات الباكي
ولا إنسان يستطيع أن يعيش
بسبب الماعز الوحشي والديدان والأفاعي وعقارب الجبل
وفي السهول ، حيث نما النبات المفرح للقلب ، لم ينم سوى "القصب المسيل للدمع "
وفي أكاد ، بدل المياه العذبة الجارية جرت المياه المرة
ومن قال سأسكن تلك المدينة لم يجد موقعا صالحا للسكن
ومن قال سأضطجع فيها لم يجد للنوم مكانا صالحا "

لقد اجتاح الجوتيون القادمون من الجبال في الشرق بلاد سومر وأكاد ، وارتكبوا فيها كل أنواع الفظائع الوحشية ، وصبوا جام غضبهم على "أجادة" خاصة ، ودمروها، وقضوا فيها على كل أفراد السلالة الحاكمة التي أسست دولة الوحدة الأولى ، كل ذلك

بمساهمة ومشاركة الحلف الرجعي الداخلي المتمثل في زعامات المدن الاقطاعيـــة ورجال الدين .

لقد عم الخراب والفوضى أنحاء ســـومر وأكاد زهاء قرن من الزمن ، انحسرت فيها هيبة القوى الجديدة التي ظلت تفتقر إلى قيادة قويـــة حازمة تفرض نفســـها وتشد أشـــتات الجماهير المبعثرة إلى تحت جناحيها ، بينما كانت كل الشروط قد أصبحت مهيأة لقـوى الاقطاع الديني شبه البائدة من أجل أن تجمع فلولها تحت مظلة الاحتلال الغوتي المتواطئـة معه ، وتنبعث على الساحة من جديد لتعمل أسلحة انتقامها في كل القوى التي ناصبتــها العداء في الزمن الماضي .

في غمرة تلك الصراعات الدامية كان ممثلو العهد الجديد في كثير من المـــدن يتشـــبثون بمفهوم الدولة القومية السرجونية ، ويعضون بالنواجذ على مكتسباتها ، متحينين الفرصـة للانتفاضـــة من جديد في وجه خصومهم الذين لم يكن ليسترعي انتباههم شيء في تلك الفترة غير التعجيل في اســـترجاع ما فقـــدوه من الثروات ، والانتقام من تلك القـــوى الظاهرة في مقاومتها على الساحة .

لقد أبقى الفلاحون في كثير من المقاطعات على ملكيتهم الصغيرة للأرض ، وتشبثوا بها ، يشجعهم في ذلك نمو الروح الوطنية والقومية التي أشاعها سرجون وحفيده نارام ســين ، وعدد من حكام المقاطعات .

وفي حوالي 2130 ق.م تمكن حـــاكم أوروك الملقب بــ"اوتوهيجال"* (أوتو الجليـل أو العظيم) من أن يكسر نير الاحتلال الغوتي ويحرر مدينته ، ثم تبعه عدة أمراء من حكـــام

---

* "أتو" أو " "أوتو" هو أحد الآباء العرب في مرحلة الخصب وصارت الشمس رمزا له ويعنـــي المخصب ومؤنثه " أثينا "ومن صفاته الملازمة له أنه "الراعي" فهو رب الشمس الـــذي ينضـــج المحاصيل ، وهو بالتالي مرادف لــ"رع" (الراعي) أو أصله الأول . وفي صلاة مرفوعة إليـــة نقرأ :

" إيه أوتو يا راعي البلاد ، وأب سكان السواد
عندما تذهب إلى النوم يذهب معك الشعب لينام
يا أوتو القدير ، عندما تنهض ينهض الشعب أيضا معك
بدونك يا اوتو الأمير لا يرتحل والعبد لا يسافر
ولن يسافر وحده ، أنت الشفيق التوأم
والرجل في رحلته يا أوتو أنت معه

مدن الجنوب ، وتمكن "أوتو هيجال" من أن يضرب الغوتيين في منطقتهم ويأسر ملكهم "تيريغان "

"جلس اوتوهيجال ،وتيريغان يتمدد عند قدميه

برجله داس على رقبته واستعاد سيادة سومر بيديه".

ومن الخطأ الاعتقاد بأن حكام المدن إنما كانوا يعملون بمفردهم وفي معزل عن المد الجماهيري الكبير ، الذي بدأ يتخذ في تصاعده طابعا قوميا تحرريا . إن التركيز على دراسة تلك الفترة بالذات يعتبر ـ في نظرنا ـ من أهم الواجبات التي يمكن أن يضطلع بها المؤرخون العرب المحدثون ، المتحررون من زيف الادعاء الثقافي والعلمي ، والمسلحون بالمعرفة الحقة ، وبروح البحث العلمي الموضوعي ، وبالروح الوطنية والقومية الصادقة ، من أجل سبر حقيقة وجوهر ذلك الصراع الذي خاضه الشعب العربي منذ آلاف السنين ليكسب نزعته إلى بناء دولته القومية مضمونا تحريريا على صعيدين : داخلي ضد النظم القديمة الاستغلالية البالية ، وخارجي ضد الغزاة الهمجيين المحتلين لأرض الوطن مرسيا ـ ولأول مرة في تاريخ البشر ـ دعائم الفهم الصحيح للقومية والوطن ، بعيدا عن أية نزعة عصبية استغلالية متطرفة .

فبينما كان المحتلون الغوتيون وحلفاؤهم يعيثون ضروب الفساد في الداخل كانت جماهير السوريين تغلي ، وتتحرك ، وتتمحور حول قادة حقيقيين سوف تخرجهم إلى ساحة الصراع في الوقت المناسب . ولم تكن انتفاضات بعض الحكام هنا أو هناك سوى بداية العاصفة القومية التي تهب دائما من الغرب السوري حاملة الخير للأمة كلها ، كما تحمل الرياح الغربية السحب المحملة بالخير والمطر لشتى بقاع الوطن .

أما كيف يفهم مؤرخو الاستعمار والتوسع الاستعماري مثل تلك الظاهرة فأمر آخر . يقول أرنولد توينبي :"وأثناء فترة سيطرة الغوتيان تسلل العموريون المتكلمون بالسامية

وللأعمى أنت العين التوأم
الفقير والبائس والعريان
تلفهم بشرافة تورك مثل حلة من الصوف الطويل
والمحتاج تغطيه بحلة من الصوف الأبيض
أيها البطل ابن الربة ،السيدة ننجال ، إني أنشد مجدك"

إلى أكاد من الجهة الجنوبية الغربية ، وأنشاوا مدينة بابل تبعا لذلك . وقد قضي على الغوتيان أو لعلهم أخرجوا من البلاد في آخر المطاف ، وذلك لأن الأكاديين والسومريين كانوا يكرهونهم ، أما العموريون الذين انتهكوا حرمة الأراضي الأكادية فقد استمروا هناك ، وكان أن قاموا بدور رئيسي في التاريخ السومري الأكادي في ما بعد "[1]

انظر كيف تتم الأمور ببساطة لدى المؤرخين الاستعماريين ! .. لقد قضي على الغوتيان أو أخرجوا ليس لأنهم غزاة محتلون ، بل لأن الشعب لم يحبهم ، كرههم !.. ولو تمكنوا من أن يجعلوا هذا الشعب يحبهم لتنازل لهم عن أرضه وكل مقدساته وثراوته ، ولغفر لهم كل جرائم القتل الوحشي والتدمير الذي فعلوه ببلاده وبأبنائه! إن الاحتلال لدى أولئك المؤرخين الاستعماريين لا يستحق أن يحمل في جنبيه حقدا أو تناقضا قوميا ووطنيا ، إنه مجموعة عواطف يمكن تشذيبها من الكراهية إلى التحابب . إنه "حاجز نفسي" يمكن كسره وينتهي الأمر !.. أما العرب العموريون سكان المنطقة الأصليون فقد "انتهكوا حرمة الأراضي الأكادية"! .

وأما أولئك العرب الأموريون الذين انتفضوا في وجه المحتلين وعملائهم من الداخل وحرروا المنطقة كلها ، وأعادوا أمجاد الدولة العربية المركزية الموحدة المتحررة فقد "جاؤوا متسللين " ، ورغم " انتهاكهم حرمة الأراضي الأكادية فقد استمروا هناك " .

إن هذا يخالف كل شريعة الاستعمار البريطاني الذي لم يكن توينبي إلا أحد جياده المؤطرة عيونها من الجانبين .

إن توينبي كان يعرف ـــ دون شك ـــ أن الأموريين هم العرب سكان المنطقة الأصليون، وأن ما دعي بالسومريين أو الأكاديين أو البابليين ليس إلا تسميات جغرافية محلية لأولئك السكان الأصليين كما نقول اليوم : بغداديون وحلبيون وبحرانيون وشاميون .. الخ ، وهو ، على الأقل ، لا يمكن أن يكون بعيدا عن كل ما كتبه غيره من باقي المؤرخين الغربيين وبلغته الإنكليزية نفسها عن الأموريين . لقد وضع المؤرخ الكبير " كليي" ،على سبيل المثال ، وحده مؤلفين عن الأموريين هما "أمورو" ، وطن السلميين

(1) أرنولد توينبي ،" تاريخ البشرية "، الجزء الأول ، ص98 .

الشماليين" وإمبراطورية الأموريين " وقال فيهما : " لقد أطلق البابليون تسمية " أمورو " (أو عمورو) على جميع بلاد سوريا ، كما أطلقوا على البحر المتوسط اسم "بحر أمورو العظيم" ويرى "كليي" أن الأموريين "كانوا قد انتشروا في جميع المنطقة الممتـــدة مـــن ســـاحل البحر المتوسط إلى الفرات ومن ضمنها فلسطين منذ الألف الرابعة أو الخامســـة قبل الميلاد " [1] ويؤكد كثير غيره من الباحثين والمؤرخين حقائق أخرى أشـــد عمقـــا وإبهارا مما يذكره " كليي " عن قدم وجـــود العرب الأموريين الذي يعود إلى ما قبـــل الألف السابع قبل الميلاد ، مما يجعلهم الســـكان الأصليين للمنطقة إلى ما يقـــرب مـــن عشرة آلاف سنة جرى إثباتها بالمكتشفات الاثارية .

لقد ثبت للدارسين أن مدن عبلا (ايبلا) وأريحا ، وحماه ، وأوغاريت ودمشق ، ومـــاري وكيش، وأور ، وأريدو ، وغيرها كثير من المدن التي يصعب حصرها إنما هي مدن عربية أموريـــة ، ومن المعلوم أن بعض تلك المدن يعود تاريخها إلى ما قبل الألف السابع قبـــل الميلاد كما أكدت فحوصات الكربون المخبرية لآثارها مؤخرا ، ومن بينها مدينة أريحا .

ويشـــاهد اليوم مقابل " تل الحريري " على الجانب الأيسر من نهر الفرات في شـــمالي سوريا تل أثري يسمى " تل باغوز" يرجع تاريخه إلى الألف السادس قبل الميلاد ، ويقول الخبراء إنه " من المرجح أنه يمثل بقايا إحدى المستوطنات التي أقـــامها الأموريون علـــى ضفاف الفـــرات الشـــرقية بعد نزوحهم من شبه جزيرة العـــرب ، ويبـــدو أن هـــذه المستوطنات السامية كانت تمارس الزراعة التي تعتمد على الري مستمدة مياه الإرواء من الضفـــة اليسرى لنهر الخابور "[2] هذا بالإضافة إلى كل ما قد مر معنا من قبل ، وهـــذا دليل آخر ، بصرف النظر عن استخدام كلمة "سامية " بدلا من "عربية" أو " ســـورية " إذ أنها موجودة قبل أن يوجد سام نفسه بثلاثة آلاف عام على الأقل .

وفي لغش ، وفي حوالي 2150 ق.م قام الحاكم الطيب "جودي" بتثبيت معالم القيم الـتي يدافع عنها الشـــعب في وجه خصومه الداخليين والخارجيين ، ولم يســـمح بســـقوط

---

(1) A.T.Clay ,"Amuru: The Home of Northern Semites ; The Empire of Amorites "1919 .

(2) **الدكتور أحمد سوسة ،"مفصل العرب واليهود في التاريخ" ص154 .**

المكتسبات الجديدة في أيدي الأمراء الاقطاعيين والدينيين الذين اندفعوا لاقتلاع الجديد من جذوره وإعادة الأمور إلى الوراء ، إلى ما كانت عليه إبان تسلطهم قبل سرجون . لقد حافظ على التراث القومي التحرري الاقتصادي والاجتماعي والحقوقي ، الذي تمثل في محطاته الرائعة في شرعة لبت عشتار ، وأوركاجينا ، وسرجون ، واعتبر ذلك إنجازات قومية وإنسانية عظيمة ينبغي التمسك بها والدفاع عنها مع جماهير الشعب ، مما جعل تلك الجماهير ترى فيه أحد دعائم مقاومتها ، ورمزا من رموز وجودها وتقدمها ، فتجمعت من حوله ، ورفعت من شأنه ، وأبرزته في كل إنتاجها الأدبي والفني ، وصار أحد السادة المقدسين ، أو الآباء المقدسين ، الذين فهمهم المؤرخون الغربيون على أنهم آلهة . يقول ول ديورانت : لقد ازدهرت مدينة لغش .. في عهد ملك آخر مستنير يدعى "جوديا " تعد تماثيله القصيرة المكتنزة أشهر ما بقي من آثار فن النحت السومري . وفي متحف اللوفر تمثال له من حجر الديوريت يمثله في موقف من مواقف التقوى ، ورأس ملفوف بعصابة ثقيلة كالتي نشاهدها في التماثيل المقامة في مسرح الكلوسيوم ، ويداه مطويتان في حجره ، وكتفاه وقدماه عارية .. وتدل ملامحه القوية المتناسقة على أنه رجل مفكر ، عادل حازم ،دمث الأخلاق ، وكان رعاياه يجلونه ، لا لأنه جندي محارب ، بل لأنه فيلسوف مفكر أشبه ما يكون بالإمبراطور ماركس اوريلوس الروماني ، يختص بعنايته الشؤون الدينية والأدبية والأعمال النافعة الإنشائية ، شاد المعابد ، وشجع دراسة الآثار القديمة بالروح التي تدرسها بها البعثات التي كشفت عن تمثاله ، ويحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء ، ويفصح نقش من نقوشه التي عثر عليها عن سياسته التي من أجلها عبده رعاياه واتخذوه ربا لهم بعد موته :" في خلال سبع سنين كانت الخادمة ندا لمخدومتها ، وكان العبد يمشي بجوار سيده واستراح الضعيف في بلدي بجوار القوي"[1]

تلك هي بذور الأفكار التي لم يعد في الإمكان اقتلاعها من أعماق تكوين الإنسان العربي السوري (والعموري إن شئت!) وتلك هي ملامح دولة الوحدة بمضمونها القومي

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " ، الجزء 2 ، ص20 ـ21 .

التحرري والإنساني معا :دراسة للتراث والمحافظة على جوهر كل العناصر الإيجابية فيـــه كما فعل "جوديا" ، وإقامة مجتمع العدل والحريـــة والمساواة ، وتلك هـــي السـمات البارزة التي رسخها سرجون والعرب السوريون عموما (أو العموريون !) قبله وبعـده ، الذين نعتهم توينبي بقوله : " إنهم دخلاء متطفلون شبه همج " ! فهل توصلت حضـارة لندن الاستعمارية بعد أربعة آلاف عام من سرجون العربي السوري الأموري إلى القـول بأن الخادمة في بريطانيا اليوم صارت ندا لمخدومتها ، وأن العامـل الأجير يمشي بجـوار سيده ، وأن الضعيف يستريح بجوار القوي ولا يخشى غائلته ؟ .."

بعد أن قام اوتوهيجال حاكم أوروك في الجنوب على رأس جيش يدعمه أمراء سـومر الاخرون ، وهزم الجوتيين ، تزعمت أوروك باقي سومر ، ثم جاء "أورنامو" من بعـده بعد أن أطاح به ، ووحد مدن سومر وأكاد في مدة وجيزة ثم كرس بقية حكمه (2113 ــ 2096 ق.م) للبناء الداخلي ، وإعادة النظام والرخاء والاهتمـام بـالقيم الدينيـة الحقيقية ، كما حرر البلاد من اللصوص وقطاع الطـرق والخارجين على القانون الذين كانـوا قد وجدوا في الفوضى والصراعات ، التي غرقت فيها البلاد طيلة فترة تسـلط الغوتيين والاقطاعيين المتحالفين مع رجال الهيكل ، فرصة سانحة لأن يسرحوا في ربوعـها كالدبابات الهائمة تقنص في طريقها كل شيء .

لقد أراد "أورنمو" من جهته أيضا أن يثبت ذلك التقليد الذي أصبح قـوميا وذلك بـأن يربط مفهوم الوطن القومي بالوطن المتحرر الذي تسوده العدالة والقانون والنظام . فنظم وثيقـة تشريعيـة هي الأولى من نوعها في التاريخ بعد وثيقة أوركاجينا .لقد عثر عليها في نيبور على لوحـة تالفـة ، ولم يترجم منها إلا حديثا ، وما تبقى من التشريع علـى غاية من الأهمية إذ ألغى القانـون البدوي الذي ينص على العين بالعين والسن بالسـن ، وأجاز التعويض عن الجرم بالفضة .

وإلى جانب ذلك فقد أحيا الزراعـة ، وحفر شبكة من الأقنية وحصن المدن ورمم مـا تهدم . وإن أعظم أعماله بناء الزيقورات في أور وأوروك وأريدو ، ونيبـور ، ومـدن

أخرى ، و لا تزال أقدم الآثار هناك وأكثرها حفاظا زيقورة أور .وقتل أورنمو في إحدى المعارك .



جزء من نصب الملك أورنامو ــ باني المعابد ــ

ثم خلفه ابنه "شولجي" (2095 ــ2048ق.م)الذي حكم 48 عاما ، قضــى شــولجي النصف الأول من حكمه في البناء السلمي ، فأكمل الزيقورات والمعابــد التي أسســها والده ، وأقام أبنية جديدة ، ورفع تماثيل للآباء المقدسين في مزاراتهم . وأصلح التقــويم ووحد المكاييل على أساس الجور الملكي للحبوب بدل المكاييل المحلية ، وأعــاد تنظيــم البــلاد سياسيا واقتصاديا وإداريا . وفي العام الرابع والعشرين من حكمه أخــذ يقــوم بحملات عسكرية سنوية ضد أعداء البلاد مشيا على التقليد الذي استنه سرجون ثم نارام سين ، ومثل نارام سين سمى نفسه " ملك الجهات الأربع " . ثم جرى تعظيمه وتقديسه

كواحد من أعظم الآباء في حياته وبعد موته باسم "شولجي المقدس" وأطلق اسمه على أحد الشهور .



قفا لوحة الملك أمارسين

وهكذا ، وبسرعة نموذجية ، بالنسبة لذلك الزمن ، تمكنت فصائل الاتجـاه الجديـد ، أنصار الدولة المركزية المتحررة الواحدة ، من أن يطردوا الغزاة ويحـرروا الأرض مـن المحتلين وعملائهم المتسلطين ، ويعيدوا الوحدة بمضونها السياسي الاجتماعي التحرري إلى أرجاء الوطن كله . أما بقية الأرض السورية الممتدة إلى شواطئ المتوسط غربا وشـواطئ البحر الأحمر وبحر العرب جنوبا فلم يحدث فيها ما يخل بتلك الوحدة إطلاقا ، بل أخذت تضفر جهودها تضمها إلى جهود الأموريين والسريان في مرتفعات شمال الدجلة من أجل تثبيت الأوضاع في مناطقها وإرسال الدعم إلى مناطق سومر وأكاد من أجل أن تتمكـن في أقصى سرعة من أن تقف على أقدامها وتنتصر لنظام الدولة الجديد .

لقد أدرك شـولجي هذه الأوضاع جيدا ، فانصرف إلى تثبيت دعائم الدولة في منطقـة سومر وعيلام حيث تتجلى أعظم المخاطر في الاتصال الجغرافي ما بين رموز النظام القديم والأعداء المتربصين في معاقلهم في الجبال . لقد أثبت شولجي بالفعل أنه استمرار حقيقـي لأولئك القادة العظام الحضاريين من آبائه . فقد كان قائدا عسكريا ، ورجل دولـة ، وراعيا للعلـم والأدب ، وفي عهده ازدهرت سومر ، وصارت أور عاصمة بحق للدولـة العربية السورية الجديدة ، دولة أمور المحررة .

ثم خلفه ابنه "أمارسين" (2047 ـ 2039 ق.م) وحكم لمدة تسعة أعوام قضاهـا في البناء والدفـاع عن الوطن ، مما صار سـنة لا يمكن تجاوزهـا من قبل أي حـاكم إلا بالاستسلام لتدمير البلاد وخرابها أمام زحف الأعداء .

لقد تمكن كل من شـولجي وابنه أمارسين من أن يحافظ على حدود الدولة ويزيد مـن منجزات البناء في الداخل ، مما جعل استمرار دولة سرجون القومية الواحدة وبمضمونهـا التحرري سـياسيا واجتماعيا واقتصاديا أمرا واقعا وحقيقيا ، بخلاف ما دأب المؤرخون الاسـتعماريون على تأكيده والقول بأن سرجون لم يكن غير رجل حرب ، وأن دولتـه انتهت بنهايته . لقد صار كل من يحاول أن يستقل بمدينة أو بمنطقة منذ عهد سـرجون خارجا على قانـون التطور الطبيعي للمنطقة ، وعلى حق السـكان الذين وعوا جيـدا وأدركوا أن لا حياة ولا مستقبل لكل منجزاتهم الحضارية وتاريخهم الحضاري العريق إلا

ضمن إطار الدولة القومية التي تضمن لهم الحماية والأمن ، كما تضمن كل فرص النمــو والإبداع وممارســة الشعب لعبقريته في الخلق والإنتاج والعطاء.

ولقد لجأ كل من شــولجي وابنه أمارسين إلى انتهاج خطة جديدة في إدارة المقاطعــات الكثيرة في المناطق المترامية والنائية ، بأن نصبوا حكاما محليين يتبعون للملك مباشرة .وفي منطقة سومر وأكاد كان الحكام ينتقون من السومريين والأكاديين دون تمييز ، مما يؤكـد وحدة الأصل السكاني رغــم كل مساعي بعض المؤرخين المغرضة . أما الأقاليم النائيـة والمتطرفة والتي تمتد من أقصى عيلام في الشرق إلى الأقاليم الغربية على شاطئ المتوسط ، فقد عين الحكام فيها من ســكان الأقاليم ذاتها . إن تلك السياسة الفيدرالية قد تكــون سياسة حضارية متطورة بالنسبة لذلك الــزمن . لكنها ، وفي ظروف وجود الأعــداء الدائمين على الحدود الشرقية والشمالية الذين لا يمكن حسم الأمور معهم والذين يمثلون خطرا يتهدد الدولة في كل وقت ، فإن هذا الظرف بالذات كان يجعل مثل تلك السياسة الحضاريــة المتطورة ذات حدين ، لأنها تتيح لذوي النفوس الضعيفة من حكام الأقــاليم المتطرفــة والملاصقة لوجود العدو فرص التواطــؤ والتروع إلى الاستقلال بتشجيع مــن الخارج ، وهذا ما كان يحدث على الدوام . لكن ذلك أتاح في الوقت نفسه فرص النمو والازدهار الاقتصادي ، كما ساد الأمن جميع مواصلات الدولة الممتدة من أقصى الشرق في عيلام إلى أقصى الغرب على شواطئ المتوسط ، ومن المضائق إلى شــواطئ البحــر الأحمر وبحر العــرب ، وصار في الإمكان القول مع جميع المؤرخين بأن ذلك الزمن كان زمن تضامن ورخاء وسلام ، وكان القطاع الخاص في الاقتصاد ينمو على حساب قطاع المعابد ، وكان نفوذ العلمانيين يتزايد على حســاب نفوذ الكهنة ، وظهرت طبقة مــن ملاك الأراضي والمواشي والبيوت والقصور ، واختلفت الأسعار حسب النوع والزمــان والمكان ، ويعبر عن القيمة بموازين الفضة أو بمكاييل الحبوب ، أما التعرفــة أو الوحــدة القياسية فكانت شاقل الفضة الذي يعادل 1.60مينا أي حوالي 9 غرامات فضة ويساوي

جورا من الشعير [1] ، والـ"جور" يساوي 225ليترا ، ومساحة سار الأرض نحو 10 أمتار مربعة ، والمرابع يقدم ثلث المحصول للمالك• .

وكان للحكومة أراضيها ومخازنها ، وورشاتها ، وكتابها ، وصناعها ، وجيشها ، وعبيدها و لم يك التاج والمعبد في حالة تناقض لأن الملك هو نفسه رئيس الكهنة وهو الذي يبني المعابد ، ويعين كبار الكهنة ، ويؤم الاحتفالات الدينية ، والمعابد تدفع ضرائب للدولة ، وعند الأزمات تضع ثروتها تحت تصرف الدولة .

وقد بنى شولجي في بزوريش داجان• قرب نيبور أهراء كبرى للحبوب وزرائب للأبقار والأغنام والماعز ، ومستودعات للبيرة وغيرها من المتاع المتجمعة في الامبراطورية كهبات أو كجزية أو كضرائب من الأنزية (الايشاكو) بنظام دوري دقيق يسمى "بعالة" (أي لقاء الحكم والسيادة ، كضريبة الميزة أو الامارة) ، وكان الكتاب المختصون يسجلون الصادر والوارد من الدخول إلى الخزينة .

لقد أصبحت تلك البلاد الشاسعة موحدة إداريا ، وسياسيا ، واقتصاديا ، وعسكريا ، وثقافيا ، ومرة أخرى ، صارت جميع المناطق السورية الممتدة من عيلام إلى المتوسط تدار من أور عاصمة الدولة العتيدة .

لكن تطور تلك الدولة واستمرارها كان مرهنا بمجموعة من العوامل القديمة والجديدة . إنه لمن المعروف أن كل مرحلة من التطور تحمل في ذاتها تناقضاتها الجديدة ، وبالتالي تحدياتها الجديدة ، مما يستدعي توليد ردود فعل جديدة . إن الدولة العربية السورية في عهدها الجديد الموحد حول عاصمتها "أور" لم تكن قادرة على أن تتخطى نمو طبقات جديدة من الأغنياء والمستغلين سواء عن طريق ملكية الأراضي الزراعية الواسعة ، أو العقارات ، أو المصالح التجارية الدولية والداخلية الكبيرة ، كما لم تقدر على الحؤول

---

(1) انظر : الدكتور هشام الصفدي ، تاريخ الشرق القديم ، الجزء 1ص234 .

• كلمة المرابع القديمة ــ كما سبق أن أوضحنا ــ جاءت من تسلم الزراع لربع هذه الأرض التابعة للمعبد أو تلك وليس لأن حصته من المحصول هي الربع فقط كما صار سائدا في القرن العشرين بعد المسيح .

• لاحظ استمرار هاتين الكلمتين في سوريا إلى اليوم . إن كلمة "بزوريش " هي اليوم "بزورية" أي حبوب ، وكلمة "دجن" تعني الخبز والطعام عموما .

دون خلق طبقة واسعة من الفقراء والمستغلين الذين يضطرون ، ليس إلى بيع عملهم فحسب ، بل إلى بيع أطفالهم ونسائهم وأنفسهم للملاكين الاقطاعيين أو للهياكل أيضا. وإن في إمكان أي منا أن يتصور حكاما كأولئك الذين يتولون أمور المناطق المتطرفة كعيلام ، والذين يتمتعون باستقلال ذاتي ، وينظرون إلى جموع الشعب الأمورية الفقيرة والبدوية المتعاظمة كتلتها يوما بعد يوم في المدن والأرياف وعلى التخوم مع أطراف البادية ، إنما يرون في ذلك خطرا مهددا لمصالحهم هم بالدرجة الأولى إذا لم يعتمدوا قوى احتياطية معينة تضمن لهم الحفاظ على مكاسبهم الخاصة . إن ذلك كله من الأمور الطبيعية ، كما أن من الأمور الطبيعية أيضا أن يجد كل مجتمع في مثل هذه الأحوال الحلول التي يعتبرها ناجعة . لكن الأمر غير الطبيعي هو بقاء عوامل قديمة متراكمة تضاف إلى عوامل التناقض والتحديات الجديدة التي تخلفها كل مرحلة ، ونعني بها تلك الأخطار الثابتة المحدقة بسلامة الدولة ككل ، والمتمثلة بوجود القبائل البدائية المتنقلة والمعتصمة في مواقعها بين سلاسل الجبال المنيعة . إن كل الدول والمجتمعات لابد وأن تمرفي فترات متعاقبة من التوتر والاسترخاء ،من القوة والضعف، من التحفز والتواكل . وهي في مسيرتها الطبيعية تتجاوز المرحلة إلى غيرها عادة دونما كوارث قومية حقيقية . أما أن يوجد ذلك العامل الثابت الدائم الذي لا يمكن حسمه ، ولا يمكن تفاديه ، والذي يترصد دائما الاسترخاء ليدمر كل شيء ، فإن ذلك هو ما ابتليت به الدولة العربية السورية منذ بداية عهد نشوئها القومي وحتى اليوم . إن طبيعة التطور الاجتماعي لا تسمح ، ولايمكن أن تسمح ، بظهور القادة الأفذاذ متسلسلين واحدا في إثر آخر ، ولذلك فإن عظمة كل منهم كانت تقاس دائما بمقدار إدراكه لهذا القانون الحتمي الطبيعي ، ولمدى تعامله معه ، بحيث يتمكن في مرحلة حكمه ووجوده من أن يغطي كل فترة "الهوة" التي سوف تليه من أجل أن يمضي مطمئنا إلى أن مجتمعه أو شعبه سوف يعبر تلك "الهوة" دونما أي قلق من أن يتهدده السقوط مرة أخرى ، قبل أن تتاح له فرصة ولادة قائد عظيم آخر .

إن سرجون ، ونارام سين ، وشولجي ، وأمارسين ، لم يكونوا مجتمعين أو منفردين ، غير أولئك القادة التاريخيين الأفذاذ ، الذين صنعوا لأمتهم وللبشرية من بعدهم تاريخا حقيقيا امتد لا ليغطي مراحل حكمهم وحسبب بل وليضمن استمرار خطوط التواصل التاريخية الإيجابية في امتدادها القوي عبر زمنهم إلى المستقبل القادم من بعدهم دون أي خوف من الالتواء أو السقوط . لكن ظروف وطنهم كانت تضع كل تلك الانجازات في كثير من الأحيان الانتقالية على كف الأقدار القادمة مع رياح الغزو الوحشي التي هب على المنطقة دائما من الشمال والشرق . لقد كانت تلك العوامل ، بالتضافر مع حجم المسافات الشاسعة بين الأقاليم ، وانعدام وسائط النقل والاتصال السريع في ذلك الزمن ، من النقاط القاتلة لولا شدة بأس هذا الانسان وشدة ثقته بنفسه ، التي أنقذت وطنه العربي السوري ، ثم العربي الكبير ، في أحلك أوقاته عبر تاريخه وعلى مدى خمسة آلاف عام من تأسيس دولته .

حكم "شوسين " واستشراء الفساد

الصراع بين الوحدة والتجزئة يبلغ مداه

لقد خلف "امارسين" أخوه " شوسين" (رسول رب القمر) وحكم في الفترة 2038 ـ 2030 ق.م وقاد حملة ضد تحالف القبائل في شمال زغروس . ولما مات شوسين خلفه ابن أبي سين 2029ق.م ، الذي كان يفتقر إلى الحس الستراتيجي وإلى مواهب القيادة معا . وسرعان ما بدأت تظهر نقاط ضعفه لخصومه . كما عمد خصومه الداخليون إلى تطويقه بأدوات حكم نفعية بليدة لا تفقه شيئا من أمور إدارة مثل تلك الدولة الحساسة البالغة الدقة في موازين قوتها وضعفها ، سهرها ونومها ، عملها وراحتها ، فأحاطوه بأجواء من الأبهة الزائفة ، وأخذوا يعملون سرا على تفكيك أوصال الدولة ، وتغذية الحركات الاستقلالية ، وبدأت تستشري حركة السباق نحو الاثراء الفردي السريع بشتى السبل ، مما جعل كل الأبواب مفتحة أمام جيوش الفساد الإداري والاجتماعي والخلقي .

وأمام ملل القادة العسكريين ويأسهم من الملك في القيام بالاصلاح الإداري ، ومع تزايد نفوذ الحكام في المقاطعات وزيادة ملاحقتهم للضباط المخلصين الذين بادروا إلى التصدي لعملية التدهور التي أخذت تستسلم لها البلاد بسرعة منقطعة النظير ، فقد أخذ كبار قادة الجيش يسقطون أيضا في دوامة الاثراء ، وراحوا ، مثل غيرهم ، يتنافسون في امتلاك الدور والقصور والأراضي ، متعامين عن كل ما يدور حولهم في السر والعلن ، مما ترك المؤسسة الوحيدة الفعالة القادرة على استلام زمام المبادرة تصاب هي الأخرى بالعجز المطلق وبالشلل . وأخذت صورة الجيش السرجوني تتقزم في نظر الجماهير ، وتتحول إلى مؤسسة عبء على تلك الجماهير ، بدلا من أن تكون ــ كما عرف عنها دائما ــ الأداة الحقيقية الحاسمة في يد قوى التقدم والتطور . وما إن اطمأنت قوى الردة في المجتمع العربي السوري إلى عجز الجيش تماما عن التحرك ، وإلى انغماس شوسين بين زمرة من بطانته في تحقيق مصالح انانية ضيقة لا تمت إلى عظمة شعار الدولة القومية التي بدأها سرجون ، وحافظ عليها نارام سين ، وشولجي ، وأمارسين حتى بادرت إلى إعلان نواياها دونما خوف هذه المرة .

فلم يكد يستقر بأبي سين المقام في الحكم قليلا حتى بدأت نتائج أسلوبه في الإدارة والحكم تظهر على الساحة : لقد أعلنت عدة مدن في الشرق وفي سومر ذاتها استقلالها مثل اشنونا وسوزان (وهي سوسان أو سوسة عاصمة إقليم عيلام) ، وظهرت بوادر التواطؤ مرة أخرى بين حكام المقاطعات الشرقية المتطرفة المعينين من السكان المحليين ، والمتمتعين بالاستقلال الذاتي مع تحالف القبائل في جبال زغروس .

وبلغ الشعور بالخطر اطراف الدولة السورية في الغرب ، والشمال ، مما جعل العرب السوريين يدفعون بحشود بشرية ضخمة ويزجون بها على حدود العاصمة والمدن الشرقية تحفزا لأي طارئ .

لقد صار من السهل على أي إنسان بسيط من عامة الشعب العربي السوري ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب أن يلاحظ أن البلاد أضحت حبلى بأحداث كبرى، وأن الصراع قد بلغ حدا لا يمكن التوقف عنده أو الرجوع عنه : فإما أن يسقط شعار

الدولة المركزية القومية الواحدة ، وتعود البلاد القهقرى إلى حلبة من الشظايا المتصادمة تحركها مصالح وأنانيات فردية ضيقة ، أو أن تعود الجماهير لتؤكد تشبثها بوحدة المصير ، وتمسكها بمستقبلها المتمثل بدولتها القومية المتحررة الواحدة .

لقد كان تعاظم الدفق السكاني من الغرب والشمال إلى مركز تكاثف الخطر في سومر وعيلام يدل دلالة قاطعة على مدى تجذر الدولة السرجونية في نفوس العرب السوريين حتى أقصى الغرب . لقد بذلت مدن الغرب السوري الأمورية : حلب ، وماري ، وجبيل ، وأوغاريت ، ودمشق الأموال والأسلحة بوفرة لا مثيل لها ، وزودت زحوف السكان بأحدث أسلحة ذلك الزمن بعد أن شهد لها التاريخ بتفوقها في استخدامها وطرق المعادن على جميع الشعوب .

ما أن أعلنت عدة مدن في الشرق وفي سومر استقلالها حتى رمى الأموريون الغربيون بثقلهم على حدود المدن الشرقية ، وفي السنة الخامسة من حكم أبي سين اخترقوا التحصينات ، وتغلغلوا في قلب سومر ، وقطعوا الطرق المؤدية إلى أور ، واستعدوا لغزو نيبور وايسين .

وفي أعالي الشمال الفراتي كان الأموريون الغربيون يتحفزون للانقضاض على مدينة ماري لينتزعوها من سلطة حكام أبي سين ، ثم ليتقدموا من هناك على ضفة الفرات إلى مناطق تمركز الصراع حول العاصمة في أور .

وفي الشمال في أعالي الدجلة كان الأموريون والسريان ، الذين عايشوا أحداث الدولة القومية بتعاطف كبير منذ بدايتها في عهد سرجون ، يقلقهم تنافس الخصوم في الداخل وتزاحم الأعداء على الدولة من الخارج فأسرع شمسي حدد ، وبسط سلطانه على المناطق الوسطى من الدجلة والفرات ، ثم دخل ماري وانتزعها من الحاكم التابع للملك أبي سين ، أراد أن يتابع زحفه إلى المناطق الغربية ليضمها في قبضته ثم ينطلق بها إلى سومر وعيلام ويعيد للدولة وحدتها ، لكن ملك حلب أوقفه عند حدود مملكته ، فاضطر إلى الرجوع ثم التربص من جديد بعد أن أوقفه ملك اشنونا في جنوب مملكته وتقدم

ملك حلب وساعد ماري في الخروج من تحت سلطة شمسي حدد من جديد لتتحـــالف معه .

وفـــي الشرق انقض الأموريون واستلموا زمام الأمور في ايسين ولارسا فقـــد أعلـــن "ايشبي ارا " نفسه ملكا في ايسين ، كما أعلن الشيخ الأموري "نبلان " نفسه ملكا على لارســا ، ثم غزا العيلاميون سومر في فتـــرة ضعفها ، وحاول أبي سين أن يحارب حتى النهاية من أجل الحفاظ على حكمه محاولا أن يوحد الصفوف مع الأموريين المتقدمـــين من الغرب ، لكن خططه باءت بالفشل ، وكان قد خسر ثقة جميع الأطراف بجدارتــه ، وفي عام 2006ق.م حطم العيلاميون أسوار أور التي بناها أورنامو "عالية كجبل مشع " واحتلـــوا المدينـــة ، ونهبوها وأحرقوها بالاشتراك مع قوات القبائل المرتزقة المقاتلــة في صفوفهم وانسحبوا تاركين خلفهم حامية صغيرة ، وسيق أبي سين أسيرا إلى عيلام حيث مات هناك قهرا ـــ كما يقال ـــ حينما فوجئ بأن أحدا لم يحاول القتـــال إلى جانبـــه والدفاع عنه حتى أقرب المقربين إليه ، فقد سارعوا إلى الفرار من ساحة الصراع ضمانـــا لبقائهم وبقاء الثروات التي نهبوها وكدسوها مغتنمين وجودهم في قمة السلطة حـول أبي سين .

في هذه الأثناء تحرك الأموريون الغربيون من مدينة ماري وأعالي الخـــابور ، وانحـــدرت زحوفهم على مجرى الفرات إلى الجنوب حتى استقرت في منطقة بابل وسرعان ما أعلـــن سومو أبوم الأموري نفسه ملكا على بابل ، قاطعا بذلك الطريق على تقدم شمسي حـدد جنوبا من أجل تسلم السلطة المركزية كلها .

وهكذا بدأ الصراع على السلطة في الدولة العربية السورية ، وظهرت مراكـــز القـــوى جميعا في أوضح صورة ، وكانت أبرزها قوتان : الأموريون المتقدمون من سوريا الغربية، والأموريون والسريان الزاحفون من الشمال . أمـــا العيلاميون فكان الطرفان يعتبرهـــا قوة انفصالية لا هم لها غير الاحتفاظ بنفوذ حكام المدن فيها وإطلاق العنان لابتزازهم .

ولقد تمكن سومو أبوم من أن يبقى حاكما في بابل مدة 13 سنة ، جاعلا منها عاصمـــة له ، فكان بذلك أول ملوك السلالة الأمورية التي حكمت الدولة من بابل . وكانت بابل

حينذاك بلدة صغيرة لم تشتهر بعد ، وكان يقطنها بعض العموريين الغربيين وبقايا الأكاديين الذين فروا من العاصمة " أجادة " بعد تدميرها بالزلازل واجتياحها من قبل الغوتيين ، وكانت على مقربة منها .

ولقد حاول ايلوشوما* (لاحظ وحدة الأسماء) الزحف جنوبا فاصطدم مع سومو أبوم** في معركةغير فاصلة ، لكن هذا الأخير تمكن في إثرها من أن يضم إلى منطقة نفوذه كلا من مدينتي سيبار وكيش .

وهكذا تمركزت قوتان مؤهلتان لتوحيد جميع المناطق وتسلم قيادة الدولة هما القوتان المتمركزتان في بابل وآشور ، وقد انقسمت باقي المناطق في تأييدها ما بين هاتين المدينتين .

لقد تميز العرب السوريون الأموريون منذ القدم بحسهم الستراتيجي المتفوق . فهم حينما تقدموا إلى بابل وسبقوا كل القوى المتنافسة الأخرى ، كانوا بذلك قد حسموا نصف المعركة لصالحهم وذلك نظرا لموقع بابل الستراتيجي في منتصف الدولة وعند نقطة اقتراب نهري الدجلة والفرات من بعضهما بحيث يسهل قطع خطوط المواصلات ما بين أور وباقي المناطق . وقد تمكنوا من الدفاع عن وجودهم في بابل ببراعة فائقة لفترة طويلة درسوا خلالها كل أمور المنطقة وتناقضاتها عن كثب ، وجعلهم ذلك يتخذون قرارات سريعة صحيحة وحاسمة إزاء كل مسألة تبرز لهم . وقد بلغ عدد ملوك هذه السلالة أحد عشر ملكا ، حكموا جميعا زهاء ثلاثة قرون ، اشتهر من بينهم جميعا بسمعته العالمية المدوية الملك السادس الملقب بـ"حمورابي" والذي حكم لمدة 42 سنة .

* ايلوشوما يعني إيل السماء ، رب السماء أو الرب السامي ، العلي .
** سومو أبوم ومعناه العلي الأب .

الفصل الثامن

حمورابي المشرع والقائد العربي السوري العظيم

يقول ول ديورانت : " تطل علينا شخصية قوية هي شخصية حمورابي (2123 ـــ 2081 ق.م)* الفاتح المشترع الذي دام حكمه ثلاثا وأربعين سنة . وتصوره الأختام والنقـــوش البدائية بعض التصوير ، فنستطيع في ضوئها أن نتخيله شـــابا يفيض حماسة وعبقريـــة ، عاصفة هوجاء في الحرب ، يقلم أظافر الفتن ، ويقطع أوصال الأعداء ، ويسير في شعاب الجبال الوعرة ، ولا يخسر في حياته واقعة ، وحد الدويلات المتحاربة المنتشرة في الـــوادي الأدنى ، ونشر لواء الســـلام على ربوعها ، وأقام فيها منار الأمن والنظام بفضل ســـفر قوانينه التاريخي العظيم " [1] .

في غمرة الصراع الفاصل بين حياة الدولة العربية الســـورية المركزية ، أو انحطاطـــها إلى الهياكل المقزمة في الدويلات ـــ المدن الاقطاعية الدينية المتخلفة ، دفعت حركة التطـــور التاريخية بقمة من قمم لحظات التحول النوعي ، عبر تراكم كمي اســـتمر قرونا ، فكان القائد العربي الســـوري العملاق ـــ حمورابي** ، القائد الذي تمثل جيدا طبيعة الصـــراع وأبعاده ، وزودته الطبيعية بحس ســـتراتيجي متفوق ، وبمقدرة فائقة على السيطرة علـــى الأحداث وإدارالها ،علاوة على ما كان يتمتع به من صفات فردية وخلقية نادرة ، فكان

*** من الملاحظ أن ول ديورانت أعطى تاريخا لفترة حكم حمورابي تختلف عن غيره من المؤرخين. فقد اجمع كثير منهم على اعتبار فترة حكمه ما بين 1792 ـ 1750 ق.م أما الأستاذ أسد الأشقر فقد قدم تاريخا آخر في كتابه " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا " واعتبرها ما بين 1728 ـ 1685ق.م (الجزء الأول ، القسم الأول ، ص143) ، وقد مال معظم الباحثين اليوم إلى اعتماد 2123 ـ 2081ق.م كفترة أقرب إلى الدقة .**

(1) ول ديورانت ، "قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص189 ـ 190 .

**** حمورابـــي ، أو أمورابي ، يعني أمورو هو الإله الآب . وهذا الإله (أحـــد الآبـــاء العـــرب الأقدمين) كان يلفظ باللهجة الشرقية " آبا" وبالغربية " آبو" وبالعربية العرباء" آب " وقـــد ظـــل اسمه على أحد الأشهر (آب) في التقويم السوري القديم . وكان هو الرب المفضل لدى نـــارام سين حفيد سرجون (انظر حول هذا الإله : الدكتور هشام الصفدي : تاريخ الشـــرق القديـــم ، الجزء 1 ، ص 199) .**

بروزه على ساحة الأحداث انتصارا لا ريب فيه لقوى الثورة المتجددة الناهضة في بنـــاء الدولة القومية المركزية الواحدة .



حمورابـــــــي

إننا حينما نقول إن حمورابي جاء تتويجا للحظة تحول نوعي في حياة تطور الأمة والمجتمع أو تعبيرا عنها فإننا نقصد ما نقول ونعيه جيدا ، إذ إن حمورابي لم يأت رقما في سلسلة ملوك تلك السلالة الأمورية الأولى التي حكمت من بابل ، رغم أنها كانت تضم عظماء لا جدال في حقيقة ذلك ، و لم يأت محاربا ليخوض مجموعة معارك وينتصر ، و لم يأت مشرعا ليضع مجموعة من النظم والقوانين يدير بموجبها شؤون دولته ، و لم يأت مصلحا اجتماعيا ، أو رجل دولة فحسب ، لقد جاء حمورابي ليمثل ذلك كله . لقد جاء تعبيرا حيا عن مسألة الصراع التاريخية التي ظل شعبه يخوض غمارها ببسالة منقطعة النظير أكثر من خمسمائة عام دون أن يترك رايتها تسقط ، أو يكف عن الصراع ضد الخصوم من أجل تحقيق انتصارها الحاسم . لقد جاء تعبيرا عن التوق التاريخي لدى شعبه إلى تحقيق دولته المركزية القومية بمضمونها التحرري على الصعيدين الاجتماعي ــ الاقتصادي في الداخل ، والسياسي والعسكري من الخارج . لقد جاء تعبيرا عن الرسالة التي برعمت في أعماق الزمن السحيق في ضمير شعبه الحضاري ، وأعطت أولى تباشيرها مع عهد سرجون ، واستمرت تدور في خلايا مواطنيه مع الدم وتقارع الخصوم زهاء خمسة قرون ونيف إلى أن أطل حمورابي شكلا جديدا ومتطورا من أشكال وجود تلك الأفكار ، ليجسدها مرة أخرى على أرض الواقع، فتنغرس في الذاكرة ، وتتابع الأجيال، فيما بعد، حمل رايتها والدفاع عنها ، في سلسلة من عمليات النهوض والنكسات حتى عصرنا الحاضر .

لقد شن حمورابي منذ بداية حكمه حربا على مدن سومر وعيلام ، فضمها إلى مملكته وأسرع إلى إخضاع الدويلات المهمة الأخرى في أعلى النهرين ، ثم صعد إلى ماري فدخلها وألحقها بمملكته ، وتقدم شمالا على الفرات ، ثم إلى توتال ومرسين وتابع عملية ضم المدن ، ثم نزل إلى مملكة حلب القوية التي كانت تبسط سلطانها على المنطقة الشمالية الغربية من سوريا ، و لم يذكر أحد من المؤرخين أن حمورابي دخل أيا من حلب أو المدن السورية الغربية الأخرى فاتحا ، بل يكادون يجمعون على أن حمورابي ترك لدول المنطقة الغربية كامل حريتها واستقلالها النسبي مما يؤكد حسن العلاقات والتعاون معه

من أجل تنفيذ مخططه في إقامة الدولة القومية الواحدة منذ البداية ، كما دل على ذلك تقديم تلك المدن جميع وسائل الدعم بالأموال والسلاح لحشود الأموريين الغربيين التي زحفت شرقا من حلب وماري إلى بابل لتسلم زمام سلطة الدولة ودعمت السلالة التي حكمت هناك والتي خرج من بينها حمورابي .

وتأكيدا لذلك يقول المؤرخ ج. كونتنو " في رسالة من حلب يطلع حمورابي ملك ماري على رغبة ملك أوغاريت بزيارة مدينته " [1]



رسالة كتبها حمورابي

([1]) جورج كونتنو ، " الحضارة الفينيقية " ص55 .

حمورابي المصلح ورجل الدولة

لم يكد حمورابي يفرغ من توحيد كافة أجزاء وطنه ، وطرد الغزاة بعيدا خلف حدود بلاده ، حتى عكف على تثبيت أركان دولته من الداخل مستفيدا من كل التجارب السابقة التي مر بها أسلافه مؤسسو الدولة القومية الواحدة .

1 ـ فعلى الصعيد الديني ، تنبه حمورابي إلى الخطأ الذي وقع فيه سلفه سرجون حينما نقل العاصمة إلى " أجادة " وأبقى على السلطة الدينية المتحالفة مع الإقطاع الانفصالي الرجعي بكامل نفوذها واستطالاتها في نيبور . وليس هذا فحسب ، بل عزز لها مواقعها في الوقت الذي كانت قد عملت فيه على ترسيخ مفاهيم دينية غيبية لا تصلح لشيء إلا لتكريس استغلالها للجماهير وتسلطها عليها محدثة من الدين ومؤسساته التي استحدثت من قلب العمل التعاوني الجماعي المفعم بروح الوفاق والمحبة ، مؤسسات فئوية طبقية استغلالية جديدة ، تتحالف مع أعداء الشعب في الداخل والخارج على السواء من أجل ضمان مصالحها الأنانية الضيقة . وانتبه أيضا إلى أن هذا بالذات هو الذي كلف نارام سين تلك الجهود الحربية الكبيرة ، وجعله يقرر تدمير نيبور بما فيها الايقور (معبد إنليل) بعد أن حوله رجال الدين إلى بؤرة للتآمر والفساد وعرقلة التقدم .

ثم بعد أن اجتاح الغزاة الغوتيون " أجادة " عاصمة الدولة الفتية وجد أقطاب الرجعية الدينية في ذلك متنفسا لهم من أجل إرجاع سطوتهم وهيبتهم مع هيبة إنليل الذي استطاعوا أن يحولوه من فلاح وسيد ومعلم لفنون الزراعة وجمع الغلال وتوزيعها على الناس حسب الحاجة ، إلى قوة غيبية لا تهتم إلا بمصالح الهيكل ورجاله وتأمين الإذعان التام لمشيئته ، ولا تتردد في أن تنزل أشد العقاب بالشعب كله إذا ما أساء إلى رجال الهيكل أو تصدى لنزواتهم الأنانية الجشعة . وهذا ما حدث بعد تدمير أجادة . لقد تكرس إعلام رجال الدين كله من أجل أن تنغرس في أذهان الناس فكرة انتقام إنليل من شعبه مستعينا بالغزاة من الخارج .

لقد بقيت محاولة سرجون فصل الدين عن الدولة من خلال نقل العاصمة من نيبور المدينة المقدسة إلى " أجادة" ناقصة ، علاوة على أن ذلك ، مع إبقائه على هيمنة رجال الدين ،

لم يفعل في الواقع أكثر من إفلات رجال الهيكل من تحت رقابته المباشرة . ولقد أخذ دورهم ودور إنليل بصورته المستحدثة الجديدة يتعاظم بالتوازي مع دور الملك ثم يطغى عليه . ولكون إنليل رب القوة ومنفذ قرارات مجمع الآلهة كان له صلاحية منح سلطته لأي حاكم زمني في أية مدينة يشاء من مدن سومر . وفي الأزمنة المتأخرة صار يعطي قوته لمدن بابل وآشور مما يزيد من نزعة ملوك تلك المدن المتمردة على السلطة المركزية . وبالرغم من أن جيوش الملك كان يمكنها أن تخضع البلاد بالقوة فقد كان على كل ملك أن يستجدي إنليل في نيبور ليمنحه القوة الإلهية كي يحكم ، وهذا يعني استجداء رضى رجال إنليل في الهيكل ولضرورة الحصول على تأييد مجمع نيبور فقد أصبحت المدينة مقدسة ، وإرادة رجال الدين مقدسة ، وهيبتهم التي يستجدي رضاها الملوك صارت طاغية ومهيمنة لا يجرؤ أحد من العامة على أن ينبس حولها بشر ، أو يفكر في الخروج على طاعتها .

ومن أجل أن يسقط حمورابي هيبة ونفوذ رجال الدين كان لابد من إسقاط هيبة إنليل بشكله الغيبي المزوّر الجديد الذي جعلوا منه مظلة لحماية أطماعهم ونزواتهم، فألغى نيبور كمركز ديني مقدس للدولة ، وألغى معها وجود إنليل كله ، وجعل من مردوك الفلاح سيداً جديداً لجميع الأرباب، معيداً بذلك صورة الرب إنليل عند بداية عمله بالأرض مع الفلاحين ، وجعل مقره بابل العاصمة نفسها ، وليس أي مكان آخر ديني أو غير ديني . ووحد كل الشرائع في شريعة دينية واحدة لجميع المناطق ولكل المواطنين ، مغلقاً بذلك الأبواب أمام أية حركات استغلالية انفصالية أخرى من خلال رجال الدين ، وأسقط عن نيبور ذلك الوشاح المقدس الذي بذل رجال الهيكل جهوداً كبيرة في حياكته . وأصبحت بابل قبلة الناس جميعاً بمضمونها التقدمي الجديد دونما منازع ، وصار مردوك* الرب الكبير لكل السوريين .

* " مردوك " تعني : الرب أو السيد الحامي ، الرقيب ، الزعيم إذ"مر" تعني السيد كما سبق أن أوضحنا . أما "دوق" فهو أحد الآباء الأموريين القدامى الذين تسمت باسمه كل من جبل "دكا" جنوب الطائف ، ووادي ذقية المنحدر من جبل كلب النعد ودكا إلى الشرق ، ووادي دوقا منه إلى الشمال غرب شبه جزيرة العرب . في منطقة العاليق العموريين ووادي ضيقاً في منطقة الطائف . كما أن اللاذقية هي " إيلا (أو ألا) ذقيا " أي الربة الحامية (ذق) = دوق ، ومؤنثه

ولما كان بعض أسلافه ، خاصة شولجي وأورنامو ، قد أعطوا المدن والأقاليم المتطرفة نوعا من الاستقلال الذاتي مما عزز الشعور لديها بالانفصال الدائم ، وبتطوير أحوالها وعباداتها في اتجاهات مختلفة تزيد من الاختلافات والفوارق مع الزمن لتصبح قضايا وحواجز حقيقية مستعصية ، فقد تنبه حمورابي إلى خطورة مثل هذه السياسة في بلد يواجه من الأخطار المحدقة الدائمة ما يتطلب وضع جميع الأقاليم في قبضة الحاكم بالسرعة واللحظة التي يشاء . فكان لابد من صيغة أخرى أكثر تقدما وملاءمة . إنها صيغة تكفل العدالة والوحدة معا ، وهذا بالضبط هو مضمون الرسالة القومية لدولة الوحدة التي أرادها سرجون منذ البداية . وتجسيدا لهذه الفكرة فقد ضرب حمورابي نفوذ رجال الدين في كل المناطق وجعل مردوك الرب الأوحد . ولم يعد يسمح لحكام المقاطعات بإقامة المعابد لأرباب آخرين إلا إذا كانوا صيغة من صيغ مردوك . ثم إن مردوك يسلم سلطانه المطلق إلى الملك بدون وساطة أحد . فشريعة الملك ، إذن ، هي التعبير عن الشريعة الشاملة ، الكونية . والسلطة الملكية هي إلهية وخيرة في آن واحد ، لأن مردوك رب بابل نفسه كان في الأصل ربا زراعيا يعمل في الأرض ويعلم الإنسان أصول الزراعة وتقديس الفأس مثله مثل إنليل في بدايته .

وهكذا يكون حمورابي قد قطع الطريق على حكام الأقاليم بسلوك أية نزعة انفصالية دينية أو غير دينية ، لقد جعل كل شيء مركزيا .

2 ـ وبعد أن يئس حمورابي ـ على ما يبدو ـ من إمكانية تربية مناقبية حقيقية فعالة متحركة غير جامدة من خلال الدين ورجال الهيكل ، فقد عمد إلى وضع تشريع اجتماعي حقوقي منظم ، فبعث بذلك الحياة في تراث العدالة الذي يشكل جوهر المضمون القومي للدولة القومية الواحدة من الداخل .

يقول المؤرخ جاك بيران في هذا الصدد : " .. في هذا الوقت بالذات وضعت مسألة

دقيا. وفي ذلك دليل على وحدة شعب سوريا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. و"دوق" تعني: الإمام، المقدام ، الباسل، الحارس ، الحامي ، الرقيب ، الأمير ، وقد ذهبت الكلمة غربا حتى وصلت إلى الجزر البريطانية مع التوسع البحري السوري ، حيث مازال لقب "دوق " مستخدما إلى يومنا هذا .

الخير والشر على بساط البحث عند اللاهوتيين ، ولكن محاولة إقامة مناقبية على أسس العاطفة الدينية بقيت بدون صدى ، واستمرت العبادة وسيلة لمرضاة الأرباب ، ولمعرفة النواميس والقوانين التي تسير العالم .إن الشعور الصوفي المرتكز في مصر على المفاهيم الدينية ، يقابله في بابل ميل فطري إلى العلم والواقعية . فالسومريون والبابليون ، من بعدهم ، يفهمون الكون نتيجة لتطور المادة ، وليس الألوهية ، في الحقيقة ، سوى القوة المشرفة على هذا التطور ، أما الأرباب فهم ، مثل البشر ، يخضعون لنواميس الكون "[1]
وهكذا يكرس حمورابي نفسه معلناً لحقوق الإنسان وحامياً لها في صورة إنسانية باهرة مازال لها مفعول السحر في رجال الحقوق في العالم حتى اليوم .
لقد ملأت فكرة العدالة وجدان حمورابي كما ملأت نفوس أسلافه أمثال لبت عشتار ، وأوركاجينا ، وسرجون ، ونارام سين ، وشولجي ، وجوديا وأورنامو وغيرهم . فهو لم تكد تمضي سنتان على عهده في الحكم حتى كان " قد نضج في وجدانه وعقله مشروعه التشريعي الكبير. فجمع قوانين بلاده وأعرافها، وأكملها، ومثل رب شمس، رب العدالة، (الذي هو مردوك نفسه) ، ليتسلمها منه شريعة كاملة يحكم بموجب نصوصها . فكان عمله الأول أن أعلن على الشعب تلك الشريعة المقدسة عهداً جديداً ، وكان أن حفر موادها على مسلات في الساحات العامة ليقرأها الشعب ، ويعرف واجباته وحقوقه" [2]
وقد كشف قانون حمورابي في أنقاض مدينة السوس• في عام 1902، ووجد هذا القانون منقوشاً نقشاً جميلاً على اسطوانة من حجر الديوريت ، وهي اليوم في متحف اللوفر . ويرى الملك حمورابي على أحد أوجه الأسطوانة يتلقى القوانين من شمش نفسه ، وتقول مقدمة القوانين :
" ولما أن عهد آنو الأعلى ملك الأنوناكي ، وبل رب السماء والأرض الذي يقرر مصير العالم ، لما آنو عهد حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك .. ولما أن نطق باسم بابل

(1) جاك بيران ، " الخطوط الكبيرة في التاريخ العالمي " الجزء الأول ، ص 32 ــ 33 .
(2) أسد الأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 ، القسم 1 ص 137 .
• في هذا تأكيد آخر على أن أقليم عيلام كان جزءاً لا ينفصل من الدولة العربية السورية منذ أن بدأت حركة التوحيد .

الأعلى ، وأذاعا شهرتها في جميع أنحاء العالم ، وأقاما في وسطه مملكة خالدة أبد الدهر ، قواعدها ثابتة ثبوت السماء والأرض ــ في ذلك الوقت ناداني آنو وبل ، أنا حمورابي الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكي أنشر العدالة في العالم، وأقضي على الأشرار والآثمين ، وأمنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء .. وأنشر النور في الأرض ، وأرعى مصالح الخلق ، أنا حمورابي ، أنا الذي اختاره بل حاكما ، والذي جاء بالخير والخصب ، والذي أتم كل شيء في نيبور ودور ايلو ، والذي وهب الحياة لمدينة أوروك ، والذي أمد سكانها بالماء الغزير .. والذي جمل مدينة بارسا* .. والذي خزن الحب لاوراش العظيم .. والذي أعان شعبه في وقت المحنة ، وأمن الناس على أملاكهم في بابل ، حاكم الشعب ، الخادم الذي تسر أعماله انونيت "

يقول ول ديورانت : " إن للألفاظ التي أثبتناها هنا في هذه العبارات بالذات نغمة حديثة .. وإن هذه القوانين البالغ عددها 285 قانونا ، والتي رتبت ترتيبا يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث ، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأملاك المنقولة ، وبالأملاك العقارية ، وبالتجارة ، والصناعة ، وبالأسرة ، وبالأضرار الجسيمة ، وبالعمل ، نقول إن هذه القوانين تكون في مجموعها شريعة أكثر رقيا وأكثر تمدنا من شريعة آشور التي وضعت بعد أكثر من ألف عام من ذلك الوقت ، وهي من وجوه عدة لا تقل رقيا عن شريعة أية دولة أوروبية حديثة ، وقل أن يجد الإنسان في تاريخ الشرائع كله ألفاظا أرق وأجمل من الألفاظ التي يختتم بها البابلي العظيم شريعته "[1] .

أما العبارات التي يختتم بها حمورابي شريعته فهي :

" إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي ، والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة .. أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكاد .. وبحكمتي قيدهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة .. فليأت أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك

* اكتشفت مؤخرا على الضفة اليسرى لنهر الفرات في القطر العربي السوري .

(1) ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء 2 ، ص 190 ــ 191 .

العدالة ، ليقرأ النقش الذي على أثري ، وليلق باله إلى كلماتي الخطيرة ! ولعل أثري هذا يكون هاديـــا له في قضيته ، ولعله يفهم منه حالتـــه ! ولعله يريح قلبه(فينادي) : "حقا إن حمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه .. لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة .

ولعل الملك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل يرعى ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثري !"

فعلى صعيد القضاء ألغى حمورابي جميع المحاكم الدينية في المدن، وجرد السلطات الدينية، بالتالي ، من آخر نفوذ لها ، وأقام محاكم ملكية يقـــوم بالوظيفة فيها موظفون رسميـــون يصدرون أحكامهم باسم الملك وليس باسم الآلـــهة ، مما جعل الملك قادرا على التدخل والإشراف من أجل تنفيذ شريعته وقوانينه بالصورة العادلة التي اختارها لشعبه . والقضاة الذين كانوا فيما مضى يستبدون بسلطاقم وأحكامهم دون خـــوف من رقيـــب ، إذ إن الآلهة التي يحكمون باسمها لم تكن لتتدخل صاروا الآن تحت رقابة الملك الشخصية الذي هو بمثابة القاضي الأعلى القادر على أن يأمر بتحويل جميع القضايا والمظالم إليه شـــخصيا لينظر فيها ، ويعيد الحق إلى نصابه ويعاقب كل من أساء استخدام ســـلطته ، وقد جعل من حق المتقاضين أن يطلبوا رفـــع قضيتهم إلى الملك مباشرة إذا ما شـــعروا بعدم توفر الشروط الملائمة لإنصافهم .

لقد أدى ذلك كله إلى نتائج ثورية أساسية في المجتمع العربي السوري آنذاك :

1ـــ إن هذا قوى من شعور المواطنين بوحدقم جميعا ، إذ يشملهم قانون واحد ، ونظام مركزي واحد ، وسلطة واحدة هي سلطة الملك .

2 ـــ لقد عزز السهر على العدل والإنصاف من شـــعور المواطنين بمواطنيتهم ومن عمق انتسابهم للنظام الجديد ، وللدولة المركزيـــة الواحدة .

وشعورا من حمورابي بأهمية هذا الجانب فقـــد زاد من تعزيز شـــعور المواطن بحريتـــه ، وبأمنه ، وطمأنينته على حياته وحقوقه ، وعلى ممتلكاته . فقد صار محافظ المدينة المعـــين من قبل الملك مباشرة هو الذي يسهر بنفسه على تطبيق شـــريعة حمورابي وعلى الأمـــن

والنظام وحقوق المواطنين . وإذا ما أفلت المجرمون من أيدي العدالة يحق للمواطنين المتضررين رفع قضاياهم على السلطات المسؤولة وتحصيل حقوقهم منها مباشرة .

وحول هذه النقطة يقول جاك بيران : "لقد اتسعت في عهده (حمورابي) فكرة المسؤولية حتى شملت مبدأ حق التعويض عن كل عطل وضرر . فهي تلزم السلطات العامة نفسها بالتعويض عن أي عمل جنائي لم تقدر أن تمنعه وتقمعه" [1]



حمورابي يتسلم الشريعة من الرب شمش

(1) جاك بيران ،" الخطوط الكبيرة في التاريخ العالمي" الجزء 1، ص34 .

إن هذا بالذات هو ما تطمح إليه اليوم أكثر الدول تطورا في هذا العقد الأخير من القرن العشرين بعد ميلاد المسيح ، وتعجز عن تحقيقه .

إن في ذلك عينه يكمن السر في جاذبية ومناقبية الإنسان العربي منذ أقدم العصور . لقد كان من شأن مثل هذه الشريعة والسهر على تطبيقها أن تجعل المواطنين جميعا يشعرون وكأنهم جزء من النظام ، وأن النظام ليس إلا دورهم الحياتية التي يموتون بموتها . فيجعلهم يتمسكون به ويستميتون في الدفاع عنه أمام كل الأخطار الداخلية والخارجية على السواء . إن ذلك تحديدا هو ما جعل كل تلك السلطة الهائلة الطاغية لإنليل ولرجال معابده تسقط دفعة واحدة دون أن تحدث أي صدى بين المواطنين بعد أن نجح رجال الهيكل في تزويره وتشويه صورته ، من جهة ، كما جعل الشعب السوري منذ أقدم العصور يؤمن بصورة شبه مطلقة بقدرة الإنسان الفرد على الفعل في التاريخ بعيدا عن كل تلك الصور الشوهاء التي فرضت على تاريخه . إن ذلك كان نتيجة لذلك العدد غير اليسير من القادة الأفذاذ الذين دخلوا العملية التاريخية من مداخل الشعوب الحضارية و الإنسانية ، فتمثلوا بصورة صحيحة حاجات تطور مجتمعاتهم ، وعملوا بكل تفان وإخلاص من أجل تحقيق ذلك التطور بما ينسجم ومضمون التقدم البشري ككل ، فتحولوا بذلك إلى جزء من الشعب والوطن والتاريخ في عملية جدلية تبادلية تقدمية صحيحة ، تركت آثارها عميقة على خط سير الإنسانية في سيرها الحثيث الطويل .

3 ــ أما النقطة الثالثة ، فقد ربطت في ذهن المواطن فكرة قيام الدولة العربية السورية القومية الواحدة بمفهوم العدالة للجميع . إن أول دولة قومية في التاريخ كانت هي الدولة العربية السورية ، وكان أول تجسيد لعملية الدمج بين البناء القومي الوحدوي ولفكر العدالة والإنسانية والإخاء ونبذ التعصب هو في مضمون تلك الدولة . إن ذلك كان يعكس ، لاشك ، مناقبية الإنسان العربي السوري ، وتفوقه في ميدان الرقي الحضاري والإنساني ، وإن ذلك بالذات هو ما صار في أساس كل الدعوات العربية التحريرية فيما بعد .

أما على الصعيد الاقتصادي فقد كسر حمورابي جميع الدوائر المغلقة على الشعب ، ودفعه إلى الخروج من سـجونه المتنوعـة . عبودية الأملاك الأميريـة والإقطاعية والكهنوتية ألغيت ، والفلاح حرر نهائيا ، وأصبح قادرا على أن يترك الأرض التي ألصق بها مرغمـا مئات السنين ، وحرا في أن يمتلك ما يريد .وبما أن حالته المادية والنفسية كانت تمنعه من ممارسة حقه بالمساواة مع الأحرار ، فقد كانت له في القوانين الجديدة امتيازات تشـجعه على الـوصول ماديا ونفسيا إلى مستوى الأحرار ، فهي تخوله أن يتزوج بدون أن يدفع مهرا ، وأن يدفـع نصف أتعاب الأطباء والمهندسـين والأطباء البيطريين وغيرهم مـن أصحاب المهن الحرة .

" وهذا الوضع الاجتماعي الجديد يؤدي حتما إلى انتقال الملكيات الخاصة وتحرك الـثروة الحرة ، وإلى نشـوء رأسمالية ، كانت في ذلك الزمان مرحلة تقدمية جديدة . فالرأسمالية تستهدف الإنتـاج ، وهي تتضمن رغبة في استثمار مكثف للأراضي ، وتختلف كليـا عن النظام الإقطـاعي السابق الذي لم يكن يطمح إلا إلى اكتفاء شاغليها" .

"هذا الأسلوب الجديد في تثمير جميع المشاريع الزراعية و الصناعية والتجارية حرك نشاط الشـعب وطاقته الإنتاجية كما حرك الثروة التي يملك ، فكان نمو اقتصادي ورفاهيـة لم يسبق لهما مثيل في حياة الشعب .

"إن الثروة الشـخصية التي نمت في يد الأفراد شـجعتهم على استكمال تحررهم ماديـا ونفسيا وعلى ممارسـة حقوقهم الكامـلة التي يعطيهم إياها القانون ، وعلى الشـعور بواجباتهم نحو الدولة التي أوصلتهم إلى هذا المستوى من الحرية والمساواة والعدالة .

"و لم تكن الدولة نفسها غريبة عن الحركة الاقتصادية الجديدة ، بل كانت تستغل لحسابها مشاريع تجارية كبرى ، فالأمن المخيم في جميع أنحاء البلاد حرك التجارة العالميـة مـن جديد ، وكان في ذلك موارد للثروة لا تحد .

إن مشاريع الدولة التجارية كانت ذات غايتين : الواحدة سياسية والأخرى اقتصاديـة . لقد رأى حمورابي بنظره البعيد أن كل ثروة ضخمة ستصبح في أيدي التجار والرأسماليين إذا ما ترك هذا المجال العالمي لهم وحدهم ، وقد تؤدي إلى نشـوء خطر على الدولـة .

فأراد أن يجنب الشعب ، بعد أن أنقذه من يد الإقطاعيين والأمراء والكهنة ، الوقـوع في يد الأوليغارشيين الذين كانوا يحكمون بنفوذهم المدن السومرية " [1]

لذلك " سـعى الملك للحد من قوة التجار والرأسماليين الاقتصادية بممارسة نوع من اشـتراكية الدولة ، لم تلغ التجارة الخاصـة ولكنها خضعت لرخص خاصة تسـمح بالملاحة في مياه دجلة والفرات ، ولضرائب ملكية "[2]

لقـد تجلت في ذلك كله عبقريـة حمورابي السـتراتيجية ، ليس في المجال السياسـي والعسكري فحسب ، بل وفي المجالين الاقتصادي والاجتماعي أيضا . إنه لم يرفع بمجالات التطور إلى مرحلة جديدة متقدمة هي مرحلة التطور الرأسمالي وثورته الإنتاجية فحسب ، بل وسبق هذه المرحلة بعبقرية مذهلة في تصوره لكل النتائج التي سوف تفضي إليها بعد مرحلة من الزمن . فبرز بذلك حمورابي الفيلسـوف والمفكـر ، والمتنبـئ السياسـي والاقتصادي ، والعالم بقوانين تطـور المجتمعات والاقتصاد . لذلك فإن هـذا القـائد المفكر الفيلسوف ، المشرع ، المحارب العظيم ، لم يكن لتقعده الإنجازات البـاهرة الـتي حققها لشعبه منذ بدايات حكمه ، ليركن إلى فترة من الحكم مجيدة ثم ليترك كل شـيء لمن سيخلفه ، غير عابئ بكل تلك الصـراعات التي يمكن أن تفجرها حقائق التطـور الجديدة على الساحتين الاقتصادية والاجتماعيـة معا . فعمد إلى وضع الحلول بنفسـه لكل ما يمكن أن ينجم في مجتمعه من أزمات ، وأسـرع إلى وضعها موضع التطبيق غـير متكل على ما قد تأتي به الصدف ، وغير قانع بأن يترك مجتمعه من بعده رهينـة بيـد التيارات التي سوف يولدها واقع التطور الجديد . لذلك ــ وكما يقول جاك بـيران ــ فقد بادر بنفسه مبكرا إلى " الحد من قوة التجار والرأسماليين الاقتصادية بممارسة نوع من اشتراكية الدولة " هذا الاتجاه في الاقتصاد الذي لم تعرفه البشرية إلا بعد مرور ما يقـرب من أربعة آلاف عام .

ويقـول جاك بيران : " لقد اتسعت في عهده فكرة المسؤولية حتى شملت مبدأ حق

---

(1) أسد الشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي " الجزء 1 ، القسم 1 ص 140 ــ 141 .

(2) جاك بيران : " حضارات قديمة " ص119 .

التعويض عن كل عطل وضرر ، فهي تلزم السلطات العامـــة نفسها بالتعويض عـــن أي عمل جنائي لم تقدر أن تمنعه أو تقمعه ، هذا التشريـــع الذي حرك المعاملات العقارية ، وســـهلها ، شجع على التجارة ، ورافقته تدابير اجتماعية معينة ، فعقد العمل أصبـــح خاضعا للقانون الذي يحدد المسؤولية المتبادلة بين الموظف والموظف ، وقد لحظ حدا أدنى للمرتبات في جميع الحرف ، وفرض على جميع المقاولين الصناعيين والزراعيين أن يعطلـــوا موظفيهم ، شهريا ، عطلة ثلاثة أيام مدفوعة الأجور أما شؤون التدرب علـــى المـــهن واستئجار السفن وأتعاب الأطباء والمهندسين ، فقد نظمت قانونيا بموجب قانون جزائـــي مدهش بالنسبة لقدمه ولما فيه من كمال المبادئ القانونية التي كان يستهدف حمايتها .

" وأخيرا أرغم الملك المعابد ، التي كانت تستغل ثرواتها الطائلة بالأعمال المصرفية ، على أن تقـــدم قروضا مجانية للمدينين العاجزين عن الدفع لتمكنهم من تجنب العبودية بسبب ديونهم ، وللمرضى الذين تعفى عيالهم من الدفع في حالة الوفاة .

"كان هذا الإنجاز القانوني مساهمة بابل العظيمة في الحضارة الإنسانية . وقد استمر هـــذا الإنجاز بعد خرابها ، وبقي أســـاسا لكل تطور في القانون التجاري حتى الإمبراطوريـــة الرومانيـــة " (1)

لقد ألغى حمورابي نظام العبوديـــة في مناطق أملاك الملك والهيكل ، وأقام مكانها نظـــام تأجير الأرض للرأسماليين وتمليكها للفلاحين والمزراعين الصغـــار ، وحول قوة الأوقـــاف المالية والمصرفية لصالح الفقراء والمعوزين من أبناء الشعب .

في ظل ذلك النظام المتطور دائما عن الأساس الذي أرساه ســـرجون في التراب العـــربي الســـوري ، وجدت كل أنواع العلوم وفروع الاقتصاد بمجالاتها الحقيقية من أجـــل أن تنشأ وتنمـــو وتزدهر وتثمر . إن حمورابي لم يكتف بذلك التشريع الجامع الذي لم يكن إلا عمـــلا واحدا من أعماله الكبيرة . فقد حفر القنوات من أجل الري ، وأنشأ السدود التي تحمي المدن الجنوبية من أخطار الفيضانات ، " ولقد وصل إلينا من عهده نقش آخـــر يفخـــر بأنه أجرى في البلاد الماء (تلك المادة القيمة التي لا نقدرها اليوم ، والتي كـــانت

---

(1) جاك بيران " الخطوط الكبيرة في التاريخ العالمي " الجزء 1 ، ص 34 .

في الأيام الماضية إحدى مواد الترف) ، ونشر الأمن ، والحكم الصالح في ربوع البلاد . وإنا لنستمع من ثنايا هذا النقش ، ومن بين عبارات الفخر (وهو خلة شريفة من خلال الشرقيين) صوت الحاكم الماهر والسياسي القدير . وبلغ من حذق حمورابي أن خلع على سلطانه خلعة من رضاء الآلهة بالرغم من أن قوانينه كانت تمتاز بصبغتها الدينوية غير الدينية ، ومن ذلك أنه شاد المعابد كما شاد القلاع ، واسترضى الكهنة بأن أقام لمردوك وزوجته (ربي البلد القوميين) في مدينة بابل هيكلا ضخما وفخريا واسعا ليخزن فيه القمح للإلهين وللكهنة . وكانت هاتان الهديتان وأمثالهما في واقع الأمر بمثابة مال يستثمر أبرع استثمار ، جنى منه ربحا وفيرا هو الطاعة الممتزجة بالرهبة التي يقدمها لرب الشعب . واستخدم ما تبقى بعد ذلك في تجميل عاصمة ملكه ، فأنشئت القصور والهياكل في جميع نواحيها ، وأقيم جسر على نهر الفرات حتى تمتد المدينة على كلتا ضفتيه ، وأخذت السفن التي لا يقل بحارتها عن تسعين رجلا تمخر عباب النهر صاعدة فيه ونازلة ، وأضحت بابل قبل ميلاد المسيح بألفي عام من أغنى البلاد التي شهدها تاريخ العالم قديمه وحديثه" [1]

وحول هذه المرحلة التي بلغتها بابل في زمن حمورابي يقول كريستوفر دوس في كتابه "بحوث في الدين والحضارة" : "لقد وصلت بابل من حيث المقومات الأساسية للحضارة في عصر حمورابي ، بل فيما قبله أيضا ، إلى درجة من الحضارة المادية لم يصل إليها غيرها من مدن آسيا إلى وقتنا هذا " [2]

" وما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ثم يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحر اللافح الممتدة على نهر الفرات كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية كادت تكون هي الخالقة لعلم الفلك ، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب ، وأنشأت علم اللغة ، وأعدت أول كتب القانون الكبرى ، وعلمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطبيعة والفلسفة ، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها

---

(1) ول ديورانت ، "قصة الحضارة " الجزء الثاني ص 193 .
(2) كريستوفر دوسن "بحوث في الدين والحضارة "الطبعة الأمريكية، نيويورك ،1933 ،ص 107

العالم ، ونقلت إلى العرب بعض المعارف العلمية والمعمارية التي أيقظوا بها روح أوروبا من سباتها في العصر الوسيط . وإذا ما وقف الإنسان أمام دجلة والفرات الساكنين فإنه يتعذر عليه أن يعتقد أنهما النهران اللذان رويا سومر وأكاد وغذيا حدائق بابل المعلقة .. لكن بابل قد أضحت بفضل مياه النهرين الغزيرة وكد الأهلين أجيالا طوالا جنة الساميين وحديقة بلاد آسيا " [1]

ويقول في مكان آخر : " إن قصتنا تبدأ بالشرق ، لا لأن آسيا كانت مسرحا لأقدم مدينة معروفة لنا فحسب ، بل كذلك لأن تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التي ظن "سير هنري مين" خطأ أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث [2] ..وفي هذه اللحظة التاريخية ، حيث تسرع السيادة الأوربية نحو الانهيار ، وحيث تنتعش آسيا مما يبعث فيها الحياة ، وحيث الاتجاه كله في القرن العشرين يبدو كأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب، في هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتاباتنا التقليدية للتاريخ ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد ، لم يعد مجرد غلطة علمية ، بل ربما كان إخفاقا ذريعا في تصوير الواقع ، ونقصا فاضحا في ذكائنا . إن المستقبل يولي وجهه شطر الشرق ، فلابد للعقل أن يتابع خطاه هناك . لكن كيف يتاح لعقل غربي أن يفهم الشرق ؟ إن ثمانية أعوام قضيتها في الدراسة والسفر لم يكن من شأنها سوى أن توضح لي هذه الحقيقة أيضا ، وهي أن العمر بأسره يخصص للبحث العلمي ، لن يكفي طالبا غربيا ليدمج نفسه في روح الشرق الدقيقة اللمحات وفي تراثه الغامض .

" .. وفي تلك البلاد (سومر ، وأكاد ، وبابل) ــ على قدر ما آل إليه علمنا في الوقت الحاضر ــ نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات ، وأول نظم الري ، وأول استخدام للذهب والفضة في تقويم السلع ، وأول العقود التجارية، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة في نطاق واسع ، وأول قصص الخلق

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص188 .

(2) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، /ط .

والطوفان ، وأول المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول أصباغ التجميل والحلي ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن في الترصيع والتزيين ، وهنا نجد في البناء أول العقود والأقواس ، وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة في التاريخ المعروف بعض مساوئ الحضارة في نطاق واسع: لقد كانت الحياة في تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم معقدة ، وهنا بدأت الفوارق الطبقية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس . وفي تلك البلاد كانت بداية ما نشأ في تاريخ العالم من تنوعات يخطئها الحصر "[1].

إن مثل هذا القول يسقط كل أولئك " المؤرخين العرج " من أبناء الأمة العربية الذين يأخذون من العلم بعض قشوره ، ويلتحفون " بالموضوعية " الساترة لعقد النقص حينما يتحدثون بتلك الروح التقليدية الاستعمارية المتعصبة ذاتها نقلا عن أساتذتهم في الغرب ، الروح التي جعلت ول ديورانت يشعر بالذنب وبالتقزم نتيجة لما سببته من أخطاء فادحة في حق العلم وأجحفت في حق التاريخ العربي .

إن الكشف عن حقائق التاريخ والتمسك بها ليس تعصبا كما يطيب لأولئك أن يرددوا على مسمع كل من يحاول ذلك عن قناعة وإخلاص . إن التشبث بالحقيقة وبالكشف عنها هو العلم وهو الموضوعية ، وإن التشبث بما قرره الآخرون على أرضية من العداء السافر هو الجهل والتعصب معا .

وإننا بعد ذلك كله ، لن نجد ما يستحق أن نتوقف قليلا أو كثيرا عند ما يقرره الأستاذ هاري ولفسن في جامعة هارفارد الذي "زور" في كتاب ديورانت كل ما يتعلق بتاريخ المنطقة من جهة النظر الصهيونية البحتة تحت ستار "تصحيح بعض أخطاء الجزء الخاص بالدولة اليهودية " . وكم سوف يبدو قميئا مثل هذا التعصب ، والبعد عن أية روح علمية تليق بأي باحث عادي ، الذي تعج به" تصحيحات " كهذه : " .. ولكن الدهر لا يحتفظ بأسماء هذه الشعوب لما قامت به هي نفسها من الأعمال الجليلة بقدر ما يحتفظ

---

(1) المصدر السابق .

ها لأن أصحابها مثلوا دورا على مسرح فلسطين الفاجع . وعلينا الآن أن ندرس شعبا آخر بتفصيل أوفى وأدق من دراستنا لجيرانه ، ونعني به اليهود . وهم قوم إذا نظرنا إلى قلة عددهم وضيق بلادهم لا نكاد نراهم جديرين بهذه الدراسة ، ولكنهم أورثوا العالم أدبا من أعظم آدابه ، ودينين من أقوى أديانه ، وعددا عظيما من أذكى رجاله وأعمقهم تفكيرا " [1]

ماذا يمكن أن نعلق على مثل هذا القول الذي يقحم في ذروة انتشاء ول ديورانت وهو يتحدث عن فضل الشعب العربي السوري (ولو تحت أسماء أخرى) على الإنسانية بأكثر من أن نستمر مع ديورانت في بعض حديثه : " ... وقد استطاعوا منذ عام 2000 ق.م ، أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس ، وحددوا مواضع النجوم ، وأخذوا يصورون السماء على مهل ، فلما فتح الكاشيون بلاد بابل توقف هذا التقدم نحو ألف عام ثم واصلوه من جديد في عهد نبوخذ نصر ، فصور العلماء مسارات الشمس والقمر ، ولاحظوا اقترانهما ، كما لاحظوا الخسوف والكسوف وعينوا مسارات الكواكب ، وكانوا أول من ميز النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزا دقيقا . وحددوا تاريخ الانقلابين الشتائي والصيفي ، وتاريخي الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وساروا على نهج السومريين قبلهم ، فقسموا دائرة فلك البروج (أي مسار الأرض حول الشمس) إلى الأبراج الاثني عشر . وبعد أن قسموا الدائرة إلى 360 درجة عادوا فقسموا الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية ، وكانوا يقدرون الزمن بالساعة المائية والمزولة. وأكبر الظن أنهم لم يعملوا على ترقية هاتين الآلتين فحسب ، بل اخترعوهما اختراعا . وقسموا السنة إلى أثني عشر شهرا قمريا ، منها ستة في كل منها ثلاثون يوما ، والستة الأخرى في كل منها تسعة وعشرون يوما . ولما كان مجموع أيامها على هذا الحساب لا يبلغ سوى 354 يوما فإنهم كانوا يضيفون في بعض السنين شهرا آخر لكي يتفق تقويمهم مع الفصول . وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع ، تتفق مع أوجه القمر الأربعة ، وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويما أسهل من هذا بأن قسموا الشهر إلى

(1) المصدر السابق ، ص320 .

ستة أسابيع كل منها خمسة أيام ، ولكن ثبت بعدئذ أن أوجه القمر أقوى أثرا من رغبات الناس ، وبقي التقسيم الأول كما كان .. ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف الليلة إلى الليلة التي تليها ، بل كان عندهم من شروق القمر إلى شروقه التالي ، وقسموا هذه المدة إلى اثنتي عشرة ساعة ، في كل منها ثلاثون دقيقة . إذن فتقسيم الشهر عندنا إلى أربعة أسابيع ، وتقسيم أوجه ساعاتنا إلى اثنتي عشرة ساعة (لا إلى أربع وعشرين) وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة ، والدقيقة إلى ستين ثانية ، كل هذه آثار بابلية لا شك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا الحاضر وإن كان لا يخطر لنا على بال " [1]

وانتقل البابليون من رسم السماء إلى رسم الأرض ، وأقدم ما نعرف من الخرائط هي التي خطط فيها البابليون طرق إمبراطورية نبوخذ نصر ومدنها . ولقد عثر المنقبون في خرائب جاسور (التي تبعد عن بابل مائتي ميل شمالا على لوح من الطين يرجع إلى عام 1600ق.م ، ويحتوي ، في مساحة لا تكاد تبلغ بوصة واحدة ، على خريطة لمقاطعة وادي أزول (قد تكون منطقة صنعاء القديمة) وقد مثلت فيها الجبال بخطوط دائرية ، والمياه بخطوط مائلة ، والأنهار بخطوط متوازية ، وكتبت عليها أسماء عدد من المدن ، وبين في هامشها اتجاه للشمال والجنوب .أو ليست هي الخطوط نفسها المتبعة اليوم في رسم الخرائط ؟

" إن بابل هي التي أنشأت ذلك القصص الساحر الجميل الذي أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءا لا يتجزأ من قصص أوروبا الديني . ومن بابل لا من مصر جاء اليونان الجوالون إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضيات ، والفلك ، والطب ، والنحو ، وفقه اللغة ، وعلم الآثار ، والتاريخ ، والفلسفة ، ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى روما ، ومنها إلى الأوربيين والأمريكيين ، وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن ، وأبراج النجوم ، والموازين ، والمقاييس ، والآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية ، بل إنها ، وفي بعض الأحيان ، لا تعدو أن تكون بديلا لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية " [2]

---

(1) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء 2 ، ص250 ـ 251 .
(2) المصدر السابق ، ص 262 .

الفصل التاسع
الدولة العربية السورية بعد حمورابي

الوضع العام في سوريا

مات حمورابي حوالي عام 2000 ق.م تاركا وراءه دولة مترامية ، جمعت كل مناطق الوطن العربي السوري الممتدة من شواطئ الخليج العربي إلى آلاسيا (قبرص) في البحر المتوسط ، ومن شمال المضائق وشواطئ البحر الأسود إلى جبال السراة وسواحل البحر الأحمر وبحر العرب ، تسودها علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة ، تنظمها مجموعة من القوانين الحضارية المتقدمة ، ويسهر على حماية النظام والأمن فيها جيش فتي قوي ، تسيطر على جميع خطوط التجارة الدولية القادمة من الصين (طريق الحرير) ، أو الأناضول (طريق الفضة) ، أو عقدة الخطوط والقوافل البرية و البحرية الدولية على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، حيث تمر وتلتقي كل طرق العاج والأبنوس ، والصندل ، والمر ، والبخور ، والتوابل ، والعطور ، والنحاس ، والذهب وجلود الحيوانات وغيرها ، كما تؤمن لها موانئها السورية الغربية الشهيرة على ساحل المتوسط السيطرة التجارية على حوض المتوسط كله ، فتجعل أكوام السلع ، والمعادن ،الواردة من كل الأنحاء تتراكم في أطراف الدولة ، مما جعل التجارة والصناعة الحرفية وحركة رؤوس الأموال تشهد نشاطا فريدا لا مثيل له ، في جو من الأمن المخيم على كل الأنحاء ، نتيجة لهيبة سلطة الدولة وقوتها . إن هذا كله جعل البلاد تدخل في مرحلة من الوفرة والتنعم والرخاء لم تعرفها من قبل . "وزادت الثروة ، فأنتجت في بابل ما تنتجه في سائر العالم . وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هي قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم "[1].

---

(1) ول ديورانت ، " قصة الحضارة " الجزء 2 ، ص194 .

وفي الجنوب ، وخلف الضفاف الشرقية للخليج العربي ، كان أقوام من الرعاة الهائمين يتحينون الفرص للتسلل إلى أراضي سومر وعيلام من الجنوب .

أما مدن سومر وعيلام ذاتها ، فكانت قد عقدت كل علاقاتها بالدولة الجديدة أعمال التمرد الكثيرة ، ومحاولات الانفصال والعودة إلى أحضان المدينة ــ الدولة الإقطاعية القديمة . لقد ظلت تلك الأسر الإقطاعية ــ الدينية تتمتع بنفوذ ظاهر ، وتعمل دائما على تقويته ، مستفيدة ، في كل مرة ، من حالات الضعف الطارئة التي قد تلم بالدولة المركزية ، أو من حالات الغزو الخارجي . إن هذا خلق تناقضا حقيقيا في الدولة السورية الناهضة ما لبث أن أخذ يتمثل ، بعد الصدامات الدموية العنيفة ، في حقد شرس لا هوادة فيه ، كما صار يكتسب تدريجيا طابع الصراع المصيري بين اتجاهين : اتجاه الدولة القومية الرأسمالية المركزية الواحدة من جهة ، والدويلات ــ المدن الإقطاعية الدينية ، من جهة أخرى .

أما في المنطقة الوسطى والغربية التي تمتد من ماري ، وإيمار ، إلى حلب ، وإيبلا ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، إلى أوغاريت ، وجبيل ، وصيدا وصور ، فقد كان الوضع مختلفا تماما .

لقد تميزت هذه المنطقة ــ على عكس ما يصوره لنا المؤرخون ــ بالاستقرار الدائم ، مما وطد الاعتقاد بمساهمتها الحقيقية والفاعلة في قيام الدولة القومية وتعضيدها بالمال والسلاح ، لقاء امتيازات يهبها قادة هذه الدولة لتلك المدن ، ولاسيما الغربية الساحلية منها ، فتضمن لها كثيرا من صيغ الحكم الذاتي ، وحرية التصرف ، عملا على إنجاز المهام الستراتيجية الكبرى المتمثلة في الهيمنة التجارية على شواطئ المتوسط ، وجعله بحرا عربيا سوريا قولا وفعلا . وإذا كانت المكتشفات الآثارية لهذه المنطقة ما تزال في بداياتها الأولى ، إلا إن وحدة السكان العرب الأموريين في هذه الفترة بالذات أخذت تطل علينا من بدايات الدراسات الأولى لمكتشفات إيبلا . ولقد أوضحت تلك المكتشفات أن إيبلا كانت تعيش فترة ازدهار حقيقية هي فترة عطاءات دولة حمورابي ، وأنه لم يكن ثمة

تناقض بين السكان ، وتقاليدهم ، ونظمهم ، ولغتهم ، وعاداهم ، وآلهتهم ، بل إن كل شيء كان يدل على متانة العلاقات ، واتساع الشعور بالوحدة في كل شيء .

لقد جاء في وثائق إيبلا التي صدرت تحت اسم "إيبلا ــ عبلا" على أيدي مجموعة من البحاثة الآثاريين الذين اكتشفوا إيبلا ، إن حضارة إيبلا "تراءت ــ دون حق ــ لأناس كثيرين من الوسط العلمي ومن خارجه ، وكأنها (معجزة) فريدة ، خارجة تقريبا عن مسار التاريخ ، أو طفرة من طفراته ، لكن بعد سنوات قليلة فقط سيصبح لهذه الظاهرة ــ الطفرة إطارها التاريخي الثابت . ولو أن الصورة التي سيحيط بها ذلك الإطار ستبقى غير متكاملة لفترة طويلة من الزمن ، يبد أن التنقيبات الثرية الجارية في تل طوقان (شرقي إيبلا) ، وفي تل أم المرة (شرقي دير حافر) ، وفي تل حلاوة (الشاطئ الأيسر لبحيرة الأسد) ، وفي تل خويرة (قرب تل أبيض شمالي الرقة) ، وفي تل ليلان (شرقي القامشلي) ، كل هذه الأعمال قد جاءت بالتأكيد نتيجة للضجة العالمية التي أثارتها مكتشفات إيبلا ، وستلقي نتائج التنقيبات الجارية في المواقع المذكورة آنفا مزيدا من الضوء على المسائل الأساسية لجذور الحضارة التي ازدهرت في إيبلا خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد ، كما ستتكشف لنا علاقات إيبلا في ذلك الزمان مع المدن التي ازدهرت في شمالي سوريا .

"كانت المكتشفات الجديدة منهلا لمعلوماتنا عن فترة الازدهار الثانية التي شهدها تل مرديخ (إيبلا) ، وهي الفترة التي أصبحنا نطلق عليها اسم العصر السوري القديم ، أو العصر الأموري الذي انتهى في حوالي 1600ق.م " [1]

" ... من المرجح أن المنطقة الممتدة بين طوروس والصحراء العربية لم تعرف في تاريخها تلك الوحدة الحضارية الأساسية التي عرفتها بلاد الشام خلال الحقبتين الأولى والثانية في عصر البرونز الوسيط" [2]

(1) إيبلا ــ عبلاء ، ص44 ــ4 .
(2) المصدر السابق

وتحت عنوان "عبادة الأجداد في إيبلا الأمورية " نقرأ :" لابد أن كان دافع الاستمرار في التراث القديم هو الذي حتم وقوع المقبرة الملكية الأمورية في قلب إيبلا ، ولعل هذه الظاهرة تقليد إيبلائي منذ فجر تاريخها . وقد شاع هذا التقليد في جنوبي الرافدين ، وفي وسط الأناضول منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، ونحن نواجه أمثلة ساطعة عليه في المقابر الملكية المكتشفة في أور (جنوبي العراق) ...

" لا يختلف طراز المدافن الملكية الثلاثة المكتشفة في إيبلا عن طراز المدافن المعروفة في بلاد الشام ، والتي تؤرخ بالفترة لعصر البرونز الوسيط .. وينتشر مثل هذا النوع من المدافن بين أريحا وفلسطين ، وجبيل ، على سواحل الشام ...

" ونحن نجد أنفسنا أمام عبادة أجداد ملكيين لامعين ، وأبطال حققوا لمجتمعهم الفلاح والازدهار والرفاه . وهذا النوع من العبادة نعرفه في عبادة "راعوم"* المنقوشة في نصوص أوغاريت التي تعود إلى عصر البرونز الحديث (حوالي 1400ق.م) ، ولابد أن تمكن أصولها في تقاليد كانت شائعة خلال الحقبة الثانية من عصر البرونز الوسيط (حوالي 1800ق.م) ونستفيد من لائحة الأنساب التي سطرها حمورابي في بابل أن تقديس الأجداد وعبادتهم كانت شائعة في بابل خلال الفترة نفسها " [1]

ولابد من أن نسجل هنا بعض الملاحظات قبل أن ننتقل من إيبلا إلى غربي شبه الجزيرة العربية حيث الكنعانيون :

أولا : إن ما درج المؤرخون على اعتباره عبادة للأجداد عند العرب الأقدمين ، سواء أكانوا عربا سريانيين (أو سوريين أبنا "سر") أم أموريين ، أم في شبه جزيرة العرب ، لا يعدو كونه تعظيما وتقديسا لأولئك الآباء الأفذاذ الذين تميزوا ، أو تفوقوا ، بإنجاز ما ، روحي أو مادي ، اعتبر إنجازا تقدميا إنسانيا عاما ، وهذه النقطة بالذات هي التي كنا قد توقفنا عندها بعض الشيء عند حديثنا عن أصول التسميات القديمة ، وهي التي سوف نوضحها اكثر عند حديثنا عن العرب الكنعانيين .

---

* **هو نفسه "رع" (الراعي) الذي نقل السوريون عبادته إلى مصر وادي النيل .**

(1) المصدر السابق ، ص56 ــ 58 .

ثانيا : إننا نذكر دائما أن الحديث حينما يدور عن الأموريين في سوريا لا يعني إطلاقا أن الفروع العربية الأخرى ، التي نشأت وتفرعت بعد الأموريين ، غير موجودة على الخارطة السكانية للمنطقة، وكذلك الأمر مع جميع أنسال آدم الذي نعرف ، وكل تفرعات أبنائه وقبائلهم ، ولاسيما الحاميين والساميين .

إن من عرفوا بالعرب الساميين والحاميين ، والآراميين ، والآشوريين والكنعانيين ، والعماليق ، والفينيقيين ، وغيرهم يملأون ساحة الوطن العربي في تشابكات نمطية أكثر منها قبلية . إن المدينة تشد إليها ــ كما سبق أن أوضحنا عند الحديث عن الهجرات ــ كل النماذج البشرية التي نضجت لديها شروط الاستقرار المديني ، وصار سهلا عليها ، إن لم نقل من المحتم ، التخلي عن نمط العيش السابق والانتقال إلى نمط معيشي آخر أرقى . إن هذا ، بالتالي ، سوف يعني لنا أن جميع النماذج السكانية من شتى القبائل سوف تلتقي إما في البادية أو في الأرياف أو في المدن . وان نمط الحياة والشروط الخاصة بكل مرحلة من مراحل التطور هي التي سوف تطبع هذا التجمع السكاني أو ذاك ، وليس روابط الدم أو القبيلة . ومن هنا كان الخطأ في تلك التسميات الكثيرة للدول العربية التي قامت ونشأت على أرض سوريا منذ القدم . لقد تعمد مؤرخو العصر الاستعماري أن ينظروا إلى سوريا بالذات ــ رغم قيام أول دولة قومية إنسانية في العالم على أرضها ــ نظرة من يريد الإجهاز نهائيا على دورها القومي العربي التاريخي الرائد ، لما له من الفعل في الواقع العربي ، بما ينعكس على تطور الأحداث في المنطقة كلها ، وبالتالي ، على واقع الإمبراطوريات الاستعمارية . ومن هنا فإننا نهيب بالأوساط المشرفة في القطر العربي السوري على عمليات البحث والاستكشاف الآثارية القائمة اليوم فيها على قدم وساق ، أن يعيروا هذه الناحية أقصى اهتماماتهم ، وأن ينطلقوا في توجيههم لكل الدراسات والبحوث التي يمكن أن تنشأ مستقبلا عن تلك المكتشفات التي لابد أن تظهر في الزمن القريب ، من المنطلق الموضوعي الصحيح ، ألا وهو وحدة المنطقة التاريخية والسكانية والثقافية واللغوية والحضارية .

إن مما يحز في النفس هو استمرار تلك التوجهات التي تفترض مسبقا أن في كل مدينـــة تكتشف لابد من " لغة " جديدة تضاف إلى قائمة اللغات القديمة في المنطقة ، وإذا كنـا سوف نتحدث عن اللغة في بحث منفصل لاحق ، فإننا نجد أن من المفيد التذكير هنا بأن تلك التي دعيت لغات ليســت إلا لــهجات ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، للغة واحدة هـي العربية . فمن المعروف أن وجود اللغة، أية لغة ، في مرحلتها الشفوية قبل الكتابية يمكـن أن تبقى في طي المجهول حتى تظهر نفســها في صيغة أبجدية مكتوبـة تصــور نطـق الأصوات كما هي ، فتحدد هويتها .

ولقد تحكم في تطور تلك اللهجات إلى ما صار الدارسون يعتبرونه ـــ اليوم دونما حق ـــ لغات ، عدة عوامل نسوق منها الآن في لمحة سريعة ما يلي :

1ـــ إن وجود لغة شفوية ، غير مكتوبة ، يفرز حتما لهجات متعددة لا يمكن حصرها . ذلك أن أي إنســان اليوم يتعامل مع اللغــة في شــكلين ماديين لها هما : المســموع (أي أصوات اللغة) والمرئي (أي الأصوات المسموعــة في أشكالها المرسومة كتابــة) . وإذا ما انعدم الجانب المرئي من الصوت (في شــكله المرسوم) ارتســم في الذهــن في أشكال مختلفة كثيرة تختلف من إنسان لآخر. ثم إن أي رب أسرة ـــ على سبيل المثــال ـــ ذا عاهة نطقية ، فإن عاهته هذه سوف تنتقل إلى أولاده السليمين عن طريق سماعـهم له منذ طفولتهم ، وتعلمهم منه دون أن يدركوا أن لفظه لهذه الكلمة أو تلك ناقص ، أو زائد ، أو مقلوب ، أو فيه تحوير . وعند انتقال ذلك من جيل إلى جيل تنشــأ لهجـة جديدة ، إذ إنه ليس للغــة في مثل هذه الحال غير شــكل مادي واحــد هو الصــوت المسموع . إن الصوت المرئي هو الذي يحافظ على نقاوة اللغة وعلى عدد الأصــوات في كل كلمة ، ونوع تلك الأصوات .

2 ـــ إن العزلة التي كانت تعيش فيها كل مناطق القرى والمدن ، ســواء أكانت بسبب تضاريـس الطبيعة من جبال وعرة تفصل منطقة عن أخرى ، أو بادية قفـر لا يمكـن اجتيازها بسهولة ، أو كانت بسبب عدم وجود طـرق للمواصلات ووسائط للاتصـال

كما هي اليوم ، جعل كل منطق للأصوات في هذه البقعة المنعزلة أو تلك يتطور بعد فترة من الزمن إلى لهجة .

3 ــ إن اختلاط ومجاورة أطراف الأرض العربية لشعوب مختلفة ، وتعرضها للغزو والاحتلال من شعوب مختلفة أيضا سوف يضيف كثيرا من الكلمات الغريبة الأخرى إلى رصيد الكلمات العربية السائدة في تلك المناطق بالذات مما سوف يميز ،مع تقادم الزمن ، لهجة عربية شرقية مجاورة للقبائل الشمالية عن لهجة في أقصى الجنوب الشرقي تتبادل مع الأفريقية أو الهندية أو غيرهما .

وإذا كان علماء اللغة اليوم يرون ذلك التشابه المذهل بين لهجات إيبلا وبابل وأوغاريت من جهة ، ولغتنا العربية السائدة اليوم من جهة أخرى ، رغم كل تلك الظروف التي ذكرنا بعضها والتي كان يعيشها أجدادنا العرب الأقدمون ، ورغم مضي آلاف السنين ، فإنه لن يكون من الموضوعية بعد اليوم في شيء أن يصر الباحثون على دراسة " لغات سامية" في المنطقة . إن ما وجد وما يوجد ليس إلا لغة عربية بلهجاتها المختلفة .

ثالثا : إن القبائل التي دعيت بالعبرانية لم تكن إلا عشائر بدوية عربية آرامية . وأن إبراهيم الخليل وأولاده وأحفاده ليس إلا أحد الفروع العربية الآرامية . ثم إن التوراة بكل قصصها ، وأمثالها وحكمها ، وأناشيدها ومزاميرها ليست إلا تسجيلا خطيا لبعض التراث العربي الكبير الشفوي والمكتوب الذي كانت تزخر به الساحة العربية كلها . وقد أثبتت ذلك مكتشفات مكتبة أوغاريت ، ومكتبة آشور بانيبال ، ورسائل تل العمارنة وغيرها . وإن مهمة الباحث العربي ليس إلا دراسة هذا التراث العربي ، ككل ، وتفنيد وفرز كل ما ألحق به من تزوير وتحريف خلال عمليات النقل والترجمة وغيرهما . ومن هنا كان مأخذنا على ما ورد في كتاب " إيبلا ــ عبلاء" حول ما دعوه بـ" المدن التوراتية" ، ثم أخذوا يدفعون فكرة وجود أي ذكر لتلك المدن وكأن في وجود ذكر لها ما يثبت حقا ما في المنطقة لآخرين غير العرب . إن جميع المدن وأسماء الأشخاص التي وردت في التوراة هي أسماء لمدن عربية صرفة كانت قبل التوراة . وإن الإله "إيل" كادت عبادته أن تغطي المنطقة العربية كلها منذ آلاف السنين قبل التوراة ، وليس أدل على

ذلك من أسماء أبناء آدم المقترنين باسم الإله "إيل" بدءا من هابيل وقابيل ومهلائيل وغيرهم قبل عهد إبراهيم وإسماعيل العربيين الآراميين بآلاف السنين . إن وجود ذكر لكل تلك المدن في مكتشفات "إيبلا" منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد على الأقل من شأنه أن يضيف إثباتا آخر جديدا على عروبة المنطقة ووحدتها منذ الألف الثالث قبل الميلاد . وإن أية نزعة أخرى في محاولة تفسير الأمور في غير هذا المنحى ، وإن أية محاولة لرفع أي ذكر لمدن أو أسماء ورد ذكرها في التوراة ، إنما هي تحكي عن الأمية في التاريخ العربي أكثر مما تحكي عن الغيرة عليه . ومثل هذه الأمية هي التي تجعل من أولئك العرب الآراميين الذين دعوا زورا "عبرانيين" شيئا آخر ليس عربيا ، وهي ، في النتيجة ، لا تقل خطرا عن عملية التزوير فيه .

إن ما ينقصنا هو معرفة تاريخنا معرفة حقيقية وموضوعية ، وكشف كل ما لحق به من الغموض والتزوير . عند ذاك فقط يمكن أن تبهرنا صورة هذا التاريخ الكبيرة ، والأكبر بكثير مما قد يخطر في الذهن أو الخيال . عند ذاك فقط سوف ندرك أن كتبة التاريخ العربي إنما يتقاذفون بشرائح من التاريخ العربي نفسه واضعين الواحدة في طرف مناقض للأخرى ، بينما هي جميعا ، في حقيقة الأمر ، كل واحد لا يتجزأ ، ولا ينفصل .

ومن هنا بالذات تأتي دهشتنا من حماسة المشرفين على مديرية الآثار وعلى المكتشفات ضد احتمال ورود أسماء تلك المدن الخمسة التي دعوها بـ "المدن التوراتية" في وثائق إيبلا . إن التوراة بنت المنطقة العربية ،وإن واضعيها ليسوا إلا شريحة من الشعب العربي ، بصرف النظر عما تتضمنه من تشويه أحيانا للقصص والتراث ولحقائق التاريخ ، ولما تعج به من الحقد العشائري والمرارة ضد هذه المدينة أو تلك وهذا الشعب أو ذاك . إن مدونات التوراة لم تذكر مدنا هندية أو فرنسية أو أمريكية . إن كل المدن أو المواقع أو مضارب الخيام التي ذكرت فيها إنما هي مواقع عربية من المنطقة العربية . وإن نصوص التوراة ليست إلا نتاجا عربيا صرفا ، لكن محاولة تحريف تلك المضامين واستثمارها لغايات استعمارية ــ كما تفعل الصهيونية اليوم ــ هو الأمر الآخر ، وتتم مجابهته بطريقة أخرى ، أولها ، دمج العبرانيين الآراميين وكل ما خلفوه لنا من إنتاج روحي أو

مادي بالتراث العربي دمجا كاملا بعد دراسته دراسة نقدية وتحليلية ترجع كل مضمونات التوراة إلى مصادرها العربية الحقيقية ، وإيضاح مواقع التشويه والتزوير فيها . إن ما يسرته لنا المكتشفات الآثارية حتى الآن ، سواء في أوغاريت أو نينوى أو تل العمارنة أو غيرها ، يتيح لنا أن نقوم بفرز الحقائق بكل يسر وسهولة .وثانيهما ، تعرية الحركة الصهيونية اليوم بكل مواقعها في العالم ، وتسليط الأضواء على كل مزاعمها وإدعاءاتها ، وعمليات التزوير الكبرى التي أحدثتها في التاريخ والجغرافيا على السواء.

إن المقال الذي نشر في كتاب "إيبلا ـ عبلاء" للبروفيسور الفوسواركي تحت عنوان " الشواهد الكتابية في إيبلا والتوراة" يلقي كثيرا من الضوء على مدى خطورة الصورة التي صارت تبحث فيها الأمور على المستويين الدولي والعربي من أجل دفع بعض المزاعم الصهيونية . إن الذي يفهمه القارئ العادي الأوربي والعربي على السواء من مثل هذا المقال هو أن كاتبه يرد على مزاعم صهيونية حول ورود ذكر للمدن التوراتية من جملة ما ورد في مكتشفات إيبلا الوثائقية أو عدم ورودها ، وكأن في ورودها دعما للمزاعم الصهيونية ، وفي عدم ورودها دعما للحق العربي . إن هذا هو الانطباع الذي يمكن أن تتركه مثل هذه المحاولات القائمة على أسس مغلوطة . وهو مما يبعث على العجب والألم في آن واحد . وإن مثل هذا الوضع في مناقشته وقائع تاريخ المنطقة العربية يحكي مدى الضحالة والضيق اللذين نتعامل بهما مع تاريخنا من جهة ، ومدى الحرية واتساع المجال اللذين نمنحهما عن طيب خاطر للصهيونية في الحركة إزاء كل ما يتعلق بهذا التاريخ .

ونحن ، إذ نسجل تحفظنا على مثل هذه المجادلات التي لا تسقط دعوى ولا تثبت حقا ، يهمنا أن نسجل أيضا الدافع الإنساني و العلمي النبيل الذي حدا بمؤلف المقال وبغيره ممن لمسوا كذب المزاعم الصهيونية ، وانبروا للدفاع عن التاريخ العربي بالطريقة التي توفرها لهم حدود معرفتهم بهذا التاريخ ، وهم في ذلك غير ملومين . إن اللوم كله يقع على الدارسين العرب الذين لم يتجاوزوا ، في معظمهم ، حتى الآن مرحلة كونهم وسطاء بين ما يكتبه أعداء التاريخ العربي وبين أجيالنا الناشئة .

يقول المؤلف صاحب المقال :" يدعي حافاني بيثيناتو أن المدن الخمس الوارد ذكرهـا في التوراة موجودة في نصوص إيبلا .. مهما يكن من أمر ، فخلافا لقائمة أسـماء المـدن الواردة في التوراة ، فإن أسـماء المدن مـدار البحث ليست واردة في نص أدبي روائي يمكن أن يكون جزءا من تراث أدبي روائي ويستمر إلى عهد التوراة بل وردت في نـص تجاري ، مع هذا فإن ظهور أسماء مدن له أهمية كبيرة ..

إن النص موضـوع النقاش عبارة عن سجل لمنتجات مصدرة أشـير إليـها بالسومرية (كي) ، التي هي بالتأكيد اختصار لإشارة السومرية (اجانا ــ كشيدا ــ كي) وهـي تعني منتوجـا زراعيـا ، لأن أرقاما (كذا ألف ، أو كذا مئة) تتقدمها في النص ، كما أنها في بعض الأحيان تأتي مرافقـة للزيت والشعير والغنم والأبقار . لذا فإنه من الواضح أن مثل هذه النصوص تتعلق بالإدارة الزراعيـة في إيبلا . فأسماء المدن أو الأماكن ليست إلا مراكز صغيرة . وهي ليست متسلسلة حسب نفس النسق الذي تتسـلسل فيه المدن التوراتية الخمس "

إن مثل هذا القول يوحي لأي قارئ ، أجنبي أو عربي ، بأن تلك المـدن لـو أوردتها وثائق إيبلا في "النسق "الذي أوردته التوراة لكان الحق كل الحق في المزاعم الصهيونيـة . وما هي تلك المزاعم ؟ إن القارئ لا يعرف ، إنه يعرف فقط بأن الجـدل يدور حـول شكل ورود أسماء تلك المدن ، وإن فريقا ينفي أن تكون قد وردت بالشـكل الـذي أوردته التوراة ليرد على مزاعم الصهيونية . إن الصهيونية لا تريـد أكثر من ذلـك ، في الحقيقة ، من خلال إثارتها لمثل ذلك الجدل . إن في ذلك تثبيتا في الـذاكرة العامة بـأن كل مدونات التوراة إنما هو ملك الصهيونية بالذات وليس جزءا من التراث العربي .

إن الصهاينة يعرفون ، كما يعرف القليلون منا ، أن ذكر تلك المدن وغيرها في وثـائق إيبلا أو غيرها مما قد يكتشـف ، لن يخدم قضية إدعاءاتهم في قليل أو كثير ، بل علـى العكس ، سوف يظهر وحدة قدم التراث العربي ، ووحدة الحضارة العربيـة .

وإن الصهاينة يعرفون ، كما يعرف القليلون منا ، أن ذكر سدوم وعمورة وآرام ونهـرن وغيرها في أية وثائق ظهرت أو ستظهر ، إنما هو تدعيم لوجود هذه التسميات العربيـة

القديمة ، وتدعيم لوجود الشعب العربي ، وتدعيم لعروبة قوم إبراهيم وجماعة موسى من بعده .

إنهم يعرفون بالتأكيد ، كما قد يعرف القليلون منا ، أن إبراهيم وجماعته وأن موسى وجماعته ، لم يحدث أن جاؤوا إلى الأرض العربية التي سميت فيما بعد فلسطين ، وهي الجزء الجنوبي من سوريا الأمورية . وأكثر من هذا نقول : لقد استنفد زعماء الكيان الصهيوني كل جهودهم في أعمال البحث والتفتيش والتنقيب من أجل العثور على دلالة واحدة ، مهما كانت بسيطة أو تافهة ، لدخول جماعة إبراهيم أو موسى تلك الأرض ، وعلى أي ما من شأنه أن يدل على وجود ما دعي بمملكة داود وسليمان .

إنهم يعرفون تماما ، كما قد يعرف القليلون منا ، أن أرض كنعان التي تحدثت عنها مدونات التوراة هي ذلك الحيز الضيق ما بين جنوبي بلاد زهران في منطقة الليث وبلاد غامد في المنطقة ذاتها ، والتي لا يتجاوز طولها عشرين كيلومترا ، كما لا يتجاوز عرضها عشرة كيلومترات على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، ولم تكن في يوم من الأيام في فلسطين أو غير فلسطين ..

وإن موسى خرج من مصر المدينة في جنوبي تلك الأرض وليس من مصر وادي النيل . وأن حاران ، وآرام ، ونهرن (النهرين ، والتي سميت فيما بعد ما بين النهرين) وقادش ، ودمشق ، وصيدون ، وصور ، وبثروت ، وأريحا ، وبيت شان ، وبين ايل ، وجلعاد ، وبيت لحم ، وجرار ، وعرار ،وسدوم ، وعمورة ، وآشور ، وكريت ، وغيرها من الأمكنة ، والبلدات ،والمدن ، والقرى ، والوديان ، والجبال الصغيرة والكبيرة ، التي دونتها التوراة بالتفصيل ، لا تتعدى حدود تلك المنطقة الضيقة . وأن كل الجغرافيا الأخرى والتاريخ الآخر إنما هو تجسيد للمؤامرة الكبرى على هذا البلد العربي الذي أقام أول دولة قومية ، وأنشأ أول حضارة إنسانية عالمية في التاريخ والذي اسمه سوريا .

وفوق هذا نقول : إن اليهودية دين وليس ليهود العالم اليوم علاقة بالنسب مع أولئك العرب الأقدمين . سواء أكانوا في سوريا المتوسطية أم في شبه جزيرة العرب أم في أية

منطقة أخرى ، فأولئك الآباء عرب وقبل اليهودية بأكثر من ألف عام ، واليهودية العالمية أعراق شتى تنتمي إلى كل الأجناس ما عدا العرب .

إن نظرة واحدة إلى الدولة العربية السورية زمن حمورابي وسرجون من قبل تبين كيف أن نظاما سياسيا ، وإداريا واقتصاديا ، وأمنيا ، وحقوقيا واحدا كان يعم تلك الرقعة الشاسعة الممتدة من أقصى شواطئ الخليج العربي الشرقية إلى المتوسط ، ومن أقصى المضائق إلى جنوب اليمن . وإن الطرق التجارية الدولية كانت تحت سيطرة الدولة العربية السورية . وقد خاض سرجون ونارام سين وشولجي ، وأورنامو ، وحمورابي حروبا كبيرة من أجل إزالة أية فكرة للهيمنة الغريبة على تلك الطرق والممرات . ولقد رأينا كيف أن سرجون ما أن علم بتحرك فرعون (ملك) مدينة "نخو" المصرية صوب منطقة طريق القوافل في أرض كنعان شرقي البحر الأحمر حتى هب لملاقاته وإرغامه على الانكفاء إلى داخل حدود بلاده ، من أجل المحافظة على سلامة تلك الممرات التجارية التي كانت تعتبر أهم ممرات في التجارة العالمية في ذلك العصر .

إنه لمن الطبيعي ،بعد هذا ، أن تأتي القوافل من أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية المحملة بمنتوجاتها ومنتوجات إفريقيا ، ومصر ، والهند أيضا وتصعد إلى أنحاء الدولة عبر طرق القوافل التجارية الدولية المعروفة : فيصعد أحد هذه الطرق من عدن وأوزل (صنعاء) إلى مكة وجدة وإلى مدائن صالح ثم إلى أيلة ، والبتراء ، وبصرى ، فدمشق ، حيث يتفرع إلى طريقين يذهب أحدهما شمالا إلى ايبلا وحلب ، بينما يذهب الآخر إلى تدمر ومنها إلى الفرات ليتابع سيره معه حتى بابل .

إن مثل هذا التصور التاريخي الصحيح للدولة العربية أيام ازدهارها ينفي أي شك في صحة تعامل إيبلا مع محطات على طريق القوافل مثل سدوم وأرام نهرن ومصريم الواقعة جميعا على خطوط القوافل القادمة من الجنوب في عدن بمنطقة الطائف ومكة . ولم تكن في حاجة إلى مثل هذه المدن في صلب التاريخ العربي والجغرافيا العربية بعد تصحيح مواقعها ، التي أقحمها واضعو الجغرافيا التوراتية المغلوطة في أرض فلسطين تحقيقا لأغراض استعمارية معينة .

إن تعامل إيبلا ، وغيرها من المدن العربية السورية الأخرى التي قد تكتشف فيما بعد يؤكد حقيقة وحدة الدولة . وإن الرد على أية إثارات جدلية صهيونية ينبغي أن ينطلق من هذا المنطلق ، لا من سواه ، إذ إن نفي وجود مثل تلك المدن في وثائق إيبلا ، والرد بذلك على ادعاءات الصهاينة ، يؤكد في أذهان القراء الأجانب فكرة أن للصهيونية حقائق ما في المنطقة ، وكأن نفي ورود أي ذكر لتلك المدن يعتبر هدفا من أهداف الصراع القائم بين واقعين عربي ، وتوراتي يهودي ، وهذا بالضبط هو ما تبغيه الصهيونية من خلق مثل تلك الضجة المفتعلة .

إن أية دراسة لتاريخنا ينبغي أن تضع في اعتبارها عروبة هذا التاريخ ووحدته الحضارية والثقافية والسكانية والجغرافية . ولا يشذ عن ذلك قوم إبراهيم وموسى ثم الكهنة الذين صنعوا اليهودية وتوراتهم ، رغم ما فيها من تشويه وتزوير لبعض الإنتاج الأدبي العربي ولحقائق التاريخ .

ومن هذا المنطلق وحده يمكن تعرية الصهيونية ، التي تجند العالم في حركة استعمارية استيطانية للمنطقة ، وتزور حقائق التاريخ والواقع باعتمادها على الربط بين يهود اليوم وعرب الأمس الآراميين . إن ذلك ليس أقرب إلى الحقيقة من ربط مسلمي الفيلبيين ، والاتحاد السوفييتي ، وملايين المسلمين المنتشرين في أصقاع العالم ، بالنسب إلى محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي . فأينما كانت جغرافيا الأحداث التوراتية وأيا كانت إنما هي جغرافيا عربية أنتجت كل الديانات وصدرتها إلى شتى أرجاء المعمورة ،وليس ليهود العالم اليوم أية علاقة بها ، كما لا علاقة لهم بالنسب إلى إبراهيم أو يعقوب (الذي هو إسرائيل) ولا يربطهم بأولئك الآباء العرب الموحدين إلا مثل ما يربط مسيحيي العالم اليوم بالنسب إلى عيسى المسيح ، ومسلمي العالم اليوم بالنسب إلى محمد .

الفصل العاشر

بوابة كنعان

إنني ، ما إن أفكر بالبدء في ولوج هذه البوابة حتى تتملكني الحيرة ، ويستبد بي الهم والشعور بكبر حجم المهمة ، وكل ذلك يعود إلى شعوري بأن أبوابا كثيرة ، قد يكون لا حصر لها ، سوف تطل علي من كل الأنحاء مثل المقل المعمية أو المعطلة ، حينما ألج بوابة كنعان .

لقد اختلطت خلف هذه البوابة كل الأمور ، والتصقت وتشابكت كل الحقائق التاريخية والجغرافية على السواء ، وصار التاريخ من خلفها كائنا مشوها . لقد تراكمت كل المخلوقات العجيبة والتصقت بجسد التاريخ العربي ، وأصبح هو الضحية ، دون أن يتمكن من الفكاك منها . فأنت ما تكاد تحاور جانبا من هذا التاريخ حتى يطل عليك مخلوق ليس له هوية ولا وجه ، بل وجوه كثيرة ، وأفواه كثيرة ، تحكي بلغات كثيرة ، حقائق كثيرة ومتناقضة .

إن على كل من يلج بوابة كنعان أن يتسلح بالعلم والصبر ، وأن يخوض معركة " فك ارتباط" جد قاسية ، من أجل تحرير هذا التاريخ العربي من كل ما ألصق به عمدا وجهلا من المخلوقات الطفيلية ، ثم ترك مرميا خلف البوابات المهجورة الرطبة .

وقبل أن نعد العدة ، ونفتح بوابة كنعان ، نرى أنه لابد لنا من تهيئة القارئ لمثل هذا الجو الذي ينتظرنا خلف البوابة ، ونتركه يتمثل معنا ،الحقائق التالية :

1ـ من الطبيعي أن الشعب الواحد ، الذي يتكلم لسانا واحدا ، سوف يجد نفسه في شتى مناطق تواجده ، يتمثل ثقافة واحدة ، وحقائق واحدة ، تعيش وتحمل مع الكلمات . وإن حقيقة وحدة الأسماء ، سواء أكانت للأشخاص أم للمواقع أو المدن ، ليست إلا واحدة من أبسط هذه الحقائق المحمولة والمكرورة .

فكما أننا نجد زيدا وعمـرا في العراق وشبه جزيرة العرب ، فإننا نجدهما في سـوريا ، ومصر ، وفلسـطين ، والمغرب العربي . وكما نجد إيل ، وحدد، وشـمس ، وعشتار، وعناة ، هناك ، فإننا نجدهم ونجد أيضا بيت إيل ، وبيت شمس ، وعين شمس ، وبيـت عانا وغيرها في كل مكان من أرض العرب .

إن هذه البديهية ، إن كانت تؤكد شيئا ما ، فهي تؤكد ، قبل كل شـيء ، وحـدة الشعب العربي منذ العصور التاريخية الأولى الموغلة في القدم .

.ولهذا ، وعند دراسـة مرحلة زمن التـوراة وما بعدها ، ينبغي ألا تجرفنا ــ مثلما كان يحدث حتى اليوم ــ ظاهرة تشابه الأسـماء في المنطقة العربية لنسلم بما يبنى على هـذه الظاهرة من تاريخ مزيف وجغرافيا كاذبـة ، دون أن نتحرى في البحث والتدقيق كـل ما يصل إلى أيدينا ويتعلق بتلك المرحلة تحديدا . إن تاريخنا ــ بكل بساطة وثقة نقول ــ ينبغي أن يكتب من جديد بأيدي باحثين ثقـاة منا، يعتمدون على ما تقدمه المكتشفات الاثاريـة والمصادر التاريخيـة العربيـة الوفيرة صارفين النظر عن كل ما كتبه المؤرخون التوارتيون من جهة ، ومؤرخو الحقب الاستعمارية المتتالية ، الضالعون في تشويه تاريخنـا من جهة أخرى .

2 ــ ثمة حقيقة أخرى نريد أن نلفت الأنظار إليها ، وهي أنه مع توفر وحدة الشـعب ، وبالتالي وحدة اللغة ، فليس ضروريا أن نبحث عن التاريخ الزمني من خلال تلك الأسماء أو التسميات . وبكلمة أخرى ، إننا حينما نعثر على إحـدى المدن التي كانت تسـمى "صور" مثلا في عمان ، ثم على "صور" في غرب شبه الجزيرة العربية ، ثم على ثالثة على ساحل البحر المتوسط ، وإن كل واحدة منها تسـبق الأخرى في الزمن ، فإنه لن يكون صحيحا دائما أن نفترض وجود هجرة أو حركة للشعب العربي من "صور" القديمـة إلى صور الأكثر حداثـة في الزمن ، علما أن هذا الشيء ليس خطأ إن وقع ، وهو محتمـل الوقوع ، لكن هذا ليس إلا احتمالا جد ضئيل حينما نتحدث عن شـعب كالشـعب العربي ، وأرض كالأرض العربية ، يمتد وجودهما المشهود آثاريـا إلى أكثر من عشـرة آلاف عام في شتى مناطق وجود "صور" الثلاثة .

وقبل أن نشـــرع في دراسة هذه الاختلاطات ، نبدأ معها عملية "فك ارتباط تاريخيـــة وجغرافيـــة ، نرى ضرورة البدء من البوابة الأولى التي اختبأت من خلفها كل البوابـــات الفرعيـــة الأخرى ، وأقصد بها "بوابة كنعان " . ومن أجل هذا فإنه لا مندوحة لنا مـــن تحديد مواقـــع كل من العرب الحاميين (مصر وكنعان وكـــوش وفـــوط) ، والعـــرب الساميين من أبناء آرام تحديدا ، وهم بنو جديس ، وعبيل ، وجاثر ، وعوص ،وثمـــود ، وعبد ضخم ، ومن العرب أبناء لاوذ ،الذين يهمنا أمرهم هنا العماليق .

أ ـ العماليق في المصادر العربية :

يقول الطبري في تاريخه :

" ولد للاوذ بن سام طسم وجديس ، وكان منـــزلهما اليمامة . وولد للاوذ أيضا عمليق بن لاوذ ، وكان منـــزله الحرم وأكناف مكـــة ، ولحق بعض ولده بالشام فمنهم كانت العماليق ، ومن العماليق الفراعنة بمصر "[1]

" وولد للاوذ مع الفرس طســـم وعمليق ، ولا أدري أهـــو لأم الفرس أم لا . فعمليق أبو العماليق كلهم ، أمم تفرقت في البلاد ، وكان أهل المشرق ، وأهل عمان ، وأهـــل الحجاز ، وأهـــل الشام ، وأهل مصر منهم ، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقـــال لهم الكنعانيون ، ومنهم كانت الفراعنة بمصر ، وكان أهل البحرين وأهل عمان منهم أمة يسمون جاسم ، وكان ساكنو المدينة منهم بنو هف ، وسعد بن هزان ، وبنو مطـــر ، وبنو الأزرق ، وأهل نجد منهم : بديل وراحل وغفار ، وأهل تيماء منهم ، وكان ملـك الحجاز منهم بتيماء اسمه الأرقم ، وكانوا ساكني نجد مع ذلك .وكان ساكني الطـــائف بنو عبد ضخم حي من عبس الأول ... فكانت طسم والعماليق وأميم وجاســـم قومـــا عربا لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي " [2]

---

(1) تاريخ الطبري ، الجزء الأول ص142.
(2) المصدر السابق ، ص140.

فالعماليق إذن الذين كانت منهم الجبابرة بالشام (ودعوا كنعانيين) والفراعنة بمصر ، هم عرب من أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وليسوا كنعانيين من أولاد كنعان بن حام بن نوح ، وكانت مناطق انتشارهم تغطي شبه الجزيرة العربية تقريبا ، مع قسم من الشام ، وحكموا مصر ، أي أن منهم الملوك الذين يحكمون في مصر ، ويتضح من قول الطبري أن هؤلاء العماليق عرب ساميون ، ينتسبون إلى لاوذ بن سام بن نوح ، وليس إلى كنعان بن حام بن نوح .

ويضيف الطبري : " فنزل بنو سام المجدل سرة الأرض ، وهو ما بين ساتيدما* إلى البحر ، وما بين اليمن إلى الشام . وجعل الله النبوة والكتاب والجمال والأدمة والبياض فيهم " .

وإذا ما تابعنا مواقع هؤلاء العرب العماليق الساميين عند الطبري نجد أنه عند حديثه عن يوسف بن يعقوب ، مثلا ، يقول " إنه لما تمت له (ليوسف) ثلاثون سنة ، استوزره فرعون ملك مصر واسمه الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وأن هذا الملك آمن ثم مات ، ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن الليث (أو السلواس) بن فارن بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح " (1)

وحين حديثه عن موسى يقول : " وخرج إلى مدين خائفا وله إحدى وأربعون سنة ، وكان فرعون مصر في أيامه قابوس بن مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني ، وكانت امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول ... وتوارثت الفراعنة من العماليق ملك مصر"

من هذين القولين نستنتج أن مصر المقصودة هنا هي عشيرة المصريين أبناء مصرا في شبه جزيرة العرب وليست مصر وادي النيل ، إذ في زمن خروج موسى من مصر حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان الملك رعمسيس الثاني ملك مصر وادي النيل وليس

* تعني وادي الدم باللهجة السريانية الشرقية . وما تزال وادي الدم جنوب مكة إلى اليوم .
(1) المصدر السابق ، ص255

قابوس بن مصعب بن معاوية . ثم إن استعراض بعض أسماء أولاد عمليق مثل عمرو ، وفاران ، وأراشه ، وليث ، يذكرنا بمنطقة جغرافية محددة في غرب شبه جزيرة العرب هي منطقة الليث ، وبلدة مرائة التي هي في سراة زهران ، وبرية فاران التي هي شمال شرق بني سار .. ومنطقة الريان قرب مكة .

أما عن الآراميين فيقول الطبري في تاريخه :

" وولد أرام بن سام بن نوح بن عوص بن أرم ، وحويل بن أرم ، فولد عوص بن أرم غاثر بن عوص ، وعاد بن عوص ، وعبيل بن عوص . وولد غاثر بن أرم بن ثمود بن غاثر ، وجديس بن غاثر ، وكانوا قوما عربا يتكلمون بهذا اللسان المضري ، فكانت العرب تقول لهذه الأمم العرب العاربة لأنه لسانهم الذي جبلوا عليه ، ويقولون لبني اسماعيل العرب المتعربة ..فعاد، وثمود ، والعماليق ، وأميم ، وجاسم ، وجديس ، وطسم هم العرب العاربة "[1] .

أما اسم حويل فإن بلدة حويل ما تزال تحمله حتى اليوم ، وهي شرقي منطقة الليث ، وكذلك عبيل وبلدة عبيل الأثرية شرقي منطقة زهران على حوض نهر رنية ، أما اسم جديس (بالجيم المصرية) فتحمله بلدة جدش ، أو قادش في برية صين التي هي بين وادي عردة والبرية الواسعة التي هي سيناء وفيها وادي طوى يظهر حتى هذا اليوم واضحا على خارطة المنطقة .

وإذا ما عدنا إلى الطبري حول العرب الكنعانيين الحاميين فإننا نجد :

" وكانت امرأة حام بن نوح نحلب بنت مأرب بن الدرمسيل بن محوئيل بن خنوع بن قين بن آدم ، فولدت له ثلاثة نفر : كوش بن حام ، وفوط بن حام ، وكنعان بن حام ، فنكح كوش بن حام قرنبيل ابنة بتاويل بن ترس بن يافث ، فولدت له الحبشة والسند والهند *، ونكح فوط بن حام بخت ابنة بتاويل بن ترس بن يافث ، فولدت له القبط قبط مصر فيما يزعمون ، ونكح كنعان بن حام أرسل ابنة بتاويل بن ترس بن يافث ،

---

(1) المصدر السابق ، ص 140 ــ 141 .

* المقصود سكان تلك المناطق ممن هم من أصل عربي .

فولدت له الأساود : نوبة ، وفزان ، والزنج ، والزغاوة ، وأجناس السودان كلها .[1]

ويضيف الطبري في مكان آخر : " وأما حام بن نوح فولد له كوش ومصرايم و قوط وكنعان . فمن ولد كوش نمرود المتجبر الذي كان ببابل ، وهو نمرود بن كوش بن حام ، وصارت بقية ولد حام بالسواحل من المشرق والمغرب والنوبة والحبشة وفزان ، قال ويقال إن مصرايم ولد القبط والبربر ، وإن قوطا صار إلى أرض السند والهند فترلها ، وأن أهلها من ولده "[2]

فالكنعانيون هؤلاء ، الذين هم أبناء كنعان بن حام ، إذن لم يترلوا منطقة أواسط شبه الجزيرة العربية والمناطق الغربية الشمالية منها الصاعدة إلى الشام ، بل هم الذين تبعوا السواحل الشرقية وصولا إلى الهند ، والجنوبية وصولا إلى أواسط افريقيا ، ونزل قسم منهم على السواحل الشرقية للبحر الأحمر وعلى الأخص بلاد غامد وزهران ، وهؤلاء تحديدا هم الذين يقترن ذكرهم دائما ، في قصص التوراة وغيرها من المصادر القديمة ، مع المصريين والكوشيين ، ويتاخموهم في سكناهم .

يقول الطبري :

" في خبر عن أبي صالح ، وعن أبي مالك ، عن أبن عباس ، عن مرة الهمداني ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن أول ملك في الأرض شرقها وغرها نمرود بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح ، وكانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة : نمرود وسليمان بن داود ، وذو القرنين وبخت نصر ، مؤمنان وكافران "[3]

وليس من شك في أن هذا الحديث يستحق أن نتوقف عنده :

1 ــ فالرسول العربي كان أعلم الناس بأحوال العرب وتاريخ المنطقة في شبه جزيرة العرب كلها، وهو حينما يقول " إن أول ملك في الأرض " لم يكن يعني الكرة الأرضية، بل ولا الأرض العربية كلها : فنمرود لم يملكْ في مصر وادي النيل مثلا ، وسليمان ــ

---

(1) المصدر السابق ، ص 139.
(2) المصدر السابق ،ص 141.
(3) المصدر السابق ، ص 163 .

حتى في أوسع جغرافيا مزورة عن التوراة ، بقي ملكه محصورا في بقعة ضيقة من الأرض العربية المقدسة في شبه جزيرة العرب والتي تشمل المنطقتين غربي جبال عسير (السراة) وشرقيها . وقد حدثت من أجل السيطرة عليها منازعات كثيرة بين أولئك "الملوك" الذين هم ملوك عشائر على المحطات وبين حكام الدولة العربية السورية المركزية، كما سبق أن ذكرنا ، نتيجة لأهمية موقعها على خط القوافل التجارية الدولي .

2 ـ يتبين من نسب نمرود هذا أنه ابن كنعان الذي هو ابن كوش بن حام ، وهنا نصل إلى قصدنا من البحث عن أولئك الكنعانيين الذين يجاورون الكوشيين والمصريين ويتاخموهم في بقعة واحدة من الأرض ، وينتهي ذلك اللبس فيما بينهم .

3ـ فالمصريون ، والكوشيون، والكنعانيون ابناء الكوشيين هم ، إذن ، في منطقة واحدة في جنوب شبه جزيرة العرب ، وفي المنطقة نفسها يوجد أيضا الكنعانيون والعموريون الساميون من العماليق ، وكذلك الآشوريون الذين هم من عشيرة أثوريم المجاورة من أبناء إبراهيم من زوجته قطورة وليسوا الدولة الآشورية التي مركزها على الدجلة .

أما كلمة "الشام " فلم يكن يقصد بها سوريا الطبيعية و المتوسطية كما قد يعتقد البعض، بل اليسار أو الشمال من الأرض المقدسة في مركز شبه جزيرة العرب .

ب ـ في المصادر العربية القديمة :

1ـ سانخونياتن (أو بداية المؤامرة) :

لم تصلنا آثار حقيقية مكتوبة من زمن الفينيقيين وعنهم ، رغم أنهم مبتكرو حروف الأبجدية ومعلمو الناس الكتابة لأسباب كثيرة ومختلفة ، وكل ما وصلنا منهم هو قطع مبعثرة في تراث هذا الشعب أو ذاك مما بقي بعد التلف أو التدمير الطارئ والمتعمد ، العفوي والمصطنع ، نتيجة لحسد وأحقاد كثير من غلاة التعصب العرقي أو الديني ، أو الاثنين معاً .وإن ما بقي عنهم ومنهم في تراث الآخرين ، ولاسيما البيزنطيين ، إنما كان نتيجة الحاجة إلى استشهاد عابر ، أو لاثبات حجة أو حادثة لا تخص العرب الفينيقيين ، أو لرغبة في الإساءة إليهم أو التشهير بهم . ومن المعلوم أن العرب عموماً ، وبكل

تســـمياتهم ، سومريين ، وبابليين ، وأموريين ، وآشوريين ، وكنعانيين ، وفينيقيـــين ، وسوريين ، كانوا أول من اهتم بالتاريخ ، وبتسجيل أحداثه بـــروح العلـــم والمنطـــق والموضوعية بعيدا عن كل أوهام رجال المعابد وغيبياتهم . وكانت تلك التواريخ تحفظ في المعابد ، وتوضع تحت تصرف طالبيها من المهتمين بالتاريخ وبأحداثه . وكان ثمة لجـــان يلجأون إليها عند النظر في أي تســـجيل للتاريخ يقدم إلى المعبد من أجل حفظه ، تكون مهمتها فحص هذا التاريـــخ وتدقيقه ، ولهذا فليس من السهل أن نتصور مدى فـــداحة الخسارة التي خسرتها البشـــرية نتيجة لتدمير التراث العربي الســـوري القديم في التـــاريخ السابق للمسيحية نتيجة للتعصب الديني ، تارة بحجة كونه تراثا وثنيا ، ونتيجة للحقـــد العنصري والقومي تارة أخرى ، كما فعل الغزاة .

أما ســـانخونياتن هذا فهو أحد أشهر المؤرخين العرب الســـوريين ، والعالم الذي يقـــول عنه معاصروه ومن أتى بعده بأنه مؤسس علم التاريخ .

يقول عنه المؤرخ السوري ملك (بورفيريوس) :

" سانخونياتن البيروتي يقص مع الحرص الكبير على الحقيقة ، جميـــع ماله علاقة باليهود، لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء ، وقد كانت بين يديه مذكرات ألفها جيروم بعل كـــاهن الإله " ايو" ، و جيروم بعل كان قدم تاريخه لأبيبعل ملك بيروت ، فتلقـــاه هو وجماعـــة كلفت بفحصه والنظر إلى ما فيه من حقائق . وزمن هؤلاء الناس يعود إلى ما قبل حرب طروادة ، وهو ما يقارب الزمن الذي عاش فيه موسى كما يدل على ذلك تعاقب ملوك فينيقيا . أما بخصوص سانخوتيان الذي يعني لقبه طالب الحقيقة (Philelethe) فقد جمع جميع التاريخ القديم من المعابد الموجودة في كل مدينة ، وصنف تاريخه منها . وهو عـــاش في زمن سميرا ميس ملكة الآشوريين . ويقـــدر أنه في سنوات سابقة لها ، أو على الأقـــل تتوافق مع زمن حوادث اليون (طروادة) . وبالنهايـــة فإن فيلون الجبيلي ترجم إلى اللغـــة اليونانية كتابات سانخونياتن " [1]

---

(1) " التمهيد للحياة الانجيلية " ترجم الجزء الأول منه إلى العربية يوسف الحوراني تحت عنوان " نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الاغريق " ص28 ــ 30 .

ومن أجل أن نتعرف على حقيقة المؤامرة ضد تاريخ سوريا منذ بدايتها رأينا أنه لابد من التعريف بحقيقة هذا المؤرخ العالم الفيلسوف العربي السوري سانخونياتن (أوساكونياتن ، أوشكونياتن = الإله سكو* ــ أو شكو يعطي) ، وحقيقة ما جرى لمؤلفاته من بعده . إن "ساكونياتن " يكتب تاريخ سوريا في تسعة مجلدات . وهو لما كان معاصرا لأحداث حروب الموسويين في عنفوانها . ويسجل أحداثها بروح المؤرخ العالم الناقد الموضوعـي ، بشهادة خصومه ، معتمدا على معايشة المعاصرين للأحداث من جهة ، وعلى سـجلات الأحداث المحفوظة في المعابـد ، ومذكرات غيره من المؤرخين الآخرين المعتمدة من قبـل لجان الفحص والتدقيق ، من جهـة أخرى ، فقد كان لابد لمؤلفاته من أن تجد نفسـها وجها لوجـه أمام مدوني أحداث التوراة فيما بعد بكل ما افتعلـوه مـن تحريفـات ومبالغات في بعضها ، وما انتحلوه أو شوهوه وبدلوا فيه في بعضها الاخر . وليس هـذا فحسـب ، بل إن التعصب الخارجـي فيما بعد كان لا يرضيه ذلك التفوق الحضـاري السـوري السابق للإغريق وللرومان ، والذي تشهد عليه بدقـة وعلميـة مؤلفـات "سـاكونياتن ". إن مما يرعب الغربي فعـلا هو أن يجد نفسه تلميذا صغيرا عند أساتذته السوريين في كل المجالات . وليس أشد فعلا في نفسه وإثارة للغضب من أن يرى تراثـه في معظمه ، من صنع السوريين . إن أسماء الآلهة والأمكنة، والمدن، والمواقع ، والعلماء ، والفلاسفة ، والأدباء ، ومخترعي الكتابـة ، وغير ذلك من مجالات الحضارة الأخـرى سوف تجد أصولها العربية السورية من خلال مؤلفات "ساكونياتن "مهما لقيت ، بفعـل تراكم الزمن ، من تحريفات وإضافات على أيدي البيزنطيين الهمج الذي دمـروا كـل المعابد في سوريا بكل ما تحفظه من تراث زمن تيودوسيوس ، كي يجعلوا التراث السوري في الغرب تراثا إغريقيا لا علاقة فيه لأحد ، وذلك بعد أن فصلوا الإغريق عن جذورهـم السورية تحديدا . وحينما اصطدم السوريون ، المتفوقون حضـاريا ، بالشكل الحضاري الأغريقي ، الذي اعتبروه تقزيما للنسخة السورية الأصلية، ضاقوا ذرعا بالمصير الذي آلت

* مازال يحمل اسمه " جبل سك "شمال شرق زهران في شبه جزيرة العرب . واسم "ساخو" مازال مستعملا بين العرب السوريين (السريان) على نطاق واسع حتى اليوم .

إليه هذه الحضارة في الغرب على أيدي النقلة . وفي الشـــرق كانت العملية قد تمت على أيدي مدوني التوراة من أبناء بعض القبائل العربية البدويـــة الذين مسخوا ، بطريقتـــهم الخاصـــة النابعـــة من طبيعتهم القبلية المتعصبة ضد الكنعانيين صورة الحضارة العربيـــة السوريـــة ، وعبثوا بكثير من حقائق التاريخ والجغرافيا والفكر والأدب التي كانت قـــد حققتها الحضارة العربية السورية قبل عشرات القرون . وكان من أبرو أولئك يوسيفوس اليهودي في القرن الأول الميلادي .

في هذه المرحلة بالذات بدأ الشعور بالخطر يسيطر على المثقفين السوريين فانبرى أحـــد أولئك المثقفين من مواطني ملك (برفيريوس) إلى مهمة الدفاع عن الحضـــارة العربيـــة الســـورية التي تألبت كل قوى الخصوم من أجـــل طمسها وانتحالها . فكتب كتابـا في نقد التاريـــخ الاغريقي في ثلاثـــة أجزاء كان يغتنم فيه كل فرصـــة من أجل التعريـض بأولئك الذين حرفوا حضارة ســـوريا وعقائد السوريين ، إنه فيلون الجبيلي (حوالي 61 — 141م) .

ثم إنه — على ما يبدو — لم يجد أشد فعلا وتأثيرا في معركتـــه مع خصومه ، من أجـــل الحفاظ على ثقافـــة وتراث بلاده، من أن يرجم إلى اليونانية أعمال مواطنه(ساكونياتن). لقد كان لظهور مؤلفات "سكونياتن" باليونانية وقع الصاعقة فعلا ،كما توقع فيلـــون . لقد رأى الآخرون بأم أعينهم كيف أن التراث الأغريقي برمته يقوم على أساس الحضارة السورية . ولقد تصدى كثير منهم ، ثم من البيزنطيين ، ثم الأوربيين ، بوجه عـــام ، إلى ما قام به فيلون ، وأخذوا يشـــككون بصحة وجود مؤلف بهذا المضمون لمؤرخ اســـمه " ساكونياتن " ،واعتبروا ذلك عملا مقصودا ضد الاغريق والغرب عامة . وقد وصلـت مشـــاعر الضيق هذه إلى مفكرين من العصور الحديثـــة أمثال رينان ، ومولر ، وغروب وغيرهم ، فأخذوا يشككون بصحة الوقائع ، وصاروا يعتبرونها اقتباسا عـــن الحضـــارة الاغريقية . إن أكثر من ثلاثة آلاف عام ، بما راكمته من عوامل الترسيخ لكل ما هـــو إغريقي والنسيان لكل ما هو ســـوري في الأذهان ، كانت تشـــفع لأولئك البـــاحثين المتشككين . لكنهم ، كلما كانوا يحاولون إزاحـــة فكرة الأســـاس الحضاري السوري

للتراث الاغريقي عموما كانت تصدهم حقيقة الأسماء :سواء أكانت للآلهة ، أم للمدن ، أم للجزر ، أم للمعادن ، أم لأحرف الأبجدية ، أم للأدوية والنباتات الطبية ، أم لغيرها .

وإذا ما حذفت النصوص المكتوبة الشواهد على قوة تأثير الحضارة السورية في حضارة الغرب عموما فإن ما يبقى من أسماء المدن ، والجزر الكبرى والصغرى ، والآلهة ، كان وحده كافيا للدلالة على قوة ذلك التأثير . إذ من المعروف أن مثل تلك الأسماء لا يمكن أن يطلقها أحد غير أصحاب السلطة فيها . إن اسم القارة أوروبا ، وأثينا ، ومرسيليا ، وسلاميس ، وترشيش ، وكريت ، وساموس ، وبيلو ، ومالطا ، وزيوس ، وحيرا ، وفينيسيا (فينيقيا) ، وأدونيس (أدوني) ، وثيبا (طيبا) ، واستر (عشتار ـــ الكوكب ، الزهرة) وأتيكا (العتيقة) ، وغيرها كثير ... ليست جميعها إلا شواهد لا تمحى على عمق التأثير العربي السوري في حوض المتوسط عموما ، وعلى الإغريق بوجه خاص .

وهكذا وجد "فيلون" نفسه يتصدى لعدة خصوم دفعة واحدة في معركة الدفاع عن تراث سوريا وحضارتها .

لقد كان عليه أن يعيد ذلك التقليد العلمي في كتابة التاريخ الذي امتازت به بلاده إلى أصالته ، فكان لابد من التصدي لمدونات التوارة بما فيها من تشويه وإجحاف وتبديل للمواقع والأسماء ، وتشويه للتراث .

وكان عليه أيضا أن يجابه هجوم الرعيل الأول من مؤسسي الكنيسة بما يحملونه من تعصب ضد كل ما هو سابق للمسيحية .

يقول يوسف الحوراني في مقدمة الترجمة للجزء الأول من كتاب أوزيب "التمهيد للحياة الإنجيلية " : " فالمسيحية الأولى لم تكن في موقفها من العقائد الفينيقية غير يهودية متجددة ، مفعمة بالحقد على الكنعانيين وعقائدهم ومعطيات ثقافتهم ، حتى يخال المرء الذين حكموا على كتب الفلسفة بالحرق هم أحفاد الكهنة الذين حكموا على

يسوع بالصلب ، وعلى كهنة البعل بالقتل فوق الكرمل* في زمن إيليا التشبي الذي كان لاجئا في لبنان** البلد الأصل للبعل وكهنته وعبادته " [1] .

وفي هذا الصدد يقول العلامة البطريرك أفرام الأول برصوم في كتابه " اللؤلؤ المنثـــور في تاريخ العلوم والآداب السريانية " : " ... وكان جدودنا حين اعتناقهم الـــدين المسيحي المبين وتذوقهم حلاوته ضحوا في سبيله بأغلى ما عندهم ، فأحرقوا كل الكتب والآثـــار المدنية والعلمية خشية أن توقع معالمها الوثنية أحفادهم قي شرك التوثن" [2] .

لكننا نضيف أن المؤامـــرة كانت قد أحكمت خيوطها من الطرفين الغربي البـــيزنطي في تلك الفترة والكهنة التوراتيين الذين تستر بعضهم تحت قناع التنصر ، فذهبت جماهـــير السوريين من المسيحيين البسطاء ضحية لصدق إيمانها وصفاء طويتها وأســـلمت كل مـا لديها من الكتب والآثار المدنية والعلمية للحرق والتدمير .

قبل أن نتحدث عن "أوزيب" وعن "منجزاته" في تدمير أغلى كنـــوز الحضارة العربيـــة السورية ، ولاسيما في الفكر والتاريخ والفلسفة والدين ، نـــرى أن نمهد لذلك في لمحـــة تاريخية موجزة عن الفترة التي سبقت وأنتجت مثل " أوزيب " .

لقد حلت الكارثة بالدولة العربيـــة السوريـــة ، وسقطت بابل في أيدي الفرس . ورغم سقوطها العسكري فقد بقيت الثقافة العربية هي السائدة والمسيطرة وبقيت اللغة العربيـــة هي اللغـــة الرســـمية في الإمبراطورية الفارسية كلها ، وبني أسطول من أجل فتح خـــط بحري تجاري بين فارس ومصر ، وكان الفينيقيون عماد هذا الأسطول .

ولقد كانت التوراة التي دون كثير من أسفارها في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد ، تعـج بأسماء تفصيلية لقرى ، ووديان ، وآبار ، وأشجار ، وجداول صغيرة ، بل وبيـــوت ، ومضارب خيام ، وكلها تـــدور في بقعة جبلية ضيقة لا يعرف أحد من أولئك القادمين

---

* كرم إيل في بلاد زهران .

** جبل لبنان شرق غامد . والكلمة جمع لبان أي الصنوبر أو البخور .

(1) انظر : الترجمة تحت اسم " نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الإغريق " ترجمة يوسف الحوراني ، ص 20 .

(2) اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية ، للعلامة البطريرك افرام الأول برصوم ، ص 17 .

منها شيئـــا ، وبالتالي إن شيئا ما لم يكن ليشدهم إلى المكوث في تلك الأرض بين أناس أغـــراب يختلفون عما كانوا يتصورونه في أحلامهم التي حذرهم إرميا من الوقوع فيـــها والاستسلام لتكهنات من يسمون أنفسهم كذبا بالأنبياء " لا تغشكم أنبياؤكم الذيـن في وسطكم وعرافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلموها "

وهنا بدأت لدى بعض أولئك عملية التحول والانتقال من شبه الجزيرة العربية إلى مواقـع أخرى .

وفي هذه المرحـــلة بالذات بدأت عملية التحريف والتبديل في الأســـماء الجغرافية الـــتي تتضمنها مدونات التوراة . فمن المعروف أن الكتابة العربية القديمة بكـــــل لهجاتهـــا لم تكن تحوي أحرفا صوتية ، كما لم تكن قد وضعت الحركات ، مما سهل مهمة تزويـــر أسماء المواقع الجغرافية التوراتية على كهنة التوراة .

وفي المرحلة التي دخل الاسكندر المكدوني السوري الأصل فيها سوريا ، وقاد اتحاد المدن السورية ضد الفرس وخلف وراءه الملوك السوريين السـلوقيين في سوريا والبطالمـــة في مصر ، ودب النزاع بين زعماء المملكتين ، بـــدأ كهنة التوراة تواجدهـــم الفعلـــي في سوريا الجنوبية ، ووجد اليهود الفرصة ملائمة لترسيخ الأقدام في المنطقة الجديدة . فقـام 72 كاهنا يهوديا بترجمة التـــوراة إلى اليونانيـــة في 72 يوما (لذلك سميت بالترجمـــــة السبعونية) وذلك في أواخر ما دعي حديثا بالعصر الهيليني ، وأحدثوا في بعض مسمياتها الجغرافية تزويرا كبيرا بحيث حـــدثت عملية الخلط الكبرى التي سبق أن استعرضنا بعض مـــلامحها . ثم جرى تدعيم ذلك على أيـــدي بعض المؤرخين اليهود أمثال " يوســـف" (يوسيبوس) الذي وضع كتابه " أيام اليهود القديمة " بعد عـــام 70 م بوقت قصـــير ، وتـــرك موضوع الجغرافيا ضبابيا عائما مما ســـهل للآخرين فيما بعد عملية الـــتزوير في التفسير الجغرافي لكل أحـــداث التوراة .

ولما كانت مـــؤلفات " ســـاكونياتن " التي ترجمها فيلون الجبيلي إلى اليونانية ، وكذلك مؤلفات فيلون نفسه ، تفضح حقيقة التزويـــر في التاريخ والجغرافيا ، إذ إن ســـاكونياتن كان قد سجل أحداث معارك اليهود في شـــبه جزيرة العرب بالتفصيل ، وتشكل خطرا

حقيقيا على مشروع الديار المقدسة اليهودية الجديد ، فقد كان لابد من التصدي لتلك المؤلفات بكل الوسائل .

وهنا تبدأ المؤامرة الفعلية ، ويظهر دور أوزيب على حقيقته . وقبل أن نتحدث مفصلا عما وصل إلينا من شذرات من مؤلفات ساكونياتن وفيلون ، فإننا نجد من الضروري التعريف بـ " أوزيب" هذا .

أوزيب اليهودي المتنصر يدمر مؤلفات فيلون وساكونياتن :

عاش أوزيب (أوسيبوس) بين 264 ــ وحوالي 390م . ولم يعرف أصله وأسرته ، حتى اعتقد كثير من المؤرخين بأن هذا الاسم مستعار لشخصية لم تعرف من هي تحديدا. قيل فيه آراء متناقضة : فمنهم من قال إنه خرج على الإيمان ، وسجن في قيصرية ، ولكنه لم يعذب أو يعدم ، وقيل إنه كان صديقا حميما لقسطنطين ومعجبا به ومتحمسا له ، حتى إنه كان يجلسه عن يمينه ، وعهد إليه بمهمة افتتاح مجمع نيقيا ، وعينه اسقفا لقيصرية ، وحضر تدشين أول كاتدرائية في صور ، ووصفها في كتابه .

وضع أوزيب عدة مؤلفات تاريخية من بينها " التاريخ الكنسي" فاعتبر أول مؤرخ للكنيسة . وقد كتب أيضا في فلسفة المسيحية وفي أسماء الأشخاص والأماكن المذكورة في العهد القديم . وقد كتب كتابا يرد فيه على ملك السوري (برفيريوس) ، كما وضع كتاب " الاستعداد للحياة الإنجيلية " وقد تمكن من أن يلازم بامفيلوس الفينيقي الشهير وينال ثقته في قيصرية في جنوب سوريا . وصار ينتسب إليه إمعانا في الوصول إلى غايته، فصار يدعى أوزيب البامفيلي . ثم تمكن من أن يحصل على مؤلفات ساكونياتن وفيلون من مكتبة بامفيليوس بعد موته ، ثم أخفاها بعد أن انتحل لنفسه كثيرا منها وطمس الباقي .ولولا محاولته على الرد على فيلون وبرفوريوس وساكونياتن في أحد كتبه ، وسعيه إلى التشهير بهم وإلى الحط من فكرهم وأقوالهم ومعتقداتهم في مؤلفاتهم لما تمكنا من أن نعرف شيئا عنهم ، ولاندثر ذكرهم كما اندثرت مؤلفاتهم التي كانت ــ كما تظهر من خلال تلك الشذرات المتبقية ــ كنوزا حضارية عالمية بحق . لكنه ومن

خــلال تعريضه بآرائهم ، ومن خلال النزر اليسير من الاستشهادات التي يسوقها يبـدو على حقيقته : القزم أمام العمالقـة . وليس هذا فحسـب ، بل هو يذكرنا من خـلال أقواله بالمثل القائل " يكاد المريب يقول خذوني " .

وحرصا منا على بقاء هذه الشـذرات وعلى انتشارها ، وشعورا بأهميتها الفائقة ، ومـا يمكن أن تقول لكل أولئك الذين يدرسون تاريخنا ، فقد رأينا أن نستعرض ما جاء فيـها مما يخدم الفكرة الرئيسية في البحث الذي نحن بصدده .

وقبل هذا لابد من القول إن " أوزيب " واحد من أولئك اليهود المتعصبين الذين فشـلوا في إثبات وجودهم في الواقع الحضاري السوري المتقدم ذي الصبغة العلمانيـة العالمية من موقع اليهودية القبلية المتعصبة بكل تخلفها العشائري . فخلع عنه الجبة اليهودية ، وتجلبب بالثوب المسيحي هو وكثيرون غيره في الوقت الذي كان هذا هو الحل الأمثـل . وتحت سـتار التعصب لقيم الدين الجديد خلعوا على هذا الدين الجديد الكثـير مـن بنـات أفكارهم ، وصبوا جام أحقادهم على التراث العربي السـوري الأدبي والعلمي والديـني فأحرقـوه ودمروه ، وسـنوا القوانين ووضعوا الأحكام من أجل ملاحقة وتصفية كـل العناصر السورية النشيطة بحجة الكفر والهرطقة . لقد التقى أوزيب ويوسيفوس وغيرهمـا من الكهنة اليهود في ذلك مع الحكام البيزنطيين الـذين كان لديهم الشعور بـ"العقـدة السـورية " يتضخم يوما بعد يوم مع التعرف على عظمة تراث السوريين . إن ذلـك بالذات هو ما قربه من قسطنطين ، وليس حب أحدهما أو كلاهما للمسيحية وإخلاصـه لها . فقد أكدت جميع المصادر أن أوزيب اتهم بالهرطقة وبالخروج على الإيمان في عهده ، ونال عقوبة السجن شكليا وسرعان ما أخـرج منه وقربه إليه قسطنطين وأجلسه عـن يمينه ، ثم عينه أسقفا ، علما أن قوانين الاضطهـاد الديني التي سنها قسطنطين نفسه ضد السـوريين كانت تجعل مثل تلك التهمة كافية لإعـدام الشخص المتهم ايا كـان هـو أو موقعه [1] .

---

(1) انظر : "نظرية التكوين الفينيقية " يوسف الحوراني ،ص20

أما قسطنطين نفسه ، الذي يؤكد كثير من الباحثين أنه ادّعى المسيحية لأغراض سياسية بحتة موجهة ضد سوريا ، فقد وجد في أوزيب وغيره من الكهنة اليهود أدوات جاهزة لاستخدامهم ضد المسيحية من جهة ، وضد السوريين عموماً من جهة أخرى . لقد كان كهنة اليهود وزعماؤهم -كعادتهم دائماً - يبحثون عن قوة ما ترضى باستخدامهم في المنطقة حراساً لمصالحها ولخطوط التجارة ، وتجعل منهم عيوناً وجواسيس على كل التحركات المعادية لها لقاء عمولة وامتيازات معينة . فقد جربوا ذلك مع الدولتين العربيتين في مصر وسوريا ، ثم عرضوا خدماتهم على الفرس إبان احتلالهم للمنطقة . وهاهم أولاء يرى فيهم المحتلون البيزنطيون ضالتهم المنشودة إبان احتلالهم لسوريا . لقد رأى فيهم قسطنطين أداة حقيقية لتحقيق مآربه وأطماعه الاستعمارية في سوريا. فعن طريق الانخراط في صفوف المسيحية التي جاءت رد فعل عربي سوري حضاري على كل التحديات الهمجية والتعصبية التي جابهت المجتمع السوري . وتحت شعار التعصب لقيم الدين الجديد كان يبغي هزيمة سوريا بمسيحيتها الجديدة ، وبفكرها وتراثها الحضاري الكبير ، بضربة واحدة معاً . علاوة على قطع أي طريق آخر لكل من خصميه ومنافسيه على المنطقة شابور ملك الفرس والإمبراطور الروماني .

"ولابد من أن نذكر عن الإمبراطور قسطنطين أنه لئن احتضن المسيحية وسعى لنشرها لكنه لم ينزع عنه لقب "الكاهن الأعظم " اللقب الوثني الذي يجعله حامي الدين ، لذلك لم يغلق من الهياكل الوثنية سوى التي أقفرت حين تنصر أتباعها وذووها ، والتي كانت مصدراً للرجس والعهارة . ولكي لا يجرح أحاسيس الوثنيين الكثيري العدد في رومية نقل عاصمته إلى بيزنطية سنة 330حيث وسّعها فنسبت إليه وصارت عاصمة القياصرة المسيحيين وارتأى بعضهم بأن قسطنطين لم يتقبل العماد المقدس حتى سنة 337م أي قبيل وفاته لمدة قصيرة ، وكان عمره آنذاك خمساً وستين سنة . فطوّبه بعد موته المسيحيون ، وألهه الوثنيون ، لأنه أفاد الأولين ولم يسيء إلى الآخرين " [1] .

---

(1) انظر : مار أغناطيوس زكا الأول عيواص بطريرك أنطاكية وسائر المشرق في كتابه "سيرة مار أفرام السرياني " ص13 ـ14 .

إن حماسة قسطنطين إذن لنصرة حملة الدين الجديد ، واضطهاد وتصفية مناوئيهم ، كانت مقتصرة على سوريا والسوريين فقط ، كما أن حماسة ذلك الرعيل من اليهود المتنصرين ظاهريا الذين حماهم قسطنطين وقربهم إليه وأنعم عليهم بالألقاب والامتيازات ، كانت تنصب بكليتها ضد التراث السوري وليس ضد التراث الوثني الروماني أو البيزنطي .

إن واقع العمالة للأجنبي هو ما انفردت وتميزت به عشائر اليهود المتخلفة في سوريا القديمة ، بعد أن انعزلت بعصبيتها العشائرية التي لم تبلغ مستوى القبيلة ، فتنافست فيما بينها من أجل الحصول على المكاسب من كل غاز أو محتل للمنطقة . وهكذا نرى أنه في زمن الاحتلال الروماني أيضا تتكرر النغمة ذاتها ، ويجد المحتلون الرومان في كهنة اليهود أدوات جاهزة من ذي قبل للاستخدام ضد أبناء وطنهم وقوميتهم العربية الواحدة لقاء بعض العمولات والامتيازات التافهة . " فكانوا في عهد الأباطرة معفيين من الخدمة في الجيش ومن الطقوس الواجبة نحو الإمبراطور . فلم يطلب منهم المساهمة في عبادة الحاكم الروماني المقرونة بتقديم القرابين له .

" وحصل الصدوقيون الذين كانوا يمثلون الفئة الأرستقراطية ويحتكرون الوظائف على تأييد روما "[1] وبالفعل كان الرومان يستخدموهم كوكلاء في بعض المدن أو المناطق أو على خطوط التجارة تماما كما استخدمهم السوريون والمصريون والفرس . " وعندما عهد إلى أنطونيو بشؤون الشرق أهمل الأسرة المكابية* ووضع مكانها الأسرة الهيرودية ، وكان مؤسس هذه الأسرة سياسيا أدوميا ** ماهرا وهو يهودي وقد منح الرعوية الرومانية وعينه يوليوس قيصر وكيلا للجباية عندما زار سوريا[2] .ولابد من الإشارة هنا

---

(1) فيليب حتي ، تاريخ سوريا " ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص375 .
*** نسبة إلى بلدة "مكاب" في منطقة جيزان من جنوب غرب شبه الجزيرة العربية .**
**** نسبة إلى أدوم وهي جبل سعير شرق بلاد زهران ، وأدوم هو الاسم الآخر لعيسو أخي يعقوب .**
(2) المصدر السابق ص311 .

إلى أن هـــذه الوكالة هي على الخط التجاري في شبه جزيرة العرب ، والمكابيون نســبة إلى مكاب جنوب أنها شرقي البحر الأحمر.

أما النصوص التي نـــوردها في هذا الصدد مما كتبه "أوزيب" نفسه ،فسوف نوردهـــا في معظمها ، تاركين أمر التعليق عليها إلى ما بعد العرض .

الفصل الحادي عشر

التمهيد للحياة الإنجيلية

القسم الأول

المدخل إلى سانخونياتن

كتب أوزيب في الجزء الأول من كتابه "التمهيد للحياة الإنجيلية " فقال :

....

(أوزيب)

ـ إن تعدد الآلهة ، هذا الضلال الذي أخذت به الشعوب ، ابتدأ عند الفينيقيين والمصريين ، وانتشر عن طريقهم إلى الشعوب الأخرى حتى وصل إلى اليونانيين . والتاريخ منذ الأزمنة القديمة يحمل البرهان على ذلك . وقد آن الأوان لأن نمعن النظر فيه بادئين بالفينيقيين .

إن سانخونياتن شخصية من العهود القديمة ، نستطيع أن نقول عنه ، إنه قبل زمن طروادة ، إذا شئنا تعيين الزمن الذي كتب فيه تاريخ فينيقيا . وهو يقص الأمور نفسها في تاريخه .

وقد قام فيلون الجبيلي ، وهو ليس فيلون اليهودي ، قام بترجمة جميع تاريخ سانخونياتن من لغة الفينيقيين إلى اللغة اليونانية ، وبذلك جعله معروفا .

وقد ذكر بورفيروس ، الذي يكتب الافتراءات ضدنا ، ذكر في كتابه الرابع هذه الأشياء ، مرددا كلمة فكلمة الشهادة التالية لسانخونياتن .

(بورفيروس)

ــ " سانخونياتن البيروتي يقص ، مع الحرص الكبير على الحقيقة ، جميع ما لـــه علاقـــة باليهود ، لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء[1] . وقد كانت بين يديه مذكرات ألفها جـيروم بعل ، كاهن الإله جينو ، وجيروم بعل كان قد قدم تاريخه لأبيعل ملك بيروت ، فتلقـاه هـــو وجماعة كلفت بفحصه والنظر إلى ما فيه من حقائق . وزمن هؤلاء الناس يعود إلى ما قبل حرب طروادة ، وهو يقارب الزمن الذي عاش فيه موسى ، كما يدل على ذلـك تعاقب ملوك فينيقيا[2] .

أما بخصوص سانخونياتن الذي يعني صديق الحقيقة بلغة الفينيقيين ، فقد جمع جميع التاريخ القديم في المعابـد الموجودة في كل مدينة ، وصنف تاريخه منها . وهو عاش في زمـــن ســـميرا ميس ملكة الآشــوريين . ويقـــدر أنه في سنوات سابقـــة لها ، أو على الأقل تتوافق مع زمن حوادث اليون* (طروادة) وبالنهاية فإن فيلون الجبيلي ترجم إلى اللغـــة اليونانية كتابات سانخونياتن "

(أوزيب)

ــ هذا ما شهد به المؤلف المذكور نحو حقيقة ذلك اللاهوتي وقدمه .

وهو نفسه يتابع فلا يحدثنا عن إله متعال ، ولا حتى عن آلهة سماويين بل عـــن رجـــال ونساء فانين .بل وليس عن أولئك الذين يتمتعون بميزات أخلاقية بارزة ، تجعلهم مثـــار الإعجاب ، بما لديهم من فضائل ، فيكونون نماذج تحتذى ، بروحهم الفلسفية ، لكـــن عن كائنات تنوء بما تحمل من فساد وشر ومخجلات . ويتفق أن يكون هؤلاء أنفســهم ، ومنذ ذلك الزمن لا يزالون معتبرين كآلهة من قبل جميع الناس بحسب المدن والأمكنة.

ولنأخذ البرهان من خلال مقتطفات من كتابه ذاته . وفيلـــون الـــذي وزع مجموعـــة سانخونياتن في تسعة كتب يعرفنا به مقدما إياه بهذه الكلمات في مقدمة الكتاب الأول :

* يتضح أنه كان لطروادة اسم عربي سوري هو "إيليون" ، نسبة إلى مؤسسها السوري إيليون .

(فيليون الجبيلي)

ـــ إن الأشـــياء هي هكذا : سانخونياتن شخصية جادة جداً ،ونشيطة جـــداً. وأراد فوق كل شيء ، معرفـــة ما هي مبـــادئ الأشياء ومما يتكون كل ما هو موجـــود . وقد بحث بإصــــرار كبير في تطبيق كتابات تاوتس بعـــد أن علـــم أن بـــين جميـــع الأشخاص الذين ظهروا تحت الشمس كان تاوتس هو الأول الذي ابتكر الحـــروف ، وافتتح مشروع الكتابة على المعابد، وهكذا يكون قد جعلها أساساً لجميع ما كتب ، وهذا هو نفسه الذي يدعوه المصريون تحـــوت Thoyt والإســـكندريون Thoth ويترجمه اليونانيون بهرمس "مركور" .

(أوزيب)

ـــ وبعد قول هذه الأشياء يكتب فيلون ضد جميع المستحدثات التي جاءت بعـــد هـــذه الكتابات ، وأدخلت قهراً ، وضد كل حقيقة ، استعارات وتفاصيل فيزيائية ونظريـــات في الأساطير المتعلقة بالآلهة ، ويضيف

(فيلون الجبيلي)

ـــ " إن اللاهوتيين الحديثين قد أتلفوا كل الر للأمور التي حدثت عن أصول الأشياء، وذلك باختراع الاستعارات في الأساطير لغاية جعلها تتناسب مع حركات الكـــون ، وعلى هذا النسق أنشأوا طقوس الأسرار Mysteres ونشروا هكذا ، ظلمة كثيفـــة فوق جميع هذه الأشياء ، بحيث لم يعد من السهل تمييز ما حـــدث بالواقع ولكن هـــذا (سانخونياتن) كان اكتشف في المعابد الكتابات المقدسة للأمونيين ، حيـــث كـــانت محفوظة هناك ، وقلائل هم الذين كانوا يعرفونها ، وهو انكب على دراستها في جميـــع ما تحتويـــه ، ثم قام بهذا المشروع فأنجز خطته بإقصاء القصص المبنية على العنـــاصر والاستعارات ،حتى وصل إلى الذي حدث في الأزمنة التي أعقبت الكهنة الذين شاؤوا إخفاء الحقيقة وإحلال هذه الخرافة الشريفة مكانها ، أصل السر ، وهي التي لم تصـــل بعد إلى الإغريق " .

(أوزيب)

ــ ويتابع بعد ذلك :

(فيلون الجبيلي)

ــ *"نحن اكتشفنا هذه الأشياء برغبة حقيقية ثابتة في تعريف تاريخ فينيقيا وذلك بعد بحث مواد مختلفة ، وعند غير الإغريق ، لوجود التناقضات وسيطرتها في كتاباتهم التي تم إنشاؤها بروح الجدل أكثر من أن تكون حبا بالحقيقة "*

(أوزيب)

ــ وبعد تأملات أخرى يتابع :

(فيلون الجبيلي)

ــ *"إني باق على اقتناعي بأن دراسات سانخونياتن تستحق الثقة ، مع الأخذ بعين الاعتبار جميع تباين آراء الإغريق التي كانت أتاحت لي فرصة لتأليف موضوع في ثلاثة كتب بعنوان "من التاريخ العجيب"* .

(أوزيب)

ــ وبعد ملاحظات جديدة ينهي قوله :

(فيلون الجبيلي) :

ــ *" إنه من الضروري الإعلان سلفا، وبكل صراحة، ومن أجل المعرفة الجزئية لجميع ما تلا ذلك،أن أقدم الشعوب (صارت في طبعات لاحقة " البرابرة ") ، وبخاصة الفينيقيين والمصريين الذين كانوا كمرشدين لجميع الناس الآخرين ، كانوا يرون أن الآلهة الكبار هم أولئك الذين حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا ، أو الذين عمموا الخير ، مهما تكن طبيعته ، بين الشعوب . وقد دعي هؤلاء محسنين ، بسبب أعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها*[3] *. وقد عبدوهم كآلهة ، ولهذه الغاية كرسوا لهم هياكل ، كما هي الآن بالتوارث ، كما أقاموا لهم أنصابا وسواري عبدوها باحترام كبير. وقد احتفل الفينيقيون بأكبر أعيادهم على اسم هؤلاء ، كما بنوع خاص تيمنوا باسم ملوكهم الذين كان يعتبر بعضهم كآلهة ، لأنهم لم يعترفوا بآلهة*

طبيعية غير الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وكل ما يدخل في نظـام الأفكـار هذه : حيث كان لهم آلهة فانون وآلهة خالدون" .

(أوزيب)

ـ *وبعد أن يقوم فيلون بهذه الإيضاحات النافعة في مقدمتـه ، ينتقل مباشرة إلى ترجمـة سانخونياتن الذي يعرض تطور اللاهوت الفينيقي قريبا من هذا .*

القسم الثاني

لاهوت الفينيقيين

[لما كان اللاهوت ليس موضوع حديثنا هنا فإننا نتجاوز الفقرات التي يوردهـا أوزيب نقلا عن فيلون الجبيلي و سـانخونياتن ، لندخل مباشرة في صلب موضوعنا من خـلال الفقرات التي لها مساس مباشرة به ــ المؤلف] .

....

....

IV

(أوزيب)

وقال بعد ذلك :

(سانخونياتن)

*ــ " ومن الريح كولبيا **Kolpia** ، ومن امرأته بأو **Baau** التي يترجمها ليـل **Nuit** ولد الإنسانان الفانيان أيون **Aeon** وبروتوجون **Protogone** وقد اكتشف أيـون الغذاء الذي تقدمه الأشجار وهذان أهل جينو **Genos** وجينا **Genea** اللذين سـكنا فينيقيا ، حدث جفاف كبير فمدا أيديهما نحو السماء والشمس " .*

تلخيص أوزيب :

ــ قال بأنهم كانوا يرون هذه كالإله سيد السماء ، وقد سموها " بعل سمين" وهذا يعـني عند الفينيقيين " سيد السماء " وهو زيفس (جوبيتر) عند الإغريق وبعد ، يهاجم فيلون ضلال الإغريق :

(فيلون الجبيلي)

" ولا نقوم بهذا التمييز بدون أساس ، بل لإقامة المبدأ الحقيقي الذي عليه يتم احتقـار هذه الأسماء المستعملة للأشياء ، وهذا ما جهله الإغريق وأخذوه على وجه آخـر ، بعد أن ضللتهم أخطاء الترجمة " .

V

(أوزيب)

ـــ ثم يتابع :

(سانخونياتن)

ـــ " ومن جنوس ابن آيون وبروتوجون ولد أبناء آخرون فانون ، وقد دعوا فوس وبير Pyr وفلوكس Plox (النور والنار واللهب) ، وهؤلاء هم الذين ابتكروا النار بحك قطع من الخشب ، الواحدة على الأخرى . وعلموا هذه الطريقة للآخرين . وكان لهم أبناء ذوو عظمة وسيادة بارزة ، وقد أعطوا أسماءهم للجبال التي كانوا حكاما لها .

ومنهم جاءت أسماء كاسيوس ، ولبنان ، وأنتيلبنان ، وبراثي Brathy ومن هؤلاء دق يوم سمرومس Samemroumos وهو هبسورانيوس"

(تلخيص أوزيب)

ـــ وقد لاحظ أن الرجال ينسبون لأمهاتهم ، وأن النساء يستسلمن بدون خجل لأول عابر سبيل قال متابعا :

(سانخونياتن)

ـــ"إن هبسورانيوس سكن صور ، وابتكر أكواخ القصب والخيزران والبردى . وقد تشاجر مع أخيه أوزوس الذي تخيل جمع جلود الحيوانات التي يحصل عليها ليعمل منها دثارا لجسده .وحدثت أمطار شديدة ورياح عاصفة ضربت صور وكسرت الأشجار ، واشتعلت النار في الغابة فأحرقتها .

أخذ أوزوس شجرة ، وجردها من أغصانها ، وغامر بها في البحر ، فكان أول من فعل ذلك . وقد أقام نصبين : واحدا للنار والآخر للريح وعبدهما بنشره هناك دماء الحيوانات التي اصطادها .

(تلخيص أوزيب)

ـــ ولما مات هؤلاء، قال بأن أولئك الذين خلفوهم أوقفوا نصبا وسواري قاموا أمامها بمراسم العبادة ، وأقاموا الأعياد السنوية على شرفهم .

Vii

(سانخونياثن)

ـــ وقد انقضت قرون منذ عصر هبسورانيوس حتى ولد اغـــروس *Agreus* واليـــوس *Ileos* اللذان ابتكرا صيد البحر وصيد البر . وقد أعطى هذان اسميهما لهاتين الحرفتين . ومنهما وجد أخوان مبتكران للحديد ، ولكل المصنوعات التي تعتمد عليه . وأحدهـــا وهو كراســـر انكب على تأليف الخطابات وعلى الســـحر والنبوءات ، بينما هيفستس *Hephoestus* هو الذي أوجد الصنارة والطعم وقصبة الصيد والطوف .

(تلخيص أوزيب)

ـــ وقد أبحر كل الناس ، ولذلك ، بعد موته ، عبد كإله ، ودعي زوس ميشيوش *Zeus Michius*. وهم يقولون إن إخوته ابتكروا البناء بالآجر ـــ ويتابع بعد ذلك أن مـــن هذه السلالة خرج فتيان دعي الواحد منهما تقنيتس *Technites* وهو محترف ، والآخر (أرضي) أوتوكتون *Auto chtone* . وهذان تخيلا مزج الصلصال المبلول بـــالقش ، وجعلوه يجف بالشمس ليصنعوا منه لبنات البناء ، كما اهتـــدوا كذلـــك إلى إشـــادة السقوف " .

(سانخونياثن)

ـــ " وجاء منهم آخرون بينهم اســـم اغـــروس *Agros* ثم اغرويـــرس *Agroueros* واغروتس *Agrotes* الذي لتمثاله ومعبده الخفيف الحمل والنقل احترام كبير في فينيقيـــا ويعتبره ســـكان جبيل ، على الأخص ، أكبر الآلهة . وهؤلاء هـــم الذين عرفوا فكـــرة الباحات أمام المنازل ، وعملوا تصوينات وكهوفا ، وهم الذين تحدر منهم الصيـــادون ذوو الكلاب ، ويدعوهم قبائل تائهة ، وتيتان *Titans* .

وهؤلاء خلفوا أمونون *Amunon* وماغون *Magon* اللذين خططا القرى والمراعـــي التي منها ولد ميسور *Misor* وصديق *Sydic* ، أي المتحرر والعـــادل ، واكتشـــفوا صناعة الملح ومن ميسور ولد تأوتس الذي اكتشف الكتابة وصاغ ، أولا ، الحروف،[4]

ويدعوه المصريون ثور Thoor والإسكندريون ثوث والإغريق هرمس (مركور) .

ومن صديق ولد الديوسكورس ، أو كبيرس Cabires، أو كوريبانتس Corybentis أو ساموتراس Samothras ، وابتكروا ، أولا ، السفن .

ومن هؤلاء ولد رجال آخرون ، وجدوا عقاقير طبية لشفاء العضات السامة واخترعوا كلمات السحر "

iX

(سانخونياتن)

ـ" وفي عصر هؤلاء ، ولد واحد يدعى عليون Hypsistos Elioun وزوجته تدعى بيروت ، وهي في إقليم جبيل ومن هذين ولد إبيجيوس Epigeios أو اوتوكتون ، وقد دعي منذئذ أورانوس Uranosالسماء ، وباسمه سموا الكائنات الموجودة ة فوق رؤوسنا ، والتي يضفي عليها جماله . وله أخت من الأبوين نفسيهما ، وهي تدعى "غايا" Ghe (الأرض) . ولجمالها ـ يقول ـ سموا مثلها ما يوافق أسمها باللفظ وهبستوس والد هؤلاء بعد أن أنهى أيامه في مخاطرة مع الحيوانات المفترسة ، تلقى من أبنائه شرف التأليه ، وقدموا له التقدمات والأضحيات ، وبعد أن حصل أورانوس على تراثه تزوج اخته "غاية" فرزق منها بأربعة أولاد : ايلوس Ilus (إيل) ، أي كرونوس ، وبتيل Betyle وداغون الذي يدعى سيتون Siton . وأطلس.

وكان لأورانوس أيضا زوجات أخريات أعطوه نسلا كثير العدد وقد أثارت الغيرة " غاية " فبحثت عما يضر بأورانوس إلى حد افتراق واحدهما عن الآخر .

كان أورانوس ، إذن ، مفترقا عنها ، وكان يواصلها بالعنف في كل مرة ، عندما تكون لديه الرغبة . وينتهي بمفارقتها من جديد ، وقد حاول القضاء على أولاده منها وحمتهم غايا مرارا بمساعدة معاونيها الذين جمعتهم حولها .

وعندما أدرك كرونوس سن الرجولة عهدت به إلى هرمس العظيم ليرشده ويحميه ، وقد غدا أمين سره ، وساعده على دفع والده ، منتقما لوالدته " .

X

(سانخونياتن)

ـ "ولكرونوس من البنات بروسربين ومنيرفا . الأولى ماتت وهي عذراء ، وبإشارة من منيرفا وهرمس صنع كرونوس من الحديد منجلا وحربة . ثم إن هرمس تلفظ بكلمات سحرية على أتباع كرونوس ، فألهب فيهم الرغبة في القتال ضد أورانوس ، انتقاما لشرف "غايا" . وهكذا شن كرونوس الحرب على أورانوس ، وطرده من مملكته وخلفه في السلطة .

وفي القتال كانت محظية أورانوس المحبوبة قد أسرت وهي حبلى فأعطاها كرونوس كزوجة لداغون . وولدت طفلا عرفت أنه من أورانوس ودعته دمارون .

وفي غضون ذلك أحاط كرونوس منزله بسور ، وأنشأ أول مدينة في فينيقيا التي كانت جبيل . وبعد ذلك اتهم أخاه أطلس ، بتحذير من هرمس ، فطمره في أعماق الأرض وأقام فوق جسده كومة من التراب . وحوالي هذا التاريخ كان أولاد ديوسكورس (50) نظموا جميع أجزاء الأطواف والمراكب ، وابتدأوا بالإبحار ، واندفعوا صوب جبل كاسيوس ، فأقاموا هناك معبدا

وقد دعي أتباع (إيل ، كرونوس) إيلويم* Eloim وذلك استجابة للكرونيين وقد دعوا بذلك نسبة لكرونس"

وكان لكرونوس ولد يدعى سديد Sadid ...

ومع الزمن أرسل أورانوس من مكان لجوئه ابنته عشتارتا Astaste مع اثنتين من أخواتها هما رحيا Rhea وديوني Deoni للقضاء على كرونوس بنصب كمين له ولكن كرونوس اتخذهما زوجتين له ..

وعرف أورانوس بما حصل لمشروعه ، فوجه ضد كرونوس حماريين وحورا مع أتباع آخرين . ولكن كرونوس عرف كيف يصالحهما ويحتفظ بهما قربه ".

• صيغة جمع كنعانية ، يقابلها " ألوييين " في العربية الفصحى ، وهي نسبة إلى "إل " أو "عل" ـ أي اتباع إيل .

(تلخيص أوزيب)

ويقول أيضا : " إن الإله أورانوس ابتكر وركب حجارة حية " .

....

....

....

وضعت عشتارنا على رأسها كإشارة للملك رأس ثور ، وعندتجولها في العالم وجدت نجما يشق الهواء ، فالتقطته وكرسته في جزيرة صور المقدسة .

...وكرونوس عند تجوله في العالم أعطى لابنته أثينا مملكة أتيكا .

وقد انتشر طاعون وموت كثير ، فضحى كرونوس أضحية لوالده أورانوس وختن نفسه وأجبر أتباعه على فعل ذلك .

وبعد زمن قليل كرس ابنه الذي ولد من رهيا بعد موته ، وكان يدعى "موت" ...

وبعد ذلك أعطى كرونوس الإلهة بعلة *Baaltis* وهي نفسها ديوني ، أعطاها جبيل . وبيروت لبوزيدون ، وللكبيرين فلاحين وصيادي سمك ، وهؤلاء هم الذين كرسوا بقايا بونت في بيروس :

" وقبل هذه الأشياء ، كان تاوتس قلد أورانوس ، ورسم بالحفر تعابير وجوه الآلهة : كرونوس وداغون وآخرين ، الذين هم السمات المقدسة للحروب .

وتخيل أيضا ، بفضل كرونوس ، رمز الملكية ، ... وعندما جاء كرونوس إلى بلاد الجنوب *Midi* * أعطى مصر بكاملها للإله تاوتس لتكون مملكة له .

... ... وبعد ذلك كان ثابيون أول كاهن عظيم من بين جميع أولئك الذين كانوا في فينيقيا ، والذين ترجم لهم بواسطة الاستعارة في مجموعهم ، وتم اختلاطهم بحركات العالم الطبيعية فانتقلوا إلى مديري حفلات المجون *Orige*** وإلى أنبياء الأسرار وهؤلاء ، رغبة في زيادة الغموض في جميع هذه التقاليد ، أضافوا إليها ابتداعات جديدة علموها لمن خلفهم ، ولمن أشركوه معهم في طقوس الأسرار .

• إن أرض ميدي ما تزال جنوب جيزان على البحر الأحمر

•• من الفعل "أرج" في السريانية والفينيقية ويعني رغب ، شوق ، أثار ، هيج ، أطرب ، متع ، لذذ ...

ومن هذه الجماعة كان اوزيرس مبتكر الحروف الثلاثة وأخ قناء 'Chna الذي كان أول من غير اسمه إلى فينيقي .

XVii

(أوزيب)

وبدون توقف يتابع أيضا :

(فيلون الجبيلي)

ـ" إن اليونان البارزين بين جميع الشعوب بخيالهم البارع قد انسجموا مع معظم هذه الأشياء ، وأضافوا إليها توشيات مختلفة ليعطوها صبغة دراماتيكية وقد استهدفوا سحر الخرافة ، فمسخوا معالمها مسخا تاما .

...لقد ألفت آذاننا منذ سنواتنا الباكرة سماع مروياتهم الكاذبة، ونفوسنا التي تشربت هذه الأباطيل منذ قرون تحفظ هذه الخرافات المصطنعة كأنها كنز ثمين ، كما قلت عندما بدأت.وقد جاء الزمن فقوى مؤلفهم، وجعل هذا الاختلاس قوي الركائز تقريبا إلى درجة تظهر معها الحقيقة وكأنها هذيان وتظهر المرويات الصبيانية مكان الحقيقة " [5]

(أوزيب)

ولنقف هنا عند نهاية نصوص مؤلف سانخونياتن الذي ترجمه فيلون الجبيلي ، والذي عرف جيدا بعد الفحص بشهادة الفيلسوف بروفوريوس وفيلون نفسه في كتابه عن الشعب اليهودي يورد ما يأتي عن كرونوس :

(فيلون الجبيلي)

ـ" إن تأوتس الذي يدعوه المصريون تحوت ، وقد سيطر بعبقريته على جميع الفينيقيين ، كان أول من نظم العبادة التي استخرجها من غشامة العامة وعمل منها خبرة واضحة مفهومة . وبعد عدة أجيال قام الإله صور موبيلس وثورو الملقب كوسارتيس الذي مشى على خطاه بوضع العلم الإلهي لتأوتس بكل ما له من بريق ، وهو ما اختفى ولفه الغموض بدخول المعميات " ...... [6]



والآن لنستعرض معا بعض نقاط هذا النص :

(1) : " سانخونياتن البيروتي يقص ، مع الحرص الكبير على الحقيقة جميع ما له علاقة باليهود ، لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء" ــ هذا ما يقوله المؤرخ العربي السوري "ملك" الذي لقب بـــ"المكسو بالأرجوان الملكي" أو"بروفوريوس"الذي عاش ما بين 233 ــ 305م ، وأحرقت أكثر مؤلفاته بصورة علنية في عهد تيودوسيوس الثاني عام 448 م .

إن في هذا القول اعترافا صريحا من "أوزيب" بحرص سانخونياتن على الحقيقة فيما كتب عن اليهود، وإلا لما أورد مثل هذه العبارة على لسان المؤرخ والعالم الرياضي والفيلسوف النحوي البليغ "ملك" دونما أي تعليق . والأهم من هذا وذاك هو تلك العبارة التي تكاد تكشف الحقائق كلها ، والتي أوردها "أوزيب" على لسان "ملك"(برفوريوس) بسذاجة منقطعة النظير ، إنها عبارة "لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء " .ففي هذه العبارة يكمن السر الكبير كله . إنها تلخيص عجيب لكل ما تعرض له تاريخ سوريا وجغرافيتها على أيدي كهنة التوراة ومترجميها الاثنين والسبعين إلى اليونانية . لقد بدلوا في الأسماء ، كما بدلوا في المواقع . فلما كانت الكتابة العربية ، بكل أشكالها ، خالية من الأحرف الصوتية فقد كان سهلا على مزوري الأسماء تبديل قراءاتها كما يطيب لهم ، وبالتالي تغيير مواقعها . إن كلمة مثل "عمن" مثلا يمكن أن تقرأ "عمن" و"أمون" و"عمون" و"عمان"و"عمان"و"أمين" وغير ذلك من الكلمات والقراءات الأخرى .

إن "سانخونياتن"، إذن ، حرص على قول الحقيقة في كل ماله علاقة باليهود،ويشهد على ذلك " برفوريوس " الذائع الصيت بحرصه على الدقة والموضوعية ، فقد جاء في موسوعة أوكسفورد عنه أن أعظم خدمة قدمها " بروفوريس " للفلسفة هي حرصه على ذكر الأسماء إلى جانب النصوص والأقوال التي كان يستعيرها من الآخرين ، إنه لم ينتحل ملك غيره ويجعله لنفسه في زمن كانت الكتابات فيه كلها تخلو تقريبا من أية إشارة إلى المصادر" . أما نقلة التوراة إلى اليونانية فقد غيروا الأسماء والمواقع الجغرافية لتلك الأسماء بشهادة "ملك" (بوفوريوس) نفسه . إن ذلك كان وحده سببا كافيا لأن تدمر جميع

مؤلفات سانخونياتن ، وفيلون الجبيلي الذي ترجمها إلى اليونانية ، وفرفوريوس ، الـــذي كشف عملية التزوير الكبرى في التاريخ والجغرافيا عبر الترجمة "السبعونية " للتـوراة . إن من المعروف أن جيـــلا متعصبا من الكهنة اليهود لبســـوا لبوس المسيحية وبمســـاعدة السلطات البيزنطية المحتلة من أن يوجهوا ضربة كادت أن تكـــون قاضيـــة إلى الـــتراث الفكـــري العربي الســـوري تحت شعار " تدمير التراث الوثـــني " بعـــد أن عجـــزت عصبيتهم القبلية الضيقة عن الوقوف في وجه التيار الإنساني العالمي الرحب الذي خلفتـه الحضارة السورية ، وعملت على أن يشمل حوض المتوسط كله ثم العالم .

(2) إن هذه النقاط جميعها تؤكـــد ، بما لا يقبل الشك أو الجدل ، سعي ســـانخونياتن خلف الحقيقة ، من جهة ، كما تكشف ذلك المستوى الرفيع الذي بلغتـــه الحضـــارة العربيـــة السوريـــة في كتابة التاريخ منذ الألف الثاني قبل ميلاد المسيح ، المستوى الذي لم يصل إليه معظم المؤرخين الغربيين اليوم الذين أفرزتهم عصور الاستعمار

(3) إن هذا يؤكـــد صحة وجهة نظرنا التي سبق أن بيناها فيما يتعلق بطبيعة النظـــرة العربية القديمة إلى الأرباب أو الآلهة . لقد كنا قد أوضحنا كيف أن العربي ، من خـــلال تعلقه الكبير بالمناقب العظيمة ، كان يتعلق بأولئك الآباء الذين يجســـدون تلك المنـــاقب بصورة من الصور ، سواء أكانت في هيئة سلوك أخلاقي رفيع متميز ، أو في هيئة إنجـــاز علمي ، أو اجتماعي ، أو حقوقي ، أو غيره مما قد يســـاعد الناس جميعـــا في عمليـــة ارتقائهم في حالة أدنى من التطور إلى حالة أعلى . وقد كنا قد خطأنا النظرات القائلـــة بأن العرب كانوا يعبدون أجدادهم وقلنا إن تلك العبادة لم تكن تمضي إلى أبعـــد مـــن الاجلال والتعظيم والتقديس ليبقوا ـــ فيما جسدوا من إنجازات أو قيم ـــ أمثلة تحتذى ، أحياء في الذاكرة ، خالدين . إنه الخلود نفسه الذي توصل إليه جلجـــامش في رحلتـــه الشاقة الطويلة بعد موت صديقه انكيدو البطل .

(4) إن هذا يؤكد مرة أخرى ما أجمعت عليه كل المصادر والأبحاث التاريخيـــة اليوم من أن العرب كانوا من اخترع الكتابة وكذلك الأحرف الأبجدية ، كما أنه يؤكد أقـــوال المؤرخين العرب الكلاسيكيين أمثال الطبري ، وابن الأثير ، والمسعودي، وغيرهم الذيـــن

أجمعوا على أن ملوك مصر (العشيرة) ، كانـوا من العرب السـوريين (العمـاليق) ، أما "تحوت" هذا فقد ذهب من غرب شبه جزيرة العرب إلى مصر وادي النيل ، ونقـل معه الكتابة . وجريا على عادة كل العرب فقد جرى تقديسه في مصر ، كمـا صـار يتيمن به مقرونا مع أسماء الأشخاص ولاسيما الملوك منهم ، وأحل فيما بعد محل الأرباب العظام بالمفهوم الذي كنا قد أوضحناه من قبل . وليست الأسماء مثل " تحـوت مـس" و"تحوت عنخ أمون" وغيرها سوى شـاهد على ما صار يتمتع به "تحوت" هـذا مـن قدسية لدى قدماء المصريين .

(5) إن فيلون الجبيلي يضـع فكر بلاده الديني في موقع المناقض لكل تلك الأسـاطير التي يتدعها الآخرون سواء من اليهود ، أو من غيرهم بحيث صار الزيف يطغى علـى الحقيقة ، والوهم على ما يجري في الـواقع . إن في ذلك دلالة كبيرة على ما كان يتمتع به العرب السوريون من روح علمية في نظرتهم إلى الأشياء من حولهم ، بعكس ما قـد أشيع في عصور الاستعمار عن العرب الـذين يسيطر عليهم جو الوهم والخرافة مـن قدم الزمان وحتى اليوم . إن العقل العربي السـوري يتجلى ، من خلال أقوال فيلـون وغيره ، بأبهى صورة في مجال التعامل مع الـواقع المحيط ، وفي مجال الإبداع أيضا ، وإن هذا العقل هو الذي كان يستغيث من ضغوط الأوهام والخرافات التي حيكت من حولـه وكادت أن تطفئه وتجهز عليه .

(6) وليس أدل على ذلك مما يقوم به سانخونياتن من جمع للمواد المتوفرة والمحفوظـة في معابد أمون ، من أجل أن ينكب عليها ، وينجز خطته في إقصاء كل القصص المبنية على عناصر خرافية ، واستعارات غيبية لا أصل لها ، ويظهر بذلك حقيقة الأشياء جلية ناصعة خالية من كل زيف . ومعابد أمون المنتشرة من شبه جزيرة العرب إلى وادي النيل كانت تحوي كنوز المعارف العربية القديمة .

أما قوله " حتى وصل (أي سانخونياتن) إلى الذي حدث في الأزمنة التي أعقبت الكهنة ، فإنه يؤكد أن سانخونياتن كان قد تحدث عن زمـان موسى مفصلا ، لكن" أوزيب" آثر ألا يستعرض أي شيء مما كتبه سانخونياتن عن ذلك الزمن . حتى يبقى المجال خاليا مـن

أي عائق أمام إحلال " الحقائق" الجديدة المصطنعة أمام الحقائق الأصيلة بعد أن تدمر مؤلفات سانخونياتن وفيلون وفرفوريوس .

كان اليونانيون السوريون يطلقون اسم البرابرة على كل الشعوب الأخرى من غير اليونانيين الذين لا يتكلمون اليونانية التي هي العربية السريانية كما صار ثابتا اليوم ، كما كان العرب يطلقون اسم " العجم" على كل من لا يتكلمون العربية ، وإن العبارة التي تلي توضح ذلك ، إذ اعتبر السوريين والمصريين معلمين ومرشدين للآخرين وليس العكس .

إن هذا يؤكد مرة أخرى صحة ما ذهبنا إليه في فهمنا لطبيعة القول حول عبادة العرب لأجدادهم ، كما يدحض ما قاله "أوزيب" في المقطع الثالث من هذه النبذ حينما يتعرض بالهجوم لأولئك الآباء " المؤهلين" الذين ــ كما يزعم ــ لا يتمتعون " بميزات أخلاقية بارزة تجعلهم مثار الإعجاب بما لديهم من فضائل فيكونون نماذج تحتذى بروحهم الفلسفية " إن هذا القول يضع الفكر الديني العربي السوري في جانب والفكر الديني الذي يمثله الكهنة التوراتيون في جانب آخر مناقض . فالعرب السوريون عموما من بابل إلى شواطئ البحر الأحمر ووادي النيل . ومن الخليج العربي إلى البحر المتوسط ، الذين " كانوا كمرشدين لجميع الناس الآخرين (أي كانوا معلمين لجميع الناس) " ، كانوا يرون أن الأرباب الكبار هم أولئك الذين حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا ، أو الذين عمموا الخير ، مهما تكن طبيعته ، بين الشعوب وقد دعي هؤلاء محسنين بسبب أعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها وقد قدسوهم كأرباب أي سادة ومعلمين . ولهذه الغاية فقد كرسوا لهم هياكل ، كما هي الآن بالتوارث ، كما أقاموا لهم أنصابا وسواري عبدوها باحترام كبير ... " إن هذا التقليد مايزال ساريا عند العرب ، كما عند غيرهم من الشعوب حتى اليوم . أما الآخرون من كهنة التوراة فقد عجزوا ــ بسبب بداوتهم المتخلفة جدا بين مراكز الحضارة المتطورة الأخرى في شتى أرجاء الوطن العربي السوري ــ عن أن يجدوا تجسيدا ، لمثل هذا الفكر ،إذ أنه من الصعب جدا على

البدوي بعقليته المتخلفة أن يقفز فوق الإنجازات الحضارية السائدة ويبدع خطوات ومنجزات أخرى أكثر تطورا قبل أن يجتاز مرحلة طويلة من الاستقرار والتمدن .

من المعلوم أن العرب ، منذ أقدم العصور وحتى اليوم ، اتبعوا في ممارسة تقديس الأجداد طقوسا معينة، كان من أبرزها دائما أن تجعل قبور أولئك العظماء على مرتفعات بارزة ، ويبنى لهم أضرحة متميزة عن قبور غيرهم من البشر العاديين ، يزورها الناس ، ويذبحون عندها الذبائح ، يوقدون البخور ، وتسمى مزارات ، وقد تستنسخ منها أضرحة تحمل اسم الرجل العظيم صاحب الضريح ، وتدعى حينئذ مقامات ، وتنتشر هذه المقامات في شتى بقاع الوطن العربي .

إن هذه الظاهرة التي ما تزال حية حتى يومنا هذا ، لن يتمكن أحد من فهمهما كما هي غير أبناء المنطقة وحدهم . ففي الوقت الذي يجد الباحثون الأجانب في كل قبة [1] أو مزار إلها ، ثم تتملكهم الحيرة أمام كثرة الآلهة من جهة ، وأمام تحديد الشخصية التاريخية والموقع الجغرافي الأول لهذا الإله أو ذاك ، من جهة أخرى ، نجد أن الدارسين العرب هم الأقدر والأجدر في فهم هذه الظاهرة ، وإرجاع كل شيء إلى حقيقته الأصلية ، دون أن تتملكهم عقدة النقص المدمرة أمام "علم الأجنبي" منذ بداية الحقب الاستعمارية وحتى اليوم ، إذ ثبت ، حتى الآن ، أن التاريخ الذي كتب من وجهة نظر أولئك لم يكن علما في التاريخ بقدر ما كان علما في التوصل إلى أقرب الطرق من أجل ضمان حياة الاستعمار ، وهيمنة النظم الاستعمارية على أطول فترة زمنية ممكنة .

وقبل أن نحاول دراسة أسماء الأجداد "الآلهة " ، الذين أوردهم " وأبقى عليهم ""أوزيب" في دراسته النقدية لفيلون الجبيلي وسانخونياتن ، من الناحية التاريخية والجغرافية ، نرى من المفيد هنا أن نسجل الملاحظات التالية :

1 ــ إن العرب السوريين كانوا مؤسسي علم التاريخ ، كما كانوا مؤسسي غيره من العلوم ، وها نحن نرى كيف أن أعدى أعدائهم يشهدون لهم بالعلمية ، والموضوعية

---

(1) إن كلمة "قبة" المستخدمة بكثرة اليوم للدلالة على قبور أولئك الأجداد هي نفسها كانت تستعمل قديما ، وتلفظ "جب" بالجيم المصرية ، وتعني "قبر" أو"مقام" وليست "جبيل" إلا جب ايل أي "قبة إيل"مقام إيل " الذي هو نفسه "قرونو" الذي قام ببنائها كما مرّ .

وتحري الدقة في تسجيل التاريخ منذ الألف الثاني قبل الميلاد . إن المؤرخ اليوناني هيرودت ، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، زار المنطقة العربية ، الممتدة من ساحل البحر المتوسط ، إلى سواحل البحر الأحمر ، ومصر ، وشبه جزيرة العرب ، وسجل ملاحظاته عن كثير من المواضع والمواقع ، وعن عادات الناس ، وطرق وأساليب عيشهم كما أشار إلى تقدمهم الحضاري والفني والثقافي والمعماري ، وقد ذكر كيف أن الكهنة المصريين أطلعوه في هياكلهم على مدى اهتمامهم بحفظ وثائق التاريخ ، كما أكد أن تاريخ فينيقيا لم يكتب بيد شخص واحد ودفعة واحدة ، بل كانت أخبار الوقائع الفينيقية تحفظ في المعابد ويقوم عليها الكهنة [1] وأشار إلى ذلك أيضا بوسيفوس صاحب كتاب " التاريخ القديم لليهود " حيث ذكر أن الرسائل بين حيرام* ملك صور وسليمان بن داود كانت لا تزال نصوصها محفوظة[2] .

وإذا ما علمنا أن يوسيفوس هذا عاش في القرن الأول الميلادي فإن هذا يعني أن العرب السوريين كانوا يحتفظون بتلك الوثائق التاريخية منذ الألف الثاني قبل الميلاد ولمدة ألف عام متواصلة دون أن يفرطوا بها ، أو تتمكن يد البلى من أن تمتد إليها . وإن في ذلك دليلا ، ليس على فرط عناية السوريين بالعلم وبالوثائق وبالتاريخ فحسب ، بل وعلى مناعة بلادهم ومدهم ضد المحتلين والغزاة الذين لم يكن ثمة ما يشغلهم غير القتل والحريق والنهب والتدمير . وهذا ما يثبت عكس كل ما كان يحكيه ويكتبه الدارسون . ثم إن يوسيفوس هذا ذكر في مؤلفه "التاريخ القديم لليهود " ترجمات لتاريخ السوريين سبقت ترجمة فيلون لسانخونياتن ، وقد نسب بعضها لمترجم آخر اسمه "ميناندر" ونصوصا أخرى نسبها لمؤرخ اسمه "ديون"[3] ، أما "ملك"(برفيريوس) فإنه يذكر لنا مؤلفا آخر

(1) هيرودت ، الكتاب 2 : 145،44 .

• لم يعرف تاريخ مدينة صور اللبنانية ملكا بهذا الاسم ، بينما عرفت جبيل ملكا باسم أحيرام (وليس حيرام) ، وهذا دليل على أن صور المقصودة في التوراة وليست في لبنان . كما أن "صور" التوراتية هي اسم عشيرة تنتمي إلى صور من أبناء مدين بن أبناء ابراهيم من زوجته قطورة (يشوع 13 :21) .

(2) يوسيفوس ، الكتاب 8: ف2 .

(3) المصدر نفسه ، الكتاب 8 ف 2 ، 9 ف 14 .

اسمه "جيروم بعل" الذي اعتمد سانخونياتن في حديثه عن كل ما له علاقة باليهود على التاريخ الذي كتبه جيروم بعل في شكل مذكرات . كان قد تقدم به إلى "ابيبعل" ملك بيروت "فتلقاه هو وجماعة كلفت بفحصه والنظر إلى ما فيه من حقائق . وزمن هؤلاء الناس يعود إلى ما قبل حرب طروادة ، وهو يقارب الزمن الذي عاش فيه موسى ، كما يدل على ذلك تعاقب ملوك فينيقيا " .

فالتاريخ عند قدامى العرب السوريين لم يكن يكتب عشوائيا ، ولم يكن يخضع لنزعات وأمزجة كتبته ، كما هو حادث اليوم . لقد كانت كتابة التاريخ مهمة علمية ، تخضع للفحص والتدقيق من قبل لجان مختصة قبل أن تحظى المادة المكتوبة بالاعتراف ، ومن ثم تصبح مادة علمية حقيقية تحفظ كجزء من التراث العلمي والحضاري ، ويحافظ ويعتمد عليها .

إن هذا بالذات هو ما جعل كلمة "التأريخ "العربية تتضمن كل ذلك الفرق بين ما هو واقعي حقيقي ، وبين ما فهمه الاغريق منها تحت كلمة "استوريا" (الأسطورة)* وإن هذا هو ما جعل خصما متعصبا مثل " أوزيب" غير قادر على أن ينكر على أولئك المؤرخين المؤسسين الأوائل لعلم التاريخ نهجهم العلمي والموضوعي ، يعمد إلى إخفاء مؤلفاتهم أو إلى تدميرها .

لقد تعرض ذلك التاريخ إلى الانكار والتزوير من جهات شتى،بدءا من الكهنة اليهود ، إلى الرومان ، إلى المسيحيين البيزنطيين الأوائل المتعصبين ضد كل ما دعوه بالتراث الوثني ، إلى عصر الاستعمار الأوروبي الحديث ، ثم بدأت الاكتشافات الآثارية تبشر ببعث الحقائق من جديد .

إن من المؤرخين الذين أفرزهم العصر الاستعماري انطون مورتغات . يقول انطون مورتغات في كتابه "تاريخ الشرق الأدنى القديم " في صدد حديثه عن سانخونياتن : " لقد ذكر الأب الكنسي اوزيبوس بعض المقاطع من مؤلف فيلون الجبيلي ، حيث كان ـــ

---

* كنا قد شرحنا معنى واشتقاق كلمة (تاريخ) التي جاءت من (يرخو) ومعناها هلال . وبدأ التاريخ بالأشهر القمرية للأحداث .

كما يقال ـــ ترجمة يونانية لعلم السماء الفينيقي ، الذي كان شخص يدعى سانخونياتن قد دونه لأول مرة في عصر الحروب الطروادية، كان العلم قد شك في صحة هذا الأمر ، واعتبر أكثر الأحيان أن هذه الترجمة من ابتداع فيلون الجبيلي . بيد أن آثار "رأس شمرا" (أوغاريت)التي تعود إلى عصر الحروب الطروادية ، قد فتحت الآن المجال ، لينظر إلى مؤلف فيلون على أنه يتصف بشيء من الصحة"[1]

2 ـــ إن أوزيب يورد شهادة بروفورس (ملك) بسانخونياتن دون أي اعتراض من جانبه . فسانخونياتن البيروتي " يقص ، مع الحرص الكبير على الحقيقة ، جميع ما له علاقة باليهود ، لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء" . إن في هذا القول دليلا واضحا على أن الذين كتبوا تاريخ اليهود غيروا في الأسماء وفي المواقع . وإذا ما علمنا أن يوسيفوس اليهودي هو الذي كتب " آثار اليهود : و" الحرب اليهودية " وقد عاش في القرن الأول الميلادي [2] ، أي بعد سانخونياتن ، الذي عاصر أهم أحداث تاريخهم وحروبهم في غرب شبه جزيرة العرب ، بحوالي ألف وخمسمائة عام ، و لم يتطرق إلى ذكر سانخونياتن أو غيره ، بل إنه لم يشر إلى تلك الوثائق الكثيرة المحفوظة في المعابد السورية التي رآها هيرودوت ، وتحدث عنها . وإذا ما أضفنا إلى هذا وذاك أن أوزيب نفسه ، الذي يقربأن سانخونياتن تحدث عن كل ما له علاقة باليهود ، في مؤلفه " الذي عرف جيدا بعد الفحص بشهادة الفيلسوف بروفوريوس" ـــ على حد تعبير أوزيب نفسه ـــ و لم يتطرق إلى ذكر أية حادثة من ذلك التاريخ ، و لم يورد أية نبذة منه ، فإنه لن يبقى ثمة أدنى شك لدينا في أن "ملك" (بروفوريوس) كان يقصد بقوله ذاك يوسيفوس (ولد حوالي 37م) وغيره من كهنة اليهود ، الذين كتبوا تاريخ اليهود ، وترجموا التوراة إلى اليونانية ، وبدلوا في صيغ الأسماء والمواقع أيضا ، مما ألهب الحماسة لدى فيلون الجبيلي (حوالي 61 ـــ 141م) السوري ، للدفاع عن تاريخ شعبه وبلاده ـــ فعمد إلى ترجمة تاريخ سانخونياتن إلى اليونانية من أجل التصدي للكهنة اليهود ، الذين دأبوا على صناعة التزوير

---

(1) انظر مورتغت ، (تاريخ الشرق الأدنى القديم)،ص 254 .
(2) انظر :فيليب حتي ، وتاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين ، الجزء 1 ، ص 352 .

في التاريخ ، كما زوروا التوراة نفسها ، وللإغريق الذين مسخوا بأساطيرهم حقيقة تاريخ سوريا وديانتها التعليمية ، فأخذوا منها القشور ، وانسجموا معها وأضافوا إليها توشيات مختلفة ليعطوها صبغة دراماتيكية ، وقد استهدفوا سحر الخرافة فمسخوا معالمها مسخا تاما " .

إن هذا هو ما جعل فيلون الجبيلي يقول في احتجاج صارخ :
"لقد ألفت آذاننا منذ سنواتنا الباكرة سماع مروياتهم الكاذبة . ونفوسنا التي تشربت هذه الأباطيل منذ قرون تحفظ الخرافات المصطنعة كأنها كنز ثمين ، كما قلت عندما بدأت . وقد جاء الزمن فقوى مؤلفهم ، وجعل هذا الاختلاس قوي الركائز تقريبا إلى درجة تظهر معها الحقيقة وكأنها هذيان ، وتظهر المرويات الصبيانية مكان "الحقيقة" (النبذة XVII)

3 ــ إن العرب عموما والسوريين خاصة هم مؤسسو الدولة والعلوم والفنون والديانات في مصر ، كما أن منهم جميع الحكام والملوك ، وهذا ما يدحض قطعا كل الفرضيات التي دأب المؤرخون الذين أفرزهم عصر الاستعمار على تأليفها وترسيخها في أذهان الأجيال حول الحضارة "الفرعونية" المتميزة والتي لا علاقة لها بالعروبة . إن هذه الحقيقة يؤكدها المؤرخون العرب الأقدمون ، الذين أسسوا التاريخ كعلم قائم بذاته يقف بفضلهم هم على قدمين ثابتتين مع جميع فروع العلم الأخرى منذ أربعة آلاف عام ، وإن هذا هو ما تؤكده اليوم كل المكتشفات الآثارية في المنطقة العربية كلها .

4 ــ إن العرب السوريين كانوا أساتذة ومرشدين على درب الحضارة . فلقد وضعوا تاريخهم ، وربطوه بالجغرافيا في هيئة بناء بسيط ساحر ، يسهل فهمه على عامة الناس . وحينما أقاموا نظام تقديس العظماء من أجدادهم فإنما وضعوا اللبنة الأولى في تكريس الإنسان القدوة ، الإنسان العالم ، الذي يأتي بمنجزات تسمو بشمول خيرها فوق كل حدود العشيرة والقبيلة والجغرافيا الضيقة ، لتعم الإنسانية كلها ." وكان لهم أبناء ذوو عظمة وسيادة بارزة ، وقد أعطوا أسماءهم للجبال التي كانوا حكاما لها " (النبذة V) فضمنوا بذلك تربية الإنسان العربي السوري منذ الزمن السحيق على المناقبية السامية

ذات المفهوم الإنساني العالمي للخير . ولما وضعوا نظام العبادة كانوا يقصدون من ورائه برنامجا تعليميا للشعب ، يفهم من خلاله أسرار بعض العمليات الطبيعية والكونية المحيطة به ، كما تجعله ينخرط في هذا الكون بمحبة وألفة ، ويشعر من أعماقه بأنه جزء منه لا ينفصل . ومن هنا فقد كانت تلك الأسماء رموزا ـ في الوقت نفسه ـ لقوى طبيعية هي ما نسميها اليوم بالقوانين . وكان لابد من تمييز بعضها عن بعض بواسطة الأسماء ، لتسهل عملية تمييز أفعالها وتأثيراتها ، مما يسهل بالتالي عملية الحياة نفسها ، ويجعل السيطرة على الطبيعة فكرة متقدمة وممكنة . ان هذا بالضبط هو ما قصده فيلون الجبيلي في قوله: " ولا نقوم بهذا التمييز بدون أساس ، بل لإقامة المبدأ الحقيقي الذي بناء عليه يتم احتقار هذه الأسماء المستعملة للأشياء " . إن هذا كان يمثل قفزة حد كبيرة في الفكر العالمي حققه العرب السوريون. وان هذا بالذات هو ما قصر الإغريق في فهمه، فاعتبروا أسماء الآباء العظماء أسماء لآلهة حقيقيين ، ما لبثوا ان ادعوها لأنفسهم بعد ان خلطوا بينها وبين الخرافات والأساطير وصارت آلهة يعبدونها. "وهذا ما جهله الإغريق و أخذوه على وجه آخر ، بعد ان ضللتهم أخطاء الترجمة " .

5 ـ ومن اجل دراسة تاريخ أولئك الأجداد في الزمان والمكان الصحيحين علينا ، إذن ، ان نبحث عنهم في أسماء الجبال الباقية من ذلك الزمن كما لابد من أن ننتبه إلى أن ما بقي من نبذ التاريخ المكتوب القديم إنما وجد في ترجمته اليونانية ثم البيزنطية زمن أوزيب . وبالتالي فان علينا أن نعرف مدى التغيير اللفظي في مناطق الأصوات إبان كل ترجمة من العربية بكل لهجاتها إلى لغة أخرى . ومن المعروف أن اللغة العربية تتضمن جميع الأصوات الطبيعية التي تنطق من الحلق والحنجرة ، بينما تقتصر اللغات الأخرى على صوت حلقي واحد او اثنين . هذا إلى جانب عمليات الإبدال والإضافات الأخرى ومنها أسماء أولئك الأرباب .

6 ـ إن كثرة "مزارات " أولئك الأجداد ، وسعة انتشارها في الوطن العربي ، وتعدد المواقع ، ولا سيما الجبال ، التي تحمل أسماءهم تفسر ظاهرة استنساخ الأضرحة في " مقامات " متعددة على امتداد الرقعة الجغرافية التي يشغلها الشعب العربي ، كما

تؤكد وحدة هذا الشعب العرقية* والثقافية ، واللغوية ، والفكرية منذ اقدم العصور . كما تؤكد ، أيضا ، صحة المنطق الذي انطلقنا منه في فهم التسميات الجغرافية على أنها أسماء لأناس بارزين من الأجداد العرب الأوائل ، وليس العكس، عندما تحدثنا عن النسب عند العرب وعن القبيلة العربية.

فأين هي مواقع أولئك الأجداد ، إذن ، الذين يستشهد بهم أوزيب من كتاب سانخونياتن في التاريخ العربي وفي الجغرافيا العربية ؟ ثم وبناء على ذلك، أين هي مواضع التزوير في الأسماء والمواقع الجغرافية ؟

---

* طبعا لا نقصد هنا صفاء ونقاوة العرق ، بل وحدة الانتماء السكاني بوجه علم إلى الجنس العربي وثقافته ولغته .

العرب هم أبطال سانخونياتن

والمكان – المنطقة الجنوبية ـ الغربية من شبه جزيرة العرب

يقول أوزيب نقلا عن لسان سانخونياتن في النبذة الخامسة:

" ... *وكان لهم أبناء ذوو عظمة وسيادة بارزة ، وقد أعطوا أسماءهم للجبال التي كانوا حكاما لها.*

ومنهم جاءت أسماء كاسيوس ، ولبنان ، وانتيلبنان ، وبراثي Brathy، ومن هؤلاء دقيوم سمرومس ، وهو حبسو ارانيوس Hypsoranios " . (*النبذة V*) .

وقبل أن نفتش عن الاسم العربي لهذه الأسماء ولغيرها ، لابد من التذكير بالنهايات اليونانية واللاتينية للأسماء ، " وس " ، وبأن كثيرا من الأصوات الحلقية كانت تنتقل مع اللهجات العربية نفسها من صوت حلقي إلى آخر (كالقاف والجيم ، والجيم المصرية ، والكاف وغيرها) . كما ان السين تبدل شينا والشين سينا ...... الخ ......

إن "كاسيوس " هو في الأصل "جاسيو " ويعني القاذف ، الكاسر ، الزآر ، البركان ، وهو في جنوب شبه جزيرة العرب ، وكان ـ حسب هيرودوت ـ يمثل الحد بين سوريا ومصر (تاريخ هيرودوت ، الكتاب الثاني 158 ص 183) وليس جبل قاسيون في دمشق إلا نسخا له . وكذلك جبل" القشاشية " اليوم إلى الشمال من مكة حيث بلدة القشاشية على سفحه الغربي ، والعشاش إلى سفحه الشرقي . وليس هو الجبل الأقرع في شمال اللاذقية كما يحاول الجغرافيون التوراتيون القول بصورة تدعو إلى السخرية والذهول في آن معا.

و" لبنان " (وانتي لبان)هما جبلان متقابلان شرقي مكة: لبن الأعلى ولبن الأسفل ، وليس المقصود بهما سلسلة جبال لبنان الشرقية والغربية ، إنهما جبلان في جنوب جزيرة العرب ، وهي جبال اللبان أي البخور والصنوبر ، وتوجد أيضا قمتان شمالية وجنوبية في جبل واحد قرب مكة من الجانب الشرقي . وهذا الجبل ذكره الجغرافيون العرب ،

ومنهم ياقوت الحموي ، وقالوا " هو جبلان قرب مكة يقال لهما لبن الأسفل ولبن الأعلى" . وقد ذكر الطبري هذين الجبلين في حديثين عن ابن عباس روى فيها أن آدم حينما قدم إلى مكة و أمر ببناء البيت " بنى البيت من خمسة أجبل : من طور سينا ، وطور زيتون ، ولبنان ، والجودي "[1] . فكلمة " طور" في جميع اللهجات العربية تعني جبل. وما زالت السريانية تحتفظ بها إلى يومنا هذا (طورو = جبل) . فطور سيناء هو جبل سينا ، في برية سينا شرقي بلاد زهران في غرب شبه جزيرة العرب .حيث الجبل الذي دعته التوراة " جبل حوريب " وكلمة " حوريب" في السريانية تعني الخرب كما تعني العليق ، العوسج وكذلك الأمر بالنسبة لـ"سينا" في السريانية وجمعها "سيني" وتعني العليق ، العوسج . وحيث يسكن المديانويين. يبلغ ارتفاع الجبل 1480 مترا ، وتمر من على جانبيه الشرقي والغربي طرق القوافل الدولية منذ القدم ، كما توجد أطلال مدينة على سفوحه مما يؤكد ان المنطقة كانت عامرة، وأن يثرون الكاهن المدياني حما موسى الذي استأجره ليرعى مواشيه كان يسكن هناك بين المديانيين المنتشرين في تلك الرقعة.والى جانبه الشرقي يجري وادي طوى الذي يحتفظ باسمه حتى اليوم، وهو ينبع من السفوح الواقعة إلى الشرق من جبل إبراهيم ، ويمر بالقرب من جبل حوريب ليصب في وادي كارا. وقد ورد ذكر هذا الوادي في القرآن الكريم في سورة طه :

﴿ وهل أتاك حديث موسى ، إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا، إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾[2]

فطور سيناء ، إذن هو جبل العليق . وطور زيتون هو جبل الزيتون في أرض الحثيين الكنعانيين في بلاد غامد ، ولبنان هما جبلا لبنان الأسفل والأعلى قرب مكة، وبغير ذلك لا يصح حساب " الأجبل الخمسة "

والجودي هو جبل جودة جنوب غرب الطائف . أما أن يبنى البيت من هذه الجبال

---

(1) تاريخ الطبري ، الجزء الأول ص83 .
(2) سورة طه ، الآيات 8 ــ 12 .

الخمســة فليس المقصود فيه قطعا البيت بمعنى " المترل" بل البيت " المقام" و " الأبنــاء " وبالتحديد مقام الســيد الرب وأبنائه كما سبق أن شرحنا سالفا.

وبالتالي فإن البيت الذي بناه آدم هو في أبنائه الذين دعوا إلى عبادة الله الواحد .وإن ممــا يؤكد ذلك هو ظهور موسى وعيسى ومحمد في حدود هذا الحرم ، هذه الأرض المقدسـة عينها.

ونشــير هنا إلى أن ثمة لبنان آخر هم اسم للجبال الواقعة شرقي بلاد غامد حيث منــابع نهري رنية وشواص وحيث بلدة لبنة الواردة في التوراة .

وعودة إلى قول سانخونياتن.

أما كلمة " براثي " فهي جمع " برث " وتلفظ بوراش، ويقابلها الجمع بالعربية الحديثــة " بورواث" وهو جبل رملي شمال شرق الليث* .

ثم إن جبل "دقيوم" هو ذقية أو "داكا" اليوم بعد التخلص من نهايــة الاسم الذي ينحدر منه اسم ذقية شرقا، ووادي " ضيقا " شــمالا ليلتقي بوادي "عورانا " القادم من جبلي لبنان . وهو مجاور لجبل جودة . أما اسمه الثاني " هبسو أورانيوس " فقد جاء من كلمــتي " ابسو " و"عرانة " فكلمة " ابسو"، أو حبسو " تعني ـــ كما مر معنا عند الســومريين ـــ الغمر أو المياه الجوفية ، أو مياه الينابيع في بطون الجبال ، و" أرانة " أو "عرانة " هــو مجموعة جبال تمتد من جبل " الجودة " إلى جبلي لبنان شرقي مكة ، حيث يجــري وادي "عرنة " Urana مخالفا في اتجاهه لبقية الأنهار ، و "عرانة" في السريانية يعني العــاصي ، المتمرد ، وللسبب نفسه دعي نهر العاصي في سوريا بهذا الاسم . ويصبح معنى الكلمتين معا الينابيع المتدفقة من الجبال" ، أو " حوض المياه الجوفية في الجبال" ، وهذا ما ينطبــق على وادي ذقية شرقا ووادي الليث غربا اللذين ينحدران من سفوح تلك الجبال. كمــا أنه يوجد جبل "عرنة " في المنطقة التي ينبع منها وادي رنية شرقي بلاد غامد ، ونرجــح أن يكون المقصود بذلك عدة مقامات لرجل واحد هو " ذقية " أو "حبسو عورانو"

*** لقد حافظت العربية الحديثة على معناه إذ نجد أن "البرث" تعني الأرض السهلة ، أو الجبل في الرمل السهل**

" إن حبسو أورانيوس سكن صور، وابتكر أكواخ القصب والخيزران والبردي، وقد تشاجر مع أخيه أوزس الذي تخيل جمع جلود الحيوانات التي يحصل عليها ليعمل منها دثارا لجسده. وحدثت أمطار شديدة عاصفة خربت صور وكسرت الأشجار، واشتعلت النار في الغابة فأحرقتها.

أخذ أوزوس شجرة، وجردها من أغصانها،وغامر بها في البحر ،فكان أول من فعل ذلك. وقد أقام نصبين: واحدا للنار والآخر للريح ، وعبدهما بنشره هناك دماء الحيوانات التي اصطادها" . (النبذة V) .

ويعلق أوزيب : " ولما مات هؤلاء قال بأن أولئك الذين خلفوهم أوقفوا نصبا وسواري قاموا أمامها بمراسم العبادة " .

إن " حبسو عورانو " الذي سكن صور ، وابتكر أكواخ القصب والخيزران والبردي " لا يمكن أن يكون من سكان شواطئ البحار، وهذا دليل على أن صور المقصودة ليست مدينة صور الفينيقية على ساحل المتوسط ، إذ إن القصب والخيزران والبردي هي نباتات تنمو في أحواض الأنهار في المناخ الحار والرطب وليس على شواطئ البحار. ومما يؤكد أن مدينة " صور " هذه هي مدينة جبلية وليست ساحلية كونها تقع وسط الأحراج والغابات ، وقد نرجح أن تكون غابات صنوبرية ، إذ هي القابلة لأن تشتعل في حريق ضخم نتيجة للصواعق " ضربت صور وكسرت الأشجار ، واشتعلت النار في الغابة فأحرقتها ". إن مثل هذه المدينة قد تنطبق على صور العمانية قرب جبال اللبان أي البخور إذ أن كلمة " لبنان " هي

جمع " لبان" Leban في لهجات تلك المنطقة ، واللبان هو شجر من الصنوبريات ، وإن كلمة" بحر" ليس ضروريا أن تكون قد ترجمت بصورة صحيحة إلى اليونانية ، إذ ، كما بينا سالفا، إن كلمة " يم " تعني البحر والنهر، والغرب والجنوب. والبحر في اللغة العربية بشتى لهجاتها تعني كل ماء كثير . "وإن " أوزوس " الذي يسكن صور، يأخذ شجرة ويصنع منها قاربا، إن مثل هذه الأشجار التي تصلح لأن تجوف وتجعل منها قوارب هي الأشجار البلوطية والصنوبرية ، وكلتاهما أشجار جبلية لا ساحلية. وإن مغامرة عوص

هي إلى جزيرة صور أي إلى جزيرة " مصيرة " مقابل صور الجبلية في عمان. . ثم إن جمع عناصر النـــار والريح ودماء الحيوانات المصطادة من البرية في عملية طقسية للعبادة تعبق برائحة البرية والجبل معا " وقد اقام نصبين : واحدا للنار وآخر للريح، وعبدهما بنشـــره هناك دمـــاء الحيوانات التي اصطادها" وإذا كانت هناك عدة مدن تحمل اسم صــــور ، سواء في شبه جزيـــرة العـــرب، أو في غرب سورية فإن هذا ليس من شأنه إلا أن يبرز مرة أخرى ظاهرة تعددية الأسماء لدى الشعب الواحد وفي الأرض الواحدة .

أما "اغروس " و " إليوس " و " اغـــروتس " الذين جاؤوا بعد انقضاء قـــرون فليـــس ضروريا ــ بعد هذه القرون ــ أن يكونـــوا في المنطقة ذاتها. فنحـــن نجـــد في منطقـــة شـــمالي صنعاء اليوم بالفعل المدن والجبال التي تحمل مثل هذه الأسماء وهذا يتفق مع مـــا أورده المؤرخون العرب .

يقول سانخونياتن

"وقد انقضت قرون منذ عصر هبسورانيوس ، وحتى ولد اغـــروس Agreus واليـــوس Alieus اللذان ابتكرا صيد البحر وصيد البر ... وجاء منهم آخـــرون ، بينـــهم اســـم اغروس Agros، ثم اغرويرس Agruerosواغروتس Agrotes الذي لتمثاله ومعبـــده الخفيف الحمل والنقل احترام كبير في فينيقيا ، ويعتبره سكان جبيل ، على الأخص أكبر الآلهة " (النبذة Vll)

إن اغروتس هو الذي تسمى به جبل حجرة الذي ينحدر منه وادي حجرة ، ويشـــكل مع انهار أخرى كثيرة وادي العليب . أما اغرويرس فهو وادي قرارة إلى الشـــمال مـــن وادي حجرة . وهو ينحدر من جبل بجالة ويسير محاذيا لنهر الليث صوب البحر ليلتقـــي بوادي عيار قبل مصبه جنوب مدينة الليث .

ونحن نجد في منطقة جيزان قرب البحر فعلا مدينتين تحمل إحداهما اســـم "الحجـــرة " وفوقها إلى الشمال مباشرة مدينة "عليا " ثم " إقرار " إلى الشمال الغربي منها قـــرب " الدرب " . وقد كثر هؤلاء وتنقلوا ، لاشك ، في أرجاء الأراضي الخصبة والغنية في بلاد زهران وغامد حيث جاء آخرون يحملون الأسماء ذاتها" وهؤلاء هم الذين عرفوا فكـــرة

الباحات أمام المنازل ، وعملوا تصوينات وكهوفا ، وهم الذين تحدر منهم الصيادون ذوو الكلاب " . إن الفرع الذي تحدر منه الصيادون ذوو الكلاب "وعملوا تصوينات وكهوفا " أي اتخذوا من المغاور مساكن لهم هم ــ كما نرجح ــ أبناء " أجروس " الذي هو في الأصل السرياني "عجرو" وتعني الكلمة :الخشن ، الأحمق ، الجاهل ، وهم الذي صار يطلق عليهم فيما بعد " الغجر " لأن صوت الغين لايوجد في السريانية ، وكان ينوب منابه صوت العين مثل عاب = غاب ، عارو = الغار ، شجر الغار .

"وهؤلاء خلفوا آمنون Amunon وماغون Magon اللذين خططا القرى والمراعي التي منها ولد ميسور Misor وصديق Cydic واكتشفوا صناعة الملح " .

إن امونون هو نفسه أو " أمون " الذي انتقل فيما بعد إلى مصر وادي النيل مع من انتقل من الآباء السوريين الآخرين وتقدس هناك . ويعني بالسريانية : الخالد ، الدائم ..

وإن "أمون" هو جد " ميسور" أيضا ، مما جعل أحفاده من الملوك الذين حكموا مصر وادي النيل فيما بعد يقدسونه هو دون غيره ، ويقرنونه بألقابهم (توت عنخ آمون ،مثلا و آمون محب وغيرها...) ، كما أن أولاده و أولاد صديق أبناء عم ، وقد تعاونوا في حكم وادي النيل ، كما تعاون الملك " زوسر" و" امون محب " الذي هو " صقلاب " .

وقبل ذلك كان سانخونياتن قد ذكر أنه"من الريح كولبيا" Kolpia ومن امرأته Baau ولد الإنسانات الفانيان " أيون" Aeou وبروتوجون Pratagone وقد اكتشف "جون" الغذاء الذي تقدمه الأشجار وهذان كانا أهل جينوس Genos وجنيا Genea اللذين سكنا فينيفيا" (النبذة lV) .

إن " كولبيا " أي المتقلبة ، هي صفة من صفات الريح ، وقد بقي الاسم على مدينة" قلبيا" الواقعة شمال جيزان على الساحل بين "عرضة " التي هي أرضي ، وقديما "ارعو" ، (أو اوتوكتون أيضا) و"الجارية" *

* ماتزال في اللغة العربية الحديثة كلمة "الجارية" تحافظ على معناها القديم الذي هو من الصفات الملازمة لعشتار فالجارية تعني الفتية من النساء ، والحية والشمس ، والنعمة (زوجة النعمان) والجرية والجرى تعنيان الصبا والفتوة . ومن "الجرى" اشتق اسم "زاغرو(س) " أي رب الصبا والفتوة .

(التي هي "اغروتس") ، وهي من أسماء عشتار ومقامها ، هو"أ – غاريت" أي مقام الجارية . وبه سميت المدينة على الساحل السوري أما "أيون" أو "جون" فثمة مدينة "عاينة " Aina شمال "قرار"(اغرويرو Agroeros) ، والى الشرق من " قرار" يوجد "وادي جوان" ، والكل في منطقة جيزان . أما "بروتوجون" فمن الكلمة الفينيقية " برث" أي "ابنة" . لكن "جن" و"جينا" فهما من الآباء الفينيقيين الأوائل ، وقد يكونان أعلى الآباء المعروفين ، مثلهما مثل آدم وحواء في فرع عربي آخر ، ويدل اسماهما في اشتقاقه على"الجنة" و"الجني" بمعنى القطاف ، وهذا يشير ، بصورة ما إلى اعتمادهما آنذاك على التقاط القوت مما تنتجه الطبيعة وحدها من ثمار وبقول ونبات دونما كدح، أي أنهما كانا في مرحلة "الجنة" الطبيعية ، وهذا بالضبط ما أكده النص عند سانخونياتن حيث ذكر انه "من الريح قلبيا ومن امرأته باعو ولد الإنسانان الفانيان أيون وبروتوجون . وقد اكتشف أيون الغذاء الذي تقدمه الأشجار ، وهذان كانا أهل جينوس Genos وجينا Genea اللذين سكنا فينيقيا" (النبذة IV). تلك هي الحال مع آدم وحواء ، إذ أن اسم حواء يعني السواد يشوب الخضرة من شدة الخصب ، واحووت الأرض واحواوت اخضرت ، وكذلك الأمر مع جنت .

أما رمز هذا الأب القديم "جن" عند الفينيقيين فكان الكبش. ومقامه، أو بيته (أولاده) صار يدعى "أ ـــ جن" أو "أ ـــ جنوم" أو"بيت جن" ، وما زالت كثير من البلدات والقرى في سوريا الطبيعية تحمل هذا الاسم حتى اليوم. وبعد انتقال السوريين القدامى إلى مصر وادي النيل نقلوا معهم تقديس هذا الأب بصيغته السريانية القديمة" أ ـــ جنوم" (مقام جن) ، وانتشرت مقاماته في كل مكان من مدن مصر وادي النيل . وقد ساعد الاعتقاد لدى قدماء المصريين بأن " أجنوم " قدم إليهم من الأعالي* (جبال السراة) بعد أن عبر بزورقة مياه البحر (البحر الأحمر) . وقد حافظت منذ ذلك التاريخ كلمتا " كبش" و" فينيق" على معنى واحد ، وصارتا مترادفتين إذ تعني كل منهما : السيد ،

• أخطأ كثير من الباحثين في تفسير كلمة " الأعالي" واعتقدوا أن المقصود بها أعالي نهر النيل ، أي عند منابعه .

القائد ، الفحل ، المرفه ، الضخم ، المدلل ، المنعم .

أما أبناء أمون و"ميسور"و"صديق" فقد سكنوا المنطقة الوسطى في بلاد غامد وزهـــران والجنوبية قرب عمان واليمن فمن ميسور ولد تأوتس (تحوت ، توت ، تور) وأبناؤه في بلاد زهران .

" ومن صديق ولد الـــ"كبيرس" وابتكروا، أولا، السفن" (النبذة VII) .

لاشك أن القارئ يلاحظ معنا هذه القفزات بين المناطق الثلاث : من غرب شبه جزيـرة العرب (منطقة الحجـــاز التي تشمل مكة ويثرب والطائف) ، والمنطقة الوسطى التي هـي بلاد غامد وزهران ، والمنطقة الجنوبيـــة منطقة جيزان ، وشمال صنعاء فيما بعد وصـــور العمانية ، وليس ذلك إلا نتيجة لطبعة المصدر الذي بين أيدينـــا الذي يورد شـــــواهد ونبذا من تاريخ سانخونياتن ، دون أن يستعرضه لنا بصورة مسلسلة . لكن هذا ، رغـــم كل شيء ، يلقي ضوءا كشـــافا قويا على المناطق التي ســـكنها الاباء العرب القدامى ، ويؤكد صحة المصادر العربية حول هذا الموضوع .

إن "الكبيرس"** هم أولاد "الكبير" وقد احتفظ باســـمه في الترجمة اليونانية كما هـــو ، أما على خارطة شبه جزيرة العرب فهناك جبل شرقي مكة يسمى "السيل الكبير" يبلـــغ ارتفاعه 1240م ، وينحدر منه نهر يدعى وادي "كبير" ومن الواضح أن الكلمة هنا تـأتي كاسم وليس كصفة إذ أنها بقيت كما هي دون تحريف "وادي كبير" (Wadi Kabir).

أما "أورانوس" فله ثلاثة مواقع ، أحدهما الأصل، والآخران مقامان عن طريق الاستنساخ ففي المنطقة الجنوبية (منطقة جيزان) يوجد جبل العوراء . والنص يفيدنا بأن لاورانوس أختا من الأبوين نفسيهما ، وهي تدعى "غايا" .. وبعد أن حصل أورانوس على تراثـــه تزوج اخته "غايـــة" فرزق منها بأربعة أولاد : ايلوس (أي كرونوس Gronus نفسه) ، وبتيل Betyle، وداغون (الذي يدعى سيتون Siton ، وأطلس والأخت في العربية بكل

** لقد نقل السوريون عبادتهم إلى مصر وادي النيل أيضا ، ويذكر هيرودوت أن تماثيل الآلهة الكبيرس في المعبد المقدس في ممفيس كانت نسخا مماثلة للبعل ، أي للرب الفينيقي الواسع الانتشار كما يذكر أنه عندما دخل الملك الفارسي قمبيز معبد الكبيرس في مصر ، وهو معبد مقدس ، يلاحظ أنه كان محظورا الدخول إليه لعامة الناس من غير الكهنة (هيردوت 3 : 37)

لهجاتها تعني الشقيقة كما تعني القريبة ، بنت العشيرة ، بنت القبيلة ، الراهبة) .

ونحن إذا ما نظرنا إلى خارطة المنطقة الجنوبية نجد أن "غايا" هو اسم المدينة حتى اليوم جنوب جبل العوراء ، ومعنى هذا أن منطقة السكن الأولى ، أو الأصل ، لـ"عورن" كانت في الجنوب . لكن "عورن" أخذ أولاده ، وتخلى عن زوجته ، وابتعد عنها ، وهذا قد يكون رمزاً لمقاميه الآخرين في جبال عبسو أرانيو ، في منطقة غامد ، وعُرانة في جبلي لبنان شرقي مكة حيث يجري وادي عرانة . وليس من شك في أن معبدين (أو مزارين ، أو مقامين) قد أقيما له في تينك المنطقتين .

ولما كانت كلمة "غاية" تعني المتعظمة ، المتكبرة ، فإن عُرانة تعني المتمرد ، العاصي . ثم صارت "غايا" رمزاً للأرض المنخفضة ، كما صار "عُران" رمزاً للسماء أي للأرض المرتفعة ، للجبل . وصار لقاؤه بها ، رغم الفراق وبعد المسافة بينهما ، لقاء اغتصاب من أجل الا خصاب والولادة ، بين الفينة والأخرى ، كما تتصل السماء بالأرض من أجل إخصابها .

ولقد انتقلت هاتان الكلمتان إلى اليونان ، وتحولت كل منهما هناك إلى الإله أورانوس إلى السماء وجيا (قيعة) إلهة الأرض .

ويتابع سانخونياتن :

" وبعد أن حصل أورانوس على تراثه تزوج أخته "غاية" فرزق منها أربعة أولاد : إيلوس (أي كرونوس) ، وبتيل ، وداغون الذي يدعى سيتون ، وأطلس" .

ونظرة إلى الخارطة ترينا جبل بتيل شمال شرق الطائف على الحد الشمالي لحرة حضن . ويقع بالقرب منه وبصورة متاخمة تماماً جبل بيرام (البيرين) . أما داغون ، او داجون ، فهو رب الزراعة والقمح ، ثم الغذاء ، والطعام ، ثم صار هو نفسه الطعام ، او القمح أو الخبز ، وهذا ما وجد استمراره ذاته في المسيحية فيما بعد ، إذ إن الخبز هو جسد السيد المسيح . ومن الطريف أن نذكر هنا أن سكان الأرياف في الساحل السوري ما يزالسون يستخدمون اسم هذا "الرب" بمعنى الخبز أو الطعام حتى اليوم ، فيقول أحدهم : "إنني ما ذقت الدجن هذا اليوم ، أو ما تدجنت " . وإن السيد "دجن" هو من أكثر الأجداد

العرب شعبية وانتشارا ، إذ يغطي تقديسه ، كما تغطي معابده جميع مناطق الوطن العربي ويذكر لنا سانخونياتن أن "داجون" هذا يدعى "سيت" (سيتون في مصر) وقد ورد اسم "داجون" في ملحمة "البعل وعناة" الأوغاريتية مرارا كثيرة ، كان يوصف فيها بأنه ابن داجون . وهذا يجعل مرتبته معادلة لمرتبة "إيل" الذي هو كرونوس نفسه . وقد دعي في مصر "سيتاخ " أو "سيتاع" ، وهو الاسم الذي كان يطلقه المصريون على الرب السوري ، كما كانوا يسمون الربة السورية "هاتورت" (الثورة ، البقرة)[1]

أما "كرونوس" أوقرون (قرونو بالسريانية ، أي الأقرن الحاجبين أو الجبل ذا القمتين) فقد عاش بعيدا عن أمه "غايا" في الشمال . وكان قريبا من أبيه ، لكنه " وانتقاما لشرف أمه " غاية " شن الحرب على أبيه أورانوس ، وطرده من مملكته .

ونحن نجد على الخارطة الجغرافية لمنطقة الطائف جبل قرنايط ، وهي بلفظها العربي القدم Karnayth تعني الأقرن . وهو يجاور جبل "دقيوم" أو "داكا" الذي هو جبل "عرانية" نفسه ، كما يقول سانخونياتن ، ومن هؤلاء "دقيوم" وهو "حبسو أورانيوس" أي "حبس عرانية " أي "حبس مياه السيل" . وهكذا يكون موضع الأب " أورانيوس" مجاورا لموضع الابن "كرونوس" فعلا . وفي القتال الذي دار بين الأب "عرانيو" والابن "قرونو" "كانت محظية " عرانيو" المحبوبة قد أسرت وهي حبلى ، فأعطاها "قرونو" كزوجة لداجن ، وولدت طفلا عرفت أنه من أورانوس ، ودعته دومارون " .

إن هذا الاسم مركب من "دو" ومن "مر" بعد حذف النهاية ، وتصبح "رب مر" قبل تحريك الكلمة الأخيرة بالصوتيات . وإذا نظرنا إلى شمال الطائف على الخارطة نجد وادي مرع Mura الذي ينحدر من جبل السيل الكبير ، وهو و"عرانيو" و"قرونو" في منطقة واحدة مجاورة لمكة والطائف معا ، علما أن اللهجة المصرية كثيرا ما كانت تضيف حرف "ع" إلى نهاية الاسم ، وهو نسخ لموقع " ذمار " اليمنية .

يقول سانخونياتن :" وحوالي هذا التاريخ كان أولاد " كبيرس"(الذي هو ديوسكورس) نظموا جميع أجزاء الأطواف والمراكب ، وابتدأوا بالإبحار ، واندفعوا صوب جبل

---

(1) انظر : شوقي عبد الحكيم ،" الفولكلور والأساطير العربية"،ص49 .

كاسيوس ، فأقاموا هناك معبدا " (البندVIII) .

إن هذه الأطواف والمراكب ليست إلا زوارق هرية اندفعوا بها في مجرى وادي "اليمنيـة" الـذي ينحدر من سفوح جبل السيل الكبير ليلتقي بوادي " الشامية" المنحدر من جبـل "برائي" وعيون بئر باثي قبل أن يصلا إلى بلدة عكر Akar ، ومنها يتقدم المجرى المتحـد إلى القشاشية حيث جبل كاسيوس . (إننا نلاحظ الاسم الواحد بـ"جبل كاسـيوس" و"القشاشية") .

أما "سدد" أو "سداد "الذي هو ابن "قرونو" (كرونوس) والذي قتل على يد أبيه فـهو "شداد" الذي يقابل جبل عـرفات من الجنوب . وهناك على سفوحه الشمالية مدينـة "شداد" حيث يلتقي وادي "ضيقة" القادم من جبل "دكا" بوادي النعمان . وعند نهايـة وادي النعمان يقوم جبل "أبو شداد" أيضا قرب وادي الدم.

ويقول سانخوتياتن :

" ومع الزمن أرسل أورانيوس من مكان لجوئه (مخبئه) ابنته عشتارتا مع اثنتين من أخواتها هما رهيا Rhea وديوني Dione للقضاء على كرونوس بنصب كمين له " (النبذة XIII)

ويفهم من هذا القول ، دون شك ، أن " عرانيو" الذي طرده ابنه "قرونو " من جـواره التجأ إلى مكان ما واختبأ هناك ، ثم إن "حبسو عرانيو" ، كما سبق وأسلفنا يعني مكان حبس الماء " أو المياه الغائرة في جوف الأرض ، وأن "عرانيو" جاءت مـن "عرانيـة" ومعناها " المتمرد ومد السيل" . وإذا ما نظرنا على الخارطة إلى المنطقـة الواقعـة شمال بئر بائة من شمال الطائف لعثرنا على جبل " أم عشورة " الذي تنحدر منه روافـد وادي الشاميـة . وإذا انحدرنا منها إلى الجنوب الشرقي قليلا وجدنا جبل عشيرة الذي تنحدر منه عدة وديان باتجاه الطائف ، وليس من شك في أن عشتار المقصودة هي إحدى هاتين كما أن ديوني هي الأخرى ، إذ إن ديوني مرادفة لها ، ثم إذا ما صعدنا نحو الشمال قليلا أيضا نعثر على مسـتنقع كبير في حضن الجبال يدعـى "خبر عرن" . ولما كانت كلمة "خبر" تعني حرفيا منقع الماء في الجبل ، فإنه لن يبقى لدينا شك في أن منقع الماء هـذا في جبل "عرن" إنما هو المقصود بالمكان الذي لجأ إليه "عرانيو" هربا من ابنه ، فانحبس هناك

في حضن الجبل . والطريف أن الجبل الذي يجبس هذا المنقع المائي الكبير من الشرق يدعى جبل "أم الغيران" فقد جمع في هذا الاسم حقيقة تسميته الأصلية "عُرن" (ومن الشائع كثيراً الإبدال بين العين والغين) إلى جانب حالته النفسية ! والعين في السريانية تحَل محل الغين بالفصحى .

ولما فشل "عُرانيو" (أورانوس) في خطوته هذه ، "وجه ضد قرونو الحسناوين "هيمارمين "و"حورا "Hora مع إتباع آخرين . ولكن قرونو (كرونوس) عرف كيف يصالحهما ويحتفظ بهما قربه " .

ونحن إذا ما صعدنا بضعة كيلو مترات قليلة إلى الشمال الغربي من أم عشورة لوجدنا بلدة أم حمة الواقع في سفح جبل جمة الذي ينحدر منه وادي حمة . وليس من شك في أن "حمة " هذه هي " حمة رمين " (أي حمة العليا ، أو القادمة من الأعالي) . وإلى الجنوب منها مباشرة بحيث يكاد يتصل بوادي حمة نجد وادي "حوراء" الذي يصب في الوادي الكبير الناتج عن لقاء وادي الشامية مع وادي اليمنية ، ويتحد مع هذين الواديين عند المبارك قبل وصولهما إلى القشاشية .

و" حوراء " هي الكلمة العربية " حوراء" مفرد "حور" ، والحوراء ، والحورية ، هي الواسعة العينين ، وشدة سوادهما مع شدة بياضهما ، وشدة سواد الشعر مع شدة بياض الجسم . وتقترن كلمة "حوراء"في العربية بكلمة "عيناء" وكذلك جمعها ، كما أوردها دائماً القرآن الكريم " الحور العين " فالحوراء كان العرب يشبهونها بالمهاة أو البقرة الوحشية ، لشدة اتساع عينيها وجمالها في شدة سوادهما وشدة بياضهما معاً .

وتصف إلياذة هوميروس حيرا (الحرة ، الشريفة ، بنت النسب) بأن لها عينين كعيني المها أو البقر الوحشية (الإلياذة 1 : 55) وهي ذات الذراعين البيضاوين (الإلياذة 14: 277) ويبدو أن هوميروس أي الشاعر اقتبس أوصافها من الفينيقيين لأن شاعر الإلياذة نفسه كان سورياً .

ويقول سانخونياتن في مكان آخر : " وولد له بنات من ديوني وولدان أيضاً من عشتارتا هما بوثوس وايروس) (الرغبة ، والغريزة الجنسية والغيرة) .

ولما كانت البنات ـــ على ما يبـــدو ـــ تمثل الأنهار والوديان ، والبنون يمثلون الآبـــار والينابيع ، فإن عشيرة ، التي يتحدر منها سبعة وديان بالفعل باتجاه الطائف، هي ديوني ، وإن أم عشورة ، التي يجاورها بئر بائة هي عشتار، خاصة إذا ما علمنا أن كلمة "البائـة" ما تزال حتى يومنا هذا تحتفظ بمعناهـــا الذي هو " الإثارة " . أما "ايروس* " (الحـــب والجماع والغيرة) فقد احتفظ بها (وكأن ذلك زيادة في الطرافة) بالاسمين والمعنيين معاً في وادي عُران أو الغيران") شمال مكة . وقد سجل على الخارطة الاسمان كلاهما !

ونتابع مع سانخونياتن في النبذة الثالثة عشرة :

" وفي السنة الثانية والثلاثين من حكمه وتملكه ، قام ايلوس ، الذي هو كرونوس نفسه ، بمفاجأة والد اورانوس بكمين في مكان وسط الأراضي . فقبض عليـــه وسلبه رجولتـــه قرب ينابيع وأنهار ، في المكان الذي أنشئت فيه عبادته، فلفظ آخر أنفاسه ، والدم الذي سال من جروحه تقطر في عيون الماء وفي مياه الأنهار.ولايزال المكان معروفاً حتى اليوم".

ونحن إذا ما نظرنا إلى الخارطة جنوب مكة وغرب الطائف سوف نلتقي بوادي الدم وبئر الدم حتى اليوم .

وإن ما يؤكد صحة وجهة نظرنا هو ما يذكره لنا الكاتب الســـوري لقيان السميساطي (حوالي 125م) في كتابه "الربة السورية " إذ يقول تحت عنوان "نـــهر أدونيس وتربـــة لبنان القانية" مايلي : "وتوجد في جبيل أعجوبة أخرى ، وهي نهر ينحدر من جبل لبنان (لاحظ أنه لم يقـــل من جبـــال لبنان) ، ويصب في البحر ، وقد أطلـــق عليـــه اســـم " أدونيس ". إن مياهـــه كل عام تصبح حمراء بلون الدم ، فيتبدل لونه ، وعندما يصل إلى البحر يصبغ بلونه مياه البحر إلى مسافة بعيدة واسعة . هذه الظاهرة بالنسبة لأهـــالي جبيل هي الاشارة ببدء الحداد . وتقول الأسطورة إنه في هذه الأيام جرح "أدونيـــس" في لبنان ، وإن دمه الذي يجري في النهر يبدل لون الماء فيه ، وأنه هو الذي أكســـب النـــهر اســـمه الثاني ، تلك هي الرواية الشعبية في ذلك . إلا أن رجلاً من البلد ، بدا في ذلـــك أنه يقول الحقيقة ، قدم لي تفسيراً آخر للظاهرة ، وهذا ما قاله لي : إن نهر " أدونيـــس "

---

* ما تزال الكلمة تحتفظ بمعناها وهو الجماع وشدة الرغبة فيه حتى اليوم .

نهر غريب ، ويمر في لبنان ، إلا أن في لبنـــان أراضي ذات تربة حمراء قانية ، وإن رياحاً عاتية تهب في تلك الأيام تدفـــع إلى النهر هـــذه التربة المحملة بالحمرة ، وإنها هي الـــتي تكسب النهر ذلك اللون الأحمر . وليس الـــدم إذن ، كما يقولون ،وإنما طبيعـــة الأرض هي سبب هذه الظاهرة، هذا هو التفسير الذي قدمه لي ذلك الرجل من جبيل ".

إن لقيان السمسياطي لا يتحدث لنا هنا عن "جبيل" المدينة الساحلية اللبنانية التي لا تطل على أي نهر ل"أدونيس" أو لغيره ، وإنما هي تطل على البحر فقط ثم إننا إذا ما نظرنا إلى الخارطة إلى منطقة وادي الدم في جنوبي مكـــة لرأينا أن نهراً يجاورها من الشمال يسمى "وادي النعمان " النعمان ، كما هو معروف ، هو أحد أسماء "الرب" السوري أدونيس ، الذي ظهرت دماؤه في زهر شـــقائق النعمان بعد مقتله . وإذا ما تتبعنا مجرى هذا النـــهر صعوداً لرأينا أنه يتألف فعلاً من رافدين : أحدهما وادي عُرَنة Urana الذي ينبع ويمـــر في جبل لبنان شرقي مكة ، والآخر هو وادي ضيقـــة ، القـــادم من جبل دكا، وكبكب ، والحارثي* (الذي هو أغرتو) . وهذا النهر أصبح اليوم يغيض في الرمال البحرية قبـــل أن يصل إلى موقع مصبـــه القديم في البحر الأحمر . أما كلمة "النعمان " فهي تحوير عــــن "النحمان" التي تعني القائم من الموت، المبعوث حياً، وهي صفة ملازمة لرب الخصـــب ، وهي من الفعل "نحم" في السريانية ، أي بعث ، قام من الموت .

وعودة إلى سانخونياتن

" وبعد ذلك أعطى كرونوس للإلهـــة بعلتيس (بعلة) ، وهي نفسها ديونـــي أعطاهـــا جبيل . وأعطى بيروت لبوزيدون ، وللكبيرس فلاحين وصيادي سمك "

إن جبيل هي أول مدينة ـــ كما يقول ســـانخونياتن ـــ بناها أولئك الأجداد وتحديـــداً إيل الذي هو " قرونو" في فينيقيا وجبيل تعني " قبة إيل" أي أنه مات وقبر منها إنها جبيل على الخليج العربي التي تم استنساخها فيما بعد إلى جنوب الحجاز ، وفي منطقـــة جيزان وشمال اليمن ، إلى أية منطقة ما حيث منابع تلك الانهار ، كما سوف يتبين لنا موقـــع

---

* كبكب (وتلفظ جبجب " بالجيم المصرية) تعني المرأة الثقيلة العجيزة . أما الحارثي فمن معانيها الكثيرة الجماع .

الفينيقيين لاحقا . وهي مدينة جبلية كما رأينا وليست على ساحل البحر ، وبالتالي فإن مدينة جبيل اللبنانية على ساحل المتوسط ما هي إلا استنساخ آخر للاسم . إن جبيل التي أنشاها "قرونو" الذي حمل اسم "إيل" وسميت باسمه تقع على ساحل الخليج العربي ثم نسخت في شمال وادي أضم (الذي هو وادي الليث) . ونحب أن نشير هنا إلى أن نهر الكلب في لبنان الذي يصب جنوب خليج جونية ليس إلا صورة أخرى من الاستنساخ للأسماء والمواقع العربية الكثيرة . إن كلمتي " الكلب " و" الليث " هما كلمتان مترادفتان لمسمى واحد هو الكلب .

و" الكلب" تطلق على كل أنواع السبع المتوحشة ، وكلمة السبع كذلك ، والليث من أسماء السبع والكلب . وإن أسطورة الكلب تعود في الأصل إلى نهر الليث غرب شبه جزيرة العرب وليس إلى أي "كلب" آخر على نهر الكلب اللبناني .

يقول فيليب حتي في شرح سبب تسمية النهر بهذا الاسم : " سمي كذلك بسبب كلب محفور في الصخر ظل قائما لمدة عدة قرون كحارس للمضيق* فأي مضيق هذا في لبنان ؟ وتقول الأسطورة إن صراخه حين اقتراب العدو كان مرتفعا حتى أنه كان يسمع في كل منطقة . وقد قذف المسلمون الذين يكرهون التماثيل هذه الصورة المنحوتة في النهر . وقد أخرج الأستراليون في عام 1942 ما يمكن أن يكون الكلب الأصلي ، وهو ذئب موجود الآن في المتحف الوطني في بيروت " . والحقيقة هي أن أسطورة الكلب تعود في أصلها إلى شبه جزيرة العرب ، حيث نهر الليث (الذي هو نهر الكلب) ينبع من جبل كلب النعد ، والنعد هي النأذ ، وهذا الإ بدال كثير في اللغة العربية بين الهمزة والعين ، وتعني الداهية . وجبل كلب النعد يجاور جبال جودة وقرنايت ودكا من الجنوب ويطل على طريق القوافل الدولي القديم الذي يمر عند قاعدة سفوحه الشرقية صعودا إلى الطائف ، كما يطل من جهة الغرب على الوديان الكثيرة والغزيرة التي ترفد نهر الكلب (الليث) ، وعلى وديان ومنطقة سوق الربوع الخصيبة من الجنوب.

*** إن هذا مؤكد حقيقة كونه حارسا لخط القوافل الضيق بين الجبال جنوب الطائف وليس لأي مضيق عند جبيل في لبنان المتوسطي**

لقد كان " الكلب " حارسا "للمضيق عند فم الخليج ، ثم لطريق القوافل الضيق شـــرق السراة ثم نسخ في سوريا المتوسطية .

أما بيروت فقد أعطاها قرونو لبوزيدون .

وإذا علمنا أن بيروت هذه تعني الخصب ، وهي في الأصل "فيروت" ، فإن هذه التســمية يمكن أن تلتقي بها في كل ثلاثة كيلومترات مربعة من الأرض في شبه جزيرة العـــرب . لكن المنطقة الجغرافية التي نحن بصددها الآن هي منطقة وادب الليث (أو نهر الكلب) ، إننا نرى على الجانب الشمالي لوادي الليث أحد روافده الكبيرة ويدعى وادي "بـــيرين" هي يالآموريـــة تقابل "بيروت" بالسريانية ومعناها الخصب ، وهذا يعني أن "بـــيروت" المقصودة هنا تقع على هذا الـــوادي ، ومما يزيد في دعم ترجيحنا لهذه الأمور هـــو أن بيروت هذه أعطيت لـــ"بوزيدون" وبوزيدون هذا ليس إلا ملك الجبل الواقع على الضفة الأخرى لوادي الليث، والذي مازال حتى اليـــوم يدعى بجبل بني يزيد ، ويصـــب وادي بيرين (بيروت) في وادي الليث عند قاعدة هذا الجبل تماما . وقد أخذه الســـوريون في صيغته السورية الأصلية " فوصيدون " أي مفجر المياه والينابيع وجعلوه إلها للعواصــــف البحرية وللزلازل.لقد وصفه هوميروس في "الإلياذة"بأنه إله الزلازل (الإلياذة 15 : 205) وأنه ابن كرونوس من رهيا ، وأنه يشترك في بناء أسوار "أليون" (طروادة) مع أبولـــو ، ولكن لاوميدون لا يدفع له أجرته ، ويهدده باستعباده (الاليـــاذة 21 : 442 ـــ 446) ، وهو يعبد كإله للبحر والمياه في جميع المناسبات . ونبتون (النبت) هو النسخة الرومانيـة لبوزيدون ، ويبدو من اسمه أنه عربي فينيقي أيضا ، إذ هو في الأصل "نفتون" ويعـــــني المخصب والكلمة في القاموس السرياني أو الفينيقي من الفعل "فتي" بمعنى أخصب، أكثر. ونجد في النبذة 14 لسانخونياتن :

"وكـــرونوس عند تجوله في العالم أعطى لابنته أثينا مملكة أتيكا " فأثينا هي أيضا إحـدى بنات " إيل " الذي هو "قرونو" أبو السنين . وينقل هيرودوت في تاريخه كيف أن فتيات من قبائـــل " المخلية والأوس" كن يقمن بمناورة قتال سنويا على شرف أثينا في أحـــد الأعياد ، وذلك وفق عادة قديمة لإلهة تتفق مع صفات أثينا ، وربما تكون هي "عنـــاة"

الفينيقية المحاربة انتقلت مع بحارة الفينيقيين إلى بلاد البحر المتوسط (هيرودوت 4 : 18)
أما اتيـــكا فهي مستعمرة سورية في شرق بلاد اليونان تكثر فيها المعادن والرخام وكـان السوريون أول من عرف التمدن وطرق المعادن وصناعتها والاتجار بها . وإن اســمها لا يخرج عن الاسم العربي القديم ــ عتيقة ــ وقد استوطنها الســـوريون بعــد "أتيكــا" (العتيقة) التي سبق أن أسسوها في تونس .

3 ـ العرب يؤسسون حضارة مصر :

وبعد أن برع تأوتس "تحوت" أو "توت" (بعد سقوط الحاء باليونانية بأعمال الحفـــر، أخذ يقلد بالحفر تعابير وجوه الآلهة ويصنع لهم التماثيل . "وعندما جاء كرونـــوس إلى بـــلاد الجنوب أعطى مصر بكاملها للإله تاوتس لتكون مملكة له "
وبـــلاد الجنوب هذه هي أرض ميدي **Midi** كما ذكر سانخونياتن ، وهي ما تـــزال إلى اليوم جنوب أنها التي تعني الجنوب بالسريانية حاليا . وهي تتاخم أرض "مصر" ونجـــبي . و"نجبي" في السريانية تعني الجنوب .
إذن "تحوت" يستقر الآن في بلاد ميسور، يصنع تماثيـــل وأبنية ومنحوتات لتخليد أولئك الآباء العظماء . و"الكبيرس السبعة" أبناء صديق كانوا أول من التزم بهذه الأعمال مـــن بين جميع الرجال ليحتفظوا منها بالذكرى ، وكذلك أخوهم الثامن اسكلبيوس ، كمـــا رسم لهم ذلك "الرب" (السيد) تأوتس الذي من أسمائه التراثية أيضا إدريس وهرمز .
وبعد ذلك "كان ثابيون أول كاهن عظيم من بين جميع أولئك الذين كانوا في فينيقيـــا ، والذين ترجم لهم بطريق الاستعارة في مجموعهم ، وتم اختلاطهم بحركات العالم الطبيعية، فانتقلـــوا إلى مديري حفـــلات المجون وإلى أنبياء الأسرار . وهؤلاء ، رغبة في زيـــادة الغموض في جميع هذه التقاليد أضافوا إليها ابتداعات جديدة علموها لمن خلفهم ، لمـــن أشركوا معهم في طقوس الأسرار"
" ومن هذه الجماعة كان أوزيرس مبتكر الحروف الثلاثة وأخ قناء('Chna)الذي كـــان أول من غير اسمه إلى فينيقي " و" قناء " في القاموس السرياني تعني الأحمر وهو القانيء أما

"فينيق ، أو فونيق " فتعني السيد المرفــه ، المنعّم والكلمة في العربية السريانية والفصحى من الفعل " فنق " أي تنعم ، ترفــه ، عاش عيشاً راغداً ، وعيش مفانق عيش رغيـــد ، والجواري الفنق الناعمات والمنعمات .

وهكذا نرى أن أوزيريس وقْناء ، أو قاني ، أو فينيق ، إنما هما أخـــوان . إن أســـطورة أوزيريس ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمدينة جبيل . وتقول الأسطورة إن "سيت" (وهوداجـــون) أخا أوزيريس هو الذي قتله ، ولعل سيت هذا ، أو "شيث"(أو سيتخ ، أو ستاع* كما دعاه المصريون) هو نفسه قْنـــاء الذي قتل أخاه اوزيريس ، وغيّر اسمه إلى فينيقي بسبب الصراع على العرش كما تروي الأســـطورة . وتربط القصة اسم "تحوت" نفسه بـــدور ما في هذه المؤامرة ، وتتهمه بتدبيرها مع "سيت" .و"تحـــوت" (تأوتس) هو الذي نسب إليه ســـانخونياتن اكتشاف الحروف والكتابـــة وبدأ فن الحفر . وإذا ما رأينا أيضـــاً أن اوزيريس وضـــع الحروف الثلاثة ، علمنا أن التنافس كان قائماً من أجل عرش الســـيادة على بلاد "ميسور" و" قناء" وكانت النتيجة أن ذهب اوزيريس ضحية لذلك التنافس .

أما قصة ابتكار الحروف الثلاثـــة فليست إلا عمليـــة ابتكار النظام الثلاثي في كتابـــة اللغة العربية بكل لهجاتها ، أي إرجاع جميع الكلمات إلى أحـــرف صامتـــة ثلاثة ، إنه النظام العربي في الهندسة والمنطق والفلسفة والدين والسياسة والاجتماع ، إنه نظـــام الأب والأم (السيد والسيدة) والابن . إنه تجسيد للنظرة العربية السورية في تقديس الآباء ضمن هذا الثالوث الذي يؤكد وجود الابن ، يؤكد الخصوبة . لقد عثر في أريحا على تمثـــال لرجل وامرأة وطفل يعود إلى الألف السابع قبل الميلاد ، وكان يستعاض عن الثلاثة بالأم وطفلها ، إذ في ذلك ما يكفي لتأكيـــد خصوبة الأم والأب ، ثم صـــار يستعاض عـــن أحدهما أو كلاهما بالصليب (الذي هو رمز الخصب) يحمله أحد الوالدين ، أو بالزوبعة التي هي رمز الرغبة الجنسية الجامحـــة البدائيـــة الأولى والقوة الاخصابية حقاً ، حينمـــا

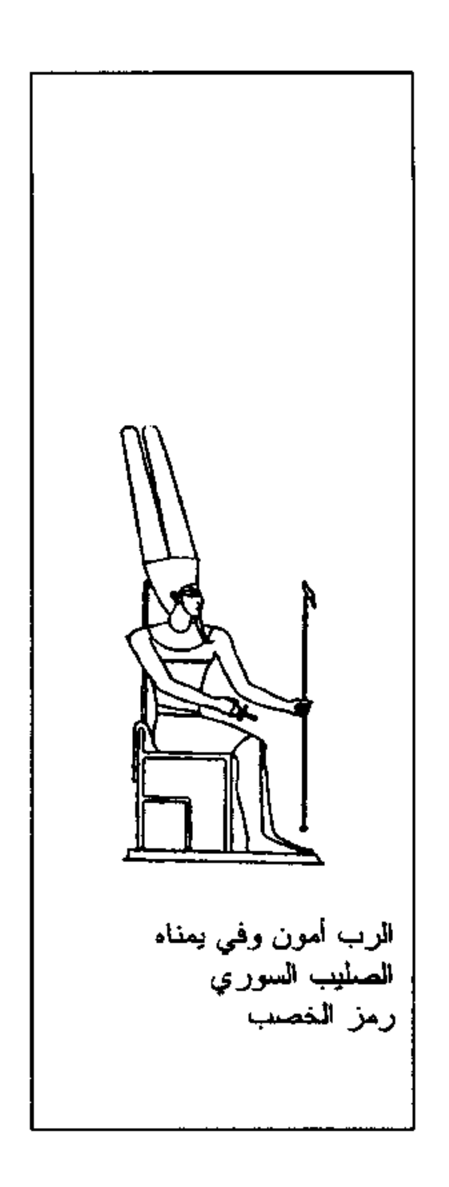
---

* هناك مايزال على الساحل الشرقي للبحر الأحمر الجبل الذي يحمل اسمه قرب حرّة الدم ، وهو جبل سطاع .

وقعت "الريح المعتمة العاصفـــة ، في زمن كأنه امتداد ، في حب مبادئها الخاصة حيـث حصل قران .. هكذا كان مبدأ خلق جميع الأشياء " (النبذة I) .



عشتار تتوج
رأسها الأفعى



الرب أمون وفي يمناه
الصليب السوري
رمز الخصب



كليوباترا على هيئة الربة إيزيس تضع تاجا مكونا من قرني البقرة المقدسة حتحور (أي راهبة حور)

إن هذا النظام الثلاثي في التقديس أسقط ذكر الكثير من الآباء العرب مثل "مر"، "سر" ، "رب" ، "نو" ،" تو" ، "رم" ...... إلا مع أبنائهم : آ ـــ سر ، ع ـــ رب ، أ ـــ نو ، أ ـــ تو ، أ ـــ رم ... الـــخ ، ثم أصبح ظاهرة عربية صميمة عامة لا يخرج عنها مذهـــب اجتماعـــي أو سياسي أو ديني أو فلسفي منذ ذلك التاريخ الموغل قي القدم وحتى يومنـا هذا .

من المفيد أن نذكر هنا بأن جبيـــل الفينيقية كان اسمها الفينيقي الأول "نجا " وهي علـى شاطئ الخليج أسسها إيل (كرونو ، قرون ، أبو السنين) كأول مدينة فينيقية (النبذة X) ويقول "كونتنو " في كتاب الحضارة الفينيقية ضمن مجموعة " آســـيا والحضـــارة المصرية " : " كان المصريون يدعونها "نغا" ويدعون إلهها أدونيس "هابي تــــو " (أبــو الخصب) ، وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد [1] .

كما أنه من الجدير أن نذكر بأن " نجا " (زوبعة الإخصاب الكونية) كان أحد أســماء عشتار ، وتعني السيدة العلية.الرغبة الجنسية والإخصاب الكوني معا والمنجية أو المخلصة. وهكذا نرى أن الأرباب " الأباء العظماء" وفن النحت ، والكتابة التصويرية إنما دخلــت مصر عن طريق العرب الســـوريين الذين يؤلف القناعيون (الفينيقيون) أحد فروعــهم ، وأن شبه جزيرة العرب ، أو المناطق الجنوبية السورية ـــ و الشمالية المتوسطية ـــ كـانت المهد الأول لتلك العبادات ، وأن أولئك الآباء العظماء من العرب الأوائل ، أمثال تـلوت (تحوت أو توت) وسيت ، وفونيق، وأوزير[2] (من آزر، وتعني المســـاعد ، المعــين ، الشفيع) وغيرهم ، إنما كانوا مؤسسي الحضارة العربية المصرية القديـــمة .

هذا ما أكده المؤرخ العربي السوري سانخونياتن الذي عاش في الألف الثاني قبل الميـلاد ، وهذا ما يؤكده المؤرخون العرب الكلاسيكيون، فماذا تقول المكتشفات الآثارية الحديثة؟ إن النبـــذ القليلـــة التي بقيت لنا من تاريخ سانخونياتن لا يمكن لها أن تغطي تاريخ جميع الآباء العـــرب الأوائل الذين ابتكروا الأشياء الجديدة في حضارة الانســـان ، فخلدهـــم

(1) هنري فرانكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ، ص101 .
(2) راجع: يوسف الحوراني ، نظرية التكوين الفينيقية ، ص71/ح .

أبناؤهم وقدسوهم كما تقدس الأرباب . فهناك مينا (مينوس) مثلا ، الذي يؤكد لنا هيرودوت في رواية يعتبرها هنري فرانكفورت جدية ويمكن الأخذ بها ، أن "مينا" هذا هو مؤسس مدينة ممفيس[1] . وقد بنى سدا عبر القسم الغربي من وادي النيل شمال الفيوم ، مرغما بذلك فرعا من فروع النيل أن يعود إلى مسيره الأساسي ، ومستصلحا بذلك خمسين ميلا من الوادي . فكان أول من أدخل فنون زراعة الأرض المتطورة من سوريا إلى مصر ، والتي برع فيها العرب السوريون ، وهو يذكرنا بـ"مردوك " الفلاح البابلي ، علما أن لقب "مينا " يعني ، بجميع اللهجات العربية القديمة ، "الفلاح ، أبو النسل والذرية" . وعلى الأرض التي أحياها بنى قصرا ملكيا إلى الجنوب من القاهرة الحديثة قليلا . وكان يدعى "الجدران البيضاء " وقد كان الأبيض هو لون الربة الأم "نخبت* " حارسة مصر العليا وبيت الملك . ومن الجدير أن نذكر أن النبع الذي ما يزال يحمل اسمه (وهو بئر مينوس) يقع قرب مدينة الليث على شاطئ البحر الأحمر ، كما أن اسم "نخبت" ما تزال تحمله مدينة " نخب" قرب مدينة الطائف .

لقد نقل مينا "مينوس" فن البناء واستصلاح الأراضي الذي كانوا قد برعوا فيه إلى مصر . وجريا وراء تقديس كل المبدعين فقد صار قصره " الأبيض" مكانا يحج إليه المصريون ويتقدسون به عن طريق الطواف حوله . وصار كل ملك جديد يجيء إلى ممفيس للاحتفال بـ"اتحاد البلاد" للقيام بالطواف حول الجدار الأبيض كما يظن أن مينس فعل عندما شيد قصره الملكي "[2] . لقد نقل مينا معه إلى مصر هذا التقليد العربي القديم في العبادة ، والمتمثل بالطواف ، وقد درجوا عليه منذ عهد آدم وحتى اليوم .

---

(1) هنري فرانكفورت ، " فجر الحضارة في الشرق الأدنى " ، ص101

• ان "نخبت " هو أحد أسماء عشتار ربه الخصب والجنس والجماع ، وما تزال اللغة العربية الحديثة تحافظ على هذا المعنى : فنحن نجد أن نخب المرأة ينخبها أي جامعها . واستنخبت المرأة طلبت أن تجامع ، والنخب الشربة العظيمة من الخمر يشربها الرجل لصحة حبيبه أو عشيره .

(2) الدكتور محمد حرب فرزات " محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم " ، و" مصر وحضارتها " ص 93 نقلا عن غيره .

وإذا كانت القصص العربية المصرية القديمة تقول إن "سيت" هو قاتل أخيه اوزيريس ، وجاء إلى مصر ، فإن القصص العربية السورية في جبيل تؤكد أن أوزيريس قتل ودفن في مدينة جبيل نفسها حتى لا يعود ثانية إلى مصر بعد أن صارت شعبيته هناك تشكل خطرا على غيره وأن معبد أدونيس هو معبد اوزيريس نفسه . إن هذا هو ما يرويه — على الأقل — المؤرخ السوري لقيان السميساطي على لسان أحد سكان جبيل في القرن الثاني الميلادي وليس هذا إلا استنساخا لمواقع القصة الأصل .

يقول لقبان السميساطي في كتابه "الربة السورية" :

" ويوجد جبيليون يزعمون أن اوزيريس المصري قد دفن عندهم . وأن هذا الحداد ، وتلك الولائم العامرة لا تقام على شرف أدونيس ، وإنما جميع هذه الاحتفالات تؤدى على شرف اوزيريس". ويؤكد أدولف إيرمان في كتابه "ديانة مصر القديمة " أن قبر إيزيس في بلاد العرب . وأن كتابة على قبر أوزيريس أكدت أنه ابن قرونو[1] " .

وحينما قتل أوزيريس على يد أخيه سيت ، حسب الروايات المصرية ، قدم سيت ، وملك في مصر وادي النيل ، فلحقه حور (الذي هو "حر" وتعني الباشق ، الصقر ، الطير الحر) إلى هناك . وما زال حتى اليوم ثمة جبل عند مصب نهر الدم في البحر الأحمر يدعى جبل "سطاع Sita" ، ونحن لا نشك في أن هذا الاسم تحور لفظا فقط من اسم "سيت" بفعل اللهجة العربية الحديثة فيما بعد ، وأنه هو نفسه "سيتخ " أو "سيتاع " المصري .

وتدل الوقائع أن "حور" تمكن من أن يفرض وجوده هناك فعلا ، وصار "حورس" هو لقب ملوك الأسرة الأولى . كما ظهرت دلائل تشير إلى حدوث تنازع ما بين أنصار عبادة "حورس" وبين أنصار عبادة "سيت" مما ترك آثاره إلى زمن الأسرة الثانية . ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن "سيت" هذا هو أحد أجداد العرب السوريين العماليق في منطقة "إيل سيت" التي اسمها الآن "الصوت" (شرقي جبل إبراهيم في شبه جزيرة العرب والذين دعوا فيما بعد "الهكسوس") .

---

(1) أدولف إيرمان ، "ديانة مصر القديمة " ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده بمصر ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري ، ص 473 — 474 .

ثم إن من أعظم ملوك المملكة القديمة ، أو عصر ممفيس وبناة الأهرام ، جاسر صاحب الهرم المدرج في صقارة ، والذي اشتهر في التاريخ ببراعته الهندسية والتقنية الفذة . فقد قام ببناء مجموعة من المدافن التي تضم مدفنه القائم على شكل هرم يتألف من ست مصاطب متوضعة بعضها فوق بعض لتصنع مدرجا يرتفع ستين مترا . وقد ساعد الملك وزيره امنحوتب الحكيم ، الذي كان طبيبا وكاهنا ومعماريا طبقت شهرته الآفاق ، وقد دعاه الإغريق "اسكلبيوس" ودمجوا بينه وبين إله الطب . وشهدت مصر في عهده ثورة عمرانية ، وتطورا ثقافيا سجلته الآثار الأدبية المصرية في العهود التالية .

و"جاشر" أو " جاثر" هو نفسه العربي السوري في شبه جزيرة العرب الذي ورد اسمه "جاشر" مقرونا مع "خاسس"(قاسي) كائنين من الصناعيين التقنيين الفينيقيين في محفوظات أوغاريت ، فقد أورد البغدادي في كتابه "سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب " أن ثمة "جاثر" من أبناء أرام بن سام بن نوح . وهذا يعني أن هذا الاسم كان من الأسماء العربية البارزة في غربي شبه جزيرة العرب في تلك الفترة أيضا . وتذكر محفوظات أوغاريت (مقام الجارية " عشتار") أن "جاثر"(جاشر) ذهب إلى مصر ، وأقام هناك مباني وقصورا وحسورا ، ثم استدعي من هناك إلى أوغاريت ليبني بيتا للبعل [(1)] ،والاسم بالعربية السريانية هو جاشار وجاشور ويعني البناء ، الجسار ، الذي يعقد الجسور والبيوت وكل ما يوتر بالأعمدة . و"أجاريت" المقصودة كانت أوجاريت الأخرى في شبه جزيرة العرب ، وهي حاليا " الجارية" ، أما "دوسر" فيعني "السيد" "رب المرتفع " أو "رب الجبل "وقد استعيض عنه في موطنه الأصلي أحيانا بكلمة "ءل " (إيل بدلا من " ذو " وصار الاسم "ءل سر" (رب الجبل) ، ثم اعتبرتها اللغة العربية فيما بعد تعريفا وجمعتها فصارت " السراة " ، وهي الجبال المعروفة في غرب شبه جزيرة العرب ، ونحن لا نشك في أن نهر "الدواسر" ليس إلا صيغة عربية حديثة من صيغ جمع التكسير لكلمة " ذاسر" أو "داسر" ، علما أن جميع روافده تنبع من تلك الجبال وتنحدر شرقا لتكون ذلك الوادي العظيم الذي ظل صالحا للملاحة حتى الخليج العربي آلاف

---

(1) انظر : يوسف الحوراني " نظرية التكوين الفينيقية " ص 101/ح .

السنين . و"ذوشر" أو "دوشر" هو نفسه " ذو الشرى" كبير آلهة الأنباط فيما بعد ، وانتقل إلى الثموديين وإلى العموريين بالصيغة العربية الآرامية "دوشرا" ثم بالصيغة العربية المتأخرة " ذو الشرى " . وقد اقترن اسمه القديم عند الآراميين باسم " أعرا " فسمي أيضا "دوشرا ، أعرا " ولما كان الإبدال بين اللهجات العربية بين العين والغين كثيرا ، فقد سمي أيضا "دوشرا ،أغرا " . و" أغرا" هذه هي نفسها عشتار ، إذ إن " أغرا" هو أحد أسمائها . و"أغرا " المقصودة هنا ليست إلا بلدة " الحجر" في "ميسور"في بلاد زهران والتي صار اسمها صوعن ، ثم "صان الحجر" ، وهي مدينة العنابر لفرعون ملك مصر ، حيث استخدم يوسف بن يعقوب . أما صان فهي "صن" ، وهي "صين" البرية التوراتية شرق زهران يقول فيليب حتي في كتابه "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " :

" وكان على رأس مجموعة آلهة الأنباط الإله دوشارا (ذو الشرى ، أو دوساري Dusares) وهو إله الشمس الذي كان يعبد بشكل مسلة ، أو حجر أسود غير منحوت له أربع زوايا . وقد بقي في أنقاض معبد نبطي في خربة التنور جنوب شرقي البحر الميت مزار على شكل صندوق شبيه بالكعبة ، ربما بني في القرن الأول قبل الميلاد "[1]

فتقديس الملك "زاسر" ، إذن مرتبط بإدخال عبادة الشمس إلى المصريين من قبل عرب شبه جزيرة العرب السوريين الذي يقول سانخونياتن عن آبائهم الأوائل :" وقد اكتشف ـــ جون وبرثاجون (ابنته) الغذاء الذي تقدمه الأشجار ، وهذان كانا أهل جينو وجينيا اللذان سكنا فينيقيا . حدث جفاف كبير ، فمدا أيديهما نحو السماء والشمس "

وذو الشرى ، إذن ، كان رمزه حجر أسود من بقايا نيزك . وهذا ما فعلته عشتار ــــ كما يحدثنا سانخونياتن ـــ حينما تجولت في العالم و"وجدت نجما يشق الهواء فالتقطته ، وكرسته في جزيرة صور المقدسة "[2] . لقد اشتهر العرب بتقديس هذه الحجارة الساقطة من السماء في العهد القديم ، وبعد ظهور الأديان السماوية الثلاثة أيضا . فمن المعلوم أنه

(1) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين ، الجزء ، ص 428 .
(2) إنها جزيرة " مصيرة " الحالية قبالة مدينة صور العمانية .

قد تصل إلى الأرض أجزاء من الشهب والنيازك قبل أن يتم احتراقها ، وقد حظيت هذه الحجارة بتقديس الأقدمين ، واشتهر من هذه الأحجار السوداء المقدسة: حجر عشتار في جزيرة صور ، وحجر الأنباط ، وحجر حمص ، وحجر مكة .

وقد كان الحجر النيزكي في حمص يمثل بعل إله الشمس . وعندما تزوج سبتيمو سفيرو القائد الفينيقي الليبي من الفتاة الحمصية جوليا دومنة ، بنت كاهل بعل حمص ، وصارت إمبراطورة روما ، أمرت بنقل الحجر المقدس عام 217م في عربة خاصة إلى روما وفرضت عبادته على جميع الرومانيين .

أما اسكليبوس الذي هو ابن صديق ــ كما يحدثنا سانخونياتن ــ فهو الطبيب "أشيمون" نفسه وهذه الكلمة هي في الأصل السرياني "حكيمون" أي الحكيم ، الطبيب ، وهي بالعربية الفصحى "حكيم "وصارت باليونانية" أكيمون" وباللاتينية " أشيمون" إذ تحولت " الكاف " إلى " شين " كما في "ميكائيل " و"ميشيل ". وفي الالياذة هو إنسان فان وطبيب ماهر ، هو وأبناؤه (الالياذة 2 :731) ، وترمز له الأفعى التي أصبحت رمز الدواء في العالم المعاصر . وقد انتشر تقديسه في معظم أنحاء العالم القديم ، لكنه لم تنسب إليه معجزات خرافية ، وهذا ما يتماشى مع المبدأ العربي السوري في تقديس الأبطال . ويرينا سانخونياتن أن هذا "السيد" كان رجلا حقيقيا موهوبا بمعالجة المرض . وبينما لا نجد لاسمه أصلا في اللغة اليونانية ، نجد بالمقابل أن الأصل العربي للكلمة هو "آسي كل آني" أي طبيب كل الأمراض .

إذن ، لقد كان أعظم ملوك الأسرة الرابعة القديمة في مصر "الملك ذاسر" ، وهو عربي من الذين سكنوا القسم الغربي من شبه جزيرة العرب .

وتدل الوقائع والمعطيات أن أولئك العرب الأوائل الذين حكموا مصر ، ونقلوا إليها الحضارة العربية السورية المتقدمة في منطقة الهلال الخصيب ، إنما جاؤوا عن طريق البحر الأحمر إلى الموضع الذي يمتد بين ميناء القصير وأم الروس ، ثم تقدموا من هناك إلى وادي النيل عند قفط ، حيث بنوا أول مواقعهم . وبدأت إنجازاتهم الحضارية العمرانية بالظهور لتبقى شاهدة على مدى تقدم هذه الفنون لديهم على مر العصور . لقد اتخذ الملك

"جاسر " لنفسه ، أول الأمر ، عاصمة قرب "أبيدو" "وبنى هناك مقبرة على شكل مصطبة ذات درج يؤدي إلى بناء مؤلف من اثني عشرة حجرة ، لكنه سرعان ما تخلى عنه لينتقل إلى موقع أكثر قربا من العاصمة منفيس ، وبنى هناك هرم صقارة المدرج والجدير بالذكر أن الاسم " منفيس " هو في السريانية " منفيس " ويعني : الخلاص ، النجاة ، المتنفس ، الحياة ، النمو ، كما يعني الهرم ، القبة ، المدفن .

يقول فيليب حتي : " كانت أول مدينة احتلت مكانة رئيسية في العلاقات المصرية السورية مدينة Gubal (جبيل) ، وكان المصريون يعرفون هذه المدينة باسم Kupan وهو اسم غير سامي حوله الفينيقيون بعد احتلالها إلى جبلة ، وبقي اسمها السامي في جبيل الحديثة"[1] ، إن فيليب حتي يقرر مثل هذا القول ــ لاشك ــ معتمدا على أقوال غيره من الجاهلين باللغات عامة وبالعربية خاصة ، أومن المغرضين الذين جعلوا دأبهم في كتابة التاريخ العربي خلق كل الحواجز العرقية والثقافية بين مناطق هذا التاريخ الواحد ، وعزل تجمعاته البشرية الواحدة عن الأخرى . فقد كنا قد أوضحنا أن "جبيل "تعني "قبة إيل" أي " قبر إيل" ، أو "ضريح إيل" الذي هو "قرونو" أبو السنين نفسه . وإن التسمية باللهجة العربية المصرية لا تخرج عن هذا المعنى سوى أنها تضع "عان" (الذي عرفناه باسم " آنو " عند السومريين) مكان "إيل" ويبقى معناها باللهجة العربية المصرية " قبة آنو " . ومازال اسمه يحمله جبل " عان " قرب جبل "سك" شرق الطائف و " سك " هو الذي يحمل اسمه مؤرخنا العظيم " سكونياتن " (أي سك يعطي) والذي نحن في صدد دراسة كتاباته .

ويضيف فيليب حتي : " واسمها اليوناني بيبلوس Byblus الذي صار يعني "بابيروس" أو" كتاب" قد بقي في لفظه Bible(الكتاب المقدس أو التوراة) .

وقبل أن تصبح جبيل الميناء الذي يصدر منها البابيروس فإنها كانت مركز تصدير أرز لبنان المرغوب كثيرا إلى وادي النيل . وهناك استخدم الأرز في بناء المعابد والقصور

• " أبيدو" تعني "مقام بيدا" ويحمل اليوم هذاالاسم جبلان : أحدهما "بيدا " في سراة زهران ينحدر منه وادي بيدا إلى الشرق من زهران، والثاني "جبل أبيض " شمال الليث Abid وهو المقصود .
(1) فيليب حتي تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 136 .

والسفن وفي صنع التوابيت والأثاث الفاخر . وقد اســتورد الفرعون "سنفرو" (حــوالي 2650 ق.م) محمول أربعين سفينة من الأرز لأعماله العمرانية ...وكانت تصدر الخمور والزيوت أيضا لأجل التحنيط من جبيل . وكانت المدن الفينيقية تستورد ـــ لقاء ذلــك ـــ الذهب ، والمصنوعات المعدنيــة ، ومادة الكتابة (البابيروس أو ورق البردى) .

وقد نقش خوفو Cheops (حوالي 2600ق.م) باني الهرم الأكبر المشهور اسمه على آنيـة من الالباستر وأرسلها كهدية إلى سيدة جبيل "[1]

والحقيقة أنه ليس ثمة علاقة بين لفظتي "بيبلوس" و"بابيروس" . وكلمة "بـــب‌ءل" الـتي صارتBible، أي الكتاب المقدس ، هي كلمــة عربيــة سريانيــة تعني "معجزة إيل ، معجزة الرب وآياته " وقد حافظت حتى هذا اليوم على معناها في الكلمة العربية "بابيــة" التي تعني المعجزة ، وفي "البابة" التي تعني الغايــة، والقصد ، وسطور الكتاب .

أما الربط بين تسميتها وبين تصدير ورق البردي ، ففي ما مر من القول تناقض صارخ ، إذ إن جبيل تستورد هذه المادة ، والبلاد لا تشتهر بما تستورد ، بل بما تنتجه وتصــدره . وكنا قد أشــرنا سابقا عند التمييز بين مدينتي جبيل اللبنانيــة ، وجبيل في شرقي البحر الأحمر وعلى الخليج العربي ، إلى أن الحديث كله يدور حول"جبيل" شبه جزيرة العــرب حتى الآن .

أما الملك "سنفرو" فقد كان أول ملوك الأسرة الرابعة ، ويدل اسمه على أصله العربي من شبه جزيرة العرب . وليس اسم الشاعــر العربي الكبير "الشنفرى" إلا دليلا على رسوخ هذا الاسم في شــبه جزيرة العرب ، (والكلمة تعني ثمرة الإله سين ، إله القمر أو سـين أثمر ، أخصب) ، لقد افتتح "سنفرو" عهدا زاهرا ، وأقام منشآت عمرانيــة عظيمــة ، فأنشأ ثلاثة أهــرامات : اثنين في دهشور* ، وواحد في ميدوم[2] كما أنشــأ معــابد ، وحصونا ، وقصورا ، حسبما تذكر الحوليات المحفوظة في متحف بالرمو .

---

(1) المصدر السابق ، ص137 .

* هي بني ثور الحالية .

(2) "ميدوم" كان يقصد بها منطقة الجنوب في شبه جزيرة العرب وهي الآن ميدي ، نقل السوريون الاسم معهم إلى "ميدي" على ساحل البحر الأحمر بين اليمن الشمالي وجيزان ثم إلى مصر وادي النيل .

وقد خلفه ابنه خوفو Cheops (الذي هو "كوفو" بالعربية الفينيقية والسريانية ويعني العزيز والمنيع) . وجعل ـ على مايدو ـ عاصمته في الجيزة ، حيث بنى هرمه الكبير ، وثلاثة أهرامات صغيرة لأفراد أسرته . وقد اتبعت المملكة في عهده سياسة تهدف إلى استثمار مناجم النوبة ، وذلك لتغطية النفقات الباهظة لبناء الأهرام . وبعد فترة انتقلت فيها العاصمة إلى أبو رواش** عادت إلى الجزيرة مع خفرع (عزيز الإله الراعي " الشمس") والذي بنى هرما خاصا به ومعبدين ، ونحت له التمثال الضخم المعروف بأبي الهول ، ويحمل رأسا ملكيا ، هو على الأغلب رأس الملك ، وجسم أسد رابض كأنه يحرس الأرض ومن عليها بنظرة فيها الإشراق والثقة ، وتعكس طمأنينة الدولة ومتانة دعائمها .

وبإمكان القارئ أن يميز هنا بسهولة الخلط الحاصل بين أخبار الملوك في جزيرة العرب وأخبار ملوك مصر وادي النيل .

ومما يدل على أن جولان العرب بين الجزيرة ووادي النيل يرجع إلى زمن موغل في القدم هو أن المصريين سجلوا في نقش عثر عليه في منطقة بني حسن* على نهر النيل ، على بعد حوالي مائتي ميل جنوب القاهرة ، صورة ملونة جميلة لأسرة سامية عربية مهاجرة من جزيرة العرب إلى وادي النيل . وقد نقش هذا التصوير الذي يرجع إلى زمن الملك "سيرا ستار" (الربة هي عشتار) الثاني على جدران مقبرة الحاكم "خانم هاتيب" (حنا الطيب) . ويمثل المنظر رئيس قبيلة عربية (فينيقية أو عمورية) يسمى ابيشاي ، وأفراد عائلته ، وأتباعه وقد جاؤوا من جزيرة العرب إلى مصر . ولقد ورد اسم أبيشاي كاسم عربي في التوراة بصفته أخ أحد قواد داود ، وهو يعني " أبو يسى " (أو أبو ياسين فيما بعد) وتعني السيد أبو هو رب القمر ، ويشاهد في النقش موظفان مصريان يتقدمان الكوكب ليقدما الجماعة إلى الحاكم المصري . وقد ورد في الكتابة الهيروغليفية التصويرية

** إن اسم " أبو راش" هو استنساخ لاسم "جبل أبو رواش" الذي مازال حتى اليوم على الساحل الشرقي للبحر الأحمر شمال مدينة الليث .

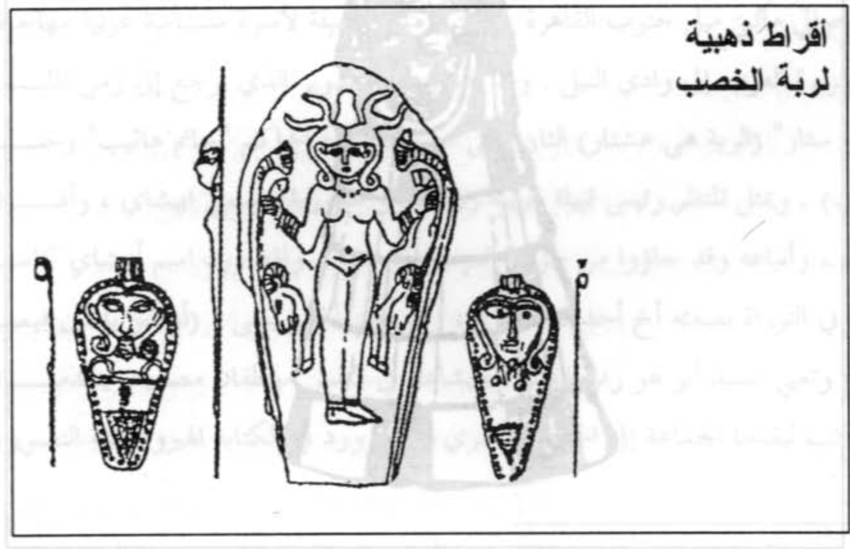
* وهذا الاسم استنساخ لاسم "آل حسن" شرقي عردة في زهران ، وهو مأخوذ من اسم جبل كاشي قرب البلدة الباقية باسم "آل حسن" حتى اليوم .

التي حملها أحد هؤلاء الموظفين بيده أن هذه الجماعة هي من سكان شبه الجزيرة العربية، وقد جـــاءت إلى مصر ، وهي مؤلفة من 36 شخصا من نساء وأطفال ورجال ، يراسها الشخص المسمى أبيشاي ، وقد جاؤوا بمدايا معهم إلى الحاكم ، منها كمية من "الكحل " الذي نكحل به أهداب العيون هدية منهم إلى زوجة الحاكم .



رهيا والأفعى

ربة الخصب السورية
واقفة على أسد
وتصحبها حيتان



أقراط ذهبية
لربة الخصب

ويعتقد جماعة من علماء الآثار بأن العرب انتشروا من شبه جزيرة العرب إلى وادي النيل بكثرة منذ الألف الـرابع قبل الميلاد واستقروا فيه . ولقد جاؤوا عن طريقين ، إما عـن برزخ السـويس ، أو عن طريق باب المندب ، وحملوا معهم حضارة أرقى مما كـان في مصر . فقد جاؤوا بفن التحنيـط ، وبالكتابة التصويرية (الهيروغليفية) ، وأدخلو معرفة المعادن وبخاصة النحاس ، وديانة الخصب ، وعبـادة الشـمس ، والفنون ، والنظـم الاجتماعية والسياسية ، وعمموا لغتهم في مصر وصبغوها بصبغتهم كما هو ظاهر مـن النقوش المصرية ، وقد حافظت لغتهم على هذه الصبغة بالرغم مما طرأ عليها مع مـرور الزمن من تغيير وتبديل باختلاط السكان [1] .

ويقول ل.و كينغ : " إن الساميين نزحـوا إلى مصر من عهد قديم جداً . ويؤخذ مـن الاكتشافات الآثارية الأخيرة أن العصر الحديدي بمصر يبدأ بدخول الساميين إليـها ، أي أن المصريين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية قبل دخول الساميين ، فأتاهم السـاميون بالحدادة منذ أقدم أزمنة التاريخ المصري .. ومما يستدل به على قدم نزوح السـاميين إلى مصر أن "بتاح" أقدم آلهة المصريين والفينيقية تلفظ " P " في أغلب الأحيان .

وقـال المـؤرخ ماسـبيرو : " إن لعروق المصريين الأقدمـين ، والعرب ، والفينيقيين والكنعانيين روابط تشد بعضها إلى بعض ، وليس المصريون سوى ساميين انفصلوا عـن مهد الساميين قبل غيرهم "[2]

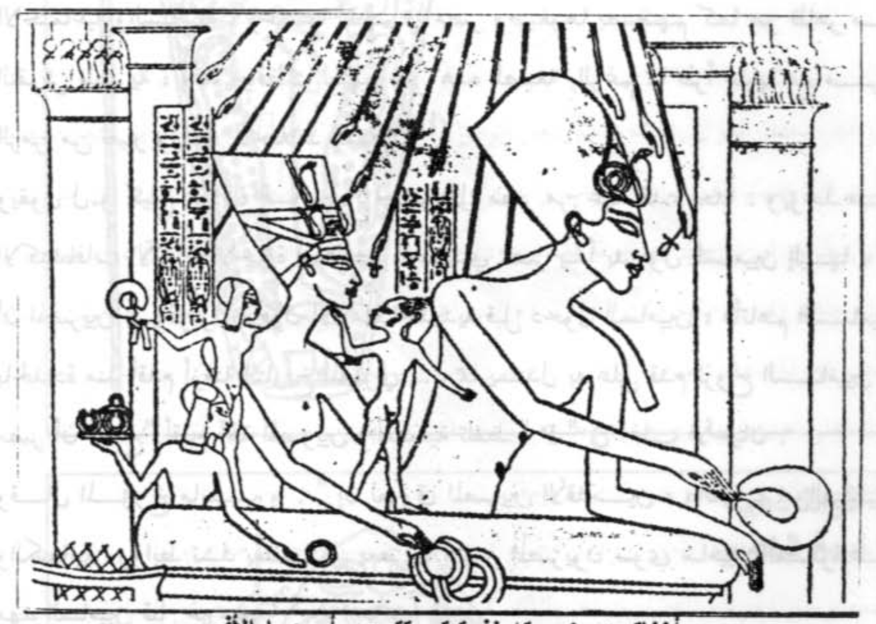
وإن " الهرم "هو تحوير" الحرم " في اللهجة المندائية في وسط شبه جزيرة العرب التي تلفظ الحاء هاء ، وقد ذهبت إلى الحبشة أيضاً ، ولقد لاحظ بعض الباحثين وحدة التصويـر في نظام العمارة عند العرب السوريين في سـومر وبابل حيث الزقورات ، وفي وادي النيـل حيث الأهرام ، مما يدل على أن مستوى التفكير الحضاري مصـدره واحـد في كـلا المنطقتين ، إذ كلاهما كان يصبو إلى الارتقاء إلى الأب "شمش" في السماء ، راعي جميـع

---

(1)انظر : بروستد " تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي " غوستاف لوبون " الحضارة المصرية" غوستاف جيلي " تاريخ المدينة المصرية" بارتون " نبذة عن الأصول السامية " الدكتور محمد عزة دروزة " تاريخ الجنس العربي " جزء 1، 2 .

(2) L.W King ,"Egybt and Western Asia in the Light of Recent Discoveries " London ,P.62 .

الكائنات "رع" . لقد اعتبر المصريون القدامى رب الشمس "رع" ملكا ، كما اعتبروا الملك ربا ، أي أن الملك والرب واحد ، وقد انتقل ذلك التقليد إلى وادي النيل مع العرب الذين يقدسون أجدادهم المتفوقين ، ويجعلونه في مرتبة قريبة من الآلهة . إن كلمة "رب" العربية تعني السيد والمعلم كما تعني الإله ، وإن ترجمتها إلى اللغات الأجنبية دائما بمعنى الإله ضرب آخر من ضروب التزوير التي تعرض لها تاريخ العرب القديم .



أخناتون وزوجته نفرتيتي تتوج رأسيهما الأفعى
وأمام وجه كل منهما الصليب السوري رمز الخصب

إن المملكة الأولى القديمة ، وكانت فترة تأسيسية في تاريخ الحضارة العربية في وادي النيل ، نتجت عن دخول العرب القادمين من جنوب سوريا في شبه جزيرة العرب ، وانتهت في حدود عام 2200ق.م وكانت عاصمتها ثيبة (طيبة) . ويدل اسم العاصمة العربي السوري على هوية الحكام . إنه الاسم الذي اختاره قدموس فيما بعد للمدينة التي بناها في بلاد الاغريق أثناء بحثه عن شقيقته أوروبا (المزيدة ، المكثرة ، المخصبة ، المربية ، المعلمة ...)

"وأما قدموس فلم ييأس ، بل فكر وذهب إلى معبد دلفي واستشار الإله أبولو ، أجاب أبولو : "لا تجهد نفسك بالبحث عنها ، وبأمر والدك أن لا تعود بدونها . بل أسس لنفسك مدينة جديدة . عندما تخرج من هنا ستجد "عجلة" فتتبعها إلى حيث تتوقف العجلة لتستريح . هناك تبني المدينة . هكذا أسس قدموس قلعة قدميا ومدينة طيبة "[1] .

" وكان ساكنو "طيبة" في مصر يسمونها أيضاً "إيزى" (Iza) و"نو" . وهما من أسماء عشتار الربة السورية ، الأم العربية ، ثم الأم العالمية والكونية الكبرى . وقد اقترنت بالقمر وبكوكب الزهرة . ومن أسمائها "عزى" و"ايزيس" ، وقد أدخلت إلى مصر مع العرب السوريين بهذا الاسم الذي كان منتشراً في منطقة غرب شبه الجزيرة العربية حتى ظهور الإعلام .

فقد أطلق البابليون اسم " عشتار" على كوكب الزهرة ، ولم يكن يعرف إلا بهذا الاسم ، والكنعانيون أطلقوا عليه اسم "عستارت " واليونان "افروديت "[2] التي هي ربة سورية بنت الإله "عُرَن" (أورانوس) .

يقول ف . غويران في كتابه "الميثولوجيا الاغريقية " : " يجمع دارسو الميثولوجيا الاغريقية على أن اسم "أفروديت " يرجع إلى أصول سورية ، وأن عبادتها انتقلت من قبرص إلى سائر بلاد اليونان والرومان ، وإنها كانت ، في الأصل ، إلهة لخصب الأرض والطبيعة بكل مظاهرها ، ثم اقتصرت وظيفتها على الحب بشتى أنواعه [3] " .

إن قصة مولد "أفروديت " تحكي عن أصلها العربي السوري إذ تقول : "إن الإله "قرونو" (كرونوس الذي هو إيل) تمرد على أبيه "عُرَن" (أورانوس ، المرتفع ، السامي ، السماء) وقام بمساعدة أمه "غايا " على إخصاء الأب ، ورمى بأعضائه التناسلية في البحر

---

(1) الدكتور وديع بشور ، "الميثولوجيا السورية" ص 334 .

(2) يذكر هيرودوت أصل "افروديت" الفينيقي ، فوصف معبداً لها في عسقلان (في بلاد غامد) باسم "افروديت أورانيا" وههنا نجد نسبتها إلى "رنيا" أي الرانية ،الشمس ، وحيث جبل رنيا ووادي رنيا ومدينة رنيا إلى اليوم في بلاد غامد . كما يذكر أن معبد عسقلان هو أقدم معبد لها ، وأن معبدها في قبرص مأخوذ عنه ، وإن معبدها في "كيثيرا" بناه الفينيقيون أنفسهم أبناء عسقلان (هيرودت 1 : 150) .

(3) F . Guirand , “ Greek Mythology “ .PP.63.64 .

فأخصبت الماء المالح مكونـــة زبدا أبيض انبثقت منه أفروديت التي خرجت إلى الشـــاطئ تتمختر في أبهى شـــكل أنثوي يقع عليه بصر " . والاسم السرياني مؤلف مـــــن " أف" و"روديت" ويعني : وجه الخصب كما يعني تجسيد المني .

ثم اســـتمر اسم " إيزا " (الرمزي) عند العرب مرتبطا بكوكب الزهرة ، وكانوا يعبدونه ويتفاءلون بظهوره وبقدرته على جلب الحظ في الأعمال اليومية وفي الحب .

وتروي الأساطير العربية المتأخرة إلى فترة ما قبل الإسلام أن كوكب الزهرة كان امـــرأة جميلة فاتنة تعيش على الأرض قبـــل أن تصعد إلى السماء ، وتتحول إلى ذلك الكوكب الأحمر المتوهج البراق . ومن جملة أســـمائها أيضا "عاتكة" التي تعني من جملة ما تعنيـــه من أوصاف عشتار ، الحمراء المتوهجة ، العصية على الامتلاك الجنسي .

لقد استمد الطبري في تفسيره من تلك القصص التي كانت شـــائعة واستخدمها القـــرآن دونما تفصيل ، فذكر ، مثلا ، بخصوص هاروت وماروت ، أن الملائـــكة قد أخــــذت تشكو فجور البشر وضلالهم على الأرض بعد آدم ، فأراد الله أن يبتلي الملائكة . فأرسل ملكين من أكثرهم نقـــاوة ، هما هاروت وماروت وأنزلهما إلى الأرض ليأمرا بـــالمعروف وينهيا عن المنكر . لكن امرأة فائقـــة الحسن والجمال عرضت لهما ، فـــأقبلا عليـــها ، وراوداها عن نفسها ، فأبت واشترطت عليهما الخروج عن دينهما ، وعبادة الأوثـــان ، فـــامتنعا . ثم أتياها ثانية فتمنعت ، واشترطت عليهما ارتكاب إحدى معاص ثـــلاث : فإما عبادة الأوثـــان ، أو قتل النفس ، أو شرب الخمر، فاختارا شرب الخمر . فسقتهما حتى لعبت برأسيهما فواقعاها . هنا مر بهما رجل فخافا افتضـــاح أمرهما ، فقتـــلاه . ثم إنهمـــا أرادا العودة إلى السماء فما استطاعا ، فطلبت منهما المرأة تعليمها الكلام الـــذي يصعدان به إلى الســـماء ، ففعلا ، فعـــرجت ، ولكنها بقيت معلقـــة هناك على هيئة كوكب الزهرة [1] .

إن الحكايـــة التي يرويها الطبري عن المرأة هي حكاية عشتار ـــ الزهرة ، ربـــة الحـــب والخصب العربية الكبرى . إنها إيزيس (أو العزى) التي ارتبطت عبادتها بهذا الكوكب .

---

(1) تفسير الطبري ، سورة البقرة ، الآية 102 .

وكان العرب يعتقدون بإثارته للحب ، وإضرامه لنار الرغبة الجنسية بين الذكر والأنثى .
وكان أربعة من ملوك المملكة القديمة يسمون "أمون محات " وثلاثة منهم يسمون " سينوستارت " التي تعني سين القمر عشتار . " وجميعهم كانوا ملوكاً تقدميين عظاماً ، وعلى كثير من الحيوية والعزم وبعد النظر . فبعد أن قضوا على سلطة رجال الاقطاع ، راحوا يعملون على توحيد البلاد ، وتوسيع رقعتها عن طريق التوسع العسكري وتركيز السلطة في يد الحاكم . ومثال على ذلك الاستيلاء على بلاد النوبة .. ويعزى إلى سنوستار طرق الملاحة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .. ومما زاد في تحسين الحالة الاقتصادية وفي ازدهارها تجفيف مقاطعة الفيوم ، وهو عمل من الأعمال المائية الباهرة التي قام بها الإنسان القديم ، والحملات التجارية إلى بلاد بونط (أي المضيق)، وذلك للحصول على العاج ، وخشب الأبنوس ، وجلود الفهود والنمور ، والبخور . ومما يدل على ازدهار هذه الفترة جمال البناء ورقي الفن " [1] .
وبلاد بونط ، هي المنطقة التي نزلها أبناء بونط في البلاد الساحلية عند مضيق باب المندب . يقول سانخونياتن في تاريخه من خلال ما وصلنا منه : "وبونت كان والد صيدون الذي بامتياز صوته كان أول مكتشف أغاني الترنيم ... وفي هذه الأثناء جدد"غُرانو" (أورانوس) الحرب ضد بونت، حيث إنه بعد ابتعاده عنه تعلق بدمارون ، وبدأ دمارون الهجوم ضد بونت "(النبذة 13)
إن هذا يعني أن بونط أو بونت هو من العرب في غرب شبه جزيرة العرب الجنوبي ، حيث ما تزال بلدة "صيدون " (زيدون) حتى الآن في شمالي الحدود اليمنية تسيطر على الطريق الدولي الموازي للحدود أما "بونط" فتعني القنطرة ، المعبر ، المضيق ، الممّر .
لقد اخترع العرب السوريون فن الكتابة ، والنحت ، والتصوير ، والمعادن ، والعمارة بالطوب ثم بالحجر ، والأعمال الزراعية المتطورة بالري ، وعملية استصلاح الأراضي ، وتطوير وتنوع المحاصيل ، وتأنيس الماشية ، بعدما كان الفلاح القديم من النوبيين — كما يصفه المؤرخون — ينتظر فيضان النيل وانحسار الماء ليرش البذار ثم يسوق قطعان الخنازير

(1) فيليب حتي ، " خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى " ص 58 .

فوق الأرض المرشوشة بالبذار ، فتطمره ، وبعد فترة تنتش الحبوب وتنمو .

ولقد لفت شونيفرت أنظار العلماء إلى تلك الحقيقة وهي أن الشعير ، والذرة الرفيعة ، والقمح ، وتأنيس الماشية والمعز والضأن ، وإن ظهرت كلها في مصر وفي بلاد مابين النهرين منذ أقدم العهود المدونة ، إلا أنها لا توجد في حالتها البرية الطبيعية في مصر ، بل في بلاد آسيا الغربية ، وبخاصة في بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة ، وهو يستدل من هذا على أن الحضارة ــ وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة ــ قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب ، ثم انتشرت منها في صورة "مثلث ثقافي" إلى مابين النهرين (سومر وبابل وآشور) ، وإلى مصر [1] .

إن إدخال فنون الزراعة والري إلى مصر من قبل العرب السوريين تجسده ، قبل كل شيء ، وأكثر من كل شيء ، قصة أوزيريس ، الذي هو الوجه الآخر لأدونيس .

يقول فيليب حتي في هذا الصدد : " ويتضح التأثير السوري في أقدس قصة مصرية ، وهي آلام أوزيريس الذي قطع جسمه إرباً ، ووضع تحت شجرة الاثل في جبيل ويظن البعض أن الجثة المشوهة وضعت في مصر . وقد تكون عبادة أوزيريس برمتها مأخوذة من الساحل السوري في تاريخ قديم جداً . وقد أدخل الرب حورون ، وهو الرب الرئيسي في يبنة إلى معابد مصر في أيام امنحوتب الثاني (حوالي 1450 ــ 1420 ق.م) ويظهر في اسم حور محب مؤسس السلالة التاسعة عشر . ويمكن الاستدلال على عبادة عشتاروت في منتصف القرن الثالث عشر (باسمها) من أن أحد أبناء رعمسيس الثاني وهو ميرى أستروت ، أي (ربتي) عشتروت . وكان يوجد في نوكراتس الذي ربما كانت مستعمرة فينيقية معبد لأفروديت ــ عشتاروت . وهيراكلس التي كرس له هيكل في كانوبس ــ وهي أيضاً مستعمرة فينيقية ، كان بدون شك الإله الفينيقي ملقارت "[2]

" وتشهد الآثار المتأخرة في مصر عن كثرة المحاصيل السورية في عهد الملكية الحديثة وغناها . وكان الصناع السوريون ينتجون أسلحة ثمينة مزخرفة ، وثياباً مزركشة ،

---

(1) Clide , Ancient East .P.216.

(2) انظر فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 14 .
Herodotus , Bk Ii, Ch.113

وأواني أنيقة ، وأثاثاً ، ومركبات مرصعة بالذهب والفضة ... والسوريون كانوا أول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في أوان معدنية [1] .

ولاشك أن فيليب حتي يطلق على سوريا المتوسطية اسم "بلاد كنعان" التي أقحمت مؤخراً في سوريا المتوسطية . إن قصة أدونيس ، أو أوزيريس ، بدأت في جبيل على الساحل الشرقي من شبه جزيرة العرب ثم انتقلت إلى سوريا المتوسط .

ولقد أدخل العرب السوريون زراعات إلى مصر لم تكن معروفة من قبل مثل القمح (بالمصرية Gmhu) ، والكرمة (بالمصرية Krmu) والصوف الفينيقي (القطن) وغيره . ثم صار أوزيريس يعلم المصريين الزراعة . "فبعد أن اكتشفت إيزيس القمح ، أعطت باقاته الأولى لأوزيريس الذي قام بتعليم البشر زراعتها " . وقد ابتدأ أوزيريس مهمته في أرض مصر ، فأبطل العادات الهمجية القديمة ، وعلم الناس كيفية صناعة الأدوات الزراعية واستعمالها في استنبات القمح والشعير ، وعلمهم أكل الخبز ، وشرب النبيذ والجعة ، وبناء البيوت . وهو الذي أسس الديانة الأولى ، وعلم البشر عبادة الآلهة ، واستخدام الآلات الموسيقية . وبعد أن قام بنشر الحضارة في مصر ، غادرها إلى آسيا وبقية أنحاء المعمورة ، متابعاً مهمته في نشر الحضارة العربية السورية ، مستميلاً إليه الناس بالرفق والمحبة والموسيقى ، ثم عاد إلى مصر ليحكمها بالعدل ، ولكن إلى حين . ففي السنة الثامنة والعشرين من حكمه قام ضده أخوه الشرير "سيت" (داجن) الذي نام على حسده وغيرته وضغائنه فترة طويلة ، فقتله غيلة ووضع جسده في صندوق خشبي أغلقه بإحكام ورماه في النهر . حملت مياه النهر الصندوق ، فطاف على غير هدى حتى استقر عند مدينة جبيل ، حيث أمسكت به أغصان شجرة الطرفاء النحيلة ، التي ما لبثت أن نمت بشكل غير مألوف بعد أن لامسها التابوت المقدس ، واحتوته بكامله داخل جذعها فلما رآها ملك جبيل أعجب بها أشد العجب ، وأمر أن تقطع لاستعمالها كعمود يزين قصره ويدعم به سقفه . وما أن نصبت الشجرة عموداً حتى أخذت تتضوع طيباً

(1) Piere Montet: Les Reliques L' art Syrian Dans L' Egypt de Nouvel Empire, Paris , 1937, P.179

نفاذاً ذاع صيته في كل البلاد ، حتى وصل أسماع إيزيس في مصر ، وقد كانت في حداد مقيم منذ غياب زوجها . فأدركت ببصيرتها سر الشجرة ، وطارت لتوها إلى جبيل ، حيث تنكرت في هيئة امرأة عادية ، ودخلت القصر الملكي كضيفة على الملكة "عشتاروت" وصارت مربية لابنها . ثم ما لبثت أن أعلنت عن نفسها ، وطالبت باستعادة أوزيريس من الشجرة ، فكان لها ما أرادت. شقت إيزيس الشجرة ، وأخرجت الصندوق ، وفتحته ، وأخذت تبكي ما شاء لها البكاء فوق جثة زوجها المسجاة ، ثم حملته وطارت به إلى مصر ، حيث خبأته مؤقتاً في مستنقعات الدلتا ، خوفاً من أن يعثر عليه أخوه "سيت" لكن "سيت" يجد الصندوق ، فيفتحه ، ويمزق جسد أوزيريس إلى أربع عشرة قطعة ، يوزعها في طول البلاد وعرضها . غير أن هذا لا يفت من عضد إيزيس التي تعود للبحث عن أوزيريس وتزرع الأرض منقبة عن أجزائه المبعثرة ، فتعثر عليها قطعة بعد قطعة ، ما عدا عضو الذكورة . ثم تجمعها وتنفخ فيها الحياة مستعيدة حبيبها من عالم الموتى . لكن أوزيريس بعد بعثه يفضل قضاء بقية حياته في العالم الأسفل (الحياة الدنيا في مصر السفلى) ليصبح سيداً له ، ويتابع ابنه من إيزيس "حورس" مقارعة عمه "سيت" فوق الأرض في الأعالي (في منطقة الجبال الغربية من شبه جزيرة العرب) .

إن الأسطورة بكامل عناصرها ، هي قصة أدونيس الفينيقية . فأوزيريس يولد ولادة ثانية من الشجرة ، كما ولد أدونيس ، وهذه الولادة تحصل في مدينة جبيل الفينيقية ، المركز الرئيسي لعبادة أدونيس . كما خبأت عشتاروت أدونيس في صندوق ووضعته في عهدة برشفوني ، ثم عادت إلى العالم الأسفل تحاول استرجاعه ، كذلك هو حال أوزيريس الذي وضع جسده القتيل في صندوق راحت ايزيس تبحث عنه حتى وجدته في قصر ملكة جبيل ، التي تطلق عليها الأسطورة اسم "عشتارت" . وهذا التطابق بين اسم الملكة واسم الربة ليس من قبيل الصدف ، بل هو بقية باقية من أسطورة أدونيس التي ارتحلت في تاريخ مبكر من فينيقيا إلى مصر السفلى . أما قصة عشتار وأدونيس فقد كان

مسرحها شبه جزيرة العرب ، وهذا ما حافظت عليه الرواية حتى زمن الكاتب السوري الروماني "أوفيد" في كتابه "التحولات" .

أما اللغة " فكلما رجعنا إلى الوراء في درس اللغة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من صلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية . " ويبدو أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين"[1] ...وليست عجلة الفخار معروفة في مصر قبل عهد الأسرة الرابعة ، أي بعد أن ظهرت في بابل بزمن طويل ، ولعلها جاءت إلى مصر من أرض النهرين مع العربات والعجلات [2] ورؤوس الصوالج المصرية لا تفترق في شيء عن البابلية [3] .

وتبين الآثار المصرية التي ترجع إلى عصر ما قبل الأسر ، والتي عثر عليها في جبل الآراك* سكين من الظران جميل الصنع ، عليه نقوش بارزة هي بعينها نقوش أرض الجزيرة السورية من حيث موضوعها وطرازها [4] . ولعل صناعة النحاس قد نشأت في غربي آسيا ثم انتقلت بعدئذ إلى مصر . وتشبه الهندسة المعمارية المصرية الأولى هندسة أرض الجزيرة في استخدام النقوش القليلة البروز لتزيين الجدران المتخذة من الآجر وفخار عهد ما قبل الأسر المصرية ، وتماثيله الصغيرة ، وموضوعات زينتها تشبه مثيلاتها في أرض الجزيرة السورية في كثير من الأحوال أو شديدة الصلة بها بلا ريب . ومن بين الآثار المصرية الباقية من ذلك العهد تماثيل صغيرة لآلهة لا يخطئ الإنسان في إدراك أنها من أصل آسيوي [5] .

ويحاول بعض المؤرخين الذين أفرزهم الاستعمار أن يصر على "استقلالية" الحضارة المصرية عن العربية القديمة في سوريا الطبيعية ، التي شملت الهلال الخصيب وشواطئ البحر الأحمر ، ليجعل منها عالما مناقضا لأمته العربية . ومن أمثال أولئك المؤرخين الأمريكي

---

(1) Ibid ,372 .
(2) Ibid ,255,263,581 .
(3) Ibid ,579 .
* هذا الجبل استنساخ لجبل أراخ في القسم الشمالي الشرقي من زهران ، حيث يبدأ وادي أراخ.
(4) Ibid ,579.
(5) ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء 2 ، ص44 .

برستد ، والانكليزي اليون سميث ، اللذان رفضا آراء المؤرخين الآخرين المعتمدة على الوثائق الآثارية التي لا تدحض ، وصارا يبنيان فرضيات لا أساس لها حول إدخال النباتات الزراعية الأساسية من بلدان إفريقية ــ غير عربية ــ كأثيوبيا مثلا ، ثم أخذ السوريون ــ ومنهم السومريون طبعا ــ يقتبسون فنون الزراعة من مصر !

لكن مثل هذه الأقوال ما لبثت أن سقطت من تلقاء ذاتها دون أن تتمكن من الصمود حتى لدى قائليها بفضل المكتشفات الآثارية التي أخذت تتوافر بكثرة يوما بعد يوم . ونحن لا نشك في أن استكشاف المنطقة الغربية من شبه جزيرة العرب سوف يخرج كنوزا تدفع بالمعرفة العالمية عن حضارة العرب القديمة أشواطا جد مختلفة ومتقدمة .

وينقل ول ديورانت أقوال غيره من المؤرخين في هذا الصدد فنقرأ في كتابه "قصة الحضارة " : " ويرجح أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسيا قد جاؤوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد .. ثم تكونت مملكتان واحدة في الجنوب وأخرى في الشمال ، ولعل هذا التقسيم كان صورة أخرى من النزاع القائم بين الأفريقيين أهل الجنوب والمهاجرين الآسيويين أهل الشمال "[1] .

" ولم تكن أعظم شخصية حقيقية عرفها التاريخ شخصية ملك ، بل كانت شخصية فنان وعالم ، وتلك هي شخصية أمنحوتب الطبيب والمهندس وكبير مستشاري الملك زوسر (حوالي 3150ق.م) وكان له على الطب المصري من الفضل ما جعل الأجيال التالية تعبده وتتخذه إلها للعلم ومنشئ علومها وفنونها . ويلوح في الوقت نفسه أنه هو الذي أوجد طائفة المهندسين التي أمدت الأسرة التالية بأعظم البنائين في التاريخ .

" وتقول الرواية المصرية إن أول بناء من الحجر قد أقيم بإشرافه ، وأنه هو الذي وضع تصميم أقدم بناء مصري قائم إلى هذه الأيام وهو هرم سقارة المدرج، وذلك الهرم بناء مدرج من الحجر ظل عدة قرون الطراز المتبع في تشييد المقابر . ويلوح كذلك أنه هو الذي وضع تصميم هيكل زوسر الجنازي وأعمدته الجميلة الشبيهة بزهر اللوطس ، وجدرانه المكسوة المقامة من حجر الجير ، وفي هذه الآثار القديمة القائمة في سقارة ،

(1) ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء 2 ، ص66 .

والتي تكاد تكون بدايـــة الفن المصري في العهود التاريخية .

" ولسنا نعلم حقيقة الأحـــوال التي جعلت الأسرة الرابعة أهم الأسر الحاكمة في تـــاريخ مصر قبل الأســـرة الثامنة عشرة .. قد تكون قوة خوفو• أول ملوك هذا البيت الجديد[1] وقد ترك لنا هيرودوت ما قالـــه الكهنة المصريون عن منشئ أول هرم من أهرام الجـــيزة فقال : " وهم يقولون لي الآن إن العدالة ظلت توزع بالقسطاس ، وأن الرخاء عمّ جميع أنحاء مصر إلى أن حكم كيوبس (كوفو = خوفو) فارتكب كل أنواع الخبائث ، ذلـــك بأنه أغلق جميع الهياكل ... وســـخّر المصريين لخدمته وحده ..فعين طائفة منهم لقطـــع الأحجار من المحاجر في جبال العرب• ونقلها إلى النيل ، وأمر طائفة أخرى باســـتقبال الحجارة بعد أن تنقل في البحر على سفن ... وكان يعمل منهم مائة ألف في كل نوبـة ، وكل نوبة تعمل ثلاثة اشهر ، وظل هؤلاء يكدحون عشر سنين في إنشاء الطريق الـــذي كانت تنقل عليه الحجارة ، وهو عمل أرى أنه لا يقل مشقة عن تشييد الهرم نفســه "[2]

وسقارة بالسريانية تعني الأحمر .

والطريف أن هيرودوت ينقل لنا اسم كل من الملكين خوفو ، وخفرع بلفظهما العـــربي السرياني (كوبوس ، وكفرن) . وكنّا قد أوضحنا معنى الأول ، أما الثاني فيعني عزيـــز "رن" إله الشمس الرائي الناظر ،البصير ، الرقيب، الراعي ، وهو مـــرادف لـــــ"رع" . و"رن" هو الجبل في منطقة الجبال التي تنبع منها روافد نهر رنية في سراة زهران المســـماة باســـمه . وإن تسمية " زهران" نفسها الباقية هناك حتى اليوم ليست إلا التسمية القديمة "بلاد زاهي رن" . وقد وردت في كتابة الكهان على لسان الإله آمون حامي تحوتمس في شكل أغنية للنصر بعد أن غزا تلك المنطقة من أرض كنعان• إذ جاء فيها :

• بالفينيقية كوفو" وتعني العزيز المنيع ، وقد دعاه المؤرخ هيرودوتس"كيوبس" وكان الإبدال بين الكاف والخاء شائعاً بين الفينيقيين .

(1) ول ديورانت "قصة الحضارة" الجزء 1 ،ص 67 ـــ 69 .

• هذا دليل على أن أصل تلك الأسرة الحاكمة يعود إلى العرب السريان في غرب شبه الجزيرة العربية ، إذ كان الملك يتصرف دون أن يعتبر ذلك عدواناً ، بل وكأن البلدين بلد واحد .

(2) هيرودت II: 124 .

• لقد خلط المؤرخون بينها وبين سوريا المتوسطية ، وهذا ما سوف نتناوله لاحقاً بالتفصيل في كتابنا الثاني .

"لقد عبرت مياه المنحنى العظيم لنهارين
في النصر والقوة اللذين منحتها لك
إنهم يسمعون صرختك للحرب ، ويزحفون إلى أوكارهم
إنني أنزع من منخرهم نسمة الحياة ، وأجعل
رهبة جلالتك تخترق قلوبهم
لقد أتيت لاجعلك تدوس زعماء زاهي
إنني أطرحهم تحت قدميك في البلاد كلها "

ثم إن "رن " إذا ما أضيف إليها المقطع " أ " أو "عَـ " الذي يعني ـ كما سبق أن أوضحنا من قبل ـ "بيت " أو "مقام" أو "أبناء" ، يصبح معنى "أرن" أو "عرن" مقام الأب (السيد ، الرب) "رن" وعرشه وبيته ، ثم نقله الفينيقيون إلى اليونان وصار باليونانية "أورانوس" وعبده اليونانيون ، رباً للسماء أو الشمس .

أما "منقرع " فقد دعاه هيرودوت باسمه السوري الفينيقي الأصل "ميسورني" على اسم جده ميسور الذي زرع وبنى القرى مع ماجون في بلاد زهران . وكنا قد ذكرنا كيف أن أمون محب مساعد الملك "ذوسر" هو الذي دعاه اليونان "اسكلبيوس" من اسمه الفينيقي صقلاب المرادفة لفينيق ، وقد دعا نفسه في مصر"أمون محب" ، وهو الذي يتحدث إلينا في أحد النقوش القديمة بقوله :

"كنت رجلاً زرع البذور وأحب إله الحصاد
وحياتي في النيل وكل وديانه ،
و لم يكن في أيامي جائع ولا ظمآن ،
وعاش الناس في سلام بفضل ما عملت وتحدثوا عني "

إن هذا القول يكشف عن الطريق الذي سلكته الزراعة في مصر ، ويؤكد الأصل العربي السوري لأولئك الرواد الحضاريين العمالقة الأوائل ، كما أن تموز رب الحصاد كان رفيقهم .

ومما يـــدل أيضاً على إحساس أولئك الملوك والمهندسين الجبابرة الأوائل بأنهم لم يرسخوا أقدامهـــم بعد في أرض وادي النيل ، رغم حرصهم على تطبيق العدالة ونشـــــر كـــل أسباب الحضارة التي من شأنها أن تجلب الخير العميم للناس ، مثلهم في ذلك مثل آبائـهم الأوائل ، الذين تمجدوا بمكتشفاتهم الحضارية ، فتقدسوا ، وعظموا في سوريا حتى صاروا في مرتبة الآلهة . إنهم كانوا يعبرون عن الغربة التي كانوا ما زالوا يشعرون بها في ذلـــك العهد . ومن الأمثلة على ذلك تلك النصيحة التي خلفها أمون محب نفسه لابنه في ملـف من ورق البردي ، كتبها بالعربية الأكادية جاء فيها :

استمع إلى ما سأقوله لك ،

حتى تكون ملك الأرض ... ،

وتزيد فيها الخير .

"اقسُ على جميع من هم دونك .

فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبون ،

ولا تقترب منهم بمفردك ،

ولا تملأ قلبك بالمودة لأخ ،

ولا تعرف صديقاً ..،

وإذا نمت فاحرس بنفسك قلبك ،

لأن الانسان لا صديق له في أيام الشر "[1]

ومن ملوك المملكة القديمة "ساخورع" (ساكورع) ويعني اسمه "الرب ساكو" هو رع إله الشمس ، (والرب ساكو رب سوري فينيقي ، يكفي أن نشير للدلالة على ذلـــك إلى اسم المؤرخ السوري "ساكونياتن "أو "سانخونياتن " ومعناه (الرب ساكو يعطي) والملك "أون" (عون ،عان ، عين ـــ كلها تعني الشمس) والطريف بالأمر أن في شرقي الطـائف يقف جبلان متلاصقان أحدهما جبل "سك" والثاني جبل "عان" ما يزالان حتى اليوم .

---

(1) J.H.Breasted,"Development of Religion and Thayght in Ancient Egypt" ,P.203.

أما لقب تحوتمس فهو مشتق من الاسم العربي للفنان النحات تأوت الذي حفر أشـــكالاً لقرونو (كرونوس) وغيره من الآباء العرب السوريين الذين تمجدوا بأفعالهم وتقدسوا ، ثم أعطاه " قرونو" مصر كلها (جنوب بلاد زهران وأعلى وادي شعره) حينما ذهـــب إلى أرض الجنوب "ميدي" أما "موس"و"موسى"فتعني المخلّص .

ولقد ذكر المؤرخون أن جميع هؤلاء الملوك كانوا يتخذون زوجات لهم من الأسر المالكة فقط ، أي من السوريين العماليق والفينيقيين ، مما جعل التميز سهلاً وواضحاً بين ملامح الأسر الحاكمة في الشمال وبينها في الجنوب . فمن المعروف أن نفرتيتي هي عربية سورية ثم إن الفرعـــون الذي قتل في حربه ضد الآرامين في شبه جزيرة العرب عند كركـاميش على نهر ثرات شرقي بلاد زهران (وليس في شمال ســـوريا عند الفرات كما درج جميع المؤرخين على القول حتى الآن)وكتبت أرملته إلى الملك الكنعاني ، ملك بني حـــث في بلاد زهران ، تقول : "لقد مات زوجي وليس لدي ابن لي ، ويتحدث الناس عن أبنائك الكثيرين ، فلو تقدم على إرسال أحد أبنائك لي لأتخذت منه زوجاً لي ، هذا ولا أريـــد الزواج بأحد خدمي مهما كان الأمر ، لأنني أحتقر أن أجعل منه زوجاً لي[1] " إنما هـــو فرعون مصر في شبه جزيرة العرب وليس توت عنخ أمـــون كما يفترض بريستد . إنهـــا تطلب لنفسها زوجاً من أرومة الأسرة المالكة في كنعان العماليق في شبه جزيرة العرب ، وهي تعتبر الشعب الذي تحكمه خادماً لها ، وترفض الزواج منه .

لقد أكد المؤرخون جميعاً هذه الظاهرة ، كما انعكست في الآثار المكتشـــفة : "وهـــذه الرسوم والتماثيل تمثل الطبقات العليا نحيفة القوام ، طويلة في هيبة ، ذات وجوه بيضاء ، وجباه منحدرة منتظمة ، وأنوف طويلة مصفحة ، وعيون نجل . وكانت بشرتهم بيضـــاء وقت مولدهم (تشهد بأنهم من أصل آسيوي لا افريقي) ولكنها سرعان مـــا تلفحـــها شمس مصر فتسمر ... أما الرجل من عامة الشعب فكان يمثل الصورة التي نراها في تمثـال شـــيخ البلد ،قصير القامة ، ممتلئ الجسم ،كاسي القصب ، وكانت ملامحه خشـــنة ، وكان أفطس الأنف أخشمه ، ذكياً ، ولكنه خشن الطباع ، ولربمـــا كـــان الشـــعب

---

(1) انظون مورتغات ، " تاريخ الشرق الأدنى القديم " ص 226 .

وحكامه من سلالتين مختلفتين ، شأنهم في هذا شأن كثير من الشعوب : فلعل الحكام كانوا من أصل آسيوي ، وعامة الشعب من أصل افريقي ... ويرجح أن لغتهم قد جاءت من آسيا وشاهد ذلك أن أقدم نماذج منها بينها وبين اللغات السامية شبه كبير"(1)

وهناك دليل آخر يسوقه مونتيه ، وهو أن جميع النصوص المصرية القديمة تسمي أبا الهول "حرم أخيس"* أو "حورم تخث" وتعني بالفينيقية حور أخيش أو لخيش ، أو العريس ، أو

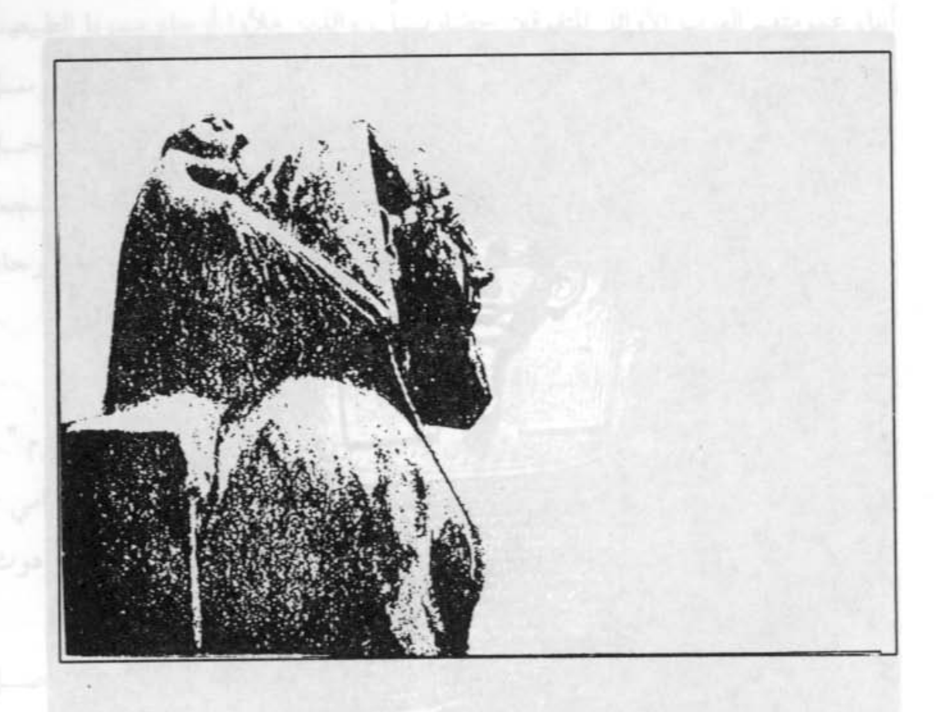
---

(1) ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء الثاني ، ص 101 ، 102 ، 107 .

* إن الدارسين المصريين ما زالوا يعتمدون أقوال بعض المؤرخين الأجانب الذين يجهلون اللغة العربية القديمة بلهجاتها الثلاث ، وينطلقون من منطلق أن العروبة حديثة ، وان الحضارة المصرية القديمة لا علاقة لها بالعروبة، فيفسرون عبارة "حرم أخيس" بمعنى "حور في الأفق "!
إن "حرم" تعني : المقدس ، المحرم ، الممنوع . فعندما اختار هضبة الجيزة كمكان للدفن لأول مرة في الدولة القديمة لاحظ وجود صخرة ضخمة متجهة نحو الشمس في أسفل الهضبة تأخذ شكل أسد رابض فأمر نحاتيه بأن يكملوا عمل الطبيعة ويشكلوا من هذه الصخرة أسدا ... غير أن هناك احتمالا في أن يكون هرمز (إدريس تحوت) قد أكمل ملامحه ، فجاءت ملامحه مشابهة لوجه تحوت .
أما اليونانيون فيسمونه سفينيكس (أصل الفينيق)باسمه الفينيقي نفسه .
ولو أننا استعرضنا بعض أسماء وألقاب البيوت المالكة في مصر وادي النيل لوجدناها جميعا عربية فينيقية من عماليق شبه جزيرة العرب فزوجة خوفو الأثيرة لديه كان اسمها "مريت أت" (سيدة أت) أي ربة الخصب . أما امه فكان اسمها حتب حرث (راهبة الربة)، وأبوه كان سنفرو (الشنفرى) ويعني = ثمرة سين اله القمر . وكانت هناك حتب حرس الثانية حفيدة ختب حرس الأولى ، وبالقرب من مصطبتها يوجد مصطبة لابنتها الشقراء الأمير "مرس عنخ" (مرث عنخ = ربة الصليب ، ربة الخصب) . ومن الأسماء الحقيقية لخوفو "سوريد" وهو مؤلف من "سر" و"يد" ومعناها رب الوادي أو سيده بالسريانية، وبهذا الاسم دعاه المؤرخون والجغرافيون العرب. وقد عثر في "الخرطوش " الذي يحمل اسمه بالفعل على هذه الصيغة لاسمه "سوريوس خوفوي" وهذا يؤكد صلته بالسوريين في غرب شبه الجزيرة ، وكان العرب الرعاة يرمزون إلى سيد السراة بالكبش المقدس واسمه "سورث " وكان أوزير يرمز له في مصر " بعجل أو بكبش ، وحور بصقر أو بازي ، وحتحور (أخت حور أو راهبته) ببقرة ...
أما الأرباب من بني الانسان فقد جاءت إلى مصر في وقت متأخر كثيرا ولعلها جاءتها هدايا من غرب أسيا " .
لكن عشتار " الأم السورية الكبرى " ثم العالمية الكبرى ، فقد كان رمزها الحيواني العجلة والأسد والكلب ترضعهما القوة من ثدييها العاريين دائما . ومن هنا كانت تسمية النهر الذي تقع عليه مدينتها "الجارية" و"جبيل" بنهر الليث أو نهر الكلب .
ومن المفيد أن نذكر أن العالم المصري محمود باشا الفلكي ، الذي يعتبر من خيرة العلماء الذين أنتجتهم مصر في القرن التاسع عشر ، قام بناء على تكليف من الحكومة المصرية ، بإجراء قياسات وأرصاد فلكية على هرم الجيزة الأكبر وقت الاعتدال الربيعي في مارس (آذار) 1862 أثبت فيها علاقة الهرم بنجم الشعرى اليمانية ، وعبادة رب الشعرى كانت منتشرة في غرب شبه الجزيرة ، والشعرى (او سيرا) من أسماء عشتار ، وهو العزى .

بيت الأسد . وإذا ما تذكرنا أن الاسم المفضل عند الهكسوس كان أخيش (بيت الأسد) ، وأن من أهم مراكزهم في غرب شبه جزيرة العرب كانت مدينة لخيش وأن هيرودوت وصف تمثال أبي الهول في مدينة أغرتوس (إغاريت ، الجارية) في شرقي البحر الأحمر قبل أن تدمرها الزلازل ، أدركنا مدى عمق الأصول السريانية (أو العربية) في سلالات حكام مصر وادي النيل . ولابد هنا من الإشارة إلى أن محفوظات أوغاريت عند تعريفها لبلاد الرب " إيل" تعرّف مصر بأنها "كرسي موطنه وأرض ميراثه " ، وإلى كثرة ترداد الاسم الفينيقي المصري "ثور" كصفة للرب "إيل" .

لقد اكتشف علماء مصر خوفو سر السنة الشمسية ووضعوا تقويمهم الشمسي . وكان ذلك بأن ربطوا بين حركة الشمس وحركة النجم سوتيس أو سيروس (الشعرى اليمانية) ألمع النجوم في السماء ، وهو نجم ايزيس ، وقد ورد اسمه لأول مرة في نصوص الأهرام بالأسرة الخامسة . ولكن ثمة نص مصري متأخر يصفه بأنه حامل الفيضان أي إن ظهوره يقترن بفيضان النيل .



صورة الملك خفرع ، باني الهرم الثاني من أهرام الجيزة
وخلف رأسه " حُرْ "(الصقر السوري رمز حدد وهو الطائر الحر)



تابوت من الحجر الجيزي لجثمان الملك أشمون عازار ملك صيدا . وهو الآن في متحف اللوفر

لقد بقي التفاعل الحضاري بين سكان وادي النيل الأصليين من العرب الحاميين وبين أبناء عمومتهم العرب الأوائل المتفوقين حضارياً ، والذين ملأوا أرجاء سوريا الطبيعية بمظاهر الحضارة الأخاذة الرائدة ، وجعلوا منها مركز الحضارة العالمية التي أخذت ترسل إشعاعاتها عبر الحرف والكتابة والمنجزات الزراعية والصناعية الأخرى إلى شتى أرجاء المعمورة ، بقي هذا التفاعل يتأرجح بين المد والجزر حتى استقر نهائياً في صورته المنسجمة الشاملة إبان عملية التحرير الكبرى التي قادها العرب المسلمون ، فتم تحرير كل أرجاء الوطن العربي الكبير وتوحيده .

إن "خوفو" إذن ، هو بالعربية السريانية "كوفو" وتعني العزيز .

و"خفرع "هو بالسريانية "عزيز رع " الراعي إله الشمس ، وهو في أوغاريت "راعوم" .

و" منقرع " تعني بالسريانية " مَـ – نجا – رع" أي " المنجّي المخلّص الراعي ، الحامي .

ومنقرع هذا هو الذي كان اسمه السوري الأصلي "ميسَرْني" وقد ذكر ذلك هيرودوت في تاريخه[1] ،كما سبق أن أشرنا .

أما أبو الهول فهو في أساسه رمز سوري فينيقي ، واسمه الأصلي " أس فينيق " أي أصل الفينيق ، أو رمزه ، أو أساس بنائه ، أو بيته – أو عشه فكلمة أشو"العربية الفينيقية تعني اساس الشيء ، وأصله ، وبيته ، وقاعدة بنائه . وكان ذلك يرمز إلى أن البناء العربي السوري يقوم على حكمة الشيوخ وشجاعة الشجعان وهو شعار السوريين منذ القدم . وتمثل في النظام الاجتماعي بمجلسين : مجلس الشيوخ . مجلس الشباب . ومثلوا ذلك الشعار بالأسد رمز القوة و الشجاعة ، والذي يمتلك رأس إنسان شيخ حكيم* ، ذي لحية ، ينهض على رأسه عش طائر الفينيق الذي هو رمز للبناء كله .

وكلمة "عش" العربية الحديثة ليست إلا تطوراً للكلمة القديمة مع إبدال الهمزة بالعين كما هي العادة . ولما كانت الأسطورة السورية القديمة " أسطورة طائر الفينيق " تعبر

---

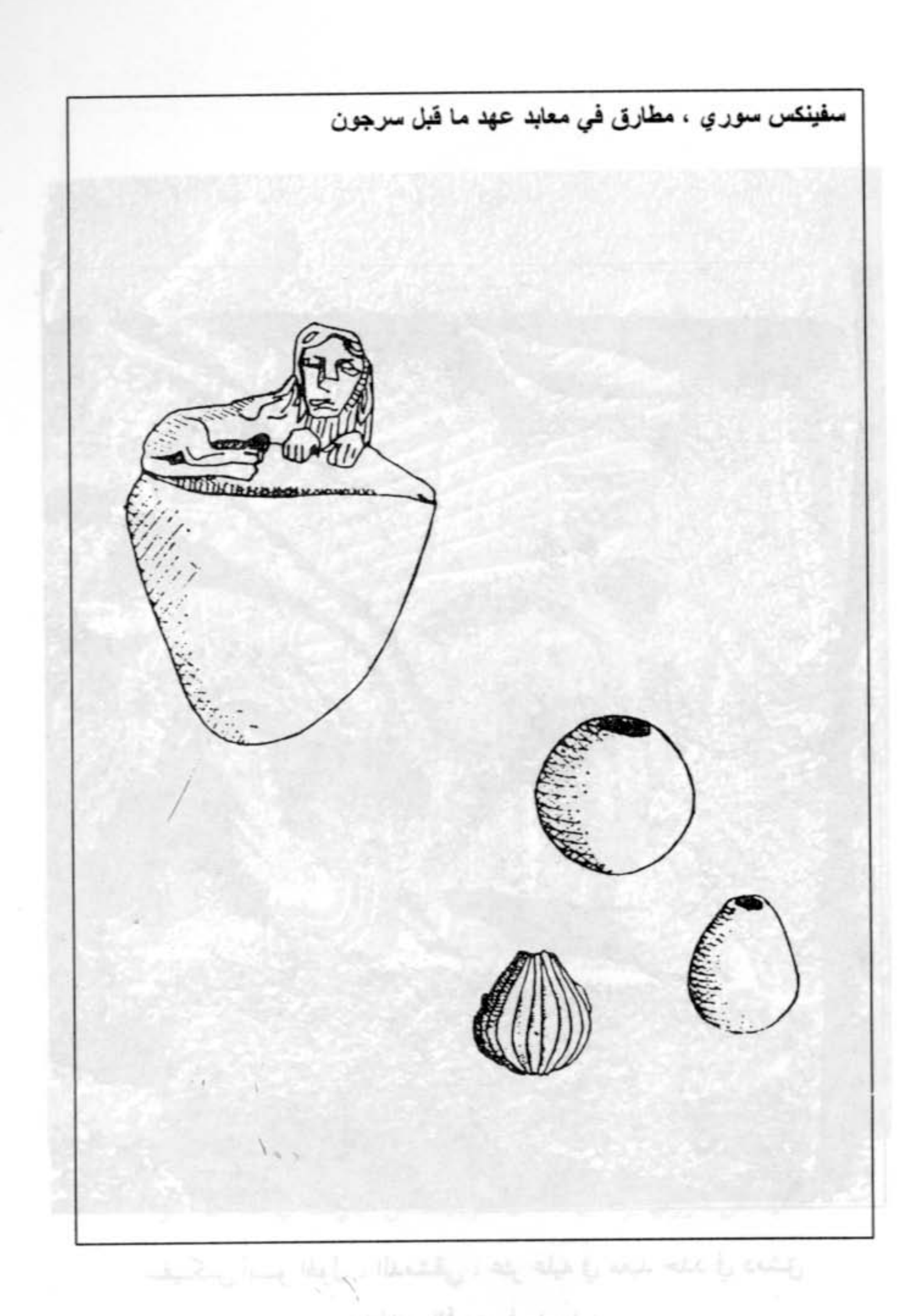
(1) انظر : ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء 2 ، ص73/ح

* كان تمثال " أبو الهول " في مصر ملتحيا كباقي النماذج السورية الأخرى ، لكن طلقة مدفع " من مدافع المماليك حطمت أنف التمثال وحلقت لحيته " (ول ديورانت ، "قصة الحضارة" الجزء 2 ، ص130)

عن واقـــع السوريين وحضارتهم التي تعرضت كثيراً لضربات طبيعيـــة مدمرة كالزلازل والبراكين بدءاً من مواقعهم شرقي البحر الأحمر إلى شمال مرسين على شاطئ المتوســـط فكان يتحول كل شـــيء دفعة واحدة إلى رماد ، ثم ما يلبثون أن يعيدوا بناء كل شـــيء من جديد أفضل مما كان ، فيبعثـــون من الرماد تماماً مثل "عش طائر الفينيـــق الـــذي يحترق بالـــبرق ويتحول إلى رماد . والطريف في الأمر أن كلمة " أس" و" أش" العربيـــة الحديثة نفسها ما تزال تحافظ على هذا المعنى، إذ هي تعني من جملة ما تعنيه "بقايا الرماد" ومن هنا فقد كان اسم " أبي الـــهول" قديماً "أس فينيق " ، وباليونانية إسفينيكس . وقد انتشر وجود هذا التمثال الرمز في جميع أرجاء سوريا القديمة ، من تل حلف شـــمالاً إلى ماري ، إلى معبد حـــدد* في دمشق ، إلى أوغاريت في غـــرب زهران في شبه جزيـــرة العرب، إلى وادي النيل .

أما اســـم " أبو الهول " فهي تسمية سورية قديمة وتعني أبو الخلق ، أبو الهيـــولى الأولى ، إذ إن " هولا " في القاموس السرياني تعني : الهيولى ، العنصر الأول ، المادة .

* معبد حدد وعشتار في موقع الجامع الأموي بدمشق اليوم



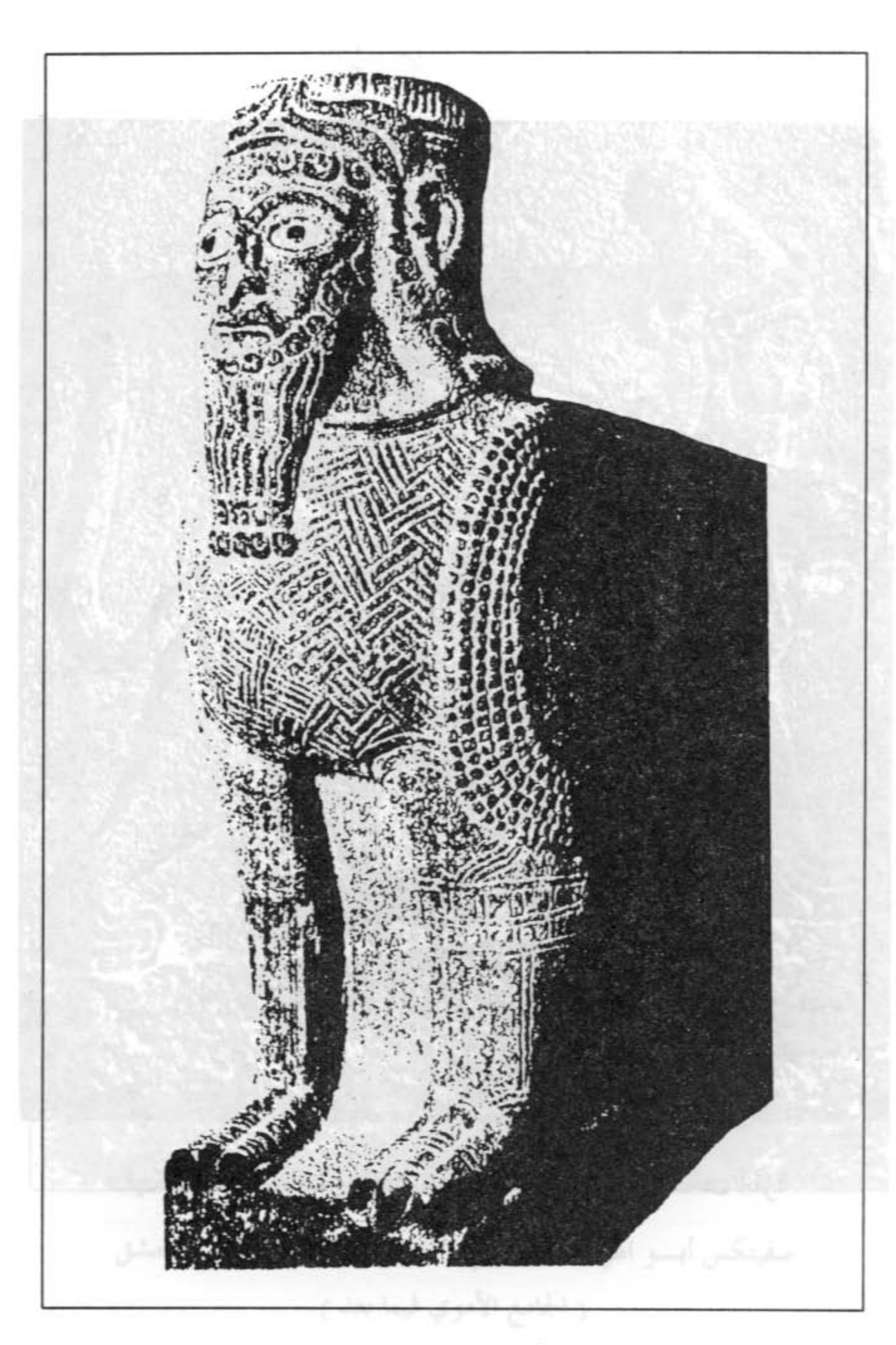
سفينكس سوري ، مطارق في معابد عهد ما قبل سرجون



سفينكس أبـــو الهول ، الدمشقي ، عثر عليه في معبد حدد في دمشق
(الجامع الأموي فيما بعد)



سفينكس سوري برأسين ، شمال سوريا . من البازلت في متحف أنقرة



سفينكس سوري في إقليم الخابور


سفينكس سوري على قطعة عاج وجد في
أحد قصور آشور


سفينكس سوري مزدوج ، شمال سوريا ، متحف ستانبول

الفصل الثاني عشر

الشعب العربي السوري

السريان والآراميون

كنا قد أوضحنا كيف أن الشعب العربي مارس حياته كشعب منذ بدء التاريخ، ضمن إطار الدولة لا القبيلة، وعلى رقعة الأرض ــ الوطن*، الممتدة من شاطئ الخليج الشرقي وجبال زغروس شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن البحر الأسود شمالاً إلى بحر العرب جنوباً، وقد برع في فنون الزراعة والري والعمران، واخترع الكتابة، وتمكن من أن يخلق مجتمعاً حضارياً مزدهراً زراعياً، وصناعياً، وتجارياً، وثقافياً، منذ الألف الرابع قبل الميلاد، كما برع في صناعة المعادن، وطرقها، واستخدامها، وفي صناعة

---

* يزعم البعض ممن يسعون خلف التعاريف "الجاهزة" لبعض المفاهيم ان "الوطن" بمفهومه الحديث لا ينطبق على الزمن القديم، وإن كلمة "وطن" هي، في حد ذاتها، مصطلح حديث كل الحداثة ولم يعرفه الأقدمون. ونحن بدورنا، نقول لهؤلاء: إن الوطن هو المكان الذي يولد فيه الإنسان ويسكنه ويمارس فيه حياته المادية والروحية، ويحن إليه، ويبقى الشعور بضرورة العودة إليه يلازمه كلما ابتعد عنه. وإذا ما اضطر إلى التخلي عنه لأسباب وظروف معينة إلى مكان آخر كان هذا المكان الآخر هو " الوطن الثاني ". وليس في مقدور أي تعريف للوطن، سواء أكان سياسياً، أو جغرافياً، أو اجتماعياً، أو فلسفياً، أن يخرج خارج نطاق هذه الكلمات البسيطة التي تعرف الوطن. فمنذ أن بدأ الإنسان عملية الاستقرار الأولى بدأ يعيش هذا المفهوم بصورة تلقائية، ثم أخذت فكرة "الوطن" تفعم بمضامين الحياة الاجتماعية عبر التشكيلات الاجتماعية ــ الاقتصادية التي مرت بها المجتمعات البشرية المستقرة. وان كلمة " الوطن " وجدت مع الإنسان العربي مع وجوده في أول مجتمع له مستوطن أو مستقر، وهي ما تزال تحافظ على معانيها الأساسية حتى اليوم. إننا نقرأ اليوم في المعاجم حول كلمة " وطن" ما يلي: وطن بالوطن وبالمكان يطن أقام به وطن البلد توطنياً اتخذه محلاً ومسكناً يقيم به وأوطن بالوطن وبالمكان ايطاناً أقام به وبالبلد اتخذه وطناً. واتّطن البلد اتطاناً واستوطنه استيطاناً اتخذه وطناً. والوطن منزل إقامة الإنسان، ومقره ولد به أم لم يولد ج أوطان، والموطن الوطن. أما الوطن بالنسبة للجماعة فهو لا ينفصل عن عملية التواصل التاريخي لوجود الشعب في الأرض وجوداً متواصلاً غير منقطع. وإذا ما أصر البعض على ربطه بمفهوم "الدولة" و"الشعب" فليس العيب في الشعب العربي السوري الذي بنى دولته، وطبعها بطابعه اللغوي والسياسي، والاجتماعي، والجغرافي، والحقوقي، والقانوني، والثقافي، منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل.

الأدوات المعدنية منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، حيث بلغ إحدى ذروات التطور المادي والثقافي بالنسبة لذلك الزمن ، وأوجد بذلك مفهوما للدولة والوطن والمواطن ، الذي ترتبت له حقوق وعليه واجبات ، تشمل كافة نواحي الحياة الاجتماعية ومجالاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية .

وكنا قد تحدثنا كيف أن عرب ذلك الزمان كانوا ينقسمون من حيث نمط العيش إلى قسمين رئيسيين : مدينيين زراعيين ، يشغلون منطقة الخليج العربي وأحواض الأنهار ، والسهول الساحلية الخصيبة ، وبدو رحل ، يعيشون على الرعي والتنقل في " عربة " أو مناطق شبه جزيرة العرب الداخلية . ولقد انقسمت اللغة العربية منذ ذلك الزمن الموغل في القدم ـــ كما صارت تدل كل المكتشفات الآثارية الكتابية ـــ إلى ثلاث لهجات رئيسية : عربية زراعية شرقية ، وهي السريانية ، وشغلت منطقة الخليج العربي والحوض الأدنى لدجلة والفرات الممتد من شمال بابل إلى منطقة الخليج وفي جبال السراة ، وعربية زراعية غربية ، وهي الأمورية ، وتشمل حوض الفرات الأعلى والمنطقة الغربية كلها وصولا إلى شاطئ المتوسط ، وعربية جوف شبه جزيرة العرب ، وهي العربية العرباء ، أو العاربة ، أو النقية .

أما سبب تسمية الأولى " السريانية " فلم يتضح لنا بعد من خلال المكتشفات الآثارية الموقع الزمني لذلك الجد الأعلى "سر" الذي نسبت إليه فيما بعد المنطقة كلها والشعب كله . لكنه ثمة حقيقتان ثابتتان : أولاهما أن كلمة "سرن" من حيث اشتقاقها اللغوي جاءت من "سري" التي تعني " السيدة" وهي مؤنث "سر" ومنها أتت التسمية للمنطقة كلها "سوريا" (بعد إضافة الصوتيات إلى الكتابة) ، وأما الصيغة المؤنثة الأخرى لـ "سر" فهي "سرت" وتعني السيدة أيضا ، وهي "سارة " بعد إضافة الألف الصوتية وتعني السيدة ، الملكة ، الربة ، ومنها أتت التسمية "سورية "(بعد إضافة الصوتيات إلى الكتابة أيضا) . وبقيت هذه الأسماء محافظة على مضامينها الأولى حتى هذا اليوم . فكلمة "سر" القديمة تعني العالي ، المرتفع ، السيد، الشريف، وجمعها "سراة " ، و"سروة " بمعنى قمة وارتفاع ، و" السرو" الفضل ، والمروءة والسخاء ، والشموخ ، ، ومن ذلك أطلقت

على نوع من الشجر المعروف بتشاخه إلى فوق ، و" أبو السرو" البخور . ومن هنا أيضا اقترن وجود تماثيل عشتار الجبل بامرأة بارعة الجمال تقف على قمة جبل مكلل بأشجار السرو (العرعر) ، وقد كشفت عن نهديها الممتلئين العاريين يحرسهما أسد من كل جانب . و"سرن" هي " السوريون " بعد إضافة الصوتيات .

والحقيقة الثانية هي أن أولئك السكان العرب الزراعيين والبدائيين في تلك المناطق تحديدا كانوا يسمون بـ " السريان " وليس أدل على هذا من " أن الرسول العربي محمدا (ص) ، كان قد أطلق هذا النعت على آدم الرسول وبعض فروعه . فحينما قال في حديث أوردناه من ذي قبل " أربعة (يعني من الرسل) سريانيون : آدم ولمك ونوح وخنوخ " ، فإن في هذا تأكيدا بما لا يقبل الجدل على وجود أولئك العرب السريان في منطقة الخليج أو جبال السراة قبل وجود آدم الرسول الذي هو أحد الآباء العظام المقدسين في سلسلة النسب العربي .

وإذا ما تتبعنا خط النسب بعد آدم إلى آرام ، فإننا نلتقي بواحد من كبار الآباء العرب ، وهو سوريان ، أحد أحفاد آرام ، الذي أنجب إحدى السلالات التي حكمت بابل .

يقول المسعودي في تاريخ "مروج الذهب" :

"ذكر أهل العناية بأخبار ملوك العالم أن أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان ، وقد تنوزع فيهم وفي النبط : فمنهم من رأى أن السريانيين هم النبط ومنهم من رأى أنهم أخوة لودماش بن نبيط ، ومنهم من رأى غير ذلك .

وكان أول من ملك منهم رجل يقال له "شوشان"*، و كان أول من وضع التاج على رأسه ، وانقادت له ملوك الأرض ، وكان ملكه ست عشرة سنة ، باغيا في الأرض، مفسدا للبلاد ، سفاكا للدماء "[1]

ويقول في مكان آخر بصدد حديثه عن بعض ملوك الآشوريين :

---

* وقد سميت باسمه شوسان "عاصمة اقليم عيلام (عربستان) وتلفظ ايضا شوشان ، سوسان ، سوسا ، سوزا ، سوسة ، والسوس حاليا .

(1) مروج الذهب للمسعودي ، الجزء 1 ، ص 207 .

"وكان أول ملك بنى هذه المدينة (نينوس) ، وسور سورها ، ملك عظيم قد دانت له الملوك ، ودانت له البلاد ، ويقال له نينوس بن بالوش*، فكانت مدة ملكه اثنتين وخمسين سنة ، وكان بالموصل ملك آخر محارب لهذا الملك ، وكان بينهما حروب ووقائع ، ويقال إن ملك الموصل كان في ذلك العصر "سابق بن مالك " رجل من اليمن (وكانت نينوى أخرى تقع على شاطئ بحر المياه العذبة الذي كان يغطي صحراء الربع الخالي ثم اندثرت تحت الرمال) .

ثم ملك أهل نينوى عليهم بعده امرأة يقال لها "سميروم" (سميرا ميس) فأقامت عليهم أربعين سنة ... وملكها من شاطئ دجلة إلى بلاد أرمينيا ومن بلاد أذربيجان إلى حد الجزيرة والجودي والبتيل .. وكان أهل نينوى ممن سمينا نبيطا وسريانيين ، والجنس واحد ، واللغة واحدة ، وإنما بان " النبط " عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم ، والمقالة واحدة"[1].

وفي "سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب " للبغدادي نقرا في حلقة " آرام" ما يلي :
" ومن بني أرم هذا السريان ، فإنهم من بني سوريان بن نبيط بن ماش بن أرم بن سام ، وقال ابن الكلبي هم بنو نبيط بن ماش بن آرم بن سام ، وقال ابن سعيد : هم من بني نبيط بن آشور بن سام "[2] .

فهؤلاء السريان هم بنو سوريان الآراميون أو الآشوريون الساميون العرب . إذ من المعروف أن الآراميين والآشوريين إخوة ، وكلاهما من أبناء سام بن نوح . فقد ولد سام : عيلام ، وآرام ، وارفخشاد ، ولاوذ ، وآشور ، وحينما يختلف الرواة في أن يكون سوريان من أبناء آرام أو من أبناء أشور فإنه ليس في الأمر ما يضيف شيئا أو ينقص شيئا ، لأن البحث هنا ليس في دقة تحديد تفرعات الفروع ، كما أن المجتمع آنذاك لم تكن العشيرة أو القبيلة هي التي تحدد هويته أو طابعه . فالشكل الاجتماعي السائد آنذاك هو شكل الدولة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، يرأسها ملك

---

* هكذا ورد الاسم في صيغته اليونانية ، وهو "نين بن بعل" .
(1) المصدر السابق ص 206
(2) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي ، ص 13 .

عربي ليس مهما أن يكون سريانيا أو حتى آراميا ، كما تدل المصادر . فها هو الملك "سابق بن مالك " الذي يحكم قبل سميرا ميس ، عربي من اليمن ، وإن كل المصادر تدل على أن الملكة سميرا ميس هذه نفسها إنما هي عربية من المنطقة التي صارت تدعى اليوم بـ"بادية الشام"* .

إن العامل الحقيقي الذي يمنح السكان والحكام معا هويتهم في ذلك الزمن ، ليس الانتماء إلى هذا الفرع أو ذاك من فروع النسب القبلي ، وإنما هو اللغة . لقد بقيت اللغة العربية ، على اختلاف لهجاتها ، هي الهوية الحقيقية للإنسان العربي التي يتعرف بها ومن خلالها على ماضيه وتراثه ، كما يجد فيها كل عناصر وجوده الاجتماعي الأخرى ، التي يشاركه فيها الآخرون . فيصبحون اخوته من خلالها ، لا من خلال رابطة الدم والنسب ، منذ ذلك الزمن الموغل في القدم . لقد كان وعي العربي المبكر لهذا الأمر هو أحد العوامل الرئيسية التي جعلت اعتزازه بعروبته بعيدا عن أي تعصب عرقي . لقد كان أولئك العرب الأوائل يشعرون ــ لاشك ــ على اختلاف مشاربهم من الغرب أو الشرق أو من شبه جزيرة العرب ، أن شيئا ما يجمعهم ويشدهم الواحد إلى الآخر أسمى من رابطة الدم والنسب ، لأن اللغة ، في شتى تلك الأرجاء ، ورغم اختلافها إلى لهجتين أو ثلاث ، هي واحدة . أما اللهجة البابلية والآشورية ، فهي واحدة أيضا ، إنها العربية السريانية السائدة منذ الزمن القديم ، وهذا هو بالضبط ما قصده المسعودي في عبارة "والمقالة واحدة ": " وكان أهل نينوى ممن سمينا نبيطا وسريانيين ، والجنس واحد، واللغة واحدة ، وإنما بان النبط عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم ، والمقالة واحدة " .

إن البروز المبكر لهذا العامل الاجتماعي التاريخي الثقافي ، الذي هو اللغة كان له الفضل الكبير في الانتقال المبكر بالمجتمع العربي من القبيلة إلى الشعب ، وفي سرعة تجاوز

---

* يقول لقيان السميساطي الذي عاش في القرن الأول الميلادي في كتابه " الربة السورية".. وحسب غيرهم ، كانت (سمير اميس) ملكة بابل ، والتي يرجع إليها الفضل في تشييد عدد كبير من الأبنية في آسيا هي التي بنت هذا المعبد ، وخصصت ، ليس لـ(هيرا)، ولكن لامها المسماة ديركيتو . وقد رأيت أنا نفسي ، في فينيقيا تمثيلا لـ(ديركيتو) ، إنه صورة فريدة ، إنه امرأة بنصف جسدها فقط في حين ان القسم الذي يذهب من الفخذين إلى الأسفل يمتد على شكل سمكة. (النبذة 14).

التأثيرات القبلية عند كل عملية توحيدية كان يمر بها هذا الشعب عقب كل انتكاسة ، مما تحول إلى تراث وتقليد ذلك الفهم للعروبة وللانتماء إليها . ثم زاد من ترسيخه وتثبيته في أعماق الوعي بهذه الصورة تعريف الرسول العربي محمد(ص) للعروبة فيما بعد حينما قال " ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي " (1)

إن هذا الفهم للعروبة ، البعيد عن التعصب القبلي ، هو الذي كان يسود القطاع الرئيسي الموجه في عملية التطور للمجتمع العربي إبان الدولة البابلية والآشورية ، وهو الذي كان يتيح لأي مواطن فرصة الانتقال من شتى أرجاء الدولة وأقاليمها دون أن يشعر بالغربة بين القبائل المختلفة .

ومن هنا فإن في إمكاننا القول إن تسمية "السريان" ليست تسمية قبلية بقدر ما هي مبنية على أساس اللهجة في اللغة ، التي دعاها المسعودي بـ"المقالة" ، وهذه اللهجة كانت موجودة قبل أن يوجد السريان من بني سوريان النبطي الآرامي بزمن طويل . إذ أجمعت كل المصادر العربية على اعتبار آدم الرسول وكثيرين من أحفاده سريانيين . ومن هؤلاء الأحفاد كان إبراهيم الآرامي وابنه إسماعيل اللذان اعتبرتهما المصادر العربية من العرب المتعربة نتيجة للهجتهما السريانية قبل أن يستقرا تماما في وسط المنطقة الغربية من جوف شبه جزيرة العرب . ولما كان إبراهيم العربي الآرامي ، الذي دعته التوراة بـ"الآرامي التائه" سريانيا ، بينما أبناء آرام الآخرون ، ممن يسكنون شبه جزيرة العرب ، أبناء جديس وطسم ، وعبيل ، وثمود ، وجاثر ، وعاد ، وغيرهم يعتبرون من العرب العاربة (أي الأنقياء الشديدي العروبة) ، وكلاهما ينتمي إلى أصل واحد هو العربي الآرامي ، فإن في ذلك دليلا آخر على أن اللهجة التي كان يتكلم بها أولئك العرب كانت هي التي ترسم الحدود بين التسميات الثلاث :عرب ، وسريان ،وآموريين .

---

(1) انظر : ابن عساكر "تهذيب تاريخ دمشق" دمشق 1982 ، الجزء 2 ، ص189 ، ومصطفى الشهابي ، القومية العربية " ص34.

فالسريان المتأخرون ، من حيث الأصـــل والنسب ، هم أيضا آراميون ، وينتســـبون إلى سوريان بن نبيط بن ماش بن آرام ، لكنهم ليســـوا كل الآراميين .وإلى جانب هذا فإن جميع سكان منطقة الخليج العربي ، والحوض الأدنى لدجلة والفرات (منطقة سومر وأكاد وبابل) هم عرب سريان من حيث لهجتهم اللغوية التي تميزت بها تلك المنطقة من قبـــل آدم الرسول منذ عهد الأب "سر" الأول الموغل في القدم .

ينتج عن هذا أن السريانية ، والأمورية ، والعربية هي لهجات شقيقات ثلاث للغة واحدة فما اسم هذه اللغة إذن ؟ إنها ـــ دون جدال ـــ العربية العرباء ، التي هي الفصحـــــى .

فكيف تكون العربية هي اللغة الأم وهي إحدى لهجات هذه اللغة الأم في آن معا؟

كنا قد أوضحنا كيف أن السريان الأوائل الذين عرفناهم إنما هم العرب السوريون أبنــاء "سر" الذين انتشروا في كل أنحاء الأرض العربيـــة ، وقد شـــــغل أشـــقاؤهم العـــرب الأموريون المناطق نفســـها أيضا ، وقد تميز العرب الســـوريون (أبناء سر) عن العرب الأموريين (أبناء مر) ليس قبليا ولا بالمكان الذي يشغله كل منهما وإنمـــا باللهجـــة ، فأبناء "سر" وأبناء "مر" الذين يسكنون المنطقة الشرقية غلبت عليهم لهجة معينة بحكـــم تأثيرات الجغرافيا والوسط المجاور . ومن سكن منهم المناطق الشمالية والغربيـــة غلبـــت عليهم لهجة أخرى . وليس من الضروري ، قطعا ، أن يكون وجود الإنسان البدائـــي الرعوي (ما قبل الزراعي) مرتبطا بالبادية ، كما يفضل كثير من البـــاحثين القـــول ، ثم يستدلون من خلال ذلك على أن الوجود العربي كان في صحراء شبه جزيرة العرب قبـل أن يعرف الإنسان العربي الاستقرار والزراعة. ثم بدأت "الهجرات" التي سبق ودحضنـــا فكرتها ، إلى مناطق الهلال الخصيب .فليس ضروريا أن يوجد إنسان ما قبل الزراعـــة في مناطق صحراوية لا تصلح للزراعة . فالتطور لم يكن رهنا بالجغرافيا فقط . إن الإنســان البدائي قد تخصه الطبيعة بمناطق خصيبة ، يتوفـــر له فيها كل ما يشتهي مـــن الثمـــار والنبات والحيوان دونما كد . وتلك كانت جنته البدائيـــة ، حينما كان يعتمد في قوتـــه على التقاط الثمار ، وما تنتجه له الأرض دونما جهد يذكـــر . وإن شـــبه جزيـــرة العرب بالذات كانت ـــ كما يصفها المؤرخون ويؤكد الباحثون وذكرنا من قبـــل ـــ

إحدى البقاع الجغرافية التي تعج بالغابات والثمار والمزروعات والحيوان والأنهار .
إن هذا بالتالي ، يؤكد أن إنسانها البدائي كان من الصيادين الذين يتجولون في فردوس يحوي مختلف الأنواع مما تنتجه الأرض من نبات أو حيوان . فالبدائية ليست مرتبطة بالبادية حتما ، وإلا كانت تسمية جغرافية محضة ، بينما هي تسمية نمطية تعكس أسلوبا معينا في العيش . ولهذا فإننا لا نقول ـــ كما يردد الآخرون ـــ إن اللغة العربية هي الأصل بين جميع ما دعي بـ " اللغات السامية" ، لأنها ـــ أي العربية ـــ لغة أهل البادية التي منها خرج الساميون العرب ، خاصة وأن آثار أولئك "الساميين" في مناطق الهلال الخصيب الزراعية تعود إلى ما قبل الألف الثامن قبل الميلاد ، كما تدل المكتشفات الآثارية ، وذكرنا سابقا ، أي إلى قبل وجود سام نفسه بخمسة آلاف سنة على الأقل .
وقد كانت شبه جزيرة العرب ـــ كما سبق أن بينا أيضا ـــ لا تقل خصوبة وغنى عن باقي المناطق ، بل قد تكون أكثر صلاحية منها للزراعة في ذلك الزمن ، وبالتالي ، فلم يكن ثمة داع للخروج منها إلى باقي المناطق طلبا للخصب .
لكن الأمر الذي قد يتيح لنا إمكانية التأكيد بأن عربية شبه جزيرة العرب هي اللغة الأم هو أن وجود السريان و الأموريين على التخوم العليا المجاورة لغيرهم من الشعوب والقبائل في الشمال والشرق ، جعلهم معرضين لكثير من عمليات الغزو والاحتلال من جهة ، بالإضافة إلى عملية الاحتكاك اليومية الدائمة ، ولاسيما عن طريق التجارة ، مع غيرهم من الشعوب المجاورة القريبة والبعيدة ، من جهة أخرى . إن ذلك كان لابد من أن يترك آثاره الكبيرة أو الصغيرة ، في هذه المرحلة التاريخية أو تلك ، بهذا القدر أو ذاك على اللغة الأم ويخلق فيه إمكانية نشوء لهجة محلية مختلفة بعض الشيء عن اللهجة النقية الأم ، بينما يبقي سكان منطقة شبه الجزيرة المعزولة حتى ثلثيها بواسطة البحار ، والمتصلة بقسمها الباقي بالعرب وحدهم ، بعيدة عن أي تأثير لغوي خارجي على مدى تلك الآلاف من السنين ، مما حافظ على نقاوة اللغة الأم ، فحافظت على اسمها الحقيقي وأدرك أبناؤها ذلك على مدى عصور التاريخ ، فصاروا يطلقون على عرب باقي

المناطق الزراعية الشمالية والشرقية أسماء ، هي أسماء لهجاتهم اللغوية فأثبتوا مرة أخرى أن عصبيتهم ليست لأب ولا لأم ، إذ هم يميزون بعضهم بلهجاتهم فقط .

فاللغة العربية هي اللغة الأم ، واللهجات العربية الأساسية ثلاث : السريانية ، والأمورية (وقد تأثرتا بما يجاورهما وبفعل عوامل أخرى كثيرة ، فظهرت على وجهيهما بعض النموش التي لن تقلل من طلاوة الأصل ...) والعربية النقية (أي العرباء) التي حافظت على نقاوتها في شبه جزيرة العرب .

وهكذا فالسريانية لا تنقسم ، أو تتفرع ، عن العربية أو الآرامية كما ينقسم أو يتفرع سوريان عن نبيط وآرام . إن الابن يبقى محافظا على لغة أبيه ، ولو أنه تفرع عنه ، طالما أنه وإياه في منطقة واحدة . ومن هنا كان يجب الانتباه إلى عدم الخلط بين تفرع اللهجات وتفرع النسب ، هذا الخطأ القاتل الذي سقط فيه جميع المؤرخين حتى اليوم . إن السريان المتأخرين ، من حيث النسب هم امتداد لسوريان حفيد آرام ، لكن السريانية ليست امتدادا للغة الآرامية كما يزعم نولدكه مثلا [1] .إن الآراميين عموما فرع من الفروع العربية ، وقد انتشروا من منطقة إلى أخرى في أواسط وأطراف شبه جزيرة العرب . لكن هذا لا يعني أن للآراميين لغة غير العربية التي كانت سائدة ومنتشرة في كل تلك المناطق بمختلف لهجاتها . إن الآراميين السريان النبيطيين الذين شغلوا بعض مناطق شبه جزيرة العرب كانت لغتهم العربية القديمة بلهجتها السريانية ، وهي اللهجة التي تكلم بها سكان سومر وأكاد وبابل وآشور وحملت نكهة الحضارة العربية السورية في أوج عنفوانها ، كما حملت نكهة العظمة التي بناها الآباء أمثال أوركاجينا ، وسرجون ، وحمورابي ، وسميرا ميس ، وغيرهم .

وإن الآراميين الذين انتشروا في شبه جزيرة العرب انقسموا حسب المواقع التي شغلوها إلى لهجات تراوحت ما بين السريانية الشمالية الشرقية ، وبين الكنعانية التي هي مزيج من اللهجات الثلاث وبين عربية شبه الجزيرة العرباء .

---

(1) انظر : الدكتورة زاكية محمد رشدي "السريانية نحوها وصرفها" ص9 :نولدكه ، ص31 من المقدمه

وهكذا فقد صار في إمكاننا أن نميز لهجات الآراميين من خلال مناطق سكناهم ، وليس من خلال تفرعاتهم في النسب ، ومثلهم في ذلك يكون مثل غيرهم من الفروع العربية الأخرى .

إن آرام حينما ولد لم يبتدع لغة ، و لم تخلق معه لغة مع ميلاده . لقد تكلم لغة أبيه وأمه، لغة آبائه . والأمر نفسه مع سوريان ، وثمود ، وعاد ، وطسم ، وجديس ، وجاسم ، وعبيل وغيرهم . وكل ما في الأمر أن بعض هؤلاء كان ينتقل من منطقة لهجة عربية إلى أخرى (أو ينتقل أبناؤه من بعده) إبان تغيير منطقة سكناه وتوطنه . وبناء على هذا كله فإن من الأخطاء التي شاعت واستمرت حتى يومنا هذا هو اعتبار الآرامية لغة في حد ذاتها غير العربية ، وكذلك السريانية . فإذا كانت اللغة تتميز إلى لهجات ، فإن ذلك أمر طبيعي ، لكن اللهجة تبقى لهجة طالما أنها تعيش ضمن منطقة اللغة الواحدة ، وطالما أن هذه اللغة حية صامدة لا تنقرض . وفي مثل هذه الحال فقط يمكن لأي من لهجاتها المتعددة أن تنمو وتتسع وتحل محل اللغة الأم ، لكن ذلك كله يبقى ضمن حقيقتها التاريخية حين دراستها ، ويلزم الدارسين بالقول إنها كانت إحدى لهجات اللغة الأم ، ثم تمكنت من أن ترتفع إلى مستوى اللغة الأم وتحل محلها بعد انقراضها أو تلاشيها . إن كثيرا من اللغات لم تتمكن من الاستمرار إلا من خلال إحدى لهجاتها ، وهذا أمر طبيعي . وفيما يتعلق باللغة العربية الأم فقد بقيت محافظة على وجودها ، صامدة على مدى العصور ، وإلى جانبها بقية لهجاتها الكبيرة والصغيرة . وحينما جاء الآراميون ، كفرع من فروع الشعب العربي ، وجدوا أنفسهم ضمن هذا البحر المتلاطم الكبير من لغة الآباء الذي يشمل سوريا كلها ، وشبه جزيرة العرب ، ووادي النيل ، وشريطا كبيرا من الشمال الأفريقي .

وهكذا ، فقد انقسم الآراميون ، ككل العرب الآخرين ، بين اللهجتين العربيتين الأساسيتين ، حسب المناطق التي شغلوها : السريانية في الشمال الشرقي ، وعربية شبه الجزيرة العربية . ولو اتسع انتشار الآرامين في تلك الفترة ليشمل المناطق الغربية من سوريا لظهرت بينهم اللهجة العربية الأساسية الثالثة ، التي هي الأمورية دونما ريب .

لكن هذا لا يعني قطعا أن الآراميين هم الذين أوجدوا هذه اللهجات . إن تلك اللهجات المتشكلة تاريخيا هي الأساس ، هي الأصل ، مثلها مثل الأرض ، تستوعب كل مواليد الشعب العربي وتتطور بتطورهم ، وتحمل بصمات أفعالهم وإنجازاتهم عبر القرون .

الكتابة :

ذلك ما يتعلق بأمر اللهجات ، أما فيما يخص الكتابة فموضوع آخر ، لكنه لا يكاد يختلف كثيرا عن موضوع اللهجات .

من المعروف أن الكتابة اختراع واع ، قد يشترك فيه فرد أو مجموعة أفراد ، يتم تعميمه عن طريق الاتفاق ، أو قد يفرض فرضا . والكتابة ليست إلا طريقة لرسم اللغة المحكية ماديا على الصخر أو الطين أو الجلد أو الورق ، دون أن يكون لذلك أية علاقة في أصوات اللغة . إنها محاولة لرسم تلك الأصوات لا لاختراعها . فأنا قد أخترع أشكالا شتى لرسم موضوع ما كالبيت مثلا ، وقد أتفق مع الآخرين على تعميم شكل أو عدة أشكال للبيت ، وقد أفرضها عن طريق القوة ، لكن جميع هذه الأشكال ، أيا كانت ، تبقى في اللفظ المنطوق ، في اللغة المحكية "بيتا " ، ولا يمكن أن تلفظ أو تقرأ "رجلا" .

ونحن نرى أن كثيرا من الشعوب كانت تلجأ إلى استعارة طرق الكتابة من الآخرين لتسجيل لغتها . وقد تنتقل من كتابة إلى أخرى بين مرحلة تاريخية وأخرى ، دون أن يؤثر ذلك على جوهر اللغة في شيء . والأمثلة من حولنا كثيرة ومعروفة :إن كتابة الأفغان ، والفرس ، والباكستانيين ، والأذربيجانيين والأتراك وغيرهم لغاتهم بالأحرف العربية لم يغير شيئا من تلك اللغات ، كما أن انتقال الأتراك ، مثلا ، إلى الكتابة بالحرف اللاتيني فيما بعد ، لم يغير في شيء من اللغة التركية ، ولم يأت للأتراك بلغة جديدة .

وإن كتابة اللغة العربية بالرسوم التصويرية ، ثم بالأبجدية المسمارية ، ثم بأبجدية الحروف البسيطة التي تطورت إلى خطوط كثيرة منها الخط السرياني والنبطي والتدمري والعربي الحديث ، لم يغير شيئا من جوهر اللغة العربية المحكية التي ظلت تتابع مسيرة تطورها مع لهجاتها ضمن القوانين العامة الشاملة الناظمة لتطور اللغة بوجه عام عبر مسيرة

شعبها التاريخية . وليست كل تلك الخطوط إلا طرقا لرسم اللغة أو بعض لهجاتها في مختلف مراحل ذلك التطور .

مما تقدم نخلص إلى أن الآرامية ليست لغة وليست لهجة ، وأن العرب الآراميين ، مثلهم مثل باقي الفروع العربية المتفرعة الأخرى مع الزمن ، يتوزعون حسب مناطق سكناهم وتوطنهم بين اللهجات العربية التي كانت موجودة قبلهم واستمرت في وجودها من بعدهم . وهذه اللهجات هي ـ كما سبق وبينا ـ ثلاث : السريانية في الشرق والشمال الشرقي ، والعمورية (الآمورية) في الشمال الغربي والغرب ، واللهجة العرباء في وسط شبه جزيرة العرب .

وإن اللهجة العربية السريانية التي ورثها الآراميون أبناء سوريان بن نبيط هي نفسها اللهجة الأساسية لكل من سومر وآكاد وبابل وآشور ، وقد طرأت عليها تغيرات محلية ، دون ريب ، تبعا لمناطق تواجد السكان المتكلمين بها ، ولظروف محيطهم واحتكاكهم الحياتي اليومي ، مما كان يجعل السريانية في منطقة سومر وعيلام تتضمن كلمات أخرى غريبة ، بينما كانت هذه اللهجة في منطقة آشور في الشمال تتضمن كلمات من مصادر مختلفة أخرى .

لقد أفعمت هذه اللهجة السريانية برائحة أمجاد شعبها ، وبإبداعات سومر وأكاد وبابل . وحوت كثيرا من عزائم أولئك الأباء العظماء الذين لم يكن يضاهيهم في زمنهم أحد . فأخذت تهدر متقدمة بثقة عجيبة في كل الأنحاء . فاكتسحت فارس وتغلغلت شرقا إلى الهند والصين ، ثم امتدت شطر نواحي آسيا الصغرى ، وزحفت عبر وادي الدواسر إلى قلب شبه جزيرة العرب ، وأخذت تضغط على اللهجة الكنعانية في منطقة غامد وزهران وجنوب شبه جزيرة العرب، وتوقفت ، مثلما في كل المرات ، عند حدود اللهجة العرباء في منطقة شمال اليمن ، وفي جنوب الحجاز حول مناطق يثرب والطائف ومكة .

إن الآرامية ، إذن ، ليست لغة وليست لهجة . وإن الآراميين توزعوا ،ضمن اللغة العربية الواحدة والأرض الواحدة ، إلى اللهجات القائمة أصلا حسب مناطق تواجدهم .فبينما كان الآراميون في منطقة بابل المحطة يتكلمون اللهجة السريانية ، كان الآراميون في

بمالكهم الصغيرة عند حوض نهر " ثرات" الأدنى ، أي عند منطقة التقائه بوادي رنيا ، يتكلمون اللهجتين السريانية والكنعانية الغربية ، وكذلك الآراميون في منطقة صوبا وذومسك عند حدود بلاد زهران وغامد الكنعانية . أما الآراميون الذين سكنوا مناطق اللهجة العرباء في مناطق مكة شمالا ، والمنطقة التي بنيت فيها صنعاء فيما بعد جنوبا ، فقد تكلموا العرباء وتخلوا عن اللهجة السريانية الشمالية الشرقية .

قد يخيل للإنسان ، لأول وهلة ، إن اختلافات كبيرة تفصل اللهجة الواحدة عن الأخرى ، وترسم بينها حدودا .إن الأمر على العكس من ذلك .فقد دلت المكتشفات الآثارية ، على أن سكان سومر الذين يفترض أنهم يتكلمون اللهجة السريانية الشرقية ، إنما كانوا خليطا ،حتى في لهجاتهم ، من الشرقيين و الأموريين الغربيين ، وقد دلت على ذلك أسماء كثير من ملوكهم كما سبق وأشرنا من ذي قبل . وفي بابل رأينا كيف أن الشيخ نبلان الأموري الغربي حكم إحدى المدن إبان فترة الصراعات المصيرية الكبرى قبل حمورابي ، ثم رأينا كيف أن حمورابي الأموري الغربي كان أبرز حكام الدولة العربية السورية التي عاصمتها بابل ، عاصمة اللهجة السريانية ، ورأينا أيضا كيف أن الملك سابق بن مالك ، وأصله من اليمن ، حكم قبل سميرا ميس ،وأن سميرا ميس نفسها حكمت بابل وآشور وهي تنحدر في أصلها من البادية السورية ، كما تدل كل المصادر ، وإن إبراهيم وأسرته ينحدرون من حران على حوض نهر " ثرات " الأعلى في شبه جزيرة العرب ، وانتقل ، دونما لأي ، إلى أور في الكلدان ، ثم إلى منطقة كنعان في جنوب بلاد زهران وعسير ، وإلى منطقة مكة ، دون أن يجد أية صعوبة في التفاهم مع سكان هذه المناطق الذين ، كما تؤكد كل المصادر ، كانوا يستقبلونه بالاحترام أينما حل هو وأفراد أسرته . وقد أكرمه بنو حث الكنعانيون في مغارة حبرون في بلاد زهران وأسكنوه فيما بينهم ، وأصر عفرون الحثي الكنعاني على أن يهب له حقله ومغارة المكفيلة التي هي حبرون نفسها دون مقابل حينما طلب إبراهيم أن يبيعه المغارة ليدفن زوجته سارة . ولم يشر أي من المصادر إلى أن إبراهيم كان بلهجته العربية السريانية يلقى أية صعوبة في التفاهم مع أبناء تلك المناطق . وإن عيسى المسيح نفسه ، العربي

الآرامي في النسب ، ولد وعاش مع الكنعانيين في منطقة واحدة ، هي منطقة غامد وزهران ، وتكلم لهجة آبائه السريانية الكنعانية الخليط ـ إذا صح التعبير ـ و لم يكن ثمة لغة أخرى أو لهجة أخرى . ومع هذا فلم تجد أمه السيدة مريم أية صعوبة في التفاهم مع جيرانها المصريين (أبناء مصرايم) حينما انتقلت به إلى هناك في الجنوب زمنا ثم عادت إلى منطقة كنعان .

إن اللهجة العربية السريانية لم تفرق بين القوى والتحزبات المتصارعة إبان الصراعات الكبرى في بداية الألف الثاني قبل الميلاد بين آشوريين وبابليين وآموريين وأكاديين وسومريين وغيرهم . ولما انتصر حمورابي ، وهو الأموري الغربي ، في الصراع على السلطة في بابل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد لم تكن اللهجة لتقف حائلا دون انتصاره وتسلمه زمام أمور الدولة العربية السورية كلها من البحر الأدنى (بحر العرب) إلى البحر الأعلى (البحر الأسود) .

وإذا عظم نفوذ اللهجة العربية السريانية فإنما بتعاظم نفوذ أبنائها المتمثل في نفوذ الدولة العربية السورية البابلية زمن حمورابي ، علما أن لهجة حمورابي الأصلية لم تكن سريانية ، لكن أحدا لم يتمكن من أن يسجل فرقا في قصر حمورابي بين سريانية شرقية وأمورية غربية . إن الازدهار السياسي والاقتصادي والعسكري الذي تمتعت به الدولة العربية السورية زمن حمورابي هو الذي منح اللهجة العربية السريانية ذلك الزخم وتلك القوة في الاندفاع حتى صارت تحتل المكانة الأولى بين سائر اللهجات في العلاقات الدولية . ثم ما إن منحها الأشقاء الفينيقيون في الغرب أبجديتهم الساحرة البسيطة حتى أخذت تطغى على كل الشعوب الأخرى .

والجدير بالذكر أن اللغة العربية ، بلهجتها السريانية هذه ، وبأبجديتها الساحرة ، ظلت اللغة الرسمية للدولة حتى في زمن سقوط الدولة العربية البابلية على أيدي الفرس ، وصارت اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية[1] ، كما صارت لغة التجارة والعقود والمواثيق الدولية لجميع شعوب الزمن القديم في تلك المنطقة رغم سقوطها السياسي . إن

---

(1) انظر فيليب حتي ، "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1ص245.

الثقة الكبيرة التي أفعمت بها هذه اللغة نتيجة لتاريخ شعبها الحضاري الكبير جعلت منها لغة كل الأوساط الحضارية دونما منازع ، كما شكل لدى أبنائها مناعة ذاتية تاريخية ، أخذت تقوى وتتعاظم عبر القرون ، فتجعلهم مؤثرين حتى في زمن يحتل بلادهم أكثر من تأثرهم به بفعل قانون الكثافة والتخلخل الذي تكثفت فيها عطاءات الانسان العربي الحضارية دهورا طويلة ، كانت ، عند كل عملية احتكاك مع غيرها ، تنقل مما تحمله في ذاتها من مضامين فكرية وحضارية مكثفة إلى اللغات الأخرى التي تمثل مناطق التخلخل قليلة الكثافة ، فتغدق عليها مما بها زمنا طويلا إلى أن يقترب زمن التناسب فيتوقف ذلك الارتشاح أو يكاد . إن هذا بالضبط هو ما حدث فعلا في ذلك الزمن ، وهو ما حدث فيما بعد إبان الاحتلال التركي للبلدان العربية . إن هذه الظاهرة نفسها هي التي حدت بمؤرخ مثل ريمون فايل إلى أن يقول : "إن أبرز ميزات هذا الشعب أنه كان دائما يطبع غزاة بلاده بطابعه الخاص ، فيجعلهم منه عوضا عن أن يكون هو منهم "[1]

ثم إن هذه اللهجة شهدت عملية نهوض كبرى إبان وحدة الدولة العربية السورية منذ منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وفي زمن حكم الآشوريين فيما بعد للدولة .

وقد طرأت عدة تطورات على هذه اللهجة السريانية الشرقية بعد المسيح سوف يكون لنا معها حديث آخر في موقع آخر .أما فروع آرام الأخرى الذين نزلوا شبه جزيرة العرب فهم :جديس وعبيل ، وعوص ، وعبد ضخم ، وجاثر[2] . ومنهم كان قوم عاد وثمود . و"هذان الحيان من ولد أرم بن سام بن نوح ، وهو عاد الأول ، وكانت مساكنهم ما بين الشحر وعمان وحضرموت بالأحقاف . فكانوا جبارين طوال القامة لم يكن مثلهم .. وأما ثمود فهو ولد ثمود بن جاثر بن أرم بن سام ، وكانت مساكن ثمود بالحجر بين الحجاز والشام . وكانوا بعد عاد قد كثروا وكفروا وعتوا ، فبعث الله إليهم صالح بن عبيد بن أسف بن ماشج بن عبيد بن حادر بن ثمود "[3] .وتشير المصادر العربية

---

(1) انظر : ريمون فايل ،"فينيقيا وسوريا المجوفة " و: أسد الأشقر ، تاريخ سورية " الجزء1 ، القسم 1 ،ص59 .

(2) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي ص14 ،15 .

(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، الجزء 1، ص47 ـ48 .

جميعها إلى أن هؤلاء جميعا غلب عليهم اسم أبيهم أرم ، "فكان يقال لعاد في دهرهم عاد أرم ، فلما هلكت عاد قيل لثمود أرم ، فلما هلكت ثمود قيل لسائر بني أرم أرمان فهم النبط ،فكل هؤلاء كانوا على الإسلام (أي موحدين) وهم ببابل حتى ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح ، فدعاهم إلى عبادة الأوثان ، ففعلوا ، فأمسوا وكلامهم السريانية ، ثم أصبحوا وقد بلبل الله ألسنتهم .. ففهم الله العربية عادا وعبيل وثمود وجديس وعمليق وطسم وأميم وبني يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح"[1] .ولابد من الإشارة مرة أخرى إلى أن بابل المقصودة هنا هي بابل المحطة على طريق القوافل على وادي الثرات ، وليست بابل عاصمة الدولة .

وأوضح أن المقصود من القول " ثم أصبحوا وقد بلبل الله ألسنتهم "هو رحيلهم إلى مناطق أخرى وتوطنهم فيها حيث توجد لهجات أخرى . فبعد أن توزعوا من منطقة بابل نزل جماعة منهم مختلفة مناطق من شبه جزيرة العرب ، وكان من نزل منهم في منطقة اللهجة العرباء حول مكة أو في شمال اليمن أنه تخلى عن لهجته السريانية الشرقية وتحول إلى اللهجة العرباء ، أو أن بنيه من بعده تحولوا إليها فيما بعد . " ويقال إن عمليق أول من تكلم بالعربية حتى ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم وثمود وجديس ابني عابر بن أرم بن سام بن نوح ، وعاد وعبيل ابني عوص بن أرم بن سام بن نوح ، العرب العاربة "[2] .

ولقد صار كثير من المؤرخين العرب ينسبون شعوب العرب البائدة جميعا إلى أرم ويسمونها بالأرمان . فقد ذكر حمزة الأصفهاني في كتابه " تاريخ سني الملوك " إن " العرب العاربة عشرة : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وعماليق ، وعبيل ، واميم ، ووبار ، ورهط ، وحاسم ، وقحطان فكانت هذه الفرق تورخ بسني أرم إلى أن بادت كلها الواحدة إثر الأخرى . وبقي منهم بقايا يسيرة وكانوا يسمون الأرمان[3] ".

(1) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص143 ـ144 .
(2) المصدر السابق 143 .
(3) حمزة الأصفهاني ، " تاريخ سني الملوك" ، طبعة بيروت ، 1921 ، ص105 .

فالآراميـــون ، إذن ، كانوا ، من حيث منشأهم ، جميعا سريانيين بلهجتهم ، ثم توزعوا حسب المناطق التي أخذوا يحلون بها إلى اللهجات الأخرى ، مثلهم في ذلك مثل بـــاقي فروع الشعب العربي الأخرى . ومن بين هؤلاء الآراميين الذين وجدوا وعاشوا في شـــبه جزيرة العرب يمكن أن نميز فئتين :

1ـــ الفئة الأولى : وتتمثل بأولئك العرب الآراميين الذين تتبعوا مجرى وادي الدواسر من مصبه في الخليج العربي إلى منطقة التقائه بوادي "ثرات" ، ثم صعدوا مع مجرى الثرات إلى شرقي بـــلاد غامد وزهران . وقد أقاموا على هذا الشريط تجمعات آرامية بدءا من أرام نهرن (آرام الأنهار) عند ملتقى رنية والثرات ، ومركزها حران ، ثم فـــدان آرام ، وفي شرقي بلاد غامد وزهران عند منابع الثرات هناك أيضا آرام صوبا وآرام دومسك .

لقد كان هؤلاء الآراميون ، من ذوي اللهجة السريانية البابلية في الأصل يمثلون حلقـــة الوصل بين السريانيـــة في الشمال الشرقي ، والكنعانية في الجنوب الغربي وفي منطقـــة غامد وزهران ، والعرباء في شمال اليمن جنوبا وحول مكة والطائف شمالا ، وإن موقعهم الذي يقطع طريق القوافل والتجارة الدولي القادم من جنوبي اليمن ، والصاعد إلى شمـــال شبه الجزيرة وبلاد الشام من جهة ، وإلى الخليج العربي وأور في منطقة بابل مـــن جهـــة أخرى ، ساعد على أن تلتقي اللهجات العربية الثلاث الأساسية في تلك المنطقة .

إن هذه الظاهرة نفسها أسهمت أيضا في بروز اللغة العربية بجميع لهجاتها على مســـرح الدولة العربية السوريـــة كلها كلغة واحدة لشعب واحد ، مما جعل كثيرا من البـــاحثين والمؤرخين يعتبرون الآراميـــة هي العربية القديمة . إن الدولة العربية السورية المزدهـــرة في بابل من جهة ، وإن انتشار الآراميين الرعـــاة على تلك الرقعة الشاسعة من شبه جزيـــرة العرب جعل اللغة العربية تبرز وكـــأنما فجأة على امتداد الساحة كلها ، وما كان لينتبـــه إلى وجودها أحد من قبل إلا من خلال تسميات مجزأة ومتفرقة .

إن هـــذه الظاهرة بالذات هي التي أدهشت ، وكأنما بصورة مفاجئة ، أولئك البـــاحثين أمثال "هوميل" الذي كتب يقول :

"إن الآراميين الذين يرجعون إلى أقدم الأزمان ، والذين ورد ذكرهم في الكتابات القديمة ، كانوا ينتمون إلى العرق البدوي الخالص ، وهم يحملون الأسماء نفسها التي نجدها في التسميات العربية ، لذلك فإننا لا نكون قد جازفنا في الكلام عندما نؤكد أن الآراميين في الألف الثانية قبل الميلاد ، بل وحتى في العصور التالية التي تمتد إلى زمن ازدهار الإمبراطورية الآشورية ، كانوا هم والشعب العربي العظيم شعبا واحدا ، من عنصر واحد متماسك الأجزاء " [1]

مما تقدم كله يمكن أن نستخلص ما يلي :

إن الآرامية فرع سكاني عربي ، وليست لغة أو لهجة .

إن لهجة الآراميين هي السريانية نفسها ، التي جعلت محمدا (ص) يقول عن " آدم ولمك ونوح وخنوخ"بأنهم سريان .

إن العرب منذ أقدم العصور ، ومنذ أن أقاموا دولتهم الأولى الما قبل سومرية لم يكونوا يميزون فيما بينهم على صعيد المؤسسة بروابط القبيلة والدم ، بل كانت التسمية تتبع اللهجات العربية المحكية في هذه المنطقة أو تلك . وإذا كان ذلك هو الطابع العام للعلاقات السائدة على مسرح الدولة ومؤسساتها ، فإن هذا لا يمنع ، بالطبع ، وجود جميع أنواع العلاقات والروابط الأخرى ، من قبلية وغير قبلية ، ضمن البيئة الواحدة ، والمنطقة الواحدة ، والمجتمع ككل .

إنه لم يكن ثمة حدود ضمن المنطقة الواحدة بين لهجة وأخرى . فالسريانية الشرقية ، التي يتكلم بها السومريون وسكان منطقة الخليج أصلا، كانت تعيش مع الأمورية الغربية، والعربية العرباء بصورة متداخلة ــ كما سبق ومر معنا ــ ضمن حدود الحقل الواحد والقافلة الواحدة ، والمعبد الواحد ، والمؤسسة الواحدة ، والمجلس الواحد ، والقصر الواحد . وقد أربكت هذه الظاهرة كثيرا من المؤرخين الذين لم يكونوا قادرين على فهم هذه الظاهرة بحقيقتها كما هي . فأدهشهم وجود سرجون العربي الأموري الغربي ذي المنشأ الفقير الوضيع على رأس السلطة في مناطق سومر وأكاد قبل أن تدهشهم دولته

(1) F.Hommel ." The Ancient Hebrew Tradition"

العربية السورية الممتدة إلى المتوسط غربا وإلى بحر العرب جنوبا . وأدهشهم حمورابي ، العربي الأموري الغربي على رأس السلطة في بابل بالصورة ذاتها ، وأدهشتهم سميراميس السيدة العربية الفقيرة المتحدرة من أواسط البادية تقف على رأس دولتها العربية السورية في بابل بعد أن وحدت جميع أجزائها ، وأعادت بناء مدينة بابل ، وضربت الشعوب والقبائل الهمجية التي كانت تهدد الدولة من الشرق ، ووصلت إلى نهر الهندوس ، وكانت تقول في آخر أيامها : "لقد أعطتني الطبيعة جسم امرأة لكن أعمالي أعمال الرجال العظماء ، فقد أنشأت إمبراطورية نينوى التي تلامس الهندوس شرقا ، وبلاد البخور والمر (أي جنوب اليمن) جنوبا ، وبلاد النيل غربا ، قبلي لم ير أي آشوري البحر . أما أنا فقد رأيت أربعة بحار لم يشاهدها بسبب بعدها أحد قبلي . وقد طوعت الأنهر ، وجعلتها تجري حيثما أشاء ، وفضلت أن تجري في أراض تفيد منه ، فخصبت الأراضي القاحلة بريها ، بنيت القلاع المنيعة ، وشققت بالحديد الطرقات بين الصخور الصعبة المسالك ، وفتحت أمام عرباتي طرقات لم تسلكها حتى الحيوانات البرية نفسها . ووجدت خلال أعمالي أوقاتا للهو مع الأصدقاء " وقد قدسها شعبها وحاك حولها الأساطير ، مما جعل بعض المؤرخين ، الذين لم يتمكنوا من فهم هذه الظاهرة عند قدامى العرب السوريين ، يشكون في وجودها .

إن هذه الظاهرة ظلت تربك جميع الباحثين الذين لم يرغبوا في الاعتراف بالحقيقة : وهي أن الوجود السكاني في الوطن العربي السوري منذ أقدم العصور إنما هو وجود عربي ، وأن جميع الفروع السكانية ، التي قد تصادف متداخلة هنا وهناك وعلى امتداد رقعة الأرض العربية السورية كلها لم تكن تعني بأية حال أنها ظواهر شعوبية أو لغوية ، إنها فروع سكانية لشعب واحد ، يتكلم لغة واحدة بلهجات مختلفة . ويغير هذا الفهم يستحيل استخلاص أية حقيقة تاريخية . إن نظرة واحدة نلقيها على نماذج مما يكتبه بعض الدارسين تجعلنا نضع أيدينا على مكامن الخطأ والارباك لدى أولئك جميعا .

يقول كليي : " أطلق البابليون تسمية "أمورو" على جميع بلاد سوريا ، كما أطلقوا على البحر المتوسط اسم "بحر أمورو العظيم " ، ويرى بعض الخبراء أن الأموريين كانوا قد

انتشروا في جميع المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى الفرات ، ومن ضمنها فلسطين ، منذ الألف الرابعة أو الخامسة قبل الميلاد "[1] .

إن هذا من شأنه أن يؤكد وجهة نظرنا ، ويكشف عن حدود اللهجة العربية الغربية (أو الأمورية) لا عن حدود هذا الفرع السكاني أو ذاك من الشعب العربي السوري .

لكن هل هذا يعني أن ثمة شعبا يدعى "الأموري" يسكن ويعيش ويحكم ضمن حدود هذه اللهجة؟ نقرأ ما يقوله الباحثون على ضوء المكتشفات الآثارية :

" وقد كشفت التنقيبات الفرنسية التي أجريت في تل الحريري منذ عام 1933 عن آثار حضارة من عصور ما قبل التاريخ ، ومن عصر فجر السلالات في الألف الثالثة قبل الميلاد حيث وجدت تماثيل سومرية ومعبد للربة عشتار ، كما كشفت عن برج مدرج ، وقصر عظيم من العهد البابلي القديم ، من القرن العشرين قبل الميلاد ... وقد عثر فيه على مجموعة من الألواح الطينية بلغ عددها 24 ألف لوح ، وهي تشتمل على أنواع مهمة من الوثائق والسجلات الملكية الخاصة بأخر ملك من سلالة ماري الأمورية المدعو "زمري ليم" (1799 ـــ 1761 ق.م) ... وقد أظهرت التنقيبات الآثارية أن سلالة سومرية بزعامة لوجال زاجيسي ملك الوركاء (2400 ـــ 2461ق.م) حكمت في ماري قبيل أن يضمها إلى دولته المركزية سرجون الأكادي (2371 ـــ 2316 ق.م) وقد تمكن العموريون بعد سقوط الإمبراطورية الأكادية سنة 2235ق.م ، أن يتغلغلوا في سوريا الوسطى وفي لبنان ، ثم أسسوا بين سنة 2100 ـــ1800ق.م ، عدة دويلات في وادي الرافدين تمتد من آشور شمالا إلى لارسا جنوبا ، منها سلالة ايسن التي قامت على أنقاض سلاسة أور الثالثة ، وقد ظلت هذه الدويلات مزدهرة إلى أن قضت على استقلالها سلالة بابل الأولى التي اشتهرت بـــ "دولة حمورابي" صاحب الشريعة المشهورة ، وهي من أصل أموري أيضا ويرجع أن السلالة المهمة التي

---

(1) H.T. Clay ," Amuru The Home Of The Northern Semites 1909;"The Empire of the Amoritle"1919 .

تأسست في بلاد آشور واشتهرت بملكها "شمسي أدد" (1814 ــ 1782 ق.م) أصلها من الأموريين أيضا [1] .

إننا نلاحظ من خلال هذا النص كيف أن أغلبية الحكام البارزين في إدارة الدولة العربية السورية الواحدة ، إنما كانوا من العرب الأموريين الغربيين ، وقد حكموا من عواصم تقع جميعها في منطقة اللهجة العربية السريانية الشرقية سواء في أكاد ، أو بابل ، أو أور ، أو نينوى ، أو آشور . إن هذه المدن الشرقية جميعا عاشت وازدهرت كعواصم للدولة العربية السورية الواحدة وإن أبرز حكامها في أوج ازدهارها كانوا من العرب الأموريين .

إن الحدود بين الآرامية والسريانية لم ترسمها المسيحية ، كما درج كثير من الدارسين على القول . فالآرامية ، كقوم ، فرع من العرب الساميين ، منهم من توطن منطقة بابل المحطة ، وهم النبيطيون بنو ماش بن آرم وبنوهم وأحفادهم ، ونخص منهم بالذكر بني سوريان بن نبيط بن ماش بن آرام ، الذين دعوا بالسريان نسبة إلى سوريان بن نبيط ، ومنهم أيضا من توطن في مناطق مختلفة من شبه جزيرة العرب ، وهم العرب العاربة والبائدة ،وآرام نهرن ، وفدان أرام ، وآرام صوبا ودومسك وغيرهم. والآراميون ، من حيث لهجتهم اللغوية ، لم يكونوا سريانا كلهم ، لقد توزعوا بين مناطق اللهجات العربية الرئيسية الثلاث : السريانية في المنطقة الشمالية الشرقية ، والعرباء في جوف شبه الجزيرة العربية ، هذا بالإضافة إلى اللهجة الوسيطة المزيج ما بين هذه اللهجات جميعا وبين الكنعانية ، والتي تتمثل في أواسط شبه الجزيرة على حوض نهر الثرات ومنطقة زهران وغامد وفي الجنوب، وجميع هذه اللهجات أقدم من الآراميين بدهر طويل.

لقد صار في الإمكان الآن أن نتصور كيف أن العرب الجبابرة من العماليق ، الذين يسكنون ويعمرون المناطق الشديدة الخصوبة في وادي الليث وبلاد زهران وغامد ، والذين تميز منهم بنو ميسور وبنو قاني (فونيق) في فنون الزراعة والبناء ، والهندسة ،

---

(1) انظر : الدكتور أحمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التاريخ ص 155 .

والنحت ، وصناعة المعادن ، نقلوا مسرح نشاطهم الزراعي والعمراني إلى وادي النيـل ، وكذلك جميع فـروع العرب الحاميين من كنعانيين ، وكوشيين ، وفلستيتين (فلشتيم) ومصريين (مصرايم) وحثيين أبناء الكنعانيين الحاميين وغيرهم ممن يسكنون ويتوزعـون المناطـق الزراعية والجبلية في جنوب وغرب شبه الجزيرة ، إنما كانوا جميعا ينظرون بعين القلق إلى الأفواج السكانية التي أخذت تعج بها البراري الشرقية الممتدة من سفوح الجرود الشرقية إلى ضفـاف وديان تثليث والدواسر والرمة ، ومن براري مكة والطائف شمـالا إلى حدود عمان وحضرموت في الجنوب الشرقي ، فتهدد بحركتها تدريجيا جميع خطوط القوافل والتجارة الداخلية . وقد كان لها في البداية من وحدة لهجتها السريانية القادمـة من مراكز الدولة ومناطقها في بابل ما يجعلها تبدو ، لأول وهلة ، حركة سكانية مليئـة بالمخاطر بالنسبة للمصريين والكنعانيين في جنوب عسير وبلاد غامد وزهران . ولـو أن تلك الحركة السكانية تمت دفعة واحدة وبصورة منظمة وهادفة لاجتاحت جميع المنـاطق في شبه جزيرة العرب دونما ريب . لكنها ، وكغيرها من التحركات السكانية الأخرى ، كانت تتم على شكل دفعات من الأسـر أو العشائر ، التي تضع كل منها نصب أعينها أهدافا خاصة بها ، كما أن شيئا لم يكن يجمعها أو يوحد فيما بينها غير اللهجة السريانية التي قدمت بها . أما من حيث البنية الطبقية فقد كانت في معظمها من الفئات الانتقاليـة التي لم تقطع صلاتها بحياة الرعـي المتنقلة ، كما لم تترسخ لديها حياة الاسـتقراربعد . وكانت تضم كثيرا من الأسر والفئات الفقيرة والمسحوقة التي تعمل لدى رؤساء العشائر وأفرادها الميسورين في الرعي أو غيره لقاء تأمين قوتها . وإذا ما علمنا أن ظروفا خاصـة طارئة سياسية ، وعسكرية ، واجتماعية ، واقتصادية بل وطبيعية (كالزلازل مثلا) ألمت بمناطق بابل في بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، يصير من السهل أيضا أن نفهم أسـباب تحرك كثير من الأسر الميسورة والزراعية إلى المناطق الخصيبة من شبه جزيرة العرب . ولما كان ذلك التحرك ذو اللهجة العربية السريانية الواحدة قد غطى مناطق واسعة من بقـاع شبه الجزيرة العربية الداخلية فقد انطبقت في تلك الفترة التسمية اللغوية على القبليـة ، وصارت السريانية والآرامية شيئا واحدا . أما حينما كثرت تلك المجموعات بأصولهـا

القبلية المختلفة في منطقة واحدة وغلب على بعضها الاستقرار ، وعلى بعضها الآخر الجولان صار التميز في التسميات الأصولية — على ما يبدو — ضرورة اجتماعية ، فصار اسم " القحطانيين " المستقرين في اليمن و" اليمنيين " شيئا واحدا ، كما صار " الاراميون " المتنقلون من بقعة إلى أخرى و " البدو" و" العبرانيون " و"الخابيرو" و"الأخلامو" شيئا واحدا .

يقول البغدادي : " ... وذلك أن ولد نوح كثروا في الأرض حتى امتلأ منهم سهلها وجبلها ، وبرها وبحرها ، فاحتشت تلك الأرضون بهم ، وشحنت بكثرتهم ، وكان كلامهم السريانية وهي لغة نوح .. فتفرقوا حينئذ ، وسار كل منهم إلى جهة .. ثم سار بنو عاد ، وكانوا لا يحصون كثرة ، وكان مسيرهم يوم الأحد ، فسلكوا مسلك بني يافث ... ثم مالوا يمنة حتى صاروا إلى أرض اليمن . ثم سار ثمود في ولده وولد ولده ، فسار يقفو آثار عاد ، فلحقه وقد وغل في بلاد اليمن ، فكره مزاحمته فيها ، فحال إلى الحجر . ثم سار صحار بن آرم في ولده وولد ولده فنزل في تهامه وأقام بها . ثم سار جاثم في ولده ونزل بالحجاز . ثم سار طسم في ولده فنزل بأعلى ما يلي عمان والبحرين . ثم صار جديس في ولده وولد ولده فنزل في أسفل مما يلي اليمامة ثم سار وبار فنزل فيما بين شحر إلى تخوم صنعاء ، وهي تسمى إلى اليوم أرض وبار"[1] .

من هذا القول يمكن أن نستنتج أن من بين الأسباب التي دعت إلى تسمية أولئك القوم بنسبهم الآرامي ، استيطان آخرين في منطقة اليمن تحديدا في تلك الفترة ذاتها ، وهم القحطانيون . وإذا كانت السمة التي ميزت القحطانيين تتجلى في استقرارهم وتمركزهم الكبير في جنوب شبه الجزيرة العربية في اليمن ، فإن الانتشار المتحرك كان الطابع الذي غلب على الوجود الآرامي . وهذا بالذات هو ما جعل التسمية الآرامية أكثر انتشارا وأتاح لها أن تعيش جنبا إلى جنب مع التسمية العربية وترادفها فترة من الزمن ، حتى صارت كلمة " أعرابي " و"آرامي" اسمين لمسمى واحد في إحدى المراحل . وهذا مما حدا بالباحث " كروهمان " إلى القول : " ومن المؤكد أن العنصر العربي البدوي في شبه

(1) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي / انظر فالغ .

جزيرة العرب هو ، على الأرجح ، مصطلح مرادف لتسمية "آرام" و"عبيرو"و " خبيرو" وجد في الأصل في المنطقة التي تمتد بين سوريا وبلاد ما بين النهرين* والتي تعـد أقـدم مركز للساميين "[1].

الأوضاع السياسية في بابل إبان جولان إبراهيم :

يكاد يجمع المؤرخون على أن انتقال إبراهيم الخليل من أور الكلدانيين إلى حران كـانت في القرن العشرين أو التاسع عشر قبل الميلاد دون أن يذكر أحد منهم أي دليـل علـى ذلك . وكان كل ما لديهم من الحجج يقوم على الفرضية القائلة بأن إبراهيم كـان أول من دعا إلى عبادة إيل** كإله واحد نتيجة للحادثة الشهيرة التي روتها الكتب الدينية بينـه وبين أطراف الشرك وعلى رأسهم نمرود . إن هذا الرأي هو ما بدأه التوراتيون دونمـا سـند على أية وقائع أو براهين تؤيد ذلك . إن كل الأمور يمكن أن تشير إلى عكـس ذلك . فالقرآن الكريم ذكر كثيراً من الآباء والأنبياء العرب الموحدين قبل إبراهيم ، بـدءاً بآدم ، ومرورا بإدريس ، ولمك ، ونوح ، وصالح ، وهود وغـيرهم . ثم إن المدونـات التاريخية القديمة التي اكتشفها الاثاريون تؤيد صحة ما أوردته المصادر العربية .

"ففي بعض الألواح التي عثر عليها المنقبون في منطقة بابل ما يوضح جليا أن هناك ثلاثـة ملوك يؤلفون سلالة بابلية سامية حكموا ما يقرب من قرن كامل في المنطقة الجنوبية مـن بابل ، وهؤلاء نادوا وجاهروا بعقيدة التوحيد ، إلا أن الوثنيين أسقطوا الملـك الثـالث ونفوه من البلاد ... إن أسماء الملوك الثلاثة ، وهي أسماء عربية سامية ، مقترنة بفكـرة الإله الواحد . فاسم الأول "ايلوما ايلوم" Iluma Ilum ومعناها " إيـل هـو الإلـه الأوحد" ، أما الملك الثاني فاسمه " اتي إيلي نبي" Itti Ili Nibi ومعناها " أنت يا إيـل ربي" . وهذا الاسم مشابه تماما لأسماء ملوك جنوب الجزيرة العربية . وأهم ما في الأسماء

* من الأسماء الجغرافية الموضوعة على الأساس الخاطئ للتفسير الجغرافي للتوراة وسنتحدث عنها مفصلا فيما بعد .

(1) A. Grohman ,"The Arabs", The Enc .Of Islam New ed P.255.

** ايل (عل) هوالله أو الاله الأوحد عند العرب منذ آدم وحتى اليوم . وقد اقترن بأسماء أولاد آدم قابيل ، هابيل ، مهلائيل ، بتوئيل، مخوئيل ... وقد استخدمته التوراة في صيغة الجمع "ايلوهيم" وذلك دليل على عدم رسوخ عقيدة التوحيد عند قوم موسى . وهو نفسه "الله" في ومابعده .

الثلاثة هم اسم الملك الثالث " ياثي إيل Yathi Il ومعناها كمـا ترجمـه Daughty صديق إيل ، خل إيل = خليل"[1] . والحقيقة أن المعنى هو : أكثر يا رب ، هبني ياالله ! إننا نلاحظ كلمة " إيل" مستخدمة في المنطقة منذ القرن التاسع عشر قبل الميـلاد ، أي قبل وجود إبراهيم بأربعة قرون على الأقل .

لقد دأب المؤرخـون أن يجعلوا وجود إبراهيم في تلك الفترة بالذات ، لكن هذا يناقض كل الحقائق والوقائـع والمعطيات :

إذا كان إبراهيم قد عاش في القرن العشرين أو التاسع عشر قبل الميلاد ، وكان موسى قد عاش في القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد فإن هذا يعني أن ستة أو سبعة قرون تفصل ما بين الاثنين ، علماً أننا لـو تتبعنا سلسلة نسب موسى كما أجمعـت عليـها المصادر التوراتية نفسها وبقية مصادر الأنساب العربية لوجدنا أنه موسى بن عمران بـن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن اسـحق بن ابراهيم ، أي أن بينه وبين إبراهيم ستة آباء فقط . وإذا ما علمنا أيضاً أن من يتزوج وهو ابن عشرين عاماً ثم ينجب أولاداً ويعيش حتى الستين على سبيل المثال ، إنه وهو في الستين ، يعايش حفيده الذي يكـون عمره عشرين عاماً أيضاً أي في السن الذي تـزوج فيه أبوه وجده . إن هذا يعـني أن إبراهيم الذي عمر طويلاً كان قد عايش حفيده لاوي ، وإن هذا كان قد عايش حفيـده عمران على الأقل ، والمسافة الزمنية في ذلك لن تتجاوز 120 ــ 200 عام بين إبراهيـم وموسى .

إن هذا بالضبط هو ما ينسجم مع معطيات الأحداث التاريخية في المنطقة من جهة ، ومع ما تذكره المصادر التاريخية العربية .

فالأحداث التاريخية تشير إلى أن بابل سـقطت في أيدي قبائل الكاشيين ــ أوالكوشيين وهم أبناء كوش بن حام ــ الهمجية الذين انقضوا عليها بعد أن دمرها الزلازل وأعملـوا فيها الحرق والنهب والتقتيل ، وذلك في عام 1595 ق.م إن هذا على الأقل هو ما يرويه لنا المؤرخـون . ولما كانت تلك القبائل رعوية فهي لم تكن لتوفر عملية سلب الرعـاة

---

(1) انظر : الدكتور أحمد سوسة " مفصل العرب واليهود في التاريخ " ص519 .

قطعانهم ومواشيهم ومقتنياتهم إلى جانب تعريضهم لأقسى أنواع القتل والسبي . في هـذا الظرف بالـذات كان لابد لعشائر الآراميين الجوالة حول أور في جنوب بابل ، والـتي ارتادت المنطقة ذات المراعي القريبة من شطوط الأنهار لمواشيها ، وابتعدت عن مراكزهـا في قـلب الباديـة العربية ، من أن تعود أدراجها إلى مراكزها ، فتبتعد عن موقع الخطر المتمثل في الغـزو الكوشي المدمر ، وتبحث عن مواقع ومقايظ جديدة في الغرب صوب بلاد غامد و زهران .

إن هذا هو ما حدث فعلاً لكثير من عشائر الآراميين ، ومن جملتهم إبراهيم وجماعته .

إنها الفترة نفسها التي يصفها الاخباريون والمؤرخـون العـرب بأنها تـرافقت بحـدوث زلازل ، وحروب وانقسامات كثيرة في المنطقة ."ولما قبض الله ساروج قام بعده نـاحور بن ساروج مقتدياً بمن سـلف من آبائه . وحدث في أيامه رجف وزلازل لم تعهد فيما سلف من الأيام قبـله ، وأحدثت في أيامه ضروب من المهن والآلات وكانت في أيامـه حروب وتحزيب الأحزاب "[1] .

في تلك الفترة بالـذات حدثت نزوحـات لكثير من الأسر ، ولاسيما تلك التي تنتمـي للنمط الانتقالي في العيش من البـداوة والتنقل إلى حياة الاستقرار في المدن أو الأرياف ، وجرفت معها كثيراً من الفئات المعدومـة التي تبيع عملها ، في الرعي بصورة خاصـة ، مقابل تأمين القوت والحماية، ومع تلك الأسر هاجرت أسرة إبراهيم الذي لقب بالخليل.

وإذا كانت تلك الفترة تعتبر بداية النـزوح السرياني الآرامي من منطقة جنوب بـابل إلى شبه جزيرة العرب ، فإن هذا النـزوح كان من الضعف والشحوب إلى درجة أنـه لم يكن ليلحظ على المسرح السكانـي لشبه جزيرة العرب آنذاك . ولولا أن اسم إبراهيـم ارتبط بفكرة توحيدية دينية ، ثم قيـض له فيما بعد من يدون لـه سـيرته وأعمالـه وممارساته ، مع سير بعض أبنائه وأحفاده ، لما عرفت أو سمعت به الأجيال التالية .

إن الوجود الآرامي في شبه جزيرة العـرب ظل يأخذ طابعاً متصـاعداً حـتى القـرن الخامس قبل الميلاد . وقد تمكنت تلك الجماعات الفقيرة النازحـة الجوالة من أن تقلـق

---

(1) انظر : مروج الذهب للمسعودي ، الجزء 1 ، ص 44

العرب الآخرين المستقرين في المناطق الخصيبة من شبه الجزيرة ، كما كانت تقوم بالضغط عليها بين فترة وأخرى ، فتغير على المدن أحيانا ، وتسيطر على طرق القوافل أحيانا أخرى ، مما وجد له إنعكاسا في مراسلات حكام تلك المدن والمناطق ، بين الفترات ، واستنجادهم كل بسيده ، مرة بملك مصر، وأخرى بملك بابل أو آشور ، من أجل إنقاذهم من هجومات أولئك الاراميين الذين يهددون ويقطعون خطوط التجاوة والقوافل .

يقول الطبري في تاريخه :

" ثم ولد لعمران موسى ، وكانت أمه يوخابد وقيل كان اسمها ناهيد وامراته صفورا ابنة يثرون وهو شعيب النبي ، وولد موسى جرشون وايليعازر وخرج إلى مدين خائفا وله إحدى وأربعون سنة وكان يدعو إلى دين إبراهيم وتراءى له الله بطور سيناء وله ثمانون سنة ، وكان فرعون مصر في ايامه قابوس بن مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني ، وكانت امرأته آسيا بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول . فلما نودي موسى أعلم أن قابوس بن مصعب قد مات وقام أخوه الوليد بن مصعب مكانه وكان أعتى من قابوس وأكفر وأفجر"[1] .

إن هذا يؤكد صحة وجهة نظرنا في أن نزوح أسرة إبراهيم الخليل كانت في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وليست قبل ذلك بأية حال ، وإلا لما تمكن حفيده يوسف بن يعقوب من أن يعاصر أحد الفراعنة وهو قابوس الذي استبدل الفرعون الذي قبله في أواخر أيام يوسف والذي عاصره موسى ايضا ، وقد كاد يجمع المؤرخون على أن خروج بني اسرائيل مع موسى من مصر العشيرة كان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

---

(1) تاريخ الطبري الجزء 1 ، ص271 .

الآراميون والعبرانيون

لقد رأينا كيف أن من التقاليد العربية التاريخية أن ينتسب هذا الفرع السكاني أو ذاك إلى أحد الآباء المتفوقين مما كان له انعكاس في الحياة الاجتماعية اليومية ، ولاسيما القبلية ، بين جماعات البدو الرحل ، وليس في الحياة السياسية العامة على صعيد الدولة ككل .

وإذا ما عدنا وألقينا نظرة على التوزع السكاني ما بين بابل وغرب شبه الجزيرة العربية فإننا لن نجد كبير عناء لنميز مركزين زراعيين مدنيين كبيرين ، تطبعهما حياة الاستقرار الزراعي والتجاري والصناعي والعمراني من الجانبين ، ولو كان ثمة فارق بين المستويين . إذ إن منطقة بابل تبقى مركز الدولة العربية السورية كلها حيث تتكثف كل منجزات السكان وإبداعاتهم الحضارية . ثم إن ثمة طبقة أخرى من النمط المعيشي للسكان تحيط بكل من هذين المركزين إلى مسافة معينة ، تمثل في حد ذاتها ، على الأغلب ، المرحلة الانتقالية من حياة الرعي المتنقل إلى حياة الاستقرار المديني والزراعي . ثم إن هاتين الفئتين الانتقاليتين تلتقيان بالنمط المعيشي البدوي المتحرك على الدوام ، وهذا النمط يكاد يملأ جوف شبه جزيرة العرب . لكنه ، وكما سبق أن أشرنا آنفاً ، ليس ثمة مناطق أنماط معيشية خالصة لنمط دون آخر ، إذ المقصود دائماً في مثل هذه الحال هو الطابع الغالب على معيشة هذه الشريحة من السكان أو تلك . إن من المعلوم أن البدو قد يتغلغلون إلى أعماق القرى والمدن ، وإن لهم من المصالح التبادلية والتجارية ، بوجه الخصوص ،ما يجعلهم يتواجدون في كل المناطق الزراعية والمدينية تقريباً ، دون أن يؤثر ذلك على حقيقة الطابع العام لنمط المعيشة في هذه البقعة الجغرافية أو تلك .

وقد رأينا كيف أن الفرع العربي الآرامي كان ، مثل غيره من الفروع ، يتوزع بين هذه الأنماط جميعاً ، من حياة المدينة في بابل ومناطقها ، إلى حياة المرحلة الانتقالية المحيطة بها من صوب البراري والبادية ، إلى حياة التنقل والرعي بين السهوب والمراعي المتاخمة للبادية . والآراميون يرجعون نسباً إلى آرام بن سام بن نوح ، ولهجتهم الأصلية هي التي كانت سائدة في مناطق وجودهم الأولى ، أي السريانية ، ثم اختلفت لهجتهم مع المناطق التي حلّوا بها ،ما بين السريانية الشرقية ، والعرباء النقية ، وغيرها .

ولما كان الآراميون الذين نزحوا من جنوب العراق ، في معظمهم ، ممن ينتمون إلى نمط الرعي ونمط المرحلة الانتقالية كما يقول منطق علم السكان الاجتماعي ، فإن أولئك النازحين سوف لن يجدوا بقعة يمكن أن تستقبلهم مع مواشيهم غير مراعي السهوب الداخلية المنتشرة على حدود الصحراء ، وعند ضفاف الوديان الواسعة . وإن في إمكاننا أن نتصور عملية التكاثف السكاني في تلك المراعي عبر الزمن ، مما يجعل الأخ ينفصل بمواشيه عن أخيه ، ويضرب بوجهه في اتجاه آخر عبر الفيافي والسهوب الواسعة ، كما حدث مع أبناء عاد وثمود وطسم وجاثم وغيرهم ، وسبق الإشارة إليه ، وكما حدث مع إبراهيم وابن أخيه لوط أيضا فيما بعد :

" ولوط السائر مع إبرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام . ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا . إذ كانت أملاكهما كثيرة . فلم يقدرا أن يسكنا معا فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي إبرام ورعاة مواشي لوط ، وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض ، فقال أبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك لأننا نحن أخوان . أليست كل الأرض أمامك اعتزل عني . إن ذهبت شمالا فأنا يمينا ، وإن يمينا فأنا شمالا . فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن* أن جميعها سقي قبلما ضرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب كأرض مصر حينما تجيء إلى صوعر . فاختار لوط لنفسه دائرة الأردن وارتحل لوط شرقا فاعتزل الواحد عن الآخر.أبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم "[1].

إن هذا يعكس لنا مدى ضيق المساحات الرعوية في المناطق المستقرة زراعيا بحيث لا تتسع لأخوين ، أو لأسرتين مع مواشيهما، فكيف تتسع لقبيلة من البدو الرعاة ؟ ولهذا

• ان هذه الأسماء الجغرافية هي في منطقة غامد وزهران من شبه جزيرة العرب كما سوف نبين لاحقا ودائرة الأردن تعني مجموعة الجرود والسفوح الشرقية والمخاضات في بلاد غامد (يردن بالآرامية جمع يرد وهي الجرد . ويلاحظ الابدال بين الجيم والياء حتى اليوم ، ففي منطقة الخليج يلفظون حتى اليوم كلمة "ريل"بدلا من "رجل" وقد أخذت اللغات الأخرى عن العربية هذا الابدال ، ولاسيما اللاتينية إذ نجد الابدال بين "جاكوب" و"ياكوب" (يعقوب) و"جاسمين" وياسمين ويوردان وجوردان (الأردن)وغيرها. كما أنها تعني المخاضات ، وهي في هذه الحال جمع يردا وتعني المخاضة ،، الجدول .

(1) تكوين 13 : 5 ــ13 .

فقد كان أولئك السكان الزراعيون يرقبون بعين التوجس والحيطة تحركات البدو الجماعية الكبيرة ، ويتعاونون في دفعها إلى الوراء كلما عنّ لها أن تزحف باتجاه الأراضي المزروعة (وهذا بالضبط هو ما حدث فيما بعد ـ كما سنرى لاحقاً ـ مع جماعة موسى) ومن هنا أيضاً فقد أخذ مجرى نهر الثرات (الفرات) المتحد بوادي رنية يشكل حاجزاً فاصلاً بين الشرق والغرب ، بين بوادي نجد وسهوبها الممتدة إلى الربع الخالي شرقي النهر وبين طلائع الأراضي الزراعية على وادي الفرات الأعلى وصولاً إلى مصر وكنعان غرباً في بلاد غامد وزهران ووادي الليث . ومن هنا أيضاً تبرز أهمية عبور هذا المجرى المائي (الثرات) من قبل عشائر البدو . لقد بقي يؤلف حداً فاصلاً بين البراري في الشرق والأراضي الزراعية على سفوحها الغربية وما يليها في الغرب .

والجدير بالذكر أن تاريخ الوطن العربي ، أو جغرافيته ، لم يدلنا على أية مجموعة سكانية كان لها دور تاريخي ودعي باسم "العبرانيين" كما أن تاريخ اللغة العربية ، وكل المكتشفات من المدونات الآثارية لم تشر من قريب أو بعيد إلى وجود جماعة سكانية ذات لهجة لغوية معينة أطلق عليها اسم "العبرانية".

فمن هم أولئك العبرانيون إذن ؟

إذا ما نظرنا إلى شجرة الأصول والفروع في النسب الذي أوردته لنا مدونات التوراة ، وأخذه عنها الدارسون الغربيون والعرب ، فإننا نجد أن "عابر" هو أحد أحفاد أرفحشاد بن سام بن نوح . فهو عابر بن شالح بن أرفحشد بن سام بن نوح ، ثم إن خط النسب يستمر من بعده إلى فالج ،ارغو،سروج، ناحور ثم تارح ، وأبرام . فـ"عابر" هذا ، وحسب التقاليد العربية ، لم يعرف عنه أنه كان متميزاً في شيء حتى يشتهر كأحد الآباء العرب الكبار المقدسين فيجري الانتساب إليه ،كما أن أحداً من أحفاده على خط السلسلة التي أوردته التوراة حتى إبراهيم لم يتميز بشيء أيضاً . فالذي اشتهر وتقدس من هذا الخط ، أي من عابر إلى إبراهيم ، هو إبراهيم وحده ، فكيف يشتهر إبراهيم إذن بجده السادس عابر ولم يشتهر به غيره؟ ثم إن شجرة النسب التي أوردتها المصادر الكلاسيكية العربية ترينا أن "عابر" هو أبو قحطان الذي اتفق عليه جمهور العلماء

بأنه أصل عرب اليمن الذين غلبوا في ذكرهم كل من سبقهم من العرب ،وإليه انتسب القحطانيون ، كما انتسب إلى إسماعيل بن إبراهيم فيما بعد العدنانيون ،وهما الدعامتان الأساسيتان ، والجدان الأعظمان اللذان تلتقي عندهما معظم القبائل العربية هناك فيما بعد. إن قحطان بن عابر ، إذن، كان أعظم من أبيه ، وأكثر شهرة ، وقد عرف الأب بابنه و لم يعرف الابن بالأب ، فكيف تكون تسمية إبراهيم ، وهو الحفيد السادس لعابر ، بالعبراني ،نسبة إلى جده السادس عابر فجأة ،ودون أن نسمع بأن هذه التسمية لحقت أحدا من آبائه قبله ؟ إن أيا من المصادر لم يشر إلى أن أيا من فالج ، وارقو ، وسروج ، و ناحور ، و تارح قد ألصقت به هذه التسمية "عبراني" . ولو صح ذلك للحقت هذه التسمية بقحطان وبنيه ، ولكان ــ على هذا الأساس ــ جميع العرب العاربة اليوم ، من قحطانيين وعدنانيين ، عبرانيين . ولو كان في "عابر" هذا ما يلفت أنظار أولئك العرب المتشبثين بمناقبية الأجداد لبرز ، دونما ريب،مثل غيره من الآباء، بل وأكثر من غيره ، نظرا لبروز أحد أبنائه المباشرين على الأقل ، وهو قحطان ، في ميدان الأنساب العربي . إن بروز قحطان بن عابر في النسب بين الآباء المتميزين يلغي تميز أبيه عابر دون ريب .

فإبراهيم ، نتيجة لذلك ، لم يدع عابريا (أوعبريا أو عبرانيا) نسبة إلى جده عابر ، ولو صح غير هذا لكان دعي جميع العرب القحطانيين والعدنانيين بـ"العبرانيين" ، ولما بقيت هذه التسمية ملصقة بإبراهيم دون سواه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن "عابر" هذا هو أحد أحفاد ارفحشاد بن سام بن نوح ، وليس أحد أحفاد أرام بن سام بن نوح ، إنه عابر بن شالح بن ارفحشد بن سام ، وبالتالي فهو ليس آراميا ، فكيف يكون حفيده ، الذي هو إبراهيم ، آراميا ؟

لقد وقع مدونو التوراة في تناقض صارخ حينما وضعوا إبراهيم في شجرة النسب واحدا من أحفاد عابر بن شالح بن أرفخشد ، ثم اعتبروه آراميا، " آراميا تائها كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل"[1] . فهو إذن عبراني أو (عابري) وآرامي معا .

(1) تثنية 26 :5 .

لكن عابر بن شالح بن ارفحشد ليس آرامياً ، فهل ثمة "عابر" آخر آرامي ينتسب إليه إبراهيم ؟

يقول الطبري في تاريخه : " ويقال إن عمليق أول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم العرب العاربة . وثمود وجديس ابنا عابر بن ارم بن سام بن نوح ، وعاد وعبيل ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح"[1] ويتضح من قول الطبري ان من بين أولاد آرام عابر وعوص ، فعابر ولد ثمود وجديس ، وعوص ولد عاد (وهي عاد الأولى) وعبيل . إن هذا الـ "عابر" آرامي ، وقد ظعن مع اخوته وبنيه من منطقة بابل ، كما تؤكد المصادر العربية الكلاسيكية . وإن التوراة تؤكد ان إبراهيم ظعن من أور البابلية الآرامية ، وقد دعيت بـ أور الكلدانيين . والكلدانيون هم سريانيون لهجة ونسباً ، إذ ينتسبون إلى سوريان بن نبيط بن ماش بن آرام . ومدونات التوراة تؤكد على الصلة العبرانية الآرامية القديمة ، وجعلت اسرة إبراهيم تأتي من مركز الآراميين في أور إلى مركز الآراميين في شبه جزيرة العرب ، " ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين ، واتخذ ابرام و ناحور لأنفسهما امرأتين . اسم امرأة ابرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكه وأبي شبكة"[2] .وان مدونات التوراة أصرت على جعل النساء العربيات الآراميات أمهات لأبناء إبراهيم .

وهكذا فإن أسلاف أبناء يعقوب هم آراميون من جهة الأم ، أيضاً ، " وكان أسلاف الشعب العبراني* يتكلمون الآرامية قبل استقرارهم في فلسطين واقتباسهم اللهجة الكنعانية المحلية "[3] .

وتدل المدونات والمكتشفات الآثارية على أن العرب انتشروا من اليمامة عبر البادية إلى وادي الثرات ، وإلى البرية في شرقي بلاد زهران . فطسم وجديس أبناء عابر بن آرام نزلوا اليمامة أولاً ، ثم اقتتلوا ، وانتقل جديس (تلفظ بالجيم المصرية) إلى البرية الممتدة

---

(1) تاريخ الطبراني ، الجزء 1 .

(2) تكوين 11 ، 28 ـ38 .

*** نحن هنا لسنا في صدد مناقشات الكلمات أو المصطلحات الواردة في هذا القول سواء ما تعلق منها بـ "الشعب العبراني" أوبـ"فلسطين" وسوف يأتي ذلك لاحقاً .**

(3) فيليب حتي ،"تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ،ص 177 .

في شـــرقي بلاد زهران ، حيث ما تزال أطلال "قديس" التي سميت ،لاشـــك ، باســـم "جديس"** .

وما يزيـــد من قناعتنا في الموضوع أن أطلال بلدة عبلة واكتينا ما تـــزالان في المنطقـــة نفسها على وادي رنيه . فعبلة هي البلدة الآرامية المسماة على اسم "عبل" (أو عبيـــل) بن عوص بن آرام ، واكتينا هي ما دعيت بـــ "قطنة" وفسّرت خطأً على أنها "المشـــرفة" اليوم في منطقة حمص السورية .

وأما عوص فكان أيضاً اســـماً لأحد الأرباب* في شبه الجزيـــرة العربية قبـــل الإسلام ، وعرفت به أيضاً مدينة آرامية في نواحي الفرات** ، ويرد أيضاً في التوراة اسم علم لأحد أحفاد "سعير الحوّري" ..." ... هذا ابنا ديشان عوص وآران .."[1] .

ثم إن يعقوب ـــ كما تؤكـــد التـــوراة ـــ حينما هرب من أخيه عيسو لجأ إلى أخوالـــه العرب الآراميين في منطقة حران في الصحراء العربيـــة : ".. وهب يعقوب إلى صحراء آرام .."[2] .

إن ذلك كله يجعل من إبراهيم وبنيه عرباً آراميين ، لكن التســـمية الأخرى "عابري" أو "عبري" أو "عبراني" التي هي ـــ كما جرى التأكيد حتى اليوم ـــ نسبة إلى جده عـــابر ، تبقى ضعيفة ومتناقضة ، وليس ثمة ما يؤكدها .

** ان "قديس" أو "جديس كات تكتب "جدس" قبل ادخال الأحرف الصوتية في الكتابة ، وإن الجيم والقاف كانا ، وما يزالان ، في تلك المنطقة يلفظان كالجيم المصرية ، وقد جرى الابـــدال بيـــن السين والشين بصورة شاملة بين اللهجات العربية القديمة والحديثة وبناء على ذلك فإننا نرجح أن تكون "جديس" هذه هي البلدة التي دارات عندها المعركة بين فرعون مصر وسكان المنطقـــة من الحثيين الكنعانيين ، وسميت باسمها "معركة قادش" وليس أي قادش أخـــرى علـــى نـــهر العاصي كما يخمن الباحثون لأنه لا وجود لهذا الاسم في سوريا المتوسطية كلها .

* كنا قد أوضحنا أن المؤرخين درجوا على أن يستخدموا كلمة "الآلهة" بدلاً من الآباء القديسين وقد شرح ذلك بكثير من الوضوح المؤرخ العربي السوري سالخونيانن ومررنا على (أقواله) .

** "الفرات " هو نهر "الثرات" الذي ينحدر من جبال زهران ويتحد مع وادي رنية ليصبا معاً في وادي الدواسر . والابدال شائع في العربية بين الفاء والثاء إلى اليوم .

(1) انظر: تكوين 26 :28 والدكتورتوفيق سليمان ، نقد النظرية السامية،الجزء 1،ص168

(2) يوشع 12 :012

ففيما يتعلق بالجد "عابر" بن شالح بن ارفحشد كنا قد ألغينا النسبة إليه ، لضعفه بين الآباء ، أولا ، ولكونه غير متصل بالنسب إلى آرام ، ثانيا ، علما أن كل المعطيات تؤكد " آرامية " إبراهيم وبنيه سواء من حيث الآباء أو الأمهات . فينتقض بذلك خط شجرة النسب الذي وضعه مدونو التوراة ، وينتفي معه انتساب إبراهيم إلى عابر حفيد ارفحشد . خاصة وأن أحدا قبل إبراهيم لم ينتسب إليه أو يشتهر به .

أما عابر بن آرام فليس لديه نقاط أشد سطوعا من عابر الآخر ، وقد بقي أحد الآباء النكرات الذين لم يتميزوا بشيء ، وقد طغى عليه أبوه آرام وأخذ لنفسه النسبة كلها حتى الأحفاد والفروع المتناهية في البعد،كما طغى قحطان على عابر الآخر ، فكيف يبرز فجأة انتماء إبراهيم وحده من بين كل أبناء آرام ، إلى عابر بن آرام ، علما أن "الآرامية" طغت عليه وعلى بنيه من بعده و لم تترك مجالا لأي انتماء آخر في خط النسب لغير آرام الذي اكتسح الساحة كلها وحده !

من أين أتت هذه التسمية"عابري"• أو "عبراني"إذن ؟ هل هي لقب لإبراهيم العربي الآرامي دون غيره ، وبدأت عنده ؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عنه .

<< العبرانية >> ظاهرة اجتماعية آرامية في فترة محددة وليست نسبا :

قبل أن نبدأ في تحديد المقصود من التسمية ، نرى أن من المفيد أن نستعرض نماذج من تفسيرات الباحثين والمؤرخين لهذه التسمية لنضع القارئ في صورة المتناقضات العجيبة التي يمكن أن تخضع لها تحت أقلامهم مثل هذه الظاهرة الصغيرة .

يقول المستشرق "توربر توردارسون"، أستاذ اللاهوت في جامعة ايسلندا :" إن إبراهام كان شبه بدوي ، ينتمي إلى القبائل القديمة المسماة بـ"العبيرو"ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلي نفسه"[1]

فـ"العبيرو" هنا هي عرق قبلي !

• مرة أخرى نلفت النظر إلى أن أصل كل هذه التسميات هو "عبر"في اللهجات القديمة قبل ادخال الصوتيات في الكتابة ، وبالتالي كان بالإمكان أن تقرأ في أشكال مختلفة كثيرة .

(1) دائرة المعارف البريطانية ،1925 ،ص45 .

ويقول جورج بوست في مصنفه "قاموس الكتاب المقدس" إن لقب أبرام العبراني لم يقصد به الاسرائيلي ، وإنما يمكن تفسيره بأبرام النازح أو المهاجر"* .

فـ "العبراني" هنا صفة لحالة مؤقتة أو طارئة ، وليست عرقاً ، أو جنساً ، أو انتماء .

"وتدل التحريات على أن الخابيرو Habiro تمكنوا من احتلال مدينة أريحا قبل عصر موسى بحوالي قرنين من الزمن "[1] .

فـ "الخابيرو "هنا هم جماعة من الناس لا يعرف لهم جنس أو انتماء ، وقد احتلوا بلدة أريحا وحدها مما يجعل صفة التمرد أو الانتفاضة تغلب على حركتهم ، أي أنها حركة في المكان الواحد ، إذ إنه لم يذكر أنهم وفدوا من أي مكان آخر .

ويعلق فرويد على مسألة "العبيرو" بقوله :"ونحن نعرف أخبار هؤلاء المحاربين من الرسائل المكتشفة عام 1886 في سجلات مدينة العمارنة المتهدمة ، فهي تسميهم باسم "عابيرو" وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد ، ولسنا ندري كيف ، على الغزاة الجدد اليهود ، "العبرانيين" الذين ما كان في مستطاع رسائل العمارنة أن تذكرهم ، لأنهم جاؤوا في زمن لاحق "[2]

فـ"العابيرو"عند فرويد إذن ، جماعة من المحاربين دون تحديد جنس لهم ، وفي رسائل تل العمارنة هم أقدم من العبرانيين الذين ألصقوا بإبراهيم علماً أن الكلمة الواردة في تلك الرسائل هي "خبيرو"وليست "عبيرو" .

و"كانت هذه الكلمة (عبر أو عبراني) تطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد ، وفيما قبل ذلك ، على طائفة كبيرة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب وفي بادية الشام ، وكانت لغة هؤلاء العبريين آنذاك لغة أهل فلسطين الكنعانية ، ولغة كثير من القبائل في

• من المفيد أن نشير إلى أن هذا التفسير قد حذف من الطبعة الجديدة لقاموس الكتاب المقدس لعام 1971 ، بل حذفت منه جميع الدراسات العلمية التي قام بها العلامة جورج بوست ووضع مكانها خلافاً لما جاء في المقدمة ما يؤكد ربط اليهود بعصر إبراهيم انسجاماً مع ما تبذله الحركة الصهيونية لجعل ابراهيم أباً لكل اليهود . ويلاحظ أن هذا القاموس بطبعته الجديدة يدعم النظرية الصهيونية الحديثة التي تعتبر جميع الأسماء الواردة في التوراة من أسماء الأشخاص وأماكن أسماء عبرية أي يهودية .

(1) T.H.Gartes , Enc .Brit.1965,Vol 4 P.727 .

(2) فرويد ،"موسى والتوحيد" ، الترجمة العربية ،ص47 .

طور سيناء ، وفي شرقي الأردن ، ومنهم العمالقة والمديانيون وغيرهم من الأقوام العربية في المنطقة ، حتى صارت كلمة "عبري" مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بوجه عام"[1]

فالعبرانيون هنا مجموعة قبائل عربية بدوية .

"ثم أصبحت كلمة "عبري"تشمل جميع الآراميين ، وكلهم عرب نزحوا من موطنهم الأصلي في شبه جزيرة العرب قبل أن يكون لليهود وجود "[2]

فيكون العبريون هم العرب الآراميون .

وهذه هي الأحكام التي تضع أمامهم ، إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم ، وفي السابعة يخرج حرا مجانا . إن دخل وحده فوحده يخرج "[3]

هذا ما تقوله وصايا التوراة وأحكامها ، ثم لم يتطرق إلى الأحكام في شراء عبد آخر من غير العبرانيين ،وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن "العبرانيين" كانوا جماعة من الفقراء المهيئين للاسترقاق أكثر من غيرهم ، وهم من غير بني إسرائيل ، لأن بني إسرائيل "عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد ... وأما اخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف .. وإذا بيع أخوك للغريب المستوطن عندك أو لنسل عشيرة الغريب فبعد بيعه يكون له فكاك يفكه واحد من اخوته "[4]

فالعبرانيون ــ كما هو واضح ــ لا علاقة لهم ببني إسرائيل .

ويوضح "درايفر" أستاذ اللغة العبرية في اكسفورد ، في مقالة له في دائرة المعارف البريطانية ، حول أصل كلمة "عبري" كيف أن التوراة ، حينما تحدثت عن لغة جماعة موسى ، لم تقل "لغة العبرانيين " بل دعتها بـ "شفة كنعان" أي لسان كنعان ، ثم "يهوديت"بعد أن اقتبسوها وأخذوا يتكلمون بها ، ثم " لسون حقوديس" أي اللسان المقدس في وقت لاحق ، إذ وجد هؤلاء الحاخامون اليهود أن أفضل طريقة يمكن اتباعها

---

(1) الدكتور أحمد سوسة "مفصل العرب واليهود في التاريخ " ص494 ــ 495 .
(2) ولفنسون ،تاريخ اليهود في بلاد العرب " ص ز .
(3) خروج 21 : 1 ، 2 .
(4) لاريون 25 : 42 ، 47 ــ 48 .

لربط تاريخهم بأقدم العصور ، واعتبار عصر اليهود متصلا بأقدم الأزمنة هو استعمال مصطلح "عبري" أو "عبيرو" للدلالة على اليهود بوجه عام .

وبذلك يكون تاريخ فلسطين ، تاريخا واحدا متصلا ومرتبطا منذ أقدم العصور بالشعب اليهودي[1] .

"وكان الكنعانيون يشكلون معظم السكان عندما أتى الرواد* أسلاف الشعب العبراني من بلاد الرافدين . وكان الأموريون يسكنون المرتفعات التي لم يحتلها جماعة مستقرون بصورة كثيفة .. وكانت توجد أقوام أقل شأنا في أماكن متفرقة وبعيدة . وتزاوج السكان الجدد مع جميع هؤلاء ، وكانت النتيجة هي الشعب** العبراني الذي اتصف بأصول عرقية متنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحثية ، وغير ذلك من العناصر*** غير السامية[2] .

لقد عثر في تل العمارنة ضمن الرسائل المكتشفة على ست رسائل من أحد رؤساء القبائل العربية الكنعانية يقول فيها :" لم يبق في أرض مولاي الملك شيء ... نهب "الخبيرو" كل البلاد من سيدي الملك .. البلاد وقعت في أيدي "العبيرو" .

ويعقب بارتون على ذلك بقوله : " من الواضح هنا أنه لا يمكن أن يكون "العبيرو" الذين ورد ذكرهم في هذه الرسائل هم اليهود"[3] وهذا قطعا صحيح ، إذ إن فترة تلك

---

(1) "G.R.Driver , Hebrew Language" Enc.Br, 1965,Vol 11.P.279 .

* يلاحظ هنا استخدام تعابير الحركة الصهيونية التي هي بنت النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي وسحبها إلى عصر ابراهيم الخليل وكأن انتقال العربي الآرامي من بقعة إلى أخرى مع مواشيه طلبا للانتجاع والرعي ضمن الأرض العربية الواحدة مثله مثل تهجير الصهيونية لليهود من شتى بقاع العالم إلى فلسطين من أجل تحقيق غاياتها الاستعمارية الاستيطانية ، فأخذت تطلق على أوائل المهجرين الاستيطانيين اسم "الرواد الأوائل" .

** يلاحظ أن الدقة في استخدام المصطلحات تصبح لا أهمية لها حينما يتعلق الأمر بمصلحة اليهود أو الصهاينة ، لقد أصبحت أسرة ابراهيم بعد أن تزوج أبناؤه بحويات وكنعانيات (اسماعيل وعيسو) "شعبا" فحرقوا بذلك كل المراحل من العشيرة ، إلى القبيلة ، إلى اتحاد القبائل ، إلى توفر اللغة الخاصة والأرض الخاصة بهم ، وصولا إلى الشعب !

*** في الحقيقة ان اعتماد المؤلف على أقوال غيره دون البحث فيها وفي مصادرها ، وغياب الحقائق الجغرافية الصحيحة عنه جعله يردد ما يقوله غيره من المؤرخين المغرضين بمثل هذه السذاجة ، علما أن التوراة نفسها تؤكد أن الحوريين عموريون ، وان الحثيين من أولاد كنعان .

(2) فيليب حتي " تاريخ سوريا ، ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ص 190 ــ 391 .

(3) G.H.Barton,"Archaeology and the Bible" Phil, Pp.403-406

الرسائل ــ كما هو معروف ــ تعود إلى مرحلة حكم أخناتـــون ، أي في القرن الرابـع عشر قبل الميلاد . وكنا قد ذكرنا أن الكلمة التي وردت في نصـــوص تل العمارنة هـــي "الخبيرو" وليست "العبيرو"

<< العبيرو>> و <<الخبيرو >>

ويذكر فيليب حتي الناقل كعادته أن اسم "الخابيرو" أطلق لأول مرة على المحـــاربين في عهد نارام سين في نحو 2170ق.م .. وكما يبدو فإنه ليس اسما عرقيا ، وإنمـــا تســـمية أطلقت على جماعات من الرحل والأجانب والأشقياء المستعدين للانضمام إلى صفـــوف أي جيش لقاء أجرة ، أو بدافع الحصول على الغنائم[1] "

فالخابيرو ،هنا، هم المعدمون الذين يؤجرون عملهم .

ويقول أيضا : "ويظهر الخابيرو لأول مرة في الحوليات الحثية في عهد مرشـــالش* الأول (حوالي 1600ق.م) الذي استأجرهم ، وفي رسائل تل العمارنة نرى الخابيرو يتعـــاونون مع المتمردين ضد الفراعنة ، وفي 1367ق.م يستولون على شكيم .. وفي جميـــع هـــذه الوثائق يبدو الخابيرو كجماعة متعددة العناصر ، وبدون أوصاف مشتركة ، ومعبأة ، بلا شك ، في بلاد الرافدين ... "

ويذكر أيضا :" ... وبينما كان الجيش الحثي في فترة العمارنة يقوم بأعماله الحربيـــة في الشمال كان جماعة من المرتزقة الأجانب الذين يسمون في الكتابات المسمارية الخابـــيرو Khabiro يجتاحون البلاد من الجهة الجنوبية وقد اعتبر بعض العلمـــاء هـــذه الكلمـــة الأكادية معادلة للكلمة العبرية "عبري" و"عبراني" التي تترجم عادة بـــالذي يـــأتي مـــن الجانب الآخر أو بمعنى "العابر"[2] .

---

(1) فيليب حتي ،"تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء ا ، ص 173 .

*** ليس مرشالش ملكا حثيا في شمال سوريا (تركيا اليوم) كما يصوره المؤرخون ، وإنمـــا هـــو أمير حثي من العرب الكنعانيين في جنوب بلاد زهران ، واسمه يعني أمير (أو سيد بلده شـــالش الواقعة هناك) .**

(2) المصدر السابق نفسه .

فإذا ما علمنا أن شكيم هي في أرض كنعان ، وهي نسبة إلى شكيم بن حمور كما ورد ذكرها مرارا في مدونات التوراة ، علمنا أن بلاد الرافدين هي — مرة أخرى — الترجمة الخاطئة لكلمة (نهرن) التوراتية التي تعني النهرين (أو الأنهار) والتي دعتها الترجمة السبعونية للتوراة إلى اليونانية ، ميزوباتاميا **Mesopatamia** ، ثم ترجمت إلى العربية بـ"ما بين النهرين" أو "بلاد الرافدين" ،فأضيف خطأ على خطأ ، وهي ليست إلا منطقة الأنهار (الثرات ورنيه وروافدها) شرقي بلاد غامد و زهران كما سبقت الإشارة . وبهذا يكون تحرك أولئك "الخابيرو" في المنطقة الجنوبية من بلاد الكنعانيين في بلاد غامد ، حيث قرية شكيم ولا يفصلها عن "النهرين" غير المخاضات (يردن) وشكيم هو شكيم بن حمور الذي اعتدى على دينة بنت يعقوب .

ويأتي ذكر "الخابيرو" في وثائق نوزي في القرن الخامس عشر قبل الميلاد بأنهم "عبيد أصبحوا كذلك باختيارهم"(1)

وفي ذلك تظهر حقيقة أولئك الناس الطبقية : إنهم المعدمون الذين يبيعون عملهم مقابل قوتهم ، وبكلمة أخرى معاصرة : إنهم "بروليتاريو" ذلك الزمن . وهكذا فإننا نرى كيف أخذت هذه التسمية تنحو منحى مستقلا عن التسمية الأخرى "العبيرو" ،وتصبح ذات طابع طبقي أكثر وضوحا من ذي قبل ، ومما هو عليه مع "العبيرو".

<<العبيرو >> و << الخبيرو >> و<< الأخلامو >>

ثم مالبث أن أخذت تظهر على الساحة تسمية أخرى لتقترن بالوجود العربي الآرامي في المنطقة ذاتها هي "الأخلامو"*ولتستخدم من قبل الدارسين في شكل فوضوي دونما أن تبذل أية محاولة حقيقية لفهم هذه الظاهرة ضمن نطاق التطور السياسي والاجتماعي — الاقتصادي في المنطقة في تلك المرحلة .

---

(1) المصدر السابق .

*** "الاخلامو" تعني بكل اللهجات العربية القديمة "الرفاق ، الأصدقاء، الأصحاب" ، وقد حافظت حتى اليوم على معناها ، إذ نجد في "محيط المحيط" مثلا ، إن الخلم هو الصديق والصاحب ، جمع أخلام . وخالمه مخالمة صادقه . واختلمه وخلمه اختاره ،والمخالم الصديق والصاحب .**

"وكان الآراميــون مكونين من جملة عشــائر وقبائل ، فيهم فرع ورد اســمه بصيغة " أخلامو" ، وهي تسمية شاملة وردت في الكتابات القديــمة لجماعة مـــن القبــائل البدوية في شمال الجزيرة العربية وقد أصبح "الأخلامو " في العهد الأخير مرتبطين كليـــا بالآراميين في صدد الغزو الآشوري . ونظرا لشهرة هذه القبائل صار اسمها كثيرا ما يطلق على جميع الآراميين . وقد ورد ذكر جماعات أخرى مع" الأخلامو" سميت بــ" الخبيرو" أو " الهبيرو" أو " العبيرو " ، وهي كلمة كانت تطلق على القبائل العربية الرحل الـــتي كانت تجوب الجزء الشمالي من الجزيرة العربية أيضا . وقد انضمت إلى القبائل الآرامية ، وصارت هذه الكلمة ، بعد أن صحفت إلى "عبري" و"عبراني" تطلق على أتباع موســى بعد ظهورهم ، باعتبارهم من القبائـــل الرحل ، لأنهم لم يكونوا قد وجدوا بعد ، عندما كانت هذه الكلمة تستعمل لتعني البــدو الرحل ، أو المهاجرين ، أو العابرين"[1]

يتضح من خلال هذا القول كيف أن بعض السمات المشتركة بين "الخابيرو" و"العبـيرو" و"الأخلامو" جعلت الباحثين والمؤرخين لا يعرفون كيف يميزون فيما بينهم ، فهم جميعا من العرب الآراميين ، البدو أو الفقراء بوجه عام ، ويتحركــون في منطقة واحدة مـــن شبه جزيرة العرب .

استفتاء اللغة حول هذه التسميات

إن كل ما فيه هو أن لفظة "عابري" أو"عبري" أو عبراني" أو"عبيرو" أو غيرها إنما كانت تكتب جميعها في صيغتها الثلاثية الصامتة "عبر"، إذ من المعروف أن الصوتيات لم تكـــن قد أدخلت في الكتابة بعد، ومن هنا فقد نجم مثل هذا التعدد في قراءات هـــذا الشـــكل المكتوب"عبر"،ولاسيما عند نقله إلى لغات أجنبية.أما معناه فواضح، وقد أجمع الدارسون على أن المقصود بتلك التسميات إنما كان معنى واحدا وهو "العابر" ، أي القـــادم مـــن الجانب الآخر . ولما كانت بلاد المصريين (مصريم) وكنعان في جنوب بلاد غامدوزهران من أخصب مناطق شـــبه جزيـــرة العرب وأكثرها ســـكنا وعمرانا، ولا يفصلها عـــن

---

(1) الدكتور أحمد سوسة ، " مفصل العرب واليهود في التاريخ" ص 160 ـــ161 .

"بريـــة العرب" التي هي سهوب البادية الممتدة حتى جنوب أور في أعلى الخليج ، غـــير ســـلسلة جبال عسير أو السراة الممتد على تخومها الشرقية من الشمال إلى الجنوب ، مما يجعلها بمثابة سور أو سياج تتخلله فتحات أو معابر معروفة في مواضع معينة أهمه عنـــد مدينـــة بني سار الحالية قرب اركو (أريحا) القديمة، فقد كان أي عبور جمـــاعي مـــن الشرق البدوي إلى الغرب الزراعي والعمراني عبر تلك الجرود أو المخاضات "يردن" يعني لأولئك الســـكان شـــيئا واحدا هو الغزو .وكان ذلك يحفز سكان تلك القرى والمـــدن والأرياف ورؤساءها فيتنادون إلى توحيد جهودهم ودفع موجات البدو شرقا إلى خـارج السور الجبلي ، وبعيدا إلى عمق البرية . وهذا بالضبط هو ما حدث مع جماعة موسى .
أما أن يكون العابرون في شكل أسرة ، أو مجموعة أسر ، فقد كان ينظر إليهم كأضياف أو لاجئين ضعفاء يستحقون الحماية والرعاية ، وهذا بالضبط هو ما حصل مع إبراهيـــم وأسرته .

من هنا كانت هذه الظاهـــرة " العبور" ذات أهمية بالغة بالنسبة إلى أولئك الســـكان الزراعيين . ومن هذه الأهمية بالـــذات صارت جزءا من الحياة اليومية اللغوية ، حـــتى صارت إحدى المفردات الشـــائعة عند الكبار والصغار ، بحيث يمكن لأي إنســـان أن يعرف كل قادم من الشرق عبر تلك الجرود بـــ "العابر"مثلما تقال اليوم في منطقة الجبال الساحلية السورية كلمة "شـــريقاوي" أو عرياوي على كل قادم من منطقة الســـهول الشرقية إلى تلك الجبال .

ولما كانت تسمية "العابر" لا تدل على أية مواصفات أخـــرى غير القدوم من الجـــانب الآخر ، فقد ظلت لفظة عمومية بعيدة عن تحديد أية خصائص اجتماعيـــة أو طبقيـــة ، إلا إذا اعتبرنا أن أولئك العابرين كانوا في معظمهم من البدو الرعاة ، لكن هذا لم يمنـــع أن يوجد بينهم أمراء وأغنياء ومالكو قطعان كبيرة كما عرف عن إبراهيم .
أما "الخابيرو" ، ومن خلال كل الأقوال التي اســـتعرضناها عنهم ، فإنهم جماعة أفرزتهـــا الحياة الاجتماعية الطبقية في الدولة العربية ، حيث ـــ كما سبق أن أشرنا ـــ أتيحـــت مجالات واسعة للاثراء الفاحش منذ ما قبل عهد سرجون ، وبدأت الفـــوارق الطبقيـــة

الحادة تبرز مما أرغم سرجون وحمورابي على القيام بإصـــلاحات اقتصادية كبيرة . ثم إن فترة الصراعات والنـــزاعات السياسية الطويلة كانت تـــزيد في كل مرة من اســـــتبداد المتسلطين واستئثارهم الجشع بالثروات ، ومن عدد الفقراء المعدمين الذين أخذ يلقي هـــم المجتمع في دورته الاقتصادية على هوامش حياته الاقتصادية والاجتماعية .وإن في إمكاننـا أن نتصور انتشار هؤلاء الناس بين المدن والأرياف يبحثون عمن يستخدم عملهم لقـــاء قوقم ، وكانت منطقة كنعان المزدهرة زراعيا إحدى المناطق المرغوبة التي يمكن أن تعسج بأمثال هؤلاء العمال الهائمين .

ولما كانت لغتنا العربية الفصحى اليوم ،هي العربية العاربـــة والسريانيـــة في شبه جزيرة العرب التي عممت بفضل القرآن الكريم فيما بعد ، فقد كانت مفرداتـــها أكثر قربا من الأحداث اليومية في شبه الجزيرة ، وحملت لنا ، بالتالي ، ظروف خلق ونشوء وتطـــور هذه التسمية أو تلك .ونحن إذا ما بحثنا عن معاني كلمة "خبيرو" في معاجمنا اليـــوم نجـد أنها ما تزال تحفظ لنا مضمون الكلمة الحدث ، الظاهرة . فهي الوحيدة القادرة علـــى أن تكتشف لنا بصدق عن الحقائق التي ما تزال تكنزها في صدرها حتى اليوم . إننا نجـــد في معنى "خبر" مايلي :

"وخابره مخابرة آكره وزارعه ببعض ما يخرج من الأرض كالنصف أو نحوه والخبر الزرع ومنقع الماء في الجبل ، والسدر . والخبر أن يزرع الزارع على النصف أو نحوه . والخـــبرة أيضا النصيب تأخذه من لحم أو سمك ، وما تشتريه لأهلك كالخبز والطعام واللحـــــم ، وماقدم من شيء أو طعام يحمله المسافر في سفرته " وفي السريانية نجد أن كلمة "خبيرو" تعني الرفيق والشريك .

لقد صار في الإمكان الآن أن نميز بين من دعـــوا بالـــ " عبـــيرو" وبـــين مـــن دعـــوا بالـــ"خبيرو" . فالتسمية الأولى أطلقت على جميع الفئات والأفراد الذين اختاروا منطقـــة غربي الجبال ، فعبروا إلى أرض كنعان ، وبهذا فقد كانت التسمية تشمل الأغنياء مـــــن العرب الآراميين مالكي القطعان ، كما تشمل الفقراء والمعدمين الذيـــن هـــم الغالبيـــة الساحقـــة في كل الأحوال . أما " الخابيرو" فقد أجمعت كل المصادر على أنهم مـــــن

المعدمين ، الذين لا يملكون إلا جهدهم فيؤجـــرون للعمل في الأرض ، أو للرعـــي ، أو للخدمة ، أو في القتال ، مقابل قوتهم .
ثم إن هؤلاء المعدمين أنفسهم ، الذين لم تكن تتوفر لهم فرص بيـــع جـــهدهم كـــانوا يتحولون ، من أجل الحفاظ على وجودهم إلى منظمات عصابية ، تسطو على الممتلكات السهلة ، وتقوم بنهب المحاصيل والثروات للأفـــراد والجماعات في المدن أو الأريـــاف ، أو على محطات وخطوط القوافل ، وهي التي دعيت بـــ"الأخلامـــو" . إن الكلمـــة في العربيـــة السريانيـــة هي "حلمو" وتعني الرفيق ، وفي العربيـــة العرباء التي هي الفصحى نجد أن الخلم هو الرفيق . وقد استمرت ظاهرة " الأخلامو " (الرفاق) ، التي سبق أن شرحنا معناها في اللغة ، في مراحل التاريخ العربي اللاحقة ولاسيما في موطنها الأصلـــي شبه جزيرة العرب دهرا طويلا ، و لم تكن تنظيمات العرب الصعاليك فيما بعد إلا أحـــد أشكال تجليات هذه الظاهرة نفسها في المجتمع العربي .

من هو إبراهيم الخليل؟

بعد أن ميزنا بين التسميات الثلاث "عبيرو" و "خبيرو" و" أخلامو" وكان قد درج كـــل المؤرخين على الخلط فيما بينها وجعلها مترادفـــات تطلق على بعض القبائل العربيـــة أو كلها ، كما اعتبرها بعضهم تسميات أجنبية ، صار من الســـهل ، أن نجزم بأن تســـمية إبراهيم بالعابري ، أو العبري ، أو العبراني ، لم تكن تعني ، بأية حال ، أنه من "الخبـــيرو" أو "الأخلامو" أيضا . فهو ، كما أكدت كل المصادر ، كان واحدا من أولئك الأمـــراء البدو الذين يملكون القطعان من المواشي ، ويؤجرون عدد من الخدم أو الرعيان .
أما تسمية "العابري" فقد التصقت به نتيجـــة لعبوره الجرود أو المخاضات (يردن) إلى أرض كنعان عند وادي الفرات (الثرات) شرق بلاد غامد .
وإن إبراهيم لم يدع بـــ"العابري" نسبة إلى أحد الأجداد . فلم يبق أمامنا إلا أن نفـــترض أو نقر بأن هذه التسمية إنما لحقت به كأي فرد آخر ممن عبروا الجرود أو المخاضـــات إلى أرض كنعان .وأكثر من هذا ، إننا نرجح أن يكون هذا اللقب هو الذي طغى على اسمه

الحقيقي ومحاه من الذاكرة ، ثم لم يعد يعرف إلا بلقبه في منطقة سكنه الجديدة . وإذا ما علمنا أن العرب هم أكثر الأقوام استخداما لعادة تغليب الألقاب على الأسماء لأسباب تختلف بين وسط اجتماعي وآخر ، زال بذلك استغرابنا للأمر . لقد رأينا كيف أن جميع الأفراد المتميزين على صعيد المعبد أو الإدارة ، أو الحكم ، كانوا يعرفون بألقاهم لا بأسمائهم ، وقد استمرت هذه الظاهرة حتى ما بعد الخلافتين الأموية والعباسية بزمن طويل . وفوق هذا فإن في إمكاننا أن نتصور كيف أنه في الأوساط الدنيا والفقيرة من المجتمع يكون الاسم عادة معرضا لأن يهزم ويختفي أمام أي لقب مفاجئ في مكان الإقامة أو التوطن الجديد . وقد يغلب اسم المهنة التي يزاولها الفرد ، أو أية صفة أخرى من الصفات المميزة ، على اسمه الحقيقي فيشتهر به ، ثم ينسحب من بعده على أولاده*.

ولو أننا أخذنا هذه التسمية "عابري"أو"عبري"التي كانت تكتب بأحرفها الثلاثية الصامتة فقط "عبر"لرأينا أن اسم "أبرام" قد يكون أحد اشتقاقاها وتعني "العابر"علما أن "الميم" إحدى نهايات الأسماء المفردة بالعربية السريانية والأمورية ، مثل عمرام ، مريم ، إيلسم ، كلتم ، يحيم ، الخ .. كما أن الهمزة والعين أكثر أحرف العربية تبادلا في المواقع . فإذا صح هذا هل تكون الصيغة الأخرى للاسم "إبراهيم "هي الجمع منها وتعني "العابرين" إذ أن النهاية "يم" هي علامة جمع المذكر في العربية الكنعانية ، فتدل بذلك على بيت أبرام ككل ؟

إننا نرجح ذلك ، خاصة وأننا إذا ما عدنا إلى أسفار التوراة فإننا نعثر على ما يؤكد صحة وجهة نظرنا هذه . لقد ظل "أبرام " يدعى في التوراة بهذا الاسم طيلة الفترة التي لم ينجب بها ولدا ، وتحديدا حتى الآيات الأولى من الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين . ثم ما إن يولد له إسماعيل حتى يتغير اسمه في التوراة مباشرة من "أبرام " إلى "إبراهيم " . لنقرأ إذن الاصحاح السابع عشر من سفر التكوين .

• كما انتشرت بعض الألقاب لتحل محل الأسماء الخاصة مثل :
الحداد ، النجار ، الطيان ، الشامي ، المصري ، البغدادي ، الشمالي ، الشريقي ، الأعرج، الأصفر..الخ

"ولما كـــان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له أنا الله القدير . ســـر أمامي وكن كامـــلا فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جدا فســقط أبرام علــى وجهه . وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدي معـــك وتكون أبـــا لجمهور مـــن الأمم . فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم .لأني أجعلك أبا لجمهور مـن الأمم .وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما وملوك منك يخرجون ،وأقيم عهدي بيني وبينـــك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا .لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك ..
وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي ..." (تك 17 : 1 ـــ9)

واعتبارا من هذه الآية وحتى نهاية أسفار التوراة يرد الاسم بصيغة "إبراهيم "فقط .
وهكـــذا فإننا نصل إلى نتيجة حاسمة ، هي أن أبرام ليس اسما بل لقبا وتعني " العابر " أو " الذي عبر " ، وأن " إبراهيم " ليست إلا صيغة الجمع بالكنعانية لـــ" أبرام " وهـــي تعني "العابرين" أو "بيت أبرام "(بيت العابر) ، وأن " أبرام " أو " إبراهيم " وكل أفراد أسرته ، وأفراد بيته من بعـــده ، هم عرب آراميون ، مثلهم مثل كل العرب الآخريـــن الذين يملأون الساحـــة العربيـــة منذ آلاف السنين ، لم ينتموا إلى "شعب خاص" غـــير انتمائهم العربي ، ولم يكونوا شعبا خاصا ، ولم يخلقوا شعبا خاصا . وهجرته مع زوجته وابن أخيه لوط وحواشيهما إلى أرض كنعان غربي الجرود (يردن) لم تحدث " هجـــرة سامية " جديدة ، كما يحلو لكثير من كتبة التاريخ الفج أن يرددوا دون كلل . وإذا كان ثمة يهود دينيون يصرون على تنفيذ العهد بين الرب وإبراهيم بأن يجعله " أبا لجمهور مـن الأمم " وأن ملوكا منه يخرجون " ، فقد حدث الوعد وأنجـــز* : إن جميـــع العـــرب العدنانيين هـــم أبنـــاء اسماعيل بن إبراهيم ومن بينهم الرسول العربي محمد بن عبـــدالله القرشي الهاشمي وقد ملكوا حتى صاروا سادة العالم كله لفترة طويلـــة إبـــان الدولتـــين العربيتين الأمويـــة والعباســـية ، وعبثا تحاول الصهيونيـــة اليوم أن تجعل من صيغة هـــذا الوعد الذي وضعه مدونو التوراة أساسا لإيديولوجيا اســـتعمارية في القرن العشرين بعد

* إن هذا بالطبع مدعاة للسخرية وليس ردنا عليه إلا من قبيل السخرية أيضا .

ميلاد المسيح ! خاصة وأن اليهود أعراق شتى لا يجمع فيما بينهم غير اعتناقهم لليهودية كدين . إن الشعوذة لن تقوى على النهوض بهذا العبء الثقيل .

لقد طغى اللقب "أبرام " إذن و"إبراهيم" على اسم الرجل ، حتى أزاله نهائيا ، فمن هو أبو إبراهيم ؟

وبالرجوع إلى ما أورده القرآن الكريم حول إبراهيم وأبيه عثرنا على الآية التي تقول : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر اتتخذ أصناما آلهة ﴾[1] . ولكن المفسرين اختلفوا في هذه الآية كما اختلف فيها القراء ، دون أن نرى فيها أي مبرر للاختلاف أو الجدل . إن الآية تنص صراحة على أن آزر هو اسم أبي إبراهيم مهما اختلفت فيها القراءات . وإننا نعتقد أن الباعث الحقيقي لمثل هذا الخلاف ليس ناجما إلا عن الجهل باللغة العربية القديمة وبلهجاتها الثلاث* أولا ، وبالوقوع في أوحال تزوير الكهنة اليهود للتوراة ولتفاسيرها ثانيا .

---

(1) الأنعام ،74 .

* يقول الأستاذ الشيخ أمين الخولي مساعد أستاذ بجامعة القاهرة حول هذا الخلاف :"إن إطلاق القول بأن آزر اسم أبي ابراهيم في هذه الآية غير صحيح ، لأن الآية قرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معاني كلمة آزر باختلاف اعرابها . ففي بعض هذه القراءات يتعين ألا تكون آزر اسما لأبي ابراهيم وفي بعضها يحتمل ذلك وإليك طرفا من بيان هذه القراءات والأعاريب : كتبت الكلمة في المصحف هكذا "آزر أتتخذ اصناما ..." وقرئت "أزرا" بالنصب مع التنوين ، و"آزر" بالنصب بلا تنوين و"أزر" بالضم ، ففي القراءات الأولى تفسر الكلمة على أنها عربية بمعنى القوة ، والهمزة الأولى للاستفهام الانكاري ، والمعنى :الأجل القوة تتخذ أصناما آلهة كقوله تعالى "أيبتغون عندهم العزة" (النساء139) وإن ، فسرت "أزر" في هذه القراءة باسم علم لم يقل إنه أبو ابراهيم وعلى قراءة النصب بلا تنوين قد تعرب نعتا ، فلا تكون "أزر" علما بل صفة فليست كذلك اسم أبي ابراهيم وقد تعرب بدلا أو عطف بيان فتحمل أن تكون اسما له ، وعلى قراءة الضم للنداء تحتمل كذلك أنه اسمه ".(انظر : "عبد الوهاب النجار" ،"قصص الأنبياء" ص94 ـ95) .ونحن نرى أن هذه القراءات لاسم "أزر" العربي القديم ليس إلا نوعا من الاستمرار لطرق لفظه باللهجات العربية الأساسية الثلاث التي سبق أن تحدثنا عنها فاللهجة العرباء في شبه جزيرة العرب الداخلية والتي وصلتنا أخيرا وعممت كلغة فصحى بواسطة القرآن ، كانت تلفظ الاسم دونما زيادة حرف على أخره مثل جبر ، أزر، وقد ورد الاسم في المصحف باللهجة العرباء "أزر" ولما كان هذا الاسم معروفا لدى كل العرب ، من العراق ، إلى سوريا ، إلى الشمال الأفريقي ، بكل لهجات لفظه وابدالاته : (آزر ، ازرا ، ازور ، عزرا ، عازر ، عزار ..الخ) فإن القراء ، على اختلاف مشاربهم ، لن يجدوا غضاضة في لفظه كما عرفوه دون أن يكون في ذلك أية اساءة للاسم أو للآية . وإن هذا بالذات يؤكد حقيقة معينة ، وهي أن القراء بتصرفهم هذا ، إنما كانوا يدركون أن"آزر" هو اسم ، وهذا ، بالتالي ، من شأنه

وهكـــذا يتضح لنا ، أخيرا، أن إبراهيم لم ينتسب إلى جد غير أرام ، وأنه حينما لقـــب بـــ" العابر " ثم دعي بيته بـــ"العابرين"أو"العبرانيين"كان هذا اللقب مقتصرا عليه وعلـــى أفراد بيته أثنـــاء حياته . وأن "العابرين" ممن عبروا الجرود أو المخاضات (يردن) كـــانوا كثيرين غيره ومن كل القبائل ، ولا علاقة لهم به ، كما لاعلاقة له بهم ، إذ هو لم يتزعم أحدا غير أهل بيته ، وبالتحديد امرأته سارة وابن أخيه لوط . ثم إننا نـــرى كيـــف أن أبناءه من بعده لم ينتسبوا إليه ، فأبناء إســـماعيل دعوا بالاسماعيليين نسبة إلى إسمـــاعيل و لم يدعوا بالعابرين أو العبرانيين نسبة إلى إبراهيم . ثم إن أولاد يعقوب (اســـــرائيل) دعـــوا بالأسرائيليين نسبة إليه ، و لم ينسبوا إلى إبراهيم . لقد ألصقت ، إذن ، تســمية " العبرانيين " بإبراهيم وأهل بيته أثناء حياتـــه ، وماتت معه بعد موته ، وبالتالي فلم يبق من " العبرانيين" شـــيء غير الظاهـــرة التي استمرت مع استمرار العبور ، يقوم بها أناس وجماعات شتى من أبناء القبائل العربيـــة وعشائـــرها دون أن يكون ثمة أي جامع فيمـــا بينها غير صفة العبور ، إذ هي أشتات من قبائل عربيـــة وليست فرعا واحدا. ومن هنـــا تسقط مقولة "الشعب العبراني" أو"اللغة العبرانية" من منطق التاريخ ، إذا ما أريد لهـــذا التاريخ أن يكون علما لا شعوذة .

جولة إبراهيم ، والطريق التي سلكها إلى << كنعان >>

لقد خضعت رحلة إبراهيم من أور الكلدانيين (الآراميين) في جنـــوب بـــابل إلى أرض كنعان في بلاد غامد وزهران من شبه جزيرة العرب ، كما خضع غيرها من الأحـــداث التاريخية ، إلى عملية تزوير كبرى ، بقيت ، رغم بشاعتها ورغم بروزها المفضوح المنافي لأي منطق في التاريخ أو في الجغرافيا ، تتناقلها الأجيال ، والمؤرخون ، والدارسون قرابـة ألفي عام ، وتحديدا منذ أن فرغ الكهنة من تدوين أسفارهم التي أطلقوا عليها فيما بعـــد اسم "العهد القديم".

أن يزيل كل اختلاف في تفسيره ، لا أن يخلق الخلاف . وهذا بالضبط هو ما يجعلنا نقول والثقين إن سبب ذلك الخلاف ليس إلا الجهل باللغة العربية القديمة وبلهجاتها .

وقبل أن نتحدث عن هذه الرحلة ، كما تناقلها المؤرخـــون حتى اليوم نرى أن من المفيد التوقف قليلا عند عمليات التزوير التي كانت تجري مرحلة بعد أخرى حـــتى رســـخت مدونات التوراة المتداولـــة اليوم ، لأن ذلك سوف يلقي الضـــوء ، ليس على جغرافيـــة جولان إبراهيم فحسب ، بل وعلى كل أحداث التاريخ القائم على أســـاس الجغرافيـــا التوراتية .

إن "التوراة" هذا الكتاب الذي دعي بـــ"العهد القديم"والتصق بالإنجيل بعد أن دعي هـــذا بـــ" العهد الجديد " وهو الجزء المسيحي من الكتاب المقدس لتشـــترك معـــه في مظلـــة قداســـته ، ولتكون في حرز من الهجومات بعد أن افتضح أمرها ، وصار من الشـــائع والمعروف واقـــع الانتحال والتشويه والتزويـــر الذي تعج به صفحاتها ، يختلف اختلافـــا كليا عن كتب الأديان السماويـــة الأخرى .

ونحن هنا لسنا بصدد دراســـة هذا الكتاب وتفنيده ، إلا أننا نرى أن من الضرورة هنـــا أن نشير إلى أن الإنجيل أو ما دعي بـــ " العهد الجديد " وضع بشكله النهائي خلال فترة قصيرة جدا نسبيا تلت نشوء المسيحية ، وإن تاريخ القرآن الكريم معروف بدقة متناهيـــة آية بآية زمن محمد (ص) نفسه مما لا يدع أي مجال للتأويـــل أو الاجتهاد أو الخطـــأ . أما "العهد القديم" الذي نعرفـــه باسم التوراة فإن أول تحرير معروف له إنما هو "الترجمـــة السبعينية" المعروفة باللغة اليونانيـــة والتي تعود إلى القرن الثالث والثاني قبـــل الميـــلاد . وهذه التي دعيت بـــ " الترجمـــة " والتي وضعها اثنان وسبعون من الكهنة اليـــهود ، لم يعرف أكانت ترجمة حقا أم تأليفا ، لأن المترجمين لم يتـــركوا لنا أيـــة إشارة إلى النـــص الأصل ، الذي لم يعثر له على أي وجـــود ولقد دعيت بالسبعينية (أوالسبعونية) لأنه ، كا قيل ، اشترك في إنجازها سبعون ، أو اثنان وسبعون كاهنا من اليهود ، (ستة عن كل عشيرة من العشائر الاثني عشرة) ، واســـتغرق زهاء مائة عام تقريبا . وقد بقيت مسألة الأصل قائمة وملحة فترة طويلة من الزمن دون جدوى ، إلى أن نسيها أو تناساها كثـــير من الناس ، لكنها عند البحث الجدي ما تلبث أن تستثار من جديد .

ولقد تحدثنا آنفا عن مصير مؤلفات سـانخونياتن وتـرجمتها على يد أوزيب الكـاهن اليهودي الذي تظاهر مع الملك قسطنطين بالتنصر ، وعمل معه ـ تحت ستار المسـيحية ـ على تدمير التراث العربي السوري الثقافي وإحراقه بحجة أنه تراث وثني .

أما النص المعمول به اليوم "فلم ينته تحريره سوى في القـرن الثامن للميلاد"[1] .ولذلك فقد بقيت مسألة المطالبة بالأصل ماثلة وملحة لدى جمهور الناس ولدى الباحثين . ولكن مثل هذه المطالبات والمماحكات الشفوية كانت سـرعان ما تخمد مع الزمـن دون أن تترك أي أثر ، مما شجع الكهنة على وضع المؤلفات التي تتطابـق مع معطيات الترجمـة السبعونية ، وكان على رأس أولئك الكاهن اليهودي فلابيوس يوسـيفوس الذي وضـع عـدة كتب في هذا المضمار كـان أشهرها "الحرب اليهودية" وفيلون الاسـكندراني ، وأوزيب ، وجميعهم في القرن الأول للميلاد وبعده .

إن يوسـيفوس الذي تحدث في كتابه "حرب اليهود" عن الأحداث والمواقع التي عاشتها جماعة موسـى في عهد موسى ومن بعده ، لم يأت على ذكر كتاب تاريخ سـانخونياتن الذي أرخ تلك الأحداث وعاصرها في بدايتها زمن موسى ، وبالتالي في زمن عنفوانهـا . وبقيت مسألة التزوير في التاريخ والجغرافيا تهمة ماثلة ، رغم كل ما بذله الكهنة اليهود ، كما بقيت مسألة عدم وجود الأصل الذي ترجمت عنه التوراة إلى اليونانية ، تلك الترجمة " السبعونية " المعروفة ، تـهمة كبيرة أخرى كان جميع الناس مـن شـتى الأوسـاط يوجهونها بإزدراء إلى"علماء"اليهود دون أن يحير أولئك جوابا على مدى القرون ، خاصة وأن هذه التوراة تتحدث عما بعد موسى بألف عام من أحداث . وقد ترجمت التـوراة إلى جميع اللغات الأخرى ومنها العربية السريانية أو الآرامية ، عن النص السبعوني اليوناني وفجأة وفي القرن العشرين بعد ميلاد المسيح ، أي في عصرنا اليوم ، يعلن عن " نصـوص التوراة " المكتشفة بـ " العبرية " في كهوف قمـران عند البحر الميت . فكانت بمثابـة تغطية الفضيحة بفضيحة أكبر ، إذ ما لبث أن اكتشف العلماء أمـر تلك المخطوطات ، وأهملت للفور ، رغم كل وسائط الدعاية والترويج والضجة المفتعلة التي رافقتها ، ولقـد

---

(1) سهيل ديب ، "التوراة بن الوثنية والتوحيد "ص23 .

انطلت هذه " اللعبة " على كثير من الناس ، من يهود أو سواهم ، كما أسهم في عملية الاقتناع والإقناع المقصود بها كثير من الناس الآخرين .

يقول سهيل ديب في كتابه "التوراة بين الوثنية والتوحيد " :

" وقد أثبتت مكتشفات البحر الميت أن النصوص المعمول بها اليوم صحيحة "[1]

" والمخطوطات المكتشفة هي بلغات متعددة منها العبرية* القديمة وعبرية أحدث واليونانية والآرامية والنبطية"

" وأهمية هذه اللفائف تكمن في أنها أقدم مخطوطات عثر عليها للعهد القديم بالعبرية"[2]

والمؤلف لا ينسى أن يقدم لنا سردا تاريخيا موجزا فيقول :

" وكانت قد مرت القرون الطويلة دون أن يتمكن أحد من التحقق من الأصول التوراتية الحقيقية :

ـــ فالنص السبعيني أتى باللغة اليونانية ، ولو قيل عنه إنه قد ترجم من العبرية إلا أن هذا الأصل العبري مفقود .

ـــ وبعد ذلك بخمسة قرون ـــ خمسمائة سنة بالتمام والكمال ـــ ظهر نص عبري ، لكن كاتبه يوناني ، ولا أحد يعلم من أين أخذه .

ـــ بعد ذلك بقرن آخر ظهر النص اللاتيني المسمى فولغاتا ، لكن هذا النص اعتمد على النص السبعيني ".

ـــ أثناء ذلك باشر العلماء اليهود الماصوريون بتحرير العهد القديم باللغة العبرية ، لكن هذا التحرير لم ينته إلا في أواخر القرن الثامن من الميلاد والنسخة الوحيدة المتبقية من النص الماصوري الأصلي يعود تاريخها إلى العام 985م ، لكن هذا النص لم يكتشف إلا في أواخر القرن التاسع عشر[3] .

---

(1) سهيل ديب ، "التوراة بن الوثنية والتوحيد "ص23

* من المعروف أنه لم تكن ثمة لغة أو حتى لهجة ، تدعى بالعبرية ، واليهود كانوا يتكلمون اللهجات العربية التي يتوزعون فيما بينها .واللغة التي يدعونها بالعبرية القديمة ليست إلا اللهجة العربية الكنعانية أو الآرامية .

(2) المصدر السابق ،ص87

(3) المصدر السابق ، ص 83 ـــ84 .

".. والذين قالوا إن فئة وادي قمران كانت من القرائن اعتمدوا على وثيقة معينة اكتشفت في المغارتين 4 و 6 . وقد وجد فيها ثماني نسخ على درجات مختلفة من الحفظ ، وهي المعروفة تحت اسم "وثيقة دمشق ..."

"وكانت مجموعة من العلماء التوراتيين اليهود وبعض العلماء اللاهوتيين المسيحيين قد أكدت ، بين الأعوام 1913و 1936م ، أي قبل ربع قرن من اكتشاف نفس الوثيقة في كهوف قمران ، أن أصل الوثيقة هو قرائي من وضع أتباع عدنان بن داود . وعند اكتشاف نفس الوثيقة بين لفائف البحر الميت قال أحد هؤلاء العلماء ، وهو الأستاذ زايتلن Zeitin في فيلادلفيا إن كافة وثائق البحر الميت هي من أصل قرائي وتعود للقرن العاشر من الميلاد ، وقد وضعها القرائيون في مغاور قمران للتمويه ولكي يثبتوا أن حركتهم قديمة جدا وتعود للقرون الأولى من المسيحية وقبل ذلك"[1]

لكن كاتبنا الأديب ، سهيل ديب، يبقى ، رغم هذا ، مصرا على أن يكمل استناجاته بطريقته الخاصة ، فيقول :

"واثناء ذلك ، وحتى ظهور لفائف البحر الميت ،بقي الشك قائما لدى المتصلبين من العلماء من يهود وغيرهم ...

لكن لفائف وطوامير البحر الميت أزالت هذا الشك الأخير وتنفس العلماء الصعداء"[2]

والحقيقة لم تكن هذه هي النتيجة المنطقية لمثل هذا السرد الذي أورده الكاتب . فالعالم كله الآن يعرف أن " لفائف قمران " المزعومة أهملت فورا من قبل العلماء ، بل والعلماء اليهود أنفسهم ، بعدما تبين أمر حقيقتها المفتعلة ، والتي لم تتمكن من أن تخمد أو تخفف من شدة وقع السؤال ــ التهمة الذي ظل يجبه حاخامات اليهود طيلة عمر الديانة اليهودية : أين النص العربي الكنعاني أو الآرامي الأصل للتوراة إن كانت " السبعونية " ترجمت فعلا عن أصل ما و لم تؤلف وتوضع مباشرة باليونانية؟

و : Dipony – sommer, Op.Cit,PP,404-405

(1) المصدر نفسه ،ص94

(2) المصدر نفسه ، ص84 ــ85 .

إن العالم والبحاثة الفرنسي الشهير "بيرروسي" في كتابه "مدينة ايزيس ، التاريخ الحقيقي للعرب " " يحاول فعلا إعادة كتابة التاريخ العربي بل الانساني عامة " على حـد تعبير حسين عمر حمادة في كتابه " مخطوطات البحر الميت " إذ يقول : " وإنه من الحمـق أن يعطي هؤلاء العلماء لأنفسهم الحق انطلاقا من وثائق لا وجود لها ، أو مشكوك فيـها ، أولا معنى لها في المادة والحياة لعصور كانت مفقودة في ليل الزمان . وعوضا عن إعـادة النظر في التفاسير التوراتيـة تحت ضوء اللغة والثقافة العربيتين فإن مدرسة سكولاستيكية مصطنعة قد انهارت لصالح رؤيـة منعشة للعهدين القديم والجديـد ، لأن " أصالـة " النص السبعيني الاغريقي أربكت علماء اليهوديات ، والنص العبري للتـوراة اليهودية لم يثبت إلا في وقت متأخر جـدا بين القرنين التاسـع والعاشـر الميلاديين من قبل علماء مدرسة طبرية الماسوريين الذين استعملوا أربعة مصادر هي : النص الاغريقي السـبعيني وترجمة القديس جيروم اللاتينية عنه ، والنص الآرامي ، وعناصر اللغة السـريانية التي لا تزال تدرس حتى اليوم .وقد أثيرت منذ عدة سنوات ضجة حول اكتشاف مخطوطـات البحر الميت في خربة قمران . ولقد كنا في ذلك الوقت في غمار العمـل الصـهيوني في فلسطين والأمم المتحدة وفي مجالات الـرأي ، وكانت لهم آنذاك فائدة في التفتيش عـن إثبـات توراتـي للعملية العسكرية " الاستيطانية " . إن فرصـة الاكتشـاف ظهرت مشبوهة ، ولما استشير العلماء في قيمتها الوثائقية كانوا حذرين جدا ..

فما هي الأسباب التي جعلت العالم الغربي حجة في بحوثـه الشرقيـة ، بينما يجد تحـت تصرفه لغة عربية موثوقا بها كأداة تعبير أمينة عن عدة آلاف من السنين المتواصلة لإيضاح العصور القديمة بسهولة ؟

لقد كان زيفـا وضـلالا باسم الساميـة المزعومـة فصل العرب عن المجموع الثقـافي المصري ، الكنعاني ، البابلي الذي كان مكملا .ومرد ذلك إلى الخرافة التي تريد إعطـاء مكان خاص للغة العبرية في حين أنها ليست إلا فرعـا متأخرا من اللغة العربية ، والعبرية حتى الآن تنتسب إلى عالم صغير مغلق من العلماء ، وهي لا وجود لها بـالمعنى الشـعبي والتاريخي ...

" إن الحـــدود المرسومـــة عسكريا أو سياسيا حسب مقتضيات آراء الأساتذة أو علماء الآثار لا تتجاوز بالضرورة قلوب الناس . وإننا عندما نؤكد من خلال نظرة شـــمولية، أن الشـــرق يتعين من خلال ثقافة عربية في مساحة عربية فإننا لا نخترع شيئا، إننـــا لا نفعل شـــيئا جديدا سوى جمع وإحكام العناصر الجغرافية والثقافية الموطدة واحدهـــا إلى الآخرة "[1]

والحقيقة إن جميع الأوســاط العربية ، المثقفة والعاديـــة ، منذ ظهور الطبعة اليونانيـــة السبعونية ، كانت تدرك كل الأدراك حقيقة الكتاب المدعو بالتوراة . وكانت أوســاط البدو في شبه جزيرة العرب تعلم أن الأسفار الحقيقية التي تحكي قصة جهاد موسى مـــع قومه من أجل إيصالهم إلى فكرة الله الواحد دونما جدوى قد تم إخفاؤها أو إبادتهـا ، وتم تأليف مجموعـــة الأسفار أو الكراريس باللغـــة اليونانيـــة ، وزعم أنها كانت ترجمة عن الأصل ، ثم بدأت عمليـــة نقلها إلى اللغات الأخرى ، مضيفة تغييرا في حقيقة بعـــض الأسماء والمواقع إلى عمليات التزوير التي أخضعت لها "السبعونية" في تلك الأسماء والمواقع منذ البداية ، والتي أساءت كثيرا إلى أولئك الآباء العرب مثل إبراهيم وأولاده .

لقد كان ذلك كله يشكل ظاهـــرة معروفة جدا في تراث شبه الجزيرة العربية مما حد من انتشار الديانة اليهودية بين ربوعها ، وجعل البدوي العربي ينظر إلى معتنقيها نظرة مفعمة بالشك وعدم الثقة ، في الوقت الذي عرف عن هذا البدوي أنه يمكن أن يتخلى عـن أي شيء في الأرض من أجل فكرة حقيقية صادقة[2] . لقد وردت إشارات في القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة في أكثر من موضع نذكـــر منها :﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ ، (المائـــدة 15) .﴿ وما قدروا الله حـــق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنـــزل الكتاب الذي جاء بـــه موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها . وتخفون كثيرا ﴾ (الأنعام 91)

(1) انظر : بيير روسي ، "مدينة ايزيس ـــ التاريخ الحقيقي للعرب " منشورات وزارة التعليم العالي دمشق 1980، ص 21 ـــ 31 .
وحسين عمر حمادة ، "مخطوطات البحر الميت " ص 131 ، 132 .
(2) انظر : لورانس "أعمدة الحكمة السبعة" وجان وولف "يقظة العالم العربي" ص14 .

لقد وجـدنا أنه لن يمكن الحديث بصورة مقنعة ومتكاملة عن كل الظواهر والأحـداث التاريخية التي شـغلت حيزا ضخما من تاريخ العرب القديم .بدءا برحلة إبراهيم الخليل ، والكشف عن حقيقة الأسـماء والمواقع التي جرى تبديلها على امتداد ساحة الجغرافيـا العربيـة ، دون المرور على مثـل هذا العـرض الموجـز للمراحل التي تمت بها عمليـة " تصنيع " مدونات التـوراة . هذه العمليـة التي استمرت (من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين) .

وعودة بنا ،بعد هذا العرض الموجز إلى جولة إبراهيم

لقد مررنا على الظروف السياسية والاجتماعية التي سادت الدولة البابلية وسببت نـزوح كثير من البـدو وأنصاف المستقرين إلى بريـة العرب . و لم يكن إبراهيم إلا واحدا من أولئك الذين قرروا الرحيل بقطعانهم وممتلكاتهم ليتحولوا ـ كعادة أهل البادية جميعـا ـ إلى منتجع آخر أكثر أمنا بسبب ما سـاد منطقـة جنوب بابل آنذاك مـن كـوارث طبيعيـة (الزلزال) وسياسية واجتماعية ، التي تجلت في الحروب والمنازعات الطويلـة ، واجتياح قبائل الكاشيين (أبناء كوش بن حام) .

ولو أننا اسـتعرضنا أسماء المواقع والمواضع الجغرافية التي اقتـرن ذكرها بجولة إبراهيـم التي ذكرتها مدونات التوراة ، ثم نقلتها عنها كل المصادر الأخـرى ، (لأن مدونـات التوراة كانت المصدر الوحيـد الذي اهتم بسرد قصـة حياة إبراهيم مفصلة ، وكـل الروايات الأخرى ليست ، في حقيقتها ، إلا نقـلا بصـورة أو بأخرى ، عن روايـة التوراة) ، لوجدنا أنها تنحصر في الأسـماء الرئيسية التالية : أور الكلدانين ، حـران ، أرض كنعان ، مصر .

وإذا ما تتبعنا الرحلة مفصلة ،كما وردت في التوراة ، نجدها كما يلي :

1 ـ مـن أور الكلدانيين في منطقة بابل إلى حران :

"وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة أبرام ابنه ، فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان ،فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك ... ومات تارح في حاران "(تكوين 11: 31)

2 ـــ مـــن حاران إلى أرض كنعان :

"وقال الرب لأبرام اذهب من أرضـــك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض الـــتي أريك . فأجعلك أمـــة عظيمة وأباركك وأبارك اسمك ، وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه ، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض . فذهـــب أبرام كما قال له الـــــرب وذهب معه لوط وكان أبرام ابن خمس وسبعين ســـنة لما خرج من حاران . فأخذ أبـرام ساراي امرأته ولوطا ابن اخيه وكل مقتنياهما والنفوس التي امتلكا في حاران ، وخرجـوا ليذهبوا إلى أرض كنعان .فأتوا إلى أرض كنعان" (تك12 :1 ـــ 5) .

3 ـــ فـــي أرض كنعان :

"واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شـــكيم إلى بلوطة مورة . وكان الكنعانيون حينئـــذ في الأرض .وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض .فبنى هناك مذبحا للـرب الذي ظهر له .ثم نقل هناك إلى الجبل الشرقي بيت إيل ونصب خيمته ، وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق .فبنى هناك مذبحا ودعا باسم الرب " (تك12 :6 ـــ 9)

4 ـــ مـــن أرض كنعان إلى مصر:

"وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك .لأن الجـــوع في الأرض كان شديدا .وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنـك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولـــون هـــذه امرأتـــه ،فيقتلونـــي ويستبقونك ،قولي إنك أختي ، ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك ".

"فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ورآها رؤســـاء فرعون ومدحوها لدى فرعون ،فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى أبـــرام خـــيرا بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال . فضرب الـــرب فرعـــون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام .فدعا فرعون أبرام وقـــال ما هذا الـذي صنعت بي . لماذا لم تخبرني أنها امرأتك . لماذا قلت هي أختي حتى أخذتهـــا لي لتكـــون

زوجتي . والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب . فأوصـــى عليه فرعـــون رجالا فشـيعوه وامرأته وكل ما كان له "(تك12 : 10 ـــ 20) .

5 ـــ مـــن مصر إلى أرض كنعان :

"فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب وكان أبـــرام غنيا جـــدا في المواشـــي والفضة والذهب .وسار في رحلته إلى الجنوب إلى بيت إيل إلى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة بين بيت إيل وعاي . إلى مكان المذبح الـــذي عمله هناك أولا . ودعا هناك أبرام باسم الرب " (تك13 :1 ـــ4)

6 ـــ فـــي أرض كنعان :

"ولوط السائر مع أبـــرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام .ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا ، إذ كانت أملاكهما كثيرة ، فلم يقدرا أن يسكنا معا . فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ســاكنين في الأرض فقال أبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك ، لأننا نحن أخـــوان . أليست كل الأرض أمامك اعتزل عني . إن ذهبت شمالا فأنا يمينا وإن يمينا فأنا شمالا .

"فرفـــع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي قبلما أخرب الرب ســـدوم وعمورة كجنة الرب كأرض مصر حينما تجيء إلى صوغر فاختار لوط لنفسه كل دائــرة الأردن وارتحل لوط شرقا . فاعتزل الواحد عن الآخر .أبرام سكن في أرض كنعـــــان ، ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم ...

"وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لـــوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنـــت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لأن جميع الأرض التي أنت ترى أعطيها لك ولنســلك إلى الأبد ... قم امش في الأرض طولـــها وعرضها لأني لك أعطيتها فنقل أبـــرام خيامـــه ، وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون بنى هناك مذبحا للرب "(تك13 : 5 ـــ 18)

هناك حدث عدوان من عصابات زعامات* المضارب المجاورة على لوط فأخذوه مع نسائه وممتلكاته ، وتبعهم أبرام مع مجموعة من عبيده واسترجع منهم لوطا وجماعته .

"وحدث في أيام امرافل ملك شنعار وأريوك ملك الاسار وكدر لعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم أن هؤلاء صنعوا حربا مع بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشنآب ملك أومة وشمتيبر ملك صبوئيم وملك بالع التي هي صوغر جميع هؤلاء اجتمعوا متعاهدين إلى عمق السديم الذي هو بحر الملك اثني عشرة سنة استعبدوا لكدر لعومر والسنة الثالثة عشرة عصوا عليه . وفي السنة الرابعة عشرة أتى كدر لعومر والملوك الذين معه وضربوا الرفائيين في عشتاروت قرنايم والزوزيين في هام و الايميين في شوى قريتايم والحوريين في جبلهم سعير إلى بطمة فاران التي عند البرية . ثم رجعوا إلى عين مشفاط التي هي قادش .وضربوا كل بلاد العمالقة وأيضا الساكنين في حصون تامار .

" فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبويين وملك بالع التي هي صوغر ونظموا حربا معهم في عمق السديم ... فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك . والباقون هربوا إلى الجبل فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم ومضوا ، وأخذوا لوطا ابن أخي أبرام وأملاكه ومضوا . إذ كان ساكنا في سدوم .

" فأتى من نجا وأخبر أبرام العبراني وكان ساكنا عند بلوطات ممرا الأموري أخي أشكول وأخي عابر . وكانوا أصحاب عهد مع أبرام فلما سمع أبرام أن أخاه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان وانقسم عليهم ليلا هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى حوبة التي عن شمالي دمشق . واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطا أخاه أيضا وأملاكه والنساء أيضا والشعب "(تك14 : 1 ــ16) .

---

* تجدر الاشارة إلى أن كلمة "ملك" كانت تطلق على كل من يتزعم ثلاثة فأكثر بصورة من الصور ،بدءا من زعامة أسرة إلى زعامة عصبة من الرجال أو قطاع الطرق وحتى ملك البلاد حاكم الدولة البابلية .وهذا سوف يمر بصورته الواضحة المفصلة عند الحديث عن داود وصراعه مع ملوك العصابات ،ثم لن يدهش القارئ حينما يجد لاحقا أن "مملكة داود "لم تتجاوز هذا المفهوم الصغير الذي هو نطاق عصابة ، أو زمرة من "البطالة" أو قرية ، أو مجموعة كهوف ، أو مضارب خيام .

لاحظ كيف أن الأمكنة هي منازل لأشخاص أو مضارب لخيامهم كما يمكن ملاحظة استخدام مضرب دان زمن إبراهيم ، علما أن دان هو ابن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم ولم يكن إسحق قد ولد بعد .

وبعدما حبلت هاجر وولدت إسماعيل "صغرت مولاتها في عينيها .فقالت ساراي لأبرام ظلمي عليك ، أنا دفعت جاريتي إلى حضنك ، فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينيها . يقضي الرب بيني وبينك ،فقال أبرام لساراي هوذا جاريتك في يدك . افعلي بها ما يحسن في عينيك . فأذلتها ساراي فهربت من وجهها ، فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية ، على العين التي في طريق شور"(تك16: 4 ـــ 8) . "وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا . وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك ... وأمام جميع اخوته يسكن .فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رئي .. لذلك دعيت البئر بئر لحي رئي .هاهي بين قادش وبارد "(تك16 : 11 ـــ 13) .

" وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار "(تك 18 :1)

"وقالوا له أين سارة امرأتك ،فقال هاهي في الخيمة "(تك18 :9) .

" ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم وكان إبراهيم ماشيا معهم ليشيعهم " (تك 18 : 15) (وسيدوم مغارة والكلمة تعني المرمية ، المقذوفة ، المنسوخة ، المدمرة، وهي بالسريانية "شدوم")

"فجاء الملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالسا في باب سدوم "(تك19 : 1)

من السهل ملاحظة أن سدوم اسم لمغارة ، ولوط يجلس في بابها .

وقبل أن يقلب الملاكان سدوم بالبراكين طلبا من لوط أن يهرب إلى الجبل لئلا يهلك " ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطا قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة .." فقال لهما لوط لا يا سيد هوذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذي صنعت إلي باستبقاء نفسي .وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل ، لعل الشر يدركني فأموت .هوذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها وهي صغيرة

أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة . فتحيا نفسي فقال له إني قد رفعت وجهك في الأمر أيضا أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها .أسرع أهرب إلى هناك .لأني لا أستطيع أن أفعل شيئا حتى تجئ إلى هناك ......

" وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة " (تك19 :15 ـــ 25) (وصوعر تعني بالكلدانية التي هي السريانية الصغيرة ، الحقيرة ، كما تعني العار والفضيحة وهي إحدى المغاور) .

"وبكر إبراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب . وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة ونظر وإذ دخان الأرض يصعد كدخان الأتون" (تك19 :27)

"وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار" (تك 20 :1) .

7ـــ وهناك حدث مع ابيمالك ملك جرار فيما يتعلق بسارة ما حدث مع فرعون مصر ، وقال ابيمالك لإبراهيم : "ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطية عظيمة . أعمالا لا تعمل عملت بي ... ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء فقال إبراهيم إن قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة ، فيقتلونني لأجل امرأتي . وبالحقيقة أيضا هي اختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابن أمي ،فصارت لي زوجة . وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أن قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إلي في كل مكان نأتي إليه قولي عني هو أخي . فأخذ ابيمالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم .ورد إليه سارة امرأته .

قال ابيمالك هوذا أرضي قدامك .اسكن في ما حسن في عينيك .وقال لسارة إني قد أعطيت أخاك ألفا من الفضة " (تك20: 9 ـــ 16)

وبعد أن طلبت سارة من إبراهيم طرد هاجر وابنها حتى لا يرث مع ابنها اسحق " بكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفهما فمضت وتاهت في برية بئر سبع .ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد

تحت إحدى الأشجار .ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس لأنها قالت لا أنظر إلى موت الولد . فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت .فسمع الله صوت الغلام . ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك ياهاجر .لاتخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام .وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس .وسكن في برية فاران . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر"(تك21: 14 ـــ 22) .

"وماتت سارة في قرية اربع التي هي حبرون في أرض كنعان ... وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني حث قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم .أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي . فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له :اسمعنا ياسيدي ،أنت رئيس من الله بيننا ، في أفضل قبورنا ادفن ميتك لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك . فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث وكلمهم قائلا : إن كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني إياها في وسطكم ملك قبر . وكان عفرون جالسا بين بني حث .فأجاب عفرون الحثي إبراهيم في مسمع بني حث لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلا : لا يا سيدي ، اسمعني . الحقل وهبتك إياه والمغارة التي فيه لك وهبتها لدى عيون بني شعبي وهبتك إياها ادفن ميتك" (تك23: 1 ـــ 12) .

تلكم هي جميع أسماء الأماكن الجغرافية التي اقترنت بحياة إبراهيم من خلال مدونات التوراة من أور الكلدان إلى أرض كنعان .

ومن أجل سهولة التعرف عليها لابد لنا من أن نميز فيها بين الأسماء الصغيرة (الجزئية) جدا كالجبل ، والبئر، والعين ، والبلوطة، والبيت .. وبين الأسماء الأخرى مثل أور الكلدانيين ، حاران ، أرض كنعان ، مصر ، وفلسطين ...

وفوق هذا ، وقبل أن نبدأ بدراسة هذه الأسماء والتعرف على مواقعها الحقيقية لابد من تسجيل الملاحظات المساعدة التالية:

1 ــ إن كلمة "ملك" كانت تستخدم دونــما حدود ــ وقد بينت النصوص الـــتي أوردناها ذلك ــ بحيث تشمل بمفهومها رئيس زمرة قد تبدأ بثلاثة أشخاص ثم لا يكون لها حدود في الاتساع ، فتشمل رئيس الجماعــة ، والعصابة ، والحـــارة ، والمزرعـــة ، والقرية ، والبلدة ، والمدينة ، والدولة ، وهي أحد أسماء السيد الرب ، أو رب الأرباب .

لقد قصت علينا التوراة كيف أن " الملك " شـــاول كان يطارد داود من كـــــهف إلى كهف ، ومن جبل إلى جبل ، ومن صير غنم إلى آخـــر ، حتى نزل في مغارة عـــدلام ، وهناك "اجتمع إليه كل رجل متضايق ، وكل من عليه دين ، وكل رجـــل مر النفس ، فكان عليهم ملكا "(صموئيل الأول ، 22: 1) وبعد موت الملك شاول ، سأل داود الرب إن كان يصعد إلى إحدى المدن ، فقال له الرب أن يصعد إلى قرية اربع (التي هي حبرون وهي مغارة المكفيلة) ، " فصعد داود إلى هناك هو وامرأتاه .. وأصعـــد داود رجالـــه الذين معه كل واحد وبيته وســـكنوا في مدن حبرون وأتى رجال يهوذا ومسحوا هنـاك داود ملكا على بيت يهوذا " (صموئيل الثاني ، 2: 2 ــ 4) .

هكذا نجد أيضا أن البيوت المتناثرة أو الخيام أو مغارة أربع (حبرون) تدعى مدنا .

ولما ترك حبرون ، وذهب إلى يبوس لم يسمح له سكانها بدخولها هو أو من معه ، فابتعد عنها إلى حصن صهيون وسماه مدينة داود وأقام فيه مع جماعته ."وذهب الملك ورجالـــه إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض ، فكلموا داود قائلين لا تدخل إلى هنا مـــا لم تنزع العميان والعرج .أي لا يدخل داود إلى هنا .وأخذ داود حصن صهيون .هي مدينة داود"(صموئيل الثاني 5: 6 ــ 7) .

ثم ذهب ابشالوم بن داود إلى قريـــة أربع (حبرون) وأعلن نفسه ملكا هناك .(إنه ملـك على القرية المغارة)." وانطلق مع ابشالوم مائتا رجل من أورشليم ... فأتى مخبر إلى داود قائلا إن قلوب رجال إسرائيل صارت وراء ابشالوم فقال داود لجميع عبيده الذين معه في أورشـــليم قومـــوا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه ابشالوم فقال عبيد الملك للملك حسب كل ما يختاره سيدنا الملك نحن عبيده .فخرج الملك وكل الشعب في أثـــره .... وكانت جميع الأرض تبكي بصوت عظيم وجميع الشعب يعبرون . وعبر المـــــلك وادي

قدرون ، وعبر جميع الشعب نحو طريق البرية .. وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون كان يصعد باكيا ورأسه مغطى ويمشي حافيا وجميع الشعب الذين معه غطوا كل واحد رأسه . وكانوا يصعدون وهم يبكون "(صموئيل الثاني 15: 11،14 ـــ 16،30) .

" ...ولما جاء الملك داود إلى بحوريم إذا برجل خارج من هناك من عشيرة بيت شاول اسمه شمعي بن جيرا ، يسب وهو يخرج ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك داود وجميع الشعب وجميع الجبابرة عن يمينه وعن يساره .وهكذا كان شمعي يقول في سبه أخرج يا رجل الدماء ورجل بليعال . وقد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول الذي ملكت عوضا عنه وقد دفع الرب المملكة ليد ابشالوم ابنك وها أنت واقع بشرك لأنك رجل دماء (صموئيل الثاني 16: 5 ـــ 8) .

ذاكم كان مفهوم الملك والمدينة ، وتلكم هي الصورة التي ملك بها داود حسب مدونات التوراة . وإن بإمكان أي إنسان الآن أن يتصور أن أي رب أسرة في أية قرية كان بإمكان أن يجمع عددا من البطالين ، أو المشردين ، أو الهاربين من القانون ، أو قطاع الطرق ، أو من أفراد أسرته نفسها ، ويفرض بهم نفوذه على قريته أو على من حوله فيسطو ، ويسلب ، ويغنم ، أو يرأس ويتسلط كان يسمى ملكا بلغة ذلك الزمان في ذلك الوسط البدوي .

فلنقرأ معا : " وذهب ابيمالك بن يربعل إلى شكيم إلى أخوة أمه . وكلمهم وجميع عشيرته بيت أبي أمه قائلا تكلموا الآن في آذان جميع أهل شكيم أيما هو خير لكم . أن يتسلط عليكم سبعون رجلا جميع بني يربعل أم أن يتسلط عليكم رجل واحد . واذكروا أني أنا عظمكم ولحمكم . فتكلم أخوة أمه عنه في آذان كل أهل شكيم بجميع هذا الكلام . فمال قلبهم وراء ابيمالك لأنهم قالوا أخونا هو وأعطوه سبعين شاقل فضة من بيت بعل بريث فاستأجر بها ابيمالك رجالا بطالين طائشين فسعوا وراءه . ثم جاء إلى بيت أبيه في عفرة ، وقتل اخوته بني يربعل سبعين رجلا على حجر واحد . وبقي يوثام بن يربعل الأصغر لأنه اختبأ فاجتمع جميع أهل شكيم وكل سكان القلعة وذهبوا وجعلوا ابيمالك ملكا عند بلوطة النصب الذي في شكيم "(قضاة 9: 1 ـــ 6)

(إنه ملك على عشـــيرة صغيرة يقعد على "العرش " تحت بلوطـــة) وحينمـــا ســـطا جدعون (أبو ابيمالك) برجاله على إحدى قرى المديانيين ونهبوا أهاليها " قال رجـــال اسرائيل لجدعون تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك قد خلصتنا من يد مديان . فقال لهم جدعـــون لا أتسلط أنا عليكم ولا يتسلط ابني عليكم .الرب يتسلط عليكم . ثم قـــال لهم جدعـــون : أطلب منكم طلبة ، أن تعطوني كل واحد أقراط غنيمته ، لأنه كان لهم أقـــراط ذهب لأنهم إســـماعيليون "(قضاة 8 : 22 — 25) . (لاحظ كيف أن مضارب خيام بني إسماعيل أي بني إسماعيل بن إبراهيم وخيام بني إسرائيل الذي هو يعقوب ابـــن أخي إسماعيل في منطقة واحدة بل في موضع واحد ، فكيف صار بنو إسرائيل الذي هـــو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم في جنوب سوريا وبنو إسماعيل بن إبراهيم قرب مكة !)

2 — إن اسم "مدينة" قد يطلق على أي تجمع سكاني مستقر ، سواء أكان في مغاور ، أم في مضرب للخيام أو في بضعة بيوت ، أم في قرية ، أم في بلدة ،أو في مدينة وقد رأينـــا قرية أربع (حبرون) مثالا على ذلك .

ثم هاكم مثالا آخر أشد وضوحا : " ثم قالـــوا هوذا عيد الرب في شيلوه من ســـنة إلى سنة شمالي بيت إيل شرقي الطريق الصاعـــدة من بيت إيل إلى شكيم وجنوبي لبونـــة . وأوصوا بني بنيامين قائلين امضوا واكمنوا في الكـــروم ، وانظروا ، فإذا خرجت بنـــات شيلوه ليدرن في الرقص فاخرجوا أنتم من الكـــروم واخطفوا لأنفسكم كل واحد امرأته من بنات شيلوه واذهبوا إلى أرض بنيامين فإذا جاء آباؤهن أو اخوتهن لكي يشكوا إلينـــا نقول لهم تراءفوا عليهم لأجلنا لأننا لم نأخذ كل واحد امرأته في الحـــرب لأنكم أنتم لم تعطوهـــم في الوقت حتى تكونـــوا قد أثمتم . ففعل هكذا بنو بنيامين واتخذوا نســـاء حسب عددهم من الراقصات اللواتي اختطفوهن ، وذهبوا ورجعوا إلى ملكهم ، وبنـــوا المدن وسكنوا بها "(قضاة 21 : 19 — 24) .

إن "المدن" هنا لا تتجاوز في معناها البيوت إطلاقـــا أو المغاور وهذا لا يتنافى مع المعـــنى الأصلي لكلمة "المدينة" التي هي مكان الإقامة . إذ نجد في القاموس مدن بالمكان أي أقام فيه . أما "شيلوه" نفسها فتعني بالسريانية المغارة . و" شليو" المعتزل ، ساكن المغارة ،

وأورشليم هي حوراشليم تعني مغارة النساك المعتزلين

3 ــ لابد عند دراسة تحرك بيت إبراهيم ولوط من مكان لآخر من الأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية :

إن التحرك يضم رجالا ونساء ، وشيوخا .

إن التحرك هو مع كل الممتلكات والمقتنيات من قطعان ومواش وأمتعة .

إن القطعان والمواشي فيها الكبير والصغير ، العشار والمرضعات والمواليد الصغار .

إن التحرك رعوي ، أي إن الماشية تتقدم وهي ترعى ، ثم تقيل وتستريح ، أو أنها تنفق في الطريق .

إن قطعان إبراهيم ليست من النوع الذي يقطع الفيافي ، والمسافات الطويلة إلا على مراحل جد صغيرة وبسيطة ، فالأغنام لا تصلح أبدا للانتقال عبر المسافات .

ثم إنه لابد أيضا من أن نضع في الاعتبار أمورا أخرى من خلال استعراضنا لمضامين الحركة في البنود السبعة الماضية ، وهي :

1 ــ في البند الأول من أور الكلدانيين إلى حاران تجدر ملاحظة أن حاران هي مركز آرامي بدوي ، وقد رأينا آنفا أن الآراميين البداة هم في شبه جزيرة العرب ، وأن السريان منهم هم حكام بابل المحطة .إن حاران ، إذن هي في شبه جزيرة العرب ، وليست في أي مكان آخر ، وفيها أهل إبراهيم ، وبيت أبيه وعشيرته . وإن إبراهيم ينزح من حاران نزوحا نهائيا .

وهي على وادي الفرات (الثرات) شرقي غامد .

2 ــ في البنود الثالث والخامس والسادس تبرز أمامنا حقيقة التعامل مع الأشياء التفصيلية البسيطة كالخيمة والبلوطة والجبل ، وعين مشفاط ، وبطمة فاران والعين التي في طريق شور .. الخ ، وهذا مما ينسجم فعلا مع طبيعة تحرك بيت إبراهيم .

3 ــ مما يلفت النظر أن الملك الذي تصل إليه أخبار امرأة عجوز ، ويطلبها إلى بيته ، ويتحدث إلى بدوي كإبراهيم ويعتذر عن فعلته ليس ملك مصر وادي النيل الذي تمتلئ قصوره بالحسناوات ، ويصعب الوصول إليه ويستحيل أن يأخذ زوجة له بمثل

تلك الطريقة التي وصفتها مدونات التوراة ، كما أنه لم يكن يجوز له أن يتزوج إلا من البيت المالك كما سبق أن مر معنا . وبالتالي فإن الملك المقصود هو أحد "ملوك" العشائر من النماذج التي تحدّثنا عنها .إنهم من نماذج "ملوك المدن" الذين هاجموا لوط ، وأخذوه مع نسائه وممتلكاته ولحقهم إبراهيم بثلاثمائة من عبيده ، وهزمهم ، واسترجع لوطا ونساءه وممتلكاته .

4 ـــ إن الجوع الذي تعنيه مدونات التوراة في هذه المواضع هو جوع المواشي وفقدان المراعي ، إذ إن البدو أصحاب المواشي هم الذين عانوا الضائقة وغادروا الأرض ، وليس السكان الزراعيون . إن بني حث الكنعانيين الذين كان ينزل إبراهيم بينهم ، بينما رعاته وعبيده يرعون مواشيه في البرية ، لم يتأثروا بذلك "الجوع" كما هو واضح ، ولم تذكر النصوص أن أحدا منهم غادر أرضه أو قريته .

5 ـــ إن الأرض التي تتلهف نفس إبراهيم للإقامة فيها ، ويجد ذلك تعبيرا له في وعد الرب إبراهيم بأن تكون له ولأولاده من بعده ، هي البقعة بين السفوح ، حيث ينصب خيمته وعلى مرمى بصره وحركته ، وقد قام ومشى بها ، ونقل خيمته فيها من مكانها الأول ـــ حسب أمر الرب ـــ إلى عند بلوطات ممرا في مغارة أربع (حبرون) وليس معقولا أن يرى إبراهيم من النيل إلى الفرات وهو واقف تحت بلوطته!

وهكذا فقد تكشفت عملية التزوير في تفسير جغرافية الأسماء والمواقع باللغة اليونانية وأثار غضب المثقفين والمؤرخين السوريين ، الذين انبروا لفضح أكاذيب مفسري ذلك النص ، وبقيت تدوي صرخة فيلون الجبيلي في تقديمه لترجمة تاريخ سانخونياتن وتنتظر حينما قال :

"سانخونياتن البيروتي يقص ، مع الحرص الكبير على الحقيقة ، جميع ما له علاقة باليهود ، لأنه لم يغير الأمكنة أو الأسماء " ولقد هتف يسوع المسيح في وجه كهنة اليهود و " أنبيائهم" قائلا :" الحق أقول لكم إني أنا باب الخراف . جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص" .. (انجيل يوحنا 10 : 7، 8) ،وكان ارميا قد طفح به الكيل ، ولم يعد يطيق أن يحتمل كذب أولئك الكهنة الذي درجوا عليه ، فصاح يقول : "يا ليت لي

في البرية مبيت مسافرين فأترك شعبي وأنطلق من عندهم لأنهم جميعا زناة ، جماعة خائنين يمدون ألسنتهم كقسيهم للكذب .لا للحق قووا في الأرض ،لأنهم خرجوا من شـــر إلى شر وإياي لم يعرفوا يقول الرب . احتــرزوا كل واحد من صاحبه وعلى كـــل أخ لا تتكلوا ، لأن كل أخ يعقب عقبا وكل صاحب يسعى في الوشاية ، ويختــل الإنســان صاحبه ولا يتكلمون بالحق علموا ألسنتهم التكلم بالكذب وتعبوا في الافتراء . مسكنك في وســط المكر.." (ارميا 9 :2 ــ 6) ، " كيف تقولون نحن حكماء وشريعـة الـرب معنا ، حقا إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب" (ارميا 8: 8) ، " وإذا سألك هــذا الشعب أو نبي أو كاهن قائلا ما وحي الرب فقل لهم أي وحي . إني أرفضكم هو قــول الرب .. أما وحـــي الـــرب فلا تذكروه بعد لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه ، إذ قد حرفتم كلام الإله الحي" (ارميا 23: 33 ،36) وأخيرا جاء القرآن الكريم ليؤكد حقيقــة التزوير لهذا المؤلف"التوراة" حيث جاء في سورة الأنعام ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ﴾ (أنعام : 91)

مع ذلك كله فقد بقي المؤرخــون الذين أفرزهم عصر الاستعمار والصهيونية يكتبــون تاريخنا ، ويرسمون جغرافيتنا ، بناء على الأســاس المزور وعلى التفسير الصهيوني المـزور لأحداث التوراة وجغرافيتها .

إن نظرة واحدة إلى الأســماء الجغرافية التي تضمنتها رحلة إبراهيم من أور الكلـدان إلى أرض كنعان ، والأسماء التي ورد ذكرها من خلال إقامته هناك ،تجعلنا نميزها إلى فئتـين : الفئة الأولى : هي الأسماء القابلة لأن تعــرف مثل أور ، حاران ،أرض كنعان ، مصـر ، قادش ، والفئة الثانيــة : هي أسماء التضاريس المحلية التفصيلية ، والمواضع الجزئية المحيطـة بإقامة الفرد أو الأسرة مثل البئر ، عين الماء ، الجبل، الوادي، موقع الخيمة ، بلوطة ممرا ، بطمة فاران ...الخ ، التي تستحيل معرفتها .

وبناء على التبديل في أسماء الأماكن والمواقع ،الذي حدث منذ التوراة السبعونية اليونانية، فقد درج المؤرخون على اعتبار حاران في أعلى الفرات في شمالي سوريا ، وبــلاد كنعان هي ســوريا المتوسطية كلها ، وأن مصر المقصودة هي مصر وادي النيل ، وأن فلسطين

هي الجزء الجنوبي من سوريا المتوسطية ، وبناء عليه فإن الأرض التي وقف إبراهيم يتملاها بعينيه . ويتمشى فيها ، ونقل لها خيمته من تحت شجرة إلى أخرى ووعده الرب بأن يجعلها ملكا له ولنسله من بعده هي الأرض الممتدة من الفرات إلى النيل !
يقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه "مفصل العرب واليهود في التاريخ" حول الطريق التي سلكها إبراهيم في هجرته إلى كنعان :
"يتفق الخبراء على أن إبراهيم سلك طريق الفرات الأيمن في رحلته من أور إلى حران . وهي نفس الطريق التي كانت تسلكها القوافل وكانت مع إبراهيم الخليل جماعته وممتلكاته من قطعان الأغنام والمعزى والحمير والجمال ، فيكون قد قطع في هذه الرحلة 560 ميلا (900 كيلومتر) بين أور وحران .فمر أولا بمدينة "ماري" السامية وهي عاصمة العموريين الذين ظهرت منهم السلالة البابلية الأولى والملك حمورابي الشهير ، وقد كانت هذه المدينة آنذاك تتمتع بأوج ازدهارها ثم ذهب منها إلى حران ، وبعد ذلك غادر حران متوجها إلى دمشق بطريق تدمر ، ومنها إلى فلسطين قاطعسا مسافة حوالي 600 ميل (960 كيلومتر) أخرى بين حران وكنعان . أما الطريق الذي سلكه في سفرته إلى مصر فهو اختراق صحراء شبه جزيرة سيناء ،حيث القبائل المديانية والقينية" .
"وقد ذهب الأستاذ لورد إلى أن الطريق التي سلكها إبراهيم الخليل كانت بمحاذاة الجانب الأيسر من نهر الفرات ، وهذه الفرضية غير مقبولة لكثرة العوارض في هذا الجانب فضلا عن أن جميع المدونات القديمة تشير إلى أن الطريق العام ، طريق القوافل، كان يسير بمحاذاة الجانب الأيمن من الفرات مارا بمدينتي هيت وعانة ، ثم ببلدة ماري عاصمة العموريين الشهيرة ، وبعد أن يمر بمدينة البوكمال والميادين ودير الزور يعبر الفرات عند الرقة ، ثم يصعد شمالا مع نهر البليخ حتى يصل إلى حران"[1]
إن هذا النص يعتبر نموذجا لما يرد في كتب التاريخ جميعها دونما استثناء . وإن مناقشتنا للجغرافيا التي يطرحها هي مناقشة لكل المؤرخين الذين اعتمدوا الجغرافيا التوراتية المزورة

(1) انظر : الدكتور أحمد سوسة ،"مفصل العرب واليهود في التاريخ" ص 514 ــ515 .
و: Rev,F.T.Lord ,The Story Of The Bible Vol . I ,P.32

حتى اليوم . وما تزال الكتب المنقولة والمترجمة والموضوعة تتدفق على الأسواق العربية ، لا لتفعل شيئا غير أنها تزيد من ترسيخ هذه المفاهيم المنافية لكل منطق في التاريخ وفي الجغرافيا على حد سواء . ولنبدأ بمناقشة هذه الأماكن .

حران

حينما درسنا العرب الأموريين رأينا كيف أن هؤلاء كانوا في الدرجة الأولى ، يشغلون سوريا الغربية ، أي التي تسمى اليوم سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن ، وأن "السهل السوري العظيم "الممتد من حوض الفرات الأعلى إلى منطقة حلب وإنطاكية ، اعتبره كثير من المؤرخين المهد الأول للحضارة الزراعية ، وأن ماري هي عاصمة الدولة الأمورية المزدهرة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، وبالتالي ،فإن المنطقة هي منطقة استقرار زراعي مديني متقدم في مضامير التطور ، وأن البيئة بعيدة عن أن تكون بيئة لتجمعات القبائل البدوية الرعوية ، الجوالة في السهوب والبراري الداخلية المتاخمة لمناطق الاستقرار الزراعي في الهلال الخصيب .

وحينما تحدثنا عن الآراميين رأينا كيف أن انتشارهم كان في شبه جزيرة العرب الداخلية من الحجاز إلى اليمن وصعودا إلى برية غرب الفرات في جنوب بابل .

ولقد تأكد لنا أيضا ، ومن خلال كل المصادر ، أن حاران (أو حران) كانت أحد مراكز العرب الآراميين في البادية، وهي مركز مضارب حاران أحد أحفاد أرام بن سام، وأن سكانها جميعا كانوا من الرعاة وأصحاب المواشي الذين يمارسون التجارة في البادية أيضا . وتأكد لنا ، ومن خلال جميع المصادر أيضا ، أن من دعوا بـ "الخبيرو" كانوا يقترنون دائما بالعرب الآراميين سكان البادية في شبه جزيرة العرب .

ولقد أجمع المؤرخون على أن إبراهيم كان أحد رؤساء البدو الأغنياء ، الذين يملكون القطعان الكبيرة من الماشية ، كما يستخدمون عددا كبيرا من الرعاة والخدم . وأن مثل هذه القطعان الكبيرة لا مكان لها في وسط زراعي متطور مثل حوض الفرات الأعلى الذي بقي يعتبر إحدى الجنات على الأرض حتى زمن متأخر من الخلافة العباسية .

ثم إن حران كانت مقر بيت أبي إبراهيم وأهله الذين عادوا إليه جميعا حينما ضاقت بهم الأحوال في برية أور غربي الفرات وجميعهم من العرب الآراميين ، وقد أخذ منهم زوجته سارة ، وهكذا فعل أبناؤه من بعده ، كانوا جميعا من أصحاب الماشية الذين يمتهنون الرعي .

أما من حيث المنطق الجغرافي ، فقد ذكر الدكتور سوسة أن المسافة التي قطعها إبراهيم من حاران إلى تدمر ، فدمشق ، ففلسطين (وقد توخيئ أقرب طريق) " كانت 960 كيلومترا " ، إن مثل هذه المسافة تستغرق ممن يريد أن يقطعها سيرا على قدميه قرابة الشهرين ، لأن من يقطعها مشيا لا يمكن أن تتجاوز سرعته العشرين كيلومترا يوميا ، ولاسيما وأن عليه أن يقطع بوادي رملية وسهوبا محجرة وعرة ، وأن جل وقته سوف يكون ما بين التيقظ والمراقبة والاستراحة .ومع هذا فإننا نجد أن يعقوب يقطعها في نصف يوم سيرا على قدميه ، لنقرأ معا :

"فدعا اسحق يعقوب وباركه وأوصاه وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان .قم اذهب إلى فدان أرام إلى بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخي أمك ...

"فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران . وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت . وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان ونام .. وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عمودا وصب زيتا على رأسه . ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل ، ولكن اسم المدينة أولا كان لوزة .. ثم رفع يعقوب رجليه وذهب إلى أرض بني المشرق . ونظر وإذا في الحقل بئر وهناك ثلاثة قطعان غنم رابضة عندها لأنهم كانوا من تلك البئر يسقون القطعان والحجر على فم البئر كان كبيرا .فكان يجتمع إلى هناك جميع القطعان فيدحرجون الحجر على فم البئر ويسقون الغنم . ثم يردون الحجر على فم البئر إلى مكانه . فقال لهم يعقوب يا أخوتي من أين أنتم .فقالوا نحن من حاران . فقال لهم هل تعرفون لابان بن ناحور . فقالوا نعرفه .فقال لهم هل له سلامة . فقالوا به سلامة ،

وهوذا راحيل ابنتــه آتيــة مع الغنم . فقال هوذا النهار بعد طويل .ليس وقت اجتمـاع المواشي . اســقوا الغنم واذهبوا ارعوا .فقالوا لا نقدر حتى يجتمــع جميــع القطعــان ويدحرجوا الحجر عن فم البئر ، ثم نسقي الغنم .

"وإذا هو بعد يتكلم معهم أتت راحيــل مع غنم أبيها لأنها كانت ترعى فكان لما أبصـر يعقوب راحيل بنت لابان خاله وغنم لابــان خاله أن يعقوب تقدم ودحرج الحجر عـن فم البئر وسقى غنم لابان خاله . وقبل يعقوب راحيل ورفع صوته وبكـــى . وأخـبر يعقوب راحيل أنه أخو أبيها وأنه ابن رفقة فركضت وأخبرت أباها ، فكان حين سمـــع لابان خبر يعقوب ابن أخته أنه ركض للقائه وعانقه وقبله وأتى به إلى بيته " (تكوين 38 1: — 10،3 — 02 ، 16 — 20 ، 1 — 14)

لقد قطع ، إذن ، يعقوب المســافــة من بئر السبع إلى حاران سيرا على قدميـــه ، في بضع ساعات ، ولنفترض أن ذلك استغرق معه يومــا كاملا ، بل يومين ، فإن هـــذا يعني أن المسافة التي قطعها لا تجاوز 40 — 50 كيلومترا بأية حال .

إن هذا الرأي الذي نجزم به تؤكده أحـــداث أخرى من مدونات التوراة ذاتها ،فيعقـوب الذي قام في بيت خاله يرعى له قطعانه قرابــة خمســة عشرة عاما لقاء أن زوجه ابنتيـه ليئة ثم راحيل ، ثم لما رأى أن نفس خاله لابان تغيرت نحوه بعدما أخذ أجرته من الغنم ، قرر أن يهرب بزوجتيه وجاريتيهما وأولادهن جميعا وبغنمه ومقتنياته إلى أرض كنعان :

" فأرســل يعقوب ودعا راحيل وليئة إلى الحقل إلى غنمه .وقال لهما أنـــا أرى وجـــه أبيكما أنه ليس نحوي كأمس وأول من أمس .. وأنتما تعلمان أني بكل قوتي خدمـــت أباكما . وأما أبوكما فغدر بي وغير أجرتي عشر مرات ..

" فأجابت راحيل وليئة وقالتا له ألنا أيضا نصيب وميراث في بيت أبينا . ألم نحسب منـــه أجنبيتين ، لأنه باعنا وقد أكل أيضا ثمننا . إن كل الغنى الذي سلبه الله من أبينا هو لنـــا ولأولادنا . فالآن كل ما قاله لك الله افعل .

" فقام يعقوب وحمل اولاده ونساءه على الجمال وساق كل مواشيه وجميع مقتناه الــذي كان قد اقتنى . مواشي اقتنائه التي اقتنى من فدان أرام ليجيء إلى اسحق أبيـــه إلى أرض

كنعان . وأما لابان فكان قد مضى ليجز غنمه فسرقت راحيل أصنام أبيها . وخدع يعقوب قلب لابان الآرامي إذ لم يخبره بأنه هارب .فهرب هو وكل ما كان له وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد . فأخبر لابان في اليوم الثالث بأن يعقوب قد هرب . فأخذ اخوته معه وسعى وراءه مسيرة سبعة أيام .فأدركه في جبل جلعاد " (تك31 : 4 — 26)

وهكذا ،فقد كانت عودة يعقوب هذه المرة من حاران إلى أرض كنعان مختلفة ، إذ معه النساء والأطفال ومقتنياته من الأغنام التي لا يمكن أن يسوقها سوقا ، بل يوجهها وهي ترعى في اتجاه واحد هو أرض كنعان ، ووجهه على جبل جلعاد . وقد استغرقت منه المسافة عشرة أيام فقط من الرعي وليس من المسير . ومن المعلوم أن الأغنام لا يمكن أن تقطع اكثر من خمسة كيلومترات في اليوم وهي ترعى ، فتكون المسافة التقديرية هي نفسها خمسين كيلومترا لا أكثر . ويؤكد كلامنا هذا أن عيسو حينما علم بمقدم أخيه يعقوب بعد هذا الغياب الطويل خرج للقائه . وبعد أن سأله عن نسائه وأولاده وأغنامه وأبقاره قال له : "لنرحل ونذهب وأذهب أنا قدامك .فقال له سيدي عالم أن الأولاد رخصة والغنم والبقر التي عندي مرضعة . فإن استكدوها يوما واحدا ماتت كل الغنم . ليجتز سيدي قدام عبده ، وأنا أستاق على مهلي في أثر الأملاك التي قدامي وفي أثر الأولاد حتى أجيء إلى سيدي .. ثم أتى يعقوب سالما إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان حين جاء من فدان أرام . ونزل أمام المدينة وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حمور أبي شكيم بمئة قسيطة (تك 23: 12 — 20)

فمن هو ذاك الرجل الذي يرعى غنمه وبقره المرضعة في أعالي الفرات ووجهه على جبل جلعاد في فلسطين ! ثم يقطع بها وبأولاده " الرخصة " مسافة ألف كيلومتر في عشرة أيام ! إنه الموقف نفسه من الجغرافيا يتكرر : إبراهيم ينظر من خيمته تحت البلوطة إلى الأرض التي أمامه فيرى من نهر الفرات إلى نهر النيل . وهاهو يعقوب يقف في حاران في أعلى الفرات ووجهه على جبل جلعاد في فلسطين! وكان من ذي قبل قد " رفع رجليه وذهب إلى أرض بني المشرق" وليس إلى أرض الشمال حينما قصد حران .

وقبل أن نحدد موقع كل من حران وأرض كنعان في شبه الجزيرة العربية لابد أن نتحدث عن العلاقة الجغرافية بين مصر وكنعان ، أولا ، من خلال مدونات التوراة نفسها ، حتى تتضح العلاقة الجغرافية الشاملة لكل المواقع التفصيلية الأخرى .

فلنبدأ بـــ"مصر" التوراتية.

مـــصـــر

لقد رأينـــا ، من خلال دراستنا لتاريخ سانخونياتن ، أن هنالك أرض ميسور وصديق في غـــرب شـــبه جزيرة العرب ، اللذين خرجا من القـــرى والمراعي التي خططها أمـــون وماجـــون ، وأن "ميسور" هـــذا "ولد تأوت " الذي اكتشفت الكتابة وصاغ ، أولا ، الحروف . ويدعوه المصريون ثور Thor ، والاسكندريون تووت والاغريق هرمس (النبذة VIII) وهـــم من العرب الجبابرة الذين جاء منهم أبناء قانئ Chna' ، أخي أوزيريـــس ، "والذي كان أول من غير اسمه إلى فينيق" (النبذة XVI) .

ورأينا أيضا أن أولاد حـــام هم كوش ، ومصرايم ، وفـــوط ، وكنعان . وقد انتشـــروا بصورة رئيسية على السواحل الجنوبية (من ســـواحل عمان إلى سواحل الحبشة والبحـــر الأحمر) ، وأن القبط الذين ســـكنوا وادي النيل هم من أولاد مصرايم ، وقد ســـكنت بعض هذه الفـــروع الحامية متـــلاصقة في منطقة غامد وزهران الخصيبة ، إلى جـــانب الكنعانيين الآخرين وازدهرت زراعيا ، وصار محط أطماع وأنظار الفروع القبلية البدويـة الأخرى في برية العرب ، والتي لا يكاد يفصلها عنها غير سلسلة الجبـــال والجـــرود أو المخاضات (يردن) الممتدة من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة البحر الأحمر .

أما بنو مصرايم الذين استقروا في جنوب بلاد غامد وزهران من شبه جزيرة العرب فـــهم الذين جاوروا أبناء عمومتهم من كوش وكنعان في بقعة واحدة ثم انتشروا إلى الســـواحل الجنوبية باتجاه الحبشة . وهم الذين تقصدهم مدونـــات التوراة إذ تقول : " ومصـــرايم ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم وفتروسيم وكسلوحيم الذين خرج منهم فلشـــتيم وكفتوريم " (تك 10: 13، 14) .

ونحن إذا ما نظرنا إلى الخارطة المفصلة اليوم لشبه الجزيرة العربية نرى أن مصريم (المصريين) هذه ما تزال تحملها مصرين ومصروم في سراة غامد ، وآل مصري إلى الشمال منها في منطقة الطائف والمصرمة قرب خميس مشيط .

أما من حيث العلاقة الجغرافية من خلال مدونات التوراة فإننا نسجل النقاط التالية :

أولا : حينما عاد إبراهيم من مصر إلى أرض كنعان لم يتجه شمالا ، كما هو المفروض فيمن يتجه من مصر وادي النيل إلى فلسطين ، وإنما اتجه جنوبا إلى بلاد كنعان : " فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب " (تك12: 20، 13: 1) وإذا ما عرفنا أن أرض الجنوب ترجمة لكلمة " ميدي " كما مر في نص سانخونياتن أو لكلمة نجي التي ما تزال إلى اليوم على الخارطة جنوب جرار (قرار) اتضح لنا كل شيء .

ثانيا : حينما يموت يعقوب في مصر ، يقرر يوسف واخوته وكل بيت أبيه تنفيذ وصيته ودفنه في أرض كنعان . إن في إمكان أي منا أن يتصور إن كان يمكن أن يدور في خلد أحد أن يعبر صحراء سيناء حاملا ميته من مصر إلى فلسطين من أجل أن يدفنه . وإذا علمنا أن من يقطع مثل هذه المسافة التي لا تقل عن ألفي كيلومتر ذهابا وإيابا هي كمن يقرر أن يذهب إلى الاتحاد السوفييتي اليوم سيرا على قدميه أدركنا أن فلسطين ومصر وادي النيل لا شأن لهما بإبراهيم أو بيعقوب أو بيوسف . وليس هذا فحسب ، فإن نصوص التوراة تبين لنا كيف أن أولئك الذين خرجوا مع الجنازة تركوا أولادهم وغنمهم وبقرهم ترعى في البرية إلى أن يفرغوا من دفن يعقوب ويعودوا ، مما لايترك لنا أي مجال للشك بأن مصر المقصودة ليست إلا قرية مصر ، أو كما تسميها التوراة "عشيرة مصر" ، وأن أرض كنعان هي قطعة الأرض التي تتاخمها وتسكنها جماعة أو أسر كنعانية ، وقد يفصل بينهما واد أو سفح جبل ، وحيث توجد قرى الكنعانيين ، كما يجب ألا يغيب عن الذهن أن كلمة فرعون هي تسمية كنعانية محلية قديمة لكلمة

" فرعه "* وكانت تعني ملك قرية في غرب شبه الجزيرة كواحد من أعوان الملك ولم تطلق على أي حاكم أو ملك في مصر وادي النيل . وهؤلاء "الفراعين" كان يتم تعيينهم من قبل الجهة التي تسيطر على مناطق خطوط التجارة في تلك المنطقة وتجعلهم وكلاء لها وحراساً عليها وكنا قد أوضحنا ماذا كان يقصد بكلمة "ملك". ولما كان بنو اسرائيل قد عاشوا بين ظهراني الكنعانيين فقد اقتبسوا هذه الكلمة واستخدموها في مدوناتهم ، ومنها انتقلت إلى كتب التاريخ بعد الانتشار الكبير لترجمات التوراة إلى عشرات اللغات عن السبعونية اليونانية .

تقول التوراة : " فصعد يوسف ليدفن أباه ، وصعد معه جميع عبيد فرعون شيوخ بيته وجميع شيوخ أرض مصر ، وكل بيت يوسف واخوته وبيت أبيه غير أنهم تركوا أولادهم وغنمهم وبقرهم في أرض جاسان .. فأتوا إلى بيدر أطاد الذي في عبر الأردن وناحوا هناك نوحاً عظيماً وشديداً جداً ، وصنع لأبيه مناحة سبعة أيام . فلما رأى أهل البلاد الكنعانيون المناحة في بيدر أطاد قالوا هذه مناحة ثقيلة للمصريين ، لذلك دعي اسمه إبل مصرايم الذي في عبر الأردن . وفعل له بنوه هكذا كما أوصاهم حمله بنوه إلى أرض كنعان ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة التي اشتراها إبراهيم مع الحقل ملك قبر من عفرون الحثي أمام ممرا . ثم رجع يوسف إلى مصر هو واخوته وجميع الذين صعدوا معه لدفن أبيه بعدما دفن أباه "(تك50 : 7 — 15) .

ثم ما حاجة القادمين من مصر إلى فلسطين لأن يعبروا نهر الأردن ؟ وما هي تلك الـ "مصر" التي يخرج جميع شيوخها ووجهائها وجميع عبيد ملكها الذي هو "فرعون" من أجل دفن ميت في مغارة ؟ أيمكن أن تكون مصر وادي النيل إحدى أكبر مراكز

---

* ما تزال القرى التي اسمها "فرعة" منتشرة في غرب الجزيرة العربية من منطقة مكة إلى سراة زهران إلى وادي بيشة . وقد ملك على بني إسرائيل أحد سكان قرية "فرعة" هذه التابعة لقرى المصريين التي كانت تنتشر في منطقة غربي الشعف من بلاد زهران :"وقضى بعده لإسرائيل عبدون بن هليل الفرعتوني وكان له أربعون ابنا وثلاثون حفيداً يركبون على سبعين جحشا قضى لاسرائيل ثماني سنين "(قضاة 12 :13 —15) .

ونحن نجد في قواميس اللغة حتى اليوم ان كلمة "فَرَعَ"القوم علاهم بالشرف أو بالجمال — و بالرياسة ، والفرس باللجام كبحه ، وفلان القوم ركبهم وعلاهم . والفارع أحد أعوان الشيطان وجمعها فرعة .

الحضـــارة القديـــمة في العالم زمن يعقوب ؟ إن التوراة في الواقع ، لا تلبث أن توضـح لنا صورة "مصر"العشيرة ، لا مصر البلاد الواسعة على ضفاف النيل .

فلنقرأ :

" ثـــم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف . فقال لشـــعبه هـــوذا بنـــو اسرائيل شعب أكثر وأعظم منا . هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب انهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون في الأرض "(الخروج 1:8 — 11) .

أهذه حقاً هي مصـــر وادي النيل التي كان تعداد جيش رعمسيس فيها وحده في ذلـك الوقت يعد مئات الألوف ، بينما : " وهـــذه أسماء بني اسرائيل الذين جاؤوا إلى مصر . مع يعقوب جاء كل إنسان وبيته . رأوبين وشـــمعون ولاوي ويهوذا ويسّاكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير . وكانت جميـــع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفساً ، ولكن يوسف كان في مصر"! (الخروج 1 :1 — 6)

ثالثاً : إن ملوك مصر وادي النيل ، كانوا يرفضون تزويـــج الأميرات أو الأمراء منهم إلا من أفراد الأسرة الحاكمة نفسها .بينما نجد أن غـــلاماً صغيراً يفرّ من وجه داود مـــن أرض مديان إلى مصر ، فيزوجه ملك مصر أخت زوجته : "وحدث لما كـــان داود في أدوم عند صعود يوآب رئيس الجيش لدفن القتلى وضرب كل ذكر في أدوم ، لأن يوآب وكل اسرائيل أقاموا هناك ستة أشهر حتى أفنوا كل ذكر في أدوم ، أن هدد هرب هـــو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا مصر .وكان هدد غلاماً صغيراً ، وقاموا مـــن مديان وأتوا إلى فاران وأخذوا معهم رجالاً من فاران وأتوا إلى مصر إلى فرعون ملـــك مصر ... فوجد هدد نعمة في عيني فرعـــون جداً وزوّجـــه أخت امرأته أخت تحفنحيس الملكة فولدت له أخت تحفنحيس جنويث ابنه وفطمته تحفنحيس في وسط بيت فرعون " (الملوك الأول :15 — 20)

مـــرة أخرى نجد أن غلاماً صغيراً يفر من وجه داود في أرض كنعان إلى مصر وكأنمـــا يفرّ من بيت أبيه إلى بيت خاله في القرية الواحدة . والحقيقة أن الأمـــر لا يتعدى كوننا نتعامل مع قرى وزعماء قرى أو عصابات أو عشائر أو أسر فنحن نجد في هذا النـص أن

جيش "الملك داود" وكل اسرائيل صعدوا إلى قرية أدوم من أجل قتالـها ، وأدوم هو نفسه عيسو أخو يعقوب . ولما فرّ غلام صغير من وجه داود لن يتعدى فراره الانتقال من داخل القرية إلى البرية ، أو السفوح ، أو الأحراش ، أو القرى المجاورة ، حيث لكل قرية "ملك" ، ولو عاش مثل هذا الغلام اليوم في عصر الطيران ، وفرّ من خصومه في فلسطين لما استقل طائرة وهرب إلى مصر ، ولما تجاوز فراره الأردن ، طالما أنهم يعتبرون أدوم مجاورة للضفة الشرقية من نهر الأردن !

والحقيقة هي أن كل مدونات التوراة ، رغم كل ما بذله المزورون الجغرافيون ، ما تزال تحكي أن مصر قرية متاخمة لقرى كنعان ، تتبع لها مجموعة من القرى أو المنازل الأصغر ، وقد كان لكل بلدة أو قرية ملك لقبه "فرعون" ومن هنا كان كلما اضطر واحد من الناس ، الصغار منهم أو الكبار ، إلى الفرار من خطر ما أو مواجهة معينة ، لم يكن يخطر له أي شيء من الجوار غير "مصر" . وهذا يجعلنا نتصور أن هذه الـ"مصر" لم يكن يفصلها عن قرى كنعان إلا ما يفصل القرية عن الأخرى ، من وادٍ أو جبل أو ما شابه ذلك .

وها نحن نقف أمام حادثة أخرى من هذا القبيل : إن يربعام عبد سليمان يهرب منه إلى مصر ، حينما عزم على قتله ، لا إلى غيرها : وطلب سليمان قتل يربعام ، فقام يربعام وهرب إلى مصر إلى شِشنق ملك مصر . وكان في مصر إلى وفاة سليمان "(الملوك الأول 11: 40) .

رابعاً : وهاهو موسى يأخذ امرأته وأطفاله (ويقطع صحراء سيناء !) بين مديان ومصر ، وكأنه ينتقل بهم من قرية إلى أخرى ، علماً أن مسافة صحراء سيناء تقارب الألف كيلو متر ، وهذا يتطلب اليوم عشر ساعات كاملة على طريق دولي وبسيارة سريعة حديثة . بينما مثل هذه المسافة قد تتطلب أشهراً لموسى وأطفاله ، مع حساب أوقات الراحة والمبيت ، علماً أن أحداً لم يكن يغامر حتى في الخيال بقطع تلك الصحراء التي كانت الجيوش بعرباتها وخيولها تعتبرها من المغامرات المفزعة .

خامساً : وحين خروج بني إســرائيل بقيادة موسى من مصر إلى فلسطين التي هي أرض كنعان ، حسبما يرى الجغرافيون التوراتيــون ، نراهم يسلكون طريقاً إلى أرض كنعــان بعدما داروا من خلف أرض الفلسطينيين ، تفاديــاً لأي صدام معهم ، فستكون صدمـة لبني اسرائيل ، فيمتنعوا عن الرحيل ويعودوا إلى مصر من جديد : " وكان لمـــا أطلــق فرعــون الشعب ، أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبـة ، لأن الله تعالى قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر ، فأدار الله الشعب في طريق برية بحرسوف . وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر "(الخروج 1: 17 ، 18).

والمذهل في الأمر أن جميع المؤرخين يقولون إن خروج موسى بجماعته من مصر كـان في حوالي القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد ، وإن جماعات "الفلسطينيين" بـدأت تتوافد نحو سوريا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، "وقد سمح لهــا ، بعــد أن هزمـــها رعمـــسيس الثالث ، أن تنزل بصورة دائمة في ساحل سوريا الجنوبية الذي صار يسمى فلسطيا Philistie"[1] .

"وكانت فلســطين الجنوبية البلد الوحيد الذي كان عدد المهاجرين الايجين فيه كافيــاً لاحتلاله وتأليف أمة منهم . وهكذا استطاعت قبيلة كريتية عرفت باسم الفلسطينيين* أن تحرز لنفسها مقاماً وتبني عدداً من المدن الزاهرة في القرن الثاني عشر"[2]

فكيف يخرج جماعــة موسى في القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد ، ويتفادون المرور من أرض الفلســطينيين ، الذين سوف يفدون من البحر بعد قرن من الزمان على الأقل ، في طريقهم إلى أرض كنعان؟ ثم كيف يفــد هؤلاء الفلسطينيون من كريت أو إيجه كشعوب بحر في القرن الثاني عشر وكان إبراهيم قد تغرّب عند أبيمــــالك ملــك الفلسطينيين في جرار ، وأثم مع امرأته سارة هنالك ؟ وهل هذا غير توطئة لإلغاء شــعب فلسطين من أجل تهجير اليهود وتوطينــهم في أرض بــلا شـــعب " كمــا تدعــي

(1) انظر فيليب حتي : تاريخ سوريا ، ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص 196 .
* لسنا الآن في صدد مناقشة صحة هذه المزاعم التي اجمعت عليها حتى الآن كل كتب التــاريخ أنها اعتمدت منذ الأساس على تفاسير صهيونية مزورة . وهمنا الآن التركــيز علــى تنــاقض هؤلاء المؤرخين فقط وسوف نتناول هذه المواضيع عند مناقشتنا للفلسطينيين .
(2) الدكتور جايمس هنري براستد "العصور القديمة" ص 278.

الصهيونيـــة ؟ ثم أليست أرض الفلسطينيين ــ كما يجمع أولئك المؤرخون أنفســـهم ــ هي السهل الساحلي من كنعان ؟ فكيف يكون هذا السهل إذن فاصلاً بين مصر وأرض كنعان مما اضطر الموسويين للدوران من حوله؟ ثم أية أراض للفلسطينيين قريبة من مصـــر بحيث يصطدمون بها فور خروجهم من مصر ، ولماذا هي قريبة وأرض كنعان بعيدة ؟

إن الجواب على هذا هو أن الخروج كان من أرض المصريين في جنوب بلاد زهـــران في منطقـــة الأنهار المنحدرة باتجاه السفوح الغربية . وأن أرض الفلسطينيين هذه ليســـت إلا أرض سكان فلسة وما حولها . وكان اسمها "فلشة" وسكانها كانوا يسمون "فلشتيم"* . وهي جنوب بلـــدة الشعف الحالية في بلاد زهران . وإلى الجنوب منها تمتد بلاد كنعـــان جنوب بلاد زهران وغامد .

سادساً : لقد اعتاد كهنة بني اســـرائيل أن يسموا أنفسهم أنبياء . وكان كـــل منـــهم يسعى إلى وصف ما حدث في عهده بناء على نبوءة كان قد تنبأ بها وتحققت : فحينمـــا حدث أن قدم نبوخذ نصر بجيشه من بابل المحطـــة من أجل ضرب العصابات ممن أخلّوا بأمن تلك المنطقة الحساسة بالنسبة للدولة العربية السورية ومركزها في بابل ، بأعمـــال القتل والسطو والنهب وقطع الطرقات ، مما هدد خطوط القوافل والتجـــارة الدوليـــة ، وبالتالي ، وصول كل السلع الثمينة القادمة من جنوب شـــبه الجزيرة ومصر وســـاحل إفريقيا إلى مركز الدولة ، وقـــام بضرب كل الفئات المخلة بأمن هذه التجارة ، انـــبرى أولئك "الأنبياء" للادعاء بأنهم تحدثوا بها قبل حصولها : " في السنة العاشرة في الثاني عشر من الشهر العاشر كان إليّ كلام الرب قائلاً يا ابن آدم اجعل وجـــهك نحو فرعون ملك مصر وتنبأ عليه وعلى مصر كلها . تكلم وقل هكذا قال السيد الرب . هاأنذا عليك يـــا فرعون ملك مصر ، التمساح الكبير الرابض وسط أنهاره .. بذلتك طعاماً لوحوش الـــبر ولطيور السماء . ويعلم كل ســـكان مصر إني أنا الرب من أجل كونهم عكاز قصـــب لبيت اسرائيل . عند مسكهم بك بالكفّ انكسرت ومزقت لك كل كتف ، ولما توكأوا

---

* لما كانت (يم) هي علامة للجمع المذكر بالكنعانية فإن "فلشتيم" تعني بالعربية "الفلســـطينيين" بعد إبدال الشين سيناً كما هي القاعدة بين الكنعانية والعربية العرباء (أو الفصحى) ومن هـــؤلاء من ذهب إلى الحبشة بعد أن ضرب نبوخذ نصر المنطقة هناك فيما بعد ودعوا الفلشة .

عليك انكسرت وقلقلت كل متونهم .. لذلك هاأنذا عليك وعلى أنهارك . وأجعل أرض مصـــر خرباً خربة مقفرة ... لا تمر فيها رجل إنسان ولا تمرّ فيها رجل بهيمة ولا تسكن أربعين سنة واجعل أرض مصـــر مقفرة في وسط الأراضي المقفرة ومدنها في وسط المدن الخربة تكون مقفرة أربعين سنة . واشتّت المصريين بين الأمم وأبددهم في الأراضي .لأنه هكذا قال السيد الرب عند نهايـــة أربعين سنة اجمع المصريين من الشعوب الذين تشـتتوا بينهم . وأرد سبي مصر وأرجعهم إلى أرض فتروس إلى أرض ميلادهم ويكونون هنـــاك مملكة حقيرة تكون أحقر الممالك " (حزقيال 29: 1 ــ 4 ، 5 ــ 15) . " ويأتي ســـيف على مصر ويكون في كوش خوف شديد عند سقوط القتلى في مصر ، ويأخذون ثروتها وتهدم أسسها . ويســـقط معهم بالسيف كوش وفوط ولود وكل اللفيف وكوب وبنـو أرض العهد" (حزقيال 30: 4 ــ 6) . وأجعل الأنهار يابسة وأبيع الأرض ليد الأشـــرار وأخرب الأرض ... وأبيد الأصنام وأبطل الأوثان من نوف . ولا يكون بعد رئيس مــن أرض مصر . وألقي الرعب في أرض مصر . وأخرب فتروس وأضرم نـــاراً في صوعـــن وأجري أحكاماً في نو واسكب غضبي على سين حصن مصر واستأصل جمـــهور نـــو وأضرم ناراً في مصر . سين تتـــوجع توجعاً ونو تكون للتمزيق .. شبان أون وفيبســـتة يسقطون بالسيف وهما تذهبان إلى السبي ، ويظلم النهار في تحفنحيس عند كسري أنيـار مصر .. أما هي فتغشاها سحابة وتذهب بناتها إلى الســـبي "(حزقيـــال 30 :12 ـــ20) . "وكان في السنة الثانية عشرة في الشهر الثاني في أول الشهر أن كلام الرب صار إلي قائلاً يا ابن آدم ارفع مرثاة على فرعون ملك مصر وقل له .. اندفعت بأنهارك وكدرت المـــاء برجليك وعكرت أنهارهم .. سألقي لحمك على الجبال " (حزقيـــال 30 :2، 3، 5، 6) واضح هنا كيف أن عشيرة مصر عند أعالي الأنهار التي تجري إلى أرض العشائر الأخرى. وكان في السنة الثانية عشرة في الخامس عشر من الشهر أن كلام الرب كان إلي قـائلاً : يا ابن آدم ولول على جمهور مصر .. قد نـــزلوا اضطجعوا غلفا قتلى بالسيف .هنـــاك آشور وكل جماعتها قبوره من حوله . كلهم قتلى ساقطون بالسيف .. هناك ما شـــك وتوبال وكل جمهورها حول قبورها . هناك أدوم وملوكها وكل رؤسائها الذيـــن مـــع

جبروتهم قد ألقوا مع القتل بالسيف فيضجعون مع الغلف ومع الهابطين في الجب . هنالك أمراء الشمال كلهم وجميع الصيدونيين الهابطين مع القتلى برعبهم .. يراهم فرعون ويتعزى عن كل جمهوره "(حزقيال 32 : 17، 18، 22، 29، 30)

إن في هذه النصوص المقتطفة من سفر واحد تأكيداً على الأمور التالية :

1 ــ إن مصر المقصودة تقع على أنهار وليس على نهر النيل . وهي في منطقة جبلية وليست في منطقة منبسطة . وقد غزيت مع من غزي ممّا حولها من القرى والمدن ، وصارت مدينة خربة بين كل المدن الخربة ممّا حولها .

2 ــ إن "مصر" تعرضت للحرق والسبي ، وقد شتت أهلها كما سبي وتشتت بنو اسرائيل . وهذا كله ليس له أية علاقة بمصر وادي النيل .

3 ــ إن وثائق وادي النيل أكدت أن مصريي وادي النيل يختتنون منذ الألف الثالث قبل الميلاد بينما مصريو العشيرة التي ستدمر غلف .

4 ــ إن من المدن التي خربت من حول "مصر" وشاركتها مصيرها نفسه آشور[1] ، وماشك[2]، وصيدون ، وآدوم[3] ، فكيف يمكن أن تكون هذه هي مصر وادي النيل ؟ .. وتلك أسماء أشخاص آباء عشائر في التوراة .

5 ــ إن مدن مصر المذكورة في النص لا علاقة لها بمصر وادي النيل . وهذه الأسماء مثل فتروس ، نو ، سين ، أون ، فيبستة ، تحفنحيس ، نوف ، وغيرها ، ليست إلا القرى المغاور ، والمضارب التابعة لمصر في أعالي الجبال بين الأنهار في غرب وجنوب زهران ، وأهم تلك الأنهار دوقة وسيحور والشعف .

سابعاً : وفي أيام الملك يوشيا "صعد الفرعون نخو ملك مصر إلى ملك آشور على نهر الفرات . فصعد الملك يوسيا للقائه "فقتله في مجدّو حين رآه . وأركبه عبيده ميتاً من

---

(1) آشور : هم بنو آشور بن ددان بن يقشان بن ابراهيم من زوجته قطورة (تك 2 ــ3) .

(2) " ماشك" وذو ماشك" مركز آرامي في منطقة قرب الظفير الحالية . وهي التي تحولت في الترجمات التوراتية إلى دمشق . بينما "ماشك" التوراتية اسم عشيرة (حزقيال : 27 ــ13) .

(3) ادوم هي قرية أو مضارب بني عيسو أخي يعقوب شرق بن زهران .

مجدو وجاؤوا به إلى أورشليم ودفنوه في قبره .فأخذ شعب الأرض يهواحاز بن يوسيا ومسحوه وملكوه عوضاً عن أبيه "(الملوك الثاني 23 : 29،30) .

إن ملك مصر وادي النيل لم يحدث أن صعد إلى آشور . وأن آشور مركز الدولة العربية السورية على الدجلة وليست على الفرات . أما نهر الثرات (الذي يلفظ أيضاً "الفرات") فهو ينبع فعلاً من منطقة بني سار"آشور" بين غامد وزهران . وأن هذا يوضح أن موقع مجدو هو غرب بني سار وليس في فلسطين التي لم يعثر لها هناك على أثر إطلاقاً ، رغم كل الجهود المضنية المكثفة التي بذلتها سلطات الاحتلال الصهيوني .وبعد تلك المعركة "لم يعد ملك مصر يخرج من أرضه لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر" (الملوك الثاني 24: 7) . إن هذا يعني البقعة من الأرض ما بين سار على الثرات ونهر شيحور غربي زهران .

ثامناً : حينما هاجم نبوخذ نصر أورشليم فسبى قسماً وترك قسماً ، نصح ارميا الباقين فيها ألا يغادروها ، وهم في معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال ، لكنهم رفضوا جميعاً وخرجوا سيراً إلى "مصر"! لقد قالوا له :" أنت متكلم الكذب ، لم يرسلك الرب إلهنا لتقول لا تذهبوا إلى مصر لتتغربوا هناك .بل باروخ بن نيريّا مهيّجك علينا لتدفعنا ليد الكلدانيين ليقتلونا وليسبونا إلى بابل" وهكذا ذهبوا جميعاً "الرجال والنساء والأطفال وبنات الملك وكل الأنفس الذين تركهم نبوزرادان رئيس الشرط مع جدليا بن اخيقام .. فجاؤوا إلى أرض مصر لأنهم لم يسمعوا لصوت الرب وأتوا إلى تحفنحيس "(ارميا 43: 2، 3، 6، 7) ؟

ومرة أخرى أمام الظاهرة نفسها . وهي أن هؤلاء النساء والأطفال لم يعبروا أكثر من بعض الوديان والسفوح في بلاد زهران إلى أراضي المصريين ، وأن التفكير في سيرهم من فلسطين عبر صحراء سيناء المرعبة (حتى في سيارة في هذا العصر) ضرب من الغباء لا يوصف .كما أن بابل الكلدان هي بابل المحطة وليست عاصمة الدولة .

تاسعاً : وهاهو ارميا يقول لمصر شامتاً بعد أن دمرها ملك بابل وسبى أهلها مثلها مثل أورشليم : " اصعدي إلى جلعاد وخذي بلسانا ياعذراء بنت مصر . باطلاً تكثرين

العقاقير . اخبروا في مصر واسمعوا في مجدل واسمعوا في نوف وفي تحفنحيس . قولوا انتصب وهيأ لأن السيف يأكل حواليك "(ارميا46: 11 ، 14)

إن جبل جلعاد* هذا هو شرق بني سار في منطقة الآراميين ، وليس شرقي نهر الأردن، وفي كلتا الحالتين فإن "عذراء مصر" لن تخرج من وادي النيل إلى جبال فلسطين لتجمع البلسان من أجل أن تداوي جروحها . أما بنات مصر في زهران فيخرجن إلى منطقة بني سار وكأنما من قرية إلى قرية ، أومن جبل إلى آخر .

عاشراً : ناحوم يخاطب أورشليم (قرية يبوس) قائلاً "هل أنت أفضل من نوامون الجالسة بين الأنهار حولها المياه التي حصن البحر ، ومن البحر سورها .كوش قوتها مع مصر وليست نهاية . فوط ولوبيم كانوا معونتك . هي أيضاً قد مضت إلى المنفى بالسبي ، وأطفالها حطمت في رأس جميع الأزقة وعلى أشرافها ألقوا قرعة وجميع عظمائها تقيدوا بالقيود "(ناحوم 3 : 8 — 12) .

واضح أن المقصود هنا هي قرية "مصر" التي على الأنهار ، والمجاورة لكوش والتي سباها ملك بابل مع سبي أورشليم .

حادي عشر : وفي العهد الجديد نجد أن "ملاك الرب قد ظهر ليوسف ،في حلم قائلاً قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر . وكن هناك حتى أقول لك (إنجيل متى2) ، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر "(إنجيل متى 2: 15)

ونحن هنا لسنا في صدد الحديث عن معجزات ، علماً أن أحداً لم يتحدث عن هذه الحادثة كإحدى معجزات عيسى الطفل ، لاسيما وقد رأينا عدداً لا يحصى من الأطفال الذين ذهبوا قبله من أرض كنعان إلى مصر . وبالتالي فليست أرض كنعان في فلسطين التي خرج منها يوسف النجار مع الطفل وأمه السيدة مريم ، وليست مصر التي ذهب إليها ليلاً هي مصر وادي النيل . لقد ذهب من قرية كنعانية إلى قرية أخرى مجاورة

• جلعاد اسم عشيرة ، وهو جلعاد بن ميخائيل بن يشيشاي بن يحدو بن بوز(أخبار الأيام الأول 5:14)

مصريـــة في بلاد زهران " فلما مات هيرودس إذا ملاك الرب ظهر في حلم ليوســف في مصر قائلاً قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض اسرائيل "(إنجيل متى 2: 20)
ثاني عشر : لنقرأ في سفر أشعيا حول مصر : "في ذلك اليوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان .. في ذلك اليوم تكون ســكة من مصر إلى آشـــور فيجـــيء الآشوريون إلى مصر والمصريون إلى آشور ويعبد المصريون مع الآشوريين ، في ذلـــك اليوم يكون اسرائيل ثلثا لمصر ولآشور بركة في الأرض بها يبارك رب الجنود قائلاً مبارك شعبي مصر وعمل يديّ آشور وميراثي اسرائيل"(اشعيا 19: 18، 23، 25) .
أليس في ذلك تأكيد على صحة ما قلناه حتى الآن ، وهو أن مصر ، وآشور وكنعـان في منطقة ضيقة واحدة في جنوب بلاد غامد وزهران ، وليس في هذه أيـــة إشارة إلى مصر وادي النيل ؟
ثالث عشر : يقول ارميـــا مخاطباً اسرائيل : " والآن مالك وطريق مصر لشرب ميــــاه شـــيحور . ومالك وطريـــق آشـــور لشرب مياه النهر " (ارميا 2 : 18) . إنه لم يقل " لشرب مياه النيل ولشرب مياه الدجلة " وبالتالي فإن المقصود ليس مصر وادي النيل بـــل "مصر" القرية أو المدينة على نهر شيحور ، وليس عاصمة الدولة السورية على الدجلة بل بني أشور بن يقطان بن مدين بن إبراهيم .
وهذا بالضبط هو ما أدهش جماعة موســـى حين خروجهم من مصر ووصلوا إلى نهـــر الفرات شرقي بلاد زهران ونعتوه بـــ"النهر المقلوب ".
رابع عشر : وعند تدشين المعبد الذي بناه سليمان بمساعدة حيرام ملك صور المجاورة لـه (وليست صور على المتوسط) حضر كل جمهور الناس ، من مدخل حماة إلى مدخـــل مصر . إن في إمكان الحالم فقط ـــ لا المؤرخ ـــ أن يتصـــور تلك الجماهـــير رجـــالاً ونساء ، شيوخاً وأطفالاً ، يتدفقون من وادي النيل عبر صحراء سيناء ، ومن ســـــوريا المتوسط عند حماه يدبون عبر السهول والجبال والوديان ، عبر سوريا ولبنان وفلسـطين ، من أجل أن يشهدوا حفل تدشين المعبد! إن الكاتب لم يقل "حضره ملوك أو ممثلوهم ". وإنما جمهور الشعب . فلنقرأ : " وعيد سليمان العيد في ذلك الوقت وجميع اسرائيل معـه

جمهور كبير من مدخل حماة إلى وادي مصر أمام الرب إلهنا . سبعة أيام وسبعة أيام أربعة عشر يوماً . وفي اليوم الثامن* صرف الشعب فباركوا الملك وذهبوا إلى خيمهم فرحين وطيبي القلوب " (الملوك الأول 8: 65) ، فهل بقي هنا ثمة شك ؟ .. إنه لم يقل : عاد الشعب إلى مصر وإلى حماة ، ولكنه قال ما هو أفصح وأوضح بكثير ـــ لقد "ذهبوا إلى خيامهم" . إذن فقد جاؤوا من خيامهم في قرى مصر وأرام و اسرائيل ، وكأنما من قرى متجاورة ، ففرحوا وعيّدوا أربعة عشر يوماً ، ثم عادوا إلى خيامهم أو مضاربهم في مصر وحمتا الذي هو أخو حث أحد أبناء كنعان وليس حماة .

خامس عشر : ويذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت[1] حين زيارته لشبه جزيرة العرب "أن العمونيين بين مصر وكوش " وإذا كان جغرافيو التوراة قد جعلوا العمونيين في شرقي الأردن ، إذ اعتبروا أن إبراهيم حينما انفصل عن ابن أخيه لوط بقي في أرض كنعان (فلسطين) وأما لوط فاختار "دائرة الأردن" في سدوم ، ولما كان عمون وموآب هما ابنا لوط من بناته حسب رواية التوراة فقد جعلوا إقامتهما هناك أيضاً ، أي شرقي نهر الأردن ، وإن كوش هي الحبشة ، ثم إنها بين مصر وكوش! أي أن شرقي الأردن تقع بين مصر وأثيوبيا! أو لم يكن في هذا وحده ما يستحق الوقوف عنده ؟

ومن خلال النصوص التوراتية حول إقامة إبراهيم في أرض كنعان تبرز مسألة أخرى هي مسألة الحثيين ، التي لم يتعمد المؤرخون إساءة فهمها فحسب ، وإنما اتخذوها ذريعة لتهريب الوجود العربي الحضاري من منطقة سوريا الغربية و الأمورية إلى القبائل الهمجية في الشمال ، كما فعلوا بالقسم الشرقي من سوريا ، وألصقوا إنجازات شعبها في تلك المنطقة ، بعد أن فصلوها عن قسمها الغربي بحاجز مصطنع وهمي ، بالقبائل الشمالية الشرقية الهمجية أيضاً ، والمجهولة الأصل والهوية حتى يومنا هذا ، ثم لم يتورعوا عن تسميتها زوراً بـ"السومرية" .

---

* واضح ان الحساب بالأسبوع . والمقصود في اليوم الثامن أي بعد الأسبوع الثاني .

(1) هيرودوت : 2: 43 .

سادس عشر : إن المؤرخين والاخباريين العرب تفادوا ، على ما يبدو السقوط في مثل هذا الخطأ الفادح ، فقد ذكر الطبري في تاريخه أن موسى "خرج إلى مدين خائفا وله إحدى وأربعون سنة ، وكان يدعو إلى دين إبراهيم .. وكان فرعون في أيامة قابوس بن مصعب بن معاوية . وكانت امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول "[1]

إن في ذلك دليلا آخر ، على أن مصر المقصودة ليست مصر وادي النيل بل هي اسم العشيرة في شبه جزيرة العرب ، وأن فرعون موسى ليس رعمسيس الثاني كما يخمن المؤرخون وإنما فرعون قرية "مصر" في غرب جنوب زهران ، ووكيل ملك مصر وادي النيل أو عميله عليها ، وهو من العماليق أبناء عمليق بن لاوذ بن سام .

الحثيون العرب الكنعانيون

رأينا كيف أن إبراهيم ، بعد موت زوجته سارة ، في أرض الكنعانيين ، " كلم بني حث قائلا أنا غريب ونزيل عندكم . أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي " (تك23 : 3) وقد بذل له عفرون بن صوحر مغارة المكفيلة التي طلبها إبراهيم والحقل الذي هي في طرفه دون مقابل ، وأصر إبراهيم أن يدفع الثمن . ولقد رأى المؤرخون ، الذين أفرزهم الحقب الاستعمارية ، والذين جعلوا دأبهم تشويه وتمزيق صورة الشعب العربي الحضارية ، في بني حث هؤلاء الذريعة والوسيلة من أجل "تهريب" الحضارة العربية السورية ، وطمس الوجود العربي السوري في سوريا الغربية المتوسطية . لقد تم ذلك على مرحلتين :الأولى نقل التسمية "بلاد كنعان " من البقعة الضيقة في منطقة من جنوب غامد وزهران في شبه جزيرة العرب إلى سوريا المتوسطية كلها . والثانية نقل أحد فروع العرب الكنعانيين ، وهم الحثيون ، إلى الساحة السورية المتوسطية ، وجعلهم هند وأوروبيين مزعومين وإلصاق الحضارة بأولئك الهمج ، وجعلهم سادة الساحة في سوريا الغربية ، تماما كما حدثت عملية تجيير الحضارة السورية السومرية (العمورية

(1) تاريخ الطبري ، الجزء 1 ، ص 271 .

الشرقية) إلى القبائل الهمجية الأخرى ، التي قد تعود إلى أصل مغولي .

لقد حدث ذلك كله في إطار من الاستهانة بالعلم والمنطق ، بل وبعقول كل البشر ، وكأن الأمية ، فعلاً ، مطبقة على العالم من حولهم* .

إننا ، إذا ما استعرضنا جميع كتب التاريخ التي بين أيدينا ، لوجدنا أنها جميعاً تتفق على حذف ذاك الذي اسمه سوريا ، في الوقت الذي يبقى هذا الاسم أقدم من كل الأسماء الجغرافية والحضارية معاً . وقد قامت على أرضها أقدم دولة ذات نظام إداري وسياسي واقتصادي وعسكري وحقوقي متكامل في العالم ، وهي الدولة العربية السورية أيام سرجون ، ونارام سين ، وشولجي ، وحمورابي ،التي امتدت من شرق جبال زغروس إلى البحر المتوسط ومن البحر الأسود إلى بحر العرب وأعالي وادي النيل . وأن جميع كتب التاريخ هذه توزع هذه البقعة الجغرافية من الوطن العربي إلى بقع وأجزاء : فهي تفصل المنطقة الشرقية عن الغربية ، في الوقت الذي كانت هذه الدولة التي مركزها " أكاد" أو "بابل" أو "آشور" تمتد إلى شطآن المتوسط بصورة دائمة ضمن نظام سياسي واقتصادي وقانوني واحد ، وفي الوقت الذي كان أبرز ملوك هذه الدولة التي عاصمتها في الشرق يأتون من قسمها الغربي مما يؤكد وحدها . لقد جعلوا قسمها الشرقي منفصلاً في تكوينه ونشأته الاجتماعية والسياسية والقومية والحضارية عن قسمها الغربي . ثم ربطوا أصول حضارته بأقوام همجية لا يعرف لها أصل دعوها زوراً بـ"السومرية" علماً أن السومريين جزء من الشعب العربي . ثم ربطوا القسم الغربي بشعب همجي

---

* لم تكن مثل هذه الأراء والأحكام السخيفة الباطلة لتعيش هذا الزمن كله ، دون أن تجد من يتصدى لها ، لولا تفشي الأمية القاتلة فعلاً بين أبناء الأمة العربية ممن "ينقلون" لنا التاريخ المزور ويدعونه ، في زهو ،لأنفسهم ويكرسونه "علماً" لأجيالنا الصاعدة .
وبهذه المناسبة فإننا نغتنم الفرصة لإثارة مثل هذه الأسئلة :لماذا تعيش جامعاتنا العربية ، وأقسام التاريخ منها تحديداً ، على فتات ما يلقيه إليها أولئك المؤرخون الاستعماريون في الوقت الذي يحتكرون فيه لأنفسهم وبين أيديهم ، كل وثائق تاريخنا القديم ؟ لماذا يسأل الباحث عن نسخة بلغته الحديثة أو القديمة لوثائق من تاريخه على غاية من الأهمية مثل رسائل تل العمارنة ونصوص وثائق أوغاريت ووثائق مكتبة آشور بانيبال ولا يجدها إلا في متاحف لندن وباريس أو غيرهما من العواصم الأخرى ؟ لماذا لا تعمد وزارات الثقافة والاعلام العربية إلى نشرها وتسهيل الحصول عليها وتداولها بين شبيبة أجيالنا الناهضة ؟ لماذا نبقى مصرّين على ألا نرى بعيوننا ونفكر بعقولنا ، ونكتب فكرنا بأيدينا وإلى متى؟

آخـــر لم يعرف له أصل حتى اليوم دعوه بالحثيين بعد ما عثروا على اسم " الحثيــين" في مدونات التوراة ، وجعلوا الوجود العربي الحثي في أرض كنعان في بلاد غامد من شــبه جزيرة العرب ، وجوداً حثياً ، آرياً ، أو هندوأوربيا ، في ســـوريا المتوســطية ، بعـــد تسميتها بأرض كنعان ، بناء على التفسير المزور للجغرافيا التوراتية .

ولسنا نجد ضرورة في استعراض كل أقوال المؤرخين حـــول هذه المسألة ، فـــهي جـــد مشابهة ، إن لم نقل متماثلة تماماً ، ويكفي أن نستعرض بعضاً منها لنبدأ المناقشة .

يقول الدكتور جايمس هنري براستد :

" وترك الحثيون علامتهم الفارقة ، الأنف الأفنى ، على وجوه مجاوريهم في العالم الايجـي والهلال الخصيب . ووجود هذه العلامة الفارقة في وجوه اليهود دليل على أن الحثيـــين هاجروا من بلادهم وقطعوا الطريق الغربي من الـــهلال الخصيب فساقتهم الأقـــدار إلى فلسطين ، حيث تركوا هذا الأثر في الوجه اليهودي[1] ......

ولما اقتبس الحثيون المدنية المصرية من مدن شمال سوريا لم يتلكأوا عن الانتفاع بها[2] ...

وكانت إحدى الممالك الحثية الواقعة إلى الشرق من نهر هاليس تزداد قوة ومنعـــة . وفي هذا العصر (1500ق.م) قويت شوكة الحثيين واتسع نطاق ملكـــهم مـــن عاصمتـــهم "خطّي" إلى كل جهة . فعنا لسطانهم سائر الممالك الحثية الأخرى التي لّموا شعثها وألفوا منها إمبراطوريـــة كبيرة كانت تشتمل على جزء كبير من آسيا الصغرى ودامت دولـــة هؤلاء الحثيين نحو قرنين ونصف قرن(من 1450 ـــ1200ق.م) ثم انقرضت[3]

" وفي ســـنة 1200ق.م ألجأ زحـــف الهندوأوروبيين من الشمال الايجيين إلى الفـــرار ، فقطعوا البحر ونزلوا على الشواطئ الجنوبية الشرقية من البحر المتوســـط وكان لهـــؤلاء الايجيين الفارين اليد الطولى في قلب الإمبراطورية المصرية المتداعية الأركـــان .. وكانت فلسطين الجنوبيـــة البلد الوحيد الذي كان عدد المهاجرين الايجيين فيه كافياً لاحتلالـــه وتأليف أمة منهم . وهكذا اســـتطاعت قبيلة كريتية عرفت باسم الفلسطينيين أن تحـــرز

---

(1) الدكتور جايمس هنري براستد "العصور القديمة" ،ص 260 .

(2) المصدر السابق ص 261

(3) المصدر السابق ص 264

لنفسها مقاماً وتبني عدداً من المدن الزاهرة في القرن الثاني عشر ... وإننا لم ننس بعد كيف أن الفلسطينيين كادوا يسحقون الأمة اليهودية الفتية التي كانت أنئذ آخذة بالظهور . ومن العجب أن يكون هؤلاء الايجيون الفارون هم الذين أعطوا فلسطين اسمها الحالي"[1] وكان من اختلاط الحثيين بسكان الهلال الخصيب أن الحثيين حصلوا على الذرائع الأولى التي أوصلتهم إلى مدنيّة أعلى ، من أهم مظاهرها الكتابة . فإن القوافل البابلية كانت منذ أيام حمورابي أو قبلها تؤم آسيا الصغرى مارة بالفرات صعداً ، لمآرب تجارية محضة ، ومعها صكوك ووثائق تجارية مكتوبة بالخط المسماري على ألواح من آجر . وبهذه الطريقة تعلم الحثيون الكتابة المسمارية كما تعلمتها شعوب أخرى غيرهم في الغرب . وكان ذلك سنة 2000 ق.م أو قبلها . وقد كشفت لنا أعمال التنقيب والحفر في آسيا الصغرى قطعاً من الآجر هي بقايا معاجم أو قواميس استعملها الحثيون قديماً في تعلمهم التهجئة والكتابة باللغة المسمارية"[2] .

ويقول الدكتور انطون مورتغات :"إن محور النزاع المباشر كان هنا بلاد امورو مع عاصمتها مدينة قطنا*. ولم يكد رعمسيس الثاني يتربع على العرش حتى أصبح من المؤكد وجوب بدء الصراع الفاصل من أجل تبوء مركز الزعامة على بلدان الساحل الشرقي للبحر المتوسط . ومن ناحية ثانية فقد كان على عرش "حاشوشا " ابن مورشيلي الثاني ، وهو موت ايلي ، الذي أدرك أيضاً بدوره حول ماذا تدور الدوائر، فاستعد كذلك مثل رعمسيس لهذا الصراع الكبير الفاصل بكل حذر وتخطيط ودقة ، مستغلاً ومجنداً كافة إمكانياته وقوة سائر حلفائه . أما برنتيشين ، ملك بلاد أمور ، فقد كان لابد له في ذلك من أن ينحاز إلى أحد الجانبين في هذا الصراع ، فكانت هذه المرة الجبهة المصرية .. غير

---

(1) المصدر السابق ص278 ــ 279 .
(2) المصدر السابق ص261 .
* يلاحظ هنا أن بلاد امورو (سوريا الغربية) تصبح موحدة في كتابة المؤرخ مورتغات ،لا ليثبت وحدة المنطقة سكانيا وحضاريا ،وإنما ليثبت أن سيطرة الحثيين على سوريا الغربية كانت كاملة .فهم يوجدون المنطقة حينما يشاؤون لأغراض تخدم مقاصدهم فقط . وقد جعل عاصمتها "قطنا" التي يزعم أنها "المشرفة"عند حمص ، علماً أن قطنا أو المشرفة لم تكن في يوم من الأيام عاصمة لأحد.

أنه أخطأ الخيار . وهكذا بدأت المعركـة في قادش للسنة الخامسة من حكم رعمسيس حيث دحر بها وانهزم ، فاسـتطاع بذلك ، على الأقل ، النجاة بحياته ، عائداً إلى مصـر ليؤلف عند وصوله إليها تقريراً مطولاً عن انتصاراته . بينما نجد بالمقابل المصـادر الحثية تحدثنا من جهة أخرى عن مطاردة العدو الهارب حتى دمشق"(1)

ويقـول الدكتور فيليب حتي : "وكان الحثيون الذين تبدو ملامحهم على الآثار شـبيهة بملامح الحوريين شعباً أناضولياً في الأصل يسكن منطقة نهر الهاليس Halys وكانوا يسمون بلادهم خاطي ، وعاصمتهم خطوشش وهي اليوم بوغازكـوي على بعد تسعين ميـلا شـرقي أنقرة ويأتي الاسـم الإنكليزي من كلمة حث Hitti العبريـة . ولا يزال موقع عاصمتهم القديمة كوشار مجهولاً وفي حوالي 2000 ق.م تغلب الغزاة الهنود الأوربيـون على القبائل الخاطية ونتج عن تمازج السكان الأصليين الأناضوليين بالفـاتحين الهنـود الأوربيين الخاطيون في آسيا الصغرى ... وكان أول ظهور للخاطيين في عملية حربيـة كبرى نحو 1595 ق.م حين نهب ملكهم مرشلش الأول مدينة بابل بنتيجة غزوة لهـا .. وكان مرشـلش نفسه قد فتح حلبا (حلب) وهدمها وسبى سكانها .. وكانت حلـب مركزاً ليس لعبادة حدد فحسب ، وإنما لمملكة اسمها يمخاض كان يحكمها قبـل هـذه الفترة بقليل يريم ليما الذي كان يسـيطر على عشرين من صغار الملوك . وتوغل أحـد خلفاء مرشلش في أراضي الهكسوس جنوباً حتى دمشونس Damshunus التي تشبه لفظـة دمشق ...دامت المملكة الحثية أو الأمبراطورية الثانية من حوالي 1450 حتى 1200ق.م وقد حصل بنتيجة تقدمه في ميتاني على مركز ثابت في شمالي سوريا ، وتمكن مـن انـتزاع منطقة تمتد حتى جنوبي جبيل من المصريين . وفي نهايـة حكمه كانت إمبراطوريتـه قد أصبحت أقوى دولة في غربي آسيا ودخل الهكسوس والميتانيون والحوريون في دولة يمكن أن نسميها الآن حثية .وأصبحت كركميش المعقل الرئيسي جنوبي جبال طوروس .

لم يعتمد شوبيلو ليوما فقط على استخدام السلاح .فقد لجأ إلى إثارة الاضطراب ضـد مصر في مقاطعتها الآسيوية ، وإقناع أمير أوغاريت أن يتخلى عن حليفه فرعون ، ونجح

---

(1) الدكتور انطون مورتغات ،"تاريخ الشرق الأدنى القديم"231 ـــ 232 .

في ذلك كله . واستخدم الزعيم الأموري عبد عشرتا وابنه ازيرو" كطابور خـــامس"، وأخذ ازيرو بمساعدته يستولي على مدن فينيقيا الساحلية . وفي الوقت نفسه كان أزيـرو يكتب إلى أخناتـــون عن أســفه البالغ بان مهمته في مقاومة الغزو الحثي لم تسمح لـــه بالحصـــول على شرف الاجتماع بالموفد من فرعون"[1] . وبعد معـــركة قادش بـــين رعمسيس الثاني وموت ايلي الحثي عام 1296 ق.م ، وتوقيع الميثاق أو المعـــاهدة فيمـــا بينهما حوالي عام 1280 ق.م ، "اعترف الميثاق بأن ســـوريا الجنوبية بما فيها فلســـطين تحت الحكم المصري . واحتفظ بنسخة من الميثاق الأصلي منقوشة على لـــوح فضـــي باللغتين المصرية الهيروغليفية والبابلية المسمارية . وبعد فترة مـــن الانحطـــاط ســـقطت الامبرطورية الحثية حوالي 1200ق.م بتأثير هجمات من جهة أخـــرى وهي منطقة بحـــر ايجة ... وقامت في شمالي سوريا على أنقاض الإمبراطورية الحثيـــة ممالك وطنية صغـــيرة مراكزها كركميش وحلب وحماة . وكان الآشـــوريون يسمونها ممالك حثية . وكـــان قيامها في عصر توسع الإمبراطورية الآشورية الناشـــئة نحو الغرب التي كانت دوماً تهـــدد كيانها . وسقطت الواحدة بعد الأخرى فريسة للدولة المتوسعة من الشرق . وكان فتـــح كركميش في عام 717ق.م على يد ســـرجون الثاني عنوان انتهاء آخـــر دولـــة حثيـــة مستقلة"[2]

" وبعد الفتح الحثي الميتاني أصبح الحوريـــون مشمولين باسم "حثي" المبـــهم[3] ويـــأتي الاسم الإنكليزي من كلمة حطي Hitti العبريـــة"[4]

"وكان في الجماعات التي تألف منها خليط الهكســـوس جماعة الحوريين وهم شـــعب لا ســـامي ولا هندي أوروبي ولا يزال أصله مجهولاً. وكانت حضارتهم من أكثر العنـــاصر حيوية في أواخر عصر الهكســـوس والفترات التالية مباشـــرة . وقد أتى الحوريون مـــن المرتفعات الواقعة شمال شرقي الهلال الخصيب بين بحيرة أورمية وجبال زاغـــروس ، وفي

---

(1) فيليب حتي ،تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ،ص 166.
(2) المصدر السابق ص168 .
(3) المصدر السابق ص165.
(4) المصدر السابق ص166 .

أواخـــر القرن الثامن عشر غزوا شمالي بلاد الرافدين وسكنوها ، ومنها اتجهوا إلى سوريا الشمالية حيث أسسوا إحدى الممالك القوية في الشرق الأدنى . وكان الأموريون قبـــل ذلك قد سكنوا ذلك القسم من سوريا . وقد يكون ظهور الحوريين في بـــلاد الهـــلال الخصيب متصلاً بالحركة العامة التي أتت بالهنود الإيرانيين إلى فارس والهند والتي فرضـت نزول الكاشـــيين من زاغروس إلى بلاد بابل . وقد نجح الحوريون حـــوالي 1500ق.م في تأسيس مملكتهم هناك وتسمى مملكة ميتاني التي بلغ من قوتها أن امتد حكمها من البحر المتوسط إلى مرتفعـــات ميديا . وتضم بلاد آشور .. وكان يعرف المصريـــون ميتـــاني باسم نهارين .. وكان دوشراتا أشهر الحكام الميتانيين . وقد وجدت تحارير كثيرة في تـل العمارنـــة موجهة منه إلى امنحوتب الثالث (توفي 1375 ق.م) و إلى امنحوتب الرابـــع (توفي 1358ق.م) والتحارير مكتوبـــة بالأكادية .. وكانت إحدى شقيقات دوشـــراتا بين نساء امنحوتب الثالث كما أن إحدى بناتـــه تزوجت امنحوتب الثالث ومن بعـــده امنحوتب الرابع .. وقد هوجم دوشراتا الصديـــق الموالي لمصر قبل انتهاء حكمه من قبل الفاتح الحثي العظيم شوبيلوليوما الذي تابع فتوحاته أثناء حكم موتي اوزا بن دوشراتا .. ثم أصبحت قســـماً من الإمبراطوريـــة الآشوريـــة المتوسعة في عهد شـــلمناصر الأول (1273 ق.م) وهكذا زالت دولة كانت في أحد العصور تشارك مصر والدولة الحثيـــة السلطة العالمية"[1].

وفي الحقيقة إن نظرة متأنية على هذه النصوص النماذج التي تنقل لنا صورة الحثيين كمـــا ركبها لنا أولئك المؤرخون ترينا حجم التشويه والتناقض والتزوير في التاريخ . لقد خرج " الحثيون " في هذه الصورة المركبة مخلوقـــاً شائها لا شكل له ، ولا هوية ، كتلة مرقعة من الهمجية والمدنية المتقدمة اختلطت في وجهه كل خرائط الجغرافيا كما ارتسمت فيـــه كل تشوهات الإنسان الغربي المتعصب ، فلم يعد يبين له موضع .

(1) المصدر السابق ص161 ـــ163 .

ثم إن هذه المقتطفات البسيطة تثير أمامنا ــ على قلتها ــ عدداً لا يحصى من المسائل الصغيرة التي تختلط فيها بأعجوبة ، وبصورة تبدو مثل كبة من الخيطان الملونة المتشابكة ، يصعب فرز الخيط فيها عن الآخر .

فلنستعرض بعض هذه المسائل:

1 ــ الحثيون قبائل لا يعرف لهم أصل ولا اسم . وقد جاءت تسميتهم من الإنكليزية Hitti المأخوذة بدورها عن مدونات التوراة ، أي من بني حث وهذا ما جعل الاسم " مبهماً " ، عند المؤرخين . فكيف جاءت التسمية من التوراة والحثيون فيها أبناء كنعان بن حام بن نوح ، وفي الوقت نفسه هندو أوروبيون مقاتلون أشاوس !! والأنكى من هذا أن انحصار ذكر هذا الاسم "حثي" في التوراة يعني أن الآثار لم تأت لهم على ذكر، فكيف نصنع امبراطورية حضارية قوية تتقاسم المنطقة مع مصر وادي النيل والتوراة نفسها لا تتحدث إلا عن عشائر من البدو الرعاة في قلب شبه جزيرة العرب !.

2 ــ إن هذه القبائل تظهر بقوة على الساحة الدولية منذ1500 ق.م ، إذ قويت شوكة الحثيين واتسع نطاق ملكهم من عاصمتهم "خطي" إلى كل جهة .وخضع لسلطانهم سائر الممالك الحثية الأخرى التي لموا شعثها وألفوا منها إمبراطورية كبيرة ...ودامت دولة هؤلاء الحثيين نحو قرنين ونصف قرن (من 1450 ــ 1200ق.م) " . وفي الوقت نفسه تماماً فإننا نجد أن الحوريين "قد نجحوا حوالي 1500ق.م ، في تأسيس مملكتهم هناك وتسمّى مملكة ميتاني التي بلغ من قوتها أن امتد حكمها من البحر المتوسط إلى مرتفعات ميديا (في فارس) وتضم بلاد آشور " ونرى أن هذه المملكة "الإمبراطورية" استمرت طيلة فترة وجود الإمبراطورية الحثية " أي حتى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وليس هذا فحسب ، ففي الوقت الذي تسيطر فيه هاتان الإمبراطوريتان على سوريا الشمالية كلها ، واعتباراً من دمشق وجبيل إلى أعلى الفرات شمالاً والبحر المتوسط غرباً وجبال ميديا شرقاً ، (وتجدر الإشارة هنا إلى أن "ميدي" المقصودة في الرسائل هي ميدي التي ما تزال على الخارطة جنوب أنها شرقي البحر الأحمر إلى اليوم) وفي آن معاً

وكأنما تنطبق إحدى "الإمبراطوريتين "على الأخرى ، نرى أيضاً أن تحوتمس الثالث 1536 ــ 1490 ق.م يسيطر هو الآخر على هذه المنطقة في أوج عنفوان تينك "الإمبراطوريتين". وفوق هذا وذاك ، فإن الإمبراطورية الميتانية " تسيطر من ميديا حتى البحر المتوسط في الوقت الذي تكون فيه مدمرة من قبل تحوتمس الثالث .

لنقرأ : " كانت الحملة الثامنة التي أسفرت عن انضمام منطقة الفرات من أعظم حروب تحوتمس في آسيا . وقد توج هذه الحملة بإقامة لوحة للحدود شرقي الفرات الذي عبره غالباً عند كركميش ، ولوحة أخرى في جوارها قبل تلك التي أقامها والده تحوتمس الأول . ونهب بلاد ميتاني في طريقه . وعندما كان يتقدم باتجاه مجرى النهر كان ينهب المدن ويخربها ، ويقطع أشجار البساتين ، ويقتلع الذرة ويترك الأرض قفراً، وربما قام بأكثر من حملة على نهارين . وفي إحدى هذه الحملات بنى زوارق من خشب الأرز في الجبال شرقي جبيل ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات ، لكي ينقل الجيوش إلى نهارين . وفي طريق عودته ، بينما كان يصطاد في المستنقعات غربي هذا النهر صادف قطيعاً* من الفيلة وكان أحدها على وشك قتله بضربة من نابه لولا يقظة امنحوتب الذي أسرع لقطع خرطومه بضربة من سيفه "[1]

إن تحوتمس الثالث ، إذن ،دمر ميتاني ، لكن ميتاني موجودة ، وقوية ،وإمبراطورية ، وإن تحوتمس الثالث أخذ كركميش ودمرها ، لكن الحثيين في الوقت نفسه إمبراطورية ، وفي كركميش ، وكركميش عاصمتهم و لم يمسسها أحد . الإمبراطوريات قائمة ومدمرة في آن معاً ، والآشوريون يدمرون مملكة ميتاني ، التي استمرت حتى عهدهم !

إن هذه الشعوذات التاريخية هي التي حملت مؤرخاً مسخاً مثل مورتغات يكتب قائلاً :

• الحقيقة ان واحدنا يشعر مع هذه النصوص كمن يمشي في حقل من الألغام الكبيرة والصغيرة. كما تراودني صورة من طفولتي حينما كنا نجمع بعض النباتات لإطعام خرافنا . ونمرّ بحقل من نبات الثيل (التيين أو النجيل) فكانت تدهشنا تلك الظاهرة : وهي انه ما ان تمسك بإحدى نبتات التيّن وتشدها من الأرض حتى ترى الأرض من حولك تتقبب ، ولتدرك معها ان جميع نبتات النجيل تتشابك شروشها مع بعضها تحت الأرض وتتصل وانه من العسير أن تقتلع واحدة بمفردها .

(1) انظر المصدر السابق ص141، 142.

"إنه لمن المستحيل إعطاء صورة حية ذات تفاصيل وافية عن الشعوب المختلفة لتـــاريخ الشـــرق الأدنى خلال الحقبة الواقعة ما بين 1500 ــ 1200ق.م وأن نتعقـــب ، بنفـــس الوقـــت ، تشابك الحوادث الدولية والحقائق لنجعل منها وحدة تامة ، ذلك لأننا نـــرى التوازي الزمني للروايات التاريخية يتحول إلى ترادف فيها . وهكذا لم يبق أمامنا ــ مـــع الإشـــارة إلى الخطورة في تكرار الحوادث التاريخية ــ سوى مخرج واحد ، وهو معالجـة تاريخ كل دولة أو شعب قيادي على حدة"[1]

ولكن هل كان هذا هو المخرج فعلاً ، وهل أدت دراسة مورتغات التاريخية لكل شـعب على حدة الغرض؟

الحقيقة أن مورتغـات ــ على ما يبدو ــ لم يهرب من هذه التناقضات المتشـابكة إلى الحديث " عن كل شعب على حدة" من أجل أن يوضح الحقيقة أو يبحث عنها ، وإنمـا كي تتاح له فرصة ممارسة النزعة العرقية في التاريخ ، حيث لابد من أن تنتفـــخ أوداج الروح الآريـــة المختلقة في أعماقه كلما أحس بأن شيئاً ما "آريا" قد يكون في أســـاس عرق هذا الشعب أو ذاك ، فتتحول كتابة التاريخ إلى خطاب لتمجيد العرق والعسكرية فلنسمع : "وقد بلـــغ من شدة تأثير الحوريين في هذه المنطقة درجة استطاعوا معها فعـلاً تطعيم الشعب الآشـــوري عرقياً ، والتغلغل حتى جبال إيران . وقد يدفع هذا كله ، مع عوامل أخرى ، بالبعض للظن أحياناً أن حكام الهكسوس غزاة مصر حوالي 1700ق.م إنما يتحدرون من أصل حوري ، ومهما يكن الأمر فإن الحوريين يبقون كقوة سياسية شعبية أكبر عظمة حيـــة توسعية عرفتها الألف الثانية قبل الميلاد ، قوة قدر لها أن تمتد من بلاد فارس حتى فلسطين ، ولو افترضنا جدلاً عدم استطاعة البرهنة على هذه النظريـــة"[2]... شيء مدهش!

3 ــ إن تلك التي دعيت بــ"الإمبراطورية الحثية" لم يعرف لهـــا حـــتى الآن مركـــز أو عاصمـــة . فمرة نقـــرأ أن عاصمتها القديمة " كوشار" وموقعها ما يزال مجـــهولاً ، ثم

---

(1) انطون مورتغات ،"تاريخ الشرق الأدنى القديم" ص 178.
(2) المصدر نفسه ص 174 .

إنها " خاطي " أو خطوشش ، ويفرضون أنها ينبغي أن تكون "بوغازكوي" الحالية ، ومرة يدخل الهكسوس والميتانيون والحوريون في دولة يمكن أن نسميها حثية ، وأصبحت كركميش المعقل الرئيسي لها جنوب طوروس[1]

أما " الامبراطورية الميتانية " فمرة يؤكدون لنا أنها والحورية شيء واحد ، ومرة أخرى ، كما ورد أعلاه ، نجد أن الميتانيين والحوريين شعبان مختلفان ، ومرة ثالثة فإن "هذه الإمبراطورية الضخمة لم يستطع أحد حتى الآن أن يعرف اسم عاصمتها أو يعثر عليها "[2]

4 ـــ ثم نجد أن المصادر جميعها التي وفرت ما بين أيدينا من معلومات عن الميتانيين أو الحثيين هي مصادر عربية : فهي إما أن تكون مخلفات من آثار الأكاديين والبابليين والآشوريين ـــ كما ورد من خلال أقوال برستد ـــ مما يثبت مرة أخرى أن تلك المنطقة الممتدة من ديار بكر إلى شمال مرسين إنما هي جزء من الدولة العربية السورية دون اختلاق وجود حثي أو حوري فيها . وقد رأينا كيف أنه نشأ تقليد لدى حكام الدولة السورية منذ أيام سرجون أن يقوموا بجولة عسكرية سنوية لتفقد تلك المنطقة وحماية الخطوط التجارية الدولية التي تمر فيها إلى الأناضول ."حتى أنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا ثم اتجاهه نحو الغرب محاولة منظمة مركزة ... ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية .لقد كان لابد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك" [3]

وقد دلت جميع المكتشفات بالفعل ، وكل المصادر تؤكد ذلك ، على أنها آثار عربية سورية : كالنسر السوري البابلي ، وقرص الشمس أو القمر المجنح أو ذي القرنين ، وربة الينبوع " تيشوب ـــ عشتاروت " التي اكتشفت عبادتها في عبلا (إيبلا) ، والرسائل المكتشفة المرسلة من أطراف سوريا الجنوبية إلى عاصمة الدولة ، كل شيء باللغة

(1) انظر : فيليب حتي، "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ، ص 167.
(2) انطون مورتغات ،"تاريخ الشرق الأدنى القديم" ص208 .
(3) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى

الأكاديـــة وبالكتابـــة المسماريـــة الأكادية . وقد هرب أولئك المزورون إلى جعل اللغة المكتوبـــة بالتصويرية والتي لم تعرف حقيقتها أو هويتها ، ولم يفرغ الدارسون من فـــك رموزها حتى اليوم ، لغة تلك الشعوب الهندو أوروبية المختلقة . وقد أظهرت التنقيبـات في نوزي مجموعة من الألواح باللغة الأكادية لغة وكتابة . أمـــا المعـــاجم والقواميـــس المكتشفة فهي من أجل تعليم الســـكان العرب السوريين لغتهم بمختلف كتاباتها . وقـــد وجدت مثل هذه القواميس في " إيبلا " أيضاً . وهذا كله هـــو ما أرغـــم مؤرخاً مثـــل مورتغات على القول في شيء من الاستغراب :"وفجأة تبرز صورة هذا العالم الموحـــد : فإلى جانب تلك الصفات المشـــتركة في الحقوق الدولية والأشكال الاجتماعيـــة لعـــالم الشرق الأدنى خلال الألف الثانية قبل الميلاد نجد أمـــوراً فكريـــــة ورائيـــة أخـــرى نشـــأت عن جذور مشتركة ، تبدو أيضاً وكأنها تصبغ الشرق القديم بطابع الوحـــدة . ويكفي أن نفكر فقط في أمر الأكادية لغة الديبلوماســـية والعلم ، وكذلـــــك في أمـــر الكتابـــة المسمارية التي استخدمت حتى في المراسلات الخارجية مع مصر " ، " اما ديانة الحوريين فقد اقتبست بعض العناصر من العالم السومري ـــ الأكادي ، بينما تســـرب إليها القســـم الآخر من منابع ذات صفة سامية غربيـــة"[1]

وبكلمة مختصرة ، إذن ، إن كل ما يخصها إنما هو عربي شرقياً كان أم غربياً .

وإذا ما تفحصنا أســـماء جميع المدن والمواقع المتبقية في المنطقة حتى يومنا هذا لوجدناهـــا تعود جميعاً إلى أصول عربية قديمة . إن " أدنة " (أضنة) سميت على اسم الأب " أدن " الذي صـــار أدونيس ، و"مرسين" هي مر ـــ سين وتعني السيد أو الرب سين إله القمر العربي ، الذي غطت عبادته كل أصقاع الوطن العربي القديم ، و"طوروس" هي "طورو" بعد حذف النهاية اليونانية ، وتعني الجبل أو الجبال ، وملطية هي ميليثا أي المعينة ، وهي من أسماء الربة عشتار . و"شتال هيوك " تعني مزرعة الربة أو مزرعة الحبق والريحان أيضاً لأن هاريوك بالسريانية تعني الحبق والريحان كما تعني النظيرة .

---

(1) المصدر السابق ص210 .

وذكـــرت كتابات سرجون أن الفضل في سيطرته على البلاد العليا يعود إلى دجن إلـــه توتول . ويذكر حفيده نارام سين (2150 ق.م) إن الرب دجن هو الذي فتح له الطريـــق أمام المناطق الشـــمالية الغربيـــة[1] .أما "هيوك" فهي إحدى صفات الأم الكـــبرى ذات الأعضاء الأنثويـــة المضخمة ، والمفرجة ما بين ساقيها (وقد ســـبق أن شـــرحناها) ، وهذا ما يوضحه تمثالها المكتشف هناك (انظر قطر المحيط) .

والجدير بالذكر أن موقع " شتال حيوك " قد اكتشـــف مؤخراً في سهل قونية على بعد 320كيلومتراً إلى الجنوب من أنقرة .

ولقد دلـــت الفحوص الراديوكربونية على أن المدينة عاشت بين (6250 ـــ 5400 ق.م) ودلت فحوص جذوع الشجر على أنها ازدهرت فيما بين ســـنة 7200 ـــ 7100 ق.م ، أو فيما بين سنة 6400 ـــ 6300ق.م ومعنى هذا أن حضارة مزرعة "شتل هيوك " عـــاصرت مراكـــز الحضارة الزراعية الأخرى في سوريا سواء في أريحا أو تـــل المريـــط أو تـــل الغسول. ومهما حاول " الدارســـون " اليوم " تهريب " الهوية الحضارية لمدينة "شـــتل هيوك " العربية السورية فإنهم لن يفلحوا إلا كما افلحوا في تهريب غيرها . إنهم ســـوف يجدون أنفسهم في نهاية المطاف أمام مخرج واحد لنكران الهوية الحضارية والسكانية فيها، وهـــو أنهم حينما يقنطون من العثـــور على ما يربـــط أولئـــك الســـكان وحضارتهم بجيرانهم من القبائـــل الهمجية في الشـــمال التي لم يكن لها وجود بعد ، والـــتي كـــان همهـــا السطو والسلب والتدمير بعد أن ظهرت ، وكثيراً ما كانت تكلف ملوك الدولـــة السورية وقادتها منذ الألف الثالث قبل الميلاد القيام بحملات عسكرية منظمة من أجـــل حماية المناطق الزراعية المستقرة وخطوط التجارة الدوليـــة، فـــإنهم (أي الدارســـين) ســـوف يلجأون إلى التصريح بأن أحداً لا يعرف هوية هؤلاء السكان ، لكن حضارتهم سابقة لكل حضارات المنطقة . لقد اعتدنا على مثل هذه اللازمات الـــتي تتكـــرر مـــع اكتشاف كل موقع أثـــري حدودي أو تحت الاحتلال اليـــوم . غير أن ما تســـرب من معلومـــات حتى الآن عن مكتشفات موضع "شتال حيوك" يؤكد الحقائق التالية :

---

(1) انظر المصدر السابق نفسه ص34 ـ35 .

1 ـــ لقد كان سكان "شتال هيوك" يتقنـــون الزراعة ويمارسونها بشكل واسع وتشـــمل زراعتهم عدداً كبيراً من الحبوب الغذائية ، بالإضـــافة إلى القمح والشعير .. كما عرفـوا زراعة الخضار ، وأولـــوا زراعة الفاصولياء ـــ نوعين منها بالذات ـــ جل اهتمامـــــهم ...وعرفوا كذلك العنب والجوز والفستق الحلبي وغير ذلك .. وأقبلوا على زراعة هـــذا وذاك على نطاق واسع ، حتى بلغت محاصيلهم من الوفرة ما فـــاض عـــن حاجتـــهم ، فعمدوا إلى تصديرها . وقد كانوا يبيعون هذه المحاصيل إلى المدن المجاورة في سهل قونية ، "وكانوا يستوردون بالمقابـــل الأخشاب والمعادن والزجاج البركاني والرخام والأصبـــاغ والصوف والمصنوعات الخشبية من جبال طوروس ومن سوريا وسواحل المتوسط ..."[1]
إن هذا يؤكد علاقـــة "شتال " الاقتصادية بالوطن الأم سوريا ، كما تأكدت علاقاتهـــا السياسية وارتباطها من خلال عمليات التوحيد التي قام بها ســـرجون ومن أتى بعده .
2 ـــ يؤكد الباحثون أن التشابه العرقي وفي الهياكل العظمية بين سكان "شتال هيـــوك " والسوريين القدامى أن أهل "شتال" ليسوا من أهل منطقة الأناضول الأصلاء ، وقد دلت آثارهم على أن مرض فرط نمو العظم تفشى بينهم ، وهذا مرض يزيد من ســـمك عظام الجماجم . لكنه ينتقل بواسطة بعوض الملاريا الذي لا وجود له في إقليم شتال هيـــوك الجبلي البارد ، ويرجحون أنهم هجـــروا مدينتهم في حوالي 5400ق.م ، ويتســـاءلون إن كانوا قد عادوا إلى ما بين النهرين ، حيث ازدهـــرت حضارة ســـومر ، أو إن كـــانوا أسلاف السومريين[2]

إنها اللازمة نفسها : المهم ألا تكون "شتال" امتدادا لحضارة السوريين القدامى الذين تدل المكتشفات يوما بعد يوم أنهم أول من بنى المنازل ودجن الحيوان وزرع الأرض ، بـــل أن تكون هذه الحضارة قد وفدت إلى سوريا من الخـــارج . ففي سومر أتت بها القبـــائل الهمجية التي تعود في أصلها إلى أسلاف المغول! وفي سوريا الغربية لابد أن تكون بعـــض القبائل الهمجية الأخرى قد أتت بها من الشمال . المهم أن تخلق مدينة شتال حيوك مـــن

---

(1) انظر :"حضارات ازدهرت ثم اندثرت " "مجلة العربي" العدد 328 مارس (آذار) 1986 .
(2) المصدر السابق .

فراغ ، ثم ينقل أهلها إلى بلاد السوريين كلها أصول الحضارة ، ولو كان ذلك النقل عن طريق وباء تفشى في سكان المدينة وقضى عليهم أو كاد!

3 ـ إن جميع المكتشفات الآثارية تؤكد وحدة الحضارة والدين والمعتقد مع السوريين القدامى .فالإلهة الأم الكبرى عشتار ربة الخصب السورية تظهر بين المكتشفات بشكلها المألوف بين اسدين . ويحتل الثور الذي هو رمز القوة الإخصابية الكونية لدى السوريين مكانا مرموقا بين مواضيع جميع الرسوم واللوحات المكتشفة .وإذا كان الرب البعل الذي يرمز له بالثور هو ابن الأم الكبرى ، فقد يجسد ذلك تجسيدا له في بعض اللوحات التي تظهر الأم الكبرى وهي في حالة وضع ومخاض ، كما ظهرت في البعض الآخر وهي تلد رأس ثور ، أي أنها أم الإله .

وهكذا فإن النتيجة ، التي يتحاشى قولها ويتجنبها كثير من الباحثين لابد من أن تفرض نفسها أخيرا من خلال المنطق والعلم وما تقوله وتؤكده المكتشفات ، وهي أن "شتال هيوك" (مزرعة الربة ، المثيلة ، النظيرة) ليست إلا شاهدا جديدا على عراقة الحضارة السورية التي كان حوض قونيا وشمال مرسين جزءا منها لا ينفصل . وقد ظل الملوك السوريون بعد قيام الدولة الموحدة المركزية الأولى منذ عهد سرجون يحرصون على حماية هذا الجزء وضمه إلى الوطن الأم ، كما ظل سكانه محافظين على هويتهم العربية حتى يومنا هذا .

أما المصدر العربي الثالث لتلك المعلومات المزورة فهو رسائل تل العمارنة المكتشفة في مصر ، والتي لم تأت على ذكر أحد خارج نطاق المنطقة الجنوبية من شبه جزيرة العرب ، وسوف نفصل في ذلك لاحقا .

أما المصدر العربي الرابع فهو مدونات التوراة . وإن كل مدونات التوراة بما فيها من قصص وآداب وامثال وحكم إنما هي تراث عربي بحت ، كما أن جميع أسماء الملوك والقبائل والمدن والأماكن هي أسماء عربية وضمن منطقة واحدة من جنوب غرب شبه الجزيرة العربية . وسوف نتناولها مفصلا من الناحية الجغرافية ونناقشها كما ناقشنا

"مصر" وسنبين مواضع التزوير في الأماكن الجغرافية التي افتعلتها دوائر التفسير المزور ، ثم نقلت منها إلى باقي اللغات واعتمدها المؤرخون .

4 ــ من خلال هذه النصوص المتقطعة عن الحثيين يظهر تناقض آخر :

فنحن تارة نرى أن سوريا الغربية كلها مملكة موحدة عند مورتغات يطلق عليها اسم بلاد أمورو ويجعل عاصمتها قطنة . ثم لم يعد يرد ذكر هذه المملكة وهذه العاصمة ، بل يأتي ذكر مملكة بمحاض التي يتبعها عشرون من صغار الملوك ، وتبرز مدينة حلبا وكركميش ، و نعرف أن هناك دمشق وأوغاريت وفجأة أيضاً نجد ان الزعماء الآموريين "طابور خامس" في المنطقة ! .

5 ــ تبرز مجموعة من الأسماء الجغرافية التي لابد من إجلاء حقيقتها وفك تشابكاتها من خلال هذه النصوص ، وهذه الأسماء هي نهر هاليس ،كوشر ، كريت ، قطنة ، دمشق ، حلبا ، قادش ، كركميش ، هارين ، ميتاني ، جبيل ، الفرات ، وما قد يبرز منها مجدداً .

6 ــ وقبل ذلك كله لابدّ من استجلاء أولئك الذين دعوا بـ"الحثيين" وبـ"الحوريين" والذين حيروا المؤرخين فلم يعرفوا من أين أتت إليهم مثل تلك التسميات ، ولو أن فيليب حتي ينقل عن غيره ما يؤكد أن تسمية الحثيين أتت من اللفظة الإنكليزية التي جاءت بدورها من العبرية ، أي من مدونات التوراة . ومن خلال الحديث عنهم فإننا سوف نتعرف على حقيقة أسماء ملوكهم ومدهم أيضاً .

الحثيون في مدونات التوراة عرب كنعانيون

1 ــ فهم من حيث النسب أبناء حث بن كنعان "وكنعان ولد صيدون بكره وحثاً و اليبوسي و الأموري و الجرجاشي و الحوي و العرقي و السيني و العرادي و الصمّاري و الحمتي . وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني "(تك10: 15، 18)

2 ــ لقد حلّ إبراهيم بين الحثيين الكنعانيين في قرية أربع (حبرون) الحثية الكنعانية وهناك ماتت زوجته سارة ودفنت : "وماتت سارة في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان فأتى إبراهيم يندب سارة ويبكي عليها وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني

حث قائلا :أنا غريب ونزيل عندكم أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمـــامي .
فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له : اسمعنا يا سيدي ، أنت رئيس مـــن الله بيننـــا . في أفضل قبـــورنا ادفن ميتك" (تك23:2 ـــ 6) ولما كانت ســـارة قد دفنـــت في مغـــارة المكفيلة فإن قرية أربع أو حبرون هي اسم آخر للمغارة نفسها يتغير حسب الساكن .
فإبراهيم ساكن في قرية أربع الكنعانية ، ومالكو الأرض هم من بني حث أولاد كنعان ، فهو إذن ساكن بين بني حث دون إخوتهم الكنعانيين الآخرين .

3 ـــ وهو حينما يريد زوجة لابنه اسحق يرفض أن تكون من بين الحثيات الكنعانيات ، ويرسل أحد عبيده إلى بيت أبيه وعشيرته الآراميين في حاران :" واستحلفني سيدي قائلا لا تأخذ زوجة لابني من بنـــات الكنعانيين الذين أنا ســـاكن في أرضهم بل إلى بيـــت أبي تذهب وإلى عشيرتي وتأخذ زوجة لابني "(تك24: 37 ـــ 38) .

4 ـــ وبعد أن تزوج عيسو بن اسحق اثنين من بنات حث الكنعانيات اشتكت أمه رفقة منهما "وقالت رفقة لاسحق مللت حياتي من أجل بنات حث إن كان يعقوب يـــأخذ زوجة من بنات حث مثل هؤلاء من بنات الأرض فلماذا لي حياة . فدعا اسحق يعقوب وباركه وأوصاه وقـــال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان . ثم اذهب إلى فدان أرام إلى بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجـــة من هنـــاك من بنات لابان أخي أمـــك " (تك27: 46، 28: 1،2) .

وهاهو حزقيال يخاطب أورشليم قائلا :" هـــوذا كل ضـــارب مثل يضرب مثلا عليـك قائـــلا : مثل الأم بنتها . ابنة أمك أنت الكارهة زوجها وبنيها .وأنت أخت أخواتـــك اللواتـــي كرهن أزواجهـــن وأبناءهـــن . أمكن حثية وأبوكن أموري وأختك الكـبرى سمرا هي وبناتها الساكنة عن شمالك .وأختك الصغرى الساكنة عن يمينك هي ســـدوم وبناتها .. قبل ما انكشف شرك كما في زمان تعيير بنات أرام وكل من حولهـــا بنـــات الفلسطينيين اللواتي يحتقرنك من كل جهـــة . رذيلتك ورجاســـتك أنت تحملينها يقول الرب"(حزقيال 16: 44 ـــ46، 56 ـــ 58)

فها هي يبوس (أورشليم) سكانها عرب كنعانيون وعموريون ، والمدن والقرى الآرامية والفلسطينية تحيط بها من كل جانب . إنها الصورة الواقعية لتواجد الفروع السكانية للعشيرة العربية الكنعانية المتداخلة فيما بينها في بقعة من الأرض ضيقة واحدة .

والحوريون أيضا ــ في مدونات التوراة ــ عرب من بني سعير : " هؤلاء بنو سعير الحوري سكان الأرض . لوطان وشوبال وصبعون وعنى وديشون وايصر وديشان هؤلاء أمراء الحوريين بنو سعير في أرض أدوم وكان ابنا لوطان حوري وهيمام وكانت تمناع أخت لوطان . وهؤلاء بنو شوبا علوان ومناحة وعيبال وشفو وأنام وهذان ابنا صبعون أبيه .وهذا ابن عنى ديشون .

وأهو ليبامة هي بني عنى . وهؤلاء بنو ديشان :حمدان وأشبان ويثران وكران . هؤلاء بنو ايصر : بلهان وزعران وعقان هذان ابنا ديشان :عوص وأران .هؤلاء أمراء الحوريين . أمير لوطان وأمير شوبال وأمير صبعون وأمير عنى ديشون وأمير ايصر وأمير ديشان هؤلاء أمراء الحوريين بأمرائهم في أرض سعير " (تك36: 20 ــ 21) .

المدن والمواقع التي اقترنت بالحثيين

- **نهر هاليس**

هذه هي صيغة اسم النهر كما نقلت عن اليونانية . ولما لم يجد الباحثون أثرا لهذا الاسم في كل البقاع الممتدة من شمال سوريا إلى البحر الأسود ، فقد افترضوا وجوده شمال أنقرة . يقول جيمس برستد :"وكانت إحدى الممالك الحثية الواقعة إلى الشرق من نهر هاليس تزداد قوة ومنعة "[1] .ثم لا ينسى أن يوضح أن نهر "هاليس"يعرف حاليا باسم نهر "ديس" ، وهو يقع إلى الشمال الشرقي من أنقرة ، ويشكل أحد روافد نهر "قيزيل ارمق " الذي يصب في البحر الأسود" .

---

(1) جايمس هنري براستد ،" العصور القديمة" ص254.

والحقيقـــة أن نهر هاليس هو نهر "حلي Hali في منطقة القنفذة ، ينبع من مرتفعات جبل ســـودة ، ويرفده نهر دوغا ونهر بقرة ، ويشكلان معه واديا غزيرا ينشر من حول ضفافه الخصب ويصب جنوب القنفذة في البحر الأحمر.

• **كـــوشـــار**

إنها إحدى صيغ الاســـم "جوشر" و "جاثر" و "جوشور" و "جشور" وعبثـــا يبحـــث الدارســـون عن هذه البلدة في غير موقعها في شبه جزيرة العرب . وقد ورد اســـمها في مدونات التوراة في صيغة "جيشور" (بالجيم المصرية) وهي المدينة التي هرب إليها أبشالوم بن داود بعد أن قتل أخاه أمنون : " فهرب أبشالوم وذهب إلى تلماي بن عمي هو ملك جشور . وكان هناك ثلاث سنين " (صموئيل الثاني 13 :37، 38) وقد كان " الملـــك " بـــمفهومه الضيق في غربي شبه جزيرة العرب ، يسمى باسم القرية أو العشـــيرة الـــتي يملكها ، قد سبق أن أوضحنا ذلك ، ومن هذا الفهم لمدلول كلمة "ملك" يجب أن ننظر إلى ملوك " كوشارا " و لم يكن أولئك "الملوك" الصغار ليغيبـــوا عن ذهن سلطة الدولـــة السوريـــة المركزيـــة في بابل أوآشور . لقد كانوا يتولون حراسة مصالح الدولة كـــل في موقعه ، وتأمين ســـلامة خطوط التجارة الدولية غربي شبه جزيرة العرب . وحينما كان يحدث ما من شـــأنه أن يضر بحركة التجارة ، أو يهدد سلامة وصول السلع عبر تلـــك الخطوط إلى شـــتى أنحاء الدولة ، وعلى الأخص مركزها أو عاصمتها ، فلم يكن الملـــك المركزي يتردد في توجيه الحملات لإخضاع تلك الممالك الصغيرة المتمردة أو الطامعة إلى الانفصال أو الاستغلال طمعا بالتسلط على الثروات المتدفقة عبر تلك الخطوط . فيعزلون "ملكا " وكيلا ، وينصبون آخر ، ويعتمدون مـــرة العرب الحثيين ومرة أخرى العـــرب العموريين وكلاهما عشيرتان من أبناء كنعان . وكثيرا ما كانوا يتنازعون السيطرة علـــى تلك المنطقة من خلال "ملوكها " الصغار مع حكام مصر وادي النيل ،ولاسيما إبـــان ضعف الدولة السورية ، أو انهماكها في إخماد الفتن الداخلية ، أو في ضـــرب القبـــائل الغازية من الشمال والشرق .

وقد استمرت هذه العلاقة مع منطقة غربي شبه الجزيرة التي كانت تضم أهــــم الطـــرق الستراتيجية التجارية في ذلك الزمن ، حتى الزمن اليوناني والروماني . إذ استمر تقليـــــد تنصيب الحكام أو الوكلاء من زعماء المدن أو البدو المحليين على تلك المناطق من أجـــل حمايـــة القوافل التجارية المتدفقة والسلع الثمينة النادرة من إفريقيا والهند وجنوب بـــلاد العرب .

إن هذا الاهتمام المركزي بتلك المنطقـــة هو بالـــذات الذي يفسّر لنا كل تلك الوثـــائق والرسائل المتعلقة بـــ " الملوك الوكلاء " لتلك المواقع الصغيرة ووفرتها سواء في الوثـــائق البابلية ، او الآشورية ، أو الأوغاريتية* ، أو الإيبلائية، أو في رسائل تل العمارنة .

إن عدم تمكن المؤرخين والدارسين من استيعاب أو تصور فكرة وجود دولة عربية سورية مسيطرة على كل الرقعة الممتدة من البحر الأسود إلى بحر العرب وجنوب البحر الأحمـــر منذ ذلك الزمن جعلهم يقعون في مثل تلك الأخطاء الفادحة في دراسة تاريخ المنطقـــة ، علاوة على النزعات الأخرى . وليس ثمة ما يقنع أحـــداً بأن العرب البابليين والآشوريين والمصريين كانوا يحتفظون بوثائق وسجلات لقبائل شمالية مجهولة الأصل والهوية واللغـــة والمركز (العاصمة) . بينما كل المصادر تؤكد أن تلك الوثائق كانت تخـــص العـــرب الحثيين والحوريين و العموريين في غرب شبه الجزيرة العربية دون غيرهم .

أما ملوك الحثيين فجميـــع أســـمائهم ـــ كما وردت في الوثائق الآشـــورية ـــ عربية ، لنقرأ في سيرة أولئك الملوك عند أنطون مورتغات :

" لقد كان الوريث الشرعي هو أورك تيشوب بن موت ايلي لزوجتـــه الثانية . إنه أول ملك حثي يحمل اسماً حورياً إلى جانب عمه الطموح حتوش إيلي وزوجـــات جده شـــو بعلو إيلوم (شوبيلوليوما) اللـــواتي يعدن إلى أصـــل حوري[1] ... إن جوهـــر حيـــاة (شوبيلوليوما) وجميع أعماله وانتصاراتـــه إنما هي تدبير الربة عشتار العلية ، والـــذي كان هو نفسه كاهنا، بحيث كان يضع يدهـــا ، التي تسيّر وتقدر كل أمره ، فوق كـــل

---

* نرجح ان تنعكس أهمية منطقة غرب الجزيرة وخطوطها التجارية في وثائق إيبلا بعد الفراغ من دراستها .

(1) انطون مورتغات ، تاريخ الشرق الأدنى القديم،ص 231 ـــ 231 .

شيء . فمن بين أربعة أطفال لأبيه ، وهم ثلاثة ذكور وابنة واحدة ، كان حاتوش إيلي* أصغرهم سنا ، وبعد مرض خبيث أصابه في شبابه طلبته الربة عشتار العلية من والده حيث يحدثنا " وهكذا أخذني والدي ــ أنا الصغير ــ وسلمني إلى الربة لخدمتها " وبعد وفاة الوالد ، واعتلاء الأخ الأكبر سنا "موت إيلي" العرش "أصبحت عندئذ لدى أخي قائدا لمعسكر الجيش . كما منحني أخي أيضا شرف منصب "المشيد الكبير "حتى أعطاني أيضا البلاد العليا لإدارتها وهكذا وضعت البلاد العليا تحت تصرفي . وكان "ابن زيدا" قد أدار قبلي هذه البلاد ، ولأن الربة عشتار قد حمتني ، وقربني أخي إليه ، قام فحسدني الناس لذلك" ، غير أن وشاية " ابن زيدا " دفعت بـ" موت إيلي " ليبدأ بتحقيق ضد أخيه، إلا أن الربة عشتار قامت وأنقذت حبيبها من المحاكمة ..."

" وإذا ما ساءت أحوالي يوما ما ، رأيت عظمة قدرة الربة ، بكل وضوح ، خاصة أثناء مرضي ، حيث ساندتني الربة بكل وضوح ، إذ أمسكت سيدتي الربة بيدي في جميع المناسبات وفي كل أمر ولأنني كنت رجلا لقي مساعدة بمثل هذا القدر ، علم بقدرة الربة ، لم انطلق قط في عملي من التصرفات الشريرة للبشر ..."[1] إلا أن "موت إيلي " قام فعفا عن أخيه وأسماه قائدا لمعسكر الجيش ، وآمرا لسلاح محاربي العربات ." وهكذا فقد نصرته عشتار على سائر أعداء الإمبراطورية الحثية فعندما رافق أخاه أثناء الزحف ضد مصر قاد بنفسه القوات المساعدة في المناطق التي أدارها بنفسه غير أن "بن زيدا " حاول الوشاية ضده ، لذا قام "حاتوش إيلي" فاستغل المناسبة في طريق عودته من مصر ليحرر نفسه ومدينة الربة " العلية "* من القذارة التي لحقت بهما على يد عدوه القديم "ولقد قمت بالطقوس المرعية للربة ، وتزوجت بابنة "بيتي بشاري" كاهن عشتار استجابة لرغبة الربة[2] " .

---

* حاتوث وحاتوش تعني المثبت ، المقوي والاسم يعني المثبت ربي ، أي بحول الرب .
(1) المصدر السابق ، ص 234 ــ 235 .
* لقد وردت الكلمة هنا في الأصل وفي الترجمة كاسم للمدينة بين أقواس ، وليس كصفة لعشتار
(2) المصدر السابق .

نعتقد أن ليس ثمة داع للقول بأن جميع أسماء بيت الملك عربية سورية وأن اقترانهم بالإله العربي"إيل" واضح كل الوضوح ، كما هو دور الربة عشتار أيضا ، وأن مدينة عشتار التي دعيت بـ " العليـة " عبثا يصمت عنها الباحثون . ونحن إذا ما نظرنا إلى خارطة شبه جزيرة العرب نجد أن مدينة " العلية " هذه ما تزال قائمة ، وهي واقعة بين غامد ووادي "حلي Hali " شرقي جبل الظلما على طريق القوافل الدولي .

إن كثرة الآثار الدينية ، والفنية ، والكتابية ، في بوغازكوي وما حولها ،التي تدل في معظمها على أنها آثار عربية سومرية ، أو أكادية ، أو بابلية ، أو آشورية ، جعلت المؤرخين يقفون حيارى : فهم ، من جهة ، في صدد الحديث عن " إمبراطورية حثية " هندو أوروبية مزعومة ، وهم ، من جهة أخرى ، أمام وقائع المكتشفات الآثارية العربيـة . إن ذلك لم يجد تفسيرا عند مؤرخ مثل مورتغات غير أن يعتبره "تسامحا فكريا الذي هو أشد ما يميز الحياة الدينيـة للإمبراطوريـة الحثيـة "[1] ! ...

وفي أيام الملك الآشـوري " تغلات بلاسر " (تجلات بعل أزر) وأثناء قيامه بإعادة توحيد الدولـة السوريـة في عام 1094 ق.م تقول المصادر إنه "بعـد أن اجتاز الجبال (طورو) إلى بلاد الحثيين ادعى الحصول على ولاء جبل وعراد وصيدا وغيرها من المدن الفينيقية كوريث الحثيين في سيطرتهم على سوريا"[2]

أية مفارقـة جغرافيـة في مثل هذه الأقوال : تغلات فلاسر* يدخـل بـلاد الحثيين شـمال طوروس حسب تفسيرهم المزور وينتزع ولاء المدن الفينيقية هناك من أرواد إلى صيدا ! والحقيقـة هي أنه ، واسـتمرارا لعملية التنافس بين الوكلاء المحليين في المنطقـة نفسها ، فقد أسرع تغلات فلاسر وعبر طورو (الجبل) ، وليس جبال طـوروس ، إلى أرض الحثيين الكنعانيين في بلاد غامـد وزهران وهو اسم الولد البكر لكنعان وليـس في الأناضول ، وحصل فعلا على وكلاء من جبلا (قبة إيل) ، (والتي يعتبرونها حتى اليوم

---

(1) المصدر السابق ،243 .

(2) المصدر السابق .

• إن "تغلات فلاسر " هذا هو ملك عشيرة "أشور" في شرق زهران وليس ملك سـوريا ، وقـد اجتاز الجبال الجرود إلى أرض الحثيين غربا في غامد وزهران وليس جبال طوروس شمالا كما يتخيل المؤرخون .

حبيل اللبنانية المتوسـطية خطأ)، وعراد ، على وادي عرادة في بلاد زهران ، وكتبت باليونانيـة Arados واعتبرت خطأ أرواد الجزيرة السورية المتوسطية ، وصيدا التي هـي صيدون في الجبال في بلاد غامد و زهران وليس في لبنان المتوسطية ، وقد حددت مدوناة التوراة موقعها بأنها شمال جبيـل ، وأنها من مدن الجبل وليست على الساحل ، وذلـك عكس مدينة صيدا اللبنانية المتوسطية .

والآن لنستعرض بعض أسـماء الأماكن أو المدن التي ارتبطت بحركة الشعب الذي دعي باسم " الحثيين" :

- **نـهارين**

لقد وردت في المدونـات الكنعانية " نهرن " أي "الأنهار" ووردت لأول مرة من قبل في الترجمة السبعونية باليونانية تحت اسم ميزوبوتاميا Mesopotamia أي " وسط الخصـب " ، ثم أخذت الترجمات الأخرى ، ومن بينها الآرامية ، والسريانية ، والعبريـة (الحديثة) ، عنها هذه التسمية ، ثم جرى تغيير المكان ، كغيره من الأمكنة التوراتيـة ،إلى أمـاكن أخرى معروفـة في المنطقـة الشمالية من سـوريا ، حيث يسهل التصور أن المقصـود بـ"النهرين " دجلة والفرات . ثم ظهرت على أساسها التسمية الأخرى "بلاد الرافدين". وإذا عدنا إلى مدونات التوراة بحثا عن الصيغ التي وردت بها هذه التسمية " أرم نهريم " ، أي"آرام النهرين" ، نجد ما يلي :

1 ـــ لقد رفض إبراهيم أن يتزوج ابنه اسحق واحدة من بنات الكنعانيين المقيم بينـهم ، فأرسـل أحد خدمه إلى حاران في أرام النهرين من أجل أن يأتي بواحدة مـن بنـات أقربائـه زوجة لاسـحق . " ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده . فقام وذهب إلى آرام النهرين إلى مدينـة ناحوم . وأناخ الجمـال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء عند خروج المستقيات "(تك24: 10) . ونـاحور هو اسم شخص أي إلى مضرب خيامه .

وقـد كنا بينا من قبل أن المسافة بين حاران وأرض كنعان حيث يقيم إبراهيم وأهل بيته لا تتعدى 40 ـــ50 كيلو مترا قياسـا على الطريقـة والزمن الذي تستغرقـه سـفراقم

إليها ومنها . ومما يؤكد صحة ما قلناه من قبل بخصوص حاران ، التي هي في " آرام النهرين" ، كل النصوص الأخرى التي وردت فيها عبارة "آرام النهرين" في مدونات التوراة . فلنقرأ :

" لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب . حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الآبد . من أجل أنهم لم يلاقوكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر . ولأنهم استأجروا عليك بلعام بن بعور من فتور أرام النهرين لكي يلعنك " (تثنيه 23: 15) . إن في إمكان أي إنسان أن يسخر من مثل هذه الجغرافيا : بنو إسرائيل يخرجون من وادي النيل إلى أرض كنعان في فلسطين ، لم يستقبلهم سكان مؤاب في شرقي الأردن بالخبز والماء في الطريق عند خروجهم من مصر ، بل استأجروا عليهم واحدا من منطقة دجلة والفرات لكي يستنزل عليهم لعنة الرب!

قد يقول قائل إنه ليس ضروريا أن يكون بلعام بن بعور مقيما آنذك في آرام النهرين ، أي في منطقة دجلة والفرات ، وإنما قد يكون المقصود بذلك هو أنه في أصله ينتمي إلى أسرة من تلك المنطقة ، أي أنه من فتور آرام النهرين وليس مقيما فيها آنذاك . وكيلا يبقى مجال للشك في عدم جدوى مثل هذا الافتراض نعود إلى أحداث هذه الواقعة ذاتها كما سردتها مدونات التوراة " وارتحل بنو اسرائيل ونزلوا في عربات مؤاب من عبر أردن أريحا . ولما رأى بالاق بن صفور جميع ما فعل اسرائيل بالعموريين فسزع مؤاب لشيوخ مديان : " الآن يلحس الجمهور كل ما حولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل . وكان بالاق بن صفور ملكا لمؤاب في ذلك الزمن .فأرسل رسلا إلى بلعام بن بعور إلى فتور التي على النهر في أرض بني شعبه ليدعوه قائلا هوذا شعب قد خرج من مصر هوذا قد غشى وجه الأرض وهو مقيم مقابلي . فالآن تعال والعن لي هذا الشعب "(عدد 22 : 1 — 6) .

فتصوروا الخارطة التي يتعامل بها التوراتيون والمؤرخون اليوم . ملك قرية مؤاب في شرقي نهر الأردن مقابل أريحا يقول لشيوخ مديان التي هي — في زعمهم طبعا — في شمالي البحر الأحمر عند التقاء قرنيه (خليج السويس وخليج العقبة) ، من أجل أن يرسلوا

رسلا إلى بلعام في شمال سوريا ، في حاران ، ما بين الفرات والبليخ كي يأتي ويلعن تلك الجماعة البدوية التي تريد أن تمر بأرض مؤاب !

ولقد جاء في المزامير : "لامام المغنين على الشوسن . شهادة مذهبه لداود للتعليم ـــ عند محاربته أرام النهرين وأرام صوبه " (مزامير 60 : 1) فداود الذي لاحقه " الملك " شـــاول من قبل[1] ، وجعله يهرب من مغارة إلى مغارة ، حتى صار يطلب أن يكون عبدا عنـــد الفلسطينيين ويقاتل معهم إلى جانبهم ضد جماعته[2] إذا بنا نراه فجأة ، يقاتل من مغارته أو خيمته أو بيته في فلسطين ، آرام النهرين في شمال سوريا!

لكن سكان " آرام النهرين" الذين يحاربهم داود نراهم يتحولون إلى سادة لبني اســـرائيل : " فحمي غضب الرب على اسرائيل ، فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك آرام النـــهرين ، فعبد بنو اسرائيل كوشان رشعتايم ثماني سنين" .(قضاة 3: 8)

إن أحدا لن يخطر له أن الآراميين في أعالي الفرات استعبدوا بني اسرائيل في فلسطين ! على أية حـــال نحن كنا قد بينا كيف أن حاران مركز " آرام النهرين " ليست في شمـــال سوريا ، وإنما هي على نهر الفرات شرقي الجرود (يردن) ، شرقي بلاد زهران في شـــبه جزيرة العرب ، وأن مصر التوراة ليست مصر وادي النيل ، وإنما هي بلاد المصريـــين في جنـــوب غرب زهران ، وأن أرض الحثيـــين والكنعانيين هي في جنوب بـــلاد غـــامد وزهران ، وبالتالي فإن فلسطين هي في أرض كنعان هناك ، لأنها أرض الفلستيم ســـكان بلدة " فلسة " وقراها .

---

(1) صموئيل الأول 22 :"فذهب داود من هناك ونجا إلى مغارة عدلام"

(2) " وقال داود في قلبه إني سأهلك يوما بيد شاول فلاشيء خير لي من ان افلت إلـــى أرض الفلسطينيين فييأس شاول مني .. فقال داود لأخيش إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فليعطوني مكانا في إحدى قرى الحقل فأسكن هناك . ولماذا يسكن عبدك في مدينة المملكة معك .فأعطـــاه أخيش في ذلك اليوم صقلغ . لذلك صارت صقلغ لملوك يهوذا إلى هذا اليوم . وكان عدد الأيـــام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشـــهر .. وكـــان فـــي تلـــك الأيـــام أن الفلسطينيين جمعوا جيوشهم لكي يحاربوا إسرائيل فقال أخيش لداود أعلم يقينا أنك ستخرج معي في الجيش أنت ورجالك فقال داود لأخيش لذلك أنت ستعلم ما يفعل عبدك فقال أخيش لداود لذلك أجعلك حارسا لرأسي كل الأيام "(صموئيل الأول 1: 27 ، 28،5 : 1،2) .

ومن المفارقــات التي لم تجد حلا عند الباحثين ـــ كما سبق أن ألمحنـــا ـــ أن تحوتمـــس الثالث كان يحتل منطقـــة الفرات العليا ويدمر ميتاني في الوقت الذي اعتبر فيه المؤرخون أن "الأمبراطوريتين "الحثيـــة والميتانيـــة كانتا في عنفوان التوسع والقوة والازدهار .

" كانت الحملة الثامنة التي أســـفرت عن انضمام منطقة الفرات من أعظـــــم حـــروب تحوتمس في آسيا ، وقد توج هذه الحملة بإقامة لوحة للحدود شرقي الفرات الذي عـــبره غالبا عند كركميش . ولوحـــة أخــــرى في جوارها قرب تلك التي أقامها والد تحوتمس الأول . ونهب بلاد ميتاني في طريقـــه . وعندما كان يتقدم باتجاه مجرى النــــهر كـــان ينهب المدن ويخربها ، ويقطع أشجار البساتين ويقتلع الذرة ويترك الأرض قفرا وربما قـــام بأكثر من حملة على نهارين وفي إحـــدى هذه الحملات بنى زوارق من خشــب الأرز في الجبال شـــرقي جبيل ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات لكي ينقل الجيوش إلى نهارين . وفي طريق عودته كان يصطاد في المستنقعات غربي هذا النهر صادف قطيعا مـــن الفيلـــة وكان أحدها على وشك قتله بضربة من نابه لولا يقظة أمنمحب الذي أســـرع لقطع خرطومه بضربة من سيفه"[1]

إن في هذا القول ثلاث نقاط أساسية لابد من إبرازها . هذه النقاط هي :

1 ـــ بينما تؤكد كل المصادر التزويرية قوة وتوسع ما دعي بـــ" الإمبراطوريتين " الحثية والميتانيـــة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، حتى صارت كل منهما تسيطر غربا حتى البحر المتوسط ، وجنوبـــا (تسيطر الحثية) حتى دمشـــق ، نـــرى أن تحوتمس الثـــالث (1490 ـــ 1436ق.م يجتاح ســـوريا كلها حتى يصل إلى أعالـــي الفـــرات ، وينـــهب ميتاني ، دون أن تشير المصادر إلى أي ذكر لمقاومـــة من أية جهة حثية كانت أم ميتانيـــة أم غيرها . وتبرز بذلك إمبراطوريـــة ثالثـــة في المنطقة نفسها وفي الزمن نفسه ، دون أن تستوقف مثل هذه الظاهرة العجيبة اهتمام أحد من أولئك الباحثين ، طالما أن النتيجـة أو المحصلة من مثل هذا " الخطأ " هي طمس الوجود العربي السوري .

---

(1) Breasted, Ancient Record , vol. Ii 588

و: فيليب حتي ،' تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين ، الجزء 1 ، ص 142 .

2 ـــ يشير النص إلى أن تحوتمس "بنى زوارق من خشب الأرز في الجبال شرقي جبيـــل ، ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات لكي ينقل الجيوش إلى نهارين " ! لنتصـــور معا العمل العسكري ، والجغرافيا :جيش تحوتمس في لبنان ، شرقي بلدة جبيل التي تقـــع على ساحل المتوسط ، يقطع خشب الأرز ، ويبني الزوارق ، لا ليركب البحر المتوسط ، بل لينقلها في عربات تجرها الثيران عبر جبل لبنان . ثم عبر جبال ســـوريا وســـهولها ، وصولا إلى نهارين التي تقع على الفرات . وهنا يجري إنزال الزوارق من على العربات إلى النهر الذي لا يتجاوز عرضه بضعة أمتار ، ويعبر الجيش نهر الفرات ! أية شعوذة هـــذه التي بقيت قرابة ألفين من السنين يتناقلها المؤرخـــون ، وتدرس في الجامعـــات دون أن تدور في خلد أحد عبارة بسيطة كهذه : غير معقول !

والحقيقة هي أن جبيل هذه على نهر الليث (الكلب) لا على شاطئ المتوسط وإن نقـــل الزوارق منها إلى منطقة بني سار عند نهر الثرات (يلفظ أيضا " الفرات " للإبدال الشائع بين الثاء والفاء) تبقى فكرة معقولة عسكريا ، ومن هناك ، يمكن أن ينتقل الجيش مـــن وادي الثرات شرقا إلى آرام نهرن إذ المســـافة ، كما سبق أن ذكرنا لن تتجاوز خمســـين كيلومترا ، لكن الانحدار في الزوارق مع مجـــرى النهر في هذه المسافة أيسر من اقتحـــام البراري والغابات ، إذ إن المنطقة كانت ، كما تشـــير المصادر ، كلها منطقة غابـــات مكتظة بالحيوانات والوحوش .

3 ـــ أما النقطة الثالثة التي تستلفت النظر فهي الحـــديث عن وجود قطعان الفيلـــة في منطقة الفرات ! إن من المعلوم أن شبه جزيرة العرب كانت في ذلك الزمن تعج بالغابات والحيوانات والوحوش الكاسرة ، وقد سبق أن استعرضنا ذلك وأوردنا بعض مـــا قالـــه المؤرخون والدارسون عن أن هذه الأودية كانت في الحقيقة أنهارا في يوم من الأيام ينبض فيها عرق الحياة ... وأن المنطقة الواقعة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشـــر الميلادي مغطاة بالأشجار والعوسج والسلم ، حتى إن اللصوص كانوا يتخذونها مخـــابئ يهاجمـــون منها القوافل ... وأنه كان يعيش في شمال افريقيا وفي جزيرة العرب حيوانات

من نوع ما يوجد الآن في زيمبابوي وروديسيا "[1] .أما أن تصادف قطعان الفيلة في شمالي سوريا على نهر الفرات ، فهذا لا يقره ولن يقره أحد .

إن من المعروف أن السوريين أدخلوا الفيل إلى البلاد لأول مرة في العهد السلوقي . فقد استقدموا مجموعة من الفيلة الهندية مع مجموعة من الرجال المدربين على القتال بها من أجل مقابلة الخيول الإفريقية في المعارك ضد البطالمة . ويصف لنا المؤرخون لقاء تلك الفيلة مع الفيلة الأفريقية "في ساحة المعركة في مغنيزيا ورافيا . وانتصرت الهندية التي كانت تتفوق بعددها على الإفريقية في المعركتين مما لا يمكن تبرير الاستنتاج بأنها كانت أقوى "[2] ."كان يقود فصيلة الفيلة في ساحة المعركة ضابط خاص .. وقد استخدمها السلوقيون أيضا من أجل اقتحام موقع حصين . ويعتبر الفيل من هذه الوجهة دبابة العصر القديم"[3] . وكانت تعتبر الفيلة في هجومها على المشاة أعداء مميتة للفرق التي تواجهها لأول مرة ويزول تأثيرها أمام المشاة المجربين . وعندما علم الرومان بوجود عدد كبير من الفيلة الحربية في سوريا أرسلوا في عام 163 ق.م بعثة للقضاء عليها . وأثار القضاء على هذه الحيوانات الداجنة والنادرة أحد مواطني اللاذقية بحيث طعن رئيس البعثة طعنة مميتة حين كان يتطيب من الجمناز يوم بتلك المدينة . وبعد ذلك بوقت قصير استحوذ شخص سلوقي على فيلة أحد البطالمة ، ولكن أحد منافسيه جرده منها . وهذا آخر ما نسمع عنها"[4]

وكلمة مختصرة إن قطعان الفيلة كان يمكن أن تصادف في بعض مناطق شبه جزيرة العرب ، لا في شمالي سوريا في سهول الفرات !

ثم إن لائحة الغنائم التي غنمها تحوتمس الثالث في غزوته تلك تقف شاهدا آخر على البلاد المعنية لا علاقة لها قطعا بسورية المتوسطية ، أو بمنطقة الفرات الشمالية . فلقد "سجل تحوتمس انتصاراته على جدران معبده في طيبة ، وذكر أسماء المدن التي فتحها .

---

(1) انظر :تشايلد ، "الشرق القديم" طبعة سنة 1964 ، ص15 ــ16 سومر (1949) جــ2 ، ص 130:و: الدكتور جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام "جــ1،ص 97 ــ 102 .

(2) انظر : Livy .BK .XXX Vil.ch.39.13 polily ,BK, V,ch.84

(3) W.H.Tarn"Hellenistic Military and Naval Development"P.95

(4) فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ،ص292 .

وتشيد لائحة الغنائم التي حملها معه من عاج ، وأبنوس ، وحلي ، وفضة ، وحجارة كريمة ، وخشب الخرنوب المطلي بالذهب ، بغنى البلاد وحضارة سكانها الرفيعة"[1] . إن مثل هذه الغنائم ليست غنائم أساسية في منطقة الفرات ، وإن وجدت إنما تكون نادرة ومستوردة من جنوب شبه جزيرة العرب وإفريقيا والهند . وقد أكدت المكتشفات ندرة وجود العاج والأبنوس في شمال سوريا . ومما يزيد الأمر وضوحا هو ما سجله الكهنة على لسان الإله آمون حامي تحوتمس بشكل أغنية للنصر :

"لقد عبرت مياه المنحنى العظيم لنهارين

إنهم يسمعون صرختك للحرب ويزحفون إلى أوكارهم

إنني أنزع من منخرهم نسمة الحياة وأجعل

رهبة جلالتك تخترق قلوبهم

لقد أتيت لأجعلك تدوس زعماء زاهي

إنني أطرحهم تحت قدميك في البلاد كلها "[2] .

فبلاد زاهي هي عند نهارين إذن ، وقد درج المؤرخون على اعتبار "نهارين" بلاد ما بين النهرين Mesopotamia فتكون بلاد زاهي هي إذن بلاد ما بين النهرين . لكن المؤرخين أنفسهم يقولون "إن السهل الفينيقي وفلسطين ، كانا يسميان زاهي Zahi "[3] وبالطبع لابد من هذه الأكذوبة لإتمام اللوحة المزورة .

فكيف يطلقون اسم "زاهي" على مناطق مختلفة في سوريا الطبيعية كلها فتصبح هذه التسمية شاملة للعراق ولبنان وفلسطين الحالية ؟

الحقيقة هي أن الخلط في أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية هو الذي أدى بهم إلى هذه النتائج .

إن بلاد زاهي تشمل أرض الكنعانيين والفلسطينيين فعلا ، لكن في شبه جزيرة العرب ، وليس في أي مكان آخر . إنها بلاد زهران قرب " نهرن " الآرامية على نهر الثرات . إن

---

(1) المصدر السابق ص 142 .
(2) المصدر السابق .
(3) المصدر السابق ،ص138/ح .

كلمة " زاهي " تعني المشرق ، وكانت تكتب قبل التصويت " زه " وإن كلمة "زهران" مؤلفة من كلمتي " زه " و " رن " . وإن "رن " هي من أسماء إله الشمس وتعني : السيد ، الناظر ، العين ، المرتفع . الذي يرى ويرعى ويراقب كل شيء . وقد سميت باسمه منطقة الجبال والوديان (رنيا) التي ما تزال قائمة حتى اليوم . ومن مرادفاتها أيضا "رع". الإله الراعي ، واسمه بالكنعانية " راعوم " ، " وهو إله الشمس عند الكنعانيين وفي وثائق أوغاريت"[1]

إن بلاد " زاهي " هي إذن بلاد "زه رن " (زهران الحالية) . وتعني بلاد الشمس المشرقة أو مشرق الشمس . وإن تحوتمس لم يدخل البلاد السورية المتوسطية إطلاقا : إنه لم يدخل فلسطين ، أو لبنان ، ولم ينقل الزوارق على عربات تجرها الثيران من جبيل في لبنان إلى شاطئ الفرات في شمال سوريا من أجل أن يعبر مخاضة عرضها بضعة أمتار ، ولم يلتق بقطعان من الفيلة هناك ، ولم يغنم العاج والأبنوس من هناك ، وباختصار : لقد كانت حملته إلى منطقة طرق القوافل شرقي البحر الأحمر في شبه جزيرة العرب ضمن حملاته التأديبية لملوك المحطات . هذا إن كان حقا هو من قام بتلك الحملة وليس وكيله على المحطة .

وعندما تحدثنا عن "الخابيرو" قلنا إن التسمية وصفية طبقية ، وأن هؤلاء كانوا يتواجدون بصورة مكثفة في المناطق الزراعية من بلاد "نهرن" وكنعان ، ويسطون على القرى والمزارع ويبحثون عن عمل . وقد دأب المؤرخون على اعتبارهم موجودين في ما دعي بـ" بلاد الرافدين" رغم كل الارباكات والاشكالات والتناقضات التي تبرز أمامهم في النص الواحد .

يقول فيليب حتي : " ويظهر الخابيرو لأول مرة في الحوليات الحثية في عهد مرشلش الأول (حوالي1600ق.م) الذي استأجرهم . وفي رسائل تل العمارنة نرى الخابيرو يتعاونون مع المتمردين ضد الفراعنة وفي 1367 ق.م يستولون على شكيم . وقد وجهت ستة من هذه التحارير (رقم 258 ـــ 290) من عبد خيبا تابع فرعون في

(1) انظر :"يبلا ــ عبلاء " ، ترجمة قاسم طوير ، ص 56 ، 58 .

أوروســالم إلى اخناتون يعبر فيها عن ولائه ويطلب المساعدة ضــد الخابـيرو الذيــن يهددونه . وفي جميع هذه الوثائق يبدو الخابيرو كجماعة متعددة العناصر وبدون أوصاف مشتركة ومعبأة لاشك في بلاد الرافدين[1] "

التناقض واضح ومكشــوف : الخابيرو معبأون في بلاد الرافدين (في العــراق) أو في شمال سوريا ، ويحتلون شكيم في فلسطين وهو كما سبق أن مرّ معنا شكيم بن حمــور ، ويرسل عبد خيبا ، وكيل ملك مصر ، من أور وسالم في فلسطين يشكو من تصرفاتهم . ومرشلش الملك الحثي يستأجرهم كل هذا دفعة واحدة وفي بضعة أسطر!

وفي الوقت الذي تتكشف فيه الحقائق ، وتجمع فيه المصادر والمكتشفات الآثاريــة جميعاً ـــ كما رأينــا ـــ على أن " نهارين" ، هي آرام النهرين وبالتالــي ، فهي مركز عــربي آرامي ، وهذا ما أكدته أيضاً مدونات التوراة في كل المواضع التي ورد فيها ذكــر " آرام النهرين" فإننا نجابــه ـــ رغم ذلك كله ـــ بعملية الخلط بــين ســكان آرام النــهرين والحوريين من جهــة ، وبين ســكان القبائل الهند وأوروبية أو الآرية ـــ كما يشــتم مورتغات ـــ خلف حدود ســوريا الشمالية من جهة أخرى : " وكان يعرف المصريون ميتاني باسم نهارين .. وكان الحوريون في ميتاني يشكلون اكثرية الســكان ، ولكــن الأرستقراطية والملوك كانوا هنوداً أوروبيين . وكان ملوك ميتــاني في معــاهداتهم مــع جيرانهم يتوجهون إلى ميثرا وفارونا وغيرها من الآلــهة التي تعبد في الهند ، وأسماء الملوك مثل دواشرتا هي أسماء هندية أوربية واضحة!

"وكان توشراتا (ذو شراتا) هذا أشهر الحكام الميتانيين . وقد وجــدت تحارير كثيرة في تل العمارنــة موجهة منه إلى امنحوتب الثالث (توفي 1375 ق.م) وإلى امنحوتب الرابـع (توفي 1358 ق.م) والتحارير مكتوبة بالآكادية وهي اللغــة الدولية في ذلك العصــر . غير أن تحريراً واحــداً كتب بالحورية لغة الدولة الرسمية ، وكانت إحــدى شــقيقات توشراتا بين نساء امنحــوتب الثالث ، كما أن إحدى بناته تزوجت امنحوتب الثــالث ومن بعده امنحوتب الــرابع .

---

(1) فيليب حتي ،"تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وسوريا" الجزء 1 ،ص173 .

ويخاطب توشراتا امنحوتب الثالث في إحدى رسائله بهذه الكلمات :

"إلى ميموريا الملك العظيم ، ملك مصر ، أخي ،

صهري الذي يحبني والذي أحبه ،

هكذا يقول توشرات الملك العظيم ، حموك ،

إنني في حالة حسنة ، عسى أن تكون في حالة حسنة ، وبيتك ،

وشقيقتي ، وسائر نسائك وأولادك ،

ومركباتك وخيولك ، وجيشك ،

وبلادك وجميع ممتلكاتك ، ليكثر السلام عليك"[1]

إننا نلاحظ كيف اختلط الآراميون سكان "آرام النهرين " بالحوريين سكان المشنة شرقي زهران بالقبائل الهندو أوروبية المختلفة . فلما كان موقع الحوريين على الطرف الشمالي الشرقي لبلاد كنعان في زهران ، فقد نقلوا جغرافيا إلى الزاوية الشمالية الشرقية من سوريا الطبيعية ككل . إن كل هذه التناقضات لم تكن لتستوقف أحدا من المؤرخين طيلة هذه القرون الطويلة : فالميتانيون هم حوريون ، الحوريون أكثرية السكان ، والملوك هندو أوربيون ، والدليل ذو شراتا . لكن "ذو شراتا " هذا أو " توشراتا " هو اسم عربي خالص وليس "هندو أوروربيا " خالصا كما يقول حتي ، إنه ذو الشرى ، وهو رب السراة أي الجبال في شبه جزيرة العرب .

لقد وقع المؤرخون في المزالق التوراتية الكبيرة . ومن هذه المزالق كلمة "ملك" و" مملكة " ولقد كنا أوضحنا أن هذه الكلمة كانت تطلق على كل من يتزعم عصبة من الناس ، أو قرية ، أو مزرعة ، أو حي ، أو بلدة ... الخ ، وفجأة نرى تلك المزارع والقرى و العشائر التوراتية الصغيرة تتحول إلى ممالك بل إلى إمبراطوريات . لقد عرفنا أن ميتاني هي بلدة مثان أو المشنة شرقي زهران ، وقد "عرفها المصريون أيضا باسم نهارين " و"نهارين" نفسها هي آرام النهرين التوراتية التي مر إيضاحها ، غير

(1) فيليب حتي ،"تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وسوريا" الجزء 1 ،ص162 ــ 163 .

أننا نراها فجأة تتحول إلى ما يدعى بـ" مملكة ميتاني" عند بعض المؤرخين ، وإلى " الإمبراطورية الميتانية أو الحورية " عند بعضهم الآخر لنقرأ :

" كانت مملكة ميتاني خلال القرن الرابع عشر في وضع قلق حيث كانت محصورة بين الدولة الحثية الناشئة والامبراطورية المصرية الآخذة في التوسع في الجنوب . وتفيدنا الوثائق المصرية السابقة لهذا العهد أن تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث وامنحوتب الثاني قاموا بحروب موفقة ضد نهارين"[1] . فعلاوة على هذا التصور "السريالي " للجغرافيا الذي يضع الميتانيين (الذين من المفروض أنهم في شمال شرق سوريا) في الوسط بين الحثيين والمصريين فقد رأينا كيف أنه في هذا الوقت بالذات توجد ثلاث " إمبراطوريات " على رقعة واحدة من الأرض في "شمال سوريا" ، وها نحن نلتقي بها ثانية دون أن يخطر ببال أحد من المؤرخين أن هذا التقاطع على أرض واحدة في زمن واحد ، علاوة على الوجود الآشوري أيضا ، إنما لايعدو في حقيقته وجود الحثيين (بني حث بن كنعان في زهران) ، والمصريين (بني مصرايم في غرب زهران) ، والآشوريين (بني آشور بن ددان أحفاد مدين بن لإبراهيم بين غامد وزهران) ، والحوريين (من أمراء بني سعير في جبال زهران)، والميتانيين (سكان بلدة ميتانة في شرق بلاد زهران) . والطريف في الأمر ، بل الغريب فيه ، أن العواطف العرقية لم تتمكن من ألا تعلن عن نفسها لدى بعض المؤرخين ، مثل مورتغات ، عندما ظن أن هؤلاء الحوريين قد يمتون إلى العرق الآري المختلق بصلة ما . وبالرغم من أنه لم يعثر على أي مكتشف خلفه أولئك الحوريون في شمال سوريا ، فقد بقي التاريخ يدون ، بطريقة ما ، لحساب تلك القبائل التي لا يعرف عنها أي شيء لنقرأ : " وبالرغم من أن الحفريات لم تستطع أن تقدم لنا شيئا أثريا من قلب هذه المنطقة ، فإننا نلمس في كل خطوة نخطوها ، على عكس العالم الكاشي، قوة الحياة الديناميكية الجبارة تحدو هذا الشعب وطبقته الحاكمة لتغير معالم الحياة الحضارية لكافة مناطق شمال ما بين النهرين ، بما في ذلك بلاد آشور وشمال بلاد الشام، وذلك من خلال الكنز الحضاري الذي خلفوه لشعوب الشرق الأدنى

---

(1) المصدر السابق ص163 .

في كافة المجالات الحضارية الخصبة الغزيـــرة . ومن ناحية أخرى فلا يمكننا البت فيما إذا كان الفضل الأول والكبير في ذلك يعود إلى الشعب الحوري نفســـــه ، أم إلى طبقتــه القائدة من الهنود ، والتي تنتسب إليه السلالة الميتانية المالكة .. في الوقت الذي لا نعلـــم فيه شيئا عنهم سوى أن آلهة القسم عندهم كانت: اندرا ، ميترا ، فارونا ، نازاتيا ..."[1]
هكذا يكتب مورتغات لنا التاريخ . إنه واحد من " النماذج " الكثيرة التي نرسل أبناءنا ليتتلمذوا على أيديهم في الخارج من أجل التعرف على تاريخنا !
هكذا يكتب المؤرخـــون تاريخنا ، وهكذا يسقط كل العلم ، والموضوعية ، والمنطـــق ، والتاريخ في لحظة واحدة ! ألا يذكـــرنا هذا بإصرار أولئك المؤرخين جميعا على إلصاق الحضارة العربية السومرية بقبائل المغول الهمجيـــة ، والتي صاروا ، دونما أي وازع مـــن علم أو منطق ، يدعونها بـــ " السومرية " ؟ فبالرغم من أنهم لا يعرفون عنهم شيئا سوى أنهم (أي تلك القبائل المجهولة الاسم) كانوا يحلفون بآلهة هندية فإن " هـــذا الكـــتر الحضاري" عند شعوب الشرق الأدنى لابد أن يكون من مخلفاتهم ! ولابد هنا من القـــول أن جميع هذه الأسماء التي اعتبرها هندية هي عربية سريانية وليس لها أي معنى بأية لغـــة أخرى .

• **كركميش**

تتألف الكلمة من " كرك " بمعنى "حصن" ، وأميش وتعني حوض المياه وبه اقترن لقـــب ملك أوروك جلجامش (مؤلفة من جلج بمعنى كاشف السر وأميش وتعني الحوض . أما كميش و " كموش " فهو من أسماء تموز حين موته في الصيف وتعني اليباس والانكماش والذبول) وقد امتد تقديسه من جزيرة العرب إلى (إيبلا) غربا[2] ، وقد كان إله بـــني مؤاب في غرب شبه جزيرة العرب، في شرق زهران .

(1) انطون مورتغات ، "تاريخ الشرق الأدنى القديم" ص 215 .
(2) انظر : ايبلا ـــ عبلا ، ترجمة قاسم طوير ، ص 38 .

وقد ورد ذكره في التوراة وقدم له الملك سليمان الذبائح ، و"عمل سليمان الشر في عيني الـرب و لم يتبع الـرب تماما كـداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم"[1]

وقد أكدت جميع المصادر على أن كركميش قريـة حثية ، يحيط بها الآراميون من كـل جانب تقريبا . وقد نتج عن سوء تفسير الأماكن التوراتيـة أن المؤرخين اعتبروا موقـع كركميش هو موضع مدينة جرابلس الحالية في شمال سـوريا ، بينما هـي في الحقيقـة على نهر الثرات شرق زهران ، وبينها وبين أراضي الكنعانيين في بلاد غامد تقف جبـال لبنان* التي ينبع منها رنية وروافد الثرات .

يقول فيليب حتي نقلا ــ كعادته ــ عن غيره : "يسـتدل من هذه المدونات الآشورية البابلية وغيرها أن قسما كبيرا من بلاد الرافدين وسـوريا الشـمالية والوسـطى قـد اجتاحته في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر جماعات سامية ، وأن هذه المنـاطق بدأت تتخذ صفة آرامية باستثناء جيوب حثية قليلة منها كركميش . وقد أدى ضغـط الآرامين المتواصل إلى طغيانهم التدريجي على الأموريـين والحوريين والحثيـين في وادي العاصي والمنطقة التي تليها في الشمال وإلى امتصاص هؤلاء وطردهم . وكان جبل لبنـان عائقا في طريق هذا التوسع نحو الغرب واستمر فيه ازدهـار الجماعات الحثية والأموريـة بينما بقيت المدن الكنعانية في السهل الساحلي بدون أن تمس . وأصبحت دمشـق** ، وهي ، مركـز دولـة آرامية فيما بعد ، يسكنها الآراميون في 1200ق.م"[2]

وليس عسيرا أن نلحظ كيف يضطر المؤلف إلى "التزحلق" على الجغرافيا من شمالي سوريا إلى دمشق من أجل أن يخلق حدا أدنى من منطق العلاقات بين المعطيات الـتي أمامـه ، وتذهب كل جهوده سدى في كل ما ينقله عن غيره دون تمحيص . ففي الوقت الـذي

---

(1) الملوك الأول 11 : 6 ــ 7 .

* كنا قد أوضحنا موقع هذا الجبل الذي يلي "أرحو" (أريحا) إلى الجنوب حتى شمال جذانة تقريبا وكلمة لبنان جمع لبان ويعني شجر اللبان أو الصنوبر أو البخور أو العرعر

** وردت في رسائل تل العمارنة بصيغة ذومشكا ، وذي مشاكا ، وتيمشجي ، وهي قـرية ذو مسك شرق غامد .

(2) فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 175 .

عـــرفنا من قبل عن تراكم أربع امبراطوريات "منضدة" بعضها فوق بعض في الزمــــان الواحـــد والمكان الواحد ، وهي الحثية ، والميتانية ، والمصرية ، والاشورية ، نراه يفاجئنا بطغيان الوجود الآرامي على المنطقة برمتها (باستثناء كركميش) ، فيتوضعون بدورهم فوق " الامبراطوريات " الآربــع في الوقت نفســـه . فـــهو يعـــــرف أن الآراميـــين يتواجدون في ممالكهم على الفرات (بناء على التغيير الذي حدث من ثرات إلى فرات)، ويتقدمون إلى دمشق ، لكنه لا يعرف أن دمشق هذه هي الترجمة الخاطئة لكلمـــــة "ذو مسك" الواقعة شرقي غامد ، مما اضطر إلى أن "ينـــزلق" هم من حاران في شمالي ســوريا إلى دمشق وعلى طول وادي العاصي حسب تصوره) . ولما لم يتمـــكن الآراميون مـــن عبور الجرود الجبلية (يردن) إلى أراضي كنعان في بلاد غامد بسبب مقاومـــة الســكان الزراعيين هناك يفصلهم عنهم جبل لبنان فعلا ، وجد المؤلف أن عليه أن ينـــزلق جنوبـا قليـــلا أيضـــا ويجعل جبال لبنان المتوســـطية حائلا عن تقدم الآراميين غربا إلى أراضي كنعان ، متجاهلا هذه المرة أن أراضي كنعان كان ، هو وغيره ، قد اعتبرها في فلسطين وليس في لبنان ، لكن الأمر استعصى أمام جبال لبنان بالذات ، و لم يعد يرى مجالا آخــر للانزلاق جنوبا ، سواء أكانت أرض كنعان في الجنوب أم في جنوب الجنوب !

- **الأردن ولبنان**

ولقد أشارت التوراة إلى موقع جبل لبنان هذا في أكثر من موضع . لقد وقف يشـــــوع بجماعته عند بوابة أريحا في الجرود الجبلية وأمام المخاضات (يردن) من أجل عبورها إلى أرض كنعان . ونظر ودعا ربه قائلا :" دعني أعبر وأرى الأرض الجيدة الـــتي في عـــبر الأردن هذا الجبل الجيد ولبنان "[1] فلبنان هــــو إذن في غـــرب الأردن " يـــردن " أي المخاضات التي عليه أن يعبرها مع جماعته إلى أرض كنعان ، مع أوديتها ومخاضاتها الـــتي تملأها عادة مياه السيول بين فترة وأخرى . وما أن عبروا حتى رأى يشوع نفسه عنـــد أريحا : " وكانت أريحا مغلقة مقفلة بسبب بني إسرائيل .لا أحد يخرج ولا أحد يدخل ،

(1) تثنية 3: 25 .

فقال الرب ليشوع : انظر قد دفعت بيدك أريحا وملكها جبابرة البأس"[1]

" ووقفت المياه المنحدرة من فوق .. انقطعت تماما ، وعبر الشعب مقابل أريحا"(يشوع : 3، 16) إنها مياه السيل إذن التي كما تتدفق فجأة تنقطع فجأة .

إن جبل لبنان ، إذن ، مقابل أريحا ، حيث عبر يشوع مع جماعته إلى أرض كنعان ، فكيف يصح هذا مع لبنان وفلسطين شرقي المتوسط ؟ وينتج عن هذا أن كركميش أيضا هي في المنطقة ذاتها . إن هذا وحده هو الذي يفسر كل الأحداث التاريخية التي لها علاقة بتلك المناطق الجغرافية دونما أي لبس أو تناقض .

أما جبل "لبنان" فكانت تطلق هذه التسمية على كل الجبال التي تغطيها فصيلة الصنوبريات ، وهي جمع لبان أي الصنوبر ، الكندر ، العرعر ، المر ......

- **قادش**

كانت تكتب قديما"قدش" بدون تصويت وتعني "قدس" . وقد وردت في مدونات التوراة باسم "قدش برنع " (قادش برنيغ) ، وتعني قدس في رنيا (أو "رنيع" لاحتمال الإبدال بين الهمزة والعين) و"رنيا " هو الإله الشمس ، ورب المرتفعات في بلاد الشمس المشرقة . وباسمه تسمى وادي رنيا المنحدر من هذه الجبال نحو الشرق ليتحد بنهر الثرات الذي ينبع هو أيضا من هذه الجبال . وإذا ما دققنا في موقعه الجغرافي من خلال مدونات التوراة نجد الآتي :

1 ـــ حينما هربت هاجر من وجه سيدها سارة زوجة إبراهيم وجدها " ملاك الرب على عين الماء في البرية . على العين التي في طرق شور .... فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رئي .... لذلك دعيت البئر بئر لحي رئي هاهي بين قادش وبارد"(تك 16: 7 ، 13 ، 14) .

فإذا كان إبراهيم وزوجته مقيما في قرية أربع (حبرون) التي جعلت فيما بعد الخليل في فلسطين ، وإذا هربت هاجر من هذه القرية من وجه مولاها ، فهل يخطر في بال أحد أنها سوف تخرج وحيدة إلى برية شور التي حددها جغرافيو التوراة على الجانب

---

(1) يشوع 6 : 1 .

الشرقي من خليج السويس ؟ علما أن موقع أحداث هاجر وابنها اسماعيل واضح في التراث العربي والاسلامي في شبه جزيرة العرب .

على أية حال ، لقد ورد ذكر قادش برنيع في عدة مواضع مقترنا بأسماء جغرافية أخرى يمكن أن تلقي الضوء أكثر . فعندما خرج موسى بجماعته من أرض المصريين إلى أرض الكنعانيين ، ودار من خلف أرض الفلسطينيين حتى لا يصطدم بهم ، ووصل إلى أرض الأدوميين ، وكان الأدوميون من ألد أعداء جماعته ، لذلك فقد عارضوا ، هم وجيرانهم المؤابيون ، ولم يستجيبوا لرجاء موسى عن طريق رسله بالسماح لهم بالمرور في أرضهم عند صعودهم من مصر مما اضطر موسى وجماعته إلى الإقامة في قادش برنيع . ثم ساروا في القفر وداروا بأرض أدوم وأرض مؤاب .

" وأرسل موسى رسلا من قادش إلى ملك أدوم . هكذا يقول أخوك* اسرائيل قد عرفت كل المشقة التي أصابتنا .. وهانحن في قادش مدينة في طرف تخومك دعنا نمر في أرضك . لا نمر في حقل ولا في كروم ولا نشرب ماء بئر في طريق الملك نمشي لا نميل يمينا ولا يسارا حتى نتجاوز تخومك . فقال له أدوم لا تمر بي لئلا أخرج للقائك بالسيف . فقال له بنو اسرائيل في السكة نصعد وإذا شربنا أنا أو مواشي من مائك أدفع ثمنه . لاشيء . أمر برجلي فقط فقال لا تمر . وخرج أدوم للقائه بشعب غفير وبيد شديدة وأبى أدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور في تخومه ، فتحول اسرائيل عنه .

فارتحل بنو اسرائيل والجماعة كلها من قادش وأتوا إلى جبل هور . ولما سمع الكنعاني ملك عراد الساكن في الجنوب أن إسرائيل جاء في طريق أتاريم حارب اسرائيل وسبى منهم سبيا .

وارتحلو من جبل هور في طريق بحر سوف ليدوروا بأرض أدوم .." (عدد 20: 14، 16 — 22، 21: 1، 4)

في هذا النص نجد أن "قادش " تقترن بالأسماء الجغرافية التالية علاوة على اقترانها ببرية شور ورنيا : أرض أدوم ومؤاب ، جبل هور ، عراد ، الجنوب . إن " قادس " تتبع بلاد

* باعتبار أن عيسو (الذي هو ادوم) أخو يعقوب (الذي هو اسرائيل) .

"رنيـــا " أي زهـــران حاليا ، وهي في البرية ، أي من الشرق ، وعلى تخـوم أرض أدوم التي تفصلها عن أرض كنعان عند بلدة " عراد " ، وعراد هذه هي البلدة التي تقع على وادي عـــرادة الذي احتفظ باسمه حتى اليـــوم ، ويخترق زهران الخصيبة من الجنوب إلى الشمال وقد ورد ذكرها باليونانيـــة باسم Arados وترجمت ترويـــرا إلى اللغات المختلفة باسم " أرواد " أي الجزيرة السوريـــة المتوسطية .

أما لفظـــة "الجنوب" التي قابلتها في الأصل اليوناني Midi فهي اسم مكان وليست دلالـة على جهة ، وهي "ميدي" و" نجي" حاليا جنوب أبها .

إن وجـــود بريـــة شور ـــ حسب الجغرافيا التوراتية الفلسطينية ـــ على الجانب الشرقي من خليج الســـويس ، ووجود الأدوميين هناك ، وفي الوقت نفسه فـــإنهم يجـــاورون المؤابيين ، والمؤابيـــون والعموريون وضعتهم الجغرافيا التوراتية التزويرية في شرقي نهـــر الأردن قبالة أورشليم (!) يخلق فوضى جغرافيـــة وتاريخيـــة لا مثيل لهـــا : هـــاجر السيدة الحامل تخرج من خيمتها في مغارة أربع (حبرون) التي هي مغارة المكفيلة نفسها أيضا ، والتي دعوها فيما بعد " الخليل" من أمام وجه مولاتـــها ، وإذا بها على خليـــج السويس في برية شور عند قادش برنيع . ويتوقف موسى في قادش برنيع على تخوم سيناء ويقول لمن شرقي أورشليم في شرقي نهر الأردن : اسمح لي أن أمر على رجلي في أرضك لأعبر إلى أرض كنعان التي غرب النهر!

والأنكى من هذا كله هو أن بلدة "قادش" ما تلبث ـــ كعادة المواقع الجغرافية التوراتية ، بعد أن تم نقلها ـــ أن تنزلق شمالا ، ودفعة واحدة ، لتحط رحالـــها على نهر العاصي في سوريا الشمالية . ثم تشهد أعنف المعارك بين تحوتمس الثالث والهكسوس .

" و لم تتوطد سيادة مصر نهائيا في سوريا التي أصبحت جزءا من الإمبراطوريـــة المصريـــة الناشئة إلا بعد أن قام المحارب المشهور في مصر القديمة وهو تحوتمـــس الثـــالث 1490 ـــ 1936 ق.م بست عشرة حملة حربية . وتتصف الحملة الأولى ، وهي أهم الحمـــلات ،

بسقوط مجدو* في عام 1468 ق.م حيث اصطدم الجيش المصري بحلف مؤلف من 350 أميرا . وكان الهكسوس الذين طردوا حديثا من مصر العمود الفقري لهذا الحلف . وكان أمير قادش على العاصي رئيسه . وقد دارت رحى الحرب تحت أسوار المدينة المحصنة تحصينا قويا .. وتقدم تحوتمس نحو الشمال ، وفي خلال حملته الخامسة استولى على أرواد ، وقد استخدم فرعون في بيانه الحربي الذي أعلن فيه سقوط هذه المدنية البحرية العظيمة الواقعة في جزيرة أرواد العبارات التالية :

"انظر! إن جلالته قهر مدينة أرواد وما فيها من قمح ، وقطع جميع أشجارها الجميلة . انظر! لقد كان فيها محاصيل كل بلاد زاهي . لقد كانت جنائنهم ملأى بثمارها وخمورهم كانت في معاصرهم كالمياه الجارية ، وحبوهم على الجلول كانت أكثر من رمال الساحل . وقد غمر الجيش بالحصة التي نالها "(1)

وسوف نترك الحديث عن الهكسوس الآن ، لنكتفي هنا بالإشارة الى اقتران قادش وأرواد في هذا النص ، إذ يهزم تحوتمس أمير قادس التي على العاصي ويحتل جزيرة أرواد "ويضع سوريا كلها في قبضته" .

الحقيقة إن " تنضيد" الامبراطوريات فوق سوريا في زمن واحد ، كما سبق أن أشرنا ، صار لازمة لابد من ترديدها بعد أن تم تغيير الأماكن والمواقع الجغرافية التوراتية في ترجماها ، دون أن يستوقف ذلك أحدا من المؤرخين رغم كل الشناعة التي يموت بها المنطق والعلمية والموضوعية في مثل هذه الأقوال المتناقضة التي صارت أقرب إلى الشعوذة منها إلى التاريخ .

وفوق هذا ، فإن اللوم كله يقع على المؤرخين ، أو بالأحرى على "نقلة " التاريخ ، من العرب الذين يعرفون ، أو هكذا يفترض على الأقل ، جغرافيا المواقع والبلدان والمدن

---

* يعلق فيليب حتي حول هذا الاسم قائلا :" إن السحر الذي يحيط بهذا الاسم مصدره آية غامضة في سفر الرؤيا 16:16 حيث يرد باسم ارمجدون Armgedon .وقد وضع الرومان جيوشا بقربها .

النظر :فيليب حتي ،"تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص140/ح .

(1) انظر : Breasted ," Ancient Records",Voll.ii,P461

و: فيليب حتي ،" تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص141 .

المحلية . فجزيرة أرواد السورية لا يمكن أن تكون مدينة تغص بالأشجار والبساتين وبالثمار والحبوب . فهي أرض صخرية منذ أن وجدت ، ولاتصلح لشيء إلا للملاحة وصيد البحر . ثم إن الحبوب التي " على الجلول " " لابد وأن تستلفت نظر أبناء المنطقة على الأقل . فالجلول هي قطع الأرض المستصلحة المتدرجة على سفوح الجبال بعضها فوق بعض ، وبالتالي فإن البلدة أو المدينة المعنية لابد وأن تكون مدينة جبلية ، علاوة على ما تفيض به جنائنها بالثمار ، ومعاصرها بالخمور " كالمياه الجارية " . ثم إن كل محاصيل " بلاد زاهي " تتجمع فيها .. ولم يعد ثمة مجال للشك في أنها تقع في بلاد زهران . وأن تسميتها باليونانية تكشف عن حقيقة اسمها دونما حاجة إلى الاجتهاد ، أو الظن ، أو التحوير في الاسم . إنها Arados ، وبحذف النهاية اليونانية تصبح " أراد " التي هي " عراد "• على نهر عرادة المحافظ على اسمه حتى اليوم في زهران .

أما آرام جدون ، "التي نقلت في الترجمة التوراتية باسم "مجدو" فهي على نهر قيشون (هو قيس حاليا)، وتنحدر روافده من شمال شرق بلاد زهران "جاء ملوك، حاربوا . حينئذ حارب ملوك كنعان في تعنك على مياه مجدو . بضع فضة لم يأخذوا . من السموات حاربوا . الكواكب من حبكها حاربت سيسرا .نهر قيشون جرفهم " (قضاة 5: 19 — 21) .

وهكذا يتضح لنا مرة أخرى ، أنه لا " الحثيون" ولا "الميتانيون"ولا تحوتمس الثالث أو غيره ، احتل سوريا و أقام عليها لنفسه "امبراطورية" . إن هذا يثبت استمرار تراث الدولة السرجونية الموحدة على الأرض العربية السورية ، بعكس كل ما حاول تكريسه وترسيخه في الأذهان ، مزورو التاريخ والجغرافيا عبر كل هذه القرون الطويلة . غير أن مراحل الضعف التي كانت تنتاب هذه الدولة ــ كأية دولة أخرى قديمة أو حديثة ــ بين فترة وأخرى كانت تحد من فعاليتها في صد هجمات الشعوب والقبائل الغازية من الشمال والشرق التي كانت تنقض لتدمر وتقتل وتنهب ، ثم تعود إلى معاقلها خلف الجبال المنيعة عند أول تصد حقيقي من قبل الدولة . وكان ذلك من

• **لقد وردت في جدول الملك شيشانق بهذه الصيغة "عردى"**

شـــأنه أيضا أن يؤثـــر على درجة السيطرة على الجناح الجنوبي الغربي للدولة ، حيـــث خطوط القوافل والتجارة الدوليـــة ذات الأهمية البالغة في غرب شبه الجزيرة العربيـــة . وإن هذا كان يزيد من وقع وتيرة التنافس بين الملوك الوكلاء على المحطات من أجل نهب خيراتها والاستئثار بها .

• دمشق

إن الشكل الذي يتخذه اسم دمشق في المدونات التوراتية "ماشك" "ذمشك" وفي رسائل العمارنة وردت بصيغة دومشكا Dumshqa (رســالة رقم 107 ســـطر 28) دي مشـــكا Dimashqa (رسالة رقم 197 سطر 2) ، تيمشجي Timashgi (رسالة رقم 53 سطر 63) وهي كلها صيغ مختلفة لقرية "مسك" أو "ذو مسك" الآرامية ، شرقي زهـــران وهـــي بالتالـــي ، مجاورة لقرى الكنعانيين والآشوريين والكوشيين والمصريين والفلشـــيين ، وفي بقعة واحدة لا تتجاوز مساحتها بضعة كيلومترات مربعة . وقد تمت عملية الخلـــط في التفسير الجغرافـــي للتـــوراة بينها وبين مدينة دمشق السورية في المنطقة الغربية ضمـــن الاختلاطات الجغرافية الكثيرة الأخرى .

لقد حاول ملوك هذه القريـــة (مسك ، أو ذو مسك) مرارا عديدة أن يستغلوا الوجود الآرامي المتعاظم في البرية شرقي الجرود على ضفاف رنية والثرات من أجل أن يوســـعوا دائرة نفوذهم على القرى الكنعانية المجاورة من جهة الغرب . وقد اصطدموا مرارا كثيرة بمقاومـــة الحثيين الكنعانيين في جواره ، كما خضعوا أكثر من مرة للهيمنة المصريـــة من الغرب ، وتحالفـــوا معهم مرارا كثيرة من أجـــل الاستقلال بالنفوذ في تلك المنطقة ضد التنافس القائم عليها بين ملوك وادي النيل من جهـــة وملـــوك الدولة السورية في بـــابل أو آشور من جهة أخرى .

وقد عكست مدونات التوراة كثيرا من جوانب هذه العلاقة : " وكان في السنة الثانيـــة عشرة في الخامس عشر من الشهر أن كلام الرب كان إلي قائلا : يا ابن آدم ولول علـــى جمهور مصر .. قد نزلوا اضطجعوا غلفا قتلى بالسيف يكلمه أقوياء الجبابـــرة من وسط الهاويـــة مع أعوانـــه . هناك آشـــور وكل جماعتها قبـــوره من حوله . كلهم قتلـــى

ساقطون بالسيف .. هناك ماشك وتوبال وكل جمهورهـــا حوله قبورهـــا ، هناك أدوم وملوكها وكل رؤسائها الذين مع جبروتهم قد ألقوا مع القتلى بالسيف فيضطجعون مـــع الغلف... يراهم فرعون ويتعزى عن كل جمهوره "(حزقيـــال 32 : 17، 18، 21، 22، 29، 30) .

إن من الواضح هنا مغزى هذه الإشارة إلى مصير ماشك ، وتـــوبال ، ومصر وآشـــور ، وأدوم في بـــلاد زهران وغامد على يد ملك بابل ، الذي كان ـــ على عـــادة ملـــوك الدولة السوريـــة ـــ يقوم بين الفترة والأخرى بحملته التأديبية على أطراف الدولـــة في الشمال والشرق ضد القبائل التي تهدد الثغور وخطوط التجارة ، وفي غرب شبه جزيـــرة العرب ضد " ملوك " تلك القرى والمحطات الذين باقتتالهم من أجل السيطرة على قوافـــل التجارة وأتاواتها ونتيجة لشعورهم بالبعد عن مركز الدولة ، فقد كانوا يهددون ســـلامة التجارة الدولية التي تأتي إلى خزائـــن الدولـــة السورية بالذهب والفضة والسلع النـــادرة وبالأرباح الطائلة .

أما القرى التي تعددها مدونات التوراة وتجعلها تابعة لـــ"دمشق" فهي : اماتس ، أرفاد ، ربلة ، باطح ، أحلب ، حلبا ، أفيق . وقد كان ســـهلا على واضعي جغرافيا التوراة أن يستبدلوا الأسماء الكبيرة الشهيرة بالأســـماء الصغيرة المجهولة المشابهة بصورة من الصور . فجعلت مدينة " حلب " بدلا من قرية " أحلب " ومازال المشرفون على الآثار في سوريا يفتشون عن " أرفـــاد " قرب حلب ، وجعلـــوا مدينة حماة بدلا من عشيرة حمتا أخـــي حث بن كنعان والتي وردت في الأصـــل "جي ـــ ءم ـــ تي" وهي أرض ضمـــن أرض حث بن كنعان حســـب التوراة نفسها . ولما كانت "دمشق" التوراتية (مسك) تقـــع على أنهار الكوشيين الذين صاروا " الأثيوبيين " في التزويـــر فإن ذلك يعني أن " دمشـــق " التوراتية كانت تســـيطر من حلب شمالا إلى أثيوبيا جنوبا ! وهكذا تظهر على الساحة السورية إمبراطورية جديدة يتم " تدشينها " هكذا ، وبكل بساطة ، فوق الإمبراطوريات الخمس الأخرى التي مررنا على ذكرها في الزمان الواحـــد والمكـــان الواحـــد دون أن يستدعي ذلك وقفـــة تأمل بسيطة ، إن لم نقل مراجعة ، لهذه الجغرافيا التي بين أيدي

المؤرخين ، ولهذا التاريخ القائم على أساسها حتى اليوم .

فقد جاء عن " دمشق " في سفر اشعياء : "يا أرض حفيف الأجنحة التي في عبر أنهار كوش المرسلة رسلا في البحر وفي قوارب من البردي على وجه المياه ... قد خرقت الأنهار أرضها إلى موضع اسم رب الجنود جبل صهيون "(أشعياء 18 : 1 ،7)

إن دمشق هذه تقع على أنهار كوش ، و لم يذكر أحد من المؤرخين حتى الآن أن الكوشيين كان لهم أي ذكر في سوريا المتوسطية ، وأن هذه الأنهار تخترق دمشق إلى جبل صهيون ، وهذا القول ينطبق فقط على قرية "ذو مسك" جنوب شرقي الظفير الحالية . ثم إن هذه الأنهار تحمل قوارب من البردي إلى البحر ، ومهما اختلفت التفاسير في كلمة " يم " سواء اعتبرت نهرا أم بحرا أم جهة الغرب أم الجنوب ، فكل ذلك لا يذكرنا بمدينة دمشق من قريب أو بعيد ، خاصة وقد جعلوا في تفسيرهم أن " كوش " هي أثيوبيا ! .

الفصل الثالث عشر

أرض كنعان

لقد اعتبر المؤرخون الذين أسسوا تاريخهم المتناقض على التفسيرات المزورة للأسماء الواردة في جغرافيا التوراة ، أن المقصود بأرض كنعان هو ما يدعى اليوم بفلسطين ، كما دأبوا على إقناع العالم كله بأنّ الأرض التي جاء موسى بقومه إليها هي أرض فلسطين ، وأن الرقعة من القرى التي غزاها أو دمرها يشوع (حسب مدونات التوراة) هي في فلسطين . فلنقرأ في مدونات التوراة إذا ، عن هذه الأرض التي (ضربها) يشوع من ناحية الغرب من الأردن .

" وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم يشوع و بنو إسرائيل في عبر الأردن غربا : من بعل جاد في بقعة لبنان إلى الجبل الأقرع الصاعد إلى سعير، وأعطاها يشوع لأسباط إسرائيل ميراثا حسب فرقهم" (يشوع 12 : 7)

فلنتأمل معا هذه الجغرافيا التوراتية التي ظل المؤرخون وأساتذة التاريخ و ما زالوا يدرسونها ويأخذون بها حتى اليوم : نحن نقف على نهر الأردن مقابل أريحا (حيث عبر يشوع) و ننظر إلى أرض كنعان التي تمتد أمامنا غربا والتي ضربها يشوع "و أعطاها لأسباط إسرائيل ميراثا " ، إذا بها تمتد من لبنان إلى الجبل الأقرع ، و بكلمة أخرى إنها أرض طرابلس و طرطوس و اللاذقية ! أما سعير فهو أحد أولاد أدوم الذي هو عيسو أخو يعقوب و قد دعي الجبل باسميهما معا : أدوم ثم سعير. وقد حدد الجغرافيون التوراتيون موقع "أدوم" على الجانب الشرقي من خليج السويس . فلنتأمل هذا " الجبل الأقرع " الذي يقع غرب نهر الأردن ، و يقع شمال لبنان وسوريا و "ينزل " إلى خليج السويس في مصر ! ثم إنه الجبل الأقرع في شمال اللاذقية .

أما القرى (الممالك) والمواقع التي تضمها هذه الأرض فهي " في الجبل والسهل والعربة و السفوح و البرية و الجنوب : الحثيون و الأموريون و الكنعانيون و الفرزيون

و الحويون و اليبوسيون : ملك أريحا واحد . ملك عاي التي بجانب بيت إيل واحد . ملك أورشليم واحد . ملك حبرون واحد . ملك يرموت واحد . ملك لغيش واحد . ملك عجلون واحد . ملك عراد واحد . ملك لبنة واحد . ملك علاّم واحد . ملك مقيدة واحد . ملك بيت إيل واحد . ملك تفوح واحد . ملك حافر واحد. ملك افيق واحد . ملك تشارون واحد . ملك مادون واحد . ملك حاصور واحد. ملك شمرون مرأون واحد . ملك أكشاف واحد . ملك تعنك واحد . ملك مجدو واحد . ملك قادش واحد . ملك يقنعام في كرمل واحد . ملك دور في مرتفعات دور واحد . ملك جوييم في الجلجال واحد ملك ترحته واحد . جميع الملوك واحد و ثلاثون " (يشوع 12: 8 -24) .





أسرة عربية في جزيرة العرب

إن هذه المواقع ليست إلا أسراً و مزارع صغيرة و بيوتا و منازل و مغاور و مضارب للخيام يتزعم كلا منها " ملك ". و لم يكن ملوك بني إسرائيل إلا من هذه الشاكلة لهؤلاء الملوك ، كما سوف نرى ، كما إن هذه الممالك لا تختلف عن قرية أربع (التي هي مغارة حبرون أو المكفيلة) ، التي نصب إبراهيم خيمته تحت شجراتها بين بني حث الكنعانيين إن لم تكن أقل شأنا منها بكثير .

وهذه الأرض هي " عبر الأردن غربا " .وقد كنا قد أوضحنا أن الأردن ليس المقصود به " نهر الأردن "وإنما "يردن "(جرد – ن) أي الجرود الجبلية و أحيانا " يردن " بمعنى المخاضات . التي تكثر فيها مياه السيول في أواخر الربيع و الصيف في شبه جزيرة العرب نتيجة للأمطار الموسمية . وتلك الحالة هي التي واجهها يشوع مع جماعته حينما عبروا مخاضات السيول المنحدرة من الجرود (يردن) عند أريحا ." والأردن ممتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد . وقفت المياه المنحدرة من فوق " (يشوع 3 : 15 ، 16) . كما أننا أوضحنا من ذي قبل حقيقة الأرض المعنية بالوعد لإبراهيم ، التي رآها بعينيه و تمشى فيها ، ونقل خيمته من موضع إلى موضع فيها .

وهكذا تصبح أرض الكنعانيين هي القرى المنتشرة في الأرض الممتدة من جبل جاد (الذي دعي مرة بعل جاد ومرة الجبل الجيد) الملاصق لجبل لبنان (أي اللبان والصنوبر) . إلى جبل صفون . و إن كل ترجمة أخرى لهذه البلاد إلى اسم "سوريا " أو " فينيقيا " أو فلسطين إنما هي إحدى عمليات الخلط الكبرى التي أضاعت حقائق التاريخ و الجغرافيا معا . علما ان جاد هو أحد أبناء يعقوب ، أي حيث كان يرعى أغنامه .

- **فلسطين**

يقول جيمس برستد : " و كانت فلسطين الجنوبية البلد الوحيد الذي كان عدد المهاجرين الايجيين فيه كافيا لاحتلاله و تأليف أمة منهم . وهكذا استطاعت قبيلة كريتية عرفت باسم الفلسطينيين أن تحرز لنفسها مقاما وتبني عددا من المدن الزاهرة في القرن الثاني عشر"[1] .

و يقول فيليب حتي ، والذي يكتفي دائما بالنقل مثله مثل معظم أساتذة التاريخ العرب: " و الفلسطينيون من المجموعات الخمس لشعوب البحر الذين أتوا من بحر إيجة . وبعد أن فتح العبرانيون المرتفعات الوسطى بقليل سيطر الفلسطينيون على البلاد

(1) الدكتور جايمس هنري براستد "العصور القديمة " ص 278 .

الساحلية، و قد أدت حـــركات غامضة للشعوب في آسيا الصغرى و البلاد الايجيـــة في أواخر القرن الثالث عشر إلى تفرق قبائل بكاملها ، فبحثت عن موطن لها في منـــاطق أقل اضطرابا . وتوافدت جماعات من المهاجرين بينهم قبائل الفلسطينيين بطريـــق الـــبر والبحر نحو سوريا و بعد تقويضـــها بعض الدول ، ومنـــــها أوغـــاريت ، وصلـــت الســـاحل المصري . وقد هزمت هناك حـــوالي 1191 ق.م في معركـــة بحرية وبرية على يد رعمسيس الثالث ، ولكنه سمح لها أن تنزل بصورة دائمة في ســـاحل ســـوريا الجنوبية الذي صار يسمى فلسطيا .. امتد الساحل الذي استولى عليه الفلســــــطينيون بصورة دائمة من غزة حتى جنوبي يافـــا . وأهم المدن التي اســـتوطنوها كانت غـــزة وعسقلان و أشدود و عقرون و جت ..

" وقد نظمت مدهم الخمس بشكل ممالك مدن ، كل منها تحت حكم "سيد " و لكنـها جميعها كانت تشكل اتحادا .

" و كانت ذروة قوة الفلسطينيين في النصف الثاني للقرن الحادي عشـــر ، فقد كســـروا العبرانيين حوالي 1050 ق . م . وأخذوا منهم تابوت العهد و حملوه إلى أشـــــدود .. وكانوا متسلطين في عهد الملك شاول (توفي نحو 1004) علـــى مـــدن بعيـــدة في الداخل مثل بيت شان . ولا يمكن أن يعني إلا أن الفلسطينيين كانت لهم اليد العليــــا بالنسبة لبني إسرائيل .

" والذي جعل الفلسطينيين متفوقين بصــــورة خاصـــة على أعدائهم هو تفوق سلاحهم الذي كان مصدره معرفة الصهر و استخدام الحديد لأجل أسلحة الدفاع و الهجوم .. "

" .. وهكذا فإن الفلسطينيين رفعوا [1] الحضارة السورية من مرحلة البرونز إلى مرحلـــة أهم و هي عصر الحديد ، و كان ذلك أهم فضل لهم .. ومع الزمن تأثروا بالســــاميين واندمجوا بهم ، و لم يتركوا إلا اليسير جدا لمعرفـــة لغتهم و ديانتهم و عمارتهم وســـائر مظاهـــر حضارتهم . وعندما كتب نحميا في منتصف القـــرن الخـــامس ، لم يذكـــر الفلسطينيين بل ذكر " الأشدوديين " الذين كانوا يتكلمون بلسان أشدودي . ومـــن

---

(1) فيليب حتي ،" تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 196 ، 198 .

أسماء الأشخاص النادرة التي وصلتنا اسم " أخيش" و من آلهتهم داجون إله الحبوب ، كما يعني هذا الاسم ، وقد اقتبس من آلهة الكنعانيين . وكان مركز عبادته أشدود ، ومقر رفيقته عشتاروت كان في عسقلان "[1].

إن هذه هي مجمل الصورة تقريبا التي يتناسخها المؤرخون حول " الفلسطينيين " . ويجدر أن نلاحظ فيها النقاط البارزة التالية :

1 ـ يفترض المؤرخون أن " الفلسطينيين " قبائل قدمت من البحر المتوسط من ايجة ، أو جزيرة كريت ، دون أن يعثروا على أثر يؤكد ذلك ، أو يتقدموا بأي دليل .

2 ـ تجتاح هذه القبائل المجهولة الأصل جميع " الإمبراطوريات " التي سبق ذكرها وتدمرها ، من الحثية شمالا إلى المصرية جنوبا في وادي النيل ، وفي وقت واحد .

3 ـ " الفلسطينيون " ليسوا دولة أو إمبراطورية ، و إنما هم جزء من مجموعة قبائل مجهولة .

4 ـ لا يشكلون في " فلسطين " دولة أو قوة موحدة ، و إنما هم موزعون على مجموعة مدن لكل مدينة ملكها المستقل وقد استوطنوا الساحل الذي سمي باسمهم في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

5 ـ " الفلسطينيون متقدمون في استخدام الحديد ، أشاعوا استخدامه في أرض كنعان ، و نقلوا الكنعانيين من عصر البرونز إلى عصر الحديد .

6 ـ " الفلسطينيون " كما ظهروا فجأة ، في أرض كنعان ، لم يخلفوا فجأة غير ما هو كنعاني أو سامي .

7 ـ آلهتهم آلهة كنعانية ، وأهمها داجون و عشتار .

و الآن لنناقش هذه النقاط .

أولا : إن عملية التبديل في الأسماء و المواقع التي وضعت الإنسان العربي الجاهل أصلا بجغرافيا المنطقة التفصيلية أمام أسماء تاريخية و جغرافية مزورة جاهزة كان عليه أن يعتمدها في وضع دراساته التاريخية للمنطقة خاصة و أنه لم يكن يتوفر أي مصدر آخر

---

(1) المصدر السابق ، ص 200 ـ 201 .

يمكن الاعتماد عليه يتمتع بمثل تلك " السمعة " و ذلك الانتشار . وبعد أن أخذت الأرض العربية تتكلم عن نفسها بنفسها ، عن طريق إظهار مخبوءاتها الأثرية ، و كنوزها الحضارية أخذت تتكشف الحقيقة أمام عيون الباحثين يوما بعد يوم ، علاوة على ما تكشفه حقائق الجغرافيا نفسها من عمليات التزوير المفتعلة في الأسماء ، مما كان له انعكاس مدمر على صورة تاريخ الشعب العربي و على وحدته الجغرافية و الثقافية .

إن جغرافيا هذه الأسماء هي في شبة جزيرة العرب ، و في بلاد غامد و زهران تحديدا . فالحثيون هم سكان القرى المتاخمة شمالا للكنعانيين ، في أربع وحصرون وجوارهما، وهم فصائل من الكنعانيين ، والحوريون هم سكان جبل سعير (أدوم) شرق زهران ، و الميتانيون هم سكان بلدة ميثانة و جوارها شرق زهران أيضا . والمصريون هم عشيرة مصرا بن حام بن نوح والقرى التابعة لها : تحفنحيس ، نوف ، نو ، فتروس ، و غيرها في جنوب زهران ، أما الفلستيون فهم فخذ من عشيرة مصرا و سكان " فلسة " المجاورة للمصريين وللكنعانيين عموما من الجنوب الشرقي . و اسمهم في مدونات التوراة " فلشتيم" وتعني" الغزاة ، المحاربين" ، وقد دمرت البراكين و الزلازل هذه القرية قبل القرن الخامس قبل الميلاد ووادي "غط "(جت) ما يزال قرب بصرة شرقي خميس مشيط .

أما كريت المقصودة في التوراة ، فهي منطقة وادي كريت شرق وادي حالي جنوب شرق سودا .

إن الحثيين الكنعانيين و الحوريين و الميتانيين ، سوف ينتقلون إلى شمال ارض كنعان و إلى مقربة من نهر الفرات في آن معا . وهذا مما جعل المؤرخين و الدارسين يقعون في حيرة وارباكات علمية لا مثيل لها . فقد نبقت أمامهم فجأة مثل هذه الشعوب" و التسميات المبهمة " ـــ على حد تعبير فيليب حتي ـــ دون أن يعثروا على ما يؤكد هذه التسميات في تلك المناطق ،علاوة على أنهم صاروا أمام ضرورة طمس أو اجتياح المنطقة كلها الممتدة من فلسطين إلى الفرات .

إن أية غزوة يقوم بها أحد "ملوك " القرى الحثية الكنعانية ضد"ملك " عشيرة آشورية ، أو حورية ، أو ميتانية ، سوف يصير حكما ، أمام الجغرافيا الجديدة من الضخامة بحيث

يتحول إلى احتياح حثي للدولة الآشورية السورية ، أو لـ" المملكة الميتانية" . وأكثر من هذا ، فإن اتجهت هذه الغزوة إلى أراضي الكنعانيين ـ و قراهم المتاخمة لهم جنوبا ، فإنها تفسر على خارطة الأسماء الكبرى ، على أنها اجتياح للبلاد السورية المتوسطية كلها ، التي يسمونها مرة سوريا ، وأخرى فينيقيا ، و ثالثة بلاد كنعان ورابعة سوريا و لبنان وفلسطين .

و إذا ما حدث أن اتجهت إحدى هذه العشائر في غزوة صوب إحدى قرى المصريين المتاخمة جنوبا فإن هذه القرية الحثية أو الميتانية الغازية سوف تتحول فجأة إلى إمبراطورية تسيطر على الأراضي الممتدة من أعالي الفرات إلى مصر وادي النيل، بينما هي في الحقيقة لا تتجاوز عملية غزو أحد "ملوك " العشيرة الحثية لعشيرة مصرية مجاورة على تخومها ، قد لا يفصل بينهما أي فاصل غير واد أو سفح أو جبل. ومن حسن حظها أو من سوء حظها أن وجدت في بيئة متقدمة في فن التاريخ و الكتابة إذ يوجد دائما من يدون لها تلك الأحداث ، في مدونات التوراة .

و هكذا اختلطت الأسماء ، وتشابكت الحقائق ، وصارت سوريا ساحة تتنضد فوقها أحيانا أكثر من أربع إمبراطوريات دفعة واحدة في وقت واحد معا .

و ها نحن الآن في دراستنا للفلستيين أو " فلشتيم " سكان فلشة " التوراتية أمام الظاهرة نفسها . فإن غزوة هؤلاء الفلستيين* لبعض القرى الحثية أو الكنعانية أو المصرية المجاورة تصبح عند المؤرخين الذين اعتمدوا جغرافيا التوراة المزورة على الشكل التالي : الفلسطينيون قبائل ، أو مجموعة من القبائل ، ظهرت فجأة في بلاد الحثيين والكنعانيين و المصريين و اجتاحتها جميعا ، ودمرت الإمبراطورية الحثية والميتانية و مملكة أوغاريت و الممالك السورية كلها ، وصولا إلى مصر . وبعد حروب طويلة ضارية برية و بحرية مع المصريين تمكن رعمسيس الثاني من أن يدحرهم (و هذا أيضا افتراض صار ينقل كأنه حقيقة) ، لكنهم يستقرون في ساحل سوريا الجنوبية الذي دعي

• كان لابد من افتراض حدوث معارك برية كبيرة طالما أن التصور قائم على أن الفلسطينيين غزوا جميع الشعوب المنتشرة من غرب تركيا اليوم إلى مصر ، ولا يكون ذلك ممكنا إلا عن طريق البحر .

باسمهم "فلسطيا " و بالطبع لم يكن أمام أولئك المؤرخين إلا أن يفترضوا أن قبائل تجتاح سـواحل المتوسط الممتدة من شمال مرسين إلى مصر لا يمكن أن تأتي إلا من البحـر ، ويجب أن تكون أوروبيـة متفوقة ! فأطلقوا عليها اسم شعوب البحر . و لمـا كـان الفلستيون هم الفئة الغازيـة للقرى الحثية و المصرية ، وكانت قد أشارت بعض المصادر إلى أن الحثيين و الفلستيين كانـوا قد انتشروا من كريت إلى أرض كنعان ، فقد فسـر المؤرخون ذلك بأن تلك الشعوب البحرية إنما قد تعود في أصلها إلى جزيرة كريت مـرة وجزر بحر ايجـة مرة أخرى . و الحقيقة هي أن ثمة واديان في جنوب بلاد غامد يدعيان بهذا الاسم : فهناك وادي كريث ، شرقي جبل سوده حيث ينبع نهر " حـالي" **Hali** حيث تكثر القرى و المزارع في بقعة من أكثر مناطق شبه جزيرة العـرب خصوبـة ، وهناك وادي " قريت " جنوب " شمران " في منطقـة القنفـذة " و هو يتحد مع وادي " حت " (غط) ليكونا وادي يبا الذي يتجه غربا ليصب في البحر الأحمر . وقـد ورد اسم وادي " جت " (ينطق بالجيم المصرية) مقترنا بكثير من الحوادث التوراتية .

إن غياب الأصل ، (إذ لا نعرف حتى اليوم لتلك الجماعـات التي أطلقـوا عليها اسـم " شعوب البحر " أي موقع ، و لم يعثر لهم على ذكر إلا في مدونات التوراة) يقـترن بغياب المنطق أيضا ، إذ لا يعقل أن تتمكن مجموعة من القبائل ، مهما كانت كبيرة ، أن تغطي المساحة الممتدة من الأناضول شمالا حتى وادي النيل جنوبا ، تكتسح في وقـت واحد ، و قد يكون في يوم واحد ، أراضي الدولتين العربيتين الكبريين اللتين لم يكـن ينافسهما أو يجرؤ عليهما أحد في شيء في ذلك الزمن ، وهما الدولـة العربيـة السورية الممتدة من شمال المضائق حتى بحر العرب ، ومن عيلام وجبـال زغـروس إلى البحـر المتوسط و الدولة العربية المصرية في وادي النيل . و فوق ذلك كله فقد غابت هذه القوة كما ظهرت دون أن تترك خلفها أي أثر ! إن هذا كله هو ما جعل المؤرخين يسردون الوقائع المبنيـة على التفسيرات التوراتية المزورة بعد ما جرى النقل و التبديل في الأسمـاء و المواقع الجغرافية و هم يواجهون ، في الوقت نفسه ، تلك الحيرة الكبيرة و ذلك الشك القاتـل ، مما جعل أكثرهم تعصبا ضد التاريـخ العربي يقف مشـدوها أمام هذا

النقص العجيب في تقرير حقائق التاريخ .

يقول أرتولد توينبي بهذا الصدد : " و قد دون تاريـــخ انسياح الشعوب في مصر في قيود معاصرة له . أما في غير ذلك من الأمكنة، و ذلك باســتثناء ما يمكن أن يؤخذ مـــن المعلومات المصرية الموثقة التي قد تشير إلى مناطق خارج مصر ، فإن الدليل المعاصر هو أثري ، أما دليلنا الأدبي فهو رجعي الرواية . إذ أنه مستمد من روايات كانت قد مرت عليها ، في بعض الحالات ، أجيال عدة قبلما* دونت ، و في المنطقة الايجية ثمة تناقضات في عدد من الأمور بين الدليل الأثري و الرواية ، وهذا ينقص من قيمة الروايـــة ، لكنـــه لا يضع بين أيدينا المعلومات الإيجابية الصحيحة . وتاريخ انسياح الشعوب في حـــوض البحر الايجي بين نحو 1250 و 950 ق.م يجانبها الكثير من الأحاجي التي لم يســـتطع الدليل الأثري أن يحلها إلى الآن[1] " .

ثانياً : و نحن إذا ما تفقدنا المنطقة التي افترض المؤرخون أنهم نزلوا فيها و اســـتقروا في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميـــلاد بناء على نقل التسمية في " السبعونية " التوراتية من بلاد زهران إلى جنوب سوريا ، نجد أن تلك الموجة البشرية الهائلة التي غطت باجتياحاتها إمبراطوريات الشرق القديم كلها ، و تغلبت عليها ، و دمرت كثيرا منـــها ، تـــنزل في خمس قرى صغيرة في جنوبي ســـوريا هي : غزة و أشدود و عســـقلان ، و عقـــرون وجت و عو ، دون أن تطرد سكانها أو تضيق عليهم أو تشعرهم بوجودها وكأن شيئا ما لم يكن ، تماما كما لو أن أســرة ما حلت في ضيافة واحدة من تلك القـــرى ، و لم يسمع بها أحد و لم تترك أي أثر . إن أحداً لم يأت على ذكر المدن الكبيرة الشـــهيرة في هذه المنطقة .

ثالثا : إن أولئك الفلستيين "، إذا ، ليســـوا إلا سكان بلدة "فلسة " (فلشة) في سـراة زهران و القرى المحيطة بها ، يؤكد ذلك ـــ علاوة على ما ذكرنا ـــ الأمـــور الأساسـية التالية :

• هنا إشارة إلى المصادر التوراتية .

(1) ارنولد توينبي ، تاريخ البشرية " ص148 .

أ ـ يجمع المؤرخون على أن ظهور الشعب الذي يدعى بـ " الفلستيين " يعود إلى القرن الثاني عشر ، وكل ما يعرفونه أنه اصطدم بالحثيين و الكنعانيين و المصريين ، ودمر ممالكهم في هذا الوقت ، لكنهم لا يعرفون أصله ، و لا أرض موطنه ، وكيف وصل وغزا ، وانتصر ، ، واختفى . و كل ما بين أيديهم تفسيرات مزورة لمدونات " التوراة اليونانية " (السبعونية) التي جعلت الأحداث كلها في شرقي المتوسط .

أما قضية ظهور هؤلاء الفلستيين في " فلسطين " لأول مرة في القرن الثاني عشر فهي تتناقض مع مدونات التوراة ذاتها . فقد أشارت إليهم مدونات التوراة في أكثر من موضع منذ القرن الرابع عشر أو الخامس عشر قبل الميلاد ، أي منذ زمن إبراهيم وابنه اسحق . (علماً أنهم أرجعوا زمن إبراهيم إلى القرن العشرين أو التاسع عشر قبل الميلاد أيضاً !) .

لقد كان تعامل اسحق المباشر مع ابيمالك ملك الفلسطينيين في جرار ، فلنقرأ : " وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان أيام إبراهيم . فذهب اسحق إلى ابيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار . وظهر له الرب وقال لا تنزل إلى مصر " (تكوين 26: 1-2) و " سأله أهل المكان عن امرأته . فقال هي أختي رفقة لأنها كانت حسنة المنظر . وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن ابيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة و نظر وإذا اسحق يلاعب رفقة امرأته . فدعا ابيمالك اسحق و قال إنما هي امرأتك فكيف قلت لي هي أختي . فقال له اسحق لأني قلت لعلي أموت بسببها فقال ابيمالك ما هذا الذي صنعت بنا . لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا . فأوصى ابيمالك جميع الشعب قائلا الذي يمس هذا الرجل أو امرأته موتا يموت . وزرع اسحق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مئة ضعف و باركه الرب . فتعاظم الرجل و كان يزيد في التعاظم حتى صار عظيما جدا . فكان له مواش من الغنم ومواش من البقر و عبيد كثيرون . فحسده الفلسطينيون . وجميع الآبار التي حفرها عبيد أبيه في أيام إبراهيم أبيه طمها الفلسطينيون و ملأوها ترابا . و قال ابيمالك لاسحق اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جدا . فمضى اسحق من هناك و نزل في

وادي جرار و أقام هناك . فعاد اسحق و نبش آبار الماء التي حفروها في أيام إبراهيم أبيه و طمها الفلسطينيون بعد موت أبيه " (تكوين 26 : 7-18) .

و يتضح من النص كيف أن الفلسطينيين هم من العرب الحاميين سكان المنطقة الذين عاش بينهم إبراهيم و أولاده . وهذا ما أكدت التوراة نفسها (تكوين 10 : 6، 12 – 14) . ولكن نقل الأسماء من جنوب زهران في شبه جزيرة العرب إلى جنوب سوريا المتوسطية في " التفسيرات " أضاع صواب المؤرخين الذين لم يكونوا يعرفون من جغرافيا البلاد العربية القديمة غير ما تقدمه تلك " التفسيرات المزورة " فكيف يعقل أن يغزو الفلسطينيون سوريا و يحتلون ساحلها الجنوبي ، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، بينما هم موجودون في المكان نفسه ، وحسب مدونات التوراة ، منذ عهد اسحق ؟ ثم كيف يجتاح و يدمر الفلسطينيون مثل تلك " الإمبراطوريات " و نحن نرى أن اسحق مع عدد من رعاة مواشيه يكاد يصير أكثر منهم و أقوى .

3 ــ يعزو المؤرخون انتصار الفلسطينيين على بعض " ممالك " (قرى) الحثيين ، والكنعانيين ، والمصريين ، وكذلك على عشائر بني إسرائيل إلى تفوقهم التكنيكي ، فقد كانوا يستخدمون الحديد في أسلحتهم ، وصار " لهم الفضل في إدخال الحديد " إلى أرض كنعان . فقد وردنا ما ذكره فيليب حتي من أن " الذي جعل الفلسطينيين متفوقين بصورة خاصة على أعدائهم هو تفوق سلاحهم الذي كان مصدره الصهر واستخدام الحديد لأجل أسلحة الدفاع و الهجوم .. وهكذا فإن الفلسطينيين رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز إلى مرحلة أهم و هي عصر الحديد "[1]

هكذا هم دائما : يعزون كل تقدم في تاريخ المنطقة إلى كذبة مختلفة قادمة من الغرب ! لكن السوريين عموماً كانوا قد اشتهروا بصناعة النحاس والبرونز والحديد قبل غيرهم بمئات السنين ، ومثلهم مثل كل العرب في غرب جزيرة العرب ، يشهد على ذلك ما أورده المؤلف نفسه في مؤلفه نفسه إذ يقول: " و كان الكنعانيون* ، على الغالب ، لا

---

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 196 ــ 198 .
• يطلقها المؤلف على السوريين عموماً .

يبارون في صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والأخير (نحو 2100- 1200 ق.م) . فقد كانوا يصنعون النحاس والبرونز بكثرة . وقد أظهر التحليل الكيميائي لنصل فأس من أوائل القرن الرابع عشر ، اكتشف في رأس شمرا ، ليس معرفة إذابة الحديد فحسب و إنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيج الفولاذ . و كان هذا الأمر مجهولا حتى ذلك الوقت . و اهتم الكنعانيون بالبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسيا ، وعن القصدير لأجل مزجه بالنحاس لصنع البرونز . وعن الذهب والفضة ، ولذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم[1] . "

هكذا ينقل فيليب حتي و كل"النقلة" العرب قولاً ، ثم ما يلبث أن ينقل قولاً آخر مناقضاً للأول دون تبصر! بصرف النظر عن الأخطاء القاتلة الأخرى في النقل كأن يجعل أوغاريت السورية التي تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد كنعانية !

ثم إن من دعوا بـ"الهكسوس" و الذين تثبت الوثائق هويتهم العربية من شبه جزيرة العرب ، ومن شرق زهران تحديدا ، كما سوف نبين لاحقا ، كانوا يتميزون بأسلحتهم الحديدية و عرباتهم المتقدمة . " وبين الأسلحة الجديدة الأخرى التي ظهرت أتى " الهكسوس " بالسيف الحديدي المنحني و القوس المركب الذي ظهر لأول مرة في بلاد الرافدين في سلالة أكادية في القرن الثاني والعشرين " . فكيف ، بعد هذا ، يكون " الفلسطينيون " القادمون في زعمهم من الغرب أول من أدخل صناعة الحديد إلى المنطقة ؟

إن السوريين عموما كانوا أول من عرف صناعة التعدين ، وبدأ عصر النحاس ، والبرونز ، والحديد ، وأول من صنع الفولاذ ، وقد انتشرت صناعتهم في شتى أرجاء دولتهم من أعالي الفرات و طوروس إلى بحر العرب ، ومن زغروس إلى المتوسط . وإن أحدا لم يكن ليضاهي مجد دولتهم ، أو يدانيه في المجد غير شقيقتها في وادي النيل . إن آلهة أولئك" الفلسطينيين" آلهة عربية سورية ، وأهمها داجون و عشتار . وإن أكثر الأسماء شيوعا بينهم و عرفناها كان اسم "أخيش " و هو اسم عربي قديم مكون من

(1) المصدر السابق ، ص95 .

مقطعين : " آ "و تعني"بيت أو "أولاد " " و " خيش " و تعني (خيس ، قيس) وتعني غاب الأسد ، ويكون معنى العائلة"بيت الأسد. وإن اسم" أبيمالك" لايحتاج إلى شرح!
4 ــ وفي أيام موسى (التي يفترض أنها في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد) نرى أنه يتجنب المرور بأرض الفلسطينيين حين خروجه ويتجه بقومه من أرض كنعان ، تفاديا للصدام معهم ." وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة . لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا و يرجعوا إلى مصر " (خروج 113:17) .
و بعد موسى ، وفي أواخر زمن يشوع ، تبقى دائرة قرى الفلسطينيين دون أن يقربها أحد إلى جانب قرى كثيرة .
" و شاخ يشوع . تقدم في الأيام ، فقال له الرب أنت قد شخت . و تقدمت في الأيام . و قد بقيت أرض كثيرة جدا للامتلاك ، هذه هي الأرض الباقية كل دائرة الفلسطينيين و كل الجشوريين من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة الغزي و الأشدودي و الاشقلوني و الجتي و العقروني و العويين " (يشوع 13: 1 – 4) . وقد صار " وادي شيحور" الذي يعني بالسريانية الوعر، المحجر ، صار في التزوير وادى النيل !
5 ــ وفي أيام داود " سمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكا على إسرائيل ، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا عن داود . ولما سمع داود نزل إلى الحصن . وجاء الفلسطينيون و انتشروا في وادي الرفائيين . فسأل داود من الرب فقال لا تصعد بل در من ورائهم و هلم عليهم مقابل أشجار البكاء (صموئيل الثاني 5:17، 18 ، 22).
فالفلسطينيون ، كما يظهر هنا ليسوا إلا سكان إحدى القرى ، والمعركة بينهم و بين داود تدور عند بضع شجرات . وهذا شاهد آخر و معركة أخرى :
" وكان لما قام الفلسطيني و مد داود يده إلى الكنف وأخذ منه حجرا و رماه بالمقلاع و ضرب الفلسطيني في جبهته فارتز الحجر في جبهته و سقط على وجهه إلى الأرض . فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلاع و الحجر وضرب الفلسطيني و قتله . و لم يكن

سيف بيد داود فركض داود و وقف على الفلسطيني و أخذ سيفه و اخترطه من غمده وقتله و قطع به رأسه . فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربـــوا . فقـــام رجال إسرائيل و يهوذا وهتفوا و لحقوا الفلسطينيين حتى مجيئك إلى الوادي و حـــتى أبواب عقرون . ثم رجع بنو إسرائيل من الاحتماء وراء الفلسطينيين و نهبوا محلتـــهم . واخـــذ داود رأس الفلســـطيني . و أتى به إلى أورشـــليم . و وضع أدواته في خيمته" (صموئيل الأول 17: 48- 55) . بإمكانك الآن أن ترى حجم تلـــك العشـــائر ! وبالأخص الفلسطينيين الذي دمروا " امبراطوريات " كبرى !

ولما خرج داود من حصن صهيون هاربا من وجه ابنه ابشالوم و عصابته. فقد خـــرج إلى جبل الزيتون ثم جاء إلى بحوريم : " و أما داود فصعد في مصعد جبل الزيتـــون كـــان يصعد باكيا و رأسه مغطى و يمشي حافيا وجميع الشعب الذين معه غطوا كل واحـــد منهم رأســـه و كانوا يصعدون و هم يبكون .. ولما جاء الملك داود إلى بحـــوريم إذا برجل خـــارج من هناك من عشيرة بيت شاول اسمه شمعي بن جيرا . يسب و هـــو يـــخرج و يرشـــق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك داود "(صموئيـــل الثـــاني 15: 330 ، 116 ، 5) .

و " بحوريم " هو جبل بهـــر " Buhur " حاليا شرقي " بني سار " حيث ينحدر نهر بهر "Buhur" أيضا .

6 ـــ و بينما كنا قد رأينا أن أرض الفلسطينيين تقـــع بـــين مصـــر و أرض كنعـــان وبالأحرى على تخوم أرض مصر ، حيث كانت قريبة جدا كما ذكر ، وقرر موسى أن يدور من حولها كيلا يصطدم بأهلها ، ويكون ذلك سببا لتقاعس أهلها عن الخـــروج إلى أرض كنعان ، إذ بها في أرض الكنعانيين أنفسهم " هذه الأرض الباقية . كل دائـــرة الفلسطينيين و كل الجشوريين من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمـــالا تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة "(يشوع 13: 2). و إذا كـــانت كـــل مدونات التوراة قد ركزت على الأصول القبلية و العشائرية في التعامل مـــع أولئـــك السكان و في تسمياتهم فإن ذلك ليس إلا انعكاسا لدرجة التطور التي كان يقف عليـــها

جماعة موسى ، والتي لم تكن قد تجاوزت بعد مرحلة العشيرة البدائية و المتخلفة حتى بين العشائر القريبة و المجاورة الأخرى ، في الوقت الذي كانت الدولة السورية قد بلغت شأواً بعيداً في شكل الدولة الكبرى المتطورة سياسياً حقوقياً ، اقتصادياً ، إدارياً ، عسكرياً وثقافياً .إن هذا بالذات كان أحد العوامل الرئيسية التي جعلت تلك الجماعة تفشل في معاشرة السكان الآخرين في تجمعاتهم القروية و المدينية المتقدمة . لقد رأينا كيف كانت قربة أربع (حبرون) في أحد النصوص التوراتية التي وردت من قبل حثية ، لكننا نجدها في نص آخر أمورية :"فاجتمع ملوك الأموريين الخمسة ملك اورشليم ، وملك حبرون ، وملك يرموت و ملك لخيش و ملك عجلون " (يشوع 10: 4) . و عمرا في التوراة هو أخوحث و من أبناء كنعان .

7ـ إن جماعات موسى البدوية تتعامل مع الجغرافيا ضمن بقعة جد ضيقة من الأرض ، بما ينسجم وحركة المواشي من جهة ، وعمليات السطو الصغيرة و الضيقة من جهة أخرى . إن مغارة مكفيلة التي هي قربة أربع (حبرون) مثلا تصبح مدينة في مدونات التوراة و يحكمها ملك . وليس هذا فحسب ، بل إن جميع البيوت و مضارب الخيام شبه الثابتة و المستقرة التي يقيمها سكان مغارة حبرون من حولها تسمى في مدونات التوراة مدنا أيضا : " وأصعد داود رجاله الذين معه كل واحد بيته و سكنوا في مدن حبرون . وأتى رجال يهوذا و مسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا " (صموئيل الثاني 2 : 3).

8 ـ لننظر إلى بعض التفاصيل في هذه الجغرافيا و لنحاول أن نطبقها على ما درج تطبيقه المؤرخون في أرض سوريا الطبيعية ككل :

لقد درسنا قرية قادش وهي عين مشفاط وبينا موقعها شرق زهران . أما حسب الجغرافيا التوراتية، التي تعتبر الخروج كان من مصر وادي النيل ، و أن أرض كنعان في فلسطين ، فإن قادش هذه تجد نفسها مضطرة إلى أن تتوزع إلى ثلاث قرى لا تنطبق إحداها على الأخرى . لأنها لا بد أن تكون قريبة من الكنعانيين والمصريين والآراميين في وقت واحد. فتظهر لنا مرة في برية صين عند الطرف الشمالي للبحر الأحمر ، وأخرى في سوريا

الشمالية على نهر العاصي ، و ثالثـة في الجليل . لنقرا :" ثم ارتحلوا من عصيون جـابر ونزلوا في برية صين وهي قادش . ثم ارتحلوا من قادش و نزلوا في جبل هور في طـرف أرض أدوم " (عدد 33 : 36) " فقدسـوا قادش في الجليل في جبل نفتالي وشـكيم في جبـل أفرايم وقريـة أربع هي حبرون في جبل يهوذا " (يشوع 30 : 7) ولنأخذ قيعـة (أرض) (جي متيء) التي جعلها جغرافيو التوراة مدينة حماة في سوريا :

"وهكذا يكون لكم تخم الشمال .من البحر الكبير ترسمون لكم إلى جبل هور و من جبل هور ترسمون إلى مدخل حماة "(عدد 43: 7).

لقد رأينا أن جبل هور شمال برية صين ، أي شمال البحر الأحمـر . فما هو هذا البحـر الكبير الذي يشكل مع جبل هور الحد الشمالي للكنعانيين ؟ إن هذا يعني أن الكنعـانيين ـــ مرة أخرى ـــ جنوب برية صين و جبل هور ، و بالتالي في مصر وادي النيـل . ثم كيف يمتد هذا الحد الشمالي من جبل هور على البحر الأحمر إلى مدينة حمـاة في وسـط سوريا ؟ فالحد الشمالي ينبغي أن يكون ممتدا من الشرق إلى الغرب و ليس من الجنـوب إلى الشمال .

9 ـــ أما مملكة أوغاريت التي دمرها شعوب البحر " الفلسطينيون " فليست أوغـاريت السورية المتوسطية . وإنما هي الجارية جنوب زهران . و الكلمة من أسماء عشتار و تعـني السيدة الفتية الجميلة الدقيقة الخصر (وقد حافظت اللغة العربية الفصحى علـى هـذا المعنى في كلمة الجارية و " غرث ") .

10 ـــ أما الدمار الذي حل ببابل و بمدن الساحل السوري كله و غرب شبه الجزيـرة العربية و مصر ، في تلك الفترة فلم يكن ناجما عن ما دعي بـ"اجتياح شعوب البحـر" وإنما عن موجة الزلازل التي ظلت تضـرب المنطقة بين فترة و أخرى طيلة تلك الحقبـة الممتدة من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي . وتشاهد في جـدران معبد الشمس المشهور في بعلبك أثار الاضطرابات التي سببتها الزلازل وكذلك الأمـر في القلاع الباقية . ويشير تهدم أسوار أريحا المفاجـئ في القرنين الثالث عشر و الثـاني عشر قبل الميلاد إلى حصول زلزال . وعندما كان أنبياء بني إسـرائيل وشـعراؤهم و

مؤرخوهم يكتبون في وصف سلطة يهوه و قدرته ، فإنهم كانوا يعتمدون على مشاهداتهم الشخصية للهزات الأرضية التي ترافقها الأمواج المرتفعة . و يخبرنا العهد الجديد عن حدوث زلزال عند صلب المسيح و آخرعند قيامته[1] كما كانوا يعتمدون على مشاهدتهم للبراكين الكثيرة التي كثيراما كانت تحدث في غرب شبه جزيرة العرب ، وقد وصفها القرآن الكريم في أكثر من موضع .

" وقد كانت مثل هذه الأمواج التي يسببها المد عند حدوث الزلازل مخربة بشكل خاص في الساحل الفينيقي. ونال صورو صيدا الكثير من أذاها و من أذى الهزات . وتدل المنحدرات المتصدعة في لبنان و الوادي المتصدع الكبر الذي يستمر في منخفض الأردن و البحر الميت على وجود منطقة الزلازل هناك . وتبرز حوادث الزلازل في تاريخ سوريا أكثر من بروز البراكين في جغرافيتها . فقد أصيبت إنطاكية في طرف سوريا الشمالي بالزلازل خلال العصور و ضربتها في القرون الستة الأولى الميلادية لا أقل من عشر مرات"[2]

11 ــ و نحن إذا استعرضنا بعض هذه الأماكن الواردة في مدونات التوراة و التي أضنت سلطات الاحتلال الصهيوني في البحث عن أية أثار لواحد منها في سوريا الجنوبية دونما جدوى ، فأخذت (هذه السلطات) تطلق الأسماء التوراتية عشوائيا على مسميات أخرى حديثة و قديمة . علها تثبت في الأذهان و التاريخ و الجغرافيا مع تقادم الأعوام ، نجد أن كثيرا منها ما زال محتفظا باسمه القديم (أو بما يشبهه نتيجة التحولات اللغوية بين لهجة عربية و أخرى) حتى يومنا هذا في جنوب غامد و زهران .

ونذكر من تلك الأسماء على سبيل المثال لا الحصر :

أرادوس ــ عراد في بلاد زهران (في الترجمة أرواد)

أرداتا ــ عردة في بلاد زهران (في الترجمة أرواد)

جي مت ــ غميط في شرق زهران (في الترجمة حماة)

---

(1) فيليب حتي ،" تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ،ص43 .

(2)Ellen C.Semple ،The Ggeography of the Mediterranian Region

بيت لحم ـــ هي قرية أفراتة أو بيت لحم ، في سراة زهران قرب الخربة والبلطية ، توقفت في الطريق إليهما راحيل حين هروبها مع زوجها يعقوب من بيت أبيها في حاران مع المقتنيات والمواشي والأطفال إلى قرية أربع . وولدت فيها بنيامين (ابن الجنوب) " ثم رحلوا من بيت ايل . "و لما كان مسافة من الأرض بعد حتى يأتوا إلى أفراتة ولدت راحيل و تعسرت ولادها . و حدث حين تعسرت ولادها أن القابلة قالت لها لا تخافي لأن هذا أيضا ابن لك .وكان عند خروج نفسها لأنها ماتت أنها دعت اسمه بن أوني . أما أبوه فدعاه بنيامين . فماتت راحيل و دفنت في طريق أفراتة التي هي بيت لحم " (تكوين 25: 16 – 20) .

ياهص ـــ الوهصة في بلاد زهران

جازر ـــ غزير في مرتفعات غامد

صور ـــ قرية صر ، في جبال لبنان شرق غامد ، دمرتها البراكين و الزلازل و اختفت •

أريحا ـــ (ورحو) قرية وراخ في بلاد زهران (ترجمت اريحا في سوريا الجنوبية).

عربة ـــ جبل غارب ووادي غارب في سراة زهران (ترجمت بحر العربة).و" عربت " عموماً برية شبه جزيرة العرب .

يوآب ـــ الياب ، في بلاد غامد .

بحور ـــ جبل بـــهر Buhur في شرق زهران .

• كنا قد أسلفنا أن بلدة صور التوراتية هي بلدة جبلية ساحلية ، كما ورد في تاريخ سانخو تياتن ، و من خلال أوصافها من خلال مدونات التوراة و من خلال مخاطبة الرب لملكها عن طريق حزقيال النبي " على جبل الله المقدس كنت " (حزقيال 28 : 14) . والمدن التي من حولها و السكان الذين يتاجرون في أسواقها هم سكان ياوان ، و توبال ، وما شك، و بنو ددان و آرام ، و نومسك ، ودان و العرب وكل رؤساء قيدار (من أبناء إسماعيل)، وتجار شبا (من أحفاد ابراهيم من زوجته قطورا)، و رعمة ، و حران ، و كنة ، وعدن و آشور ، وكلمد (حزقيال 27 : 13 – 12) . أما الذي أصاب " صور " فلم يصب غير سدوم و عمورة إذ ضربتها الزلازل و البراكين معا ، ثم خسفت الأرض " أصيرك أهوالا و لا تكونين و تطلبين فلا توجدين بعد إلى الأبد" (حزقيال 26 : 21)، " لأن ميازيب من العلاء انفتحت و أسس الأرض تزلزلت و انخسفت الأرض انسحاقا . تشققت الأرض تشققا . تزعزعت الأرض تزعزعا ترنحت كالسكران و تدلدلت كالعرزال و ثقل عليها ذنبها فسقطت و لا تعود تقوم . لذلك احترق سكان الأرض و بقي الناس أناسا قلائل و دمرت قرية الخراب ، (اشعيا 18 : 24 – 20 ، 6 ، 10).

يبوس ــ وادي يبس في بلاد غامد .

العين ــ العين ، بين غامد و زهران . وادي قدرون – في بلاد غامد .

جت ــ وادي غط (جت) شرق خميس مشيط .

صرعة ــ الزرعة ، في بلاد زهران . (فيها ولد شمشون).

حبرون ــ الخربة ، في بلاد زهران .

لخيش ــ بني قيس ، في بلاد زهران

أدواريم ــ الدارين ، في بلاد زهران

بيت أيل ــ البطيلة ، في بلاد زهران

تعنك ــ الكعنة ، في بلاد زهران

منسّي ــ المنشية ، في بلاد زهران

رأوبين ــ الربيان ، في بلاد زهران

حويلة ــ حوالة ، من سراة غامد

كريت ــ وادي كريت (أو وادي قرية أيضا) ، جنوب بلاد غامد منطقة القنفذة .

جبل إبراهيم ــ شمال شرق بلاد زهران .

وادي طوى ــ شرق بلاد زهران ، قرب وادي أراخ

الفرات ــ الثرات ، شرق بلاد غامد و ز هران .

12ــ لقد كان مألوفا لدى كثير من عامة الناس من خلال التفسير المزور لمدونات التوراة ، أن إبراهيم عاش في فلسطين ، و أن بيت الله الذي وضع لعبادته كان في بيت المقدس ، وأن السيدة مريم العذراء اعتكفت فيه هناك للتعبد " و هناك أيضا تمثل لها الملك بشرا سويا بشرها بميلاد المسيح . ولقد استمر بعض المسلمين في أول عهدهم يولون وجوههم شطر بيت المقدس في الصلاة جريا على التزوير في التفسير لتلك المدونات إلى أن علم الله النبي محمدا أن مدونات التوراة مزورة ، وأن حامليها يعرفون أنها مزورة ويكتمون ذلك ، فأخذ محمد (ص) يقلب وجهه بين الاتجاهات الأربع بحثا عن وجهة بيت الله حيث عبد آباؤه الله وحده :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولا هم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل للّه المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنوليك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم و ما الله بغافل عما يعملون ﴾ (سورة البقرة : 141 ـ 143) .

و يبين القرآن الكريم بوضوح كيف أن كهنة التوراة يعرفون حقيقة المواقع لكنهم يخفونها ، ويتعنتون في إخفائها حتى لو أقام محمد لهم الدليل . إنهم يعلمون أن القبلة هي في الجنوب صوب البيت الحرام ، وليست صوب بيت المقدس ، لكنهم يتبعون أهواءهم و ليس يتبعون الحقيقة ، ويحذر اللّه النبي العربي من الوقوع في الخطأ مرة أخرى من بعد ما علمه حقيقة الأمر .

﴿و لئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل أية ما تبعوا قبلتك و ما أنت بتابع قبلتهم و ما بعضهم بتابع قبلة بعض . ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق و هم يعلمون ﴾ (البقرة : 144 ـ 145) .

منطقة عسير و التنافس السوري ـ المصري

تحدثنا آنفا عن أهمية المنطقة الغربية من شبه جزيرة العرب الاستراتيجية و الاقتصادية ، و التجارية خاصة ،لحكام الدولة العربية السورية التي كان مركزها في أكاد أو بابل أو آشور . لقد كانت أحد أهم الرافدين العظيمين اللذين يتدفقان ذهبا و فضة على خزينة الدولة ، بينما كان الرافد العظيم الآخر يتمثل في المدن السورية المتوسطية ، وفي تفوق العرب السوريين الغربيين الذين غلب عليهم اسم "الفينيقيين " في مجال التجارة البحرية ، حتى جعلوا من البحر المتوسط " بحيرة سورية" بالفعل .

و لقد كان السكان في المنطقة الممتدة من الطائف شمالا إلى وادي كريت في منطقة القنفذة جنوبا يتألفون ـ كما لاحظنا ـ من كل أنماط الفروع السكانية العربية ،

ويشكلون بذلك صورة التوضع السكاني المشترك لكل الفروع ، مما يجعلنا نقول جازمين بأن شكل التجمع في تلك المنطقة لم يكن تجمعا قبليا فقط على الإطلاق . ولقد حـرص مدونو التوراة على التعامل مع السكان من خلال انتمائهم العشائري و القبلي ، لأن أبناء إسرائيل لم يكونوا قد تجاوزا بعد مستوى النمط البدوي العشائري .

وإذا كانت تلك المنطقة تبقى في موقعها بعيدة نسبيا عن أنظار قادة الدولـة المركزيـة في عاصمة الدولـة ، تفصلهم عنها البراري و الصحراء العربية الشاسـعة ، مع عدم توفـر وسـائط النقل والاتصال ، فإن ذلك قد هيأ الفرصة لـ " ملـوك " بعض القـرى أو العشائر الواقعة على خطوط التجارة و القوافل الاستراتيجية الدولية أو المتاخمة لها ، لأن يطمعوا في تنمية قوتهم الذاتية الصغيرة عن طريق السيطرة على من يجاورونهم من سكان المدن و الأرياف ، ثم يحاولون الهيمنة على تلك الثروات العابرة شمالا و شرقا ، والقادمـة من أفريقيا و جنوب شـبه الجزيرة ، و الاستئثار بها بين فترة و أخرى . وكان ذلك من شأنه أن يثير غضب قادة الدولـة المركزية ، فيجهزون الحملات التأديبية ضـد أولئـك " الأمراء " و " الملوك " الصغـار ، الذين يعتبرون متمردين خارجين على قانون الدولة العام ، ومهددين لاقتصادها و أمنها معا ، فينكلون بهم و يعيـدون تلـك المنـاطق إلى وحدتها في إطار الدولـة المركزيـة الواحدة بعد أن ينصبوا " وكلاء " للملك (ملوكا أو فراعين) على تلك المحطات و القرى ، تكون مهمتهم ضبط أمن المنطقة و خطـوط سير القوافل و التجارة ، ومنع كل الطامعين من محاولة الاسـتفراد أو الاسـتقلال أو الانفصال أو التسلط على الثروات الجائزة خلال تلك الطرقـات ، وجبايـة الأمـوال والإتاوات عن كل بضاعة تمر في ذلك الطريق .وكانت مثل هذه المهمات تشجع أولئك الصغار على أن يجمعوا من حولهم الأنصار من أقارب أو محالفين، من أجل أن يتمكنـوا من القيام بتلك الواجبات الملقاة على عاتقهم من قبل الملـك رأس الدولـة المركزيـة، ويخلقـوا هيبة تحول دون أن يطمح الآخرون بالخروج عن إطـار الحـدود المرسـومة ويخرقوا النظام القائم .

لكن ذلك لم يكن ليدوم طويلا حتى يعود الصراع من جديد بين أولئك " الملوك " الصغار أنفسهم ، يشجعهم في ذلك موقعهم الوسط بين دولتين عربيتين قويتين متنافستين من أجل السيطرة على المنطقة هما : دولة سوريا و دولة وادي النيل . وليس صعبا على الدارس أن يلاحظ كيف أن عشيرة المصريين في شبه جزيرة العرب (غربي زهران) كانوا يعتبرون أنفسهم وكلاء لملك وادي النيل لأنه يجمع فيما بينهم النسب إلى حام بن نوح . فما أن يبتعد شبح الجيش السوري القادم من الشمال و الشرق ، ويسود الدولة هناك حالة من الارتباك أو الفوضى أو الصراع الداخلي على الحكم ، حتى يسارع حكام عشيرة مصر في الوديان الغربية إلى الصعود شرقا و شمالا لبسط السيطرة على المنطقة الممتدة من جنوبي الطائف حتى جنوبي بلاد غامد . فتنجح تلك المحاولات أحيانا في السيطرة على الكثير من القرى أو المدن الواقعة في الشريط عبر زهران و غامد المتاخم لقرى المصريين . لكن تحالفات معاكسة في المنطقة ذاتها ما تلبث أن تقوم لينقض الحثيون و الآموريون و الآشوريون (من بني آشور بن ددان) في تحالفات كلية أو جزئية تشمل جميع أولئك الذين يعتبرون أنفسهم وكلاء للدولة العربية السورية في المنطقة ، ويسهددون قرى و مدن المصريين ، وأحيانا يستولون عليها فعلا ، مما كان يضطر ملك وادي النيل لأن يجرد بالمقابل حملة تأديبية ضد تلك التحالفات ، فيعيد وكلاءه إلى مناصبهم ، ويضرب كل ما سولت له نفسه المساس بسلطتهم ، يخضع في بعض الأحيان " ملوك المدن " المعتبرين وكلاء سوريا ، مما يستدعي حتما قيام ملك الدولة السورية بهجوم مضاد بعد فترة لاعادة تثبيت سيطرته على تلك المنطقة ، وهكذا .

وإن جميع تلك الأحداث و الصراعات ، التي أبرزها المؤرخون نتيجة للارباكات التوراتية على أنها صراع بين إمبراطوريات ، لم تكن، في حقيقتها ، إلا بعضا من مظاهر هذا الصراع الجزئي التفصيلي على مستوى " ملوك " قرى و مدن المنطقة من جهة ، وانعكاسا لذلك التنافس القائم على المنطقة بين الدولتين العربيتين سوريا و مصر ، من جهة أخرى . ومن جملة هذه الأحداث "التفصيلية " على الخارطة الصغيرة للمنطقة ، والتي أخذت دورا و حجما أكبر بكثير مما هي عليه في الحقيقية و الواقع ، كانت حادثة

الهجوم الذي قام به سكان المنطقة الشرقية من بلاد زهران على مدينة المصريين الواقعة في الغرب ، و الذين دعوا فيما بعد بـــ " الهكسوس " في مصر .

وقبل أن نتحدث عن أولئك الذين دعتهم كتب التاريخ بـــ " الهكسوس " ، لا بد مـــن لمحة سريعة عن الوضع الذي ســـبق ظهورهم " المفاجئ" – كما يقول المؤرخون – على ساحة الأحداث التاريخية في مصر.

ليس من العسير على الباحث أن يفهم كيف أن ملوك وادي النيل الأوائل لم يقطعـــوا الوشائج بالرحم الأم المتمثل في شبه جزيرة العرب . لقد انتقلوا منها (ومـــن المنطقـــة الغربية منها بالذات) عبر البحر الأحمر إلى وادي النيل ، وجسدوا هناك كثيرا من عبقرية شعبهم ، وعلومه و إبداعاته ، وإنجازاته العمرانية ، والفنية ، و الهندســـية ، والأدبيـــة ، وغيرها ، وأبقوا على ارتباطهم الوثيق مع منطقة شرقي البحر الأحمر في الحيـــاتين الأولى و ما بعد الموت*.

ولقد ظلت بلدة جبيل على وادي الليث (صار في الترجمات و التفسيرات " نهر الكلـــب " رغم أن بلدة جبلة أو جبيل لا تقع على نهر الكلب في لبنان) تمثـــل أحـــد المراكـــز الرئيسية لهذا الارتباط العضوي الذي لم تنفصم عراه في تلك الفترات التاريخية القديمة من تاريخ وادي النيل . فعلاوة على جعل جبلة موطن أوزيريس ومثواه و " قبلة " المصريين في وادي النيل أيضا . ثم ارتباطها المباشر بقصته مع ايزيس و سيت و حور ، فهي أيضـــا مسرح أحداث أدونيس و عشتار ، وهي المورد الرئيسي لخشب الأرز و السرو من جبال غامد و زهران عن طريق الأنهار إلى البحر الأحمر ، حيث يتم نقلها برا إلى (ابيدوس)** ، و من هناك تنقل على مياه النيل شمالا إلى مدن الدلتا و تشير المصادر إلى أن الملك سنفرو

---

* كان قدامى ملوك مصر يحتفظون في مقابرهم بسفن أو زوارق خاصة لعبور البحـــر الأحمـــر 'إلى العالم الآخر حيث موطن الأجداد في غرب شبه جزيرة العرب.

** أول من أطلق هذا الاسم الملك مينا و هو منسوب إلى جبل "بيدا " في زهران حيث ينبع نهر " بيدا" وهناك إلى الشمال منه جبل " بيضان "، جنوب جبل كلب النعد، ثم جبل " أبيض" Abid على الساحل الشرقي للبحر الأحمر قرب جبل رواث الذي انتقلت تسميته إلى وادي النيل أيضـــا في منطقة أبيدو ذاتها.

فلم يبق ثمة مجال للشك في أن أبيد (بعد حذف النهاية اليونانية) التي في رواش " فـــي مصـــر وادي النيل ليست إلا استنساخا لجبل أبيض Abid في منطققة رواث شرقي البحر الأحمر .

(الشنفرى) الذي عاش حوالي 2750 ق.م . استورد محمول أربعين سفينة من الأرز لأعماله العمرانية . ومن جبيل أيضا كانت تأتي الخمور و الزيوت لأجل التحنيط ، وكانت المنطقة الممتدة من جنوب غامد إلى شمال الطائف تشتهر بهذه الأنواع من الثمار المتوسطية ، وقد أكد ذلك القرآن الكريم في الآية : ﴿ و التين و الزيتون و طور سنين و هذا البلد الأمين ﴾ علما أن طور سينا هو في شرق زهران قرب وادي طوى وليس في شمال مصر كما يسود الاعتقاد اليوم .

في تلك الفترة بالذات كانت الأمور تسير في مجراها الطبيعي دونما أحداث سياسية حادة نظرا لأن المنطقة السورية كانت موزعة إلى مجموعة من الممالك والمدن التي تنتهي مطامح كل منها عند حدودها الإقليمية الضيقة ، إلى أن بدأ عهد الدولة الواحدة التي أقامها سرجون في فترة حكمه الممتدة ما بين 2371 – 2316ق.م فوضع بذلك يديه على جميع الطرق التجارية الدولية المحيطة بدولته من الشمال و الشرق و الغرب والجنوب ومن بينها ـــ لا شك ـــ كانت محطات غرب شبه جزيرة العرب أهم المناطق في الاستراتيجية التجارية الدولية لذلك الزمن .

إن هذا كان من شأنه أن ينبه ملوك وادي النيل إلى أهمية المنطقة و إلى ضرورة السيطرة عليها إذا ما سنحت الفرصة ، و لم تكن هذه الفرصة لتسنح طالما كان ما يزال جيش سرجون القوي محافظا على حدود الدولة زهاء قرن كامل من الزمن بعد وفاته .

و ما أن تسرب الضعف إلى مركز الدولة السورية ، وضربتها الزلازل ، و غزت قبائل الغوتيين العاصمة " أجادة " في أواخر القرن الثالث و العشرين بعد أن دمرتها الزلازل حتى تحرك ملوك وادي النيل من أجل السيطرة على منطقة شرقي البحر الأحمر ، الممتدة من الطائف شمالا إلى وادي كريث جنوبا .

1 ـــ في هذه الفترة بالذات قام " عوني " قائد جيش الملك بيبي الأول بحملته على المنطقة ، ثم توغل إلى الشمال و الشرق ، وحارب " سكان الرمال " الآسيويين ، وهدم الحصون و قطع أشجار التين والكرمة "[1] .

---

(1) James Breasted ،"Ancient of Egypt" vol ،I313 .

لقد أمتد تسلط الغوتيين على مركز الدولة السورية حتى عام 2120 ق.م. ثم أعقبت ذلك فترة عودة الممالك المدن ، وتميزت تلك الفترة بالنزاع الكبير بين ايسن و لارسا ، وأخذت عملية الصراع تستقطب كافة القوى و الممالك حول اتجاهين رئيسيين : الاتجاه الوحدوي الذي كان قد أرسى قواعده سرجون ، و الاتجاه الإقطاعي الديني الانفصالي المقاتل من أجل الحفاظ على مكاسب الأمراء الإقطاعيين و رجال الدين . و انتهى هذا الصراع بفوز الاتجاه الأول يمثله حمواربي القادم بقواته إلى بابل من الغرب .

2 ـ لقد عادت سيطرة الدولة السورية المركزية على كافة المناطق ، ومن ضمنها غرب شبه الجزيرة العربية . و عمّ الأمن جميع خطوط التجارة المحيطة بأطراف الدولة .

3 ـ و في فترة التمردات و الفتن التي برزت رؤوسها في كثير من مدن سومر و عيلام بعد حموابي ، وقبل أن تتقدم أية قوات أخرى من وادي النيل إلى المنطقة ، انقضت قوات الأمراء المحليين على جميع ممالك مصر و كنعان في غامد و زهران في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ووضعتها جميعها في قبضتها لفترة تزيد عن مائة و خمسين عاما . وكان ذلك ما دعي بـ " حكم الهكسوس " في مصر .

الهكسوس

يقول المؤرخون إن كلمة " هكسوس " هي لفظة مصرية قديمة " حيكو شوست" وكان أول من استعملها المؤرخ العربي المصري* مانثيون من العصر المتأخر ، واعتبر أن معناها " الملوك الرعاة "[1]. ولفظة "شوست " تذكرنا بلفظتين عربيتين قديمتين هما " سيوتو " و تعني رعاة الشياه ، أو الغنامين . و قد بقيت حتى يومنا هذا لفظة " شوايا " ومفردها " شاوي " أي راعي الشاء . أو الشياه ، كما تذكرنا بلفظة " سوسو " ومعناها بالعربية القديمة الحصان ، ومنها جاءت اللفظة العربية الحديثة

---

* من مصريي غرب زهران في شبه جزيرة العرب .

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا و من ضمنها لبنان و فلسطين " الجزء 1 ، ص 157.

"ســائس"و سياسة،وما يزال وادي " شواص " جنوب شرق غامد يحتفظ بالاسم حــتى اليوم .

فالكلمــة تتضمن إذا مفهوم رعاة الخيل و الشياه . وهذا ينطبق مع التفسير الذي أجمـع عليه الباحثــون لتلك التسمية ، خاصة و أهم اعتبروا " الهكسوس " أول من أدخـــل استخدام الحصان إلى مصر ، وهذا أيضا تزوير .

وإذا ما نظرنا إلى خارطة شبه جزيرة العرب ، وإلى منطقة غامد و زهران التي تعنينـــا في عملية البحث عن موطن هؤلاء ، لوجدنا أن المنطقة التي توغل فيها " عوني" قائد الملك " بيي" الأول في الشمال و الشـــرق ، و" حارب فيها سكان الرمال الآسيويين ، وقطـــع أشجار التين و العنب ، في طريقه إليها ، إنما هي المنطقـــة الواقعة شمال شرق زهـــران مباشرة ، على الطريق الدولي الصاعد إلى الطائف مقابل جبل إبراهيم . وفي هذه المنطقــة بالضبط نلتقي بالبلـــدة القديمة التي ما تزال تحمل الاسم ذاته . وهي بلـــدة " الصـــوت As-Sot ومن هنا فقد تكون التسمية تعني حكام الصوت " أو ملوك الصوت"وكلمة " الصوت " مؤلفة في الأصل من " أل ـــ سوت " وتعني رب الشياه و الخيل ، ثم تحـــول المقطع " ال" إلى " أل" التعريف الحديثة .

أما عن التركيبـــة السكانية يقول فيليب حتي :" كان الهكسوس بالأصل حشــــدا ، أو مجموعة لا تسمية لها من البشر قذفتها منطقة شرقي البحـــر المتوســـط إلى مصـــر ، ثم اصبحوا يمثلون حركة تضم ، عدا عن الساميين ، الحوريين و الحثيين و الميتانيين وهم من غير الساميين ، كذلك كان جماعة الخابيرو بينهم"[1]

والحقيقة إنه الإشكال نفسه الذي كنا قد تحدثنا عنه . فالحثيون و الحوريون و الميتــانيون ليسوا إلا من العـــرب الكنعانيين في بلاد غامد و زهران ، والمصريون هنا ليسوا إلا مـــن العرب الحاميين في بلاد غامد وزهران.وكالعادة ،من أجل أن يبرر أولئـــك المؤرخـــون فرضيتهم حول قدوم الهكسوس، الذي يضمون حثيين وحوريين من"شـــمال ســـوريا" إلى مصر وادي النيل ، فقد كان لا بد لهم من أن يحتلوا كل ســـوريا أولا في طريقهم ،

(1) فيليب حتي " تاريخ سوريا و من ضمنها لبنان و فلسطين " الجزء 1 ، ص 157 .

بصرف النظـــر عن أنهم لم يعثروا على أي دليل يمكن أن يشير إلى وجود الهكســـوس في سوريا المتوســـطية على الاطلاق ، فبقيت مقولاتهم التاريخيـــة – كعادتها- نتيجة لســوء تفسير الأماكن الجغرافية ، هائمة على وجوهها دون أن تستطيع الالتصاق بأي مكان من أرض الواقع .

ويضيف الدكتور حتي نقلا عن " انغبرغ" قائلا :" ويمكن الاســـتدلال على أن العنصـــر الرئيسي كان كنعانيا أو أموريا من أسماء حكامهم الأولين ، كما تظهر على الأبنية تماثيل الجعلان * . وهذه الحركة هي التي كانت سببا في قدوم عدد كبير من الحثيين و الحوريين و ربما من اليبوسيين و الفرزيين و غيرهم من غير الســـاميين جنوبا حتى فلســـطين "[1] مدهش !

إن المؤلف هنا ينسى أن التوراة نفسها قد قطعت الطريـــق أمام أولئك البـــاحثين عـــن الأصول لعشائر التوراة في غير منطقة التوراة التي هي شـــبه جزيرة العرب ، وذكرت أن جميع هؤلاء إنما هم من أولاد كنعان : " و كنعان ولد صيدون بكره و حثا واليبوســـي والأموري والجرجاشي والحـــوي و العرقي و السيني و الارادي و الصماري و الحمتي : (تكوين 10 : 15) .

"و إلى جانب الحصان الذي أدخـــلوه إلى ســـوريا و منها إلى مصر فقد أتى الهكســـوس بالمركبة إلى كلا البلدين"[2] .إن من المعروف أن العربة قامت أساسا على صناعة العجلـة أو الدولاب . و كان العرب السوريون زمن حمورابي أول من أوجد هذا الاختراع الذي عده العلماء فيما بعد أول ثورة تكنيكية في تاريـــخ البشرية .

" وبين الأسلحة الجديدة الأخرى التي ظهرت أتى الهكسوس بالسيف الحديدي المنحني** و القوس المركب الذي كان قد ظهر لأول مرة في بلاد الرافدين في عهد سلالة أكاديـة

• كان الجعل الزاهي الألوان رمزا لرب "خفيرو" أي الحافرة أي النشأة الأولى في سوريا و عنـد عرب وادي النيل .
(1) المصدر نفسه .
(2) المصدر السابق ، ص 158 .
•• إن السيف المنحني هو السيف العربي منذ أن عرف السيف لأول مرة و حتى اليوم .

في القـــرن الثاني و العشرين . وكان تفوق الهكسوس في السلاح يرتكز ، فوق ذلـك ، على استعمالهم البرونز الذي كانت تجارته في شمالي سوريا .. وتقدمت صناعة الحلـــي والخزف و العاج و النقش تقدما بارزا و كان الحفر على العظم معروفا في سوريا منـــذ العصر الحجري ، ولكن صناعة التنزيل أدخلت غالبا في هذا العصر .. و لا تزال صناعـة التنـــزيل التي تقوم على إدخال قطع من العظم أو العاج بقصد الزخرفـــة في الصنـــاديق الخشبية أو قطع الأثاث صناعة فنية مزدهرة في دمشق "[1].

و يذكر المؤرخون أهم مدن "الهكسوس" في "سوريا" وهي قطنة "Qatna" و يعتبرونهـا عاصمتهم ، وقادش ، وكركميش ، وهازر، وحصن شكيم ، و لخيش ، وشـــاروحن ، واريحـــا ، وبيت شـــمس .. و كنا قد تحدثنا من قبل عن هذه الأسماء العشائرية الضيقة وذكرنا أنه لاوجود لها في سوريا لا أسماء ولامواقع . أما لخيش فقد سبق الحديث عنـــها مع حديثنا عن الفلسطينيين، و اعتبرت إحدى مدنهم، وهي أيضا في جنوب بلاد زهران.

إن كل ما يذكره المؤرخـــون عن الهكسوس يثبت مقولة و احدة ، وهي أن من دعـــوا بـــ" الهكسوس " ليسوا إلا مجموعة من السكان المحليين في شرقي بلاد زهران ، زحفـــوا بقيادة أمرائهم و استولوا على أراضي المصريين في المنطقة الغربية و الجنوبية من زهـــران نفسها فكان ذلك ردا على اجتياح مناطقهم الشرقية على يد " أحمس " و "عوني " قائد حيش"بيي" الأول . و إن ما نســـب اليهم من الحضارة لم يكن إلا جانبا من جوانـــب الحضارة العربية السورية ككل في ذلك الزمن ، إذ رأينا آنفا كيف أن السوريين كـــانوا أول من عمـــل بالتعدين ، وعـــرف صهر المعادن و طرقها و صناعتها و استخدامها في الأدوات ، و أول من عرف عصر النحاس ، ثم البرونز ، ثم الحديد ، وأول من اخـــترع العجلة ، بالتالـــي العربـــة . وقد أدخلتها ســـوريا إلى مصر فعلا لكن ليس بواســـطة " الهكسوس" . وقد بقيت لفظة " عربة " كما هي في لغة مصر القديمة ، دليلا على هوية مخترعيها هم العرب ، ولم تأت هي أو الحصان أو السيف الحديدي المنحني من أي مكان آخر خارج حدود الوطن العربي القديم . والغريب أننا كنا قد مررنا على قول آخر عنـــد

---

(1) المصدر السابق ، ص 159 .

المؤلف نفسه يعزو فيه إدخال الحديد إلى المنطقة إلى الفلسطينيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ! فجعل منهم روادا للحضارة إذ نقلوا المنطقة "من عصر البرونز إلى عصر الحديد " لا لشيء إلا لأن المؤرخين اعتقدوا أن الفلسطينيين قوم هندوأروبيون قدموا من البحر إلى المنطقة و ليس لهم علاقة بالعرب أو بالساميين ، فكان لابد من عملية تهريب أخرى لحضارة المعدن إلى جهة أخرى غريبة عن المنطقة !

أما المدن التي جرى الخلط بينها و بين مدن أخرى تنتشر على الرقعة الممتدة من شمالي سوريا إلى جنوب فلسطين ، فهي مجموعة القرى و المدن الصغيرة التي سبق أن تحدثنا عن معظمها ، والتي لا توجد فعلا إلا في البقعة الضيقة من شرق منطقة زهران .

وإذا كانت مصر وادي النيل قد شهدت تقدما في كثير من مظاهر الحضارة وجوانبها في تلك الفترة فليس يعني أن ذلك كان نتيجة لحكم الهكسوس أو غيرهم . فالهكسوس لم يدخلوا مصر وادي النيل ، ولم يتجاوزوا أرض المصريين في غرب زهران ، و في ظل ملوكهم في زهران عمل يوسف بن يعقوب في جمع القمح للملك (فرعون) من بيادر الفلاحين لا في مصر وادي النيل . ولقد أجمع المؤرخون و النسابون و الاخباريون العرب على أن ملك مصر أيام موسى بن عمران كان قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن الليث بن حاران بن عمرو بن عمليق (وهو عريب) ، وأن زوجته كانت آسيا بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد بن ثروان بن آراشة بن حاران ابن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح . وقد دعيت حاران مركز الآراميين باسم جدهم حاران هذا .

و كانت ألقاب ملوكهم كنعانية أو عمورية مقترنة باللفظة المحلية للجبل "هر " . فقد رأينا كيف أن موسى يطلب استطلاع المنطقة الكنعانية من على جبل " هر " (هور) ، وعلى الجبل " هور " يموت و يدفن هارون وإن كلمة "هور" هي تجسيد للهجة الحاميين في جنوب شبه جزيرة العرب ، وكنعان هو ابن حام . وقد بقيت هذه اللهجة الحامية مستمرة في الحبشة إلى عصرنا نحن . إن "هيلاسيلاسي" هو " حيلا ثلاثي " أي القوة المثلية . إنها اللهجة التي كانت وماتزال تحول صوت الحاء إلى هاء . وهكذا فإن "هور"

هو " حر ، حور " أي الصقر ، الحر ، السيد . وهي التي انتقلت إلى وادي النيـــل مـــع طفل إيزيس "حور" أو " حورس" . أما الكلمة الآرامية و السريانية للجبل فهي " طور " (طورو) . ونحن نرى بين ألقاب هؤلاء الملوك " عنات هور " و يعقوب هر" وكذلـــك " يعقوب ايل " و يعقوب بعل " [1] و كان الملك يدعى فرعون ، جريا علـــى تقـــاليد المنطقة التي مررنا على ذكرها من قبل ، و ليس في كل آثار وادي النيل إشـــارة إلى أن ملوك وادي النيل كانوا يدعون بـــ " الفراعنة " ، علما أن هذه اللفظة وصلتنا عن طريق مدونات التوراة فقط .

يقول جيمس برواستد " إننا لا نعلم شيئا محققا عن هؤلاء الهكسوس ، لكننا نقول مـــن باب الترجيح أن زحفهم إلى مصر كان فاتحة لحركة عظيمة قامت بها بعض الشـــعوب الآسيوية" [2] .

لقد نقل يوسيفوس عن الكاهن و المؤرخ العربي المصري (من مصر زهران) مـــانثيون الذي عاش و كتب تاريخه حوالي عام 280 ق. م . قوله : " و اتفق على عهد "تيما "* أحد ملوكنا أن الإله غضب علينا ، فأذن لقوم لا يعرف أصلهم ، جاؤوا من الشـــرق ، وتجاسروا على محاربتنا ، وغلبونا على بلادنا ، و أذلوا ملوكنا ، و أحرقوا مدننا، وهدموا هياكلنا وآلهتنا ، و ساموا الناس ذلا ، فقتلوا الرجال و سبوا النساء و الأولاد ، ثم نصبوا عليهم ملكا منهم واسمه " سلاط " .. أمام الحامية في المعاقل لدفع الآشوريين .. وبـــنى مدينة " أورا " في ولاية صان " لهذه الغاية و حصنها بالأبراج و القلاع و الأســـوار .. وكان يأتي إليها في الصيف لجمع الحنطة و دفع رواتب الجند و تمرينهم علـــى شـــؤون الحرب . وبعد 13 سنة من حكمه خلفه ملك اسمه " بيان " وحكم 44 سنة ، و جـــاء بعده " أباخنا " الذي حكم 36 سنة و سبعة أشهر ، ثم ابوفيس "بانياس" . هؤلاء الستة أول من حكم من ملوكهم ، و لم يكفوا عن محاربة المصريين لأنهم كـــانوا يلتمســـون إبادتهم . و كانت هذه الأمة تسمى هيكسوس أي ملوك الرعاة ، لأنها مؤلفـــة مـــن "

---

(1) المصدر السابق ، 160.
(2) جيمس بروستد " العصور القديمة " ص 85 .
• لاحظ الاسم العربي المحلي لملك مصر " اتيما " .

هيك "و معناها باللغة المقدسة ملك و "سوس" راعي ، ولكن البعض يقول الهم " عرب."[1] . فـ" الهكسوس " غزوا مصر من الشرق ، بينما يفترض أن مدنهم ـ حسب تصور المؤرخين ـ تنتشر في فلسطين و سوريا و تركيا الحالية ، وقد أذلوا ملوك مصر (ومصر وادي النيل في الجنوب وكان يحكمها ملك واحد) : ولقد أحرقوا المدن ودمروا الهياكل و سبوا النساء والأولاد (وإن أحدا لم يسمع بتدمير مدن مصر) ، وقد أقاموا الحاميات لدفع الأشوريين (والأشوريون لم يكونوا قد ظهروا على مسرح الأحداث بعد) . وقد كان المقصود هم عشيرة اشوريم من أبناء ددان بن يقشان بن ابراهييم بين غامد و زهران . ولقد بنوا مدينة (قرية) " أورا " (أفاريس باليونانية) وهي مدينة العنابر في زهران زمن يوسف بن يعقوب .. (ولم يعثر على ذكر أو أثر لهذه المدينة في مصر وادي النيل) وكلمة " أورا " هي في الأصل " حورا " أي المغارة .

إن كل ما في هذا القول من تفاصيل تؤكد صحة وجهة نظرنا في أن مصريي زهران هم المعنيون وحدهم و ليس سكان وادي النيل .

أما عن دياناقم فتؤكد المصادر على أن الهكسوس في " أورا " (" أفاريس" باليونانية) كانوا يعبدون الإله " سوتو " أو " سوتح " . و"ذكر أن الملك أبو فيس لم يسمح بعبادة إله آخر ،في البلاد كافة "[2] إنه " سيت " أو " سيتاع " أخو أوزيريس وقاتله .

و الجدير بالذكر أن مدينة " أورا " هذه هي التي سميت مدينة العنابر أو المخازن ، وهي التي عمل بها يوسف بن يعقوب ، وتقع على وادي ذيان شمال شرق الشعف ، وتتبع لولاية " صن " أو " صان " حيث قادش ، وحيث خرجت هاجر في الطريق إلى البرية هربا من وجه مولاتها سارة . أما في المدن الأخرى فقد كانت تنتشر عبادة بعل وعشتار و عنات . و كلمة " مدينة " تطلق على المغارة ما دامت مكانا للسكن و الاستقرار.

---

(1) The Complete Works of Josephus ، by W. Whiston ، 547.

(2) ادولف أرمان " ديانة مصر القديمة " ص 120 .

و يعتقد المؤرخون أن أولئك الهكسوس هم الذي أدخلوا العلوم إلى مصر ، و لاسيما الرياضيات . يقول بريستد :" ويتضح أن دخول الهكسوس إلى مصر لم يكن شراً مطلقاً ، فأقدم مؤلف علمي وصلنا يرجع إلى عصر الهكسوس في مصر في القرن السابع عشر"[1] ، ويضيف ت. بيت على ذلك قائلا :" وأعظم مساهمة في معرفتنا عن الرياضيات المصرية و ضعت في 1580 ق.م تحت حكم الهكسوس " [2] .

و الحقيقة أن أمثال هؤلاء الأمراء من البدو و أنصاف المستقرين لم يكونوا قادرين على أن يضيفوا شيئا في عالم الإنجازات العلمية و الحضارية على البيئة الحضارية المتقدمة التي من حولها سواء في سوريا أو مصر وادي النيل . وإذ صادف أن حدثت تلك المنجزات العلمية في وادي النيل في الوقت الذي كان فيه الهكسوس يحكمون " مصر " العشيرة شرقي البحر الأحمر فلأن الحضارة العربية المصرية كانت قد قطعت أشواطا جد بعيدة ومتقدمة في ركب الحضارة العالمية ، و كانت مهيأة لأن تعطي في كل يوم مبتكرات وإنجازات جديدة ، مثلها مثل شقيقتها الكبرى ، الدولة العربية السورية . والخطأ يكمن في تفسير الأسماء الجغرافية التي التصق بها المؤرخون و الدارسون ، كما قدمتها ترجمات التوراة ، ضاربين صفحا عن كل التناقضات في المنطق و التاريخ و الجغرافيا ، التي نجمت و تنجم عنها .

نهاية حكم الهكسوس في غرب زهران

بعد عام 1580 ق.م تقريبا بدأ ملوك وادي النيل تحركهم الفعلي من أجل إعادة سيطرتهم على منطقة المصريين في شرقي البحر الأحمر ، مستغلين ضعف الدولة السورية و هجوم الكاشيين على بابل الذي بدأ في حوالي 1595 ق.م . لقد عبر أحمس الأول مؤسس السلالة الثامنة عشرة ، البحر الأحمر ، وقام بهجومات متكررة على " أورا " " أفاريس" تحقق له النصر في نهايتها ، مما اضطر قوات الهكسوس إلى الانسحاب

(1) J.H. Breasted " The Edwin Smith Surgical Papyrus " 2 vils . (Chicago 1930) .
(2) T. Eric Peet " The Rhind Mathematical Papyrus ".

إلى أرض الكنعانيين في غامد و زهران ، وأخذت تقاومــه هناك في اتحاد من الأمــراء في شاروحن . وكانت مقاومتهم عنيدة مما جعل حصار الجيش المصري لهذه البلدة يــدوم ثلاث سنوات [1].

ثم أخذ خلفاء أحمس من الملوك يتابعون عملية مطــاردة أمراء الهكسوس و دفعهم شــرقا بعيدا عن بلاد زهران .و يذكرالمؤرخون أن تحوتمس الثالث (توفي عــام 1447 ق.م) هو الذي سدد الضربات القاضية لسلطة الهكسوس في بلاد المصريين و الكنعانيين مــن بلاد زهران (و التي أخذ يدعوها المؤرخون باسم سوريا بدلا من أرض الكنعانيين علــى أساس التفسير الخاطئ ، للأسماء الجغرافية في مدونات التوراة) ، و لم تتوطد سيادة وادي النيل عل منطقة غامد و زهران إلا بعد معركة آرام جدون دون أن يعرف أحد شيئا عن هذا الاسم المبهم ــ على حــد تعبير فيليب حتي . فقد انتصر تحوتمس الثالث أخــيرا في 1468 ق.م في هذه المعركة التي اصطدم بحلف مؤلف من 350 أميرا .

و كان الهكسوس الذين طردوا من غربي زهران العمود الفقري لهذا الحلف ، وكان أمــير قادش رئيسه* . ثم تقدم إلى بلدة عراد ، وقادش ، و نهارين الآرامية الواقعة شرقي زهران على نهر الثرات ، إلى كركميش .

وقد كنا قد بينا مواقع هذه المضارب جميعا في شرقي زهران ، وهكذا انتهت سيطرة هذا الاتحاد من الأمراء العرب المحليين على المنطقة ، وانتهت معها تلك النــزعة الاســتقلالية القوية التي برزت على الساحــة و كأنما لترفض هيمنة الدولة السورية المصريــة معــا ، ولتتمتع بالاستقلال عنهما بصورة من الصور . لقد ترك تحوتمس الثالث في الكتابات مــا يذكــر بتلك الانتصارات على " زعماء زاهي " و اتبع سياسة جديدة إزاء تلك المنطقــة من أجل ضمان ولاء أمرائها لمصر وادي النيل. لقد بدأ يأخذ أبناء الأمراء المحليين معه إلى

---

(1) J.H Breasted " Ancient Records: vol، ii 13; and history of Egypt"، P.227

• درج المؤرخون حتى اليوم على اعتبار المعارك التي جرت في أراضي سوريا المتوســطية ، فجعلوا قادش تقع على نهر العاصي في سوريا . وكنا قد بينا موقع قادش شرق زهران . كمــا بينا أن تقدم تحوتمس كان إلى مدينة عراد الواقعة على وادي عرادة في زهران و ليــس إلــى جزيرة أرواد السورية في المتوسط .

مصر ، وينشئهم على روح الصداقة و الولاء له ، ثم يعيدهم تدريجيا ليأخذوا مواقعهم " ملوكا " على تلك المدن ، و يحلوا محل الجيل القديم المعادي لمصر[1].

لكن ذلك لم يكن ليحقق نتائج حاسمة في عملية التنافس القائمة من أجل السيطرة على تلك المنطقة . فمن جهة كان الأمراء الموالون للدولة السورية يتحينون الفرصة حينما يقوى نفوذ هذه الدولة ، وتتخلص من ارباكاتها الداخلية و تفرغ من صد الهجمات القبلية من الشمال و الشرق . ليعلنوا التمرد على سلطات مصر وادي النيل . ومن جهة أخرى فقد كان ثمة مجموعة من الأمراء الذين لا يكلون من العمل من أجل الاستقلال بالمنطقة عن مصر و سوريا معا ، لكنهم كانوا يخشون بطش المصريين ، فيلجأون إلى المداهنة و المراوغة، مما خلق ظاهرة جديدة في السياسة على صعيد أحداث تلك المرحلة ، صار يدعوها المؤرخون بـ" النفاق الدولي " ، وهي في حقيقتها ، لم تكن تتعدى سلوك بعض أمراء المحطات (الوكلاء ، الفراعنة) في منطقة غامد و زهران .

5 ـ وهكذا فقد بدأت مرحلة جديدة تميزت بتشابك المنافسات المحلية و الدولية معا ، فبعد أن أخذ تحوتمس يرسل أبناء الأمراء من "عملائه" لتسلم زمام أمور المدن ، وليصبحوا وكلاء لمصر وادي النيل في المنطقة ، مضموني الولاء ، تحرك الحثيون الكنعانيون ضد هذه الظاهرة . و بدؤوا يضيقون الخناق على أولئك " الوكلاء " ، مبقين على الصلات مع الدولة السورية في الشمال وكان الاموريون ، أبناء عمور أو عمرو بن كنعان ، من بين أولئك المؤيدين لسوريا ، وقد فرضوا سيطرتهم على قسم كبير من جبال لبنان شرقي غامد و زهران ، حتى ذو مسك شمالا و على مجموعة من المدن و القرى في السفوح الداخلية وكان عبد عشرتا أحد هؤلاء الأمراء الأموريين المعينيين من قبل ملك مصر وادي النيل ،، كما كان أحد أبرز أولئك الوكلاء الذين انتهجوا أسلوب " النفاق " مع جميع الأطراف من أجل أن يحقق لنفسه المكاسب . إنه لم يكن يتورع عن ترديد كل تلك الألفاظ التي ربي و نشأ عليها في قصر الملك ، كما

---

(1)Breasted (Ancient Rocordes)،Vol ii 467.

أظهرت رسائله المكتشفة في تل العمارنة . ففي إحدى رسائله التي كتبها بلغة اكادية ركيكة إلى الملك امنحوتب الثالث (توفي عام 1375ق.م) جاء فيها:

" إلى الملك الشمس سيدي ، هكذا يقول عبد عشرتا عبدك وغبار قدميك . عبد قدمي الملك و كلب بيته ، وجميع أمورو احرسها للملك سيدي"[1]

كان عبد عشرتا عند كتابة هذه الرسالة في بلدة " عرقة" Arqt الكنعانية ، وهي تقع على وادي عرقة الذي دعي باسمها ، وهو أحد روافد نهر تثليث شرق عسير . وكان قد ساعد الحثيين على استرجاع " عمقي " (عميقة حاليا في زهران) . لكنه كان يخادع كل الجهات من أجل التوسع لحماية سهل العمق شرق وادي عرقة في وسط شبه جزيرة العرب و بلاد غامد و زهران . وقد تمكن ، بالفعل ، من أن يوسع دائرة ملكه ، فاستولى على مجموعة من القرى و المدن ، ونهب بعضها بالتعاون مع ابنه ازيرو ، وكان يرضي بعض التابعين لمصر و يرشوهم ، ويتخلص من بعضهم الآخر ، فاحتل " قطنة" على نهر الثرات شرقي زهران ، و "جمتي (الغميط) " شرق غامد ، وبعض القرى حول ذومسك ، شرقي زهران ، وصعد إلى عردة في زهران ، و شيغاتا و بترونا . وفصلها عن "جبيل " على نهر الليث ، فلم يعد "ملك "جبيل" قادرا على تزويد مصر وادي النيل بالأخشاب من الجبال ، وتعذرت مهمة "ملكها " التابع لمصر ، فأخذ يرسل الرسائل واحدة في إثر الأخرى إلى امنحوتب ، حتى بلغت خمسين رسالة ، هي أهم دفعة من رسائل تل العمارنة[2] ، ملأها بالشكوى من " خيانة " عبد عشرتا " الكلب" و ابنه ازيرو ، وتضرع إلى سيده بحرارة من أجل أن يرسل له المساعدات ، لكن دون جدوى . وقد تحرك امنحوتب الثالث في إحدى المرات ، وأرسل مجموعة من الجنود – بدلا من أن يأتي بجيش كامل تحت قيادته كما كان يفعل سلفه تحوتمس – وتمكن من أن يوقف انهيار نفوذه قليلا ، لكنه ما لبث أن تفاقم الوضع ضده أمام نجاح الحثيين الكنعانيين في التقدم معتمدين على نصرة الدولة السورية.

---

(1) S.H.mercer ، Tel-el amarna tablets ، toronto، No-60

(2) C.O .Londer (The Tel – El – Amaena) 2Ed،n d وبعضها محفوظ في لندن والأخرى في برلين

ثم إن مـــوت عبد عشرتا لم يغير من الأمر شيئا . فقد تابع ابنه أزيرو أعماله مســتخدما أساليبه نفسها . وقد شجعه وصول امنحوتب الرابع (أخناتون) إلى العرش في مصر ، و كان هـــذا منهمكا في حياته المثالية مع زوجته المحبة الجميلة " نفرتيتي" و في برنامجه الديني و الأخـــلاقي ، وفي نظم الأشعار . " وبينما كان أزيرو و أخوتـــه و حلفـــاؤه يســـتولون على المدن المختلفـــة كان رب عدي يبعث بتحارير الشكوى عمـــا كـــان يحدث إلى الملك و عماله . وقد كتب بالمسمارية على ألواح خزفية . ومما قاله في تلـــك التحارير :" إن ملوك كنعان عندما كانـــوا يرون مصريا كانوا يهربون مـــــن أمامـــه ، ولكن أبناء عبد عشرتا قد أخذوا بعض الناس و الضباط و أعطـــوهم لبلاد " ســوري " suri كرهينة ، وسقطت أولازا Ullaza و أرداتا Ardata و مدن أخرى على يد أزيرو بعد مدة وجيزة . واسترجعت حميرا و هدمت " لمنع وقوعـــها في أيدي الحثيين " كما ادعى أزيرو . وعندما طلب الملك إعادة بنائها و عد ازيرو بأن يفعل ذلك خـــلال سنة ، لأنه كان " جد منشغل في الدفاع عن مدن الملك ضد الحثيين ".و لهذا الســـبب نفسه ، كما ادعى في مناسبات أخرى ، لم يتمكن من الاستجابة لأمر الملك و الذهـــاب إلى البلاط المصري ليشاهد " وجه سيدي الجميل " ويعطي تقريـــرا عن أعماله . ومهما يكن فإن أزيرو " ذهب فيما بعد إلى مصر بعد أن انتزع من مندوب الملك إيمانـــا بأنـــه سوف لا يصاب بأذى ، ولكنه عاد و جدد ولاءه للغازي الحثي و اسمه شوبيلو ليومـــا . وفي هذه الأثناء نجد أن" رب عدي" الذي شعر بأنه أصبح " كعصفور في شبكة " أخـــذ يفقد أمله . وقد أرســـل أختـــه وأولادها ليلتجئوا إلى صور التي كان ملكها أبي ملكـــي غير منضم إلى جماعة الأمـــراء الناقمين ، بل كان يسترسل في توجيه تحارير الشكوى إلى مصر كما كان يفعل " رب عدي " . وأما " رب عدي " نفسه فقد هرب فيما بعد من جبيل* إلى بيروت** ولكن نساءه وأبناءه سلموا إلى "أزيرو ". وعندما أصبحت بيروت

• التي هي جزيرة العرب على النهر

•• هي في الأصل فيرين .

في خطر تابع هربه إلى صيدون **التي بخلاف منافستها صور (اسم أب لعشيرة من أبناء سعير الحوري) كانت قد تحالفت مع الأموريين . وهنا أدركه أخيرا " أزيرو" فوقع في قبضته . " وهكذا فقد اضطرت مصر للتخلي ليس عن شمالي سورية*** فحسب و إنما عن فينيقيا**** أيضا التي كانت مصدرا هاما لمواردها الخام " (1)

6 ــ في الوقت الذي كان فيه الأموريون يتغلغلون بين مدن و قرى غامد و زهران من الوسط و الغرب ، وكان الحثيون يوسعون دائرة نفوذهم في الوسط و الشمال و كانت جماعات آرامية بفئاتها الثلاث التي سبق أن تحدثنا عنها (العابرين ، و الخبيرو ، والأخلامو) تضغط من جهة الشرق على القرى و المدن الواقعة في سفوح الجرود (يردن) الشرقية ، وتتوغل إلى الداخل . وكانوا يتميزون بترعتهم إلى الانفصال و الاستقلال عن نفوذ أي من الدولتين السورية البابلية و المصرية في وادي النيل . ولهذا فقد أخذوا يؤسسون مراكز آرامية تنتشر على طول حوض الثرات ، وفي منطقة شرقي غامد و زهران ، معتمدين على انشغال الجيش السوري البابلي بحسم أمور الصراع على السلطة في بابل ، وعلى انشغال دوائر الحكم في مصر وادي النيل بتصفية تركة اخناتون الدينية و السياسية .

7 ــ في هذا الظرف بالذات طمع بعض شيوخ المديانيين (أبناء مدين بن إبراهيم من زوجته قطورا) المنتشرين شمال شرق زهران ، في المنطقة المحصورة بين وادي كارا وعردة وبلدة الصوت ، بأن يكون لهم حصة في تلك الأراضي الخصيبة في زهران وغامد ، والتي تطلق التوراة عليها اسم أرض كنعان " أرض اللبن و العسل" . فالمنطقة تكاد تكون نهبا بين القوى المحلية المتنافسة من جهة ، كما أن الدولتين الكبريين في سوريا ومصر وادي النيل منهمكتان في أمورهما الداخلية ، وليس ينقص أصحاب

** هي في الأصل "زيدن" وليست صيدا اللبنانية على المتوسط وربما المقصود صيدون بكر كنعان .

*** التعبير يأتني كتخمين من قبل كتبة التاريخ

**** هي تخمين آخر لا علاقة له بالنص الأصلي .

(1) فيليب حتي ،" تاريخ سوريا و من ضمنها لبنان و فلسطين " الجزء 1 ، ص 77– 79

المطامح الكبيرة غير جماعة من الناس تنضوي تحت قيادتهم ليغزوا بها جزءاً من تلك الأراضي " التي تفيض لبنا و عسلا " ، ويغنموها لأنفسهم و لأولادهم من بعدهم ، وبدأت تحاك خيوط العملية بين موسى الهارب من أرض المصريين في غرب زهران إلى بني قومه في مديان و بين حميه يثرون المدياني الذي تمكن – لا شك – من إقناعه بضرورة إخراج أبناء عشيرته الذين يعملون في :" أورا " (أفاريس) عند فرعون المصريين في جنوب و غرب زهران ، وقيادتهم من أجل غزو بعض أراضي الكنعانيين هناك .

8 ــ في حوالي عام 1290 ق.م خرج موسى بجماعته من أرض المصريين في جنوب زهران وسلك الطريق التي ذكرتها مدونات التوراة مفصلا إلى أرض كنعان . وبدأت الصدامات المعروفة بين جماعة موسى البدوية الغازية و سكان الأرض الزراعيين . وليس عسيرا علينا أن ندرك كيف أن الدولة السورية كانت تنظر إلى أي انتصار يمكن أن تحققه جماعة موسى إنما سيكون بمثابة تهديد لنفوذها في المنطقة و لأمن الشريان التجاري هناك . و يعتبر بعض المؤرخين والباحثين أن موسى لم يكن إلا من رجالات فرعون مصر ، تربى و نشأ في بيته ، ومنهم فرويد . ونحن نضيف انه كان في مصر زهران لدى فرعونها وتربى ، و ليس في قصر ملك مصر وادي النيل ، ويخطئ كل الذين حسبوا أنه وقومه كانوا في مصر وادي النيل . إن كل مدونات التوراة تؤكد هذه الحقيقة ، وقد أوردنا جزءاً غير يسير من هذه المدونات .علما أن فرعون مصريم (المصريين) في عسير كان وكيلاً لملك وادي النيل على الخط التجاري الدولي في المنطقة .

9 ــ في حمأة التزاحم و الاقتتال بين القوى المحلية من أجل السيطرة على تلك المنطقة في غياب فعل الدولتين الكبريين سوريا ووادي النيل في تلك الفترة من القرنين الثالث عشر و الثاني عشر قبل الميلاد ، نهض سكان " فلشة " و القرى التابعة لها في جنوب زهران ، وهم الذين دعوا ا فيما بعد بــ" الفلستيين " ثم بــ " الفلسطينين " ، و هم في الحقيقة الفلاشة ، وتصدوا لعصابات بني إسرائيل البدوية التي أخذت تعيث قتلا و سطوا ونهبا في قرى كنعان الداخلية ،تنهزم هنا ، لتسطو على قرية هناك : مما أحدث بلبلة في منطقة غامد و زهران ، صارت تهدد أمن التجارة و القوافل ، وبالتالي خزينة الدولة السورية .

و كان " فراعنة " مصر زهران يرقبون هذه التراعات في هيئة المتفرج متحينين الفرص ليبسطوا سيطرقم على المنطقة كلها .

لم تكن حملة رعمسيس الثاني (1301- 1234 ق.م) آخر ملوك السلالة التاسع عشرة إلى الساحل الشرقي للبحر الأحمر وصعوده إلى"بئيروت"على نهر الليث"(الكلب)* وتوغله شرقا في أرض زهران لتخدم في شئ أكثر من أنها شجعت موسى على الخروج بجماعته من مصر زهران الى ارض كنعان ، لعله ، تحت مظلة هذه الأحداث يتمكن من اغتصاب قسم من أراضي كنعان الخصبة بمعونة فراعنة المصريين في جنوب زهران . ولابد أن نوضح هنا أن الصراع في المنطقة لم يكن بين " الحثيين " في الأناضول وبين مصر وادي النيل من اجل السيطرة على سوريا و اقتسامها كما يزعم جميع المؤرخين اليوم .

إن هذه الصورة تتضح أكثر من خلال المعاهدة التي تم توقيعها بين فرعون مصر زهران وحتوسيل ملك الحثيين ، إذ تتكشف أمامنا ، من خلال بنود الاتفاق ومجمل الأسماء الواردة ، حقيقة هذه الأحداث التاريخية و مسرحها الجغرافي وفيما يلي نصها :

المعاهدة المصرية الحثية هي بين " مصرايم و بني حث في غامد وزهران"

مدخل :

العام 21، الشهر الأول من فصل الشتاء ، اليوم 21، في عهد جلالة ملك مصر العليا ، ومصر السفلى دوسر مات** سيت بن سري ابن رع ، رعمسيس ميري أمون ، المعطى

---

* يعتقد الدارسون ، بناء على الجغرافيا التوراتية ، أن رعمسيس الثاني قد يكون صاحب النقش غير المقروء على الصخور عند مصب نهر الكلب في لبنان .
والواقع أن رعمسيس و غيره من ملوك مصر وادي النيل لم يدخلوا مرة لبنان أو فلسطين في حروبهم ، ولم يذهبوا بجيوشهم إلى أبعد من السواحل الشرقية للبحر الأحمر الذي أطلق عليه في زمن رعمسيس الثاني الخليج العربي . وقصة النقش غير المقروء على صخرة عند نهر الكلب و نسبته إلى رعمسيس ليست إلا مجرد فرضية طائشة ما لبث واضعو الكتب ان رددوها كحقيقة (دون أي دليل) .

** يبدو واضحا أن المعاهدة وقعت في عهد فرعون مصر زهران (وكيسل رعمسيس في المنطقة) فهو الذي خاض الحرب ، وهو الذي وقع المعاهدة . كما أننا نتعرف على اسم هذا الفرعون الحقيقي (دوسر ما سيت بن سري) ، ولاجدال في أن الاسم بكامله عربي سوري يعود

حياة أبدية و إلى مدى الدهور ، حبيب أمون رع ، و حرختي و فتاح في جنوب سور ، وسيد عنخ تاو ، وموت سيدة عشرو ، وقانصوه نفر هو تيب ، المرتقي عرش حورس الحي ، كأبيه حرختي ، إلى الأبد و مدى الزمان.

هذا اليوم الذي كان فيه جلالته في مدينة بي رعمسيس ميري أمون من رعمسيس ميري أمون ، بتاح من رعمسيس ميري أمون ، وسيتاخ الشجاع ابن موت " .

و يمعن واضعو هذا المدخل في التبجيل و التعظيم حتى التأليه ، فإذا بالأعياد تتوالى من الشمال إلى الجنوب ابتهاجا بانتصار فرعون ، و إذا بالآلهة تضمن للشعب ألوف الأعوام من السلام و الازدهار و السعادة و المناطق الجبلية تسجد على قدمي الملك العظيم ، وتلثم نعليه .. بعد هذا كله نعلم أن مندوب فرعون ، ومندوب الملك الحثي قد التقيا .. وأن الحثي حمل من سيده لوحة فضية إلى فرعون ، يطلب فيها السلام ، ثم نعلم ، في ختام هذا التمهيد العجيب ، أن فرعون ، مع ألقابه الاثني عشر هو " ثور الملوك الذي يضع التخوم حيث يشاء ، في كل بلاد العالم " ، وفي هذا مرة أخرى ، تأكيد على أن المقصود هو فرعون مصر زهران و ليس مصر وادي النيل .

1 ـــ العنوان :

المعاهدة التي كتبها على لوحة من الفضة الملك الحثي حتوسيل القوي ، ابن مرسيل ، عظيم الحثيين القوي و ابن ابن سوبيلو ليوما عظيم الحثيين القوي ، وأرسلها إلى دوسر مري ست بن سري عظيم مصر القوي ابن معن مري ملك مصر العظيم القوي . وهذه معاهدة سلام و إخاء ، تمنح السلام والأخوة بيننا ، بين الحثيين و مصر إلى الأبد .

2 ـــ الوضع السابق :

في ما يخص بالزمان الغابر ، ومنذ الأزل كان الوضع بيد ملك مصر العظيم و الملك الحثي العظيم ، على أن الإله أزال كل خصومة بينهما ، بفضل معاهدة . ولكن في عهد موت ايلي ، ملك الحثيين ، أخي قاتل هذا رعمسيس ،ملك مصر العظيم . أما الآن ،

أصله إلى غرب شبه جزيرة العرب . ولم يوقع المعاهدة رعمسيس بل أيرمت في عهده من قبل وكيله في زهران كما يؤكد النص و هو فرعون مصرايم . وصار من الثابت أن الملوك الوكلاء على المحطات كانوا ينتحلون اسم سادتهم من ملوك الدولة المركزية و يتصرفون بالنيابة عنهم.

وابتداء من هذا اليوم ، فها إن حتوسيل ، ملك الحثيين العظيم ، قد وضع معاهدة ليستمر ذلك الوضع الذي اقره " فري" و الذي أوجده سيتخ إله العاصفة من أجل مصر وعلاقاتها بالحثيين ، بحيث لا يتاح نشوب الخصومة بينهما منذ اليوم و إلى الأبد .

3 ــ معاهدة :

ها إن حتوسيل الملك الحثي العظيم قد وضع ، هو نفسه ، معاهدة مع سروي سيتي بن سري ملك مصر العظيم ابتداء من هذا اليوم ليقيم سلاما حسنا وأخوة جيدة بيننا إلى الأبد . فالملك المصري هو في حالة سلام معي ، وحالة أخوة معي ، و أنا في حالة أخوة معه ، وحالة سلام معه ، و إلى الأبد . ومنذ أن ذهب أخي موت إيلي ،الملك الحثي العظيم إلى قدره ، ومنذ أن حل حتوسيل محله رئيسا كبيرا على الحثيين و على عرش أبيه ، ها أني أصبحت مع رعمسيس ، ملك مصر العظيم ، في ظل سلامنا وأخوتنا، وهذا أفضل و كحالة السلام و الأخوة التي كانت تسود في بلادنا في ما مضى . وها أنا ،ملك الحثين الكبير ، مع رعمسيس ميري أمون الكير ، ملك مصر ، في حالة حسنة من السلام و الأخوة . و أبناء ابناء الملك الحثي سيكونون في سلام و أخوة مع أبناء أبناء رعمسيس ميري أمون ، ملك مصر العظيم ، ما دمنا في وضعنا الأخوي وحالة السلام التي تسودنا . وبلاد مصر و الحثين ، هي في سلام و أخوة مثلنا ، و إلى الأبد ، و لن تنشب خصومة بينهما إلى الأبد .

4 ــ شرط عدم الاعتداء :

إن رئيس البلاد الحثية الكبير لن يدخل أبدا في بلاد مصر لينهب منها شيئا . ودوسر ماري سيتي بن سري لن يدخل بلاد الحثيين لينهب منها شيئا .

5 ــ تحديد المعاهدات السابقة :

و بشأن المعاهدات القانونية التي كانت قائمة في عهد سوبيلوليوما ، الملك الحثي العظيم ، كما بشأن المعاهدة المعقودة في عهد موت إيلي ، الملك الحثي العظيم ، أخي ، فإني أحافظ عليهما . و ها أن رعمسيس ميري أمون يحافظ على السلام القائم بيننا منذ هذا اليوم ، و سنتصرف بحسب هذا الوضع القانوني.

6 ــ معاهدة دفاعية :

إذا جاء عدو إلى بلاد دوسر ماري سيتي بن سري ، ملك مصر العظيم و أرسل يقـول للملك الحثي العظيم " تعال معي، و ساعدني عليه " فإن الملك الحثي سيأتي مع فرعـون ويقتل عدو مصر ، وإذا لم يشأ الملك الحثي أن يأتي شخصيا فإنه يرسل جنوده و مركباته و يقتل عدو فرعون .

7 ــ عمل مشترك ضد العصاة :

إذا غضب رعمسيس ميري أمون على أبناء رعيته ، و إذا أسـاء إليه أحد منهم ، وسار لقمع المتمردين عليه ، فإن الملك الحثي يعمل معه ليقضي على كل من استحق غضـب فرعون .

8 ــ مقابل الدفاع المشترك :

إذا جاء عدو ما ليقاتل الملك الحثي ، وطلب مساعدة ملك مصر ، فإن فرعون يسـاعده على قتل العدو . وإذا لم يشأ رعمسيس أن يأتي شخصيا ، فإنه يرسل جنوده و مركباتـه للقضاء على عدو الحثيين .

(هنا شرط استدراكي يتيح لكل من الملكين خيارا آخـر ، إلا أنه غير واضح في النـص الأصلي ، و قراءته متعذرة كليا) .

9 ــ مقابل العمل المشترك ضد العصاة :

إذا أثار أحد من رعايا الملك الحثي فإن رعمسيس يرسل جنوده و مركباته للقضاء علـى العصاة .

10 ــ ضمانة الخلافة الملكية : (هذا النص غير واضح في نسـخة حتوسـيل و نسخة رعمسيس . ولكن هـذا البند العاشر يتعلق بوراثة العرش الحثي في حال تمرد الشـعب عليها و رفضه الاعتراف بشرعيتها) .

11 ــ إخراج اللاجئين :

إذا هرب أحد الكبار من بلاد مصر ، وجاء بلاد ملك الحثيين لاجئا ، وإذا لجأت مدينة،

أو تابعية ، أو منطقة مصرية إلى الحثيين ، فإن الملك الحثي يرفضها جميعا ، ويقودها إلى رعمسيس صاغرة .

12 ـــ إخراج المصريين اللاجئين:

إذا هرب رجل أو رجلان غير معروفين ، وجاءا البلاد الحثية ليخدما غير سيدهما ، فلا يجوز إبقاؤهما لاجئين ، بل يجب إعادتهما إلى سيدهما رعمسيس .

13 ـــ إخراج اللاجئين الحثيين :

إذا هرب كبير حثي و لجأ إلى فرعون ، و إذا انحازت إلى مصر مدينة ، أو تابعية ، أو منطقة حثية ، فإن رعمسيس يرفضها جميعا ، ويعيدها إلى ملك الحثيين.

14 ـــ إخراج اللاجئين من أبناء الرعية الحثية :

إذا هرب رجل أو رجلان غير معروفين ، وجاءا البلاد المصرية ، ليخدما غير سيدهما ، فلا يجوز إبقاؤهما لاجئين ، بل يجب إعادتهما إلى سيدهما ملك الحثيين.

15 ـــ الآلهة شهود المعاهدة :

يشهد على هذه المعاهدة المنقوشة على لوحة من الفضة الآلهة المصريون و الحثيون ، الذكور و الإناث ، ومنهم ألف إله ذكر و ألف أنثى : ربة الشمس ، شمس مدينة أرنيا ، وإله العاصفة ، سيد السماء ، و إله العاصفة الحثي في ذو بعل نعدا ، وبيت جاريك ، وهيساشابا ، وسريسا ، وحلبا ، ولحزينا ،والربة عشتار الحثية ، و ربة صور ، وربات الأرض .. والجبال ، والأنهار .. و أمون رع ، وفري ، و سيتاخ .. و آلهة البحار و الرياح و الغيوم .

16 ـــ شرط معاقبة من لا يحترم بنود المعاهدة :

هذه الكلمات المكتوبة على لوحة فضية في بلاد الحثيين و بلاد مصر ، من لا يحترمها و يطبقها يدمر بيته ألف إله حثي و ألف إله مصري ، ويدمرون بلاده ، ويقتلون خدمه ، وعلى نقيض ذلك ، فإن من يحترم هذه الكلمات و يطبقها ، أكان حثيا أم مصريا ، ومن لا يهملها ، ينل من الآلهة الحثيين و المصريين ، الصحة و الحياة ، وعمران البيوت و سلامة البلاد و الخدم .

17 ــ عقد من المصريين المبعدين عن البلاد الحثية :

إذا هرب أحدهم من مصر ، أو هرب اثنان أو ثلاثة ، و لجاؤا إلى الملك الحثي ، فإن هذا يعتقلهم ويعيدهم إلى رعمسيس ،

على أن يعفو فرعون عنهم ، ويبقي على بيوتهم و نسائهم و أبنائهم ، فلا يقتلـــهم و لا يجرحهم في العين ، أو الأذن أو الفم ، أو الساق ، و لا يوجه إليهم أقل اتهام .

18 ــ العفو عن الحثيين المبعدين عن مصر :

كذلك إذا هرب أحدهم من بلاد الحثيين أو هرب اثنان أو ثلاثة ، و لجأوا إلى فرعـون ، فإن هذا يعتقلهم و يعيدهم إلى الملك الحثي، على أن يعفى عنهم ويبقي على بيوتهـــم ، ونسائهم ، و أبنائهم ، فلا يقتلون ، ولا يجرحـــون في العـــين ، و الأذن ، و الفـــم ، والساق، و لا يوجه إليهم أقل اتهام .

وقد اكتشفت لوحات فخارية تحمل وصفا دقيقا للوحة المعاهدة الفضية ، يستفاد منه أن تلك اللوحة تحمل على أحد وجهيها صـــورة الاله المصري سيتخ ، يعانق الملك الحثـي ، وقد نقشت حولهما العبارة التالية : " ختم سيتخ ، رب السماء ، خاتم المعاهدة ، صنعـه حيوسيل ، الملك الحثي العظيم ، القوي ، لبن مرسيل ، الملك الحثي العظيم... " و علـى الوجه الآخر صورة ربة حثية تعانق ربة حثية أخرى ، وقد نقشت حولهما العبارة التالية: " خاتم شمس مدينة أ- رنيا ، سيدة البلاد ، ختم بودو هـــ - يابا ، سيدة البلاد الحثيـــة بنت كيسودونا ، كاهنة المدينة ،ملكة البلاد ، خادمة الربة .."

1 ــ أن نظرة سريعة على مضمون هذه المعاهدة يكشف لنا ما يلي :

إن جميع الأسماء سواء كانت للأرباب أم للملوك أم للمدن هي أسماء عربية سورية تخـص منطقة غامد و زهران تحديدا حيث رنية مدينة الشمس و إلياب(رب ــ يـــاب) مـــا تزالان حتى اليوم.

2 ــ إن شروط المعاهدة الخاصة باللاجئين و الهاربين توضح أن المتحاربين إنما همـــا في بقعتين من الأرض متجاورتين و متداخلتين ، كما هي الحال مع مصر زهـــران و أرض الحثيين الكنعانيين في غامد و زهران . و ليس معقولا أن يخطر في ذهن أحد المصريين من

وادي النيل أن يفر لاجئا إلى أرض " الحثيين " المفترضة في الأناضول ، والعكس أيضا صحيح .

3 ــ إن أسماء الآلهة الشهود تحدد المنطقة تماما : فالشمس ربة السماء شمس مدينة أرنيا (وهي –"رن" كما سبق و مرمعنا من ذي قبل) ، و إله العاصفة الحثي زو بعل الند (رب جبل النعد الذي هو شمال زهران)، و حلبا ، التي هي شرق بلاد غامد، والربة عشتار ، وربة صور (إذ من الواضح أنها صور (صر) في بلاد غامد الجبلية وليست صور الساحلية المتوسطية التي لا علاقة لها بأرباب الحثيين و لا بأرباب المصريين)، و أمون رع و سيتخ (الذي هو سيتع و يحمل اسمه الجبل عند حرة الدم شرقي البحر الأحمر).

4 ــ إن شروط التعاون ضد تمرد بعض الناس أو القرى أو المدن يوضح التصاق المملكتين و تجاورهما و سهولة التصرف ، بعكس الواقع الذي ينجم عن الفرضية التي درج عليها المؤرخون حتى اليوم باعتبار فرعون المصريين هو ملك مصر وادي النيل وملك الحثيين هو ملك القبائل الهندوأوروبية المزعومة في الأناضول . علماً أنه في جميع وثائق وادي النيل يوجد لقب " ملك" ولاذكر للقب "فرعون" .

5 ــ لم تتطرق المعاهدة إلى ذكر سوريا ، رغم كونها أعظم دولة في ذلك الزمن ، ومصير مدنها الشهيرة على طول الرقعة المترامية الممتدة من أعالي الفرات إلى شواطئ البحر الأحمر و جنوب سينا، مما يدحض الزعم القائل بأن المعاهدة إنما كانت بين حثيي الأناضول المزعومين " و مصر وادي النيل .

6 ــ لقد كتبت المعاهدة باللغة العربية بلهجتها السريانية الشرقية (التي هي لهجة جبال السراة في شبه جزيرة العرب أيضا) ، تشهد على ذلك صياغة نهايات الأسماء ، وبالخط المسماري ، و ليس بأية لغة أو كتابة أخرى .

وهكذا ، وفي فترة نهاية حكم السلالة التاسعة عشرة و بدء حكم السلالة العشرين من ملوك مصر وادي النيل كانت منطقة غامد و زهران موزعة بين تلك القوى على النحو التالي : كان الحثيون الكنعانيون قد وطدوا أقدامهم في زهران الشمالية و الوسطى ،

وكان الآراميون قد توغلوا إلى أرض كنعان و بدأوا ضغطهم عليها عبر الجرود (يردن) ، وكان الفلسطينيون قد وسعوا دائرة سيطرتهم على قرى و مدن المصريين جنوب زهـران و غامد ، وأخذ جماعة بني إسـرائيل البداة يجولون من مكان إلى آخر بين أولئك جميعاً حيث تسنح لهم فرصة السطو و النهب . وصارت الجزيـة التي كانت تفـرض علـى "ملوك " المدن المسيطرة على خطوط التجارة من قبل حكام سوريا أو مصر تذهب نهبـاً بين أيدي أولئك المتسلطين الصغار . وتشير رسائل تل العمارنة إلى أن الفلستيين كـانوا قد خرجوا عن طاعة فرعون مصر بصورة تامة قبل موت أخناتون .

إن انحطاط السيطرة المصرية خلال السلالة العشرين اسـتمر . ولدينا من نهايـة هـذه الفترة قصة حية تتخذ شكل تقرير سلمه إلى فرعون حوالي 1100 ق.م . موفـده "ون آمون " الذي أرسل إلى منطقة الجبال هناك لتأمين الأخشاب اللازمة لبناء زورق آمـون المقدس . وترينا المعاملة المزرية التي نالها على يد أمير جبلة "(جبيل) أن ممثل مصـر لم يعد بإمكانه فرض احترامه على حاكم محلي هناك ، علماً أن "جبيل " كانت أكثر المـدن ارتباطاً بمصر وادي النيل وولاءً لها، كونها تمثل المصدر الرئيسي لتجارة مصر مع المنطقة ، و المورد الرئيسي للأخشاب و غيرها من بضائع و منتوجات شبه الجزيرة العربية . يقـول " ون آمون " في معرض روايته لما حصل : " لقد صرفت تسعة عشر يوماً في مرفـأه ، وكان يرسل إليّ كل يوم و بـدون انقطاع من يقـول " اذهب من مرفأي " . وأصبح " ون آمون " عاجزاً أمام " زكر بعل " الحاكم المحلي على المدينة " وقد يئس من بعثتـه وصار يخاف على حياته . وكان يجلس هناك على السـاحل و يتحسر بسبب مصابـه . وكان معه ذهب و فضة ، ، ولكن أوراق الاعتماد اللازمـة لم تكن معه . وفي وقت ما أرسل له الأمير مغنية مصرية لتروح عنه . وأخيراً يرق قلب زكر بعل . وعند عودته مـن الطقوس الصباحية في الهيكل يمنح المندوب التعب القلق مقابلة و هو " جالس في غرفتـه العليا مسندا ظهره إلى نافذة " و يعلن الحاكم أثناء المقابلة " أما أنا فإنني لست بخـادمك ولا بخادم الذي أرسلك . وإذا ناديت جبال لبنان فإن السماوات تنفتح و تأتي الأخشاب

إلى هنا ".. وأخيرا يسمح زكر بعل بالتخلي عن الأخشاب بعد تسلم مبلغ أكبر من المال"[1] .

10 ــ في الفترة الممتدة ما بين 1100- 950 ق.م يستمر الفلسطيون (الفلسطينيون) في مطاردة عشائر بني إسرائيل البدوية السارحة عند جبال غامد و زهران . و " خرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب . ونزلوا عند حجر المعونة . وأما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق . واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل و اشتبكت الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين ، وضربوا من الصف في الحقل نحو أربعة آلاف رجل فجاء الشعب إلى المحلة. وقال شيوخ إسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين . لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا و يخلصنا من يد أعدائنا . فأرسل الشعب إلى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكروبيم و كان هناك أبناء عالي حفني و فينحاس مع تابوت عهد الله . وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافا عظيماً حتى ارتجت الأرض ، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف . فقالوا ما هو صوت هذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين . وعلموا أن تابوت عهد الرب جاء إلى المحلة . فقالوا : تشددوا و كونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم . فكونوا رجالاً و حاربوا . فحارب الفلسطينيون و انكسر إسرائيل و هربوا كل واحد إلى خيمته . وكانت الضربة عظيمة جدا .. فأخذ الفلسطينيون تابوت الله و أتوا به من حجر المعونة إلى أشدود "[2]. وكان بنو إسرائيل يلاحق بعضهم بعضا و يقتتلون من أجل فرض الهيمنة على الزعامة والاستئثار بأموال النهب و السلب . واستمرت هذه الحالة حتى عهد "الملك" سليمان . " فلما سمع شاول تبع داود إلى برية معون . فذهب شاول عن جانب الجبل من هنا وداود و رجاله عن جانب الجبل من هناك و كان داود يفر في الذهاب من أمام شاول . وكان شاول و رجاله يحاوطون داود و رجاله لكي يأخذوهم .. و لما رجع شاول من

(1) فيليب حتي ،" تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ، ص 145 .
(2) صموئيل الأول 4 : 12 ، 5 : 1 .

وراء الفلسطينيين أخبروه قائلين هو ذا داود في برية عين جدي . فأخذ شاول ثلاثة آلاف رجل منتخبين من جميع إسرائيل و ذهب بطلب داود و رجاله على صخور الوعول . و جاء إلى صير الغنم التي في الطريق . وكان هناك كهف فدخل شاول لكي يغطي رجليه و داود و رجاله في مغابن الكهف "[1]

وفي هذه المرحلة أيضا انقسم بنو إسرائيل على أنفسهم . داود في أورشليم شرقي غامد قرب طريق التجارة والقوافل . وابنه أبشالوم في حبرون (قرية أربع) ، ثم صار الانقسام يتبلور بين مجموعتي أورشليم وميولها إلى السوريين عموما ، وقرية السامرة التي ربما تكون اسما لجبل وأخذ الصراع بين المجموعتين يتفاقم ، وكل منهما تحاول أن تستأثر لنفسها بالعمالة في المنطقة سواء للدولة السورية أو المصرية في وادي النيل .

وقد ظلت سلطة كل من هذين المركزين أورشليم و السامرة لا تتعدى بعض المضارب الصغيرة ، كما أن السكان الكنعانيين في المنطقة لم يكونوا ليشعروا بوجود أي منهما لولا عمليات السطو و النهب التي تتم من فترة لأخرى ، كما هي العادة مع أية جماعة من البدو الرحل المتنقلين بين الجبال و الوديان ، والذين لا تربطهم أية رابطة بالأرض إلا ما قد توفره من غنائم ومراع و أسلاب دونما كدح .

وهكذا بقيت كل من الجماعتين تتسلل من واد إلى واد متوارية ، في أغلب الأحيان ، عن أنظار السكان الأصليين سكان السهول و الجبال و عن بعضها . و لولا مدونات التوراة التفصيلية التي اتخذت طابعا دينيا فيما بعد لما سمع بذكر تلك الجماعات أحد .

إن هذه المرحلة هي مرحلة القضاة و الملوك حتى سليمان . ففي عهد القضاة نزل بنو إسرائيل في تلك الأرض . وتنقلوا فيها ، يسطون مرة و يطاردهم السكان مرة أخرى . وحينما اقتسموا الرقعة الصغيرة الشرقية من بلاد غامد فيما بينهم و التي تضم مجموعة من المغاور والمضارب الصغيرة و المواضع مثل جبل دان وجازر و يلعام و دور و بيت شان و قطرون و غيرها ، فقد كانوا وسط السكان الأصليين الذين – على ما يبدو– لم يبالوا كثيرا بوجودهم فيما بينهم .

---

(1) صموئيل الأول 23: 25 ، 27 : 24، 1 – 3 .

" و لم يطرد منسي أهل بيت شان و قراها و لا أهل تعنك و قراهـــا و لا ســـكان دور وقراها ولا سكان يبلعام وقراها ولا سكان مجدو* و قراها . فعـــزم الكنعـــانيون علـــى السكن في تلك الأرض .. وأفرايم لم يطرد الكنعانيين الســـاكنين في جـــازر فســـكن الكنعانيون في وسطه في جازر و زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا ســـكان نهلـــول فسكن الكنعانيون في وسطه،و لم يطرد اشير سكان عكو و لا سكان صيدون واحلـــب واكزيب و حلبة وافيق و رحوب . فسكن الاشيريون في وســـط الكنعـــانيين ســـكان الأرض. ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس و بيت عناة و حصر الأموريون بـــني دان في الجبل لأنهم لم يدعوهم ينزلون إلى الوادي (القضاة 1: 27 ــ 34).

وفي عهد الملوك الأول شاول و داود و سليمان رأينا كيف يطارد بعضهم بعضا من جبل إلى جبل و من مغارة إلى أخرى . أما في عهد الملوك الثاني فإننا نجد أنه في عهد يـهو آش ملك أورشليم لم تتعد سلطته هذه المغارة الواقعة جنوبي معبر أريحا في جروف الجبال بين غامد و زهران ،قرب طريق القوافل الصاعدة إلى عشيرة إذ " أن المرتفعات لم تنتزع ، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون و يوقدون على المرتفعات " (الملوك الثـــاني 12 : 3) . وفي عهد امصيا بن يوآش بقي الملك في أروشليم " إلا أن المرتفعات لم تنتزع بل كـــان الشعب لا يزالون يذبحون و يوقدون على المرتفعات "(الملوك الثـــاني 14: 4) . وفي عهد الملك فتح بن رمليا ملك في إسرائيل على السامرة عشرين سنة " إلا أن المرتفعـات لم تنتزع بل كان الشعب لا يزالون يذبحون و يوقدون على المرتفعات" (الملوك الثـــاني 15 : 35) . و في عهد" الملك " آحاز بن يوثام " ملك" " يهوذا " (لم يعمل المستقيم في عيني الرب إلهه كداود أبيه . و ذبح و أوقد على المرتفعات و على التلال و تحـــت كل شجرة خضراء . حينئذ صعد رصين ملك آرام و فتح ابن رمليا - ملك إســـرائيل إلى أورشليم للمحاربة فحاصروا آحاز و لم يقدروا أن يغلبوه . في ذلك الوقت أرجع رصين

• هي "مر مجدو" نفسها ، أي مرتفع مجدو، أو جبل مجدو، وقد ورد اسمها في رسائل العمارنة " هار مجدو" (أي جبل مجدو) ، وقد ورد ذكرها أيضا عند الحديث عن غزوة تحوتمس الثـــالث للمنطقة والتحم بالقوات الثائرة عند "هار مجدو" .

ملك آرام إيلة* للآراميين وطرد اليهود من إيلة و جاء الآراميون إلى إيلة و أقاموا هنـــاك إلى هذا اليوم " الملوك الثاني 16: 2 – 6)

11 ــ بعد أن تمكن داود من أن يتغلب على ابنه ابشالوم ، ويقتل هذا على أيدي رجاله تصبح قرية السامرة و ما حولها تابعة لسيطرة داود في أورشليم ، ويصبح بالتـــالي ، داود زعيم عصابة لها سطوة محلية على الطريق التجاري ، ويمكن لإحدى الدولتين مصـــــر أو سوريا أن تجعل منه عميلا لها ، تعتمد عليه في جباية الأموال المترتبة على مرور القوافل ، كما تؤمن له في المقابل الحماية و الدعم . وحينما تسلم ابنه سليمان من بعـــــده تنبــه المصريون و السوريون معا إلى أنه صار في الإمكان التعامل مع هذه الجماعة التي يتزعمها سليمان و الاعتماد عليها مما أثار غضب " ملوك " الآراميين في المنطقة ، وقد كــــانوا يتطلعون إلى الاستقلال و بالسيطرة لهم دون سواهم . فرأى الكنعـــانيون أن يدعمـــوا سليمان في وجه الآراميين ، وقد وجدوا فيه ملامح كنعانية أكثر مما كان يحمل من بداوة بني إسرائيل . فأمه كنعانية حثية و أفكاره و معتقداته جميعا كانت تنزع إلى أخواله بـــني كنعان . وتزوج منهم نساء كثيرات ، " فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة ،وكانت له ســبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه . وكان في زمـــــن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى و لم يكن قلبه كاملا مع الـــرب إلهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتروت آلهة الصيدونيين وملكوم رجـــس العمونيين . وعمل سليمان الشر في عيني الرب و لم يتبع الرب تماما كداود أبيه . حينئــذ بنى ســـليمان مرتفعا لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم و لمولـــك رجس بني عمون . وهكـــذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن و يذبحــــــن لآلهتهن " (الملوك الأول 11 : 2 – 8). و وجدها حيرام " ملك" صور فرصة لتثبيـــت ولاء ســـليمان و جماعته ، ولاعتماده دريئة في وجه الآراميين . فقرر أن يثبت وحـــدة بني إسرائيل تحت حكم ســـليمان . وأشار عليه ببناء معبد في أورشليم مـــن أجـــل أن

• واضح هنا أن إيلة هي قرية في شرقي بلاد غامد و ليست " إيلات " على خليج العقبة التي دعاها الصهاينة حديثا بهذا الاسم و كانت تسمى من قبل "أم الرشراش "

يشـد إليه أنظار كل بني إسـرائيل ثم لا ينفصلون عنه في السـامرة و يقعون في ظـل " عمالة " أخرى لمصر . وأخذت القوافل تمر قرب أورشليم محملة ببضاعة أفريقيا و الهند وجنوب شـبه الجزيرة من فضة و ذهب ، وعاج ، و أبنوس ، و صندل ، و قـردة ، وطواويس ، و مر ، و لبان ، و عطور ، وتوابل ، وبهارات ، و غيرهـا . وصـارت أورشـليم (مغارة يبوس) ، التي هي في طريق القوافل تتحكم بكل ما يصل إلى بـلاد المصريين في غرب زهران ، وإلى جبلة على وادي الليث ، وبالتالي صار في إمكانهـا أن تفرض الضريبـة التي تريد على مرور تلك السـلع . وزوده الكنعـانيون بـالمراكب والمركبات لإيصال تلك الشحن من البضائع لقاء عمولات باهظة كانوا يتقاسمونها معـه في غياب نفوذ الدولتين الكبريين السورية و المصرية في وادي النيل .

" وكان وزن الذهب الذي أتى به سليمان في سنة واحدة ست مئة وستين وزنة ذهـب .. ما عدا الذي من عند التجار و تجارة التجار و جميع ملوك العـرب وولاة الأرض .. وجعل الملك الفضة في أورشليم مثل الحجارة و جعل الأرز مثل الجميز الذي في السـهل في الكثرة . وكان مـخرج الخيل التي لسليمان من مصر .. وكانت المركبـة تصعـد وتخرج من مصر بسـبب مئة شاقل من الفضة و الفرس بمئة و خمسين . وهكذا لجميـع ملوك الحثيين و ملوك أرام كانوا يخرجون عن يدهم " .

(الملوك الأول 14/10 ، 27- 29)

وحاول فرعون مصر زهران التقرب من سليمان بعدما لمسه من تعاظم نفوذه نتيجة لدعم الكنعانيين الذين اعتبروه " وكيلا" لهم و منهم، ولغياب التدخل المصري من غرب البحر الأحمر،فقرر أن يسترضيه و يستميله إلى ناحيته فزوجه بإحدى بناته ، وغزا بلدة جـازر الفلسطينية و قدمها "مهرا " لابنته زوجة سليمان* "وصاهر سليمان فرعون ملك مصر ،

• مثل هذا المهر لا يقدمه ملك مصر وادي النيل ، إن " ملك" قرية أو مدينة هو الذي يغزو قرية اخرى و يقدمها مهرا لابنته .

وأخــذ بنت فرعــون وأتى بها إلى مدينة داود* إلى أن أكمل بناء بيته و بيت الــرب " (الملوك الأول 3 : 1) . و في زمن قمة المجد ** الذي بلغته "مملكة داود " التي أورثــها لأبنه سليمان كان جميع بني إسرائيل ما يزالــون جماعات من البدو يسكنون الخيام كمـا استمروا على ذلك زمن ابنه رحبعام من بعده : " فلما رأى كل إسرائيل أن الملـــك لم يسمع لهم، رد الشعب جــوابا على الملك قائلين أي قسم لنا في داود ، و لا نصيب لنـا في ابن يسى . إلى خيامك يا إسرائيل . الآن انظر إلى بيتك يا داود . وذهب إسرائيل إلى خيامهم . وأما بنو إسرائيل الساكنون في مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام " (الملـــوك الأول 12: 16ـــ 18).

12 ـــ اغتنـــم ملوك المصريين في غرب زهران الشقاق الذي حدث بعد موت ســليمان بين ابنه رحبعام و عبده يربعام ، وناصروا العبد بعدما أغاثوه وآووه ضـــد رحبعــام ثم أعادوه ليملكوه على بني إسرائيل . وانضم إليه كل عشائر بني إسرائيل . ما عدا واحــدة بقيت إلى جانب رحبعام . وبرز نفوذ المصريين في المنطقة يتعاظم على الســـاحة مـــن جديد" ثم أرسل الملك رحبعام أدورام الذي على التسخير فرجمه جميع إسرائيل بالحجـارة فمات . فبادر الملك رحبعام و صعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم . فعصى إســـرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم . ولما سمع جميع إسرائيل بأن يربعام قد رجـــع أرســلوا فدعوه إلى الجماعة ملكوه على جميع إسرائيل . لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحــده " (الملوك الأول 12 18- 20) .

و حينما هـــرب رحبعام من قرية شكيم إلى أورشليم وجد في المعبد ، الذي بني في عهد أبيه ، وسيلة لتوحيد بني إسرائيل من حوله ، اغتنمها بسرعة واســـتعد لمحاربـــة بـــاقي الإسرائيليين الذين من حول يربعام . فخاف هذا من لقاء رحبعام ، واعتمد على"ســيده"

*** مدينة داود هي الكهوف الصخرية في صهيون و ليست اورشليم :" حينئذ جمع سليمان شيوخ إسرائيل و كل رؤوس الأسباط رؤساء الآباء من بني إسرائيل إلى الملك سليمان في أورشـــليم لاصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود هي صهيون " (الملوك الأول8: 1).**

**** لم يكن هذا المجد غير أكوام الذهب و الفضة ومجموعة كبيرة من النساء الجميــلات التـــي شغل الكنعانيون بها سليمان من أجل أن تستمر خطوط الذهب و الفضة و السلع الأخـــرى فـــي دفقها على أمراء كنعان دون سواهم .**

شيشنق ملك مصر في غرب زهران . الذي كان قد آواه بعدما هرب من وجه سيده الملك سليمان ، ولما مات سليمان أرسله ليملك على بني إسرائيل و يكون " عميلا " له لا للكنعانيين .

13 ـــ هنا بدأت المرحلة التالية ، فقد خرج شيشنق بجيشه إلى أورشليم " وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك. وأخذ كل شيء ، وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان " (الملوك الأول 14: 25، 26) .

و كان ذلك بداية لفترة جديدة من الصراعات و التحالفات المحلية التي سببت في النتيجة تهديدا للتجارة الدولية و لخطوطها الرئيسية في تلك المنطقة . لقد حاولت جماعة أورشليم خطب ود الأمراء الآراميين في صوبا و ذومسك عن طريق الهدايا و الأموال لإشراكهم معهم في القتال ضد جماعة السامرة .ولما لم يفض ذلك كله إلى نتيجة حاسمة ، أخذ رئيس جماعة أورشليم ("ملك أورشليم") يعرض "خدماته " على ملك آشور (عشيرة أشوريم) في جنوب شرق زهران . فلما رأى أحاز " ملك يهوذا " أن رصين ملك آرام ضرب اليهود في إيلة و أعطاها للآراميين ، و شعر أنه لم يعد قادرا على قتال " ملك السامرة " تراجع عن فكرة العمل مستقلا مع الكنعانيين المحليين ، وقرر أن يعرض " عمالته " على الآشوريين . " وأرسل أحاز رسلا إلى تغلث فلاسر ملك آشور قائلا :" أنا عبدك و ابنك . اصعد* و خلصني من يد ملك آرام و من يد ملك إسرائيل القائمين علي . فأخذ آحاز الفضة و الذهب الموجودة في بيت الرب و في خزائن بيت الملك و أرسلها إلى ملك آشور هدية . فسمع له ملك آشور و صعد ملك آشور إلى دمشق و أخذها و سباها إلى قير و قتل رصين " (الملوك الثاني 16: 7-10).

و" في السنة الثانية عشرة لآحاز ملك يهوذا هوشع بن إيلة في السامرة على إسرائيل تسع سنين .. وصعد عليه شلمنأسر ملك آشور فصار له هوشع عبدا و دفع له جزية . و وجد ملك آشور في هوشع خيانة لأنه أرسل رسلا إلى سوا ملك مصر و لم يؤد جزية

• لا يقال للآشوري القادم من وراء الجبال على نهر دجلة في الشمال عبارة " اصعد وخلصني" بل تقال لمن تحت سفوح الجرود (يردن) في المنطقة نفسها .

إلى ملك آشور حسب كل سنة فقبض على ملك آشور و أوثقه في السجن وصعد ملك آشور على كل الأرض و صعد إلى السامرة و حاصرها ثلاث سنين•. في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة و سبا إسرائيل إلى آشور و أسكنهم في حاح و خابور و نهر جوزان " (الملوك الثاني 17: 1-7) . ثم إن هؤلاء الآشوريين أتوا بجماعة من القرى المحيطة و التابعة لهم و أسكنوهم في السامرة بدلا من بني إسرائيل : " وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوث و عوا و حمتا و سفروايم و أسكنهم في مدن السامرة عوضا عن بني إسرائيل . فامتلكوا السامرة و سكنوا في مدنها " (الملوك الثاني 17: 24) . وواضح أن المقصود بـ " بابل " هي المحطة و ليست عاصمة الدولة .

14 ـ بعد أن تخلص " ملك يهوذا" من منافسة " ملك السامرة " بفضل الآشوريين ، أراد أن يحاول اللعب بين القوتين المحليتين اللتين برزتا على ساحة الصراع و المنافسة في تلك المنطقة : قوة المصريين في غرب و جنوب زهران و قوة الآشوريين في شرق زهران . ففي عهد " الملك " حزقيا بن آحاز ملك يهوذا ، عمل هذا على تكتيل بني إسرائيل من حوله ، وأعد العدة لأن يلعب لعبته و يخرج من تحت " العمالة " لصالح الآشوريين و تقديم الجزية و الأموال لهم ، فجهز لنفسه قوة و ضرب بها بعض قرى الفلسطينيين محاولا توسيع سطوته و هيبته ، ثم ما لبث أن أعلن العصيان على ملك آشور. " و كان الرب معه و حيثما كان يخرج كان ينجح و عصى على ملك آشور و لم يتعبد له .. و في السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا صعد سنحاريب ملك آشور إلى لخيش يقول قد أخطأت . ارجع عني و مهما جعلت علي حملته . فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة و ثلاثين وزنة من الذهب .. فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب و في خزائن بيت الملك . في ذلك الزمان قشر حزقيا الذهب عن أبواب الهيكل و الدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه إلى ملك آشور . وأرسل ملك آشور ترتان و ربساريس و ربشاقي من لخيش إلى

• إن هذا يؤكد أن المقصود ليس الدولة السورية التي عاصمتها آشور ، إذ أن قرية مثل السامرة تخاف أن تقابل عصابة من قرية أخرى (كما حدث مع يربعام أمام رحبعام) لا يمكن أن تصمد أمام أقوى جيش في ذلك الزمن ثلاث سنوات.

الملك حزقيا بجيش عظيم إلى أورشليم فصعدوا و أتوا إلى أورشليم . ولما صعدوا جاؤا وقفوا عند قناة البركة العليا التي في طريق حقل القصار . ودعوا الملك فخرج إليهم الياقيم بن حلقيا الذي على البيت و شبنة الكاتب و يواخ بن أساف المسجل ، فقال لهم ربشاقي : قولوا لحزقيا هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور ، ما الاتكال الذي اتكلت .. والآن على من اتكلت حتى عصيت علي . فالآن هو ذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة ، على مصر ، التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه و ثقبتها ، هكذا هو فرعون مصر ملك مصر لكل المتكلين عليه . والآن راهن سيدي ملك آشور فأعطيك ألفي فرس إن كنت تقدر أن تجعل عليها راكبين . فكيف ترد وجه وال واحد من عبيد سيدي الصغار و تتكل على مصر من أجل مركبات و فرسان .. فقال ألياقيم بن حلقيا و سبنة و يواخ لربشاقي كلم عبيدك بالآرامي لأننا نفهمه و لا تكلمنا باليهودي في مسامع الشعب الذي على السور . فقال لهم ربشاقي هل إلى سيدك و إليك أرسلني سيدي لكي أتكلم هذا الكلام ، أليس إلى الرجال الجالسين على السور ليأكلوا عذرهم و يشربوا بولهم معكم " (الملوك الثاني 18 : 13- 24 - 26- 28).

إن هذا النص يوضح كيف أن المتخاطبين ابنا اللهجتين المتجاورتين الآرامية في شرق غامد و زهران و خميس مشيط و الكنعانية التي تكلم بها (اليهود) في غرب الجرود (يردن) في قرى كنعان وأن الآشوريين هم في لخيش قرب آشور عند وادي غط (جت) شرق خميس مشيط التي اعتبرت إحدى مدن الفلسطينيين كما اعتبرت إحدى مدن الهكسوس من قبل . لقد قضى الآشوريون على محاولات بني إسرائيل في إقامة أي كيان لهم مستقل عن القوى المتنافسة في المنطقة ، وجعلوا منهم " عملاء " لهم في أورشليم يفرضون المبالغ على مرور الشحنات و البضائع و القوافل و يدفعونها سنويا لملك آشور .

15- في تلك الأثناء ، وبعد أن انتقلت الثروات كلها إلى يد الآشوريين المحليين في شرق زهران ، تملك الغضب فرعون مدينة نخو جنوب زهران فجرد جيشا من المقاتلين و صعد إلى أورشليم فأسر " ملكها " يهوأحاز في ربلة في أرض حي متي (التي دعيت حماة

خطأ) ، وأخـــذه معه لئلا يملك في أورشليم ، " وغـــرم الأرض بمئة وزنة من الفضـــة ووزنة من الذهب . وملك فرعون نخو ألياقيم بن يوشيا عوضا عن يوشيا أبيه ، وغـــير اسمه إلى يهوياقيم . وأخذ يهواحاز و جاء إلى مصر فمات هناك . ودفع يهوياقيم الفضـة والذهب لفرعون إلا أنه قوم الأرض لدفع الفضة بأمر فرعون . كل واحد حسب تقويمه فطالب شعب الأرض بالفضة و الذهب ليدفع لفرعون نخو " (الملوك الثـاني 29: 33-36) .

16 ــ كان ذلك في أواخر القرن السابع و بداية القرن السادس من قبل الميلاد ، وهـــو زمن قيام الدولـة البابلية الجديدة في سوريا ، فما أن توطدت أمور الدولة في العاصمـــة بابل ، حتى التفت نبوخذ نصر إلى إعادة توطيد سيطرة الدولة على المنطقـــة الغربية مـــن شبه الجزيرة العربية ، وليضمن الازدهار لخطوط التجارة الدولية .

" و ترددت يهـــوذا بعد ذلك بين ســـياسة الخضوع للدولة الجديدة ... وبين سياســـة التحالف مع مصر . واتبع يهوياقيم (608 – 597 ق.م) أو الياقيم بن يوشيا السياسـة الأخيرة . وكان بالأصل قد عين من قبل نخو فرعون مصر زهران وكيـــل مصـــر وادي النيل ، فتحدى نبوخذ نصر .. وكان نبوخذ نصر (وكيل الملك المركزي وقد تســـمى باسمه) ، وهو لا يزال قائدا في جيش أبيه ، قد أعطى برهانا على مقدرته الحربية بكســر نخو في كركميش عام 605 شر كسرة ، وانتزاع جميع الممتلكات الآسيوية التابعة لمصر . وكان ذلك الانتصار من الحوادث الحاسمة حيث انتهى به النزاع الطويل لأجل السيادة في غربي آسيا . واتضح أن بابل تحت حكم الكلدانيين أصبحت الدولة السائدة غير المنازعـة في شؤون تلك المنطقة " [1]

17 ــ و كما كان المصريون يلجأون إلى أسلوب تربية الأمراء و تنصيبهم " ملوكـــا" على المدن وكلاء أو عملاء لهم ، فقد كان للسوريين عملاؤهم أيضا ورجالهم في بـــني إســـرائيل . وأهم هؤلاء كان أرميا " النبي" الذي لقي كثيرا من ضروب الهوان من بـــني

---

(1) انظر فيليب حتي ،" تاريخ سوريا و من ضمنها لبنان و فلسطين " الجزء 1 ، ص 218 – 219 ، و الملوك الثاني 23: 24 ، أخبار الأيام الثاني 36: 4 وما يليه 24: 7.

عشيرته لقاء نضاله فيهم من أجل أن يتخلوا عن حياة المكر و الكذب و النفاق و العداء و السطو ، و يندمجوا مع أولئك السكان الحضاريين الزراعيين ، لأنه لن يعرفوا سلاما في الحياة إلا عن هذا الطريق .

"في ابتداء ملك يهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا صار هذا الكلام إلى أرميا من قبل الرب قائلا: هكذا قال الرب لي ...هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل . هكذا تقول لسادتكم: إني أنا صنعت الأرض والانسان والحيوان الذي على وجه الأرض بقوتي العظيمة وبذراعي الممدودة وأعطيتها لمن حسن في عيني والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدي وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليخدمه . فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه حتى يأتي وقت أرضه أيضا .. ويكون أن الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذ ناصر ملك بابل والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل أني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء يقول الرب حتى أفنيها بيده . فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميكم وعائفيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب (أرميا 27 : 1 ــ 11) ثم أرسل أرميا إلى شيوخ السبي في بابل (وهي بابل المحطة) رسالة جاء فيها : " هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل ، ابنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها . خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدون بنين وبنات وأكثروا هناك ولا تقلوا . اطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام ، لأنه هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل . لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم وعرافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلمونها لأنهم إنما يتنبأون لكم باسمي بالكذب أنا لم أرسلهم يقول الرب"(أرميا 28 : 4 ــ10)

وهكذا ، فقد حسمت تلك الصراعات الصغيرة والكبيرة في غرب شبه الجزيرة العربية لصالح الدولة السورية البابلية على يد الملك نبوخذ نصر ووكيله نبوخذ نصر الذي يأخذ اسمه ــ كعادة الوكلاء ، في تلك المنطقة ــ في بابل المحطة ، والذي أجرى عملية نقل في

السكان ، وأخرج أرميا من السجن ووطـــد أمن الناس جميعـــا والمصـــالح التجاريـــة والزراعية ، وأعاد هيمنة الدولة على تلك البقعـــة المفصليـــة من خط القوافل التجـــاري الدولي أهم شريان اقتصادي في ذلك الزمن .

الفصل الرابع عشر
العرب الفينيقيون

بعد أن أوضحنا في كل ما تقدم حقيقة وأسباب الاختلاطات الكثيرة التي حدثت في التسميات ، وكشفنا حدود الخطأ والصواب ـــ ما استطعنا إلى ذلك ـــ فيها ، صار واضحا الآن أن تعبير " أرض كنعان" ليس ـــ في حقيقته ـــ مرادفا لكلمة "سوريا " أو " فينيقيا " أو " بلاد الشام " أو " فلسطين " أو غير ذلك من التسميات الأخرى .

ونحن هنا لن نتحدث عن "الفينيقيين " بالطريقة التي اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عنها كـ"شعب" أو كـ"أمة" . إننا سوف نعرج على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط لا لنتعرف على تاريخ " الفينيقيين "، فهم لم يكونوا في يوم من الأيام إلا جزءا من الشعب العربي السوري الذي ملأ أرضه الممتدة من الخليج شرقا إلى المتوسط غربا بإنجازات حضارية واحدة ، بل لنتعرف فقط على حقيقة التسمية التي احتار في أمرها الباحثون ، حتى صارت تتراوح في فرضياتهم ما بين " الشعب السوري " كله ، و"أمة فينيقية " خاصة لا علاقة لها بالعرب أو بالساميين ، وبين تسمية أجنبية أطلقت عشوائيا على مجموعة من سكان الشواطئ .

لقد كنا بينا كيف أن من السمات المميزة لوجود العربي هو أنه يخلع اسمه على اسم المكان الذي يحل فيه وليس العكس بوجه عام ، ولو أن هذه القاعدة لا تخلو من حادثة شاذة هنا أو هناك . وإن ما يدعى بـ" الأساطير " القديمة حول الأرباب الأقدمين لم تكن إلا تسجيلا تعليميا خاصا هادفا لسيرة بعض الآباء المتميزين الذين تعظموا وتقدسوا ، فجرت عملية تخليدهم عن طريق إطلاق أسمائهم على أسماء الجبال والمناطق الأساسية في جغرافيا الوطن العربي . وأي فهم لتلك الأسماء يتجاوز هذا المدلول إلى غيره يكون إما ناقصا مقصرا ، أو شاطا مبتعدا عن الحقيقة . ولم تكن الدراسة التي قدمناها

عن جغرافيا الأسماء التي أوردها فيلون الجبيلي ، في بقايا ترجمته لتاريخ سانخونياتن ، إلا مثالا شاهدا على صحة ما نذهب إليه .

أصل التسمية :

1ـ رأينا في النبذ الباقية من تاريخ سانخونياتن إنه كان من بين الآباء الأوائل المتميزين اسم قناء Chna ، الذي كان أول من سمى نفسه بـ " الفينيقي "وهو أخو أوزيريس، أي إن زمنه وبالتالي زمن هذه التسمية يعود إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

2 ـ يقول بونفانت " : (Bonfante) لقد اشتق اسم فينيقي من اليونانية Phoinix أي أحمر ارجواني ، ليشير إلى صناعة الأرجوان التي اشتهر بها الفينيقيون وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم فإن كلمة فينيقي أصبحت حوالي 1200 ق.م مرادفة لكنعاني "[1]

3 ـ وقد اشتهرت سوريا بنشاطاتها التجارية التي كانت تمارسها بكفاءة منقطعة النظير مستفيدة من موقعها الجغرافي الفريد الذي يقع على الطرق الرئيسية التي يربط بلدان آسيا عبر الصحارى العربية ، مع بلدان أوروبا وشمال إفريقيا عبر البحر المتوسط ، في تنمية الحركات والعلاقات التجارية ، فاحتكر السوريون الطرق البحرية وأقاموا لهم مستعمرات تجارية في قبرص ، وصقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا ، ومالطا ، وفي شمال إفريقيا ، وفي أسبانيا وأنشأوا المستودعات والمصارف في مرسيليا ، وروما ، وكولونيا ، وبريطانيا ، ومصر ، وتدمر . وكانت قرطاجة الواقعة في جوار تونس الحالية أهم المراكز التجارية الفينيقية ، فقد اتسع نفوذها في البحر المتوسط حتى قيل " لا يقوى الرومان على غسل أيديهم بماء المتوسط إلا بإذن من قرطاجة"[2] . وقد اشتهرت صور بثرائها حتى قال المؤرخون إن الفضة كانت مكدسة في أسواقها مثل التراب ، والذهب كوحل الطرقات، وان بيوتها أعلى من بيوت روما على حد قول سترابو، وقد حافظت مع بسالة

---

(1) R.B . Smith, Carthage and the Carthaginians .

(2) العفيفي ، المستشرقون ، ج1 ،ص19 .

أهلها على استقلالها حتى قضى عليها الاسكندر الكبير"[1]

4 ــ " وقد سمى الاغريق تلك الفئة من السكان الذين كانوا يتعاملون معهم تجاريا بـ"فينيكس" أي الارجوانيين الحمر ، وذلك نسبة للون النسيج الذي كان الفينيقيون يبيعونه أو يقاضونهم عليه . ومعظم أولئك التجار كانوا من البلاد التي نسميها اليوم بالشاطئ اللبناني .. ولابد أن يكون أجداد الكنعانيين القدماء قد احتلوا المنطقة بأسرها منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد [2]

والحقيقة هي أن جميع أقوال المؤرخين حول تعريف الفينيقيين لا تتعدى مثل هذه التصورات : فهم الكنعانيون ، سكان سوريا الغربية ، أو جزء من الكنعانيين ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم الإغريق .

فما هو وجه الصحة أو عدمها في تلك الأقوال؟

1ــ إن تسمية سكان سوريا الغربية بـ "الكنعانيين" هي تسمية خاطئة قائمة في أساسها ، على تبديل الأسماء والمواقع في جغرافيا التوراة منذ أن ظهرت "السبعونية" باللغة اليونانية . وحينما ذكر المؤرخون الكلاسيكيون العرب أن بعض العرب العماليق قدموا إلى الشام ومنهم الجبابرة الذين صاروا يدعون بالكنعانيين " إنما لم يجانبوا الحقيقية في هذا القول ، فالأقوام الوافدة هم العرب العماليق ، لكن إلى "الشام" التي كان يقصد بها الشمال ، وشمال المركز تحديدا وليس إلى سوريا التي أخذت هذا الاسم فيما بعد . وحتى يومنا هذا لم يعثر على أي أثر أو مكتشف من شأنه أن يدل أو يقول ، أو يؤكد ، أو يشير ، إلى أن "الكنعانيين " كان اسم الشعب الذي سكن سوريا الغربية ، التي ندعوها أحيانا المتوسطية .. أما عملية الخلط في الأسماء ، بعد ظهور التزويرات في تفسير الجغرافيا التوراتية ، فقد طمست حقيقة تسمية السكان العرب السوريين ، وأخذت تستخدم عوضا عنهم تسميات توراتية عشائرية مصطنعة زورت الجغرافية ، وبدلت في مواقع الأسماء .

---

(1)V.A.Look,"Phoinicians "Enc .Br 1965.Vol 17 .P.P 763 –769 .

(2) فيليب حتي :"خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى" ص119 ــ120 .

2 ـ كنا قد تحدثنا عن العرب الأموريين الذين غطوا الساحة العربية السورية منذ أقدم العصور ، ولم يكن سكان سومر ، وبابل ، وماري ، وايبلا وأوغاريت ، وأريحا ، ودمشق، وغيرها منذ خمسة آلاف سنة على الأقل غير أولئك السكان العرب العموريين الذين صار المؤرخون يدعونهم بالكنعانيين استنادا إلى التفسير الخاطئ لجغرافيا التوراة .

يقول الدكتور مورتغات : " إننا نعلم من خلال الحفريات التي أجريت في جبيل في وسط ساحل بلاد الشام ، وبالاستناد إلى المراسلات الملكية في مدينة ماري ، ومن موجودات الطبقات السفلى في تل العطشانة (ألـخ) بالقرب من إنطاكية أن أناسا ساميين غربيين قد قطنوا بلاد الشام على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد . وإن هؤلاء كانوا على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة حمورابي . أما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على هؤلاء الساميين في بلاد الشام اسم الكنعانيين . ولغتهم يجب أن تكون نفس اللغة التي اقتبسها أولئك اليهود الذين نزحوا إلى الأرض المقدسة من السكان الأصليين قبلهم هناك أي من الكنعانيين وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل ، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر ، إلى هذه المجموعة السامية الغربية أيضا"[(1)]

إن هذا القول الذي يكاد يردده المؤرخون والباحثون جميعا يثبت أمرين :

أولهما ، أن سكان سوريا منذ خمسة آلاف عام كانت تجمعهم ثقافة ولغة وحضارة وأواصر قربى واحدة ومشتركة : وثانيهما ، ان تسميتهم بالكنعانيين هي من ابتداع المؤرخين أنفسهم ، وليس بناء على حقائق موضوعية ، أو مكتشفات آثارية ، وانما جريا خلف الأفكار التوراتية التي ظلت تهيمن على المؤرخين الذي أفرزتهم حقب الاستعمار زمنا طويلا . وإن على المؤرخين والدارسين العرب السوريين يقع العبء الأكبر اليوم في إرجاع الحقائق إلى مواضعها والأشياء إلى مسمياتها بعد أن أخذت المكتشفات الآثارية في القطر العربي السوري تقول كلمتها الفصل* .

---

(1) انطون مورتغات ، " تاريخ الشرق الأدنى القديم " ،ص 250 .

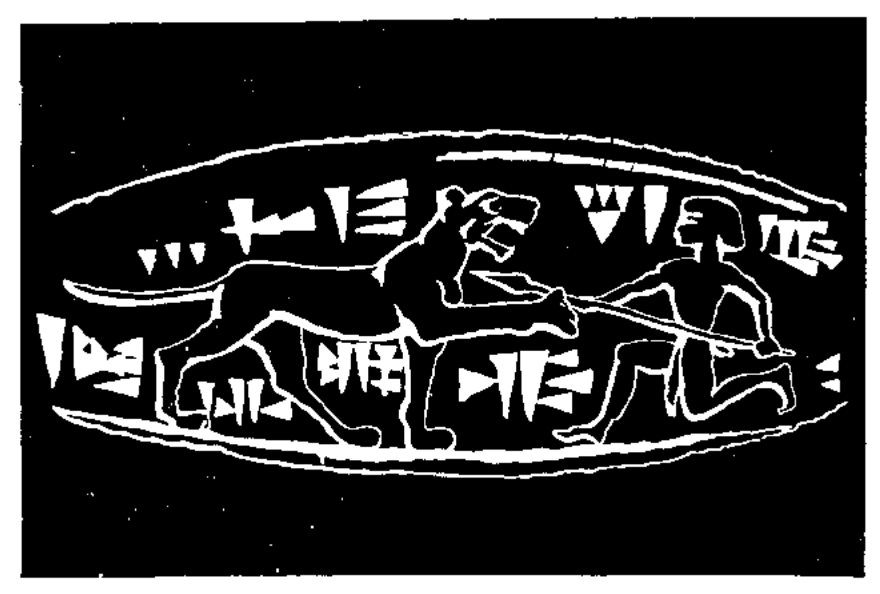
• يجدر التنبيه هنا إلى أنه ، نتيجة لتأكيد المكتشفات الآثارية في ماري وأوغاريت وايبلا على عدم وجود أي أثر للتسمية الكنعانية في تاريخ سوريا المتوسطية ، فقد أخذ ممثلو "الفكر

3 ــ أما تسمية "الفينيقيين" فلن نبحث عن مصدرها إلا في مدونات العرب الســوريين أنفسهم . والكلمة عربية قديمة حديثة وهي في القاموس السرياني أو الفينيقي من الفعــل "فنــق" ويعني ترفه ، تنعم ، ساد . وفي "محيط المحيط" نجد : فنق ، تنعم ، ترفه ، وعيش مفانق عيش راغد ، والجواري الفنق الناعمات . إن الشعب الذي علم العالم كله فـــن الملاحـــة البحريـــة ، وصناعة السفن والأبجديـــة ، والتعدين ، وخلط المعادن ، وابتكـر العجلة ، وأبدع في الزراعة وفن البستنة ، وتوصل إلى ديانــــة التوحيــد ، وأبـــدع في الصناعات اليدوية الدقيقة ، والزجاج ، وفي علم الحســـاب والنجــوم ، والأبــراج ، واكتشف كروية الأرض ، ودار حول إفريقيا ، واستخدم " النجم الفينيقـــي " (نجــم القطب) في الملاحـــة ، وفوق هذا كله " كانوا أول أمـــة في التاريخ تاجرت في الـــبر والبحر ..

ترتبط مـــوانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج (العربي) ، حيث كانت لهم مدن تحمل الأســـماء نفسها مثل أرواد وصور وصيدا "[1]... ان مثل هذا الشـــعب لم يكن نكرة عند الشعوب الأخرى المتخلفة بالنسبة إليه ، ولم يكن ينتظر ، بدون اســـم ، حتى "يتصدق " عليه الإغريق أو غيرهم بتسمية من عندهم ،في الوقت الذي ما تزال فيه شـــطآن المتوسط كلها تحتفظ بعدد كبير من الأسماء العربية التي منحها لها منـــذ آلاف السنين .

التوراتي " سواء عن قصد أو عن غير قصد ، يخلطون خلطة جديدة زاعمين أن العموريين هــم الكنعانيون والتسميتان مترادفتان في محاولة منهم يائسة وأخيرة للتستر على فضيحـــة كــذب المصطلحات التوراتية السائدة حتى اليوم .

(1) فيليب حتي : " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ،ص107 .



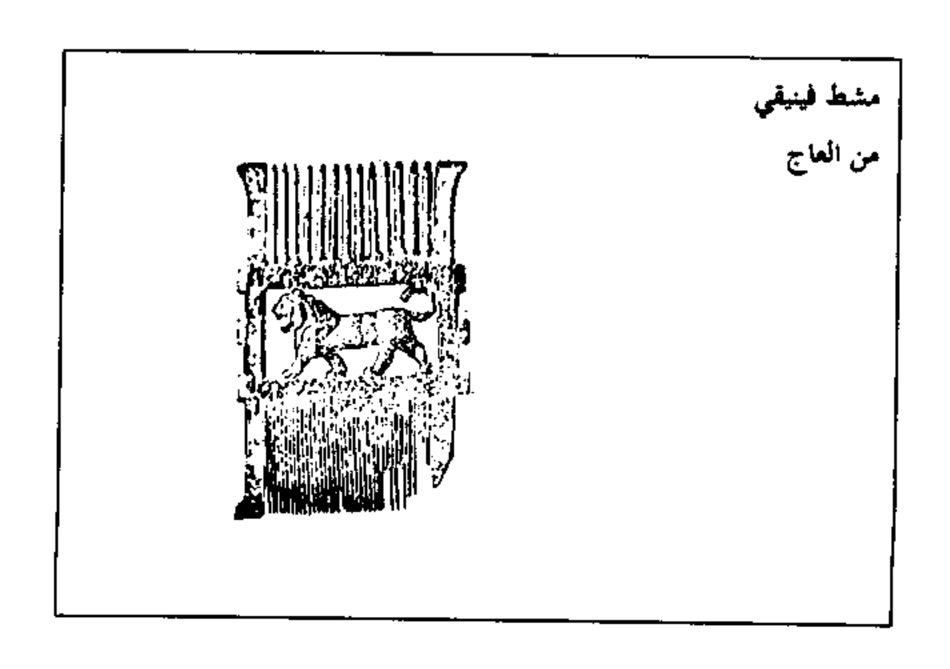
خاتم ملك أوجاريت



حلة فينيقية كان اسمها "كتون"
اتخذها اليونانيون لباسا لهم
وصار اسمها "ختون"

لقد ذكرنا آنفا كيف أن من طبع العربي أن يضفي أسماء آبائه المتميزين على المعالم البارزة في المكان . وكثيرا ما كان يحفـــظ هذه العملية في الذاكرة في هيئة قصة أو أســـطورة ، برع ، منذ الزمن الســـحيق ، في دمج الواقـــع فيها بعناصـــر الخيال والغرض التعليمـــي التربـــوي ، مما جعل " أساطيره" القديمة تتفوق من حيث قيمتها التاريخية والفكرية .

وإذا لم نكن الآن بصدد البحث في إنتاج هذا الشـــعب الأدبي والفني ، الذي ســـرق في معظمه ، واعتبر انتاجا إغريقيا ، فإننا نذكر بأن من بين ذلك الإنتـــاج الرائع الـــذي لم يقدر الباحثون الأوروبيون على أن يتخلصوا من عصبيتهم إزاءه فاعتـــبروه إغريقيـــا ، كانت أسطورة " أوروبا " . ونحن نجد أن لا مندوحة لنا من استعراض بعض مضمـــون هذه القصة ـــ الأســـطورة التي تلقي الضوء على مصدر تسمية بعض ســـكان ســـوريا المتوسطية ، فماذا تقول الأسطورة ؟


مشط فينيقي
من العاج

إسطورة أوروبا

تقول القصة ـ الأسطورة إنه في إحدى ليالي الربيع المقمرة ، والأرض موشاة بأجمل الزهور يفوح عبيرها في أجواء سوريا الساحرة ، كانت الأميرة السورية أوروبا بنت أجينور ملك صور ترقد في سريرها ، لكن كابوسا أزعجها وأقلق نومها ، إنها لم تحلم باله أحبها ، بل بامراتين (قارتين) تتنازعان ملكيتها . رأت القارتين في هيئة امرأتين : آسيا ، تقول "إني أملكها لأني أنا ولدتها " والأخرى تقول ـ ولانعرف اسمها ـ إنها ستملكها .لأن الرب زيوس سيهبها لها ، وقد وعدها بذلك .

أفاقت الصبية الأميرة باكرا مع الفجر ، وكثيرا ما حققت الآلهة أحلام الفجر . نادت صديقاتها ولداتها من الأميرات النبيلات ، وخرجت الصبايا في نزهة بين المروج ليس بعيدا عن شاطئ البحر ، وبقرب مصب أحد الأنهار كانت كل صبية منهن تحمل سلة لتجمع فيها الزهور . وكانت سلة " أوروبا " من قصب الذهب تزخرفها النقوش والصور مصورة لمشاهد من حياة الآلهة منها صورة الربة " ايو " وقد مسختها غيرة " هيرا " إلى بقرة . ويقترب منها زيوس ، ويمد يده المقدسة ليعيدها امرأة كأجمل ما تكون النساء . وكم كانت جميلة سلة أوروبا الذهبية . ولم يكن أجمل منها إلا تلك الأزهار التي ملأتها وفاح عبيرها : كان منها النرجس والخزامى والبنفسج وزهور البرية الحمراء . كانت الصبايا ينتقلن كالنحل من زهرة إلى زهرة يملأن السلال وكل واحدة منهن آية بين البنات ، لكن أجملن جميعا كانت أوروبا وكأنها عشتار في فتنتها .

في الأعالي كان زيوس يستلقي متكاسلا يرقب ما يجري على الأرض . وما أن رأى الصبايا على المرجة ، ولمح فتنة أوروبا ، حتى لعبت أفروديت وايروس لعبتهما ، وأطلقا سهما في قلب زيوس فألهباه بحب أوروبا ، وكأن هيرا كانت في غفلة عما يفعل زوجها . إنها الربة الزوجة الغيور التي كان من ضحاياها الكثيرات ممن أحبهن زيوس . بسرعة تقمص زيوس شكل ثور قبل أن يظهر نفسه لأوروبا . لقد كان الثور الإلهي أجمل من أي ثور ، كستنائي اللون ، تحيط بقرونه دوائر فضية كالهلال في مطلع الشهر كما بدا لطيفا وديعا ، فما تخشاه الصبايا ، بل تجمعن حوله يداعبنه ، ويتشممن

منه العطر السماوي الأزكى من عطر الزهور .
اقتربت منه أوروبا ، وما أن لمسته حتى أعطى خوارا موسيقيا أجمل من عزف قيثـــار ، وانحنى أمامها ، فاعتلت ظهره العريض . نادت رفيقاتها ، لكن الثور نهض فجأة ، وقفــز بها نحو البحــر ، ثم أخذ يركض فوق الماء والموج ينخفض أمامه .وكان البحر قد أصبح ســهلا ، وخرجت من الأعماق جماعــة من آلــهة البحر تركب الدلافين وتصــوت بالأبواق يقودهم بوزيدون نفسه وهو إله البحر وشقيق زيوس .
خافت أوروبا من المخلوقات البحرية العجيبة ، ومن عمق المياه تحتها فتشبثت بأحد قرنيه بيد ، وأمسكت رداءها باليد الأخرى ، وقد نفخته الريح كأنه الشراع . فكرت أوروبـا ما عساه يكون هذا الثور ، ورجته ألا يتركها تسقط في المياه . فهم زيوس أفكارهـــا ، وتكلم الثور وطمأنها قائلا : "إن فكرك صحيح ، فأنا زيوس أعظم الأرباب ، وقد دفعني حبي لأصنع ما ترين" .
لقد اختطفها وذهب بها إلى جزيرة كريت ، إنها جزيرته ، والأرض التي خبأته فيها أمــه عندما هربته من أبيه كرونوس (قرونو ، وهو "ايل" أبو الرب العربي الإله العربي العـــام نفسه ، وتقول القصة إن قرونو كان يقتل أبناءه وبحيلة ما أنقذ زيوس) .
وصلا إلى كريت ، وقفز الثور إلى اليابسة ، والتقى الحراس والأعيان في حفل الزفـاف ، لقد أنجبت من زيوس أولادا أشهرهم "مينوس"و"رادا منتوس" (يذكرنا هذان الاسمـــان بـــ "مينا " أول أمير في شبه جزيرة العرب عبر البحر الأحمر إلى مصر وادي النيل وصـار ملكا ثم تقدس وكان اسمه مينا أبيض ، أو صاحب قصر أبيض (نسبة إلى جبل أبيــض قرب أبو رواث) كما ما تزال قريــة مينا البيضا شــمال اللاذقية تحمل اسمه ، وبجبـال الأردن أو الجرود في منطقة زهران) .وقد اشتهر مينوس و رادامنتوس بالعدل فـــأوكل إليهما محاكمة الأموات ، لكن اسم أوروبا بقي أشهر الأسماء .
عندما اختطف الثور أوروبا جمع أجينور (أو " أشنار ") أولاده " فينيق ، وقدمـــوس ، وكيليك ، وجاليان ، وأمرهم بالبحث عنها في كل مكان ، وألا يعودوا من دونها . هام الأشقاء الأربعة على وجوههم يبحثون في كل مكان دون جدوى ، إلى أن أخذ اليـــأس

يدب في قلوبهم ، وانقطع لدى بعضهم أمل اللقاء ثانية بشقيقتهم أوروبا . فاستقر كيليكس في أرض هي أبعد إلى الشمال فعرفت باسم كيليكيا نسبة إليه ، واستقر فينيق في الشمال على الساحل فعرفت البلاد باسم فينيقيا نسبة إليه ، أما قدموس فلم ييأس ، بل فكر وذهب إلى معبد دلفي واستشار الرب أبولو* .

أجاب أبولو " لا تجهد نفسك بالبحث عنها والالتزام بأمر والدك بالبحث عنها وبألا تعود من دونها ، بل أسس لنفسك مدينة جديدة . عندما تخرج من هنا ستجد " عجلة " فتتبعها إلى حيث تتوقف العجلة لتستريح ، هناك تبني المدينة " هكذا أسس قدموس قلعة قدميا ومدينة ثيبا (طيبا) بمساعدة خمسة فصائل من عشيرة الأخيين الذين كانوا قد سبقوه إلى هناك من سوريا وسميت المنطقة المحيطة بها أرض بويوثيا أي أبناء العشيرة .

وهكذا ، وبعض استعراضنا لبعض أحداث القصة صار من الواضح أنه لا ينبغي البحث عن مصدر التسمية " فينيقيا " إلا بالطريقة التي ينبغي أن نبحث فيها عن تسمية كل من كيليكيا ، وأوروبا ، وقدموس، الأشقاء الثلاثة أبناء الملك الصوري أجينور** .

وبقدر ما تعكس هذه القصة ـــ الأسطورة من حقيقة الحلم الذي ظل يراود العرب السوريين على مدى التاريخ بجعل البحر المتوسط بحيرة عربية سورية . فالأسطورة في مرحلة من المراحل ، كانت تمثل أدب وفكر ومطامح وإعلام فئة ما ، أو طبقة ما في مجتمع أو جماعة ما . وهي إما أن تكون من إنتاج الفئات المتنورة الرائدة في المجتمع ، المعبرة عن طموحاته السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية ، وتعكس أحداثاً بطولية ملهمة للجماهير وإما هي من إنتاج أحد أفراد الكتلة الجماهيرية ، فتنتشر في روايات شفوية ، تفقد شيئا وتكتسب شيئا آخر في حركتها من إنسان إلى آخر ، ومن وسط إلى آخر ، لتخرج في النهاية قطعة اجتماعية فيها نكهة الواقع كله ، وطعم الحياة الاجتماعية التي تعيشها الجماهير الواسعة في فترة من فترات تطورها التاريخي ، وتظهر

---

* أبولو أصله سوري أيضا ويعني وجه الرب ، وهو الأخ التوأم لأرتميس .

** ومن أسماء هؤلاء الأشقاء كما أوردهم شوقي عبد الحكيم في كتابه "الفولكلور والأساطير العربية "ص52: قدموس، فينيق (أوفينيكس) كيليلو ، سور ، تاس، سيبول ، فيني ، دريال ، أوروبا .

آنذاك كإنتاج شعبي عام .

إن العرب السوريين الذين شغلوا الشاطئ الشرقي للمتوسط من خليج مرسين وايسوس شمالا إلى جنوب سيناء جنوبا ، كانوا يمثلون زخم ذلك التفوق الحضاري في الدولة العربية السورية ، واندفاعته صوب المجال الأرحب ، بجال البحر المتوسط . إن موقعهم في منتصف العالم القديم ، وعلى أهم الطرق التجارية الدولية في العالم كله ، جعلهم يتفوقون في مضمار التجارة والفهم الستراتيجي للمنطقة منذ أقدم العصور . إن هذا الاندفاع الحضاري عبر شطآن المتوسط غربا هو ما دعاه المؤرخون بـ " ظاهرة نداء المتوسط " لأولئك السوريين الذين كانوا أول من تنبه إليه ، ووعى أهميته ، وأعطاه بعده الستراتيجي ، فمهدوا بذلك لقيام ما دعي فيما بعد بـ" العالم العربي" .

إن الأسطورة في بنيتها الهيكلية هي عربية سورية يتجلى ذلك في أسماء أبطالها ، أولا ، وفي مضمونها ذي الصبغة الحضارية السورية التي يطمح أصحابها إلى نقلها إلى عالم المتوسط الغربي ثانيا . إن فينيق وكيليك سكنا الساحل السوري ، فسكن فينيق الأرض الممتدة من جنوب صور حتى شمال أوغاريت ، فسميت هذه المنطقة باسمه ، وسكن كيليك المنطقة التي تليها شمالا والتي دعيت كيليكيا ، أما قدموس فقد انطلق من الساحل السوري * إلى كريت ومالطا ، ثم إلى اليونان ، حيث أسس مدينة طيبا(ثيبا) وتل الأكروبول** فيها ، واسمه يعني بالسريانية والفينيقية : المقدام ، البطل ، وقد نقل الأبجدية معه إلى اليونان . أما أخته أوروبا فقد أطلق اسمها على البلدان الواقعة على الشواطئ الشمالية للمتوسط .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن والدة الملك أجينوز كانت تسمى " ليبيا " ، وقد خلع السوريون اسمها على الشمال الإفريقي كله .

إن من الخطأ الفادح أن ننظر اليوم إلى قصص الأقدمين وأساطيرهم على أنها خرافات ليس لها من الواقع شيء . لقد ثبت بما لا يقبل الشك أن أساطير الشعوب القديمة ،

---

* ما تزال تحمل اسمه بلدة "القدموس" في منطقة بانياس على الساحل السوري .

** هي في الأصل عكروبولي وتعني بالفينيقية حصن الأمراء ، نسل الأمراء .

وعلى الأخص الأساطير العربية ، كانت تدور في معظمها حول أبطال واقعيين من ملوك أو حكام أو أشخاص متميزين من جماهير الشعب ، تحاك حولهم هالات البطولة ، وتمزج أحيانا دماؤهم بدماء الأرباب (أي السادة وليس الآلهة) لتقريبهم من قلـــوب النـــاس ، ولتبرير خرقهم لما هو مألوف ليساعد في النتيجة ذلك كله في تقبل الأفكار المراد نشـــرها في أذهان العامة من الناس . وليس الفرق كبيرا ــ كما قد يتصور البعض ــ بيننا اليـــوم وبين أولئـــك الناس من هذه الزاوية . إن طريقة تفكير أولئك الناس حـــول الإنســـان والطبيعة والإله هي نفسها القاعدة التي بنت عليها جميع الأديان تصوراتها حول الإنســـان والطبيعة والكون والإلـــه . وإن تلك المعايير التي كانت تنتصب راسخة في قلـب وذهـــن ذلك الإنسان القديم إنما هي نفسها التي تبرز أمامنا عندما نفتح باب أي عـــالم روحـــي اليوم لأي شخص منا وجربنا أن ننظر بجرأة إلى ما في داخل نفوســـنا . إن شيئا مـــالا ينهض على فراغ . وإذا ما عزلنا علوم اليوم الملتصقة بـــ"جسد " الـــروح لن نلبث أن نعثر على صورة لتمثال من الفكر المثقب القديم يمتد عمره إلى زمن ميلاد أول إنســـــان على الأرض .

فكما وجد رجل اسمه نوح وعاش قصة الطوفان ، وكما كان ملك اسمه جلجـــامش في أوروك في زمن الملحمة ، فإن ملكا ســـوريا كان اسمه أجينور وكان لديـــه مـن الأولاد فينيق ، وكيليك ، وقدموس وأوروبا .وقد أكدت المكتشفات الأثرية واقعيـــة هـــؤلاء الأبطال .

" إن التنقيبات الآثاريـــة التي بدأت عام 1963 بينت أن المدينة "طيبا" قد دمرت فـــي أواخر القرن 13 ق.م كما ألقت ضوءا على القصة القائلة بأن قدموس قد أتى من سوريا إلى تلك المنطقة قبل الاسبارطيين بعدة أجيال . وقد وجـــدت في "طيبا " مجموعـــة مـن الأختام السورية (البابلية) في الطبقة المحروقة منذ أن هدمت المدينة تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ويرجح الباحثـــون أنها تعود لعائلة قدمـــوس الملكية . كما نســـب لقدموس أيضا إدخال عبادة "أثينا" إلى بلاد اليونان بعد أن أقام لها مذبحا في طيبـــا ، وأن الكاهن البيروتي "سانخونياتن " (كما ذكر فيلون الجبيلي) ذكر أن الربة أثينا هي ابنـــة

إيل (ومثل عناة البتول المحاربة كانت أثينا بتولا) ، وإن الميثولوجيا الإغريقية هي وحي فينيقي"[1]

وتؤكد جميع القصص الإغريقية أن مؤسس مدينة طيبا إنما هو قدموس الأمير السوري من صور ، ابن احينور(أشنار) وشقيق أوروبا ، وإن قلعتها القديمة سميت " قدميا Cadmia " نسبة إليه ، ثم خربت نحو عام 1230ق.م .

وحين وفاة المفكر والفيلسوف السوري "زينون" الصيداوي مؤسس المدرسة الرواقية في الفلسفة ، والتي اعتبرت أعظم ما أنتجه ذلك العصر على الصعيد الفكري ، واعتبرته أثينا " أنبل رجال عصره " اختتم المرسوم الذي رافق ما منحته إياه أثينا من التكريم بالكلمات التالية : "لقد جعل حياته نموذجا اتبعه الجميع لأنه كان يعمل بموجب تعاليمه " وكتب أحدهم عن زينون في شعر على قبره في أثينا ما يلي :

"وإذا كانت بلادك الأصلية هي فينيقيا

فهل يجب أن يضيرك شيء؟

ألم يأت قدموس من هناك

الذي أعطى لليونان كتبها وفن كتابتها؟"

البحر المتوسط والتوسع العربي السوري

كان الفينيقيون (السوريون العموريون أو الغربيون عموما) يبنون ويؤسسون أينما ذهبوا . لقد أدخلوا النشاط في عالم كان يبدو فيه الجمود ، ووسعوا آفاقه المعرفية والتطبيقية . لقد اشتهر عنهم بناء المحطات أو " العساقل " في رحلاتهم البحرية الطويلة على طول الشواطئ ، ثم تطورت تلك "العساقل " إلى مراكز تجارية يتبادلون فيها بضاعتهم بالذهب والفضة من السكان المحليين ، ثم تطورت تلك المراكز التجارية إلى مراكز سكنية تعج بالحياة ، ثم ما لبثت أن تطورت إلى مستعمرات .واتصلت هذه

---

(1) انظر يوسف الحوراني ، نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الأغريق ، والدكتور وديع بشور ،"الميولوجيا السورية"ص333.

المستعمرات بعضها ببعض وبالمدن الأصلية الأم بطرق الملاحة .وانتشرت من شمالي الدلتا المصرية إلى سواحل فينيقيا وكيليكيا واليونان والشمال الإفريقي . ثم إلى شواطئ المتوسط الشمالية وإلى جميع الجزر المنتشرة في حوضه ، فجعله أولئك العرب الأوائل بحرا عربيا سوريا بحق . ويمكن الاعتقاد بأن مستعمراتهم في شرقي البحر المتوسط ومنها قبرص أسست قبل مستعمرات صقلية وسردينيا في وسط البحر المتوسط ، وان هذه الأخيرة أسسها الفينيقيون قبل مستعمراتها في إفريقيا الشمالية الغربية وأسبانيا . ويرجع نزولهم في جزر أواسط البحر المتوسط إلى منتصف القرن الحادي عشر إن لم يكن قبل ذلك . وأسست قادش (اليوم Cadis) ، في أسبانيا ، وعاتكة Atica في المنطقة المسماة اليوم تونس حوالي عام 1000 ق.م وتعتبران من أقدم المؤسسات في تلك المناطق . ولم تكتشف حتى الآن كتابات فينيقية أثرية في سردينيا وقبرص أقدم من القرن التاسع قبل الميلاد . والكتابة المشهورة المكرسة لبعل لبنان والتي اكتشفت في قبرص وكانت سابقا تعتبر أقدم مثال للكتابة الفينيقية ترجع إلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد . أما قرطاجة (قرت حدثت = القرية أو المدينة الحديثة) سليلة صور وأعظم المدن الفينيقية في حوض المتوسط الآخر فإنها تعود إلى نحو 814 ق.م حسب تقدير المؤرخين وهي أحدث من زميلتها في الغرب "هيبو" التي كانت مقرا ملكيا ، وفيما بعد أصبحت أسقفية القديس اغسطين ، وتؤكد جميع الأساطير الأغريقية أن "ليبيا " نقلت بالأصل عن الفينيقيين ، وهي زوجة بوزيدون وأم أجينور .

" لقد بلغ هذا النشاط التأسيسي في غربي البحر المتوسط ذروته ، كما يبدو بين منتصف القرنين العاشر والثامن ويشير نجاحه العظيم إلى وجود طبقة أقدم من المستوطنين العرب السوريين في شمالي إفريقيا وربما في جنوبي شبه جزيرة ايبريا . " وقد تكون الهجرة التي حملت الساميين في الألف الرابع قبل الميلاد إلى مصر قد استمرت إلى أبعد من ذلك ، وهنالك ذكريات غامضة لمرويات تجعل الساميين القدماء موجودين في مناطق غربي البحر المتوسط واحتفظت بها الكتابات الكلاسيكية والعربية"[1]

(1) Phocopius of Casarea."History of The Wars " IV , ch .10.13-29 .

إن هذا القول ينسجم مع قواعد العلم والمنطق ، لأنه يدحض فكرة إمكان قيام شعب أو ظاهرة على فـــراغ . فلولا وجود الأساس العربي منذ أقدم الأزمنة في تلك الأصقـاع ـــ وهذا ما أكدته الكتابات العربية القديمة جميعا ـــ لما تمكن السوريون (الفينيقيون) مـــن أن يوطـــدوا أقدامهم ويرسخوا وجودهم فيها ، كما أنه كان من المستحيل أن تثبت عروبة تلك المنطقـــة إلا كما ثبتت "عروبة" أسبانيا إبان الدولة العربية الأموية ثم العباسية فيمـــا بعد .

لقد أدى تأسيس قادس وراء أعمدة هرقل* إلى دخـــول السوريين إلى المحيط الأطلسـي . وأســـفر عن اكتشاف الأوقيانوس بالنسبة للعالم القديم .ويعتبر هذا الاكتشاف من أعظم ما قدمتـــه الحضارة السورية للتقدم البشري . لقد عرف هوميروس وهيسيود عن وجود الأطلســـي لأول مرة من السوريين ومن الصعب معرفة مدى توغل السوريين في هــــذا الأوقيانـــوس الذي دعاه فيما بعد أحفادهم من العرب السوريين "بحر الظلمات" . وأمـــا وصولهم إلى كورنوال في انكلترا في بحثهم عن القصدير فقد أكده بعض الثقات .

ويؤكد ســـترابو الذي كتب عام 7ق.م بأن الكاستدريوس تحوي القصدير والرصاص ، وأن السكان يبادلونها بالخزف والملح والأواني النحاسية .

وكان الفينيقيون وحدهـــم في العصور الأولى يقومون بهذه التجارة من قادش ويكتمـــون الطريق عن الناس ويضيف سترابو بأن السفن الرومانية مرة تعقبت سفينة فينيقية لكـــي تجد هي أيضا تلك الاســـواق . ولكن قائد السفينة الفينيقية قذف بسفينته عمـــــدا إلى اليابسة وقبض من دولته ثمن المحمول الذي فقده . وهذا يشير إلى احتكار حقيقي لتجـــارة

---

* هو الاسم الآخر لـــ"ملكارت" ويعني ملك القرية . ويرينا هيرودوت أنه قام ببحث شخصي حول شخصية هرقل فتبين له أن في صور معبدا لهرقل ، عظيم القداسة ، وإن الكهنة قالوا أن المعبد قديم قدم مدينة صور التي كان قد مضى على تأسيسها 2300سنة قبل هيرودت ، لكنه اشار إلـــى وجود معبد آخر لهرقل التعزي ، وقد سافر إلى تعز (تازوس) ليجد معبدا لهرقل كـــان أسسه الفينيقيون في الجزيرة ، وكان هيرودت يعتقد ، أن عبادة هرقل دخلت إلى بلاد الاغريق بطريق هجرة مصرية (2 : 43) ، لكن انتشار معابد هرقل في المستعمرات الفينيقية في غربي المتوسط وفي مدينة قادش على الأطلسي مع تسمية مضيق المتوسط بـــ "أعمـــدة هرقـــل "، مـــن قبـــل الفينيقيين تثبت الأصل الفينيقي لهرقل ، ثم إن هوميروس في الالياذه يجعل هرقل ولد في مدينة طيبا الفينيقية(الالياذة 14: 231) ويعرفنا بملك ساربيا فيقول أنه حفيد هرقل ، وأنه زعيم قبيلـــة الهرقليين ، وأن بين أجداد هذه العائلة من يدعى "بعل" وهو اسم سوري (هيرودت1: 7)

القصدير وإلى نوع من الضمان من قبل الدولة[1] ولقد اكتشفت كتابة فينيقية في الجزر البريطانية[2] .

وفي اسبانيا كانت معظم المستعمرات الفينيقية تقع في ترشيش Tartessus ، وخاصة في المنطقة بين قرطجنة وقادس . وهذه الأسماء العربية القديمة للأماكن شائعة جدا ، نراها على نقود بقيت حتى اليوم . وكانت مدينة طرسوس في كيليكيا التي ولد فيها القديس بولس تحمل الاسم نفسه ، كما انها كانت مدينة سورية . وطقوس عبادة البعل فيها كانت هي الطقوس المتبعة في صور وقرطاجة . وسميت قرطاجنة باسم المدينة الأم قرطاجة في الشمال الافريقي . ومدينة "مالاجا" تعني الدكان أو المعمل الذي يباع ويعمل فيه السمك* وكانت قرطبة تحمل حروفا فينيقية استبدلت فيما بعد بالفينيقية القرطاجية وقد جمع منها هملقار برقة والد هانيبال (حنا بعل) ، كما جمع من سائر المدن الاسبانية ، جيوشا لأجل حملته ضد روما .

وفي اليونان فإن عاصمة جزيرة مينورقة الحالية هي"ماهون" وهي نفسها "ماجون" الاسم العربي القدم الذي مررنا به في تاريخ سانخونياتن مقترنا بالاسم الآخر "ميسور" الذي عمل معه في زراعة الأرض ، كما أن ماجون هو اسم لقائد قرطاجي شهير مع هانيبال . وكانت للفينيقيين مراكز في جزر الباليار ، وكانت لهم أيضا مراكز في كورسيكا وسردينيا ، ومدينة باليرمو** في صقلية مبنية على موقع فينيقي قدم وفي اليونان أيضا يشهد وجود العديد من أسماء للآلهة والمواقع على التأثير والوجود السوري القدم ، إلى جانب أصول الأساطير ، ومن المواقع اليونانية التي لها أسماء سورية قديمة أتيكا ، أثينا ، أولمب ، اسبارطة ، ساموس ، رودس ، ساموس (شمس) وكريت ، وكان لساموس

---

(1) فيليب حتي ،تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين " الجزء 1 ص112 .

(2) المصدر السابق .

* الحقيقة هنا فيليب حتي لايعدو كونه ناقلا . أما المعنى الحقيقي لكلمة "مالاجا" فهو معمل الاسمساك وهي من الفعل السرياني والفينيقي ــ ملج" أي نوع ، قطع الرأس ، من الفعل السرياني والفينيقي "ملج" أي نزع قطع الرأس ،قشر، بشر، سلخ، خرط. وقد اشتهرت مالاجا بصناعة السمك فعلا .

** وتعني بعل العلي المرتفع .

وكريت مركزان متميزان في ذلك الزمن . ولقد ثبت من الدراسات الأثرية التي أجريت في جزيرة ساردينيا بأن المستوطنات السورية في هذه الجزيرة كانت قد انتشرت في الركن الجنوبي منها وكانت أهم مدنها الفينيقية "نورا" التي بنيت على شبه جزيرة ، وتتمتع بأهم ميناء في الجزيرة على الاطلاق . وقد عثر المنقبون الاثريون في مدينة "نورا " على بقايا أثرية من بينها نصب تذكاري وجدت عليه كتابة فينيقية ثبت بعد فك رموز كتابتها بأنها تعود إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد ، وهي بذلك معاصرة لبناء مدينة قرطاجة[1].

ويرى بعض المؤرخين ان نزول الفينيقيين في جزيرة ساردينيا يعود إلى حوالي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ، ثم إن جميع البقايا الأثرية في القسم الغربي من جزيرة صقلية ذات طابع فينيقي ، لكنه أضحى من الثابت اليوم أن الوجود العربي السوري في الشمال الإفريقي يعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد .

وبعد هذا كله ألا يحق لنا أن نتساءل : كيف يقبل المؤرخون بإرجاع معظم التسميات في حوض البحر المتوسط إلى أصول عربية فينيقية ، ثم يغصون بالتسمية الأصل " فينيقيا " وحدها ، ويعيدونها إلى أصل أجنبي ، واغريقي تحديدا ؟

يقول موسكاتي مشيرا إلى هذه النقطة عينها :"يؤخذ على المؤرخين الاغريق والرومان عند تناولهم للتاريخ في غربي البحر المتوسط تحيزهم لشعوبهم ضد الوجود السامي في المنطقة ، وذلك نظرا للتنافس الاقتصادي والصراع السياسي الذي كانت تخوض غماره شعوبهم ضد سكان المغرب وهذا بدوره يجعلنا ندرك جيدا بأن كتابتهم لا تخلو من المبالغة ، وتحقير سكان المنطقة ثم وصفهم بالوحوش أحيانا ، وبالقراصنة أحرى[2] .

إن هؤلاء "القراصنة" هم الذين "اخترعوا السفينة" واهتدوا إلى صناعة الزجاج ، ووضعوا نظام الحساب وهم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط المسماري والهيروغليفي فلا غرو أن أصبحت كتابتهم أساسا لجميع خطوط العالم المتمدن في

---

(1) من أجل معلومات أكثر تفصيلا واتساعا انظر :محمد الصغير غانم ،" التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط ".

(2) Moscati , Histoire et Civilization des peoples Semitique Payot, Paris .

الشـــرق والغـــرب[1] وهم الذين نقلوا حتى على السفن حضارتهم الزراعية إلى الغـــرب فعلموه أرقى الزراعـــات وفنون الزراعة "وكان محمول سفنهم في العصر الهرميري يضـــم نباتات ومحاصيل مثل الورد ، والنخيل ، والتين ، والرمان ، والمر ، والخـــوخ ، واللـــوز ...نشروها في بلاد البحر المتوسط كلها[2]

إن الدولة العربية الســـورية التي كان يختفي اسمها تارة تحت مجموعة من الأسماء الشـظايا لتفتيت وحدتها والإســـاءة إلى دورها الرائد في الحضارة البشرية ، وخلف جملـــة مـــن الأسماء الغريبة والمبهمة من أجل طمس هويتها العربية تارة أخرى ، تعود اليوم ، حتى من خلال تلك الأسماء الشظايا التي تحاكي شظايا الماس في عراقتها ونقاوتها وصلابتها ، بكل الزهو لتعلن كلمتها من خلال بعث الحقائق . وبصرف النظر عما يستخدمه البعض مـــن أسماء مثل : شرقي المتوسط ، بابل ، آشور ، الساميون ، الشرق ، الشـــرق القـــديم ، الشرق الأدنى ...الخ فإن ما يهمنا هو وجه الحقيقة الذي ينبثق رغم كل شـــيء ، مـــن خلف هذه الأسماء ـــ السدود الاصطناعية .

"ماذا فعل الشرق للجنس البشري في هذه الحقبة الطويلـــة ؟ لا مراء في أنه حبا العـــالم بالصناعات الأولى البالغة درجة عالية من الاتقان ، كالصناعات المعدنية ، والنســـيجية ، والزجاج ، والورق ، وغير ذلك من ضروب الصناعات وبناء أقـــدم السفن . وقد سبق " الشرق " أهل الأرض طـــرا في رفـــع الأثقال ، والإقـــدام على تشييد المباني الكبرى. " فالشرق القديم " قد نفح العالم باختراعات جمة مهمة لا يفوقهـــا إلا اختراعات هـــذا العصر . لقد أخـــذ الغرب عن الشرق القديم أقدم المباني الحجريـــة الفنيـــة ، والأروقـــة المعمدة ، والأبراج اللولبية الشكل ، وأقدم المنحوتات المكملـــة الصنعـــة من الصـــور والتماثيل الماثلة إلى الأختام النفيسة .. وأخذ عنه أيضا الكتابة وحروف الهجاء ، وأقـــدم الروايـــات المنثورة المعروفـــة ، والقصائد الشعريـــة ، والأسفار التاريخيـــة والمبـــاحث الاجتماعيـــة ، حتى الروايات الشعرية التمثيلية ، وتقويم السنين الذي لا يزال الغـــرب

---

(1) الدكتور ولنفسون "تاريخ اللغات السامية"ص52 .
(2) فيليب حتي ،" تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ،ص112 .

يستخدمه حتى اليوم ، ومبادئ الحساب ، والفلك ، والطب ، وقد نظم الشرق أول حكومة كبيرة من أمة واحدة عظيمة ...."[1]

يقول هولد نلسن أستاذ التاريخ سابقا في جامعة بيروت الأمريكية : "لا تزال دماء الذين دانوا لسلطات الفراعنة ، وملوك بابل ، وأباطرة آشور ، وبلاد الحثيين ، وأمراء الحكومات المدينية في فلسطين وسوريا ، تجري في عروق الشعوب الذين يقيمون في تلك البلدان التي كانت فيها كلمات أولئك الأقيال العظام شرائع تجب الطاعة لها . والأخلاق والعادات الراسخة فيهم والظاهرة في حياتهم وأفكارهم تمتد أصولها إلى أزمان مترامية في القدم . وقد عجزت العوادي الدينية والسياسية عن أن تجتث تلك الأصول . ونقول ، ولا نخشى الخطأ ، إنه لو أقام سكان بلاد الشرق الأدنى الآن في مدن آشور أو فينيقيا أو مصر التي قد مر على كيانها أربعة الآف سنة لشعروا بأنها وطنهم أكثر مما يشعر الجرماني أو الفرنسي أو الإنكليزي بأن المدينة التي يقيم فيها و لم يمر على وجودها أكثر من ألف سنة هي وطنه . ولنا في هذه الحقيقة الناصعة أقوى حجة على طلبة العلم الشرقيين لوجوب مسارعتهم إلى البحث والتنقيب عن تاريخ وطنهم ـــ الشرق القديم"[2] .

" فمن بابل لا من مصر جاء اليونان الجوالون إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة ، والفلك والنحو ،وفقه اللغة ، وعلم الآثار والتاريخ والفلسفة . ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى روما ومنها إلى الأوروبيين والأمريكيين . وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن ، والأبراج ، والموازين ، والمقاييس وللآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية ، بل إنها في بعض الأحيان لا تعدو أن تكون بديلا لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية"[3] .

وفي سوريا اخترع المحراث والدولاب ،وجرى تقسيم الزمن إلى سنة مؤلفة من اثنى عشر شهرا ، وإلى أسبوع مؤلف من سبعة أيام ، ونقلوا إلى اليونان مع تقسيم الزمن قضبان الظل والساعات الشمسية لقياس مرور الساعات ونظاما للتنبؤ عن الخسوف

---

(1) الدكتور جيمس هنري براستد، " العصور القديمة" المقدمة ص6

(2) ج . بريستد ،"العصور القديمة ، المقدمة ص6 .

(3) انظر: 185 ، Jastrow ، وديول ديورانت ، قصة الحضارة الجزء 2 ، ص 267 .

والكسوف ، وعلامات الأبراج الاثني عشر الموجودة لدينا الآن ، وكثيرا من أنظمة الموازين والمقاييس[1] ."وكان الصناع السوريون ينتجون أسلحة ثمينة مزخرفة ، وثيابا مزركشة ، وأواني أنيقة ، واثاثا ومركبات مرصعة بالذهب والفضة ، وهم الذين جعلوا من توت الفريز ، والكرسنة ، والسوسن ، والختمية ، نباتات زخرفية ، وهم الذين كانوا أيضا أول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في أوان معدنية ، واخترعوا الآلات الموسيقية المعروفة كالقيتار ، والعود ، ومنهم انتقل العود إلى مصر ، والأهداب الثقيلة التي عليه هي سورية في شكلها ، وتظهر القيثارة لأول مرة مع البدو الساميين في عهد السلالة المصرية الثانية عشرة ، وكانت سوريا مصدر الرصاص الذي أصبح شائعا في عهد السلالة الثامنة عشرة"[2] .

" وكان السوريون الفينيقيون ، على الغالب ، لا يبارون في صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والأخير (2100 ــ 1200ق.م) فقد كانوا يصنعون النحاس والبرونز بكثرة ، وقد أظهر التحليل الكيميائي لنصل فأس من أوائل القرن الرابع عشر اكتشف في رأس شمرا ليس معرفة إذابة الحديد فحسب ، وإنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيج الفولاذ ، وكان هذا الأمر مجهولا حتى ذلك الوقت .. وتشيد أشعار هوميروس بصناعة المعدن وبالفنون الفينيقية ، وقد ذكرت أن صحنا من الفضة عمله بدهاء الصيداويون المهرة في الصناعات اليدوية الدقيقة هو في جماله أحسن شيء من نوعه في العالم كله" .. وكانت صناعة الزجاج من الصناعات الأخرى التي تفوق فيها السوريون .. وكانت صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الاعتيادية لديهم .

وقد وجدت آثار مغازل من الحجر والعظم وأثقال من الحجر تستخدم لأجل الأنوال ، وترجع إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، وتذكر وثائق "نوزي" الصوف الفينيقي (القطن) .. وانفردوا بصناعة الصباغ الأرجواني ، واقترنت الثياب الأرجوانية بالحياة المرفهة وبالملوك ، وكانت كيلو باترا وهيلين طروادة مولعتين بها "[3]

---

(1) فيليب حتي "تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين" الجزء 1 ص 156 ــ 157 .
(2) المصدر السابق ، ص 147 ــ 148 .
(3) المصدر السابق ، ص 96 ، 99 ، 147 ، 148 .

وقد حقــق الفينيقيون الدوران حول افريقيا قبل البرتغاليين بأكثر من ألفــي ســنة "[1]
...ونقلوا حضارقم إلى جزر المتوسط ، وأطلقوا عليها أسماء عربية سورية ، وقد جعلــوا من كريت مركزا للحضارة قبل أن تكون هنالك حضارة في البر الأوروبي "[2] ."وقــد أكد ديودروس أن سكان مالطا ــ واسمها سامي بدون شك ــ كانوا فينيقيين ، وأنــه كان لهذه الجزيرة مرفأ من أحسن مرافئ البحر المتوسط ، ولا عجب إذا سميت "ملجأ" . وكان يوجــد في تراقيا مناجم للذهب ، " وتروي القصص أن أول من استثمرها هــو قدموس الصوري شقيق "أوروبا" الذي أرسله والده للبحث عن شقيقته . وقد اشـــتغل عمال المناجم الفينيقيون في هذه المنطقة بحثا عن الذهب حتى القرن السابع قبل الميــلاد . ومن الأمور التي تنسب إلى قدموس بناء مدينة "ثيبة" وتل الأكروبول فيها الــذي اسمــه "قدميا" وقد سمي بالنسبة إليه . كذلك فقد أنجب ولدا سماه " إيل إيروس " (إيل شــاء ، رغب) وتسمت باسمه الليريا (إيل إيريا) (وهي بلاد ألبانيا اليوم تقريبا) . والواقع هو أن المدن كانت من أصل سوري ، كما ان فن العمارة اليوناني القديم الذي منــه أتــت أشكال كلاسيكية مدين لسوريا باستخدام الأعمدة وتيجانها .

ولابد من الإشارة إلى تفوق أولئك الســوريين الفينيقيين في البر والبحر معا وليـــس في الملاحــة البحرية فقط كما يقول بعض الدارســين . لقد صار من المسلم به اليــوم أن السوريين كانوا أول من زرع الأرض ، وأقام المدن ، واستخدم المعدن ، وأوجد فـــن البستنة ، وأسس علم الزراعــة ، والفلك ، والجغرافيا والحساب ، والطب ، والنحت ، وغيره من العلوم والفنون الأخرى ، نشير هنا إلى نصوص تقارير رحلتي حنون وحملكان الفينيقيين من قرطاجة . وقد ترجم التقريران من الفينيقية إلى اليونانية ثم إلى لغات العــالم الأخرى ". وإلى " كتب الموســوعات الزراعية التي ألفها القائد ماغون ، والـــتي أمــر مجلس الشيوخ الروماني بترجمتها للاستفادة منها في ميدان الزراعة ". وقد تأثر بها كل من كاتون Caton وفرجيل Virgil وغيرها .

(1) المصدر السابق ، ص108 .
(2) المصدر السابق ، ص114 .

" وقد بلغ الأسطول الفينيقي التجاري أقصى ازدهار في شرقي البحر المتوسط منذ القرن الحادي عشر ق.م في عهد صيدا وصور .. وبالرغم م أن الفينيقيين كانوا لا يعرفون البوصلة فإنهم كانوا يعتمدون في أسفارهم على النجم القطبي الذي سماه اليونان نجم "الفينيق"[1] .

"وكانت بعل وعناة _عشتار تمثل كمسرحية على الساحل السوري قبل أن يفكر اليونان بالمسرحية بعدة قرون "[2] .

وهكذا فإن الفينيقيين ليسوا إلا جزءا من العرب السوريين الذين سكنوا قطعة من الساحل السوري بين ظهراني السوريين تمتد من جنوب صور إلى غرب أنطاكية . وقد سموا بهذا الاسم نسبة إلى أحد آبائهم فينيق أخي أوزيريس ثم إلى شقيق أوروبا ، وإن الوجود العربي السوري في حوض المتوسط ، وفي الشمال الافريقي تحديدا ، يعود إلى زمن موغل في القدم ، منذ حوالي الألف الخامس قبل الميلاد ، ويلي مباشرة الوجود العربي في حوض النيل أو تزامن معه كما دلت كل المكتشفات الآثارية .

ولولا حرص مدوني التوراة ، الذين لم يكونوا قد تجاوزوا في التطور مرحلة شكل العشيرة ، على التفصيل في التسميات العشائريسة في منطقة واحدة من الأرض العربية هي منطقة غامد وزهران في غرب شبه جزيرة العرب ، ثم سحبها على المنطقة كلها في عملية تزوير كبرى ، لما التصقت بالذاكرة أي من تلك التسميات التفصيلية الصغيرة في وقت كان فيه الوجود العربي السوري قد حقق قفزة هائلة في تاريخ البشرية من شكل الدولة القومية الحضارية ، إلى نشر المبادئ والقيم والمفاهيم ذات الطابع العالمي بدءا من التوحيدية إلى نظم السلوك اليومي .

---

(1) The Cambridge Anliet History ,Volume 3,P7,138 .

(2) Johm . H . Pattoon , Canaanite Parallels in the bool of psalms راجع (Baltimore, 1944)" Cyrus H.Cordon,The loves and Wars of Baal Anat "(princeom,1943) .

لقـــد بقـــي ذلك التوهج الحضاري العربي السوري يطغى على ما حوله حتى في زمـــن الاحتلالات مما جعل الآخرين في موقع المتأثر لا المؤثر ، وشكل ذلك ، في حد ذاتـــه ، ظاهرة فريدة من نوعها في تاريخ الشعوب .

ولسنا نجد ، أخيرا ، من كلمات ننهي فيها بحثنا أكثر ملاءمة مما قاله كل من "فيلوديمي" و"ملاغر" الشاعرين العربيين السوريين :

"ولقد وقعت في حب "إنسان " من باخوس ـــ وليس في الأمر ما يدهش ، ثم أحببـــت "إنسانا " من ناكسوس ، و لم تعد القضية مجرد نكتة ، وفي المرة الرابعة أحببت "إنســـانا" من أرغوس ، ويبدو أن الأقدار ذاتها قد أسمتني "محب الناس" (فيلوديمي) لأنني أشعر دائما برغبة ملحة لشخص اسمه "الانسان" .

الشاعر السوري الملقب بـــ"فيلوديمي" من جدرة (أم قيس)

"صور كانت مربيتي ، وجـــدرة التي هي أتيكا ولكنها تقع في سوريا ولدتني ... فـــإذا كنت سوريا أين هي الغرابـــة ؟ أيها الغريب ، إننا نقطن بلدا واحدا هو العالم ، وشـــيء واحد أنبت كل البشر " .

الشاعر السوري "ملاغر"

نتائج

1ـ إن الحديث عن الأرض ، التي يشغلها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ، ليس حديثا عن منطقة أو رقعة أو عقار ، تنتقل ملكيتها من جماعة إلى أخرى ، ومن شاغل إلى آخر ، إنه الحديث عن الرحم والجنين ، بكل ما بينهما من وشائج الحياة : التنفس والغذاء ، الهواء والدم ، النمو والولادة ، المحبة والحنين ، إنه الحديث عن وعاء نشاط الشعب أو الأمة ، ومسرح حركتهما وحيويتهما في شتى مجالات العيش والنمو والتطور والعطاء .

ومن هنا لا يمكن الحديث عن الأرض في معزل عن الشعب ، كما لا يمكن الحديث عن الشعب (أو الأمة) في معزل عن الأرض لما لكل منهما من أثر بالغ في تحديد ملامح الآخر وسماته التاريخية المميزة . فكما أن الشعب يطبع الأرض بطابعه ، يغير شكل وجهها زراعيا ، وصناعيا ، وعمرانيا ، ويترك عليها بصمات ثقافته ، وفنه ، وفكره ، ومراحل تطوره ، ونهوضه وانحطاطه ، وأفراحه ، وأتراحه ، بحيث تصبح مرآة لشخصيته وجزءا منها ، فإن الأرض أيضا ، موقعا وتضاريس ، ومناخا ، وثروات ، ومياها ..تترك ، هي الأخرى ، آثارها واضحة في تقاسيم إنسانها وملامحه ، وتطلعاته ومزاجه ونشاطاته ، وتوجهاته ..

إن الأرض العربية هي البقعة التي شغلها الشعب العربي واستقر فيها منذ أقدم العصور وحتى اليوم .إنها الأرض التي كانت دون غيرها ، مسرحا لجولان القبائل العربية الرعوية بأمديتها البعيدة والقريبة ، الواسعة والضيقة ، فطبعها بطابعه وخلع عليها أسماءها ، وصار العربي يجد أينما حل ورحل فيها لغة محكية مشتركة . ثم لما أخذ التجمع شكل الشعب قفز الإحساس بالارتباط بهذه الأرض إلى مرتبة أعلى ، وصارت جزءا من أراضي الدولة المتوجب حمايتها والدفاع عنها ، قدر المستطاع ، وبقدر ما توفره وسائل ذلك الزمن ضمن المساحات المترامية . كان ذلك منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل ، أي

منذ الفترة التي دعاها بعض المؤرخين ، ومنهم صموئيل كريمر ، بـ " فترة الإمبراطورية العربية ـ الإيرانية الما قبل سومرية " .

2 ـ إن ما دعي بـ"الهجرات السامية" فكرة خاطئة منافية للعلم والمنطق من جهة ، وفيها إساءة بالغة لشعبنا العربي الحضاري ولمفهوم الأرض العربية من جهة أخرى . إن شكل الوجود العربي في الأرض العربية منذ أقدم الأزمنة كان الوجود الذي يملأ الأرض كلها بحركته الدائبة المستمرة التي أخذت شكل "جولان" لا شكل هجرة . وقد دلت المكتشفات الآثارية والدراسات العلمية الحديثة على أن الوجود العربي الحضاري في ما يدعى بمنطقة "سوريا الطبيعية" يعود إلى الألف العاشر قبل الميلاد في قاع الخليج العربي ، وإلى ما قبل الألف الثامن قبل الميلاد في سوريا الغربية (أريحا مثلا) . ولقد كان هذا الجولان ينطلق دائما وأبدا في كل الاتجاهات على امتداد رقعة ما دعي فيما بعد بالوطن العربي دون أن يتعداه إلى غيره ، فحدد جولان القبائل بذلك حدود الوطن العربي منذ آلاف السنين . ثم تأكدت وحدته على مر العصور ، دون أن تتمكن من أن تقف في طريق الجولان أو تحد منه كل الحدود المصطنعة التي كان ـ وما زال ـ يقيمها المحتلون والمستعمرون بين مختلف بقاعه وأقطاره . لقد شكلت هذه الحركة السكانية الداخلية دورة تغذية بشرية لكل أصقاع الوطن شبه خفية ، غير ظاهرة لأول وهلة . وإذا كانت الحكومات في البلدان العربية منذ فجر التاريخ وحتى اليوم ، هي التي تبرز على مسرح الأحداث التاريخية ، فإن ثمة عملية نسج خفية للناس والمجتمع تتم بصمت ودونما أية ضجة ، وبدأب متواصل تصعب ملاحظته ورصده إلا لمن يتتبع العملية قاصدا . وإن في إمكان أي منا أن يتخيل هذه الصورة ذاتها قبل ألف ، أو ألفين ، وثلاثة آلاف ، وخمسة آلاف عام . فإن قيام حكومة هنا في ماري ، أو في دمشق ، أو إيبلا ، أو هناك في بابل ، أو أكاد ، أو سومر ، لم يكن يعني مطلقا خلو بقية الأرض العربية التي كانت تعج بحركات تلك القبائل وجولانها ضمن إطار الوطن العربي الكبير الذي ما فتئت ترسمه في حركتها وجولانها ، وتحافظ عليه ، وترسخ فيه هويته العربية .

3 ـــ إن جميع ما وصلنا من تسميات لدول وممالك بأسماء القبائل وفروعها إنما يعـود في أصله إلى مدونات التوراة . وتلك بدورها لم تكن إلا انعكاسا للمستوى العشائري الذي لم يكن بنو اسرائيل قد تخطوه بعد .

وإن تسمية "السامية" في حد ذاتها إنما هي تسمية حديثة وضعها عالم اللاهوت النمساوي شلوترز Schloger في القرن الثامن عشر بعد جدل طويل حول أصول " اللغـات " في الشرق العربي عبر أعمال المبشرين والاستعماريين في المناطـق العربيـة . فقد وضـع " نظريته السامية "حول أصل " اللغات" (اللهجات العربية القديمـة) معتمـدا علـى مدونات التوراة نفسها التي اعتبر لغتها مقدسة نزولا عند رأي علماء التوراة . وهكـذا التقى علماء اللاهوت الاستعماريون التبشيريون مع علماء التوراة على رصيف واحـد : وهو طمس أي ذكر للغة العربية في الدراسات والمكتشفات ، واعتبر ما دعوه بـ" اللغـة العبرية " لغة مقدسة ، وأنها "أم" بعض اللغات الشرقية ، أي أنها أصل ما دعوه أيضا بـ " اللغات السامية " ! .

وهكذا فإن ما دعي بـ" اللغات السامية " تسـمية لا تمت إلى العلم بصلة ، إذ أن سام ليس إلا أحد الآباء العرب الذين أبرزتهم مدونات التوراة ، وليست لغة سام إلا لغة آبائه وأجداده . إنها اللغة العربية بلهجاتها الثلاث : السريانيـة الشرقية ، والعمورية الغربيـة ، والعرباء في وسـط شـبه جزيرة العرب . إن على جميع الباحثين والدارسين العـرب أن يسقطوا استخدام مصطلح " السامية " من جميع أبحاثهم ودراساتهم ، ويعودوا إلى تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية . فكما أن سام كان يتكلم لغة آبائه وأجداده ولم يبتدع لغـة لنفسه ، فإن أبناء سام ، الذين لم يكونوا غير أحد الفروع العربية السكانية التي لا حصـر لها في المنطقة ، لكن التوراة أبرزته بتسجيلها له ، كانوا دونما ريب يتكلمون لغة الآبـاء والأجداد أيضا .

إنه لمن المؤلم حقا أن ندرس تاريخنا وتاريخ اللغة العربية دون أن نقترب من تلك الجـذور الكنوز التي يدعونها اليوم في الخارج بـ"اللغات السامية "، ثم نتعرف عليها من خلالهم . إن أيا من شبابنا اليوم سوف يدهش ، لاشك ، حينما يتعرف على تلك " اللغات " عن

كتب ويكتشف أنها لغته العربية نفسها ، وأن الفرق بين أي منها وبين اللغة العربية اليوم ، رغم مرور آلاف السنين ، لا يكاد يتجاوز الفرق بين لهجتين لسكان منطقتين من مناطق بريطانيا اليوم . إنه سوف يدهش حينما ينظر في معجم* سرياني عربي ويفاجأ بأنه أمام لغة واحدة بفصحاها وعاميتها معا ، وأكثر من هذا ، إنه سوف يجد أن جميع كلماتنا العامية اليوم إنما هي كلمات عربية سريانية .

4 ــ إن الحضارة العربية السورية الما قبل سومرية لم تأت دفعة واحدة ، بل جاءت نتيجة لعملية طويلة استغرقت آلاف السنين من بدء الانسان العربي لحياة الاستقرار عند أحواض مياه الأنهار . وإن الوجود العربي هو الوجود الأصيل الوحيد الذي شغل الأرض العربية منذ الألف العاشر قبل الميلاد الذي بدأت تشهد به الآثار المكتشفة بدءا بضفاف الخليج العربي ومرورا بحوض الدجلة والفرات إلى سوريا الغربية . وإن الاكتشافات لم تجد أي ما من شأنه أن يدل على أي وجود غريب عن وحدة هذه المنطقة بشريا ولغويا وجغرافيا وحضاريا . وكلما عمد بعض الباحثين إلى تجزئة هذه

---

* إن كلمة "معجم" لم تعد صالحة للاستعمال وخاصة في مثل هذه المواضع ونقترح كلمة أخرى بديلة لها مثل : المقرن أو المقارن ، أو المفسر ، إذ إن كلمة المعجم تفيد إخراج المقابل العربي للكلمة العجمية . ولما كانت جميع اللهجات القديمة من سريانية وعمورية (وكنعانية أيضا) وغيرها هي لهجات أعجمية للغة واحدة هي العربية ... فإنه صار الواجب اليوم شرح ما كان يقصد بهذه الكلمة : أي أنه غير معرب . وبهذه المناسبة نود أن نلفت نظر القائمين على أمور تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات العربية إلى ما درجوا عليه في الأعراب من اعتبار جميع الأسماء العربية القديمة الأعجمية مثل : ماري ، آشور ، بابل ، عبلاء ، حلب ، دمشق ، نبوخذ نصر ،إبراهيم ، اسماعيل ، يوسف ، اسحق ، يعقوب ، سميرا موس ، مريم ... وغيرها كثير ، غير عربية لأنها جميعا ممنوعة من الصرف ، المانع من الصرف "العلمية والعجمة " ، إننا بهذا ــ ودون أن ندري ــ نلقن أطفالنا ما يريد الأعداء منا ، وهو أن كل ذلك التراث الحضاري الكبير إنما هو تراث أجنبي لا علاقة له بالعروبة . إن أطفالنا يتعلمون مثلا أن إبراهيم ممنوع من الصرف لأنه اسم علم وعجمي أي (أجنبي غير عربي) في الوقت الذي يحدثنا الرسول العربي محمد عن أبيه في النسب اسماعيل بن إبراهيم ، كما يحدثنا القرآن الكريم عن ملة "أبينا ابراهيم" ، وفي الوقت الذي يدرك الناس جميعا أن العرب العدنانيين هم أحفاد اسماعيل بن ابراهيم ! إنه لقد آن الآوان لأن نصحح هذا الخطأ " والمانع من الصرف العلمية والعجمة " ونستعيض عنها بعبارة " العلمية والعربية القديمة " وهذا هو الصحيح فعلا ، إذ أن النحو والصرف (اقتصر على العرباء أي الفصحى وتطور في عهد خلافة علي بن ابي طالب بعد ما بلغه مما صار يصيب اللغة العربية من اعوجاج في القول ، فوضع بعض أسس هذا النظام وقال لأبي الأسود الدؤلي " انح هذا النحو " وهكذا يتضح أن جميع الأسماء العربية القديمة لم تكن خاضعة لمثل هذا النظام الذي سمي "نحوا " .

المنطقة حضاريا وسكانيا ولغويا جاءت الاكتشافات لتدحض هذا السعي ولتؤكد وحدة المنطقة الحضارية ، مما جعل باحثا مثل موسكاتي يكتب أخيرا قائلا :" إن المناطق الثلاث ـــ الجزيرة العربية وسوريا ـــ ومن ضمنها فلسطين وما بين النهرين ـــ كلـــها تكـــون وحدة جغرافية متماســكة الأجزاء كانت في تلك الأزمان مســـرحا رئيســـيا للنشـــاط البشري ، وإن الأقوام الذين مثلوا هذه الأحداث المسرحية للدور المعد لهم بحكم طبيعـــة أحوالهم ، صهرتهم هذه الوحدة الجغرافية في مصير مشترك بحيث أن أية صدمة أو حركـة تصيب القطاع الواحد يمتد انعكاسها إلى الأقطار الأخرى .. وإن الأقوام الذين استوطنوا هذه الأصقاع هم وحدهم الذين رسموا شكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال بيئتـــهم الطبيعية " .

5 ـــ إن الحضارة لم تأت إلى المنطقة من الخارج ، بل العكس كان دائما هو الصحيـــح . وإن كل الغزوات التي نكبت بها المنطقة من الشمال والشرق إنما كانت غزوات همجيـــة تدميرية لا غزوات حضارية ، أما اليونان فقد ثبت أنهم نقلوا كل شيء من سوريا .

6 ـــ إن ظاهرة تمجيد الآباء المتميزين تقليد عربي قديم مازال مستمرا حتى اليوم وليســـت القباب والأضرحة والمقامات الكثيرة المنتشـــرة على كل المرتفعات في البلاد السورية إلا شاهدا على ذلك . إن على الباحثين أن يفهموا هذه الظاهـــرة كما هي بالضبط ليـــس أكثر . إن تعظيم الشعب للمتفوقين من أبنائه الذين قدموا له خدمات في ميادين مختلفة ، قد تكون إنجازات أفادت منها الإنسانية كلها ، كان لابد من أن يأخذ طابع التقديـس ، وبالتالي طابعا دينيا معينا ، لأن العامـــة يسهل عليها إجلال الأفراد بربطهم بقوى علوية خيرة معينة ، أكثر من فهم طبيعة الأعمال وحقل النشاط الذي تفوقوا فيه .

وإن ظاهـــرة اعتزاز العربي وتمسكه بالانتساب إلى مثل هؤلاء الآباء ، الذين اشتهر كثير منهم على نطاق البشرية كلها ، إنما هي جزء من شخصيته . هذا العربي الذي يقـــدس المناقب والمناقبية الرفيعة ، وليس فيها ما يمت إلى العنصرية أو العرقية بأية صلة . وإن أيـــة دراسة للإنســـان العربـــي من دون هذه الظاهرة تحدث خللا كبيرا في عملية فهمه على النطاقين الخلقـــي والاجتماعي معا ، إنها إحدى السمات التي تميز شخصيته عن غيره

وتسهم في إبرازها .

أما من ناحية مدى إمكانية اعتماد لوائح النسب كمصادر في كتابة التاريخ فإننا لسنا ممن يرى فيها شيئا ما ذا أهمية متميزة ، كما أننا لسنا من أنصار إهمالها ، إذ أن خريطة توزع تلك الأنساب ، مهما بدا فيها الكثير من الثغرات والنواقص ، تبقى ذات دلالة في خطوطها العامة على شكل توزع السكان واختلاف نشاطاتهم ، كما تخدم ، في كثير من الأحيان ، في حل ألغاز سكانية كثيرة ، وتشير ، دون ريب ، إلى الهوية العربية لأولئك الناس منذ الزمن الموغل في القدم . وجدير أن نؤكد أن وجود ظاهرة النسب في أية بقعة كانت في حد ذاتها دليلا للباحث على وجود سلالة عربية .

7 ــ إن السومريين عرب سوريون . وإن حضارتهم هي حضارة عربية خالصة ، وان القبائل التي كان يصر المؤرخون على تسميتها بـ"السومرية" لم تكن إلا قبائل همجية غازية ، تطرأ على المنطقة ثم تختفي دون أن تخلف وراءها أي أثر غير آثار الدمار ، وهي قد تعود في أصلها إلى أسلاف المغول ، و لم يعرف لها أصل أو موطن مؤكد حتى الآن .

8 ــ إن عيلام إقليم عربي سوري ، تدل على ذلك المكتشفات الآثارية منذ الألف الرابع قبل الميلاد . كما أن اللغة ، والديانة ، وأسماء المدن والآلهة وكل المظاهر الأخرى تنتمي إلى عائلة واحدة هي العروبة . وقد كانت عيلام دائما جزءا من الدولة العربية السورية المركزية منذ عهد سرجون في الألف الثالث قبل الميلاد ، وقد حافظت على هويتها العربية حتى اليوم (وهي اليوم إقليم عربستان) .

9 ــ إن ما دعي بـ" أرض كنعان " هي جنوب في بلاد غامد وزهران من شبه جزيرة العرب ، وليست في فلسطين أو أي مكان آخر من سوريا الغربية المتوسطية .و لم تكن فلسطين أو سيناء في يوم من الأيام إلا جزءا من الدولة العربية السورية ، و لم تسميا بهذين الاسمين إلا بعد بدء عملية التبديل في الأسماء والمواقع الجغرافية التي تبناها المحتلون وعملاؤهم في المنطقة من الكهنة والمؤرخين التوراتيين .

10 ــ إن كلمة "الفلسطينيين " ليست إلا تحويرا لكلمة " الفلستيين" الذين كانوا

يسمون " فلشتيم" باللهجة الكنعانية ، وهم سكان بلدة " فلشة " في جنوب زهـــران ، وهم أبناء مصرايم (المصريين) الذين يجاورونهم في المنطقة نفسها .

إنهم عرب حاميون كنعانيون مصريون ، وقد بقي هذا الاسم يطلق علـــى الفلشـــة في الحبشة ، وهم بقايا العرب الفلستيين الذين بعثرهم نبوخذ نصر مع المصريين (مصـــرايم) وبني اســـرائيل ، واستوطنوا بعض مناطق الحبشة منذ ذلك الزمن . أما سكان جنـــوب ســـوريا فهم عرب سوريون أموريون .

11 ـــ إن الحثيين هم بعض أبنـــاء العرب الكنعانيين في بـــلاد زهران . وإن من دعـــي بـــ"الحثيين" في شمال سوريا (في تركيا اليوم) إنما هو اختراع لا أساس له .

12 ـــ وإن الحوريين هم عرب كنعانيون وآموريون في شرق زهران .وإن مـــن أطلـــق عليهم خطأ اسم "الحوريين " أو "الميتانيين" في شمالي سوريا ليسوا إلا عملية تزوير أخرى نتيجة للتزوير في تفسير الأسماء والمواقع التوراتية .

13 ـــ ينبغي التمييز بين عشيرة الآشوريين (أشوريم) من أبناء ددان حفيد إبراهيم مـــن زوجتـــه قطورا وتوابعها في زهران وبين الدولة السورية التي صار مركزها مدينة آشـــور على نهر الدجلة .

14 ـــ إن ملـــوك مصر وادي النيل هم من العرب الذين قدموا من غرب شبه جزيـــرة العرب . وإن حضارة مصر لم تكن إلا استمرارا للحضارة العربية ككل في منطقة الهلال الخصيب وشـــبه الجزيـــرة . وإن العرب هم مؤسسو الدولة والعلوم والفنون والديانات والمدن وفن العمارة والنحت في مصر ، كما أن منهم جميع الحكام والملوك . وهذا مـــا يدحض قطعا كل الفرضيات التي دأب المؤرخون الذين أفـــرزهم عصر الاستعمار علـــى تربيتها في أذهان الأجيال حـــول الحضارة " الفرعونيـــة المتميزة "، والتي لا علاقة لهـــا بالعروبة ، وكأنما هبطت من السماء ، أو خرجت من جنوب القارة الافريقية ، وليس ثمة طريق آخر ، مثلها في ذلك مثل الحضارة السورية في سومر ، التي اقتطعوها من جســـدها العربي ، فلم يبق من حولها غير الأقوام البدائية المتخلفة الأخرى لتنتسب إليها . لقد بقـــي التفاعل الحضاري بين ســـكان وادي النيل الأصليين من العرب وبين أبناء عمومتهم مـــن

العرب السوريين (أبناء " سر ") المتفوقين حضاريا ، والذين ملأوا أرجاء سوريا الطبيعية بمظاهر الحضارة الأخاذة الرائدة ، وجعلوا منها مركز الحضارة العالمية ترسل إشعاعاتها عبر الحروف والكتابة والزراعة والصناعة والعمران والفنون إلى شتى أرجاء المعمورة ، بقي هذا التفاعل يتأرجح بين مد وجزر حتى استقر نهائيا في صورته المنسجمة الشاملة إبان عملية التحرير الكبرى التي قادها العرب المسلمون ، فتم تحرير كل أرجاء الوطن العربي وتوحيده .

15 ـ لقد حافظت سوريا على وحدتها طيلة فترة العهود القديمة .وإن ما دعي بالاحتلال الحثي ، والحوري (أو الميتاني) ، والمصري ، لم تكن إلا أخطاء تاريخية فادحة سقط بها كل من اعتمد التفسير المزور لجغرافيا الكهنة التوراتيين ، ثم لم يعد أحد يفكر بإعادة النظر مرة أخرى .

فإذا كان العرب موجودين في شتى أطراف الوطن العربي السوري من سومر وعيلام شرقا ، إلى ماري وأعالي الفرات شمالا ، إلى توتال (شاتال) ومرسين وصور وأريحا وعمريت وسوكاس وأوغاريت غربا منذ آلاف السنين ، تدل على ذلك آثارهم المكتشفة ذات الطابع الحضاري والسكاني والثقافي واللغوي الواحد ، كما تدل على ذلك أسماء مدنهم القديمة الأولى ، فقد كان من المؤكد أن القاعدة السكانية العامة في كل من هذه المناطق كانت تتمتع بمواصفات عامة مشتركة في انتمائها إلى أصل واحد ، ولغة واحدة ، وأنماط معيشية واحدة تتراوح بين البداوة العربية والمدينية العربية بكل تراث وتقاليد الأولى ، وإبداعات وتفوق الثانية .

فعلاوة على ما سبق أن بيناه من فداحة في الأخطاء المرتكبة بحق تاريخ سوريا والتي جعلت من سكان بعض القرى العربية في شبه جزيرة العرب ممالك كبيرة ، بل وإمبراطوريات أجنبية ، تتنضد بعضها فوق بعض في الزمان والمكان ، وتحتل جميعا سوريا في وقت واحد ، فإن ثمة دلائل منطقية أخرى كثيرة تؤكد بطلان مثل هذه المزاعم والتصورات . لإن اندفاع السوريين غربا عبر شطآن المتوسط وصولا إلى الجزر البريطانية في الأطلسي لكي يعودوا محملين بالقصدير والفضة والذهب والسلع الأخرى فتفيض بها

أسواقهم ، ما كان ليحدث لو أن بلادهم ومدنهم ومنازلهم خلف ظهورهم كانت محتلة من قبل الأجنبي . إنهم لو شعروا مرة واحدة بأن جهودهم سوف تذهب إلى خزائن الأعداء المحتلين للأرض والديار ، لما فكروا بالعودة بأكداس الذهب والفضة إلى أسواق مدنهم حتى صارت " كأكوام التراب" . وإن كل ما أوردته كتب التاريخ المتداولة من أقوال واهية متناقضة حول بقاء الأراضي السورية تحت الاحتلال الأجنبي قبل القرن الخامس قبل الميلاد لم يعثر له على دليل واحد حتى اليوم . ولقد بنيت هذه التصورات جميعا بكل تناقضاتها وإرباكاتها على أساس من تبديل الأسماء والمواقع في الترجمات التوراتية التي لم يعثر لها على أصل ، وإن ما أصاب المدن السورية من دمار كان بفعل الزلازل المتعاقبة في معظم الأحيان .

16 ــ إن الموقع الفريد لسوريا ، وطرقها التجارية الدولية ، وغنى وخصوبة أراضيها ، جعلت منها مركز جذب لكل الأقوام الهائمة ، ولكل القادة المغامرين الطامحين إلى الغزو والتوسع والسلب ، مما ألقى بدوره على كاهل العرب السوريين منذ أقدم الأزمنة مهمتين رئيسيتين : الإنجاز والإبداع الحضاري في إطار الدولة المركزية الواحدة ، التي يحيط بها البدائيون من الشمال والشرق ، وهذا بالتالي ألقى عليهم المهمة الثانية وهي جعلهم مصدا تاريخيا أمام كل غزوات الأقوام والشعوب التي لم تكن لتأتي إلا من الشمال والشرق والغرب لحماية بقية أجزاء الوطن العربي . إن هذا الدور هو نفسه الذي استمر فيما بعد إبان الغزو الأوروبي الاستعماري الذي دعي بالصليبي ، ثم إلى غزو المغول والتتار والأتراك ، والإنكليز والفرنسيين ، إلى الغزو الاستعماري الصهيوني الاستيطاني في عصرنا الراهن .

17 ــ إن الدولة العربية السورية كانت منذ نشأتها في الهلال الخصيب وشبه جزيرة العرب نواة الوطن العربي . وإن اندفاع السوريين عبر شطآن المتوسط منذ ما قبل فجر التاريخ هو الذي صنع ما عرف فيما بعد بـ" الوطن العربي" ثم عملوا على ترسيخه مرتين : مرة قبل المسيح ومرة أخرى زمن القائد العربي موسى بن نصير أيام حروب التحرير الكبرى زمن الدولة العربية الأموية .

18 ـــ إن ظاهرة ما دعي بـــ " العبرانية" هي كلمة حديثة ليست ظاهرة لشـــعب ، أو لغة ، أو فرع من السكان ، أو قبيلة ، أو أي شيء آخر من هذا القبيل . إنها تســمية لغوية حديثة لظاهرة اجتماعية ميكانيكيـــة قديمة ليس لها أي مضمون . إنها اشتقت مـــن " عبر " و" عابر " وكانت تطلق على كل من عبر الجرود أو المخاضات (يردن ، جـــرد ـــ ن) في جبال عسير والســـراة إلى أرض كنعان في بلاد غامد وزهران ، إنها تعبـــير محلي فيه وصف للقادم من جهـــة الشرق إلى تلك الأرض ، وقد أطلقت علـــى أحـــد الآراميين فصارت له اسما " عبرم " ـــ " أبرم " (قبل دخول الحروف الصوتية) .

أما "الخابيرو" فقد كانت تسمية ذات مضمون طبقي لفئة من الناس لا تملك غير عملـها الذي تؤجره من أجل الحصول على القوت .

ومن هؤلاء "الخابيرو" انبثق تنظيم " الأخلامو" ويعني " الرفاق أو الأصدقاء " ، الـــذي جاء تعبيرا عن درجة أرقى من الشـــعور بالظلم الاجتماعي والاقتصادي . فتحول هـــذا الشعور من اللاوعي إلى الوعي على هيئـــة تنظيم يمكن الحصول من خلاله على تـــأمين القوت اليومي عن طريق العنف .

19 ـــ إن الطريق التي سلكها إبراهيم الخليل في رحلته إلى أرض كنعان هي كما يلـــي : من أور الكلدان جنوب بابل ، إلى حـــاران على بعد حوالي خمسين كيلو مترا شـــرقي زهران ، إلى أرض الكنعانيين في الجزء الشـــرقي من زهـــران نفسها ، ومنها إلى بـــلاد المصريين (مصرايم) في غرب وجنوب زهران ، ثم إلى الموضع نفسه (قريـــة أربـــع أو حبرون) في القسم الشرقي من زهران .

20 ـــ أما خروج موسى بقومه إلى أرض كنعان فكان على النحو التالي : كان في البدء مقيما في عشـــيرة المصريين في جنـــوب غرب زهران ، إلى أن تـــورط في حادثة قتـــل المصري ، فهرب شرقا إلى مضارب المديانيين حول جبل حوريب ، تعني بالسريانية جبل العليق ، وبعد أن ظهر له " الرب " في وادي طوى الذي يرفد وادي كارا شمال شـــرق العقيق ، ويحتفظ باسمه حتى اليوم ، عاد إلى أرض المصريين ليخرج عشائر الاســـرائيليين عله يستولي بهم على بعض أجزاء أرض كنعان " التي تفيض لبنا وعسلا " وسلك بهـــم

الطريق التالي : لقد خرج بهم من أرض المصريين في غرب زهران ، ومروا ببحر سوف (هو نهر سوف ، والشعف حاليا) ، وداروا بأرض سكان فلشة هناك (وهم الفلشتيون الذين دعوا مؤخرا بالفلسطينيين) ، واتجهوا شمالا إلى جبل قاسي (الذي صار يسمى خطأ بالأقرع) ثم عادوا مع مجرى النهر إلى برية ثور (شور) وهي اليوم غرب الطريق الدولي جنوب بلدة الطاولة ، ومنها إلى برية سين جنوب وادي جت . ثم داروا بأرض أدوم (الذي هو عيسو أخو يعقوب) بعد أن صدهم ملك بلدة عراد الكنعاني ، وأوغلوا شرقا إلى أرض مدين (ابن ابراهيم من قطورا) إلى جبل حوريب (جبل العليق) عند وادي طوى . هناك استقبل موسى حموه مع زوجته وطفليه ، وأمضى وقتا طويلا . تلقى موسى هناك أمور الشريعة إلى جانب أمور تنظيمية وإدارية أخرى لقنه إياها حموه يثرون كاهن مدين وعلمه كيف ينظم أمور جماعته وكيف يكون موقعه منها ، وكيف يفصل في الخصومات[1] .

ثم تحرك بالجماعة بمحاذاة طريق القوافل جنوبا إلى موضع العقيق ، وحاول الصعود بهم بمحاذاة الطريق نفسه إلى بلاد غامد ، لكن الكنعانيين الساكنين هناك صدوهم ومنعوهم ، وكذلك فعل الأموريون ، ثم وصلوا إلى عربات مؤاب مقابل جبل أورخ (أردن أريحا) ، وهناك عبروا الجروف ، ومخاضات السيول إلى أورخ (يرخو ، ودعيت بالترجمة أريحا) بقيادة يشوع وذلك جنوب الباحة من بلاد غامد .

21 ـ إن كلمة " ملك " كانت تطلق على كل من يتزعم عصبة من الناس ، أو قرية ، أو عشيرة ، أو حي من عشيرة . و لم تكن " مملكة داود " في عنفوان " مجدها " تتخطى هذا المفهوم للكلمة . وفي عهد سليمان لم يغادر بنو إسرائيل مضارب خيامهم في هذا السفح أو ذاك حول هذه القرية أو تلك بين السكان الأصليين و لم يتمكنوا من تجاوز بداوتهم ويندمجون بالعرب الزراعيين الآخرين في المنطقة . وإن ما دعي بـ" مملكة داود أو سليمان " لم تتجاوز مفهوم السيطرة بالوكالة على مجموعة من القرى على طريق

(1) خروج 18 : 8 ـ 24 .

القوافـــل والتجارة الدولي الذي يمر في القسم الشرقي من بلاد غامد وزهران في المنطقـــة الغربية من شبه جزيرة العرب .

22 ــ إن كل الدور الذي طمح إليه بنو إسرائيل أيام داود وسليمان هو أن يتمكنوا من أن يرتفعوا بقواهم الذاتية إلى مستوى يؤهلهم للقيام بـــــدور العمالـــة للآشـــوريين أو للمصرين (بنى مصرايم) في غرب زهران ، فيقومون على حراسة ممر القوافل ، وجبايـــة الأموال عن كل البضائع الجائزة في تلك الطرق ويقدموها بنسبة معينة لهذا الجـــــانب أو ذاك . وإن اللعب بين القوتين العربيتين الكبريين آنذاك ســـوريا ومصر وادي النيل مـــن أجل المحاولة بالانفراد في الهيمنة على خط القوافل الحيوي لسوريا بصورة خاصة أدى إلى تصفية دورهم نهائيا في تلك المنطقة الحساسة واستبدال ســـكان عرب آخرين من المنطقة ذاتها بهم بعد أن تم نقل كثير منهم ومن بني مصرايم إلى بابل المحطة علـــــى يـــد الملـــك السوري نبوخذ نصر .

إن من جملة أسباب فشل العرب الاسرائيليين في القيام بذلك الـــدور هو درجة تخلفـــهم القاسية عن النمط المعيشي للسكان الذين تجاوزوا مرحلة التجمع القبلي بزمن طويـــل ، وصارت كل قرية تعبيرا عن نمط معيشي لا عن أحد فروع القبائـــل . لقد رأينا كيـــف كانت قريـــة أربع (حبرون) التي رحبت بإبراهيم الآرامي حثيـــة في أحـــد النصـــوص التوراتية . بينما نجدها في نص آخر أموريـــة " فاجتمع ملوك الأموريين الخمسة ملـــك أورشليم ، ملك حبرون ، وملك يرموت ، وملك لخيش ، وملك عجلون " (يشـــوع 10 : 4) . وكذلك الأمر بالنسبة لقرية أورشليم التي كان أبوها آموريا وأمها حثية على حد تعبير التوراة .

23 ــ إن " التوراة " بكل محتوياتها هي نتاج عربي ، بقصصها ، وأدبها ، وأشـخاصها ، وأبطالها ، وجغرافيتها وعلى المثقفين العرب أن يعمدوا إلى دراســـتها وتنقيتها من كـــل عمليات الخلط والتبديل والتزوير ، وإرجاع كل نص إلى أصله بدءا من نظرية التكوين ، ومـــرورا بقصة الطوفـــان ، ثم بالأمثال ، وبالحكم ، وبالأناشيد ، وبقصـــة أيـــوب ، وبالأنساب ، وبالمزامير ، التي هي في مجملها تراث عربي سوري ، وقد اكتشفت أصولهـا

القديمة كلها سواء في مكتبة أوغاريت أو في مكتب آشور بانيبال ، أو من خلالها الألواح التي اكتشفت عليها ملحمة جلجامش بما فيها قصة الطوفان . وإن إعادة هذا التراث إلى موقعه الحقيقي من التراث العربي ، ودراسته ضمن إطاره الصحيح مهمة قومية وعلمية تقع على عاتق جيلنا اليوم ، ونقصد بـ" إطاره الصحيح " الإطار التاريخي والجغرافي والثقافي معا . أما اليهودية فهي دين وليس ليهود العالم أية علاقة بالنسب بعشيرة بني إسرائيل العربية الآرامية .

24 ـ لقد تميز الوطن العربي السوري بوحدة الأرض ، والشعب ، واللغة (بلهجاتها الثلاث) ، والديانات ، والفكر ، والأسطورة ، كما نعم لفترة طويلة جدا ، لم تتوفر لغيره في ذلك الزمن ، بوحدة نظام الدولة الاقتصادي ، والضريبي ، والحقوقي ، والسياسي ، والقانوني ، والعسكري منذ الألف الثالث قبل الميلاد . وإن كانت بوادر الدراسات الأولى لمكتشفات " عبلا "(إيبلا) تدل على شيء ، فإنها تدل على وحدة هذا الشعب ، وبعده منذ آماد طويلة عن أشكال التجمع القبلي . إن مجموعة الآباء العرب المقدسين في إيبلا التي ضمت جميع الأباء من كل أطراف الوطن العربي السوري لأكبر دليل على وحدة هذا الشعب ، وبعده عن التعصب القبلي . إن نظرة واحدة نلقيها على نظام الأعياد الرسمية فيها تبين لنا مدى تمسك سكانها بوحدة جميع الآباء العرب المقدسين الذين يتمجدون فيها كما يتمجدون في كل بقاع الوطن ، وإن تخليدهم عن طريق الاحتفال بذكرى لكل منهم كان أحد التقاليد الرائعة التي امتاز بها العرب السوريون في سبيل تمجيد آبائهم المتفوقين كما سبق أن شرح ذلك كل من سانخونياتن وملك وفيلون الجبيلي .وإن أي فهم لهذه الظاهرة خارج هذا النطاق فيه من الخطأ والإجحاف بحق هذا الشعب الكثير .

وهذه صورة عن بعض أولئك الآباء الممجدين في " إيبلا " الذين ما ينفك الدارسون ـ للأسف ـ يعتبرونهم آلهة حقيقيين ، جريا على ما درج عليه غيرهم من ذي قبل :

أداما ـ وهو آدم ، تقدس في سوريا كلها بما فيها منطقة الهلال الخصيب وشبه جزيرة العرب .

أدومتوم ــ السيدة أدمة (أدماء) ، قد تكون زوجة آدم ، أو حواء ، جرى تقديسها في سوريا كلها .

عمو ــ وتعني أبو القبيلة ، في الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

حدد ــ في كل بقاع الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

آنو ــ (عانو ، عان ، عين) في الهلال الخصيب كله حتى وادي النيل ، وفي شبه جزيرة العرب . وما تزال كثير من القرى والجبال مسماة باسمه في شتى البقاع والمناطق .

إيل ــ (أل ، عل ، كرونو ــ قرون ، أبو السنين، السيد العلي) في الوطن العربي كله.

بردو ــ في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

دجن ــ في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

دينجر ــ في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

انكي ــ في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

دامو ــ في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة ويرجح أن آدم سمي باسمه ، إذ إن اسم آدم يعني مقام السيد دم (الذي هو دامو) أو بيته أو ابنه ..

نيد أكول ــ في منطقة الهلال الخصيب كله وشبه جزيرة العرب . ولا يزال بين زهران والطائف جبل الكلب النعد حيث ينبع نهر الليث (أو الكلب) يحمل اسمه حتى اليوم .

عيلام ــ في الجناح الشرقي وشبه الجزيرة .

كاميش ــ في جوف شبه جزيرة العرب .

كوشار ــ في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

رشف ــ في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

اوتو ــ في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

بعل ــ في منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة .

وإذا نظرنا إلى الكلمات الواردة في أحد النصوص المكتشفة في وثائق إيبلا منذ الألف الثالث قبل الميلاد لتبين لنا كيف أن الاختلاف بين اللهجات العربية السائدة اليوم يزيد كثيرا ، رغم كل وسائط النقل والاتصال ، عن الاختلاف مع لهجة إيبلا القديمة .

من كيا ؟ من كيا، من مثل ايا ؟

من ك ايل : من ك ايل ، من مثل ايل ؟

اسماعيل : اسماعيل

حيره : منزله ، بستانه . ما تزال تستخدم في الساحل السوري إلى اليوم .

راعينا حدد : راعينا حدد

آدم ملك : رجل ملك

دبيحة ملك : عبد أضحى الملك

عبد ـــ سب : عبد الرحم ، الأم

هو أب : هو أب

يد دامو : يد الرب دامو

البكر : الابن البكر

تدبيرو : تدبير

يدو : يد

أكلم : أكل

نفستم : نفس ، حياة ، روح

أم : أم

كلماتو : كلمات ، مزاح ...الخ

"ولقد أبانت مكتشفات إيبلا الأمرين التاليين :

آ ـــ إن سكان هذه المملكة هم قوم يتكلمون بدوات اللغة العربية الحديثة .

ب ـــ إن هذه المملكة كانت زاهرة ومتقدمة وكان لها علاقات واسعة تجارية وسياسية مع أكاد وآشور وماري ومع مدن سوريا الداخلية والساحلية . وكان لها نفوذ سياسي أحيانا على ماري وأكاد "[1] .

(1) الدكتور عفيف بهنسي ، "وثائق إيبلا" ص140 .

25 ــ إن تسمية الفينيقيين ــ ككل التسميات العربية ــ ينبغي ألا يبحث عن أصلها عند الشعوب الأخرى وإنما في المعاجم والقواميس العربية وبين الآباء العرب المتميزين الذين هم بعض العرب السوريين ، سكان الوطن السوري القديم . والكلمة من الفعل " فنق " أي تنعم ، ترفه ، عاش عيشا راغدا .

26 ــ إن كل ما يذكره المؤرخون عمن دعوا بــ"الهكسوس" يثبت حقيقة واحدة ، هي أنهم ليسوا إلا مجموعة من السكان العرب المحليين من بلدة الصوت في شرقي بلاد زهران ، زحفوا بقيادة أمرائهم واستولوا على أراضي المصريين (مصرايم) في المنطقة الجنوبية من زهران نفسها ، فكان ذلك ردا على اجتياح مناطقهم ومدنهم الشرقية على يد" أحمس " و"عوني" قائد جيش "بيبي " الأول الذي رفع من شأن المصريين في المنطقة . وإن ما نسب إليهم من الحضارة لم يكن إلا جانبا من جوانب الحضارة العربية ككل في ذلك الزمن . وإذا كانت مصر وادي النيل قد شهدت تقدما في كثير من مظاهر الحضارة وجوانبها في تلك الفترة فليس يعني أن ذلك كان بفضل حكم الهكسوس . فالهكسوس لم يدخلوا مصر وادي النيل ، و لم يتجاوزوا أرض المصريين في غرب زهران ، وفي ظل ملوكهم عمل يوسف بن يعقوب في جمع القمح للملك (فرعون) من بيادر الفلاحين لا في مصر وادي النيل . ولقد أجمع المؤرخون والنسابون والأخباريون العرب على أن ملك مصر أيام يوسف بن يعقوب كان الريان بن الوليد وأن فرعون موسى كان قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن الليث بن حاران بن عمرو بن عمليق (وهو عريب) ، وأن زوجته كانت آسيا بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد بن ثروان بن اراشة ابن حاران بن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح .

27 ــ إن هذا من شأنه أن يحفز الباحثين ، والمشرفين على شؤون الآثار في قطرنا ، على توجيه منحى الدراسات والبحوث في الاتجاه الأصيل الصحيح الذي يعكس وحدة المنطقة الحضارية ، ومن أجل أن يتخلوا عن تلك النظرة التقليدية العقيمة الشوهاء لحضارة المنطقة ، التي اعتادوا مع المستشرقين أن ينظروا إليها من خلال "حضارة " البقعة ، التل ، والمدينة ، والقرية ، المكتشفة وضمن حدودها فقط . إن تقديس هؤلاء

الآباء العرب جميعا الذي يغطون ساحة الوطن العربي القديم في إيبلا* من شأنه أن يدفع أولئك الدارسين والباحثين إلى افتراض وجود العلاقات بين إيبلا وكل المدن العربية المعروفة آنذاك ، ولاسيما ما يقع منها على طريق القوافل التجاري الدولي في غرب شبه جزيرة العرب . إننا من هذا الباب ومن هذا الفهم بالذات لواقع المنطقة الحضاري ، لا نستغرب أبدا أن تكون مدون وردت في مكتشفات إيبلا أمثال كركميش ،وحاران ، وزهر ، وابشو ، ولبان ، وأشار (ربما ــ بني سار).. وغيرها ، هي فعلا على طريق القوافل الدولية في غرب شبه جزيرة العرب التي كانت بمثابة الشريان التجاري الرئيسي للمنطقة الداخلية بأسرها ويجدر البحث عنها في تلك المناطق قبل أي مكان آخر .

* انظر كتاب "ايبلا ــ عبلاء " ترجمة قاسم طوير ، ص 99 ــ 101 .

المراجـع العربيـة

1. ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق " ، 1982 .
2. أسد الأشقر ، " الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ، ونشوء العالم .
3. أسد الأشقر ، " تاريخ سوريا "، 1978 .
4. ابن الكلبي ، كتاب الأصنام ، تحقيق أحمد زكي ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ، 1965 .
5. أدولف إرمان ، " ديانة مصر القديمة " . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .
6. ابن الأثير ، " الكامل في التاريخ " دار الكتاب العربي ، بيروت 1983 .
7. ولتر أوندري ، " آثار هيكل عشتار القديم في آشور " ليبزغ ، 1922 .
8. حمزة الأصفهاني ، " تاريخ سني الملوك " طبعة بيروت ، 1961 .
9. جاك بيران ، "حضارات قديمة"
10. جايمس هنري بريستد ، " تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي " .
11. بارتون ، "نبذة عن الأصول السامية " .
12. الدكتور وديع بشور ، " الميثيولوجيا السورية " ، مؤسسة فكر ، 1981 .
13. أندريه بارو ،" ماري " ، ترجمة د . رباح نفاخ ، دمشق 1979 .
14. جايمس هنري بريستد ،" العصور القديمة " ،ترجمة داود قربان ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت 1983 .
15. البطريرك أفرام الأول برصوم،"اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية".
16. سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، للبغدادي ، بيروت .
17. الدكتور وديع بشور ، " سومر وآكاد " دمشق ، 1981 .
18. الدكتور عفيف بهنسي ، "وثائق إيبلا" ، دمشق ، 1984 .

19. أرنولد توينبي،" تاريخ البشرية"،ترجمة نقولا زيادة،الأهلية للنشر والتوزيع ، طبعة ثانية ، 1983 .
20. تشايلد ، "الشرق القديم ، طبعة عام 1964 .
21. ثوركيلد جاكوبسن،الصراع المزعوم بين السومريين والساميين في تاريخ ما بين النهرين القديم " ، مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية ، عدد 59 ، 1939 .
22. ثوركيلد جاكوبسن ،"الأصول البشرية " ، دراسة تمهيدية عامة في الانتروبولوجيا ، سلسة القراءات المختارة رقم 2 ، شيكاغو 1946 .
23. غوستاف جيلي ، " تاريخ المدينة المصرية " .
24. فيليب حتي ، " تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين "،ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة ، بيروت 1982.
25. فيليب حتي ، "خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى".
26. نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الأغريق ، ترجمة وتعليق يوسف الحوراني .
27. حسين عمر حمادة ،"مخطوطات البحر الميت" ، دار منارات للنشر عمان 1982
28. ياقوت الحموي ، "معجم البلدان "
29. دريني خشبة ،"أساطير الحب والجمال عند اليونان "، دار أبعاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1983 .
30. ول ديورانت ، "قصة الحضارة " ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، 1949
31. الدكتور محمد عزة دروزة ، "تاريخ الجنس العربي"، المكتبة العصرية ، صيدا وبيروت ، 1959 .
32. الدكتور محمد عزة دروزة ، " العرب والعروبة" " ، دار اليقظة العربية بدمشق . 1959
33. الدكتور محمد عزة دروزة ،" اليهود في القرآن الكريم" ، "دار الجليل، 180 .

34. الأب جرجس داود داود ، "أديان العرب قبل الإسلام " ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ،1981 .
35. الدكتور عبد العزيز الدوري ، " التكوين التاريخي للأمة العربية ، بيروت 1984
36. سهيل ديب ، " التوراة بين الوثنية والتوحيد " .
37. زاكية محمد رشدي ، "السريانية نحوها وصرفها " رسالة دكتوراه في جامعة القاهرة .
38. بيير روسي،"مدينة إيزيس،التاريخ الحقيقي للعرب"،منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق 1980 .
39. أحمد وصفي زكريا "عشائر الشام "، 1 ـــ 2 دار الفكر ، 1983 .
40. الدكتور أحمد سوسة ، "ري سامراء" .
41. الدكتور أحمد سوسة ، "مفصل العرب واليهود في التاريخ ".
42. الدكتور أحمد سوسة ، " فيضانات بغداد في التاريخ ".
43. لقيان السميساطي ، "الإلهة السورية " .
44. الدكتور توفيق سلمان،"نقد النظرية السامية".الجزء الأول،داردمشق للطباعة والنشر ، دمشق ، 1982 .
45. صفية سعادة ، " أوغاريت "، مؤسسة فكر ، بيروت 1982 .
46. قاسم الشواف ، "مع الكلمة الصافية " .
47. مصطفى الشهابي ، " القومية العربية ".
48. الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي ، " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " مكتبة الأنجلو المصرية ، 1980 .
49. الدكتور هشام الصفدي ، " تاريخ الشرق القديم "، الجزء الأول ، مطبعة طربين 1984 .
50. الدكتور كمال صليبي ، " التوراة جاءت من جزيرة العرب" ، جريدة القبس الكويتية ، من العدد 4805 تاريخ 1985/1982 وما يليه .

51. تاريخ الطبري.
52. الطبري ، تفسير الطبري ، المطبعة الميمنية ، القاهرة .
53. الدكتور محمد أسعد طلس ،/ "تاريخ العرب"، دار الأندلس ، 1979 .
54. الدكتور جواد علي ، " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسـلام "، دار العلـم للملايين ، بيروت 1969 .
55. نبيه عاقل ، " تاريخ العرب القديم وعصر الرسول " ، جامعة دمشق 1968 .
56. العقيقي ، " المستشرقون .
57. شوقي عبد الحكيم ، " الفولكلور والأساطير العربية". دار ابن خلدون. بيروت ، 1978 .
58. مار أغناطيوس زكا الأول عيواص "سيرة مار أفرام السرياني " .
59. محمد الصغير غانم ،"التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط" .
60. الدكتور محمد حرب فرزات،" موجز في تاريخ سورية القديم "، المطبعة الجديـدة دمشق 1983 .
61. الدكتور محمد حرب فرزات ، "محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ".
62. هنري فرانكفورت ، "فجر الحضارة في الشرق الأدنى "، ترجمة ميخائيل خوري، منشورات دار مكتبة الحياة .
63. سيغموند فرويد ، "موسى والتوحيد " الترجمة العربية .
64. الدكتور أنيس فريحة ، "دراسات في التاريخ " ، دار النهار ، بيروت ، 1980 .
65. جورج كونتنو ، " الحضارة الفينيقية " .
66. الدكتور جاك كوفان ،" الوحدة الحضارية في بلاد الشام " ، تعريـب قاسـم طوير، مطبعة سورية ، دمشق ، 1984 .
67. صموئيل نوح كريمر ، " أصل المجتمعات المتحضرة "، ترجمة لمعي المطيعي ، الدار القومية للطباعة والنشر .
68. غوستاف لوبون ، " الحضارة المصرية " .

69. لورنس ، " أعمدة الحكمة السبعة " .
70. ميديكو ، "اللآليء من النصوص الكنعانية "، ترجمة مفيد عرنوق ، دار الفكر ، بيروت ، 1980 .
71. باولو ماتييه ومجموعة من الباحثين ،"إيبلا ــ عبلا" ، ترجمة قاسم طوير ، مطبعة سورية ، دمشق ، 1984 .
72. م.ا.ل.مالوان ، " حفريات في براك ".
73. المسعودي ، " مروج الذهب ومعادن الجوهر ".
74. الدكتور أ. مورتغات ، "تاريخ الشرق الأدنى ".
75. عبد الوهاب النجار ، "قصص الأنبياء "، دار الجيل ، بيروت ، 1985 .
76. ب .ب هوويل، " مجلة الإنسان " ، عدد 144 ــ 1947 .
77. صموئيل هنري هووك ، " منعطف المخيلة البشرية " ، ترجمة صبحي حديدي ، دار الحوار ، اللاذقية ، 1983 .
78. هوميروس ، "الإلياذة " .
79. ولنفسون ، " تاريخ اليهود في بلاد العرب " .
80. الدكتور ولنفسون ، " تاريخ اللغات السامية " .
81. جان وولف ، " يقظة العالم العربي " .
82. التوراة .
83. دائرة المعارف البريطانية ، 1965 .
84. مجلة العربي ، العدد 328 ــ مارس (آذار) ، 1986 .
85. القاموس الكلداني العربي ، المطران يعقوب أوجين منّا .
86. الدكتور يولي بركوفيتش تسيركين ، الحضارة الفينيقية في إسبانيا ، ترجمة الدكتور يوسف أبي فاضل ، بيروت 1988 .
87. مجلة الحوليات الأثرية في سوريا .

المراجــع الأجنبيــة

1. C. Autran , " Pheniciens", Paris .
2. Apuleius , " The Golden Ass" , translated by R. Graues , Penguin , London 1980
3. F . Bradel , " The Mediterranians and the Mediterranian World" , (Eng. Tr .from French , 2nd ed .)London , 1971 .
4. G . Bonfante , " The Name of the Phoinicians ". Claccical Philosophy . Vol XXXVI .
5. A. Berthalet , "Histoire de la Civilization d'lsrael" , Fr. Tr
6. Bulletin , "American Schools of Oriental Research " No 99 .
7. J.H .breasted , "Development of Religion and Thaught in Ancient Egypt .
8. G.A.Barton , " Archaeology and the Bible ".
9. J. Breasted , "Ancient Records ".
10. J .Breasted , "The Eduin Smith Surgical Papyrus" , 2 vols (Chicago , 1930)
11. Claude R.Conder, "Cupian Stone- Lore" . London .
12. Carleton S. Coon ,"The Races of Europe" .
13. Alberet T.Clay , "Amuru ; The Land of the Northern Semites ; "The Empire of the Amorites".
14. Childe , " Ancient East" .
15. V.A.Cooke , "Phoinicians", Enc .Br.1965 .
16. Conteneau, "Civilization d'Assur et Baby lone", Paris 1951.
17. Couvin, Jaques. Religions Neolytique, Centre de Recheaches d' Ecologie et de Prehistoire , Paris 1972 .
18. Childe , "de la Prehistoire' L'Histoire".
19. Campell , J." Primitine Myth ology , "enguin Books , London , 1977 .
20. Cauvin, Jacques , Les Primiers Villages se Syrie-Palestine, Maison de L'Orient ,Lyon , 1978 .
21. G.R.Driver , "Hebrew Language" , Enc .Br . 1965 .

22. James Frazer , "The Golden Bough " , New york , 1971 .
23. A.Grohmann, "The Arabs" ,The Ens .of Islam ,New ed .
24. F.Guirand , "Greek Mythology"
25. H.R.Hall, "The Ancient History of the Near East " ,8th ed .(New York).
26. Herodotus .
27. Keller , "the Bible as History ", 1957.
28. L.W.King , "Egypt and Western Asia the Light of Recent Discoveries" .London .
29. Kramer , S.N "History begins sumer ", Doubleday , New york , 1959 .
30. Kramer , S.N "Sumerian Mythology", Harper and Row , New York , 1961 .
31. Diogenus Haertius , " Lives of Eminent Philosophers " , tr .R .D.Hicks, (London) .
32. Lods , "Israel " .
33. Moor , Andrew, " North Syria in Neolythic in Prehistoire de Levant", CNRS, Paris , 1981 .
34. Khaled Mohieddine, Temps Modernes.
35. S.Moscati , "Ancient Semetic Civilization ", London , 1957 .
36. O.Maspero , "Dawn of Civilization".
37. Piere Mantet : les Reliques de l,Art Syrians dans l'Egypt de Nouvel Empire , Paris, 1937 .
38. S.A.BMerces,The Tel-El-Amarna Tables",Toronto .No60
39. Lewis B.Patan , "The Early History of Syria and Palestine", NewYork
40. T.Eric Peet,"The Rhind Mathematical Papyrus", (london,1923)
41. Armo Poebel , "History Texts"
42. Ricciot ,"History d'Israel"
43. Rogers,Cuneiform Parallels to the Old Testament,1942"
44. Strabo ,"Geography".
45. Schaeffer,"Ugaretica".
46. Smith ,"Historical Geography"
47. R.B.Smith,"Carthage and the Cartaginians".

48. Carlc.Seletzer ,"the racial characteristics of syrians and armanians".
49. A.smith ,"staats wissenschaftliche beitrage. Die Sumerische templestadt",N4,1920.
50. Ellen c.semple , :the geography of the Mediterranian Region".
51. W.w.taru ,"hellenistic and naval development"
52. Vincent,"canaan d'apres l'explotation recente'.
53. W.h.ward, "the seal cylinders of westerm aria ",1910.
54. A.wheeler , "pre-historic india"1952.
55. Woolley , c.l."the sumerians".
56. The complete works of josephus bu w.whiston.
57. L'orient-le jour 6X.1974.

و.ف فافيلوف وسيمنتوفسكس ، "سوريا" الطبعة الروسية ، موسكو ،1975 .



فهرس

الفصل الثالث

الوطن العربي السوري

1 ـــ الجناح الشرقي

الفصل الرابع

الوطن العربي السوري

الفصل الخامس

الوطن العربي السوري

الفصل التاسع

الدولة العربية السورية بعد حمورابي

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

التمهيد للحياة الإنجيلية

الفصل الثاني عشر

الشعب العربي السوري

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر